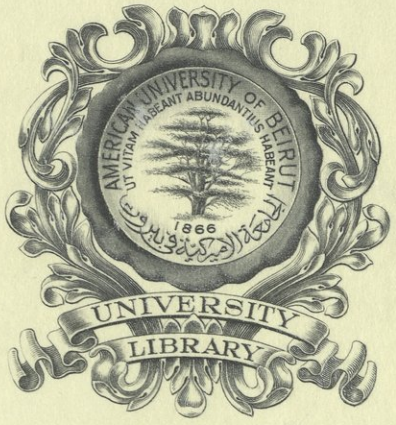
AUB Libraries

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



جامعة الدول العربية
الأمانة العامة
إدارة الشئون الاجتماعية والعمل
309.56
J32 hA
v.6
pt.1
c.1

حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية

كتاب الدورة السادسة

١٨ - ٢٦ يوليو (تموز) ١٩٥٩

بنغازي - طرابلس

البيت العربي

المجلد الأول

أعمال اللجنتين الأولى والثانية

الى صفحة ٦٤٨

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

استدراك

وقعت بعض الاخطاء المطبعية التى لم يتداركها التصحيح عند المراجعة النهائية وهى وان كانت لا يمكن ان تفوت القارىء .. الا أننا نجد أنه من الخير تسجيلها هنا لتصحح قبل البدء فى قراءة الكتاب وشكرا .

صفحة	سطر	كلمة	خطأ	صواب
ى	١٣	١٢	رؤى	رئى
ى	٢٣	١٢	وخبراؤها	وخبراءها
٥	٨	١٥	١٣	٢٣
٣٢	١٢	٤	بوءة	بوده
٧٤	٩	١١	اليها	الينا
٧٤	١٣	٥	الحرنه	الحرية
٧٤	١٧	١	الحسدية	والجسدية
٧٤	٢٩	١٦	القائل	القائد
٧٤	٢٩	١٨	يموستكلنس	تيمو ستكليس
٨٠	١٨	٥	تنميه	تقيمه
٩٣	٢٥	١٠	زاتية	ذاتية
١٠١	٥	٤	ذر	زهرة
١١٢	١٦	١	البيوت	بيوت
١٢٠	١	١٧	المدينة	المدنية
١٢٠	٦	٨	حلة	صلة
١٢٠	٢٦	١٦	المراقهة	المراهقة
١٢٢	٢٣	١١	مؤسسو	مؤسسى
١٤٥	٨	١٢	الولدان	الوالدان
١٥٩	١٩	٢	بالامكان	بالأمان
٢٥٦	٢٦	١٠	تأثيرها	تأثرها
٢٧١	٨	١	وبد	وبعد
٢٨٧	٢٦	١٣	سمر	سمو
٢٩٣	١٠	٨	الى	الا
٢٩٨	٢١	٤	قرية	قربه
٣٢٧	١٩	٣	ثوب	ثوبا
٤١٨	٧	٧	تكاليفا	تكلفة
٤٢١	٢٣	٣	فقد	فقر
٤٧٧	٩	٣	أيها	أيتها
٤٩٣	٢٦	٣	التنفيذ	التنفيذية
٧٠١	٨	٢	حتى	متى
٧٠٢	٣	٢	يجمل	يجعل
٧٠٤	٢٥	٧	بعدو	يعود
٧٩٣	٣	٦	منهما	بينهما
٨٢٩	١٧	١٦	مؤؤن	مؤمن
٨٨٦	١	٤	الأصلية	الأصيلة
٨٨٦	١	٦	الداخلية	الدخيلة

تصدير

للسيد الأستاذ محمد عبد الخالق حسونه
الأمين العام لجامعة الدول العربية

من أهم عناصر القوة فى مجتمعنا العربى ما يتميز به من نظم أصيلة وطابع فريد حفظ له مكانه الخاص بين المجتمعات الإنسانية على مر العصور . ولقد تمثلت أصالة النظم الاجتماعية العربية فيما أصبحنا نسميه « البيت العربى » . ذلك أن الأسرة بمعناها الضيق ومفهومها الحديث فى مختلف الجماعات كانت تتألف من الأب والأم والولد ، ولكنها بمعناها العربى كانت تمتد لتشمل البيت كله ، حتى لقد أصبح الوالد فى المفهوم العربى هو رب البيت ، أكثر مما هو رب الأسرة بمدلولها المحدود . ولعل السر فى ذلك أن المجتمع العربى حين انتقل من القبيلة المرتحلة إلى الحياة المستقرة احتفظ بالشىء الكثير من روابط القربى بين أفراده ، فلم تستطع حالة الحضارة أن تحلل المجتمع إلى عناصر ووحداته الأسرية الصغيرة ، كما حدث لأغلب المجتمعات الأخرى ، وإنما ظهر البيت العربى ، وصار له كيانه الذى يقع بين كيان القبيلة أو العشيرة من جهة ، وكيان الأسرة الصغيرة من جهة أخرى .

فالبيت فى مفهومنا هو صورة كل وحدة من وحدات القبيلة حين تستقر لحين أو تستوطن بصفة دائمة . وقد يكون ما تفرد به المجتمع العربى أنه مجتمع يربط فى حياته بين أصول البادية ومقتضيات الحضر . فالكثير من الجماعات العربية المستقرة لا تزال ترى أصولها فى البادية قبل أن تنتقل إلى أرض الزراعة والاستقرار أو قبل أن تنتقل إلى السواحل لتتخذ منها مرافىء للعمل والامتداد بالنشاط العربى والحضارة العربية إلى ما وراء البحار .

وقد يكون من بين ما تفرد به المجتمع العربى أيضاً أنه استطاع على الرغم من توسطه للعالم أن يحتفظ بطابعه المميز فى نظمه الأصيلة فى القبيلة والبيت . فهو إن كان قد تأثر بالتيارات الإنسانية والحضارية التى عبرت بلاده أو لامست شواطئها ، فإنه إلى جانب ذلك لم يفقد أصالته ، ولم يدع الاقتباس الاجتماعى يطغى على أصوله أو يصبغ ملامحه بصبغة غير عربية . وهو إن كان لم يتعصب فى يوم من الأيام للون أو جنس ، ولم يستشعر مركبات النقص التى جعلت سلالات البشر يقاطع بعضها بعضاً ، فإنه مع ذلك كله كان على الدوام يحتفظ بمعنوياته التى لا تذوب ، وبقيمه الروحية التى لا تندثر ، ونظمه الاجتماعية ومثله العليا التى لا تطغى عليها الأيام . ومن هنا جاء احتفاظ البيت العربى بسماته الواضحة المميزة رغم تعاقب الأزمان ، وجاء هذا الطابع العربى الخالد للجماعات العربية فى كل مكان .

وإذا كانت حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية قد خصصت دورتها السادسة لدراسة موضوع «البيت العربى

فإنها قد أحسنت صنعاً ، لأن الناحية الأكاديمية الخالصة لهذا الموضوع الطريف تستحق أن تفرد لها مثل هذه الدورة ، وأن يتناولها الباحثون العرب وخبراء الدراسات الاجتماعية بالبحث والتحليل خلال الفترة التى انقضت بين الدورة الخامسة بعمان فى عام ١٩٥٦ ، والدورة السادسة ببنغازى فى عام ١٩٥٩ . ثم أن مثل هذه الدراسة لها من أهميتها الكبرى من الناحيتين العربية القومية ، والعالمية الإنسانية . فأما عن الناحية القومية فإن العرب فى مرحلة تطورهم السياسى والاجتماعى وانتقالهم إلى الحياة الجديدة ، هم بحاجة إلى أن يتعرفوا مجتمعهم العربى الأصيل تعرف الباحثين الدارسين الذين يتفهمون أصول الحياة فى منابعها ، ويتابعون معالمها الأصيلة فى حرم بيتهم العربى .

وإن مثل هذه الدراسة لترد إلى العرب ثقتهم بأنفسهم وبمجتمعهم ونظمهم العربية الأصيلة ، وتقوى من إيمانهم بقدرة هذا المجتمع على أن يطور نفسه ويساير الحياة الجديدة من حوله ، دون أن تتعرض أصول حياته إلى ما تعرضت له مجتمعات أخرى كانت أقل منه أصالة وأضعف قدرة على أن تواجه ما حولها من أحداث سياسية واجتماعية متغيرة .

وأما عن الناحية الإنسانية والعالمية فإن الأمة العربية قد عاشت تاريخها كله من أجل نفسها ومن أجل الإنسانية فى وقت واحد . وهى بحمد الله قادرة أبداً على أن تعيد سيرتها الأولى ، وعلى أن تضرب لغيرها من شعوب الأرض أروع الأمثال على الاحتفاظ بما فى التراث الأصيل من خير ، وعلى الأخذ فى الوقت نفسه بسنة الحياة فى التغير والتطور . وإذا كان كثير من الشعوب قد قاسى من أزمة التطور ، فأصاب نظمه قدر قليل أو كبير من الاضطراب وهو يمر فى مرحلة الانتفاض والبعث الاجتماعى ، فإن الشعب العربى بفضل ما آتاه الله من الحيوية والقدرة على الانبعاث وتجديد الحياة قادر على أن يكون القدوة الصالحة لغيره من الشعوب فى سبيل النهوض الاجتماعى والبعث العامر بكل ما هو حق وخير فى الحياة .

من أجل هذا كله يسر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية أن تقدم اليوم حصيلة العمل العلمى والدراسة المستفيضة لموضوع البيت العربى كما درسه العلماء والخبراء العرب والعالميون خلال سنوات ثلاث ، ثم كما عرضوا له وناقشوه فى اجتماع الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية . ولعل هذا الكتاب أن يضيف ذخيرة جديدة إلى مجموعة الأسفار التى نشرتها إدارة الشئون الاجتماعية بالأمانة العامة عن دورات الحلقة السابقة . بل لعل الباحثين من أبناء العروبة وغيرهم أن يجدوا فى هذه الدراسات والبحوث معيناً يرجعون إليه فى كل ما يتصل بمجتمعنا العربى الأصيل الجديد .

وإن الأمانة العامة لتشكر جميع من ساهموا فى إعداد هذه الدراسات ، راجية أن يجدوا فيما يترتب عليها من نفع للأمة العربية وللعلم والمعرفة ما يتيح لأنفسهم بعض الرضا عما قاموا به من واجب نحو العلم ونحو الوطن .

وتتقدم الأمانة العامة بشكرها الخالص لحكومة المملكة الليبية المتحدة وسلطاتها وهيئاتها على ما تفضلوا جميعاً به من رعاية لهذه الحلقة وما بذلوه من جهد كبير مشكور فى سبيل تنظيم أعمالها ، فقد تجلى الكرم العربى

التقليدى فى أروع صوره ، وامتدت مظاهر الرعاية الحكومية والشعبية لتحقق لهذه الدورة كل ما كانت تستأهله من نجاح .

ولقد سر الأمانة العامة أن يتصل فى هذه الدورة ما حرصت عليه الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة من مشاركة فى أعمال الحلقة ومساهمة الخبراء واشتراكهم فى المناقشات العلمية على نحو انطوى مرة أخرى على الاعتراف بأن الدراسات المتصلة بالمجتمع العربى تستحق أن تفرد لها مثل هذه الحلقات فى المجال الدولى ، اعترافاً من الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة وسائر الهيئات الدولية بوحدة المجتمع العربى ومكانته الكبيرة ، ودوره الخالد فى بناء الحضارة الإنسانية عامة .

على بركة الله ، وبمشيئته الكريمة ، نقدم هذا الكتاب لأبناء العروبة ، ولقراء العربية ، فى كل مكان .

والله ولى التوفيق .

* * *

مقدمة
للأستاذ محمد حسن العشماوى

المشرف على إدارة الشئون الاجتماعية والعمل

تم عقد هذه الدورة بناء على دعوة حكومة المملكة الليبية المتحدة واستغرق اجتماعها من ١٨ — ٢٦ يوليو عام ١٩٥٩ فى بنغازى وطرابلس . وكان موضوعها (البيت العربى) .

وقد تميزت هذه الدورة بميزتين رئيسيتين :

الأولى — أن الأمانة العامة (إدارة الشئون الاجتماعية) هى التى احتملت وحدها العبء فى التحضير لها وإدارتها وتزويدها بمقومات النجاح سواء من الناحية الفنية أو التنظيمية، كما احتملت عبء تمويلها مع الدولة المضيفة التى ساهمت بجزء من النفقات لمواجهة بعض مقتضيات عقدها فى ربوع ليبيا .

والثانية — أهمية الموضوع الذى تناولته، إذ أنه قد تناول فى تفريعاته شتى جوانب البيت العربى من حيث الأسس والمقومات والمشكلات التى تواجهه والتشريعات والخدمات والبرامج الخاصة برعايته .

وتطلبت أهمية الموضوع ضخامة الاستعداد للدورة ، فتناوله مؤتمران من مؤتمرات خبراء الشئون الاجتماعية (الرابع والخامس) بالدراسة والبحث والمناقشة والتوجيه، وتقدم فيه زهاء تسعين بحثا من متخصصين فى شتى نواحى الموضوع كانت سند الدورة فى بحثها وفيما صدر عنها من توصيات .

كذلك دعت الأمانة العامة طائفة من الخبراء للاشتراك مع وفدها فى إعداد بعض بحوث الدورة وفى أعمال لجانها واجتماعاتها العامة . وقد روعى فى اختيارهم تنوع الدول العربية التى ينتمون إليها — بقدر الإمكان — لتمثيل وجهات النظر المختلفة التى قد تتأثر بالمقتضيات المحلية . (خبير من ليبيا وخبير من السودان وخبيران من الجمهورية العربية المتحدة)

وقد عينت الأمانة العامة مدير الدورة وأحد مساعديه والسكرتير التنفيذى لها والأول هو رئيس لجنة الشئون الاجتماعية الدائمة والخبير بالإدارة، والثانى هو مدير الإدارة ، والثالث أحد أعضائها، وبذا احتملت الإدارة عن طريق خبرائها وأعضائها عبء الإعداد والتنظيم والتوجيه والإشراف والمتابعة .

وتم اختيار وفد الأمانة العامة برئاستنا وعضوية السادة الأستاذ عبد المنعم خلاف مدير إدارة الشئون الاجتماعية

ومساعد مدير الدورة والأستاذ توفيق حسن وصفى السكرتير الثالث بالإدارة وسكرتير الدورة والدكتور ناصر الدين الأسد السكرتير الثالث بالإدارة الثقافية والأستاذ ابراهيم الملائكة الملحق الأول بإدارة البترول والأستاذ قاسم الخطاط الملحق الأول بإدارة الاستعلام والنشر . وقد روعى فى اختيار الوفد أن يضم عناصر من طائفة من الدول العربية لإتاحة الفرصة لتنويع اتجاهات البحث على ضوء شتى الاعتبارات البيئية فى المحيط العربى .

وأوفد الأستاذ توفيق حسن وصفى سكرتير الحلقة قبل عقدها بأسبوعين لكى يشرف على التنظيم النهائى لها ويتصل بالمسئولين فى الحكومة الليبية فى كل مامن شأنه أن يساعد على نجاح هذه الدورة التى تعتبر أول مؤتمر عربى عقد فى ليبيا فى مجال النشاط الاجتماعى . وقد قام بواجبه خير قيام وبذل من الجهد المتواصل ما جعل الإعداد للدورة كاملا من كل الوجوه على نحو شهد له بالكفاءة والإخلاص والجد .

وكان لأعضاء الوفد نشاط بارز فى أعمال اللجان والاجتماعات العامة والندوة التى عرض فيها الموضوع واتصل الجمهور بها خلال خمس ساعات وتكلم فيها رئيس وفد الأمانة العامة والسيد مدير الدورة والأستاذ عبد المنعم خلاف والأستاذ توفيق حسن وصفى والدكتور ناصر الدين الأسد، كما تحدث فيها خبيرا الأمانة العامة الدكتور محى الدين صابر والدكتور عبد الوهاب البراسى كل فى نطاق تخصصه فيما يتصل بتقديم الموضوع وذلك بجانب من تحدثوا من أعضاء الوفود الأخرى .

وكان للكلمات التى ألقيت فى هذه الندوة أثرها البالغ فى إجمال الموضوع وتوضيحه وإبراز أهميته وسعته وتنوع المشكلات التى تتصل به، كما كانت هذه الندوة وسيلة طيبة لتعريف القدين شهدوها من الشعب الليبى المثقف بأهمية هذه الحلقة فى نشر الوعى الاجتماعى وحسن توجيهه فى المحيط العربى .

وقد اشتركت فى الدورة من الدول الأعضاء كل من :

المملكة الأردنية الهاشمية . جمهورية العراق . المملكة العربية السعودية . الجمهورية العربية المتحدة . جمهورية لبنان . المملكة الليبية المتحدة . المملكة المتوكلية اليمنية .

واعتذرت كل من : جمهورية السودان وتونس والمملكة المغربية .

كما اشتركت فى الدورة الكويت والجزائر . وكذا الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة (هيئة الصحة العالمية مكتب العمل الدولى . اليونسكو . هيئة الزراعة والأغذية) وبعض الهيئات الإقليمية الأهلية .

وأتيحت الفرصة لجميع ممثلى هذه الدول والوكالات والهيئات المساهمة فى نشاط الحلقة ومناقشاتها ومداولاتها مما حقق تعاونا كاملا فى موضوع يعد من أخطر الموضوعات التى عالجتها دورات الحلقة المتتابعة .

وقد افتتح الدورة نيابة عن الملك المعظم سيادة وزير المعارف وشهد حفل الافتتاح ممثلون لجميع الهيئات

والشخصيات البارزة ، وتحدث فيه رؤساء الوفود التى حضرته . واشترك أعضاء الوفود جميعا فى جميع أعمال الدورة سواء منهم من شهد حفل الافتتاح أو من وصل بعده بقليل .

وقد توافر لهذه الدورة عدد من السيدات المشتغلات فى الميدان الاجتماعى وكان من الطبيعى أن يكون للمرأة فى هذا الميدان دور رئيسى فى هذه الدورة التى تعالج شئون البيت العربى الذى يعتبر بحق مملكة المرأة . . . فمثل جمهورية العراق ستة من المشتغلات فى الميدان الاجتماعى والصحى ومثل كلا من هيئة الصحة العالمية وهيئة الزراعة والأغذية سيدة كذلك ضم وفد الجمهورية العربية المتحدة سيدة من المشتغلات بالشئون الاجتماعية كما اشتركت فى الدورة سيدة ليبية مثلت ناحية من نواحى النشاط الأهلى فى الميدان الاجتماعى .

وقد كان موضوع الدورة يوحى بأن يأتى تمثيل المرأة فيها على نطاق أوسع ، ومع ذلك فتمثيل المرأة جاء — نسبيا — ملائما لعدد الذين اشتركوا فيها .

وأتيحت للأعضاء فرصة لزيارة ربوع ليبيا سواء فى ولاية برقة أو ولاية طرابلس، كما لقى الأعضاء حفاوة بالغة من الحكومة الليبية والهيئات العامة وكانت الدورة بمثابة مظاهرة عربية تبرز وحدة الدول العربية وتآلفها وتعاونها فى هذا الميدان الحيوى الخطير، كما أتيحت الفرصة للتعرف على بواكير نهضة ليبيا المجاهدة فى شتى الميادين .

ونظراً لما تقرر من أن تعقد الدورة اجتماعا فى ولاية طرابلس رؤى انتهاز هذا الاجتماع فرصه يتحدث فيها رؤساء الوفود جميعاً ومدير الدورة فتم بذلك تعريف من شهدوا الاجتماع الأخير فى مدينة طرابلس ما يبذل من جهود متصلة فى سبيل النهوض بالمجتمع العربى ودراسة مشكلاته والتوصية فى شأن الحلول الملائمة له وجهود الأمانة العامة للجامعة فى هذا الميدان وما يتصل به .

ومما يذكر أن الإذاعة المحلية والصحافة الليبية قد عنيتا بهذه الدورة وأعمالها أكبر عناية وسجلت الإذاعة الكلمات التى ألقيت فيها كما سجلت الأحاديث التى ألقيت فى الندوة واهتمت الصحف الليبية بمتابعة أعمال الدورة ونشر نبذ عن اجتماعاتها ودراساتها ، فزاد ذلك فى توسيع نطاق التعريف بها وبأهميتها وأثرها فى علاج مشكلات المجتمع العربى .

وإنى أنتهز هذه الفرصة فأبدى عظيم تقديرى لما بذله السادة مدير الدورة ومساعداه وسكرتيرها كما أذكر بالشكر والثناء الأستاذ مصطفى بن شعبان الذى شغل مركز ضابط الاتصال لشئون الحلقة من قبل الحكومة الليبية فقد أدى واجبه على خير وجه . وأشكر كذلك أعضاء وفد الأمانة العامة وخبراؤها على ما بذلوه من جهد متصل بارز وما بذلته إدارة الشئون الاجتماعية من جهد اتصل خلال عامين فى التحضير لهذه الدورة والمؤتمرين اللذين سبقاها . وأن أحمد الله سبحانه وتعالى أن استطاعت الإدارة — بعد أن اعتذرت الأمم المتحدة — أن تحمل العبء كاملا

وأن تحقق لهذه الدورة التى انفردت بتنظيمها جميع وسائل النجاح ، فقامت بالتمويل والإعداد والدراسة والمساهمة الفعلية فى أعمال اللجان وفى المؤتمرين الذين حضرا لها فكان دور الإدارة فى هذه النواحى جميعا محل الرضا والتقدير .

وقد قامت الإدارة بدراسة التوصيات التى أسفرت عنها اجتماعات هذه الدورة وعرضت على اللجنة الدائمة للشئون الاجتماعية بعد وضع الخطوط العامة للتوجيه فى شأن تنفيذها ، ثم عرضت بعد هذا على مجلس الجامعة فأقرها وتم إبلاغها للدول العربية .

وهذا السفر الضخم الذى يشرفنى أن أقدمه لكل عربى ليجد فيه صورة من جهد قد بذل ودراسات قد عملت ومناقشات مثمرة قد أنتجت توصيات عملية الطابع فى موضوع من أخطر موضوعات الساعه بالنسبة للوطن العربى فى شتى أرجائه . . أرجو أن يسد فراغا فى المكتبه العربية ، وأن يجد فيه الباحثون الاجتماعيون والمهتمون بشئون الأسرة والبيت العربى ما يرجون من معلومات وأبحاث لم يسبق أن حواها مجلد واحد قبل هذا الكتاب .

والله سبحانه وتعالى الموفق إلى أقوم سبيل ؟

* * *

الفهرس

رقم الصفحة	عنوان الموضوع	الاسم
١	تقرير عن الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية	الدكتور سليمان حزين (مدير الدورة)
٢١	ثبت الاسماء	
	الهيئة الادارية	
	الاعضاء والمراقبون	
	اللجان	
	برنامج الدورة	
٣٥	**حفل افتتاح الدورة**	
	كلمة مندوب ملك المملكة الليبية المتحدة	
	كلمات رؤساء الوفود	
	كلمة مدير الحلقة	
٥٩	**الندوة الاولى (الكويت)**	
	(البيت العربى)	
٦١	أهمية دراسة البيت العربى	الأستاذ عبد العزيز حسين
٦٣	الدعامات الخلقية فى البيت العربى	الدكتور سليم حيدر
٦٧	الاسرة فى الاسلام	الشيخ محمد أبو زهرة
٧٠	تزايد السكان واثره فى البيت العربى	الدكتور عبد الجليل الطاهر
٧٢	الامومة والبنوة فى البيت العربى	الاستاذ عبد المنعم خلاف
٧٥	الرعاية النفسية فى البيت العربى	الدكتور مصطفى زيور
٧٨	الرعاية الصحية فى البيت العربى	الدكتور عبد الوهاب البرلسى
٨٠	التجاوب بين المدرسة والبيت	الاستاذ محمد حسين المخزنجى
٨٣	التعاون والبيت العربى	« أمين يونس الحسينى
٨٨	الرعاية الاجتماعية للبيت العربى	« يحيى حسن درويش
٩١	استثارة الوعى لمشكلات البيت العربى	الدكتور عبد الحميد يونس
٩٥	هذه الندوة	الدكتور سليمان حزين
١٠١	تعليق	الأستاذ محمد حسن العشماوى
١٠٥	**الندوة الثانية (بنغازى)**	
	(البيت والمجتمع)	
١٠٧	تقديم الندوة	الأستاذ محمد حسن العشماوى
١٠٩	الاسرة نواة المجتمع	« حمد الرحيب
١١٢	المسكن والاسرة	الدكتور محيى الدين صابر
١١٤	اقتصاديات البيت العربى	الأستاذ امين يونس الحسينى
١١٧	البيت العربى بين البادية والحضر	« محمد الفريح
١١٩	الرعاية الروحية والخلقية للبيت العربى	« عبد المنعم خلاف
١٢٣	البيت العربى والتكيف الحضارى	الدكتور على عيسى
١٢٥	ثقافة البيت العربى	« ناصر الدين الأسد
١٢٧	الرعاية الصحية فى البيت العربى	« عبد الوهاب البرلسى
١٣٠	الرعاية الاجتماعية للبيت العربى	الأستاذ يحيى حسن درويش
١٣٢	المرأة فى البيت العربى	السيدة فاطمة محمد بهى الدين
١٣٤	البيت العربى ووفيات الأطفال	الدكتور عبد الكريم اليافى
١٣٩	حماية المرأة العاملة والحدث العامل	« محمد عزيز المراغى
١٤٢	الرعاية الترويحية فى البيت العربى	الأستاذ توفيق حسن وصفى
١٤٦	هذه الندوة ...	الدكتور سليمان حزين

رقم الصفحة	عنوان الموضوع	الاسم
١٥١	**اللجنة الاولى**	
	(أسس البيت العربى ومقوماته)	
١٥٤	الامومة مصدر اشعاعات الخـــير والبنوة أول انعكاساتها	الاستاذ عبد المنعم خلاف
١٦٤	البيت نواة المجتمع	الدكتور على عبد الواحد وافى
١٧٥	الاسرة فى الاسلام	الشيخ محمد أبو زهرة
١٩٨	الاسرة فى الاسلام	الشيخ محمد صقر
٢١٢	الاثر النفسانى لحنو الام فى شخصية الطفل	الاستاذ محمد مظهر سعيد
٢٢٢	كيان البيت العربى القائم والعوامل المؤثرة فيه	« محمد خليفة بركات
٢٤٤	الامومة والبنوة فى البيت العربى	الدكتور عبد الجليل الطاهر
٢٥٧	تطور البيت العربى وأثر المدنية فيه	« على عبد الواحد وافى
٢٧٢	العوامل المؤثرة فى تنشئة أفراد البيت العربى	الاستاذ محمد فريد أبو حديد
٢٩١	العادات والتقاليد وأثرها فى البيت العربى	الدكتورة عائشة عبد الرحمن
٣٠٠	العامل الديمرجرافى فى البيت العربى	الدكتور حنا رزق
٣١٥	دور المرأة فى المجتمع العربى الحديث	السيدة سميحة عاصم
٣٢٠	المرأة فى الكويت	السيدة لميس الطحاوى
٣٢٩	**اللجنـة الثانية**	
	(الخدمات الخاصة بالبيت العربى)	
٣٣١	تنظيم الاسرة وأهميته فى رفاهية البيت العربى	الدكتور محمد عوض محمد
٣٤٩	مؤسسات التوجيه الاسرى	الاستاذ مصطفى المسلمانى
٣٦٣	الامهات العاملات	للاساتذة احمد محمود اسماعيل
		عبد المقنى سعيد
		سامى النشار
٣٨٢	دور الحضانة	السيدة عنايات الحكيم
٣٩٢	نظام الاسر البديلة واهميته فى رعاية الطفولة	الاستاذ سليمان محمود مرزوق
٤٠٣	الخدمة الاجتماعية المـــدرسية وأثرها فى البيت العربى	الدكتور احمد كمال أحمد
٤١٣	وسائل التثقيف الصحى فى البيت العربى	« فتحى سليمان عبدالحافظ
٤١٩	رعايةالامومة والطفولة فى البيت العربى	الدكتور نفيسة حسين عيسى
		والدكتور محمد كمال عبد الرازق
٤٣٨	الصحة الصناعية ودورها فى رعاية البيت العربى	« محمد عبد اللطيف
٤٤٩	أثر الصحة المدرسية فى البيت العربى	الدكتورة وصفية حسين كامل
٤٥٣	التغذية واهمية تنظيمها للبيت العربى	الدكتور على حسن
٤٦٥	نظم الرعاية الطبية للاسرة	« عبد الوهاب البرلسى
٤٧٧	الصحة النفسية وأثرها فى البيت العربى	« عبد العزيز القوصى
٤٨٩	الخدمة الطبية النفسية وأهميتها	« مصطفى زيور
٤٩٧	اقتصاديات البيت العربى	« أحمد دويدار
٥١٣	الصناعات المنزلية وأثرها فى البيت العربى	« شكرى المراغى
٥٢٥	التعاون ووظائفه الاقتصادية للبيت العربى	الاستاذ أمين يونس الحسينى
٥٤٠	التعاون والوظائف الاقتصادية للبيت العربى	« أحمد زكى الامام
٥٥٤	تنظيم اوقات الفراغ للاسرة	« توفيق حسن وصفى
٥٧٣	مجال الترويح داخل البيت العربى	« محمد على حافظ
٥٨٩	البيت العربى والنشاط الترويحى فى المجتمع	الدكتور ج.ب. كرمز —
٦١٢	التثقيف الروحى وأثره فى البيت العربى	الشيخ عبد السلام محمد خليل
٦٢٩	وظيفة المدرسة فى خدمة البيت العربى	الاستاذ محمد حسين المخزنجى

رقم الصفحة	عنوان الموضوع	الاسم
٦٢٨	البيت العربى فى تجربة مركز قليوب	الاساتذة جمال خشبة سليم الكفراوى دكتور فخرى أسعد
٦٤٩	**اللجنـة الثالثة**	
	(التشريعات الخاصة بالبيت العربى)	
٦٥٠	أسس التشريع الاجتماعى للبيت العربى	الاستاذ يوسف عز الدين القرمانى
٦٦٨	التشريعات والنظم الاجتماعية بالكويت	« عبد العزيز الصرعاوى
٦٨٨	تشريعات الامومة والطفولة	« جمال زهير
٧٠٥	تشريعات العمل للنساء والاحداث	« ابراهيم الفطريفى
٧٢٩	التشريعات العمالية وأثرها فى الاسرة الليبية	« محمد عبد الله المير
٧٣٥	تشريعات الاحداث	« عبد العزيز فتح الباب
٧٥٣	تشريعات الضمان والتكافل الاجتماعى	« محمد بدران
٧٦٦	مشروع التبنى	« عبد الوهاب العوضى
٧٦٨	رعاية الاطفال غير الشرعيين	السيدة فاطمة الحارونى
٧٧٧	قصور تشريعات حماية الاسرة	الاستاذ يوسف عز الدين القرمانى
٧٨٣	**اللجنـة الرابعة**	
	(المشكلات التى تواجه البيت العربى)	
٧٨٥	الوازع الدينى واثره فى كيان البيت العربى	الاستاذ عبد المنعم خلاف
٧٩٦	عادات الزواج وأثرها فى كيان البيت العربى	الدكتور حسن شحاته سعفان
٨٠٩	عادات الزواج وأثرها فى البيت	السيدة فاطمة محمد بهى الدين
٨٣٣	المستوى المعيشى فى المجتمع الريفى	الاستاذ محمود فهمى
٨٤٨	التصنيع واثره فى كيان البيت العربى	« عبد المغنى سعيد
٨٦٣	بعض عوامل تفكك الاسرة العربية	« كمال حماده
٨٧١	مظاهر التفكك والانحلال فى البيت العربى	الدكتور محمد عبد المنعم نور
٨٧٨	عدم التوافق بين مجتمع الاسرة والمجتمع الخارجى	« السيد محمد بدوى
٨٨٦	التنافر بين الاوضاع الاصيلة والاوضاع الدخيلة فى حياة الاسرة	الاستاذ يحيى حسن درويش
٨٩٠	وجود أجيال متعاقبة فى الاسرة	« محمد مظهر سعيد
٩٠٣	أثر الهجرة السكانية على البيت العربى	الدكتور على فؤاد أحمد
٩١٢	الهجرة من الريف الى المدن واثرها فى تفكك البيت العربى	الدكتور على فؤاد أحمد
٩٢٠	سوء استعمال أوقات الفراغ واثره فى كيان الاسرة	الاستاذ توفيق حسن وصفى
٩٢٩	الطلاق وأثره فى تفكك البيت العربى	الدكتورة عائشة عبد الرحمن
٩٤٢	الاسرة غير المتكافئة واثرها على المجتمع العربى	السيدة زينب ابراهيم النجار
٩٥٦	الجهل بوسائل الرعاية الصحية وأثره	الدكتور عبد الوهاب البرلسى
٩٦٢	مشكلات الطفولة فى البيت العربى	الاستاذ سيد مصطفى
٩٧٣	المشاكل الصحية للبيت العربى	الدكتور ابراهيم عازر
٩٨٨	تعدد الزوجات واثره فى تدعيم كيان البيت الليبى	الاستاذ عثمان بن عامر
٩٩١	**اللجنـة الخامسة**	
	(برامج النهوض بالبيت العربى)	
٩٩٢	البيت العربى فى ظل التخطيط الاجتماعى	الدكتور مصطفى الشكعة
١٠١٣	اعداد الآباء والامهات وتثقيفهم	الاستاذ محمد كامل النحاس
١٠٢٩	الاسس العامة لتنسيق البرامج وادارتها	« يحيى حسن درويش
١٠٥٤	اعداد برامج المشتغلين برعاية البيت العربى	السيدة احسان عابد والاستاذ صالح الشبكشى
١٠٧٣	انشاء مكتب بحوث الاسرة	الاستاذ محمد كامل النحاس

رقم الصفحة	عنوان الموضوع	الاسم
١٠٧٩	برامج الاسكان واثرها فى البيت العربى بلبنان	الاستاذ معروف سويد
١٠٨٥	استثارة الوعى الاجتماعى لعلاج مشاكل البيت	« حمد الرجيب
١٠٩٢	استثارة الوعى الاجتماعى لمشاكل البيت العربى	الدكتور عبد الحميد يونس
١١٠٢	دور الحكومة ودور المؤسسات الاهلية فى تنفيذ نظم الكفالة الاجتماعية للبيت العربى	الاستاذ يحيى حسن درويش
١١٠٧	التمويل الفردى والمشترك لبرامج رعاية البيت العربى	« نديم حرفوش
١١١٦	برامج الرعاية الصحية للبيت العربى	الدكتور عبد الوهاب البرلسى
١١٣٠	طرائق البحث العلمى عن البيت العربى	« حسن محمد حسين
١١٤١	تدريب المشتغلين بمناهج الرعاية الاجتماعية فى العراق	« صلاح الدين العبد
١١٥٧	**المحاضرات العامة**	
١١٥٨	القومية العربية واثرها فى البيت العربى	الامير مصطفى الشهابى
١١٦٧	بيتنا العربى الكبير	الدكتور سليمان حزين
١١٨١	**تقارير اللجان وتوصياتها**	

تقرير
عن الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية
لمدير الدورة
الدكتور سليمان حزين

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد تاريخى :

١ — نظمت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية فانعقدت فى بنغازى من ١٨ — ٢٢ يوليو ١٩٥٩ وتلتها زيارات ورحلات فى ولاية طرابلس من ٢٣ — ٢٦ يوليو ١٩٥٩ . وكان ذلك كله بدعوة من حكومة المملكة الليبية المتحدة وتحت رعاية الملك إدريس السنوسى المعظم.

٢ — ويرجع تاريخ حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية بدوراتها المتعاقبة إلى عام ١٩٤٩ حين نظمت الأمم المتحدة لأول مرة الدورة الأولى فانعقدت بدعوة من حكومة الجمهورية اللبنانية فى بيروت خلال الفترة من ١٥ أغسطس إلى ٨ سبتمبر من ذلك العام . وكان تنظيم الدورة ضمن برنامج المساعدات الفنية للأمم المتحدة وبناء على القرار (رقم ٨٤٨ / رابعاً) الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة والذى ينص على تنظيم مثل هذه الحلقات الدراسية بناء على طلب من حكومات الدول الأعضاء .

ثم انعقدت الدورة الثانية على الأساس نفسه بدعوة من الحكومة المصرية بمدينة القاهرة فى الفترة من ٢٢ نوفمبر إلى ١٤ ديسمبر عام ١٩٥٠ .

وبعد ذلك بعامين انعقدت الدورة الثالثة بدعوة من الحكومة السورية بمدينة دمشق فى الفترة من ٨ — ٢٠ ديسمبر عام ١٩٥٢ . ثم انعقدت الدورة الرابعة بدعوة من الحكومة العراقية بمدينة بغداد فى الفترة من ٦ — ٢١ مارس عام ١٩٥٤ . ثم الدورة الخامسة بدعوة من الحكومة الأردنية بمدينة عمان فى الفترة من ١٦ — ٢٥ مايو عام ١٩٥٦ .

وكان قد تقرر منذ دورة دمشق أن تشارك الأمانة العامة لجامعة الدول العربية فى تنظيم الدورات ، فوضع نظام للتعاون بين سكرتارية الأمم المتحدة من جهة والأمانة العامة للجامعة من جهة أخرى ، كما تم الاتفاق على أن يتزايد نصيب الأمانة العامة لجامعة الدول العربية دورة بعد دورة فى الإعداد الفنى والتنظيم الإدارى والنفقات المادية لانعقاد الدورة .

٣ — وقد جرى العمل فى دورات الحلقة جميعا على أن تكون للدورة هيئة إدارية كما جرى أيضا فى الدورات الخمس الأولى على أن تعين الأمم المتحدة مدير الحلقة وتعقد اتفاقا مع الدولة المضيفة والأمانة العامة لجامعة الدول العربية لتنظيم التعاون بين هذه الأطراف فى سبيل تنسيق أعمال الدورة . لكن فى هذه الدورة السادسة تم التنظيم المبدئى بين الأمانة العامة والدولة المضيفة . أما الأمم المتحدة فقد دعيت للاشتراك فى الدورة كما دعيت إليها أيضا الوكالات المتخصصة للأمم المتحدة .

٤ — وكان مندوب الحكومة الليبية فى الدورة الخامسة قد أعرب فى الجلسة الختامية بمان عن رغبته فى أن تنعقد الدورة السادسة بالمملكة الليبية المتحدة واستعداده لأن يتصل بحكومته فى هذا الشأن فأعرب أعضاء الوفود عن ترحيبهم بهذا الاتصال . وبعد انتهاء أعمال الدورة جاء إلى ممثل الحكومة الليبية ما يفيد ترحيب حكومته بانعقاد الدورة السادسة فى ليبيا فأبلغ ذلك إلى إدارة الحلقة .

الإعداد للدورة واختيار الموضوع :

٥ — جرى العمل فى الدورات الأولى للحلقة على أن تقصر الفترة الواقعة بين كل دورة والدورة التى تليها وعلى أن تطول فى نظير ذلك فترة انعقاد الدورة حتى تتهيأ الفرصة لتشاور واسع المدى بين المشتركين فيها واستكمال البحث وتبادل الرأى . ولكن تطور العمل وتزايد الخبرة قد أديا بالتدريج إلى أن تطول الفترة بين كل دورة والدورة التى تليها وإلى أن تقصر فى نظير ذلك فترة انعقاد الدورة بعد أن تكون الموضوعات التى تتناولها قد بحثت بحثا مستفيضا وبعد أن تكون الفرصة قد هيئت لأن تلتقى طوائف من الخبراء العرب والمهتمين بموضوع الدورة فيعقدون لجانا أو مؤتمرات يتدارسون فيها تقريرات الموضوع ويستعرضون بعض البحوث التى تعد فيها كما يضعون مشروعات للتوصيات فى شأنها تعرض على الدورة خلال أيام معدودات يمكن بعدها الانتهاء إلى صياغة تقرها الدورة .

٦ — على هذا الأساس طالت الفترة الواقعة بين الدورتين الخامسة والسادسة ورحب بذلك المشتغلون بشئون الدراسات الاجتماعية فى العالم العربى . وذلك أن الموضوع الذى اختير لهذه الدورة السادسة كان موضوعا واسع النطاق ويحتاج إلى فترة طويلة لاستكمال نواحى البحث فيه .

وكانت الدورة الخامسة قد استعرضت بعض الموضوعات التى يصح أن يتناولها البحث فى الدورة السادسة ومنها موضوع (الأسرة العربية ووسائل رعايتها) وموضوع (الحكومات المحلية وعلاقتها ببرامج الرعاية الاجتماعية) وموضوع (هجرة السكان وتهجيرهم فى العالم العربى) .

وقد شرعت إدارة الشئون الاجتماعية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية عقب انتهاء الدورة السادسة فى استطلاع الرأى وجمع البيانات عن إمكانيات الدراسة الشاملة فى كل من هذه الموضوعات فى العالم العربى . فدعت طائفة من الخبراء الذين يمثلون مختلف ميادين البحث الاجتماعى واستطلعت رأيهم من الناحية الفنية . ثم عرضت نتائج بحوثها المبدئية على اللجنة الدائمة للشئون الاجتماعية وهى اللجنة المنبثقة عن مجلس جامعة الدول العربية فرأت هذه اللجنة أن موضوع (الأسرة) يمس حياة المجتمع فى نواته الأولى، وأن من الخير والصالح أن تكون له الأولوية فى البحث والدراسة، كما أن هذه اللجنة رأت تعديل الموضوع بحيث يصبح (الأمومة والبنوة فى البيت العربى) وأوصت بأن يعهد إلى لجنة من المتخصصين فى إعداد تقريرات الدراسة فى هذا الموضوع ووضع برنامج لإعداد البحوث يمتد إلى سنتين أو ثلاث سنوات وينتهى الأمر فيه باستكمال طائفة طيبة من البحوث التى تتناول أسس البيت العربى ومقوماته كما تتناول بعض المشكلات التى تواجهه فى خضم الحياة الحديثة على أن تتسع تلك البحوث بقدر الإمكان وتشمل الجانبين النظرى والتطبيقى وتتناول البيت العربى فى مختلف بلاد العروبة .

٧ — شرعت إدارة الشئون الاجتماعية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية فى وضع ما أقرته اللجنة الدائمة للشئون الاجتماعية موضع التنفيذ وذلك منذ خريف عام ١٩٥٦ . وكانت تدرك منذ البداءة أن عبء الإعداد الفنى والعلمى لموضوع (البيت العربى) عبء ضخم وأنه يستدعى جمع البيانات وعمل الدراسات وإعداد البحوث بواسطة المتخصصين فى ميادين مختلفة تمس كيان هذا البيت وحياته فى اتصالها بالبيئة العربية من جهة وبالتاريخ العربى من جهة ثانية ثم بالتطور الحديث فى الحياة العالمية من جهة ثالثة . وقد وضعت إدارة الشئون الاجتماعية خطتها على هذا الأساس فجعلت فى برنامجها أن تفرد لموضوع البيت العربى بعض لجان المؤتمر السنوى الذى تعقده الأمانة العامة لخبراء الشئون الاجتماعية لا سيما فى دورتيه الرابعة عام ١٩٥٨ والخامسة عام ١٩٥٩ حيث انعقد المؤتمر الرابع بالكويت من ١ إلى ٧ مارس ١٩٥٨ وانعقد المؤتمر الخامس بالقاهرة من ١٨ إلى ١٣ يونيو ١٩٥٩ واستعرض كل منهما جانبا من جوانب موضوع البيت العربى وأعد فيه توصيات للعرض على الدورة السادسة للحلقة ، واستقر الرأى فى الاجتماعين وفى اللجان التى انعقدت خلال العامين السابقين للدورة على أن يكون موضوعها هو (البيت العربى) وأن تتناول تفريعات الدراسة مقومات هذا البيت وحياته وبعض المشكلات التى تواجهه وبرامج النهوض به.

٨ — وفى الوقت ذاته بدأت الاتصالات بين الحكومة الليبية والأمانة العامة للجامعة لتنظيم الدعوة للدورة وتحديد مكانها وموعدها والتعاون فى سبيل الإعداد الإدارى ومواجهة نفقاتها المادية . وجريا على ماسبق العمل به فى الدورات السابقة عينت الحكومة الليبية ضابطا للاتصال فى شئون الدورة وعهدت إلى الأمانة العامة فى الاتصال بالدول العربية الأعضاء فى الجامعة والإمارات العربية والهيئات الدولية لتوجيه الدعوة إليها للمشاركة بوفود أو بممثلين أو مراقبين يحضرون الدورة ويشتركون فى أعمالها وجلساتها . وقد وجهت الدعوات فى وقت مبكر بعد أن حدد التاريخ النهائى لانعقاد الدورة ومكانها، وتابعت الأمانة العامة الاتصال بالدول الأعضاء والهيئات الدولية وغيرها حتى يتحقق لهذه الدورة تمثيل واسع النطاق ، واستجاب الباحثون لدعوة الأمانة العامة فأعدوا طائفة كبيرة من البحوث العلمية التى جمع الكثير منها بين الجانب النظرى والجانب التطبيقى من الدراسات الاجتماعية . وبلغ عدد البحوث التى أعدت خمسة وسبعين بحثا إلى جانب اثنين وعشرين بحثا قصيراً تضمنتها ندوتان عامتان ثم محاضرتين عامتين ألقيتا فى موضوع الدورة . وبذلك قاربت الجملة مائة بحث أعدها أخصائيون من مختلف أرجاء العالم العربى . ولئن كانت مشاركة الخبراء وممثلى الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة من غير العرب فى هذه الدورة قد اقتصرت على الاشتراك فى المناقشات وأعمال اللجان دون إعداد بحوث فى البيت العربى فإن مرجع ذلك إلى أن الباحثين العرب هم أقرب إلى تناول موضوع البيت العربى من غيرهم . وإنه لمن التحدث بنعمة الله أن نسجل فى هذا التقرير ماحققه أولئك الباحثون العرب من دراسات قيمة أثبتوها فى بحوثهم التى عرضت على الدورة ويضمها هذا السجل الذى نرجو أن يبقى ذخيرة للراغبين فى دراسة مجتمعنا العربى .

٩ — أما عن الإعداد المادى والإدارى للدورة فقد رتب بين الأمانة العامة والحكومة الليبية فرصدت إدارة الشئون الاجتماعية فى ميزانيتها المبالغ اللازمة للإعداد للدورة وعقد اللجان التحضيرية لها وتكليف طائفة من الباحثين العرب بإعداد البحوث فى الموضوع وجمع البيانات المتصلة به من مختلف البلاد العربية وتخصيص جانب من نشاط

الادارة للإعداد الإدارى للدورة سواء بمقر الأمانة العامة فى القاهرة أم بمقر انعقاد الدورة فى بنغازى . وكان ذلك كله بالإضافة إلى مارصد لانعقاد مؤتمرى الخبراء السنويين ولاشتراك الأمانة العامة بوفد من رجالها المشتغلين بالشئون الاجتماعية أو من غيرهم من الخبراء العرب الذين حضروا الدورة لحساب الأمانة العامة . وسترصد إدارة الشئون الاجتماعية كذلك الاعتمادات اللازمة لتنفيذ مايخص الأمانة العامة من توصيات هذه الدورة السادسة ونشر هذا الكتاب سجلا شاملا لأعمالها .

أما الحكومة الليبية فقد أعدت الجهاز الإدارى اللازم لاستقبال الدورة وتيسير أعمالها ورصدت المبالغ اللازمة لمواجهة النفقات المحلية قبل انعقاد الدورة وخلالها واستقبال أعضاء الوفود فى بيت من بيوت العروبة هو ليبيا ، ثم استضافتهم فى رحلات وزيارات تجلى فيها الكرم العربى فى صوره الأصيلة الممتعة فى كل من ولاية برقة حين زار أعضاء الوفود منطقة بنغازى والجبل الأخضر ثم فى ولاية طرابلس حين أفردت الدورة أكثر من ثلاثة أيام لزيارة مصراته وترهونه وصبراطة ومدينة طرابلس حيث اختتمت أعمال الدورة .

تفريعات الموضوع وبرنامج الدراسة

١٠ — كانت الخطوط العريضة لبرنامج الدراسة فى هذه الدورة قد وضعت فى اللجان التحضيرية وفى مؤتمرى خبراء الشئون الاجتماعية العرب اللذين انعقدا فى عامى ١٩٥٨ و١٩٥٩ وقد وضعت تفريعات الدراسة على أساس أن موضوع البيت العربى موضوع متشعب النواحى من الخير أن تتميز بعض نواحيه لتتناولها بشىء من الدراسة المستفيضة وقد تطور هذا التفريع خلال السنوات الثلاث التى سبقت انعقاد الدورة حتى استطاعت إدارة الحلقة أن تبلوره آخر الأمر وقبل انعقادها فى النواحى الآتية :

أولا : أسس البيت العربى ومقوماته

(ا) تقديم الموضوع :

١ — البيت والمجتمع
٢ — الأسرة فى الإسلام
٣ — معنى الأمومة والبنوة

(ب) الاتجاهات والقيم والعادات الاجتماعية فى البيت الحديث وارتباطها بالتغيرات الاجتماعية المختلفة

١ — البيت العربى والتقاليد الأصيلة فيه .
٢ — تطور البيت العربى وأثر اختلاط حضارة العرب بغيرها من الحضارات الأخرى من جميع النواحى الاجتماعية والثقافية والصحية والاقتصادية

٣ — العوامل المؤثرة فى تنشئة أفراد البيت العربى وفى تكوين شخصياتهم.
٤ — العادات والتقاليد وأثرها فى البيت العربى .
٥ — دور المرأة فى المجتمع العربى الحديث وأثره فى البيت العربى .

ثانيا : الخدمات الخاصة بالبيت العربى

(ا) فى الميدان الاجتماعى :

١ — برامج الإسكان وأثرها فى البيت العربى
٢ — تنظيم الأسرة وأهميته فى رفاهية البيت العربى
٣ — مؤسسات التوجيه الأسرى للمعاونة فى حل مشاكل البيت العربى
٤ — رعاية الأمهات العاملات والمشتغلات
٥ — دور الحضانة
٦ — رعاية الطفولة فى المؤسسات الاجتماعية وخارجها
٧ — نظام الأسرة البديلة وأهميته فى رعاية الطفولة
٨ — الخدمة الاجتماعية المدرسية

(ب) فى الميدان الصحى

١ — وسائل التثقيف الصحى فى البيت العربى .
٢ — مراكز رعاية الأمومة والطفولة
٣ — الصحة الصناعية ودورها فى رعاية العاملين فى البيت العربى
٤ — الصحة المدرسية
٥ — التغذية وأهمية تنظيمها فى رفع المستوى الصحى فى البيت العربى .
٦ — نظم الرعاية الطبية للبيت العربى ـ التأمين الصحى والعلاج التعاونى
٧ — التوجيه الصحى قبل الزواج .
٨ — الصحة النفسية والعقلية وأثرها فى كيان البيت العربى .
٩ — الخدمة الاجتماعية الطبية .

(جـ) فى الميدان الاقتصادى :

١ — الاقتصاد المنزلى
٢ — الصناعات المنزلية
٣ — التعاون والوظائف الاقتصادية اللازمة للبيت العربى

(الادخار ـ التسليف والاستهلاك ـ تصريف المنتجات المنزلية ... الخ .)

(د) فى الميدان الترويحى :

١ — تنظيم أوقات الفراغ فى البيت العربى

٢ — النشاط الترويحى داخل البيت العربى

٣ — النشاط الترويحى فى البيئة الخارجية

(هـ) فى ميدان التربية الروحية والثقافية

١ — التثقيف الروحى وأثره

٢ — التجارب القائمة فى التربية الأساسية لخدمة البيت العربى

٣ — وسائل التثقيف الشعبى. المسرح . الموسيقى . الاذاعة . السينما . المتاحف الجامعة الشعبية . . .

ثالثا : التشريعات الخاصة بالبيت العربى

١ — التشريعات الاجتماعية وأثرها فى البيت العربى

٢ — تشريعات الأمومة والطفولة. الزواج. الطلاق. الولاية. الحضانة. النفقة.. الخ

٣ — التشريعات العمالية لحماية النساء والأحداث

٤ — تشريعات الأحداث المشردين

٥ — تشريعات الضمان والتكافل الاجتماعى

رابعاً : المشكلات التى تواجه البيت

١ — تقصى عوامل التفكك فى الأسرة ووسائله الدراسية

٢ — ضعف الوازع الدينى وأثره فى تهديد كيان البيت العربى

٣ — آفات السلوك الفردى وأثرها فى تفكك البيت

٤ — عادات الزواج وأثرها فى كيان البيت العربى

٥ — المستوى المعيشى فى المجتمع الريفى والبدوى وأثره فى كيان البيت العربى

٦ — عوامل التفكك والانحلال فى البيت العربى

٧ — عدم التوافق بين مجتمع الأسرة والمجتمع الخارجى وأثره فى البيت العربى

٨ — حجم الأسرة العربية وأثره فى البيت العربى

٩ — وجود عدة أجيال متعاصرة فى الأسرة وأثر ذلك على البيت

١٠ — التغيرات السكانية وأثرها على البيت العربى

١١ — الهجرة وأثرها على البيت العربى ووجوه تنظيمها

خامسا : برامج النهوض بالبيت العربى :

١ — أسس التخطيط الاجتماعى للبيت العربى

٢ — الإعداد للحياة الزوجية والعائلية وتثقيف الآباء والأمهات

٣ — تنسيق الخدمات الاجتماعية للبيت العربى

٤ — التمويل الفردى والمشترك لبرامج الرعاية الاجتماعية للبيت العربى

٥ — إعداد وتدريب المشتغلين ببرامج « « « «

٦ — مراكز لبحوث الأسرة بالبلاد العربية

٧ — رعاية وتأهيل المسنين وذوى العاهات

٨ — استثارة الوعى الاجتماعى لمشاكل البيت العربى

٩ — برامج الرعاية الاجتماعية للبيت العربى

١٠ — « « الصحية « «

١١ — « « الثقافية « «

١٢ — « « الاقتصادية « «

١٣ — « « الروحية والخلقية للبيت العربى

١٤ — « « الترويحية « «

١١ — وكان على إدارة الدورة بعد ذلك أن تبحث الوسيلة التى يمكن بها أن تتناول هذه التفريعات بطريقة مثمرة خلال الأيام القليلة التى اجتمع فيها الأعضاء فى بنغازى . وقد أمكن تدبير ذلك فى صورة مجدية لأن بعض هذه التفريعات كان قد سبق أن درس وأعدت فيه توصيات فى مؤتمرى خبراء الشئون الاجتماعية اللذين أشرنا إليهما . كما أن جانباً كبيراً من البحوث التى سبق أن أعدت للدورة فى موضوع البيت العربى كان قد وزع على الأعضاء فتناولوه بالدراسة قبل انعقاد الدورة بوقت كاف، كما أن بعض تلك البحوث كان قد نوقش فى اللجان التحضيرية التى شارك فيها خبراء من أكثر من بلد عربى واحد . وبذلك كله فقد أمكن الاقتصار أثناء الدورة على عدد محدود من اللجان على النحو الآتى :

١ — لجنة الندوة وقد كانت فى واقع الأمر لجنتين إذ أن مؤتمر خبراء الشئون الاجتماعية العرب الذى انعقد بالكويت فى مارس عام ١٩٥٨ كان قد عقد ندوة تناولت موضوع أوجه رعاية البيت العربى، كما أن هذه الدورة السادسة

قد أفردت ندوة ثانية عالجت موضوع البيت العربى والمجتمع ، ومن مجموع أعمال هاتين الندوتين نخرج بحصيلة طيبة من البحوث والآراء فى شأن هذا البيت ومقوماته ومشكلات حياته ووسائل رعايته .

وفيما يلى بيان بموضوعات كل من الندوتين :

(ا) الندوة الأولى (الكويت) وكان موضوعها « أوجه رعاية البيت العربى » وتناول الخبراء فيها بالبحث (أهمية دراسة البيت العربى . الأمومة والبنوة . الأسرة فى الإسلام . الرعاية الصحية للبيت العربى . الرعاية النفسية . المدرسة والبيت . الدعامات الخلقية للبيت . استثارة الوعى لمشكلات البيت)

(ب) الندوة الثانية (بنغازى) وموضوعها « البيت والمجتمع » تحدث فيها السادة الخبراء عن (الأسرة نواة المجتمع، المسكن والأسرة . اقتصاديات البيت العربى . البيت العربى بين البادية والحضر . الرعاية الروحية والخلقية للبيت العربى . ثقافة البيت العربى. الرعاية الاجتماعية . الرعاية الصحية . المرأة فى البيت العربى . الطفولة فى البيت العربى . النساء والأطفال العاملون . الرعاية الترويحية) .

٢ — اللجنة الأولى وقد خصصت لموضوعات (أسس البيت العربى ومقوماته) واستعرضت البحوث الآتية :

(البيت نواة المجتمع. الأسرة فى الإسلام. الأمومة مصدر اشعاعات الخير والبنوة أول انعكاساتها . الأثر النفسانى لحنو الأم فى تكوين شخصية الطفل . كيان البيت العربى القائم والعوامل المؤثرة فيه . الأمومة والبنوة فى البيت العربى . تطور البيت العربى وأثر المدنية الحديثة فيه . العوامل المؤثرة فى تنشئة أفراد البيت العربى. العادات والتقاليد وأثرها فى البيت العربى . العامل الديموجرافى فى البيت العربى . التصنيع وأثره فى كيان البيت العربى . دور المرأة فى المجتمع العربى الحديث . المرأة فى الكويت) .

٣ — اللجنة الثانية وتناولت (الخدمات الخاصة بالبيت العربى) واستعرضت البحوث الآتية :

(تنظيم الأسرة وأهميته فى رفاهية البيت العربى . مؤسسات التوجيه الأسرى للمعاونة فى حل مشاكل البيت العربى. رعاية الأمهات العاملات والمشتغلات . دور الحضانة . نظام الأسر البديلة وأهميته فى رعاية الطفولة . الخدمة الاجتماعية المدرسية . وسائل التثقيف الصحى. مراكز رعاية الأمومة والطفولة . الصحة الصناعية ودورها فى رعاية العاملين . الصحة المدرسية وأثرها فى البيت العربى . التغذية وأهمية تنظيمها فى رفع المستوى الصحى للأسرة . نظم الرعاية الطبية للبيت العربى . الصحة النفسية والعقلية وأثرها فى كيان البيت العربى . الخدمة الاجتماعية الطبية والنفسية وأهميتها للبيت . اقتصاديات البيت العربى . الصناعات المنزلية وأثرها الاقتصادى والاجتماعى فى البيت . التعاون والوظائف الاقتصادية اللازمة للبيت . تنظيم أوقات الفراغ فى البيت العربى . النشاط الترويحى فى المجتمع . التثقيف الروحى وأثره على البيت العربى . وظيفة المدرسة فى خدمة البيت العربى . البيت العربى فى تجربة مركز التنظيم والتدريب بقليوب) .

٤ — اللجنة الثالثة وخصصت لموضوع (التشريعات الخاصة بالبيت العربى) واستعرضت البحوث الآتية :

(أسس التشريع الاجتماعى للبيت العربى . التشريعات والنظم الاجتماعيـة وأثرها فى البيت العربى بالـكويت . تشريعات الأمومة والطفولة فى الإقليم المصرى . تشريعات العمل للنساء والأحداث . التشريعات العمالية وأثرها فى الأسرة الليبية. تشريعات العمل فى الإقليم المصرى. تشريعات الضمان والتكافل الاجتماعى .التبنى . رعاية الأطفال غير الشرعيين ومن فى حكمهم . قصور تشريعات حماية الأسرة وأثره) .

٥ — اللجنة الرابعة : وتناولت بالبحث موضـوع (المشكلات التى تواجه البيت العربى) واستعرضت البحوث الآتية :

(ضعف الوازع الدينى وأثره فى تهديد كيان البيت العربى . عادات الزواج وأثرها فى كيان البيت العربى . عادات الزواج كعامل من عوامل التفكك فى البيت العربى . المستوى المعيشى فى المجتمع الريفى وأثره فى كيان البيت . عوامل التفكك فى البيت العربى . بعض مظاهر التفكك والانحلال فى البيت العربى . عدم التوافق بين مجتمع الأسرة والمجتمع الخارجى وأثره فى البيت . التنافر بين الأوضاع الأصيلة والأوضاع الدخيلة وأثره . وجود عدة أجيال متعاصرة فى الأسرة وأثر ذلك على البيت . الهجرة السكانية وأثرها على البيت العربى ووجوه تنظيمها . الهجرة من الريف إلى المدن وأثرها فى تفكك البيت العربى . سوء استعمال أوقات الفراغ وأثره فى البيت . الطلاق وأثره فى تفكك البيت العربى . الأسرة غير المتكاملة وأثرها على المجتمع العربى . الجهل بوسائل الرعاية الصحية وأثره على البيت العربى. مشكلات الطفولة فى البيت العربى ، المشاكل الصحية للبيت العربى فى الريف . تعدد الزوجات) .

٦ — اللجنة الخامسة : وتناولت بالبحث (برامج النهوض بالبيت العربى) واستعرضت البحوث الآتية :

(البيت العربى فى ظل التخطيط الاجتماعى . إعداد الآباء والأمهات وتثقيفهم فى البيت العربى . الأسس العامة لتنسيق البرامج وإدارتها وتمويلها . إعداد برامج المشتغلين برعاية البيت العربى وتدريبهم . إنشاء مكتب بحوث الأسرة . استثارة الوعى الاجتماعى كوسيلة لعلاج مشاكل البيت . دور الحكومة ودور المؤسسات الأهلية فى كفالة البيت العربى . طرائق البحث العلمى عن البيت العربى) .

نظام العمل والاشتراك فى الدورة :

١٢ — كان قد تجمع لحلقة الدراسات الاجتماعية فى دوراتها المتلاحقة من التقاليد ما أرسى نظام العمل فيها على أساس من التجربة والخبرة ، كما أن إدارة الحلقة كانت قد رحبت منذ دورتها الثالثة فى دمشق عام ١٩٥٢ على أن تضع نظاماً مكتوباً ومبسطاً بقدر الإمكان تعرضه على لجنتها التوجيهية التى يشترك فيها رؤساء الوفود وبعض الخبراء ثم تقره الدورة فى أولى جلساتها العـامة . وقد سار العمل بعد ذلك على أساس هذا النظام المكتوب ولـكنه كان يعرض دائماً على الدورة فى أولى جلساتها العامة لتقره أو تعدل فيه بمـا ترى . وقد لوحظ فى وضع القواعد أن تتضمن شيئاً من المرونة التى تعين على تـكييف الدراسة وتوجيه المناقشات بحسب موضوع الدورة من جهة وبحسب الظروف المحلية التى تنعقد فيها من جهة أخرى ، وقد اتفق فى هذه الدورة السادسة على أن يتبع النظام التالى فى العمل :

أولا : الجلسات العامة :

يشترك فيها أعضاء وفود الدول العربية والأمانة العامة لجامعة الدول العربية وممثلو الأمم المتحدة والخبراء الذين تدعوهم الأمانة العامة أو تستعين بهم إدارة الحلقة ويكون لهؤلاء جميعاً حق الرأى والتعقيب، ولكن التصويت يقتصر على رؤساء الوفود الرسميين ، وإلى ذلك كله فإنه يسمح بحضور الجلسات العامة للمراقبين الذين توفدهم الهيئات الدولية والأهلية وغير الحكومية وللأفراد الذين تأذن لهم إدارة الحلقة ، ولرئيس الحلقة أن يعطى مثل هؤلاء المراقبين حق إبداء الملاحظات .

ثانياً : اللجنة التوجيهية :

تكون للدورة لجنة توجيهية تتألف من رؤساء الوفود أو من ينوب عنهم ومن الهيئة الإدارية للدورة ويجوز أن يحضرها الخبراء بصفة استشارية، وتعدهذه اللجنةجدول أعمال الجلسات العامة كماتجتمع يومياً لاستعراض سير العمل فى الدورة .

ثالثاً : لجان العمل :

تعين الدورة فى جلستها العامة الأولى لجان العمل اللازمة وهى اللجان التى أشرنا إليها فى البند السابق ويختار أعضاء اللجان من بين أعضاء الوفود والخبراء، كما يختار لكل لجنة رئيس من بين رؤساء الوفود ، ومقرر أو أكثر من بين أعضاء الوفود أو الخبراء، ويكون لكل عضو فى اللجنة حق التصويت .

رابعا : لجنة الصياغة :

وتتكون من رؤساء اللجان كما يشترك فيها مقرر كل لجنة وقت النظر فى صياغة توصياتها التى تعرض على الدورة ، كذلك يشترك فيها ممثل لإدارة الحلقة ، ويعهد إلى لجنة الصياغة بتنسيق التوصيات المقترحة من مختلف اللجان ووضعها فى الصيغة التى تعرض على الجلسة العامة .

خامسا : لجنة الجزائر :

ونظراً للحرب القائمة فى الجزائر التى يكافح شعبها لنيل حريته واستقلاله والتى تأثر البيت العربى فيهابهذهالحرب إلى حد خطير فتهدم البيت فى كثير من مناطق النضال وشتت أفراد الأسرة ولم تتوافر الرعاية الواجبة لأعضائهلاسيما النساء والأطفال،فضلا عن أن هذا البيت كان قد أصابه من الاستعمار خلال أكثر من قرن وربع قرن ماهدد كيانه وكاد أن يصدع أركانه،فإن اللجنة التوجيهية للدورة قررت فى جلساتها الأولى التى سبقت الافتتاح أن تفرد لجنةخاصة للبيت العربى فى الجزائر تستعرض محنته القائمة وتوصى بما يجب للحفاظ على كيانه وتدبير وسائل الرعاية لأفراده .

سادسا : الهيئة الإدارية :

وهى التى سبق أن تولت الإعداد للحلقة وتتولى إجراءات إدارة العمل فيها .

١٣ — وكانت الحلقة فى دوراتها الثالثة والرابعة والخامسة قد وضعت نظاما للاشتراك فى أعمالها سواء بالنسبة للأعضاء أم للخبراء والمراقبين والمستمعين وطريقة اشتراكهم جميعا فى أعمال اللجان والجلسات العامة وغير ذلك .

وعلى هذا فقد أصبح نظام الاشتراك فى أعمال الدورة السادسة كالآتى :

أولا : الأعضاء

أعضاء وفد الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ووفود الدول العربية المشتركة فى الدورة هم أعضاء الحلقة ولهم حق المشاركة الكاملة فى أعمالها . ويصوت رئيس كل وفد عن وفده فى الجلسات العامة وله أن ينيب أحد أعضاء وفده فى حالة تغيبه .

ثانيا : المستشارون الملحقون بالوفود ولهم حق المشاركة فى مداولات الجلسات العامة كما يحق لهم التصويت بتكليف من رئيس الوفد فى اللجان التى يشتركون فيها .

ثالثا : الخبراء

للخبراء الذين تعينهم الأمانة العامة لجامعة الدول العربية حق المشاركة فى مداولات اللجان وأعمالها ولهم حق التصويت فى هذه اللجان بتكليف من رئيس وفد الأمانة العامة .

رابعاً : المراقبون

للمراقبين الذين توفدهم الهيئات الدولية أو الهيئات غير الحكومية حق حضور الجلسات العامة كما أن لهم حق المشاركة فى أعمال اللجان بإذن من رئيس اللجنة المختصة، ولرئيس اللجنة أن يمنحهم حق إبداء الرأى فى الجلسات التى يحضرونها .

خامساً : المستمعون

وهم الذين يدعون لحضور بعض اجتماعات الدورة وندواتها ومحاضراتها العامة أو الذين تأذن لهم إدارة الحلقة فى ذلك . وليس لهم حق المشاركة فى المناقشات .

جدول العمل :

١٤ — كانت الحلقة فى دورتيها الأولى والثانية قد استمر انعقادها ٢٥ يوما و ٢٣ يوما على التوالى ولكن رئى أن بالإمكان اختصار مدة الاجتماع فى الدورتين الثالثة والرابعة إلى ١٣ يوما ثم ١٥ يوما على التوالى . ثم اختصرت

المدة إلى عشرة أيام فى الدورة الخامسة . وقد كان الدافع إلى اختصار فترة الاجتماع ما لوحظ من أن المطلوب أن يكون تمثيل الدول والهيئات فى هذه الاجتماعات بواسطة فنيين من أعضاء الوفود يختارون من بين القائمين فعلا على شئون الرعاية الاجتماعية بالوزارات والإدارات المختصة من جهة، وبواسطة خبراء متخصصين فى هذه الشئون يدعون لحضور الاجتماعات من جهة أخرى ، رسميين أو غير رسميين . وهاتان الفئتان من الأشخاص يكون من العسير على أفرادهما المشاركة فى أعمال الدورة إذا استطال انعقادها ، ولذلك فقد وجد من الأوفق أن تختصر فترة الانعقاد وما يليها من رحلات أو زيارات ، وفى الوقت نفسه أمكن أن يتحقق اختصار الفترة بفضل الإعداد الفنى السابق للدورة خلال عامين أو أكثر وبفضل إعداد مشروعات للتوصيات يستعرضها الخبراء فى لجان أو مؤتمرات تمهيداً لأن تستعرضها الوفود أثناء انعقاد الدورة .

وقد أمكن فى ضوء هذه الاعتبارات والظروف أن تختصر الدورة الخامسة على النحو الذى أشرنا إليه فى مطلع هذا التقرير . فضلا عن أن تقسيم العمل بين اللجان أمكن به أن تنعقد فى وقت واحد، كما أن بعض اللجان استطاعت أن تقسم نفسها إلى لجان فرعية عالج كل منها جانبا من أعمال اللجنة وبحوثها وأعد توصياته ثم انعقدت شعب اللجنة آخر الأمر واستعرضت تقريرها وتوصياتها . وكانت اللجنة التوجيهية قد حرصت على أن تقترح على الجلسة العامة مشروعا لتوزيع الأعضاء والخبراء على اللجان بطريقة متكافئة ، كما أن لجنة الصياغة كانت تستعرض مشروعات التوصيات كلما انتهت منها لجنة من اللجان أولا بأول .

١٥ — وقد تفضلت الحكومة الليبية فوضعت تحت تصرف الدورة مبنى المجلس التشريعى لولاية برقة فكان وافيا بأغراض اجتماعات اللجان فى صورة سهلة ميسرة .

وفيما يلى موجز برنامج انعقاد الدورة وزياراتها اللاحقة :

اليوم السابق للدورة (الجمعة ١٧/٧/٥٩) وصول الوفود واستقبالها . تسجيل الأسماء وتسليم المطبوعات . اجتماع اللجنة التوجيهية .

السبت ١٨ — قيد الأسماء فى التشريفات الملكية . افتتاح الحلقة . جلسة عامة وتقسيم اللجان وانتخاب رؤسائها ومقرريها . اجتماعات اللجان . . ندوة عامة موضوعها البيت والمجتمع .

الأحد ١٩ — اجتماع اللجنة التوجيهية واجتماعات اللجان وزيارة لدار صيانة الطفل .

الاثنين ٢٠ — اجتماعات اللجان واللجنة التوجيهية ولجنة الصياغة . محاضرة عامة موضوعها (بيتنا العربى الكبير)

الثلاثاء ٢١ — رحلة إلى الجبل الأخضر وزيارة مركز التربية الأساسية .

الأربعاء ٢٢ — اجتماعات اللجان واللجنة التوجيهية ولجنة الصياغة . الجلسة الختامية وعرض توصيات اللجان .

من الخميس ٢٣ إلى الأحد ٢٦ } رحلة وزيارات لولاية طرابلس .

التوصيات

١٦ — تطورت الطريقة التى تعد بها لجان الحلقة توصياتها من دورة إلى دورة . ففى الدورتين الأوليين كانت التوصيات تتخذ صفة العموم لأن الحلقة كانت لاتزال فى مراحلها الأولى التى يرتاد فيها الباحثون موضوع الرعاية الاجتماعية ارتياداً عاما شاملا . ثم اتجه اختيار الموضوع بالتدريج نحو التخصص ، كما اتجهت الحلقة ابتداء من دورتها الثالثة نحو تكييف التوصيات بحيث تصبح عملية الطابع وقابلة للتنفيذ فى نطاق الإمكانيات القائمة . واتجه التطور فى صياغة التوصيات إلى أن أصبحت كل توصية تشير فى نهايتها إلى وسيلة تنفيذها . وإلى ذلك كله فقد تميزت تقارير اللجان وتوصياتها فى الدورة السادسة للحلقة بالنواحى الآتية :

(ا) كان موضوع الحلقة فى هذه الدورة موضوعا كبيرا متسع النواحى اقتضت دراسته الرجوع إلى مقومات البيت العربى فى البيئة والتاريخ والتعرف على مشكلاته فى حياته الحاضرة والامتداد ببرامج رعايته نحو المستقبل القريب على الأقل . ولذلك كله فإن أعمال اللجان فى هذه الدورة كانت أوسع مدى مما حدث فى بعض الدورات السابقة . (لاسيما الدورتين الرابعة والخامسة) كما أن التوصيات التى انتهت إليها كل لجنة كانت أوفر عدداً .

(ب) نظراً لأن دراسة موضوع البيت العربى والإعداد للحلقة ومناقشة البحوث ومشروعات التوصيات المبدئية قد استمرت خلال مايقرب من ثلاثة أعوام فإن أثر هذه الدراسة الطويلة التى لم تتح لأية دورة من الدورات السابقة قد ظهر فى أعمال اللجان وما انتهت إليه من توصيات نستطيع أن نسجل فى اطمئنان أنها استندت إلى قدر مستفيض من التفكير والدراسة والتمحيص، ولعل هذا أن يكون داعياً بالنسبة للمستقبل إلى أن تستطيل فترة الإعداد لمثل هذه الدورات، فكلما امتدت الفترة بين كل دورة وأخرى كان ذلك داعيا إلى المزيد من الدراسة والمشاورة . ولقد قطع عالمنا العربى حتى الآن مرحلة طيبة من مراحل الدراسة فى الشئون الاجتماعية كما أن كثيراً من مشروعات الرعاية التى تمخضت عنها تلك الدراسة قد وجد سبيله إلى التطبيق العملى، ولكن الدرس الذى نخرج به من استعراض نتائج أعمال لجان هذه الدورة السادسة هى أننا وقد قطعنا المرحلة الأولى التى كانت مشروعات الرعاية الاجتماعية تطبق فيها على سبيل الإسعاف العاجل، فإننا قد وصلنا الآن مرحلة يمكن فيها أن نخصص مزيداً من الوقت لدراسة مشروعات الرعاية الاجتماعية دراسة أوفى، وإن أدى ذلك إلى تأجيل تطبيقها بعض الشىء أو إلى أن ينحصر تطبيقها فى تجارب محدودة النطاق قبل أن توسع إلى نطاق أبعد مدى فى رعاية المجتمع .

(ج) كان موضوع الدورة هو البيت العربى فى بيئاته المختلفة — فى البادية والريف والحضر — وفى مراحل تطوره فى مختلف جهات العالم العربى . وعلى الرغم من قيام بعض التفاوت فى الحالة الاجتماعية لهذا البيت من مكان إلى مكان ، وكذلك على الرغم من تعرض البيت العربى لدرجات متفاوتة من التأثر بالبيئات المجاورة والمجتمعات غير العربية ، فإن دراسات اللجان المختلفة فى هذه الدورة وتوصياتها قد أبرزت وحدة الطابع العام لهذا البيت والقدر العربى فى حياته . وقد تكون هذه النتيجة التى نستقيها من تقارير اللجان وتوصياتها أمراً طبيعياً ومعقولا، ولكن بروزها فى هذه الصورة الواضحة ونتيجة لمثل هذه الدراسة المستفيضة أمر يستحق التسجيل .

(د) اتبعت اللجان فى دراساتها وإعداد تقاريرها وتوصياتها طريقة اكتسبتها الحلقة من خبرتها السابقة حتى اتخذت شكلا واضح المعالم فى هذه الدورة السادسة . ذلك أن من يتابع أعمال اللجان يجد أنها عمدت أولا إلى إبراز الأسس التى خرجت بها من دراساتها والتى بنت عليها توصياتها ثم اتبعت ذلك بسرد التوصيات فى صورة موجزة واضحة . ولعل هذه الطريقة فى عرض التوصيات أن تعبر تعبيراً أصدق عما بذلت لجان الدورة من جهد فى استعراض البحوث واستخلاص الآراء والمقترحات منها، وبذلك فإننا نستطيع أن نسجل أن التوصيات التى انتهت إليها اللجان لم تكن مجرد صياغة لآراء أو رغبات أبديت أو أبرزتها المناقشة خلال الدورة بقدر ماجاءت منبثقة عن البحوث التى أعدت ونوقشت خلال ثلاثة أعوام .

(هـ) على الرغم من أن تفريعات موضوع الدراسة قد وزعت على عدد من اللجان فإن هذه الدورة امتازت بإحكام الصلة بين اللجان المختلفة، وبذلك تحاشت الدورة التداخل بين التوصيات إلى درجة ظاهرة، وإن كان قد ترتب على ذلك أن ازداد الترابط بين أعمال اللجان وتوصياتها إلى حد أن أصبح من العسير الخروج بصورة وافية ومتكاملة عن أعمال الدورة وتوصياتها إذا لم تؤخذ هذه التوصيات كوحدة مترابطة الأطراف .

(و) وإلى جانب ذلك فقد عمدت اللجان — أو بعضها — إلى تبويب توصياتها وبيان الأساس الذى وضعت عليه هذا التبويب . ومن ذلك على سبيل المثال اللجنة التى عالجت مشكلات البيت العربى فبوبتها إلى مشكلات بيئية وأخرى أسرية وثالثة فردية، ولعل مثل هذا التبويب الذى اتبعته أكثر من لجنه أن يكون سبيلا إلى تبسيط متابعة أعمال الدورة وتنفيذ توصياتها .

(ز) تابعت اللجان فى هذه الدورة السنة التى سارت عليها فى الدورات السابقة من وضع توصيات توجه إلى الدول الأعضاء للتنفيذ وأخرى توجه إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ولكنها توسعت بعض الشىء فأوردت توصيات أخرى توجه إلى القطاع الأهلى فى الرعاية الاجتماعية وقد كان هذا أمراً طبيعياً ومحموداً بالنسبة لموضوع الحلقة فى هذه الدورة .

اشتراك الدول والهيئات الدولية والأهلية :

١٧ — كانت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية قد انفردت فى هذه المرة بتنظيم الدورة والدعوة إليها ثم اشتركت فيها — كما حدث فى الدورات السابقة كلها — بوفد يمثلها . واستجابت الدول العربية استجابة طيبة للدعوة فاشتركت وفود تمثل كل من :

المملكة الليبية المتحدة (الدولة المضيفة) — المملكة الأردنية الهاشمية — جمهورية العراق — المملكة العربية السعودية — الجمهورية العربية المتحدة — جمهورية لبنان — المملكة المتوكلية اليمنية — الكويت — الجزائر .

كما استجابت الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة فحضر ممثلون للأمم المتحدة وهيئة اليونسكو ومكتب العمل الدولى والهيئة الصحية العالمية وهيئة الأغذية والزراعة واللجنة الاقتصادية الأفريقية .

وكذلك اشترك عدد من ممثلى الهيئات الرسمية والجهات العاملة فى نطاق رعاية الأسرة فى القطاع الأهلى فى بعض

الدول العربية، وبذلك جاءت الاستجابة للدعوة إلى الدورة فى نطاق واسع المدى كما كان له أحسن الأثر وأقواه فى نجاح أعمالها . ومما يستحق التسجيل أن الدول والهيئات التى اشتركت فى الدورة قد عنيت أشد العناية باختيار أعضاء وفودها وممثليها فجاءوا من المشتغلين فى شئون الرعاية الاجتماعية والخبراء العاملين فى ميادينها المختلفة، كما جاءت طائفة كبيرة منهم من المشتغلين فعلا بشئون البيت العربى والدراسات المتصلة به ومشروعات الرعاية التى تمس حياته، كما أن المرأة العربية قد برز نصيبها فى أعمال هذه الدورة وكان ذلك أمراً طبيعيا من جهة وعاملا فعالا فى تحقيق ما انطوت عليه التوصيات من وجهة نظر متكاملة فى شئون الأسرة العربية من جهة أخرى .

وإنه ليسرنا أن نسجل فى هذه المناسبة اشتراك الجزائر لأول مرة فى حلقة الدراسات الاجتماعية وإننا لنرجو ألا يحل موعد الدورة القادمة إلا وتكون أرض الجزائر قد حررت من الاستعمار وتحقق ما تمناه ممثلها فى هذه الدورة من إمكان انعقاد إحدى الدورات المقبلة فى أرض هذا الجزء العزيز من الوطن العربى .

وقد بلغ عدد من اشتركوا فى الحلقة ٧٣ وهو عدد وإن بدا أقل من الأعداد التى اشتركت فى بعض الدورات السابقة فإنه قد أبدى من الاهتمام الصادق العميق والتفرغ الكامل للعمل إبان الدورة ما كان العامل الأول فيما وفقت إليه من نجاح.

الخبراء :

١٨ — جرى العمل فى الدورات السابقة على الاستعانة بطائفة من الخبراء العرب أو غيرهم من المهتمين بشئون المجتمع العربى . ولكن معظم الخبراء فى الدورات السابقة كانت صلتهم بأعمال الدورة لا تبدأ إلا قبيل انعقادها بفترة وجيزة، إذ يكلفون بإعداد بحث من البحوث أو عرض مسألة من المسائل أو التعليق عليها أبان الاجتماع . ولكننا إذا أردنا أن نحصى الخبراء الذين اشتركوا فى أعمال هذه الدورة السادسة أو اتصلوا بها فإن علينا أن نرجع إلى مبدأ اختيار موضوعها وإلى اللجان التحضيرية العديدة التى انعقدت خلال قرابة ثلاثة أعوام وإلى مؤتمرى خبراء الشئون الاجتماعية اللذين انعقدا بالكويت ثم بالقاهرة فى عامى ١٩٥٨ ثم ١٩٥٩ . ولئن فعلنا ذلك فإننا نجد أن عشرات من أولئك الخبراء قد اشتركوا فى الإعداد لهذه الدورة ومتابعة مراحل العمل فى ذلك . فضلا عن أن الغالبية العظمى من أعضاء الوفود إلى بنغازى كانوا فعلا من الخبراء بطبيعة أعمالهم . ولذلك كله فان إدارة الحلقة قد استطاعت فى هذه الدورة أن تكتفى بأربعة من الخبراء حضروا بدعوة من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية إلى جانب الخبراء الذين مثلوا الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة وقد بلغوا سبعة خبراء .

وقد شارك أولئك وهؤلاء مشاركة طيبة ومثمرة فى أعمال لجان الدورة .

التنظيم الإدارى للدورة :

١٩ — بدأ التنظيم الإدارى للدورة منذ أوائل عام ١٩٥٩ وتولته إدارة الشئون الاجتماعية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية التى عينت ممثلا لها ليعمل مع ضابط الاتصال الذى عينته الحكومة الليبية ودعته الأمانة العامة ليحضر إلى القاهرة حيث وضعت الترتيبات اللازمة لإنجاز الأعمال الإدارية والترتيبات الخاصة بتوجيه الدعوات والاتصال

بالخبراء وأعضاء الوفود فور تعيينهم و استكمال جمع البحوث ومشروعات التوصيات التى أعدتها اللجان والمؤتمرات السابقة وغير ذلك . ثم أوفدت إدارة الشئون الاجتماعية بالأمانة العامة ممثلها إلى بنغازى قبل انعقاد الدورة بنحو أسبوعين حيث تابع اتصاله هناك بالقائمين على شئون الدورة من الجانب الليبى حتى تم الاستعداد واستكملت عناصره قبل اليوم المحدد لافتتاح الدورة . وقد تم التعاون فى ذلك على أكمل وجه بين السلطات الليبية والأمانة العامة للجامعة

ويسرنى بهذه المناسبة أن أسجل لحكومة المملكة الليبية المتحدة ووزارة المعارف وإدارة الشئون الاجتماعية الليبية بصفة خاصة ما أفردت لهذه الدورة من عناية بالغة وما بذلت من جهد صادق فى سبيل تيسير أعمالها على خير وجه كما أسجل للمجلس التشريعى بولاية برقة ما تفضل به حين وضع مبناه تحت تصرف الدورة ، وقد كانت لفتة كريمة من الهيئة التشريعية لهذه الولاية . كما أن سائر وزارات الحكومة الليبية وإداراتها التنفيذية فى كل من ولايتى برقة وطرابلس قد قدمتا جميع التسهيلات التى اقتضاها حسن سير العمل فى الدورة وخلال الزيارات التى قمنا بها مما جعل الإقامة فى أرض ليبيا الشقيقة من مباهج هذه الدورة وأشعر أعضاء الحلقة فى زياراتهم للجبل الأخضر ولكثير من مناطق ولاية طرابلس بأنهم إنما يقيمون وينتقلون فى بلدهم وبين أهليهم ؛ وقد توج أعمال الدورة ما كان من رعاية مليك البلاد المعظم فقد أناب عنه مندوبا لافتتاحها وتابع أعمالها ومداولاتها بكل اهتمام .

ويسرنى أن أسجل بالشكر الصادق المجهود الذى بذله السيد أبو بكر نعامة رئيس الدورة ومندوب الملك السنوسى المعظم فقد شارك فى أعمالها واجتماعات لجانها ورحلاتها وعاونه السادة حسين غرور نائب رئيس الوفد الليبى ومحمود البشتى مدير المصارف وخبير الأمانة العامة ومحمد المريمى مدير الشئون الاجتماعية ومصطفى بن شعبان ضابط الاتصال .

كما يسعدنى أن أسجل بصفة خاصة ومن جانب الأمانة العامة لجامعة الدول العربية مشاركة السيد الأستاذ محمد حسن العشماوى رئيس وفد الأمانة العامة فى أعمال الدورة منذ اللحظة الأولى للاعداد لها . فقد تابع هذه العملية بأشد اهتمام خلال الفترة كلها وبوصفه المشرف على إدارة الشئون الاجتماعية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية التى وقع عليها عبء التنظيم والتمهيد والتحضير لدورة تعتبر من أنجح دورات حلقة الدراسات الاجتماعية . وقد كان لخبرة سيادته الطويلة بشئون الحلقة التى اشترك فى جميع دوراتها فضل مذكور فيما وفقت إليه . وقد عاونه فى هذه الدورة طائفة من رجال إدارة الشئون الاجتماعية أذكرمنهم بالشكر والثناء المستطاب الأستاذ عبد المنعم خلاف مدير إدارة الشئون الاجتماعية وأحد مساعدى مدير الحلقة وقد تابع أعمال التحضير للحلقة وشارك فى إعداد بحوثها ومناقشتها فى اللجان المختلفة قبل الدورة وأبانها ، وكذلك الأستاذ توفيق حسن وصفى سكرتير الدورة وممثل إدارة الشئون الاجتماعية فى التنظيم الإدارى لها بالقاهرة وبنغازى وطرابلس فقد بذل من الجهد وتحمل من المشقة مايستحق كل ثناء وتقدير وكان موفقاً غاية التوفيق فى كل ما قام به من مجهود متواصل مثمر .

الزيارات والرحلات :

٢٠ — إن كرم الضيافة من تقاليدنا العربية الأصيلة ، ولقد ضربت الهيئات الحكومية وغير الحكومية فى ليبيا المثل أروع المثل فى هذه الناحية فاحتفلت بالمشتركين فى الحلقة وكفلت أسباب الراحة لهم فى كل مكان حلوا فيه .

فاستقبلهم السيد رئيس الحكومة الاتحادية وكل من السيدين والى طرابلس ووالى برقة (بالأنابة) أجمل استقبال وأروعه واحتفل بهم السيد وزير المعارف فى بنغازى وفى موطنه الأصلى بالريف وكذلك رئيس وأعضاء المجلس التشريعى البرقاوى وناظر المواصلات (والسياحة) بطرابلس ومتصرف مصراته وغيرهم من الهيئات والأفراد . وقد خصص فى البرنامج عدد من الزيارات والرحلات فخرج الأعضاء فى رحلة يوما كاملا إلى منطقة الجبل الأخضر حيث زاروا مناطق استصلاح الأراضى والاستقرار الجديدة فى هذه المنطقة كما زاروا عددا من المؤسسات الاجتماعية فى مدينة بنغازى (دار صيانة الطفل ومركز التربية الأساسية) . ثم خرج الأعضاء فى رحلة طويلة إلى ولاية طرابلس حيث زاروا مناطق التوسع والإصلاح الزراعى الحديث وبعض القرى التى استقر فيها صغار الزراع وملكوا الأراضى المستصلحة كما زاروا المناطق الأثرية وبعض معالم مدينة طرابلس وقد كانت هذه الزيارات كلها وسيلة طيبة لإحكام التعارف بطائفة كبيرة من إخواننا الليبيين من غير أعضاء الدورة .

تنظيم إستمرار الحلقة :

٢ — لقد أصبحت هذه الحلقة تقليداً طيباً وطيد الأركان بعد أن بدأت الأمم المتحدة فدعت إليها ، وانطوى تنظيمها لها على اعتراف دولى حميد بوحدة المجتمع العربى والأمة العربية . ثم جاءت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية فحملت جانبا من العبء ثم احتملت العبء كله فى هذه الدورة الأخيرة التى نظمتها ودعت إليها . وليس من الكثير أن نسجل هنا أن هذه الحلقة بما حققت من دراسات طيبة وبما انتهت إليه من توصيات وجد جانب كبير منها سبيله إلى التنفيذ فى البلاد العربية . . . ليس من الكثير أن نسجل أنها قد أصبحت وسيلة نافعة لتحقيق ماتستهدفه أمتنا العربية من نهضة اجتماعية تبرز بها شخصية مجتمعنا العربى الموحد ويتكامل عن طريقها التعاون المثمر بين المشتغلين بالرعاية الاجتماعية فى مختلف أقطار العروبة . بل إنه ليس كثيراً أن نسجل أن هؤلاء المشتغلين بالشئون الاجتماعية من العرب قد لمسوا فى عناية الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بهذه الحلقة ما يحقق أملهم فى هذا الجهاز العربى الرسمى الذى يعمل من أجل إرساء الوحدة العربية الشاملة على أساس من التعاون بين العاملين من أبنائها .

ولقد جمعت هذه الحلقة فى دوراتها المتتابعة بين الباحثين والدارسين من جهة وبين القائمين على التنفيذ من جهة أخرى فيما يتصل بشئون الرعاية الاجتماعية فى العالم العربى . فضلا عن أن نشر أعمالها فى سجلات تصدر فى سلسلة من الكتب والمراجع قد جعل من بحوث الحلقة ذخيرة طيبة ومعينا لأبناء الجيل الصاعد من الباحثين وراء المعرفة بشئون المجتمع العربى .

ولقد تزايد الشعور بين الباحثين والخبراء والمنفذين الفنيين فى شئون الرعاية الاجتماعية فى البلاد العربية . . . تزايد الشعور دورة بعد دورة بالحاجة إلى الاستمرار فى أعمال هذه الحلقة وعقد دوراتها .

فكان أعضاء كل دورة يختمون أعمالها بأن يتدارسوا مايصح أن تتناوله الدورة المقبلة من موضوعات وفى هذه المرة استعرض أعضاء الحلقة وخبراؤها فى لجنتهم التوجيهية مايستحسن أن يدرس فى الدورة المقبلة . فاختاروا موضوعا يعتبر من موضوعات الساعة بالنسبة للأمة العربية فى مجموعها فى عهد النهضة والتصنيع الحديث وفى عهد

اكتشاف البترول والتوسع فى استغلاله فى كثير من أركان العالم العربى، بل عهد التنمية والنهضة الصناعية وظهور مشكلات اجتماعية متعددة تترتب على التصنيع وعلى قيام فئات بل طبقات من العمال الذين يخرجون أصلا من بيئات زراعية أو رعوية ليشتغلوا فى الصناعة ومايتصل بها من أسباب العيش . ولذلك كله فقد اختارت الحلقة هذه المرة موضوع (الرعاية الاجتماعية للعمال) ليكون موضوعا للدورة المقبلة. وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن اختيار مثل هذا الموضوع يعتبر اختياراً موفقاً فهو وإن كانت بعض جوانبه قد عولجت فى الدورات السابقة لاسيما الدورة الرابعة التى انعقدت ببغداد عام ١٩٥٤ فإنه موضوع حيوى تسير التطورات فيه بسرعة بحكم طبيعة التطور الصناعى . ومن الخير ألا يسبقنا الزمن فى مثل هذا الجانب الخطير من حياتنا المعاصرة .

بل من الخير أن نسعى أن تتقدم دراساتنا فى هذا المجال بحيث تلاحق التطور المادى بل وتسعى أن تسبقه بعض الشىء، فإن الثورة الصناعية التى عرفتها أوربا قبلنا قد صاحبتها اضطرابات اجتماعية بالغة الخطورة. وإن الحكمة تقتضينا فى المشرق العربى المتطور أن نتخذ من الدراسة العميقة وسيلة نجنب بها مجتمعنا ماقد يتعرض له ونرسم فى هديها مشروعاتنا للرعاية الاجتماعية للطبقة العاملة .

وفضلا عن ذلك فإن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية قد عقدت فى الفترة الأخيرة اتفاقا مع هيئة العمل الدولية يرمى إلى توطيد التعاون بين الجانبين فى سبيل الدراسات الاجتماعية المتصلة بالطبقة العاملة . ولا شك أن تخصيص الدورة القادمة للرعاية الاجتماعية للعمال يكون وسيلة طيبة يوضع بها الاتفاق الجديد موضع التنفيذ ويتم التعاون عن طريق ذلك بين الأمانة العامة وهيئة العمل الدولية على نحو يفيد العالم العربى أحسن الفائدة إن شاء الله .

٢٢ — كذلك قد جرت العادة فى الدورات السابقة على أن يبحث الأعضاء احتمالات اجتماع الدورة التالية ومكانها . ولقد تذاكر أعضاء الدورة هذا الموضوع وكان الاتجاه العام إلى أن من خير التقاليد التى سارت عليها حلقة الدراسات الاجتماعية أنها كانت على الدوام تنتقل من عاصمة عربية إلى عاصمة عربية أخرى فانعقدت فى بيروت والقاهرة ودمشق وبغداد وعمان وبنغازى . والاتجاه الطبيعى أن تساير الحلقة تنقلها فتعمل الأمانة العامة والدول الأعضاء على أن تنعقد فى عاصمة لم تجتمع فيها الحلقة من قبل . إذ أن هذه الدورات المتتابعة وسيلة صالحة يتعرف بها المشتغلون بالشئون الاجتماعية على بيئات العروبة ومجتمعاتها المحلية فى الأقطار العربية المختلفة ، كما أن انتقال الحلقة إلى بلد عربى جديد يعرف هذا البلد بما تحققه الأمانة العامة عن طريق مثل هذه الحلقات والمؤتمرات والندوات من تعاون بين أبناء الأمة العربية القائمين على شئون الرعاية الاجتماعية ويعاون معاونة فعالة على خلق وعى عربى مستنير وتقوية الرأى العام واستثارته فى سبيل الانطلاق نحو النهضة الاجتماعية الشاملة التى هى سبيلنا إلى استعادة أمجادنا وبعث وحدتنا العربية الخالدة .

والله ولى التوفيـــق .

ثبت الأسماء

* الهيئة الادارية للحلقة
* الأعضاء والمراقبون
* بيان اللجان ورؤسائها ومقرريها وأعضائها
* برنامج الندوة

الهيئة الإدارية للحلقة

الرئيس :	السيد الأستاذ أبو بكر نعامه	وزير المعارف الليبية
نائب الرئيس :	« « محمد حسن العشماوى	رئيس وفد الأمانة العامة لجامعة الدول العربية
المدير :	« الدكتور سليمان حزين	رئيس لجنة الشئون الاجتماعية بالجامعة العربية ومدير جامعة أسيوط
مساعد المدير :	« الأستاذ محمد حسن المريمى	مدير الشئون الاجتماعية (ليبيا)
مساعد المدير :	« الأستاذ عبد المنعم خلاف	مدير إدارة الشئون الاجتماعية والصحية (الجامعة العربية)
السكرتير العام :	« « توفيق حسن وصفى	إدارة الشئون الاجتماعية (الجامعة العربية)
ضابط الاتصال:	« « مصطفى بن شعبان	وزارة المعارف (ليبيا)
الملحق الصحفى:	« « قاسم الخطاط	إدارة الاستعلام والنشر (الجامعة العربية)

الأعضاء والمراقبون

مدير الحلقة — الدكتور سليمان حزين

الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

١ — الأستاذ محمد حسن العشماوى — رئيس
٢ — « عبد المنعم خلاف
٣ — « توفيق حسن وصفى
٤ — الدكتور ناصر الدين الأسد
٥ — الأستاذ ابراهيم الملائكة
٦ — « قاسم الخطاط

المملكة الليبية المتحدة

١ — الأستاذ أبو بكر نعامة — رئيس
٢ — « حسين غرور — نائب رئيس
٣ — « محمد حسن المريمى
٤ — « سالم عميش
٥ — « عبد الحميد عبد القادر
٦ — « شفيق العرادى
٧ — « مصطفى بن شعبان
٨ — « عبد الرزاق عمير
٩ — « عثمان بن عامر
١٠ — « محمد عبد الله المير
١١ — « على الأورفلى
١٢ — الدكتور على عيسى — مستشار

ملحقون بالوفد

١ — السيد رمضان الجريبى
٢ — السيد رجب ساسى
٣ — السيد عبد الحميد الطيار
٤ — السيد عبد الكريم بالو
٥ — السيد احمد بن خيال
٦ — السيد على أبو النور

المملكة الأردنية الهاشمية

١ — الأستاذ أمين يونس الحسيني رئيس
٢ — « على خريس

جمهورية العراق

١ — الآنسة أديبة ابراهيم رفعت رئيسة
٢ — الدكتورة لمعان أمين زكي
٣ — الآنسة محاسن الكيلاني
٤ — « باسمة الظاهر
٥ — « أمل الخضيري
٦ — « سهيلة شهيب

المملكة العربية السعودية

١ — الدكتور حسني الطاهر رئيس
٢ — الأستاذ محمد الفريح
٣ — « عبد الملك فراش

الجمهورية العربية المتحدة

١ — الأستاذ يحيى حسن درويش رئيس
٢ — الدكتور شفيق الصناديقي
٣ — السيدة فاطمة بهي الدين
٤ — الدكتور بدراوي فهمي
٥ — الأستاذ مصطفى المسلماني
٦ — « عبد الرحمن الأمير

جمهورية لبنان

الأستاذ عباس فرحات

المملكة المتوكلية اليمنية

يمثلها وفد الجمهورية العربية المتحدة

إمارة الكويت

١ — الأستاذ حمد الرجيب رئيس
٢ — « جاسم بروسلى
٣ — « محمد هام الهاشمى
٤ — الدكتور صلاح أيوب

حكومة الجزائر

الأستاذ أحمد بوده

خبراء إقليميون

١ — الأستاذ محمود البشتى (ليبيا)
٢ — الدكتور محيى الدين صابر (السودان)
٣ — « عبد الوهاب البرلسى (ج.ع.م)
٤ — « على فؤاد أحمد (ج.ع.م)

الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة

الأمم المتحدة

السيد راموندرا باسو

هيئة العمل الدولية

الدكتور محمد عزيز المراغى

هيئة الصحة العالمية

الدكتورة سلوى خورى عتق

هيئة الزراعة والأغذية

الآنسة مونا دوس

اليونسكو

السيد مير معظم حسين
الأستاذ حفص عمر السقا

مركز التربية الأساسية للعالم العربى بسرس الليان

الدكتور عبد المنعم شوقى

المراقبون

المجلس الأعلى للآداب والعلوم والفنون (ج.ع.م)

١ — الدكتور عبد الكريم اليافى

٢ — « السيد بدوى

المعهد العالى للصحة العامة بالاسكندرية (ج.ع.م)

الدكتور محمود رشيد بركات

المركز النموذجى لتوجيه ورعاية المكفوفين بالزيتون (ج.ع.م)

١ — الأستاذ يحيى حسن درويش

٢ — الدكتور بدراوى فهمى

٣ — الأستاذ توفيق حسن وصفى

جمعية النهضة النسائية ببنغازى :

السيدة حميدة العنيزى

جمعية صيانة الطفل ببنغازى :

السيد عمر كانون

« حامد الشويهدى

رابطة الإصلاح الاجتماعى بالاقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة :

١ — الأستاذ محمد حسن العشماوى

٢ — السيد سيد مصطفى

٣ — الأستاذ توفيق حسن وصفى

الجمعية المصرية للاخصائيين الاجتماعيين بالقاهرة :

دكتور بدراوى فهمى

الرابطة المصرية للخدمة الاجتماعية واتحاد الاخصائيين الاجتماعيين بالاسكندرية

الأستاذ توفيق حسن وصفى

الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية بالقاهرة :

الأستاذ محمد حسن العشماوى

الدكتور بدراوى فهمى

جماعة الرواد (ج. ع. م):

الدكتور عبد الوهاب البرلسى

اللجنة الاقتصادية والاجتماعية الأفريقية:

السيد راموندرا باسو

النيابة العامة لولاية برقة:

الأستاذ عبد الحميد الرعيص

الهيئة الرياضية العليا لولاية برقة:

السيد عياد أدريزه

الصحافة والإذاعة الليبية ووكالات الأنباء:

السيد عبد الله عبد المجيد

« مختار الأشهب

« محمد بن صويد

« عبد المولى لنقى

« أحمد برهومه

« على برهومه

« طالب الرويمى

« عقيله بالعون

« صدق الجربى

« عبد المجيد بوجازيه

« عبد الغنى الفاخرى

بيان اللجان ورؤسائها ومقرريها وأعضائها

الندوة الأولى (الكويت) والندوة الثانية (بنغازى) :أوجه رعاية البيت العربي

الرئيس : الأستاذ محمد حسن العشماوى

المقررون : الدكتور ناصر الدين الأسد
الدكتور صلاح أيوب
الأستاذ عثمان بن عامر

المتحدثون : الأستاذ أمين يونس الحسينى
السيدة فاطمة بهى الدين
الأستاذ توفيق حسن وصفى
« حمد الرجيب
الدكتور سليمان حزين
الدكتور سليم حيدر
الدكتور عبد الجليل الطاهر
« عبد الحميد يونس
الأستاذ عبد العزيز حسين
الدكتور عبد الكريم اليافى
الأستاذ عبد المنعم خلاف
الدكتور عبد الوهاب البرلسى
الدكتور على عيسى
الشيخ محمد أبو زهرة
الأستاذ محمد الفريح
« محمد حسين المخزنجى
الدكتور محمد عزيز المراغى
الدكتور محى الدين صابر
الأمير مصطفى الشهابى
الدكتور مصطفى زيور
الدكتور ناصر الدين الأسد
الأستاذ يحيى حسن درويش

اللجنة الأولى أسس البيت العربى ومقوماته

الرئيس : الأستاذ أمين يونس الحسينى

المقران : الأستاذ محمد الفريح

الدكتور محيى الدين صابر

الأعضاء : الآنسة محاسن الكيلانى

الأستاذ محمود البشتى

الدكتور على عيسى

الدكتور ناصر الدين الأسد

السيدة فاطمة بهى الدين

الأستاذ إبراهيم الملائكة

الأستاذ عبدالرحيم بالو

اللجنة الثانية : الخدمات الخاصة بالبيت العربى

الرئيس : الأستاذ يحيى حسن درويش

المقررون : الدكتور بدراوى فهمى

الدكتور على فؤاد أحمد

الأستاذ عبدالملك فراش

الأعضاء : الدكتورة لمعان أمين زكى

الأستاذ على الأورفلى

الدكتور عبدالوهاب البرلسى

الدكتورة سلوى خورى

الأستاذ عبدالعزيز عبدالقادر

الدكتور صلاح أيوب

الأستاذ محمد عزيز المراغى

الأستاذ توفيق حسن وصفى

اللجنة الثالثة : التشريعات الخاصة بالبيت العربى

الرئيس : الدكتور حسنى الطاهر

المقررون :الأستاذ محمد حسن المريمى

« على خريس

« قاسم الخطاط

الأعضاء : الأستاذ محمد حسن العشاوى

« عبدالرحمن الامير

« عبدالرزاق عمير

« عبدالحميد عبدالقادر

الدكتور محمد عزيز المرانمى

« صلاح أيوب

الآنسة سهيلة شبيب

اللجنة الرابعة : المشكلات التى تواجه البيت العربى

الرئيس : الدكتور شفيق الصناديق

المقررون : الأستاذ مصطفى المسلمانى

« سالم عميش

« جاسم بورسلى

الأعضاء :ا لأستاذ مصطفى بن شعبان

« عثمان بن عامر

الدكتور عبدالكريم اليافى

الأستاذ توفيق حسن وصفى

الآنسة أمل الخضيرى

« باسمه الظاهر

اللجنة الخامسة : برامج النهوض بالبيت العربى

الرئيس : الاستاذ حمد الرجيب

المقررون : الأستاذ محمد همام الهاشمى

« محمد عبدالله المير

الدكتور عبدالمنعم شوقى

الاعضاء : الاستاذ حسين غرور
الدكتورة سلوى خورى
الأستاذ حفص عمر السقا
« عباس فرحات
المستر باسو
الآنسة أديبة رفعت
الأستاذ شفيق العراوى
« سالم عميش
الدكتور محمود رشيد بركات

لجنة البيت الجزائرى :

الرئيس : الأستاذ عبدالمنعم خلاف
المقرران : الأستاذ أحمد بوءه
« شفيق العراوى
الأعضاء : الأستاذ محمد حسن العشماوى
الأستاذ حسين غرور
الأستاذ يحيى حسن درويش
الأستاذ أمين يونس الحسينى
الآنسة أديبة رفعت
الأستاذ عباس فرحات
الأستاذ عبدالرزاق عمير

لجنة الصياغة :

الرئيسة : الآنسة أديبة ابراهيم رفعت
المقرران : الأستاذ توفيق حسن وصفى
الدكتور ناصر الدين الأسد
الأعضاء : رؤساء ومقررو اللجان
الهيئة الإدارية للحلقة

برنامج الدورة

تحت الرعاية الملكية السامية

حلقة الدراسات الاجتماعية

الدورة السادسة

بنغازى — طرابلس (١٨ — ٢٦ يوليو ١٩٥٩)

اليوم والتاريخ	الساعة	وقائع البرنامج
الجمعة ١٧/٧/٥٩	٢,٠٠م	وصول الوفود . قيد الأسماء
	٥,٠٠	تسجيل الأسماء وتسلم المطبوعات
	٦,٠٠	اجتماع اللجنة التوجيهية (إدارة الحلقة ورؤساء الوفود)
السبت ١٨/٧/٥٩	٩,٠٠ص	افتتاح الحلقة — كلمة مندوب مولانا الملك المعظم — وكلمات رؤساء الوفود ومدير الحلقة .
	١٠,٣٠	جلسة عامة — تقسيم اللجان ، انتخاب رؤساء ومقررى اللجان
	١١,٣٠	اجتماعات اللجان .
	٥,٠٠م	ندوة عامة موضوعها (البيت والمجتمع)
	٨,٠٠م	عشاء بدعوة من مندوب مولانا الملك المعظم ووزير المعارف ورئيس الحلقة .
الأحد ١٩/٧/٥٩	٨,٠٠ص	اجتماع اللجنة التوجيهية .
	٩,٠٠ / ١٢,٠٠	اجتماعات اللجان .
	١٢,٠٠	زيارة دار صيانة الطفل .
	٥,٠٠م	حفل استقبال بدعوة من حكومة ولاية برقة
	٦,٠٠ / ٨,٠٠	اجتماعات اللجان

اليوم والتاريخ	الساعة		وقائع البرنامج
الاثنين ٥٩/٧/٢٠	٨٫٠٠	ص	اجتماع اللجنة التوجيهية
	٩٫٣٠		اجتماعات اللجان
	٢٫٠٠	م	غداء بدعوة من رئيس وأعضاء المجلس التشريعى البرقاوى
	٤٫٠٠		زيارة معرض نظارة المعارف بولاية برقة
	٥٫٠٠		اجتماع لجنة الصياغة ، واجتماعات اللجان
	٧٫٣٠		محاضرة عامة للأستاذ الدكتور سليمان حزين مدير الحلقة موضوعها (بيتنا العربى الكبير) .
الثلاثاء ٥٩/٧/٢١	٨٫٠٠	ص	رحلة إلى مدينة شحات الأثرية
	٧٫٠٠	م	العودة إلى بنغازى
الأربعاء ٥٩/٧/٢٢	٨٫٠٠	ص	اجتماع اللجنة التوجيهية
	٩٫٠٠		اجتماعات اللجان
	١١٫٠٠		اجتماع لجنة الصياغة
	١٢٫٠٠		زيارة مركز رعاية الأمومة والطفولة
	٥٫٠٠	م	الاجتماع الختامى العام لعرض توصيات اللجان والجلسة الختامية
	٨٫٣٠		عشاء بدعوة من رئيس وفد الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ونائب رئيس الحلقة بمطعم الفردوس .
الخميس ٥٩/٧/٢٣	٣٫٣٠	ص	القيام من بنغازى بالسيارات
	٧٫٠٠		الإفطار فى إجدابيا
	١٫٠٠		الغداء فى سرت . راحة
	٧٫٣٠	م	الوصول إلى مصراته والمبيت بها
الجمعة ٥٩/٧/٢٤	٧٫٠٠	ص	القيام من مصراته
	٩٫٣٠		زيارة آثار لبده
	١٢٫٠٠		الوصول إلى وادى شرشاره وتناول الغداء بدعوة من سيادة رئيس الحلقة ووزير المعارف الليبية
	٧٫٠٠	م	الوصول إلى طرابلس
السبت ٥٩/٧/٢٥	٨٫٠٠	ص	برنامج زيارات فى ولاية طرابلس
	٧٫٠٠	م	حفل يقيمه ناظر الأشغال بولاية طرابلس ثم الاجتماع الختامى للدورة
الأحد ٥٩/٧/٢٦	١٢٫٠٠		سفر الوفود من مطار طرابلس

حفل الافتتاح

بمبنى المجلس التشريعي لولاية برقة

بنغازي

كلمـــة السيد أبو بكر نعامه

مندوب الملك إدريس السنوسى المعظم ورئيس الوفد الليبى

لى الشرف باسم مولاى الملك المعظم أن أفتتح هذه الدورة السادسه لحلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية .

سيداتى سادتى :

يطيب لى بهذه المناسبة ، باسم ليبيا ملكا وحكومة وشعباً أن أحييكم وأرحب بجميع حضرات السادة رؤساء وأعضاء الوفود الذين قدموا للاشتراك فى هذه الدورة من ممثلى الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة والأمانة العامة لجامعة الدول العربية ومن الخبراء والمراقبين وممثلى الهيئات الأهلية المهتمة بأبحاث هذه الحلقة ودراساتها وأن أرجو لكم التوفيق فيما يعرض فى هذه الحلقة من أبحاث ودراسات تهدف إلى النهوض بالمجتمع العربى على أسس سليمة من التعاون فى سبيل الخير والتشاور من أجل تحقيق أنبل الغايات للعرب فى كل مكان ، وإنى لواثق من أن الوفود العربية كلها تشعر أنها قد تكاملت فى هذه الحلقة باشتراك الجزائر المكافحة فيها .

سيداتى سادتى :

عندما تشرفت الحكومة الليبية بتوجيه الدعوة فى نهاية الدورة الخامسة لهذه الحلقة فى مايو ١٩٥٦ لعقد الدورة الحالية فى بلادها . وحينما تفضلت دول الجامعة بقبولها كان مقررا أن يكون موعدها فى عام ١٩٥٨ ، وإن تأجيل انعقاد هذه الدورة عاما كاملا ليجعلنا نلتقى اليوم ونحن أقوى ما نكون رغبة فى مواصلة العمل المثمر الذى بدأته وتابعت تنفيذه الدورات السابقة لهذه الحلقة ، وإضافة بحوث جديدة إلى الجهود السابقة تهدف إلى النهوض بالمجتمع العربى وتوفير الحياة السعيدة اللائقة بكرامة الإنسان لأفراد الأمة العربية كلها ، وإنه لما نستبشر به جميعا ونعده نقطة تحول كبيرة فى حياتنا أن المشاكل الاجتماعية فى البلاد العربية أصبحت من أهم مايشغل بال حكوماتنا وشعوبنا ، وذلك بفضل الوعى الاجتماعى والمجهود القيم الذى تبذله جامعه الدول العربية . واسمحوا لى بأن أوجه بهذه المناسبة شكراً خاصاً مقرونا بالتقدير والإعجاب لإدارة الشئون الاجتماعية بجامعة الدول العربية على مابذلت من نشاط وما قامت به من اتصالات مع الدول العربية لكى يتم الإعداد العلمى والفنى لهذه الدورة فى الصورة المثلى التى ستلمسونها فى جلساتها . معنى هذا أن مشاكلنا لم تعد تحل بالارتجال وإنما بالطرق العلمية السليمة .

سيداتى سادتى :

إن العالم يشهد اليوم أكبر انتشار ثقافى وقع فى تاريخه كما أن هناك اتصالا فعليا يقع اليوم بين حضارة الشرق وحضارة الغرب . ومثله بين حضارة العرب وحضارة غيرهم ، وإن الأجيال القادمة من أبنائنا تطالبنا منذ الآن بتمهيد

السبيل لتوفير الحياة الكريمة لهم ، ولن يتم هذا إلا بالتوجيه السديد والتخطيط المفيد ، وقد اختارت إدارة الشئون الاجتماعية بالجامعة العربية « البيت العربى » وما يتفرع منه ليكون موضوع مناقشات هذه الدورة .

وإنه لاختيار موفق يتناسب مع الظروف التى نعيش فيها والأحوال التى ستواجه مجتمعنا العربى فى المستقبل القريب . ومما سنفيد منه فى هذه الدورة أكبر الفائدة النظر فى توصيات مؤتمر خبراء الشئون الاجتماعية الرابع الذى انعقد بالكويت سنة ١٩٥٨ ، وتوصيات مؤتمر خبراء الشئون الاجتماعية الذى انعقد بالقاهرة فى الشهر الماضى من هذه السنة وكلها تتصل بموضوع البيت العربى .

وتود حكومة المملكة الليبية المتحدة أن تنتهز هذه الفرصة لتبدى عظيم تقديرها لما ينطوى عليه هذا الاجتماع من خدمة العروبة ودعم الصلات بين أجزاء الوطن العربى الأكبر والنهوض به النهضة التى يؤهله لها تاريخه المجيد وأمله الباسم فى حاضره ومستقبله وفى الدور الذى يمكن أن يسهم به فى تقدم البشرية .

وإنى لسعيد أن أرى توصيات هذه الدورات عملية الطابع ميسرة التنفيذ مما يجعلنى واثقا من أننا سنهج على هذا المنوال فى الدورة الحالية بفضل ماتبذلون من جهد وعناية .

وفقنا الله جميعا ، لما فيه خير العروبة وإقرار التعاون والمحبة فى نطاق الأمن والسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة سيادة الأستاذ محمد حسن العشماوى

رئيس وفد الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

سيدى الأستاذ الجليل نائب مولانا الملك المعظم

كان السيد الأمين العام لجامعة الدول العربية حريصاً على شهود هذه الحلقة ليقدم لليبيا الشقيقة الحبيبة ولمليكها المجاهد الكبير تحياته بشخصه ويحيى نهضتها ويشارك فى أعمال الحلقة ، غير أنه اضطر للسفر فى هذا اليوم بالذات إلى بلد عربى آخر ليتابع سعيه فى سبيل جمع الكلمة ووحدة الصفوف ، وقد أنابنى عنه فى أن أتقدم باعتذاره وأسفه لحرمانه من تحقيق هذه الرغبة .

وباسم الأمين العام لجامعة الدول العربية . وباسم وفدها ألذى أتشرف برئاسته .

يشرفنى أن أحيى فى شخصكم الكريم ليبيا العربية الصميمة المكافحة ، وأن أشيد بجهادها المقدس فى سبيل إقامة دعامات نهضتها واستكمال عناصر قوتها واستعادة مجدها وإرساء قواعد مجتمعها على أسس ركينة من العدالة الاجتماعية ، وأن أحيى ملكها العظيم الذى اتصل جهاده بجهاد شعبه واتصلت تضحياته فى سبيل تخليص وطنه العربى الحبيب من براثن الاستعمار ثم جهاده بعد ذلك فى توجيه بلاده الى الأخذ بأسباب نهضتها وتدعيم استقلالها فكان ولا يزال بحق رائد النهضة وقائدها الموفق يحف به شعب كريم مكافح توافرت له مقومات العزة والطموح ، كما توافر له الإيمان العميق بعروبته العتيدة ، فأصبحت ليبيا المتحدة جبهة عربية قوية تدعو إلى التضامن العربى وتعمل فى سبيله ، وتقف بجانب الأوطان التى تعمل على الظفر بحريتها فى نضالها المتصل وتوازن الجهود التى تبذل فى سبيل انتصار القومية العربية فى كل ركن من أركان الوطن العربى الكبير .

كما يشرفنى أن أتقدم باسم الأمانة العامة لجامعة الدول العربية وباسم وفدها وخبرائها ، بأعمق الشكر وعظيم التقدير لحكومة المملكة الليبية المتحدة على دعوتها الكريمة لعقد هذه الحلقة فى ربوعها وما هيأته من أسباب الاستعداد لها وما أضفته على أعضائها من كرم الوفادة ، وما أعدته من وسائل لكفالة نجاح الحلقة فيما هى بسبيله من دراسات وتوصيات يرجى أن تحقق للمجتمع العربى الأكبر كل عناصر العلاقة والقوة وتجنبه العوادى وتجمع كلمة العرب على منهاج للإصلاح تنبع خططه ومناهجه من صميم حياتهم ويتسم بمثلهم العليا فى الحياة الكريمة العزيزة ويكون وليد دراسة عميقة وخبرة واسعة وعلم وإيمان .

سيدى نائب مولانا الملك المعظم

زميلاتى وزملائى

هذه الحلقة التى نحتفل اليوم بافتتاحها والتى ظفرت برعاية كريمة من حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم واهتمام

حكومته الرشيدة ، والتى لبت الأمانة العامة والدول العربية والمؤسسات الدولية وجمهرة من صفوة خبراء العرب الدعوة للاشتراك فيها هى سادسة حلقة للدراسات الاجتماعية تعالج كبرى مشكلاتها الاجتماعية وتضع لها حلولا عملية ذات طابع عملى تحمل فى ثناياها وسائل التنفيذ فى يسر ومتابعة . وقد كان لما صدر عن الحلقات التى سبقتها من دراسات وتوصيات صداها القوى الموجه فى المحيط العربى بأجمعه ، فنشطت الوعى الاجتماعى وأيقظت كوامن الرغبة المتحفزة الملحقة فى الأخذ بأسباب نهضة شاملة تنتظم شتى جوانب مجتمعنا العربى العتيد ، وتضع لنهضته المعاصرة خطط العمل فى هذا الميدان الخطير مستمدة من دراسة واعية عميقة نشارك فيها وفيما انتهت إليه من توصيات صفوة مختارة من ممثلى الدول العربية وخبرائها وممثلى هيئة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة ، ولم تقتصر دراسات هذه الحلقات على المشكلات الاجتماعية وحدها بل تناولت كل ما يتصل بها أو يعتمد عليها من مشكلات فى محيط الاقتصاد والثقافة والصحة والشئون العامة وكانت الدعوة للاشتراك فى هذه الحلقات موضع الاهتمام البالغ فى المحيطين العربى والدولى على السواء . ونظرة عاجلة إلى ما عالجته هذه الحلقات من مشكلات رئيسية تهدف من ورائها إلى إقامة صرح مجتمعنا العربى على أساس سليم وتهيىء لنهضته الحديثة وسائل الازدهار ، وإلى ما صدر عن هذه الحلقات من توصيات ، وما أعد لها من دراسات ، توضح ضخامة الجهد واتصال الجهاد فى هذا السبيل سواء منها الحلقتان الأوليان اللتان احتملت فيهما هيئة الأمم المتحدة عبء الاستعداد لها وأقامتهما مع الدولتين المضيفتين واللتين شاركت فيهما الأمانة بوفد منها ، أو الحلقات الثلاث التى تلتها والتى احتملت الأمانة العامة ، فى سبيل الاستعداد لها وتنظيمها وإقامتها عبئا فنيا وإداريا وماليا كان يتزايد من حلقة لأخرى ، فقد استعرضت هذه الحلقات فى أولى دوراتها المتعاقبة طائفة من مشكلات المجتمع العربى الرئيسية ، ثم ركزت اهتمامها فى الحلقات التى تلتها على ما يأتى فى مكان الصدارة منها سواء فى محيط الريف أو التكافل الاجتماعى أو الرعاية الاجتماعية فى اتصالها بالتنمية الصناعية أو الزراعية وبرنامج النهوض بالمجتمعات المحلية أو موضوع هذه الحلقة التى انفردت الأمانة العامة بتحمل عبء الاستعداد لها مع الدولة المضيفة . وإنى لأعتز فى هذا المقام الكريم بأن أشير لهذه الجهود المتصلة لتثبيت الثقة بها والاطمئنان إليها وأن أشيد بذلك التعاون الرائع الذى حققته هذه الحلقات فى الميدانين العربى والدولى على السواء فأثمر أطيب الثمرات .

سيدى نائب مولانا الملك المعظم

زميلاتى وزملائى

تعالج هذه الحلقة مشكلة من أخطر وأدق مشكلات مجتمعنا العربى ، بل تعالج أساس المشكلات الاجتماعية جميعها وأولاها بالدراسة الشاملة والتوجيه ، وهى مشكلة الأمومة والبنوة فى البيت العربى أو بعبارة وجيزة شاملة مشكلات البيت العربى جميعها فى كيانه ودعاماته واتجاهاته ودوره فى بناء المجتمع وتوجيه النشاط فيه فى المجال الاجتماعى والصحى والثقافى والاقتصادى والروحى على السواء . وللبيت العربى مكانته وتقاليده العريقة وفرص تطوره فى نطاق النهضة الحديثة التى نعيش فى ظلالها ونرقب ازدهارها كما أن للبيت العربى مشكلاته ومواضع الضعف فى بعض نواحيه مما يتطلب الدراسة والتوصية بالمناهج التى يتعين الاستعانة بها لتوجيه هذا البيت وجهة تكفل له السلامة وتحيله منبتا صالحا لنشأة عربية خالصة قوية مكافحة . البيت العربى يجتاز فى عصرنا الحديث وفى خضم الأحداث العربية والدولية وأعاصيرها مرحلة انتقال خطيرة فهو

فى حاجة إلى التدعيم والتوجيه فيما يجنبه مزالق التعثر أو الاضطراب أو التفكك ، والبيت العربى هو الخلية المطردة النمو والانتعاش لمجتمعنا العربى الكبير ، منها يستمد زاده الروحى والخلقى والمادى وقوة الكدح ومجالدة الصراع الرهيب ، وفى التفريط فى مواجهة مشكلاته وتسديد إتجاهاته ما يعرضه إلى التفكك أو التصدع ومعقباتهما فى بناء المجتمع وكفالة سلامته . ولقد عنيت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالاستعداد لهذه الحلقة عناية تكافىء أهمية موضوعها وخطره فدعت إلى التحضير لها ثلاثة مؤتمرات لخبراء الشئون الاجتماعية تتابعت على مواجهة هذه المشكلة على أساس من الدراسة العميقة الشاملة والخبرة الواسعة، اشترك فيها طائفة مختارة من الخبراء فى المحيط العربى والدولى وتجمع لها قرابة تسعين بحثا فى جوانب المشكلة توفرت على وضعها نخبة من المتخصصين فيها وصدرت عن هذه المؤتمرات عدة اقتراحات وتوصيات تبسط المشكلة وتقترح العلاج لتكون موضع دراسة هذه الحلقة . وستكون هذه الحلقة بما ستنتهى إليه من بحث وتوصية وتوجيه خاتمة المطاف فى نواحى هذه المشكلة الكبرى ، وسيكون لما ستصدره من توصيات أثرها الموجه القوى الواعى فى المحيط العربى بإذن الله .

سيدى نائب مولانا الملك المعظم

زميلاتى وزملائى

فى سبيل تدعيم نهضة العرب وتوجيهها وجهة الإصلاح ما بذلت هذه الحلقات فى الماضى من جهد وما ستبذله فى الحاضر والمستقبل القريب والبعيد من جهاد، وفى سبيل الوصول إلى خير المناهج لوضع الحلول الملائمة لمشكلاتنا الاجتماعية المشتركة إجتمعنا فى الماضى ونجتمع اليوم وسنوالى اجتماعاتنا فى أرجاء الوطن العربى الأكبر ، وفى سبيل إقامة صرح المجتمع العربى على دعامات قوية وطيدة ، اجتمعت وتجتمع وفودها وخبراؤها بالتعاون مع خبراء هيئة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة ، لتحديد الأهداف ورسم خطط الإصلاح ووضع المناهج . فأمة العرب واحدة بماضيها المجيد وحاضرها الناهض ومستقبلها المرموق ، ومشكلاتها وآمالها ، والنجاح مكفول لهذه الجهود المشتركة التى تبذل فى ظلال نهضة واعية مؤمنة والتى تؤازرها حكومات رشيدة بتوفيق من الله العلى القدير ، ما دام الخير رائدنا ومصلحة العرب هدفنا والتصميم والعزم حافزنا .

وإنى إذ أختتم كلمتى أسأل الله العلى القدير أن يجمع كلمتنا على الخير ويوحد صفوفنا وينصر المجاهدين من أبناء العروبة فى شتى أقطارها ويتغمد برحمته الواسعة شهداء العروبة الأبرار ويسدد خطانا ويهدينا سواء السبيل ، إنه نعم المولى ونعم النصير . والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة السيد الأستاذ أمين الحسيبى

رئيس وفد المملكة الأردنية الهاشمية

سيدى معالى الرئيس نائب مولانا صاحب الجلالة الملك المعظم

سيداتى . سادتى

أحييكم تحية عربية خالصة ، أحملها إليكم من قلب العروبة الدامى ، من الأردن البلد المناضل ، الصابر المجاهد ، المدافع عن الخط الأول لحمى العروبة ودنيا الإسلام . أحييكم بالنيابة عن الأرض المقدسة، مقر الإسراء ومنبت الأنبياء، ومثوى المجاهدين والشهداء ، أحييكم نيابة عن الوطن المغتصب فلسطين الحبيبة ، الوطن الذبيح والفردوس السليب .

وبعد ، أشكر المملكة الليبية المتحدة على ماقوبلنا به من حفاوة ، وما نراه ونلمسه من مشاعر الود والإخاء ، وما نلقاه من كرم عربى أصيل ، غمرنا به إخواننا الليبيون رسميون وأهليون . كما أشكر لجامعة الدول العربية ما أتاحته وتتيحه لنا من مثل هذه الفرص الطيبة لتدارس أحوال مجتمعنا العربى ، وتفهم حقيقة أمراضه ومشاكله الأمر الذى ييسر لنا معالجة تلك الأمراض وإيجاد حلول لهاتيكم المشاكل على أسس علمية قويمة سليمة .

وموضوع هذه الحلقة ، أيتها السيدات والسادة موضوع جدير بالعناية ، حرى بالاهتمام مادام قد خصص لدراسة موضوع الأمومة والبنوة فى البيت العربى وأحوال الأسرة وسبل رعايتها ، ولاغرو فالأسرة هى الأساس فى بناء المجتمع . والمجتمع لايكون سليما معافى إلا إذا كانت الأسرة — وهى دعامته وعماد بنيانه — قوية سليمة ، والأسرة فى مجتمعنا العربى وإن كانت لاتزال تحتفظ بكثير من مقوماتها ، بفضل مايتحلى به العرب من أخلاق فاضلة ، وسجايا حميدة وتمسك بالفضيلة ، وارتباط بالأهل وذوى القربى ، إلا أن الخلل قد بدأ يتطرق إلى كيانها فى كثير من أقطارها ، لهذا السبب أو ذاك ، لذلك قضت الضرورة بأن يعنى الاجتماعيون بدراسة هذه الظاهرة الاجتماعية قبل أن يستفحل شرها ، ويستعصى علاجها بوضع الخطط الكفيلة بالعناية بالأسرة والمحافظة على كيانها .

ومجتمعنا فى الأردن ، كما تعلمون ، قد تعرض لهزة عنيفة كادت تودى بكيانه ، فكم كانت الكارثة التى ابتليت بها فلسطين العزيزة فادحة ، إنها لنكبة لم يشهد لها تاريخ العرب بعد الأندلس مثيلا ، فتشرد معظم سكانها وفقدوا موارد عيشهم الشريف ، وحرموا من جناتهم اليانعة ليعيشوا فى الخيام والكهوف حياة ملؤها البؤس والفاقة فكانت من نكبتهم كوارث سياسية واقتصادية واجتماعية ، زلزلت كيان المجتمع فى هذه البقعة الغالية من دنيا العرب .

أيتها السيدات والسادة :

إن الأردن لفخور بانعقاد الدورة الخامسة لحلقة الدراسات الاجتماعية فيه خلال عام ١٩٥٦ ، تلك الدورة التى كان لها أثر كبير فى الدراسات والأبحاث المتعلقة بالمجتمع المحلى ونهوضه .

هذا وإن وفد المملكة الأردنية الهاشمية إذ يشترك فى الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية هذه لعازم على أن يشترك فيها بروح الأخوة العربية الصادقة من التضامن والتعاون للوصول بمجتمعنا العربى إلى حياة أفضل فى ظل مجتمع عربى سليم .

والسلام عليكم

كلمة الآنسة أديبة ابراهيم رفعت

رئيسة وفد جمهورية العراق

السيد مندوب الملك المعظم

أيها السادة :

باسم الجمهورية العراقية وباسم العروبة الخالدة أحييكم جميعا أحسن تحية وأحمل إليكم تحيات الشعب العراقي المجيد وتمنيات حكومة الجمهورية العراقية الرشيدة لهذا المؤتمر العربي بكامل النجاح في أعماله ومداولاته .

إن موضوع البيت العربي يعتبر الآن من موضوعات الساعة بل يعتبر نقطة البدء والانطلاق في سبيل بعث أمتنا العربية وإعادة بناء كياننا الاجتماعي .فلا غرو أن تعقد له الدول العربية وجامعتها مثل هذه الحلقة الدراسية التي تضيف إلى الحلقات السابقة ثروة علمية جديدة تتصل بكيان الأسرة ومشكلاتها وتساعد على وضع الحلول لهذه المشكلات على أساس عملي مدروس .

إننا في العراق لا نزال نذكر حلقة الدراسات الاجتماعية الرابعة التي انعقدت في بغداد عام ١٩٥٤، والتي كان لها أطيب النتائج والثمرات . وإنه ليسرنا أن نرى حلقات الدراسات الاجتماعية تتوالى وتنعقد في بلد عربي تلو آخر. ولقد تكرمت السلطات الليبية فشملت وفود البلاد العربية برعايتها وكرم استقبالها .

وإن الوفد العراقي ليسره أن يشارك سائر الوفود في الإعراب عن أصدق الشكر وأعمقه لإخواننا أبناء الشعب الليبي ورجال الحكومة الليبية على اهتمامهم العظيم بالحلقة والمجهود الكبير الذي بذلوه في سبيل الإعداد لها وما أظهروه نحونا من أخوة عربية صادقة .

كما أننا نشكر لجامعة الدول العربية تنظيمها لهذا المؤتمر العربي والهيئات الدولية اهتمامها به واشتراكها فيه .

وإن الوفد العراقي ليسره أن يبذل أقصى جهد وأن يشترك في أعمال اللجان حتى تتضافر الجهود وتنال هذه الحلقة ما تستحقه من نجاح وتحقق ما نعلقه عليها من آمال . والسلام عليكم

كلمة السيد الدكتور حسنى طاهر

رئيس وفد المملكة العربية السعودية

صاحب المعالى وزير المعارف ونائب مولانا الملك المعظم . .

سيداتى وسادتى .

لقد شرفتنى حكومتى حين عهدت إلى بأن أكون رئيسا لوفدها الذى يشترك فى الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية التى نظمتها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، وبأن أكون أيضاً رسولها فى حمل تحيتها وتحية الشعب العربى السعودى إلى حكومة وشعب القطر الليبى الشقيق ، وإنه ليسر الوفد السعودى العربى ويسعده بأن يساهم فى هذه الدورة كما ساهم فى الدورات التى سبقتها ، راجيا للحلقة كل نجاح ، وشاكراً للقطر الليبى حكومة وشعباً ضيافته الكريمة متمنيا له فى ظل مليكه العظيم غاية التقدم والازدهار .

ليست قيمة الأمم أيها السادة باتساع الأرض وكثرة السكان وخصب الموارد ولكن قيمتها بالخلق والعلم والإنتاج الخلق الذى يحفظ كيانها والعلم الذى يعلى قدرها ويجدد حياتها والإنتاج الذى يساعدها على المساهمة فى الخير الإنسانى العام .

ولما كان التخطيط أساساً للتوجيه الصحيح فإن المهمة الأولى لهذه الحلقة هى التخطيط والتنسيق لبناء مجتمع عربى سليم .

لقد كانت الأمة العربية عظيمة بين الأمم فى ماضيها غير البعيد وستكون إن شاء الله أعظم شأنا فى عهدها الحاضر الجديد .

وفقنا الله جميعا إلى الصواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة السيد الأستاذ يحيى حسن درويش
رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة

السيد مندوب الملك المعظم وزير المعارف ورئيس الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية .

سيداتى وسادتى :

يسعدنى باسم الجمهورية العربية المتحدة أن أتقدم بالشكر لجلالة الملك المعظم لتفضله برعاية هذه الحلقة وإيفاده السيد وزير المعارف لافتتاحها نيابة عن جلالته . كما أتقدم بالشكر لحكومة المملكة الليبية المتحدة لما بذلته من جهد لعقد هذه الدورة بالاشتراك مع الجامعة العربية .

كما يسعدنى أن أحيى السادة رؤساء وأعضاء وفود الدول العربية المختلفة التى اشتركت فى هذه الدورة ، وأعتقد أن هذا الإسهام وهذه المشاركة خير ضمان للوصول إلى الأهداف المرجوة منها .

وإنى أذكر بالتقدير جامعة الدول العربية للجهود التى تبذلها فى تنظيم هذه الحلقات والإشراف عليها مما يحقق التعاون بين الدول العربية وتعود على الوطن العربى الكبير بالفائدة والخير .

ويسعدنى أيضاً أن يشترك مندوبو الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة فى هذه الدورة وأن يساهم خبراؤها فى أعمالها .

وإنى لعلى يقين من أن تضافر هذه الجهود جميعها ، وتعاونها المستمر فى هذا الحقل الاجتماعى الهام ، سوف ينبثق عنه الكثير من النتائج الهامة التى تستأنس بها الدول العربية فى تحديد ورسم سياستها الإصلاحية وتحديد برامجها للنهوض بالمجتمع العربى .

والموضوع الذى تعالجه هذه الحلقة يعتبر من أخطر الموضوعات التى تتصل بكيان المجتمع العربى خصوصاً فى مرحلة البعث العظيم التى تمر بها أمة العرب . فالبيت العربى ركيزة كل إصلاح وأساس كل نهضة للمجتمع العربى بأسره

وهنا أذكر بالتقدير الجهد العلمى الذى بذل فى المؤتمرات التى نظمت للاعداد لهذه الحلقة ، والتى نتج عنها هذه الحصيلة العلمية الضخمة التى نراها بين أيدينا ، والتى قام بإعدادها نخبة من قادة الرأى والخبراء فى الدول العربية ، وامتزجت فيها الخبرة الطويلة بالأسس العلمية مما يجعلها أساساً صالحاً لبحوث هذه الحلقة وتوصياتها .

وقبل أن اختتم كلمتى أرجو أن أنوه بالأهمية البالغة التى تعلقها حكومة الجمهورية العربية المتحدة على نتيجة الدراسات التى نجتمع من أجلها ، وإنى لواثق أن ما ستنتهى إليه الحلقة من توصيات سيكون مثار الاهتمام الجدى الفعال لحكومات الدول العربية والمنظمات والهيئات المشتغلة بالخدمة الاجتماعية فى محيط البيت العربى .

ولا يفوتنى فى هذه المناسبة العربية الطيبة أن أذكر بالتقدير العميق إخواننا لنا فى الجزائر الثائرة وفى عمان المجاهدة وفى فلسطين الجريحة . . . وفى كل جزء من أجزاء الوطن العربى الكبير يعمل من أجل الحرية والسلام . سائلا المولى عز وجل أن يحقق الآمال ويوحد الصف العربى لكى ينعم كل أبناء الأمة العربية المجيدة بالحرية والكرامة والعزة

والله الموفق . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة السيد الأستاذ عباس فرحات

مندوب الجمهورية اللبنانية

السيد مندوب الملك السنوسى المعظم

من ربا لبنان وعلى لسان الشعب اللبنانى وباسم الحكومة اللبنانية أحييكم أطيب تحيـــة وأهنئكم بانعقاد هذه الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية وأتمنى لكم نجاحا كاملا فى أعمالها .

لقد انعقدت الدورة الأولى فى بيروت سنة ١٩٤٩ ومنذ ذلك الوقت انعقدت الدورات واحدة بعد الأخرى وتولت جامعة الدول العربية نشر نتائج أعمالها فى أسفار تعتبر مراجع للباحثين فى الشئون الاجتماعية. وها نحن نجتمع اليوم على أرض ليبيا الشقيقة وفى ضيافة حكومتها المجيدة ويغمرنا كرم شعبها العربى .

وإن لسانى ليعجز عن إيفاء إخواننا الليبيين والحكومة الليبية حقهم من الشكر والثناء .

كما أننى أشكر جامعة الدول العربية على اهتمامها المتصل بهذه الحلقات ، وهيئة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة على اشتراكها معنا فى هذا الاجتماع . والسلام .

كلمة السيد الدكتور شفيق الصناديقى

مندوب المملكة المتوكليـــة اليمنية

السيد مندوب مولانا الملك المعظم

سيداتى سادتى :

باسم المملكة المتوكلية اليمنية أتقدم بالشكر العميق لعاهل ليبيـــا العظيم على تفضله برعاية الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية .

كما أتقدم بالشكر للحكومة الليبية على تفضلها بتوجيه الدعوة لعقد هذه الدورة بالمملكة الليبية المتحدة الشقيقة.

وإن هذه لفرصة طيبة هيأتها لنا جامعة الدول العربية كى يجتمع مندوبو وخبراء الدول العربية ليتبادلوا الرأى والخبرات فى موضوع ذى أهمية حيوية بالنسبة لكيان المجتمع العربى ، وإن فى ذلك لتدعيم للعلاقات الوثيقة التى تربط بين هذه الدول جميعا على أساس من التعاون فى الجهود التى تبذلها هذه الدول للنهوض بالمجتمع العربى .

وأنى لأرجو أن يوفقنا الله فى الوصـــول إلى توصيات تتخذها الدول العربية أساساً فى عمليات التخطيط الاجتماعى فى محيط البيت العربى .

والسلام علـكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة السيد الأستاذ حمد الرجيب

رئيس وفد الكويت

السيد مندوب الملك المعظم

سيداتى . سادتى

أحييكم أجمل تحية .. وأحمل اليكم تحية إخوان لكم فى العروبة بأوسع معانيها إنهم فى ذلك الجزء الصغير من الوطن العربى الكبير القابع على الشمال الغربى من خليج العرب ، إنها الكويت .. إنها تحييكم حكومة وشعباً وترجو لكم دوام التوفيق .

مازال من أهم ما يحفز لعقد دورات حلقة الدراسات الاجتماعية هذه أنها تهيىء فرصاً متكررة للتقارب بين أبناء الوطن العربى فى مختلف أرجائه قاصيه ودانيه ، هذا التقارب الذى يقترن بآمال العرب فى جمع شملهم وتوحيد كلمتهم وتمكين قواهم من أن تلعب دورها الفعال فى حياة هذا العالم. وفى الأخذ بيده إلى السلام والاستقرار والتعاون والمحبة .

وهى كلها صفات وأمور عاشها ودعا إليها هذا الشرق العربى منذ أجيال سحيقة حينما انبعثت من أرجائه الرسالات الروحية — رسالات الأديان السماوية .. رسالات المحبة والسلام — ونحن إذ نلتقى اليوم فى هذه المدينة من ربوع هذا الوطن العربى الحبيب — إنما نلتقى لتحقيق أهدافنا التى عقدنا العزم عليها : وهى ربط ماضينا المجيد بحاضرنا المشرق المأمول ، والعمل على استكمال عناصر الرفاهية الاجتماعية لأفراد وجماعات شعبنا العربى فى مختلف أرجائه ، وما هذا الحشد من الخبراء والباحثين المهتمين بالنهوض بالمجتمع العربى، وما هذه البحوث العلمية والتوصيات الهادفة إلا دليل انبثاق وعى جديد ، وعلامات فى الطريق إلى نهضتنا، لا سيما وإنها تقترن بالتطبيق العملى لوسائل هذا النهوض وبالبحث العلمى الدقيق عن طرق معالجة ما يحيط بمجتمعنا من مشاكل وسبل مواجهة النقص والعيوب ، كل ذلك يتم فى هذه الحلقات على صعيد عربى واحد نتيجة التقاء عقول المفكرين والباحثين والخبراء سواء من العرب أو من الخبراء المتخصصين .

ولا شك أن موضوع هذه الحلقة مازال من أهم الموضوعات التى تحتاج الى كثير من البحث والتدقيق والمناقشة لأنها تتصل بكيان أقدس ما نحرص عليه وهو البيت العربى والسعى نحو النهوض به واستجلاء مكوناته وعناصر قوته وضعفه وما يشوب عاداته وتقاليده وقيمه من معوقات للتقدم والنمو ، وما يحيط بتطوره من مشكلات طارئة أو طويلة الأمد تحتاج إلى الفهم والتقدير والمواجهة ليمكن رسم الحلول العاجلة أو الآجلة للتخلص منها والتغلب عليها والسير به قدماً إلى مانرجوه له .

ومن حسن الطالع أن يكون اجتماعنا هذا العام على مقربة من حدود معركة التحرير والتحرر فى الجزائر المناضلة حيث عقد إخوان لنا عزمهم على محاربة فيالق الظلم والطغيان — وحيث تجرى دماء الحق غزيرة لتبديد قوى الباطل وسحق فلول الظلام — ولسوف يبزغ فى القريب العاجل بإذن الله نور الحرية والتحرر على أرض الجزائر العربية المناضلة ، وعلى جزء عزيز علينا هى فلسطين السليبة وعلى كل جزء من أجزاء الوطن العربى الكبير كعمان التى تخوض الآن معركة كفاح مرير لاسترداد حريتها وكرامتها .

مرة أخرى نحيي الجزائر فى كفاحها العظيم ، وباشتراكها معنا فى هذه الحلقة التى نأمل أن تنعقد دوراتها المقبلة فى القريب العاجل على أرض الجزائر الطاهرة .

ولا يفوتنا فى هذا المقام تسجيل الشكر على هذه الدعوة الكريمة التى وجهتها المملكة الليبية المتحدة وعلى الفرصة التى هيأتها لضم جهود المشتغلين بالشئون الاجتماعية وجمعهم على صعيد واحد لتبادل خبراتهم .

كما نشكر إدارة الشئون الاجتماعية والصحية بالجامعة العربية وسيادة المشرف عليها على جهودهم الموفقة فى جمع شمل العاملين على رعاية البيت العربى وتهيئة الفرص أمامهم للتعاون فى البناء المشترك لكيان وطنهم وإنارة طريقهم ليعملوا على تحقيق ما يصبون إليه من تحرر وعزة ونهضة وكرامة .

وفقكم الله — والسلام عليكم

كلمة السيد الأستاذ أحمد بوده

مندوب حكومة الجزائر

سيدى الرئيس : حضرات السادة .

إن لى شرف عظيم، أن أحضر هذه الجلسة القيمة لافتتاح الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية لجامعة الدول العربية.

وأرجو أن تسمحوا لى بهذه المناسبة الطيبة أن أقول كلمة باسم الجزائر المكافحة تعبيراً عن شعور شعبها الباسل وحكومتها الفتية نحو جامعة الدول العربيـــة التى مابرحت تؤازر وتناصر قضية الجزائر العادلة برغم ظروفها الخطيرة ومشاكلها المختلفة .

ولا غرابة من ذلك فإن قضية الجزائر كما تعلمون أصبحت القضية العربية الأولى ، التى على مصيرها سيتقرر مصير الأمة العربية ـ إلى حد بعيد ـ وإنه لمن دواعى الغبطة والسرور أن صارت القضية الجزائرية تقتحم المحافل والمؤتمرات العالمية الدوليه منهـا والشعبية وراحت تنال عطف العالم شعوبا وحكومات برغم مايبذله الاستعمار الفرنسى وحلفاؤه ، من أساليب التضليل والتزوير خارج الجزائر ومايرتكبه جيش فرنسا من جرائم وموبقات ضد أبناء الشعب العربى فى الجزائر .

وماذلك ، أيها السادة، إلا بفضل مساندة دولكم وشعوبكم لهذا الشعب العربى الصميم ،وصمود أبنائه الأشاوس فى وجه الطاغوت الاستعمارى البغيض .

منـــذ خمس سنوات والشعب الجزائرى الذى رفع مشعل المدنية العربية الإسلامية فى القارة طيلة ثلاثة عشر قرنا لا يمكنه أن يحيى أو يموت إلا عربيا مسلما، وعليه فدراستكم هذه التى ترمى إلى تدعيم الأسرة العربية ، على قواعد ثابتة وتنشئتها على أخلاق فاضلة ، وتطويرها حسب التقاليد العربية الإسلاميه ، التى طالما رفعت مشعل الحضارة وأنارت الطريق فى وجه العالم ، إن هذه الدراسات أيها السادة لتهم جداً الشعب الجزائرى ، الذى لا يطلب أكثر من أن يؤسس ـ بدون إغفال التطور ـ حياة أبنائه حسب تقاليده الخالدة ، تلك التقاليد التى ينكرها عليه الاستعمار ، ويريد أن يجعله قطعة من فرنسا .

وقبل أن أختم كلمتى هذه أرجو الله أن يكلل أعمال هذا المؤتمر بالنجاح العظيم ، ويوفق قادة العرب إلى ماتصبو إليه الأمة العربية المجيدة ، من مجد وسعادة وحرية واستقلال .

وأخيراً أرجو من سيدى الرئيس وممثل مولانا الملك حفظه الله أن يبلغ تشكرات الشعب الجزائرى وحكومته لمولانا إدريس الأول وحكومته على مايبذلانه لنصرة الجزائر وإكرام ممثليها .

كلمة السيد راموندرا باسو

مندوب الأمم المتحدة

سيدى مندوب الملك الجليل

حضرات السيدات والسادة

اسمحوا لى باسم الأمم المتحدة أن أتقدم لحكومة المملكة الليبية المتحدة ولجامعة الدول العربية بخالص الشكر لدعوتها للأمم المتحدة لإيفاد ممثل لها فى هذا الاجتماع العربى الهام .

ولقد سبق أن شاركت الأمم المتحدة فى تنظيم دورات هذه الحلقة المتتابعة منذ عام ١٩٤٩ وهاهى الجامعة العربية تحمل كل العبء مع الدولة المضيفة لتنظيم هذا الاجتماع الناجح .

أرجو لكم التوفيق والحلقة تمام النجاح فى أعمالها .

كلمة الدكتور محمد عزيز المراغى

مندوب مكتب العمل الدولى

معالى مندوب مولانا الملك المعظم :

سيداتى . . سادتى :

يسعدنى أن أمثل مكتب العمل الدولى فى هذا الاجتماع الحافل الذى يضم كبار المشتغلين بالشئون الاجتماعية فى الدول العربية .

وقد كان من دواعى الغبطة والسرور للمنظمة أن تقبل دعوتكم الكريمة للاشتراك فى أعمال هذه الدورة ولا غرو فى ذلك فإن المملكة الليبية المتحدة عضو عامل بها والتعاون بينهما وثيق متين تتجلى مظاهره بصفة خاصة فى مركز التدريب المهنى والفنى الذى قامت منظمة العمل الدولية بإنشائه فى طرابلس والذى يعتبر من أكبر مشروعاتها فى ميدان المعونة الفنية وفى مشروع النهوض بالصناعات الريفية بإقليم فزان، كما ساهمت المنظمة فى إعداد تشريع العمل الليبى الجديد ونظام التأمينات الاجتماعية .

كذلك أصبحت الصلة وثيقة بين المنظمة وجامعة الدول العربية منذ توقيع اتفاقية التعاون المشترك بينهما فى مايو سنة ١٩٥٨ فى مكتب العمل الدولى بجنيف بواسطة السيد عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية والمستر مورس مدير مكتب العمل الدولى، وتتجلى مظاهر هذا التعاون بوضوح فى اشتراك الأمانة العامة فى مؤتمر العمل الدولى السنوى بجنيف واشتراك المنظمة فى حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية، كما بدت بجلاء فى العمل الجليل الذى قام بتنفيذه الأستاذ الكبير السيد العشماوى المشرف على إدارة الشئون الاجتماعية ومعاونوه وتم خلال الاحتفال بالعيد الأربعينى لمنظمة العمل الدولية وهو ترجمة اتفاقيات العمل الدولية إلى اللغة العربية، وأود هنا أن أعبر عن التقدير العميق لهذا المجهود الجبار وأرجو تعميم الانتفاع بهذا المجلد النفيس الذى تهدف نصوصه إلى تحسين ظروف المعيشة والعمل لأبناء الطبقات العاملة ، كما أرجو ازدياد ثمار التعاون المشترك فى المستقبل القريب بإذن الله .

وختاماً أكرر شكرى لحكومة المملكة الليبية المتحدة وللأمانة العامة لجامعة الدول العربية وأدعو الله أن يوفقنا جميعاً لتحقيق مهمتنا النبيلة وهى العمل لما فيه خير البشر والإنسانية وتحقيق العدالة الاجتماعية ؟

كلمة السيد الأستاذ حفص عمر السقا

ممثل منظمة اليونسكو

سيدى الأستاذ الجليل مندوب مولانا الملك المعظم :

سيداتى . . سادتى :

إنه لشرف عظيم أن تتاح لى هـذه الفرصة الطيبة لأكون بينكم فى هذا اليوم ممثلا لمنظمة هيئة الأمم المتحدة للعلم والتربية والثقافة ، تلك المنظمة التى تسعى جاهدة عن طريق العلم والتربية والثقافة إلى تهيئة حياة أفضل للإنسانية جمعاء ، ومساعدة الناس رجالا ونساء لأن يعيشوا جميعاً فى سلام ووئام ، متعاونين بعضهم مع بعض لتحقيق التقـدم الاجتماعى والاقتصادى . ولا شك فى أن الموضوع الذى اختارته جامعة الدول العربية والمملـكة الليبية المتحدة وهو البيت العربى ومشكلاته وكيفية النهوض به لمن الموضوعات التى توليها منظمة اليونسكو اهتماماً بالغا ، وإنه ليسعدنى بهذه المناسبة أن أزجى إليـكم بتحية السيد معظم حسين رئيس بعثة اليونسكو ورئاسة منظمة اليونسكو مع تمنياتهم الصادقة لنجاح هذه الحلقة. وإننى أدعو الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لخير العرب والإنسانية جمعاء .

وقبل أن أختم كلمتى هذه أتوجه بالشكر الجزيل إلى الحكومة الليبية الرشـيدة لحفاوتها البالغة وتهيئتها هذه الفرصة الطيبة لانعقاد هذه الحلقة فيها ، وأدعو الله تعالى أن يمد فى عمر قائد البلاد المظفر الإدريس العظيم حتى يحقق لليبيا العزيزة ما تصبو إليه من عزة وسؤدد وازدهار فى جميع ميادين الحياة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة الدكتورة سلوى خورى عتقى

مندوبة المكتب الإقليمى لمنظمة الصحة العالمية

سيداتى وسادتى

يسعدنى ويشرفنى أن أقف بينكم هنا مندوبة عن المكتب الإقليمى للهيئة الصحية العالمية ، وأتقدم قبل كل شىء بأوفر الشكر لسيادة الأمين العام لجامعة الدول العربية على تفضله بتوجيه الدعوة إلى المكتب الإقليمى لإيفاد من يمثله فى الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية المنعقدة هنا الآن فى مدينة بنغازى .

وقد عهد إلى المدير الإقليمى أن أبلغكم تحياته وأحسن تمنياته ، وإنه يأسف أشد الأسف لعدم إمكانه حضور هذا الاجتماع بالنسبة لازدياد ضغط العمل بالمكتب .

كما أشكر حكومة المملكة الليبية المتحدة الرشيدة وعلى رأسها جلالة ملك البلاد المعظم، على ما نلقاه هنا فى هذه البلاد العظيمة وفى هذا المجلس الكريم من حسن الضيافة وكرم الوفادة .

وإنه لشرف عظيم لى أن أستمع فى هذا المقام الموقر إلى كبار العلماء وعظام الثقات فى مختلف الموضوعات النفيسة المختارة للبحث والدراسة فى هذه الحلقة . وأقدم أخلص التهانى لأولئك الذين قاموا بهذا الاختيار الموفق للموضوعات الشائقة المعروضة التى لها شأن عظيم فى الناحيتين الاجتماعية والصحية فى المجتمع العالمى بوجه عام وفى تقدم ونهوض البلدان العربية بنوع خاص .

وأنه لمن دواعى غبطتى أن أنوه بالروابط الوثيقة التى تجمع بين الهيئة الصحية العالمية وإدارة الشئون الاجتماعية والصحية بجامعة الدول العربية ، والتى أرجو أن تستمر بنفس قوتها لتنير لنا السبيل .

وأرجو الله عز وجل أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير والتوفيق .

خطاب السيد الدكتور سليمان حزين

مدير الحلقة

فى هذا الثغر الجميل من ثغور العروبة على البحر الأبيض المتوسط يلتقى أبناء العروبة فى بيت رحيب من بيوت أمتهم الخالدة ، بعد أن التقوا قبل عشر سنوات ولأول مرة فى ثغر آخر من ثغور العروبة على البحر ذاته، ليبحثوا شئون مجتمعهم العربى ووسائل النهوض به على أساس من الدرس والفهم العميق ومن البحث النظرى والتجريب العملى . فمنذ أن التقينا فى بيروت خلال شهر سبتمبر من عام ١٩٤٩ ، عدنا إلى اللقاء فى القاهرة ثم فى دمشق ثم فى بغداد ثم عمان . وها نحن نلتقى فى الدورة السادسة لحلقة الدراسات الاجتماعية فى ضيافة شعب عربى كريم ، على رأسه مليك مجاهد كريم ، وترعاه حكومة تعمل فى إيمان وصدق مع شقيقاتها العربيات شرقا وغربا ، ويأتى جهادها من أجل إحياء أمجاد العروبة متجاوبا ومتكاملا مع جهاد العرب حكومات وشعوبا فى كل مكان .

ولقد بدأت هذه السلسلة من الحلقات الدراسية عندما تكشف للعرب أن النهضة الاجتماعية لا يمكن أن تقوم على أساس غير أساس العلم والخبرة والدراية ، وأن الارتجال فى شئون النهوض الاجتماعى قد لا يقل خطراً عن ترك هذه الشئون دون أن تعالج أدواؤها ، وأن عصرنا الجديد قد أصبح بحق عصر العلم وعصر التخطيط المنسق فى آن واحد ، ولا بد لمن يتصدى لخدمة المجتمع وتنظيم رعايته ورسم خطوط نهضته الشاملة من أن يستند فيما يرسم إلى المعرفة والإلمام الدقيق لا بنظم المجتمع فى أوضاعها التاريخية فحسب ، وإنما كذلك بأهداف الحياة القومية فى عهد انتفض فيه الشعب وسعى حثيثا فى طريق التحرر .

وكان من حسن التوفيق أن اعترفت الأمم المتحدة منذ أيامها الأولى للعالم العربى بأنه ذوكيان موحد وطابع مشترك فى حياته الاجتماعية ونظمه الأصيلة التى تستند إلى مقومات البيئة والتاريخ من جهة والتى تزكيهاوحدة الغاية والهدف من جهة أخرى . وترتب على هذا الاعتراف الجميل أن أفردت الأمم المتحدة هذه الحلقة فى دورتها الأولى للعالم العربى من الشرق الأوسط ، تشترك فيها دوله العربية ، وتناقش وفودها شئون المجتمع المشتركة فيما بينها ، ويعاون فى هذه الدراسة خبراء الامم المتحدة والوكالات المتخصصة . ولقد سارت الأمم المتحدة منفردة أول الأمر فى تنظيم الحلقة وإدارتها واختيار موضوعات الدراسة فيها مكتفية بالتشاور مع الدول العربية الأعضاء فى الأمم المتحدة . ولكنها اتجهت منذ الحلقة الثانية والثالثة إلى اشتراك جامعة الدول العربية فى القيام على شئون الحلقة من حيث اختيار موضوعها والإعداد الفنى والعلمى لأعمال لجانها واجتماعاتها ثم إبلاغ التوصيات إلى الدول الأعضاء ونشر نتائج البحوث والدراسات المستفيضه على أوسع نطاق.ولقد تزايد نصيب الجامعة دورة بعد دورة حتى انفردت

آخر الأمر فى هذه الدورة السادسة بالإعداد الكامل للحلقة وتنظيم الدراسات التى استمرت قرابة ثلاثة أعوام فى موضوع يعتبر من الموضوعات الأولى فى دراسة كيان المجتمع العربى، هو موضوع البيت والأسرة والأمومة والطفولة.

وإنه ليطيب لنا ، نحن أبناء العروبة الذين أتيحت لهم فرصة البحث والدراسة فى أصول مجتمعنا العريق ، ونحن نذكر بالخير للأمم المتحدة اعترافها الجميل بوحدة أمتنا وتكامل عروبتنا ، أن نذكر بالحمد لجامعتنا العربية ما بذلت ولا تزال تبذل من جهد صادق وعمل دائب فى سبيل إبراز معالم الوحدة الأصيلة فى مجتمعنا العربى والتكامل المثمر فى حياتنا وجهادنا القومى . . . . . نحن الشعب العربى الذى حباه الله بوحدة الأصل ووحده الغاية والهدف . فسار قدما فى سبيل الحق وسبيل الخير باعثا أمجاده ، محييا تراثه ، مؤديا رسالته ومثله الإنسانية العليا فى الحياة .

وموضوع دراستنا الذى اخترناه لهذه الدورة موضوع كبير متشعب النواحى ، تناوله الباحثون الذين جندوا أنفسهم ، ونظمت الأمانة العامة وسائل الاتصال والتشاور بينهم ، فأعدوا فيه قرابة مائة بحث قيم . كذلك عرضت الأمانة بعض جوانب هذا الموضوع للبحث والمناقشة فى مؤتمرين سابقين من مؤتمرات خبراء الشئون الاجتماعية العرب ، أحدهما انعقد فى الكويت منذ عام ونصف عام والآخر انعقد فى القاهرة منذ أسابيع . . . . . ولكن هذه الدراسات السابقة لم تكن إلا تمهيداً للدراسة فى هذه الدورة التى نعقدها لمراجعة البحوث ومشروعات التوصيات ، حتى ننتهى من ذلك بعون الله إلى توصيات نهائية نتقدم بها إلى دولنا العربية واثقين من أن حكوماتها ستعمل جاهدة لتضعها موضع التنفيذ .

وتنظيما للمناقشة سنلتقى أول الأمر فى صورة ندوة عامة ، نبحث الموضوع فى عمومه وشموله ونتناول وسائل رعاية البيت العربى من مختلف نواحى حياته ، ثم ننقسم بعد ذلك لجانا تختص كل منها بجانب من الموضوع، فتكون هناك لجنة لبحث أسس الحياة فى البيت العربى ومقوماتها ، ولجنة لاستعراض الخدمات التى تتحقق عن طريقها رعاية هذا البيت ، ولجنة لبحث التشريعات الخاصة بالبيت والأسرة ، ولجنة تتناول المشكلات التى تواجه البيت والعوامل التى قد تمس كيانه فى خضم الحياة الحديثة ، ثم لجنة تحدد البرامج العملية للنهوض بالبيت العربى وتوصى بما تختاره من مشروعات نموذجية فى هذا الشأن .

وهكذا ترون أننا نلتقى اليوم حول موضوع عظيم يتناول حياتنا فى البيت والأسرة . . . . . بل يتناول نواة حياتنا العربية وبذرتها التى شاء لها الله أن تنبت نباتا حسنا فى أرضنا الطيبة ، وأن تؤتى ثمارها وخيراتها على مر الزمن خلال أجيال طويلة من التاريخ . . . . وهذه الحياة العربية فى البيت العربى هى التى أثبتت قدرتها على البقاء والخلود رغم الغير والأحداث وهى التى دلت على حيوية شعب غالب الأيام فغلبها وعاصر الدهر فلم تنل منه الأيام ، ولئن نحن تلمسنا اليوم سبيلنا إلى استجلاء الحقيقة الواقعة فى صلب حياتنا البيتية ، إنما نلتمس عن طريق ذلك ما يزكى إيماننا ويرسى قواعد الثقة فى نفوسنا بأننا أمة لها مكانها فى التاريخ ، ولها أيامها الباقية على الزمن ، وطاقتها التى تكفل تحقيق آمالها بعون الله .

إننى وقد شرفنى أخوانى العرب فاختارونى لأتابع وإياهم ما بدأنا من الدرس والبحث والتقصى منذ عشرة أعوام لأحس بأن خير ما أبدأ به العمل وإياكم فى هذه الدورة السادسة أن نذكر نعمة الله علينا أن أتيحت لنا هذه الفرص

المجددة لنبحث سويا ونعمل يداً واحدة فى سبيل جعل العلم فى خدمة نهضتنا القومية حتى تسير أمتنا قدما فى طريقها المرسوم إلى حياة أفضل وأكثر خيراً وتعاونا وبراً .

لقد تفضلت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية فنظمت لنا هذا الاجتماع وأعدت له ومهدت لنجاحه كأحسن ما يكون الإعداد والتمهيد ، وتفضلت حكومة المملكة الليبية المتحدة فدعت إليه وغمرتنا بمظاهر الحفاوة والضيافة العربية التى تجعل كل واحد منا يحس أنه فى بيته وبين أهله وعشيرته ، وشاركتنا فيه الأمم المتحدة ووكلاتها المتخصصة . . . هيئة العمل الدولية ، وهيئة التغذية والزراعة ، وهيئة الصحة العالمية ، وهيئة اليونسكو ، واللجنة الاقتصادية الإفريقية وعدد غيرها من الهيئات والجمعيات وهى جميعها تستحق على مشاركتها الجميلة الشكر والتقدير .

على بركة الله نبدأ اجتماعنا السادس وعلى هدى من نوره نسير فيما نحن بسبيله من خير ، وعلى الله قصد السبيل .

والسلام عليكم ورحمة الله

الندوة الأولى
(الكويت)
أوجه رعاية البيت العربي

١ — أهمية دراسة البيت العربى	الأستاذ عبد العزيز حسين	الكويت
٢ — الدعامات الخلقية فى البيت العربى	للدكتور سليم حيدر	خبير الجامعة العربية
٣ — الأسرة فى الإسلام	للشيخ محمد أبو زهرة	» » »
٤ — تزايد السكان وأثره فى البيت العربى	للدكتور عبد الجليل الطاهر	» » »
٥ — الأمومة والبنوة فى البيت العربى	الأستاذ عبد المنعم خلاف	جامعة الدول العربية
٦ — الرعاية النفسية فى البيت العربى	الدكتور مصطفى زيور	خبير الجامعة العربية
٧ — الرعاية الصحية فى البيت العربى	الدكتور عبد الوهاب البرلسى	» » »
٨ — التجاوب بين المدرسة والبيت	للأستاذ محمد حسين المخزنجى	» » »
٩ — التعاون والبيت العربى	للأستاذ أمين يونس الحسينى	الأردن
١٠ — الرعاية الاجتماعية للبيت العربى	للأستاذ يحيى حسن درويش	ج . ع . م
١١ — استثارة الوعى لمشكلات البيت العربى	الدكتور عبد الحميد يونس	مركز رعاية وتوجيه المكفوفين
١٢ — تعليـــق	الأستاذ محمد حسن الشماوى	جامعة الدول العربية
١٣ — هذه النـــدوة	الدكتور سليمان حزين	» » »

أهمية دراسة البيت العربى

للأستاذ عبد العزيز حسين

(الكويت)

فى هذه المرحلة الحاسمة التى يجتازها الوطن العربى وفى هذه الفترة الهامة من تاريخنا القومى حيث يلتئم الصدع وينتظم العبء وينمو الوعى الغامر لدى أبناء الأمة العربية فى شتى أرجائها للعمل على التحرر والوحدة ، نجتمع فى هذا الجزء من وطننا الكبير لبحث موضوع من أخطر الموضوعات لأمة تنشد الحياة الكريمة وتعمل جاهدة لإرساء نهضتها على أسس سليمة وتضع نصب عينيها أن تسهم أسهاما فعالا فى الحضارة الإنسانية . إن البيت هو بمثابة الوحدة الأساسية التى يقوم عليها هيكل المجتمع ، وعلى الصورة التى يكون عليها هذا البيت من القوة أو الضعف يكون المجتمع بأسره . إذا كانت هذه حقيقة أولية مسلما بها فى كل مجتمع فإنها أكثر وضوحا وأهمية وخطورة فى مجتمعاتنا العربية ، فإن كلمات القبيلة والأسرة والبيت والأمومة والبنوة والأبوة والأخوة والعرض والمسئولية والتكافل وغيرها من الكلمات التى تدور فى نطاق الأسرة فى أوسع وأضيق معانيها كلمات ذات رنين وبريق خاص فى ذهن العربى يجعل للبيت وتكوينه ومنزلته وأثره خطورة يجدر بنا معها أن نفرده بحلقة دراسية لنعرف مدى صلاحية هذه الخلية التى يقوم عليها كيان أمتنا للحياة الحاضرة . ماهى خصائصها الحيوية لتنميها ونرعاها ؟ ماهى نقائصها لنستوفيها لنكملها ؟ هل يؤدى كل جزء منها وظيفته على الوجه الأمثل ؟ وهل يتوافر فيها الجو الذى يساعد على النمو الذى يجعل من هذه الخلية وحدة قوية تعمل فى الشاق لتخلق المجتمع القوى الدؤوب المتكامل الذى يعمل هو الآخر فى وحدة منسقة هادفة فيها يسر وحيوية وطمأنينة وانسجام ؟ لقد اختلفت على البيت العربى أوضاع شتى فى عصور متهاودة متطاولة . فغدا يشكل فى مجموعه قيما وتقاليد وعادات بعضها أصيل عريق وبعضها مجتلب دخيل ، فيها ماهو حافز على التقدم وماهو عائق عنه. وقد تشابكت تلك التقاليد والقيم والعادات التى تشربها البيت العربى حتى لم يعد من السهل اليسير على المواطن العادى التفريق بين الصالح منها والطالح . فهناك تقاليد عربية أصيلة تتمشى مع روح التقدم والتحضر بل انها تغتنى وتزداد إشراقا وأصالة بصورة مستمرة كلما تقدم المجتمع العربى وتطور هذه التقاليد تتطلب منا المحافظة عليها وتنميتها وصقلها لتكون عقيدة تلتزم بها الأسرة العربية ونوراً تستضىء به على الزمن فى علاقاتها الخاصة والعامة . وهناك تقاليد وعادات أخرى تسربت إلى البيت العربى بسبب الأوضاع الشاذة التى سيطرت على مجتمعاتنا فى عصور الظلام التى بدأت دياجيرها تنحسر . إلا أن بعض آثار تلك العصور المظلمة لاتزال تعايشنا حتى اليوم ، ويسرف بعضنا فى الخطأ حين يظن أن تلك الآثار شىء أصيل فى تقاليد مجتمعنا العربى . إن واجبنا القومى يدعونا إلى تطهير البيت العربى من هذه الآثار التى لاتمت بصلة إلى ثقافتنا وقيمنا وتقاليدنا الأصيلة ، حتى تسلم لنا أسرة عربية خالصة من الشوائب .

لقد جدت على المجتمع العربى أحوال وظروف لم يكن له عهد بها من قبل . دفعته إلى أن يهتم بالتخطيط الصناعى وتنظيم الإنتاج والتنمية الاقتصادية وإخضاع المشكلات العامة للنظرة العلمية الموضوعية، ولاشك أن هذه الأسباب

التى بدأ المجتمع العربى يأخذ بها ستنعكس صورتها على البيت العربى بل على كل فرد فيه . فنحن إذا بحاجة إلى تخطيط خاص للأسرة العربية ينسجم مع التخطيط العام الذى ترتضيه الدولة . إن المخترعات الحديثة قد قربت أجزاء العالم بعضها من بعض وأصبحت الثقافات المختلفة فى متناول كل مواطن ، واشتد اتصال المجتمع العربى بالمجتمعات الإنسانية الأخرى وازداد تفاعله معها ثقافيا واجتماعياً، وظهرت آثار وبوادر ذلك التفاعل فى الأسرة الواحدة بل فى المجتمع العربى بأسره . فما موقف رجال الاجتماع والتربية من كل ذلك ؟ إن علينا أن نتخذ طريقا واضحا وسط تلك التيارات المتضاربة تجنبنا المزالق ولاتذيب شخصيتنا فى خضم الثقافات الوافدة . إن التطور السريع الذى أخذ ويأخذ سبيله فى مجتمعاتنا العربية وأخص بالذكر تلك المجتمعات التى حدث فيها هذا التطور قويا سريعا جارفا — فى الكويت مثلا — قد أحدث قلقا واضحاً هو أظهر سمات المواطن العادى فى مثل هذا المجتمع ، يتجلى هذا القلق فى حيرته فى الولاء لرب الأسرة أو الدولة وفى عدم وضوح أهدافه وغاياته وفى شكه بجدوى تقاليده ، ومثله الموروثة وفى تخبطه بالحكم فى أمور كان الحكم فيها فى ظل البيت القديم واضح المعالم .

كان مدلول البيت قبل سنوات قليلة فى مجتمع كهذا يشمل أسرة كبيرة فيها العديد من الأسر الصغيرة فتقلص هذا البيت الكبير إلى بيوت عديدة صغيرة . . . ترى هل فى هذا تفتيت للأسرة الكبيرة يؤسف له أم هذا استقلال لأفراد الأسرة الصغيرة تحمد عليه ؟

ودخلت المدرسة الحديثة مجتمعنا فنشأت مشكلة الملاءمة بينها وبين المنزل، وصار البيت العربى فى فترة الانتقال هذه يضم أبوين أميين وأطفالا يتلقون العلم أو شباباً متعلمين ، جيلين بينهما بون شاسع فى النظرة إلى الحياة وتفهم مشكلاتها . إن من مهمتنا ألا تحل هذه المشكلات على حساب الجيل الطالع كما يجب ألا تحل على حساب مهابة الآباء وقداسة البيت وكرامته .

والمرأة شق هذا المجتمع والمربية الأولى لنشأته وحجر الزاوية فى قيام البيت العربى الصالح . إنها لاتزال — رغم الاعتراف لها بحقوقها الاجتماعية فى كثير من المجتمعات العربية ، لا تزال تتلمس طريقها فى مجتمعات عربية أخرى ولاتزال حائرة بين جيلين ، ولاتزال كلمة المحافظة غامضة المعنى فى أذهان الكثيرين منا .. إن دراسة البيت العربى لن تكون ذات جدوى إلا إذا وضح دور المرأة فى البيت وفى المجتمع على السواء .

إن اتساع رقعة العالم العربى وتعدد مشكلاته واختلاف الأوضاع بين أجزائه لم يمنع أن تكون مشكلات الأسرة فيه تكاد تكون متشابهة .. إنها تتفق فى النوع وإن اختلفت فى الدرجة ، إن هناك مشكلات اجتماعية واقتصادية وصحية وتربوية وثقافية ونفسية ومن الصعب فصل مشكلة عن أخرى فهى كلها نتيجة حتمية لتطور متكامل لايمكن دراسة حدث منه بمعزل عن الأحداث الأخرى، ولاسبيل إلى حل هذه المشكلات إلا باستلهام النظرة العلمية الموضوعية ومواجهتها بروح لاتهيب رؤية الحقيقة ولاتألو جهداً فى الوصول إلى العلاج الناجع .

هذه إلمامة سريعة خاطفة قد تقدم للزملاء الذين سيشبعون الموضوع بحثا، وقد تلقى بعض الضوء على مدى أهمية دراسة البيت العربى لأمة تنشد الرفعة وتتطلع إلى مستقبل مضيء زاهر . .

الدعامات الخلقية فى البيت العربى

للدكتور سليم حيدر

(خبير الجامعة العربية)

الدعامات الخلقية فى البيت هى مجموعة من النواميس والتقاليد الموروثة ، التى تقيم العلاقات بين الزوج والزوجة، وبينهما وبين الأولاد ، ثم بينهم جميعاً وبين الآخرين : سياسة البيت فى الداخل ، وسياسته الخارجية .

كيف كان البيت العربى فى الجاهلية ؟ كيف كان فى الإسلام ، وكيف يجب أن يكون اليوم ؟ ثلاثة أسئلة ، الجواب على اثنين منها تقرير لواقع ، وعلى الثالث تركيز وتوجيه .

١ — لكل شعب أخلاقية خاصة ، تلائم المحيط الطبيعى وتتأثر بتطور البيئة الاجتماعية والعرب قبل الإسلام قبائل متفرقة ، تربط بينهم أواصر اللغة ، والمعتقدات الوثنية على تعددها ، والمصاهرة ، والتحالف أحيانا ، وتفرق بينهم خصومات يطول أمدها ويقصر ، وتتسع دائرتها وتضيق ، حسب أهمية أسبابها وتشعب هذه الأسباب .

ولعل الميزة الأولى للعربى الجاهلى — تلك التى تشتق منها جميع ميزاته ، مباشرة أو بطريق رد الفعل العكسى — هى الإيمان ، بأشمل معانى الكلمة وبأقصى معانيها . الإيمان بالحياة ، بالحركة الخلاقة ، بالزخم الحيوى الكافى فى الإنسان وفى الطبيعة ، الفاعل المنفعل ، الدافع المندفع ، الباعث المنبعث ، الآيل بكل حال إلى التجدد . ثم الإيمان بخالق لهذه الحياة .

كان الجاهليون ، كجميع الشعوب الوثنية ، يعددون الآلهة وينحتون لها أصناماً تحتل مراتبها فى الكعبة ، فتنذر لها النذور ، وتذبح على أقدامها القرابين ، ويختلف فى حبها وفى قدرها وفى عصبيتها للقبائل . وكأن هذه الأنصاب لم تكن لتشبع نهم الإيمان فيهم فأحاطوها بالأزلام يستقسمون بها الأمر والنهى فيما يهمون بعمله ، ناهيك بالتطير إيماناً مبهما ، قلقاً نفسياً وفكريا يدل على إحساس غامض بقوة مجهولة رهيبة تسيطر على الكون وتدبر أموره فى الخفاء .

ولا أعتقد أن وثنية فى العالم كانت أقرب إلى الإيمان بالله من وثنية الجاهليين العرب . ففى كتاباتهم ذكر لله بشكل مطلق ، وفى عباداتهم ينظرون إلى الأوثان كأنها تشيد لفكرة ، أو رمز ظاهر لخالق مستتر . وفى سلوكهم اليومى شعور بأن عالما أصلح وأبقى ينتظرهم . فلم تفاجئهم الرسالة الإسلامية ، لم تفاجىء إلا السراة منهم ، أولئك الذين رأوا فى الإسلام تقويضا لجبروتهم وقضاء على امتيازاتهم .

الإيمان هو المزية الأولى للعرب الأوائل،فى إطار مكانهم وفى نطاق زمانهم . ولعل فى ذلك تفسيراً لتناقض ظاهر بين طبيعة معتقداتهم وأرضهم من جهة ، وبين أخلاقيتهم العامة من جهة أخرى . فعلى الرغم من الوثنية التى كانت طاغية على الجزيرة العربية ، إلا قليلا من اليهود والنصارى ، وعلى الرغم من المناخ الطبيعى وهو بمعظمه صحراء ملهبة،

وكلاهما — الوثنية والصحراء — تغريان بالعرى والاستهتار بأمور الحشمة، فالمعروف أن الحشمة، هى القاموس الخلقى الأول المسيطر على حياة العرب . لا تمشى المرأة العربية عارية الجسم ، ولا يتهاون العربى فى حماية عرضه .

الحشمة هى المزية الثانية للعربى ، بأشمل معانيها : العرض ، والشرف ، والأدب ، والأمانة ، وجميع مشتقاتها . وبأقسى معانيها : وأد البنات خوف العار ، ومنع زواج الفتاة من الشاعر الذى شبب بها ، والحرب الطاحنة على صرخة امرأة ... ولعل أمثولة رائعة فى الحشمة والشهامة والعفة ، تلقى على الفتيان فى كل مكان وزمان ، قول عنترة:

وأغضى طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

والميزة الثالثة هى الكرم ، الاحتفاء بالضيف ، إقراراً بفضل الحياة وبفضل حالتها، الكرم إلى حد الإسراف ، إلى حد سلب مال الغير ، بطريق الغزو ، لإكرام الضيف والقيام بواجباته ، إلى حد الهوس الجنونى فى قول حاتم الطائى :

وإن لم أجد لنزيل قرى قطعت له بعض أطرافيه !

وأما الميزة الرابعة فهى الفروسية ، بأشمل معانيها ، القوة ، الشجاعة ، الاعتزاز بالأمجاد ، حماية الجار . وبأقسى معانيها : الثأر ، الغزو ، الحرب صونا للكرامة ، ولو من أجل أمر تافه !

تلك أهم مزايا العرب فى الجاهلية، يتخلق بها فطرة ، ويمارسها إلى أقصى حد ، بإخلاص واندفاع. يمارسها بعقله وقلبه ، لكنه يمارسها أحياناً بأعصابه فيجوز الحدود . تلك المزايا الأربع : الإيمان ، الحشمة ، الكرم ، الفروسية بأشمل معانيها وبأقسى معانيها — تمثل العربى الجاهلى بما له وما عليه .

كيف تحكمت هذه الأخلاقية العامة بالبيت العربى ؟

كان الزوج رب الأسرة ، ولكن ذلك لا يعنى أن المرأة لم تكن شيئا مذكوراً . فقد كانت هى ربة البيت ، بكل ما لهذه الكلمة من معانى التقدير والاحترام ، وكان يطيب للرجل أن يترنم بذلك ، يدعوها بكنيتها تكريما لها ، ويطلب إليها حاجته متأدبا :

ياربة البيت قومى ، غير صاغرة ضمى إليك رجال القوم والقربا

إطاعة المرأة للرجل ، وتقدير الرجل للمرأة ، فى جو من الود والاحترام المتبادلين ، تلك كانت علاقة الزوجين ، والأولاد ينشأون على الفطرة ، فى جو الأسرة وفى جو القبيلة ، فتنمو فيهم المزايا ، متطرفة إلى حد مجاوزة الحدود .

٢ — وجاء الإسلام الحنيف ، فغير كثيرا فى حياة العرب : هداهم إلى الله ، وبين لهم الحدود ، فصفت أخلاقيتهم وتبلورت معها المزايا الأربع ، فازدادت شمولا للقيم الخلقية السامية . وتخلصت من قساوتها الجاهلية الغليظة .

وإذا كان من المستحيل القضاء على الغرائز البشرية . فمن الممكن تحويلها . هذا ما فعله الإسلام . لم يعد الإيمان إحساساً غامضاً يفتش عن تجسد مادى ، وأصبح اعتقاداً نيراً بوحدانية الله ، أزليا أبديا، نوراً لا ينطفىء، إذا ما أضاء

ظلمات النفس أظهر لها سواء السبيل ، وهكذا لم يعد الغزو عملا من أعمال الفروسية والبطولة ، ولم يعد الميسر كسباً مشروعا ، ولم يعد وأد البنات ظاهرة من ظواهر الحشمة ، بل أقيمت الحدود بين الخير والشر .

وتحولت الغرائز الشريرة بفعل الإيمان الجديد إلى مجار جديدة . فحل الجهاد المقدس محل الغزو ، وأخذت الزكاة شيئاً مما كان يأخذه الكرم ، وتنظم المجتمع لأول مرة على أنه تضامن ، ونشأت فكرة الدولة .

فى هذا الجو الإسلامى ، قويت الدعامات الخلقية للبيت العربى ، إذ تكرست سلطة الزوج كرب الأسرة ، وتعممت وتكرست حقوق المرأة كربة البيت وكعضو عامل فى الحياة وسفه وأد البنات ، وأوصى « بالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر ، أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » .

٣ — واليوم ، بعد أربعة عشر قرنا من الدعوة الإسلامية ، وبعدعشرات القرون من حياة العرب التى سطرها التاريخ ، ترى هذه المزايا الأربع : الإيمان ، الحشمة ، الكرم ، الفروسية ، لا تزال هى الدعامات الخلقية ، لا تزال هى الزوايا التى يقوم عليها البيت العربى ، فكيف نتسلمها ، وكيف نشيد عليها بنيان حياتنا الاجتماعية الزاهية ؟

إذا كنت ألح فى السؤال ، لأننى أعتقد أن كل أمة تريد الحياة تعمد ، عندما تمخضها الحياة، إلى إعادة النظر فى القيم لتقويمها فى جديد ، وفقاً للمقتضيات الجديدة ، والأمة العربية اليوم على أخطر منعطف فى سبيلها القوى ، فقد كبت أجيالا طوالا ، بعد مجد أفاض على العالم خيرات الإيمان والعلم والحضارة ، نهضت حديثاً من كبوتها ترأب الصدوع وتلم الشمل الشتيت والعالم لها بالمرصاد !

والبيت خلية المجتمع الفضلى ، على صلاحه صلاح المجتمع . وفى نظرى أن البيت العربى يعانى اليوم أزمة حادة فى كيانه : المرأة نالت حقوقها السياسية ، بعد كبت دام أجيالا ، والأولاد انطلقوا فى الحياة ، بين المدرسة والشارع والمعمل واللهى ، وزالت التكتلات الاجتماعية الصغيرة ، القبيلة والعائلة بمعناها الواسع ، وما إليها ... وبقيت الأسرة المؤلفة من الزوج والزوجة والأولاد ، توشك أن تكون الخلية الوحيدة فى جسم الأمة .

وما حدث فيه كل الخير ، شرط أن نحافظ على كيان الأسرة ، وعلى أخلاقيتها ، لأنها معدن الأمة ومعدن أفرادها .

فإذا اعتصمنا بالقيم الخلقية العربية الأربع : الإيمان ، الحشمة ، الكرم ، الفروسية ، بمفاهيمها العربية ، فالأسرة مصونة والأمة بخير .

الإيمان بالله او بالحياة لا عاطفة مجردة ولا كلمات تخرج من الشفاة فى مواعيد معينة بل اعتقاد راسخ بقوى الخير نوجهها فى الحياة لمصلحة المجموع ، فتتأمن بذلك مصالحنا ، وصلاة من القلب دائمة ، تكبح جماح الشر فى أنفسنا ، وتصهر نزاعتنا نظاما وإنتاجا .

والحشمة عن المنكرات ، عن جميع مغريات الشر . فى جميع علاقاتنا بالناس ، نساء كانوا أم رجالا ، وفى جميع معاملاتنا ، اقتصادية كانت أم ثقافية أم سياسية .

والكرم الأصيل ، كرم النفس الذى ينبىء عنه كرم اليد كفرع من أصل، والذى يجعلنا نحب الآخرين ونعاملهم بالود والإحسان ، وبالإغضاء والتسامح ، والذى يهىء فى أنفسنا ، بشكل دائم ، جو التفاهم الاجتماعى .

والفروسية أخيراً ، القوة والشجاعة والجرأة ، والإقدام على تحمل التبعات ، والثبات على القيام بها ، والصبر على المكاره ، والطمأنينة فى أداء الواجب .

فاذا تحلى الزوجان بهذه الصفات ، وهى عربية خالصة ، وإذا ربى الأولاد عليها ، فبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، وبشر الأمة العربية بالنصر المبين ؟

الأسرة فى الإسلام

للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة

(خبير الجامعة العربية)

يلاحظ أن القرآن الكريم ماتولى بالتفصيل نظاما كنظام الأسرة . فالزكاة بينها بإجمال فقال « آتوا الزكاة »! والصلاة بينها بإجمال فقال « أقيموا الصلاة » أما الأسرة فقد بينها تفصيلا طويلا وإن لم يكن مملا ذلك لأنه بين إنشاء الزواج وبين متى يكون الطلاق وبين العلاقة بين الزوجين وبين العلاقة بين الأبناء وبين آبائهم والأبناء بعضهم مع بعض وبين العلاقة بين القرابة جميعها ثم بين نظم الاقتصاد والتعاون فى الأسرة بما لايدع مجالا لتفصيل مابعده . لم ذلك ؟ لماذا تصدى القرآن لهذا ؟

إن الذى أنزل القرآن هو الله وهو العليم بما جد وما يجد وما يكون فى الأبد فلعله سبحانه علم أن ناساً سيهجمون القيم الروحية فى الأسرة فبين أن القيم الروحية فى الأسرة خالدة إلى يوم القيامة ، ولذلك سجلت فى كتاب الخلود إلى يوم القيامة . الأسرة فى الإسلام لاتشمل الزوجين فقط ولاالزوجين والأولاد فقط ، بل تشمل القرابة كلها ، ولذلك نستطيع أن نقسم الأسرة إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول ركنا الأسرة وهما الزوجان ، والقسم الثانى الأولاد ومايتعلق بهم من حقوق والقسم الثالث القرابة .

أما القسم الأول — وهو الركن الركين للأسرة — وهو الزوجان فان الإسلام بنى قوام العلاقة بين الزوجين على أسس ثلاثة :

الأساس الأول المودة الرابطة بينهما ، والأساس الثانى التعاون الذى يجعل الحياة الزوجية واحة فى وسط صحراء الحياة ، والثالث العدالة بين الزوجين . أما الأساس الأول وهو المودة فهو تحقيق لقوله تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ويتبين نوع المودة الرابطة بين الزوجين بقوله تعالى فى العلاقة بينهما « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . أى هى منك بمنزلة الشعار والدثار وأنت منها بمنزلة الشعار والدثار . أبقى الإسلام الأسرة مابقيت هذه المودة فاذا انقطعت حبال المودة عمل على علاجها ، ووضع ثلاثة أنواع من العلاج : النوع الأول أن يحاول الزوجان أنفسهما أن يصلحا مابينهما ولذلك يقول الله تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما والصلح خير ، » وهنا نجد النص القرآنى يلقى عبء الصلح فى أكثر أحواله على المرأة. ذلك أن المرأة بما أتاها الله من صبر وعطف ومودة ورحمة كانت هى التى تستطيع أن تقود الرجل إلى الصلح ولذلك قال : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً » عليها هى أن تبدأ بالعلاج ثم إذا عجزت عن العلاج واستعصى الصلح بينهما بأنفسهما ، أوجب الإسلام على المتصلين بهم من أقارب أن يعملوا على الصلح ولذلك يقول سبحانه « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلاتميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن

تصلحوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » . إذا لم يستطع من حولهما الإصلاح ووصل الأمر إلى القضاء لايجوز للقضاء أن يسير بالقضية إلا بعد محاولة أخرى لربط المودة ولذلك قال سبحانه — « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » وإذا عجز الحكماء وعجز القضاء عن إعادة حبل المودة الذى انصرم عندئذ يقول الله تعالى — « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته » . نظام ما أعلم أن نظاماً بشريا وصل إليه ولايصح أن نستبدل به نظاما آخر ماديا كما يشير إلينا بعض الأساتذة الأجلاء .

الأساس الثانى أو الدعامة الثانية : التعاون بين الرجل والمرأة بحيث تحس المرأة بأن حياتها قد ارتبطت بالرجل وهذا النوع من التعاون حث عليه النبى (صلعم) فقال كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها . واعتبر الإسلام أن خير مافى الوجود زوجة صالحة معينة فقال صلى الله عليه وسلم « ألا إن خير ما يكنزه المرء امرأة صالحة إن نظر إليها سرته وإن غاب عنها حفظته وإن أمرها أطاعته » ولا أريد أن أطيل بالدعامة الثانية لأن الوقت ينتظرنى والرئيس يضن على بإطالته .
الأساس الثالث أو الدعامة الثالثة العدالة ، والعدالة التى شرحها القرآن الكريم هى التساوى بين الواجب والحق فيجب أن يكون على الإنسان من واجبات بمقدار ماله من حقوق وقالها الكتاب الكريم فى أوجز تعبير فقال : ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » فوضع بذلك المبدأ السليم وهو المساواة بين الحقوق والواجبات فللزوجة من الحقوق بمقدار ما عليها من الواجبات والدرجة التى أعطاها القرآن الكريم للرجل هى درجة التنظيم والرعاية والإشراف وهى درجة أيضا يتصل بها واجبهم فليست حقا مجرداً من واجب إنما هى حق مرتبط بواجب . والإسلام فى سبيل التسوية بين الحقوق والواجبات أتى بمبدأ لم تصل إليه أوروبا إلا فى عهد قريب جدا وفى بعض الدول دون بعضها وهو أنه جعل للمرأة الولاية الكاملة على نفسها وعلى مالها فذمتها منفصلة عن ذمة الزوج .

المرأة إلى عهد قريب فى أوروبا كانت فى وصاية أبيها قبل الزواج فاذا تزوجت كانت فى وصاية زوجها ، لاتملك من مالها شيئا ، مالها يصبح شركة بينها وبين زوجها ليس لها أن تتصرف فيه وإنما يتصرف فيه الزوج بوكالة قانونية قضائية مفروضة وبوصاية لازمة . أما الإسلام فمنذ أربعة عشر قرنا قرر أن المرأة لها ولاية كاملة على مالها « وللرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » . قاعدة مقررة ثابتة لامناص للشك فيها ولاللقول فيها . وأؤكد لكم أن هذا جاءت به الشريعة بدعا لم تسبق به . فالمرأة فى عهد الرومان كانت أمة أو شبه أمة . وكانت عند العرب ولايؤاخذنى الأستاذ الدكتور سليم — لاتملك من أمرها شيئا إلا فى بعض القبائل العربية المحدودة بل فى بعض سراة القبائل العربية المحدودة . فالإسلام كان أول منصف للمرأة .

نوجز هذا القول وننتقل سريعا إلى حقوق الأولاد ، تولى الإسلام الولاية على الأولاد ورعايتهم من وقت ميلادهم إلى أن يبلغوا سن الرشد فمن وقت أن يولد الجنين ، من وقت أن يخرج إلى نور الحياة فرض الإسلام ثلاث ولايات لتربيته . الولاية الأولى ولاية الحضانة التى سيبقى فيها الطفل للعواطف وتنمو فيه هذه الغرائز البشرية وجعلت هذه الولاية كاملة للمرأة . اختصم الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى بكر الصديق فى ولد له اسمه عاص كان من أنصارية فوجده يسير مع جدته فانتزعه منها وكان عملاقا قوياً جباراً ولكن جدته الرؤوم أخذت بتلابيبه حتى

ذهبت إلى أبى بكر فاختصما إليه فانتزعه الصديق من يده وقال له: مسها ومسحها وريقها وحجرها خير له من الشهد عندك. وذلك لأن المرأة بما آتاها الله من عواطف كريمة شريفة تستطيع أن توقظ كل هذه العواطف وكل هذه المعانى فى نفس الطفل حتى إذا ترعرع ونما أصبح فى حاجة إلى الحفظ والصيانة فانتقل إلى الولاية الثانية . وهى ولاية أبيه ولاية الرجال ليصان وليحفظ ، وإذا كان له مال ثبتت عليه ولاية أخرى وهى ولاية المال ومنع من أن يأخذ ماله كما قال الله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » .

بعد هذه النظرات السريعة ننتقل إلى علاقات الأقارب بعضهم ببعض ، نظم الإسلام علاقة الأقارب بعضهم ببعض على أساس من التعاون . وعلى أساس من التواصل والتراحم ، وعلى أساس أن مال الأسرة بين آحادها شركة، الغنى يورثه الفقير والغنى يجب عليه معاونة الفقير . وأسس العلاقات بين الأقارب ثلاثة أولها : التواصل ، قال النبى (صلعم) « من أراد منكم أن ينسأ له فى أثره وليبارك له فى رزقه فليصل رحمه » وليست الصلة أن تتبادل المودة فقط ، بل إن الصلة تكون أوجب عندما تكون قطيعة من قريب لقريبه ، ولذلك يقول النبى : « ليس الواصل بالمكافىء إنما الواصل من يصل رحمه القطيعة »، الأساس الثانى من أسس العلاقات بين الأقارب : أن الفقير تجب له النفقة فى مال الغنى والله سبحانه وتعالى يقول : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم » فبهذا تبين أن كل قريب له حق فى مال قريبه وأن شئت أن تقول أن مال الأسرة شركة بين آحادها من غير أن تلغى الملكية للمالك فيها فاعلم ذلك . الأمر الثالث الميراث : نظم الشارع الإسلامى الميراث وتولاه تفصيلا لم يوجد قانون للميراث يصل إلى تنظيمه، والقرآن الكريم تولاه تفصيلا لم يترك جزءاً منه من غير بيان قط. والآن ، وأظن الوقت قد حان . أقول لكم أن الله بعد أن بين أحكام الأسرة قال هذه الكلمة السامية « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » .

والسلام عليكم ورحمة الله . . .

تزايد السكان وأثره فى البيت العربى

للدكتور عبد الجليل الطاهر

(خبير جامعة الدول العربية)

أولا : تعلمون جميعا أن السياسة الحكيمة يجب أن توازن بين تكاثر السكان أو زيادة السكان وما فى البلاد من ثروات طبيعية ، وموارد وخامات وأغذية ، وهذه حقائق مسلم بها منذ قديم الزمان . لقد أثار الكاتب الأول « مالتوس » فى كتابه عن السكان اهتمام الدول والشعوب حول مشكلة السكان ولقد ذعر الأوروبيون حينما علموا أن سكان أوروبا كانوا فى سنة ١٧٨٥ مائتى مليون فأصبحوا فى بداية الحرب العالمية الأولى ستمائة مليون ، ومصر بالذات كان عدد نفوسها فى سنة ١٩٠٠ حوالى تسعة ملايين وأصبح اليوم بعد مرور خمسين سنة أربعة وعشرين مليون نسمة فالمصريون يتكاثرون فى كل سنة نصف مليون فيجب على الحكومة العربية أن تجد المأوى الصحى والغذاء الكافى لهذه الأفواه الفاغرة ، أو البطون التى ستزيد ، بالنسبة للمجتمع العربى بالطبع توجد هناك ثلاث سياسات أو ثلاثة أنواع من السياسة السكانية أولا : Under populated أى الدولة التى فى حاجة إلى مزيد من السكان .

ثانيا : Populated أى المكتظة ثم Optimum population وهو إحكام التوازن بين المواد الغذائية وبين عدد السكان .

والملاحظ أن الإقليم المصرى فى قلق لزيادة السكان وقلة المواد الغذائية أو موارد الثروة ، وهذه بالطبع مشكلة كبيرة يواجهها المجتمع المصرى وبالطبع بالتعاون مع البلاد العربية ستحل بإذن الله هذه المشكلة للشعب المصرى وخصوصا بعد إعلان الجمهورية العربية المتحدة .

ولكن يجب ألا نترك الحبل على الغارب ، يجب ألا ندع الأمور تمشى ارتجالا بل يجب أن نضع سياسة لتنظيم العائلة ، ومن المعلوم أن فترة الإخصاب لكل امرأة من المقدرة أن تلد ٣٢ طفلا وليس بالإمكان على أى امرأة موجودة على وجه الأرض أن تلد وترعى ٣٢ طفلا ، لا يمكن ذلك فلا بد إذن من وجود سياسة حكيمة ، برضاء الزوجين لتنظيم عدد أفراد العائلة ، التى يمكن أن توازن مع الدخل الذى تحصل عليه تلك العائلة .

ثالثا : فيما يخص التراث الاجتماعى الذى هو روح الأمة العربية ، تراثنا الاجتماعى الذى أقدسه واعتز به وبالطبع الدين الإسلامى هو نواة ذلك التراث بكل تأكيد ، لكن يجب ألا نقف عند حد التقديس والاعتزاز بهذا التراث ، يجب أن نعيد النظر بين حين وآخر فيما لفظ النفس الأخير فيما مات منه ، وأن نبعث الحياة فيه . كلكم تعلمون أن العائلة هى نواة المجتمع وهى مركز المقاومة ، حولها تدور كل قيمنا ، وكل مقاييسنا الخلقية ، فإذا لم نحسن من الآن كيفية المحافظة على هذه النواة ، فبكل تأكيد أننا سنخسر المعركة فى الأخير . كيف إذن نستطيع أن ننظم هذه النواة ؟

يجب أن نعيد النظر فى وظائف العائلة ، وأبدأ بالوظيفة التى تطرق إليها سيدى الأستاذ أبو زهرة، وهى الوظيفة الدينية ، فأنا أب لثلاثة أطفال لم أعلم أبنائى قراءة القرآن والدين الإسلامى ، لقد تعلم أبنائى القرآن والدين الإسلامى فى المدرسة ، فالمدرسة إذن وهى مؤسسة اجتماعية ، شاركت البيت فى هذه المهمة . وشارك البيت مؤسسات أخرى مثل السينما والمسرح فى أخذ كثير من أوقات الفراغ والتسلية وكذلك المطعم أخذ كثيراً الآن فليس هناك عائلة فى الكويت تطحن الدقيق فى البيت ، كلها تستورد الدقيق من المطاحن والمكائن أقصد كل عائلة عربية تواجه هذه الأزمة فى الوقت الحاضر ، أى أن وظائف العائلة انتقلت من العائلة نفسها إلى مؤسسات أخرى . وهذه حقيقه مسلم بها . فإذن يجب أن نعد العدة ، وأن نحضر الخطط لجعل هذه المؤسسة — وهى المؤسسة العائلية — ذات كيان يتفق وينسجم ويتطور مع رغبات الأفراد ، ومع الوضعية المتبدلة ، الوضعية التى أقصد بها الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى تجتازها الأمة العربية بكل تأكيد .

النقطة الأخيرة التى أود أن أشير إليها والتى أثارها معالى الدكتور سليم حيدر أتفق معه تمام الاتفاق فى أن كثيراً من التقاليد والأعراف التى كانت مقدسة ومحتومة فى العصر الإسلامى أو فى الجاهلية ، أصبحت فقط أسماء لا محتويات لها . فمثيلاتها كلمه الحشمة أوالحشم خرجت من معانيها الاولى التى كانت تتضمنها فى العصر الإسلامى الاول أوفى الجاهلية عما هى عليه فى الوقت الحاضر ومعنى ذلك أن هناك حركة فى معانى الحشمة، وأعتقد أن معالى الدكتور سليم حيدر قد اتفق معى فى أن كلمة الحشمة قد تطورت ، فإذا كان معالى الدكتور يتفق معى فى وجوب الاعتراف بتطور مضامين ومحتويات المستويات التى كنا نعتز بها ، فهذا ما نريده بكل تأكيد ، إذ نبقى على الكلمة كما هى ولكننا نغير مضامينها ومحتوياتها ، فأعلن بأنى لا أزال أعتبر أن التراث الاجتماعى وهو روح الامة الذى يكون الدين القسم الاكبر منه نعتز به ونحترمه ، بشرط أن نفكر فى مدى إمكانية تطوير هذا الكيان من أجل أن يلبى رغباتنا وحاجاتنا . والسلام عليكم

الأمومة والبنوة فى البيت العربى

للأستاذ عبد المنعم خلاف

(الجامعة العربية)

إن قانون الصيرورة والتطور ، الذى حاول أخونا الدكتور الجليل عبد الجليل أن يبين أنه قانون صارم مستمر لايجوز أن يتخلف عنه متخلف ، إنه قانون حقا فى الحياة ولـكنه هو نفسه يتطور إذا ماتوجهت قوى الحياة الأخرى لتغيره ، وليس معنى الصيرورة والتطور ، أننا نتعجل الأضرار ، إننا لانتعجل الشيخوخة ، ولانتعجل الأمراض ، وهى من قوانين حياتنا ، وإنما نحاول أن نقاومها إذا ما كنا فى حالة صحية جيدة ، وإذا ما كنا فى خياة الشباب ، ومحاولات البشر الأبدية الخالدة هى مقاومة قانون الفناء ، وقانون الزوال . فإذا كانت أمتنا العربية على قمة من قمم الأخلاق ، وعلى قمة من قمم التـكوين ، فلماذا نحكم عليها بأن تتعجل نزولها عن هذه القمة ؟ لماذا نريدها أن تستعجل قانون الفناء ليسرى فيها ؟ إن عليها أن تقاوم ، وعليها أن تناضل لتحتفظ بقوانين الخير ، وقوانين البر ، وقوانين المعنويات الخالدة ، التى قامت عليها الحضارة المادية والأدبية أبد الآبدين .

ثم إن هناك خلطا بين الحضارة والثقافة فى مفاهيمنا فى هذا العصر . إن الحضارة هى هذه المظاهر المادية التى تنتقل إلينا بيسر وسهولة لمجرد وجود الإمكانيات التى نريدها ، ولـكن الثقافة لاتنتقل إلينا بهذه السرعة ، ولا يأس أن تنتقل إلينا الثقافات المختلفة مادام عندنا من الثقافات مايقاوم الفاسد منها ومايناضلها ، ومايهزمها . فلنستبق من ثقافاتنا الصالح الثابت الذى قامت عليه أصول الحضارات المادية والروحية ، ولنتعجل مظاهر الحياة المادية التى تصلنا بالركب الحضارى ولنلق عن أعناقنا ، وعن أعماقنا الأوزار التى لافائدة منها ، لنتخفف من حملها ، لنسرع الخطو ، ونتصل بالركب السائر على طريق الحضارة ، فى آخر خطواتها .

ثم أن هذه التطورات التى حدثت فى حياتنا أخيراً ، إنما تمت فى ظلال أمم مستعمرة لنا ، أمم أتخذت وصايتها علينا لتدمرنا من الداخل ، وتغير قيمنا ، أمم عدوة لنا ، تـكن لنا الشنآن والبغضاء . فـكيف نتخذ مثلها إذا كانت فاسدة مثلا لنا ! إن كونها عدو لنا كاف فى أنظارنا أن تأخذها بحذر حتى من وجهة النظر التعصبية ولو كانت ثأراً من هؤلاء الذين غلبونا ودمرونا . فهذه النظم التى تمت ، والتى تتطور بها بيوتنا العربية ، رغما عنا فى ظلال أعدائنا ليست صالحة ، وليست مستقرة فى ديارهم أنفسهم ، وهم يشكون منها ، وعنوانات حياتهم لاتزال مزلزلة صباح مساء . إنهم يتطورون تطوراً مدمراً وليس تطوراً بناء وبعد فأريد مدمرا وليس تطوراً بناء . أريد ببحثى هذا ، الذى قدمته عن الأمومة كمصدر من مصادر إشعاعات الخير فى المجتمع العربى ، والبنوة كأول انعكاس فى هذا المصدر ، أن أثبت القيم الثابتة الموجودة فى المجتمع العربى من قديم ، والتى توحى بها دلالات التاريخ وتشير اليها دلالات التاريخ ودلالات الألفاظ بشىء عجيب حقاً ، شىء يكمل الصورة

الرائعة التى أشار إليها الأستاذ عبد العزيز حسين ، فى أول التقديم ، وأشار إليها الأستاذ سليم حيدر فى كلمته ، فإن حقيقة معنى الأم فى البيت العربى ، ومعنى الإشعاعات التى صدرت عن الأمومة فى البيت العربى ، وإشارات الألفاظ التى تركزها فى ذهنيها ، تجعلنا نؤمن بأن هذه الأمة حتى بألفاظها وحتى بدلالات تاريخها ، لها هذه الرسالة الثابتة الخالدة الموحية ، فدلالات كلمة الأم، وتسرب إشعاعها إلى الأمة وهذه المشاكلة بين الأم وبين الأمة ، تبين أن المجتمع العربى يقوم على أساس الحياة التى تنشئها وتربيها الأمومة فى البيت ، فمن الأم انتقلت أخلاق الخير ، والفداء ، والتضحية ، والحب ، والرحمة إلى أبنائها وهؤلاء الأبناء بفعل الأمومة ترابطوا برباط الأخوة بمعنى الأواخى بمعنى العرى وهذه دلالة لفظية أخرى . ثم تنتقل هذه المعانى من محيط البيت الواحد إلى محيط الأسرة، ثم من محيط الأسرة إلى محيط الأمة ، ثم إلى الأمم المتحدة ، التى وصلنا إليها أخيراً اضطراداً وتواصلا للمعانى التى تنتظم ألفاظها وتنتظم نفوسها بمحيط هذه الألفاظ . فهذه الدلالة اللفظية يجب أن نتعمق فى فهمها ، لأنها تهدينا إلى الأسس التى يقوم عليها المجتمع العربى وتنتقل منه إلى المجتمع الذى يليه. وقد نشأ عن الترابط بين الأبناء وبين الأسرة حفظ العرب الأنساب واتخاذ هذا النوع من الثقافة علما قائما بذاته ، نشأ عن ذلك أن هذه الأمة استمرت بأفرادها خالدة فى أذهان أبنائها واستمر الابن يدخل إلى الحياة فى ظلال من سير الأبوة وأمجادها ، وتاريخها المحفوظ، وتسلسل أنسابها ، حتى يحد أنه دخل الحياة ممسكا بحبل النسل الذى انحدر منه ، فيوحى إليه ذلك بتجديد هذه المعانى ، وتجديد هذه المفاخرة فى حياته ، وحياة أبنائه من بعده ، حتى يستمر سير هذه الأمة مطردا .

وقد أمد الإسلام معانى الأمومة والرحم ، واتخذ منها بؤرة من بؤر الإشعاع للخير فى المجتمع العربى وقد أوصى بالرحم فيما أشار إليه فضيلة الأستاذ الشيخ أبو زهرة، وقد كفانا مؤونة الإطالة فى هذا الجانب ، كذلك كفانا مؤونة الإطالة فى معنى الأسرة فى الإسلام كتطور من تطور معانى الأمومة والبنوة فى هذا البيت . ونحن عندما نقدم هذه الآراء فى محيط الأمومة إنما نعارض بها فلسفة الشر، وفلسفة الشك فى القيم الثابتة المنحدرة من هذه المعانى. فنيتشه الفيلسوف الألمانى عندما يدمر الضمير البشرى ويريد أن يجرده من هذه المعانى ويقول إن الضمير ماهو إلا وحى الضعف ، وفى نقطة أخرى يقول أن الضمير اختراع يهودى ، ويعلل سلامة المسيحية ، ورقة جانبها مع الضعفاء بأنه مرض وبأن الرحمة مرض ، فنيتشه حينما يقرر ذلك إنما يدمر حياة الخير وحياة البر وحياة الرحمة فى المجتمعات ولم يفطن إلى هذه المعانى التى انحدرت من معنى الأمومة فى المجتمع ، وأن قوة الأمومة هى منبع فيوض رحمة الله ، وأن استطاعة الخير ليست ضعفاً ، وإنما هو شعور يفيض القوة .

ثم أن تحليلات علماء النفس — والأستاذ الدكتور زيور موجود هنا — تحليلات معتسفة مازالت تدمر معانى القداسة، وهالات الخير التى تحيط بالأمومة فى نفوس الناس، والأمومة يعللها فرويد ومدرسة فرويد بتعديلات مدمرة لهذه المعانى الخيرة التى عاشت الحضارات ونمت فى ظلالها ، فيحيل الأمومة بما فيها من هالات وقداسات ، إلى هذه البؤرة الفاسدة التى تتصل بالغرائز المنحطة فى النفس البشرية، بينما هى قيمة من قيم الخير فى ناحية أخرى . فنحن عندما نقدم فلسفتنا فى الأمومة فى الأضواء التى سار عليها مجتمعنا العربى، إنما نقوم برسالة خالدة كأمة وسط تقدم المعانى بعدما تمتزج فيها روافد الآراء والمعتقدات وتلتقى فى مكانها الوسط هذه الفلسفات الشاذة الشاردة ، عندما نقدم فلسفتنا فى الخير لنقاوم هذا ، إنما نقوم بدورنا التقليدى ، البشر برسالات الحب والرحمة كأصول ثابتة فى الطبيعة البشرية .

وفى بحث الأمومة نلمح منطقة التبادل بين الأمومة والبنوة ، وبين الابناء كإخوة وبين الأبوة كراعية للأسرة . ونركز هنا حديثنا على البنوة لأنها هى أحد شقى البحث ، فنجد أن البنوة هى الحركة الصاعدة فى هذه المنطقة وهى أولى استجابات الخير وانبثاقه فى النفس البشرية فى أول دخولها إلى الحياه رداً على ما تلقته من فيوض الرحمة والبر والخير الذى تنزلت من الأمومة من تصدر انعكاساتها بمعان هى أصول حياة المجتمعات التى تقوم عليها .

فأول انعكاس هو الشعور بالاحتياج للغير والإرتباط به ، بناء على شعور الطفولة بضعفها عندما تنشأ فى كنف الأمومة وتجد أن الأمومة أو الأخوة هى التى تمدها وتساعدها على النمو فى الحياة ، فتشعر بأنها عامل متكامل مع غيره ، وأنها لايجوز ولا يفرض أن تنفرد بذاتها فى الحياة بل ترتبط بغيرها .

والإنعكاس الثانى هو الشعور بالأمان والاطمئنان فى كنف هذه الامومة ، وفى كنف البيت على العموم . وعندئذ نعتقد أن الحياة خير ورحمة ، وليست قسوة ، وليست تشاؤما ، فيوحى إليها هذا الاعتقاد بالعمل والإقبال على الحياة كما أشار الاستاذ الدكتور سليم بأن من عقائد الحياة العربية ، الاعتقاد بصدق الحياة والسير فى طريقها .

الانعكاس الثالث فيض الشعور بالحرية والعزة فى كنف الامومة ورعايتها وبإنهاضها وتشجيعها . فالطفل مخلوق حر ولد حراً حرية مطلقة والام ، هى التى تقيد حريته باحتكاكه بحريات إخوته ، وحريات بيئته فتقييد الامومة لحرية الطفولة مزاوجة بين الحرية التى يشعر بها الناشىء وبين القيود التى يلزم أن يدين بها .

والانعكاس الرابع هو الطاعة والانصياع لاوضاع الجماعة ، ونظمها وقوانينها ، وهذه الطاعة هى أثر من آثار تطويع الامم ، وهى منبثق عظيم لانبثاقات الحياة والتربية المدنية والسياسية . بل هى الاصل والاساس لكل ذلك ، فلولا الطاعة التى نفرضها الامومة والبيت فى نفس الطفل وتضبط من انفعالاته وتحدد بها من حرياته النفسية الحسدية ماقامت قاعدة للحياة الاجتماعية .

الانعكاس الخامس الوفاء للبيت وينتقل هذا المعنى من البيت إلى المجتمع ، إلى الوطن ، والوفاء للوطن هو مجال البطولات الكبرى التى يخلد بها كل ناشىء حياته . فيقدم به مايثبت وجوده . وقد أدركت البيئة العربية بصدق فطرتها أن الوفاء خلق أساسى فى حياة المجتمع فلم تقدس صفة ولا خلقاً من الاخلاق كما قدست الوفاء ، الوفاء الفردى والوفاء للكلمة والوفاء للذمة ، والوفاء للأخلاق ، والوفاء للمعتقدات .

الانعكاس السادس الحماية للبيت والدفاع عنه ، وبذل الدم والمال له ، وجلب الخير والمقتنيات إليه ثم ينتقل هذا المعنى إلى جلب البطولات والمفاخر للوطن ثم هناك نتيجة كبرى لهذه التفاعلات والاستجابات بين البنوة والامومة والبيت ، وهى الايمان بخالق هذا العالم ، هذا البيت الكبير الذى تدخل فيه النفس فريدة عاجزة فتجد أن ماأفاض به خالق هذا البيت عليها من ألوان الرحمات ، يحملها على أن تعتقد فى خيريته ، وأنه لايريد بالعالم شراً ، وإنما يريد الخير ويحملها ذلك على الإيمان وهو النتيجة الكبرى للحياة .

أما بعد فإن الأمومة هى عرش المرأة ، ومن أراد أن ينزلها عن العرش بحجة أنه يريد لها حرية وانطلاقا . ففى الواقع يسلبها تاجها الذى ماخلقت إلا لتحمله ، وهو مملكة كبرى كما أشار أستاذنا الكبير الشماوى .

وليس هناك فخر ولا مجد لامرأة إذا لم يكن لها فخر فى الأمومة . وقد قال القائل الإغريقى « يوستكانس » لامرأته : أيتها المرأة إننى أحكم الاثينيين وأنت تحكمينى وهذا ابنك يحكمك فأوصيه خيراً بهذا النفوذ العظيم !

والسلام عليكم ورحمة الله . . . .

الرعاية النفسية فى البيت العربى

للدكتور مصطفى زيور

(خبير الجامعة العربية)

لابد لى أن أستهل هذا الحديث عن الرعاية النفسية فى البيت العربى ، بتقرير حقيقة أصبحت من المسلمات فى ميدان البحوث الطبية النفسية ، فقد تبين من البحوث التى أجريت على كثير من المجتمعات أثناء تحولها عن أوضاعها الحضارية القديمة ، إلى أوضاع حضارية جديدة ، تبين أن عدداً كبيراً من أفراد هذه المجتمعات خسروا فى ناحية بمقدار ما كسبوا فى نواح أخرى ، خسروا فى كفة الصحة النفسية بمقدار ما كسبوا فى كفة الثقافة والرخاء والشفاء من الأمراض الجرثومية . مثلا تبين من بحث أجرى على ثلاث مجموعات من الأفريقيين فى كينيا ، كانت المجموعة الأولى مكونة من أفراد يعيشون فى عزلة تامة عن المناطق المتحضرة ، والمجموعة الثانية مكونة من أفراد يتصلون اتصالا طفيفاً بالمناطق المتحضرة مع احتفاظهم بذاتيتهم الحضارية ، والمجموعة الثالثة مكونة من أفراد استبدلوا بأوضاعهم الحضارية ، أوضاعاً جديدة ، فكانت نسبة الإصابة بالأمراض العقلية فى المجموعة الثانية أعلى بقليل منها فى المجموعة الأولى : أما المجموعة الثالثة فكانت هذه النسبة ستة أضعاف ماهى عليه فى المجموعة الأولى . وقد نشر الطبيب المصرى المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل مقالا منذ نحو ثلاثين سنة ، ذكر فيه أن مرض ارتفاع ضغط الدم الجوهرى وهو مما ندرجه الآن فى قائمة ماندعوه بالأمراض النفسية الجسمية ، ذكر أن هذا المرض لا يوجد بين أفراد الطبقة العاملة من الشعب المصرى ، على حين أننا نجده الآن كما يعرف كل طبيب مصرى بين أفراد هذه الطبقة ، وجدير بالذكر أن مايصدق على المجتمعات المتأخرة حضاريا ، يصدق أيضاً على المجتمعات المتحضرة عندما تخضع لتغير اجتماعى سريع وخاصة تحت التصنيع ومايصاحبه من تعديل القيم والمعايير والأوضاع التى تعين علاقة الأفراد بعضهم ببعض .

فقد دلت نسبة انتشار الجريمة فى المدن الأمريكية ، التى بدأت فى الأخذ بأساليب التصنيع ، دلت هذه الدراسة على أن نسبة الجريمة تصل إلى خمسة وعشرين فى كل مئة ألف نسمة ، على حين أنها لاتزيد عن سبعة فى كل مئة ألف نسمة فى البيئات الريفية ، ومايجرى على الجريمة يجرى أيضا على انتشار الأمراض النفسية والانتحار والاضطرابات الجنسية . ولابد من الإشارة إلى أن التطبع الاجتماعى الذى يجريه الآباء على الأبناء ، يستهدف عادة خلق المواطن الصالح لأوضاع اجتماعية بعينها ، هى تلك الأوضاع التى عاشها الآباء ، فيصعدون عنها فى عملية تطبيع أولادهم . فإذا كان التغيير الاجتماعى سريعاً تصبح قوالب التطبيع الاجتماعى متخلفة عن الأوضاع الحضارية الجديدة فيواجه الإنسان عند بلوغه الرشد ظروفا اجتماعية لم يعد لها . وأوضح مثال على ذلك كما قال الأستاذ عبد العزيز حسين فى أول هذه الندوة ، مانراه لدى شباب هذا الجيل فى بعض البلاد العربية من قلق شديد ، نجم بعضه عن عدم

كفاية الأساليب التى نشأوا عليها لمواجهة مقتضيات التغير الاجتماعى . فإذا التفتنا إلى أن الأمة العربية بفضل تطور اجتماعى سريع تمليه أولا مقتضيات الكفاح للحرية كما يمليه تطورها نحو وحدة منشودة ستلتقى فيها تيارات من القيم يعوزها الاتساق التام ، بالرغم من وحدة اللغة وغيرها من المقومات الحضارية ، وذلك لصدور هذه القيم عن مستويات حضارية مختلفة ... إذا انتبهنا إلى ذلك لوضحت لنا خطورة مشكلة التغير الاجتماعى الذى نواجهه وماينبغى من الاهتمام بها ، والتخطيط لملاقاة آثارها السيئة على الصحة النفسية .

وتجب الإشارة هنا مادامت هذه المسألة قد أثيرت فى هذه الندوة إلى أن التغير الاجتماعى ليس بالضرورة تطوراً نحو الإقلاع عن القيم الأخلاقية الموجودة والانزلاق فى اللاأخلاقية . أى تغير اجتماعى وكل تغير اجتماعى حتى مايحدث منه بين دول عربية ، بين قطاعات أو أقاليم مختلفة من الأمة العربية هذا التمازج أو التقارب بين بعض الأمم العربية سينتج عنه حتما ، تغير اجتماعى ، وقد ذكر الأستاذ عبد العزيز حسين فى أول هذه الندوة مالاحظه من قلق بين بعض شباب هذا الجيل بالمجتمع الكويتى نتيجة للتحول ، أو للتغير الاجتماعى . نشأ لا فى القيم الأخلاقية بوصفها كذلك ، وإنما فى القيم الاجتماعية ، وفى أساليب تنشئة الأطفال أثناء التطبيع الاجتماعى .

والآن فى ضوء هذه المقدمة يمكننا أن نرسم الخطط اللازمة لتوجيه الرعاية النفسية الوجهة الملائمة لارساء البيت العربى ، على أساس سليم من الصحة النفسية . ومن الجلى أن هذه الرعاية تستهدف العلاج من ناحية والوقاية من ناحية أخرى ، وسأختصر القول فى ذلك بأن هذه المسائل من شأن عمل اللجان ، أما الناحية العلاجية فيمكن أن نخطط لها على النحو الذى اقترحته مصلحة الصحة العقلية بوزارة الصحة المصرية ، مع بعض التعديل وأخص بالذكر توصيتين .

أولا : ينبغى إنشاء عيادة خارجية للطب النفسى ، فى كل المستشفيات العامة على غرار عيادتى مستشفى الجلاء ومستشفى المنيرة بالقاهرة ، كما ينبغى أن يؤازر الطبيب النفسى إخصائى فى علم النفس الاكلينيكى ، وإخصائية فى الخدمة الاجتماعية .

ثانيا : ينبغى إنشاء عيادة نفسية مدرسية ، على غرار عيادة القاهرة فى كل منطقة تعليمية . فهذه فى اعتقادى تمثل أهم ناحية من الرعاية النفسية العلاجية للبيت العربى ، فإليها يقصد الآباء للاستشارة فى شأن ماحل بأولادهم من الاضطراب النفسى ، وإليها يرسل التلاميذ المرضى أو المشاكسون يبعث بهم نظار مدارسهم .

أما الرعاية النفسية الوقائية ، فيمكن تلخيص التخطيط لها على النحو الآتى :

لما كانت سنوات الطفولة هى الفترة الحاسمة فى تشكيل شخصية الإنسان ، فينبغى أن ينصب جل اهتمامنا على هذه الفترة ، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل .

مرحلة سن الرضاعة ثم مرحلة الحضانة وتمتد إلى بدء التعليم وأخيراً مرحلة الدراسة الابتدائية . أما مرحلة سن الرضاعة فهى أخطر المراحل جميعاً فإليها تمتد بذور الأمراض العقلية المستفحلة ، والدعامة التى ترتكز عليها الصحة النفسية فى هذه المرحلة ، هى إغداق الحب والرعاية من الأم على رضيعها ، وإشباع حاجاته أولا بأول ، ولحسن الطالع فإن هذه الصفات موفورة بالطبيعة لدى الأمهات العربيات . ولابد لنا أن ننبه الأمهات العربيات المثقفات إلى أنه ينبغى عليهن أن يتخذن الأمهات من الطبقة الشعبية نموذجاً يحتذى فى إغداق الحب ، وتوفير الرضاعة فى جو من الرفق والحنان ، كلما شاء الرضيع ذلك ، لا كلما شاءت دقات الساعة كما تشير بذلك تعاليم تصدر عن طب منقوص .

ويضيق المقال عن مناقشة جميع مشاكل سن الرضاعة ولايسعنى إلا أن أتقدم باقتراح أعتبره أهم مايمكننى اقتراحه ، فى موضوع الرعاية النفسية للبيت العربى. فقد عنى كثير من الدول العربية بتوفير أسباب الصحة العامة الخاصة بمرحلة النمو الأولى ، فأنشأت مراكز رعاية الأمومة والطفولة . غير أن هذه المراكز تحصر جهودها فى العناية بالصحة الجسمية ، ولذلك لانجد بين القائمين على العمل بها غير الأطباء ممن تنقصهم الثقافة النفسية ، ثم الحكيمات والممرضات . والواجب أن يعين فى هذه المراكز طبيب نفسى ، كما ينبغى إدخال المواد النفسية ، وخاصة سيكولوجية الطفولة الباكرة واضطراباتها ، فى برنامج إعداد الأطباء والحكيمات والممرضات ، والزائرات الصحيات .

أما عن المرحلتين التاليتين فإنهما تتميزان فى بدء تدخل شخصية الأب فى جو الطفل النفسى ، وهنا نلتقى بمشكلة إرساء قواعد الشخصية ورسم صفاتها على أساس من تقمص معايير الأبوين ومايثيره ذلك من مشاكل تتعلق بمسألة التغير الاجتماعى التى سبقت الإشارة إليها ، ويتلخص مااقترحته بصدد هاتين الحالتين فى أمرين :

الأول أنه يجب أن نفطن إلى أن كل رعاية نفسية تسدى للبيت العربى ، لانستوحيها إلا مما جاء عنها فى الكتب الأجنبية ، يكون ضررها أكثر من نفعها ، نظراً لاختلاف الظروف البيئية ، والأوضاع الحضارية فينبغى من أجل أن نحفز الهمم إلى إجراء البحوث الانتروبولوجية والطبية النفسية ، ويقوم بها إخصائيون من الفرعين يتآزرون فى الكشف عن طبيعة التغيرات الاجتماعية فى مختلف الأقطار العربية ، كما يتآزرون فى التعرف على الأهداف والتلقائية التى تتجه إليها وثبات الأمة العربية بحيث نكون على بصيرة بالدوافع العميقة النوعية ، عندما نرسم خطة الرعاية النفسية .

والأمر الثانى أنه يجب أن ننبه الأذهان إلى أن فكرة الدراسة برياض الأطفال وما إليها ثم بالمدارس الابتدائية تفوق فى خطرها من الناحية النفسية ما للمدارس الثانوية من خطر فى هذه الناحية فينبغى من أجل ذلك إنشاء وحدة نفسية فى كل منطقة تعليمية ، تضم إخصائيين نفسيين ، يقودون ندوات من الآباء والمدرسين والأطفال ، تناقش فيها أصول الصحة النفسية ، ويتبادل أثناءها الآباء والمدرسون الرأى فى أمر الأطفال ، ويستوضحون أهداف المعايير والقيم الاجتماعية ، ثم تحول المشاكل التى تفوق خبرة القائمين على هذه الندوات إلى العيادات النفسية المدرسية .

وخلاصة القول أنه ينبغى أن نفطن إلى أن الأمة العربية ، فى سبيل تطور اجتماعى سريع وأن كل رعاية نفسية للبيت العربى ينبغى أن نسترشد فيها بنتائج بحوث عميقة لهذا التطور ، حتى يمكن أن تكون خطة هذه الرعاية سليمة كما ينبغى تزويد الطبيب بقدر صالح من الثقافة النفسية ، لأن ثقافة الجمهور الصحية تستمد أول ماتستمد من الطبيب وأنه ينبغى التنبيه إلى تزويد مراكز رعاية الأمومة والطفولة بأطباء نفسيين ، وتزويد المدارس الأولية والثانوية بأخصائيين نفسيين يوجهون الآباء والأطفال الوجهة النفسية الصحيحة .

الرعاية الصحية فى البيت العربى

للدكتور عبد الوهاب البرلسى

(خبير الجامعة العربية)

تهدف الرعاية الصحية للأسرة العربية إلى توفير الصحة الكاملة لأفرادها ، وهى أن يتمتع الفرد بكامل قواه الجسمية والعقلية . بل وبالهدوء النفسى والاستقرار العاطفى أيضاً فهكذا تعرف حالة الصحة الكاملة . وهذه الرعاية الصحية هى من أول الواجبات التى تهدف إلى تحقيقها الدولة الواعية ، إذ أن صحة الفرد تؤثر تأثيراً مباشراً فى سعادته وفى قدرته على العمل والإنتاج ، وبالتالى تؤثر فى رخاء المجتمع ورفاهيته . ولتحقيق هذا الهدف يجب على الدولة أن تضع البرامج التخطيطية التى تحقق هذه الرعاية الصحية كاملة من ناحيتها الوقائية ، لمنع حدوث الأمراض والحد من انتشارها ، والعلاجية بتوفير الخدمات الطبية ، وجعلها فى متناول الفرد عند حاجته إليها . وتهدف البرامج الوقائية إلى العمل على منع الأمراض والقضاء على مسبباتها ، والعناية بمنع الأمراض المتوارثة التى تنتقل من جيل إلى جيل ، ثم رعاية الفرد فى مرحلة الطفولة والمحافظة على صحته ، حتى نعمل على تنشئة جيل قوى سليم .

ونلخص لحضراتكم مع ذكر العناوين فقط مايجب العناية به فى البرامج التخطيطية الوقائية وهى أولا : إيجاد بيئة صحية ، وكلنا نعرف ماهى البيئة الصحية ، وأهم النقط لتنفيذ ذلك هو الاهتمام بتخطيط المدن تخطيطا سليما ، والإكثار من الميادين والحدائق العامة ، وجمع الفضلات والتصرف فيها صحياً ، وردم البرك وخلافه ، وذلك كله للقضاء على الحشرات الناقلة للأمراض وما إليها ، وثانى نقطة مهمة هى دراسة الأمراض المتوطنة المتفشية فى قطر عربى وهى تختلف عن مثيلاتها المتفشية فى قطر آخر ، ووضع برامج علمية وعملية للقضاء على هذه الأمراض ، وثالثا منع الأمراض المتوارثة بفحص الراغبين فى الزواج وتوجيههم وعلاجهم ، ورابعاً رعاية الطفولة ووقاية النشء من الأمراض التى تفتك به ، أو تؤثر فى نموه ، وخامساً الاهتمام بالتثقيف الصحى ، بوسائله العديدة لرفع المستوى الصحى العام .

أما عن الخدمات العلاجية فقد ذكرنا البرامج الوقائية قبل البرامج العلاجية ، لاعتقادنا أن الوقاية من المرض مقدمة على علاجه ، ولو أن توفير أى من هذه الخدمات لايغنى عن الآخر فإن الاهتمام بالخدمات الوقائية يحدث أثره ولا شك فى الإقلال من حدوث الأمراض ، وفى إيجاد مجتمع سليم ، وفى المحافظة على الكيان الصحى للأسرة . إلا أن بعض الأمراض سيستمر حدوثها على أى حال ، ويجب إذن أن توفر الخدمات العلاجية اللازمة للأفراد ، على أن يكون حصولهم على هذه الخدمات مشروطا فقط باحتياجهم إليها ، بغض النظر عن قدرتهم على مقابلة تكاليفها . ويحتاج توفير هذه الخدمات العلاجية إلى تدبير إمكانيات معينة ، منها توفير الإنشاءات اللازمة لهذه الخدمات ، من مستشفيات وعيادات وأسرة وإعداد الأطباء وغيرهم من الفنيين ثم توفير الدواء ، وإذا ماتوافرت هذه الإمكانيات

بقى على القائمين على شئون الرعاية الصحية ، اختيار نظام لتقديم هذه الخدمات ، نظام يلائم ظروف المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، إذ أن هناك نظما مختلفة لتقديم هذه الخدمات . فمن الدول من تتكفل حكوماتها بتوفير جميع الخدمات الطبية التى يحتاجها الأفراد فتخرج الخدمة الطبية فى هذه الحالة من نطاق السلعة التى تقدمها المهنة الطبية ويحصل عليها الأفراد إذا احتاجوا إليها وكانوا قادرين على مواجهة تكاليفها ، وهذا هو نظام التأمين . ويتطلب هذا النظام أن تقوم الدولة بتوفير العدد الكافى من الأطباء والفنيين . وتحسن توزيعهم على مراكز الخدمة الطبية وأن توفر العدد الكافى من هذه المراكز وتجهزها بمعدات الفحص والعلاج ، وإلى جانب ذلك توفر الحكومة وسائل الرعاية الاجتماعية للفرد وأسرته ، خلال فترة المرض .

فنظام التأمين يقوم على عدم الربط بين قدرة الفرد الاقتصادية وبين حصوله على خدمة طبية ، هو فى حاجة إليها وألا يكون المرض أو العجز الناتج عن هذا المرض سبباً فى عسر اقتصادى يصيب الفرد أو من يعوله ، ولاشك أن نظام التأمين هو أفضل السبل لتحقيق أهداف الرعاية الصحية للأسرة العربية ولا شك أن معظم المفكرين والقائمين على شئون الرعاية الصحية يختلفون فى هذا الرأى ، إلا أن مايعوق تعميم نظام التأمين فى كافة البلاد العربية هو مايحتاجه من نفقات ليتوفر له تنفيذ إمكانيات النجاح ، لذا لجأت بعض المجتمعات الأخرى التى لم تتمكن بعد من تطبيق هذا النظام الاشتراكى المثالى ، إلى تأمين صحة الفرد وتوفير ما يحتاج إليه من خدمات طبية لتشجيع قيام النظم التعاونية لتوفير هذه الخدمات ، إلا أن نجاح هذه النظم التعاونية مربوط برغبة الأفراد أنفسهم ، ونمو الوعى الصحى والتعاونى بينهم ، ثم بقدرة الحكومات على إعانة هذه النظم ، والاشتراك فى تمويلها .

لذلك كله فإنه كثيراً ماتكون الخدمة الطبية فى ظل هذه النظم التعاونية الاختيارية خدمة غير كاملة ، ولعل نظام التأمين الصحى الإجبارى يفضل هذه النظم التعاونية الاختيارية فهو نظام وسط بين التأمين حيث تتكفل الدولة بكافة نفقات الخدمة الطبية وبين النظم التعاونية التى تترك لوعى الأفراد والهيئات وقدرتهم المالية فالتأمين الصحى الإجبارى تنظمه الدولة وتقوم على تنفيذه إلا أن تمويله لايقع على كاهلها وحدها كما هو الحال فى نظام التأمين بل يشترك فيه الفرد وصاحب العمل والهيئات الأخرى المعنية ، بجانب المساعدة الفنية والأدبية التى تقدمها الحكومة ، وفى بعض البلاد كان نظام التأمين الإجبارى خطوة سابقة للتأميم الذى يجب أن يظل الهدف الذى نعمل للوصول إليه ، فى حقل الرعاية الصحية للأسرة العربية .

التجاوب بين المدرسة والبيت

للأستاذ محمد حسين المخزنجى

(خبير الجامعة العربية)

المدرسة مؤسسة اجتماعية أوجدها المجتمع نتيجة تطوره وهى مسئولة عن إعداد أفراد المجتمع وتكوينهم وتربيتهم التربية التى تتفق ومطالب الحياة ومطالب المجتمع وهى مسئولة عن توجيه نمو النشء توجيها كاملا شاملا لجميع النواحى وهى مسئولة عن تحقيق الترابط والتجاوب بينها وبين المؤسسات الأخرى فى المجتمع مما يدعم بنيان هذا المجتمع ويقويه بتقوية أفراده واكتمال نموهم من كل ناحية من النواحى ، والبيت هو أهم المؤسسات التى تتعاون ويجب أن تتعاون معها المدرسة فى عملية التربية والإعداد .. فالمدرسة شركة بين أبنائها ومعلميها وبين أولياء أمور تلاميذها ، والمدرسة بما فيها من نظم وما أعد لها من مربين ومدرسين وما فيها من مواد ونواحى نشاط مختلفة متعددة تبذل جهدها فى سبيل نمو تلاميذها وتوجيههم وتوجية سلوكهم ونشاطهم داخل حجرات الدروس وخارجها فى صورة برامج دراسية وغيرها من الخدمات وألوان النشاط التى تكسب المتعلمين خبرات متنوعة وتتيح لهم فرصا كثيرة للنمو . هذا عدا ما يكتسبه التلاميذ من ألوان أخرى من الخبرات فى نواحى النشاط الحر المختلفة خارج الفصول .

والمدرسة ليست وحدها مسئولة عن هذه العملية التربوية والاجتماعية وإنما يشترك معها فى المسئولية الكبرى البيت ولذا كان التجاوب بين المدرسة والبيت من أهم الشروط التى يجب أن تتوافر إذا أردنا لهذه العملية التربوية نجاحا واكتمالا .

وأساليب هذه العلاقة بين المدرسة والبيت كثيرة منها :

١ — أن تقوم المدرسة بدعوة الآباء والأمهات إليها فى المناسبات المختلفة العديدة وإلى ما تعقده من حلقات للمناقشة والبحث والندوات وفيما تنيمه من حفلات ومباريات وممارض وغير ذلك .

٢ — كما تلجأ المدرسة إلى توطيد صلتها وتوكيد تعاونها مع البيت عن طريق مراكز الخدمة العامة ومجالس الآباء والمعلمين والمجالس الاستشارية للتعليم وغيرها وهى تعمل ما فى وسعها لتوطيد العلاقات الإنسانية بين أفراد الأسرة وأفراد المدرسة .

٣ — ليست المدرسة وحدها هى التى نطالبها بهذا كله وإنما الأسرة أيضا يجب أن تتعاون من جانبها مع المدرسة فتقوم بواجبها نحو المدرسة ومعلميها برعاية أبنائها والحرص على توفير الجو النفسى الصحى المناسب الملىء بالطمأنينة والأمن المساعد على نموهم النفسى والعاطفى نموا طبيعيا سليما .

هذا ولا شك يعتبر تعاوناً من جانب الأسرة وتجاوباً مع المدرسة ومعاونة لها على أداء رسالتها .

كذلك نحن ننتظر من أولياء الأمور أن يشتركوا فى حفلات المدرسة ونشاطها الاجتماعى ويشترك الآباء والأمهات

مع أبنائهم وبناتهم فى رحلاتهم وحفلاتهم ، ويستطيع الآباء أن يعاونوا المدرسة فى توجيه تلاميذها وتعليمهم بعض الهوايات خصوصاً أصحاب المهن والحرف المختلفة منهم، بذلك يساعدون المدرسة مساعدة جدية ويتعرفون على ما يؤديه أبناؤهم من أعمال وفى هذا أيضا تيسير لمهمة المدرسة .

هذا التعاون وهذا التجاوب بين الأسرة والمدرسة يحتاج من المدرسة أن تضع خطة منظمة تنفذها وتقومها من حين لآخر .

إن وظيفة المدرسة أصبحت الآن أوسع من مجرد إعداد النشء للحياة فى المجتمع فنحن الآن ننظر إليها على أنها مركز قيادة اجتماعية فى البيئة والمجتمع الذى يحيط بها ، تعمل جاهدة على رفع مستوى الحياة والنهوض بها ، ولذا كان لا بد للمجتمع من أن يوثق صلته بها وأن تكون بينهما علاقات إنسانية ذات أثر طيب . ولا شك فى أن العلاقات الطيبة والتجاوب المستمر الذى يتم بين المدرسة والبيت يعود بكل الخير على كل من التلاميذ والمدرسة وهذا التجاوب يتم بالوسائل التى قدمتها وعن طريق إيجاد الطرق المختلفة التى بها تستفيد المدرسة من ثقافة وتوجيه بعض الآباء النابهين المختصين فى ناحية من النواحى. وأن يدرك أولياء الأمور مشكلات المدرسة التى تشجعهم على المساهمة فى حلها والاشتراك مع المدرسة فى تحمل مسئولياتها ، وأن تكون المدرسة مركزاً لثقافة أولياء الأمور ويتعلم من يحتاج منهم إلى تعليم فتمحو أميتهم الاجتماعية والصحية والقومية عن طريق ما يؤديه لهم المدرسون من خدمات فى هذه النواحى جميعاً • وأن تفتح أبوابها لأولياء الأمور وتهيىء لهم فرص الاطلاع فى مكتبتها والاستفادة من ملاعبها إذا أرادوا شغل أوقات فراغهم مع المدرسين وبذلك تصبح المدرسة فى نظرهم جزءاً من المجتمع وتستطيع أن تحقق رسالتها .

ذكرت أن المدرسة لا تستطيع أن تؤدى رسالتها نحو تنمية الأفراد وتربيتهم إلا بتعاونها مع المنزل وتجاوبها معه فالمدرسون يجب أن يتعرفوا على الظروف التى مرت على أطفالهم فى طفولتهم ، يجب أن يلموا بجميع المؤثرات التى تعرضوا لها • فاتصال المدرسة بالمنزل يساعد المربين على التعاون مع الوالدين فى حل مشاكل أطفالهم فهم يتعرفون على الجو الذى يعيش فيه التلميذ وهل هو جو يتمتع فيه الطفل بالأمن ويشعر فيه بالاطمئنان والأمان والصحة النفسية التامة ؟ أم هو جو يسوده عدم الانسجام والصراع المستمر بين الوالدين ؟ هل الطفل يعيش فى جو من القسوة والحرمان والقلق؟ هل هذا الجو يساعده على النمو العقلى ويعمل على تثقيفه ويساعد المدرسة على القيام بعملها وأداء رسالتها؟ الأمر الذى لا شك فيه أن التجاوب بين المدرسة والمنزل قد يعود بالخير على الأسرة وعلى التلميذ فكثيراً ما حلت مشاكل وكثيراً ما استطاع الباحث الاجتماعى والمدرسون من الأخذ بيد الأسرة ورفع مستواها بل كثيراً ما أوجدت عملا لأب عاطل أو أم متعطلة . وكثيراً ما أصلحت ما بين الوالدين وحمت التلميذ ووفرت له الظروف التى تساعده على دراسته والاستفادة من مدرسته . وكثيراً ما ساعد المدرسون الآباء على حل مشاكل أبنائهم وتوجيه سلوكهم ،

نريد أن يدرب أولياء الأمور على هذا التعاون ، كما نعنى بتدريب المدرسين على ضرورة الاتصال بالآباء والتعاون معهم والتجاوب مع المنزل ، نريد أن يدرب الآباء على ذلك ويبصروا بأهمية اتصالهم بالمدرسة وزيارتهم لها من حين لآخر وتلبية دعواتها والاجتماع بالمسئولين فيها حتى يعمل الجميع متعاونين متجاوبين ، وبذلك تسهل عملية كل من المنزل والمدرسة وينجح كل منهما وينجحان معاً فى تربية النشء وإعدادهم ليكونو أفراداً نافعين عاملين ،منتجين ومواطنين صالحين فى هذا المجتمع العربى الكبير .

أقول إنى أرجو أن يتحقق كل ذلك مع مراعاة أوضاع واتجاهات وظروف وتقاليد البيت العربى وتكوينه العربى السليم .

التعاون والبيت العربى

للاستاذ أمين يونس الحسينى

(الأردن)

إن البيت جزء لا يتجزأ من نظامنا الاجتماعى ، ويتضمن أكثر من مجموعة من العلاقات العرضية الموجودة فى مجتمعنا العربى ، كما وأنه يؤلف نظاما من العلاقات الخاصة به تلك العلاقات التى ينقلها جيل إلى جيل وتقرر السلوك العام للبيت فى مجتمعنا مع تباين أفراده . وهكذا فإن البيت هو وحدة اجتماعية، تشابه غيرها من الوحدات الاجتماعية الأخرى ، بيد أنها تتميز بخصائص تجعلها فريدة فى بابها .

هذا وإن البيت هو الوحدة الأساسية للمجتمع . فكلنا أعضاء فى بيت واحد ، ومعظمنا أعضاء فى بيتين . فالبيت الذى ولدنا فيه يعنى بنا عادة فى طفولتنا حينما نكون لا حول لنا ولا قوة، كما يعنى بتغذيتنا وتعلمنا فى حداثتنا ويزيد فى تثقيفنا حينما نكون فى دور المراهقة ، وأخيراً يخرجنا إلى العالم رجالا ونساء ناضجين ، أما البيت الذى نكونه بالزواج فيؤمن لنا إطاراً اجتماعيا حيث ننجب الأولاد ونربيهم ، ويزودنا برفقة وحنان ، وبأمن عاطفى ، ويجعلنا نشعر بأننا ننتمى إلى فئة يتجلى فيها العطف والمحبة فى هذا العالم .

هذا وأود أن أشير فى كلمتى هذه إلى ما للتعاون من أثر فى رفع المستوى الاقتصادى والاجتماعى للبيت العربى بما فى ذلك الدخل المتأتى من العمل ، ونمط الحياة والضمان الاجتماعى .

١ — الدخل الحقيقى للبيت العربى الناجم عن العمل :

إن للتعاون أثراً كبيراً فى زيادة دخل البيت ، بالنسبة للعمال المستقلين أو أشباه المستقلين الذين يعملون فى الزراعة والأعمال اليدوية ومصائد الأسماك، ذلك أن التعاون ليقوم بدور هام فعال فى تخفيف نفقات الإنتاج ، وتحسين نوع المنتوجات ، وتصنيفها وتوضيبها ، والحصول على أسعار ثابتة رابحة .

أما الجمعيات التعاونية فى حقلى الاستهلاك ، والإنتاج الصناعى ، فإن أهميتها لا تقتصر على تقليل تكاليف التوزيع لمنفعة أعضائها فقط ، بل تتعدى هذه الحدود بوصفها مشاريع تخدم المجتمع ، فتكون وسيلة للسلطات الحكومية تمكنها من تقرير الأسعار والأرباح بصورة معقولة ، كما أن هذه الجمعيات عندما تكون وطيدة الأركان تعمل على تنظيم أسعار السلع والبضائع فى جوارها .

٢ — نمط الحياة :

لما كانت الجمعيات التعاونية روابط من الأفراد ، فهى فى الحقيقة عبارة عن روابط من البيوت ، وأن المشاريع

التى تؤديها هذه الجمعية تمتد إلى البيت ، أو تتمم أعماله أو تحل محله ، وقد بين لنا تاريخ تطور الحركة التعاونية أن الجمعيات تنظم أعمال البيت ونشاطه مع مرور الزمن بحيث تشمل أكبر قسط من تلك الأعمال .

وبهذه الطريقة تؤثر الجمعيات التعاونية تأثيراً كبيراً ببعض العوامل التى تكون نمط حياة المجتمعات ذات الدخل الضئيل ؛ وذلك بتحسين المسكن ، والتغذية وتنظيم أوقات الفراغ ، والنشاط الثقافى ، والترويحى ، وحفظ صحة أفراد البيت .

(ا) البيئة :

إن المساهمة التى تقدمها جمعيات الإسكان التعاونية ، للبيت ذات أهمية بالغة فى الحد من وطأة بدل الإيجارات التى تبلغ فى الأردن مثلا بين موظفى الحكومة ٢٢٪ من مجموع المصروفات .

وبذلك فإن بدل إيجار المساكن تستنفد نسبة عالية من رواتب وأجور الطبقة المتوسطة ذات الدخل المحدود .

هذا وأن جمعيات الاستهلاك التعاونية قد دخلت فى حقل صنع الأثاث بحيث أصبحت لا تقلل من التكاليف فحسب ، بل إنها تصنع الأثاث الجميل المتين الذى يجلب الراحة والمتعة للبيت ، كما وأن جمعيات الكهرباء الريفية ، لا تقدم النور والطاقة الكهربائية للمستهلكين فقط بل إنها تحول الريف وتحسنه ، أما التليفونات التعاونية فإنها تزيل انعزال البيوت فى الريف عن بعضها البعض وعن المدن .

(ب) أوقات الفراغ :

إن الجمعيات بالإضافة إلى إصدار مختلف المجلات والنشرات للمطالعة ، فإنها تقوم بالقاء المحاضرات ، وعرض الأفلام السينمائية ، وتنظيم الحفلات المسائية ، وإنشاء المطاعم ، وقاعات الاجتماع والترويح ، كما تعنى أيضاً بتعليم أعضائها لتحسين تدريبهم على أعمالهم المهنية .

(جـ) الصحة والتغذية :

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى الخدمات الصحية التى تقدمها جمعيات الصيدلة التعاونية وجمعيات العيادات الطبية للأعضاء .

أما ما يتعلق بالتغذية ، فإن هذه المشكلة ليست مشكلة الإخصائيين وحدهم ، بل هى أيضاً مشكلة الإنتاج ، والأسعار ، وتحسين أصناف السلع ومراقبتها ، والتعليم ، وهكذا نرى أنها فى الغالب مشكلة جمعيات الإنتاج الزراعية والاستهلاكية ، فجمعيات الإنتاج الزراعية تضطلع بمهمة إنتاج السلع الزراعية ، وتسويقها ، عن طريق زيادة الإنتاج بزيادة رقعة الأراضى المزروعة ، والبذور المحسنة ، والرى ، والتسميد ، والعلاجات وتحسين الأحوال الفنية ... الخ . أما الجمعيات الاستهلاكية فواجبها أن تقوم بتوزيع السلع الغذائية الرئيسية وذلك بتقليل تكاليف الإنتاج والتوزيع .

٣ — الضمان الاجتماعى :

وهناك عامل هام آخر فى رفع مستوى معيشة البيت العربى ألا وهو إزالة أو تخفيف وطأة المخاطر التى تواجه أرباب البيوت ذوى الدخل المحدود .

ففقدان أدوات الإنتاج أو غيرها من المقتنيات الشخصية من جراء السرقة أو غيرها من الأسباب ، والمرض والحوادث ، والبطالة ، والعجز المؤقت أو الدائم ، ووفاة المعيل أو وقوعه تحت وطأة الدين ، فجميع هذه العوامل التى تلقى على كاهل رب البيت ذى الدخل المحدود حملا ثقيلا ، تؤثر على موازنته تأثيراً كبيراً ولمدة طويلة .

وأن نظام المساعدة الاجتماعية والتأمين الاجتماعى اللذين يكونان معا الضمان الاجتماعى وضعا لمجابهة مثل هذه المخاطر .

أما من الناحية التاريخية فإن المؤسسات التى تعنى بالضمان الاجتماعى القائمة على المساعدة المتبادلة الإجبارية قد نجحت وتطورت عن المساعدة المتبادلة التلقائية بين الجيران والزملاء ، لحماية الفرد من مخاطر الحياة ، ذلك أن الضمان الاجتماعى ما هو إلا عبارة عن تنظيم لهذه الجهود التلقائية وتعميمها ، ولكنه لا يمكن أن يضع حداً لها ، كما أنه لا يستطيع إزالة أسبابها .

هذا وأن مؤسسات المساعدة المتبادلة التلقائية ، لا تزال تقوم بدور هام نافع فى مجتمعنا العربى. فبادىء ذى بدء نرى أنها تنطوى على أعمال مبعثها الوعى المستنير ، والتآزر المقصود ، ويفضلها بعض الأشخاص لقيمها التعليمية ، وقد تكون خير المؤسسات الملائمة ، وثانيها أنها تحل محل نظم الضمان الاجتماعى الإجبارى ، كما أنها فى بعض الأحيان تمهد السبيل لإنشاء مثل هذه النظم حينما لا تكون قائمة .

(ا) التأمين :

أن للجمعيات التعاونية لمقاما هاما بين مؤسسات التأمين التلقائية المذكورة وتأخذ هذه الجمعيات شكل الجمعيات المحلية والمركزية ، فى تقديم الخدمات الاجتماعية ، فبعض جمعيات الاستهلاك التعاونية تخصص أموالا احتياطية ، إما عن طريق اقتطاع نسبة معينة من الفائض التجارى أو عن طريق مساهمة الأعضاء مساهمة اختيارية ، وإما بواسطة الجمع بين هاتين الطريقتين معا .

وتستعمل هذه الأموال لتوزيعها على الأعضاء إما نقداً أو عينا فى حالة البطالة أو المرض أو الحوادث ، كما تعطى منحا خاصة منها حين الزواج أو الولادة إلى آخر ما هنالك .

أما جمعيات التأمين التعاونية المحضة ، فإنها تحمى أعضاءها فى كل من المدن والأرياف ، من عدد من المخاطر ، أهمها : التأمين على الحياة والحوادث والحريق ، أما فى الريف فإن هذه الجمعيات تؤمن على نفوق المواشى ، وغير ذلك من مخاطر الطبيعة ، كالبرد والصقيع .

(ب) التسليف (الائتمان) :

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن نشير هنا إلى أن الدين هو أحد المخاطر الذى له مكانة بين خطط الضمان الاجتماعى وهو أحد العوامل التى تصيب رب البيت ذا الدخل المحدود بكارثة ينوء بها ظهره .

لم نعر الكثيرمن الاهتمام للبيع نقداً فى جمعيات الاستهلاك التعاونى.فلقد ثبت بعد القيام بتحريات واستقصاءات عديدة أن رب البيت أصبح مقيداً فى التصرف بدخله كما أن حريته وكرامته قد أصبحا على شفا جرف هاو من جراء الشراء بالدين غير أن جمعيات الاستهلاك التعاونية ، باتخاذها إجراءات معاكسة لهذه العادة قد أنجزت مأثرة عظيمة تتعلق بتحرير عضو الجمعية من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، كما قامت أيضا بمأثرة أخرى حينما علمت أعضاءها أهميه التوفير ونظمته لهم بشتى الطرق . وكانت نتيجة ذلك أن حل التوفير محل الاستدانة ، وتحرر الأعضاء من الديون والفوائد الباهظة .

ومهما يكن من أمر فإن الوفورات فى جمعيات الاستهلاك لا تفى بجميع متطلبات البيوت ذات الدخل القليل. فقد تحتاج إلى القروض لشراء الأثاث أو حيازة آلة خياطة أو ثلاجة أو ماشابه ذلك ، وللتخلص من الرابى أدت الحاجة إلى تأسيس جمعيات التسليف والتوفير التعاونية فى المدن . وتشبه هذه الجمعيات فى مميزاتها وخصائصها ومقوماتها جمعيات التسليف والتوفير الريفية ، فمساهمة البيت المربى فى ادخار ما يفيض عن احتياجاته فى جمعية تعاونية للتسليف والتوفير لما يزيد فى دخل البيت عن طريق الفوائد التى تدفع للمبالغ المودعة لأجل ، من ناحية ، ولا ستعمال تلك الوفورات حين الطوارىء ، من ناحية أخرى .

ومجمل القول — يجب أن يكون التعاون شاملا شمولا كليا، شاملا بالنسبة لأهدافه ، وشاملا بالنسبة لأعضائه. ويعنى ذلك فيما يتعلق بالأهداف ، أن هدف التعاون يجب أن يكون حياة أفضل .

أما بالنسبة للأعضاء فيجب أن يكون التعاون شاملا شمولا كليا حيث تمثل الجمعية التعاونية الحياة المشتركة باشتمالها على المجتمع بأسره ، وأن إدخال العنصر النسائى فى التعاون ، لهو من الأمور البديهية ، حيث أن الزوجة هى ربة البيت وهى مسؤولة عنه .

كما يترتب ألا تقتصر العضوية على الراشدين وحدهم ، بل يجب أن يسمح للأحداث بالانتساب إلى الجمعيات ، وهنا يجىء دور المدرسة التى تقدم للطلاب التعليم الأساسى الضرورى الذى لا غنى عنه للتعاونى لأن الجمعيات التعاونية لا تعتبر وسيلة من وسائل النهوض بمستوى الحياة فحسب، بل هى أداة تربوية من الطراز الأول ، ومدرسة حية تشع أنوارها على المجتمع بأسره .

ولقد أوضحت لنا المعلومات السالفة الذكر فكرة عن ماهية التعاون وأثره فى رفع مستوى البيت العربى . ويستفيد البيت فى المجتمع العربى من اشتراكه فى الجمعيات التعاونية فى عدة نواح : أولا : تخفيض أسعار الحاجات المنزلية ، ثانيا : زيادة دخل المنتج ، ثالثا : الإدارة الديمقراطية فى العمل التعاونى ، رابعاً : التثقيف والتعليم فى المساعدة الذاتية والعمل الجماعى ضمن إطار المجتمع ، وهذه الفوائد كلها يستطيع البيت العربى فى حضره وريفه أن يجنى ثمارها يانعة .

هذا وإن الجمعيات التعاونية بالإضافة إلى تزويد البيت العربى بطرق جديدة فى توزيع الحاجات ، والدخل ، وكوسيلة حديثة للاقراض ، والإنتاج ، فهى تزود أيضا بالمعلومات الفنية ، وتنظمه تنظيما دقيقا فى العمل والإنتاج ، والتوازن ، وتضع له أسس الديمقراطية الحقة فى الحقلين الاجتماعى ، والاقتصادى .

الرعاية الاجتماعية للبيت العربى

للأستاذ يحيى حسن درويش

(ج.ع.م)

إن المدنية الحديثة التى تنفق المبالغ الطائلة على برامج الرعاية الاجتماعية التى تتصل بحياة الكثيرين من الأفراد والجماعات تعتبر هذه الرعاية ناحية هامة من نواحى حياة الشعوب والمجتمعات . وقد يكون هناك خلاف فى الرأى حول تحديد هذه الرعاية ومظاهرها ولكن المتفق عليه أن المقصود منها مقابلة الاحتياجات المشروعة للأفراد وقد يكون هناك خلاف أيضاً فيما يجب أن يؤدى من خدمات وكيف تؤدى ولكن المتفق عليه من ناحية المبدأ أن المجتمع المعقد الذى نعيش فيه يحتاج إلى أداء خدمات اجتماعية بصفة مستمرة . فإذا نظرنا إلى هذا المجتمع نجد أن الاقتصاديات القائمة فيه إما صناعية أو تجارية أو زراعية وهى من هذه النواحى الثلاث غير كافيه لمقابلة احتياجات الأفراد والجماعات فى هذا المجتمع القائم على المنافسة والمادة والحرية فى العمل، ومن هنا ظهرت الحاجة إلى برامج الرعاية الاجتماعية فى العمل التى يقصد بها الانتفاع بقوى الأفراد الآخرين الذين حرموا من هذه القوى أو الذين لا يستطيعون الانتفاع بقواهم فى التكيف لظروف البيئة التى يعيشون فيها .

ويقوم على تنفيذ برامج الرعاية الاجتماعية هيئات أو أجهزة يمكن تقسيمها إلى نوعين .

هيئات اجتماعية تعتمد على تبرعات الجمهور بصفة كلية أو جزئية فى تمويلها وهيئات حكومية تعتمد على أموال دافعى الضرائب إلى الدولة فى تنفيذ البرامج التى تقوم عليها — والهيئة سواء أكانت أهلية أم حكومية يجب أن تقوم على ثلاثة أركان : الأول الجهاز أو التنظيم الذى يعطى الهيئات صفة الاستمرار، والثانى برنامج مدروس يحقق الغرض الذى من أجله قام هذا الجهاز ، والثالث مال ينتفع به فى تحقيق هذا البرنامج للوصول إلى الأغراض المنشودة .

وإدارة الهيئة أو المؤسسة الاجتماعية عبارة عن مجموعه الوظائف التى تتصل بسير العمل فيها ، فالخدمة الاجتماعية تسمى لتحقيق خدمات للانسانية ، أما إدارة الخدمة الاجتماعية فتتصل بتنظيم الأداة والوسيلة لتوصيل هذه الخدمات إلى ذويها أو بعبارة أوضح هى عملية يمكن بها إخراج البرامج إلى عالم الحقيقة والواقع عن طريق إيجاد الجهاز أو البناء الذى يمكن عن طريقه تحقيق الأغراض التى تهدف إليها تحقيق هذه البرامج . وكل هيئة اجتماعية تقوم فى الواقع لكى تؤدى ناحية أو أكثر من الخدمات المباشرة وهذه هى الوظيفة الرئيسية للهيئات من الناحية الفنية ولأداء هذه الخدمات أداء فعالا يجب أن تؤدى بجانبها عمليات أخرى ليست فى حد ذاتها خدمات مباشرة ولكنها ضرورية لأداء هذه الخدمات . وهذه هى العمليات الإدارية التى تشمل تحديد السياسة العامة وطرق التنفيذ والتنظيم وتدبير الموظفين وإعداد الميزانية وغيرها . وتاريخ الإدارة يحوى بعض مواطن الاهتمام كما أنه فى الواقع تاريخ جذاب وإن كان فى بعض نواحيه لا يزال يحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة لأن المشتغلين بالخدمة الاجتماعية يوجهون اهتمامهم فى الغالب إلى البرامج الفنية للرعاية الاجتماعية .

وقد كان نتيجة أخذ الكثير من الحكومات بالمبادىء الرئيسية للتكافل الاجتماعى وتثبيت واجب الدولة فى كفالة رعاياها فى ظروف معينة وحق هؤلاء الأفراد والأسر فى الحصول على مساعدة الدولة فى هذه الظروف أن تعددت برامج الرعاية الاجتماعية واختلفت أساليبها، وبزيادة وجوه هذه الرعاية وتعدد صورها زادت الحاجة إلى تنظيمها وتنسيقها حتى لا تتداخل تداخلا من شأنه الأخلال بنتيجة العمل . فى بعض المناطق مثلا قد تلجأ أسرة محتاجة إلى الحصول على معونة مادية من أكثر من هيئة واحدة وبالرغم من أن هذه الهيئات قد تعتمد على سياسة حكيمة فى البحث أو الاحالة منعاً من تكرار الحصول على أنواع الرعاية المختلفة من أكثر من مصدر واحد إلا أنه يحدث فى كثير من الحالات أن تصل بعض الخدمات لغير المستحقين بالفعل .

ونظراً لتعدد الأجهزة القائمة على برامج الرعاية الاجتماعية للبيت العربى من حكومية وأهلية قد يحدث أن تتكرر جهود هذه الهيئات دون مبرر وفى هذا ضياع للجهود والوقت والمال بينما هناك خدمات أخرى قد تكون البيئة المحلية فى أشد الحاجة إليها ومع ذلك لا تبذل أى محاولة للقيام بها وتنفيذها بالرغم مما قد يكون فى هذه البيئة من إمكانيات وموارد يمكن استغلالها والانتفاع بها فى توفير هذه الخدمات .

وقد تكون البرامج القائمة فى مجتمع من المجتمعات غير مثقفة والاحتياجات الفعلية لهذا المجتمع أو قد يكون لبعض البرامج الأخرى أولوية عليها وذلك كله نتيجة حتمية لعدم دراسة البيئة المحلية دراسة قائمة على الإحصاء الاجتماعى من جميع النواحى التاريخية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

لهذا كله ظهرت الحاجة إلى ضرورة تنظيم برامج الرعاية الاجتماعية وتنسيقها خصوصا وأنها لم تظهر كلها دفعة واحدة بل ظهرت تباعا وبشكل تدريجى واعتمدت فى ظهورها — خصوصاً فى القطاع الأهلى — على شعور الأهالى أكثر مما اعتمدت على البحث العلمى .

أما من ناحية التمويل فإن الهيئات القائمة على تنفيذ برامج الرعاية الاجتماعية للبيت فى تكوينها عبارة عن تنظيم وبرنامج ومال ولا يتم هذا التكوين إلا إذا توافرت فيه هذه الأركان الثلاثه — والتنظيم والبرنامج يحددهما النظام الداخلى للهيئة أما المال فهو العصب الرئيسى الذى يتم عن طريقة تنفيذ البرنامج وتحقيق أهداف المنظمة .

والبيت العربى — أو الأسرة — يقصد به تلك الوحدة المكونة من أفراد تربطهم عوامل بيولوجية واحدة سواء أكان هؤلاء الأفراد من جيل واحد أو من أجيال متعاقبة . ويطلق على الأسرة وحدة اجتماعية باعتبارها أصغر مجموعة منظمة من الأفراد ولأنها نظام ثابت إذا قيس بالأنظمة الاجتماعية الأخرى .

ومن وسائل الرعاية الاجتماعية للبيت العربى :

١ — تنظيم الزواج والتقليل من مشكلات الطلاق .

٢ — فحص طالبى الزواج .

٣ — صندوق الأمهات .

٤ — هيئات توجيه الأطفال ورعايتهم .

٥ — مكاتب الخدمة الاجتماعية لدى محاكم الأحوال الشخصية .

٦ — جمعيات حماية الأحداث .

٧ — العيادات النفسية .

٨ — جمعيات رعاية الأسر .

٩ — منح أعانات للأسر لزيادة دخلها .

١٠ — المراكز الاجتماعية .

١١ — تثقيف أفراد الشعب من ناحية العلم بالمسئولية الاجتماعية الخطيرة المترتبة على الزواج .

١٢ — الرعاية التعليمية .

١٣ — الرعاية الصحية .

١٤ — الرعاية الترويحية .

ولكل ميدان من هذه الميادين المؤسسات التى تعمل فيه وكلها تهدف إلى رعاية البيت من الناحية الاجتماعية . وليست التفصيلات مجال هذه الندوة وإنما مجالها الأبحاث التى أعدت ومناقشات اللجان .

استثارة الوعى لمشكلات البيت العربى

للدكتور عبد الحميد يونس

(مركز رعاية وتوجيه المكفوفين بالعالم العربى)

(ج . ع . م)

أظن أننا نتحدث فى ندوة، وأظن أن طبيعة هذه الندوة تسمح لى أن أتحدث إليكم جالساً ، وأنا لا أستطيع أن أعرف فى نفسى القدرة على الحديث كما تحدث الذين سبقونى ، ومن أجل هذا أستميحكم العذر المزدوج وأنا أتحدث عن موضوع استثارة الوعى الاجتماعى لمواجهة مشكلات البيت العربى ، إذا كانت هناك مشكلات . ومن حسن الحظ أن الموضوع الذى أتحدث فيه ، يتصل بواقع البيت العربى اتصالا وثيقاً جداً ، فهو لا يريد منى روح المناظرة ، ولا روح الخطابة ، ولا يريد منى أن ألفتكم إلى شىء لا تعرفونه فى أنفسكم ، وفيما يحيط بكم من صور الحياة الخاصة والعامة على السواء ، وإثارة الوعى الاجتماعى لمواجهة مشكلات البيت العربى ، أو كما يقول زملاؤنا فى العالم العربى ، إثارة الوجدان الاجتماعى لمواجهة مشكلات الأسرة الاجتماعية يقتضينا بطبيعة الحال أن نصطنع منهجاً معيناً ، وهذا المنهج هو منهج الوظيفة ، أن ننظر فى وظيفة البيت العربى من المجتمع العربى الكبير أو وظيفة الأسرة فى المجتمع ، كما أن هذا المنهج يقتضينا أيضاً أن نتوسع فلا نحصر أنفسنا فى الأسرة من حيث هى آباء ، ومن حيث هى آباء وبنين ومن حيث هى علاقة بالمجتمع الكبير كله ، ولكن ينبغى أن ننظر إلى صورة المجتمع فى وحداته التى تكيفها أسس اقتصادية أولا ، وأن ننظر ثانيا إلى هذا القانون غير المكتوب الذى نستطيع أن نضعه فى مكان القانون المكتوب لأنه أقوى منه مدى فى تكييف الحياة الأسرية ، ونعنى به التقاليد والعرف والمراسيم الاجتماعية .

ولا يستطيع باحث أيا كان أن يتحدث عن الوعى الاجتماعى ، فيما يتصل بالبيت العربى أو بغير البيت العربى من صور الحياة التى تتصل بالمجتمع العربى ، وخصوصاً وهو يسترعى منهج الوظيفة ، أو الذى يبحث فى الوظيفة إلا إذا نظر إلى هذا القانون القوى الأثر غير المكتوب . وهذا المنهج يجعلنا ننظر مثلا أو على سبيل المثال فقط فى مراسيم الزواج ، عندما ننظر إليها نظراً متفحصاً ، سنجد أن هذه المراسيم تتصل أولا بأساس الانتخاب الطبيعى الذى يقوم به البيت ، أو تقوم به الأسرة ، وما نراه من صورة تدل كما يقول الاجتماعيون على الزواج القديم ، الزواج بالشراء ، أو الزواج بالسبى ، أو ما ننظر إليه مثلا فى بعض حقول الزواج ، أو ما ينظر إليه مثلا بما يصطنعه المجتمع من اختبار هذا الشريك أو ذاك من الشريكين اللذين يكونان الأسرة ، أو يكونان البيت .

نحن نعلم مثلا فى بعض البيئات المتبدية أن الشريك لا يمكن أن يكون أهلا للزواج إلا إذا تعرض لضربات معينة من السوط ، أو تعرض مثلا للثغات البعوض ، أو تعرض لاقتناص بعض الجماجم البشرية من مجتمع معاد

أو مجتمع مختصم . هذه الصورة المتبدية التى كانت فى الماضى ، والتى لايزال لها وجود إلى الآن ، والتى توجد أحيانا فى المجتمعات غير المتبدية كما توجد الندبة ، الندبة التى تدل على عضو ذهبت وظيفته ، أو انقرضت وظيفته . كل هذا يدل على أن المجتمع يصطنع دائما وسائل لاختبار هذا الشريك أو ذاك لاحتمال المسئولية الكبرى فى إقامة أسرة يهتم المجتمع الكبير بها ، كاللبنة الأولى واللبنة القوية التى تكون قوام المجتمع كله، إننا حينما ننظر فى حفول الزواج مثلا فنجد أن العروسين كما يسميان ، يميزان بزيهما ويميزان فى موضعهما من الحفل وكما يريد المجتمع من شخصيتيه، لكل واحد منهما خصوصيته التى تميزه عن أى إنسان آخر إلى نموذج، ومن هنا كان من الطبيعى أن نستشف النموذج، أو المثال الذى يريد المجتمع أن يطبع سائر وحداته بطابعه ، أو أن يسمه بميسمه ،والمثال الذى أريد أن نستشفه، يجب أن تكون فيه مرونة وهو فيه مرونة فى واقع الحياة الاجتماعية . ويجب كذلك أن يكون فيه تعميم لكى يكون صالحا فى المجتمع العربى كله وهو كذلك أيضاً فى واقع الحياة الاجتماعية .

وأحب أن أقرر وأنا أتحدث حديثا عابراً أو حديثاً طائراً عن إثارة الوعى الاجتماعى للبيت العربى ، أن هذا النموذج لايمكن أن يستشف من المشاهدات أو من الروايات التى سجلها الجوابون ، أو التى سجلها بعض الباحثين الاجتماعيين ، الذين ينظرون إلى المجتمع من الخارج ، أقصد الأجانب مثلا إذا زاروا بعض البيئات العربية . وإنما يستشف هذا النموذج أيضاً من صور التعبير التى يحقق المجتمع بها وجوده ، يحقق بها ذاتيته العامة المميزة ، عن الشخصيات الجماعية الأخرى ، وفى صور التعبير أحب أن أتحذر ، أو فيها نظر ، كما كان يقول أشياخنا فى الماضى أتحذر وأقول أن فيه نظراً لسبب إلا أنه وجيه وهذا هو أننا لايصح ، وخصوصاً ونحن نتحدث عن البيت العربى ، أن نستشف النموذج من الأدب الفصيح وحده ، ذلك لأن هذا الأدب الفصيح قد يعبر فى بعض العصور أو فى بعض البيئات عن قلة تتصل بالحكام وقد يكونون من غير العرب ، أو قلة تتصل بالمتعلمين ، ولاأقول المثقفين ، لأننى أتحدث دائماً عن الثقافة بمفهوم اجتماعى لايجعل المجتمع ينقسم إلى مثقفين وغير مثقفين . فأنا من الذين يقولون أنه مامن فرد فى مجتمع إلا وله ثقافة ، ولذلك كان من الضرورى أن نستشف هذا النموذج من الأدب الدارج ، أو الشعبى إلى جانب الأدب الفصيح . وأضرب على ذلك مثلا : فنحن مثلا نجد فى الشعب العربى شيوع الحب العذرى أو الحب الأفلاطونى الذى لايؤدى إلى زواج ، وهذا الحب العذرى أو الحب الأفلاطونى فى قصص الغرام المعروف فى عصر بنى أمية ومابعده . والمعروف إلى الآن . نجد أن هذا الحب العذرى مصطدم بالعادات والتقاليد الاجتماعية ، وتكون هناك مأساة كمأساة المجنون مثلا ، ونجد كذلك أن الشعب العربى يتحدث عن الطلل ويتحدث عن الفراق حتى أصبح بكاء الأطلال ، وأصبح الحديث عن الفراق حديثاً تقليديا من تقاليد الشكل فى القصيدة العربية .

ونجد كذلك أن الشاعر الفصيح مثلا يتحدث عن أسماء بذاتها أصبحت نكرات ليست لها خصوصية فيتحدث فى العصور المتأخرة عن ليلى ودعد وهند ولا واقع لهذه الأسماء على الأطلاق .

أما الشعر العامى ، أو الشعر الدارج ، أو الشعر الشعبى فيروعكم جداً أن تعلموا أنه لن يتحدث إطلاقا إلا عن النموذج الذى يرتضيه المجتمع وهو نموذج البيت العربى ... كيف يريده ، كيف يجب أن يكون هذا البيت، ولم يتحدث إلا عن الحب الزوجى ، ولنأخذ مثلا سيرة بنى هلال لأننى درستها فسنجد أن الجازية نموذج الزوجة الوفية ، ونموذج الأم المثالية ، ونموذج العلاقة بين اللبنة الأولى وهى الأسرة والمجتمع العام فى أنها كانت تستنفر أبناء عشيرتها على القتال

وتخلصهم دائماً أبداً من المآزق وكما قال ابن خلدون « إن قصة حب الجازية لزوجها شكر تروى بقصة المجنون » وهى كذلك بالفعل من حيث علاقتها بالواقع العربى ، والوعى بمشكلات البيت العربى ، موجود واقع وموضوع كما قلت لكم وموجود فى الوظيفة ، ذلك لأن المجتمع يقدس الأسرة ، ويرسم لها النموذج ، ويصونها دائماً أبداً فى كل فترة ، وفى كل بيئة من أى شائبة من شوائب التقلقل ، ومن شوائب الاضطراب ، ويفعل ذلك على طريقتين الطريقة الإيجابية يرسم النموذج لكم رسماً مباشراً ورسماً نموذجياً ، والطريقة السلبية وهى أنه يبين الفارق الشديد بين النموذج وبين بعض المثل المنحرفة ، مثلا فى النوادر المأثورة فى المجتمع العربى ، سنجد الإزدراء الكامل للشذوذ والانحراف ، الشذوذ الذى نجده منعكساً فى بعض عيون الأدب الفصيح ، والأدب الشعبى لا يمكن أن يتحدث عن الشذوذ وعن الانحراف ، وكذلك سنجد أن المجتمع يجب أن ينتقد نفسه أن يضع نفسه على المشرحة فى كثير من الأحيان ، فالمطلوب إذن فى استثارة الوعى الاجتماعى أن نستشف النموذج ، وأن نثير الوجدان العربى . ومن حسن الحظ أننا نعيش فى فترة ترتفع فيها الحواجز الجغرافية فى الوطن العربى الكبير ، وهذا يساعدنا بطبيعة الحال على تعميم النموذج . وهذا النموذج يدفع المجتمع إلى تقليده دفعاً صعودياً وهنا التحرس الذى سبق أن أشرت إليه ، وهو أننا يجب أن نفرق بينه وبين المثال الذى فرضته فترة من الفترات سلطة حاكمة أجنبية ، لم تتوغل فى المجتمع العربى ومن هنا أيضاً نرد إلى المجتمع العربى اعتباره فى نظر نفسه وفى نظر الحياة كلها ، فنظام الحريم مثلا الذى يتهم به المجتمع العربى ، ليس نظاماً عربياً أصيلا ، وإنما جاءت به ظروف أجنبية عن هذا المجتمع العربى . وأنا لا أريد أن أتملق نفسى أو أتملقكم أو أتملق المجتمع العربى . ولكن هذا هو الواقع ، كما أن القول بأن المجتمع العربى هو مجتمع مزواج ، هذا كلام أيضاً لا واقع له ، فتعدد الزوجات الذى يتحدث عنه المستشرقون دائماً ، له ظروف ، وله ملابسات ، وله ضرورات ، والمجتمع ينظمه ويفرط فى إساءة استعمال هذا الحق ، كما أن فك الرباط ، الرباط الزوجى المعروف بالطلاق ، ليس أمراً مرخصاً به دون ضابط ، ولكن الهيئة الاجتماعية بالنموذج الذى أشرت إليه ضبطته وحددته وجعلته لا يقوم إلا لضرورة يقرها المجتمع إقراراً تاماً .

وهنا يلتقى المثال بالمثل الأعلى الذى تجد الإنسانية فى تحقيقه وهو المثل الذى رسمته الشريعة الإسلامية ، كما أنه أيضاً يتصل بالوسائل الواقعية التى تجعل سير الإنسانية إلى تحقيقه ممكناً . ومن أجل ذلك لابد لكى نشيع النموذج الذى يحبه المجتمع بعد أن ارتفعت الحواجز الجغرافية ، أن ننظر إلى الكلمة المعبرة عن الذات ، ولا أقصد بها اللغة لمجرد الإفهام ، ولكنى أقصد الدرجة التى ترقى على الأفهام ، أقصد الفن القولى الذى استوعب نزوع الجماعة العربية فى تحقيق الشخصية وفى التفنن فى الشعر ، وفى النثر الفنى . ولا أريد أن أدفع هذا المجتمع برقابة تأتيه من خارج نفسه ولكنى أريد أن يكون ذلك برقابة زاتية تأتية من داخل نفسه ، وتقوم منه مقام الغريزة من الكائن الحى ، الغريزة التى تدفع أى كائن حى إلى أن يقبل على الطعام النافع عن غير وعى ، وتجعله ينصرف عن الطعام الضار عن غير وعى أيضاً ، وهذه الكلمة المعبرة التى أصبحت بفضل الطباعة وبفضل الصحافة أمراً يسيراً وأمراً يساير النزوع الديمقراطى ، وبالنقد الداخلى ، الذى هو أصل من أصول العمل الاجتماعى نفسه ، فى تحقيق النموذج .

وفى أن المجتمع يجب دائما وأبداً أن ينقد نفسه ليصل إلى هذا المثال ، ينبغى أن نعين المجتمع على الصور التى يتبعها إلى تحقيق هذا النموذج عن طريق الفن القومى ، كما أننا لا ينبغى أن ننسى الفنون التشكيلية ، وإن كان المجتمع العربى لم يحفل بها فى عصوره الماضية إلا قليلا، وقد بدأ يحتفل بها فى نماذجه الآن، وهذه الوسائط التى تعمم هذا المجتمع وبهذا الفهم الواقعى لهذه الوظيفة قبل أن ننظر فى الشكل ولإدراك النموذج المنبثق من صميم الحياة الواقعية العربية وبالاحتفال بالوسائط التى تشيع وتعمم هذا النموذج. أعتقد أننا نستطيع فى يسر بطبيعة الحال أن نثير هـذا الوعى الاجتماعى المطلوب دون أن نسىء إلى أنفسنا ، ودون أن نسىء إلى أحد ، ونرد إلى الحياة اعتبارها فى نظر نفسها ، ونرد على هؤلاء المستشرقين الذين يتخرصون دائماً وأبداً على شريعتنا ، وعلى مجتمعاتنا، ويتهموننا بالباطل الذى يناقض الاجتماع ، ويكون ردنا رداً واقعياً موضوعياً علمياً ، لا يتسم بالعصبية بمعناها الضيق، ولا يتسم بالخروج على المنهج العلمى ، وإنما تحققه شخصياتنا ويحققه المنهج العلمى فى وقت واحد . وأعتقد أنى بهذا الحديث الطائر قد أشرت مجرد الإشارة إلى ما ينبغى أن يقال والسلام . . .

هذه الندوة :

للدكتور سليمان حزين

(خبير الجامعة العربية)

بسم الله الرحمن الرحيم أولا وأخيراً أو أولا وآخراً وإن كنت أعتقد أننا لم نبلغ آخر هذه الندوة بعد وأرجو أن لا نبلغ آخرها أبداً ، فهذا الموضوع الذى تدارسناه اليوم موضوع جد خطير بل هو موضوع الحياة كلها ولست أشك فى أننا حين ولد فينا العقل كان أول ما نفكر فيه هو البيت وما أظن أنى أشك فى أننا حينما ينتهى بنا العمر سيكون آخر ما نفكر وما نتأمل فيه من حولنا هو البيت حتى وإن متنا بعيداً عن البيت ، لم أكن أنوى أن أتحدث وأرجو أن لا أطيل لكى لا أحجبكم أكثر مما حجبكم غيرى والله يغفر لنا جميعا ، لا أحب أن أحجبكم كثيراً عن المحاضرة القيمة التى ننتظرها بل ننتظرنا ولكننى أود أن أستأذنكم فى أن أكون أنانياً وأول الأنانية فى النفس أنها تنزع دائماً إلى أن تعبر عما يختلجها من مشاعر حين تختلج فيها المشاعر وقد اختلجت فى نفسى اليوم مشاعر كثيرة لا أجد بداً من أن أعبر عنها او عن بعضها فهذه الندوة قد ردتنى اليوم متعلما وإن كانت المشاعر قد باعدت بينى للأسف الشديد وبين أن أكون متعلماً ونقلتنى إلى أن أكون معلماً وأرجو أن يكون المتعلمون منكم قد متعوا كما متعت أنا أيضا اليوم بأن عادوا متعلمين ، أثيرت فى هذه الندوة مسائل كثيرة أستأذنكم فى أن أنوب عنكم فى أن أسجلها واحدة واحدة لتسجل على الشريط ثم تنقل إن شاء الله للكتاب الذى نقرؤه ويقرؤه أبناؤنا وأحفادنا من بعدنا بدأت بحديث قيم أثيرت فيه المشكلات تولى إثارتها معلم لم يسعده الحظ لأن مشاغله شغلته عن أن يكون متعلماً معنا اليوم هو الأستاذ عبد العزيز حسين أثار مشكلات كثيرة ثم خرج وكان ذلك توفيقاً من الله عليه وعلينا فالحكمة من هذه الندوات ليست أن تخرج منها بردود وإجابات على أسئلتها وإنما الحكمة المقصودة منها دائماً أن تثير فى أنفسنا التساؤل وليس أنجح من ندوة يخرج الجميع منها ساهمين غير راضين لا عن أنفسهم ولا عما قيل فى مجموعه .

وأنا كمعلم كنت أفكر فى كثير من الأحيان أن خير طريقة لامتحان الطلاب والتلاميذ ليست أن نعطيهم أسئلة ونطلب الإجابة وإنما نعطيهم إجابة مكتوبة ونطلب منهم أن يكتبوا الأسئلة التى تجيب عنها هذه الإجابات ثم إنتقلنا من هذا التساؤل وإثارة المشكلات إلى معالجة الأسس والبرامج والخطط التى توضع وتكلم فيها الأستاذ يحى وتكلم فيها الأستاذ المخزنجى وتناولها غيرهم فى أحاديث تفصيلية فى المناقشة أو فى التعقيبات . وفى دراسة هذه الأسس اطلعنا بأنفسنا على ضخامة هذا الموضوع الذى تناولناه فى ندوتنا اليوم وأظن أن اللجان إن شاء الله ستعالج بقية النقط والمسائل التى لم تثر فى أحاديث اليوم ثم إنتقلنا بعد ذلك إلى معالجة القواعد والأسس الخلقية والروحية للمجتمع وأنا أحب دائما أن أقارن بين مسائل الخلق وبين مسائل الروح لأنها كلها تنبع فى أعز نقطة وأعز منبع فى النفس البشرية ألا وهو الضمير ، والضمير كما يعرف هو الذى يميز الإنسان والحيوان ، الغريزة مشتركة بين الإنسان والحيوان ، ولكن فى درجات متفاوتة ، ولكن الضمير هو الذى ميز به الله سبحانه وتعالى الإنسان عن الحيوان ، وهذا

الضمير هو الذى تحيا به الأمم أو تموت لا العقل . هناك أمم تقدم فيها العقل وأنتج ولكن الضمير مات فماتت هى ، وهناك أمم قوى ضميرها وتحفز وأنتج إنتاجه الذى يتصل بالروح والوعى وبالخلق وبالسلوك البشرى فأنتجت الإنسانية كلها تراثا بقى وسيبقى على مر الزمن ، من هذه الأمم أمتنا هنا مهبط الوحى ، أختاره الله لحكمة يعلمها هو ، وأظن أننا حين نتفكر نعلم عنها بعض الشىء . هذه الحكمة باقية ، ولكننى لست فى معرض أن أحاضر ، فقد تكلم فى هذه النقطة الهامة الأستاذ الشيخ أبو زهرة وهو دائما رجل روح ورجل ضمير وهذا من نعم الله عليه ، وتكلم الأستاذ الدكتور سليم حيدر ، وأنا أفضل أن أضفى عليه الأستاذية قبل أن أضفى عليه لقب الدكتور ، وتكلم نفر آخر منا تكلموا جميعاً فى هذه الناحية الخطيرة جداً من طابع مجتمعنا العربى وقد أعود بعد قليل إلى هذه النقطة . وانتقلنا بعد ذلك إلى دراسة المجتمع ، النظم الاجتماعية ، القواعد التى تحكم حياتنا كمجتمع وتحكم حياة البيت فينا كنواة للمجتمع ، التقاليد والعادات ، وتوارث هذه التقاليد والعادات والاحتفاظ بما هو قيم منها وتجديدها من وقت لآخر ، تكلم فى إفاضة وفى دراسة مقارنة الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس ، وتكلم زملاء آخرون أرجو أن أعتذر لهم إن فاتتنى أسماؤهم الآن أعتذر لهم لأنى تعلمت كثيراً اليوم، وأضفت ثروة قيمة تعينني على التفكير لأن هذه الناحية تصادف أنها من النواحى التى أعنى بها عناية خاصة فى دراساتى . ثم أنتقلنا وتكلمنا عن مكانة المرأة ، والمرأة ركن المجتمع إذا كان البيت هو نواة المجتمع فالمرأة ركنه ، والمرأة حصنه ، والمرأة سكنه ، والمرأة مستقره والمرأة منبعه . الرجل قد يكون عماداً للمجتمع ولكن الركن أحصن وأقوى من العماد والعماد لا يقيم بيتا ، ولكن الركن يقيم موئلا يقيم موضع حمى ، وكثيراً مايقيم عرينا للمجتمع يأوى إليه وقت الشدة ويتحصن فيه عندما تحزب الأمور ، وتكلمت السيدة فاطمة بهى الدين الزهراء رضى وهى من تلاميذى وأرجو أن يشتد إبنها ليصبح من تلاميذى قريبا إن شاء الله فى الجامعة . والإنسان لا يحب حينما يكون أنانياً لا يحب لأحد أن يكون خيراً منه إلا ابنه وتلميذه وانا قد اغتبطت بتحمسها للدفاع عن فكرتها دافعت فى إيمان وفى تحمس وفى اندفاع يثبت أن المرأة هى حقيقة حصن الدفاع عن المجتمع .

وتناول هذه المسائل الأستاذ خلاف وبعض الزملاء الآخرين فى أحاديثهم وفى تعقيبهم ، ثم انتقلنا بعد هذا التحليق فى المسائل الاجتماعية وغيرها ، انتقلنا أو رددنا رداً رفيقا لطيفا لبقا إلى العلم إلى العقل انتقلنا إلى ميدان العلم ، العلم الذى هو نعمة من نعم الله على الانسان فى المعرفة والهداية ، العلم الذى يربط الإنسان بالبيئة والطبيعة التى يعيش فيها : العلم الذى اقتصرنا اليوم على أن نتناول جانبين منه، جانب الصحة تكلم فيه الأستاذ الدكتور البرلسى وجانب النفس الذى تكلم فيه الدكتور زيور ، وهما من زملائى فى الجامعة من الذين وقفوا أنفسهم على أن يجعلوا العلم والمعرفة فى خدمة المجتمع ولكنى أضيف شيئاً آخر بأننى وجدت فى حديثهم اليوم لاغذاء للعقل فحسب ، إنما غذاء روحيا أيضا فهما طبيبان قد كان من الممكن لهما أن يكونا أنانيين أكثر مما كانا وأن يفرغا لمادة العلم ، والعلم يربط الإنسان بالمادة ، ولكنه إن شده اليها فإنه يستعبده وقد أبيا إلا أن يكونا طبيبين ثائرين على هذا وإلا أن يكونا إنسانين كما هما طبيبان ، فتركا الطب وجاءا إلى هذا المؤتمر ليطلعا زملاءهم الكثيرين المشتغلين بالمسائل الاجتماعية على أن العلم دعامة أساسية فى أى نوع من هذه الدراسات التى تتناولها ، أنتقلنا بعد ذلك إلى مقارنات من الخارج كانت مفيدة جداً ، وكانت هذه الندوة تصبح ناقصة إذا لم تتناولها تشبيهات جاءت مع بلد حبيب إلى أنا بالذات، لأن أول بحث

ثمت به منذ كنت طالبا هو أن أدرس الصلات الثقافية والتجارية ، وصلة الثقافة بالتجارة أمر قديم بين مصر وبلاد الصين ، فكانت لى دراسات مقارنة تحدث السيد الدكتور تشانج اليوم عن هذه المقارنات فأعجبه كثيراً ماقلنا وفى هذا درس طيب لنا .

ولست أشك أننا قد رددنا أنفسنا إلى أنفسنا واستعدنا ثقتنا فى هذه الأنفس ، استعدنا ثقتنا بماضينا وبدأنا نعتز به عن تفهم وعن إدراك لاعن عصبية أو تحزب .

أما آخر الأمر فمسك الختام حقاً فى هذه الندوة هو ماوفق إليه واحد منا ، وفق إلى مالم يوفق إليه غير قليل من العلماء والباحثين ، هو أخونا الأستاذ الدكتور عبد الجليل الطاهر ، وخير مايوفق إليه مشترك فى ندوة هو أن يستثير النقاش فيها ، أن يثير المسائل وأن يستثير اهتمامنا فى الوقت نفسه ، وفق لأنه وجه هذه الندوة وجهة المناقشة وجهة إيجابية ، لم نكتف بأن استمعنا ، وإنما نقدنا وشاركنا وبدأنا نلتف من حول أفكارنا لندافع عنها ونتحمس فى هذا الدفاع . وبذلك فإن له أجراً كبيراً لأنه دفع كلا منا لأن يتحمس ولأن يعطى من بنات فكره أكثر مما يأخذ ، فهو قد عاون كلا منا فى أن يكون مواطنا صالحاً فى ميدانه ، والمواطن الصالح قد يكون أبسط تعريف له أنه هو المواطن الذى يعطى أكثر مما يأخذ .

كانت المناقشة فى هذه الندوة حتى تكلم الدكتور عبد الجليل الطاهر قائمة على الأخذ أكثر من العطاء ، كان كل منا أو كان المتحدثون يعطون وهم قلائل وكان الآخرون يأخذون ولا يعطون ، ولكنه بأحاديثه استثارهم وبدأوا يعطون ويعاودون العطاء ويكررونه أكثر من مرة ، ولا شك فى أن كثيراً منهم يخرج اليوم وهو آسف بعض الأسف لأنه لم يعط بالقدر الذى أراد هو أن يعطى به . هذا ملخص للجو الذى أحاطنا فى هذ المناقشة ولكنى أستسمحكم أخيراً فى أن أبدى رأيى فى بعض المسائل التى أثيرت ، ولكننى حين أفعل ذلك أريد أن تدور مناقشتى حول نقطة واحدة وهى أن خلاصة سعينا فى هذه الندوة أنصبت على أننا أردنا أن نكشف عن شخصية المجتمع العربى ممثلا فى البيت العربى ، ونزعنا فى ذلك منزعاً جديداً ، معالجة المجتمع تتجه اتجاهين ... اتجاه قديم واتجاه جديد ، الاتجاه القديم هو أن نبحث عن مواضع النقص والعيب فى المجتمع ونحاول أن نصف الداء وذلك ما كنا نسعى إليه فى أكثر حلقاتنا السابقة ، والاتجاه الجديد هو أن نبحث عن مكامن القوى فى المجتمع ، أين تكمن القوة والحيوية والقدرة على التجديد والبعث والعمل والبناء والإنتاج ؟ أين تكمن هذه القوى ؟ كنا نحاول أن نبحث عن مكامن القوى ، بحثنا عنها فى المرأة وفى الطفل وفى الصحة وفى عدد السكان وفى تنظيم النسل وفى غير ذلك من المسائل ، كنا نبحث عن مكامن القوى ، كيف نبعث مجتمعنا العربى بعثا جديدا عن طريق بعث البيت العربى ؟ وهذه فى رأيى هى الإضافة الجديرة بأن تذكر وأن تسجل ، الإضافه التى أضافتها هذه الندوة .

إننا بدأنا نفكر تفكيراً جديداً يختلف عن تفكيرنا القديم وإننا كباحثين شعرنا بذلك أم لم نشعر اتجهنا اتجاها جديدا أظن أننا نستطيع أن نهنىء أنفسنا عليه . فى هذا الاتجاه بحثنا أربع مسائل أو وصلنا إلى إلى أربع نتائج ، النتيجة الأولى هى أن مجتمعنا العربى ممثلا فى البيت العربى مجتمع متوازن متكامل فيه امرأة وفيه رجل ، والمرأة تأتى قبل الرجل فى بناء المجتمع ، ليس فى نظامه وليس فى حكمه ولكن فى أساسه ، حقيقه أن آدم خلق

قبل حواء وهذا أمر يتصل بالخليقة ، ولكن المجتمع البشرى لم يوجد إلا حين وجدت حواء ، فآدم وحده لا يكون المجتمع المتوازن بين المرأة والرجل .

بحثنا هذه النقطة : الرجل أقوى من المرأة من غير شك من ناحية قوته الجسدية ، ولا أعرف أنه أقوى منها من ناحية العقل ، قد يكون أقوى من ناحية الإدراك والتدبير فى الحياة ، ولكن المرأة هى التى تهذب العواطف وهى التى تبنى الخلق وهى التى تنشىء الرجل أو هى التى تنشئه فى المرحلة الأولى من بنائه ثم تسلمه بعد ذلك إلى الرجل وإلى الأب ليكمل ما أسست هى ، فإن كانت قد أسست أساساً قوياً متيناً صالحاً فإن ذلك يعين الرجل على أن يأتى عمله قوياً أيضاً ، وإن كانت لم تؤسس أو أفسدت التأسيس فإن الرجل يشق عليه جداً أن يصلح ما أفسدت المرأة. نحن هنا مجتمع لم يشأ الله له أن يموت ؛ بل شاء له الحياة .

أمتدت حضارتنا ونظمنا الاجتماعية إمتداداً طويلا على الزمن ولنا هذه الحيوية فى تاريخنا ، وقفنا فترة طويلة جداً ، ثلاثة أرباع تاريخنا كانت فترات ابتسام فى التاريخ وعزة وكرامة ، وربعها كانت فترات نوم أو استكانة ، أو فترات غلبتنا فيها مجتمعات أخرى أقل منا فى نظمها وفى إنتاجها ، كذلك الحال فى بلاد الصين فالمجتمع العربى والمجتمع الصينى من أقدم المجتمعات وأقدرها حيوية .

النتيجة الثانية : أن مجتمعنا مجتمع تقوم حياته فى البيت ؛ وفى المجتمع الكبير خارج البيت على أساس الروح، على الأساس الروحى وعلى الأساس الدينى أيضاً ، فى هذا يمتاز مجتمعنا امتيازاً ظاهراً على غيره من المجتمعات . بل يكاد يمتاز على كل مجتمعات الدنيا . وأنا لست متعصباً وأرجو الله أن يغفر لى إن كنت متعصباً .

والشعوب أو المجتمعات التى نشأت فى بلادنا العربية ولم تستجب لدوافع الروح لم توفق فى حياتها وكانت مصدر بلية الإنسان ، من ذلك اليهود . اليهود نشأوا هنا وأنزل الله عليهم كتابه ودينه وأنزل عليهم الهداية ، ولكنهم للأسف الشديد تنكروا للمبادىء وعلى رأسها المحبة والإخاء والعطاء قبل الأخذ . ولكن اليهودية كما مارسها اليهود حتى مع أنبيائهم وكما يمارسونها اليوم فى كل مكان تقوم على الانطواء وعدم العطاء بل على الأخذ قبل العطاء . الديانة اليهودية لم تنتشر إنما الذين انتشروا هم اليهود بلا دين. وكان من نتائج ذلك أنهم خرجوا على هداية الله وأصبحوا مصدر بلية لأنفسهم وللإنسانية كلها .

ثم جاءت المسيحية بعد ذلك فبنيت على أساس المحبة . وجاء الإسلام فبنى على أساس المساواة والإخاء ، وعلى هذا الأساس تساوت المسيحية والإسلام . واستجاب السكان، سكان هذا المجتمع كله فى المسيحية ثم فى الإسلام إلى السلام ولم تقم حرب دينية مطلقاً بين الإسلام والمسيحية بعد أن ظهر الإسلام فى هذا الإقليم، وإنما قامت الحروب بعد ذلك عندما خرجت المسيحية من هذا المجتمع إلى مجتمعات أخرى لا يمكن أن تفهمها على حقيقتها ، لأن المسيحية كانت غريبة بالنسبة لأوربا، فلما وصلت أوربا لم يفهمها المجتمع هناك على أنها دين محبة ، وإنما فهمها على أنها دين انطواء وعلى أنها دين أثرة فجاءت الحروب التى سميناها الحروب الصليبية ثم جاء الاستعمار وجاء البلاء . المجتمع عندنا إذن سواء كان مسيحيا أم إسلامياً هو مجتمع يعطى قبل أن يأخذ ، هذا العطاء الذى تمثل فى أننا نشرنا هذين الدينين من هذا الإقليم ، أعطينا فى سخاء شرقا وغربا . أصبحنا مجتمعاً يصل بين الناس وانعكست صورة هذا فى البيت العربى

فأصبح البيت العربى يجمع بين أفراد الأمة . يجمع بين أفراد المجتمع ، وأصبح البيت العربى فى بعض هيئاتنا يمتد إلى القبيلة كلها وفى بعض بيئاتنا الأخرى أصبح أكثر انحصاراً كما حدث فى المدن .

النتيجة الثالثة : أننا مجتمع متنوع الحياة ، متنوع متكامل يجمع بين التنوع والتكامل . التنوع عندنا بيئات صحراوية فى البادية ومجتمعات محلية لها طابعها الخاص ، وعندنا مجتمعات عربية فى المدن وفى القرى وفى الريف ، وعندنا مجتمعات على السواحل ، وعندنا مجتمعات وبيوت فوق الجبال . وهى متنوعة ولكنها متكاملة . البادية أعطت المجتمع العربى وبيوت البادية أعطت هذا المجتمع العربى صفاته الأصيلة فى الكرم فى العطاء فى الجود فى المروءة فى الأدب الصافى فى النفس البسيطة فى براءة الطبيعة فى غير ذلك مما نعتز به . والمجتمعات فى المدن والريف وفى الحضر أعطته تعقد الحضارة ، التمدن ورقة الحاشية ورقة الطبع ، السمو الفنى ، السلوك المهذب وغير ذلك مما نضيفه إلى مجتمعنا العربى ولكننا نحتفظ دائماً بأصوله فى البادية وبفروعه فى المدن . وأظنكم تشهدون الآن مثالا رائعاً فى هذا البلد العربى البدوى أصلا والمتحضر حالا ، الذى لم يجد تنافراً من أى نوع بين أصله البدوى وحاضره المتمدن ومستقبله الصناعى العظيم . هذا منبع ومصدر من مصادر القوة فى مجتمعنا لأنه مجتمع متنوع متكامل . والنقطة الأخيرة هى أن هذا المجتمع يجمع بين المحافظة على القديم وبين التجديد . وأنا أحب أن أطمئنكم بأننى شخصياً لم أجد ذلك التفاوت الكبير والاختلاف فى الأفكار ، بينما نزع اليه أخونا عبد الجليل الطاهر ونزع إليه نفر منا حين عرضوه .

هذا المجتمع ليس محافظاً على القديم ولا متمرداً على القديم ، وإنما هو مجتمع وسط يجمع بين خير ما فى القديم ويأخذ بخير ما فى الجديد . وأنا لا أسوق هذا الكلام إنشاء وإنما أسوقه نتيجة لدراسة طويلة أشتغل بها نفر من تلاميذى واشتغلت بها معهم ، ومظاهر هذا المجتمع ظاهرة فى حياتنا المادية وفى حياتنا الثقافية .

فى بلد كالجمهورية العربية المتحدة أو كالعراق أو كغيره من البلاد العربية نجد الفلاح والزارع يستخدم الفأس التى ورثها عن عصور ماقبل التاريخ حينما كانت حجرية ، ثم استبدل بها فأساً معدنية ، ويستخدم المحراث الذى عرف فى مصر منذ الدولة الفرعونية القديمة ، ويستخدم الساقية التى عرفت فى مصر منذ عهد الرومان ، ويستخدم أيضاً الجرار الحديث الذى نستورده من أمريكا أو نستورده من روسيا . ولا يأنف مجتمع متقدم عن أن يستورد الجديد من أى مكان . نحن قد نكون أرحب الشعوب جميعاً ، نحافظ على خير مافى القديم لأنه يخدم غايات معينة بذاتها ، ونأخذ بالجديد ، بخير مافى الجديد لأنه يتطور ويساعدنا على أن نجابه تقدم الزمن . نحن إذن محافظون مجددون ، وكذلك الحال فى الناحية الثقافية فنحن نعتز بتراثنا القديم ، نحن حتى اليوم نتذوق شعر الجاهلية ، شعر كتب منذ ستة عشر قرنا تتذوقه ونتعشقه ونتغنى به . لو أنك أعطيت أديباً اليوم ، أديباً لا قارئاً عاديا ، قصيدة كتبت باللغة الفرنسية منذ تسعة قرون لما تفهمها ! وحتى إن تفهمها فإنه لا يتذوقها . أما نحن فلا نزال نعيش فى ماضينا وبماضينا ونعتز به ونتذوقه ولكننا نجدد أيضاً . نجدد بأن نأخذ بالحديث ، عندنا لغتنا الرقيقة الأدبية الجميلة ونضيف إلى ذلك لغة علمية جديدة غنية بمصطلحاتها ونستخدمها فى التعبير عن أدق الحقائق العلمية لأن لغتنا قادرة على أن تتجدد ، تحتفظ بماضيها وتحتفظ بحاضرها وتمتد إلى المستقبل ، وحتى فى عاداتنا فى أى بلد وأعتذر فى أنى أتحدث عن إقليم مصر بالذات فى هذه النقطة لأنها قد تكون البلد الذى أخذ بوسائل التحديث قبل غيره ، فى مصر مثلا نجد الطبقة المتعلقة

بعاداتنا القديمة ، إننا قوم تمتد عاطفتنا إلى ما بعد الموت نذكر أمواتنا ، وفى ذلك تعبير صادق عن المشاعر الإنسانية ، لنا ما نسميه بالعوائد الجنائزية ، وهذه العادات الكثيرة معروفة فى الريف ، يبكون ويلطمون ويتحسرون ، وهى عادات قديمة . وعندما تعلمنا وجدت عندنا طبقة متعلمة متبحرة فى العلم والثقافة أخذت عن أوروبا معالم الثقافة الحديثة ولكنها مع ذلك حين جددت لم تتحرر من الماضى وإنما أتخذت لنفسها صورة جديدة غريبة ليس لها نظير خارج مصر ، لو أنكم تصفحتم أى جريدة أو صحيفة يومية فى مصر لوجدتم أننا نخصص صفحة بكاملها من هذه الجريدة أو أكثر للنعى ، لهذا النوع الجديد المثقف ، لهذه الصورة المهذبة من صور العادات الجنائزية ، نقيم حفلات التأبين وقد نموت فيها . . قد يموت بعضنا أثناءها لأنهم ينفعلون ، يستجيبون لماضيهم فى صورة حديثة ، قد يرى البعض أن هذا تناقض ولكننى لا أرى فيه تناقضاً أبداً ، بل على العكس أرى فيه تناسقاً ، أرى فيه أننا لم ننسخ ماضينا وإنما جددناه ولم نعتز بما أخذناه عن الغرب وإنما طوعناه وصقلناه صقلا عربياً ، هذه الصورة نجدها فى كل مكان ، نجدها فى الكويت ، هذه المظاهر الكثيرة أن العرب احتفظوا بنظمهم وبقواعدهم ، يعتزون بها فى مظاهر حياتهم وفى تفكيرهم ولكنهم لا يأنفون من أن يأخذوا بأسباب التجديد والمدنية ، أريد ان أطمئنكم أننا لسنا مجتمعا متناقضا ، ولا نحن بيتا متناقضاً وإنما نحن بيت متكامل ، يحفظ خير ما فى القديم ويعتز به . ولا قوة لنا ولا نهضة لنا إذا ما تخلينا عن هذا الماضى ، نحن نحتفظ بالماضى ونعتز به ، ولكننا نجدد أيضا ونوفق ما بين الماضى وبين الحاضر وننظر فى ذلك كله إلى المستقبل وذلك مصدر ومنبع من منابع القوة فى مجتمعنا العربى الباقى على مر الزمن بعون الله تعالى .

أشكركم وأظننى قد أطلت ، ولكن سجية التلمذة والأستاذية جعلتنى أظغى على وقتكم فمعذرة .

والسلام عليكم . .

تعليق

للأستاذ محمد حسن العشماوى

(الجامعة العربية)

زميلاتى وزملائى :

رغم أنف أبى ذر أعذرونى حين أقدم النساء على الرجال ! ولو أن آدم قد سبق حواء ، ولكن كما قال الدكتور سليمان حزين فى مناسبة سابقة : هو لم يستطع أن يؤدى شيئا حتى ولا وظيفة الخروج من الجنة إلا بعد أن جاءته حواء . وأنا كما قلت لكم فى مناسبة سابقة أومن بالمرأة وأخشاها ، ولذلك سرنى تطور المجتمع العربى بما يفسح للمرأة المجال لتؤدى رسالتها كاملة ، وإلا سار المجتمع العربى بشق مشلول ، والحمد لله ، نحن فى سبيل استقامة الطريق بتعاون الجنسين على مافيه إصلاح هذا المجتمع .

والواقع فيما يخص شخصى أنى لم أؤد فيما يخص هذا المؤتمر عملا على خلاف ماضى ، ولعل ظروفى الصحية التى طرأت على منذ أوائل سنة ١٩٥٧ وطلب الأطباء منى أن لا أجهد نفسى كثيراً ، كانت من الأسباب التى عوقت ذلك النشاط الذى ألفته فى نفسى ، ولذلك أعتبر مايخصنى من الثناء مجاملة ، لأنها لاتستند إلى سبب مشروع ، وهذه المجاملة طبيعية لعدة أسباب :

أولا : إنى رجل كبير السن ، وأقع منكم إلى حد كبير — فيما عدا استثناء بسيط من حيث السن — فى موقع الأب ، ومن الطبيعى أن يوقر الابن أباه ، مهما قصر الأب فى النهوض بوظيفته فى الحياة .

ثانيا : إنى أمثل الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، وهى حبيبة إلى نفوسكم ، عزيزة عليكم ، وكان لها نشاط ملحوظ فى ميدان الشئون الاجتماعية ، بدأ يوم أن أتيحت لى فرصة دخول الجامعة ، ولم أدخلها بحمد الله موظفا ، ولم أدخلها مقيداً ، وإنما طلب إلى لخبرتى ، أو بفهم غير دقيق لحقيقة كفايتى ، أن أعاون فى توجيه النشاط الاجتماعى فيها ، وأنا لم أتخصص ولذلك يؤلمنى إن فاتتنى هذه الفرصة التى نواجهها فى إعداد القادة . فأنا رجل هاو أو غاو كما تريدون . أتصل بالمحيط الاجتماعى عن هواية . أو عن غواية بدأت منذ سنة ١٩١ فلعلى اكتسبتها بمضى المدة . ولا أقول الطويلة لأن الطويلة هى خمس عشرة سنة . وهـــذه قد مضى عليها خمس وأربعون سنة فهى ثلاثة أضعاف المدة .

عندما كنت طالبا فى الحقوق وأتيحت لى الفرصة أن أصول وأن أجول كطالب فى هذا الميدان . ثم عاودتنى الرغبة فى الاهتمام بالشئون الاجتماعية والتقدير العظيم لها والإيمان بأنها أساس إصلاح الشعب ووجوب العناية بهذه النواحى عندما كتبت على وزارة المعارف سابقا والتربية والتعليم حاليا . دخلت وزارة المعارف مكرها وخرجت منها مكرها ، فأصبحت كـكل جنين حملته أمه كرها ووضعته كرها . وعندما خرجت منها كرها سألنى أحد الصحفيين ماذا تعلمت من وزارة المعارف .

فكان جوابى تعلمت ألا أعود إليها . ثم عدت إليها مرغماً مهدداً فى مستقبلى . فعدت لوزارة المعارف وزيراً لمدة عشرة شهور . ثم خرجت وعدت بعد ذلك وزيراً لمدة شهرين وعشرة أيام . وكل مرة أخرج منها . اسأل لماذا خرجت . ثم لماذا عدت . ودعيت المرة الثالثة فاعتذرت ، وأصررت ، فقلت إن كانت وزارة المعارف تجنيد فقد جندت مرتين . وقوانين التجنيد تطبق مرة واحدة . وإن كانت ضريبة على الأكفاء كما يقال ، لتبرير قبول هذا العبء القاسى . فقد أديت الضريبة مرتين . وقوانين الضرائب لاتطالب إلا بأداء الضريبة مرة واحدة . وهنالك بحمد الله من الأكفاء . ومن الرجال من يستطيعون أن ينهضوا بذلك . وقلت إننى وقد تقدمت فى السن محتاج للراحة ، والانصراف لأولادى لأرعاهم فى أشق مرحلة من حياتهم . وفى جهاد أكبر نحوهم . وإننى ينطبق على البيت الذى كان دائما يستشهد به الشيخ محمد عبده :

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة كأننى صارم فى كف منهزم

فإن كنا قد حملنا العبء فترة فيجب أن نخلى السبيل لمن يحمله . وجئت فى إدارة الشئون الاجتماعية بالجامعة العربية والحمد لله بدأناها حبرا على ورق ، وانتهينا بها عملا وتوجيها ، وفنا ودراسة ونشاطا شاملا فى جميع الميادين ، وليس هذا فضلى . إنما هو فضل الذين عاونونى وهيئوا لى الفرصة . وفى مقدمتهم ذلك الجالس بجانبى . ولا أريد أن نتقارض الثناء . وإنما هو يتكلم مجاملة . وأنا أتكلم حقا . ثم تهيأت الحلقات وتتابعت . وكتب على أن أكون رئيساً لوفد الأمانة العامة فى كل حلقة أو مؤتمر من هذه المؤتمرات . منذ سنة ١٩٤٩ . ولعل هذا أكسبنى شيئا من الأقدمية عندما تفضلتم باختيارى نائبا للرئيس لهذا المؤتمر . وقد ترددت فى قبول الدعوة لحضور الكويت . قلت لى سبق أن جئت الكويت مرتين وأتيحت لى فرصة متابعة نهضة كاملة شاملة ، وجهت الخير الذى أغدقه الله عليها لمصلحة الشعب ، وهى تبنى مجتمعاً ، تبنيه على العلم ، وتبنيه على الصناعة ، وتبنيه على التربية الخلقية الحقة ، وتبنيه على رعاية الشباب ، وعلى إعداد النشء ، وتقرن القول بالعمل ، وتعرف حقاً أن المال إذا أعطى ، فخير ما ينفق فيه ، أن يكون لبناء الأمة ، وتشعر أنها جزء من الوطن العربى ، يحس بإحساسه ، ويتجاوب معه . ولذلك لاحظنا جميعاً منذ قدمنا أننا نعيش فى أنقى مجتمع عربى شهدناه فى حياتنا ، وأننا نعيش بين أهلنا ، ولا أظن أن أهلنا قادرون لأن يحفونا بمثل هذه الحفاوة . ثم جئنا نعالج موضوعا من أخطر موضوعات المجتمع العربى ، وهو البيت العربى ، كلمتان حوتا كل ما فى المحيط العربى من مجد ، ومن أهداف ، ومن آمال ، ومن كيان ، ومن مقومات . وقد ضم هذا المجتمع صفوة من الخبراء العرب ، فى الشئون الاجتماعية لم يتوافر بهذا القدر لأى مؤتمر سابق ، برغم بعد الشقة . وذلك لأن الجميع كانوا يتسامعون بنهضة الكويت ، فرغبوا جميعاً أن يلمسوا هذه النهضة ، ويروها بأعينهم . ولذلك كان هذا الاجتماع الموفق ، الذى زخر بهذا النشاط ، وانتهى إلى هذه النهاية الطيبة .

وإنى وقد عشت بينكم هذه الفترة القصيرة ، فى حياتى الطويلة ، لأعدها أسعد الفترات التى واجهتها فى حياتى مقام كريم ، وشعب كريم ، وأمير كريم ، وشيوخ أجلاء ، وشعب على قلة عدده أثبت صحة القول «إن الكرام قليل» وشعب على حداثة نهضته قطع فى سبيل أهدافه أشواطا بعيدة المدى ، لا تقاس بتلك الفترة التى بدأت فيها الكويت أن تنهض ، وأن تستعين بإمكانياتها فى تحقيق نهضة شاملة .

والكويت عزيزة على نفسى، وإذا بحثت فى أصولى لعل جدى قد ولد فيها ، ونشأ فيها ، ولما جئت الكويت فى أول وثانى مرة سنتى ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ عن لى أن أقترح إيجاد إدارة متواضعة للشئون الاجتماعية فى الكويت ، فكتبت للشيخ عبدالله الجابر الصباح رئيس المعارف والذى كنت قد عرفته قبل ذلك فى القاهرة ، أقترح عليه أن يوجد فى دائرة المعارف ، باعتبار أول ما يرد على ذهنى عندما تعمل إدارة متواضعة تبدأ بها تضعها أين ؟ .. تضعها فى محيط النشء ، فاقترحت عليه هذا الاقتراح فجاءتنى منه برقية فى سرعة البرق كسير نهضة الكويت ، يطالبنى فيها بأن أتقدم باقتراح تفصيلى ، بانشاء دائرة أو نظام ، فاستعنت بأخى وبالعناصر المعينة لى فى إدارة الشئون الاجتماعية ، ووضعنا له مشروعا بإنشاء دائرة كما طلب ، فأنشئت الدائرة ، ووضعت تحت تصرفها الاعتمادات الكافية ، وبدأت تعمل ، ومنذ أن بدأت حلقاتنا تمثل الكويت فى الحلقات والمؤتمرات الاجتماعية ، وكان لا بد أن نضع الكويت فى موضعها فتتحدث وترأس اللجان وتتكلم فى الاجتماعات العامة ، وتلقى كلمة فى الافتتاح والاختتام ، تقديراً لهذه الجهود ، لأننا فى الميدان الاجتماعى ، نقيس الدول بأعمالها ، فلا يصغر عندنا أحد إلا بصغر عمله ، ولا يكبر إلا بعظمة عمله ، ثم ترامت لنا نهضة الكويت وأنها تتقدم بسرعة لا يستطيع الزمان أن يجاريها ، وأعجبنى الأستاذ حمد الرجيب ، عندما كنا فى المؤتمر الثالث ، وطلبوا منه أن يتحدث عن الكويت ، فقال إنى أدعوكم جميعاً للكويت ، فليس القول مثل المشاهدة ، ولعلكم تظنوننى مبالغا ، أو لعلى وأنا كويتى فلا أعطى المسائل حقيقتها ولا أعرضها فى وضعها الصحيح ، وقد جئنا استجابة لهذه الدعوة ، ووجدنا أكثر مما تصورنا . فإن كانت المشاهدة تفوق التصور فى بعض الأحيان ، وهذا نادر ، فقد فاقت المشاهدة هنا كل تصور ، ولذلك كان طبيعياً أن يفيض على لسان كل عضو من أعضاء المؤتمر ، هذا الحديث عن الكويت ، وأن يفيض قلبه بهذا التقدير للكويت ، ونهضتها . ولذلك أرانى قبل أن أختم هذه الندوة مطالباً بدافع من شعوركم جميعاً ، أن أحيى باسمكم نهضة الكويت وأن أحيى باسمكم حكومة الكويت ، أميرها ، وشيوخها ، وأن أحيى على وجه التخصيص ، رئيس دائرة الشئون الاجتماعية ، وساعده الأول الأستاذ حمد الرجيب ، وجميع الذين يعاونونهم منهم من جاءوا من شق من الوطن العربى ، ليؤدوا واجبهم فى هذا الشأن ومنهم من هم من أهل الكويت ، وكلهم عملوا فى إقامة أركان هذه الدائرة ، عملا متواصلا ، حتى تم لها هذا التكوين وحققت المعجزة . كما أنى أرانى أيضاً مطالباً بأن أشكر باسمكم ، على هذه الحفاوة ، التى شملتنا وأغرقتنا غرقا محببا كما قال شوقى فى النيل : « ويغرقها فيحيى المغرق » هم أغرقونا أغراق حياة فانتعشنا ، وكان لنا هذه المتابعة وهذا البشر وهذا التعاون ، ثم أشكركم جميعاً فى النهاية ، على هذا الجهد الذى حملتموه حتى لم أر لنفسى مكانا فيه أؤدى عملا من الأعمال ، غير هذا الوضع الشكلى ، الذى يعطى دائماً للذين يريدون أن يتخففوا رعاية لصحتهم أو لأى سبب آخر . كما أشكر هذه الفرصة الثمينة التى جمعتنا ، ووفقت بيننا ووثقت ، فلا خلاف إلا فى الرأى ، ثم تنتهى بأن الهدف واحد ، والمصلحة العربية الكبرى واحدة . فنحن فى هذا الاجتماع كما كنا فى الاجتماعات السابقة وكما سنبقى ، بناة وحدة عربية ، ولا تظنوا أن عملكم هذا قليل فى بناء الوحدة ، بل هو حجر الأساس فى بناء ذلك الوضع الاجتماعى الذى يوثق روابط الدول العربية ، ويجمعها فى ميدان الإصلاح الاجتماعى .. يجمعها فى ميدان الرسل والرسالات ، والتزاحم فيه هو تزاحم فى سبيل تحمل المشقة ، أداء لهذه الرسالة ، كما تحمل الرسل مشقات رسالاتهم .

لذلك أراني بكل هذه الصفات التي تقدمت بها ، وباسم الكويت نفسها وطني في حقيقته ، ووطننا جميعاً في حقيقته . فهل شعرتم إلا أنكم في أوطانكم ، وبين أهلكم وعشيرتكم ؟ وهل وفق الإنسان إلى أن يجد عشيرة كانت العروبة أساساً لها فجمعته بها ، في أوثق جامعة خيرا مما نحن فيه ؟

تلك كلمتي أختتم بها هذه الندوة العامرة ، سائلا الله أن يوفقنا ، وأن يجنبنا المزالق ، وأن يجمعنا على كلمة الحق ، وأن يوحد صفوفنا ، وأن يقوم اعوجاجنا ، وأن يجعلنا قوة نستطيع بها أن نحمي الوطن العربي الأكبر من عاديات الزمان . والله الموفق .

والسلام عليكم

الندوة الثانية
البيت والمجتمع

١ ــ تقديم الندوة	للأستاذ محمد حسن العشماوى	(جامعة الدول العربية)
٢ ــ الأسرة نواة المجتمع	للأستاذ حمد الرجيب	(الكويت)
٣ ــ المسكن والأسرة	للدكتور محى الدين صابر	(خبير الجامعة العربية)
٤ ــ اقتصاديات البيت العربى .	للأستاذ أمين يونس الحسينى	(الأردن)
٥ ــ البيت العربى بين البادية والحضر	للأستاذ محمد الفريح	(السعودية)
٦ ــ الرعاية الروحية والخلقية للبيت العربى	للأستاذ عبد المنعم خلاف	(جامعة الدول العربية)
٧ ــ البيت العربى والتكيف الحضارى	للدكتور على عيسى	(ليبيا)
٨ ــ ثقافة البيت العربى	للدكتور ناصر الدين الأسد	(جامعة الدول العربية)
٩ ــ الرعاية الصحية فى البيت العربى	للدكتور عبد الوهاب البرلسى	(خبير الجامعة العربية)
١٠ ــ الرعاية الاجتماعية للبيت العربى	للأستاذ يحيى حسن درويش	(ج . ع . م)
١١ ــ المرأة فى البيت العربى	للسيدة فاطمة بهى الدين	(ج . ع . م)
١٢ ــ البيت العربى ووفيات الأطفال	للدكتور عبد الكريم اليافى	(ج . ع . م)
١٣ ــ حماية المرأة العاملة والحدث العامل	للدكتور محمد عزيز المراغى	(مكتب العمل الدولى)
١٤ ــ الرعاية الترويحية فى البيت العربى	للأستاذ توفيق حسن وصفى	(جامعة الدول العربية)
١٥ ــ هذه الندوة	للدكتور سليمان حزين	(مدير الحلقة)

تقديم الندوة

للأستاذ محمد حسن العشماوى

جرت العادة أن تبدأ حلقاتنا بندوة عامة يلقى فيها بعض المتخصصين أبحاثاً موجزة تفتح النوافذ على الموضوع الرئيسى وتصل الخبراء والعلماء الذين يعملون وراء أبواب مغلقة بالرأى العام فيطلعونه على أهمية الموضوع وجوانبه المتشعبة .

وموضوع هذه الحلقة رحب ، واسع المدى ، متعدد النواحى ، تصلح كل ناحية منه لأن تكون موضوع حلقة كاملة، وبالرغم من أن هذه الحلقة أعد لها فى مؤتمرين سابقين غيرأنى لاأزال أخشى أن يكون اتساع الموضوع مدعاة إلى أن تجىء التوصيات عامة غير محددة ، فلا تبرز النواحى العملية الدقيقة . وأتوقع أن تعتبر هذه الحلقة ، فى اجتماعها العام ، أعمالها أعمالا تمهيدية ، وأن تقترح ضرورة تعاقب الحلقات لكى تتناول هذا الموضوع الخطير المتشعب النواحى للتعمق فى دراسته .

ويكفى لبيان أهمية الموضوع وسعته أن نقول إنه يتناول « البيت العربى » من : أبوة وأمومة وبنوة ومايتصل بهؤلاء جميعاً من مشكلات .

والتعريف بالبيت العربى وإبراز مقومات كيانه يحتاج إلى دراسة واسعة ، وكذلك بيان العوامل المختلفة التى تؤثر فيه — على ماينها من تقارب — ومدى تأثره بالتطور وهو يضم الجد والجدة والأب والأم والأولاد والحفدة ، فكيف نجمع هؤلاء جميعاً فى نطاق جو واحد يوفق بينهم ، فيستفيد الخلف من تجارب السلف ، ولايقف السلف حجر عثرة فى سبيل التطور ؟ ثم هناك تعدد الزوجات الطلاق واختلاف الأمهات، وكيف نعالج جواً ننشىء فيه أبناء مثل هذا البيت وبناته فى هذا الجو العاصف المضطرب .

وهنالك تقاليد البيت العربى ، ومنها مايعتبر مستحسناً صادراً عن صفات كريمة اتصف بها العرب ، وتوجيهات طيبة أملاها الدين وأوحت بها العروبة الصحيحة ، ومنها تقاليد سيئة عفى عليها الزمن ويجب أن تمحى فكيف نمحوها والتقاليد ثابتة فى النفوس ؟ وأول عقبة قابلت الرسل فى دعوتهم تلك الردود التى ذكرها القرآن الكريم فى مثل قول الله تعالى « إنا وجدنا آباءنا على أمة »

إن هذه التقاليد تحتاج إلى علاج شامل نتخلص به من البالى منها ومن سيئاته .

ثم هؤلاء الأطفال الذين سيصبحون شباناً ورجالا ، هم أكبادنا الذين تحدث عنهم الشعراء : ينبتون فى البيت ويتأثرون به ، فإن اختلت أوضاع البيت اختل الأطفال ولايمكن أن يصبحوا يافعين تتوافر لهم السلامة .

إن هناك نوعا من اليتم مبتدعاً لعله غير موجود فى كثير من المجتمعات ، هو اليتم مع وجود الأب والأم ، وقد عناه شوقى بقوله :

إن اليتيم هو الذى تلقى له أما تخلت أو أباً مشغولا

ولعل كثيراً من البيوت العربية منيت بهذا الأمر : فالأب يكدح فى سبيل الرزق أو يسعى وراء نزواته ولهوه ولا يكترث لأكباده أو لا يقدر المسئولية . والأم لم تعد للأمومة الصالحة ، وتحسب أن الأمر مقتصر على الحمل والولادة وهما عملية طبيعية لا فضل فيها إلا لله ، ولذلك يجب أن تمتد يد البشر إلى هذه النعمة وتعرف الوسائل السليمة لصيانتها وتفهم الواجب نحوها .

ثم إن الطفل يتعرض لشتى الأعاصير فى طفولته ، ثم حين ينمو فى دورى المراهقة والشباب وما يكتنفهما من مشكلات ، فلا يجد الموجه ولا البيئة الصالحة فى البيت والمجتمع .

وهناك مشكلات التوفيق بين الزوجين ليتحقق الصفاء والهناء والسعادة ، وليكفل بقاء الزواج على أساس التواد والتراحم والتفاهم .

ثم هناك المشكلات نفسها التى يتعرض لها البيت مثل : اختلاف الجو والتفكير ، والمشكلات النفسية والعقلية والفكرية التى تنتاب شباب هذا البيت وقد تودى به ، وتتصل بالنواحى الاجتماعية والصحية والروحية .

ومما يجب أن تتناوله دراسة هذا الموضوع مشكلة التعاون بين المعهد والبيت فإن الملاحظ أن ما يبنيه المعهد يهدمه البيت ، وينبغى أن تهيأ الوسائل لضمان تحقيق التعاون بينهما . وكذلك موضوع هندسة مسكن الأسرة وتأثير السكن فى نشأة الأسرة وتكوينها والنهوض بها .

إن البيت العربى مجتمع صغير ، بصلاحه يصلح المجتمع وبفساده يفسد . والمرأة عماد هذا المجتمع الصغير ، فإن أهملته وخرجت إلى المجتمع الكبير متشبهة بالرجال أخفقت فى الداخل والخارج على السواء . وإن تركت أولادها للخدم أنشأنا شباباً رباهم أولئك الخدم فلا تتوافر لهم الثقافة والتربية .

مشكلات كثيرة يأخذ بعضها برقاب بعض تحتاج كل مشكلة منها إلى مؤتمر ذى حلقة خاصة ، فلو عالجنا فى كل حلقة مشكلة واحدة من هذه المشكلات لتوافر لنا منها طائفة من أنواع العلاج التى تقيم البيت وترفع أركانه .

وسأكتفى بهذا العرض السريع الموجز خشية أن أتحيف وقت زملائى الذين سيلقون أحاديثهم وهم من المتخصصين فى أبحاثهم .

لحضراتهم شكرى الخالص راجيا للجميع التوفيق

الأسرة نواة المجتمع

للأستاذ حمد الرجيب

(الكويت)

يزعم البعض أن ما جرى عليه العرف من اعتبار الأسرة نواة المجتمع قول مردود — باعتبار أن الأسرة تتكون من أفراد وبالتالى فإن الفرد هو نواة المجتمع وخليته الأولى — ويدللون على ذلك بأن الأشياء ترد عادة إلى أفرادها ووحداتها لا إلى مجموعاتها .

ولا شك أن هذه الحجج والبراهين لا تصدق إلا على الحيوان والجماد ، ولكنها حجج باطلة إذا تناولت المجتمع وحاولنا الوصول إلى نواته ووحدته .

فالفرد عاجز دون معونة أسرته — ضعيف منذ مولده — يعتمد على من يحيطون به فى كل شئون معاشه ، وحتى فى تلك السن المتقدمة نجده عاجزاً عن كفاية حاجاته بجهده المستقل ، فهو فى حاجة دائمة إلى معونة غيره من أفراد المجتمع وجماعاته .

وأسرة الطفل حينما تقوم على تربيته تتولى سد حاجاته وإشباع رغباته المتعددة المتجددة من مشرب ومأكل ومأوى ورعاية طبية وعاطفية ونفسية ، وهى تقوم على تربيته وتطبيعه بطباع وعادات المجتمع الذى يولد فيه ، ولولا هذه العناية والرعاية لنشأ أقرب إلى الحيوان النافر منه إلى الإنسان الذى يمكن أن نطلق عليه تسمية إنسان .

ونظام الأسرة من أعرق الأنظمة الاجتماعية التى وجدت على هذه الأرض منذ الأجيال الأولى لحياة الإنسان بل إنها سبقت المجتمع ، وسبقت كل النظم الاجتماعية الأخرى فى الوجود ، ويعتبرها « بنيت » فى كتابه عن الحياة الاجتماعية أحد الأركان الرئيسية التى يقوم عليها أى مجتمع مهما كان بدائياً ولولاها لصارت المجتمعات إلى زوال .

وما زالت الأسرة فى بعض المجتمعات البدائية وحدة اقتصادية كاملة تسد جميع احتياجات أعضائها وتتبادل بإنتاجها ما لا تستطيع إجادته ، وما زالت الأسرة فى تلك المجتمعات المعلم الوحيد لشئون الحياة المختلفة ، كوسائل الإنتاج ، أو استثمار عناصر الطبيعة من زراعة أو صيد أو خلافها ، وما يزال الأبناء فى كثير من المجتمعات البشرية متوارثون ليس فقط اسم الأسرة التى نشأوا فيها ولكنهم يتوارثون أيضاً كثيراً من صفاتها الجثمانية ، وطابعها المميز والمهنة الغالبة على أعضائها .

وما زال التعصب للأسرة تقليداً وتراثاً يتمسك به الأفراد والجماعات فى مجتمعات متعددة ، لأن الأسرة بطبيعة تكوينها رباط وثيق الإحكام يقوم على وشائج القربى وصلة الدم والأهداف والآمال المشتركة .

وهذه الرابطة نفسها وما تدعو إليه من تمسك بتقاليد الأسلاف ، والمحافظة على ما نشأ وتربى عليه أفرادها ،

هذه الرابطة هى فى ذاتها وقاية للمجتمع ، إذ تدفع عنه خطورة الانتقال السريع المفاجىء إلى التقاليد والعادات والقيم الوافدة الدخيلة ، كلما اختلط المجتمع بغيره من المجتمعات نتيجة الاعتداء أو تشابك المصالح والمنافع المتبادلة .

فهذه الرابطة من التقاليد الموروثة وطبيعة الأسرة فى المحافظة عليها والتعلق بها هى التى تمهد إلى الانتقال التدريجى والتطور المتدرج الذى يربط بين تراث الماضى واحتياجات ومتطلبات الحاضر المتطور .

ومن المعروف أن الأسرة فى المجتمعات الصناعية الكبيرة الحديثة قد فقدت الكثير من أسس ترابطها ، وعوامل تماسكها منذ بداية النهضة الصناعية فى القرن التاسع عشر نتيجة لازدياد عدد السكان ، وتدفق المهاجرين من الريف إلى المدن طمعاً فى مستوى أعلى من الدخل ، وعدم توافر المساكن الصحية الملائمة وارتفاع تكاليف المعيشة بما لا يسمح بإعالة الأصول والفروع ، وقلة فرص التعارف والتكافل ، والاعتماد المطلق فى سد الاحتياجات المعيشية على المتخصصين ، كل هذا كان من نتيجته أن قامت المؤسسات بجزء كبير من الأعباء الأصلية التى كانت منوطة بالأسرة القديمة والتى ما زالت من أهم أعبائها فى المجتمعات الريفية والبدوية ، ومن هنا نشأت دور الحضانة ومنظمات التربية الرياضية والاجتماعية ، والنوادى ، والمؤسسات الاجتماعية الأخرى التى تعنى بتربية الأطفال وعلاج ما قد يصيب بعضهم من انحراف أو جنوح ، إلا أنه حتى فى تلك المجتمعات الصناعية وبالرغم من انكماش الأسرة ، وصغر عدد أفرادها ، وانصراف معظم الأمهات فيها إلى المشاركة فى السعى لزيادة دخلها ، نقول أنه حتى فى تلك المجتمعات ، ما زالت الأسرة هى الخلية الأولى للمجتمع المنوط بها تقديم الجزئيات الجديدة فى بنيانه ، والتى يعتمد عليها فى تربية الأطفال وحسن نشأتهم ورعايتهم وسد مطالبهم واحتياجاتهم المادية والروحية والدينية والعاطفية والنفسية وما زالت الأسر فى تلك المجتمعات الوسيط فى نقل التراث الحضارى واللغة والدين من جيل إلى جيل .

والأسرة مسئولة فى أى مجتمع بشرى عن إنجاب الأطفال وتربيتهم ورعايتهم وحمايتهم من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والروحية والعاطفية والصحية ، وإن شخصية الفرد تتكون قاعدتها نتيجة للظروف البيئية المحيطة به فى أسرته منذ مولده .

والواقع أن نظام الأسرة وعاداتها وتقاليدها وقيمها تنعكس على الطابع العام الذى يميز المجتمع ويعطيه الشخصية المميزة بين المجتمعات المختلفة ، والعكس صحيح فى أن طابع المجتمع ينعكس هو الآخر على الأسر التى يتكون منها ويؤثر فيها ، إذ أنه هو الذى يحدد أنواع العلاقات ، والوظائف الاجتماعية لأفرادها ، وهو الذى يجند المعايير الخلقية والقيم والعادات التى تتمشى ومصلحة نموه وتطوره ورفاهيته ، وهو الذى يضع أنواع العقوبات المباشرة أو غير المباشرة عن الانحرافات أو الخروج على تلك المعايير والقيم .

والواقع أن المجتمع حينما يتبنى تلك المعايير والقيم إنما يستمدها من تراث الأجيال الماضية ، ومن طبيعة الظروف والأحداث التاريخية التى مرت به وتركت آثارها على وجهات النظر التى يتبناها .

كما أن الظروف الجغرافية والموقع الجغرافى والموارد الطبيعية هى أيضاً ذات أثر واضح فى أنواع العلاقات التى تسود بين أفراد الأسرة الواحدة ، كما أنها تعطى الشخصية الاجتماعية للأسرة طابعها المميز ، الذى يختلف من مجتمع إلى مجتمع . والواقع أيضاً أن نظام الحياة الغالب على المجتمع له أثره الواضح على طابع الأسرة المميزة وعلى الصفات الشخصية والعلاقات الاجتماعية السائدة بين أفرادها ، إذ لاشك أن أنواع العلاقات والمعايير والقيم السائدة فى مجتمع زراعى تختلف عن تلك التى تسود مجتمعا يغلب عليه الاتجاه الصناعى .

لعلنا وصلنا الآن إلى التدليل على أن الأسرة هى خلية المجتمع الأولى ، وأنها ركيزة كل نهضة وأساس كل إصلاح يتطلع إليه المجتمع لما فى علاقتها من أثر وانعكاس متبادل .

وأترك المجال الآن للزملاء الأفاضل ليتناولوا هذه العلاقات بالتفصيل الذى يقتضيه المقام .

المسكن والأسرة

للدكتور محيي الدين صابر

(خبير الأمانة العامة)

إذا كان البيت ، هو مستودع الأسرة ، والأسرة هى مستودع المجتمع ؛ وإذا كان البيت ، وما يزال، المهد الذى تدور فيه صور العلاقات الاجتماعية المختلفة ؛ فإن البيت ، لهذا ، يعتبر مثالا معـــبراً ، وصيغة بليغة تفصح فيها النظم الاجتماعية عن نفسها .

وأنا هنا ، إنما أقصد إلى البيت بمعناه العضوى ، من حيث أنه شكل هندسى قائم على الأرض ، يؤدى وظيفة الحماية والإمكانيات للإنسان لمباشرة نشاطه الحيوى والاجتماعى .

وإذا كان بعض الاجتماعيين يقولون أن سقف المنزل يحدد تفكير الذين يعيشون تحته ؛ ويعنون بذلك الارتباط بين نوع الحياة المادية ، وبين نوع التفكير الاجتماعى، فإنه صحيح كذلك أن النظم الاجتماعية تكتب نفسها على الأرض.

فإن صورة قرية ، أو مدينة، أو صورة بيت فرد إنما هى تعبير عن تنظيم اجتماعى، وكشف للعلاقات الاجتماعية المختلفة.

وصحيح أن هناك عوامل جغرافية تتدخل فى صورة البيت وشكله ، وهى تتمثل فى المادة التى يصنع منها فهناك بيوت الشعر والأخصاص والأكواخ ، وهناك بيوت الآجر ، والحجر . . الخ وهى تتمثل كذلك فى الصناعة التى تجعل البيت قادراً على مواجهة حالات الطقس ، والمناخ ، كالأنواء والعواصف والأمطار ، والحر والبرد . . الخ

ولكن البيت ظل مع هذا ، الصورة المادية ، التى يتجسد فيها التنظيم الاجتماعى

إننا نرى البيوت البادية ، فى الحضارات الرعوية ، ونجد البيوت القروية، فى الحضارات الزراعية ، ونجد البيوت المدنية ، فى الحضارات الصناعية ، ولا يخطىء الناظر العجلان ، أن يقرأ فى صورة هذه البيوت فوارق كبيرة ، هى الفوارق بين التنظيمات الاجتماعية المختلفة ، بين تلك الحضارات .

ولأمرهما ، نجد أن التجمع السكانى يتكاثر كلما تقدم التطور البشرى ، حتى ظهرت المدن الكبرى التى تضم الملايين . ودراسة البيت العربى ، تقود إلى دراسة هذه التنظيمات الاجتماعية المختلفة ، الرعوية والزراعية والصناعية. إن المجتمع العربى ، ماتزال تتقاسمه هذه الحضارات تقاسما تزامنيا ؛ ولهذا لابد من دراستها فى حالة الحركة والتطور . فإن تقسيم البيت مثلا إلى جناح للرجال ، وجناح للنساء ، وإقامة بابين فيه ، بابا لكل جنس ، وهو تقسيم قائم فى بعض البلاد العربية، حتى فى مدنها ، كما هو الحال فى السودان، كل ذلك يكشف عن مجتمع ثنائى. وإن الشبابيك المعروفة بالمشربيات ؛ تفصح عن فكرة الحجاب ، وسعة البيت أو ضيقه تعبر عن امتداد العلاقات أو ضيقها وأن يكون البيت

مثلاً من طابق واحد، تسكنه أسرة واحدة خاصة :. الخ ، وقد قامت بيوت من طوابق متعددة فى السودان، ولكن لم يحدث حتى الآن أن تساكنت فيها أسرتان سودانيتان ، بل تستعمل اليوم مكاتب للأعمال التجارية؛ أو لدواوين الحكومة ؛ وقد حدث هذا فى بلاد عربية أخرى . ذلك أن تلك البيوت المتعددة الطوابق ، ليست صياغة للتنظيم الاجتماعى القائم ، وليست تلبية للحاجات الاجتماعية . .

إن هذا الذى قدمت ، ليس إلا تخطيطاً لفكرة ، يمكن أن تدرس دراسة واسعة ، متى تجمعت الوقائع والأمثلة وعن هذا الطريق يمكننا أن ندرك فى يسر ، تطور التنظيم الاجتماعى للبيت العربى ، من الأمثلة المعمارية التاريخية ، ومن الأمثلة القائمة فى مختلف الأقطار العربية ، فهنالك تبادل اجتماعى حتمى ، بين الشكل المعمارى للبيت ، وبين المضمون الاجتماعى ، بين الصورة المادية ، وبين الوظيفة الاجتماعية .

اقتصاديات البيت العربى

للأستاذ أمين يونس الحسينى

(الأردن)

لم يعد الإنسان كما كان من قبل ينتج سلعاً ليستهلكها بنفسه بل ليستبدلها بغيرها هو فى حاجة إليها . وقد أصبحت النقود هى الأداة الرئيسية لهذا التبادل ومن ثم فقد أخذ اعتمادنا على النقود يزداد بصفة مستمرة . وعلى الإنسان لكى يصبح مستهلكا حكيما أن يتعلم كيف يستطيع تنظيم دخله على الوجه الأكمل . وهذا يتوقف إلى حد كبير على كيفية تخطيط الفرد لميزانيته .

إن الميزانية ليست أكثر من خطة ، والنظرية التى تثبت صحتها هى أنه إذا فكرنا مليا قبل أن نقدم على الإنفاق فإننا نحصل على قدر من الإشباع يفوق ذلك القدر الذى نحصل عليه لو لم نفكر .

وتشتمل الميزانية على :

١ — الإيرادات أى تقدير الدخل .

٢ — النفقات أى خطة استخدام هذا الدخل .

فدخل البيت يقاس بمبلغ المال الذى يرد إليه . ويتأتى هذا الدخل النقدى من الأجور أو الرواتب أو من الثروة المتجمعة أو العقارات : مثال ذلك أرباح الأعمال التجارية والفوائد على الدوافع فى المصارف أو الجمعيات التعاونية أو فوائد الأسهم حكومية كانت أم أهلية .

هذا وأن الدخل الحقيقى للبيت لا يمكن أن يقاس بالمال وحده ، بل يعتمد على عوامل عدة منها المكان الذى يقطنه أهل البيت وحجم هذا البيت وعدد أفراده وصحتهم وعلى مدى مايقدمون من خدمات كما وأن الثروة الاجتماعية والنفقات العامه تساهم مساهمة فعالة فى دخل البيت .

إن الميزانية هى وسيلة لمساعدتنا على أن نحصل على أكبر قسط من الإشباع بواسطة مواردنا المحدودة التى لاتكفى لإشباع جميع حاجاتنا ورغباتنا ، وأنها تساعدنا على أن ننفق دخلنا على جميع السلع والخدمات التى نستهلكها ومنها الغذاء والمسكن والعلاج والتعليم .

ويجدر بنا أن نبحث فى أثر التعاون فى رفع المستوى الاقتصادى للبيت العربى بما فى ذلك الدخل المتأتى من العمل ونمط الحياة والتضامن الاجتماعى .

١ — الدخل الحقيقى للبيت العربى الناجم عن العمل :

لا حاجة بنا إلى القول ما للتعاون من أثر كبير فى زيادة دخل البيت ، بالنسبة للعمال المستقلين أو أشباه المستقلين الذين يعملون فى الزراعة والأعمال اليدوية ومصائد الأسماك ، ذلك أن التعاون يقوم بدور هام فعال فى تخفيف نفقات الإنتاج ، وتحسين نوع المنتوجات ، وتصنيفها ، وتوضيبها ، والحصول على أسعار ثابتة رابحة .

أما الجمعيات التعاونية فى حقلى الاستهلاك والإنتاج الصناعى ، فإن أهميتها لاتقتصر على تقليل تكاليف التوزيع لمنفعة أعضائها فقط ، بل تتعدى هذه الحدود بوصفها مشاريع تخدم المجتمع . فتكون وسيلة للسلطات الحكومية تمكنها من تقرير الأسعار والأرباح بصورة معقولة ، كما أن هذه الجمعيات عندما تكون وطيدة الأركان تعمل على تنظيم أسعار السلع والبضائع فى جوارها .

٢ — نمط الحياة :

لما كانت الجمعيات التعاونية روابط من الأفراد ، فهى فى الحقيقة عبارة عن روابط من البيوت ، وأن المشاريع التى تؤديها هذه الجمعية تمتد إلى البيت ، أو تتم أعماله أو تحل محله . وقد بين لنا تاريخ تطور الحركة التعاونية أن الجمعيات تنظم أعمال البيت ونشاطه مع مرور الزمن بحيث تشمل أكبر قسط من تلك الأعمال .

وبهذه الطريقة تؤثر الجمعيات التعاونية تأثيراً كبيراً فى بعض العوامل التى تكون نمط حياة المجتمعات ذات الدخل الضئيل . وذلك بتحسين المسكن ، والتغذية ، وتنظيم أوقات الفراغ والنشاط الثقافى ، والترويحى ، وحفظ صحة أفراد البيت .

كما وأن المساهمة التى تقدمها جمعيات الإسكان التعاونية للبيت ذات أهمية بالغة فى الحد من وطأة بدلات الإيجارات هذا وإن جمعيات الاستهلاك التعاونية قد دخلت فى حقل صنع الأثاث بحيث أصبحت لا تقلل من التكاليف فحسب ، بل إنها تصنع الأثاث الجميل المتين الذى يجلب الراحة والمتعة للبيت . كما وأن جمعيات الكهرباء الريفية ، لا تقدم النور والطاقة الكهربائية للمستهلكين فقط بل إنها تحول الريف وتحسنه ، أما التليفونات التعاونية فإنها تزيل انعزال البيوت فى الريف عن بعضها البعض وعن المدن .

إن الجمعيات بالإضافة إلى إصدار مختلف المجلات والنشرات للمطالعة ، فإنها تقوم بإلقاء المحاضرات ، وعرض الأفلام السينمائية ، وتنظيم الحفلات المسائية ، وإنشاء المطاعم وقاعات الاجتماعات والترويح ، كما تعنى أيضاً بتعليم أعضائها لتحسين تدريبهم على أعمالهم المهنية .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى الخدمات الصحية التى تقدمها جمعيات الصيدلة التعاونية وجمعيات العيادات الطبية للأعضاء أما مايتعلق بالتغذية ، فإن هذه المشكلة ليست مشكلة الإخصائيين وحدهم ، بل هى أيضاً مشكلة الإنتاج ، والأسعار ، وتحسين أصناف السلع ومراقبتها ، والتعليم ، وهكذا نرى أنها فى الغالب مشكلة جمعيات الإنتاج الزراعية والاستهلاكية ، فجمعيات الإنتاج الزراعية تضطلع بمهمة إنتاج السلع وتسويقها ، عن طريق زيادة الانتاج بزيادة

رقعة الأراضى المزروعة ، والبذور المحسنة والرى ، والتسميد ، والعلاجات وتحسين الاحوال الفنية الخ ، أما الجمعيات الاستهلاكية فواجبها أن تقوم بتوزيع السلع الغذائية الرئيسية وذلك بتقليل تكاليف الإنتاج والتوزيع .

٣ — الضمان الاجتماعى .

وهناك عامل هام آخر فى رفع مستوى معيشة البيت العربى ألا وهو إزالة أو تخفيف وطأة المخاطر التى تواجه أرباب البيوت ذوى الدخل المحدود .

ففقدان أدوات الإنتاج أو غيرها من المقتنيات الشخصية من جراء السرقة أو الحريق أو غيرها من الأسباب ، والمرض ، والحوادث ، والبطالة ، والعجز المؤقت أو الدائم ، ووفاة العميل أو وقوعه تحت وطأة الدين ، فجميع هذه العوامل التى تلقى على كاهل رب البيت ذى الدخل المحدود حملا ثقيلا ، تقلب موازنته لمدة طويلة . وأن نظام المساعدة الاجتماعية والتأمين الاجتماعى اللذين يكونان معاً الضمان الاجتماعى وضعاً لمجابهة هذه الأخطار كما وأن للجمعيات التعاونية مقاماً هاماً بين مؤسسات التأمين التلقائية ويجب أن نشير أيضاً أن الدين هو أحد المخاطر الذى له مكانه بين خطط الضمان الاجتماعى .

ومجمل القول فإن البيت فى المجتمع العربى يستفيد من اشتراكه فى الجمعيات التعاونية من عدة نواح : أولا تخفيض أسعار الحاجيات المنزلية ، ثانيا : زيادة دخل المنتج . ثالثاً : الإدارة الديمقراطية فى العمل التعاونى . رابعاً : التثقيف والتعليم فى المساعدة الذاتية ، والعمل الجماعى ضمن إطار المجتمع ، وهذه الفوائد كلها يستطيع البيت العربى فى حضره وريفه أن يجنى ثمارها يانعة .

هذا وأن الجمعيات التعاونية ، بالإضافة إلى تزويد البيت العربى بطريق جديد فى توزيع الحاجات والدخل وكوسيلة حديثة للاقراض ، والإنتاج ، فهى تزوده أيضاً بالمعلومات الفنية ، وتنظمه تنظيما دقيقاً فى العمل والإنتاج والتوازن ، وتضع له أسس الديمقراطية الحقة فى الحقلين الاقتصادى والاجتماعى .

البيت العربى بين البادية والحضر

للأستاذ محمد الفريح

(المملكة العربية السعودية)

البيت . . عالم صغير يزخر بالحياة وبكل ما فيها من حركة وتطور .

وهذا العالم الصغير يختلف وضعه ومثله وإمكانيات تطوره فى البادية عنه فى الحاضرة .

فالبدوى يقضى عمره فى رحلة لا تنتهى يلتمس خلالها الخصب أينما وجده وينصب خيمته بجذائه ويعيش على تربية الماشية والتماس المرعى لها . وحياة مثل هذه لا مستقر لها من الصعب أن يجد التطور سبيله اليها .

لهذا فإن حياة البدوى وتقاليده ومثله ونظام معيشته هى تلك التى ورثها عمن سبقوه

فالبدوى بالرغم مما يلاقيه من عنت وإرهاق فإنه مع هذا يرفض العمل اليدوى ويحتقره. والمرأة تشاطر زوجها متاعب هذه الحياة . . والأطفال أيضاً عندما يبلغون سناً تمكنهم من أن يساهموا فى أعمال أبيهم المرهقة - فإنهم ينتظمون فيها ويتركون لهذا المصير .

وقد أخذت الحكومة السعودية تعمل على توطين البدو فى أماكن يبدأون فيها حياة جديدة مستقرة

كما أن صناعة البترول فى المملكة أخذت تجتلب كثيراً من البدو إلى المدن الصناعية فيستقرون فيها وينتظمون فى حياتها ذات القيم والتقاليد الجديدة عليهم

وفى برنامج وزارة المعارف ووزارة الصحة إنشاء وحدات متنقلة تضم مدرسين ومرشدين إجتماعيين وأطباء تلاحق البدوى فى ترحاله

ويهدف هذا البرنامج إلى التأثير فى أسلوب الحيـــاة فى البيت البدوى وإتاحة التعليم والخدمات الصحية للبدو فى مقارهم .

أما فى المدن والقرى فقد كان الأمر يسير على أن يضم البيت الأسرة الواحدة . . وعميدها حاكم مطلق يدير شئون البيت بالإرهاب فى أحيان كثيرة .

وقد أخذت الحال تتغير عقب انتشار التعليم وتغيرت مفاهيم الناس وأخذوا يفهمون البيت على أنه جنة صغيرة يجب أن تتاح السعادة فيها للجميع .

وانتشر الوعى وأقبل الناس على تعليم أبنائهم إقبـالا لاحد له حتى أصبح الآباء فى القرى النائية والمدن الصغيرة هم الذين يلاحقون الدولة ويطالبونها بإلحاح شديد بإنشاء المدارس.

وقد أخذت الفئة الواعية تبدى مخاوفها من إغفال تعليم المرأة وما ينشأ عنه من الزيجات غير المتكافئة مما ينتج عنه إنشاء بيوت ربما يهدمها عدم التكافؤ هذا . .

فكان من نتيجة ذلك أن أخذت الفتاة سبيلها إلى الدراسة المنظمة وأنشئت بالفعل مدارس للبنات بلغ عددها ثلاثا وخمسين مدرسة تعينها وزارة المعارف وتشرف عليها

والبيت فى المدينة تحكمه القيم والتعاليم الإسلامية العريقة والأسرة تحرص قبل كل شىء على التمسك بهذه القيم والتعاليم ، وهى الدستور الذى يحدد علاقة أعضاء البيت الواحد ببعضهم .

وهناك بعض المصاعب التى تقوم فى المجتمع الحضرى والتى تعوق فى بعض الأحيان إقامة بيت جديد كغلاء المهور ومتطلبات الحياة التى أوجدها التطور الحضارى الزاحف مما ينوء بحمله الأفراد ذوو الدخل المحدود .

ومن أجل تطوير الحياة فى البيت انتشر المرشدون الاجتماعيون فى كثير من المدن لأداء هذه المهمة ، وتقوم الإذاعة والصحف بدور هام فى شرح واجبات أعضاء الأسرة فى البيت وخارجه .

وبعد . . ربما كان هذا الحديث قاصراً عن بلوغ غاية البحث وعذرى أن الوقت ضيق .

الرعاية الروحية والخلقية للبيت العربى

للأستاذ عبدالمنعم خلاف

(الجامعة العربية)

ثبت من استقراء التاريخ العام أن الوازع الدينى على العموم هو الركن الأول فى استقرار حياة الفرد وحياة الجماعة ، وأن الأيام ما تزال تجدد وتبين أن مكانته ليست من البساطة بحيث يمكن الاستغناء عنه ، وأن التخلى عن غرسه فى نفوس أفراد الأسرة لا ينتج عنه إلا انحلالها ثم تفكك الروابط الاجتماعية جميعها ، وأن الفراغ الذى يسده فى النفوس لا يمكن أن يملأه غيره من أنواع الوازعات الأخرى. وعبثا يحاول المحاولون أن يجعلوا من القانون أو الأخلاق أو الضمير أو أية فكرية أيدلوجية أخرى حاكما يغنى عن ذلك الوازع الذى يستمد سلطانه من الإله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ويحكم ظاهر الإنسان وباطنه ويقيم محكمة الضمير كجزء من حكومة الكون الكبير .

وثبت كذلك أن الوازع الدينى كان للإنسانية كلها بمثابة الأمومة الحاضنة المربية التى كونت أخلاق الأفراد وهذبت طباعهم وبزغ فجر الضمير على يديها .

وأمة كأمتنا العربية الشديدة المراس المعتزة بشعورها بالحرية إلى أقصى حد لا يمكن أن تأتلف إلا بقوة الدين كرأى فيلسوف الاجتماع العربى (ابن خلدون) وكرأى القرآن الكريم نفسه (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) .

وحياة العرب الاجتماعية المتكاملة لا تنضج عبقرياتها العلمية والسياسية إلا فى هدى سماحة الدين التى تروض الطباع على الإحساس بالأمة والإنسانية بدل الإحساس بالقبيلة والعشيرة، وقد تبين أن جميع المقدسات لدى الإنسان من وطن أو عرض أو شرف أو حرية أو حق تستمد قداستها وحرارة الدفاع عنها من قداسة الوازع الدينى وقوة دفعه ، فالوطنية مثلا ما لم تستمد إخلاصها ومقدساتها من الإيمان فلن تستمدها من السقوف والجدران كما يقول الكاتب مصطفى المنفلوطى رحمه الله والواقع أنه، إذا خلا الضمير البشرى من سلطان الوازع الدينى فإن الهوى أو المصلحة أو الغباوة تكون هى التى تتحكم فى السلوك وتكيف الرأى، لذلك قال فولتير على الحادة أو سخريته (إذا لم يكن الله موجوداً فإن الضرورة تقضى بوجوده) ورأى الفيلسوف الانجليزى (باركلى) أن وجود الله ضرورة عقلية تستمد فيه الحقائق والفضائل ثباتها وشرفها ، لأنه إذا لم يكن هناك آله يعتبر الحق والفضيلة حقا وفضيلة كاعتبارنا إياهما فسوف يختلف لدى العقل الحق والباطل والفضيلة والرذيلة .

واستعراض ما يصبه وازع الدين فى محيط الأسرة من وصايا وأوامر ونظم وتشريعات يبين لنا أن الأسرة بمعناها

المدنى والاجتماعى قد نشأت روابطها فى كنف الدين ، وأن انتقالها من حياة الوحشية والدهرية إلى حياة المدينة والتدين كان عن طريق الوازع الدينى الذى وسع دائرة الحب الأموى والأبوى والأخوى ليشمل أفراد الأمة والإنسانية جميعاً .

فهو الذى علمها وحدة المجتمع ، وأقام كلا من أعضائها وصياً وراعياً على غيره ، وموصى به ومرعياً من ذلك الغير ، وجعل الأم مكان القداسة والحب الأول. لأن الأمومة مصدر إشعاعات الخير والحب والرحمة وأوسع مهابط الرحمة الآلهية على الوجود الإنسانى ، وأقوى أسباب حلة الأرحام وتشابك الأنساب ، ولأن كلمة الأم قد امتدت بلفظها ومعناها إلى كلمة الأمة ومعناها وكلمة رحم قد امتد معناها إلى كلمة رحمة وهى من أعجب الإشارات والدلالات اللغوية التى تفردت بها اللغة العربية ، فيجب على المجتمع العربى أن يواجه بهذه المانى والدلالات الأصيلة فيه فلسفات الشك والتشاؤم والتحليلات النفسية المنحرفة التى شاعت فى هذا العصر فحطمت معانى القداسة وهالات الخير التى كانت حول الأمومة وأن يجعل المجتمع العربى من دلالات الأمومة والبنوة وما بينهما من تبادل عواطف البر والخير مصدر فلسفة فى الخير والرحمة والقيم العليا للحياة التى تواجه بها الآراء المنحرفة والتحليلات النفسية المتعسفة . والوازع الدينى كذلك هو الذى جعل للأب مكان الرياسة والتوجيه والتمويل والحماية ، وجعل للأخوة حق الولاء والنصرة والعاطفة ، وقاس على علاقات الأسرة جميع العلاقات الاجتماعية الأخرى فوسع دائرة الأخوة العامة فى الوطن أو الدين أو الإنسانية ، ورتب على ذلك كله نتائجه من التوارث فى الموت بين الأقارب والتحارم فى بعض صور الزواج بينهم، مما يدل على الشعور بالوحدة الكاملة ، وبالجملة يعتبر الدين دائما شريكا ثالثا مع أى فردين فى الأسرة .

لذلك كله يجب أن تستمر الأمة العربية فى حرصها التقليدى بأن تعمل الامة العربية على غرس الوازع الدينى فى نفوس النشء حتى لا يفرط فى الحدود التى وضعت للأسرة ولا تذهب قداسة روابطها فتنحل عراها .

فلا نسمح بقيام الزواج المدنى الذى لا يكون الدين طرفا فيه ومشرفا عليه ، ومظلا له بظلال قداسته حتى لا يعود الزواج صورة من صور « التفريخ » الحيوانى الذى لا قدسية فيه ، ويجب ألا نفرط فى الحدود التى وضعها الدين فى التحارم والتوارث بين أفراد الأسرة ، فلا زواج بين المحارم الذين حرم الدين الزواج بينهم ، ولا تهاون فى توزيع الميراث كما توصى به الشريعة .حتى لا يضعف النسل ويفسد ولا تزرع الأحقاد والعداوات وتتحكم الأهواء فى توزيع ثروة الأسرة .

ويجب ألا تفرط الأمة العربية فى صيانة « العرض » حسب المفهوم العربى المعتدل من معنى العرض ، وهو مفهوم معقول لا يخرج عن حدود الطبع الذى يغار على الحرمات التى لا بد من صيانتها من الابتذال والاختلاط والتحلل ومن هنا يجب أن يكون الاختلاط بين النوعين بحذر وحسب الضرورة، وخاصة فى زمن المراهقة والشباب وأن تسبقه تربية اجتماعية دينية توضح مفهوم العلاقات الواجبة بين النوعين ، وما يترتب على تجاوز الحدود فى

الاختلاط من نتائج سيئة تهدد الأسرة ، وخاصة فى زمن الانتقال من نظام الحريم القديم إلى الحرية العصرية المعقولة للمرأة .

كما يجب أن يأخذ مجتمعنا العربى الحديث سبيله فى تطور العلاقات بين النوعين بتدرج موزون،وأن يحذر الطفرة التى هى مجلبة للسقطات ، وأن لا ينسى حق الزمن فى إنضاج الثمار ، فلا يخطو فى طريق تلك العلاقات بخطى الأمم الغربية التى يجب أن نحسب حساب ما بين مجتمعاتها ومجتمعنا العربى من فارق زمنى لايقل عن ثلاثمائة سنة منذ نهضتها هى .

كما يعمل المجتمع العربى على أن ينفذ كل فرد فى الأسرة مايخصه من أوامر الدين ووصاياه ، ولتظل روابطها قوية موصولة فعلى كل من الزوجين أن يحسن اختياره الآخر وأن يقدر أهمية هذا الاختيار لامن ناحيته فحسب ولكن من ناحية بناء الأسرة .

فيتخير الخطيب خطيبته بحيث تكون محل مودة وسكينة لنفسه وأما صالحة لأولاده وحفيظة على بيته وتتخير الخطيبة خطيبها بحيث يكون من ذوى الدين والأمانة والرجولية وأن يرى كل منهما من الآخر مايجب أن ينظر ويطلع عليه من صفات جسدية وخلقية بقدر الإمكان حسب العرف والشرع . فى ذلك كله أول ضمان لتوافق الزوجين واستمرار الحياة الزوجية وعدم انحلال رابطتها .

كما يجب فى حالة تطرق الشقاق إلى الحياة الزوجية أن تبذل جميع المساعى الحميدة باسم الوازع الدينى ، فيذكر الزوجان بالحقيقة الأولى فى الحياة الزوجية كما يفهمها الدين ، وهى أن المعاشرة الزوجية لاتكون بعاطفة الحب وحدها وإنما تكون بالشرف والحب والدين ومصلحة الأولاد ، وأن الحب العاطفى الملتهب كثيراً مايزول ، وأن الصورة المفهومة خطأ عن بناء الزوجية على الحب وحده ، يجب أن تصحح ، وأن الكراهية السطحية كثيراً ماتفوت خيراً كثيراً ، وأن الطلاق أبغض الحلال إلى الله، فيجب أن لايسرع الزوجان إلى التفكير فيه لأنه من المشكلات العارضة حين الغضب أو سوء الفهم . وهو عملية هدم عنيفة للبيوت والأولاد وتحطيم للسعادة فى محيط كبير وجلب الشقاء الأعظم فى المجتمع .

كما يجب أن يعمل المجتمع العربى على أن يعمق شعور كل من الوالدين بواجباته نحو الأبناء ، فتعطى الوالدة ولدها حقه فى لبنها ولاتحرمه منه خشية على جمال جسمها من مؤثرات الرضاع كما تفعل كثيرات من الأمهات العصريات ، إذ أن عاطفتى الأمومة والبنوة لاتعمقان إلا عن طريق الإرضاع الطبيعى الذى يترك فى النفس أعلى الذكريات وأعمق الحب والحنان المتبادل بين الأمهات والأولاد .

ويعطى الوالد ماعليه من النفقة المعتدلة والحماية والمسئولية الواجبة ، فلا يقتر ولا يبذر ولايفر من المسئولية .
ويعطى كل من الوالدين حبهما وعطاءها المالى ورعايتهما لأولادهما بالعدل والمساواة ، ويتجنبا إثارة أحد الأولاد بشىء دون إخوته ، حتى لايزرى الحسد والعداوة بينهم .

وعليهما أن يحفظا للبيت حرمته أمام الأبناء ، فلا شقاق أمامهم ولا انتهاك للأخلاق والحرمات حتى يجنبوهم

العقد النفسية ويطبعوا فى نفوسهم السعادة البيتية وسلامها .

كما يجب أن يعمل المجتمع العربى على سلب ولاية الآباء عن الأبناء إذا لم تتوافر لديهم أسباب الولاية الصحيحة الرشيدة المرشدة البعيدة عن الشذوذ العقلى أو الخلقى الفاحشين اللذين يتركان فى نفوس الأولاد القدوة السيئة والعدوى المعسرة . وذلك لأن للدولة والمجتمع فى الأولاد نصيباً كما للوالدين ، فلا يصح أن يطغى نصيب الغرائز والعواطف الخاصة على حق الجماعة والدولة ، وعلى حق الأولاد فى تهيئة أسباب حياة سوية لهم .

كما يجب تعميق معنى البر بالآباء فى نفوس الأبناء ، إلى الحد الذى يربون فيه على المعنى الذى يريده الدين من وصاياه المشددة المكررة ، وهو أن مقام الوالدين بلى مقام الإله الخالق ، ففى تعميق معنى البر إلى هذا الحد حمل الأبناء على توخى الربط الوثيق بين أصول البيوت وفروعها ، فلا تكون العلاقات الأسرية سطحية حيوانية لا يلبث الأبناء أن ينسوا فيها عهد حاجتهم وضعفهم فى كنف أبويهم فتضعف الأواصر وتنحل الروابط .

كما يجب أن توجه عوامل التربية والإرشاد إلى امتداد معانى الإخاء الأسرى من الحب والتعاون والتناصر . بين الإخوة إلى المحيط الأوسع فى المجتمع والإنسانية ، فيشعر الفرد العربى بحقوق إخوته فى الوطنية والقومية والإنسانية كما يشعر بحقوق إخوته من الام والاب ، لان الدعوات الوطنية والقومية والانسانية تنتفع كثيراً بتوسيع معنى الأخوة وامتداده على النحو السابق ، فيترتب على ذلك الامتداد ماوراءه من وجوب العدالة والمساواة بين الجميع باعتبارهم إخوة لا يليق أن تنحل بينهم روابط الأسرة أو الوطنية أو القومية أو الإنسانية .

وأخيراً يجب أن يعمق فى نفوس أفراد المجتمع العربى الاعتقاد بأن قوى الدفع والنهوض فى الأمم هى القوى الروحية الخلقية المستمدة من الوازع الدينى ، الذى هو دائماً يجمع ويوثق ولا يفرق ، وأن المال والجاه والعلم لا تغنى شيئاً عن القوى الروحية الخلقية ، وأن المواطن الصالح لا يكون إلا من بيت صالح قام فى كنف الوازع الدينى ورعايته ، وأن البيوت الكبيرة فى المجتمعات العربية ماقامت وبورك فيها ونالت حظى الدنيا والأخرى إلا فى كنف الدين وظلاله . وحسبنا فى هذا أن نذكر أن البيت السنوسى المبارك الذى نجتمع فى رعاية عاهله المعظم على تلك الارض الطيبة ومع تلك الامة الحرة التى هى مفخرة الجهاد العربى ومدرسته الاولى فى القرن العشرين ، قد أقيمت دعائمه على الدين الصحيح الكامل ، فانتشرت بركاته فى هذه الرقعة الفسيحة من غرب النيل إلى تونس والجزائر والمغرب وخاصة ليبيا ، فكان دعاة مذهبه ومؤسسو مدارسه وزواياه مصدر كثير مما حل بهذه البقاع الواسعة من هدى وخير وتعليم فى هذا القرن . وكان أئمته الدعاة المجاهدون مؤسسو دعوة الإصلاح العلمى والاجتماعى والدينى فى تلك الصحارى والمجاهل ، ومجددى طريق الكفاح العربى لمقاومة الاستعمار والاستغلال والفساد فى مطلع هذا القرن .

البيت العربى والتكيف الحضارى

للدكتور على عيسى

(ليبيا)

نحن نعيش اليوم فى عالم تتجاذبه حضارات مختلفة وإن الاتصال قائم بالفعل بين حضارات العرب والحضارة الغربية ، وأنا لا أحاول أن أدلل على هذا الاتصال إلا إذا احتاج النهار إلى دليل .

منذ وقت قريب نادى بعض علماء الاجتماع فى الغرب وفى أمريكا بالذات بأن مجتمعهم يتطور بسرعة تجعل الآباء عاجزين عن تربية أبنائهم وإعدادهم للحياة، ووظيفة التربية كما نعلم هى إعداد النشء للحياة المستقبلة، ولما كانت هذه الحياة المستقبلة مجهولة لهؤلاء العلماء فإنهم يعترفون أنهم ليست لهم القدرة على إعداد أبنائهم للمستقبل . وأعتقد أننا هنا فى العالم العربى فى ظروف أشد قسوة لأن التغير يحدث عندنا بسرعة وأنه تغير عمودى يختلف عن التغير فى أمريكا الذى يتم بطريقة تدريجية ويوصف بأنه أفقى .

من واجبنا أيها السادة أن نقلق وأن نتخذ العدة منذ الآن لتوفير الحياة السعيدة للأجيال القادمة بتزويد الآباء بالتطورات الحديثة فى شتى العلوم حتى لا تتسع الهوة بينهم وبين أبنائهم .

وأود فى هذه الكلمة الموجزة أن أهمس فى أذن زملائى المتخصصين فى العلوم الاجتماعية راجيا منهم أو مقترحا عليهم إعادة النظر فى طرق البحث فى هذه العلوم كما يفعل العلماء الآخرون فيما يتعلق بموضوعات تخصصهم، والذى يهم من وجهة النظر العلمية ليس نتائج الأبحاث العلمية وإنما الطرق التى تتبع فى إجراء البحوث العلمية .

ولننظر مثلا فى بعض اصطلاحات العلوم الاجتماعية ومدلولاتها ومدى ماتنطوى عليه من أخطاء أو سوء فهم ، فهناك اصطلاح " تفكك الأسرة وهو مأخوذ عن كلمة أوربية *disintegration* ويبدو أنه قد أسىء فهمها — إن انفلات الفرد عن أسرته واعتماده على نفسه كيف نعده دليلا على تفكك الأسرة سواء بسواء مثل انحراف الأب والأم مع أننا كلنا نتمنى أن يكون لأبنائنا مثل هذا الحظ ؟ هذه الشخصية المستقلة مفيدة كل الفائدة للفرد والمجتمع شرط ألا تكون شخصية مبنية على الأنانية .

وهناك اصطلاح تفكك القبيلة أو انحلال القبيلة وهو أيضا عن كلمة أوربية هى *detribolization* وتترجم تفكك أو انحلال ولا أرى شخصياً هذا الرأى فلا انحلال القبيلة وانفلات الفرد من القبيلة معناه انتقال الولاء إلى الوطن وإلى القومية وإلى الزعيم الأكبر فى البلاد، فكيف تسمى هذه الخطوة التقدمية من الوجهة السياسية انحلالا أو تفككا للقبيلة .

ولعل من أهم سمات النهضة فى الشعوب العربية وبلاد الشرق الأوسط المناداة بالتصنيع باعتبار أنه الوسيلة الوحيدة للقضاء على الفاقة والعوز فى هذه المناطق — واعتبار التصنيع هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه الأغراض خطأ ينبغى أن يصحح . فالتصنيع خطر جداً إذا قام على حساب الزراعة . فما زلنا فى حاجة إلى الزراعة وسنظل أبداً فى حاجة إليها للحصول على غذائنا وغذاء أبنائنا — وأنه لمن المبالغة فى تقييم التصنيع أن تنشأ المصانع على الأرض الزراعية الصالحة للزراعة بحجة أن إنشاء المصنع فى المناطق الريفية يسهل للقائمين عليه مهمة توفير الأيدى العاملة له من بيئة المزارعين مع مافى ذلك من خطر على الزراعة والمحاصيل .

لقد بدأ الغرب يفطن إلى أهمية الريف بعد أن ظهر تأثير التصنيع والحياة فى المدينة على الأعصاب والصحة العامة ، وأخذ العلماء وغيرهم ينادون بحركة الرجوع إلى القرية أو إلى المزرعة وتعرف هذه الحركة باسم *Back to the Farm Movement* ، ولقد حدثت فى أعقاب التصنيع فى القرى آثار سيئة وآثام جسيمة أهمها انتشار البغاء فى أوربا فى أعقاب الانقلاب الصناعى وذلك بسبب استقلال المرأة وتصرفها فى وقتها وفى سلوكها ، ومن واجبنا أن نستعد لمقاومة مثل هذه الآثار ونحن نأخذ بالتصنيع فى البلاد العربية وأظننا سنكون فى ظروف أفضل من ظروف الأوربيين حينما أخذوا بالتصنيع إذ سنفيد من تجربتهم بينما لم تتح لهم فرصة الاستفادة من أحد قبلهم فى هذا السبيل .

ولقد نتج عن اتصال العالم العربى بالحضارة الغربية أن ارتفع فهم الناس لمستوى الحياة الإنسانية وعرفوا حاجات الإنسان المادية معرفة تدعوهم إلى تحسين حالهم — عرفوا كل هذا عن طريق المطبوعات والمعاهد والإذاعة ، وأصبح من واجبات الدولة الحديثة أن تعيد النظر فى علاقة الأجور بالمستوى المعقول للمعيشة . ومن المهم أن أشير فى نهاية هذه الكلمة إلى مسألة ماذا نأخذ وماذا ندع من الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات . إن أى عنصر نستعيره من الحضارة الأجنبية ماهو إلا جزء من هذه الحضارة وهو فى أحيان كثيرة لاينسجم مع دولاب الحياة الاجتماعية فى بلادنا ولذلك وجب أن تؤلف هيئات فنية فى البلاد العربية لتحديد ما نأخذ وما ندع من الحضارات المغايرة لحضارتنا .

وأخيراً تتعرض البلاد العربية لمتاعب جمة من قبل القدماء الذين هم فى نزاع دائم مع المحدثين ، فالقدماء يفضلون الإبقاء على القديم والمحدثون يرغبون فى الجديد وهذه كلها مسائل أرجو أن توفق هذه الدورة لإيجاد حلول لها .

ثقافة البيت العربى

للدكتور ناصر الدين الأسد

(الجامعة العربية)

أكثر موضوعات الحديث فى هذه الندوة تتناول جوانب متعددة من موضوع واحد هو « ثقافة البيت العربى» بالمعنى العام للثقافة ، ومن أجل ذلك يحسن أن أحدد حديثى فى نطاق المعنى الخاص للثقافة أى التكوين الفكرى والتوجيه النفسى ، أو التعليم والتربية .

وأحسب أن الثقافة بهذه الدلالة الخاصة هى الأساس الأول الذى ترفع فوقه صروح الجوانب الأخرى من الثقافة بالمعنى العام الذى يشمل كثيراً من وجوه الحياة وأنماط المعيشة وطرز المجتمع وأساليب السلوك . ووراء كل جانب من هذه الجوانب فكرة أو مجموعة أفكار أساسية عامة هى التى تنصب معالمه وترسم اتجاهه وتحدد صورته . ولاشك فى أن هذه الجوانب حين يكتمل شكلها تأخذ فى التطور التدريجى نتيجة عوامل متعددة ، فتبدأ حينئذ بالتأثير فى تلك الأفكار الأساسية التى قامت عليها ، ثم تتوا كب تلك الأفكار والجوانب معاً فى تأثر كل منها بالأخرى وفى تأثيرها فيها .

ولذلك كان لابد للمحافظة على أصالة مجتمع ما فى جوانبه المتعددة من المحافظة على أصالة ثقافته التى ينبنى عليها وكذلك لا بد لتغيير معالم مجتمع ما من تغيير أصول ثقافته .

وأحب أن أفرق تفريقاً واضحاً لا لبس فيه بين التطور والتغير . فالتطور سنة طبيعية حتمية لا مفر منها للحى ما دامت تسرى فى عروقه الحياة وهو عمل داخلى ذاتى يتسق فى مجراه العام مع أصول الثقافة العريقة للمجتمع ويهتدى بهديها وينطلق مع امتدادها الرحيب ، وقد يتأثر بعوامل خارجية ، ولكن تأثره بها يتم عن طريق الاختيار والانتخاب ثم الهضم والتمثل بحيث تكون هذه العوامل الخارجية متسقة مع تلك الأصول الراسخة حتى تستطيع أن تصبح جزء طبيعياً من تراث المجتمع ومقوماته .

وأما التغير فأمر فيه تدبير مقصود تفرضه عوامل خارجية ، يختار لها فى الغالب ظروف ووسائل وأساليب تنتهى كلها إلى المباعدة ما بين المجتمع وثقافته الأصيلة بحيث يسهل بعد ذلك أن تستبدل بجوانبه القديمة جوانب جديدة .

ويبدو أن ماتم خلال القرن الأخير فى مجتمعنا العربى هو فى معظمه تغيير مدبر مقصود وليس تطوراً متدرجاً . فالاحتلال الأجنبى لوطننا العربى أولا وتقسيم هذا الوطن إلى دويلات ثانياً ، لم يكونا غايتين فى ذاتهما ، وإنما كانا وسيلتين وقتيتين تفضيان إلى تغيير جوانب المجتمع العربى .

فما أن تم الاحتلال ثم التقسيم حتى بدىء فى تنفيذ سياسة ثقافية ذات فلسفة تعليمية تربوية تقوم على دعامتين : الأولى : العمل المتدرج البطىء المتستر لاقتلاع الجذور العميقة لثقافتنا العربية الإسلامية الأصيلة التى نبت مجتمعنا

وحافظت على وحدته وتماسكه خلال ثلاثة عشر قرناً وفجرت فيه طاقته الحضارية التى كونت حلقة واضحة المعالم فى سلسلة الحضارة العالمية : أخذت مما قبلها ومما حولها أخذاً بصيراً واعياً متمثلا هاضماً، وأعطت لما حولها وما بعدها كثيراً من العوامل والأسس التى قامت عليها الحلقات التالية من الحضارة العالمية .

ثم هذا العمل المتدرج البطىء المتستر فى وزارات المعارف التى أقيمت فى أقطار الوطن العربى بعد أن قسم هذا الوطن ، ووضع لهذه الوزارات مستشارون من الأجانب رسموا سياسة التعليم فيها ، ولم نستطع أن نتبين خطرها وندرك تأثيرها إلا بعد أن آتت ثمارها وحققت رسالتها ، وكذلك تم هذا العمل المتدرج البطىء المتستر فى دوائر الاستشراق التى تولت العبء وحدها فى بداية الأمر إلى أن حمله بعضنا عنها حين تتلمذنا لها ، فتخلت عن أكثر الأمر بعد أن مكنت له فى نفوسنا وعقولنا .

وهكذا فصلنا فصلا تدريجياً عن مقومات ثقافتنا الأصيلة ، فجهلناها ، واستهنا بها ، وأصبحنا نسخر منها، بل صرنا نخجل من معرفتها ونتبرأ منها حتى لا نوصم بالجمود والرجعية والتأخر .

أما الدعامة الثانية بعد اقتلاع الجذور العميقة لثقافتنا العربية الإسلامية ، فهى غرس ثقافة جديدة مستوردة استعبدت عقولنا واسترقت نفوسنا حتى أصبحنا مشدودين إلى أصحابها مربوطين بهم ، ندين لهم بالولاء الثقافى فكراً ونفساً .

وحين يقضى على مقومات الثقافة الأصيلة فى المجتمع ، وتقتطع من جذورها التى تمدها بالغذاء الطبيعى من باطن تربتها ، وتفنى أصولها السليمة التى تضم عناصر الحياة والنماء ، حينئذ يبقى المجتمع أشبه بجذع مبتور قائم على سطح الأرض له فروع وأغصان ، يحسب نفسه ويحسبه الراءون شجرة نامية ثابتة الجذور والأصول ، ولكن الواقع أن جذوره — إن كانت له جذور — مجلوبة من تربة أخرى ، موصولة وصلا بجذع الشجرة ، تغذى وتروى كما يراد لها وحين يراد تغذية وريا صناعيين فتنمو نمواً غير طبيعى لا يلبث هذا النمو نفسه أن يحتاج إلى علاج جديد، فتحقن الشجرة بحقن صناعية وتطعم بأنواع مستوردة من النبت وترش بضروب من المساحيق ، فتكتسب من جديد نمواً ظاهرياً وتمدداً شكلياً تحسبه حياة متطورة سليمة ، فتنصرف من إدراك السبب الحقيقى الأصيل لما تعانى .

وبعد ،

فإن الدعوة إلى إغلاق منافذ الحياة الحديثة على أنفسنا ، وانقطاعنا عن الحلقة القائمة من الحضارة دعوة تحمل فى طياتها العقم والتحجر والجمود ثم الموت .

وإن الدعوة إلى قبول ما يفرض علينا من ألوان خاصة غريبة عنا من الفكر والمثل والمشاعر ، دعوة تحمل فى طياتها الخضوع لهذا الغزو الثقافى ، وستنتهى بنا إلى الدمار والفناء .

والسبيل الصحيحة أن نعرف أولا أنفسنا ، ونكشف عن مقومات ثقافتنا الأصيلة ، ونحس بوجودنا الحقيقى ثم نأخذ مانريد لا مايراد لنا ، ونختار ما نحتاج إليه لا مايفرض علينا ، نطعم به جذورنا العميقة ومقوماتنا الكامنة حتى تندفق فيها الحياة من جديد وتنطلق تؤدى رسالتها ، وتحقق حلقة جديدة فى سلسلة الحضارة ، حلقة نصنعها نحن ، تنبعث من نفوسنا ، وتندفق من ينابيعنا ، وتنمو فى تربتنا ، وتحمل طابعنا .

الرعاية الصحية للبيت العربى

للدكتور عبد الوهاب البرلسى

(خبير الجامعة العربية)

نعنى بالرعاية الصحية للبيت العربى أن يكون كل فرد فى هذا البيت متمتعاً بكامل الصحة الجسمية والنفسية ، وأن يكون البيت نفسه قائماً فى بيئة صحية خالية من الأمراض ومسبباتها .

ويشمل هذا التعريف البسيط العديد من المعانى ويستدعى تنفيذها تخطيطاً شاملا للصحة العامة فى جميع المستويات .

فمعنى أن يكون كل فرد متمتعاً بكامل الصحة أن نبدأ برعاية الطفل الصغير ، فرعاية الطفولة أساس لتنشئة جيل سليم معافى خال من الأمراض والعلل . ولا تبدأ رعاية الطفولة بعد ولادة الطفل فقط بل تسبق ذلك بوقت طويل . . فتبدأ تلك الرعاية بالعمل على تعميم فحص الراغبين فى الزواج لضمان خلوهم من الأمراض الجسمية والعقلية أو التى تنتقل من الوالدين إلى النسل بالوراثة ، ثم تأتى بعد ذلك رعاية الجنين منذ بدء الحمل ورعاية الأم خلال تلك الفترة بالفحص الطبى الدورى ووصف الغذاء الكافى والدواء اللازم لضمان ولادة طفل طبيعى سليم .

ثم تلى ذلك رعاية الطفل نفسه فى فترة الرضاعة وهى فترة حساسة جداً تزداد فيها نسبة الوفيات فى المجتمعات الصغيرة نظراً لسوء التغذية وافتقار البيت إلى الشروط الصحية ، والتراخى أو عدم القدرة على استغلال الخدمات الطبية التى تقضى على المرض فى بدايته . ومرد ذلك كله فى الغالب إلى ضعف المستوى الاقتصادى والمستوى الثقافى لتلك المجتمعات .

وتشمل رعاية الطفولة ، كى تؤتى ثمارها فى تنشئة جيل سليم على الموضوعات التالية :

١ — فحص الأطفال دوريا خلال العامين الأولين من حياتهم لتنظيم غذائهم وعلاجهم المبكر من الأمراض الوافدة .

٢ — تحصين الأطفال فى السن المبكرة ضد الأمراض الوبائية وأهمها الدفتريا والسعال الديكى وشلل الأطفال .

٣ — نصح الأمهات وإرشادهن إلى وسائل التغذية اللازمة للأطفال بل وإعطاء الأغذية الاضافية كاللبن والفيتامينات مجانا للفئات الحساسة منهم .

٤ — تعميم دور الحضانة وخاصة للأمهات العاملات كى لا يهمل الأطفال وتهمل رعايتهم وتنشئتهم نشأة صحية .

٥ — تنظيم النسل وتعميم طرق الإرشاد للأمهات حتى يمكن — على قدر الإمكان — الإفساح بين فترات إنجاب الأطفال محافظة على صحة الأم وتمكينها من تربية أطفالها وبذل الرعاية الواجبة لهم .

هذا عن الأطفال وهم — كما ذكرنا — حجر الزاوية فى تنشئة جيل سليم .

تأتى بعد ذلك مرحلة الكبار ، وواجب رعايتهم وإرشادهم حتى يكونوا متمتعين بالصحة الكاملة على الدوام . . ومعنى الصحة الكاملة أن نعمل على وقاية الأفراد من الأمراض بمكافحة الأوبئة والأمراض المتوطنة والقضاء على مسبباتها .

ولتحقيق ذلك وجهتان :

الأولى : واجب الدولة فى القضاء على الأمراض المتوطنة بعد دراسة علمية شاملة لأسبابها ووضع البرامج الكفيلة بالقضاء عليها فى فترة محددة ، مثال ذلك القضاء على الملاريا بردم البرك والمستنقعات حيث يتوالد البعوض المسبب للملاريا والقضاء على البلهارسيا بمنع التبول والتبرز فى مجارى المياه . وليس ذلك كله بالأمر السهل الهين فهو مرتبط بعادات الناس وبمستواهم الثقافى والاقتصادى ويحتاج الأمر إلى الكثير من الجهد ومن نشر وسائل التثقيف الصحى حتى يساهم الافراد مع المسئولين فى القضاء على تلك الأوبئة . وثمة بادرة طيبة ظهرت فى السنوات الأخيرة وهى اهتمام هيئة الصحة العالمية بتلك المشاكل ومحاولتها بحث أسبابها ووضع البرامج الكفيلة بالقضاء عليها على نطاق دولى .

والثانية : توفير الخدمات الطبية اللازمة للأفراد بحيث يجد كل فرد علاجه ودواءه إذا ما احتاج إليه وبحيث لا يكون حصوله على تلك الخدمات مشروطا بمقدرته المادية بل بمجرد حاجته إلى الرعاية الطبية، ولا يتوافر ذلك إلا فى مجتمع اشتراكى تعاونى يتعاون أفراده معا ومع السلطات الحكومية المختصة لتوفير وسائل التشخيص والعلاج لكل فرد وبحيث يساهم كل قدر استطاعته فى تمويل الخدمات الطبية اللازم توافرها للمواطنين جميعاً . ولا يتسع المجال هنا لسرد تفاصيل نظم الخدمات الطبية المختلفة التى تحقق الأهداف السالفة الذكر، إنما نعود ونؤكد مرة أخرى أن شرط حصول الفرد على خدمة طبيـــة يجب أن يكون مرهونا فقط بحاجته إليها مهما كانت مقدرته الاقتصادية .

ذكرنا أيضاً أن توافر البيئة الصحية هو من مقومات تمتع الفرد بصحة كاملة ونقصد بالبيئة الصحية أن يكون المسكن متسعاً بشكل يتناسب مع عدد أفراد البيت نظيفا خاليا من الفضلات والحشرات الناقلة للأمراض ، قائماً فى وسط صحى نظيف، ويلزم لذلك كله دراسة تخطيط المدن والقرى بشكل يضمن اتساعها لتطور العمران ، والاهتمام بنظافتها وحسن تنسيقها. ويلزم لذلك كله تخطيط لتلك المدن والقرى الجديدة وإعادة تخطيط وبناء القديم منها تبعاً للسياسة السالفة الذكر ، بل ويلزم أيضاً إرشاد الأفراد ، وخاصة محدودى الثقافة ومحدودى الدخل، وتثقيفهم صحياً حتى يحافظوا على النظافة الشخصية ونظافة المسكن والبيئة التى يعيشون فيها .

ويكمل ذلك كله الاهتمام بالتغذية وقد سبق أن أشرت إلى غذاء الطفل والأم وخاصة فى الفترات الحساسة

كالحمل والرضاعة ، ونشير هنا إلى الاهتمام بالإرشاد الغذائى فالأغذية مهما كانت بسيطة ورخيصة فيها المفيد وفيها قليل الفائدة ، ويلزم إرشاد الأفراد إلى ما يفيدهم كل فى نطاق مستواه الاقتصادى . ويسبق ذلك دراسة للعادات المحلية للتغذية والإفادة من تلك العادات فى الإرشاد الغذائى للأفراد .

ويتضح مما سبق العلاقة الوثيقة بين المستوى الصحى الذى سيتمتع به الأفراد وبين المستوى الثقافى والاقتصادى ومدى الترابط بين تلك العوامل وتأثير أحدها فى العاملين الآخرين ، ويتضح تبعا لذلك أهمية ارتباط نواحى الإصلاح فى تلك الميادين المختلفة ، فالاصلاح وحدة لا تتجزأ ويصعب التغلب على المشاكل الصحية إذا لم يصاحبها علاج للمشاكل الثقافية والاقتصادية . فالارتفاع بمستوى المعيشة والعمل على زيادة الدخل ونشر التعليم والثقافة العامة ثم نشر برامج التثقيف الصحى ، كل ذلك مما يسهل مهمة القائمين على أمور الرعاية الصحية للبيت العربى . . .

الرعاية الاجتماعية للبيت العربى

للأستاذ يحيى حسن درويش

(ج.ع.م)

لا شك فى أن الزملاء الذين سبقونى والزملاء الذين سيتناولون بعض أطراف الموضوع من بعدى يتناولون جميعاً جانب الرعاية الاجتماعية ، فالمسكن والإسكان رعاية اجتماعية ، والرعاية الروحية والخلقية أساس للرعاية الاجتماعية وكذا ثقافة البيت العربى وصحته ؛ ثم المرأة فى البيت العربى ، ثم حماية المرأة العاملة والحدث العامل وأخيرا الرعاية الترويحية. كل هذا يمكن أن نتخذه ونتناوله تحت عنوان الرعاية الاجتماعية . . فالرعاية الاجتماعية يمكن أن تشمل كل هذه الجزئيات.

ولكن لما كان الجزء المحدد لى هو الرعاية الاجتماعية للبيت العربى ، فلا بدمن أن أتناوله فى هذه الندوة ولابد من أن أشارك فى توضيح نقاط هذا الموضوع الهام .

فالأسرة هى القاعدة البيولوجية والحضارية للمجتمع وتحقيق التفاهم والتعاون بين أفراد الأسرة وبين المجتمع هو سبيل الاستقرار الاجتماعى

ونحن العرب نعيش فى مجتمع متطور متغير نؤثر فى غيرنا من الحضارات ونتأثر بها ، خاضعين فى كل ذلك للكثير من عوامل التغير الاجتماعى الحتمية ، ولذلك يجب العمل على احتفاظنا بتراثنا الأصيل وبالأنماط المختلفة فى تقاليدنا الصالحة وعاداتنا النافعة ، ثم الأخذ بالأساليب الجديدة من الحضارات المعاصرة التى نفيد منها والتى تلائم حضارتنا الخاصة. ولاشك فى أن نجاح الخدمات فى ميادين الرعاية الاجتماعية يتوقف على أسلوب أدائها ، فالخبرة المهنية والتخصص شرطان أساسيان لتوصيل الخدمات إلى المواطنين .

والأصل فى هذه الخدمات أن تقوم على تخطيط سليم ولهذا يجب أن يسبق التخطيط أى جهد تقوم به الدولة والهيئات لتوفير الخدمات .

ولا بد من أن تقوم الدراسات والأبحاث الممهدة لتنفيذ برامج الرعاية للبيت العربى على أسس إحصائية سليمة وذلك باتباع الخطوات التالية :

(ا) إيجاد جهاز إحصائى كجزء أساسى من أجهزة الخدمات العامة يقوم بجمع البيانات .

(ب) إجراء دراسات مسحية للمشكلات المتصلة بالبيت العربى على ضوء هذه الدراسات الإحصائية .

(ج) وضع البرامج فى نطاق التجربة والاختبار .

كما أن معالجة المشكلات الاقتصادية للبيت العربى لا تتطلب جهوداً لمعاونة الأسرة ذاتها فحسب ، بل تتطلب جهوداً على المستوى العربى والقومى لزيادة الدخل بالدول العربية وحسن توزيعه بين أفراد المجتمع ، ويمكن الأخذ بأنظمة

الضمان الاجتماعى التى تشمل المساعدات والتأمينات الاجتماعية وذلك بقدر ما تسمح به إمكانيات وظروف كل بلد عربى، والاهتمام بتوفير الأسس والمقومات التى تحقق التكامل العائلى ، وبصفة خاصة تيسير العون المادى للأسرة عند العجز عن تدبير مواردها المالية بنفسها .

ولما كانت الأسرة هى الخلية الأولى فى تكوين المجتمع ، ولما كانت بعض الأسر تتعرض لعوامل التفكك ، لهذا كان من الواجب توفير النظم البديلة فى الأسر أو المؤسسات الاجتماعية . ويتعين دائما أن تتوفر فى هذه النظم جميع مقومات الأسرة الطبيعية فى النواحى التربوية والروحية والنفسية حتى تكفل للأفراد نمواً طبيعيا .

كما أن من أوجه الرعاية الاجتماعية للبيت العربى توفير مكاتب خاصة لرعاية الأسرة وتقديم الخدمات لها وإرشادها إلى مايحقق قيام أسرة متكاملة يسودها الوئام والتعاون والانسجام والمودة والجو الأسرى وكذا مكاتب الخدمة الاجتماعية الملحقة بمحاكم الأحداث لعلاج المنحرفين من الأطفال وتوجيههم نحو حياة آمنة منتجة، وكذا توفير المؤسسات الاجتماعية للأطفال الذين يتضح من البحث الاجتماعى عدم صلاحية بيئتهم المنزلية للبقاء فيها ، وكذا الأخذ بنظام الإشراف الاجتماعى بمعاهد التعليم على اختلاف مراحله حتى تصبح المدرسة مكملة لمهمة البيت وعاملا من عوامل الإصلاح والتوجيه .

وإن توفير مؤسسات التأهيل المهنى وتوجيه ذوى العاهات وتوفير مؤسسات رعاية المسنين من الرجال والنساء ومؤسسات رعاية اللقطاء من الأطفال والاهتمام بإنشاء المؤسسات التى تعنى بتشخيص المشكلات الفردية الخاصة بالأسرة وتحقيق سبل علاجها على أساس الاستشارة والتوجيه وتبصير أصحاب الشأن بنوع المشكلة وطرق علاجها بالتعاون مع الهيئات والمؤسسات الاجتماعية المختلفة حكومية كانت أم أهلية على أن تكون هذه المؤسسات على صلة بالمحاكم المختصة بشئون الأسرة لتعاون القاضى فيما يعرض عليه من أمور ، والاهتمام برعاية الأمهات العاملات وذلك بإنشاء دور حضانة وتربية تعنى بأطفالهن أثناء العمل . والعمل على علاج المشكلات التى تنشأ عن اشتغال المرأة المتزوجة بما يوفق بين عملها ومسئولياتها فى رعاية زوجها وأولادها داخل البيت . ومواجهة المشكلات الاجتماعية العامة والفردية التى قد تصيب بعض فئات المجتمع كالأرامل والأيتام والعجزة والمسنين والمشردين والأمهات غير المتزوجات وذوى العاهات عن طريق توفير وسائل الرعاية والخدمات المختلفة وإصدار التشريعات اللازمة . وتقدير أهمية أوقات الفراغ التى سيعرضها أحد السادة الخبراء .

كل هذا وذاك يدخل فى نطاق الرعاية الاجتماعية للبيت العربى ، وكل وجه من أوجه هذه الرعاية يحتاج للكثير من التفاصيل ، لكنى رأيت أن أقدمها فى هذا العرض السريع الشامل فى حدود الوقت المقرر لى فى هذه الندوة العامرة والله يوفقنا جميعا لدعم البيت العربى وخدمته ؟

المرأة فى البيت العربى

للسيدة فاطمة محمد بهى الدين

(ج.ع.م)

لا شك أن موضوع البيت العربى وهو الموضوع العام الذى تعالجه الحلقة قدتناول المرأة بالبحث والدراسة . وبين مكانتها وأثرها عبر العصور المتعاقبة فى المدن والريف وما لها من حقوق وما عليها من التزامات فى شتى النواحى المختلفة . ذلك لأهمية الدور العظيم الذى تقوم به فى بناء المجتمع لأنها لاتكون نصف المجتمع فحسب ، بل هى أيضاً تسكب من روحها ولاتضن بنفسها وجهدها ووقتها وما حصلت عليه من تجارب وثقافات وحكم أخلاقية فى سبيل تربية أبنائها . فهى إذن كلما كانت واعية مثقفة متبصرة متفاعلة مع الأحداث التى تحيطها كلما كان لها أثر جليل فى تكوين جيل صالح — ووظيفة المرأة الأساسية هى إنجاب الأبناء والعمل على مشاركة الزوج فى خلق بيئة اجتماعية ملائمة لتربيتهم وتنشئتهم تنشئة سليمة من النواحى الجسمية والعقلية والعاطفية وكذلك تكوين جو عائلى يدعم المحبة ويخفف حدة التوتر والإجهاد النفسى فى مكافحة الحياة ومغالبة العيش ويساعد على تدعيم الحياة الزوجية بما ينتجه من إفساح المجال للنمو الاجتماعى والثقافى والاقتصادى لأفراد الأسرة. ثم عليها أن تتحمل مسئولية إدارة شئون البيت وما يتبع ذلك من التزامات فهى عليها أن تنظم ميزانيتها بقدر من التدبير وحسن التصرف فى حدود موارد الأسرة فتكون معتدلة لاتبذر ولا تقتر .

ولأهمية المرأة البالغة فى بناء المجتمع، أرى أنه لا بد من أن تدعم حياتها بضمانات تعينها على التغلب على الصعاب التى تقابلها وتجعلها مستقرة فى بيتها الزوجى .من هذه الضمانات ما يكون تشريعياً أو قضائياً أو تعليميا أو اجتماعياً .

أما الناحية التشريعية : فلا يعقد إشهار طلاق إلا عن طريق القاضى بالنسبة لكلا الطرفين ، الزوج والزوجة على قدم المساواة . وبذلك يستطاع القضاء على حالات التعسف وسوء استعمال السلطة من جانب واحد . وعندئذ لا يبنى الطلاق إلا على أسس تقدرها المحكمه كحالات الزنا والأضرار الجسيمة الناشئة عن القسوة المفرطة والهجران وعدم الإنفاق والعته والجنون وإدمان المسكرات وغير ذلك مما يقره القاضى عند الاحتكام.

وفى حالات تعدد الزوجات . يجب ألا يعقد زواج جديد إلا عن طريق القاضى أيضاً وبشروط معينة يتحقق منها حكمة التعدد . فلا يعقد زواج جديد إلا لضرورة ملحة تراها المحكمة وتقدرها كالعقم والمرض المستعصى — وهنا تقدر المحكمة قدرة الرجل على القيام بالتزاماته الزوجية القديمة ومدى استطاعته العدل بين زوجاته بالصورة التى تطمئن إليها .

أما الناحية القضائية فتتلخص فى إيجاد مجلس استشارى أو مكتب لشئون الأسرة إلى جانب المحكمة لبحث الخلافات بين الزوجين ومحاولة إصلاح ذات البين على أساس بحث المشكلة وتكييفها تكييفاً عملياً ، وعلى أساس استعراض المحكمة لهذا البحث ونتيجته وبعد استنارتها بجميع الظروف المحيطة بالزوجين يستطيع القاضى أن يحكم بالطلاق أو يرفضه .

أما الناحية التعليمية فتتلخص فى إعداد الفتاة للزواج والحياة العائلية فتكون التربية الجنسية مادة مهمة من المواد الدراسية التى تتعلمها فى شتى مراحل التعليم المختلفة. مع إيجاد السبيل التى تكفل الجمع بين الجنسين فى علاقات إنشائية مفيدة كالإكثار من النوادى والندوات والرحلات والجمعيات المتنوعة فى أغراضها — فيكون بينهما تعاون مشروع . فلا تترك العلاقات بينهما للصدفة واقتناص الفرص فتؤول إلى الهدم لا البناء. ولا بد من توجيه المرأة توجيهاً مهنياً يعدها للحياة حتى تتحسن الأحوال الاقتصادية وترتفع مستويات دخل الأسرة بما يكفل لها استقراراً اقتصاديا .

لقد كانت المرأة فى البيت العربى قاصرة مجهودها على خدمة زوجها وأولادها داخل المنزل . ولكن الوضع قد تغير ونالت المرأة فى كثير من المدن العربية قسطاً وافراً من التعليم . وكان عليها أن تعمل وتكدح حتى تكون عضواً عاملا يساعد على بناء مجتمع سليم ، ولكن إذا كان عمل المرأة العربية قد أضاف طاقة جديدة من النشاط المثمر فى حياتنا ومجتمعنا بأنه قد أوجد مشاكل نجمت عن عدم تفرغها كلية لبيتها وأولادها . فهل استطاعت المرأة أن توفق بين المنزل والعمل ، بحيث لا تتأثر مسئوليتها التى أوضحتها سابقاً لسبب عملها ؟ أظن أن المشكلة تحتاج لمناقشة خاصة وأن عدد المرأة العاملة آخذ فى الازدياد نتيجة للتطور الاجتماعى والتقدم العلمى — فهى إن تقاعست عن العمل أصبح نصف أعضاء المجتمع مشلولا — وحرمت أسرتها من زيادة مالية قد تؤدى إلى رفع مستواها اقتصادياً . وإن استمرت فى العمل تعرض أولادها للإهمال ومنزلها للفوضى والاضطراب . ولكى تستطيع المرأة من أداء رسالتها فى المنزل وخارجه — أرجو المسئولين أن يهيئوا للمرأة العاملة رعاية اجتماعية تمكنها من أداء واجبها تجاه بيتها وعملها كأن تمنح إجازة ملائمة إذا حملت وأصبحت فى شهرها الأخير حتى تضع حملها فى سلام وأن تستمر الأجازة بعد الوضع شهراً آخر . ثم إذا عادت لعملها صرح لها بالتأخر ساعة فى الحضور عن ميعاد العمل الرسمى . حتى تستطيع إرضاع طفلها وتهيئة ما يلزمه أثناء غيابها فى عملها . ومن المهم جداً الإكثار من دور الحضانة فى الأحياء المختلفة بأجر يجعل فى مقدور الأم العاملة إلحاق أطفالها بها ، وأن يكون بهذه الدور من الرعاية ما يطمئنها على طفلها فتتفرغ لعملها.

وإننى لا أنسى أن أقرر أن مسألة تنظيم النسل تساعد المرأة على القيام بأعبائها فهى من ناحية لا تكون مرهقة بحمل متكرر ينال من صحتها ، ومن ناحية أخرى تستطيع أن توائم بين ميزانيتها وعدد أفراد الأسرة . لهذا فأنا أطالب بالإكثار من مكاتب الأسرة لتبصير النساء بضرورة تنظيم حملهن — خاصة فى الدول الآهلة بالسكان .

وأخيراً فأنا أهيب بالمسئولين أن يساعدوا المرأة فى أن تنال هذه الحقوق — ففى حصولها على هذه الحقوق ومساعدتهم لها تخليص للبيت العربى من كثير من الأضرار اللاحقة به . والله الموفق ؟

البيت العربى ووفيات الأطفال

للدكتور عبد الكريم اليافى
(ج.ع.م.)

الأسرة فى المجتمع كالشجرة فى الحقل كلتاهما تؤلف وحدة أساسية للدراسة وكلتاهما ينبغى أن تكون موضع التعهد والعناية ، وكما أن العناية بالحقل يقتضى بالضرورة العناية بالأشجار كذلك الاهتمام بالمجتمع يقتضى الاهتمام بالأسر . ولا بد من أن يتناول هذا الاهتمام جميع جوانب الأسرة .

هذا وإن من مزايا الإنسان العربى حبه للأسرة وتعلقه بها وإخلاصه العميق لها وبذله كل غال فى سبيل إسعادها ورفاهيتها ، وكذلك من مزايا الأسرة العربية تكافل أفرادها ومسئولية بعضهم عن بعض ، ولست هنا فى صدد البحث عن أشكال هذا التكافل من حقوق الوالدين ورعاية الزوجين أحدهما للآخر ورأفة الآباء بالأبناء وصلة الرحم ، فهذا كله متعارف ومتعالم وجار فى دماء الناس وعاداتهم ، وإنما أريد أن أبحث فى جانب حيوى غض من بنيان الأسرة يحتاج أشد ما يحتاج فى العصر الحاضر إلى كثير من التعهد والعناية إذا قيس بما هو حاصل فى البلاد الأجنبية المتقدمة وهو قضية وفيات الأطفال .

وكما أن العناية بالأشجار تحول دون تساقط أزهارها وتزيد فى عقد ثمارها ، كذلك العناية بالأسر تستلزم تقليل وفيات أطفالها .

إن وفيات الأطفال مرتفعة نسبياً بالحال الطبيعية عند جميع الشعوب وفى جميع الصور . يبدو أن كل إنتاج أياً كان نوعه مادياً كان أم حيويا لابد أن يلازمه نصيب من التلف ، بيد أن تقدم الحضارة يؤدى إلى نقصان هذا التلف أياً كان إلى أصغر حد ممكن ، وإذا كان الأمر كذلك فلا عجب إذا وجدنا أن لكل مجتمع نسبة معينة لوفيات الأطفال مرتبطة بدرجة تطوره ، وأن هذه النسبة معيار عددى يستند إليه أحيانا فى الدراسات الاجتماعية لبيان مدى تقدم المجتمع عامة لا من الوجهة الصحية فقط ، لأن الأمور الصحية والاجتماعية والاقتصادية وأمثالها متشابكة متضامنة متساندة . وقد ظهر من الدراسات الاجتماعية الحديثة أن هذا الجانب الغض من الأسرة يتلقى إلى مدى كبير آثار التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية العامة .

لقد انتبه المفكرون منذ قديم الأزمان إلى زيادة وفيات الأطفال ولا سيما فى الأيام الأولى بعد ميلادهم . ذكر أرسطو : « إن أكثر الأطفال يموتون قبل تمام الأسبوع الأول ، ولذا إنما تطلق عليهم الأسماء عندئذ لأن نصيب نجاتهم من الموت يزداد بعد ذلك » .

وكذلك عجب أبو العلاء المعرى فى القرن الخامس الهجرى لهؤلاء الصغار الذين يفدون إلى الحياة ثم لا يلبثون أن يغادروها ، وأشار إلى ما يقع فى ذلك من ضياع فى الأنفس الإنسانية تذهب هدراً ، ويلتمس لهذا الضياع شبهاً حسياً قريبا منا فيجد أعمارهم كالأثواب تبلى وهى جديدة دون أن تلبس ويستفاد منها فهو يقول :

وأعمار الذين مضوا صغارا كأثواب بلين وما لبسنه

لننظر قبل اعتماد البحث العلمى الإحصائى الصرف فى آثار ارتفاع هذه الوفيات وما يجره من خسائر ومن تبديد طاقات نفسية وفيزيولوجية واقتصادية ، وما يجتلب من عواقب ديمغرافية .

ربما كان من أدهى المصائب وأشدها وقعا على نفوس الآباء والأمهات ثكل المولود الصغير الجديد بعد الاستعداد الطويل لمجيئه والفرحة به ، فلا تكاد بسمة الاستبشار لقدومه تلمع حتى يحجبها ظلام الردى العميق ، ولا يكاد الطفل ينعم بحجر أمه الرؤوم وطراوة المهد الوثير حتى يلقى — ولو استمسكت به الأيدى والقلوب — فى حفرة اللحد القاسية.

إن أدبنا العربى الذى قل أن يماثله أدب عالمى فى اتساعه وتفاوت أغراضه وتطاول عهوده قد سجل نبرات هالعة نفث فيها الآباء عند فقدهم أبناءهم الصغار مرير ألمهم وحرقة أكبادهم ، وإن ما قاله بشار وابن الرومى وأمثالهما فى هذا الموضوع صورة متجسدة لذلك الألم ولتلك الحرقة ، منذا الذى لا يذكر أبيات ابن الرومى الحزينة :

لقد قل بين المهد واللحد لبثه فلم ينس عهد المهد أو ضم فى اللحد
ألح عليه النزف حتى أحاله إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه ويذوى كما يذوى القضيب من الرند

أو أبياته الأخرى التى هى ضرب من النشيج :

أبنى إنك والعزاء معا بالأمس لف عليكما كفن
تالله لا تنفك لى شجنا يمضى الزمان وأنت لى شجن
ما أصبحت دنياى لى وطنا بل حيث دارك عندى الوطن
أولادنا أنتم لنا فتن وتفارقون فأنتم محن

ثم لننظر فى صحة الأمهات كيف تتأخر عند تكرر الولادات بصرف النظر عن لوعتهن وكيف يتعرضن عند المخاض وبعده لبعض الأمراض التى قد تودى بحياتهن وتطيح بهن فى غائلة الهلاك . إن الحمل والولادة أمر ذو شأن فى حياة الأسرة فينبغى إذا حصلا أن ينتهيا إلى ثمرة سليمة تكتب لها الصحة والحياة السليمة وإلا كان الأولى تحاميهما . فنى الحمل والولادة هدر لصحة الأم ونقص لقواها لا فائدة منه إذا لم يعش طفلها المولود .

وكذلك مجىء الأولاد يقتضى نفقات متعددة من إعداد قمط وثياب ومن عيادات طبيب أو قابلة ومن ولائم فى بعض الأحيان . والأم الحامل فى أغلب مدة الحمل وعند الوضع وبعده لا تستطيع أن تقوم بأعمالها بل هى فى حاجة إلى عناية وإلى مأذونية إذا كانت موظفة أو تشغيل وكذلك الطفل يحتاج فى السنين الأولى من حياته إلى نفقات وتكاليف فإن مدة رأمه طويلة وكل تلك النفقات والتكاليف تضيع سدى وهدرا إذا مات الطفل ولم يعمر .

ثم أن وفيات الأطفال ذات أثر واضح ومحسوب فيما يمكن أن ندعوه باللغة العربية الأجل المرتقب أو المتوسط . وهى التى تجعله يتفاوت جداً بين بعض البلدان وبعضها الآخر ، فالأجل المتوسط عند الولادة يزيد فى السويد على

السبعين سنة ، فى حين لا يكاد يصل فى بعض البلدان إلى خمسين سنة . وقد كان فى الهند سنة ١٩٥٠ حول الثانية والثلاثين .

لا غرو بعد ذلك كله إذا تبوأت دراسة وفيات الأطفال مكانة كبيرة فى العصر الحاضر . ولابدمن بيان مانقصد به الآن من لفظ وفيات الأطفال أو الرضع . فهذا كما هو معلوم مصطلح يراد به وفيات المواليد قبل أن يتموا السنة الأولى من أعمارهم وينسب عدد هذه الوفيات إلى مجموع المواليد فى غضون السنة فتحصل معنا نسبة وفيات الأطفال السنوية .

إن المباحث الإحصائية الحديثة أبرزت اشتباك المجتمع والأسرة معا وتأثر كل منهما بالآخر ، ولا سيما فى هذا الموضوع . ذلك أن وفيات الأطفال ليست قضية خاصة بالأسرة وحدها بل هى أيضا قضية تابعة لتنظيم المجتمع ، إذ كانت نسبتها تختلف باختلاف المجتمعات من جهة وتتطور مع الزمان من جهة ثانية ، فهى تنقص كلما تقدم المجتمع وجادت الأحوال الصحية فيه . ومن المناسب أن نعطى أمثلة على هذا التطور وعلى هذا الاختلاف توضح الغاية التى نقصد إليها :

ففى السويد كانت وفيات الأطفال ١٠١ فى ألف مولود سنة ١٩٠١ ـ ثم نقصت إلى ٢١ سنة ١٩٥٠ أى بعد نصف قرن . وأصبحت ١٧,٤ فى سنة ١٩٥٥ وهى أصغر نسبة معروفة فى الوقت الحاضر . فالسويد فى طليعة البلاد من هذه الوجهة . ووفيات الأطفال بلغت سنة ١٩٥٥ فى بريطانيا ٢٥,٧ بالألف وفى الولايات المتحدة ٢٦,٥ ، وفى فرنسا ٣٨,٦ وفى استراليا ٥٠,٩ وفى بولونيا ٨٢ وفى شيلى ١٢٠,٨ وفى بورما ١٧٧,٦ وكانت وفيات الأطفال فى جميع هذه البلدان مرتفعة فى الماضى .

ولا يذيع الاتحاد السوفياتى إحصاءات بوفيات الأطفال ، ويظن أنها لاتزيد على ٢٣ فيه . وقد انخفضت نسب الوفيات فى البلاد الاشتراكية انخفاضا كبيراً ولعل مثال الصين الشعبية من أقوى الأمثلة فلقد كانت وفيات الأطفال فيها حول المائتين فى الألف سابقا فنقصت فى العهد الحديث إلى ما حول ٧٥ .

إن هذه الأرقام المقدمة ينبغى أن تؤخذ بصفتها التقريبية لأن كيفية الحساب وشروط اعتبار المواليد الأحياء وتسجيل الأموات منهم كل ذلك يتفاوت بتفاوت المجتمعات . وهذا التفاوت يدخل تغييرا بسيطا على هذه النسب إلا أنها تبقى صالحة للمقابلة والموازنة .

هذا وإننا لانستطيع أن نعطى أرقاما دقيقة عن وفيات الأطفال فى البلاد العربية ، ولكن بعض الاستخبارات التى صنعتها دائرة الإحصاء فى الإقليم السورى ، وبعض الإحصاءات المتوافرة فى الإقليم المصرى تظهر أنها لاتزال مرتفعة وكانت فى بداية الثورة عام ١٩٥٢ حول ١٢٧,٥ ـ ولاشك أنها آخذة بالانخفاض السريع — تفاوت وفيات الأطفال هذا مع الزمان والمكان يوحى أن طائفة كبيرة منها يمكن تلافيها بالتنظيم الصحى . وإذا كان الإنسان مسؤولا عن عمره إلى حد فإن الطفل يبدو كأنه وضع زمام حياته بين يدى المجتمع الذى وفد إليه . فالمجتمع مسؤول عنه . وعلى المجتمع تقع تبعة هلاكه فى الغالب حين يموت . ذلك أن المجتمع بتنظيم الأمور الصحية فيه وحماية الأمهات الحوامل والأطفال وتيسير المعالجة والمداواة يستطيع أن ينقص الوفيات التى تقع بين الأطفال نقصا كبيراً .

وإنما يهلك كثير من الأطفال لفقر أهليهم وعدم اطلاع أمهاتهم على أصول تنشئتهم وزيادة نفقات مداواتهم فى المجتمع إن مرضوا ، وسوء شروط المعيشة التى يعيشونها .

وقد كشف الباحثون عن حقيقة مهمة جدا فى هذا الموضوع . ومن الجدير بالتنويه أن هذا الكشف جاء من جانب الإحصاء وحساب الاحتمال لا من جانب الطب والبيولوجيا . فقد تبين حديثا عند تأمل نسب وفيات الأطفال الشهرية أن وفيات الأطفال يمكن ردها إلى نوعين اثنين ، وفيات ذات عامل داخلى ووفيات ذات عامل خارجى .

فالنوع الأول معناه أن عامل الوفاة فيه قائم فى الطفل نفسه ومتعلق بالوراثة والبنية وبحالة التكون وشروط الوضع ، ولا يمكن تلافيه .

والنوع الثانى معناه أن عامل الوفاة آت من خارج الطفل ومتصل بالبيئة الخارجية التى يفد إليها الطفل ، فلو تغلبنا على هذا العامل بالتعهد والرعاية والعناية لما حصلت الوفاة ، فتبعتها تقع على عاتق المجتمع . ووفيات الأطفال ذات العامل الداخلى إنما تحصل على الغالب فى الشهر الأول بعد الوضع ، على حين تقع وفيات الأطفال ذات العامل الخارجى فى جميع شهور السنة . فهى تقع فى الشهر الاول بعد الولادة كما تقع فى الأشهر الأحد عشر التالية . وقد دل الحساب على أن قيمتها فى الشهر الأول تعادل ربع قيمتها فى مجموع الأشهر الأحد عشر التالية تقريبا .

والمثال يوضح ما نريد . ففى بلد من البلدان مات سنة ١٩٥١ من عشرة آلاف مولود حى ٤٧٢ قبل تمام السنة الأولى هلك منهم ٢٦٨ بعد انصرام الشهر الأول . فاذا أخذنا الرقم الأخير وزدناه بمقدار الربع حصل معنا مجموع وفيات الأطفال ذات العامل الخارجى وهو ٣٣٥ . ثم أن الفرق بين الرقم الأول وهذا الرقم يعطى وفيات الأطفال ذات العامل الداخلى وهى ٤٧٢ ــ ٣٣٥ = ١٣٧ . وأذن ١٣٧، ٣٣٥ هما نسبتا وفيات الأطفال ذات العامل الداخلى وذات العامل الخارجى فى كل عشرة آلاف مولود حى .

وقد تبين أيضاً من الدراسات الحديثة أن العامل الخارجى الاجتماعى يستمر تأثيره فى خلال السنوات الأربع التالية للسنة الأولى فى بعض البلدان التى منها بلاد البحر الأبيض المتوسط .

هذا ولا ريب أن انخفاض وفيات الأطفال فى المستقبل سوف يرفع معدل زيادة السكان السنوية . وهنا نفضى إلى موضوع آخر نمسه مسا رفيقا . فالبلاد العربية بوجه عام فى حاجة إلى هذه الزيادة لأن أكثر أقطارها يقع عدد سكانه تحت ما يمكن دعوته بالحد الموافق .

وازدحام الإقليم المصرى سيتلافاه من دون شك توجه الجمهورية العربية المتحدة إلى إقامة دعائم أنواع الصناعة وزيادة الإنتاج ، لأن الصناعة وزيادة الإنتاج مع الإشراف الواعى على التجارة الخارجية ، ومع تنظيم الموارد الاقتصادية كل ذلك من شأنه أن يستوعب ضغط السكان بيسر خلافا للنظرية الملتوسية التى أصبحت فى العهد الحديث مشكوكا فى صحتها وتعتبرها طائفة كبيرة من الباحثين رجعية . كما أن الهجرة بين البلاد العربية لم تنقطع تياراتها فى غضون التاريخ السحيق . ومن الطبيعى أن تشتد بين الإقليمين الجنوبى المزدحم والشمالى المحتاج إلى الأيدى العاملة فى الجمهورية العربية المتحدة .

ومن المحقق أن انخفاض وفيات الأطفال سوف يستتبع ولو بعد حين نقص معدل المواليد ، لأن الموت والحياة توأمان وصنوان مشتبكان جداً من الناحية الاجتماعية ، ولا شك أن الأجدر والأنسب أن تكون نقطة الانطلاق مكافحة الموت لا مكافحة الحياة .

الخلاصة أن لا بد من رعاية أحوال الأمومة والطفولة فى بلادنا ومن تمهد هذا الجانب الغض من بيتنا العربى بل من بنياننا القومى إن جملة الشعب فى البلاد العربية سليمة وقوية ، وإن أغلب وفيات الأطفال مرجعها العامل الخارجى الاجتماعى .

نحن مدعوون إذن إلى العناية بدراسة قضايا الأمومة والطفولة وإلى إقامة تشريع يكفل تعهد الأمهات الحوامل ويوفر العيادات الطبية لهن ويجعل كل ولادة فى المدينة أو فى الريف لا تقع إلا فى مستشفى أو بإشراف طبيب أو قابلة مختصة . إن وفيات الأطفال ضرب من التضييع فى الرأسمال الإنسانى إن صح هذا التعبير . وفيه إرهاق لصحة الأمهات لا طائل فيه ولا نفع ، هذا عدا الأحزان التى تساور نفوس الأهل عند وفاة الطفل وعدا النفقات التى تصرف وتذهب سدى كما تبلى الثياب دون أن تلبس ، كما جاء فى تشبيه صاحب اللزوميات ، أو كما تتساقط الأزهار دون أن تعقد .

عاشت أطفال العرب فى كل مكان .

حماية المرأة العاملة والحدث العامل

للدكتور عزيز المراغى

(مكتب العمل الدولى)

أصبح لموضوع حماية المرأة العاملة أهمية خاصة فى البلاد العربية نظراً للزيادة المضطردة فى عدد النساء العاملات نتيجة للتطور الاجتماعى والاقتصادى فى هذه البلاد ونتيجة لانتشار التعليم واتساع نطاق حركة التصنيع .

وقد أولت هيئة العمل الدولية منذنشأتها عام١٩١٩ عناية بالغة لهذه المسألة ووقعت ٧اتفاقيات دولية للعمل لحماية المرأة العاملة . وتوجد نصوصها فى المجلد الضخم الذى قامت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بنشره مشكورة باللغة العربية وهذه الاتفاقيات هى :

١ — حماية الأمومة سنة ١٩١٩	اتفاقية رقم	٣
٢ — العمل الليلى سنة ١٩١٩	« «	٤
٣ — تعديل العمل الليلى سنة ١٩٣٤	« «	٤
٤ — العمل تحت سطح الأرض سنة ١٩٣٥	« «	٤٥
٥ — العمل الليلى سنة ١٩٤٩	« «	٨٩
٦ — المساواة فى الأجور سنة ١٩٥١	« «	١٠٠
٧ — حماية الأمومة سنة ١٩٥٢	« «	١٠٣

وقد قامت بعض الدول العربية بالتصديق على عدد من هذه الاتفاقيات نذكر منها على سبيل المثال : الجمهورية العربية المتحدة رقم ٤١ و٤٥ و٨٩ — السودان رقم ٤١ — المغرب رقم ٤١ — تونس رقم٤٥ و٨٩ .

وتنص الاتفاقيةالدولية الخاصة بحماية الأمومة على وجوب إعطاء المرأة العاملة الحق فى أجازة للأمومة لمدة ١٢ أسبوع تتضمن أجازة إجبارية بعد الوضع تحدد بالتشريع الوطنى ولا تقل بأية حال عن ستة أسابيع .

وللمرأة خلال تغيبها عن عملها الحق فى تسلم المزايا النقدية والطبية وتحدد فئات الميزةالنقدية بالتشريع الوطنى بما يكفل المحافظة التامة على صحة الأم والولد طبقا لمايتمشى مع مستوى لا ئق للمعيشة .ويجب أن تتضمن المزايا الطبية رعاية ما قبل الوضع والوضع ومابعد الوضع بوساطة زائرات صحيات مؤهلات أو أطباء وكذلك التمريض فى المستشفى عند الضرورة .

وللمرأة بعد الوضع الحق فى فترات انقطاع عن العمل للارضاع تحتسب كساعات عمل وتدفع عنها الأجور .

وعلاوة على ذلك أقرت هيئةالعمل الدولية عدداً كبيراً من التوصيات الخاصة بعمل النساء فيما يتعلق بتحديدساعات العمل وبالتوجيه والتدريب المهنى والخدمات الاجتماعية الخاصة بتوفير التغذية المناسبة والسكن الصحى والانتفاع

بأوقات الفراغ وتسهيل وسائل النقل والحصول على مختلف الحاجيات والتأمينات الاجتماعية . وقد شكلت حديثا لجنة دولية استشارية لعمل النساء سوف تجتمع فى أكتوبر سنة ١٩٥٩ بمكتب العمل الدولى وسيشترك فيها مندوبة من إدارة العمل بالجمهورية العربية المتحدة .

وأما فيما يتعلق برعاية العمال الأحداث فقد وافقت هيئة العمل الدولية على عدد كبير من الاتفاقيات الدولية بلغ نحو ١٩ اتفاقية لحمايتهم وذلك محافظة على صحتهم وأخلاقهم وضمانا لنمو تكوينهم الجسمانى وإتماما لتعليمهم ،وتنص أحكامها على ما يلى :

أولا : تحديد حد أدنى لسن تشغيل الأحداث سواء فى الصناعة اتفاقية رقم ٥ عدلت بـ ٥٩ بحيث يحرم تشغيل الأحداث فى الصناعة قبل سن ١٥ سنة وفى الزراعة ١٠ .

عدلت المهن غير الصناعية رقم ٦٠ بحيث يحرم تشغيلهم فيها قبل سن ١٤ فى الأعمال البحرية كما عدلت رقم ٥٨ فى بعض الأعمال يحرم قبل سن ١٨

ثانياً : اللياقة الطبية للتشغيل رقم ٧٠ تستلزم الكشف الطبى قبل تشغيل الأحداث فى الصناعة رقم ٧٨ تستلزم الكشف الطبى فى المهن غير الصناعية وذلك للتثبت من لياقة الأحداث الذين تقل سنهم عن ١٨ سنة. ويجب فحصهم إكلينيكيا وبالأشعة والاختبار بواسطة طبيب أو أخصائى ويراقب الأحداث طبيا باستمرار وتجدد فترات الكشف مرة كل سنة على الأكثر .

رقم ١٦ معدلة ٧٢ بالكشف على الأحداث الذين يشتغلون على ظهر السفن .

ثالثاً : تحريم العمل الليلى للأحداث وتحديد ساعات العمل رقم ٦ معدلة برقم ٩٠

وتنص الاتفاقية رقم ٧٩ على أن الأحداث الذين يكونون ملحقين بالتعليم الابتدائى لا يسمح لهم بالعمل لمدة ١٤ ساعة متواصلة بين الثامنة مساءاً والثامنة صباحا أما عن الملحقين بالمدارس وتزيد سنهم عن ١٤ سنة لغاية ١٨ سنة فلا يسمح لهم بالاشتغال لمدة ١٢ ساعة متواصلة بين العاشرة مساءاً والسادسة صباحا .

وقد صدرت علاوة على ذلك توصيات عديدة تتعلق بالتوجيه والتدريب المهنى للأحداث والخدمات الاجتماعية والتأمينات الاجتماعية .

وقد كان لهذه الاتفاقيات والتوصيات الدولية أثر بالغ فى جميع دول العالم وقد عبر عن ذلك آخر التقارير المعروضة أمامكم بقوله ص ١٥ .

« وتعتبر الاتفاقات التى تصدرها هيئة العمل الدولية هى خلاصة جهودها ونتاج بحوثها فى لجانها الفنية ، وقد ينفذ على المائة عدا التوصيات وتناولت الغالبية العظمى من شتى الموضوعات العمالية ، فليس غريبا والحالة هذه أن تنبعث من هذه الاتفاقيات أضواء على التشريعات العمالية لأكثر عن سبعين دولة اشتركت فى هذه الهيئة وأن تجىء تشريعات العمل بها دائرة فى فلكها وسائرة على هديها ومناهجها ومنها الدول العربية .

وكان للأحداث نصيبهم الموفور من الاتفاقيات التى وضعتها الهيئة .

اتفاقيات هيئة العمل الدولية عن الأحداث

هذه الهيئة التى ولدت فى كنف عصبة الامم عقب الحرب العظمى الماضية فلما ، قضت هذه العصبة نحبها وراحت إلى غير رجعة تبعتها سائر المنظمات التى كانت موجودة فى كنفها .

ولكن بقيت هيئة العمل الدولية تنبض بالحياة ولم يفارقها نشاطها حتى أثناء الحرب العظمى الثانية وإن كان قد شابه الكثير من الفتور بسبب هذه الحرب وانشغال العالم كله بويلاتها ومشكلاتها .

وقد كان إنهاء الحرب بشيراً بحركة بعث قوية فى أرجاء هيئة العمل الدولية لأن السلم فى حاجة إلى تعمير والتعمير لا يقوم إلا على أكتاف العمل ، ولأن السلم قد اصطحب بوعى قومى وعمالى ونهوض صناعى . وهذا الوعى وهذا النهوض إنما يقومان على سواعد العمال وأصحاب. الأعمال فلكل ذلك توفرت لهيئة العمل الدولية أسباب الحياة القوية المجددة فى هيئة الأمم على نطاق أوسع مدى وأعمق غوراً مما كان فى كنف عصبة الأمم البائدة .

الرعاية الترويحية فى البيت العربى

للأستاذ توفيق حسن وصفى

« الجامعة العربية »

أخشى ما أخشاه أن أتحدث الآن بعد هذا الرصيد الضخم من الموضوعات الطيبة التى تفضل بها الأساتذة والزملاء فى شتى نواحى الرعاية للبيت العربى وللأسرة العربية فيظن أن الرعاية الترويحية إنما تأتى فى أهميتها بعد كل ماقيل .. أو فى آخر القائمة كما حكمت ظروف (التجنيد) التى بدأت منذ الأمس .

وأخشى ما أخشاه أن يفهم لسبب أو لآخر أن الترويح إنما يأتى من حيث الأهمية فى ذيل القائمة . .

ولكن لسبب أو لآخر جاء النشاط الترويحى ختاما لهذه الندوة ليثبت لكم أن العمل بدون ترويح يؤدى إلى الإجهاد . . كما أن الترويح بلا عمل يفقد معناه والغرض منه .

والترويح هو الاشتراك الاختيارى فى نوع النشاط الذى يزاوله الإنسان فى أوقات فراغه ليحصل على ما يحتاجه من انتعاش وبهجة نفسية ومن تجديد وتنشيط لقواه الجسمية . . فهو إذن ضرورة من ضرورات الحياة كالطعام والشراب والعمل والنوم .

وليست الحياة كلها متاعا ولهوا وابتساماً . . كما أن الحياة فى كليتها ليست تعباً ونصباً ودموعاً . . وليست الحياة تمضى جميعها كفاحا وسعياً وراء العيش وليست هى كما قال أبو العلاء المعرى

« تعب كلها الحيـاة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد »

لكن فى حياة كل فرد أوقاتا للعمل والسعى وراء الرزق كما أن فيها أوقاتا يجنح خلالها للراحة والاستجمام والترويح . . وإلا أضحت الحياة مملة ثقيلة قاسية ، وفى هذا يقول الإمام على كرم الله وجهه :

« روحوا عن نفوسكم فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد »

وقد يمكننا أن نقسم الأربع والعشرين ساعة التى تكون يوما فى حياة فرد عادى إلى ثلاثة أقسام رئيسية :
٨ ساعات للنوم و ٨ ساعات للعمل و ٨ ساعات للاستجمام والترويح والراحة والحاجات الشخصية .

والنوم والعمل كلاهما ضرورى . . ويبقى بعد هذا وذاك ساعات ثمان منها حوالى ثلاث ساعات ضرورية يصرفها المرء فى إشباع حاجاته الشخصية من مأكل وملبس ونظافة . . ويبقى له بعد كل هذا خمس ساعات أخرى كل يوم وهى التى يجب أن تخصص للراحة والترويح والترفيه .

وهذه الساعات الأخيرة ليست بالشيء التافه خصوصاً إذا أضيفت إليها فترات الراحة الأسبوعية والسنوية والموسمية ، فنجد أن الوقت الذى يملكه الفرد ويكون مطلق التصرف فيه شيء يستحق الاعتبار .

فالإنسان الذى متوسط عمره ستون عاما ، لابد أن يقضى منها عشرين عاما فى فراشه ومثلها فى عمله ويتبقى له حوالى ثلث عمره للترويح الذى هو ولا شك فى حاجة إليه .

وهناك أربع صور يمكننا ذكرها لقضاء **وقت الفراغ :**

١ ـ ضياع الوقت أو قتله مما قد يؤدى إلى الانحراف ومثله مجرد التسكع بلا هدف أو لعب القمار

٢ ـ مجرد قضاء الوقت فى نشاط سلبى لا فائدة فيه بل قد يحوى بعض الضرر كتمضية الوقت فى قراءة قصة تافهة أو الجلوس فى مقهى ساعات طوال . . .

٣ ـ الهوايات كرسم لوحة أو العزف على آلة موسيقية وهى وسيلة ممتعة لتمضية وقت الفراغ .

٤ ـ القيام بنشاط منظم لتحقيق هدف فيه ترفيه أو رياضة .

والتنظيم السليم لأوقات الفراغ يقتضى الاهتمام بالنوعين الأخيرين خصوصاً داخل الأسرة .

ولكل مرحلة من مراحل العمر ماينا سبها من حاجات ترويحية خاصة بها وتتلخص هذه الحاجات فى الألعاب تحت المراقبة والألعاب الجمعية واللعب المنظم والفنون وتكوين الجماعات والفرص الاجتماعية والألعاب الهادئة والهوايات المختلفة والرياضة البدنية بأنواعها والتعليم المسائى والنشاط الثقافى والفنى ، وبذا نستطيع أن نشغل وقت فراغ كل فرد من أفراد الأسرة بما يناسبه . ولا شك أن الترويح فى وقت الفراغ لهفوائد جليلة الشأن فى حياة الفرد وفى محيط الأسرة جسميا ونفسياً وعقلياً وخلقياً واجتماعياً .

فمن الناحية الجسمية لا يمكن أن ننكر أن هذا الترويح حين يتخذ شكل رياضة بدنية له فائدة فى تقوية الجسم وتنمية العضلات وتنسيق عمل الأجهزة . ومن الناحية النفسية والعقلية يعمل الترويح على اكتشاف مواهب الفرد وتوجيهها كما يعمل على وقايته من الانحراف والشذوذ والتفكير الهدام أوعلاجه منها . ومن الناحية الخلقية والاجتماعية يساعد الترويح السليم الموجه على تكوين عادات طيبة وتنمية الروح الرياضية وتقوية التعاون بين أفرادالأسرة وبينهم وبين غيرهم من جماعات .

وهذه الاتجاهات هى ولا شك من مقومات الأسرة الصالحة ومن مقومات المجتمع المتكامل .. وقبل هذا وذاك من مقومات الفرد الصالح .

ولا جدال فى أن نوع النشاط الذى يقوم به الإنسان فى وقت فراغه هو الذى يحدد لنا شخصيته ويرسم لنا حقيقة خلقه والقيم التى يؤمن بها ، ودور الأسرة فى هذا الدور الأول والأهم .. وكما تهتم الأسرة باقتصادياتها وبتعليم أبنائها وتوفير معاشها واختيار المسكن الملائم فلا بد من أن تهتم أيضاً وبنفس الدرجة بأوقات فراغ أفرادها ، والأسرة يجب أن تعمل على تنظيم هذه الأوقات التى يمكن أن تستغل لتقوية الروابط الأسرية وتنمية الشعور بالولاء للأسرة وتوفير الوقت والجو المناسبين .

ويمكن أن نذكر من أنواع النشاط الترويحى للأسرة العربية الوسائل الآتية :

١ — الرحلات

لاشك فى أن الرحلات لا تصلح إلا إذا كانت فى مجموعة ، والأسرة فى رحلاتهـا إنما تزيد فى ترابط أفرادها ووحدتهم كما أنهـا فرصة لتجديد قوى أفرادها الجسمية والروحية . على أن أهم ما للرحلات الخلوية من قيمة هى انتقال الأسرة بجميع أفرادها من جو البيت ونظامه إلى الخلاء حيث طلق الهواء والحرية فى اللهـو البرىء والمرح الذى أساسه الفضيلة والانسجام والتوافق وازدياد المحبة، والأسرة — مهما كانت ظروفها — لابد وأن تضع فى برنامجها الترويحى القيام برحلة جماعية مرة كل شهر على الأقل .

٢ — الرياضة البدنية بأنواعها مع اختيار الملائم منها .

٣ — الموسيقى سماعاً وعزفاً .

٤ — المكتبة مع اختيار ما تحويه ومراقبة ما يقرأه الأبناء والبنات .

٥ — الهوايات كجمع طوابع البريد والعناية بالحديقة وأعمال الكهرباء والرسم .

٦ — الاشتراك فى أحد الأندية الاجتماعية وخصوصاً التى تسمح باشتراك أفراد الأسرة جميعاً على أن يوفر فيها الجو الملائم للأسر التى لا تهيىء لها ظروفها من حيث المسكن والإمكانيات لأن تجد ما تحتاجه من برامج وأدوات لاستثمار أوقات فراغها .

٧ — حفلات السمر العائلية.

٨ — الألعاب الداخلية مع الإقلال من ألعاب الحظ .

٩ — السينما والمسرح على أن يحسن اختيار القصص الهادفة الملائمة .

١٠ — السباحة والتجديف وركوب الخيل والدراجات .

١١ — المعسكرات الشاطئية والريفية والزيارات السياحية .

فإذا استطاعت الأسرة أن تنظم أوقات فراغ أفرادها التنظيم السليم واعترفت بحق الطفل فى اللعب كحقه فى الطعام والمأوى . . ولبت ما تتطلبه احتياجات أفرادها فى أوقات فراغهم لاستطعنا أن ننقذ الأسرة من كثير من المشكلات لو أسىء استعمال أوقات الفراغ أو تركت هكذا دون رقابة أو رعاية أو توجيه .

فالأب إذا ترك بيته فى أوقات فراغه واختار أن يمضيها جالساً على كرسيه فى مقهى دون ماغرض وبلا أى هدف تاركا بيته بلا رعاية فهو إنما يعمل على خلق عامل من عوامل التفكك لهذه الأسرة .

والأب الذى يسىء استعمال وقت فراغه فيما يعود عليه وعلى أسرته بالضرر فقد أجرم فى حق أسرته وكان تصرفه عامل هدم فى بنائها ، والأب الذى لا يعترف بحق أفراد أسرته فى الترويح والذى لا يوجه أبناءه وبناته لكى ينتفعوا بوقت فراغهم ويستثمروه استثمارا طيبا فقد أساء إلى الأسرة وأهمل فى تأدية واجبه نحوها .

وقد تكون الأم هى التى تسىء التصرف فى وقتها .

أو قد يكون عدم الترابط التام بين الزوجين فيكون الأبناء هم الضحية فلا يحسون بجو الحب فى البيت ولا يشعرون بالولاء نحو أسرتهم فينحرفون فى تمضية أوقات فراغهم بلا رقابة أو توجيه . . وسوء استثمار أوقات الفراغ . . وعدم الاهتمام بنواحى الرعاية الترويحية سبب لا شك فيه لخلق جو من الاضطراب والقلق النفس والفوضى داخل البيت مما قد يؤدى به إلى التفكك .

وتلافيا لكل هذا ولكى تكون أوقات الفراغ أداة حقيقية للتكمل البشرى وكذا لكى تكون عاملا من عوامل تثبيت دعائم بناء الأسرة أقترح :

١ — توحيد يوم العطلة الأسبوعية بحيث يجتمع أفراد الأسرة جميعاً فى يوم معين هو يوم الجمعة . . . إذ من الخطورة بمكان أن يختلف يوم العطلة الأسبوعية لأفراد الأسرة فلا يجتمع الولدان بأبنائهما فى يوم موحد تنظم الأسرة فيه برنامجاً جماعياً فيزدادون ترابطا ومحبه ويستشعرون السعادة وهم يمضون عطلتهم معا فى نزهة خلوية أو رحلة .

٢ — إرشاد الآباء والأمهات إلى أهمية الترويح لأبنائهما ووجوب تنظيم أوقات فراغهم تحت إشرافهم ورقابتهم .

٣ — العمل على توفير الأندية الاجتماعية التى تستطيع الأسرة أن تشترك فيها باشتراك معقول كوحدة مع تنظيم برامج ترفيهية ورياضية واجتماعية وثقافية داخل النادى .

٤ — تخصيص أحد مؤتمرات خبراء الشئون الاجتماعية التى تنظمها إدارة الشئون الاجتماعية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية لبحث مشكلة أوقات الفراغ ودراستها دراسة علمية ووضع الحل المناسب لمواجهتها .

هذه الندوة

للدكتور سليمان حزين

(مدير الحلقة)

استمعنا إلى ندوة شاملة فى موضوع البيت العربى من حيث أسسه ومقوماته ومن حيث بعض المشكلات التى تعرض لحياته فى خضم التطور الحديث . ولا شك أن البيت العربى يستأهل منا المزيد من التعمق والتأمل والبحث عن الحقائق والتعرف إلى المشكلات القائمة ومحاولة الوصول إلى حلول ملائمة لها . ولئن كانت اللجان المختلفة وبعض المؤتمرات التى عقدتها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية خلال سنوات ثلاث قد عرضت للبيت العربى من مختلف نواحيه ، فإننا قد استمعنا فى هذه الندوة القيمة إلى طائفة ممتازة من المتحدثين الذين عرض كل منهم للموضوع من ناحية أو من زاوية خاصة ، ولقد خرجنا فى نهاية هذه الساعات الثلاث بحصيلة من الأفكار القيمة أرجو أن تأذنوا لى فى أن أعرض لبعضها بشىء من التلخيص أو التعليق .

لقد بدأ الندوة الأستاذ محمد حسن العشماوى فطوف بنا فى آفاق بيتنا العربى، وتحدث حديث العالم الخبير بشؤون هذا البيت ، بل حديث رب الأسرة الذى لم تقف تجاربه عند حياة الأسرة بمعناها الضيق وإنما امتدت دراساته وتجاريبه الطويلة إلى العالم العربى فى مجموعه كأسرة كبرى كانت لحياتها مقوماتها وأسسها الأولى ، تلك المقومات التى وضع أصابعه على طائفة منها ، فتحدث عن أصول الحياة العربية وتقاليدها الأصيلة من جهة وعن تيارات الحركة والتطور الدائب فى حياتنا البيئية والقومية جميعاً من جهة أخرى . وأشار بعد ذلك إلى ما يمكن أن نسميه محراب حياة الأسرة العربية ، وهى الأم . فلفت أنظارنا إلى الحقيقة الكبرى وهى أن نقطة البدء فى إصلاح البيت العربى إنما هى الأم الصالحة التى إن أعدت إعداداً سليما استطاعت أن تنهض بالبيت وأن تبعث فيه القوة والحياة . ثم انتقل إلى مشكلة الأطفال ونظر إليهم على أنهم ذخيرة المستقبل وعدة الأمة العربية فيما ينتظرها من أيام خالدات . ثم عرض لمشكلات الشباب ولواجبات البيت والمدرسة فتحدث حديث الأب والمربى فى وقت واحد ، ولست أشك فى أن لجان الخدمات والبرامج والمشكلات التى ستتناول مختلف نواحى الدراسة فى هذه الحلقة ستجد فى حديث مربى الجيل الذى استمعنا إليه الليلة ما يوجهها فى بحوثها وتوصياتها الوجهة التى تحقق ما نستهدفه من هذه الندوة .

تحدث بعده الأستاذ محمد الرجيب فأبرز نقطة لها قيمتها الخاصة فى دراساتنا الحالية ، فقال إن الأسرة هى الخلية الأساسية فى حياة العرب ويترتب على هذا أن نصحح نظرتنا الأولى التى تنظر إلى الفرد كنواة للمجتمع . والحقيقة أن ما تحدث به الأستاذ الرجيب ينطبق بصفة خاصة على حياتنا العربية ، ففى البادية حيث تمثل القبيلة أو العشيرة صورة مكبرة من الأسرة ، تتبلور النظم الاجتماعية حول فكرة المجموعة التى يستمد منها الفرد كيانه الخاص .

وكذلك الحال بالنسبة للبيئة الريفية فى بلادنا العربية ، فالأسرة هى « الوحدة الحيوية » بالنسبة للمجتمع . فى كثير من الأحيان تصبح القرية أسرة كبيرة أو مجموعة من الأسر المتصاهرة . ومن الخير لنا فى دراساتنا الاجتماعية للبيت العربى أن ننحو هذا النحو الذى يعطى للأسرة قيمتها كنواة للمجتمع .

ثم تحدث الدكتور محيى الدين صابر عن المسكن فى اتصاله بتكييف حياة البيت العربى . وأبرز لنا نقطة ذات أهمية خاصة ، هى نظرة المجتمع العربى إلى البيت والمسكن على أنه ذو حرمة خاصة تضفى عليه نوعاً من القداسة . وحرمة البيت هذه فكرة تلتقى عندها القيم الروحية والاجتماعية من ناحية بالحقائق المادية الملموسة من ناحية أخرى . وقد يكون العرب من أشد الشعوب تمسكا بفكرة حرمة البيت إلى حد أنه قد يترتب عليها شىء من الثنائية فى تصميم بناء البيت ذاته فيخصص جزء لأهل البيت وجزء آخر للضيافة واستقبال الغرباء عنه ، أو قد يترتب عليه فى بعض البيئات أن تفضل الأسرة المسكن المنفرد فيؤثر هذا فيما قد يوضع من برامج فى المستقبل للمساكن الجماعية .

ثم تحدث الأستاذ أمين الحسينى فى جانب حيوى من جوانب حياة البيت العربى هو الجانب الاقتصادى ، ويهمنا نقطتان مما ذكر ، الأولى : ضرورة وضع ميزانية للأسرة ، فقد درجنا فى حياتنا على أن ندع الظروف الطارئة تكيف نفقات الأسرة ولكننا الآن نعيش فى عصر التخطيط الذى يجب أن ننظر إليه على أنه الوسيلة الحديثة فى تنظيم حياة الأمم ، وكما أن من واجب الدولة أن تعد لها ميزانية فإن من واجب الأسرة أن تعد مثل هذه الميزانية وبذلك تصبح بيئة البيت مدرسة يتعلم فيها الناشىء التخطيط المالى لمواجهة ضرورات الحياة . والنقطة الثانية التى أشار إليها هى فكرة التعاون الذى يتعلم فيه الفرد كيف يعمل ضمن فريق ممن يعايشونه . والواقع أن الحياة الحديثة تستلزم تنظيم إطار العلاقات المادية بين الناس وستكون الجمعيات التعاونية مدرسة صالحة يتعلم فيها رب الأسرة وشبابها كيف يتعاونون فى نطاق قومى أوسع ، فتصبح الأسرة بذلك حجر الأساس فى بناء صرح حياتنا القومية .

ثم تحدث الأستاذ محمد الفريح عن البيت العربى بين البادية والحضر . وأبرز حقيقة يجب أن نفتح أعيننا عليها تلك هى أن الحياة البدوية تتهددها الآن تيارات المدنية الحديثة .

وإذا ماتذكرنا أن البداوة هى أصل الحياة والحضارة بالنسبة للعروبة ، وأن هذه البداوة هى التى تمدنا بكثير من أصول حياتنا الروحية والثقافية والاجتماعية ، وإنها هى نبع الكثير من الصفات الإنسانية التى ميزت العرب عن غيرهم ، ومنها : صفاء القريحة ، وانطلاق الوجدان ، وبساطة الذوق وسلامته ، وصفات المروءة والنجدة والشهامة والسخاء والاستجارة وغير ذلك مما يمثل القيم والمثل العليا فى حياة الإنسان . . . إذا نظرنا إلى البادية على أنها نبع كل ذلك فى حياة العرب وجب أن نرعى هذه البادية وأن نجنبها عوامل التفكك التى تترتب على ظهور معالم المدنية الحديثة ، وماتفرضه من تغير على حياة البدو .

ثم تكلم الأستاذ عبد المنعم خلاف فى موضوع الرعاية الروحية والخلقية ، وأبرز نقطة تعتبر فى المقام الأول من الأهمية بالنسبة لحياة العرب والبيت العربى حين أشار إلى محكمة الضمير فى حياة الفرد فى المجتمع . وهنا يجب أن نذكر أن الضمير هو الذى يميز الإنسان من الحيوان ، فالغريزة مشتركة بين الاثنين وكذلك الفهم أو العقل قد يشارك فيه الحيوان بأقدار متفاوتة ، أما الضمير فهو الذى يميز الإنسان من الحيوان حقاً ، ولذلك فإننا إذا ما أردنا أن نخرج الإنسان من الحيوان وجب علينا أن نتجه إلى تربية الضمير وشحذه وبعثه من مكامنه ليوجه سلوك الفرد فى المجتمع

ولاشك أن البيت هو المدرسة الأولى لتربية الضمير . ثم أشار الأستاذ خلاف إلى نقطة أخرى هى التى تتصل بالرياضة الروحية فى حياة البيت العربى والأمة العربية ، وضرب مثالا رائعاً لذلك فى المذهب السنوسى الذى نشأت أفكاره فى بيوت عربية ، أو فى بيوت لله أقامها العرب فى واحات برقة وصحارى ليبيا فأصبحت هذه البيوت معاقل للفكر والحياة القومية بل أصبحت آخر الأمر النواة التى تبلورت من حولها فكرة الجهاد القومى العربى فى هذا الجزء العزيز من الوطن العربى الكبير .

ثم تحدث الأستاذ الدكتور على عيسى عن البيت العربى والتكيف الحضارى ، فعالج الموضوع من ناحية الأستاذ المتخصص، ولكنه نظر إليها من وجهة النظر العربية، وتطرق إلى نواح ينفعنا أن نذكرها وأن نعيها جيداً فيما نحن بسبيله من جهاد وعمل دائب لإعادة تنظيم الحياة فى بيتنا ومجتمعنا ، ذلك أنه أشار إلى ما أسماه معركة الحضارات فى تصارعها الحديث وهى المعركة التى أصبحت فى رأيه وبحق معركة الحياة بالنسبة للأمم فى العصر الحديث . ولقد امتازت الحضارة العربية بأنها حضارة قديمة ومتجددة فى آن واحد ولقد وفق الدكتور عيسى حين لفت النظر إلى أنه من الواجب أن نعيد تعريف مايسمى «بالتفكك» فى حياة البيت العربى، فقد يكون هذا الذى نسميه تفككاً مصدراً من مصادر القوة لأنه يعلم الفرد الاعتماد على النفس ويقضى على ما توارثناه عن عهد الاستعمار من تواكل وتداخل بين مسؤوليات الأفراد فى البيت أو فى المجتمع . ثم أشار إلى نقاط أخرى ذات أهمية خاصة ، ومنها مسألة التجديد والاقتباس لمسايرة العهد الحديث ، ومنها تعاصر الأجيال فى جيل واحد ، فقد يعيش فى البيت العربى الواحد أفراد يمثلون أكثر من جيل واحد ، وهذه مسألة تستدعى توسيع نطاق السماحة فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض .

ثم تحدث الدكتور ناصر الدين الأسد فى موضوع الثقافة ، ولقد امتازت الأمة العربية منذ القديم بأن الثقافة كانت جزءاً لايتجزأ من حياتها القومية وحياتها الروحية جميعاً . ولقد أبرز فى حديثه موضوعاً لانملك أن نغفله فيما نحن بسبيله من إعادة لتنظيم حياتنا البيتية والقومية حين قارن بين الأصيل والدخيل فى ثقافتنا وأكد بحق أن من الواجب أن نبحث عن ثقافتنا فى أصولها الأولى ومقوماتها التى تنبع فى البيئة أو فى التاريخ العربى حتى نرسى ثقافتنا الحديثة على دعائمها الأصيلة الراسخة ، ثم نقتبس من ألوان الفكر الخارجى مايتسجم معه بناء صرح ثقافتنا الحديثة فى طوابقها التى تقام على الأساس الأصيل . كذلك أبرز فى نهاية حديثه ، موضوعاً يلتقى عنده جهادنا القومى بثقافتنا العربية ، فقال إننا قد ورثنا عن الاستعمار : الاحتلال وتقسيم الوطن ، فأورثنا ذلك — ولو إلى حين — اختلاف الاتجاهات الثقافية وأشاع شيئاً من الفرقة أو الانقسام فى حياتنا ، وستكون وحدة الثقافة السبيل المرسومة لإنقاذنا منه . ولاشك أن مشعل الثقافة هو الذى ينير سبيل الساعين إلى الوحدة القومية الشاملة .

وتحدث بعد ذلك الأستاذ يحيى درويش حديث المتخصص الذى مارس الرعاية الاجتماعية سنوات طويلة ، ومع أنه أشار إلى أن موضوع الرعاية الاجتماعية قد عالجه نفر من الزملاء المتحدثين من قبل أو ينتظر أن يتناوله نفر من اللاحقين فى الحديث ، فإنه أبرز نقطة لم يشر إليها غيره ولها أهميتها الخاصة فى بحث كيان البيت العربى . . . تلك هى العلاقات الأسرية ، بل العلاقات الإنسانية بين أفراد الأسرة ، وهذه مسألة ترتبط أشد الارتباط وأوثقه بما يمكن أن نسميه روح البيت العربى، ولا شك أن جميع برامج الإصلاح مهما تنوعت فإنها لن تستطيع أن تبلغ بنا غايتنا من الإصلاح إذا ما انحلت علاقات الأفراد بعضهم ببعض أو ساءت إلى حد تصدع البيت العربى . فالذين

يتكون منهم هذا البيت إنما هم من البشر وهم يمثلون فوق ذلك أرواحاً يجب أن نعمل على أن نشيع بينها روح المودة والتراحم والمحبة وكل ما يهيىء ذلك الذى نسميه « جو الأسرة » فى البيت العربى . ثم هو قد أشار فى حديثه بعد ذلك إلى بعض نواحى الخدمات التى توفر الرعاية الاجتماعية للبيت العربى ، وأبرز بصفة خاصة قيمة إنشاء مكاتب خاصة لخدمة الأسرة، وهذا نوع جديد من المشروعات التى آن الأوان أن نجريها فى بيئاتنا العربية لأنها قد تكون السبيل السلمية لننتقل بخدماتنا من مستوى الإقليم أو الحى أو القرية إلى مستوى الأسرة ، فننتقل بهذه الخدمات إلى حياة البيت العربى بطريقة مباشرة . وأشار فى حديثه بعد ذلك إلى أن الرعاية الاجتماعية إنما هى من واجب الهيئات الأهلية إلى جانب الحكومات، وهذه ناحية خطيرة نرجو أن تعنى بها لجنة الخدمات فى هذه الحلقة لتبلغ بنا مرحلة التوصية فيها على أساس يحقق التكامل بين جهود الحكومات وجهود الهيئات فى البيت العربى .

ثم تلاه الدكتور عبدالوهاب البرلسى فتحدث حديث الطبيب الذى توسع بنطاق خدماته من الناحية الطبية الخالصة إلى الناحية الاجتماعية الشاملة ، وأبرز لنا كيف أنه قد آن الأوان لأن نعدل فلسفتنا فى الخدمات الطبية بحيث يصبح لهذه الخدمات اتجاه اجتماعى واضح المعالم وبحيث يصبح الطب مهنة لها وظيفتها الاجتماعية البارزة ، وبحيث ربط بين الصحة والقدرة على الإنتاج ، وبحيث تحقق مبادئنا التى أخذناها عن قيمنا الروحية بأن صحة الأبدان من صحة الإيمان وبحيث يتحقق الهدف الخطير الذى أشار إليه إشارة عابرة ولكنه يستحق منا مزيداً من إنعام النظر وهو أن الخدمة الطبية يجب أن تصبح حقاً للفرد فى البيت وفى المجتمع ويكون المؤهل والشرط لهذا الحق هو الحاجة إلى الخدمة الطبية قبل القدرة على تحمل نفقاتها . وقد أشار الدكتور البرلسى إلى جانب ذلك إلى طائفة من المسائل الفنية فاعتبر رعاية الطفل قبل الولادة وبعدها نقطة البدء فى بناء صحة المجتمع ، كما أشار إلى موضوع تنظيم الأسرة وتقسيم الخدمات إلى وقائية وعلاجية وغير ذلك من المسائل الفنية التى نرجو أن تبحثها لجنة الخدمات بحثاً يجمع بين الجانبين الطبى والاجتماعى ويحقق التكامل فى تفكيرنا ورسم خططنا من هذه الناحية .

ثم تحدثت السيدة فاطمة بهى الدين عن المرأة والبيت العربى . ومن الخير أن نسجل لها أنها بدأت بالحديث عن واجبات المرأة قبل أن تتحدث عن حقوقها وما ينبغى لها من ضمانات . وقد وفقت فى هذا الحديث لأن إبراز واجبات المرأة وتحديد مسؤولياتها فى المجتمع إنما يتناول حياة البيت فى أصولها الأولى ودعامتها التى يقوم عليها صرح حياتنا القومية كلها . وعندما انتقلت من ذلك إلى الحديث عن الضمانات أشارت إلى ضرورة تنظيم العلاقات بين الزوج والزوجة فى بناء البيت ، وأشارت بصفة خاصة إلى موضوع الطلاق الذى هو أبغض الحلال إلى الله وإلى موضوع تعدد الزوجات وقدمت وضع الضوابط لذلك كله كما أشارت إلى موضوع ما يسمى فى بعض البلاد العربية بالأحوال الشخصية ، وفى رأينا أنه قد آن الأوان لأن يسمى بأحوال الأسرة حتى لا يظن أننا حين نشرع فى هذا الميدان نراعى أشخاصاً فى حين أننا فى واقع الأمر نراعى كيان الأسرة كلها وبالتالى كيان المجتمع فى صورته الكبيرة .

ثم تحدث الأستاذ الدكتور عبدالكريم اليافى فى موضوع الطفولة وعالج هذا الموضوع على أساس علمى يستند إلى الأرقام والإحصاءات، ولكنه فى الوقت ذاته عالجه من الناحية الإنسانية ومن الناحية التى تتصل بفلسفة حياتنا العربية فنظر إلى الأطفال والبنين نظرة حق حين أسماهم ذخيرة المستقبل وعدته ، وحين نظر إلى التكاثر على أنه وسيلة تحقيق حكمة الخليقة فى الأرض . ولقد أعجبنى أنه شبه وفيات الاطفال فى مجتمعنا العربى بأنها تساقط الأزهار من شجرة حياة العرب قبل أن تنعقد فيها الثمرات . والحقيقة أن الدكتور اليافى قد أضاف إلى مناقشاتنا ودراساتنا

لموضوع البيت العربى إضافة قيمة حين لفت النظر إلى هذا الموضوع الخطير وحين انتقل إلى موضوع متوسط الأعمار فى الأمة العربية وقارن بينه وبين متوسط العمر فى بلاد أخرى من العالم فبين لنا كيف أننا مع الأسف الشديد ننفق فترة طويلة فى إعداد الطفل ليصبح رجلا أو امرأة ثم لا يفيد منه بعد ذلك إلا عدد محدود من السنين فى حين أن البلاد الأخرى تستفيد من أفرادها الذين يبلغون سن العمل والإنتاج فترة طويلة يستطيع فيها الفرد العامل المنتج أن يخدم أمته فى نواحى العمل المادى والانتاج الفكرى ، وبذلك تقوى الأمة وتصبح أقدر على الكفاح بين الأمم فى حياة تصارعت فيها مجموعات البشر تصارعاً ليس فيه مكان لضعيف .

ثم تحدث بعد ذلك الدكتور عزيز المراغى ممثل هيئة العمل الدولية فتناول الموضوع تناول الخبير وتحدث عن النساء والأطفال العاملين وبين لنا كيف أن عمل المرأة خارج البيت سلاح ذو حدين فهى إن عملت زادت دخل الأسرة ولكنها احتاجت فى الوقت نفسه إلى مزيد من العناية والرعاية ، كما أن عملها الخارجى كثيراً ما يتعارض مع التزاماتها البيتية : وهذا أمر يجب أن يتناوله تشريع العمل حتى تتحقق الفائدة المرجوة من اشتغال النساء . ومثل ذلك يصح أن يقال عن الأطفال العاملين . ولقد تحدث فيه الدكتور المراغى أيضاً حديث الخبير ، بل الخبير العربى الذى يتفهم مشكلاتنا ويحدب على أن يجد لها الحل الملائم ، ففى كثير من بيئاتنا العربية يضطر الطفل إلى أن يعمل قبل أن يتم إعداده للحياة ، وقبل أن يتزود بالقدر الكافى من العلم والمعرفة أو التدرب ، ومثل هذا الطفل الذى تقسو عليه الحياة لا بد له من تشريع يصون طفولته ، ولا يجعل العمل سبيلا إلى أن يرث هذا الطفل من العقد النفسية أو الاجتماعية ما قد يحول بينه وبين اكتمال نموه كفرد عامل فى المجتمع .

وتحدث آخر الأمر الأستاذ توفيق حسن وصفى فتناول جانبا جاء ترتيبه فى ختام قائمة المتحدثين ، ولكنه موضوع يستأهل منا كل عناية واهتمام : ذلك هو موضوع الترويح فى البيت العربى . وقد وفق الأستاذ توفيق غاية التوفيق فى رسم صورة واضحة لنا تبرز أهمية تنظيم أوقات الفراغ فى البيت العربى وتنظيم وسائل الترويح الرياضية والروحية ، ومن الخير أن نذكر هنا صدق المثل العربى المعروف : إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . ذلك أن الحياة عمل وراحة ، وأن الذى لا يعرف كيف يروح عن نفسه لا يمكن أن يعرف كيف يعمل وكيف ينتج وإذا كان الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها فمن الخير لنا فى البيت العربى أن نضع ضوابط العمل والترويح وأن ننظم أوقاتنا ، فلا يكون هناك عمل بلا ترويح ، ولا يطغى وقت الفراغ على وقت العمل . ولقد أشار الأستاذ توفيق إلى حقيقة يجب أن نلتفت إليها وهى أن مجتمعنا العربى للأسف الشديد لا تزال فيه طوائف كثيرة تعمل وتكدح ولا تجد وسيلة الرياضة الروحية أو النفسية وطوائف أخرى لا تزال تنفق أعمارها فى أوقات من الفراغ وتبدد بذلك حياتها وجهود الآخرين ، وهذا أمر يستحق منا أن نوليه عنايتنا الخاصة حتى نحقق الاعتدال فى حياتنا وحتى نجمع فى توازن ومعادلة بين العمل والترويح .

هذه خلاصة لما عرضه السادة المتحدثون فى هذه الندوة وأظن أننا لا نبعد عن الحق إذا ما سجلنا أنها كانت ندوة دسمة أصبنا فيها من الغذاء الروحى والفكرى ما نأمل أن يكون عدتنا فى بحثنا لموضوع البيت العربى بحثا عميقا مستفيضا مثمراً خلال هذه الدورة إن شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله

اللجنة الأولى
أسس البيت العربي ومقوماته

١ ـ الأمومة مصدر إشعاعات الخير والبنوة أول انعكاساتها	للأستاذ عبد المنعم خلاف	الجامعة العربية
٢ ـ البيت نواة المجتمع	للدكتور على عبدالواحد وافى	ج . ع . م
٣ ـ الأسرة فى الإسلام	للشيخ محمد أبو زهرة	ج . ع . م
٤ ـ الأسرة فى الإسلام	« محمد صقر	الكويت
٥ ـ الأثر النفسانى لحنو الأم فى تكوين شخصية الطفل	للأستاذ محمد مظهر سعيد	ج . ع . م
٦ ـ كيان البيت العربى القائم والعوامل المؤثرة فيه	للدكتور عبد الجليل الطاهر	العراق
٧ ـ الأمومة والبنوة فى البيت العربى	« محمد خليفه بركات	ج . ع . م
٨ ـ تطور البيت العربى وأثر المدنية الحديثة فيه	« على عبد الواحد وافى	ج . ع . م
٩ ـ العوامل المؤثرة فى تنشئة أفراد البيت العربى	للأستاذ محمد فريد أبو حديد	ج . ع . م
١٠ ـ العادات والتقاليد وأثرها فى البيت العربى	للدكتورة عائشة عبدالرحمن	ج . ع . م
١١ ـ العامل الديموجرافى فى البيت العربى	للأستاذ حنا رزق	ج . ع . م
١٢ ـ دور المرأة فى المجتمع العربى الحديث	للسيدة سميحة عاصم	الكويت
١٣ ـ المرأة فى الكويت	« لميس الطحاوى	«

الأمومة مصدر إشعاعات الخير فى المجتمع

والبنوة أول انعكاساتها

تمهيد عام لبحث موضوع

الأمومة والبنوة فى البيت العربى

للأستاذ عبد المنعم خلاف

مدير إدارة الشئون الاجتماعية والصحية

بجامعة الدول العربية

تناول السادة الخبراء المختصون الذين تفضلوا بتقديم بحوثهم فى « الأمومة والبنوة فى البيت العربى » جوانب الموضوع التربوية والعلمية والتوجيهية والتشريعية فأضافوا ببحوثهم ثروة نفيسة إلى الثقافة ومناهج التخطيط الاجتماعى للفرد والأسرة والمجتمع .

وأود فى هذه العجالة أن أقدم بين يدى هذه الدراسات طبيعة الأمومة ومكانتها وإشعاعاتها فى المجتمع العربى وأثرها فى القيم العليا للحياة العربية، وهو بحث ينحو نحواً فكريا يجادل عن القيم الثابتة لاتجاهات الخير فى النفس البشرية بوجه عام ويردها إلى مصدرها الأول فى الأمومة ويقاوم بعض المذاهب الفلسفية والنفسية التحليلية المتشائمة التى تحاول طمس الهالات التى تحيط بالقيم العليا التى درجت فى ظلالها المجتمعات والحضارات وتحددت على ضوئها المقاييس ووضعت القوانين والمثل والتقاليد الصالحة التى تسعد الجماعات والأفراد وتعزيهم عما يلقونه من عنت ومشقة فى أداء ضرائب الحياة وتدفعهم إلى المستقبل بعزم وتحمل وتضحية . تلك الصفات الأصيلة فى غريزة الأمومة التى هى منطقة نحو الحياة واتساعها وانتشارها فى مجاهل الجمود والموت .

وأن البحث فى مكانة الأمومة من الحياة النفسية والاجتماعية هو مايجب أن نبدأ به قبل الدخول فى معالجة الجوانب التربوية والتوجيهية والتشريعية للموضوع .

وفيما يلى أهم الخواطر فى هذا الموضوع .

إتجاهات حميـــدة :

١ — الأمومة فى رأى المجتمع العربى هى أعظم غرائز الخير فى النفس البشرية وأوسع مهابط الرحمة الإلهية وفيوضها على الوجود الإنسانى والحيوانى .

وهذه الاتجاهات الحديثة التى تجتهد فى تحليل معانى الأمومة وتقديمها للجماهير فى هالات من التمجيد والاحتفال وتخصيص الأعياد لتكريمها وحمل البنوة الناشئة على مضاعفة تقديسها وتذوق السعادة فى أحضانها . . هى ظواهر تتسق مع طبيعة العرب وماضيهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وهى كذلك ظواهر مبشرات بخير كثير للمجتمعات البشرية يفرح لها المجتمع العربى ويباركها ويشارك فى مساندتها لإقامة المجتمعات على ركائزها الطبيعية التى تقيم الأسرة السعيدة المتعاطفة المتراحمة ليشعر الفرد فى أحضانها بالراحة النفسية والإيمان الكامل بقيم الحب والبر والخير وتأصلها فى ضمير الكون الكبير كله .

تواصل الأرحام وتشابك الأنساب فى المجتمع العربى :

٢ — والمجتمع العربى منذ جاهليته الأولى قائم على تواصل الأرحام وتشابك الأنساب والاعتزاز بحفظها وتسلسلها على مدى العصور، فللرحم لديه معان ممتازة قدسية أدركها شعراؤه وحكماؤه وزعماؤه وأشادوا بها ونحا كموا إليها فى شئونهم وحكموها فى مصائرهم ومواريثهم وتقاليدهم .

ولم تعن أمة من أمم العالم قديما وحديثاً بحفظ الأنساب التى ينتمى إليها الأفراد ويشتبكون بها فى أسر وعشائر وقبائل وشعوب كما عنيت الأمة العربية حتى صار ذلك لديها علماً قائماً بذاته ينفرد به طائفة خاصة فيها هم (النسابون) وقد أوصى الإسلام بتعلم هذا العلم . فى الحديث النبوى «تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم » ولم تحفظ أمة أصول أبوتها الأولى وتفرعاتها وتشابكها من وقائعها وتاريخها وصور شخصياتها كما حفظت الأمة العربية . وذلك لما وقر فى صدرها من ضرورة صلة ذوى الأرحام والقرابة الذين ربطت بينهم الأمومة بحبها وبرها ولما أدركته بفطرتها السليمة من قيمة الاحتفاظ بتسلسل الأنساب وآثارها وإيحاءاتها فى نفوس الناشئين .

إيحاءات علم الأنساب :

تلك الإيحاءات التى تجعل الناشىء يحس من أول عهده بالحياة أنه عريق فى هذا الكون وليس غريباً عنه دخيلا عليه بل له فى الإنسانية جذور ضاربة ومعالم واضحة تركت مفاخر ومآثر تجعل مجال القدرة الصالحة أمامه واسعاً ليتخير من صور أجداده أيهم أقرب إلى طبعه ومثله الأعلى فيمهد له ذلك سبيل التقليد والمحاكاة لبطولة الأبطال منهم وينشأ الناشىء وبين يديه خلاصة مما ترك له أجداده من مآثر ومفاخر فيسعى إلى أن يدخل التاريخ كما دخلوا ممسكا بحبل النسب الذى انحدر إليه عبر الأجيال والأنسال ويخيل إليه أنه تحيط به أرواح أجداده الذين عرف آراءهم وأخلاقهم ومآثرهم .

وما من شك أن تلك العناية النادرة من الأمة العربية بحفظ أنسابها إنما هى إشعاع من إشعاعات الأمومة الصالحة الرشيدة التى تركت آثارها فى الربط بين أفراد الأسرة الواحدة وفروعها برباط الحب والبر والوفاء والاعتزاز وجعلتهم يذكرون مابينهم من أواصر حتى بعد تفرعهم شعوبا وقبائل باعدت بينها امتدادات النسل على مدى الأزمان حتى :

إذا أحتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

كما يقول قائلهم .

من قوانين النمو :

٣ — وقد علمتهم تجارب الحياة وقوانين النمو وغرائز حفظ الذات أن « روابط الرحم » والمحافظة عليها إنما هى وسيلة العزة والتغلب على الأعداء وتكثير السواد . ومن حكمهم «إنما العزة والسيادة للكاثر » والكثرة لا تتأتى إلا بتواصل ذوى الأرحام ولا تتناصر وتلبى دعوات الاستنجاد إلا بدوام المودة والشعور بالقربى .

تمجيد من الإسلام للأمومة :

ولما جاء الإسلام خلع على الأمومة والرحم معانى من القداسة والتمجيد جعلتهما فى المكانة التالية لمقام الربوبية والنصوص الإسلامية فى ذلك أكثر من التذكرة فى مجالة كهذه . وحسبنا أن نذكر منها قول القرآن الكريم « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذوى القربى » . والحديث الشريف (إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله : من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته) « وشجنة من الرحمن » أى فرع مشتق من اسمه .

دلالات من اللغة العربية :

ومن الدلالات الصادقة على امتداد إشعاعات الأمومة فى المجتمع العربى من الأسرة إلى الأمة تلك الدلالة التى تبدو واضحة فى العلاقة اللفظية والمعنوية بين كلمة (أم) وكلمة (أمة) وبين كلمة (رحم) وكلمة (رحمة) .

فالامة بمعناها السياسى والاجتماعى تعنى جماعة من الناس تربط بينهم أواصر معينة من اللغة والدم والتقاليد ووحدة المكان فى الغالب وينتسب إليها أفراد تلك الجماعة وأسرها وعشائرها وقبائلها وشعوبها . فهى الأصل الذى ينضم إليه كل أولئك كما ينضم أفراد الاسرة الواحدة إلى أصلها الأول وهو (الأم) بمعنى الوالدة .

فإلى الأمة تنتهى نسبة الأفراد كما تنتهى إلى الأم نسبة أولادها . (والأم) فى معاجم اللغة العربية هى الوالدة القريبة والبعيدة فتشمل الجدات ، وهى الأصل الذى يضم إليه سائر من يليه من الأسرة . « والأمة » هى الجماعه التى ينتهى نسبها ويضم إلى أصل واحد ويتبادل أفرادها بمقتضى الولاء لها العطف والرحمة والحب والنجدة كما يتبادل الأخوة فى النسب القريب لأم واحدة .

والعلاقة بين (رحم) و (رحمة) لها دلالتها اللفظية الواضحة ودلالتها المعنوية فى انتقال معنى الحب والشفقة والتعاون من محيط الأسرة التى يربط بين أفرادها روابط الرحمة إلى المحيط الإنسانى العام الذى لا يقوم هو أيضاً إلا على تبادل الرحمة والحب وسائر إشعاعات رحمة الأمومة . وهذا كله يدل على أن الأمومة هى أصل المجتمع الإنسانى فى رأى العرب.

ولا شك أن هذا يدل على مدى عمق إدراك العرب لما فى غريزة الأمومة من منابع الخير وأنها أصل الإيمان بفكرته عندهم .

فى مواجهة فلسفات الشك والتشاؤم :

٥ — فيجب أن نسجل ذلك معتزين وأن نقدمه فى أسواق الأفكار والآراء مفتخرين وأن نبشر به وأن ندعم مجتمعاتنا عن طريقه وأن نحتج به فى مقاومة فلسفات الشك والتشاؤم وإهدار القيم وسوء الظن بطبيعة الإنسان : تلك الفلسفات التى تجتاح كثيراً من المجتمعات الأجنبية فتشقيها وتنتقل إلى المجتمعات العربية فتشقى بعض النفوس التى لم تأخذ نصيبها من تعمق الثقافة العربية الأصيلة ولا من تعمق العلم الكونى والعمل المادى لتستطيع بهما على الأقل أن تحيا حياة فيها متاع وإن لم يكن فيها عزاء .

تعليلات منحرفة :

٦ — وقد تركت آراء الفيلسوف الألمانى (فردريك نيتشة) فى « أخلاق السادة وأخلاق العبيد » وفى تمزيق هالات (الضمير الإنسانى) آثارها العميقة الواسعة فى ظهور تعليلات منحرفة لغرائز الخير والرحمة فى النفس الإنسانية طمست فى بعض المجتمعات معالم القيم العليا التى نمت فى وصايتها الحضارات والمدنيات المادية والروحية وتربى فى ظلالها الضمير الإنسانى ووضعت على ضوئها القوانين والشرائع والمواضعات الاجتماعية التى يمكن تجريد المجتمعات منها إطلاقا إذا أريد لحضارتنا أن يضطرد نموها وتمضى بنا إلى المستقبل مزودين بالمعانى الروحية التى لاتتحول حياتنا معها إلى الآلية والجفاف والتشاؤم .

تحليلات معتسفة :

٧ — كما تركت مذاهب التحليل النفسى المعرفة المعتسفة فى تأويل الغرائز النفسية آثارها فى تمزيق هالات الأمومة والبنوة حتى نزلت بهما إلى حضيض خسيس يثير الاشمئزاز والاحتقار ويفقد النفس حسن ظنها الموروث فى تلك المنطقة من العلاقات البشرية .

الأمومة هى منطقة نمو الحياة :

فنظرية (نيتشة) فى فيض الخير عن الأقوياء والسادة عن طريق الإحساس بالقوة والتفوق والاعتزاز بأنفسهم والاحتفاظ باحتقارها الضعفاء وشعورها بالكبرياء عن طريق النظر إلى إذلالهم . . . هذه النظرية فيها غفلة فاحشة وإهمال قبيح للتفكير فى أفق الأمومة مع أنها منطقة نحو الحياة كما قدمنا فهى أجدر منطقة فى النفس البشرية بالتفات الذهن التحليلى وتعمق الفكر الفلسفى مادمنا نبحث ونتتبع مخلصين منابت غرائز الخير والرحمة وما دمنا قد أعطينا أنفسنا حق الهدم للقديم وحق وضع أساس جديد للأخلاق كما فعل (نيتشة) وأمثاله.

ونظرة واحدة إلى الضعف والرقة فى الأمومة بالنسبة إلى قوة الأبوة على الأقل وهى أى الأمومة على ضعفها ورقتها يفيض منها الحب والرحمة والخير والفداء والتضحية بالذات فى سبيل ولدها وتأمين حياته حتى بعد أن يشتد ويقوى ويستغنى عنها بعقد أواصر الحب بينه وبين بيئته . أقول : نظرة واحدة إلى هذا كافية أن تقتلع آراء (نيتشة) من أساسها وتذروها فى وجه صاحبها .

فهنا فى قلب الأم النبع الحقيقى والفيض الغزير للخير، والخير هو أقوى عوامل البناء والإنشاء والتعمير والصيانة للحياة ولكنه قوة هادئة شأنها شأن جميع القوى البانية فى الكون فإنها تعمل عملها فى هدوء وبطء وتدرج وسط القوى المادية العمياء الجبارة فتفلق البذور للأنبات وتنبهها للسير مع الحياة فى رفق وتنميها فى تدرج وتنفتح براعمها فى حذر فى ظلمات الأرحام : أرحام الحيوان وأرحام النبات . . بخلاف قوى الهدم والموت فإنها تأتى عاتية مدمرة متعجلة مباغتة . .

انتقال الخير :

وتنتقل مجموعة أخلاق الخير فى نفس الأم إلى أبنائها ومنهم إلى أبنائهم وهكذا حتى تتكون (أمة) وتنتقل من الأمة التى تغلب عليها إلى غيرها من الأمم التى قد تكون أقل منها خيرية حتى تعم المجتمعات البشرية كلها .

ولولا تلك الإشعاعات المترابطة ما تقاربت مقاييس (الضمير الإنسانى) فى غالبية الأمم وما توحدت معايير العدالة وما تواترت الاستجابات العالمية لدعوات البر والحق فى المجتمعات والأمم حتى انتهى الأمر أخيراً إلى ميثاق (الأمم المتحدة) الذى يحاول الجميع أن يعملوا على تحقيقه ولإقامة العدالة وإقرار حقوق الإنسان وتأمين الفرد فى كل الأمم ضد عوامل العوز والخوف والاستبداد والجهل . ولا شك أن هذا كله من إشعاعات الخير المنبعثة من مصدرها الأصيل وهو الأمومة .

طلائع الفكرة :

ومن الطلائع السابقة إلى هذا المعنى ما قاله القائد الإغريقى (تمستوكليس) حين قال لامرأته وقد ألحت عليه فى رغائب شتى لوليدها « أيتها المرأة أن الأثينيين يحكمون اليونان وأنا أحكم الأثينيين ولكنك أنت تحكمينى وهذا ابنك يحكمك أنت فأوصيه خيراً بهذا النفوذ العظيم » .

وما قاله (نابليون) « إن الام التى تهز مهد الطفل بيمينها تهز العالم بيسارها » فمن (الأم) إلى (الأمة) إلى (الأمم المتحدة) فى عالم واحد سرت إشعاعات الأمومة بدعوة الخير والسلام .

سوء ظن وتأويل :

٨ — وفى مذاهب التحليل النفسى المسرفة نجد تصويراً لغرائز الأمومة وعلاقتها بالبنوة وفى الصورة سوء ظن وتأويل فاسد .. ففى كل زوايا هذه المنطقة ومنحنياتها كما صورها مباءة رجس وأنانية وشهوة .

وكما يرد العالم الكيمائى كل ما فى الأزهار من عطر ورواء ورقة ونعومة إلى الطين وعناصره يرد بعض هؤلاء المحللين النفسيين الأمومة ومناطق الخير فى النفس البشرية إلى الرجس والشر والأنانية .

فأين المهرب إذا من الشر والسوء وقبح النظر إلى الإنسانية ما دامت كل منطقة فى نفسيتها ولو كانت هى الأمومة مباءة شر ؟

وأين سحر البطوليات والفدائيات والطهارة التى عاش بها رواد الإنسانية فى إشعاعات الأمومة وفدائيتها وقداستها فى الماضى .

لقد ذهب كل مافى ذلك العالم الجميل وطمس جماله بأقلام المحللين النفسيين الذين لا يرون فى أعمال النفس إلا عوالم الشر والقبح والسوء . .

بل منطق البداهة غالب :

ولكن إن استطاع أولئك المحللون أن يسودوا صفحات كثيرة لتشويه جمال تلك الذروة العليا وهى الأمومة وأن يفتتن بهم بعض المفكرين والأدباء فينتجوا إنتاجهم متأثرين بالظلال السوداء لآرائهم . . فإن الإنسانية لاتزال ماضية على فطرتها وبداهتها التى تدرك بها ما فى منطقة الأمومة من القيم الثابتة للخير والحب والرحمة وتؤمن بها مهما فلسف لها الفلسفون المتشائمون المحاولون لجميعتها فيما تملك .

والحياة صادقة :

فعمليات الحياة فى الحمل والوضع والرضاعة والسهر والحراسة والحب الخالص والغذاء والتعلق المشبوب بالأبناء والأسرة وعقد أواصر الأخوة والتراحم بين الأبناء وربطهم وإشعارهم أن أمهم لهم وأنهم لأمهم ولأمتهم وللعالم . . هذه العمليات ماضية فى طريقها تعمر العالم وتواصل إمداد شعلة الحياة بالوقود وتملأ سمع الزمان بالحركة والضجيج والإنتاج والزحف إلى المستقبل من رحمة الله الموصولة بالأمومة متغافلة عن طنين الآراء والمذاهب الشاكة المتشائمة .

منطقة تبادل :

٩ — وفى نظرتنا إلى الأمومة نرى (منطقة تبادل) بين ثلاث حركات نفسية :

إحداها حركة هابطة من أعلى بفيض من عواطف الأمومة ورحمة الله عن طريقها إلى البنوة ثم إلى العالم كما أوضحنا .

وثانيتها : حركة صاعدة بعواطف البنوة واستجاباتها وانعكاساتها إلى الأمومة .

وثالثتها : حركة ناشئة من تلاقى الحركتين السابقتين وتفاعلهما وامتزاجهما وهى حركة الشعور (بالأخوة) وارتباطاتها فى كنف الأمومة وبإرشادها .

أذواق البيت :

١٠ — ونلمح كذلك فى (منطقة التبادل) هذه مزيجا من مشاعر الأمومة والبنوة والأخوة والأبوة بمعانى (البيت) وأذواقه وسلامه والراحة التى تغمر النفس فيه وتحقق لذة (المأوى) و (السكن) الذى تسكن نفوس الجميع لديه بعد حركة الكدح والاضطراب فى مسالك العيش ويتعاونون فى ظلاله على مواجهة الحياة ثم يعكسون مشاعرهم وتعاونهم فيه على البيئة والمحيط العام به وبذلك يتسع مدى تأثير (البيت) حتى يشمل الوطن كله .

الحركة الصاعدة :

١ — ويعنينا أن نخصص (للبنوة) وهى (الحركة الصاعدة) فى منطقة التبادل المذكورة جانباً من هذا البحث نبين فيه عواطف الخير والبر والرحمة وسائر الصفات التى تصدر عن البنوة سواء أكانت استجابة وانعكاسا مباشرين عن الأمومة أم انبثاقا ذاتيا أصيلا من البنوة باعتبارها (منطقة نمو) أخرى حاملة لعوامل الوجود والتطور والامتداد للحياة الإنسانية والطبيعة التى فطر الله عليها أعطت الأمومة كل العوامل السالف ذكرها لتؤدى دورها (الوعائى) ودورها (المهادى) ودورها (الحفظى) للوديعة وهى البنوة حتى تشب عن التطويق ويكتمل نموها وتبلغ رشدها فتؤدى هى الأخرى دورها الأصيل فى زمنها هى . ودورها هو حمل أمانات الحياة من البيت والبيئة والإضافة إليها من تفاعلاتها هى مع زمانها ثم تسليم تلك الأمانات مع إضافتها إلى الجيل التالى وهكذا .

فما هى استجابات البنوة وتفاعلاتها النفسية التى نجدها فى منطقة التبادل منعكسة عن الأمومة أو منبثقة من ذات البنوة بخلال البر والخير ؟

هى كما يبدو تتمثل فيما يلى من الاستجابات والانبثاقات التى لها فى حياة المجتمعات وتكوينها أعظم تأثير : —

الانعكاس الأول :

(ا) الشعور بالاحتياج للغير والارتباط به وضرورة مواجهة الحياة بالتعاون معه وعدم إمكان الانفراد والعزلة من دونه لأن تفتح الإحساس والشعور والادراك لدى البنوة مقترنا بالشعور بضعف الطفولة وعجزها ومسيس حاجتها إلى الأمومة وحواشيها من الأبوة والأخوة هو منشأ ذلك الشعور بالحاجة إلى حماية ورعاية من قوة أعلى .

ولا شك أن هذا هو المنشأ الأساسى للحياة المدنية ونموها وازدهارها ومبعث تلك الحقيقة الاجتماعية المقررة التى بنى عليها علم الاجتماع وهى أن الإنسان مدنى بالطبع .

الانعكاس الثانى :

(ب) الشعور بالإمكان والاطمئنان فى كنف الأمومة والشعور بمفاتح الرحمة والرقة المنبعثتين من النفس لأول عهدها بالحياة استجابة وتلبية ومحاكاة لما تفيض به نفس الأمومة . وفى هذا الشعور ما يدخل البنوة إلى الحياة على اعتقاد وتفاؤل بأن الخير أصل الوجود ووجهته وما يجعل للحياة وجهها الجميل فى نظر الطفولة ويطرد من قلب الناشىء الخوف والتوجس والانقباض عن الحياة مما قد توحيه قسوة البيئة المحيطة بالبيت .

الانعكاس الثالث :

(ج) فيض الشعور بالحرية والعزة والتفتح للحياة فى كنف الأمومة وباعتزازها وتشجيعها وإنهاضها واتساع عطفها وإعجابها الطبيعى بأبنائها مما يجعل الحرية والعزة شيئا فطريا تؤمن بنفس الطفل بأنه روح الحياة وطابعها الأول

وقد لمح هذا المعنى الكبير الخليفة الثانى عمر بن الخطاب وسجله فى مقالته المشهورة (كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) .

وطبيعى أن يكون لمدى الحرية والعزة فى البيت وفى كنف الأمومة أثره البالغ فى تكييف حياة النشء وطبعها بطابع الكرامة والتربية الاستقلالية والتفاؤل أو بطابع الهوان والعبودية والتشاؤم فيما بعد حينما يعيش فى مجتمع عام.

الانعكاس الرابع :

(د) الطاعة والانصياع لأوضاع الجماعة ونظمها وقوانينها وهذه الطاعة أثر من آثار تطويع الأم وترويضها لنفس الطفل بالترغيب والترهيب على الحد من حرياته الطبيعية بحدود مصالح الآخرين وحرياتهم واحترام حقوقهم وأداء الواجبات نحوهم وهذا منبثق عظيم من انبثاقات الحياة الاجتماعية والتوجيه الاجتماعى والتربية المدنية والسياسية بل هو الأصل والأساس لكل أولئك . فلولا الطاعة التى تغرسها الأمومة والبيت فى نفس الطفل وتضبط بها من اندفاعاته وتحد من حرياته الجسدية والنفسية ماقامت قائمة للحياة الاجتماعية ونظمها وقوانينها .

وفى البيت القائم على أسس سليمة يتحقق التوازن الدقيق بين الحرية والطاعة للنظام فتكون طاعة الأحرار الذين يشعرون بذاتيتهم الخاصة وحياتهم المستقلة داخل البيت وخارجه وليست طاعة العبيد المحطمى الشخصية المروعين بالعقاب والكبت والخوف .

وفى مجال الطاعة الحرة قدم البيت العربى نماذج عالية فى التربية الاستقلالية والاعتداد بالذات واحترام الجماعة وحرياتها وتقاليدها مما جعل المجتمع العربى مترابطا متكافلا فيه حرية الفرد وحرية الدولة معا .

الانعكاس الخامس :

(هـ) الوفاء (للبيت) الذى درجت فيه البنوة ثم الوفاء للحى المحيط بذلك البيت أو المرتبط به بأى نوع من العلاقات ثم الوفاء للوطن الأكبر الذى يضم ذلك البيت .

والوفاء من صميم صفات الخير الذى تتجاوب به طبيعة البنوة مع طبيعة الأمومة ثم مع البيئة والوطن ومصدره ذلك الحنين الغريزى الذى تثيره فى النفس ذكريات طفولتها وتفتح حواسها وإدراكاتها على المهود والمدارج وملاعب الصبا والشباب فى كنف الحب الذى يرفرف على البيت . فهو من أولى الاستجابات الطبيعية فى نفوس الأبناء للأمومة ورحمها وبرها . وربما يكون له فى الاجتماع البشرى أثر بلى أثر الأمومة .

وقد أدركت البيئة العربية بصدق فطرتها قيمته العليا ووأسعت من دائرة مفعولة فى أخلاقها حتى صار إحدى الشيم العربية الكبرى التى تشتهر بها الأمة العربية وتتعامل بها فى محيطها الخاص وفى المحيط الدولى العام .

وقد أوسع العرب فى ظلاله ومدوها فى مجالات الأخلاق والمعاملات والمعاهدات واحترموا الكلمة والذمة والعهد ولو كلفتهم حياتهم وقبحوا الغدر والعقوق غاية القبح وعدوه من الخطايا الكبرى .

الانعكاس السادس :

(و) الحماية للبيت والدفاع عنه وبذل الدم والمال وجلب الخيرات والمقتنيات إليه شعوراً وإدراكا بأنه الحصن الأول للذات والمهد الأول للأمن والطمأنينة وأنه موضع الأسرار والحرمات الشخصية فلا يدنو منه واغل ولا يدنسه دخيل ولا يسلب منه متلصص ، ثم تنتقل هذه المعانى كلها فى نفوس الأبناء من حرم البيت ذلك الوطن الصغير إلى الوطن الكبير للأمومة التى تنتسب إليها البنوة الناشئة فتصنع من أجلها البطولات الخالدة فى الدفاع عن حرمات الأوطان وجلب المنافع والأمجاد والمفاخر إليها كما كانت تفعل مع البيت فى صباها .

هذه هى أعظم استجابات البنوة وانبثاقاتها وتفاعلاتها مع طبيعة الأمومة فى (منطقه التبادل) .

الإيمان هو النتيجة الكبرى :

وهناك نتيجة كبرى لهذا التجاوب والتفاعل بين البنوة والأمومة ، هى تلك الاستجابة للكون كله بالنزوع الفطرى إلى الإيمان بالخالق وعنايته الإلهية ورحمته وبره . فإن الإيمان ما هو إلا شعور بالبنوة لراعى الكون . هو مزيج من الشعور بالحاجة الماسة لرعايته والشعور بالإيمان والتفاؤل واعتقاد الخير وتفتح الذات والحرية فى كنف رحمته الغامرة للكون وشعور الطاعة والانصياع لقوانينه وسننه فى النفس والطبيعة والشعور بالوفاء له والحماية لحرماته وبذل النفس والجهد لتحقيق البر والعمل الصالح الذى يحفظ بركات الحياة وينمى منافعها ويقاوم عوامل الانحلال والشر والفساد فيها .

وهكذا تتجه بنا الأمومة وإشعاعاتها وانعكاساتها إلى أعظم آفاق الحياة العليا وتصلنا به وبالمجتمع الإنسانى أوثق اتصال ونعم ذلك من مقام كريم .

من دلالات التاريخ :

١٣ — وقد أدركت المجتمعات البشرية فى عصورها البدائية مقام الأمومة وكذلك عقد بعضها لواء توجيه الأسرة للأم وجعل إليها انتساب الأبناء . وفى التاريخ العربى الجاهلى بقايا من هذا الدور ، وقد كتب بعض المؤلفين العرب عمن نسبوا إلى أمهاتهم وكان هذا أثراً من من آثار انطلاق الأبوة وعدم ارتباطها بالبنوة والبيت فى العصور الأولى .

ولهذه المجتمعات البدائية العذر فى ذلك إذ أن أفرادها لم يجدوا الراحة والحب والارتباط إلا فى كنف الأمومة فى بيئات كان كل مافيها قاسياً غادراً متربصاً وليس فيها من واحة سلام وبر إلا فى أحضانها .

أسس تفكيرنا وأخلاقنا :

وبعد فنحن فى مجتمعاتنا العربية نعلم جيداً أن حياتنا الاجتماعية مبنية على الغرائز الفطرية المهذبة المصقولة بتجارب

الحكمة والدين وأن عقائدنا فى الخير تستمد من سلامة هذه الفطرة وعدم انحرافها وانسياقها وراء التحليلات والتعديلات المسرفة التى يسوق إليها حب الإغراب والجرى وراء الفروض الذهنية التى يقود إليها الذكاء .

موقعنا وآثاره :

ونحن نعلم كذلك أننا فى منطقة الشرق الأدنى بالذات تلتقى لدينا روافد من كل ألوان الأفكار والآراء الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية ، وأن طبيعة موقعنا الجغرافى توحى إلينا وتحتم علينا أن نمزج شتى الآراء ونخرج منها خلاصة وسطى بين الانحرافات والتطرفات، وسواء أكانت آراؤنا عقلية فلسفية أم روحية إشرافية فإنها تتأثر بما يتلاقى فى هذه المنطقة من تيارات ولكنها كالمركز فى العجلة يتحول ببطء كبير عن حركة محيطها .

عرش الأمومة أم جمال الجسم ؟

وإن أشد ما يخشى علينا أن ننساق وراء الآراء المسرفة التى تدعو إلى تحرير المرأة من واجبها الأول الأصيل وهو الأمومة ورعاية البيت فنخلع عن جبينها ذلك التاج العظيم الكريم وتعطل تلك الغريزة الشريفة وتجعلها ترمى بمطامعها إلى ما يعمل الرجل ويسلك وإلى ما يرضى نوعاً معيناً من الرجال . وأى نوع هو ؟

إنه ذلك النوع الذى يعشق جمال جسد المرأة وحده ويحاول حرمانها من النسل والأمومة حتى لا يؤثرا فى ذلك الجمال ويقللا من متاع ذلك النوع به .

فإذا انساقت المرأة وراء هذه الدعوة فقد انفلتت من واجبها الأصيل ومبرر وجودها وصارت إلى فراغ والفراغ الطبيعة تأباه .

وقد أعدت المرأة كما يقول (شوبنهار) لتحيا بجملتها فى النوع أكثر من حياتها فى الحياة ومن هنا علق عليها بعض الباحثين الاجتماعيين آمال المستقبل فى السلام وتطهير الاراضى من شرور الحروب والمخاصمات كما تطهر بيتها الصغير وتربط بين أفراده برباط الأخوة .

إنصاف المرأة :

١٤ — ويجب أن نفرق فى مجال الدعوة إلى إنصاف المرأة بين ماهو من صميم غريزتها ولب وظيفتها الحيوية الثابتة على اختلاف العصور فى مقابل وظيفة الرجل الحيوية الثابتة وبين ماهو من بقايا الظلم الذى وقع على المرأة فى عصور الهمجية الأولى . فما هو من بقايا عصور الهمجية يجب تحريرها منه بلا جدال وماهو من صميم غريزتها ووظيفتها الحيوية يجب ألا نحاول حملها على التمرد عليه وإلا ضربنا قوانين الحياة بالتعطيل ووصفنا تخطيطها وتنويعها الإنسان بين ذكر وأنثى بالخبط العشوائى والصدفة العمياء . فليس معنى إنصاف المرأة أن تحررها من تبعات النسل والأمومة بأية حجة على الإطلاق أو نسوى بينها وبين الرجل فى جميع أنواع التعليم وأعباء التكليف .. وإنما إنصافها يكون بتحريرها من النظرة إلى ضعفها العضلى والعصبى عن الرجل على أنه مسبب للاضطهاد والاغتصاب والاحتقار وبتحريرها من آثار الظلم الذى استتبعته هذه النظرة وبتعليمها كل مالا يليق بها ان تجهله من شئون الحياة وضروب الفنون وأنواع العلوم

وبتدريبها على الأعمال التى تتصل بوظيفتها الأصيلة فى الحياة والبيت وبتقديس الأمومة واحترام المرأة من أجلها غاية الاحترام بحيث تشعر أن بطولاتها تكرم فى هذا المجال كما تكرم بطولات الرجال فى مجالات حياتهم المختلفة .

أما أن تزعم ببغاوات الإصلاح الاجتماعى وتدعى أن المرأة لا تختلف عن الرجل من حيث طبيعتها وقابليتها لكل ماينهض به الرجل من أعباء ومشقات وبالتالى يجب ألا يختلف تعليمها وعملها عنه فذلك انحراف عن سنن الطبيعة والعلم وتقليد قرود وهو تملق رخيص قد اغترت به بعض النساء المعاصرات فأصابهن بالانحراف عن طبيعتهن الأصيلة وزحزحهن عن عرش الأمومة وأفقدهن تاجها ومايحيط به من هالات وأسلمهن إلى تجارب قاسية ومحن دامية .

فلتنظر المرأة إلى مقامها العظيم الكريم . ولتحافظ على عرشها السامى حتى لايزحزحها عنه العابثون السطحيون وعباد الجسد وادعياء التطور الغافلون عن الغايات العلمية الثابتة للحياة وعلاقتها برسالة الأمومة على مر الزمان .

البيت نواة المجتمع

للدكتور على عبد الواحد وافى

(الجمهورية العربية المتحدة)

البيوت هى الخلايا الأولى للمجتمع :

تتأثر شئون المجتمع تأثراً كبيراً بشئون الأسرات التى يتألف منها . فإذا أحسنت الأسرات أداء رسالتها وقامت بوظائفها على نهج سليم ، وسلكت أمثل الطرق وأعمها نفعاً للوصول إلى أغراضها ، استقرت أحوال المجتمع وتوطدت أركانه .وإذا اضطربت الأسرة وجانبها السداد فى هذه الأمور ، اضطربت حياة الأمة ، واختل توازنها، وساء نظامها . — فالأسرات ، كما يقول العلامة أو جيست كونت A. Conte منشىء علم الاجتماع ، هى الخلايا الأولى التى يتألف منها جسم المجتمع : فبصلاحها يصلح هذا الجسم ، وبفسادها يدب إليه الوهن والانحلال .

ولا غرابة أن تكون « البيوت » هى العناصر الأولى للمجتمع ، فأول بيئة تعد الكائن الإنسانى للحياة الاجتماعية وتنعكس فيها صور هذه الحياة هى الأسرة . والحياة الاجتماعية لاتتحقق إلا حيث تمتزج العقول ، وتتفاعل الوجدانات ، وتختلف الوظائف ، وينشأ التضامن فى الجهود والاتجاه إلى هدف مشترك ، وأبسط الأوضاع الإنسانية التى تتمثل فيها هذه الأمور هى حياة الأسرة . وإنتاج الأمة المادى والعقلى يتألف من مجموع ماتنتجه الأسرات .

وظائف البيت قديماً وحديثاً :

وقد كانت الأسرة فى أقدم العهود الإنسانية تقوم بجميع الوظائف الاجتماعية فى الحدود التى يسمح بها نطاقها وبالقدر الذى تقتضيه حاجاتها .

ويبدو هذا بشكل واضح فى الشعوب التى تعتبر ممثلة فى نظامها لأقدم مراحل الإنسانية وهى العشائر البدائية بأمريكا واستراليا . فكل عشيرة من هذه العشائر كانت أسرة مستقلة ، إذ لم يكن لديهم فرق بين أسرة وعشيرة ، وكل عشيرة من هذه العشائر كانت تقوم بمختلف الوظائف الاجتماعية ، وتتمثل فيها جميع السلطات والهيئات المعروفة فى العصر الحاضر . فكانت هيئة اقتصادية تقوم بإنتاج ماتحتاج إليه وتشرف على شئون التوزيع والاستهلاك والاستبدال الداخلى وغيره ، وكانت هيئة تشريعية تضع القوانين وترسم الحدود وتمنح الحقوق وتفرض الواجبات ، وكانت هيئة سياسية تنفيذية تشرف على تحقيق سياستها العامة وتنظيم علاقاتها بما عداها من العشائر وتتعهد تنفيذ ماتضعه من شرائع ، وكانت هيئة قضائية تقوم بالفصل فيما ينشأ بين الافراد من خصومات وتعمل على رد الحقوق إلى أهلها

والقصاص للمظلوم من الظالم ، وحراسة القانون وعقاب من يعتدى على حدوده . وكانت هيئة دينية تضع قواعد الدين وتفصل أحكامه وتوضح مناهجه وتقوم بحراسته : وبالجملة لم تغادر أية ناحية من نواحى الوظائف الاجتماعية إلا اضطلعت وأشرفت على شئونها .

وقد ظلت الأسرة الإنسانية محتفظة بهذه الوظائف الواسعة إلى عهد قريب . فالأسرة الرومانية مثلا فى العصور القديمة ما كانت تختلف فى هذه الناحية اختلافاً كبيراً عن الأسرة فى الشعوب البدائية .

ثم أخذ المجتمع العام يطغى سلطانه على سلطان الأسرة ، وينتقص وظائفها من أطرافها وينشىء لكل وظيفة ينتزعها منها هيئة خاصة مستقلة عن الأسرات .

ولكن على الرغم من ذلك لا يزال البيت يمثل الخلية الأولى للمجتمع ، ولا يزال دعامة هامة من دعائم الحياة الاجتماعية ، ولا يزال يؤدى وظائف ذات بال فى مختلف فروع الحياة .

وترجع أهم وظائفة هذه إلى طائفتين إحداهما تتصل بشئون التربية ، والأخرى تتجه إلى ميادين الاقتصاد .

الوظائف التربوية للبيت

وظائف البيت التربوية وتطورها :

كان المنزل فى فجر التاريخ الإنسانى هو الجهاز الوحيد للتربية المقصودة ، فالعشيرة البدائية هى التى كانت تقوم وحدها بتربية الأطفال من النواحى الجسمية والعقلية والخلقية وتهيىء وسائل إعدادهم للحياة . وظل الأمر على هذه الحال فاتحة العصور القديمة . فالأسرة الرومانية فى أقدم عصورها كانت تشرف وحدها على تنشئة أطفالها وتربيتهم من مختلف النواحى وفق ما تشاء لها نظمها الخاصة ، بدون تدخل من جانب أية سلطة أخرى من سلطات المجتمع العام .

وبذلك كانت تربية الطفل متروكة للعوامل غير المقصودة يساعدها المنزل فى ذلك ويكمل نقصها . وكانت جهود المنزل التربوية فى مبدأ الأمر مختلطة بوجوه نشاطه الأخرى وغير متميزة عنها ، حتى لقد كانت تربية الأطفال أشبه شىء بتربية غير مقصودة . ثم أخذ المنزل يوجه عناية خاصة لشئون التربية ويتجه إليها فى صورة مقصودة . وبعد أن ظهرت الكتابة ودون بفضلها ما اهتدى إليه الإنسان من حقائق فى مختلف الشئون ، وأصبحت تربية الجيل اللاحق تتوقف على إحاطته بما كشفه السلف فى ميادين العلوم والفنون ، إنضم إلى وظائف المنزل التربوية القديمة وظيفة جديدة وهى وظيفة التعليم بمعناه المدرسى الخاص . وكان يقوم بهذه الوظيفة الآباء والأقرباء وكبار أفراد الأسرة والعشيرة خيال صغارها .

ثم أخذ المجتمع ينتزع من الأسرة هذه الوظيفة شيئا فشيئا ، وينشىء للأشراف عليها هيئات خاصة تتمثل فى وزارات التربية والتعليم والمؤسسات العلمية والمدارس والمعاهد والجامعات والمنشآت الرياضية والثقافية بمختلف فروعها ووضع نظما تنتقص من حرية الأسرة وتفرض عليها التزامات بصدد تربية أولادها وتعليمهم ، كنظام التعليم الإلزامى

الذى يجبر كل أسرة أن تبعث أولادها فى مرحلة معينة من مراحل طفولتهم إلى مدارس خاصة لتلقى منهج دراسى عام ارتضته الدولة لجميع أفراد الشعب ، وكنظام الخدمة العسكرية الاجبارية الذى يوجب على كل أسرة عندما يبلغ أولادها سناً معينة فى فاتحة شبابهم أن تقدمهم للدولة لتلحقهم بأفراد جيشها العامل مدة ما ، وتأخذهم فى أثناء هذه المدة بالتربية العسكرية والتدريب الحربى .

وعلى الرغم من ذلك فإن المنزل لايزال عاملا من أهم عوامل التربية ، بل لا نعدو الصواب كثيراً إذا قلنا أن كفته ترجح كفة العوامل الأخرى كلها مجتمعة منضما بعضها إلى بعض .

وذلك أن على المنزل تتوقف آثار هذه العوامل جميعاً . فبصلاحه وجهوده الرشيدة تصلح آثارها وتؤتى أكلها وبفساده وانحراف أعماله تنحرف كلها عن جادة القصد ويجانبها التوفيق . وللمنزل فضلا عن ذلك وظائف تربوية خطيرة خاصة به لايكاد يشاركه فيها غيره ؛ ولايغنى فيها غناءه أى عامل آخر ، كما سيظهر ذلك فى الفقرتين التاليتين .

آثار البيت فى عوامل التربية الأخرى

للمنزل آثار بليغة فى مختلف عوامل التربية الأخرى مقصودها وغير مقصودها : فى الوراثة والبيئة الجغرافية والتقليد واللعب والبيئة الاجتماعية العامة والمدرسة :

١ — فعلى المنزل يتوقف عمل الوراثة نفسها . فبمقدار دقة كلا الزوجين فى حسن اختيار زوجه ، وحرصه على أن يكون من سلالة طاهرة ومنبت صالح وعلى أن يكون خالياً من العيوب الوراثية الجسمية والعقلية والخلقية ، بمقدار هذه الدقة وهذا الحرص يتحقق فى النسل الآثار التربوية الصالحة للوراثة ، ويعصم من آثارها السيئة . فواجب الآباء نحو أولادهم ، وآثار الأسرة التربوية فى حياتهم ، كل ذلك يمتد إلى مرحلة سابقة لزواج آبائهم بأمهاتهم ، فيبدأ منذ أن يفكر أحد الأبوين فى اختيار شريكة فى الحياة .

هذا إلى أنه فى إمكان البيت القضاء على كثير مما يظهر لدى الأطفال من صفات وراثية سيئة أو تعليتها وتوجيهها فى غير اتجاهها الضار . فإن كان رشيداً فى مناهج تربيته وقى أطفاله شرور هذه الصفات ، وإلا جلب عليهم بجهله وإهماله أضراراً وراثية بليغة تلازمهم مدى الحياة .

وفضلا عن هذا كله فإن معظم الصفات الوراثية ضارها ونافعها يوجد فى الطفل بالقوة لا بالفعل ، أى على صورة استعدادات واتجاهات ، فإن وجد فى المنزل بيئة مواتية نما وترعرع ، وإلا ذوى وذبل .

٢ — وبمقدار نشاط المنزل وحرصه على الإفادة من الوسط الجغرافى المحيط به ومن خيرات بيئته الطبيعية ، ومبلغ كفاحه ونجاحه فى التغلب على مساوئها ومعوقاتها ، وحسن توجيهه للأطفال فى هذه الأمور ، تتحقق فيهم الآثار التربوية الصالحة لبيئتهم الجغرافية ويجتنبون ماتنطوى عليه من مفاسد وشرور .

٣ — وأول ماينتقل إلى الطفل عن طريق التقليد فى الصوت والحركة لغة آبائه وأفراد أسرته وأعمالهم وسلوكهم ومناهجهم فى الحياة . فبمقدار سمو المنزل فى هذه الأمور تسمو آثار التقليد التربوية فى الطفل ، وبمقدار انحطاطه فيها يكون عامل التقليد وبالا عليه .

٤ — ومعظم فترة الألعاب يقضيها الطفل فى المنزل ، ومعظم ألعابه يؤديها تحت إشراف أفراد أسرته وتوجيههم ويقتبس كثيراً من عناصرها من أعمالهم . فكلما كانت بيئة المنزل مساعدة على النشاط اللعبى ، وكانت الأسرة رشيدة فى توجيه أطفالها وإشرافها عليهم فى ألعابهم ، وكانت أعمالها نماذج رفيعة لما يأتونه من حركات ، آتى اللعب أكله ، وحقق فوائد فى التربية ، وساعد على إعداد النشء إعداداً صحيحاً للحياة .

٥ — وعن طريق المنزل تحقق البيئة الاجتماعية آثارها التربوية فى الأطفال . فبفضله تنتقل إليهم تقاليد أمتهم ونظمها وعرفها الخلقى وعقائدها وآدابها وفضائلها وتاريخها وكثيراً مما أحرزته من تراث فى مختلف الشئون . فإن وفق المنزل فى أداء هذه الرسالة الجليلة ، وكان موصلا جيداً لجميع هذه الامور ، حققت البيئة الاجتماعية آثارها البليغة فى التربية ، وألا أفسد عليها المنزل عملها ، فلم يفدمنها الطفل إلا آثاراً تافهة أو لم يصبه منها إلا الشرور والأضرار .

٦ — وعلى مقدار المعونة التى يقدمها المنزل للمدرسة ، وتضافره معها فى تحقيق أغراضها ، وعمله على تكملة نقصها ، وما يبذله من جهد فى تدارك مايتخلف عن أعمالها من ثغرات فى شخصية الطفل وفى تربيته ، على هذه الأمور يتوقف سير المدرسة ومبلغ نجاحها فى أداء رسالتها فى تربية النشء .

ومن ثم وجب أن تتوثق الروابط بين المنزل والمدرسة وبين الآباء والمدرسين ، وأن تنظم بينهما قواعد التعاون على أداء رسالة التربية .

فيجب على المدرسة أن تعقد التعارف بين الآباء والمدرسين . وأن تنظم حفلات واجتماعات يلتقى فيها هؤلاء بأولئك ويتبادلون الرأى فى شئون التربية والتعليم وعلاج وجوه النقص العامة والخاصة ببعض التلاميذ ، ويجب أن تنشىء بجانب مجلس الاساتذة مجلسا للآباء يختار أولياء الأمور أنفسهم أعضاء لمجلس إدارته من بينهم ، وتسترشد المدرسة فى شئونها بما يقدمه إليها هذا المجلس من مقترحات وتوصيات وآراء . [1] ويجب على المدرسة كذلك أن ترشد الآباء إلى مايجب عليهم القيام به حيال تربية أولادهم والاشراف على أعمالهم المدرسية فى الفترات الطويلة التى يقضونها فى المنزل ، وتهديهم إلى أمثل الوسائل لشغل أوقات فراغهم وأجازتهم وعطلاتهم الصيفية ، وترسل إليهم من حين لآخر تقارير مفصلة عن أخلاقهم وسلوكهم ومواظبتهم وقيامهم بواجباتهم ومبلغ نجاحهم فى مواد دراستهم وما يبدو فيهم من مظاهر النقص والانحراف وماتقترحه من وسائل العلاج .

ويجب على الآباء من جهتهم الامتثال لجميع هذه الإرشادات وتحقيق هذه التوصيات ، وتذليل السبل أمام أولادهم لاداء واجباتهم المدرسية على خير وجه ، والعناية بصحتهم وتقوية أجسامهم ووقايتهم من الأمراض ، وتجنب كل مامن شأنه أن يعوق الاولاد عن المواظبة أو أداء الواجب المدرسى وكل مايشتم منه احتقار للمدرسة أو الحط من كرامة القائمين على شئونها ، كما يجب عليهم ألا يدخروا وسعا فى تدارك مايتخلف عن أعمال المدرسة من ثغرات فى شخصية أولادهم وفى تربيتهم ، وأن يكملوا بجهودهم الخاصة مالا تقوى المدرسة على عمله أو تقصر فى أدائه فى مختلف الشئون المتعلقة بتربية أولادهم وإعدادهم إعداداً صالحاً للحياة .

---

(١) أنشئت أخيرا هذه المجالس فى مختلف المدارس المصرية على أسس لا بأس بها فى جملتها . وينتظر أن يكون لهذا النظام آثارطيبة فى شئون التربية والتعليم .

هذا ، وقد يتبادر إلى أذهان كثير من الناس فى هذا الصدد أن الوظيفة الأساسية للمدرسة تتمثل فى تزويد التلاميذ بالمعلومات ، وأن ماعدا ذلك من نواحى التربية يقع على كاهل المنزل وحده .

وهذا فهم خاطىء لوظائف المدرسة . فالمدرسة فى الأمم المتحضرة الحديثة قد أصبحت موطنا للتربية على العموم ولم تعد وظيفتها مقصورة على تلقين التلاميذ المعلومات كما كانت من قبل . وينبغى أن تكون وظيفتها شاملة لكل نواحى التربية ، ولاينبغى أن تتخفف من آية ناحية من هذه النواحى وتلقيها على كاهل غيرها . وذلك لأنها هى الإدارة الوحيدة التى تتوافر لديها الامكانيات الضرورية لأداء هذه الوظيفة . أما الأسرة فلا يمكنها أن تغنى غناء المدرسة فى أى فرع من هذه الفروع . لأنه ليس مفروضا فى جميع الآباء أن يكونوا متخصصين فى مختلف فروع التربية ، والحضارة الحديثة مبنية على التخصص فى كل شىء ، ولأن المنازل غير مزودة بما يلزم لفروع التربية من أجهزة وأدوات وملاعب وساحات ، ولأن الآباء مشغولون بأعمالهم الخاصة التى تستغرق معظم أوقاتهم ولاتكاد تبقى لهم إلا القدر الضرورى لراحتهم ، ولأن المدرسة تستأثر من جهة أخرى بمعظم أوقات التلميذ ، فالتلميذ يبقى فيها من الثامنة صباحاً إلى قبيل الرابعة مساء ، فلا يبقى له بعد ذلك وبعد ساعات النوم إلا بضع ساعات للاستجمام واستذكار الدروس وأداء الواجب المدرسى . فحتى لوسلمنا جدلا بأن جميع الآباء متخصصون فى جميع فروع التربية وأن أوقاتهم تسمح لهم بالقيام بهذه الوظيفة ، وأن جميع المنازل مزودة بما يلزم لذلك من أجهزة وأدوات وملاعب وساحات ، فإن الفترة القصيرة الباقية للتلميذ بعد اليوم المدرسى لايتمكن فيها الآباء من تأدية عمله يعتد به فى شئون التربية والتعليم — وليس معنى ذلك أن المنزل يجب إعفاؤه من جميع أعباء التربية ، ولكن معناه أنه لايجوز أن نكلفه من هذه الأعباء مالاطاقة له به ومالا يحسن أداءه ولاتسمح له كفايته ولا إمكانياته أن يضطلع به ، وأننا مع مطالبتنا للمنزل أن يعاون المدرسة فى وظائفها فى حدود قدراته المادية والمعنوية ، لانجيز للمدرسة أن تغفل أية ناحية من نواحى التربية أو تقتصر فيها إعتماداً منها على المنزل .

آثار البيت التربوية الخاصة به :

وللمنزل بجانب هذا كله وظائف تربوية خطيرة خاصة به لايكاد يشاركه فيها غيره ولايغنى فيها غناءه أى عامل آخر من عوامل التربية :

١ — فهو العامل الوحيد للحضانة والتربية المقصودة فى المراحل الأولى للطفولة ، ولاتستطيع أية مؤسسة عامة أن تسد مسد المنزل فى هذه الشئون . ولايقصد من دور الحضانة أو الكفالة التى تنشئها الدولة والهيئات لإيواء الأطفال فى مراحلهم الأولى إلا تدارك الحالات التى يحرم فيها الطفل من الأسرة أو تحول فيها ظروف قاهرة بين الأسرة وقيامها بهذه الوظيفة . ولايتاح لهذه المؤسسات مهما حرصت على تجويد أعمالها ، أن تحقق مايحققه المنزل فى هذه الشئون .

٢ — وعلى المنزل يقع قسط كبير من واجب التربية الخلقية والوجدانية والدينية فى جميع مراحل الطفولة ، بل فى المراحل التالية لها كذلك وفى الأمم التى تحارب مدارسها الرسمية الدين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كالأمم الشيوعية وفى الأمم التى تسير معاهدها الدراسية على نظام الحياد فى شئون الدين والأخلاق الدينية Laicite ، فتنفض

بدها فى جميع الأمور التى تتصل بهذه النواحى كفرنسا والأمم التى نحت نحوها ، فى هذه الأمم وفى تلك يقع عبء التربية الدينية كاملا على عاتق المنزل وحده .

٣ — وبفضل الحياة فى الأسرة يتكون لدى الفرد الروح العائلى والعواطف الأسرية المختلفة وتنشأ الاتجاهات الأولى للحياة الاجتماعية المنظمة . فالأسرة هى التى تجعل من الطفل حيوانا مدنيا وتزوده بالعواطف والاتجاهات اللازمة للحياة فى المجتمع وفى البيت .

تقصير البيت العربى فى وظائفه التربوية

وقد قصر البيت العربى فى العصر الحاضر تقصيراً كبيراً فى أداء وظائفه التربوية . فلم يستطع تكملة ما يتخلف عن أعمال المدرسة من ثغرات فى شخصية الطفل وفى تربيته ، وما أكثر هذه الثغرات فى مدارسنا . ولم يتعاون تعاونا صادقا مع المدرسة فى تربية النشىء . بل ان الأوضاع السائدة فى كثير من بيوتنا العربية لتجعلها معوقة لأعمال المدرسة ومفسدة لجهودها فى ميادين التربية .

ويرجع أهم سبب فى ذلك إلى انحطاط المستوى الثقافى فى كثير من هذه البيوت .

ولذلك ينبغى ألا يدخر أولو الامر وسعا فى علاج هذا النقص عن طريق الإذاعة والصحافة والأفلام السينمائية والتمثيل والإرشاد وإنشاء الجامعات الشعبية ، أو « مدارس الآباء » على حد تعبير « المؤتمر الدولى الخامس للتربية العائلية[1] » ، لتزويد الآباء والأمهات بما تعوزهم معرفته فى هذه الميادين .

الوظائف الاقتصادية للبيت

أهمية الشئون الاقتصادية فى حياة الأمة وتأثر هذه الشئون باقتصاديات البيت

يقوم العامل الاقتصادى فى حياة الأمم بأهم الوظائف ، ويتدخل فى جميع الشئون ، فهو المحور الذى تدور حوله معظم الظواهر الاجتماعية ، والسبب الرئيسى الذى يتصل به — عن قرب أو عن بعد — كل مايحدث فى المجتمع من نهوض أو نكوص ، وقوة أو انحلال ، وما يناله من تطور فى مختلف نواحيه . فباستقرار الحياة الاقتصادية ورقيها تستقر الحياة الاجتماعية ، وترقى السياسة ، وينهض التشريع ، بل تتهذب العقائد ، وتنشط الأفكار ، وتسمو الآداب وباضطراب الحياة الاقتصادية وعدم توافر مايسد حاجة الناس تضطرب الحياة الاجتماعية ، وتختل شئون السياسة والحكم ، ويجمد التشريع ، بل تنحط العقائد ، وترقد العقول ، وتخمد القرائح . ولقد صدق المثل اليونانى إذ يقول « لايمكن التفلسف مادامت البطن فارغة » . ولم يبعد كارل ماركس كثيراً عن الحقيقة حينما ذهب إلى أن تحول الطاحونة التى تدار باليد إلى طاحونة تدار بالهواء ثم إلى طاحونة تدار بالبخار قد أدى إلى معظم ماحدث فى العصور الوسطى والحديثة من تحول فى النظم الاجتماعية وشئون الحكم ومظاهر الثقافة والاخلاق .

---

(١) أنظر رغبات المؤتمر الدولى الخامس للتربية العائلية ترجمة الدكتور على عبد الواحد وافى صفحات ٢٢ — ٤٦ .

والاحوال الاقتصادية العامة تتأثر تأثراً كبيراً بالشئون الاقتصادية العائلية . فإذا أحسنت الاسرة أداء رسالتها الاقتصادية ، وقامت بوظائفها فى هذا الصدد على وجه مرض ، وسلكت خير السبل فى شئونها المتعلقة بالإنتاج والتداول والتوزيع والاستهلاك ، ارتقت حياة الأمة الاقتصادية واستقرت شئونها على قرار مكين . وإذا اضطربت الأسرة فى وظائفها الاقتصادية ، وجانبها السداد فى هذه الناحية ، اضطربت حياة الأمة الاقتصادية واختل توازنها وساءت أحوالها .

فجميع مظاهر الحياة الاجتماعية تتأثر بشئون الأمة الاقتصادية ، وشئون الأمة الاقتصادية ترتكز على الشئون الاقتصادية للبيوت التى تتألف منها . ولذلك كان قدماء اليونان لايفهمون من كلمات « اقتصاد » عند إطلاقها معنى آخر غير اقتصاديات الأسرة وتدبير المنزل .

ضآلة الإنتاج فى البيت العربى

وأثر ذلك فى ضآلة الدخل القومى العام

ووسائل علاج هذه الحال

ومن هذا يتبين أن السبب الرئيسى فى ضآلة الدخل القومى فى كثير من الشعوب العربية يرجع إلى ضآلة الإنتاج فى البيت العربى .

ففى مصر مثلا يتجاوز الدخل القومى فى الوقت الحاضر تسعمائة مليون من الجنيهات فى العام . والدخل القومى معناه إنتاج جميع أفراد الأمة وخدماتهم على إختلاف أشكالها مقدرة بالنقود . وتشير البيانات الأولية التى أعدت عن تعداد سنة ١٩٥٧ للإقليم المصرى إلى أن عدد الأسرات فى مصر يبلغ ٤ ملايين و ٦٥١ ألف أسرة[1] . فإذا قسم الدخل العام على عدد الاسرات كان مايخص الأسرة الواحدة نحو مائتى جنيه فى العام . أى أن متوسط ما تنتجه الأسرة المصرية فى العام لاتزيد قيمته على مائتى جنيه . وهذا يعد من أقل مستويات الإنتاج فى العصر الحديث بين الأمم المتحضرة . ففى معظم بلاد أوربا يصل متوسط إنتاج الاسرة إلى خمسة عشر ضعفا .[2]

ويلاحظ لسوء الحظ أن معظم المستويات المنخفضة فى الإنتاج توجد فى أسرات الفلاحين فى الريف المصرى ، وهم الذين يمثلون أغلبية السكان .

ولا علاج لهذه الحال إلا بإيجاد موارد جديدة للإنتاج فى الاسرات العربية عن طريق زيادة المساحة المنزرعة ، وتحسين وسائل الإنتاج ، ونشر الصناعات الزراعية فى الريف العربى والتوسع فى المشروعات الصناعية الخالصة .

---

(١) بينما تشير هذه البيانات الى أن عدد سكان الاقليم المصرى يبلغ ٢٢ مليون و ٨٤٠ ألف نسمة ، أى بمتوسط خمسة أفراد للاسرة الواحدة .

(٢) يخص الفرد الواحد من مجموع الانتاج القومى فى معظم بلاد أوروبا نحو ٢٥٠ جنيها فى العام ويرتفع فى انجلترا الى ٥٠٠ جنيه وفى الولايات المتحدة الامريكية الى ٧٥٠ جنيها . وقد حسبنا انتاج الاسرة الاوربية والامريكية على أساس أنها تتألف من أربعة أفراد فى المتوسط .

زيادة المساحة المنزرعة

وأثره فى زيادة انتاج البيت العربى

وفى زيادة الدخل القومى العام

أما زيادة المساحة المنزرعة فأمرها ميسور فى معظم البلاد العربية ، فالمساحة المنزرعة بالفعل فى هذه البلاد ليست شيئاً مذكوراً بجانب الأراضى البور الصالحة للزراعة . فالمساحة المنزرعة فى وادى النيل فى الاقليم المصرى مثلا فى الوقت الحاضر لا تكاد تتجاوز نصف المساحة الصالحة للزراعة. هذا إلى البحيرات التى يمكن تجفيفها والانتفاع بمساحاتها الواسعة فى الزراعة ، وإلى الصحارى المصرية التى ثبت أنه من الممكن أن يزرع منها فى مستقبل غير بعيد نحو ثلاثة ملايين من الأفدنة وأن تستغل المياه الجوفية فى إصلاحها وريها .

ولا يخفى أنه باستصلاح هذه المساحات يزداد إنتاج الأسرات ويزداد معه الدخل القومى العام إلى أضعاف ماهما عليه الآن .

تحسين الإنتاج الزراعى

وأثره فى زيادة إنتاج البيت العربى

وأما تحسين الإنتاج الزراعى ، فيمكن تحقيقه بوسائل كثيرة ، منها : تحسين وسائل الرى والصرف ، ووقاية الأرض من أخطار الفيضانات العالية ، والانتفاع بالمياه الجوفية فى الرى عن طريق الآبار الارتوازية وتدبير وسائل الانتفاع بالمياه الزائدة عن أعمال التخزين ، وتحويل أراضى الحياض إلى نظام الرى الصيفى ، ومقاومة الآفات الزراعية وتوفير السماد والبذور وانتقاء الجيد منها والإكثار منه ، واستخدام الآلات الحديثة فى شئون الحرث والبذر والرى والحصاد والدرس بدلا من الوسائل العتيقة التى تستخدم الآن والتى يقتضى استخدامها إسرافا كبيراً فى الوقت والمجهود . وهلم جراً .

وغنى عن البيان أن تحسين الإنتاج الزراعى بهذه الوسائل وما إليها يكفل زيادة الدخل العائلى وبالتالى زيادة الدخل القومى العام إلى أضعاف ماهما عليه الآن .

الصناعات الزراعية وأثرها فى زيادة إنتاج البيت العربى

وفى زيادة الدخل القومى العام

وأما المشروعات المتعلقة بالصناعات الزراعية فمجالها متسع كذلك كل السعة فى معظم البلاد العربية ، وخاصة لأن موادها الأولية متوافرة فى هذه البلاد . فمن ذلك صناعة الألبان ومستخرجاتها ومايتصل بها ، والصناعات المتعلقة بتربية النحل ، وصناعة تقطير الزهور واستخراج الروائح العطرية ، والصناعات المتعلقة بمنتجات النخيل من تمر وليف وخوص وجريد ، والصناعات المتعلقة بقصب السكر ومايستخرج منه ، من سكر وعسل وكحول ، والصناعات المتصلة بالقطن وحلجه وكبسه وإستخراج الزيت والكسب من بذوره ، والصناعات المتعلقة بشجر التوت والانتفاع به فى تربية دود القز واستخراج الحرير وغزله ونسجه ، والصناعات المتفرعة عن تربية الدواجن وحيوانات اللحوم والألبان والنقل وتحسين سلالتها وإكثارها وحفظ لحومها ودبغ جلودها وغزل أصوافها ونسجها واستخراج الأسمدة العضوية من فضلاتها ، والصناعات المتفرعة من تربية الطيور وتفريخها تفريخا طبيعياً وصناعياً وترقية أنواعها والانتفاع بمنتجاتها وتعبئتها وتصديرها . . وهلم جراً . فمن الميسور عن طريق الحكومة والجمعيات التعاونية والمؤسسات الاقتصادية العمل على نشر هذه الصناعات وما إليها فى مختلف البيئات والأقاليم الزراعية فى العالم العربى ، كل إقليم بحسب إمكانياته وطبيعته ومنتجاته وشهرته واستعداد أهله وماهو مهيأ له . بل إنه من الممكن — لبساطة العدد والآلات اللازمة لكثير من هذه الصناعات ورخص أثمانها — تزويد كل أسرة زراعية بما تحتاج إليه لقيامها ببعض هذه الصناعات فى داخل المنازل نفسها .

ولا يخفى مايترتب على تحقيق هذه المشروعات ، ونشرها فى مختلف المناطق ، وجعلها فى متناول الأسرات الزراعية ، من نتائج خطيرة الشأن من النواحى الاقتصادية ، والاجتماعية . فهى تكفى البلاد العربية مئونتها من منتجات هذه الصناعات التى تستوردها هذه البلاد الآن من الخارج معظم ما تحتاج إليه منها مع أنها مهيأة لإنتاجها محلياً . وهى تكفل زيادة دخل البيت العربى وبالتالى زيادة الدخل القومى العام أضعافاً مضاعفة . وتساعد بوجه خاص على النهوض بالمستوى الاقتصادى لسكان المناطق الزراعية الذين يمثلون نحو ثمانين فى المائة من العالم العربى ، وتزيد من دخلهم ، وتكسبهم المهارة والحذق وتشغل فضل نشاطهم وأوقات فراغهم بأعمال منتجة نافعة ، لأن الزراعة لاتستأثر فى العادة بجميع أوقات العامل الزراعى ، لاقتصار العمل فيها على مواسم معينة .

تصنيع البلاد العربية

وأثره فى زيادة انتاج البيت العربى

وفى زيادة الدخل القومى العام

وأما المشروعات الصناعية الخالصة التى يمكن إنشاؤها والتوسع فيها فى البلاد العربية فتتجاوز الحصر . ومن أهم ما تحتاج إليه هذه البلاد من هذه الصناعات وتتوافر لديها مواده الأولية توافراً كاملا ثلاث صناعات : أحداها صناعة الصلب ومايتفرع عنها من صناعات كثيرة ثقيلة وخفيفة ، وثانيتها صناعة الأسمدة الكيماوية ، وثالثتهما صناعة غزل القطن ونسجه .

ويتوقف التوسع فى هذه الصناعات وفى غيرها على توفير الطاقة المحركة التى تتمثل فى البترول والفحم والكهرباء

أما البترول فالبلاد العربية من أغنى مناطق العالم فيما يستخرج منه ، وأما الفحم فقد اكتشفت بعض مناجم منه فى مصر وينتظر اكتشاف غيرها فى مستقبل قريب ، وأما الكهرباء فمن الميسور الحصول على طاقات كبيرة منها عن طريق المساقط المائية فى كثير من البلاد العربية .

وغنى عن البيان أن تصنيع البلاد العربية بفضل هذه المشروعات وغيرها سيزيد دخل أسراتها وبالتالى دخلها القومى إلى إضعاف ماهما عليه الآن .

الجمهورية العربية المتحدة تضرب أحسن مثل

فى الأخذ بوسائل النهوض الاقتصادى السابق ذكرها

وقد ضربت الجمهورية العربية المتحدة فى هذا الصدد خير مثل لسائر البلاد العربية ، وسارت فى هذا السبيل بخطوات حثيثة ، وستبلغ غايته إن شاء الله عندما يتم مشروع السد العالى واستغلال طاقاته الكهربائية والمائية ، ومشروع الانتفاع بأكبر قدر من المياه الجوفية لاستصلاح أراضى الصحراء وزراعتها ، ومشروعات إستنباط البترول والفحم والحديد من أسوان وسينا ومناطق السويس والبحر الأحمر .

التوصيات المستخلصة من البحث

١ ـــ ينبغى أن تتوثق الروابط بين البيت والمدرسة وبين الآباء والمدرسين وأن تنظم بينهما قواعد التعاون على أداء رسالة التربية وإعداد النشء .

٢ — مع مطالبتنا المنزل أن يعاون المدرسة فى وظائفها التربوية فى حدود قدراته المادية والعضوية لا نجيز للمدرسة أن تغفل أية ناحية من نواحى التربية أو تقصر فيها اعتماداً منها على المنزل .

٣ — ينبغى ألا يدخر أولو الأمر وسعا فى العمل على رفع المستوى الثقافى فى البيت العربى حتى يقوى على أداء وظيفته التربوية ويكون ذلك عن طريق الاذاعة والصحافة والسينما والتمثيل والإرشاد والجامعات الشعبية ، أو « مدارس الآباء » على حد تعبير « المؤتمر الدولى الخامس للتربية العائلية » لتزويد الآباء والأمهات بما تعوزهم معرفته فى شئون التربية .

٤ — يرجع السبب فى ضآلة الدخل القومى فى كثير من الشعوب العربية إلى ضآلة الإنتاج فى البيت العربى . ولا علاج لهذه الحال إلا بإيجاد موارد جديدة للإنتاج فى البيوت العربية عن طريق زيادة المساحة المنزرعة ، وتحسين وسائل الإنتاج الزراعى ، ونشر الصناعات الزراعية فى الريف العربى ، والتوسع فى المشروعات الصناعية الخالصة .

الأسرة فى الاسلام

للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة

(الجمهورية العربية المتحدة)

---

١ – لا يرى الصرح المشيد إلا إذا رجع الناظر إلى الوراء قليلا لكى يعرف زينته وبهجته وضخامة بنائه وعظمة تشييده ، ولا يمكن أن يعرف مقداره بالنسبة لغيره ممن يكون فى داخله قد ألف مباهجه وطنافسه ، وظن أن كل الأبنيه فيها ما فيه من بهجة تسر الناظرين وتتمتع الوافدين، وإذا كان هذا هو الشأن فى المحسوسات فهو كذلك فى المعنويات والاجتماعيات والنظم لا تعرف على حقيقتها إلا بمعرفة ما كان قبلها ، وما أتت به من بدىء لم تسبق به ، ومعرفه غيرها مما يقارنها فى الزمن ، وينافسها فى الوجود : فالموازنة بمقاييس عادلة تبين حقائق الأشياء فى الاجتماعات كما تضمن الموازين مالية الأموال ، وان هذا هو الطريق السليم لمعرفة مادعم به الإسلام الأسرة التى هى وحدة المجتمع فإنه قد أنشأها على نظام محكم عادل تقوم فيه الحقوق بين آحادها على أسس من المودة والتعاون ، والعدالة والفضيلة ، ولا بد لمعرفة قيمة هذه المعانى التى دعمها الإسلام فى الأسرة من رجعة إلى الوراء قليلا ، وموازنة بينه وبين غيره من النظم القائمة ، لنعرف مقدار ما أتى به من غير أن يسبقه غيره ، أو يلحق به من جاء بعده ، ونبتدىء بما سبقه .

الأسرة قبل الإسلام :

٢ — مهما يكن تعريفنا للأسرة ، سواء كان تعريفاً موسعا أم كان تعريفا مضيقا ، فان أمرين لابد منهما لتقوم الأسرة على أساس من احترام الحقوق والواجبات ، ذلك الأمران هما مركز المرأة وقوة الوثيقة الرابطة بين الزوجين ومقدار ماتعطيه لكل واحد منهما من حق لأنفسهما ولمن يكون ثمرة لهما ، ومقدار الرعاية لهذه الثمرة وتوزيعها بين الأبوين بمقدار ماتوجبه المصلحة ويفيد المجتمع .

ولاشك أن سلامة بناء الأسرة لايقوم إلا بهذين الأمرين ، وبمقدار السلامة تكون الأسرة قائمة على دعائم مستقرة أو ليست قائمة على أسس ثابتة .

وإذا نظرنا إلى الأسرة قبل الاسلام وخصوصاً فى البلاد العربية فاننا بلا شك سنصطدم بحقيقة لامجال للريب فيها ، وهى أن المرأة لم تكن تتمتع بالمكانة اللائقة بها كربة الأسرة والراعية لها وأن الارتباط بالزواج لم يكن له إحترامه الذى يجعل العلاقة بين ركنى الأسرة قائمة على أساس من الثقة المتبادلة بين الزوجين ، وأنا نذكر ذلك بإجمال.

مركز المرأة :

٣ – لم يكن مركز المرأة فى البلاد العربية يسمح بأن تكون المسيرة لشئون البيت من كل الوجوه فقد كان

الرجل فى الجملة هو كل شىء ، ولسنا نريد أن يعمم الحكم ، فكل تعميم يدخله بعض المجازفة ، وإذا أردنا الدقة فى الحكم فلابد أن نفرق بين سكان المدر وسكان الوبر ، أى بين الذين يعيشون فى القرى أو المدن العربية فان أهل القرى كان للمرأة عندهم ، كيان محترم ، وخصوصاً ذوات الأنساب منهن ، وكانت تعاون زوجها فى شئون الأسرة ، وتقوم على الأولاد ، وترعاهم حق الرعاية ، وكل فيهن ذوات الأموال اللائى يدرن أموالهن بالبيع والشراء بأنفسهن ، أو بالتوكيل أو المشاركة فى الربح على أن يكون منهن رأس المال ومن شريكهن العمل ، كما كان شأن النبى صلوات الله وسلامه عليه مع خديجة قبل البعث ، وقبل زواجه منها عليه السلام . وكان لهؤلاء النساء حرية اختيار الأزواج ومن يخترنه يتولى وليهن العقد منه ، فالاختيار منها ، وصيغة العقد منه ، وذلك فى أكثر الأحوال .

وقد بلغ الأمر عند بعض نساء القرى أن كان لهن شأن فى بعض الشئون العامة ، وإن كان ذلك نادراً .

٤ — ولئن تركنا القرى إلى الصحراء حيث تسكن القبائل المتفرقة فى هذه البيداء الصافية وحيث يكون المقام يتبع مساقط الماء ، وأما كن العشب فانا نجد المرأة غير واضحة الشخصية بل هى مندغمة فى الرجل تمام الاندغام ، نعم أن بعض ذوات النسب كان لها وضوح نسبى ولكنه كان نادرا .

وفى وسط بعض هذه القبائل ظهرت بعض العادات الوحشية بالنسبة للمرأة ، حتى إن بعضهم كان يئد المولودة عندما ترى نور الحياة ، ولقد عاب عليهم القرآن الكريم ذلك ، كما فى قول الله الكريم « وإذا المؤودة سئلت بأى ذنب قتلت » ، وفى بعض هذه القبائل ظهرت وراثة النساء ، وذلك أن الرجل يكون متزوجا فإذا مات ورث زواجها أكبر أولاده من غيرها .

وكان سلطان الرجل عليها كبيراً ، فهى فى بيته متاع أو كالمتاع ، لا إرادة لها ولا سلطان تسبى كما تغنم الأشياء لا تعدلها حسنات ، وتكبر سيئاتها ، فإن زلت قتلت ، وإن أحسنت لم تشكر ، مع ما كان لهن من فضل معاونة ، فكن يغزلن وينسجن الأخبية ويقمن بخدمة النوق ورعى الأغنام وتربية الأطفال .

٥ — ولأن حياة العرب بشكل عام كانت تقوم على الفروسية والاغارات كانوا يحبون إنجاب الصبيان ؛ لأنهم الذين يعتزون بكثرتهم ويستنصرون بهم ، ولذلك كان التفاخر بينهم بكثرة المال وعزة النفر كما قال تعالى حكاية عن بعض مفاخرهم « أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً » . ولم يكن للنساء قوة فى حياة الفروسية بل يكن أحياناً عبئاً فيها وإذا سبين كان العار الذى يلحق أسرهن ، ولذلك قال الله فيهم « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء مايحكمون » .

وما كان لها حق فى ميراث ولاقسم فى غنائم ، وعقد الزواج بالنسبة لها كأنه رق تدخل فيه ولاتخرج منه ، والرجل يخرج منه حيث أراد ومتى شاء ويردها إليه متى شاء ، وكانت ضعيفة تفرض عليها واجبات ولاتفرض لها حقوق ، كشأن الأرقة عندهم ، بل ما كانت المرأة البدوية تستطيع إدارة أموالها إن كان لها مال ، وكانت تمنع من الزواج ممن تريد ، وقد نهى عنى ذلك القرآن نهياً مطلقاً ، فقال تعالى « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهم » .

الارتباط بين الزوجين وقوته :

٦ — كان الزواج معروفاً بالجاهلية بمعناه الاسلامى ، وإن كانت نظمهم أو أعرافهم تعطى الرجل من الحقوق

مالا تعطيه للمرأة ، أو تفرض له كل الحقوق ، وعليها كل الواجبات ، كالشأن عندما يرتبط ضعيف بقوى من غير وجود ضوابط حاكمة منظمة ، موزعه للحقوق والواجبات بقسطاس عادل مستقيم .

وكان بجوار ذلك العقد الذى يتكون من إيجاب وقبول مستوفيين كل الشرائط المكونة له نظم أخرى تكون علاقة بين الرجل والمرأة ، ويترتب عليها ثبوت النسب وتتكون بها أسرة ، وإن لم تكن زوجية أو بالأحرى لم يكن فيها ركن الزواج قائما على وجهه الصحيح ، ومن ذلك :

٧ — المتعة : وهى أن يتعاقد رجل مع امرأة على أن يقيم معها أمداً قصيراً ، وعلى مهر معين هو أجر هذه العشرة وقد كان هذا يثبت النسب ، ويثبت حقوقا للرجل قبل المرأة ، وهو يشبه العقود التى تجرى الآن فى المدن اللاهية والعابثة ، وقد نهى عنه النبى صلى الله عليه وكرر نهيه عنه فى ست مرات فحرمها عليه السلام فى عمرة القضاء فى السنة السابعة وفى غزوة خيبر وفى غزوة تبوك وفى فتح مكة وبعد فتح مكة فى عامة ، وفى حجة الوداع ، وذلك توثيق للنهى .

والسبب فى تحريم المتعة أن عقد الزواج كما سنبين عقد يعقد على وجه الدوام لا على وجه التوقيت والتوقيت يفسده .

٨ — نكاح المقت : وهو أن يعقد الرجل على من كانت زوجة لأبيه أو جده أو يرث زوجة أبيه وتسميته بالمقت تسمية إسلامية قرآنية فقد قال تعالى « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » . وقد نهى الإسلام عنه نهياً باتاً ، فقال تعالى « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » .

٩ — إتخاذ الإخوان : وقد كان اتخاذ الاخوان عادة جاهلية ، وهى مايسمى بلغة العصر الحديث إتخاذ الخلائل وقد كان أمراً معروفاً فى الجاهلية ، وكان يثبت به النسب ولقد نهى عنه الإسلام نهياً مؤكداً إذ هو من قبيل المتعة التى ذكرناها ، أو أن المتعة تدخل فى عمومه ، وقد اعتبره الإسلام من أنواع السفاح فقد قال تعالى « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » .

١٠ — وكان الزنى يثبت النسب عندهم ، فمن يعترف بأبوته لشخص على أنه ابنه من سفاح ثبت نسبه وإذا تنازع رجلان أو أكثر أبوة ولد لبغى ألحقته بمن تشاء منهم ، وهى فى ذلك الحكم الفصل الذى ترضى حكومته ، ومن تحكم له يلتحق الولد بنسبه ، وينال فخر هذا النسب إن كان رفيعاً ، وتناله وضاعته إن كان وضيعا .

وكان بجوار هذا يجوز التبنى جوازاً مطلقاً ، فمن تبنى شخصاً فهو ابنه ينادى باسمه ويكون له شرف نسبه وفخاره وتكون له أيضاً ضعته ، وأنه يروى أنه بمقتضى هذا الحكم الذى كان متواضعاً عليه فى الجاهلية قد تبنى محمد صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة الذى كان عبداً له وأعتقه عندما قبل المقام معه رافضاً أن يعود إلى أهله إذ وجدوه عنده ، واستمر من بعد ذلك الإلحاق يدعى زيد بن محمد وكان هاشميا فى شرفه ونسبه ، وبهذه الهاشمية رضيته زينب بنت جحش زوجاً لها حتى نزل تحريم التبنى وقال تعالى « وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم

بأفواهكم » . ونزل قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ولذلك تململت بهذا الزواج الذى بطل أساس الاختيار فيه .

١١ — وكان من أثر ذلك الاختلاف فى أسباب الإنساب أن كان فى الجاهلية من هو ثابت النسب بنكاح ومن هو ثابت النسب بسفاح ، ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول « ولدت من نكاح ، من نكاح ، من نكاح » أى أنه سبحانه وتعالى لم يدخل فى نسبه سفاح قط ، فهو الطاهر سلالة الأطهار .

ولا شك أنه إذا كانت تلك الفوضى فى ثبوت الانساب فإن العناية بالأولاد لم تكن بالقدر الذى توجبه الأبوة ولم يكن الجامع للأولاد الأبوة والأمومة الراعية الكالئة ، لأنهم من أمهات مختلفة . ولأن منهم من هو من سفاح ومن هو من نكاح ، ومنهم من يشك فى نسبه ، إذ كيف تكون البغى صادقة فى أخبارها ولا يكون مجال للشك فى حكمها بل إن النسب كان يثبت لمن لم يجر فى عروقه دم من ينتمى إليه قط ، ولذا لا يمكن أن تكون العودة الواصلة الراحمة محققة بين الآباء والأبناء ، ولا بين الأبناء بعضهم مع بعض ، وأن العداوة تكون شديدة بينهم ، وأنه من المذكور فى تاريخ العرب العداوة التى كانت بين بنى هاشم وبنى أميه فى الجاهلية وأن هذه العداوة قد ابتدأت بين هاشم وأمية الأخوين ، لأن هاشما كانت ولادته من نكاح ولم يكن أمية كذلك فكان ينظر إليه على أنه دخيل فى نسبه ، فانتقلت تلك العداوة إلى الأبناء ، ويذكر المؤرخون تلك العداوة وألمح بعضهم إلى سببها الحقيق .

١٢ — وأن الزواج فى الجاهلية كان مطلقا من حيث العدد ، ومطلقا من حيث الطلاق فكان للرجل أن يتزوج من النساء أى عدد ، فمنهم من تزوج عشرا وجمعهن فى عصمته ، ومنهم من تزوج أكثر من ذلك ، فلما جاء الإسلام كان فى هذه المسألة مانعا لا مبيحا ومقيداً لا مطلقا ، فقيد العدد بأن يكون أربعا لا يزيد ، ويلاحظ أنه أول شريعة سماوية صرحت بتقييد العدد بأربع ، فالتوراه تبيحه إلى أى عدد ، حدده بعض فقهاء اليهود بثمانى عشرة ولم يجىء فى الأناجيل نص فى هذه المسألة ، ولعلها عندهم من غير نصوص الأناجيل .

والطلاق كان مباحا إلى غير عدد ، فكان الرجل يطلق بإرادته المنفردة ويراجع بإرادته المنفرد لامعقب ، وتبقى المرأة هملا ، لا هى زوج فتقر بقرار الزوجية ، ولا هى مطلقة فتنطلق من تلك الربقة التى كانت شرا عليها ولم يكن فيها خيراً لها ، ولقد كان الرجل يتخذ ذلك كيداً لها فهو يطلقها ويتركها فإذا علم أن بعض الناس يرغب فى زواجها سارع إلى الرجعة ليمنعها من أن تتزوج ، ثم لا يلبث أن يطلقها أو يتركها مهملة كالمعلقة لا هى زوج ولا هى مطلقة ، وفى ذلك ضرر بليغ بها ومنع ظالم لها من الزواج .

فلما جاء الإسلام جعل الطلاق ثلاثا لا يتجاوزها ، وإن وصل إلى الثلاث لا تحل له حتى تتزوج زوجا غيره ، ليسد الطريق على عبث الأزواج ، وجعل حق الرجعة مرتين اثنتين ، وفى أثناء العدة بعد الطلاق ، وهى نحو ثلاثة أشهر ، فإن لم يراجع فيها انفصلت عنه ، ولم يكن له حق المراجعة إلا بعقد جديد ومهر جديد .

١٣ — وإن العرب كانت عندهم طريقة فى الزواج كان فيها غبن شديد على المرأة وظلم فادح لها ومهانة لها كل المهانة ، وهو أن يزوج رجل امرأة هى فى ولايته فى نظير أن يزوجه الآخر من هى فى ولايته ، كأن يزوج رجل ابنته فى نظير أن يزوجه الآخر ابنته ويكون مهر الأولى هو الزواج من الثانية ومهر الثانية هو الزواج من الأولى ، ووجه

المهانة فى هذا النوع من الزواج أن المرأة تكون كالبضاعة تجرى فيها المقايضة ، أما الغبن والظلم فهو حرمان كل واحدة منهما من مهرها . وهذا الزواج يسمى نكاح الشغار وقد نهى عنه الإسلام ، وصرح النبى صلى الله عليه وسلم بالنهى عنه ، وفهم من هذا النهى جمهور الفقهاء أن هذا العقد لو وقع يكون باطلا وفهم الحنفية منه أن المنهى عنه سقوط المهر فيصح العقد ويجب لكل واحدة منهما مهر المثل .

١٤ — هذه نظرات خاطفة إلى الأسرة عند العرب قبل الإسلام ، وفيها نرى أن أحد عمادى الأسرة كان مظلوما مهضوما ولم يكن ذلك شأن العرب فقط ، بل كان هذا عند الرومان وعند الفرس ، فالرومان كانت الزوجة عندهم كالأمة ليس لها حقوق ، وعليها كل الواجبات وكأن عقد الزواج عقد شراء يثبت ملكية للزوج ، ولا يثبت حقا للمرأة .

الأسرة فى الإسلام :

١٥ — جاء الإسلام بأحكام جديدة للأسرة لم تكن معروفة من قبله ، وفيها أعطى كل ذى حق حقه ، وأقامها على دعائم ثابتة قوية ، وقدس الحياة الزوجية والعلاقة بين الأبناء والآباء وبين الأخوة بعضهم مع بعض بل بين ذوى الرحم القريبة والبعيدة ، ووسع معنى الأسرة .

وإن الدعائم التى اعتبرها ليقوم بنيان الأسرة على أسس قوية وليكون صالحا للبقاء ولا تؤثر فيه زعازع الرياح والأهواء أربع دعائم هى المودة والعدالة والتعاون والفضيلة ، وإن هذه العناصر الأربعة إن تحققت على وجهها الأكمل قامت الأسرة على المنهاج الذى يدعو إليه الإسلام .

١٦ — فالمودة هى الرابطة المقدسة التى تربط بين الزوجين كما قال تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » وكما قال فى شأن العلاقة بين الأزواج «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» فالمرأة من الرجل بمنزلة الشعار والدثار ، قد ربط الله على قلبيهما برباط المودة الواصلة التى تجعل كل واحد من الزوجين جزءا من الآخر يتممه ولا ينفصل عنه .

ولم تكن تلك المودة هى الرابطة فقط بين الزوجين ، بل إنها تربط بين الأقارب جميعا ، والاسرة فى الإسلام تشمل بعمومها معنى خاصا ، ومعنى عاما ، ففى معناها الخاص تتكون من الزوجين وتشمل الأولاد ، وفى معناها العام تشمل الزوجين وكل القرابة سواء أكانت قريبة أم كانت بعيدة ، والصلة فيها واجبة بمقدار ما تتسع له الطاقة . ولذا قال سبحانه « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » ويقول سبحانه « وآت ذا القربى حقه » ويقول النبى صلى الله عليه وسلم « من أراد منكم أن ينسأ له فى أثره ويبارك له فى رزقه فليصل رحمه » ويأمر عليه السلام بدوام الصلة بين الأقارب ولو كان من بعضهم جفوة ولهذا يقول عليه السلام « ليس الواصل بالمكافىء إنما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة »

١٧ — والعدالة هى الحصن الذى يحمى الأسرة من التفكك إن كان ما يهدد المودة ، وقد جمع الله تعالى العدالة فى عبارة سامية ، وهى قوله تعالى فى العلاقة بين الزوجين « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن

درجة»، فهذه هى العدالة المنطقية وهى التى تتساوى فيها الحقوق والواجبات ، فيكون للشخص من الحقوق بمقدار ما عليه من الواجبات وإن ذلك هو قانون الأخلاق المستقيم، فالتساوى بين الحقوق والواجبات هو القسطاس المستقيم فما من حق إلا وفى مقابله واجب ، ولقد كانت العادات والنظم التى كانت سائدة قبل الإسلام تفرض على المرأة واجبات ولا تفرض لها حقوقا ، فكانت كالرقيق عليه كل الواجبات بالنسبة لسيده ، وليس له أى حق قبله ، فكانت تلك القضية العادلة « ولهن مثل الذى عليهن » . فتحا جديداً بالنسبة للمرأة وهى العدالة الكاملة التى تضع كلا من الزوجين فى موضعه ، وإن الدرجة التى أعطاها الله تعالى للرجل هى درجة الإشراف ، وهى أيضا حق عن مقابله واجب فإذا كان له بمقتضى تلك الدرجة حق الطاعة فعليه واجب العدل .

وإن ذلك الحق أو تلك الدرجه التى أعطيها الرجل هى لصيانة الأسرة ، وبقائها محفوظة مصونة بعيدة عن التحلل والتفكك ، وليست المساواة المطلقة أمراً مرغوبا فيه دائما ولا أمراً سائغا دائما ولا عدلا دائما ، فالمساواة المطلقة قد تقضى إلى فساد وظلم . على أن هذه الدرجة ليست سيطرة وطغيانا ، ولكنها إشراف ورحمة وتوزيع للقوى ، وإنا نرى الآن كتاب الغرب يشكون من تفكك الأسرة فى الغرب ، ويعزون ذلك التفكك إلى ما شاع بينهم من مساواة المرأة بالرجل مساواة مطلقة . فالإسلام الذى كان أول شريعة أنصفت المرأة ونادى بهذا الإنصاف فى وسط ظلمات العادات الجاهلية احتاط ليمنع ذلك التفكك ، فأعطى الرجل هذه الدرجة لتكون الميزان الضابط وكلفه العدل فى نظير ما أعطاه ، فإن اشتط وبغى فسوط العقاب ينزل به أن رفع الأمر إلى القضاء .

١٨ — والتعاون بين الأسرة واجب دعا إليه الإسلام ، ونظمه ونسقه فجعل كل واحد من آحاد الأسرة بمعناها العام فى عون أخيه ، وجعل حق الفقير فى الأسرة على الغنى فيها ، فمن عجز عن الإنفاق على نفسه كانت نفقته فى مال قريبه الغنى ، وقد قال تعالى فى ذلك « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ».

وإن إحساس الفقير فى الأسرة بأن له حقاً فى مال قريبه الغنى يجعل منه حفيظا عليه حاميا له حريصا على تنميته ، لأنه يعلم أن له شطراً فيه ، وأنه يأكل منه عند حاجته وعجزه .

وإنه فى مقابل حق النفقة الذى يفرض للفقير العاجز من الأسرة على الغنى فيها ، وجد حق الميراث ، وهو يسير مع حق النفقة على خط مواز له ، فمن تجب له النفقة إذا عجز يكون ماله ميراثا لمن تجب عليه إن مات غنيا ، وبعبارة أوضح من يكون له ميراث شخص إذا مات عن تركة تكون عليه النفقة إن عجز وأعوز ، وبهذا تتلاقى الحقوق والواجبات فى التعاون ، كما تلاقت فى حقوق الزوجين .

١٩ — والفضيلة هى النظام الذى يسود كل العلاقات الإنسانية سواء كانت فى الأسرة أو كانت فى المجتمع فالفضيلة هى قاعدة الإسلام فى كل ما ينظمه من أحكام ، وما يربطه من علاقات فإذا كانت المودة والتعاون يصلان كل آحاد الأسرة ، ففى دائرة الخير والفضيلة لا فى دائرة الإثم والعدوان ، فقد قال تعالى «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ولقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

«أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » فقال بعض الصحابة ، هذا المظلوم ننصره ، فكيف ننصر الظالم ؟ فقال الرسول عليه السلام « أن تمنعه من الظلم » . وإن الأسرة تعد مسئولة عن إثم الآثمين فيها ، ولذا أوجب الدية على الأسرة إن ارتكب واحد منها جناية ووجبت فيها الدية ، وذلك لتعاون الأسرة فى دائرة الفضيلة ومنع الأذى فى آحادها .

وإن المحبة فى الأسرة قد تغرى بمخالفة الحق ، ولذا حذر الإسلام من هذا ، ونبه إليه لتكون المحبة فى دائرة الفضيلة دائما ولذا قال تعالى : « إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » . وتلك العداوة هى أن محبتهم قد تدفع إلى الأذى فيكونون بهذا أعداء لا أحباء ، ولقد كرر سبحانه وتعالى الأمر بالإحسان إلى الوالدين فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم ، وقد أردف فى كثير من المواضع بالأمر بالإحسان إليهما والنهى عن متابعتهما فى الشرك ، قال تعالى « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » فكانت كل محبة فى داخل الأسرة فى دائرة الفضيلة وحدها .

تكوين الأسرة :

٢٠ — الركن الأول لتكوين الأسرة الرجل والمرأة ، فمنهما تتكون الأسرة ، وهما جزءان فى ركن واحد ، وعنصران فى جوهر واحد ، منهما تتشعب كل الأسرة ، ومن عواطفهما السامية ينبعث النور المشرق الذى يهدى الذرية إلى مدارج الإنسانية العالية التى ينفصل بها الإنسان عن طينة الحيوان ، ولذا قال تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » .

وإذا كان كلا الجزأين لهذا الركن الموحد الذى امتزج فيه عنصرا الإنسانية اللذان يتكون منهما أقدس المعانى الإنسانية هما الأساس لتكوين الأسرة ، فان الإسلام عنى بتنظيم ذلك الارتباط بينهما وهو بمنزلة العنصر الثالث الذى يمزج بين هذين العنصرين أو يثير فيهما عوامل الامتزاج ، وذلك الارتباط هو عقد الزواج الذى أحل الله فيه الرجل للمرأة وكون منهما روحا إنسانية واحدة متحدة الاتجاه والغاية .

٢١ — وإن الاسلام لم يعترف برابطة إنسانية بين الرجل والمرأة غير الزواج ، فألغى كل ما كان فى الجاهلية من روابط تنشىء أسرة أو تنشىء نسلا ثابت النسب ، فألغى اتخاذ الأخدان وألغى وراثة الرجال للنساء وقد قال فى ذلك « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . واعتبر العلاقة بهذا الوضع باطلة توجب العقاب الشديد بل أقصى أنواع العقاب ، وسمى تلك العلاقة مقتا بل اعتبرها زنى تقتضى عقابه الشديد وألغى اتخاذ الأخدان واعتبره من أنواع السفاح فهو زنى يوجب أغلظ العقوبة وهو فاحشة . وألغى الإسلام المتعة وهى نوع من اتخاذ الأخدان أو لها به شبه ، وهما على أية حال فى معنى واحد أو مقصد واحد ، وقد ذكرنا أن النبى صلى الله عليه وسلم ألغاها وأكد إلغاءها بتكراره ست مرات فى ست غزوات .

ولقد صرح القرآن ببطلان كل علاقة بين الرجل والمرأة غير علاقة الزوجية ، فقد قال تعالى : «والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » وبذلك حصر العلاقة بين الرجل والمرأة الحرة فى الزواج المقدس الذى اعتبره المولى الكريم كلمته التى بها تحل الفروج التى حرمها سبحانه .

الولد بغير الزواج لا يثبت نسبه :

٢٢ — ولتأكيد إلغاء ما عدا الزواج ، قرر الشرع الإسلامى أمرين : —

أولهما : فرض عقوبة غليظة على من يقدم على أمر من هذه الأمور التى ألغاها الإسلام، إذ اعتبرها زنى، وعقوبة الزنى جلد الزانى مائة جلدة، وتغريبه عاما عند أكثر الفقهاء ، وإن كان متزوجا فالعقوبة الرجم كما قرر الجمهور الأعظم من فقهاء المسلمين مستمدين ذلك من أحاديث نبوية ثبتت عندهم صحتها .

الأمر الثانى الذى قرره الإسلام لتأكيد هذا الإلغاء هو عدم ثبوت نسب من يجىء ثمرة لتلك العلاقات الآثمة فان النسب نعمة ، والنعمة لا تكون ثمرة جريمة ، والعرب كانوا حريصين كل الحرص على إثبات نسب من يكونون قد وضعوا بذرته بل على إثبات نسب من يلحقه أحدهم ليكون أكثر ولدا وأعز نفرا ، فقد كانوا يتفاخرون بذلك ويتكاثرون ، ولقد قطع عليهم الإسلام إثبات النسب بهذه الطريقة المحرمة ليتجهوا إلى الحلال المقدس ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام « الولد للفراش وللعاهر الحجر » أى أن العاهر عليه الرجم بدل أن يكون له نسب يعتز به ويكاثر العرب بنسبته له .

٢٣ — وإن الإسلام كان حريصا كل الحرص على أن يكون الزواج وحده هو الرابطة المكونة للأسرة لأنه يريد أن تكون العلاقات كلها فى داخل الأسرة قائمة على المودة والصداقة ولا تقوم على المودة الصادقة إلا إذا ذهب الدخيل من بينهم ، ومن ذا الذى يستطيع أن يقرر أن الزنى أو ما يشبه الزنى يكون ثبوت النسب فيه خاليا من مظنة الكذب والبطلان ؟ وفوق ذلك فان من يثبت نسبة ولد منه لا تقتصر علاقة النسب عليها ، بل إنه يوجد علاقة بينه وبين أولاد ذلك الرجل الذى ألحق به نسبه ، إذ سيكونون إخوته وأخواته وستوجد علاقة بينه وبين آباء الرجل إذ سيكون من حفدتهم ، وعلاقة بينه وبين أخوة الرجل إذ سيكونون عمومته . وهكذا . . وإن الاسلام كما ذكرنا قد حرص على تقوية هذه الوشائج كلها واعتبر البر بها وصلتها واجبة ، واعتبرها عناصر الأسرة بمعناها الأعم الشامل وأوجب بها واجبات ورتب لها حقوقا ، فكان من الواجب ألا تكون أسباب هذه العلاقات فيها شائبة بل تكون ظاهرة خالصة يطمأن إليها ، وكيف تطالب أن يعطى شخص حق الأخوة ، وهو يعلم أنه ثمرة علاقة آثمة وأنه لا يطمئن إلى أن يكون من بذر أبيه ، بل كيف يعطيه الجد حنان الأبوة وهو يعلم أنه ثمرة الخنا ؟ وكان من طريق مشكوك فيه . . فالإسلام لأنه وثق الحقوق والواجبات فى الأسرة ووسع معنى الأسرة ولم يضيقها نص على الطريق الموصل إلى القرابة وقصره على تلك العقدة التى وثقها الله تعالى بكلمته وهى الزواج .

بطلان التبنى

٢٤ — ولهذه المعانى السامية ، ولتلك الوشائج التى ترتب أقوى الحقوق وأقوى الواجبات منع الإسلام التبنى لتكون الأسرة كلها مربوطة برابطة الرحم الطبيعية الشرعية ، لا بتلك الطريقة الصناعية التى ابتدعتها القوانين الرومانية وغيرها ، واتبعها العرب فى عاداتهم وتقاليدهم ليكثروا من النفر أيا كان الطريق وأيا كان السبيل إليه ، ولم يرتض الإسلام تلك السبيل لأنها ليست صادقة ولأنها تكثر الدخلاء فى الأسرة فتنقطع أوصالها ولا تكون تلك العرى الوثيقة التى تربط بين أفرادها .

ولقد صرح القرآن الكريم بالنهى عن التبنى فقال تعالت كلماته « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ، أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما » .

ولقد اختبر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم فى قضية التبنى اختباراً شديداً ذلك أنه على عادة العرب الحق قبل البعثة عبداً بنسبه كان له ، إذ أن أهله جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليفتدوه ، فآثر المقام مع النبى صلى الله عليه وسلم فأعتقه النبى وألحقه به ، وذلك هو سيدنا زيد بن حارثة رضى الله عنه ، وكان بعد هذا الإلحاق ينادى زيد بن محمد — وتزوج على أنه قرشى بقرشية كما أشرنا ، فلما ألغيت تلك العادة القانونية التى كانت عند الرومان والعرب وغيرهم بالنص القرآنى السابق كان لا بد من مثل حى مشهور معلم يوثق ذلك الإلغاء ، واختار الله تعالى نبيه ليكون ذلك المثل الحى المشهور ، ذلك أن امرأة زيد تململت به عندما سقط عنه نسبة القرشى بذلك الإلغاء ، فأراد زيد أن يطلقها لهذا التململ المستمر وأمر الله نبيه أن يتزوجها إذا طلقها لكيلا يكون على الناس حرج فى أزواج من كانوا يتبنونهم ، ويكون ذلك توكيداً عمليا لمحو التبنى ، والنبى كان يستحى من هذه المجابهة ولكن هكذا أمر الله ، والله أحق أن يخشاه ، وهذا نص القرآن فى هذه القضية فقد قال تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ، وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا ، ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل . وكان أمر الله قدراً مقدورا ، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبا ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما » .

الحث على الزواج :

٢٥ — أبعد الإسلام كل أسباب للنسل أو تكوين الأسرة غير الزواج وذلك لتكون الأواصر قوية بين كل كل آحاد أسرة قريبها وبعيدها وقاصيها ودانيها وبغض إلى المؤمن أن يسلك فى تكوين الأسرة غير الزواج .

ولهذا المعنى السامى فى الزواج حث الإسلام عليه ودعا إليه ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « أيها الشباب

من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

وهذا الحديث مجمع عليه فى كتب السنة ، ولا مطعن فى سنده ، والمراد بالباءة فى الحديث تكاليف الزواج ، ومعنى كلمة وجاء أن الصوم قاطع لاندفاع الإنسان نحو الشهوات المردية ، ولقد اعتبره النبى صلى الله عليه وسلم يتعلق بنصف الدين فمن تزوج فقد حصن نصف دينه، وهو النصف الاجتماعى الذى يجعله أليفا بالناس لا يعتدى عليهم ويسهم فى بناء المجتمع بتلك الأسرة التى أقام دعائمها بهذا الزواج .

والنبى صلى الله عليه وسلم أعتبره أقدس رابطة فى الحياة ، وأجل عقد فى هذا الوجود ، واعتبر الزوجة زهرة هذا الوجود ولذا قال صلى الله عليه وسلم « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة» وقال عليه السلام « ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء ، المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرته ، وإذا غاب عنها حفظته ، وإذا أمرها أطاعته » .

ولقد نهى محمد عن التبتل وهو ترك الزواج ، فقد قال قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن التبتل ، وتلى قوله تعالى « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » .

وبلغ النبى عليه السلام أن نفرا من الصحابة تواصوا فيما بينهم على الانصراف إلى العبادة فقال بعضهم لاأتزوج وقال بعضهم أصلى ولا أنام ، وقال بعضهم أصوم ولا أفطر ، فبلغ النبى عليه السلام ما تواصوا به ، فقال « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ، لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

ولقد سأل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا اسمه عكاف بن وداعة الهلالى فقال له ألك أمرأة قال : لا ، ألك أمة قال : لا ، فقال النبى الطاهر ، فأنت إذن من إخوان الشياطين ، شراركم عزابكم ، وأرذل موتاكم عزابكم ، ويحك ياعكاف تزوج .

٢٦ — ولماذا حث النبى صلى الله عليه وسلم على الزواج وكرر الدعوة إليه ، حتى لقد أفتى فقهاء الظاهرية بأن الزواج فرض دينى ، ولو كان الشخص يستطيع أن يكف نفسه عن الزنى ، وأجمع فقهاء المسلمين ما بين سنيين وشيعيين وغيرهم على أن الزواج فرض على من يعتقد الوقوع فى الزنى إن لم يتزوج .

والجواب عن ذلك هو أن الإسلام حريص كل الحرص على ثلاثة أمور لا تكمل إلا بالزواج ، أولاها ألا توجد الفاحشة أو لاتنتشر فى الذين آمنوا سواء فى هذا ما ظهر من الفواحش وما بطن .

وثانيها أن الأسرة هى الدعامة فى بناء المجتمع ، والزواج هو روابط هذه الدعامة ، فهو العقد الوثيق المقدس الذى تقوم عليه الأسرة . وما عداه من العلاقات لا يمكن أن يتكون منها بناء للأسرة . إذ هى علاقات أشبه بمسافدة الحيوان بأى أنثى يلقاها فى عابر الطريق أو فى الغابة ولا يمكن أن تتكون منها أسرة سليمة البنيان .

وثالثها هو حرص الاسلام على إيجاد أجيال إنسانية قوية . ولذلك حث النبى صلى الله عليه وسلم على طلب النسل بالزواج ، فقد قال له بعض الصحابة أصبت امرأة ذات جمال ومنصب ومال. ولكنها لا تلد أفأتزوجها فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر الرجل هذا مرة أخرى ، والنبى يعرض ثلاث مرات ثم قال له عليه السلام « تزوجوا الولود فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

ولا شك أن القيام على شئون الأولاد ورعايتهم والعناية بهم هو الذى يقدم نسلا قويا ، ولايكون ذلك إلا بالزواج

عناية الإسلام بالنسل فى الزواج

٢٧ — أجمع فقهاء المسلمين على أن حفظ النسل مقصد من مقاصد الإسلام العليا ، فقد أجمعوا على أن الإسلام فى أحكامه وتكليفاته يتجه إلى المحافظة على الدين والنفس والعقل والنسل والمال . فالنسل أحد الضروريات الخمس التى جاء الإسلام للمحافظة عليها ، ومن أجل المحافظة عليه ، كان تنظيم الزواج ، إذ هو المقصد الأول من تنظيمه ، وما من حكم من أحكام الزواج فى الإسلام إلا كان مقصده حماية النسل فى جانب من جوانبه ، فالمحرمات من النساء فى الاسلام كان تحريمهن لتقوية النسل ، فإن التزاوج بين الإقارب يأتى بنسل ضعيف، ولقد أثبتت التجارب العلمية التى أجريت فى الحيوان أن التلاقح بين سلائل مختلفة الأرومة ينتج نتاجا قويا،والتلاقح بين حيوانات متحدة السلالة ينتج نتاجا ضعيفا .

وقد لاحظ ذلك الأقدمون ، فيروى أن سيدنا عمر بن الخطاب قد لاحظ أن آل السائب وهم قبيل من العرب لا يتزاوجون إلا فيما بينهم . فقال لهم رضى الله عنه « يا آل السائب قد أضويتم فانكحوا النوابغ » .

وقد حث الإسلام على تخير الأزواج الذين لا عيب فيهم ، فقد ورد فى بعض الآثار أن الرسول عليه السلام قال « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » .

ونهى الإسلام عن الزواج من المرأة الجميلة ، إذا نبتت فى منبت سوء ، حتى لا يؤثر ذلك فى نسلها من الناحية الخلقية فتجعله يعيش حياته الأولى فى بيئة غير فاضلة ، ولذا ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إياكم وخضراء الدمن ، قالوا يارسول الله وما خضراء الدمن . قال المرأة الجميلة التى نبتت فى منبت سوء » .

ومن أجل الحرص على أخلاق النسل والتلاؤم فى العشرة الزوجية حث الإسلام على اختيار الزوج من ذوات الدين ، من غير نظر إلى المال والجمال ، ولقد قال عليه السلام « تنكح المرأة لجمالها ولمالها ولدينها فعليك بذات الدين» وذلك لأن ذات الدين تحفظ عرض زوجها ، فتحفظ النسل من الفوضى والاختلاط وتربى فى النشء نزوع التدين والائتلاف والتلاؤم بين رغباته ومطالب الجماعة العليا فيكون عنصراً نافعا قويا .

التأبيد فى الزواج

٢٨ — ومن أجل العناية بالنسل شرع عقد الزواج مؤبداً ، ولم يعقد مؤقتاً ، لأن المقاصد التى تقصد منه لا تكون إلا مع التأبيد ، وأعظم هذه المقاصد هو رعاية الأولاد ، فإن تلك الرعاية لا تكون على وجهها إلا إذا دامت العلاقة التى كانت سبباً فى وجود تلك الثمرة ، إذ أن كل ثمرة لا تنمو إلا على غرسها ، وكل زرع لا ينمو إلا فى البيئة التى نبت فيها ، وإن العواطف السامية التى ينشأ عليها الأولاد لا تنمو إلا فى ظل تلك العاطفة الكريمة التى تربط بين الرجل وأهله ، فقد اجتمع قلباهما على حبة تلك الثمرة التى يريان فيها صورة حية من تلاقيهما الإنسانى والوجدانى ويريان بها قطعا من أنفسهما ممتزجة حية تقطع سبيلها فى الحياة ، ويكون وجودها امتداداً لوجودهما معاً ، وهى تشير إلى ما كان بينهما من علاقة مقدسة .

ولذلك أجمع الفقهاء على أن أى توقيت يفسد عقد الزواج . ولا يكون زواجاً صحيحاً أصلا بل يكون عقدا فاسداً .

الطلاق ضرورى فى موضعه :

٢٩ — ولكن شرط البقاء بعد انعقاده على نية البقاء والدوام أن تكون المودة قائمة مستمرة ، فهى التى تربط قلوب الزوجين ، وهى التى يكون بها التعاون على رعاية الأولاد رعاية حسنة ، وإذا حلت البغضاء محل المودة بين الزوجين واستمرت ، وعولجت القلوب فلم يجد العلاج أصبح بقاء الحياة بين زوجين على هذه الشاكلة مفسداً للنسل ومفسداً لأخلاقه وعواطفه ، إذ أن الطفل يفتح عينيه فيجد نزاعا مستمراً وعداوة مستحكمة ، ونظرات شزراء متبادلة فيؤثر ذلك فى عواطفه وينشأ متبرماً بالحياة قد نضب معين الألفة من قلبه ، ضيق العطن متململا من الناس .

ولذلك كان من مصلحة الأولاد هذا الفراق ، لتبعد قلوبهم عن رؤية النزاع المستمر صباح مساء ، فلا تصك آذانهم بأصوات الغضب ولا ترمد عيونهم بنظرات البغض ولا تجف قلوبهم بمظاهر الهجر غير الجميل المستمر .

٣٠ - ومن أجل ذلك كان الطلاق إذا تنافرت قلوب الزوجين ولم يمكن العلاج .

وقد وضع الإسلام مراتب للعلاج فدعا الزوجين إلى الإصلاح ما أمكن الإصلاح ، فدعاهما أولا أن يصلحا من أنفسهما ، فقال تعالى « وإن إمرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليها أن يصلحا بينهما ، والصلح خير » .

فإن تعذر عليهما أن يصلحا بأنفسهما ذات البين بينهما كان لذويهما أن يتدخلوا بالاصلاح بينهما بل كان عليهم ذلك ولذا قال تعالى « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » .

فإن تعذر هذين الحكمين أن يصلحا بينهما أصبح الفراق ضرورة اجتماعية وخلقية ولمصلحة الأولاد على الوجه الذى بيناه ، لأنه دفع لضرر يتفاقم إذا استمرت الزوجية ولأن الفراق صار فى هذه المواضع من اللزوم ، قال تعالى « وأن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعاً حكيما » .

وبهذا يتبين أن الطلاق فى موضعه لا يعد عملا ضاراً بمصلحة الأولاد ، بل هو دفع لضرر عنهم ، كما هو دفع لضرر عن الزوجين أنفسهما ، نعم أن المصلحة تكون أقوى إذا بقى الزواج مع المودة ، ولكن إذا تعذرت المودة وتعذرت هذه المصلحة فلم يبق إلا دفع الضرر وذلك بالطلاق .

التحريم بالرضاعة لأجل النسل :

٣١ — ولعل من أعظم ماشرعه الإسلام فى الزواج لرعاية النسل هو جعل الرضاعة سببا من أسباب التحريم وقد اختص بهذا التحريم من بين الشرائع القائمة الآن ، فلا تجد شريعة من الشرائع الوضعية أو غير الوضعية حرمت بالرضاعة غير الإسلام ، وقد قال فى ذلك كاتب أوروبى « قد استوحى فقهاء المسلمين تلك الحقيقة وهو تقرير قرابة بين الولد والمرضع ، مما جاء على لسان نبيهم (تناكحوا تناسلوا تكثروا) فاحتاطوا كل الاحتياط لذلك الغرض الأسمى الذى هو الحياة الإنسانية . . وهذ هو السر فى أن الإسلام أعطى المرضع هذه المكانة ، لأنها جادت بلبنها ، فساهمت فى تنفيذ الوصية الربانية . . . وهذا أيضا هو السر فى أن الإسلام رفع شأن الحامل ، ولقد جعل الإسلام للمرضع

تلك المكانة ولو كانت غير مسلمة ، يهودية أو نصرانية ، وإنها لمكانة سامية تجعلها فى الأسرة فى المكان التالى للأم » .

٣٢ — وكان التحريم بالرضاعة لهذا المعنى ، ولمعنى آخر لايقل عن ذلك وجوبا ورعاية واعتبارا ، وذلك المعنى هو العناية بمن ترضع الطفل إذا لم تكن أمه ، فإنه إذا علمت أسرته أنها تحرم كما تحرم الأم التى ولدته تنبهوا إلى مقدار أثر الإرضاع فى جسم الطفل الصغير وأثر لبن من ترضعه ، وتنبهوا إلى أن المرضع تغذوه من جسمها فتدخل أجزاؤها فى تكوينه ، ويكون جزءاً منها ، إذ أن لبنها در من دمها ينبت لحم الطفل وينشر عظمه ، وإذا تنبهو لذلك تخيروا المراضع ، وتعرفوا سلامة من ترضع أولادهم ، لأنه إذا كان دمها ملوثاً بمرض مستكن فيه سرى إلى الطفل فى مجرى دمه وأجزاء جسمه ، وإن كانت نقية الدم قوية الجسم استفاد الطفل منها قوة ونماء .

ولم تقف عناية الإسلام بالنسل عند جعلها سببا من أسباب التحريم كالقرابة ليتخير الآباء من يرضعن أولادهم ، بل إن الإسلام أوجب مع ذلك على الأم الحقيقية أن تتولى إرضاع ولدها ، ولا تلجأ إلى تخير المراضع إلا إذا تعذر على الأم أن ترضع ولدها ، إما لأن لبنها لايكفيه ، أو نصحها الأطباء ألا ترضعه لمصلحته أو مصلحتها ، وكلتاهما واجبة الرعاية ، وقد تتوفى الأم والولد فى المهد فتكون المرضع لامحالة .

وإن القرآن قد صرح بوجوب إرضاع الأم لولدها فقال سبحانه « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف وعلى الوارث مثل ذلك »

ولقد قرر المفسرون أن قوله تعالى « يرضعن » هو للوجوب لا للاختيار ، وهو نداء الفطرة ، إذ أن الأم السليمة تكون صحتها وسلامتها فى أن ترضع ولدها .

وإنما كان ذلك الوجوب الدينى لأن الطفل فى المهد يجب أن يكون غذاؤه من جنس الغذاء الذى كان يتغذاه فى بطن أمه وهو جنين ، ولايتم ذلك إلا إذا كانت الأم التى تغذى منها وهو حمل فى بطنها هى التى تغذيه بلبنها وهو طفل فى حجرها ، ولأن لبن الأم ينمو بنمو الطفل ، ويدسم كما تقدمت به الأشهر شهراً بعد شهر ، وهو رزق الطفل فلا يصح أن تلقيه الأم أو تتركه ينحبس فى جسمها ، وله صاحب يطلبه ، وهو ذلك الطفل الذى رزقته .

٣٤ — وقد أجمع الفقهاء على أنه يجب أن ترضع الأم ولدها وجوبا دينياً ولم يجز الحنفية الإلزام به بحكم القضاء إلا إذا كان لايلقم إلا ثديها أو لم توجد مرضع سواها ، أو كان الأب فقيراً لايستطيع أن يستأجر مرضعاً له ولم يوجد من تتبرع له بالإرضاع .

وأجاز الإمام مالك للقضاء أن يلزم الأم بالإرضاع فى هذه الصور التى أجازها الحنفية وغيرها وذلك ليتلاقى الوجوب الدينى مع الوجوب القضائى ، إذ لامعنى للتفرقة بينهما .

ومهما يكن أمر الخلاف فان الإسلام قد عنى عناية خاصة بالنسل فى نشأته وهو فى المهد فى حجر أمه .

عناية الإسلام بحضانة الطفل

٣٥ — إن الطفل منذ يولد تبتدىء غرائزه وعاداته فى التكوين وتنمو عواطفه فتتجه نحو الألف والائتلاف أو تتجه نحو النفور والشذوذ ويبتدىء يتعود كبت عواطفه وأحاسيسه من غير إرهاق نفسى وإن الكبت الذى يجىء بحكم التدرج نحو الكمال الإنسانى إنما يكون فى الرعاية الأبوية ، ولقد قالت كاتبة أوربية « فى خمس السنين الأولى من حياة الطفل تعمل القوى الغريزية البدائية عند الطفل فى نشاط واضح وفى علاقات الطفل الأولى بوالديه تستخدم هذه القوى ثم يتغلب عليها بإدماج نفسه فى رغبات والديه فتكبت ويكون الضمير اللوام ويبدأ الطفل حياة جديدة أساسها كبت الغرائز وموافقتها[1] »

٣٦ — وإن هذه السن ومابعدها هى سن الحضانة الضرورية ولابد أن يكون أساسها مجاوبة عاطفية دائمة بين الطفل ومن حوله ليستطيعوا أن يكونوا فيه ضميره الذى يجعله أن يألف ويؤلف ، وإن عاطفة المرأة هى العامل القوى فى هذا الدور ولهذا قرر الإسلام أن الحضانة حق للنساء وواجب عليهن . وقد وردت بذلك الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ومن ذلك أن إمرأة جاءت إليه عليه السلام تقول له « يارسول الله هذا ابنى كان بطنى له وعاء ، وحجرى له حواء وثديى له سقاء ، وإن أباه طلقنى وأراد أن ينزعه منى » فقال لها الرسول الله الكريم « أنت أحق به مالم تتزوجى » ويروى أن عمر بن الخطاب كان قد طلق امرأة من الأنصار بعد أن أعقب منها ولده عاصما ، ثم رآه فى الطريق مع جدته أم أمه فانتزعه منها ، ولكنها لم تتركه حتى ذهبت معه إلى أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتزعه أبو بكر من يدى الفاروق عمر بن الخطاب وقال له « ريحها ومسها ومسحها وريقها خير له من الشهد عندك » .

وإذا نزعت الحضانة من الأم إذا تزوجت فقد قالوا إن ذلك إنما يكون إذا لم يكن زوجها ذا رحم محرم من الطفل فإذا كان ذا رحم محرم فإنه لاينزع من يدها وضربوا لذلك مثلا إذا توفى الأب عن أطفال فتزوج عم الأطفال أمهم ليتمكن من رعايتهم حق الرعاية .

وإن السبب فى نزعه إذا تزوجت أجنبياً هو الخشية على عواطفه من أن تتربى على الجفوة وعدم الإلف فلاتذهب فقط فائدة الحضانة بل تكون إقامته فى بيت أمه داعية لنقيضها ، وقد علل الفقهاء ذلك بهذا التعليل ، وقد جرت فى عباراتهم تلك الكلمة « إن زوجا إذا لم يكن ذا رحم محرم يؤكله نزراً وينظر إليه شزراً » وهى كلمة تومىء إلى المعانى التى تربيها تلك الحضانة التى تكون فى ظل كاره للطفل من أنها تربى عواطف النفور وعواطف النفور إذا نمت نمت معها الكراهة لكل مايحيط به فيصير من الشذاب الذين يعتدون وينظر إلى الناس دائماً نظرة المدو لعدوه .

٣٧ — وإذا نزعت حضانة الأم لسبب يكون النزع من مصلحته فإنه لا ينتقل إلى أيدى الرجال بل ينتقل إلى أيدى النساء اللائى يرجى منهن أن يكن أمهات له ، وإن لم يكن مثل أمه ، فإنهن يكن قريبات منها . ولاحظ عند الانتقال إلى غير الأم أن تكون الحاضنة قريبتها من قبلها فتقدم أم الأم على غيرها وإذا لم تكن أم أم فأم أب ، وهكذا تكون الحضانة بين النساء والترجيح فيها لقرابة النساء ولا يتجه إلى قرابة الرجال إلا إذا لم يكن فى الطبقة قرابة

---

(١) هذا ومثله فى كتاب « أطفال بلا أسر » ترجمة محمد بدران .

لنساء ، ولذا تقدم الأخت لأم على الأخت لأب ، وذلك لتبقى معانى الأمومة هى الراجحة ق كل درجات الحضانات مهما تكن بعيدة .

ولقد قرر الفقهاء أن اختلاف الدين لا يمنع حق الأم فى الحضانة فإذا كانت الأم مسيحية والأب كان مسلما فلها حق حضانة طفلها ، ولا ينزع من يدها إلا إذا بلغ سنا يعقل فيها الأديان فإنه ينزع من يدها إلى من يتحد دينه مع دينه الذى هو دين أبيه .

٣٨ — ويلاحظ أن بقاء الطفل فى يد الحاضنة لا يمنع الأب من الإشراف عليه ورعايته ، فلا يمنع من رؤيته ولذلك كان محل إقامة الحاضنة لا بد أن يكون فى البلد الذى يقيم فيه الأب لكى يجتمع للطفل رعاية الأمومة والأبوة معا ، فتتربى عاطفته تربية كاملة ويوجه إلى الصالح الذى يتقن توجيهه النساء والصالح الذى لا يتقنه إلا الرجال فيتعود تحمل التبعات بما يلقنه أبوه ، ويتعود الائتلاف بما تلقنه الحاضنة . ولا يختلف البلد الذى تكون فيه الحاضنة عن محل إقامة الأب إلا فى صور استثنائية اختصت بالاستثناء فيها الأم وحدها دون سائر الحاضنات ، لأن كمال شفقة الأم قد يغنى عن إشراف الأب فى سنى الطفل الأولى التى لا يحتاج فيها إلا إلى الغذاء البدنى والروحى والعاطفى ، وعينه بعد لم تتفتح إلى الوجود كله حتى يربيه من هو أكثر اتصالا بهذا الوجود وهو الأب .

٣٩ — وإذا لم يكن للطفل حاضنة من النساء تستوفى شروط الحضانة وتستأهل ذلك الحق المقدس فإن الحضانة تنتقل إلى أقاربه ذوى الرحم المحرم من الرجال ، ليقوموا بواجب الرعاية وقد يكون فى شفقتهم ما يسد بعض النقص الذى يفقده الطفل بحرمانه من رعاية النساء فى تلك السن وكل ما فيه طرى غض .

ولقد عرض الفقهاء صورا لا يجد فيها الطفل حاضنا يحضنه قط لا من الرجال ولا من النساء وقالوا فى مثل هذه الصورة أن القاضى المفوض من ولى الأمر بذلك يضعه فى بيت أمين شفيق يرعاه ويكفل ذلك اليتيم كفالة الأم والأب له .

وإنه فى هذه الصورة يصح أن نقول إن الفقهاء يجيزون إنشاء دور للحضانة يشرف عليها مختصون يؤوى فيها كل طفل فقد الحاضن أو لم يوجد فى قرابته من يصلح لحضانته على أن تكون دور الحضانة هذه يمضى فيها الطفل يومه الكامل . وعلى أن يقوم بالرعاية فيها نساء قد اختصهن الله بشفقة الأمومة ليجد فيها الطفل أما ترأمه ، وإن لم ير فى مشاعرها وحواسها صورة الأم الحقيقية .

٤٠ — وإنه مهما تكن دور الحضانة من الرعاية فإنه لا يمكن أن تقام مقام رعاية الأم ، ولذلك لا يصح أن يلجأ إليها إلا عند الضرورة ، وقد وازنت صاحبة كتاب أطفال بلا أسر بين طفل تربى بين أبويه وطفل تربى فى الملاجىء أو دور الحضانة ، فقالت فى بعض ما كتبت : « كلما وازنا بين أطفال الملجأ الذين تجاوزوا العام الأول وبين أطفال المنازل فى مثل سنهم كانت نتيجة الموازنة ليست فى صالح الأولين » . ثم تتكلم فى نمو حاسة النطق فتبين سرعة نموها بانتظام فى طفل الأسرة وتقول فى ذلك : « أن بداية أساس الصلة المباشرة بين الطفل ووالديه ، فالطفل يدرك بغريزته كل انفعال يثيرانه فهو يرقبهما ويقلد التعبيرات المختلفة التى تظهر على وجهيهما وهذا الانفعال العاطفى التقليدى فيه من القوة ما يدفعه إلى الكلام » .

ولهذا لا يصح أن نتوسع فى إخراج الطفل من أسرته مادام له حاضن من قرابته ، وعلينا أن نصلح الحاضن أو الحاضنة بدل أن نحرم الطفل من العطف الذى ينبعث من شفقة القرابة فينمى كل مواهبه ويخلق منه بهذا رجلا جاف الطباع خشنا لا يألف ولا يؤلف .

الولاية على النفس :

٤١ — كانت الحضانة هى التربية الأولى للطفل وأما الولاية على النفس فهى للمحافظة على الطفل وصيانة نفسه وهى تثبت على الطفل مقترنة بولادته وتصحب الحضانة فى وجودها ، ولكن لا ينتقل الطفل من يد الحاضنة إلى يد الولى على النفس إلا بعد انتهاء سن الحضانة ، فحين تنتهى الحضانة تكون الرعاية كلها للولى على النفس ، ومدة انتهاء الحضانة قدرها الفقهاء بأمر معنوى تظهر آثاره فى الحس وهو استغناء الطفل عن النساء بأن صار يأكل وحده من غير ترغيب ويلبس وحده ويستحم وحده ، وتلك هى المظاهر الحسية ، أما الحقيقية المعنوية فهى أن يبلغ الحد الذى تنمو فيه مواهبه النمو الأول فى داخل الأسرة ويحتاج من بعد ذلك إلى أن يخرج إلى الحياة لتنمو مواهبه فى ظلها كما نمت مواهبه الاجتماعية الأولى فى ظل الأمومة .

ومهما يختلف فقهاء المسلمين فى السن التى يتجاوز بها الطفل سن الحضانة الأدنى قد وضعوا ذلك القياس الضابط وهو أن يستغنى عن النساء وقد اتفقوا أيضا على أن الاستغناء عنهن يبدأ مبكراً فى الصبى وقد يمتد أكثر فى الصبية ، ولذلك كانت سن الحضانة تمتد عندها أكثر مما تمتد عند الغلام ، والمعمول به الآن فى الإقليم المصرى أن الصبى حد حضانته الأولى سبع سنين وقد يمدها القاضى المختص إلى تسع والصبية حد الحضانة الأولى لها تسع وقد يمدها القاضى إلى أحد عشر عاما إن رأى أن المصلحة تسوغ ذلك المد .

وهناك اتجاه فى مصر إلى مد السن إجباريا بالنسبة للصبى والصبية وإذا كانت الحاضنة هى الأم وجعل ذلك المد جوازيا للقاضى إذا كانت الحاضنة أم الأم ، وذلك اتجاه له إعتباره على أن تراعى فى ذلك مصلحة الطفل قبل كل شىء وأن يكون للقاضى سلطان المنع إذا تبين أن الأم غير صالحة لهذه المنحة الزمنية التى اختصت بها .

٤٢ — وأنه حيث تنتهى الحضانة يبتدىء انفراد الولى على النفس بالسلطان كما أشرنا لأن الطفل فى هذا الوقت يحتاج إلى من يحافظ عليه ويصونه ويرعاه ويأخذ بيده ليريه الوجود كما هو ويوجه نظره إلى حقائقه وغايات الناس فيه ويعلمه ويربيه وينشئه تنشئة حسنة بالقدوة الحسنة والتوجيه المرشد وذلك يكون للرجال . فإنه حيث تنتهى مهمة المرأة فى التنشئة بالحضانة والرعاية الأولى تبتدىء مهمة الرجل بالكفالة والصيانة وأن التشرد الذى نراه فى بعض مدائن مصر والبلاد العربية هو من ضعف سلطان الولى على النفس أو إهماله أو عدم توجيهه ، فذلك هو السبب الحقيقى ولا سبب سواه ، وأن بعض الذين لا يمحصون الحقائق ظنوا أن السبب هو الطلاق ، أو تعدد الزوجات ، والإحصاء الدقيق بين الأحداث والمشردين يثبت أن نسبة من طلقت أمهاتهم أو من تزوج آباؤهم عليهن ضئيلة لا تسمح بأن يكون هذا هو السبب فى هذه الكثرة ، ولذلك لا يصح أن نسير وراء ذلك السبب المزعوم ونكون كالطبيب الذى تشبثت بعقله صورة داء وأخذ يعالجه فى المريض وهو غير حقيق ، ويترك الدواء الحقيق يستشرى ويضعف الجسم .

إن التشرد ينشأ من فقد رعاية الأمومة والأبوة معا فينشأ بين اليتامى الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم كما ينشأ بين الأطفال الذين انصرفت عنهم الحواضن والأولياء وأكثره من الذين أجرم آباؤهم فوجهوهم إلى أسباب التشرد بالإهمال المطلق أو تعويدهم عادات إجرامية أو تعويدهم مهانة النفس وعودهم أخضر لحملهم على تكفف الناس بالسؤال فمن بين هؤلاء يولد التشرد فى النفوس ، وتمتد جذوره فيها ، وتكون النفرة بين هؤلاء الأحداث وبين المجتمع الذى يعيشون فيه فينفر منهم وينفرون منه وتتولد فيهم روح البغض له والتربص له بالأذى .

٤٣ — لذلك عنى الإسلام بأمرين : أحدهما تنظيم سلطان الولى على النفس . والثانى تسهيل أسباب العيش .

أما الأمر الأول ، فقد عنى فيه الإسلام بأن يختار الولى على النفس ممن يهمهم أمر الصغير بمقتضى الفطرة والعلاقة النسبية ويلحقهم عاره إن فسد ، ويعود عليهم بالنفع والنصرة إن صلح وأولئك هم أقاربه الأقربون من أسرة أبيه . وقد اختلف الفقهاء فى عددهم مابين مكثر ومقل ، فالحنفية جعلوا هذه الولاية لكل العصبات بل جعلها أبو حنيفة لكل الأقارب ، والشافعية جعلوها فى الأصول والفروع ، والمالكية والحنابلة جعلوها فى الأب ، ثم لمن يختاره القاضى بعد ذلك ليكون الولى تحت إشرافه ورقابته ، والقاضى فى أغلب الأحوال يعين من عصبته خاصة أو قرابته عامة ، فهو لا يخرج عنهم ، ولكن يختار منهم ولا يجعل لمجرد سلسلة النسب والقرابة الحكم المنفرد فى الأمر ، بل ذلك فى حال الأب فقط ، أما من عداه فإنه يكون بتخير القاضى لا بسلطان القرابة وحدها ، فقد يكون القريب البعيد أصلح من الأقرب منه فلا تكون الرعاية كاملة .

هذا نظر أولئك الفقهاء ، أما الحنفية فقد جعلوا الحكم هو القرابة وقربها من غير قصر ، ولا ينزع الطفل من أيدى أقاربه إلا إذا ثبت فسادهم ، ولا شك أن النظر الأول أحوط إذ الوقاية خير من العلاج .

٤٤ — ومهما يكن أمر اختلاف الفقهاء فى نظام التولية فإن هناك أمرا مقرراً ثابتا وهو أن الولى سواء كان معينا من قبل القاضى أم كانت القرابة القريبة هى سبب توليه لابد أن يكون صالحا لأن يربى الطفل وينشئه تنشئة يرجى منها الخير له إن كتب الله له الهداية والتوفيق ، ولذلك اشترطوا فى الولى أن يكون بالغا عاقلا قادرا على صيانة الطفل وتربيته وأن يكون أمينا فى نفسه وأن يكون أمينا على القاصر فلا تكون بينه وبين القاصر خصومة مالية وأن يكون هو فى ذاته صالحا غير فاسد لأن هذه الولاية للإصلاح والحفظ والصيانة فلا يتولاها من اشتهر بالفساد .

ولذلك إذا كان أحد الأقارب الذى يستحق ضم الطفل إليه مفسدا لا يدفع إليه القاصر بل يدفع إلى من يليه إذا كان مصلحا وليس مفسدا .

٤٥ — وإن الأمر فى تقدير الفساد والإصلاح هو للقاضى المختص وكان هو يقدر الأمر من غير نظام مقيد وكان الأمر فى مصر يسير على ذلك النحو إلى أن جاء القانون رقم ١١٨ لسنة ١٩٥٢ فلم يترك الأمر إلى القاضى بالنسبة لبعض الأشخاص الذين دل ماضيهم على عدم الرجاء فى حاضرهم ومستقبلهم بالنسبة للأطفال فقرر أن تسلب الولاية إجباريا عمن يأتى :

(١) من حكم عليه فى جريمة اغتصاب أو هتك عرض أو لجريمة من الجرائم التى يكون فيها تحريض على

الدعارة وكانت الجريمة على من هو فى ولايته وكذلك من حكم عليه أكثر من مرة فى هذه الجرائم ولو لم تكن الجريمة على من هو فى يده .

(ب) من حكم عليه لجناية وقعت على نفس أحد ممن تشملهم الولاية أو حكم عليه لجناية وقعت من أحد هؤلاء وسلب الولاية فى هاتين الحالين سلب حتمى لاجوازى . ويلاحظ أن الفقرة الأخيرة تعتبر الولى مسئولا عن جرائم القصر وتسلب منه الولاية إذا أدى إهماله إلى أن يرتكبوا جناية من الجنايات .

ويكون سلب الولاية جوازا فيما يأتى :

(ا) إذا حكم على الولى بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة .

(ب) إذا حكم عليه فى جريمة اغتصاب أو هتك عرض أو تحريض على الدعارة ولم تكن الجريمة على من هم فى ولايته .

(جـ) إذا حكم على الولى أكثر من مرة لجريمة تعريض الأطفال للخطر أو الحبس بغير سبب أو الاعتداء الجسيم إذا كانت الجريمة فى كل هذا على أحد ممن تشمله ولايته .

(د) إذا حكم بإيداع أحد المشمولين بولاية الولى فى دور الاستصلاح فإن ذلك يكون دليلا على أنه لا يحسن القيام على تربية من هو فى ولايته .

(هـ) إذا عرض الولى للخطر أحداً ممن تشملهم الولاية أو سلامته أو أخلاقه أو تربيته بسبب سوء المعاملة أو سوء القدوة نتيجة الاشتهار بفساد السيرة أو الإدمان على الشراب أو المخدرات أو بسبب عدم العناية أو سوء التوجيه ولا يشترط فى هذه الحال أن يصدر ضد الولى حكم بسبب تلك الأفعال .

وهذه الأحوال الجوازية ليس الجواز فيها معناه أن تطلق يد الولى بل إن الجواز إنما هو فى سلبها أو فى وقفها كلها أو بعضها ولكن لا يجوز أن تطلق يده إطلاقا تاما .

ويجوز الحكم بسلب الولاية أو وقفها ولو كانت الأسباب المسوغة للوقف قد وقعت قبل أن يتولى الولى على النفس ولايته .

ويجوز للمحكمة الجنائية حين تقضى بالعقوبة التى هى سبب لسلب الولاية أو وقفها أو الحد منها أن تقضى بذلك .

٤٦ — ولا شك أن هذه الأحكام التى نص عليها ذلك القانون ليست بعيدة عن الفقه الإسلامى إنما هى فى جوهرها تطبيق لأحكامه ، فهى تفصيل بعض أحوال الفساد التى تسوغ سلب ولاية الولى على النفس ، أو تقييدها أو وقفها ، أى سلبها أمداً معلوما ، وذلك لا يمنع سلطان القاضى فى سلب الولاية إذا تحقق لديه فساد ليس مما نص عليه ذلك القانون .

ولكن يجب أن نقف وقفة قصيرة فى هذه المسألة فإن القانون نص على سلب الولاية وجوبا أو جوازا فى تلك الأحوال ، ولكن من يتولى التبليغ إلى المحكمة لتسلب أو تقف أو تحد ليمنع الشر قبل وقوعه ، لا شك أن محكمة

الجنايات لها أن تسلب الولاية فى حكمها ،ولـكن ذلك جوازى لاوجوبى ، وكان ينبغى أن يكون وجوبيا،وخصوصا أنها لا تتنبه إلى ذلك إلا إذا كانت الجناية على القصر أن يكون الحـكم متضمنا سلب الولاية من تلقاء نفسه ، وإن لم ينص على ذلك فى صيغته لأن سلب الولاية كما هو فى الحال الأولى حتمى لاجوازى فهويثبت بمقتضى الحـكم ،وعلى محكمة الجنايات أن تحيل الأمر بعد أن تفصل محكمة الأحوال الشخصية لتعين وليا غيره .

٤٧ — ولـكن إذا كان الفساد ليس من هذه الأنواع ، أو منها ، ولم يصدر الحـكم بالسلب لأنه جوازى ، فمن الذى يتولى التبليغ ؟ إن هذا الأمر غير منصوص على حـكم فيه ، ولذلك يترك القاصر فى يد الولى الفاسد وقديكون ذلك الفاسد محكوما عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة ولا أحد يفـكر فى أمر الأطفال الذين حجبته عنهم غياهب السجن ، فلا يفـكر فى أمرهم قضاء ولا نظم اجتماعية كافلة راعية ، بل إن أمرهم يصير هملا ،حتى تظهر منهم الجرائم أو يستشرى الفساد فى نفوسهم فعندئذ نفـكر فى إصلاحهم أو فى توقى ضررهم وقد كان العلاج فى دائرة الإمكان عند وجود سببه .

ولذلك نرى أنه يجب تحقق ثلاثة أمور :

أولها — أن تعنى الوحدات الاجتماعية بدراسة القصر الذين هم فى ولاية غيرهم وخصوصا إذا كانوا يتامى قد فقدوا أباهم الذى كان يقوم على تربيتهم ولو كانوا أغنياء فإنهم إذا كانوا أغنياء كانت عوامل الشر أوسع مدى والرغبة فى أموالهم قد تؤدى إلى ضياعهم وعدم القيام بتربيتهم .

وإذا لوحظ تقصير فى الرعاية من الأولياء سواء أكانوا الآباء أم غيرهم اتجهت الوحدة الاجتماعية إلى تبليغ نيابة الأحوال الشخصية لتتولى التحقيق وتعرض الأمر على المحـكمة لتفصل فيه .

ثانيها — أن تبلغ محكمة الجنايات فى كل حكم فيه تقييد للحرية الحـكم إلى محكمة الأحوال الشخصية لتتولى نيابتها التحرى عن قصر هذا المحـكوم عليه ، من الذى يتولاهم وماحالهم ، فتبقى ولاية المحبوس أو تقفها أو تعين وليا إذا كان الحبس لمدة طويلة أو كان المحـكوم عليه غير صالح لأن يستمر وليا لأنه فاسد وولايته مفسدة .

وثالثها — أن تتولى الوحدات الاجتماعية دراسة حال القصر الذين تركهم ذووهم إما إجمالا أو لتقييد حريتهم أمداً طال أو قصر من ناحية ماينفقون منه ومن ينفق عليهم ، فان وجدتهم فى حاجة إلى مساعدات اجتماعية تولتها وتعهدتها باستمرار إلى أن يزول السبب الذى استدعى ذلك الانفاق ، وإنها بذلك تزيل أعظم سبب من أسباب التشرد فى الصغار وهو الفقر وإهمال الولى على النفس .

٤٨ — هذا نظام الولاية على النفس شرعا وقانونا ، واقتصرنا على مصر ، لأنها هى التى نظمت الولاية على النفس بأحكام قانونية منفصلة عن الأحكام الفقهية ، وإن كانت فى الحقيقة تحقق الأحكام الفقهية على الوجه الأكمل ولقد قرر فقهاء الشريعة أنه إذا لم يكن للقاصر ولى يضم إليه أودعه القاضى أمينا يقوم على رعايته وكفالته والمحافظة على نفسه وماله ودينه ، ويربيه وينشئه .

ذلك قول الفقه ، ويصح فى مثل هذه الحال أن يعهد به القاضى إلى هيئة تقوم بهذه الـكفالة وتتولى هى تلك

التربية ، على أن تنشأ تلك الهيئات وتنظم تنظيما يضمن أن ترعى الأطفال رعاية تقوم مقام رعاية الآباء ، وإن ذلك أيضا تطبيق لأقوال الفقهاء .

تسهيل العيش للقاصرين :

٤٩ — كما عنى الإسلام بمن يتولى أمر تربية الطفل عندما ينتقل من دور الحضانة إلى دور الكفالة الأبوية ، قد عنى أيضا بعيشه وبمن يتولى ماله ، ولنتكلم كلمات يسيرة فى هذين الأمرين وهى موضحة وإن لم تكن مفصلة .

الولاية على المال :

٥٠ — نظم الفقه الإسلامى الولاية المالية ، كما نظم الولاية على النفس ، فجعل الولاية المالية للأب ثم من يختاره الأب بعد وفاته وليا على أولاده ، ثم للجد أبى الأب ثم من يختاره الجد وصيا على أحفاده بعد وفاته فإن لم يكن أب ولا جد ولا وصى لهما كانت الولاية لمن يعينه القاضى المختص وقد فوض الشرع أمر الطفل وماله إلى أبيه إذا كان أبوه حسن الرأى والتدبير وكان أمينا على نفسه وماله ، ولم يقيده فى تصرفاته إلا بالأحكام الشرعية العامة كما قيده بقيد واحد خاص وهو ألا يتبرع من مال الصغير ولا يتصرف تصرفا فيه غبن فاحش عليه لأن ذلك بالنسبة لماله ضرر محض وهو يتولى أمره لمصلحته المالية ، لا لنقص أمواله .

وإذا كان الأب غير أمين نزعت أموال ولده من يده ، لأن ضرر هذه الولاية أكبر من نفعها فيكون أمر ادارة أمواله إلى من يكون أصلح وأحفظ وأصون .

ولو كان الأب سيء الرأى والتدبير ولكنه أمين كانت تصرفاته تحت إشراف القاضى مع بقاء ولايته لينتفع بأمانته ويتقى سوء رأيه ، ولا يجوز له من التصرفات من غير إشراف إلا التصرفات الواضحة المصلحة .

ولقد جاءت القوانين المصرية التى كان آخرها القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٥٢ منظمة لتلك الأحكام غير مخالفة لجوهرها ، وإن قيدت أشكالها ووصفتها فى ضوابط نظامية ، ولكنها جعلت ولاية الأب فى كل أحواله تحت إشراف القاضى ولو كانت ولايته كاملة وأمانته ورأيه كاملين ، إلا إذا كان المال الذى آل إلى الصغير هو من تبرع أبيه له ، فإنه تكون ولايته من غير أى رقابة عليها ، وذلك لتشجيع الآباء لأبنائهم ولأنه محسن إلى ابنه بتبرعه ، وما على المحسنين من سبيل .

٥١ — وإذا انتقلت الولاية إلى الجد أو إلى الأوصياء المختارين من قبل الأب أو الجد أو الذين يعينهم القاضى المختص فان الولاية تكون مقيدة ولا تكون مطلقة ، وتكون تحت إشراف القاضى سواء أكانوا حسنى الرأى والتدبير أم لم يكونوا وذلك لأن شفقة هؤلاء دون شفقة الأب ، ولأن الأساس فى الولاية مصلحة المولى ، عليه هذه المصلحة ليست مؤكدة فى حال هؤلاء ولو كانوا أمناء .

ولا شك أن الأساس فى ولايتهم الأمانة فإذا فقدوها زالت عنهم الولاية أو استحقوا أن تزول وعزلهم القاضى ، وولى بدلهم من يصلح ، أو وقف هذه الولاية إذا كان الجد هو الذى يتولاها .

والقوانين الحاضرة المصرية التى كان آخرها القانون المشار إليه آنفا وهو القانون رقم ١٦ لسنة ١٩٥٢ وقد نظم هذه الولاية وبين شكل رقابتها والنظم التى يتبعها المتولون فى بيعهم وشرائهم وسائر تصرفاتهم فى أموال القاصر ، وهو لايخرج عن لب الشريعة ، وإن أتى بقيود شكلية نفذت بها المعانى الشرعية .

نفقة الطفل :

٥٢ — إذا كان الطفل له مال فنفقته من ماله ، بل إنه إذا كان له قريب فقير عاجز عن الكسب وجبت نفقة الفقير فى مال الصغير ويفرض القاضى هذه النفقة ، وأن الطفل إن كان غنيا والأب كان فقيراً كانت نفقة الأب فى مال الصغير، وإن هذه حقوق مالية والتزامات شرعية ثبتت بحكم الشرع وخلاصتها أن الفقير من الأسرة تكون نفقته فى مال الفتى من غير فرق بين غنى صغير وغنى كبير .

وإذا كان الطفل فقيرا فإن نفقته تكون على أبيه إذا كان أبوه غنيا ، أو كان قادراً ، وقد قرر الفقهاء فى ذلك قاعدة مطردة ، وهو أنه لايشارك الأب فى نفقة أولاده أحد ، ولو كان الأب قادرا على العمل ولكنه فقير فإن فقره لايعفيه من ذلك الواجب الثابت بحكم الفطرة ، ولكيلا يضيع الطفل وجب على من يلى الاب فى هذا الواجب إذا لم يكن الاب موجودا أن ينفق ويكون ماينفقه دينا على الأب يؤديه إذا أيسر .

واذا كان الأب غير موجود ، أو كان موجودا ، ولكنه عاجز عن الكسب عجزا مطلقا فإن النفقة تكون على قرابته الأغنياء مرتبين على حسب الإرث كما هو المذهب الحنفى الذى اختارته حلقة الدراسات الاجتماعية التى انعقدت فى دمشق الفيحاء فى ديسمبر سنة ٩٥٢ وجعلته أساسا لتنظيم نفقات الأقارب التى أعتبرت جزءاً من التكافل الاجتماعى الإسلامى فى الأسرة .

وخلاصة ذلك المذهب أن من يرث الفقير العاجز إن مات غنيا تجب عليه نفقته فى حال العجز لأن الغرم بالغنم فمن كان يغنم الميراث ، وجبت عليه النفقة ، والحقوق والواجبات متقابلة وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

العلاقة الإنسانية فى الأسرة :

٥٣ — إن العلاقات الإنسانية فى الأسرة الإسلامية تقوم على عناصر ثلاثة : أولها احترام الشخصية فى الأسرة، ثانيها المساواة فى المعاملة ، ثالثها — المحبة الواصلة والود الدائم المستمر، ولنشر الى كل واحد من هذه هذه بكلمة موضحة .

احترام الشخصية :

٥٤ — ان الفرد فى الأسرة يدمج فيها ، فالأبناء يدمجون فى الآباء والإخوة يتحدون ويتعاونون والزوجان يندمج كل واحد منهما فى صاحبه ، ويندمج فيهما أولادهما، ولكن مع هذا الاندماج لاتفنى شخصية كل واحد من آحاد

الأسرة فى سائرها ، بل كل له كيانه وشخصيته الذاتية وتتلاقى هذه الشخصيات ويتكون منها بناء الأسرة ، من غير إفناء للذاتية الشخصية .

ولذلك كان للزوجة مع اندماجها فى زوجها شخصيتها الكاملة . فلها الولاية التامة على نفسها ومالها وليس للزوج أن يتصرف فى مالها إلا بإذن منها ، فإن لم يأذنها كان تصرفه فى حكم التصرف فى مال أجنبى لاينفذ إلا بإجازتها وذلك عن الحنفية ، وقال جمهور الفقهاء يبطل تصرفه ؛ وذلك حق لم تعترف به الشرائع الوضعية للمرأة كاملا على الوجه الذى بينه ، فإن الإسلام جعل للمرأة الحرية المطلقة فى التصرف فى مالها لايقيدها إلا بما يقيد البالغ العاقل الرشيد فى التصرف فى ماله ، ولم يشذ عن هذا إلا رأى لمالك روى عنه، وهو أن المرأة لها أن تتصرف فى كل شىء بالتبرع أو غيره إلا أنها إذا كانت زوجة فإنها لاتتبرع بأكثر من ثلث مالها .

٥٥ — وإن شخصية الأولاد أمام أبيهم محترمة، فالولاية الأبوية تنتهى عند البلوغ عاقلا رشيداً فإذا بلغ ذلك المبلغ كانت له الولاية التامة على ماله ونفسه، وليس لأبيه أو غيره أن يتدخل فى شئونه المالية أو غيرها إلاأن يحجر عليه ، فيكون للقاضى أن يقيد تصرفاته ويقيم عليه قيما .

فالولاية الشخصية فى الشريعة الإسلامية حق طبيعى يثبت بمجرد تحقق سببه وهو البلوغ والعقل والرشد ، وليس منحة يمنحها الشخص من الأب ، وأين من هذا القانون الرومانى الذى يقدسه علماء القانون فى فرنسا وغيرها فإن الابن مهما يبلغ مبلغ الرجال لاينال الولاية على نفسه وماله إلا إذا أعطاه الأب هذه الولاية له من أبيه مادام حياً ، فالحرية الشخصية التى تمثلها ولاية الرجل على نفسه منحة من الأب وليست حقا شرعياً يستمده من قانون الحياة ونظام الفطرة وذلك فى نظر القانون الرومانى .

المساواة فى الأسرة :

٥٦ — تقوم العلاقات فى الأسرة على المساواة فى الحقوق والواجبات ، وإن العلاقة بين الأخ وأخيه تقوم على المساواة ،ليس لأحدهما أن يتحكم فى الآخر ، أو أن يسلب الكبير حق الصغير وإن كان الإسلام قد حث على احترام الكبير والرفق بالصغير .

والأولاد متساوون أمام أبيهم ، ولقد قال فى ذلك النبى صلى الله عليه وسلم « سووا بين أولادكم فى العطية ولو اخترت لفضلت النساء على الرجال » وقد قال ذلك رسول الله صلى عليه وسلم لرجل كان قد وهب لبعض أولاده ولم يهب للباقى فنهاه النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك بهذا الحديث .

وقد قرر الفقهاء بالإجماع أنه يكره للرجل أو المرأة ، أن يعطى أحدهما بعض أولاده دون البعض ، وقد قرر الإمام أحمد أن من يهب لبعض أولاده هبة ويترك الآخرين تكون هبته باطلة لما فيها من مخالفة ذلك الحديث النبوى الشريف .

وإن النهى عن المحاباة فى الهبة له مغزاه لأن إيثار بعض الأولاد بعطاء دون الباقين يلقى فى قلوب المحرومين بالبغض والعداوة ، فتتقطع أوصال الأسرة وتحل البغضاء محل المودة وذلك مانراه فى أسر الذين ينحرفون ذلك الانحراف .

المودة الواصلة :

٥٧ — إنها العلاقة الإنسانية العليا التى تحكم الأسرة وتحميها من عوامل التفكك والانحلال وقد بيناها فيما سبق من قولنا .

٥٨ — هذه إشارات موجزة إلى أحكام الأسرة فى الإسلام ودعائمها ، وإن الإسلام لو اتبع على وجهه فى تنظيم الأسرة لأعطى كل ذى حق حقه ، ولامتنعت عن كل عوامل التفكك التى تساورها ، وإنه إذا أريد تنظيم قوى متين إزاء مايعتور الأسرة الإسلامية الآن بسبب عوامل الانحلال التى تفد إلينا محملة بأوزار الغرب ومافى أسره من انحلال فإنه يجب ألا نتجاوز أحكام الإسلام فى ذلك الأمر ، فإنه أمر لايصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، وإن الأسرة الإسلامية كانت أقوى ومازالت بحمد الله أقوى من الأسرة فى الغرب والشرق ، فعلينا ألا نترك ما كان سبب قوتها إلى مايكون سبب انحلالها ، والله سبحانه قد حدد الحدود ورسمها « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » اللهم قنا شر أعدائنا وشر أنفسنا إنك سميع مجيب الدعاء .

الأسرة فى الاسلام

للأستاذ الشيخ محمد صقر

(الكويت)

لا يرتاب أحد من أولى الألباب فى أن أساس الموازنة بين القوانين إنما يكون باعتبار المصالح التى تحققها لمن وضعت لهم ، والمفاسد التى تعصمهم من التردى فى مهاويها . والشرائع كالقوانين فى ذلك على حد سواء . يجب أن تكون كافلا لإسعاد من شرعت لهم على اختلاف الأجيال وتباين الطبقات ، ولن تكون الشريعة جديرة بالبقاء حرية بالولاء إذا غلت عقول أتباعها عن البحث فى ميادين العلوم والصناعات وأشاعت فيهم الكسل والخمول والقناعة ببسائط الحياة وسلبتهم حريتهم وكرامتهم وتجافت عن طبائعهم وغرائزهم ، لأن شريعة ذلك شأنها فلا ريب فى أن مآلها إلى فناء .

وعلى هذا الأساس سننظر إلى ماجاء به الإسلام لتنظيم الأسرة نظرة فاحصة قد برئت من الهوى وبعدت عن شوائب التقليد لنعرف وجه الحق فيما شرعه ونستبين قيمته ونتعرف صلاحيته لإصلاح مجتمعنا وإسعاد حياتنا .

وسبيلنا فى ذلك أن ندرس نظامه فى مصادره الأصلية دراسة علمية قوامها العرض الصادق والحكم العادل فلا نتزيد فى فضله ولا نهضمه حقه ، لأن المتزيد كالظالم كلاهما جائر فى قصده مطفف فى وزنه ساقط القدر فى انظار العقلاء . ومعاذ الضمير أن نكون من أولئك أو هؤلاء ، ويجدر بنا قبل أن نشرع فى ذلك أن نسرع إلى الاجابة عن سؤال دقيق نعتقد أن الإجابة عليه تزيل كثيراً من الشكوك والأوهام التى علقت بالأذهان ورانت على الأحلام فى صلاحية شريعة الإسلام لهذا الزمان .

هل نصت الشريعة الإسلامية على جميع الأحكام لكل ما استحدث الناس من أمور وما طرأ على حياتهم من مسائل لم يسبق لها أشباه ونظائر ؟ وإذا لم تكن قد شملت ذلك فهل تقف حيث وقفت أم نقول أن طاقتها قد نفدت ؟ ولا مناص عن الإجابة بأن شريعة الإسلام لم تأت مفصلة لجميع الأحكام لكل ما نجم أو ينجم على مر الزمان وتطور الإنسان ، ولكن ذلك لا يضيرها ترعى مقومات العقل ومقتضيات الفطرة وتستهدف صالح البشر وتحمل فى أطوائها أسباب نمائها وأسرار بقائها . . وقد وضع لها الرسول أصلا قويما يمكن المسلمين من الحكم على كل جديد بالقبول أو الرد حسبما توحى عقولهم السليمة وتهدى أفكارهم القويمة ، وذلك أنه عليه السلام قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن — كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال — أقضى بما فى كتاب الله — قال — فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال فبسنة رسوله : قال — فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال — أجتهد رأيى ولا ألو فقال النبى — الحمد لله الذى وق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله .

أباح لنا الرسول أن تعمل عقولنا ونبدى آراءنا فيما يعرض لنا فنمثل الوقائع بنظائرها ونشبهها بأمثالها ونرد بعضها إلى بعض فى الأحكام : ونهج لنا سبيل الاجتهاد بين طريقه المستقيم ، قالت له إمرأة من جهينة : إن أمى نوت أن تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال — نعم حجى عنها ؟ أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قضيتيه ؟ أقضوا فالله أحق بالقضاء .

ولقد رضى عن اجتهاد المجاهدين فى حياته والوحى يتنزل عليه من السماء وأقر المصيبين منهم على ما ارتأوه من آراء ومن أروع الأمثلة وأبدعها فى مجال العظمة والجلال لأم طليق على رأيها فى مسألة اختلفت فيها مع زوجها — وقد روى زوجها قصة اختلافهما فقال « كان لى جمل أغزو عليه وناقة أحج عليها فأتتنى أم طليق وقالت — حضر الحج يا أبا طليق فأعطنى الجمل لأحج عليه ، فقلت لها ألم تعلمى أنى حبسته فى سبيل الله ؟ فقالت — إن الحج فى سبيل الله فأعطنيه يرحمك الله ، فامتنعت فقالت — فاعطنى الناقة وحج أنت على الجمل . قلت لها : لا أوثرك على نفسى . قالت : فاعطنى من نفقتك . قلت : ما عندى فضل عنى وعن عيالى ما أخرج به وما أتركه لكم . قالت : إنك لو أعطيتنى أخلفها الله عليك ، فلما أبيت عليها قالت : فإذا أتيت رسول الله فاقرأه منى السلام وخبره بالذى قلت لك. فأتيت رسول الله فقرأته منها السلام وأخبرته بالذى قالت ، فقال رسول الله صدقت أم طليق لو أعطيتها الجمل لكان فى سبيل الله ، ولو أعطيتها الناقة لكانت فى سبيل الله ، ولو أعطيتها من نفقتك لأخلفها الله عليك ، فقلت يارسول الله أنها تسألك ـ ما يعدل الحج ؟ فقال : عمرة فى رمضان .

وإنها لقصة رائعة تعرب عن إعزاز الإسلام للمرأة وإعطائه لحقها فى حرية التفكير والتعبير فى مجال الشرع والتشريع .

هذا هو الأصل القويم الذى وضعه الرسول الكريم وهو يفتح لنا أبواب الاجتهاد على مصراعيها فندخلها آمنين مطمئنين وقد وضعنا نصب أعيننا ما قرره القرآن من أن الله لم يجعل علينا فى الدين من حرج ولم يرد بنا فيه إلا اليسر المسعد للأفراد والجماعات والأسر .

هذا هو النهج الذى نهجه لنا رسول الله وفيه الغناء لمسايرة الإسلام بكل تطور وارتقاء وفى ظله الظليل يستطيع المسلمون استقبال كل جديد تأتى به الأيام والقضاء فى أمره بما يوافق روح الإسلام ، فلا تنبتر صلتهم بشريعتهم ولا تنقطع شريعتهم عن الحياة ولا تفقد سلطانها الذى شرعت من أجله وهو تنظيم حياة الفرد والأسرة والجماعة وتنسيق الصلات بين هؤلاء على نحو يجعلهم خير أمة ويجعل مجتمعهم خير مجتمع فى دنيا الناس ، وقد أقام الإسلام مجتمعه المثالى على دعائم متينة من التواد والتراحم والتعاون والتكافل والعدل والإيثار وسبق الناس إلى حياة أبقى ومثل أرقى فى شئون الدين والدنيا جميعاً .

ولما كانت الأسرة أساس المجتمع فقد أولاها الإسلام عناية فائقة وبوأها فى تشريعه مكانة سامقة وليس أدل على ذلك من أن القرآن قد فصل القول فى شئونها وأفاض فى تبيان نظمها إفاضة لم تظفر بمثلها أركان الإسلام الخمسة فقد أجمل القرآن أحوال هذه الأركان وترك تفصيلها للسنة فى حين أنه لم يترك للسنة من تفصيل فى شئون الأسرة إلا النذر اليسير .

حث الإسلام المستطيعين على الزواج وزينه فى قلوبهم وكره إليهم الرهبانية والتبذل وبين أن من أعرض عن الزواج فليس من المسلمين فى شىء لأن الإعراض يثير الفاحشة فى المجتمع ويغيض من أعراضه ، والإسلام يريد لأهله النقاء من ألوان الفساد والنماء فى الأعداد ليكون تكاثرهم مظهراً لعزتهم وسبيلا لإعلاء كلمتهم .

ويرى الرسول أن ما يبعث على الزواج إنما هو الحب والمال والدين والجمال وينصح باختيار ذات الدين لأن الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، والمال قد يطغى والحسن قد يردى والحب قد يؤذى ، وأمر المسلم أن لا يبتغى بزواجه العزة والرفعة والغنى ، فإن ابتغاءها لا يعقب إلا أضدادها وأن يتخير لذريته منبتا طيبا فإن العروق تنزع إلى أصولها . وأباح له أن يصوب بصره ويصعده فيمن يخطبها وأن يلقاها ويتحدث إليها على النحو المباح فى التقاء الرجل بالمرأة إذا كان معهما أحد محارمها ، وليس ذلك بمخالف للأمر بالحجاب المنصوص عليه فى القرآن . . فإن ذلك الحجاب مخصوص بنساء النبى كما هو واضح من سياق الآيات وسبب نزولها ونصوص التاريخ فيها :

وجميع الأحاديث الواردة فى إباحة النظر ليس فيها تحديد لمطارحة ومواقعة كقوله « أنظر إليها فإنه أحرى أن يؤوم بينكما » وقوله « إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن يرى منها بعض ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » ولا ريب فى أن نظرة الخاطب إلى من يخطبها لا تكون قاصرة على وجهها وكفها دون غيرها مما يقع فى مجال بصره ويكون أساسا لحكمه . وكذلك كان فهم الصحابة له — فهذا جابر بن عبدالله يحدثنا أنه سمع النبى يقول « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » ويعقب جابر على روايته تلك بقوله « فخطبت جارية من بنى سلمه فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها بعض ما دعانى إلى نكاحها » وهذا صحابى له رأيه ومكانته يصنع ما رواه سهل بن أبى خيثمة حيث يقول « كنت جالسا عند محمد بن مسلمة وهو على إجار له يطارد بثينة بنت الضحاك فجعل ينظر إليها فقلت — سبحان الله أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ؟؟ فقال سمعت رسول الله يقول « إذا ألقى الله فى قلب أمرىء خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها » وقد ثبت أن عمر بن الخطاب خطب إلى على ابنته أم كلثوم فتعلل بصغرها فلما ألح عليها قال له — أبعث بها إياك فإن رضيت فهى امرأتك فأرسل بها إليه فكشف عن ساقها فقالت له (لولا أنك أمير المؤمنين لصككت عينك) ولما أخبرت أباها لم ينكر عليه فعله ولا أنكره أحد من أصحابه وهم من هم وأعمالهم أعمالهم . وروى سهل بن سعد أن امرأة جاءت رسول الله فقالت — جئت لأهب لك نفسى فنظر إليها رسول الله فصعد النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رأسه — وفى رواية أخرى «فخفض فيها البصر ورفعه فلم يردها » وبديهى أن التشديد فى العبارتين يفيد أن الرسول نظر أعلاها وأسفلها مراراً ليتأمل محاسنها . وما ثبت للخاطب من جواز النظر يثبت للمخطوبة دون مراء ، فلها أن ترى منه ما يدعوه إلى قبول الاقتران به بل أن حظها فى الرؤية أجزل من حظه لأنه لا يحرم عليها أن تنظر إلى ما فوق سرته وتحت ركبته إذا ما نضاعنه ثوبه ويحرم عليه أن يرى منها مثل ذلك وهى عارية إلا وجهها وكفها فلا يحرم عليه أن ينظر إليهما من غير حجاب لأن رسول الله رأى أسماء بنت أبى بكر وعليها ثياب رقاق فغضب وقال لها — ياأسماء أما علمت أن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذين ؟ وأشار إلى وجهه وكفيه .

ولم يغفل الإسلام جمال الرجال وتأثيره على قلوب النساء فأباح للمرأة أن ترفض خاطبها إذا كان دميما ، وقد عرض الرسول على امرأة مهاجرة أن تتزوج من رجل تركته زوجته وفرت إلى مكة بعد صلح الحديبية فلما رأته أبت أن تتزوجه وعرض عليها الرسول رجلا آخر فلما وقعت عينها عليه قالت أما هذا فنعم .

وأباح للمرأة أن تتأكد خلو من يخطبها من المنفرات كقذارة الفم ونتانة العرق كما أباحه للرجل، وقد أرسل الرسول أم سليم إلى امرأة وقال لها أنظرى إلى عرقوبها وشمى معاطفها .

فإذا طابت نفس المخطوبة بخاطبها وترسمت فيه الخير وجب على ولى المرأة أن يبادر بتزويجها منه متى أنس بدينه وكفاءته وإلا كان من العاضلين المفسدين لقول الرسول — إذا أتاكم من ترضون دينه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساداً كبيراً .

وإذا رغبت عنه فليس لوليها أن يرغمها بكرا كانت أو ثيبا وإذا فعل فمن حقها أن تحل عقدة النكاح وأنفه راغم فى التراب وقد جاءت فتاة إلى رسول الله وقالت له — إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته فجعل الرسول أمرها إليها فقالت يا رسول الله قد جزت ما صنع إلى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء . وروى عن خنساء بنت خدام الأنصارية أن أباها زوجها وهى ثيب فكرهت ذلك فأتت رسول الله فرد نكاحها .

ولكن ليس معنى ذلك أن من حق المرأة أن تتزوج بمن تشاء دون أن يأذن لها من بيده أمرها لأنها جياشة العاطفة غزيرة العقل يسهل خداعها والمكر بها وهذا الشرط يعصمها من شراك الخادعين وأحابيل الماكرين ويجنبها وأسرتها كثيراً من المتاعب والآلام .

وقد أمر الرسول الأولياء بمشاورة الأمهات فى تزويج البنات لتطيب نفوسهن وتطمئن خواطرهن فلا يكن مصادر تنغيص ومنابع تكدير للأسرة الكائنة والتى توشك أن تكون .

وأوجب على من يستشار فى أمر خاطب أو مخطوبة أن يذكر كل ما يعلمه من المحاسن والمساوىء وإلا كان من الخائنين الفاشلين بل إنه أمر الخاطب أن يظهر من أمره كل شىء حتى تكون مخطوبته على بينة من كل ما يتعلق به ولو كان يسيرا ، قال رسول الله « إذا خطب أحدكم امرأة وقد خضب بالسواد فليعلمها لا يغرها » .

ولم يجعل الإسلام للصداق حدوداً لا يجاوزها قلة أو كثرة وإنما دعا إلى يسره وخفته وجعله ملكا خالصا للمرأة ولم يفرض عليها أن تنفق منه شيئا فى شراء الشوار ، فإن طابت عن شىء منه نفسا فهى وما تهوى لا معقب لإرادتها .

ويتم الزواج بالعقد وأمره يسير فى الإسلام فما هو إلا أن يشهد شاهدان على اتفاق الطرفين على إرادة الزواج حتى يصبح نافذ المفعول دون تدخل من أحد باسم الدين فليس فى الإسلام طبقة لها سلطة دينية ليست لغيرها من المسلمين تخولها حق التدخل فى شئون الناس أو الوساطة بينهم وبين الله . .

ويتمام العقد المبنى على الحرية الخالصة والرغبة الصادقة يباح الزفاف بين معالم الأفراح التى أقامها الإسلام ابتهاجا بميلاد الأسرة الجديدة، وقد سن الرسول للزوج أن يولم بوليمة تبلغها قدرته يدعو إليها من يود من أهله وجيرانه وأصدقائه الفقراء منهم والأغنياء، وأمر كل من يدعى إليها أن يجيب الدعوة وإلا كان من العاصين الله ولرسول الله. ومن شواهد الوليمة التى لها دلالتها هذا الشاهد الطريف الذى رواه البخارى عن سهل بن سعد الله قال « لما أعرس أبو أسيد الساعدى دعا النبى وأصحابه فما صنع لهم طعاما ولا قربة إليهم إلا امرأته أم أسيد بلت تمرات فى نور من

حجارة من الليل فلما فرغ النبي من الطعام أتته تتحفه بذلك » وفى رواية أخرى « فكانت التى تقربه إلى النبى ومن معه » . .

وقد أباح الرسول فى الزواج التمتع بالحان الموسيقى والاستماع إلى أغانى النساء وما يماثل الألحان والغناء من فنون اللهو التى تتسق ومكارم الأخلاق ولا تزيغ عن سواء الصراط . .

وقال أعلنوا النكاح وأضربوا عليه بالدف، وحض على الغناء واستمع إليه فى يسر كريم وبشاشة سمحة ومن الشواهد التاريخية على ذلك ما ذكرته أم نبيط نائلة بنت الحسماس قالت — أهدينا جارية لنا من بنى النجار إلى زوجها فكنت من بنى النجار ومعى دف أضرب به وأنا أقول :—

أتينا كم أتينا كم فحيونا نحييكم

ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم

فوقف علينا رسول الله فقال — ما هذا يا أم نبيط ؟ فقالت (بأبى أنت وأمى يانبى الله جارية منا من بنى النجار نهديها إلى زوجها) قال — فتقولين ماذا ؟ فأعدت عليه قولى فقال رسول الله قولى : —

لولا الحنطة السمراء ما سمنت عذاريكم

ولما زوج رسول الله الفارعة بنت أسعد بن زراة لنبيط بن جابر كانت عائشة فيمن أهدتها إلى زوجها فلما رجعت قال لها النبى — ما قلتم ؟ قالت — وانصرفنا فقال إن الأنصار يعجبهم الغزل ألا قلت يا عائشة :—

أتينا كم أتينا كم فحيونا نحييكم

وروى جابر بن عبدالله قال — نكح بعض الأنصار بعض أهل عائشة فأهدتها إلى قباء فقال لها رسول الله — أهديت عروسك — ؟ قالت — نعم قال فأرسلى معها بغناء فإن الأنصار يحبونه ؟ قالت لا قال — فأدركيها بزينب (امرأة كانت تغنى بالمدينة) . وفى رواية أخرى « فأدريكيها بأرنب » وهى مغنية أخرى .

وروى البخارى عن عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبى الله ما كان معكم من لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو ! وفى رواية شريك - فقال لها — فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغنى ؟ وروى البخارى والترمذى عن الربيع بنت معوذ قالت « جاء النبى فدخل على غداء بنى أبى فجلس على فراشى كمجلسك منى فجعلت حويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائى يوم بدر إذ قالت أحداهن — وفينا نبى يعلم مافى غد . فقال لها — دعى هذه وقولى بالذى كنت تقولين » .

وهذه أقباس نيرة من هدى الرسول فى الألحان والغناء لا تحتاج بعدها أبداً إلى قول أحد من الفقهاء .

* * *

وقد أقام الاسلام الزواج على أساس متين من المودة والرحمة والإحسان والإجلال والمشاورة والتسامح وسخاء النفس ببذل ما يجب عليها من حق ومسايرة الفطرة والغرائز والنظر إلى الواقع الملموس لا إلى الخيال الطائر فى أجواء النفوس . .

فليس الزواج اجتماعا بين ملكين يتسلسل صفاؤه وتطرد ملذاته وإنما هو اجتماع بين إنسانين لهما خصائص الإنسان واحتياجاته وميوله ورغباته وحالاته التى ينبغى اعتبارها . ومن أجل ذلك بصر الإسلام كلا من الزوجين بحقوقه وواجباته التى أوجبها عليه بمقتضى خصائصه الفطرية ووظائفه الاجتماعية ولم يسم أحدهما ما يجافى فطرة جنسه وينابذ استعداده الطبيعى . وعلى هذا الأساس جعل الإسلام القوامة للرجل لأنه يفضلها فى القوة والاستعداد وينفرد دونها بتحمل نفقات الأسرة وذلك مقرر فى قوله تعالى « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

وهذه القوامة لا تنقص من قدر المرأة وكرامتها ولا تسلبها حريتها ولا تهدر شخصيتها لأنها لا تبيح للرجل أية سلطة عليها لافى دينها ولا فى مالها . فهى حرة فى اختيار الدين الذى تدين به إذا كانت غير مسلمة وفى إداره مالها وتثميره بنفسها أو بواسطة من تنيبه عنها من الرجال أو النساء ، وتتمثل قوامة الرجل على المرأة فى رياسة الأسرة وتدبير سياستها والإشراف على شئونها والقيام بمرافقها ، كما تتمثل فى طاعة المرأة له فيما يأمرها به ولا يجافى الفطرة السليمة ولا ما خولها الإسلام من حقوق مرسومة إلا إذا كان ذلك الأمر مخالفا للإسلام فإنها حينئذ لا تتمثل أمره إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . .

وقوامة الرجل على المرأة فى الإسلام قوامة عادلة عاقلة متبصرة تستهدف المراشد وتستدفع المفاسد وتقوم المعوج بالحسنى وتنأى بجانبها عن العسف والاستبداد وكبت حرية الأفراد لأنها قوامة راع يعتقد أنه مسئول عن رعيته وهذه القوامة تقتضى الزوج أن يعنى بتثقيف زوجه وتنمية معارفها وتعليمها مالم تكن تعلم ، وقد أمر رسول الله الشفاء بنت عبد الله القرشية فقال لها علمى حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة فعلمتها حتى روت عنها حفصة الحديث لأن الرسول كان يكرم الشفاء بزيارته ويقيل عندها ويلبس أزاراً وينام على فراش كانت قد اتخذته له خاصة .

وقد أجمل القرآن واجبات الرجال فى عبارة واحدة بلغت الغاية فى الإيجاز والإعجاز وهى قوله « وعاشروهن بالمعروف » كما أجمل حقوق النساء وواجباتهن فى قوله « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » وكلمة المعروف يندرج تحتها من رفيع المعانى وكريم الخلال وسنى الآداب ماتعرفه كل نفس ويطمئن إليه كل قلب .

وقد بين الرسول فى حجة الوداع حقوق الرجال والنساء حيث يقول « إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق لكم عليهن إلا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » .

وقد روت سلمى بنت قيس أنها بايعت رسول الله فى نسوة من الأنصار فقال لهن فيما اشترط عليهن « ولا تغششن أزواجكن » قالت له ماغش أزواجنا ؟؟ فقال تأخذ من ماله فتحابى به غيره ..

وقد بين الرسول أن مسئولية الرجل عن كيان الأسرة كمسئولية المرأة حيث يقول كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالرجل راع على أهله وهو مسئول والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهى مسئولة . .

فواجب عليهما معا رعاية الأولاد وغرس العادات الطيبة فى نفوسهم والعناية بتعليمهم وتثقيفهم وتبصيرهم بأمور دينهم وأخذهم بآدابه منذ إدراكهم لأنهم وديعة الله لديهم وأمانته فى أعناقهم وهم خلفاؤهم فى مجتمعهم فينبغى أن يسلموهم إلى الحياة على خير ما يكون عليه الفتيان والفتيات فى شئون الدين والدنيا جميعا . .

روى عن معاذ أن النبى قال « أنفق على عيالك من طولك ولا ترفع عنهم عصاك أدبا وأخفهم فى الله » وقال « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » .

وليعلم الرجل أنه مسئول عن إشاعة البهجة فى بيته وإتاحة اللهو البرىء لزوجه وأولاده ، وقد ثبت عن عائشة أنها قالت : كنت ألعب بالبنات عند رسول الله فى بيته وكان لى صواحب يلعبن معى وكان رسول الله إذا دخل ينقمعن فيسر بهن إلى فيلعبن معى . وكذلك روى عنها أنها قالت كان الحبش يلعبون بحرابهم فسترنى رسول الله وأنا أنظر فمازلت أنظر حتى كنت أنا أنصرف فأقدروا قدر الجارية الحديثة السن تسمع اللهو ، وكانت يومئذ بنت خمس عشر سنة أو يزيد . وقالت دخل على رسول الله وعندى جاريتان تغنيان بغناء يوم بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه ودخل أبو بكر فانتهرهما وقال أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله؟ فأقبل عليه الرسول وقال « دعها يا أبا بكر فإنه يوم عيد » .

ويجب على الرجل أن يكون بساما ضحوكا فى بيته وبين أهله وولده لين العريكة منبسط الخلق طيب النفس مستضيئا بهدى نبيه فى قوله « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » ولقد نبه الرسول الرجل إلى ملاحظة ضعف المرأة واعوجاج طبعها وحدة عاطفتها وكفرانها لإحسان عشيرها . قال « لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيراً قط وأمره بمراعاة هذا الضعف والإغضاء عند هذا النقص لأنه جبلى لا تنفك عنه مهما جاهدها ، وبين له أن كل محاولة لأخذها بالاستقامة على طريقة واحدة جهد ضائع لا ينتهى إلا بالفراق ، وقال عليه السلام « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن استمتعت بها استمتعت وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها فاستوصوا بالنساء خيراً » ولقد وصى الرسول الرجل بوصاة لها أثرها البين فى استقامة المرأة واستقرار دعائم الأسرة وهى أن يصدقها فى حالة الإغضاء ومن علائم صدقها أن لا يتفشاها إلا بعد أن يبلغ غاية التهيء والاستعداد بالملاعبة والمداعبة وأن لا يذرها إلا إذا هدأت ثائرتها وفى ذلك يقول « إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ثم إذا أقضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها قبل أن تقضى حاجتها » .

وللناس مذاهب شتى فى الاستمتاع ومقدماته ولهم أقوال وأفعال تدفعهم إليها الشهوة العارمة فى سكرة العقل والفكر ويجب أن يظل سرها مكتوما بين الزوجين وفاء بزمام الحياء وحفظا على صرح الأسرة أن تهزه رغبات الطامعين من السامعات والسامعين . وقد نفر الرسول من التحدث بما يجرى فى تلك الحال واعتبر ناشر هذا السر من شرار الناس عند الله منزلة يوم القيامة .

وروى أبوهريرة أن رسول الله صلى فلما سلم أقبل عليهم بوجهه فقال هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره ثم خرج فيحدث فيقول فعلت بأهلى كذا وفعلت بأهلى كذا فسكتوا .

فأقبل على النساء فقال هل منكن من تحدث ؟ فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها وتطاولت ليراها رسول الله ويسمع كلامها فقالت أى والله إنهم يتحدثون وإنهن ليتحدثن . فقال هل تدرون ما مثل من فعل ذلك ؟؟

إن مثل فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة لقى أحدهما صاحبه بالسكة فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه ولهذا المعنى قال رسول الله لاتباشر المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها ولقد نبه الرسول الزوج إلى أن يأخذ زينته لزوجه ولا يدع نظافته لئلا يتعلق قلبها بذوى الزينة والأبهة من الرجال وفى ذلك يقول — أغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستأكلوا وتزينوا وتنظفوا فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم . ولقد كان الرسول يعنى بزينته ولا يدعها حتى فى أيام اعتكافه وسفره ، قالت أم سعد بنت زيد الأنصارية كان رسول الله إذا سافر لا تفارقه مرآة ولا مكحلة يكونان معه .

ولقد لاحظت عائشة إن خوله بنت حكيم زوج عثمان بن مضعون قد تركت خضابها وبدت فى هيئة بذة فسألتها عن زوجها أشاهد هو أم غائب فقالت لها أنه غير غائب ولكنه لا يريد الدنيا ولا يريد النساء ، فأخبرت عائشة رسول الله بذلك فلقى عثمان وقال له يا عثمان تؤمن بما نؤمن به ؟ قال نعم يا رسول الله قال فأسوة مالك بنا . ونهى رسول الله عبدالله بن عمر عن مواصلة قيام الليل وصيام النهار وقال له فيما قال إن لبدنك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا .

ولفت نظر المرأة إلى عظم حق زوجها ووجوب تلبية رغبته الجنسية فقال — لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . والذى نفس محمد بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها ولو سألها نفسها وهى على قتب لم تمنعه » لئلا يكون هذا المنع سببا لطماح الرجل إلى امرأة أخرى . .

وقد يضيق صدر المرأة بأخلاق زوجها وسوء معاملته لها أو إخفاقه فى إمتاعها ، وقد ينفر قلبها من دمامة منظره أو غير ذلك من الأمور التى ينوء قلبها بتحملها وتخاف إن تحملتها أن لا تقيم حدود الله التى حدها لها فى عشرة زوجها وإحصان فرجها ولا جناح عليها حينئذ أن تفدى نفسها من زوجها برد ما كان قد أعطاها من مال .

ولقد كانت جميلة بنت سلول قد تزوجت ثابت بن قيس وكان صداقها حديقة ثم لم تطق العيش معه لدمامته البالغة التى أنطقتها بقولها ، لولا مخافة الله إذا دخل على لبصقت فى وجهه ولقد ولجت إلى النبى وقالت له يا رسول الله لا يجتمع رأسى ولا رأس ثابت أبداً فاستفسرها فقالت إنى ما أنقم على ثابت فى دين ولا خلق إلا أنى أخاف الكفر بعد الإسلام وإنى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة من أصحابه فإذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها وأنا لا أطيقه بغضا ، فقال لها النبى أفتردين عليه حديقته ؟ قالت نعم فقال الرسول لثابت إقبل الحديقة وطلقها فطلقها وفى سنة خمس وثلاثين قالت الربيع معوذ لزوجها أياس بن الكبير أختلع منك بجميع ما أملك قال نعم فدفعت إليه كل شىء غير درعها فخاصمها إلى عثمان فقال الشرط أملك خذ كل شىء حتى عقاص رأسها فدفعته إليه . .

ولكى لا تسىء المرأة حق الافتداء قال رسول الله أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما سبب فحرام عليها

رائحة الجنة . وقد يعيش الزوجان ردحا من الزمان على أحسن حال ثم يطرأ على حياتهما ما يكدر صفوها كعقم المرأة وإصابتها بداء عضال أو نفورها من مباشرته لبرودة طبيعتها أو لإضراره بصحتها أو كبر سنها مع فحولة زوجها وشذوذه فى ابتغاء كثرة المواقعة ، فهل من العدل فى أمثال تلك الحالات أن نحظر على الزوج أن يتخذ له زوجة ثانية فنحرمه بذلك حق التمتع بالحياة وندعه فريسة للغواية والإغواء ؟ وهل يستساغ فى شرعة الإنصاف أن نطالبه قبل إقدامه على الزواج بالثانية أن يطلق الأولى وبينه وبينها من المودة أسباب وثيقة وعلائق وشيجة ؟ إننا لو طلبنا إليه الطلاق لما طلق لأنه مع زوجته فى وفاق ولو طلبنا إليه العزوف عن ابتغاء النسل والجماع لأبت الطبيعة الجبارة واستعصت الشهوة القهارة ، والحل الذى تفرضه الضرورة وتقتضيه المصلحة هو إباحة التعدد . وقد يموت أخو الزوج وتضطره الظروف إلى رعاية أولاد أخيه وإحسان أدبهم بنفسه ويشفق على مالهم أن يحرمهم منه زوج أمهم فيتزوجها رعاية للذمة وهربا من الفتنة وقالة السوء ، وهناك حالات نادرة حسب الإسلام حسابها فى إباحته لتعدد الزوجات وهى حالة الحروب والثورات والوباء ، ولا ضير من إباحة تعدد الزوجات فى الاسلام لأنه لم يبحه إلا فى حدود الضرورة وبمقدار ، وجعله مشروطا بشروط تكفل الأمان والاطمئنان للأسر . فقد اشترط لإباحته أن يكون الباعث عليه قويا غلابا وقد قال الرسول — لعن الله المتذوقين والمتذوقات قيل ومن هم يا رسول الله فقال هم الذين يبتغون الزواج للذة النكاح ، وشرط الاسلام كذلك أن يكون الراغب فيه قادراً على القيام بكل ما يتطلبه تعدد الزوجات من نفقات مناسبة كما شرط عليه أن يعدل بين الزوجات فى سائر الحقوق والواجبات ، وقد نصح القرآن لمن يخاف ألا ينهض به الاقتصار على زوجة واحدة قال تعالى « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » أما العدل فى ميل القلب فهو غير مستطاع ولكن الاسلام كلفه ألا يتبع نفسه هواها فى الإقبال على من يودها والإعراض عن سواها لأن هذا ظلم بين يترك المرأة نهبا للشقاء فلا هى متزوجة فتحظى بما تحظى به الزوجات ولا هى خالية فتبحث لها عن زوج تجد لديه حظها وحظوتها « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » على أن هذا التعدد لا يكون إلا إذا قبلته الزوجة الأولى ولم تجد فيه ما يؤذى كرامتها فإن لم ترض به كان من حقها أن تطلب منه الطلاق ، ولقد خطب على جويرية بنت أبى جهل على فاطمة فلما سمعت بذلك أتت النبى وقالت له — إن الناس يزعمون أنك لا تغضب لبناتك وهذا على ناكح بنت أبى جهل ، ثم أتى بنو هشام أعمام جويرية ليستأذنوا رسول الله فى إمضاء الخطبة فصعد رسول الله المنبر وقال — أيه بنى هشام بن المغيرة استأذنوا فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب فلا آذن ثم لا آذن ألا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح إبنتهم فإنها بضعة منى يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها وأنا أخوف أن تفتن فى دينها — ولما سمع على بذلك أحجم عن عزمه ..

وقد ترضى المرأة بالتعدد عن طواعية واختيار أو عن داعية واضطرار ، وهى فى كلتا الحالتين محفوظة الكرامة محفوفة برعاية الإسلام التى تحسن الحفاظ على من ترعاه ، وقد كفل لها الاسلام الظفر من زوجها بكل ما تظفر به ضرتها من حظ فى المضاجعة والمعايشة وسائر ما تتطلبه الحياة ويكون فى وسع الزوج ووجده . وقد توعد الاسلام الباسط لإحدى زوجاته بالعذاب الأليم ومن ذلك قول النبى « من تزوج أمرأتين فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » وكفل الاسلام لأولادها منه جميع الحقوق المكفولة لأبناء العلات وافترض على الوالد ألا يفرق بين أحد من أبنائه فى المعاملة وألا يميزه بعطاء زائد عن حقه فى الميراث ، وللميراث حدود حدها القرآن واعتبر من

يتعداها ظالما لنفسه ولغيره يلقى ما يلقاه الظالمون من ألوان العذاب . والتميز بين الأولاد جور لا يرضاه الإسلام لما له من أسوأ الآثار فى تحطيم كيان وتفريق قلوب أعضائها ، روى عن النعمان بن بشير أن أباه نحله بعض ماله . فقالت أمه عمرة بنت رواحة «لا أرضى بهذه العطية حتى يشهد عليها رسول الله فانطلق أبوه إلى رسول الله وأخبره بما كان من عطية ولده النعمان والتمس من رسول الله أن يشهد على هذه العطية فقال رسول الله « أله أخوة ؟ قال — نعم قال فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته ؟ فقال لا قال الرسول — فليس يصلح هذا أرجعه أنى لا أشهد إلا على حق لا تشهد لى على جور أشهد على هذا غيرى اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم كما لك عليهم من الحق أن يعدلوا فى البر، أيسرك أن يكونوا لك فى البر سواء ؟ قال — نعم قال الرسول فلا إذن وأمره برد العطية فرجع بشير فى عطيته »

وأقبح ألوان الجور ما يفعله آباء العقوق من تفضيل الذكور على الإناث فى الميراث أو إفرادهم به وأن من يقدم على فعل هذا المنكر يشاقق الله ورسوله ويتعدى حدوده ويأبى على الله حكمه ويستهجن قسمه ويرد عليه وصيته التى وصى بها المؤمنين إذ يقول « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين » ومن خطل الرأى وسفه الفكر وضلال العقل أن يقال إن الإسلام قد ظلم المرأة بجعل نصيبها على النصف من نصيب أخيها فى الميراث وأيسر النظر يدل على أن ذلك هو العدل المستقيم ، ذلك أن الإسلام قد فرض للمرأة على والدها نفقتها من يوم مولدها إلى يوم زواجها ولا نفقة لأخيها على أبيه بعد البلوغ وفرض على زوجها منحها مهرها خالصاً بها وألزمه بنفقتها كلها منذ اقترانه بها إلى حين وفاتها أو طلاقها بل ألزمه بعد الطلاق بنفقتها طوال عدتها وعليه لها ولولدها رزقهن وكسوتهن بالمعروف وأخوها يدفع إلى زوجته مهرها ويتحمل من نفقتها مثل ما تحمله زوجها من نفقتها ويجب على أخيها أن ينفق على أولاده ولا يجب عليها أن تنفق على أولادها . فإذا ورثت على النصف منه لم يكن ذلك هضما لحقها فى مال أبيها ولا خفضا لها عن أخيها ، وقد لا تقع الزوجة من زوجها موضع الرضا الكامل والحب الشامل ، والإسلام ينهى الرجل فى مثل هذه الأحوال ألا يسلم زمامه لعاطفة البغض ويغمض عينه عما فيها من جوانب الحب والخير قال عليه السلام « لا يفرك مؤمن ومؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر » وقال رجل لعمر إنه يريد طلاق زوجته لأنه لا يحبها فزجره عمر وقال له — أو كل البيوت بنى على الحب ؟ فأين الرعاية والتذمم؟» . والقرآن إذ يلفت المسلمين إلى معاشرة النساء بالحسنى والمعروف فى حالتى الحب والبغض يقرر أنه قد تكون تلك القلية المشتوءة مصدر خير عميم قال تعالى « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »

وقد يخرج عن طوق الرجل أن يعيش مع امرأة يحتويها لخبث طويتها أو فساد سيرتها أو دمامة خلقها ونفور طبيعته من مباضعتها ولا فائدة لمثل هذا الزوج من الإبقاء عليها بل إن الضرر فى قسره على ملازمتها ومن ثم أباح له الإسلام أن يسرحها بإحسان ويستبدل بها غيرها على ألا يأخذ شيئا مما منحها ، قال تعالى « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذ منكم ميثاقا غليظا » ولم يبح الإسلام الطلاق إلا للضرورة القاهرة ومع إباحته له فقد نفر منه وبغضه إلى قلوب الأزواج وقال النبى — « أبغض الحلال إلى الله الطلاق ولعن الله كل زواج مطلاق وقال — «تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز له عرش الرحمن » ولم يجعل إباحته مطلقة بل قيده ونظمه تنظيما دقيقا يحقق مصلحة الأسرة والمجتمع وألزم المطلق بواجبات مالية يلتزمها نحو من يطلقها . وجعل الطلاق آخر علاج يلجأ إليه الزوج عند

الشقاق واستحالة الوفاق ورسم له أنه إذا خاف نشوزها أن يلجأ إلى الوعظ البليغ الذى يصل إلى أعماق النفس والقلب والعقل فيقنعها ويعطفها فإذا لم ينجح الوعظ عمد إلى عقاب نفسى فعال وهو هجرها فى فراشها ذلك الهجر الذى يمس كرامتها ويشككها فى قيمة أنوثتها وقوة فتنتها ويشعرها بأن سلطان سحرها قد بطل أثره فى نفسه فصد عنها أقرب ما كان إليها وإلى إغراء جسدها فتستشعر ضعفها ويتساقط دمعها فتعاتبه ويعاتبها وقد ينهى العتاب ما كان فاذا لم يفد الهجر فى المضجع ضربها ضرباً غير جارح ولا مبرح فان أطاعت فلا سبيل له عليها، ولاشك فى أن هذه المرحلة من مراحل الاصلاح فيها عنف وقسوة ولكنها قد تكون فى بعض الأحيان خير علاج لجموح بعض الجامحات، فمن النساء من لا يردعها عن غيها إلا الضرب ولا تفيق إلا على وقعه. وقد أولى الرسول مسألة ضرب الناشز كثيراً من عنايته فقال موبخاً لمن يسرف فى ضربها « لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها فى آخر النهار » بل إنه حكم بالطلاق لمن يقسو زوجها فى ضربها . وقد روى أن أم جميل بنت عبد الله ذكرت للنبى أن زوجها يضربها فقال له النبى هل لك أن تفارقها ؟ ففارقها .

وقد يحدث الشقاق بين الزوجين ويصيران إلى مالا يحل فى القول والفعل ويتماديان فيما ليس لهما من المعاشرة بغير المعروف ويدعى كل منهما على صاحبه منع الحق وبذل المساءة ولا تطيب نفس أحدهما باعطاء الرضا من جانبه وفى هذه الحالة يأمرنا الله بإرسال حكمين من أهله وأهلها يبلوان أسباب النزاع ويجهدان جهدهما فى رأب الصدع وجمع الشمل . قال تعالى « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما حكيما » ومن الجدير بالملاحظة أن الآية ذكرت الإصلاح ولم تذكر الطلاق وإنما كان الحكمان من أهلهما لأن كل واحد منهما يعرف أخلاق قريبه ومذاهبه ومواطن ضعفه وقوته وطرائق التأثير فيه كما يعلم منازع الخلاف القريبة والبعيدة ويرعى مصلحته ويحرص على عدم إذاعة سره بين الناس ولا يمل ولا يسأم من كثرة الأخذ والرد مهما تكرر الشقاق، وليس للحاكم إذا ترافع إليه الزوجان أن يفرض عليهما حكمين يقضيان فى أمرهما إلا إذا رضيا بهما ، روى عبيدة السلمانى قال — جاء رجل وامرأة إلى على ومع كل واحد منهما جماعة من الناس فأمرهم فبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ثم قال للحكمين تدريان ماعليكما ؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا وأن تفرقا قالت المرأة رضيت بكتاب الله فيما على فيه ولى وقال الرجل أما الفرقة فلا فقال على كذبت حتى تقر بمثل الذى أقرت به . ويتبين من رد على على الرجل أن تفويض الزوج للحكمين شرط فى إنفاذ الطلاق إذا رأيا ولو كان ينفذ بتفويض المرأة وحدها أو بأمر الحاكم لقال له على سواء علينا إبائك وإقرارك .

فاذا استحال على الحكمين إزالة الشقاق وإعادة الوفاق فلا مناص حينئذ من الطلاق وإن كان أبغض الحلال إلى الله لأنه إذ ذاك يكون من مصلحة الأسرة والمجتمع .

وقد حد القرآن حدود الطلاق وبينها وافترض على المؤمنين التزامها وتوعد من يتجاوزها وأعلن أنه لا يفعل ذلك إلا كل ظالم مستهزىء بآيات ربه متلاعب بأحكامه . والذى يتتبع آيات الطلاق يجد فيها هذه العبارات « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون وتلك حدود الله نبينها لقوم يعلمون وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . ولا تتخذوا آيات الله هزوا واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروا ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر » .

وقال رسول الله « مابال أحدكم يلعب بحـــدود الله يقول قد طلقت قد راجعت أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ » .

أمر القرآن مريد الطلاق أن يطلق زوجته فى طهر لم يمسها فيه طلقة واحدة وهو مخير بعدها بين أمرين — الأول أن يتركها حتى تنقضى عدتها فتطلق منه طلقة بائنة وله الحق فى ردها بعقد جديد ومهر كذلك . والأمر الثانى أن يرجعها فى أثناء عدتها بغير إجراء جديد لا فى المهر ولا فى العقد . ويحرم عليه أن يخرجها من منزلها مادامت فى عدتها وفى استقامتها كما يحرم عليها أن تخرج ، وهذه المدة فرصة طبيعية للمراجعة النفسية والتدبير فى مغبة الفراق والوفاق ولعلها تكون من بواعثه ودواعيه قال تعالى « ياأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لاتخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف واشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا »

فإذا استأنف الزوجان حياتهما فهو خير وإصلاح لما فسد من أمرهما وإن دب النشوز فى حياتهما أو انبعث الشقاق عادا إلى ماشرع لهما من علاج النشوز والشقاق فى المرة الأولى سواء بسواء .

وإن وقع الطلاق واستأنفا بعده حياتهما بالمراجعة فى العدة والمهر الجديدين بعدها فليس هناك إلا الطلقة الثالثة والأخيرة فإن تعاشرا بالمعروف وإلا عالجا النشوز أو الشقاق بالعلاج السابق المعروف ، وإذا وقع الطلاق بعد ذلك وهو الثالث كان وقوعه دليلا على استفحال الشر بينهما واستحالة الحياة . ومن أجل ذلك كانت فرقة مابينهما فرقة نهائية ولاتحل له أبداً إلا إذا تزوجت من آخر وعاشت معه ماشاء الله أن تعيش ثم انتهى أمرهما بالطلاق على السنن المشروع فإذا انقضت عدتها حل لها أن ترجع إلى زوجها الأول فتستأنف معه حياة أخرى قد تكون بالخير والعبرة أمثل وأقوم . . .

ولم يحظر الإسلام على الرجل أن يطلق زوجته مرتين أو ثلاثاً ولم يجعل عليه فى عدد الطلاق محظوراً ومباحاً وقد طلق عويمر العجلانى امرأته بين يدى النبى ثلاثاً فلو كان ذلك محرماً لنهاه ، روى أن ركانة بن عبد يزيد قال لرسول الله — إنى طلقت امرأتى سهيمة البته ووالله ما أردت إلا واحدة فقال له الرسول والله ما أردت إلا واحدة ؟ فقال — والله ما أردت إلا واحدة . فردها إليه وعاش معها حتى طلقها الثانية فى زمان عمر والثالثة فى عهد عثمان ويراد بكلمة البتة تشديد الطلاق وهى محتملة لأن تكون زيادة فى عدد الطلاق عن واحدة بل هى أشبه شىء فى الظاهر بأن تكون ثلاثاً وتحمل كذلك أن تكون تطليقة واحدة لأن المطلقة بها تسمى مبتة حتى يرتجعها زوجها ونية المتكلم هى التى تعين العدد المراد .

ولقد حرص الرسول على أن يترسم المسلمون فى طلاقهم حدود ربهم فيداخله الغيظ إذا ما تجاوزه متجاوز ، روى أن ابن عمر طلق امرأته تطليقة وهى حائض فسأل عمر رسول الله عن ذلك فتغيظ وقال له — مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء تمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التى أمر الله

أن يطلق لها النساء ثم قرأ قوله تعالى (ياأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم) .

ولقد كرم الإسلام المطلقة ورعاها ولم يأخذ عليها مسالك الزواج بإلصاق جريمة الزنا بها وبمن يتزوجها فان ذلك الإلصاق الظالم يكتب عليها البؤس والشقاء طوال حياتها . .

وجعل نفقتها فى عدتها على مطلقها وكذلك نفقة أولادها منه فى دور الحضانة التى جعلها الإسلام لها ولقريباتها بعدها وألزمه أن يدفع إليها أجر إرضاعها قال تعالى «فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف »

ومن أبرز مظاهر إعزاز الاسلام للمطلقة أنه أوجب على مطلقها أن يدفع لها شيئا من المال يسمى متعة الطلاق وهى واجبة لكل مطلقة على الاطلاق والقصد من إيجابها يفصح عنه اسمها الذى وضعه لها قال تعالى « يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا » وقال « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا » وقال « لاجناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين » وقال « وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » .

والمحسنون والمتقون هم المؤمنون وقد درج القرآن على التعبير عن المؤمن ببعض صفاته المميزة كقوله تعالى «ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته أن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » والمراد الصبور الشكور المؤمن لأن تلك النعمة يستوى فى معرفتها الصابر الشاكر وغيره لما كان الصبر والشكر من صفات المؤمن البارزة عبر بهما عنه . وذلك كثير فى أسلوب القرآن .

وقد متع رسول الله ابنة الجون برازقتين لما طلقها . والرازقية ثوب صفيق من الكتان .

ولما طلق خص بن المغيرة زوجته فاطمة بنت قيس قال له النبى متعها قال — لا أجد ما أمتعها به قال — فإنه لابد من المتاع . وفى رواية متعها ولو بصاع . وكذلك قال النبى لبعض الأنصار متعها ولو بقلنسوتك . ومتع الحسن ابن على عائشة بنت خليفة بعشرة آلاف درهم ومتع عبدالرحمن بن عوف امرأة له بجارية سوداء . والمتعة تعتبر بيسار الرجل وإعساره ومنزلة المرأة الاجتماعية .

هذا هو هدى الإسلام فى نظام الطلاق وهو هدى محكم قويم ملؤه الخير والرحمة والعدل والحكمة وقوامه الإنصاف الذى لايطار بحواشيه وما من شىء فيه إلا وقد أتى على إذلاله للحفاظ على حق المطلقة وكرامتها ورعاية أمرها بالإحسان الجميل الذى ينصف ولايطغى ويسعد ولايشقى وماشرع الإسلام الطلاق إلا لدرء الفساد عن الأسرة وعصمتها من نوازع الفتنة . ودرء الفساد عن الأسرة هو القصد الأول لكل ماشرعه الإسلام لها من أحكام وآداب .

وعلى هذا الأساس نهى الزوج أن يحبس امرأته التى يشنؤها لتموت فيرثها كرها وأن يمسكها ضراراً ليعتدى عليها ويذهب ببعض ما أتاها وحرم على وليها أن يعضلها عن الرجوع إلى زوجها إذا تراضت معه على المعايشة بالمعروف . وتبرأ ممن يفسد امرأة على زوجها وحرم الزنا ولم يثبت نسبة الولد الناتج منه ونفر أشد التنفير من الزنا

بالجارة «لأن يزنى الرجل بعشرة نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره» وحرم التبنى وحرم على المرأة أن تدخل على الأسرة من ليس منها وأن يجحد الرجل ولده «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله فى شىء ولن يدخلها الله فى شىء ولن يدخلها جنته وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين» ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات وتوعدهم بالعذاب العظيم .

وحرم زواج المسلمة باليهودى والنصرانى وحرم التزوج من المحارم وأصول الزوجة وفروعها وزوجات الآباء والأبناء وبنات الزوج من غيره وكذلك حرم عموماً بالرضاع ماحرمه بالمصاهرة والنسب، وأن يجمع الرجل بين ذوات النسب القريب كالمرأة وأختها وواجب على المرأة أن تحد على زوجها أربعة أشهر وعشرة لاتمس فيها طيبا ولاتتكحل ولاتتزين ولاتلبس الثياب الملونة والمزركشة . وحرم على من يرغب فى التزوج منها أن يصرح بخطبته لها فى عدتها كما حرم التصريح بخطبة كل معتدة . ونهى عن عقوق الوالدين وأمر ببرهما والإحسان إليهما كما أمر بصلة الرحم والعطف على ذوى القربى جميعا . ونهى المرأة أن تؤذى ضرتها وجارتها . وأن تطلب طلاق أختها لتستفرغ صفحتها فإن لها ماقدره الله، وحفظ الاسلام للبيوت حرمتها وسن لدخولها آدابا كريمة ونهى عن كشف سترها والتطلع إلى مافيها « ومن اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه ولا دية له ولا قصاص » وندب الجار إلى أن يحفظ جاره ويرقب الله فى أسراره ولا يعمل على إضراره وألا يؤذيه برائحة قتاره وشوائه إلا أن يهديه منها وحضه على أن يرعى أطفال جاره وأن يختصهم ببعض مايرونه مع أطفاله مما يسيل له لعابهم وتتشهاه نفوسهم وحرم عليه أن يمنعه الماعون الذى يسأله إياه ليرتفق به . . . ونهى الاسلام رب الأسرة عن الاسراف لئلا يذر ورثته فقراء يتكففون الناس « وكفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت » وحبب إليه أن يجهد جهده فى أن يترك لهم ذخر الأعمال وكريم الخلال وحسن الأحدوثة فان ميراثهم من صلاحه يعقبهم الخير كميراثهم من ماله . بل إن ميراث الذكر الحسن أبقى وأجدى، ولقد ندب الرسول الكريم الزوج إذا طالت غيبته ألا يدخل على زوجه ليلا لئلا يجدها على خلاف مايهوى ولتستطيع أن تأخذ أهبتها للقائه وتتمكن من زينتها الظاهرة والباطنة .

وقد وكل الإسلام حقوق الأسرة ومصالحها إلى رعاية الضمير من الزوج والزوجة ومراقبة الله الذى استرعاهما وآذن كل واحد منهما بأنه إن لم يحط أسرته بنصحه فان يشم للجنة رائحة . وإذا ماقام الزوجان بحفظ الأسرة كما أمر الله وتنفيذ ماشرعه لمصالحها صلحت أحوالها واستقامت أوضاعها وسعد أفرادها بما يجدونه من الحب والمودة والعدل والسكينة والتعاون والسلام وذلك ما ابتغاه الإسلام فيما شرعه للأسرة من نظام .

الأثر النفسانى لحنو الأم
فى تكوين شخصية الطفل

للأستاذ محمد مظهر سعيد

(الجمهورية العربية المتحدة)

الطبيعة البشرية :

خلق الإنسان مزوداً بطائفة من القوى والاستعدادات الفطرية التى تمكنه من تحقيق الحاجات الضرورية والرغبات الطبيعية الملحة ، التى لا تستقيم حياته البيولوجية ، ولا يكون صالحا للبقاء بدونها . ومن هذه الاستعدادات ما يكفل حماية الفرد كالبحث عن الطعام والكساء والمأوى ، ومنها ما يضمن بقاء النوع كالغريزة الجنسية وغريزة الوالدية التى تتبعها .

وعلى الرغم من أن الدوافع الأولى ألزم بداهة لحماية الجسم وتأمين الحياة البيولوجية ، فإن التجارب العلمية أثبتت أن دافع الأمومة أقواها جميعها، فنسبتها إلى دافع الطعام ٢٢ : ١٨ . وهى كذلك أقوى من الأبوة، لأن الطفل قطعة من أمه ، وهو ألصق بها فى الفترة الأولى من حياته ، بل إن صلة الطفل الذكر بأمه لأقوى بكثير من صلته بأبيه . فالإحصائيات تدل على أن نسبة تعلق البنات بالأم فى السنوات الست الأولى من عمرهن تتراوح بين ٨٧ و ٧٨ ٪ والأولاد بين ٧٧ و ٥٧ ٪ ، فى حين أن نسبة تعلق البنات بالآباء تتراوح بين ١٠ و ٢٨ ٪ والأولاد بين ١١ و ٢٨ ٪ فقط .

وكل موقف من المواقف يشعر فيه الإنسان بضرورة إشباع حاجة طبيعية، يثير فيه انفعالا ، يحفز الجسم والعقل معا ، لتلبية نداء الغريزة الموكلة بهذا الموقف . فالانفعالات تطلق الطاقة الحيوية ، البدنية والعصبية ، التى تمكن الغريزة من أداء وظيفتها الطبيعية ، ومن هذه الانفعالات ما يتسم بطابع القلق والألم عند الشعور بنقص الحاجة الطبيعية عن الحد المطلوب ، كالخوف عند الشعور بالخطر ، والغضب عند الدفاع عن النفس، ومنها ما يحدث الارتياح والسرور فى النفس ، عند إشباع الحاجة الملحة ، كالزهو عند السيطرة ، وحنو الأم على وليدها .

والإنسان فى جميع أنواع سلوكه الفطرى والمكتسب ، وتصرفاته فى المواقف التى تجابهه، يندفع من تلقاء نفسه بحكم غرائزه ، خاضعا لمبدأ اللذة والألم ، على الأقل فى مراحل طفولته . فهو يتجنب المواقف التى تثير الألم، ويلتمس المواقف التى تحدث اللذة، وخاصة فى الظروف التى تنشط فيها القوى والاستعدادات الطبيعية لاستكمال نقص مؤلم، أو لإشباع حاجة سارة . فهو يهدف دائما للراحة والسرور بقدر ما تسمح له به استعداداته وظروفه وإمكانياته .

والإنسان رغم ما حبته الطبيعة من قوى واستعدادات بدنية وعقلية ، وما تميز به من مرونة وقابلية للتعليم

وكسب للخبرة ، تساعده على التأمل والكشف والاختراع ، والتفكير والتدبير ، والتطور والرقى، يعجز بمفرده عن مقاومة الطبيعة القاسية ، والبيئة المتوحشة والكفاح فى سبيل العيش . ومن ثم كانت حياته كلها نضالا دائما ومحاولة مستمرة لاتقاء الخطر والقضاء عليه ، ومنافسة الخصوم والسعى للغلبة والانتصار . وحياة كهذه يقضيها الإنسان بين جذب ودفع ، ودفاع وهجوم ، من شأنها أن تثير فى نفسه دائما مجموعة الانفعالات المتصلة بالقلق والاضطراب وعدم الاطمئنان . وقد يجد فى الهرب من الخطر راحة من الألم ، وفى الكفاح لذة النصر ، ولكن فى قرارة نفسه يطلب الأمان والاستقرار ، ولا يأتى هذا الأمان والاستقرار إلا فى جو مشبع بالحنو المنبثق من غريزة الأمومة ، والمشاركة الوجدانية ، التى تربط أفراد الأسرة الواحدة معا. ومن ثم كان الحنو أساسا للتعاطف والتراحم والاحترام والحب وجميع العواطف الطيبة ، التى تساعد على النضج الوجدانى والنمو العقلى والتطور الاجتماعى وتكوين الشخصية السوية ، الكاملة فى ذاتها المتكاملة مع غيرها ، وكانت الأمومة أروع وأجمل ما كشفته الطبيعة وأثمن ماوهبته للإنسان . فهى وحدها مصدر التطور المبدع الذى جعل الإنسان سيد الكائنات ، ومنبع كل خير وفضيلة وجمال وكمال . وهى الحافز الأسمى لكل دعوة للخير والسلام ، وكل مؤسسة للبر والإحسان ، وهى باختصار أم العقل والخلق .

الطفولة الأولى :

والطفل عند ولادته حيوان ضعيف ناقص التكوين ، لم تنضج قواه البدنية ولم تتفتح استعداداته العقلية ولم يستكمل كيانه النفسى بعد . ولكنه مع هذا ليس جماداً ولا آلة صماء، وإنما هو إنسان له حياته العقلية والوجدانية المناسبة له ، ولديه قابلية قوية للتأثر بالبيئة والظروف المحيطة به ، طيبة أو سيئة على حد سواء . والآثار الأولى لهذه البيئة ، رغم بساطتها وضعفها فى نظر الكبار الراشدين ، تكيف سلوكه وتوجه تطوره وتحدد معالم شخصيته التى ستتبلور فيما بعد .

وهو ليس كالحيوانات الدنيا يستطيع أن يدبر شئونه ويقوم بأوده ويحيا حياة مستقلة عن ذويه ، منذ ولادته ، وإنما هو طفل قاصر ، وسيظل طفلا قاصرا مدة طويلة ، فى كنف أمه ، التى أنجبته من جسدها ، وغذته بلبنها وأحاطته برعايتها وأغدقت عليه من حنوها . ومادامت الأم هى أول وأهم شخص تتفتح عليه حواسه ويتجه إليه عقله ، وهى التى تقف رهن إشارته، تلبى نداءه وتقضى حاجته ، وتحميه وتدرأ عنه الخطر وتصبحه وتمسيه بابتسامة وقبلة وضمة ، وتداعبه إذا استيقظ وتهدهده بأغنيتها لينام، فهى تصبح بالضرورة مركز اهتمامه وتفكيره ، وعاطفته وحبه ، وفى هذا الجو من الحنان السابغ ، لا يشعر الطفل بالأمان والاستقرار فحسب ، وإنما هو يشعر كذلك بأنه موضع سرور أمه وفخارها ، وأنها هى الأخرى تبادله نفس الشعور ، باعتبار أن شخصيته امتداد لشخصيتها . وهكذا يندمج كل منهما فى الآخر ، ويصبحان كلا واحدا ، وأساس هذه العلاقة الوجدانية المتينة بين الطفل وأمه ، أو من تقوم مقامها فى رعايته وكفالته ، هو الحنو ، ولذلك تكون حاجته للحنو ، كغذاء لنفسه ، أشد من حاجته للبن أمه ، كغذاء لجسده .

وهذه الصلة الوثيقة بين الطفل وأمه أومن يقوم مقامها ، والرابطة الوجدانية المشبعة بالسرور وشعور الأمان

والاستقرار ، خير ضمان لسلامة الجسم والعقل ، واستمرار النضج العضوى والنمو العقلى والوجدانى فى هدوء وتؤدة حتى يبلغ حد الكمال فيما بعد .

والنمو الهادىء المتئد للقوى البدنية والعقلية يساعد على الإدراك الواضح المميز للأشياء والمواقف ويؤدى إلى ضبط النفس وحسن تقدير الأمور ، وإطاعة الأوامر والتعليمات ، عن رضاء وسرور ، لأنها تصدر ممن يثق فيهم ويحبهم . وبهذا يخطو الطفل الخطوة الأولى فى سبيل تكوين الشخصية المتزنة .

تكوين الشخصية :

وبفضل الإرشاد الموجه والمساعدة عند الضرورة والحزم المشبع بالحنو ، يتعلم الطفل كيف يعدل دوافعه الفطرية ويهذب سلوكه ، وفق دستور الأسرة التى يعيش فيها ، وتتسع دائرة وجدانه وعواطفه فتشمل الأب والأخوة والأقارب ، الذين يرتاح لهم ويطمئن إليهم ، بعد أن كانت وقفا على أمه .

وبنمو مداركه وذكائه ، وتنظيم تفكيره إلى الحد المناسب لسنه المبكرة ، يدرك بعض الحقائق التى كانت تخفى عليه ، ويقدر فائدة ما يطلب منه عمله . ويتحمل ألم الجوع أحيانا انتظارا لموعد الطعام ، وألم تعاطى الدواء عند العلاج ، وألم الحرمان من بعض ما يشتهيه إذا كان ضارا ، أو أن ظروف الأسرة لا تسمح به ، وهو فى كل هذا راض مادام يثق فيمن يرعونه ويحنون عليه .

ويتطور سلوكه تطوراً جديداً هاما ، فيسير وفق مبدأ الحقيقة المقترن بمبدأ اللذة ، بعد أن كان مبدأ اللذة وحده هو الذى يتحكم فيه . وينضج وجدانه وتستقر انفعالاته ويحاول تدريجيا أن يكيف نفسه لدنيا الواقع ، ويتقبل نظام الأسرة والمجتمع الخارجى الصغير المحيط بها ، والتقاليد التى تسير عليها .

وكل تجربة جديدة يجتازها بنجاح ، تزيده ثقة بنفسه وشعورا بالأمان والاستقرار ، وتدفعه قدما نحو استكمال شخصيته ، وتجعله أكثر منطقيا فى تفكيره وأكثر اعتدالا فى مطالبه . وهكذا تتكون نفسه العاقلة المدركة لذاتها ومطالبها والمجتمع ونظمه وأوضاعه .

ومن أهم آثار تطور سلوك الطفل من مبدأ اللذة إلى مبدأ الحقيقة والواقع أنه يتقبل أوامر الوالدين ونواهيهم على أنها قانون ملزم ، وأن ما يمنحانه من ثواب ويوقعانه من عقاب نتيجة حتمية لهذا القانون ، ويعتقد أن الصواب هو ما يقرانه ويثيبانه عليه ، والخطأ هو ما ينكرانه ويعاقبانه عليه ، وهو راض فى الحالتين لأن كل ما يفعلانه لمصلحته ، وتوكيد لأمانه واستقراره .

ويتعين للوصول إلى درجة أكبر فى التكييف الاجتماعى ، الذى يؤهله لدخول معترك الحياة فيما بعد ، معتمدا على نفسه ، أن تتسع دائرة وجدانه خارج وسط الأسرة ، وأن يكون عواطف جديدة تربطه بالغرباء من أصدقائه وزملائه ، وأن يقبل الوالدان أن هذه التضحية من جانبهما فى هدوء ورضا ، لأنه سيشق فيما بعد طريقه فى الحياة بعيدا عنهما ، وسيكون أسرة جديدة تحل فى مركز اهتمامه محل أسرته القديمة . وهذه الصلات الوثيقة بالغير ، تجعله يقدر حقوق الغير ويحترمها ، كما يقدر حقوقه ، وهكذا يتحول بالتدريج من الدائرة المقفلة التى كانت تتمركز فيها نفسه وأسرته ، ومن مبدأ التماس اللذة الذاتية إلى مبدأ إسعاد الآخرين وإدخال السرور على أنفسهم ، بتعاونه معهم

على الخير العام، وبالجملة من الأثرة وحب الذات إلى الإيثار والتضحية وفى هذه الدائمة الوجدانية الكبرى يحتفظ لكل من والديه وأخوته وأقاربه وأصدقائه ومعارفه وزملائه بمركزه المناسب له، وبالرابطة التى تربطه به، كما يحتفظ بالمشاركة الوجدانية والعواطف المتبادلة بينه وبين من يتصلون به. وهذا الجو الوجدانى السليم يساعده على اجتياز مرحلة المراهقة والبلوغ العنيفة بسلام، والتغلب على مايعترضها من عقبات. فإذا مااستطاع أن يكبح جماع نزعاته الطبيعية، ويجعل مطالبه فى الحياة أكثر منطقا وواقعية، ويسمو بدوافعه فى دائرة ذاته الصغرى ومصلحته الخاصة، إلى دائرة المجتمع الكبرى والمصلحة العامة، ويوفق بين هذه الدوافع ونظم المجتمع، ويدرك معنى الواجب ويشعر بلذة أدائه، ويرسم لسلوكه دستوراً أساسه الكرامة والتعاطف والإحسان والتسامح، ويتدرج بعواطف حبه وكراهيته الفردية إلى العواطف الإنسانية النبيلة، وتصبح نفسه مثالية، تهدف للسلوك السوى والخلق القويم، وهما دعامة تكوين المواطن الصالح والمجتمع المتقدم. والنفس المثالية هى فى الواقع نتاج كل ماهو حسن وسام فى الطبيعة البشرية والأسرة والمجتمع، وثمرة النمو الوجدانى والتكوين العاطفى فى جو مشبع بالحنو والشعور بالأمان والاستقرار. وهكذا يجىء نمو الشخصية الكاملة المتكاملة كنتيجة لسلسلة من التطورات الوجدانية والاجتماعية، المتماسكة المتلاحقة الحلقات من تعديل لقوى موروثة وكسب لاستعدادات جديدة، وضبط للرغبات والنزعات، وتكوين العواطف، بحيث إذا نقصت حلقة منها، أو بقيت على فطرتها، دون أن تتعدل وتتهذب لما هو أحسن وأفضل وقف النمو فى إحدى مراحله، أو انحرفت الشخصية، أو انهار بناؤها من أساسه.

ومادام العنصر الوجدانى هو الدافع الموجه للسلوك، فإن أى تفريط أو إفراط أو انحراف فيه يكون أقوى أثراً فى انحراف الشخصية وانهيارها من كافة العوامل الأخرى.

وطريق نمو الشخصية السوية ليس معبداً، ومادام أساس هذه الشخصية التوافق والتوازن بين مبدأ اللذة ومبدأ الحقيقة، فإن كل ظرف يخل بهذا التوازن عند الطفل منذ نشأته الأولى، يدفع به إلى أنماط غير سوية فى السلوك، ويقف بالنمو الوجدانى عند حد رغبات الطفولة، ويحول دون تكوين العواطف التى تمهد الطريق لظهور النفس المثالية، ومن ثم يمهد الطريق للانحراف والشذوذ والجريمة والاضطرابات العصبية والأمراض العقلية والنفسية.

وجميع البحوث والمشاهدات والاحصائيات السيكولوجية والاجتماعية تقطع بوجود العلاقة السببية بين الانحراف الوجدانى فى الطفولة المبكرة والانحراف الاجتماعى فيما بعد. وتعطيل النمو الوجدانى لايقف بالشخصية عند حد سلوك الطفولة، الذى يخضع لمبدأ اللذة فحسب، وإنما هو يرتد بالسلوك إلى النماذج الفطرية البدائية وأساليبها الحيوانية الغشومة، فى إشباع رغباتها. ومن ثم ينشأ الطفل منذ صغره جانحاً خارجا على المجتمع. والجناح كما يجمع العلماء أساس الجريمة.

حنو الأم:

ومادام بناء الشخصية كله يقوم على أساس العنصر الوجدانى، وحنو الأم هو الوجدان الطبيعى الأول والأقوى الذى يشعر به الطفل، فإن العلاقة الوجدانية بين الأم وطفلها هى العامل الحاسم فى بناء شخصيته. والطفل لايشعر بالأمان

والاستقرار فى بيئته الصغرى ثم فى المجتمع الكبير فيما بعد ، إلا إذا أحس بحنو أمه نحوه ، وشبع وارتوى منه فى طفولته الأولى ، على أن يكون هذا الحنو مقدمة للعواطف الاجتماعية التى لاغنى عنها للحياة السوية المقبلة . ومن الثابت علميا أن أبناء الأسرة السعيدة المنسجمة يغلب أن يكونوا أزواجاً سعداء . ولكن لكل شىء فى الطبيعة وسط ، إذا ماخرج عنه ، بالتفريط أو الافراط انقلب إلى ضده وساء سبيله . فإفراط الأم فى حنوها إلى حد التدليل وإجابة المطالب المقبولة وغير المقبولة ، وتلبية جميع الرغبات ، وأداء الأعمال ، حتى التى يستطيع الطفل أن يؤديها بنفسه لنفسه ، واستمرار هذا التدليل والتفانى فى الإرضاء إلى مابعد الرابعة أو الخامسة ، يقفل دائرة النمو الوجدانى عليها وحدها فلا تتسع لغيرها ، وينشأ الطفل فى كنف أمه لائذاً بها ، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال لم يشعر بالأمان والاستقرار إلا مع زوجة تماثلها خلقة وخلقاً ، حتى ولو كانت أكبر منه بسنين . ومن الناحية الاجتماعية ينشأ إمعة هيابا يتهرب من المسئولية ، ويتحامل على قضاء حاجته وحل مشاكله بالتماس العطف واستدرار الشفقة ، ويتهرب ويصطنع المرض ويلتمس العذر الكاذب ، ليجنب نفسه مشقة السعى وجهد التصرف . وإذا واجهته الحياة بمشاكلها ، تصدع من أول صدمة ووجد المخرج فى الهستريا والأمراض العصبية الادعائية .

والحنو المعقول يتطلب الثواب عند الاحسان والعقاب عند الإساءة ، بمجرد أن يصل الطفل إلى سن الثالثة ، وبعبارة أخرى يتطلب تأديب الطفل وإعداده السوى للحياة حزما ملطفاً بالحنو . وعدم التزام دستور واحد للثواب والعقاب يبلبل فكر الطفل وتختل موازينه وأحكامه على القيم الأخلاقية . والاغراق فى ثواب الطفل عند الإحسان وتهويل العقاب عند الإساءة يعود الطفل النفاق والكذب واصطناع المواقف المسرحية التى تزيد فى ثوابه ، والكذب والتحايل فى إخفاء أخطائه واتهام الغير باطلا بها . والتساهل فى عقابه ، أو التماس العذر له وإخفاء الحقائق عن الوالد ، الذى يتولى عادة مهمة التأديب فى الطفولة المتأخرة ، يجعل الطفل مستهتراً بالقيم الأخلاقية ، أو على الأقل يحسب أن كل عمل جديد لم يدخل فى قائمة النواهى حلال مباح ، ولو كان بعقله يدرك ضرره ، إلى جانب مايبثه فى نفسه من روح الكراهية لوالده ، وإلى حد تمنى موته ، ليزول من طريقه .

فالإفراط فى الحنو يعطل نمو الشخصية السوية ويمهد الطريق لسوء الخلق والرذيلة وإن كان لا يدفع حتما للجريمة .

أما التفريط فى الحنو فمفتاح الجناح والانحراف والجريمة ، والتفريط إلى حد الحرمان هو الطامة الكبرى .

فالطفل الذى ينشأ بين أم باردة وأب قاس وظروف سيئة تحرمه غذاءه النفسى الطبيعى وتحول دون نموه الوجدانى وتكوين الصلات والعواطف الطبيعية بينه وبين الآخرين ، وخاصة مع أمه أو من يقوم مقامها ، التى تنقله من مرحلة السلوك على مبدأ اللذة إلى مبدأ الحقيقة والواجب ، والتوافق والتوازن السليم بين نزعات ومطالب المجتمع ، يستحيل عليه أن يكون شخصية سليمة أو يكيف نفسه لدستور السلوك السوى والخلق القويم ، أو يكافح فى الحياة كفاح المواطن الصالح .

ثم هو يحاول أن يعوض مافقده بالتماس الحنان المصطنع فى زملائه الكبار ومدرسيه وهو صغير ، أو بنات الهوى وهو كبير ، أو يثور للظلم وقسوة الدهر ، فيصب جام غضبه على المجتمع ، ويصبح شريراً متغطرساً مشاكساً ، ثم خارجاً على القانون ، أو يهجر البيئة كلها إلى حيث لا يدرى ، فيصير أفاقاً مشرداً ، والتشرد هو الخطوة الأولى فى طريق الجريمة .

والطفل المحروم من الحنان أو المهجور نهبة للقلق العصبى الذى يهدم الشعور بالأمان والاستقرار ، ومادام لم يجد هذا الأمان والاستقرار فى جو الأسرة ، فهو يحاول أن يجده لنفسه فى المجتمع وإنما عن طريق العدوان ، الذى يجعله قوى الشخصية مرهوب الجانب . ويتدرج هذا العدوان من الجنح البسيطة إلى الجرائم الكبرى ، ومن العمل الفردى إلى تكوين العصابات لارتكاب الجرائم الجماعية. وهذا السلوك المنحرف يزيد بالضرورة فى القلق العصبى ، ويقتل الشعور بالأمان والاستقرار ، وهكذا يدور الرجل الذى حرم من الحنو وهو طفل فى حلقة مفرغة — قلق وجريمة — فقلق وجريمة — وقد يتطور الشعور بالجريمة إلى مرض نفسى أو عقلى كجنون العظمة أو الشعور بالاضطهاد ، كما يؤدى إلى الانحراف الجنسى السادى ، الذى يشبع الرغبة الجنسية عن طريق التلذذ بتعذيب الغير . وقد يتملكه الشعور بالجرم والندم وتأنيب الضمير فى لحظة تتنبه فيها النفس المثالية فينطوى على نفسه أو يحاول تعذيبها وقد يتطور هذا الشعور إلى النورستانيا أو الانحراف الجنسى (الماشوسى) الذى يشبع فيه الرغبة الجنسية عن طريق تعذيب النفس والجسد .

الحرمان :

وعلى الرغم من أن الأم الحديثة المثقفة تدرك بطبيعتها أن رضاعة الطفل الطبيعية من ثديها والسرور الذى يشع فى وجهه ويبدو على ملامحه عند التصاقه بها ، واطمئنانه إلى صدرها ، واللذة التى تتملكه من قبلتها وعناقها ، وشعوره بالحنو المتبادل هو الأساس السليم لبنائه الوجدانى. كما تدرك أن حرمان الطفل من حنوها أشد آثاراً فى تعطيل نموه وانحراف سلوكه ، من حرمانه من حاجاته البدنية ، فإن اهتمامها بذاتها ومظهرها وشئونها الخاصة ، أصبح يؤدى إلى هذا الحرمان من حيث لاتشعر . فهى عند الحمل يتملكها القلق على نفسها وعلى الجنين والخوف من الولادة وصعوبتها ونتائجها ثم الضيق بمطالب الطفل وهو وليد وخاصة برضاعته من ثديها ، والتبرم من حرمانها من متعتها الخاصة ورياضتها ومجتمعها ووقت فراغها لتفرغها له ، والتغيرات التى تطرأ على مظهرها ورونقها وزينتها وأناقتها وشعورها بكبر السن الذى يقترن بالأمومة ، والعبء المالى الثقيل الذى وقع على عاتق الأسرة ، وقد يحرمها أو على الأقل ينقص مما اعتادته من إنفاق على نفسها . وقد يعطل مولد الطفل فرصة السفر والتصييف ، أو فرصة مرجوة للطلاق أو الانفصال وقد يكون الطفل ولداً وهى كانت تريده بنتاً أو بالعكس ، وقد لايكون جميلا رشيقا جذاباً تفخر به أمام الأقارب والجيران ، وغير ذلك من العوامل التى تصرفها عن طفلها وتحرمه من حنانها وتشعره بأنه غير مرغوب فيه .

وهناك عوامل أخرى لاتمس الحنان فى الصميم ولكنها متصلة به ، كالعلاقة بين الأبوين والمظهر الذى يظهران به أمامه ، فجو النفور والمشاكسة والعناد والمصادمة يترك بالضرورة أثره السيىء فى نفس الطفل . ثم انصراف الأم عنه للمولود الجديد ، وتنازع الأخوة فيما بينهم ، ومنهم العطوف المدلل ، ومنهم النافع الشديد . بل أن شدة الأم واستبدادها وتخاذل الأب واستسلامه لها . وبالجملة خروج كل منهما على طبيعته ، واختلاف درجة حنو كل منهما عليه يسىء إلى حكم الطفل على كل من الجنسين وخصائصه ووظائفه .

ومن الضرورى أن تلازم الأم طفلها فى الثلاث سنوات الأولى من عمره على الأقل . فإن انصرافها عنه وقتا

وابتعادها عن محيطه ، بحيث لا يراها ولا يسمع صوتها من بعيد يجعله يشعر بأنه فقد المنزلة التى كانت له فى قلبها وأنها انصرفت عنه وهجرته ، فيشعر بالقلق والانقباض ، ولقصوره عن مجابهة هذه الانفعالات العنيفة ، والتصرف المعقول على نحو يناسبها ، فإنه يبدأ فى العناد ومقابلتها بالمثل وإشعارها بانصرافه عنها ، وهكذا يتحول إلى طفل عصبى ثم عصابى ، فيتعثر نموه الوجدانى والاجتماعى أو يتعطل ولا تتكامل شخصيته .

والصلة بين الطفل وأمه حتى من مبدأ الطفولة المبكرة إذا لم تتوثق على أساس الحنو المتبادل تؤدى حتما إلى انحراف سلوكه .

أما حرمان الطفل من أمه كلية بسبب الطلاق أو الترمل وزواج رجل آخر فكارثة عظمى . فالطفل يحتمل ألم الجوع والفقر والمرض مادام فى كنف والديه لأن المتعة النفسية التى يجدها فى حنو أمه تعوضه المتع المادية الأخرى التى فقدها .

ولهذا كانت نسبة الانحراف بين اللقطاء والأيتام الذين ينشأون فى المعاهد والمؤسسات الخاصة، رغم شدة العناية بهم، وارتفاع مستوى حياتهم نسبيا عن نظائرهم من أولاد الفقراء ، أعلى بكثير منها بين هؤلاء الأطفال الفقراء الذين ينشأون فى كنف والديهم .

الجريمة :

وليس من شك فى أن الحرمان فى الحنو وثيق الصلة بانحراف السلوك والشذوذ والجريمة .

وقد أثبتت الدراسات السيكولوجية والاجتماعية والجنائية أن نسبة الجناح بين أطفال الأسر التى يسودها الشقاق والعداء وينعدم منها الحنو أعلى بكثير منها بين أطفال الأسر الأخرى .

والاحصائيات الآتية تدلنا على مبلغ أثر الأسرة فى انحراف سلوك الأطفال وجنوحهم للجريمة .

العامل	نسبته فى أسر الجانحين	نسبته فى أسر غير الجانحين
ا — حنو الأم على أطفالها	٧٢	٩٦
عدم اكتراثها بهم	٢١	٣
نفورها منهم	٧	١
ب — حنو الأب	٤٠	٨١
عدم الاكتراث	٤٣	١٦
النفور	١٧	٣

ويتبين من هذا أن عامل الحنو من الوالدين على الأطفال الجانحين أقل بكثير وعامل عدم الاكتراث والنفور أكبر بكثير منه فى الأسر الأخرى .

(جـ) العلاقة بين الوالدين :

حسنة	٣٧	٦٥
متوسطة	٣٢	٢٠
سيئة	٣١	١٥

(د) تصدع الأسرة :

بسبب الافتراق المتقطع	٢٧	٩
بسبب الطلاق	٢٢	١٣
بسبب الوفاة	٢٠	١٤
بعد أحد الوالدين	١٤	٦
هجران الطفل	٥	١

(هـ) إصالة الوالد :

والد أصيل	٥٤	٨٨
والد بديل	٤٦	١٤

الاضطرابات العصبية والأمراض العقلية والنفسية :

من المسلم به أن الاضطرابات العصبية نتيجة مباشرة للصراع بين مطالب البدن الضرورية التى تنشط لتحقيقها النفس الحيوانية بوسائلها البدائية الغشومة ، ومطالب المجتمع التى تدافع عنها النفس العاقلة المدركة ، وما يحدثه هذا الصراع من كبت وعقد نفسية تنحدر إلى العقل الباطن وتستقر فى اللاشعور ، ثم تحاول أن تخرج ثانية لمستوى الشعور تخلصا من الكبت والضغط النفسى العنيف ، بوسائل شاذة منحرفة . ومن المسلم به كذلك أن بذرة هذه الاضطرابات تنشأ منذ الطفولة المبكرة ، بسبب اصطدام الأساليب البدائية التى يحاول بها الطفل أن يشبع رغباته الجامحة ويثبت شخصيته الفجة ، بدستور السلوك الذى ترسمه الأسرة وترغمه على التزامه والعمل به دون أن يفهم حكمته . وليس من شك فى أن الاضطراب النفسى يبدد الشعور بالأمان والاستقرار ، ومن ثم يعطل النمو الوجدانى أو يقف به فى وسط الطريق ، أو يرتد بالسلوك إلى النماذج البدائية الغشومة كما أسلفنا ، أو يحدث انتقالا مرضيا شاذا فى الدوافع الوجدانية والروابط العاطفية ، من مراكزها الطبيعية ، إلى مراكز أخرى مصطنعة أو يخلق أغراضاً لأمراض بدنية تكون بديلا ورمزاً لأمراض الاضطرابات العصبية . وكل أولئك وسائل منحرفة للسلوك والتعبير

عن الذات . وكل سلوك منحرف يتطور إل مرض عقلى أو نفسى أو شذوذ جنسى ، أو جنون ، إلى جانب الجناح والجريمة .

وماسرقة الأطفال للنقود، التى يشترون بها الحلوى ، وسرقةالسكر والحلوى ذاتها ، للتعويض المصطنع عن الحنان المفقود ، أو سرقة مايمكن أن يباع ، أو مشاكسة الأطفال والخروج على نظام المدرسة والهرب من المنزل والتسكع والتشرد وتكوين العصابات للسطو والنهب والاعتداء ، أو الشذوذ الجنسى وهتك العرض ، كل هذه أعراض لنفس مريضة شاذة ، انحدرت إلى هذا المستوى بسبب فقد الحنو وعدم الشعور بالأمان والاستقرار منذ الطفولة .

وليس أشق على نفس الطفل من شعوره بأنه مخلوق غير مرغوب فيه ، فان هذا الشعور يدفعه دفعاً نحو الثورة على القدر الظالم ، والخروج على المجتمع القاسى، واصطناع كل وسيلة لمضايقة الأسرة والجماعة والانتقام منها .

وأساس معظم الأمراض النفسية والعقلية ، كالمخاوف العصبية (فوبيا) وانفصام الشخصية (شيزوفرينيا) والهستريا : والفكرة المتصلة والانقباض (المافى) والمانيخوليا وغيرها ، يرجع إلى انحراف النشاط الوجدانى عن مركزه الطبيعى ، والطاقة العصبية إلى غير الأهداف السليمة . وهذا يرجع بدوره إلى حرمان الطفل من غذائه النفسى الطبيعى وهو الحنو .

ولانعدو جانب الحقيقة العلمية إن قلنا أن تعطيل النمو الوجدانى السليم فى الطفل منذ نشأته أقوى سبب لانحراف الشخصية فيما بعد .

العـــلاج .

ولاسبيل لدرء هذا الخطر الاجتماعى وحماية الطفولة منه إلا بالوسائل الآتية :

(ا) جعل دراسة علم النفس المتصل بالطفولة والزواج والوالدية إجبارية فى جميع المعاهد والمدارس ابتداء من المرحلة الثانوية .

(ب) إعداد مناهج ثقافية شعبية خاصة بهذه الموضوعات لمن فاتتهم فرصة التعليم المدرسى ، تنظمها الجامعات ومعاهد التربية لجميع المواطنين .

(ج) إعداد سلسلة من المطبوعات العلمية توزع بالمجان أو بثمن زهيد يغطى نفقات الطبع والتأليف .

(د) إنشاء معاهد خاصة للدراسات النفسية والاجتماعية المتصلة بشئون الأسرة والأمومة والطفولة ، تحت إشراف جامعة الدول العربية .

(هـ) القيام بالبحوث والدراسات والإحصائيات الشاملة ، النفسية والاجتماعية ، فى المحيط العربى ، بإشراف وزارات التربية والتعليم والشئون الاجتماعية .

(و) تعميم مراكز الاستشارات السيكولوجية وإرشاد الآباء والأمهات وطلاب الزواج .

(ز) تعديل قوانين الأحوال الشخصية وتشريعات الأحداث الهمل والمجرمين ، ومراكز إيوائهم وتربيتهم ، على نحو يضمن للأطفال الأمان والاستقرار .

(ح) تطبيق قانون سلب الولاية عن الآباء غير الصالحين ، وتشجيع نظام التبنى وتقديم المساعدات المناسبة .

(ط) إعداد الأم قبل ولادة طفلها الأول إعداداً خاصا كاملا عمليا يبصرها بطبيعة الطفولة ومراحل النمو والعوامل المساعدة على استكماله ، وحل مشاكل الطفولة والأمومة والزوجية حلا عمليا سليما،ودراسة العوامل التى تجعل الزواج موفقا رغم مايعترض سبيله من عقبات ومشاق .

(ى) وضع دستور للصحة العقلية والنفسية يمكن للبلاد العربية تنفيذه علمياً .

وكل نظام لايقوم على أساس دراسة الحياة النفسية والعقلية للطفل ، والقوانين التى تتحكم فى نموه الاجتماعى والوجدانى ، والعوامل التى تساعد على التوفيق والتوازن بين مطالب الطبيعة البشرية ومطالب المجتمع ، وتؤدى إلى تكوين الشخصية الكاملة المتكاملة ، يكون نظاماً عتيقاً فاشلا مضيعا للوقت والجهد والمال .

كيان البيت العربى القائم

والعوامل المؤثرة فيه

فى البادية ـ والريف ـ والمدينة

للدكتور عبد الجليل الطاهر

(جمهورية العـــراق)

ماذا نقصد بكيان البيت العربى ؟ :

نقصد بالكيان طبيعة وتكوين البيت وبنيته والوظائف المنوطة به ، والفعاليات التى يقوم بها كمؤسسة اجتماعية تقع على عاتقه مسؤولية تطمين مجموعة كبيرة من الدوافع والرغبات ، وتتركز حوله باعتباره النواة الأساسية لقيام المجتمع مهمة المحافظة على القيم والتقاليد والأعراف ونقلها من جيل إلى جيل .

يشمل كيان البيت نسيج العلائق والروابط القائمة بين أفراد البيت كوحدة اجتماعية متضامنة تتجمع بينها أهداف ومصالح مشتركة ويتضمن الأدوار التى يقوم بهـا كل فرد والمشاعـــر والعواطف والالتزامات الخلقية والقيم الاجتماعية .

يتألف كيان البيت من الذكور والإناث ، قادرين على العمل ،على شرط أن يكون الاجتماع بينهما مشروعا ووثيقا ومستمراً نسبيا ليسمح بتنظيمهم وصهرهم فى وحدة متعاونة فعالة قادرة على تطمين حاجاتهم ورغباتهم وإن لم يعيشوا ويعملوا سويا لفترة من الزمن فلا يمكن أن يحققوا درجة مرضية من التكيف الشخصى .

يقوم الكيان على الزواج والأبوة والأمومـــة وتشد بنيانه رابطة الدم والقرابة والمصاهرة ، فى البداوة تتغلب العصبية القبلية ويعتبر الزواج طارئا إذا قيس بالنسبة لكيان القبيلة. وما الزواج والأبوة والأمومة إلا روابط حياتية وخلقية ، تنظمها وتوجهها القواعد والأصول الاجتماعية والقانونية ، التى تعين حقوق وواجبات كل فرد . يحقق هذا الكيان الطمأنينة الجنسية والتعاون والتضامن والاستقرار العاطفى والنفسى . ولكيان البيت مظاهر نفسية واجتماعية تتجلى فيما يأتى :

١ — المنزلة الاجتماعية :

وهى المكانة التى يشغلها كل عضو فى البيت والتى تتناسب مع قابلياته ومقدراته ، وقد ينالها الإنسان بعد الولادة عن طريق الوراثة فيتمتع بما تتميز به عائلته أو يكتسبها بانجازه الشخصى . يتميز الأولاد عن البنات منذ الولادة بالأسماء والرعاية والاستبشار وبالتقاليد التى تدور حول كل منهما ، فيعاملون معاملة مختلفة ، وينتظر منهم أن يقوموا بواجبات مختلفة تتناسب مع جنس كل منهما . ففى البادية تتقرر المنازل الاجتماعية بعوامل متعددة كالجنس والعمر والقبيلة وفى الريف يضاف إليهما العائلة والدين والطائفة وفى المدينة تحتل المهنة والثروة والتربية مكانا مهما . تسمو المنزلة الاجتماعية وتهبط نتيجة لكل تلك العوامل . فمنزلة الفرد فى البادية مقررة سلفا وقبل الولادة ، ولكنها مفتوحة للإنجاز الشخصى والمقدرات والقابليات والمواهب فى المدينة .

٢ — السلطة

ولا بد من سلطة لتعزيز كيان البيت لتوجه أعضاءه وتديرهم ، ومن الضرورى أن تستقر فى يدى أحد الأعضاء، فقد تنحصر فى يدى الأب (العائلة الأبوية) كما هو الحال فى البداوة والريف، وقد تشارك المرأة الرجل فى السلطة (العائلة الديمقراطية) وقد تنفرد المرأة بالسلطة وحدها (العائلة الأمومية) التى توجد منها أمثلة قليلة جداً فى بعض العوائل الارستقراطية فى المدن .

٣ — الأدوار والحقوق والواجبات:

ترافق كل مجموعة معينة من الأدوار والحقوق والواجبات منزلة اجتماعية . ومن المنتظر أن يقوم كل عضو بما يترتب عليه من واجبات ويتمتع بما يمنح من حقوق إن أراد المحافظة على كيان البيت ، فالمسؤولية عامة وجماعية فى البادية مثلا ، وحيث يتكون المجتمع فى البادية والريف من وحدات صغيرة شديدة التماسك والتكتل . وكلما تكون القبيلة متوغلة فى البادية تبدو وحدتها ويتجلى تضامنها كشرط أساسى لكيانها ووجودها، وبالعكس إن استقرت واشتغلت بالزراعة فإن مظاهر العصبية والتماسك تميل إلى الانحلال التدريجى . وتتميز حياة البادية ببعض الحقوق مثل حق الدم والدين والحشم وحق البيت وحق الوجـــه وحق القصير وحق القذف وحق العرض وحق الدخيل وحق الملح .

٤ — الأهـــداف المشتركة :

تقتضى ضرورة بقاء الكيان العائلى واستمراره وجود أهداف مشتركة تعمل على توحيد خطوط السلوك المبعثرة والعمل على ربطها وتوثيق أواصرها ، وتتطلب تضحية المصالح الشخصية من أجل الاضطلاع بمسئولية عامة ومشتركة .

العلاقة بين كيان البيت العربى والإطار الحضرى العام :

لايمكن البحث فى كيان البيت العربى باعتباره ظاهرة منعزلة ومنفصلة قائمة بذاتها عن المؤسسات الأخرى، وذلك لوجود عملية التأثير والتأثر المتبادل فيما بينها جميعا ، خاصة وأن مجالات العمل والاختصاص بين تلك المؤسسات ليست محدودة وليست معلومة . فإن مايحدث فى إحدى المؤسسات من تغيير وتبديل يؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى بقية المؤسسات . ولما كان البيت هو حجر الزاوية فى قيام المجتمع ، وحوله تدور كثير من الطقوس والأعراف والتقاليد والخرافات والأوهام والاعتزاز والمباهاة فمن المنتظر أن يؤثر ويتأثر فى الإطار الحضرى العام. ومن الملاحظ أيضاً أن كيان البيت أكثر المؤسسات صلابة وبلورة فى مقاومة عوامل التبدل والتغير لأنه مسئول عن الاحتفاظ بالتراث الاجتماعى ، فمن طبيعته أن يميل إلى الركود والجمود إذا قورن بغيره من المؤسسات الأخرى . ولهذا نجد فجوة واسعة بين المؤسسات الاقتصادية والتربوية والترفيهية وبين البيت العربى . لايزال البيت العربى فى تخلف ملحوظ لا يستطيع اللحاق فى سرعة تطوره وتغيره ببقية المؤسسات . ويقاوم عوامل التغيير والتبديل. وكثيراً ما كان التخلف هذا سبباً فى تصادم القيم الاجتماعية وتضارب المقاييس مما أثار موجة القلق الشخصى والاجتماعى .

ومن المفروض أن يشمل كل كيان مجموعة من أنماط السلوك تربط بينها قيم اجتماعية ومظاهر مترابطة من الحياة التى أقرها المجتمع وأضاف إليها عنصرى القدسية والعشرية ، ورأى أن استمرار حياته يتوقف على نقلها من جيل إلى جيل . ويجب أن لايدور بخلدنا أن الكيان مفهوم ثابت وجامد بل على العكس فإنه حركى مندفع يتقبل التبديل والتطور .

يتكون كيان البيت من مظاهر أسبغ عليها المجتمع التزامات خلقية ، أنبعثت من حياة الناس المشتركة ، ورأى فيها وسائل فعالة لتحقيق رغباتهم وحاجاتهم الأساسية واعتبر الخروج عنها مروقا وشططا . ولابد من توافر شرطين أساسيين لكيان البيت هما : استمرار الترابط والتواشج بين وجوه خاصة من حياة المجتمع ووجود تنظيم يتميز بالاستقرار النسبى والشمول ويدور حول مجموعة من الدوافع الأساسية تربط الأفراد الذين يتألف منهم البيت بوحدة مستمرة ومتعاونة لها قواعدها وأعرافها وطقوسها . ولا يمكن تحقيق الانسجام الكامل بين أجزاء البيت نفسه من جهة كيان البيت وبقية المؤسسات من جهة أخرى إلا فى المجتمعات القبلية البدوية وبعض المجتمعات الريفية .

وبالرغم من أن البادية (الترحل) والقرية (الاستقرار الصناعى والحرفى) والمدينة (الحضارة والتخصص) تتمثل فيها مراحل مختلفة من الاجتماع البشرى فهى ليست منفصلة انفصالا تاما وإنما توجد بعض الخطوط العامة الشاملة التى تربطها جميعاً كاللغة والدين والتاريخ وبعض الرواسب من الأعراف والتقاليد والعادات الاجتماعية. وعبثا نحاول أن نفصل بين هذه الأنواع من الاجتماع البشرى باللجوء إلى بعض المقاييس المادية والمعنوية لأنها متداخلة ومتشابكة فقد تكون القرية قبيلة واحدة أو اتحاداً لقبائل متعددة تجمع بين الرعى والزراعة . ثم إن المدينة كانت فى البدء قرية تحولت إلى مدينة نتيجة لازدياد كثافة السكان والتخصص فى تقسيم العمل .

على ضوء هذه الخطوط العامة سنحاول أن نوجز البحث فى كيان البيت العربى فى البادية والقرية والمدينة .

(ا) كيان البيت العربى فى البادية

يتميز كيان البيت العربى فى البادية بالعصبية وبالزواج المبكر وبكبر حجم العائلة وبسيطرة وباحترام الشيوخ الطاعنين فى السن وبقلة الطلاق وبعدم ممارسة وسائل ضبط النسل ومنع الحمل. والقبيلة فى البادية هى أساس التنظيم الاجتماعى . ففى إطار القبيلة ينال كل فرد أنماط سلوكه ، ويتعلم خصائصه الإنسانية، ولهذا يغار كل بدوى على شرف قبيلته وسمعتها ، وهو مستعد للتضحية من أجلهما. ويحترم البدوى العمر ويعتبره شيئا محترما ومقدسا. فلا يمكن لأى فرد من أفراد البيت أن يبت بشىء دون أخذ رأى شيوخ القبيلة .

وتعتبر القبيلة البدوية فى الواقع امتدادا لعائلة كبيرة ، حيث يعتقد الجميع بانتسابهم إلى جد أعلى واحد . يولد الفرد ويعيش ويموت فى قبيلته، فهى التى تنظم زواجه وترعى أطفاله وتحمى ملكيته وتعمل على سد حاجاته الاقتصادية والعاطفية . ومهما تختلف الوحدات الاجتماعية فى درجة تضامنها وانسجامها فالقرابة والروابط الدموية هى البؤرة الأساسية التى تستقطب حولها جميع أنواع الولاء والإخلاص والمصالح والفعاليات التعاونية حتى تنبثق من هذه الوحدات العشيرة والقبيلة. وللأب سيطرة تامة على أزواجه وأبنائه وأحفاده. وتطيع بناته المتزوجات أوامره ولكن ليس من حقه السيطرة على أحفاده من ابنته الذين ينتسبون إلى عشيرة أبيهم . وهو الذى يدير أمور عائلته ويحسم المنازعات التى قد تنشب فيما بين أعضائها ، وإذا تعذر عليه ذلك فقد يلجأ إلى رئيس العشيرة . والعشيرة متضامنة ومتكافلة ، فإن جريمة أحد أعضائها تعتبر جريمة العشيرة بأجمعها لأن المسؤولية جماعية .

وتتميز المرأة البدوية بمحاسنها الطبيعية، بعيدة عن التصنع، مملوءة بالغيرة ، ترعى أطفالها وتدارى زوجها، تحب وتكره بعنف ، مستعدة للتضحية ومسؤولة عن رعاية أطفالها . وتتمتع المرأة المتزوجة بشىء من الحرية ، أما الفتاة غير المتزوجة فتجمع الحطب من الصحراء كالعرفج وتقطع الأشواك بفأس صغير تحمله معها . وتحزم الحطب بحبل تصنعه من شعر الماعز لتعود به إلى خيمة أهلها وذويها . أما المرأة فتبقى فى الخيمة تقوم بأعمال البيت تفرد الأغطية فى العراء وتنظف بقية الأوعية من الأوساخ .

وتسمى المرأة «أم العيال » ، تغار على سمعة الزوج وتقوم بخدمة ضيوفه واكرامهم. وليس من الأصول واللياقة أن يذكر الضيف إسم « أم العيال » وإنما يكتفى بالإشارة إليها بأم العيال. وإذا سأل أحد الضيوف عن حالها فيقول كيف حال التى وراءك وكيف حال أم العيال. وهى التى تشجع أفراد قبيلتها على الإقدام والتضحية والقتال فى الغزو فتكشف عن وجهها وتسرح شعرها وتركب ناقتها لتشجع المحاربين من الشباب والشيوخ ، إذا كانت ابنة لأحد الشيوخ ، فإن المحاربين يستميتون فى القتال حتى يتم النصر .

ولا تخشى المرأة البدوية من الحرب والقتال لأنها مصونة وفقا للتقاليد والأعراف البدوية ، فقد يقتل زوجها ويهزم ابنها وتسرق إبلها ولكن هى بالذات فى مأمن من كل خطر . وقد تجلس فى خيمتها تبكى وتولول بصوت منخفض ، مع أنها تعرف حق المعرفة بأن الغزاة لا يستطيعون أن يمسوا شعرة من رأسها فلا يمكن نهبها عن طريق الغزو . وقد يسلب الغزاة الإبل والأمتعة ولكن من الضرورى أن يتركوا خيمة واحدة لكل امرأة ومقدارا كافيا من الطعام حسب التقاليد البدوية . ولا يمكن أن ينهب الغزاة شيئا من حلى المرأة وملابسها الموجودة عليها

والتى تحتفظ بها فى خيمتها أو على المقصر الخاص بناقتها . فان كل اعتداء من هذا القبيل يعتبر لطخة سوداء فى شرف الغزاة لأن أعراف البادية وتقاليدها تضع شرف المرأة فوق كل شىء .

والمرأة البدوية تشتغل بغزل شعر الماعز أو صوف الغنم ونسجه . وهى شديدة التمسك بعفافها ، ولباسها بسيط وتخبز الخبز فى الصباح على الصاج ولا تستعمل التنور .

ولا يمارس البدو من الزواج إلا ما حلل الله تعالى وفقا للشريعة الإسلامية وينتهى بما حرم . فقد حرم الله تعالى كما جاء فى القرآن الكريم : حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ونكاح المقت ، أى أن يستحل أكبر الأولاد زوجة الأب ، باعتباره ملكا موروثا ، فكان فى الجاهلية أن يرمى عليها ثوبه إذا أعجبته فتكون له ، وإن لم تعجبه يزوجها لمن يشاء بمهر جديد ، وقد أبطل هذا النوع من الزواج بقوله تعالى « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف ، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » ونكاح الاستبضاع وهو أن يقول الرجل لامرأته أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويفعل ذلك رجاء نجابة الولد فيأمرها بالاستبضاع من ذى شهرة أو فصاحة أو نحوهما ، ونكاح الخدن ، وهو أن للمرأة خليل فى السر يعاشرها معاشرة الأزواج ، وقد حرمه الله تعالى بقوله « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان » . ونكاح المتعة ، وهو الزواج بالمرأة لمدة معينة . ونكاح الشغار وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته بشرط أن يضع كل منهما مهراً لبضع الأخرى . ونكاح البغايا ، ولا تزال البداوة تحرم كل هذه الأنواع من الزيجة. إنما القاعدة العامة للزواج هى ابنة العم . فلا يمكن أن تتزوج من رجل آخر بدون رضى ابن عمها. وإذا خالف الوالدان هذه القاعدة فلابن عمها الحق فى قتلها . وتتكرر حوداث القتل بهذا السبب فى العراق . وإذا رفضت ابنة العم الزواج بابن عمها فله الحق فى قتلها دون أن يدفع أى تعويض مقابل قيامه بهذا العمل . وإذا اكتشف ابن العم أن ابنة عمه تحب رجلا آخر فيستطيع أن يمنع هذا الزواج وتسمى هذه العملية فى البادية « حير عليها » الزواج . وإذا أحبت فتاة شخصا آخر وتوفى أبوها ، فلها الحق بهذه المناسبة أن تطلب حريتها من ابن عمها الذى كان قد حير عليها أو حجرها بعد الوفاة مباشرة فتسأله أن يعفوها من زواجه متخذة من وفاة أبيها سببا لهذا العفو . وعندها قد يرفع ابن عمها الحجر عنها ، ولكنه ليس مضطرا أن يقوم بذلك. وإذا رفض فليس من طريق آخر غير الهروب، فتفر مع عشيقها إلى قبيلة أخرى فيتزوجان هناك بعد أن يطلبا حماية القبيلة التى دخلا عليها. وتبقى على كل حال فى خطر انتقام ابن عمها . ويبقى زوجها بنظر ابن عمها مجرما يستحق القتل ولا يستطيع المحافظة على حياته إذا لم يدفع دية عما جنت يداه . وإذا صادف وأن فر البدوى وتزوج من فتاة لاتوازيه فى النسب أو بفتاة عرفت بسوء خلقها فلا يمكن العودة إلى قبيلته لأنها تنتقم منه بكل تأكيد .

ومن واجب البدوى أن يتزوج وينجب أطفالا ليزيد من منعة قبيلته وعزتها . وقد ينفى من قبيلته إذا فشل فى القيام بهذا الواجب ولكنه لا يجرؤ أن ينفصل عنها ، وعندما يريد البدوى أن يتزوج فعليه أن يدفع مهرا يختلف فى المقدار والنوعية باختلاف منزلة الفتاة ومكانة قبيلتها . فعلى الزوج أن يجهز عرسه بكسوتين وفراش ويرسله مع شخص يعرف إجراء المراسيم الدينية . وبعد أن تتم مراسيم الزواج ينقل الزوج عروسه إلى خيمته القريبة من خيمة أبيها .

وكثيرا ما يحدث أن تتجسس النسوة الأصوات والحركات فى خيمة العروس ، ومن العادات المألوفة عند البدو استعمال العنف والقسوة فى ليلة الزفاف . وقد تنظم بعض القبائل البدوية عرضا للخيول يتبارى فيه الفرسان فيبقى العريس يفتش عن عروسه ليختطفها من بين النساء اللواتى يدافعن عنها أو يخفينها ومن العار على الرجل أن لا ينجح فى هذه العملية .

وفى قبائل العراق يبنى الرجل خيمة تدعى « حوفه » لزوجته يأخذها إليها بعد الزواج مباشرة ، وفيها يقضى شهر العسل إذ يحيط بالزوج فريق من الأصدقاء إلى الحوفة وتبقى العروس فى الخيمة مدة سبعة أيام ، أما الرجل فيستطيع أن يترك الحوفة ولكن ليجلس فى المضيف يستقبل الضيوف . ولا تجرى مثل هذه المراسيم إلا للمرأة التى تتزوج لأول مرة وإذا كانت مطلقة أو أرملة فتسكن رأسا فى بيت زوجها .

والولادة عملية سهلة فكثيراً ماتحصل الولادة والقبيلة تترحل وتنتقل من محل إلى آخر فتختلى معها امرأة أخرى وبعد أن تتم الولادة تمسح نفسها فى رمال نظيفة وتحمل طفلها وتسير فى مؤخرة القافلة . وبعد الولادة يوضع خنجر أو قطعة من الحديد بالقرب من المولود وإبرة فى ملابسه . ولايمكن للمرأة أن تنقل الطفل أو تحمله بدون هاتين القطعتين لأن البدوى يعتقد بأن الحديد يطرد الأرواح الشريرة . ولا يزال البدو وأبناء الريف خاصة كماوصفهم القرآن الكريم « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء مابشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » . فلاتزال عادة عدم الاستبشار بولادة البنت متأصلة فى المجتمع البدوى . فلا تفرح الأم بمقدم البنت ولاتتقبل التهانى . ومن المألوف أن توقد النار فى خيمة الأم ثلاثة أيام ويحمل قسم من تلك النار إلى الخيام الأخرى أو لاستعمالها فى السحر ودعوة الأرواح الشريرة ، وتترك النار حتى بعدانتهاء الأيام الثلاثة . ويقدم البدوى بعض الأعذار لعادة عدم فرحه وسروره بمجىء البنت فيؤكد عدم وجود أية فائدة لأبيهاوعائلتها وقبيلتها ، فلا تفيد أحداً غير زوجها ، وإذا استمرت الزوجة فى وضع البنات فقط فإن زوجها لايبقيها وإنما يتزوج عليها امرأة ويسمى ذلك بالظهار أى أن يقول الزوج لزوجته « أنت على كظهر أمى » فتصبح محرمة عليه جنسيا ولكنها لاتخرج من عصمته وكذلك « الإيلاء » وهو الحلف بعدم قرب الزوجة إذا ولدت البنات فقط وبالرغم من أن البدوى لايحتفل بولادة البنت ولايفخر إلا بالذكور ، فهو يحترم المرأة ويصونها من التعدى .

ويسمى البدو العرف القبلى المختص برعاية المرأه بالحشم فلا يجوز مغازلة المرأة والاعتداء عليها . فإذا كانت المرأة غير متزوجة وصادف أن وقع عليها الاعتداء وهى فى خيمة أهلها فيكون الحكم على المعتدى بأن يعطى امرأة لأهلها على قاعدة الحشم . وإذا لم يكن المعتدى مجاوراً لقبيلتها فيكتفى بدفع مبلغ معين حسب العرف الجارى . أما إذا كانت المرأة متزوجة وصادف أن وقع عليها الاعتداء وهى فى خيمة زوجها فيجب أن يدفع المعتدى الحشم المال أو المرأة أو القتل .

وإذا اغتصب رجل امرأة نهاراً وكانت تسير فى الطريق وحدها عندما كانت تحتطب أو تستقى الماء ورجعت فأخبرت أهلها فيكون الحق لقبيلتها أن تقتل الغاصب أو أحد أقاربه حتى الجد الخامس وتستحل أموالهم لمدة ثلاثة أيام . ومن ثم يقصدون العرافة حيث يحكم بغرامة تفوق دية القتيل وتكون عادة مما كان لونه أبيض من المواشى والجمال والقماش والفضة وذلك لأن الجانى قد سود العرض فعليه أن يبيضه . أما لو وقع الاعتداء على المرأة بعيداً عن

منازل القبيلة وبعد مجيء الغنم من المرعى فلا يعتد بصراخها وتعتبر شريكة للجانى، وتسمى عندهم « عاقبة السرح» أى أتت بعد مجيء الغنم من المرعى ، حيث أن من عادة البدو أن تحضر المرأة إلى المضارب قبل مجيء الغنم ، ووقوع الاعتداء عليها بعد مجيء السائمة دليل على رضائها بهذا الفعل، وإنما صاحت واستغاثت لأن أحداً قد اكتشف أمرها ، وينظر إليها كزانية بالرضاء ، فالزنى بالرضا يجعل الزانى غير مسؤول مالم يقتل رجال القبيلة زانيتهم وإلابقيت وصمة عار للقبيلة بأجمعها .

وإذا أصابت امرأة فى قبيلة ماظلامة فإنها تستطيع أن تستغيث بنداء خاص يسمى « النخوة » وهى كلمة يصطلح عليها بين أفراد تلك القبيلة يتوارثونها عن الآباء ، وكل من يسمع النخوة من أفراد العشيرة يضطر لنصرة المستغيث وبهذه النخوة تعرف القبائل عدوها من حليفها .

والطلاق فى البادية عملية سهلة ، فإذا طلقت المرأة فلها الحق فى الاحتفاظ بجهازها الذى يكفيها ردحاً من الزمن حتى تجد زوجاً جديداً ، وقد تبيع الجهاز لتشترى إبلا وماشية لتعيش بها . وإذا حدث نزاع بين الرجل وزوجته فإنها تخرج من بيت زوجها وتذهب إلى بيت أبيها وترفض العودة وبذلك يستطيع الزوج طلاقها ، وبهذه الحال لا يحق لها أخذ الجهاز معها ولكنها الطريقة المعتادة للتخلص من الزوج غير المرغوب فيه . وإذا أحبت البدوية رجلا آخر ولم تعد ترغب فى زوجها تسأله عادة فى إعادة الجهاز إليه ، ولاتنطبق هذه القاعدة على ابنة العم .

وإذا طلبت المرأة الطلاق ومنحه إياها الرجل فعليها أن تتنازل عن مهرها أو أن تتعهد بدفع أموال أخرى من أجل حريتها . وفى هذه الحالة تنقطع الصلة الزوجية نهائياً . أى أن مادفعه الرجل من مهر قد أرجع إليه ولا يجوز له أن يطلب ثانية التمتع بحقوق الزوجية . أما إذا كان الرجل لا يرغب فى المعيشة مع زوجته ولم يعطها المهر فلا تصبح طالقاً ، أى أن المهر يجعل من الممكن استمرار حقوق الزوجية .

وهناك ثلاث قواعد للزواج هى :

١ ــ أن يتم الزواج داخل القبيلة الواحدة .

٢ ــ أن يكون الزواج خارج القبيلة .

٣ ــ أن يسمح بالزواج من داخل القبيلة وخارجها على السواء .

وقد يتخذ الزواج أشكالا مختلفة من حيث سكنى الزوج وزوجته . فقد تنتقل المرأة من عشيرتها وتلتحق بعشيرة أخرى وتحتفظ عشيرة الأب بالأبناء، وقد تبقى المرأة مع عشيرتها إذا تزوجت ويبقى الأولاد فى عشيرة أمهم ، وعندما يلتحق الأولاد بأمهم فلهم أن يقرروا بعد أن يكبروا أن يرجعوا إلى عشيرتها أو يبقوا مع عشيرة أحد أزواجها أو يعودون إلى عشيرة أبيهم الحقيقى .

ويعتبر المجتمع البدوى سكونيا نسبياً لأن منزلة كل فرد فيه ثابتة ومعينة منذ الولادة ولا يمكن أن يتعلق البدوى فى السلم الاجتماعى مثلا ويصبح رئيساً أو شيخاً ، لأن الرئاسة والمشيخة مكانة أو منزلة موروثة ولكنها قد لاتنتقل إلى الابن الأكبر دائماً فقد يبرز أحد الأبناء على أخيه الأكبر فى الشجاعة وكرم الأخلاق والمروءة وغيرها من الصفات التى يعتز بها المجتمع البدوى القبلى فيتولى رئاسة القبيلة . والبدوى قانع بالمكانة التى عينها له المجتمع ولا يشعر بأى حيف أو ظلم اجتماعى .

وعندما يبلغ البدوى الرابعة عشر من عمره يذهب إلى الرماية برفقه أحد أفراد القبيلة ويقضى كل يوم ثلاث ساعات يتمرن فيها على الرماية لمدة تسعة أشهر . وبعد الانتهاء منها عليه أن يصيب الهدف ثمانين بالمائة ليصبح فارساً، وإلا يبقى راعياً ، وإذا بلغ العشرين يعاد تمرينه على الرماية شهراً واحداً فإذا نجح ترقى الى مرتبة فارس وإلا بقى راعياً . وفى الخامسة والعشرين يمرن ثالثة شهراً واحـــداً وهو آخر تمرين فإذا نجح صار فارسا وإلا بقى طول حياته راعيا .

ويختار الفرسان الذين أبلوا فى المواقع وتغلبوا على الخصوم وكانوا من العاملين فى صالح القبيلة فتتم ترقيتهم إلى درجة فارس ويترتب على هذه الترقية زيادة فى المدخول من الغنائم وغيرها .

وتسكن البدو الرحل فى خيام مصنوعة من شعر الماعز مرفوعة على عمود أو عدة أعمدة ، وتسمى الخيمة ذات العمود الواحد «صهوة » وذات العمودين « مكورن» وذات الثلاث أعمدة «مثولث» وكلما زادت أعمدة الخيمة دلت على سمو مكانة صاحبها ورفعة منزلته . ويقسم البدوى خيمته إلى قسمين أو ثلاث تفصل بينها ستائر منقوشة نقشاً جميلا مصنوعة من الصوف تعرف باسم « قطعة » تعلق على أعمدة الخيمة من الداخل ، فيخصص البدوى قسما للضيوف والقسم الآخر لعائلته وإنائه . ويسكن الرؤساء والشيوخ فى خيام واسعة تحملها أربعة عواميد يصل طول كل منها إلى خمسة وعشرين قدما. وتختلف عدد الحبال التى تربط الخيمة بالنسبة إلى عدد العواميد التى تحملها . فعلى كل عمود لابد من وجود حبلين رئيسيين، الأول فى المقدمة والثانى فى المؤخرة . ويفرش فى مضرب الرجال سجادة أو عدد منها وتوضع عليها بعض الأحيان « الدواشك » (المراتب) للجلوس عليها . وفى الوسط يكون « الوجار » أى الموقد الذى تصنع فيه القهوة وتوضع فيه كافة الأدوات المستعملة فى صنعها . أما مضرب النساء فيحتوى على أدوات الطبخ والطعام والمؤن كالأرز والدقيق والتمر والسكر والملح . وتوضع على مقربة من الخيمة «القرب» التى تحمل المياه وبجوارها الدلو لشرب الماء . ولكل خيمة كلب يحرسها ليلا ونهاراً وتحرس الكلاب كذلك الجمال والأغنام من الذئاب واللصوص . وعندما يبدأ البدوى بطرق الهاون الخاص بسحق القهوة ، يعنى وجود ضيوف . وقد يكون الهاون من الحديد أو النحاس أو الخشب .

ويشمل نصب الخيام تقسيما مفصلا للعمل حيث يبدأ رب الأسرة فى إعطاء الأوامر إلى النساء والأطفال والخدم بنظام وتدريب، فيوجه الأوامر إلى الأفراد بأسمائهم « أفرشوا الخيام أيها العيال . جروا الحبال يا أولادى ، أرسوا الأوتاد . شدوا الحبال ، أرفعوا العمود الوسط وبقية الأعمدة ، أربطوا أروقة البيت ، ضعوا الستائر ، أربطوا القطعة أفرشوا السجاد » وبعد أن يتم كل ذلك يعلق رب الأسرة بندقيته فى وسط الخيمة فى قسم الرجال ، ويرتب الموقد لصنع القهوة .

ويعيش البدوى على ما تنتجه الماشية فيأكل لحمها ويشرب لبنها ، ويلبس صوفها ، ويتخذ منه مسكنا . ويعتمد فى تغذية ماشيته على الطبيعة يخرج بها فى مواسم المطر إلى منابت الكلأ لترعى ، فاذا ما انتهى الموسم عاد إلى دياره ينتظر بفارغ الصبر أن يحول الحول وينزل الغيث . وإذا احتاج إلى غير ماتنتجه الماشية تعامل عن طريق البدل فيستبدل بالماشية ونتاجها ما يطلب من تمر ولباس .

ومن الممكن أن نقسم البدو إلى :

١ - القبائل الجمالة : وهم البدو الأصليون الذين يجوبون الصحارى والبوادى طلبا للكلأ والماء وديدنهم التجوال والترحال ولا يؤمون القرى أو المدن إلا للمسابلة .

٢ — القبائل الغنامة : (الشوايا) أو أهل الغنم وهم البدو الذين لايتغلغلون مسافات بعيدة فى البوادى بل يسكنون على حواشى المدن ، وهم فى الواقع شبه رحل ، فقد يجمعون بين الرعى والزراعة .

البداوة والتبدل الاجتماعى :

كان من نتيجة اتصال البداوة بالحضارة الآلية الميكانيكية الغربية أن تزعزعت النظم البدوية القديمة وتأثرت حياة البدو تأثيراً كبيراً ، ولعل أهم تأثير غير مفاهيم البداوة كان لوسائط النقل الحديثة كالسيارة والقطار والطائرة. فقد أقدم البدو على ركوب السيارات وسكك الحديد بدلا من الإبل ، وصار بالإمكان استتباب الأمن بالصحراء بفضل السيارات المسلحة وبذلك انقطع الغزو من الصحراء . وبدأ البدو ينقلون الأغنام فى السيارات الكبيرة والقطارات لبيعها فى الأسواق . وكان البدو فى السابق يؤجرون إبلهم لنقل البضائع عبر الصحراء ، أما الآن فقد حلت السيارات والقطارات محلها .

وكثر ارتباط البدوى بالمدينة بفضل وسائط النقل السريعة الرخيصة وتوثقت معرفته بحياة المدينة وصار يقارن بين جفاف الحياة فى البادية ونعم الحياة فى الحضارة ، فلم تعد البادية موطن أحلامه ومحل طمأنينته النفسية والمادية . وصار التجار من أهل المدن لا يخافون ولا يرهبون البدو فى تنقلاتهم فى الصحراء . وأقبل البدو على اقتناء معالم المدنية المادية كاستعمال مضخات المياه التى نصبوها على فوهات الآبار . ولعل العامل الثانى فى تغيير حياة البادية يرجع إلى صناعة البترول . إذ أخذت الشركات المختلفة الموجودة فى البلاد العربية تستخدم منهم أعداداً كبيرة لأعمال الحفر والصيانة وغيرها وتبنى لهم البيوت والمستوصفات وتدخل أساليب الحياة العصرية ، فشجعت التوطين والتجارة ، وأوجدت سوقا واسعة . وتأسست مصانع صغيرة لتصليح السيارات ولصنع الأثاث اللازم للبناء . وعندما نشطت الأعمال العمرانية ظهرت المدن والقرى . وبدأت السيارات وشبكات السكك الحديدية تجوب الصحراء وتتغلغل فى البوادى . وهكذا كانت صناعة البترول حافزاً كبيراً فى الحركة الاجتماعية من الرعى والترحل إلى الاستقرار. وتناقص عدد البدو كثيراً نتيجة هذه العوامل ، لأن البلاد العربية كالكويت والبحرين والمملكة العربية السعودية والعراق أصبحت قادرة على تمويل المشروعات الكبرى فى الإسكان والإنشاء والتعمير .

ولهذا فقد تركت غالبية البدو فى الكويت الرعى والترحل عندما وجدت سبيلا إلى العمل المستقر ، ولم يعد فى الكويت من البدو إلا قلة يسيرة فى طريقها إلى الاستقرار فى مناطق العمل، وتغيرت أزياء الناس ، وقل عدد الذين يشتغلون فى الغوص على اللؤلؤ . ودخلت الصناعة والآلة فى مختلف نواحى الحياة . فظهرت أعمال الكهرباء والحرف الميكانيكية ونشطت حركة البنوك والشركات والطباعة والتصوير وغيرها . وصار الكويتى يحصل فى

الوقت الحاضر على الرعاية الطبية المجانية . وكان بفضل ارتفاع المستوى الصحى والمعاشى أن ازداد عدد السكان زيادة كبيرة ، وتغيرت مفاهيم الناس عن الحياة ومواقفهم فى الأمور الخاصة والعامة . وصار البدوى يتحسس فى حوادث العالم الخارجية والداخلية ، بعد أن كان لا يسمع بشىء ، ولا يتلذذ بغير الغناء البدوى والحداء والرقص أصبح يستعمل آلة الراديو التى تشتغل على البطارية إن كان لا يزال ساكنا فى البوادى والصحارى يستمع إلى أخبار الناس والعالم ويسهر على حفلات الغناء التى يحييها كبار المغنين والمغنيات . وهكذا صار البدوى شاعراً وحساساً بالأحداث التى يمر بها العالم العربى . والخلاصة فإن تغيير وسائل كسب العيش واستعمال الآلات والأدوات قد وضعت البدوى فى وضعية جديدة لم يكن ذا خبرة وعهد بها من ذى قبل .

فالعوامل التى ساعدت على تغير الحياة فى البادية هى :

١ — وسائل النقل الحديثة كالسيارات والقطارات والطائرات .

٢ — صناعة البترول وما تتطلبه من استقرار وخبرات ومهارات .

٣ — نشوء صناعات محلية .

٤ — استعمال الراديو الذى قضى على عزلة البدوى وربطه ربطا وثيقا بأحداث العالم .

٥ — إقبال البدو على الاستقرار والزراعة كما فى العراق والاقليم السورى والأردن والمملكة العربية السعودية بفضل المشروعات التى حققتها الدول المختلفة فى الرى والتسليف الزراعى وحفر الآبار وحماية المزروعات وسن التشريعات الإصلاحية واستعمال الآلات والمكائن .

(ب) كيان البيت العربى فى الريف

يمثل كيان البيت فى الريف مرحلة أخرى من مراحل التطور والتبدل الاجتماعى ، حيث يبرز عامل الاستقرار والتوطين فتتوثق الصلة بين القرابة والمكان (الاقليم) . ومن نتيجة ذلك أن ينشأ شعور جديد بالتضامن والتعاون ، وبالفعاليات الجماعية بعد أن يستقر الإنسان وتتبدل وسائل كسبه للعيش ، تعقبه تغيرات مهمة على كافة أشكال العلائق والروابط الاجتماعية فتتبدل مواقف الناس وقيمهم حول مواضيع أساسية كالزواج والطلاق ورعاية الأولاد ودور المرأة ومنزلتها ووظائف البيت وأعماله .

ويتألف الريف أو القرية فى الواقع من مجموعة من العوائل الكبيرة التى قد يجمع بينها نسب حقيقى أو وهمى إلى

جد أعلى فتنتظم على شكل عشيرة واحدة أو اتحاد من عدة عشائر . وبمعنى آخر أن العائلة الزوجية جزء صغير ضمن العائلة الكبيرة التى هى فى الواقع جزء أكبر من العشيرة .

فالعصبية واللحمة والمصاهرة أشكال ثلاثة من الترابط الدموى ، فالعصبية قادرة على حماية العشيرة، وتتميز بأنها موحدة وشاملة ، ذات قوة إلزامية قهرية « زجرية » تمارس كافة أنواع السيطرة على ضمائر أفراد القبيلة أو العشيرة الواحدة ، وبفضل ما تتميز به من تضامن وسيطرة وإلزام صارت أساسا لقيام المجتمع العشائرى القبلى المستقر، واتصلت اتصالا وثيقا بصالح القرية والعشيرة ولكل عصبية حدود ومحرمات ونواة يكون إطاراً تقرر فيه حدود الشخصية . وكافة الحقوق والواجبات هى ملك العصبة وحدها ، ونعنى بالعصبة الانتماء إلى العشيرة بواسطة الانتساب إلى الأب وباللحمة الانتساب إلى الأم وبالمصاهرة علاقة الزواج . وحين يتعاون أبناء القرية الواحدة فى الكفاح من أجل البقاء ، فى الحراثة والبذور والسق ومكافحة الآفات والأمراض الزراعية والحصاد والتسميد والأعياد والمراسيم الدينية والاجتماعية وفى الثأر فإنهم يؤسسون علاقات اجتماعية من الطراز الأول من حيث البقاء والاستمرار والتضحية والولاء والإخلاص على أساس وجود توقعات ومعانى مشتركة ومصالح مشتركة تعمل على التضامن والانسجام .

والعصبية هى الدافع الأساسى الذى يخلق فى الفئة الاجتماعية حوافز لتدافع عن قيمتها ومقاييسها وأعرافها وتقاليدها . تتوخى العصبية ربط أوصال العوائل الصغرى والكبرى فى وحدة كلية يشعر كل فرد فيها بالضمانة النفسية والمادية . وتكون العصبية مصدراً للمسئولية المشتركة وهى التى تدفع على التناصر والتعاضد فى المدافعة والحماية والمقاتلة .

ويزداد فى الريف تقسيم العمل تخصصاً بحسب الجنس والعمر أكثر مما عليه فى البداوة وينتقل الناس من خيام الشعر إلى الأكواخ والصرائف والبيوت المبنية من الطين . ونعنى بالأكواخ والصرائف البيوت المصنوعة من البردى والقصب ويسكنها فى العادة الفقراء من الفلاحين ، لأن البردى والقصب لا يكلفان كثيراً وميسور الحصول عليهما من الأهوار القريبة ، إذ يخرج الفلاح بقاربه الصغير فيجرد من الهور ما يكفى لسد حاجته . وتبنى الأكواخ بالقرب من الحقول ومنعطفات الأنهار والجداول وعلى حواشى الأهواز . ويبنى هيكل الكوخ فى البدء من حزم قصبية مربوطة بعضها ببعض على شكل أقواس منحنية مثبتة فى رؤوسها فى حفرتين فى الأرض . وقد يتألف البيت من خمس أقواس فأكثر ثم توضع عليه بعض « البوارى » وهى عبارة عن بسط مصنوعة من القصب لتسقيفه . وتفتح فى فصل الصيف جوانب البيت . وتتناثر الأكواخ والصرائف على شكل مجتمعات عشائرية محلية . ويشتمل البيت على غرفة لسكنى الناس وأخرى أو ساحة للحيوانات والمواشى . أما إذا كان الفلاح فقيرا فإن بيته يتألف من غرفة واحدة يسكن فيها الإنسان والحيوان على السواء . يبنى الفلاحون بيوتهم بأيديهم من المواد المتوافرة لديهم ففى المناطق الجبلية حيث يتوافر الحجر والكلس وحيث يكون البرد قارصا وشديداً فإنه يبنى بيته من هاتين المادتين ويترك فى غرفته نافذة صغيرة مثقوبة فى الجدار كما هو الحال فى القرويين فى سورية ولبنان والأردن وشمال العراق . أما فى المناطق السهلية فيبنى بيته من اللبن والخشب وإما من اللبن (الطين) فقط . ويكون السقف مسطحا يتخذ محلا للنوم فى فصل الصيف ومحلا لتجفيف المحاصيل ومخزنا للأحطاب ويتألف داخل البيت من أثاث قليل وبسيط ويكون الموقد وسط الغرفة أو فى أحد جوانبها . وتوجد الأغطية فى زاوية من زوايا الغرفة . وفى الوسط يتأرجح

مهد الطفل . ولاتوجـــد فى أغلب الأرياف والقرى مياه نقية للشرب وإنما يشرب الناس من مياه الآبار والعيون والجداول .

والمرأة فى الريف هى التى تحمل القمح إلى الطاحونة أوتطحنها بنفسها وتخبز الخبز فى التنور الذى يصنع من الطين المشوى وتوقد داخله الأعشاب والأغصان اليابسة وتلتصق على جداره الداخلى أرغفة العجين الرقيقة . ويكون الخبز واللبن والتمر المواد الأساسية فى غذاء الفلاح ولايتناول اللحم إلا فى مناسبات معينة كالأعياد والأفراح . وفى الريف المصرى يكثر الناس من أكل الذرة والفول وفى الريف السورى من « البرغل » والزيت . أما القرى والأرياف القريبة من الأهوار والأنهار فتكثر من أكل الأسماك وقد انتشر منذ مدة قريبة شرب الشاى والكوكا كولا وتهيأ المرأة فى الريف لغزل الأصواف ونسجها وتتجمل النساء فى أنواع الحلى « كالخزامة » وتوضع فى الأنف والأقراط والأسورة والحجول .

وينتشر الوشم بين النساء القرويات — خاصة فى العراق — ومن الملاحظ أنه لكل قبيلة فى العراق طريقة خاصة للوشم بحيث أن طراز الوشم يشير أو يدل على نسبها إلى قبيلة معينة .

ولا يزال الزوج فى الريف كما كان فى البداوة هو مصدر السلطة المهيمن على شئون البيت والمسئول اجتماعيا عن إدارة بيته وسلوك زوجته وأطفاله ولكن من المتعارف عليه أن يترك الرجل للزوجة كل مايتعلق بشئون البيت الداخلية والمرأة فى الريف يجب أن تحترم زوجها وتطيعه وأن تكرس حياتها لراحته . ويجب عليهما الاثنين أن يخلص أحدهما للآخر فى عفته وطهارته وأن لايخونه فى عرضه ، لأن هذا الشرط أساسى وجوهرى لقيام كيان البيت واستمراره . وعلى المرأة أن تستقبل زوجها بعد عمله المضنى فى الحقل وأن تفتح له الباب وتعد له طعامه وتسهر على راحته ، وتصب الماء على يديه بعد أن ينتهى من الطعام .

ولايعنى ذلك أن المرأة لاتتمتع بشىء من الحقوق ، فهى التى تدير البيت وتحفظ الأطعمة وتمسك مصروفات البيت ، وبيديها مفاتيح المؤونة الموجودة فى البيت .

وتقضى التقاليد فى القرية بأن تكون المرأة مدبرة ومقتصدة ، تربى أفراخ الدجاج والطيور كالحمام والبط والأوز والغنم والماعز ، ويعترف الرجال بأنها وظيفة المرأة وحـــدها ، بينما يربى الرجال الأبقار والجمال والخيول والبغال والحمير .

وليس من الآداب الاجتماعية أن ينادى الرجل زوجته باسمها ، بل يكتفى بالقول « ابنة عمى » أو « أم البيت » أو « يا امرأة » . فإذا صار لها ولد يدعوها « أم فلان » . وتنادى الزوجة زوجها « ابن عمى » و « أبو البيت » أو « ياراجل » وإذا كان له ولد « أبو فلان » . كما لايجوز أن يغازل الرجل زوجته أمام أطفاله أو يلتصق بها كما هو الحال فى المدن .

وبالرغم من اختلاف طبيعة الأرياف فى البلاد العربية وتباين تكوينها ، فان الحياة فيها كلها على وتيرة واحدة إذ يخرج الناس من الصباح الباكر حاملين أدواتهم وآلاتهم راكبين حيواناتهم إلى الحقول والزراع يعزقون و يحرثون ويشقون الجداول والسواقى ويسقون الزرع . ولايبقى فى القرى غير النساء والأولاد الصغار ، حتى ليبدو بأن الجميع قد هجروا القرية . ولكن عندما تقارب الشمس المغيب ، تدب الحياة فى القرية من جديد فتكتظ الدروب المؤدية

إليها بالإنسان والحيوان ويعلو الغبار والتراب وتتصاعد أصوات الناس والحيوان . بعدها يخرج الرجال إلى حارة صغيرة بالقرب من البيوت يتسامرون ويتنادون بينما تنهمك النساء والبنات فى حمل المياه من الأنهار فى جرارهن وفى إعداد العشاء .

يحترم أبناء القرى العمل الزراعى ويعتبرونه مصدراً شريفاً لكسب العيش ويرون أن بيع الأرض من أكثر الشرور خطراً ، إذ يحتقرون أولئك الذين يضيعون أرضهم .

وينظم الفلاحون أعمالهم الزراعية على تقويم خاص بهم . فى الإقليم المصرى مثلا توجد ثلاثة أنواع من التقاويم. التقويم القبطى القديم الذى يستعمل لضبط مواعيد الأعمال الزراعية ، والتقويم الهجرى لتعيين الأعياد والفروض الدينية كشهر رمضان وعيد الأضحى ، والتقويم الشمسى أو الأوربى للأعمال التى لها علاقة بالحكومة كالضرائب والمحاكم ودوائر الدولة الأخرى. وفى كثير من الأحيان يتحول أبناء الريف عن التقويمين الهجرى (القمرى) والأوروبى (الشمسى) إلى إلى التقويم القبطى .

وفى العراق متأثرون بالتقويم الفلكى الذى يهتم بظهور النجوم والكواكب ومغيبها كظهور نجم سهيل وغروبه وبالتقويم الفارسى وخاصة فى وسط جنوب العراق . ولا يزال الفلاحون فى معظم البلاد العربية يستعملون الآلات والأدوات القديمة كالمحراث والشادوف والناعور ، إلا قليل منهم من يستخدم المضخات المائية والآلات والمكائن الحديثة فى الحراثة والحصاد .

والزواج فى الريف لا يختلف عن البادية والمدينة من حيث المحرمات التى وضعتها الشريعة الإسلامية والتى سبق الكلام عنها فى حديثنا عن البادية . ولكن هناك أنواعاً من الزواج شائعة بين عشائر العراق الجنوبية والوسطى منها : الزواج بدلا عن الدية : فقد جرى العرف العشائرى أن يقدم أهل القاتل عدداً من بناتهم إلى أهل المقتول ليتزوجوا بهن وينجبن أطفالا يكونون واسطة لربط الأسرتين المتنازعتين عن طريق المصاهرة «النسب» والخؤولة ، حتى أن بعض العشائر تتشدد فى عدم اعتبار المرأة التى أعطيت كحق للدية والتى لم تنجب طفلا بأن تأخذ مكانها امرأة أخرى . وبذلك تكون المرأة قد حسمت النزاع الذى كان قائما بين العشيرتين . وتختلف دية القتيل بحسب مكانة المقتول ومنزلته ومنزلة العشيرة بين العشائر، فقد تبلغ أكثر من أربع نساء وتسمى الأولى «جدمية» ويقصد بها أول أمرأة والثانية « لحقية » أى التى تلحق بالأولى، والثالثة والرابعة « تلوية» أى التى تلى المرأتين الأوليتين .

الزواج بالخطف :

أى أن الفتى يخطف الفتاة إذا لم يرض أهلها بالزواج بها . ويطلب الخاطف والمرأة المخطوفة دخالة قبيلة أو عشيرة أخرى ، ومن ثم تسوى القضية بأن يقطع الخاطف امرأة . وإذا وقع الخطف على امرأة متزوجة بأن سار بها الخاطف من بيت زوجها أو أحد أقربائها فإن أهل المرأة المخطوفة يتبعونها ويقتلونها بدون قيد أو شرط ويقتلون الخاطف إذا ظفروا به وإن لم يظفروا به فعلى الخاطف أن يدفع امرأتين .

الزواج بالاتفاق :

ويقصد به أن يتفق الطرفان الراغبان فى الزواج على أن يزوج كل منهما أخته أو قريبته إلى الآخر ويدفع مبلغا زهيداً إليه ليحلل الزواج من الوجهة الشرعية ، وإذا تخاصم أحدها بعد ذلك مع زوجته وطلقها فإن ذلك يحتم عليه إرجاع أخت الفريق الثانى حيث يرغمه أخوها على تطليقها ، أو أن يكون الثانى مضطراً إلى دفع مهر له ليتزوج بامرأة ثانية .

وتختلف الأرياف والقرى فى البلاد العربية من حيث حرية المرأة فى الاختلاط والسفور والواجبات فلا يمكن أن نطلق قواعد عامة حول هذه المواضيع ، ففى بعض الأرياف يسمح المرأة أن تساهم مع الرجل وأن تجالس الرجال ، وفى أرياف أخرى محذور عليها الاختلاط وتظل قابعة فى دارها .

والأولاد والبنات فى الريف غيرهم فى البادية . فالبنت التى تبلغ الخامسة من عمرها ترعى الأطفال الصغار ، وتحضر الحطب وتجلب الطعام ، وتصحب أمها إلى النهر لتحمل الجرة الصغيرة على رأسها وتنقل الطعام إلى ذويها فى الحقل ، وإذا كبرت الفتاة فإنها تحمل القمح والذرة إلى الطاحونة وتغسل الملابس فى النهر وتخبز وتغزل وتنسج ، وهكذا تخفف الفتاة من عناء أمها . أما الولد الصغير فيستطيع أن يوجه السواقى والجداول الصغيرة إلى الحقول وأن يجلب الحشيش للحيوانات وأن يطرد الطيور من الحقل ، وإذا بلغ الثالثة عشر من عمره يطلب إليه أن ينقل الأسمدة وأن يسقى الزرع بالشادوف أو الناعور . وعندما يبلغ السابعة عشر من العمر يصبح فلاحاً حقيقيا .

ويقوم الأولاد والبنات على العمل الزراعى ومساعدة ذويهم للحصول على تقدير الناس لهم وعلى احترامهم من جهة وعلى الاعتزاز بالوحدة العائلية وتضامنها من جهة أخرى .

ويستعمل الفلاحون الخبز من القمح والذرة أو الشعير والأرز بحسب المنطقة الزراعية ويفضل كل الفلاحين الخبز حارا . وفى كثير من الأحيان تقدم المرأة إلى جارتها رغيفا أو رغيفين تعبيرا عن شعورها بالولاء والإخلاص ومن عادة القرويين أن يستلف الواحد من جاره بعض الارغفة عندما يكون محتاجا إليها . ويتناول أبناء القرى والأرياف الذين يشتغلون فى الزراعة الفطور فى البيت والغداء فى المزرعة . أما طعام العشاء فتجتمع العائلة كلها على بساط حول إناء الطعام . وإذا صادف وكان هناك لحم فالوالد هو الذى يقوم بتوزيعه على أفراد عائلته ، فيعطى الولد الأكبر حصة أكثر من الصغير ، وتأخذ البنات أقل من الأولاد .

وعندما تبلغ البنات دور المراهقة فإنهن يتناولن وجبات الطعام وحدهن وبذلك تنقسم العائلة بحسب الجنس إلى فريقين . ومن المعتاد فى الريف العراق أن تأكل النساء ما يتبقى من الطعام بعد الرجال . ومن المألوف كذلك أن يبدأ الجميع بقولهم بسم الله الرحمن الرحيم وعند الانتهاء من الطعام « حمداً وشكراً لله » . وليس من اللائق أن يتذمر الأولاد من الطعام لأن التذمر يزيل البركة .

ومن الممكن تقسيم كيان البيت العربى فى الريف بحسب فئات العمر إلى : (١) الأطفال . (٢) الشباب . (٣) الرجال والنساء . وبحسب الجنس إلى ذكور وأناث ولكل فئة عمر أو جنس التزامات وحقوق وواجبات معينة . فالمفروض بالأطفال أن يطيعوا آباءهم ويحترموهم . ويحاول الأب أن يقلل من اختلاطه الزائد بأولاده بدعوى

أن الابتعاد يكسبه هيبة ووقاراً فى توجيه أولاده وضبطهم . ويعنى الرجال بأولادهم بينما تعنى النساء بالبنات ولكن ذلك لا يمنع الرجل من التدخل فى شئون البنات ، ومن النادر أن يتنازع الأبوان على تربية الأطفال ، فالأم تحاول أن تهدىء أطفالها عندما يكون زوجها فى البيت .

ويحتقر البيت فى الريف عقوق الوالدين ويعتبره رذيلة مستهجنة جداً ، ومن الضرورى أن يظهر وأن يعبر الابن عن تقديره واحترامه لوالده . فإن كان جالسا على مصطبة فعليه أن يقوم منها عندما يمر والده ، وإن كان مضطجعا على الأرض ومر به والده فعليه أن يجلس ، ويجب ألا يجلس عندما يكون والده واقفا ، ولا يمكن للولد أن يدخن بحضور والده . وعليه أن يستنكف عن القيام بكل عمل من شأنه أن يثير غضب والده .

وتشتد عناية الأب بابنه الأكبر باعتباره خلفا له والذى سيتولى زمام البيت بعده ، ويجب ألا يجادل الابن أباه وجها لوجه ، وإن أراد ذلك فعليه أن يوسط أحداً غيره .

أما صلة الأولاد بأمهم فوثيقة مملوءة بالحنان والعطف والطاعة ، وصلاتهم بعضهم مع بعض قائمة على أساس أنصر أخاك ظالما أو مظلوما ، وإذا كان الأخ الأكبر متزوجا وتوفى والده يصبح مسئولا عن رعاية إخوانه وأخواته الصغار . وإذا كانت إحدى الأخوات مطلقة فإن أخاها يصبح مسئولا عنها فى حالة وفاة والدها . وفى الريف يكون الأخ المتزوج مسئولا عن سلوك أخته ، وتعيش المرأة الأرملة التى ليس لها ولد فى بيت أخيها .

ويتجلى تضامن البيت العربى فى الريف فى مناسبات مختلفة ، فى دفع الدية إلى أهل المقتول ، إذ يدفع كل فرد فى العائلة أو كل عائلة فى العشيرة مقداراً معينا وفى الأفراح والأعياد ، وإكرام الضيوف والمرض والوفاة والولادة والطهور والزواج والمنازعات وغيرها ، وفى العراق مثلا يظهر التضامن فى المآتم التى تقيمها القرية على الإمام الحسين فى عاشوراء إذ تجمع العشيرة مالا ليؤجر به أحد القراء ، وفى مصر تؤجر القرية أحد قراء القرآن فى شهر رمضان. وكذلك فى استقبال الضيوف الكبار أو الحجاج القادمين من مكة وفى حفلات الزواج والطهور وغيرها .

وفى كثير من الأحيان تنشب الخلافات والمنازعات بين العوائل فى الريف حول مواضيع معينة كالأراضى وحدودها والمياه وتوزيعها ومشكلات الزواج والسمعة والشهرة مما يتطلب وجود هيئة تحكيم خاصة تحسم مثل هذه المنازعات وتتألف هيئة التحكيم من « العوارف » الذين يختارون من بين ذوى الأخلاق والشهرة الحسنة ومن بين المعروفين بالاستقامة . والعرافة معروف بسداد حكمه وسرعة خاطره فى إظهار الحق من الباطل طبقا للتقاليد المرعية فى القرى والأرياف . ويلبى المتخاصمون أحراراً الخضوع لحكم العرافين .

وأبناء الريف كالبدو يتخوفون من المرأة العاقر . ويعتبرون المرأة ذات الأولاد وينزلونها منزلة التقدير والاحترام لأن الأولاد فى الريف عمل منتج من الوجهة الاقتصادية ، ولأنهم من مؤهلات الاعتبار الاجتماعى . فالرجل الذى يشد أزره عدد كبير من الأولاد يتمتع بجاه عظيم . ويظهر التفريق فى معاملة الذكور والإناث فى الولادة . فإن أبناء الريف عادة يعطون هدية للقابلة التى تولد ولدا أكثر من توليدها بنتا ، وإذا بشر أحد الناس رجلا بولادة ابن له فإنه يطلب البشارة منه ويقدم الناس على تهنئته . ويقسم الآباء باسم أولادهم وليس باسم بناتهم. وتشعر البنات اللواتى

لهن أخوان بالعزة والمنعة أكثر من اللواتى لا إخوان لهن . ومن المألوف أن تحلف الفتاة باسم أخيها وليس العكس ولا يزال أبناء الريف يتخوفون من البنت خوفا من عارها . ومن الضرورى أن تجد العائلة لها زوجا ، وإذا دارت بعض الشائعات عن سلوك إحدى البنات فمن واجب أبيها وأخوتها وأبناء عمها أن يغسلوا العار الذى لحق بهم وفق ما تحدده التقاليد والأعراف ، كالقتل والدية والحشم وغيرها .

ويختلف لباس القرويين من منطقة إلى أخرى . ففى المناطق الجبلية كسورية ولبنان فإنها تتألف من السروال والمعطف والحزام والحذاء ، ويتألف فى السهول من ثوب بسيط تضاف إليه العباءة فى وقت الشتاء وفى بعض الأحيان تستعمل « الفردة » . ويختلف لباس الرأس اختلافا كبيراً من بلد عربى إلى آخر ومن طائفة دينية إلى أخرى كالطربوش والكوفية والعقال ، وكذلك الحال فى لبس المرأة ، فقد تشد منديلا يتدلى إلى الخلف ثم تضع الحلى والأقراط . ويتألف لباسها العام من ثوب طويل يتدلى فوق السروال الضيق الذى يمتد حتى القدمين . ويضاف إليها تنورة طويلة مثبتة عند الخصر كالنساء فى سورية ، أما لباس الرجال والنساء فى جنوب العراق ووسطه وفى الريف المصرى فبسيط جداً . فغطاء الرأس فى الريف المصرى الطاقية ولا تحمى الفلاح من الشمس. ويلبس «الجلابية» وهو الثوب الأزرق القطنى بدون رقبة وبدون حزام . وعندما يبدأ الفلاح المصرى بالعمل ينزع الجلابية ويظل بسروال واسع يغطى ساقيه مربوط فى الخاصرة بحبل صغير . ويحتفظ الفلاح بنعل يلبسه فى المواسم والأعياد ، ومن عادة النساء أن يغطين شعورهن بمنديل من شاش معقود من زواياه . وعندما يلتقين برجل يتحجبن أسفل الوجه بنقاب طويل أسود .

ويقل تعدد الزوجات فى الريف ، ولا يقدم أبناء الريف عليه إلا عندما تكون المرأة الأولى عاقراً ، أو أقعدها المرض عن أداء واجباتها المنزلية أو لم تنجب أولاداً . ويكاد ينحصر تعدد الزوجات على الشيوخ وكبار الملاكين لما لديهم من ثروات وأموال لأن الزواج مشروع باهظ جداً فى الريف .

(ج) كيان البيت العربى فى المدينة

استعرضنا بإيجاز مقومات كيان البيت العربى فى البادية والريف وبحثنا فى العلائق والروابط القائمة بين أعضاء البيت . ومن الضرورى الآن أن نناقش كيان البيت العربى فى المدينة وهو المرحلة الأخيرة من التطور الاجتماعى ، حيث يواجه كيان البيت العربى أزمة كبيرة من البلبلة وعدم الاستقرار . فقد يدعى البعض بأن البيت العربى فى المدينة يجتاز مرحلة انتقال فإلى أى مدى ستبقى هذه المرحلة ؟ وهل يعنى أن مرحلة الانتقال سيعقبها فترة استقرار أم وضعية البيت متحركة مندفعة ؟ الواقع أن كل شىء متصل فى كيان البيت متحرك ديناميكى . فالقيم والتقاليد والمواقف كلها فى تغير وتطور . ولكن درجة التغير بين أجزاء هذا الكيان ليست واحدة وسرعة الكيان ليست متساوية . فلا غرابة إذا كان البيت العربى فى المدينة أوربيا أو أمريكيا من حيث استعمال الآلات والأدوات كالمكنسة الكهربائية والثلاجة والتليفون والراديو والطباخ الكهربائى والمكوى الكهربائية وغيرها ولكنه لا يزال بدويا وريفيا فى قيمه وتقاليده ومواقف الأفراد بعضهم من بعض ، ولهذا فالبيت يعانى من موجة التخلف . فقد تغير البيت فى مظاهره المادية التى زادت من متارفه وراحة أعضائه ولكنه لا يزال محافظا فى مظاهره الروحية القيمية . وإذا سولت النفس لأحد

البيوت أن يخرج عن تلك القيم التى كنا قديما نعتز بها ونقدسها نعتبره بيتا مارقا شاطا عن الصواب . فالنزاع الذى يواجه البيت العربى فى المدينة إن هو إلا نزاع قيمى . بين قيم جديدة متصاعدة تريد أن تشق لها طريقا فى الحياة . وستبقى الحياة كذلك ، وهو سر الحياة فى التقدم والتبدل .

ما هى أعراض تفكك كيان البيت فى المدينة وما أسبابه ؟ :

لا يمكن تشييد الكيان العائلى إذا لم تتكامل رغبات المرأة ومواقفها مع رغبات ومواقف الرجل وتنسجم انسجاما يكفل تطمين تلك الرغبات والمواقف . ويعنى الانسجام اللاشعورى لقيم ارتضاها المجتمع . ولكن إذا جمدت تلك القيم ولم تعد تستجيب لرغبات الأفراد ومطامحهم فإن كيان البيت يتصدع وبناؤه يتفكك وينهار . فمن الملاحظ أن الوضعية الاجتماعية المحيطة بكيان البيت العربى فى المدينة فى حركة دائبة من التبدل والتغير . بينما تبقى مؤسسة البيت بقيمها وتراثها القديم الذى لا يتجاوب أبدا مع رغبات الأفراد وحاجاتهم .

والواقع أن تصدع البيت العربى فى المدينة ظاهرة معقدة تساهم فيها عوامل كثيرة تتفاعل فيما بينها ، كالاختراعات الجديدة ، وارتفاع مستوى الحياة ، وتحرر المرأة ، وطغيان الروح الفردية ، وضعف الوازع الدينى والخلقى ، وفقدان البيت كثيرا من وظائفه وفعالياته ، وانتقال أعمال البيت إلى مؤسسات أخرى كالمدرسة والمسرح ودور السينما والملاعب والحدائق والمقاهى والمخابز ودور التجميل والخياطين وغيرها . فكان من نتيجة ذلك أن كثرت حوادث الطلاق ، والانفصال والمنازعات ، وكثرت المياتم واللاجىء وجرائم الأحداث وجنوحهم ، ودور البغاء العلنى والسرى وازدادت الأمراض النفسية والعقلية وشاع الأدب الخليع وصار الجنس موضوعا قابلا للبحث والتحليل بعد أن كان من المواضيع المحاطة بالمحرمات الاجتماعية ، واعتمد الزواج على النزوات العاطفية وصار فى حد ذاته هدفا يحقق السعادة واللذة ، وانتقلت مراكز التأكيد فى العلاقات الزوجية من تقديس البيت كمؤسسة اجتماعية إلى تقدير العواطف والمشاعر الشخصية ، وتحررت المرأة اقتصاديا فشجعها هذا التحرر على الثورة ضد التقاليد والأعراف التى تؤيد سيطرة الرجل ، وأخذت المرأة تساهم الرجل وتنافسه فى كثير من المجالات . وطغت الروح الفردية وتكالب الناس على الانغماس فى المظاهر المادية من كيان البيت . فما هى الأسباب التى أدت إلى كل هذه الانقلابات فى كيان البيت فى المدينة ؟

١ — العوامل الاقتصادية والتكنولوجية .

٢ — الثورة الصناعية .

ويمكن أن نعتبر الانقلابات التى طرأت على كيان البيت العربى فى المدينة ناتجة من تبدل وسائل كسب العيش ووسائل الإنتاج التى بدلت فى الواقع كافة الواجبات والالتزامات التى كانت ملقاة على عاتق البيت باعتباره مؤسسة اجتماعية ، ولم يقف التأثير إلى هذا الحد بل تعداه إلى حجم العائلة وطبيعة العلائق والروابط القائمة بين الأزواج أو بينهما وبين أولادها . لقد انتقلت العائلة من البداوة إلى الاستقرار الزراعى وتدجين الحيوانات واستخدام بعض الآلات التى أدت إلى تأسيس القرية وتمكين البيت . فكان من نتيجة استعمال المحراث أن تركت العائلة الترحل والانتقال . ثم جاء دور القوة البخارية واستخدام الحديد والانتقال من الصناعات الحرفية اليدوية إلى الإنتاج

المصنعى بعد الثورة الصناعية فانتقل الإنتاج من البيت إلى المصنع فأعقبت تلك التبدلات فى وسائل الإنتاج الأمور التالية :

١ — صغر حجم العائلة وقلة عدد أفرادها .

٢ — زاد فى إمكانية المرأة وأكسبها مكانة أرفع من ذى قبل .

٣ — تضاءلت سلطة الرجل بالتدريج .

٤ — إنتقلت وظائف البيت التربوية والترفيهية إلى مؤسسات أخرى .

٥ — زادت نسبة الطلاق.

كانت العائلة فى القديم وحدة اقتصادية تكفى نفسها بنفسها ولكن سرعان ماتم الفصل بين البيت والمعمل وصار للرجل والمرأة على السواء محلان أحدهما البيت والثانى المعمل . فاضطر الاثنان إلى تناول بعض وجبات الطعام خارج البيت وترك أطفالهما فى دور الحضانة ورياض الأطفال . ولم يعد البيت محلا للإنتاج والاستهلاك بل أصبح مركزا للتوزيع والاستهلاك فقط . فشاركت المطاعم ودور الحضانة ورياض الأطفال البيت فى أهم وظائفه . وصارت المرأة هى التى تعين مدى الاستهلاك فى البيت فهى التى تشترى المواد والمؤن التى يحتاج إليها البيت . فكثرت متاعب الزوج والزوجة وازداد قلقهما . وصارت المقاهى والمطاعم ودور السينما محلات لقاء أفراد العائلة. لقد شجعت الثورة الصناعية تركز المدن وقيام الصناعات واكتظاظ السكان . ونشطت وسائل النقل فى المدينة حتى غدا العيش فيها عبئا ثقيلا بضوضائها وصخبها . واضطرت العائلات إلى سكنى الشقق فى العمارات دون أن يجد الأطفال فسحة للعب والتسلية . وصار إنجاب الأطفال ثقلا ماليا باهظا لا يستطيع الآباء الاضطلاع به ، فاضطروا إلى تحديد النسل وضبط الحمل . وصارت المرأة فى سبيل كسب القوت تحافظ على صحتها وأن تقنع بطفل أو طفلين . وزاد الاهتمام بالكماليات وتعددت الحاجات التى كثيراً ما تتجاوز حدود الدخل الفردى . وطغت موجة التقليد ، وصار الاهتمام بالعامل المادى الركن الأول لقيام كيان البيت، ووضع المجتمع فى المدينة تأكيده على المظاهر المادية كالبيت والأثاث وحلى المرأة والملابس والسيارة ، واعتبرها مقاييس موضوعية للاعتبار الاجتماعى .وكثر الاهتمام بالشكليات والمجاملات الفارغة . وصار الزواج صفقة تجارية تعقد بين الطرفين .

وليست الزراعة الوسيلة الرئيسية للمعيشة ، وليس البيت نواة واحدة متضامنة ، وإنما انقسم إلى وحدات متنافسة تشتغل فى مهن مختلفة : ولم تعد الأرض مصدراً للحياة ، وليست هنا لك صلة بين الإنسان وأرضه . وكان من نتيجة الثورة الصناعية أن ارتفع مستوى المعيشة ونمت المدن نموا سريعا على حساب الريف. وانتقلت الصناعات الحرفية اليدوية إلى الماكينات . وكانت العلاقة بين المال ورب العمل قبلا وثيقة وصميمة ولكنها فى المدينة صارت تعاقدية .

لا يمكن إذن أن نتعرف على التغير الاجتماعى الذى طرأ على البيت فى المدينة دون أن نأخذ بنظر الاعتبار الثورة الصناعية ونمو المدن ، وظهور الطبقة الوسطى وطغيان العلاقات المؤقتة الطارئة التى يتغلب عليها طابعا المهنة والمادة .

استقلال المرأة الاقتصادى :

بالرغم من أننا لم نقم بدراسات كافية عن العلاقة بين استقلال المرأة الاقتصادى وظواهر التصدع والتفكك العائلى فى البلاد العربية ، إلا أننا نقدر أن نفيد من الدراسات التى قام بها علماء الاجتماع فى كل من أميركا وأوربا ، إذ وجدوا بكل تأكيد ارتباطا إيجابياً بين تحرر المرأة الاقتصادى وازدياد نسبة الطلاق واستعمال وسائل منع الحمل وضبط النسل ، وهبوط معدل الولادات وصغر حجم العائلة وكثرة البغاء والأطفال الجانحين والمشردين وزيادة عدد الأطفال غير الشرعيين وإقبال النساء على الولادة فى المستشفيات وابتذال الجنس والأدب الخليع وانتشار نظرية فرويد وفكرة الدوافع اللاشعورية والكبت وعقدة أوديب وعقدة الكترا واستغلال الجنس فى دور السينما وغيرها.

وأدى استقلال المرأة الاقتصادى إلى ضياع سلطة الرجل، ولم يستطع الرجل أن يكيف نفسه بسرعة للتطورات الحديثة ، فأخذ يشعر بالحيف والغبن وظهرت المنافسة على السلطة بين الرجل والمرأة عاملا مهما فى تفكك البيت وتصدعه . وكان من نتيجة استقلال المرأة الاقتصادى الذى أخذت تتمتع به أن غيرت كثيرا من مواقفها نحو الزواج ، إذ طغت عليها العقدة الرومانتيكية . فوضعت شروطا قاسية للزواج فقل الإقبال على الزواج بسبب ما تطلبه الحياة من إعداد كبير . لقد أكسب الاستقلال الاقتصادى المرأة كثيراً من الاعتبار وعدم الاكتراث بالقيم الاجتماعية التقليدية واعتبرتها قيودا وضعها الرجال لصالحهم فقط . وصارت اللذة الجنسية والانسجام بين الرجل والمرأة عاملا مهما فى استمرار الحياة الزوجية وأخذت حوادث الطلاق تزداد لأتفه الأسباب .

الأسباب الاجتماعية :

الواقع أن الاضطراب والتصدع اللذين أصابا كيان البيت فى المدينة ظاهرة معقدة تتفاعل فيها عوامل كثيرة اقتصادية واجتماعية وحضارية . ولعل من أهم الأسباب الاجتماعية هى عامل زيادة السكان بسبب هبوط معدل الوفيات وزيادة معدل الولادات وذلك نتيجة لازدهار الطب والعلم وارتفاع المستوى الصحى والمعاشى ، ثم حركة هجرة السكان من الريف إلى المدينة ومن مدينة إلى أخرى بفضل وسائط النقل الحديثة مما سهل التصدع والانهيار . أن الهجرة عنيفة اليوم فى البلاد العربية من المناطق الفقيرة إلى المناطق الغنية ومن مناطق الزراعة إلى المدن الصناعية حيث الأجور العالية والظروف المعاشية المناسبة . ولم يكن استقرار المهاجرين فى المدن ناجحا إذ سكنوا فى الأحياء الفقيرة المهدمة الفاقدة للشروط الصحية والتى لا تصلح لسكنى العوائل والأطفال . وعندما جاءوا للمدن لم يكن لديهم خبرات ومهارات مما اضطرهم إلى كسب العيش بأية صورة كانت .

ورافق السكان وزيادتهم نهضة تسوية تطالب بالمساواة التامة المدنية والسياسية متوسلة بكافة الأسباب كالصحافة والإذاعة والسينما والصيام والإضراب وتشكيل النوادى والجمعيات . وظهرت المرأة تطالب بالتأكيد على وجودها الشخصى وتنادى بأنها ليست مجرد آلة لتفريخ الأطفال وتربيتهم . وصحب ذلك فى المدينة متاجرة بالجنس واعتبار العلاقة بين الرجل والمرأة مجرد اتصال جنسى .

وهكذا تغيرت القيم التى كانت فى البيت البدوى والريفى يعتز بها ويعتبرها أساسية لقيام كيان البيت . فقد كانت

العائلة فى الريف كما قلنا وحدة متضامنة أما فى المدينة فلكل فرد محل عمله وله ميزانيته الخاصة به . يكاد يختفى تعدد الزوجات فى المدن ويسود الزواج بامرأة واحدة .

ويمكننا القول بأن الانتقال من البادية والريف إلى المدينة يعنى انتقالا من كيان مستقر إلى كيان مضطرب متصدع ومن وضعية فيها الرجل المسيطر إلى وضعية تساهم فيها المرأة أو هى المسيطرة ، ومن الميزانية المشتركة للجميع إلى الميزانية المنفصلة الخاصة بكل عضو ، ومن البيت الكبير إلى البيت الصغير ، ومن البيت المنفرد لكل عائلة إلى الشقق والعمارات ، ومن بيت يقوم بكل الوظائف إلى بيت تساهم معه كافة المؤسسات فى وظائفه ، ومن احترام التقاليد والأعراف الاجتماعية إلى الاعتزاز بالنزوات الفردية . ومن وضعية يخضع الأفراد فيها إلى الضغط الاجتماعى إلى وضعية لا تمارس الجماعة أية سيطرة أو نفوذ على الأفراد .

ويعمل أفراد العائلة فى القرية سوياً وعند الحصاد يوزع رب العائلة الحاصل بالنسبة إلى حاجات أبنائه ويبيع قسما من الحاصل ويحتفظ بالباقى وإذا صادف وأن عمل أحد الأبناء خارج القرية فمن المنتظر أن يرسل إلى أبيه حصة الأسد من أجوره . ويدفع الأب إلى ابنه « المهر » ويقدر إليه المال اللازم ومن العسير أن يكون الابن ثروة مادام والده على قيد الحياة . أما فى المدينة فقد تغيرت كافة هذه الأمور .

تبدل وظائف العائلة فى المدينة :

غيرت الحياة فى المدينة الوظائف التقليدية التى كان البيت يقوم بها سابقا ، إذ انتقلت منه إلى مؤسسات أخرى وأهم تلك الوظائف هى :

١ — الوظائف الاقتصادية :

كان البيت فى الريف ولا يزال إلى حد ما يقوم بإنتاج ما يحتاج إليه من الطعام والمؤن ولكن اليوم فى المدينة أخذت المعامل والمصانع من البيت هذه الوظيفة ، حتى أخذت الأطعمة المعلبة تغزوه . ولم تعد المرأة تقضى الساعات الطويلة فى إعداد الغذاء مثلما كانت أختها سابقا تعانى أنواع المصاعب ، فما عليها اليوم إلا أن تضغط على الزر الكهربائى . وشاع استعمال الوسائل الحديثة كالثلاجة والمطبخ الكهربائى والمكنسة الكهربائية والمكوى الكهربائية والغسالة الكهربائية . فكثر بذلك وقت الفراغ لدى المرأة وصارت تقضيه فى مختلف وسائل التسلية كالراديو والسينما والمسارح وغيرها ، وصارت تطالب بالمساواة الاقتصادية والسياسية . فليس البيت كما كان قديما يستهلك وقتها ويستنزف جهدها . وصارت تشترى الخبز واللحوم والخضروات والفواكه والمخللات والمربات من السوق بعد أن كان البيت نفسه يقوم بها . وانتقل التجميل من البيت إلى دور التجميل ، وصارت المرأة تقصد الخياطين والخياطات لعمل ملابسها ومعارض الموبيليات لشراء أثاثها .

٢ — الوظائف التربوية ورعاية الأطفال :

كانت رعاية الأطفال وتربيتهم من أقدس واجبات البيت ، ولكن فى المدينة انتقلت هذه الواجبات إلى دور الحضانة ورياض الأطفال والمدارس . فكان الأب يعلم ابنه صنعته ومهنته وتعلم المرأة ابنتها إدارة البيت . حتى صار الآباء يشعرون بأن تقويم أخلاق أولادهم من اختصاص تلك المؤسسات وليس من واجباتهم . وصار البيت مؤسسة ثانوية بالنسبة للأولاد الذين يقضون معظم أوقاتهم ولا يعودون اليها إلا عند الغروب .

٣ — الوظائف الدينية :

وكان تعليم الأطفال الفرائض الدينية من اختصاص العائلة ، إذ يشاهد الولد أو الفتاة أباه وأمه يؤديان تلك الفرائض ويلقنانه إياها ، حتى إذا صار رشداً مارسها . أما فى المدينة فقد ألقى الآباء هذه المسئولية على عاتق المدرسة التى لم تقم بهذا الواجب . ولهذا نشأ جيل مضطرب بدون توجيه دينى ، بل إن الدين لم تعد له السلطة السابقة فى الهيمنة على مشاعر الناس باعتباره وسيـــلة من وسائل السيطرة الاجتماعية ، فضعف الوازع الدينى عند الفتى والفتاة على السواء .

٤ — الوظائف الترفيهية :

كان البيت قديما مركزاً للتسلية وقضاء أوقات الفراغ فى قصص المغامرات والبطولة والحب والغناء والرقص والنوادر والفكاهات والاحاجى وغيرها ، أما الآن فيقضى كل أفراد العائلة أوقات الفراغ فى المؤسسات التجارية التى تتاجر وتربح فى عرض الروايات التى تستغل الدوافع الأساسية للانسان وتلعب على عواطفه كدور السينما والمسارح والمقاهى والتلفزيون ، حتى أن أفراد العائلة فى ذهابهم للسينما يختار كل فرد الرواية التى تناسبه ، فالأولاد يفضلون نوعا خاصا بينما يميل الكبار إلى نوع آخر . وهكذا يتفرق أعضاء العائلة الواحدة حتى فى التسلية والترفيه .

وبالرغم من كل هذه التبدلات والتغيرات التى حدثت على كيان البيت العربى فى المدينة فلا يعنى أبدا أن الصورة التى رسمتها سوداء قاتمة ، إنما هى خيوط التيار الجارف الذى سيغمر البيت فى المدينة . ومع ذلك فلا يزال يقوم بوظيفتين أساسيتين هما الطمأنينة العاطفية والجنسية وإنجاب الأطفال اللتين تعتمدان على وجود بعض الأهداف المشتركة .

إن من يزور المحاكم الشرعية اليوم فى كل بلد عربى يرى بأم عينيه أعدادا هائلة من الأزواج ، والزوجات يريدون الانفصال بعضهم عن بعض لأسباب كثيرة كلها انبثقت من المدنية فقد أوجد الإنسان المدنية لكسب الراحة والطمأنينة ولكنه سرعان ما اكتشف بأنها أصبحت سبباً فى شقائه وبؤسه فالعلاقات فى المدينة سطحية وطارئة ومؤقتة ، والزواج فيها مبنى على التخمين والتقدير الحسابى بأنه صفقة تجارية ، وقيمة الإنسان تقاس بمقدار مافى حوزته من مادة .

وفى المدينة تأخر سن الزواج لكل من الرجل والمرأة ، فلا يقدم الرجل على الزواج دون أن يعد نفسه إعداداً

مهنيا كافيا ، ولا يتم ذلك إلا بعد أن يفرغ من تعليمه ، فتكون الفترة التى سبقت الزواج مملوءة بالثقافة الجنسية. وتحاول المرأة أن تنافس الرجل فى كل مضمار ، ولا تنتهى من منافستها هذه إلا بعد أن تكون قد قطعت شوطا طويلا من عمرها . وعندما يتأخر سن الزواج يقل عدد الأولاد وتصل المرأة سن اليأس بعدفترة قصيرة من الزواج وزاد اهتمام المرأة بجمالها ورشاقتها وهى فى سبيل ذلك تكره أن تتفرغ للبيت وإدارته ورعاية الأطفال وإلى الحمل والولادة . وكثر التصنع فى التجميل وازداد عرض مفاتن المرأة وإغراؤها اللذين لا وجود لهما فى حياة المرأة البدوية والريفية .

وفى المدينة كثرت الأمراض النفسية والعصبية بين النساء خاصة بينما تقل أو تنعدم فى الريف وذلك نتيجة لكل الأسباب التى ذكرناها ، فهى فى صراع عنيف بين الطمأنينة الجنسية والأمومة وواجبات البيت .

هذه خلاصة موجزة لكيان البيت العربى فى ثلاث مراحل اجتماعية متعاقبة : البداوة ، الاستقرار والحضارة ، جئنا فيها على بعض الخطوط الأساسية ، بقدر ما يتسع لها المقام . ومما لاشك فيه أن الصورة التى قدمناها عن المدينة مشوهة وقاتمة ولكنها فى الواقع حقيقية . ولقد بذل علماء الاجتماع قصارى جهودهم لحل الأزمة الاجتماعية والنفسية التى تمر بها العائلة واعتبروها أزمة خطيرة جديرة بالبحث وبإيجاد الحلول. ولما كان موضوع البحث مقتصرا على الوضع القائم كما هو فلا مجال لبيان عرض الحلول المقترحة .

الأمومة والبنوة فى البيت العربى

للدكتور محمد خليفة بركات

(الجمهورية العربية المتحدة)

١ — الأسرة والمجتمع :

الأسرة وحدة المجتمع وهى أهم الأنظمة الاجتماعية التى تدور حولها حياة الإنسان . . . وتتكون الأسرة عادة من الوالدين والأبناء وغيرهم ممن ينتمون إليهم بصلات عائلية بيولوجية بحيث يقيم الجميع عادة فى بيت واحد يعتبرونه المأوى الذى يستظلون بجـــوه الاجتماعى ويستمدون منه الشعور بالمحبة ويكون لهم بمثابة المنبع للاحساس بالأمن والاطمئنان . . .

وتتخذ الأسرة صوراً كثيرة بحسب عدد أفرادها وأنواع الصلات التى توجد بينهم ، كأن تتسع دائرة الأسرة فتشمل الجدود والأحفاد أو أن ينتمى إلى الأسرة بعض الأقارب والأصهار ممن لايستطيعون الإقامة وحدهم .

وللأسرة وظائف عدة أهمها التناسل وتنشئة الصغار فى مختلف مراحل نموهم وتربية الأفراد ورعايتهم والدفاع عنهم وحمايتهم وتنظيم حياتهم من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والدينية .

وفى مجتمع الأسرة ينشأ الفرد وينمو وتتشكل شخصيته بما يتأثر به من التفاعلات الاجتماعية والمايير الخلقية التى يتعرض لها ، ومن الثابت فى علم النفس أن الطابع العام الذى يتكون من مؤثرات الحياة المنزلية للشخص هو الذى يميز صورة حياته المستقبلة إلى حد بعيد وإن كانت هذه الصورة تتعدل بمؤثرات البيئة الأخرى .

وتتمثل فى حياة الأسرة صورة نظام الحياة فى المجتمع الذى تنتمى إليه ولذا يتوقف طابع الأسرة ونظام حياتها على العوامل التاريخية والجغرافية للمجتمع التى هى جزء منه . ويؤكد لنا علماء الأنثربولوجيا هذه الحقائق ، فقد أثبتت دراساتهم المقارنة لحياة القبائل والشعوب المختلفة أن طابع البيئة ونظام المجتمع ينعكس على نظام الحياة فى الأسرة وبالتالى على الطابع المميز لشخصيات أفرادها .

والمثال على ذلك ماقدمت به مارجريت ميد فى دراستها للقبائل الثلاث أرايش ومنديوجر وتشامبولى والتى استخلصت منها أن طابع الحيـــاة فى الأسرة يختلف فى كل منها عن الآخر بحسب طبيعة البيئة . فالقبيلة الأولى من النوع المسالم الهادىء الذى يتساوى فيـــه الرجل والمرأة ويعزى ذلك إلى طبيعة البيئة الجبلية التى تقوم الحياة فيها على الرعى والزراعة . . . بينما القبيلة الثانية من النوع المملوء بالتشاحن وحب العدوان

والخشونة والذى نلمس فيه هذه الصفات فى كل من الرجل والمرأة ويعزى ذلك إلى طبيعة البيئة التى تكثر فيها الغابات وتقوم فيها الحياة على الصيد والقنص ومايتبع ذلك من جرأة وقتال ودفاع .. أما القبيلة الثالثة ففيها تقوم الزوجة بدور كبير فى الحياة يجعل لها السيطرة والقيادة فى الأسرة ويعزى ذلك إلى طبيعة هذه البيئة الساحلية التى تقوم الحياة فيها على صيد الأسماك فيقع عبء المسئولية على النساء فى إدارة شئون الحياة الاقتصادية للأسرة .

٢ — الأسرة فى الاسلام :

تمتاز الأسرة فى البلاد العربية بأنها من النوع الذى يكون فيه الرجال قوامين على النساء . وربما كان هذا مرتبطا بنشأة الإسلام فى بلاد تقوم فيها الحياة على الزراعة والرعى . . . ولذا تحتاج فى تنظيم حياتها إلى منظم يدير شئونها وإلى تقسيم العمل بطريقة تجعل للمرأة اختصاص رعاية الأطفال وتنظيم شئون البيت وللرجل اختصاص تنظيم الحياة الاقتصادية للأسرة وحمايتها من الأخطار .

وينسب الأبناء فى الأسرة الإسلامية إلى آبائهم ويشجع الإسلام كثرة النسل وذلك أيضا يناسب حرفة الزراعة التى تحتاج إلى كثير من الأيدى ولأن كثرة النسل تعطى الأسرة قوة وعصبية تفاخر بها غيرها . . . وقد قال تعالى « ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

وتتميز الأسرة فى الإسلام بالترابط والتعاون بين أفرادها ويبدو ذلك واضحا جلياً فى احتفالاتهم بالمناسبات العائلية كالميلاد والزواج والوفاة وغيرها .

ويهتم الإسلام ببناء الأسرة وضرورة حسن الاختيار قبل الزواج « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » ووضع الإسلام قيوداً لاختلاط الجنسين بما يضمن الاحتفاظ بالشرف للأسرة ويضع عقوبات مشددة لجرائم اختلاط الجنس غير المشروع . .

وينظم الإسلام العلاقة الزوجية والعلاقات الاقتصادية فى الأسرة كنظام الوراثة والمحافظة على الحقوق المدنية لكل من الرجل والمرأة والأبناء . . . ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو طبيعة كل من الجنسين وبما يكفل صالح الأسرة وصالح المرأة نفسها . . . فقد فرق الأسلام بين الرجل والمرأة فى الأعباء الاقتصادية وفى الميراث وفى القوامة على البيت إذ ألقت الشريعة الإسلامية على كاهل الزوج التكاليف الاقتصادية لتكوين الأسرة قبل الزواج وبعد الزواج .

وفى الميراث جعل الإسلام نصيب الذكور أكبر من نصيب نظائرهم من الأناث « فللذكر مثل حظ الانثيين » وقد بنيت هذه التفرقة على أساس التفرقة بين أعباء الرجل وأعباء المرأة فى المسئولية الاقتصادية للأسرة .

وقد أعطى الإسلام الرجل حق القوامة على المرأة فى قوله تعالى « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

أى أن هناك أمرين يبرران هذه القوامة . الأمر الأول يرتبط باختصاص الرجل بالانفاق وبتحمل المسئولية الاقتصادية للمرأة . . والثانى مبنى على الفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة إذ أن المرأة مرهفة العاطفة قوية الانفعال...

على حين أن الرجل أقل اندفاعا ويغلب عليه الإدراك والتفكير أكثر مما يغلب عليه الانفعال .

وقد حرص الإسلام على تنظيم هذه القوامة بما يكفل مصلحة الأسرة ومصلحة المرأة أيضاً بما وضع من التنظيمات والحدود لهذه القوامة ومما يقابلها من مسئولية الرعاية والحماية والإعداد بكل ما تحتاجه فى حياتها وقد نظم الإسلام مراحل تكوين الأسرة المختلفة بما وضعه من نظم للزواج والطلاق وتنظيم تربية الأطفال وما يتبع ذلك من مشكلات مختلفة .

٣ — معنى الأمومة والبنوة :

سنتناول فيما يلى موضوع الأمومة والبنوة من نواحيه البيولوجية والسيكلوجية مستندين فى الآراء التى سنذكرها إلى البحوث التى قام بها العلماء على الحيوان والإنسان فى دراساتهم لدوافع الأمومة والفروق الفردية فى قوة هذه الدوافع والآثار المترتبة على ذلك فى معاملة الطفل أثناء نموه فى المراحل المختلفة وسنبين كذلك أن شخصية الطفل تتأثر كثيراً بنوع شخصية الأم وأن سعادتها واتزان شخصيتها تنعكس على حياة الطفل .

وسنتناول أيضا موضوع البنوة من حيث حاجة الأم إلى البنوة كحاجة الأبن إلى الأمومة موضحين ذلك بأمثلة من حالات واقعية للأم التى حرمت البنوة .

الأسس البيولوجية للأمومة :

الأمومة ظاهرة بيولوجية تنظمها فسيولوجية التكوين الجسمى بطبيعة الفطرة عند كل من الإنسان والحيوان إذ أنها أداة حفظ النوع والتكاثر ... ويمكن أن تلاحظ هذا الدافع وتأصله فى كل من الحيوان والإنسان كما يتضح من الأمثلة الآتية :

١ — هناك ظواهر بيولوجية مرتبطة بعملية الحمل ويبدو ذلك فى تهيؤ الأنثى للحمل نتيجة بعض التغيرات الفسيولوجية التى تترجم إلى حالات من التوتر الجنسى . . . وتخف حدة هذا التوتر بعد حدوث الحمل كما يشاهد فى كثير من الحيوانات .

أما فى الإنسان فقد لوحظ أن هناك حالات كثيرة للاضطراب النفسى عند بعض الإناث اللاتى يحرمن من الحمل تدل على أن الحمل فى ذاته يؤدى وظيفة بيولوجية ويشبع حاجة نفسية طبيعية عند الإناث .

٢ — ويلاحظ كذلك أن إناث بعض الحيوانات تلجأ إلى بناء جحر أو عش تلد فيه صغارها وتعلل هذه الظاهرة بأن درجة حرارة الام تنخفض قليلا قبيل الولادة نتيجة بعض الافرازات الهرمونية فتندفع من تلقاء نفسها إلى تجهيز المأوى ليساعدها على الاحتفاظ بدرجة الحرارة المناسبة لها ولصغارها .

وفى الإنسان قد لوحظ أيضا أن الأم ينتابها شعور خاص عندما تكون على وشك استقبال طفل جديد وهذا الشعور يكون فى الأحوال العادية مزيجاً من البهجة والسرور مع إحساس بالرغبة والتحمس لإعداد كل ما يلزم لهذا الصغير من وسائل الراحة .

٣ ــ لاحظ العلماء أن أنثى الفيران لديها دافع قوى إلى العناية بصغارها المولودين حديثاً . وإذا حيل بينها وبين صغارها فإنها تحاول أن تتخطى العقبات وتخترق الحواجز وتعانى فى سبيل ذلك آلاما جمة . . . ولا يتوقف نشاطها وقلقها حتى تصل إليهم ثم تعود بهم إلى جحرها . . . وقد وجد أن هناك مؤثرات فسيولوجية معقدة تدفع أنثى الفئران إلى هذا السلوك تجاه صغارها . وهرمونات الرضاعة تعتبر إحدى هذه المؤثرات . . . ولو أن أنثى فأر عذراء حقنت بهذا الهرمون فأنها تبدأ فى رعاية بعض صغار الفيران كما لو كانت أما . . . بل أنه لوحقن أحد ذكور الفيران بهذا الهرمون فانه يأتى نفس السلوك . وإذا فكان الإنسان والحيوان يشتركان فى مظاهر الأمومة التى تتمثل فى التغييرات الجسمية المصاحبة للحمل والولادة والرضاعة فانه من الضرورى أن نؤكد أن رعاية الأمهات لاطفالهن تتفاوت تفاوتا كبيراً تبعا لتكوينهم الطبيعى ولاختلاف الحضارات التى ينشأ فيها وتبعا لما يلقين من تعلم واكتساب بحيث لا يمكن تفسير ظاهرة الأمومة فى الانسان على الأسس البيولوجية وحدها .

الفروق الفردية فى قوة الدافع الفطرى للأمومة :

دلت الملاحظات والدراسات التتبعية للأمهات أن بعض النساء يكون لديهن بالفطرة دافع قوى للأمومة بينما البعض الآخر يكون عندهن هذا الدافع ضعيفا . . وأن هناك درجات متفاوتة من قوة هذا الدافع . وقد وجد علماء النفس أن هذا يؤثر كثيراً على تنشئة الطفل .

فبعض الأمهات ينشأن منذ طفولتهن على قدر كبير من الأمومة بحيث يظهر أثر ذلك فى كل تصرفاتهن لدرجة تجعلنا نقول عن إحدى الأمهات أن هذه تمثل الأمومة الكاملة بأعلى معانيها . . بينما ينشأ البعض الآخر ولديه ضعف فى هذا الدافع بالرغم من تمرينهن وإعطائهن الكثير من التوجيهات للأمومة الصحيحة ويظهر هذا الضعف أحيانا بدرجة تجعلنا نقول عن إحدى الأمهات أن هذه السيدة لم تخلق لتقوم بدور الأمومة . .

وقد وجد الباحثون فى نفسية الحيوان أيضاً أن هذه الفروق الفردية فى دافع الأمومة موجودة أيضاً عند الإناث من القردة . . حيث نجد أن بعض الأمهات تهمل أطفالها بينما نجد البعض الآخر يغالى فى رعايتهم .

وقد قام أحد علماء النفس ببحث يرمى إلى تحليل أسلوب عدد من الأمهات من حيث درجة الأمومة عندهن عن طريق الاستفتاءات والاختبارات والمقابلات الشخصية والملاحظات المختلفة وبعد جمع هذه البيانات عن ٤٠٠ امرأة استطاع أن يتوصل إلى تقسيمهن إلى فئات مختلفة من حيث قوة دافع الأمومة عندهن .

وفيما يلى وصف لأمثلة من سلوك اثنتين من الأمهات إحداهما تمثل الأمومة القوية والأخرى تمثل الأمومة الضعيفة ومنها يمكن أن نتبين الحالات المتوسطة فى درجات قوة الدافع للأمومة :

مثال للأمومة القوية .

هذه أم لأربعة أطفال عندما كانت طفلة كان أحب ألعابها العناية بالعرائس من حيث إلباسها ووضعها فى السرير واستمرت تلعب بالعرائس إلى أن بلغت سن الخمسة عشر عاما . وكانت تحب زيارة أصدقاء أمها ممن لهن أولاد لتعنى

بهم وترعاهم فى أوقات الزيارة . . ولما كبرت كانت تتمنى أن يكون لها ست أولاد وأن تلدهم فى مقتبل عمرها لتستطيع رعايتهم . وكانت أحيانا عندما ترى طفلا صغيراً أثناء سيرها فى الطريق تقف وتذهب إليه لتلاطفه وتحمله بين ذراعيها... وكانت فى علاقاتها بالكبار تعاملهم بشىء من الرعاية والحنان الأبوى الذى يظهر منها أكثر مما يرغبون .

وقد كان لابنها الأول مرضعة ولكنها ضاقت بها وتخلصت منها لأنها كانت تشعر بأنها تنازعها اختصاصها فى رعاية الطفل ولا تعطيها الفرصة الكافية لإشباع دافع الأمومة عندها .

وفى أيام الولادة كانت تعيب على المستشفى عدم وضع الطفل مع أمه فى حجرة واحدة وفى كل أولادها كانت ترضعهم من ثديها رضاعة طبيعية وترى فى ذلك لذة كبيرة وكان لبنها كافيا للطفل عادة . وكان زوجها يشكو من عدم تفرغها لشئونه وتركيز معظم نشاطها فى رعاية الأولاد يل وكان يعيب عليها دائما أنها تدلل أطفالها وكان يرى أنها تحاول أن تقاوم حنانها الزائد أحياناً بالتظاهر بالشدة فى معاملة الأطفال ولكنهم كانوا يشعرون بحقيقة حنانها الأصلى .

مثل للأمومة الضعيفة :

هذه أم لطفلين فقط لم تلعب فى طفولتها أى لعبة تمت للأمومة بصلة ولم تكن تحاول أن تداعب الأطفال أو تحسن إليهم وكانت هواية اللعب بالعرائس ضعيفة جداً لدرجة أنها تركتها عند سن ست سنوات تقريباً وعندما كانت ترى طفلا فى الشارع لم تكن تهتم به أو تحاول مداعبته وعندما كبرت لم تكن تفكر كثيراً فى حياة الأمومة وبالرغم من أنها كانت تؤمل الزواج إلا أنها لم تكن تهتم كثيراً بأن يكون لها أولاد .

وكانت تشعر كأم بأنها ليست ناجحة فى معاملة أبنائها وكانت تبعد الطفل عن ثديها بعد أسبوعين فقط من الولادة لأنها لم تكن تحب إرضاع الاولاد .. وتقول أنها كانت تشعر وهى ترضع الطفل بأنها أشبه بالبقرة التى ترضع عجلها ، وكانت لا تهتم كثيراً بالرعاية الجسمية للأطفال بالرغم من أنها تحب أن تؤدى واجباتها الأخرى ولم تكن علاقتها بالرجال مشوبة بالحنان الأمومى بل كانت جنسية أكثر من أى شىء آخر ولذا كانت محبوبة جداً من الرجال.

ومما يؤيد نتائج هذه الدراسة مقارنة هذه النتائج من الناحية البيولوجية المرتبطة بالأنوثة والأمومة وهى ظاهرة « الطمث » حيث دلت نتائج هذا البحث على أن معامل الارتباط بين قوة دافع الأمومة بناء على التحليل السابق وبين مدة الطمث أو العادة الشهرية قد وصل إلى ٥٨٪ مع خطأ محتمل قدره ٠,٠٨ .

ومعنى ذلك أن معظم الأمهات اللاتى لا تستمر عندهن مدة الطمث أكثر من أربعة أيام يمكن أن يعتبرن من الضعاف فى دافع الأمومة وأن معظم الأمهات ممن يستمر عندهن الطمث ستة أيام أو أكثر يمكن أن يعتبرن من الأقوياء فى دافع الأمومة .

الأسس الغريزية للأمومة :

لاحظ علماء النفس أن العلاقة بين الأم وطفلها علاقة غريزية متأصلة فى النفس إذ أن مظاهر هذا السلوك الغريزى واضحة فى الحيوان والإنسان وإن كانت تتخذ مظاهر فى تعقدها وبساطتها باختلاف الرتبة الحيوانية .

فمن المشاهد أن الأم فى بعض الحيوانات تتجول بحثا عن طعامها وطعام وليدها وهى إما أن تتركه فى مكان أمين لحين عودتها إليه وإما أن تصحبه معها فى جولاتها بحيث لا يفارقها إن كان قادراً على الحركة . وفى كلتى الحالتين تحدث تصرفات غريزية متشابهة فى أفراد كل نوع وتكاد تكون روتينية منظمة تنظيما دقيقا .

ففى الطيور مثلا يترك الصغار فى العش لحين اكتمال نمو حواسها وتظل الأم تواصل التردد على العش بما تحمله من الطعام المناسب إلى أن يتم النضج اللازم ثم تتعهد الصغار بتعليمهم الطيران وتصحبهم معها بعد ذلك حتى يصبحوا قادرين على الاستقلال .

وفى الحيوانات المميزة كالبقرة مثلا نشاهد أن الأم حين تصحب عجلها فى الرعى والبحث عن الطعام تحنو عليه وتحافظ عليه من الأخطار ولا تفارقه إطلاقا . وبالرغم مما قد يكون فى قطيع الأبقار من عجول كثيرة فإن كل أم قادرة على تمييز أبنائها وكل عجل يستطيع أيضا أن يحس وجود أمه بحيث يكون عادة ملاصقا لها ولا يتركها . .

وفى جميع هذه الحالات سواء فى الطيور أو الأرانب أو الأبقار أو القردة أو غيرها من الحيوان وجد أن سلوك الأم إزاء الطفل يحدث بطريقة من شأنها أن تبعد عنه الأذى والخطر . وتحرص الأم على عدم إيذاء طفلها أثناء رعايتها له بمختلف الوسائل فالدجاجة عندما تحيط كتاكيتها بجناحيها تحاول ألا تؤذى أحداً منهم والأرنبة عندما تنام لترضع صغارها تحتاط فى حركاتها بحيث لا تؤذى أحد صغارها والبقرة عندما تجرى مع طفلها قد تركله برجلها من غير أن تؤذيه . . . والقطة حينما تحمل صغارها بين أنيابها لتنقلهم من مكان إلى آخر لا تسبب أى ضرر بهم .

أى أن الطبيعة قد زودت الأم بحواس مختلفة وبفطرة غريزية تجعلها تحافظ على وليدها وتعمل على وقايته من جميع الأخطار .

ولا تقف هذه المحافظة على مجرد الحرص من عدم إيذاء الأم للطفل أثناء رعايته وإنما تحرص على وقاية أولادها من الأخطار الخارجية . وهى تضحى فى ذلك بكل قوتها وتقاتل من أجل صغارها لتدفع عنهم الأعداء . والامثلة على ذلك كثيرة، فالكلبة لاتسمح لأحد بالاقتراب من صغارها . . . والحمامة لا تترك عشها بصغارها عند الاعتداء عليها وغالبا ما تموت بسبب حرصها على الدفاع عنهم .

والمشاهد فى هذا السلوك الغريزى أن الطبيعة قد هيأت الأم وهيأت الصغار أيضا بالوسائل التى تعين على تحقيق حفظ حياتها . . فصوت الكتاكيت وصياح صغار الحيوان وبكاء الطفل . . وغيرها . . كلها وسائل للاستغاثة وإشعار الأم بالخطر وندائها للدفاع عن الصغار .

وهذه الحقيقة واضحة فى الكثير من العلاقات بين الطفل وأمه تلك العلاقة المتبادلة التى تهدف إلى حفظ النوع واستمرار حياة الجنس .

فإذا لاحظنا الحمامة وهى تطعم صغارها تجد أنها تقدم لهم منقارها وهم أيضا يحاولون البحث عن منقار الأم وتأتى الأم بحركات معينة لإطعامهم والصغار أيضا يأتون بحركات مناسبة لابتلاع الطعام . . فهناك إذن نشاط

من الناحيتين . . وكذلك البقرة حينما تغير موضعها لإرضاع عجلها يقوم العجل أيضا بالبحث عن الثدى ويقوم بعملية الرضاعة بنفسه . أى أن الأمومة والبنوة سلوك غريزى هيأته الطبيعة فى كل من الأم والطفل معاً .

الانفعالات المصاحبة للأمومة :

لا تقف مظاهر الأمومة على مجرد إشباع حاجة الطفل من الطعام عن طريق الرضاعة أو تزويده بالطعام ، وإنما الأمومة أيضا لها مظاهر نفسية كثيرة تتضح فيما تشاهده من مظاهر الحنو والعطف على الابن وما يصحب ذلك من انفعالات نفسية بحسب المواقف المختلفة .

وتظهر هذه الانفعالات بوضوح فى الحيوان عندما نشاهد الأم فى القردة مثلا تمسك بطفلها بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها وتتجول به بين الأغصان والأشجار مزهوة به مسرورة بصحبته . .

وتشاهد انفعال الحنان عندما يحيط الطائر صغاره بجناحيه مرفرفا عليهم . . . وتشاهد هـذه الانفعالات أيضاً فى بعض أمهات أيضاً عندما تلعقن بلسانهن أطفالهن وتلاطفنهن . . . وطبيعى أن يـكون هذا الانفعال واضحا بمظاهر متعددة فى الأم فى الإنسان .

ولا يقتصر شعور الأم إزاء طفلها على مجرد هذا الانفعال وهو الشعور بالحنان وإنما الأمومة تتعدد مظاهرها الانفعالية بحيث تصبح عاطفة قوية ذات مظاهر متعددة . . فالأم تستريح لراحة طفلها وتغضب عندما يغضب وتخاف عليه من الأخطار وتشعر بالاستـكانة والضعف عندما يصيبه المرض ولهذا نجد أن الطفل يصبح بالنسبة للأم جزءاً منها وترتبط فى حياتها الانفعالية بما يصيبه من خير أو شر وما ينتابه من فرح أو حزن .

وهذه المظاهر الانفعالية للأمومة تعتبر من الاستعدادات الفطرية التى تمتد آثارها إلى أكثر من مجرد العناية بالطفل الوليد . . فقد لوحظ أن بعض الأمهات فى الحيوان تستطيع أن ترعى أطفال غيرها وأن تحنو عليهم أيضاً . كما أن بعض الأمهات فى الإنسان يرضعن أطفال غيرهن ويبدين من الحنان ما يقرب من حنانهن الطبيعى على الأبناء . . بل أن من يقوى عندهن هذا الدافع يمكنهن توجيه الحنان والعطف إلى معاونة الضعفاء والبر بالفقراء والعطف على الصغار عمرما كما فى السيدات المشتغلات بالتدريس والتمريض والخدمة الاجتماعية العامة . فإن هـذا السلوك يعتبر امتداداً للدافع الفطرى المستمد من حنان الأمومة الطبيعى .

هذا ولابد من الإشارة إلى أن رعاية الطفل وحمايته والاهتمام بشئونه قد يكون أمراً مشتركا بين الأم والأب فإن اشتراك الأب فى هذه النواحى لا يكون بنفس القوة كالأم . . ففى الحمام مثلا يتبادل الأم والأب إطعام الصغار ومع ذلك فالأم عادة أكثر انتظاما وأكثر مثابرة . . ولهذا فالأبوة ليست بنفس قوة الأمومة فيما يتصل بالعناية بالأبناء وإن كانت هناك مظاهر أخرى للأبوة تبدو بوضوح فى مسئوليات الآباء عن الأبناء فى حالة الإنسان .

ولـكن الذى يؤكده علماء النفس هو أن مهمة حفظ النوع مسئولية كبرى ألقت الطبيعة عبئها على الأم والأب معا ولـكن مسئولية الرعاية والأمومة هى التى تساعد على استمرار حياة الطفل الضعيف منذ نشأته إلى أن ينضج ، وإذن فالأمومة غريزة فطرية هدفها حفظ النوع وهو أسمى أهداف الحياة .

الصفات المميزة للأمومه :

إن الذى يلاحظ أسلوب الأم فى حياتها يجدها مطبوعة على صفات مميزة لها مستمدة من وظيفة الأمومة . ومن أبرز هذه الصفات :

الجهاد والصبر . وتحمل المشاق فى سبيل الأبناء . . . ثم العطف والحنان الذى يشعر الوليد بالاطمئنان والأمن والراحة النفسية . . وأهم من كل ذلك أن سياستها فى معاملة ابنها ثابتة فهى تظل تحب ابنها حتى لو أغفل عنه الأحباب فتضع قلبها حيث يرقد وتتابعه بعطفها أينما يتوجه وتشاركه شعوره ولا تنسى مصالحه ولا تغفل عن معونته ولا تمل رعايته فى أوقات مرضه . . إنها مصدر العطف والحنان الشامل فى كل مراحل حياة الأبناء .

وقد وهبت الأم القدرة على العدالة فى معاملة الأبناء فهى تحبهم جميعا ويحبونها جميعاً وتحرص على راحة كل منهم وتود لهم الوفاق ويسرها أن تراهم متعاونين وتشعر بالقلق إذا وجدتهم متخاصمين ويؤلمها أن تراهم مختلفين . . وهى تتمنى لهم النجاح ويسرها تفوقهم ويؤلمها فشلهم ولا تألو جهداً فى مساعدتهم على تخطى العقبات . مضحية فى ذلك بما تملك من جهد ومال ووقت دون أن تنتظر جزاء أو أجراً .

وبينما يتصف الأب فى نظر أبنائه بالهيبة والوقار والتفانى فى العمل لكسب الرزق وأنه مصدر السلطة الذى يوقع العقاب ويوجه السلوك . . نجد أن الأم قريبـــة إلى قلوب الأبناء . . أكثر تفاهما معهم . . ولذا كثيراً ما تكون مستودع أسرارهم . . ووسيلة للإفضاء بما فى صدورهم وما يشغل أذهانهم . . مما يؤدى إلى تخفيف متاعبهم .

وقد ثبت أن طبيعة الأم تجعلها حريصة على إسعادهم ولا تطيعها طبيعتها على الأضرار بالأبناء تحت أى ظرف من الظروف . . بل أنها تضحى فى سبيلهم .. وليس لهذه التضحية من أجل الأبناء حدود فهى مستعدة للتضحية بمطالبها الشخصية وبآمالها ومطامعها الخاصة وراحتها وبوقتها وهواياتها وصحتها فى سبيل الأبناء .

وتحاول الأم قدر طاقتها أن تنشىء أبناءها على المبادىء الخلقية التى تعتقد فى سلامتها وهنا يتأثر الأبناء كثيراً بنوع شخصية الأم ومدى تعليمها وإعدادها للأمومة الناجحة .

مدى تأثر الابن بشخصية الأم .[1]

وكذلك أسلوب الأم فى عقاب الطفل وجزائه أو مكافأته ولتشجيعه والحدود التى ترسمها له فى تصرفاته مع اخوته ورفقائه والمبادىء الخلقية والمثل العليا التى تهتدى بها فى تنشئته .

---

(١) دلت البحوث التى اجريت فى ميدان تنشئة الاطفال ان شخصية الطفل تتاثر كثيرا بنوع شخصية امه وصفاتها العامة واسلوبها فى معاملته فى مراحل حياته الاولى .. ذلك لانها بطريقة شعورية او غير شعورية تعبر فى تعاملها مع الطفل على شخصيتها وعاداتها الخاصة ومشاغلها بحيث تعكس ما بنفسها على الطفل .

ويظهر اثر ذلك واضحا فى علاقتها العاطفية بالطفل من حيث درجة ثباتها فى معاملته ومدى رغبتها فى الطفـــل او ضعف هذه الرغبة ومدى فهمها لحاجات الطفل ومدى الاستجابة لهـــذه الحاجات ومدى افراطها فى العطف او مغالاتها فى الرعاية . كما يظهر هذا الاثر ايضا فى اسلوب الام فى تنشئة الطفل الاجتماعية من حيث تكوين عاداته فى النظافة والطعام ومدى تمشى هـــذه العادات مع النظم والتقاليد السائدة فى المجتمع ..

وقد قام أحد الباحثين فى سيكلوجية الأسرة ببحث عن أثر سعادة الأم فى حياتها الزوجية على تنشئة أطفالها .. فأجرى أحد الاختبارات التى تقيس تكامل الشخصية على عدد من الأفراد .. ثم قارن النتائج بما حصل عليه من معلومات عن درجة شعور أمهات هؤلاء الأطفال بالسعادة فى حياتهن الزوجية فوجد أنه كلما زادت سعادة الأم فى حياتها الزوجية كلما ساعد ذلك على حسن تنشئة الأبناء .

وقد أكدت هلن روس H. Ross أهمية محاكاة الطفل لأمه وتقمص شخصية الأبوين فقالت إن الطفل يحاول من غير أن يشعر أن يحذو حذو والديه فى تصرفاتهما ونظراً للصلة الوثيقة التى تربط الطفل بالأم مدة طويلة فى سنى حياته الأولى فإن الأم تكون المصدر الأول للتقليد اللاشعورى الذى يساعد الطفل على محاكاة أمه فى الكثير من نواحى شخصيتها .

وبجانب ذلك فإن شعور الأم إزاء طفلها يؤثر كثيراً فى أسلوب شخصيته ونمط حياته . كما فى حالة الأم التى تتمنى لو أن بنتها كانت ولداً فتعاملها معاملة الأولاد ، أو تلك التى تتمنى لو أن ابنها كان بنتاً فتنشئه نشأة قريبة من تنشئة البنات مما يؤثر فى طابع شخصيته فى المستقبل .

والطفل عادة حريص على إرضاء والديه ولذا فهو قابل للتكيف حسب ما يرضى أمه ولذا يتصرف عادة بالطريقة التى تعجبها وترضيها .

إعتماد الطفل على أمه :

يولد الطفل بطبيعته ضعيفاً لا حول له ولا قوة ولا بد له من الاعتماد على أمه لكى يعيش . فهو محتاج للطعام والحماية والعطف والشعور بالأمن والاطمئنان . . وكلما تقدم فى نموه كلما تطورت حاجاته وتشعبت اتصالاته بغير الأم كالأب والأخوة .. وغيرهم ممن يعيشون فى دائرة المنزل . . ثم لا يلبث أن يتطور نموه الاجتماعى إلى التعامل مع الآخرين فى المجتمع الخارجى .

ويتأثر الطفل كثيراً إذا شعر بتخلى أمه عنه لأنه يفقد بغيابها عنه مصدر إشباع الحاجات الأساسية وخصوصاً العطف والحنان والحب ، ومهما قدم للطفل من ضروب الرعاية والعناية فلن يجد ما يعوضه عن حنان الأم وعطفها الطبيعى الأمر الذى يقلق راحته ويؤثر فى نفسيته طول حياته كلها .

وتنمو علاقة الطفل بأمه منذ ولادته حين يحس نعومة ثديها وحين تضمه إلى صدرها فيشعر بالدفء والحنان الطبيعى ولا يلبث الطفل أن يميز أمه ويدرك أمومتها الطبيعية التى لا يرضى بها بديلا . . ويظهر أثر حرمان الطفل من اعتماده على أمه واضحا فى حالات فقدان الأم بالوفاة أو الفراق لأى سبب آخر ، وقد وجد أن الأطفال الذين يبعدون عن أمهاتهم يقاسون كثيراً من جراء ذلك ويشعرون بالكثير من التوتر النفسى بسبب فصلهم عن أمهاتهم وهذا يؤثر فى سلوكهم فى مستقبل حياتهم .

على أن اعتماد الطفل على أمه يجب أن يتطور بالتدريج نحو اعتماده على نفسه مما يمكن تسميته بالنظام النفسى .. فكما أن الطفل يعتمد على لبن الأم فى شهور حياته الأولى ولا بد له أن يفطم عن لبن الأم بعد مدة فلابد له كذلك

من أن يتدرج فى الاعتماد على نفسه فى إشباع حاجاته النفسية ومطالبه الأخرى بحيث لا يجوز اعتماده على الأم مدة أطول من اللازم .

وقد دلت الدراسات التى عملت فى ميدان التحليل النفسى على أهمية عامل « الفطام النفسى » واعتماد الطفل على نفسه إذ أن استمرار الاعتماد على الأم ينشىء الطفل على الاتكال ويقلل ثقته بنفسه ويجعله غيرقادرعلى إدارة شئونه بنفسه فى المستقبل .

بل أن هناك نتائج أبعد من هذا للمبالغة فى الاعتماد على الأم مدة أطول من اللازم فى حياة الطفولة ومنها أن ينشأ كل من الأم والأبناء ميالين إلى الاستمرار فى الحياة المشتركة . ويصعب على كل منهم البعد عن الآخر مما يؤثر فى إحداث المشكلات عند مواجهة المواقف التى تتطلب بعد أحدهما عن الآخر كحالات الزواج . . وحالات السفر بسبب العمل أو الهجرة أو التجنيد أو الاشتراك فى الحرب ونحو ذلك مما نراه بوضوح وجلاء فى المجتمعات التى ينشأ أطفالها على إطالة فترة الاعتماد على الأم فى مراحل الحياة الأولى .

وإذا نحن درسنا هذه الناحية فى المجتمع العربى فأننا نجد أن أطفالنا أكثر إطالة لمدة اعتمادهم على أمهاتهم مما يحدث فى المجتمعات الغربية .. وأن أعتماد الطفل على أمه يشتد فى الريف أكثر من المدن فى مرحلة الطفولة الأولى .

وقد وجد فى بحث[1] مبدئى لمقارنة الأمومة فى الريف المصرى بالأمومة فى المدن المصرية أن ٤٢ ٪ من الأمهات يفطمن أطفالهن بعد ١٨ شهراً فى الريف بينما ٤ ٪ فقط من الأمهات فى المدن يقمن بإرضاع الطفل بعدهذه السن . . كما وجد أن ٨٥ ٪ من الامهات فى الريف ليس لهن مواعيد خاصة لرضاعة الطفل مما يجعله أكثر التصاقاً بهن فى حين أن حوالى ٥٦ ٪ من الأمهات فى المدن فقط لايتقيدون بمواعيد .

ومعنى ذلك أن ارتباط الطفل بأمه فى الريف يستمر مدة أطول مما يحدث فى المدن . . وهذا يؤثر فى طابع شخصية كل منهما .

وقد اهتم علماء التحليل النفسى بتأثر شخصية الفرد بطول مدة رضاعته ونسبوا بعض الصفات النفسية إلى طول مدة الرضاعة أو قصرها ومن أمثلة ذلك ما ذكره أحد الباحثين من أن الفطام المبكر يكون نتيجته تكوين صفات مثل التشاؤم وحب العزلة والانطواء بينما طول مدة الرضاعة يتبعه تكوين صفات التفاؤل والطموح والانبساط .

ويرى فرويد أن الطفل يزداد تعلقه بأحد أبويه الذى يخالفه فى الجنس ، فيتسبب عن ذلك أن يحب الابن أمه ويحب البنت أباها . . وتعرف هذه العلاقة بعقدة « أوديب » نسبة إلى المأساة الأغريقية التى تزوج فيها أوديب من أمه . . ومع ماوجه إلى هذه الفكرة من نقد فقد ظلت هذه العلاقة تلعب دوراً كبيراً فى تطور الاستجابة العاطفية فى الإنسان . .وهى تعتبر نتيجة هامة من نتائج اعتماد الطفل على الأبوين .

---

(١) هذا بحث اشترك فيه كاتب هذا المقال ولم ينشر بعد .

الأمومة ومشكلات الأبناء:

إن ظروف الحياة ومتاعبها تؤثر كثيرا فى معاملة الأم لابنها . . . ولذا فبالرغم من أن الطبيعة قد هيأت الأم للعطف وحماية أبنائها وتنشئتهم على خير ماتتمنى . . فإن هناك عوامل أخرى تطرأ على دافع الأمومة الطبيعى فتعدل من تصرف الأم ويتسبب عن ذلك بعض المشكلات للآباء والأبناء .

فهناك أمهات يشعرن بعبء مسئولية تربية الأبناء لدرجة تجعلهن سببا لغن فى تدليل الطفل مما ينشئه على الاتكال والسلبية . . . وهناك أمهات تشتد عليهن متاعب الحياة فيعكسن شعورهن بالبؤس والشقاء فى معاملة الأبناء مما يبدو فى القسوة فى المعاملة الذى قد تنشىء الطفل على الجبن والاستسلام أو على حب القسوة والعدوان . .

ويقول « برناردشو » إن الأطفال يكونون أحيانا مصدر قلق وتعب للأم بسبب أساليبهم الخاصة فى التصرف وعدم تقديرهم للأمور وتسببهم أحيانا فى تعطيل المصالح الخاصة للأم . . وكذا تجاهل الطفل للعادات الخلقية والاجتماعية والمعاصى التى يسير عليها الكبار . . . وكل هذا يجعل الآباء والأمهات يضيقون ذرعا بأبنائهم ويدعون الله أحيانا للتخلص منهم .

وهناك حالات فردية كثيرة فى ميادين الانحراف والإجرام والشذوذ النفسى والاجتماعى يكون فيها الصراع مستمرا بين الأم والطفل لأسباب شخصية أو اجتماعية . ومن أمثلة ذلك حالة الأم التى مات زوجها وتريد أن تتزوج غيره ولكن طفلها يقف حائلا دون إتمام هذا الزواج فتقسو فى معاملة الطفل بلا رحمة ولا شفقة . . وكذلك حالة أم أخرى ضاقت بها سبل المعيشة ورأت شبح الفقر جاثماً على حياة الأسرة فدفعت بولدها إلى الانحراف والإجرام .

ولهذا فبالرغم مما سبق عرضه عن الأمومة فى طبيعتها الفطرية فإن التكوين الاجتماعى وظروف البيئة تعدل كثيرا من سلوك الأم بالنسبة لطفلها مما يؤدى إلى خلق مشكلات نفسية مختلفة فى كثير من حالات الأبناء .

وقد وجد فى بحث مبدئى عن أثر طريقة الأم فى تنشئة طفلها على تكوين شخصيته أن مشكلات الطفولة مرتبطة ارتباطا وثيقا بأساليب الأم فى تنشئة الطفل . وفيما يلى مثال لحالتين توضحان ذلك :

والحالة الأولى حالة أم اتبعت نظاما سليما فى تربية الطفل ... وفى إجابتها عن بعض الأسئلة التى وجهت إليها فى هذا البحث كانت تقول أن الرضاعة خير متعة بالنسبة لها وأنها نظمت للطفل مواعيده فى فترات معقولة واتبعت الطريقة التدريجية فى فطامة مما أثر فى سلوك الطفل لأنه لم يكن من النوع الذى يرفض الطعام وهو صغير . وإذا ماحدث ورفض طعاما معينا فكانت الأم تقدمه إليه بعد مدة فى صورة أخرى عندما يكون شاعرا بالجوع . وقد عودت طفلها على النوم وحده فى مواعيد ثابتة . . .

كما أنها بدأت فى تعويده عادات النظافة منذ بلغ عمره ست شهور ولم تلجأ لعقابه وإنما كانت تشجعه على النظافة . . . وقالت الأم إنها كانت تجيب عن أسئلة الطفل بما يلائم مستواه العقلى . . . ومن وصف هذا الطفل

تبين أنه غير مشاكس ويتميز بالنشاط والحيوية . . . وينام وحده نوما هادئا ويرحب بالنظام وعلاقته بأخوته وزملائه علاقة طبيعية .

أما الحالة الثانية فهى حالة أم اتبعت نظاما غير سليم فى تربية الطفل فنشأ مشاكسا ميالا للعناد والتخريب يقضم أظافره ويصرخ كثيرا ويقوم منزعجا أثناء النوم ويبلل فراشه ليلا ويقاوم عمليات النظافة وتبدو عليه صفات العناد وحب العدوان . . وبالرجوع إلى معاملة أمه له وجد أنها كانت تدلله أكثر من اللازم ولاتهتم بمواعيد نومه ونظافته أو طعامه ثم تقلبت فى معاملتها له وأرادت أن تنظم حياته فكانت سياستها متقلبة بين اللين والشدة وكانت تقسو عليه بالضرب فتزداد مقاومته وعناده . . وهكذا . وكانت الأم تعمل خارج المنزل ولذا لم يكن الطفل مشبعاً بعطفها كل الوقت وكانت تعوض ذلك بالمبالغة فى الحنان عند رؤيته .

وهكذا تبين أن نوع شخصية الطفل ومشكلاته النفسية إنما هى نتيجة مباشرة فى معظم الحالات لوسائل التربية وأسلوب المعاملة التى كان يلقاها من أمه ولاعجب إذا قال علماء النفس إن أسس الشخصية تتكون فى الخمس سنوات الأولى نتيجه المعاملة التى ينشأ عليها الطفل فى حياته المنزلية .

ومن أمثلة مشكلات الأطفال المرتبطة بالأمومة أيضاً حالات الأطفال اللقطاء وهم الذين ينشأون فى مؤسسات رعاية الأطفال من غير أن يجدوا أمهم الحقيقية معهم . . وعادة يشرف على كل مجموعة من هؤلاء الأطفال ممرضة أو مربية ، ومهما كان عطفها وحنانها فإنه يكون فى هذه الحالة موزعا على أكثر من طفل . . ولذا ينشأ الطفل من غير أن يحس بعاطفة الأمومة ودفئها وقوتها . . فيفقد بذلك أساسا من أسس الشعور بالأمن والاطمئنان . . ولا تتكون عنده بسهولة صفة الشعور بالانتماء للأسرة الصغيرة المتكاملة العميقة فى مشاعرها . ولذا يكون لهؤلاء الأطفال طابع خاص، ومن أهم المشكلات التى يواجهها المشرفون على هؤلاء الأطفال ما لمسوه من أن الطفل يكون قلقا حائرا لأنه لا يجد الشخص الذى يبنى حوله علاقاته ويجعل منه موضعا للتقمص والمحاكاة والتقليد . . خصوصا وأن المشرفين على هؤلاء الأطفال قد يتغيرون ويبدلون وتكون سياستهم فى المعاملة متقلبة ومتغيرة بحسب نشأة كل منهم . . ولذا وجد أن التكوين الاجتماعى الذى يحدث فى الأسرة يكون غير واضح فى مثل هذه الحالات .

مستقبل الأمومة فى البلاد العربية

١ — إن الأسرة التى تتميز الآن بالتكتل والتجمع فى البلاد العربية ذات الطابع الحضارى المستمد من المجتمع الزراعى المتكامل . تسير بالتدريج الآن نحو التصنيع ونحو المجتمع الحديث الذى يدعو إلى تفكك الأسرة نسبيا وإلى الإسراع بالاستقلال وإلى اشتغال الأم وعدم تركيزها على الأمومة .

٢ — وأن قيام الارتباط العائلى على أساس تخير الزوجة من نفس الأسرة أو القبيلة العربية احتراما لعلاقة الدم وتوطيد أواصر القربى وكثرة حالات الزواج من الأقارب تسير الآن بسرعة نحو الزوال .

٣ — وأن تركيز مسئولية الرعاية فى الأبوين وطول مدة هذه الرعاية واستمرارها إلى مرحلة الزواج وتحكم الآباء والأمهات فى اختيار زوجات أبنائهن . . . من آثار طابع الأسرة الذى يسير بسرعة إلى التغير وتحرر الأبناء .

٤ — وأن القيم التى تعطى لكثرة الأبناء من أجل الكثرة العددية للعائلة والفخر بالأنساب والسطوه والسيطرة بالقتال والأخذ بالثأر .. كلها قيم تسير نحو التغير السريع .

٥ — وأن النظرة إلى المرأة على أنها مسئولة عن حياة المنزل وتربية الأبناء فقط . . وإعطاء السيادة الكاملة للرجل . من القيم التى تسير بسرعة جداً نحو التغير أيضاً.

٦ — وأن القيم الاجتماعية للعلاقة بين الأبناء والآباء من طاعة واحترام للكبار وولاء للأسرة وتعلق بها وإنقياد الأبناء مهما بلغ عمرهم . . كلها مبادىء تسير بسرعة أيضاً نحو التغير . . وطبيعى أن يحدث هذا التحول نتيجة لاختلاط القيم الشرقية بالقيم الغربية ونتيجة لانتشار وسائل التغير الاجتماعى والثقافى التى أثرت بطريق مباشر أو غير مباشر فى مركز الأم فى الأسرة وعلاقة الآباء بالأبناء .

ومن أمثلة ذلك : الصحافة والإذاعة والسينما . . وإنتشار التعليم .. وسهولة المواصلات وكثرة الأسفار والاتصال بالعالم الخارجى .

فما موقفنا نحن المربين والمصلحين من هذا التغير . ؟

الحاجة إلى البحث العلمى :

إن الآراء التى تتناقلها عن الأمومة وعن الأسرة فى البلاد العربية مستمدة فى نظمها من المشاهدات والملاحظات العامة التى لاتستند على وسائل علمية منظمة للبحث العلمى .

وكم نتمنى لو أن هذا المؤتمر يولى موضوع البحث فى حياة الأسرة فى البلاد العربية مزيداً من الاهتمام بحيث لا يقف الأمر على مجرد كتابة المقالات ومناقشة الآراء فى المؤتمرات . . . وإنما نرجو أن يسفر هذا المؤتمر عن وضع مشروع متكامل لبحث مقارن لنظام الأسرة والأمومة والبنوة فى البلاد العربية المختلفة .

ويمكن أن يقوم هذا البحث على تصميم استفتاءات يجيب عنها الآباء والأمهات وكذلك تصميم استمارات أخرى للبحث يجيب عنها الأطفال من أعمار مختلفة . لتكون أحاديثنا مستمدة من واقع ما يجرى فعلا فى الأسرة المصرية والسورية والليبية وهكذا .

ويمكن أن تدور أسئلة الاستفتاءات والإستمارات فى مثل هذا البحث حول موضوعات يمكن مقارنتها بما نحصل عليه من بيئات أخرى من البحوث التى يجريها علماء الاجتماع وعلماء النفس وعلماء الانثروبولوجيا فى البلاد الاخرى ومن أمثلة ذلك :

١ — النظم والوسائل التى تتبعها الأم فى تنشئة الطفل من حيث الرضاعة والفطام ومواعيد النظافة والنوم ودرجة الحرية التى تعطى للطفل ونوع العقوبات والجزاءات وما يسمح به من العلاقات فى اللعب والحركة ..

٢ — الأدوار التى يقوم بها الأطفال فى الأسرة العربية فى كل مرحلة من مراحل نموهم — متى يعطوا المسئولية الكاملة — متى يتم الزواج — متى يستقل الابن المتزوج عن والديه وهكذا

٣ — القيم الاجتماعية السائدة فى حياة الأسرة العربية ومدى تأثيرها بالقيم الغربية التى تنقل إلى المجتمع العربى ، ويقترح أن توضع خطة كاملة لبحث مقارن بين البلاد العربية كلها بحيث توحد لغة أسئلته .. ويعطى وقت كاف لجمع البيانات بطريقة موحدة يتفق عليها .. ثم تستخلص النتائج للمقارنه فيكون لدينا بذلك وثائق عملية يمكن الاستناد إليها فى الحديث عن « الأمومة والبنوة فى البيت العربى »

تطور البيت العربى وأثر المدنية الحديثة فيه

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

الجمهورية العربية المتحدة

مقدمـــــة

أنواع التطور فى البيت العربى :

ترجع أنواع التطور التى حدثت فى البيت العربى الإسلامى[1] إلى نوعين رئيسيين :

(أحدهما) تطور عملى واقعى ، يتمثل فى أوضاع حديثة قد استقرت بالفعل واختفت أمامها أوضاع قديمة كان يسير عليها البيت العربى .

(وثانيهما) تطور فكرى يتمثل فى اتجاهات ونزعات وآراء حديثة أخذت تنتشر فى جميع أنحاء العالم العربى أو فى بعض أنحائه ، وترمى إلى تغيير طائفة من الأوضاع التى يسير عليها نظام الأسرة بالفعل ، ولكن لم يتح لها بعد أن تحقق ما ترمى إليه ولاتزال فى مرحلة صراعها مع القديم ومع التقاليد الموروثة .

أسباب هذا التطور :

وترجع أسباب التطور بنوعيه العملى والفكرى إلى طائفتين رئيسيتين :

(إحداها) أسباب خارجية تتمثل فى احتكاك العرب بالشعوب الأخرى وخاصة الشعوب الغربية وتأثرهم بنظمها وتقاليدها وأفكارها .

(ثانيهما) أسباب داخلية تتمثل فى تغير بعض الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة فى العالم العربى أو فى بعض بلاده وطوائفه وتحولها إلى أوضاع جديدة تقتضى تحول نظام الأسرة عما كان عليه أو تحول الأفكار والآراء المتعلقة بهذا النظام .

نتائج التطور :

ولا يكون لأى مظهر من مظاهر هذا التجديد فائدة فى حياة الأسرة والمجتمع إلا إذا كان موائما للأسس العامة

---

(١) سنقصر كلامنا فى جميع فروع هذا البحث على البيت العربى المسلم، لانه الممثل للاغلبية الساحقة فى مجموع البلاد العربية .

التى يقوم عليها البيت العربى ، ومسايرا لمقومات الاجتماع والحياة فى الشعوب العربية ، فإن تنافر مع هذه الأسس والمقومات جاء عنصراً غريبا فى جسم الأمة تتجرعه الجماعة تجرعا ولا تكاد تسيغه، وتتضافر نظمها الأخرى على مطاردته ودفعه فيعوق التقدم ، ويؤدى إلى اضطراب خطير فى سير الجهاز الاجتماعى وتبدو هذه النتائج السيئة أوضح مايكون فى الأمور التى تجىء عن طريق محاكاة عمياء لما يسير عليه الفرنجة من نظم وتقاليد تتنافر مع طبيعة البيت العربى .

النواحى التى حدث فيها التطور :

هذا ، ولعل أهم النواحى التى حدث فيها تطور عملى أو فكرى فى محيط البيت العربى لأسباب خارجية أو داخلية ، والتى استأثرت بأكبر قسط من نشاط المفكرين وزعماء الاصلاح الاجتماعى فى العصر الحاضر، وكانت مثارا لكثير من الجدل وتضارب الآراء ، هى النواحى المتعلقة بالاختلاط بين الجنسين وبمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات .

موضوع البحث وأقسامه وعناصره :

ولذلك سنقصر حديثنا على هذه النواحى ، فنقسم بحثنا إلى فصلين : نعالج فى أحدهما موضوع الاختلاط ، وفى الآخر موضوع المساواة .

وسنبين فى كل فصل منهما مظاهر التطور التى حدثت فى الموضوع الذى يعالجه ، ونوضح طبيعة كل مظهر من هذه المظاهر ونوعه وأسبابه ونتائجه ومبلغ تلاؤمه مع مقومات البيت العربى ومع نظم الاجتماع والحياة فى الشعوب العربية ، ونقدم لأولى الأمر وزعماء الإصلاح الاجتماعى فى هذه الشعوب مايمكن استخلاصه من هذه الأمور جميعا من مقترحات وتوصيات .

الفصل الأول

الاختلاط بين الجنسين

يتحقق الاختلاط بين الجنسين فى ثلاثة مواطن : أحدها الاختلاط فى الحياة العامة وثانيها الاختلاط فى معاهد التعليم ، وثالثها الاختلاط فى الوظائف والأعمال والمصانع .

وسنعقد لكل ناحية من هذه النواحى الثلاث فقرة على حدة :

١ — الاختلاط بين الجنسين فى الحياة العامة :

يبيح الإسلام اختلاط الرجال بالنساء فى الحياة العامة ، وخاصة لأن الإسلام يحتفظ للمرأة بشخصيتها المدنية الكاملة وبأهليتها فى تحمل الالتزامات وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية وغير ذلك ، ويبيح لها إدارة أموالها والإشراف على مختلف شئونها الاقتصادية . وغنى عن البيان أن ذلك يقتضيها الاختلاط بالرجال .

غير أن الإسلام يشترط لإباحة هذا الاختلاط أن يتم فى وقار وحشمة . وفى صورة بعيدة عن مظان الفتنة ،

وألا يكون من شأنه أن يؤدى إلى ضرر اجتماعى أو خلقى . ولكى يتوافر هذا كله وضع الإسلام لهذا الاختلاط قواعد وآدابا كثيرة مفصلة فى الكتاب الكريم[1] وسنة الرسول وبحوث الفقهاء .

هذا هو مجمل الأمر من الناحية الشرعية الإسلامية ، وهذا نفسه هو الوضع الذى ظل البيت العربى محافظا عليه إلى عهد ليس ببعيد .

وأما الأوضاع التى يجرى عليها العمل الآن فى مجتمعاتنا العربية فتختلف فى هذا الصدد تبعا لاختلاف الطبقات :

ففى الطبقة الدنيا من الشعوب العربية — وهى تشمل نحو ثمانين فى المائة من مجموع السكان — تقوم المرأة فى العادة بأعمال كثيرة تضطرها فى معظم الأحيان إلى الاختلاط بالرجال . ولكن هذا الاختلاط يتم فى وقار وحشمة ، وفى صورة بعيدة عن مظان الفتنة ، وتدعو إليه ضرورات الحياة . وأوضح مثال لهذا النوع من الاختلاط ما تسير عليه المرأة الريفية فى الإقليم المصرى من مناهج متزنة سليمة فى اختلاطها بالرجال من أهلها وغيرهم فى الحقول والأسواق . وما إلى ذلك .

وأما الطبقة المترفة الواسعة الثراء فيحدث فيها كذلك ، فى مصر وبعض مجتمعات عربية أخرى ، إختلاط الرجال بالنساء فى الحياة العامة على نطاق واسع . ولكن الاختلاط فيها يختلف عن الاختلاط فى الطبقة الفقيرة الكادحة من وجهين : أحدهما أن الاختلاط فى الطبقة الفقيرة الكادحة تقتضيه ضروريات الحياة وأعمال المرأة وشئون الأسرة . وأما الاختلاط فى الطبقة الراقية فلا تقتضيه ضرورة من ضرورات الحياة ، وإنما يدعو إليه الترف ومقتضيات الظهور . فبينما يحدث الاختلاط فى الطبقات الدنيا فى الحقول و «ماكينات» طحن الغلال والأسواق الأسبوعية . وما إلى ذلك ، أى حيث مظاهر النشاط الاقتصادى والعملى ، إذ يحدث الاختلاط فى الطبقات الراقية فى الحفلات والصالونات وموائد الميسر وحلبات السباق و « بلاجات » السواحل و « بالات » الرقص . . وهلم جرا ، أى حيث مظاهر اللهو والترف وبهرج الحياة . والوجه الثانى الذى يختلف فيه الاختلاطان أحدهما عن الآخر أن الاختلاط فى الطبقة الدنيا يتم فى وقار وحشمة على النحو الذى ذكرناه ، أما الاختلاط فى الطبقة الراقية فيتم فى صورة مبتذلة خليعة .

وأما الطبقات الوسطى فى الشعوب العربية فتنقسم طائفتين . إحداهما طائفة محافظة تلزم فيها المرأة عقر دارها مشرفة على شئون التدبير المنزلى ورعاية بيتها وزوجها وحضانة الأولاد وتربيتهم ، ولا تكاد تخرج إلا مع زوجها وأولادها لقضاء عمل هام فى الخارج أو لزيارة أفراد أسرتها أو أسرة زوجها أو أصدقاء الأسرة ، ويتم الاختلاط فى هذه الطائفة بين الرجال والنساء فى صورة وقورة وفى حضرة الأزواج والمحارم . وتعنى المرأة فى هذه الطائفة بعض العناية فى أثناء هذه الاختلاطات بثيابها وزينتها ، ولكنها لا تخرج عن حدود الحشمة . وأما الطائفة الثانية من الطبقة الوسطى فتحاول أن تقلد الطبقة الراقية فى أحوالها التى أشرنا إليها .

---

(١) وردت معظم هذه القواعد والآداب فى سورتى النور (آيات : ٢٧ — ٣١ ، ٥٨ — ٦١) والاحزاب (آيات : ٣٢ — ٣٥ ، ٥٣ — ٥٥)

هذا ، ويتفق جميع الباحثين فى نظرهم بعين التقدير والإكبار إلى مسلك الطبقة الدنيا والطائفة المحافظة من الطبقة الوسطى . أما مسلك الطبقة الراقية والطائفة المحاكية لها من الطبقة المتوسطة فقد اختلفت فيه الآراء ، ففريق يرى أن هذا المسلك ينطوى على أضرار بليغة تهدد الأخلاق الفاضلة ونظام الأسرة وكيان المجتمع ، ويستدلون على ذلك بآلاف الحوادث الفاجعة التى نقرأ نماذج لها كل يوم فى الصحف والتى تنجم عن هذا الاختلاط المعيب. وفريق آخر يرى أن هذا مظهر من مظاهر الرقى والحضارة ، وهو مسلم بما ينطوى عليه من أضرار فى الوقت الحاضر ، ولكنه يرى أننا فى مرحلة انتقال وأنه لابد أن نحتمل هذه الأضرار وهذه التضحيات حتى نعتاد هذا النمط من أنماط الحياة الراقية .

وبقطع النظر عن تعارض هذا الرأى الأخير مع أحكام الاسلام ، فإنه يظهر لى أن للحضارة فى نظر أصحاب هذا الرأى معنى يختلف عن معناه فى نظر علماء الاجتماع . فالحضارة فى نظر أصحاب هذا الرأى تتمثل فى المظاهر المادية وشئون الأجسام ، وأما الحضارة فى نظر علماء الاجتماع فتبدو فى مظاهر العلوم والفنون والمخترعات والمثل العليا من الأخلاق ، وما إلى ذلك من الأمور التى يمتاز بها الإنسان عن الحيوان ، ويمتاز بها الاجتماع الإنسانى عن الاجتماع الحيوانى .

هذا إلى أن هذا النوع من الاختلاط لاتدعو إليه لدينا ضرورة ما من ضرورات الحياة . فالغربيون قد ألجأتهم إليه ضرورات حياتهم ومقتضيات شئونهم الاجتماعية . ونحن قد استوردناه من بلادهم بدون أن نستورد معه هذه الضرورات وهذه المقتضيات . وفضلا عن هذا وذاك فإنه قد أدى فى أمم الغرب إلى تقويض نظم الأخلاق واضطراب شئون الأسرة وأخذ يتهددها بالانهيار ، بل لقد انهارت الأسرة بالفعل من جراء ذلك فى كثير من أمم الغرب ولم يبق منها إلا صور فاسدة قد بعدت كل البعد عن النظام العائلى السليم وأصبحت لاتحقق شيئا من أهدافه.

٢ — إختلاط الجنسين فى معاهد التعليم :

يحدث الآن هذا الاختلاط فى بعض الشعوب العربية فى مرحلتين : إحداهما مرحلة التعليم الابتدائى ، وثانيتهما مرحلة التعليم الجامعى . وكلا هذين النوعين من الاختلاط دخيل فى الشعوب العربية قد انتقل إليها من نظم التعليم فى أمم الغرب .

ويكاد الباحثون من العرب يجمعون على أنه لاخوف مطلقا من اختلاط الجنسين فى المرحلة الأولى من التعليم أى قبل أن يبلغ الأطفال سن المراهقة وقبل أن تبدو لديهم مظاهرة الغريزة الجنسية . بل يكادون يجمعون على أن للاختلاط فى هذه المرحلة آثاره الطيبة فى حياة الجنسين وائتلافهم ومحو النظرة الجنسية من نفوسهم . ولكنهم يختلفون فى نظرتهم إلى الاختلاط فى مرحلة التعليم الجامعى . فبعضهم يرى أنه ضرورة من ضرورات الحياة الجديدة وأن من شأنه أن ينمى من شخصية الفتاة ويشعرها بذاتيتها وكرامتها ، ويزيد تجاربها ، ويغير من نظرتها إلى الجنس الآخر ، كما من شأنه أن يكسب الفتيان شيئا غير قليل من الحذر والحيطة والصقل والوداعة فى أخلاقهم وسلوكهم وحديثهم ومظهرهم . ويذهب هذا الفريق إلى أن العثرات والانحرافات التى تحدث بسبب هذا الاختلاط هى من

الندرة والتفاهة بحيث لانستحق أن تثير فى نفوسنا أقل قلق ، كما يدل على ذلك سجل الحوادث والعقوبات فى كثير من الكليات . ويذهب الفريق الآخر إلى أن هذا الاختلاط قد أدى إلى أضرار خلقية بالغة ، وأخذ يتهدد البيت العربى الإسلامى ويتهدد تقاليده ومقدساته ، بشر مستطير ، وأن مايصل من عثرات هذا الاختلاط ومخالفاته وانحرافاته إلى علم العمداء ورؤساء الأقسام وما يدون منها فى سجل الحوادث لايعد قطرة من بحر بالقياس إلى مايحدث بالفعل ولا يصل شىء من أخباره إلى علم الرؤساء ولا إلى أوراق الملفات .

وكلا الفريقين قد حصر انتباهه فى الاختلاط بمعناه الحسى الجسمى ، وفيما يترتب عليه من نتائج من النواحى الجنسية الخلقية ، مع أن ثمة وجها آخر للموضوع أهم كثيرا وأجدر بالبحث وهو المتعلق بالاختلاط فى مناهج التربية والتعليم وفيما يترتب على ذلك من نتائج من النواحى العقلية ونواحى الإعداد للحياة . فإذا كان من المقرر أن كلا الجنسين يختلف عن الآخر فى استعداداته الفطرية وقواه الجسمية والنفسية واتجاهات إدراكه ووجدانه ونزوعه ، وفى وظائفه الأساسية فى الحياة ، أفلا يكون من خطل الرأى أن نغض النظر عما بينهما من هذه الفروق ونوحد مناهجهما فى التربية والتعليم ، ونجمعهما فى معاهد واحدة يؤخذون فيها بطرق وأساليب متحدة ويعدون لمستقبل واحد ؟

هذه هى أهم مشكلة فى الموضوع . وقد أخذت الآن تشغل أذهان العلماء والباحثين والساسة فى شعوب الغرب المسيحى وأخذت هذه الشعوب تقيم لها أكبر وزن فى الوقت الحاضر ، وأخذ كثير منها يصلح ما أفسده الاتجاه الأحمق نحو المساواة المطلقة بين الجنسين فأنشئت كليات خاصة للبنات يتلقين فيها مناهج توائم طبائعهن ووظائفهن الأساسية فى الحياة وبطرق تتفق مع إدراكهن وما زودن به من استعداد .

وإذا كان للاختلاط بمعناه الحسى فوائد فى حياة الجنسين كما يذهب المتعصبون له فإن ثمة مواطن أخرى كثيرة غير معاهد التعليم يمكن أن يتحقق فيها هذا الاختلاط ويؤتى ما ينتظرونه منه من ثمرات . وفى ميادين الحياة العامة وحياة الأسرة متسع كبير لذلك .

ولكن عيبنا أننا نقلد الغرب تقليدا أعمى فى كل شىء ، حتى فى الأمور التى يقوم الدليل العلمى القاطع على فسادها ، والتى يظهر للغرب نفسه خطؤه فى السير عليها ، ويحاول أن يهدىء من اندفاعه فى سبيلها .

ويسعدنا أن نسجل أن الجمهورية العربية المتحدة التى قطعت فى طريق الاختلاط الجامعى شوطا بعيدا ، قد فطنت الآن لهذه الحقائق ، وأخذت تتدارك بعض أخطائها ، فأنشأت كليات خاصة للبنات ملحقة بجامعة عين شمس .

٣ — اختلاط الجنسين فى الوظائف والأعمال والمصانع :

يذهب كثير من الباحثين إلى أن اختلاط المرأة بالرجل فى الوظائف والأعمال والمصانع لم يعد مشكلة تستحق البحث والمناقشة ، لأنه موضوع قد حله الزمن وقرره الأمر الواقع ، فأصبح هذا الاختلاط صورة مألوفة فى حياتنا اليومية . فقد زحفت المرأة فى بعض البلاد العربية ، إلى ميادين الوظائف العامة ، فاحتلت مكانها فى معظم الوزارات والمصالح الحكومية إلى جانب الرجل . وأما اختلاطها به فى المصانع فقد بدأ فى بعض البلاد العربية مع النهضة

الصناعية الحديثة ، حتى لقد وجدت بعض الدول العربية نفسها مضطرة إلى التدخل لحمايتها وتنظيم ظروف العمل لها عن طريق التشريع .

فليس ثمة إذن ، فى نظر هؤلاء الباحثين ، مشكلة فى هذا الضرب من الاختلاط ، لأن الزمن قد قال فيه كلمته وفصل فى موضوعه تطور الحياة والظروف الاقتصادية وأصبحت المرأة الموظفة والعاملة التى تخالط زملاءها الموظفين والعاملين جزءا من كيان المجتمع ونظامه .

وهكذا يكتفى هؤلاء الباحثون بتقرير ما هو كائن ، ولا يرون فيما هو كائن بهذا الصدد مشكلة اجتماعية تستحق البحث والمناقشة . لأن الزمن قد فرغ من حل هذه المشكلة ، وقال فيها كلمته ، وفصل فى موضوعها وأصبح اشتراك المرأة فى الوظائف العامة وميادين الأعمال ، وأصبح الاختلاط الذى يؤدى إليه هذا الاشتراك ، وأصبح كل ذلك أمراً واقعا وصورة مألوفة .

ولو كان الزمن هو الذى يقول كلمته فى الأمور فتخرس أمامه الألسنة لما كان للاصلاح الاجتماعى عمل ولا مجال ولو سرنا على مبدأ « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » لأصبحت بحوث علم الاجتماع وما يتفرع عنها مضيعة للوقت ، ولأصبح كل جهد يبذل لتصحيح الأوضاع القائمة عملا فاقد القيمة عديم الجدوى !

والحقيقة أن مهمتنا لا يصح أن تقف عند تقرير ما هو كائن ، بل يجب أن تتجاوز ذلك للبحث فيما ينبغى أن يكون ، وأن الزمن إذا كان قد قال كلمته فى أمر ما ، فان للعلم كذلك أن يقول كلمته فيه : وقد تكون كلمة العلم هى العليا وكلمة الزمن هى السفلى .

هذا ، ولا يستبين ما ينبغى أن يكون بهذا الصدد ، ولا تستبين كلمة العلم فيه إلا من ثنايا الإجابة على ثلاثة أسئلة :

وأول هذه الأسئلة هو : هل هناك مقتضى اجتماعى ، واقتصادى لنزول المرأة العربية إلى ميادين الكدح فى الحياة ولما يصاحب ذلك من اختلاط ؟ وهل اتسعت ميادين الأعمال العامة وميادين الإنتاج فى البلاد العربية لدرجة يحتاج فيها إلى جهود المرأة بجانب جهود الرجل ؟

والذى يظهر لنا أن ميادين الأعمال العامة وميادين الإنتاج لم تتسع بعد فى البلاد العربية كما اتسعت فى بعض أمم الغرب ، إلى حد يحتاج إلى جهود المرأة بل يظهر أنها لم تستوعب بعد جميع جهود الرجال ، كما سنتكلم على ذلك بتفصيل فى الفصل الثانى من هذا البحث .

والسؤال الثانى هو : من الممكن أن نغض النظر عن عدم وجود مقتضى اقتصادى جدى إذا ثبت أن عمل المرأة المعربية فى هذه الميادين لا يترتب عليه ضرر ما ، فهل ثمة ضرر يلحق البيت العربى والمجتمع العربى أو يلحق المرأة العربية نفسها من جراء نزولها إلى هذه الميادين ومن جراء الاختلاط الذى يصاحب ذلك ؟

والذى يظهر أن هذه الأمور كثيراً ما تنطوى على أضرار بليغة من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، وكثيراً

مايترتب عليها إرهاق المرأة وتكليفها من الأعمال فوق ماتطيق ، وكثيرا ما تؤدى إلى إهمالها لشئون زوجها وأولادها وبيتها ، ولا يخفى مايترتب على هذا الإهمال من اضطراب فى حياة الأسرة وتقويض لأهم مقوماتها ، ونقص فى تربية الأولاد وإضعاف لروح الترابط العائلى .

والسؤال الثالث هو : هل اشتغال النساء بالأعمال العامة يقتضى حتما اختلاطهن بالرجال فى نطاق واسع مع ماقد يؤدى إليه هذا الاختلاط من أضرار تلحق المرأة نفسها وتلحق الأسرة والمجتمع ؟ وأليس من الممكن أن نفسح للمرأة ميادين العمل مع اتقاء هذا الاختلاط واتقاء شروره فنخفف بذلك الأضرار الناجمة عن نزول المرأة إلى هذه الميادين ؟

والذى يظهر لنا أنه من الممكن أن تزاول النساء أعمالهن فى الوظائف العامة والمصانع مع إتقان هذا الاختلاط المعيب وخاصة إذا لاحظنا أن الأعمال التى تقوم بها الفتيات والنساء فى المصانع تختلف فى الغالب عن الأعمال التى يقوم بها الرجال ، وأنه من الميسور إذن فصلهن فى أقسام خاصة ، وأن وظائف التدريس فى مدارس البنات وما إليها من الوظائف التى تقوم بها عادة معظم النساء الموظفات لا تقتضى حتما اختلاطهن بالرجال فى نطاق واسع وأنه من الميسور بل من الواجب ، فى هذه الوظائف وغيرها تدبير الوسائل لوقايتهن ووقاية المجتمع من الاختلاط الواسع وما ينجم عنه من شرور .

* * *

الفصل الثانى

المساواة بين الجنسين

١ — وجوه المساواة بين الرجل والمرأة :

سوى الإسلام بين الرجل والمرأة أمام القانون وفى جميع الحقوق المدنية سواء فى ذلك المرأة المتزوجة وغير المتزوجة . فالزواج فى الإسلام يختلف عن الزواج فى معظم أمم الغرب المسيحى فى المرأة أنه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية ولا أهليتها فى التعاقد ولا حقها فى التملك . بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها ، وبكامل حقوقها المدنية ، وبأهليتها فى تحمل الالتزامات وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية وما إلى ذلك ، ومحتفظة بحقها فى التملك تملكا مستقلا عن غيرها . فللمرأة المتزوجة فى الإسلام شخصيتها المدنية الكاملة وثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية زوجها وثروته . ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئا من مالها قل ذلك الشىء أو كثر إلا أن يكون ذلك عن طيب خاطر منها ، ولا يحل له أن يتصرف فى شىء من أموالها إلا إذا أذنت له بذلك أو وكلته فى إجراء عقد بالنيابة عنها . وفى هذه الحالة يجوز أن تلغى وكالته وتوكل غيره إذا شاءت .

وهذه المنزلة من المساواة لم يصل إلى مثلها بعد أحدث القوانين فى أرقى الأمم الديمقراطية الحديثة . فحالة المرأة فى فرنسا مثلا كانت إلى عهد قريب ، بل لا تزال إلى الوقت الحاضر أشبه شىء بحالة الرق المدنى . فقد نزع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية ، كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين إذ تقرر « أن المرأة المتزوجة ، حتى ولو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز أن

تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو غير عوض ، بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » La Femme, même non-commune ou séparée des biens, ne peut donner, aliéner, hypothiquer, acquérir à titre gratuit ou onéreux, sans le concours du mari dans l'acte ou son consentement par écrit.

ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد ، فإن كثيراً من آثارها لا يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر ، وتوكيدا لهذا الرق المدنى المفروض على المرأة الغربية المتزوجة ، تقرر قوانين الأمم الغربية ويقضى عرفها أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها ، فلا تعود تسمى فلانه بنت فلان ، بل تحمل اسم زوجها وأسرته فتدعى « مدام فلان » أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته ، بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرته ، وفقدان اسم المرأة وحملها لاسم زوجها ، كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدنية للزوجة واندماجها فى شخصية الزوج .

ومن الغريب أن بعض سيداتنا يحاولن أن يتشبهن بالغربيات حتى فى هذا النظام الجائر ، ويرتضين لأنفسهن هذه المنزلة الوضيعة ، فتسمى الواحدة منهن نفسها باسم زوجها أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرته كما هو النظام الإسلامى . وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه المحاكاة العمياء ! وأغرب من هذا كله أن اللائى يحاكين هذه المحاكاة هن المطالبات بحقوق النساء ومساواتهن بالرجال ، ولا يدرين أنهن بتصرفهن هذا يفرطن فى أهم حق منحه الإسلام لهن وسواهن فيه بالرجال .

وفيما عدا هذا الانحراف وبعض انحرافات أخرى يسيرة من هذا القبيل ، نرى أن ما يجرى عليه العمل فى البيت العربى فى الوقت الحاضر متفق فى جملته مع ما قرره الإسلام من وجوه المساواة بين الجنسين .

هذا ، ولم يفرق الاسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة مراعاة طبيعة كل من الجنسين ، وما يصلح له ، وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة وصالح المرأة نفسها .

وترجع أهم النواحى التى قرر فيها الاسلام هذه التفرقة إلى ثلاثة أمـــور : الأعباء الاقتصادية والميراث ، والقوامة على البيت .

وسنعقد فيما يلى لكل أمر من هذه الأمور الثلاثة فقرة على حدة نبين فيها أحكام الشريعة الإسلامية حياله ، ومبلغ ما طرأ على البيت العربى من تطور فى تطبيق هذه الأحكام .

٢ — التفرقة بين الرجل والمرأة فى الأعباء الاقتصادية :

خفض الاسلام للمرأة فى هذه الشئون جناح الرحمة والحدب والرعاية ، وكفل لها من أسباب الرزق مايصونها عن التبذل ويحميها من شرور الكدح فى الحياة . فأعفاها من كافة أعباء المعيشة وألقاها جميعا على كاهل الرجل .

فما دامت المرأة غير متزوجة ولا معتدة من زوج فنفقتها واجبة على أصولها أو فروعها أو أقربائها حسب ترتيب

الفقه الإسلامى لهم فى وجوب النفقة[1] فإن لم يكن لها قريب قادر على الانفاق عليها فنفقتها واجبة على بيت المال .

وكذلك شأنها فى جميع مراحل الزوجية : سواء فى ذلك مرحلة الإعداد للزواج ، ومرحلة الزواج . أما فيما يتعلق بالمرحلة الأولى ، وهى مرحلة الإعداد للزواج ، فقد ألقت الشريعة الإسلامية فى أثنائها على كاهل الزوج طائفة من الواجبات الاقتصادية نحو زوجته المستقبله بدون أن تكلفها هى أو تكلف أهلها أى عبء من هذا القبيل لا على سبيل الوجوب ولا على سبيل الندب ، ففى هذه الحالة تنعم المرأة فى الشريعة الإسلامية من الناحية الاقتصادية بجميع الحقوق بينما يحتمل الرجل وحده جميع الواجبات . وترجع أهم هذه الواجبات إلى أمرين : أحدهما مقدم الصداق ، وثانيهما إعداد منزل الزوجية .

وأما فيما يتعلق بالمرحلة الثانية وهى مرحلة الزوجية ، فقد أقامت كذلك الشريعة الإسلامية شئونها الاقتصادية على القواعد نفسها التى أقامت عليها المرحلة السابقة : فأعفت المرأة من أعباء المعيشة وألقتها جميعا على كاهل الرجل ، واحتفظت للمرأة مع ذلك بحقوقها المدنية كاملة غير منقوصة ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك . فللمرأة المتزوجة فى الإسلام شخصيتها المدنية الكاملة وثروتها الخاصة المستقلتان عن شخصية زوجها وثروته . وهى مع هذا لا تكلف أى عبء فى نفقات الأسرة مهما كانت موسرة ، بل تلقى جميع هذه الأعباء على كاهل الزوج . ففى هذه الحالة كذلك تنعم المرأة فى الشريعة الإسلامية من الناحيتين الاقتصادية والمدنية بجميع الحقوق بينما يحتمل الرجل وحده جميع الواجبات .

هذا هو مجمل الأمر من الناحية الشرعية القانونية . أما الأوضاع التى يجرى عليها العمل فى الواقع فى البيت العربى فتختلف فى هذا الصدد تبعا لاختلاف الطبقات فى مستواها الاقتصادى والاجتماعى . ويبدو اختلافها هذا فى الأمور الممهدة لتكوين الأسرة وفى الأمور المتعلقة بحياة الأسرة نفسها بعد تكوينها .

١ — ففيما يتعلق بالأمور الممهدة لتكوين الأسرة يبدو هذا الاختلاف أوضح ما يكون .

فى الطبقات الدنيا من الشعوب العربية ، وهى تشمل نحو ثمانين فى المائة من مجموع هذه الشعوب ويشتغل معظم أهلها بالزراعة ، فى هذه الطبقات يقدم الزوج المهر لأهل الزوجة ويستعين هؤلاء بهذا المهر فى جهازها . أى فى إعداد ما تحتاج إليه من لباس وزينة وما يلزم لبيتها من أثاث ومتاع ، بدون أن يحتملوا فى هذا السبيل إلا أعباء يسيرة ، بل إن هذا ليتم أحيانا بدون أن يحتملوا أى عبء مالى . وقد جرت عادة الناس فى هذه الطبقات بالاعتدال فى المهور وفى حفلات الأفراح إذ لا تسمح لهم أحوالهم المالية بالمغالاة فيها .

وجميع ما تسير عليه هذه الطبقات من مناهج تتصل بشئون الاقتصاد فى مرحلة الإعداد للزواج يتفق فى لبه مع التقاليد العربية الأصيلة ومع ما شرعه الإسلام فى هذا الصدد وما جرى عليه العمل فى العصور الإسلامية الأولى .

وأما الطبقة الوسطى فقد جرت العادة لديها فى بعض الشعوب العربية أن يحتمل أهل الزوجة نفقات الجهاز والعرس جميعها أو معظمها ، وهم يحاولون أن يظهروا فى هذه الشئون بمظهر العظمة وأن يقلدوا الطبقات المترفة الواسعة الثراء ، فيكلفوا أنفسهم أحيانا أكثر مما يطيقون . هذا إلى ما يحدث لديهم فى كثير

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتب الفقه .

من الأحوال من مغالاة فيما يجب على الزوج أداؤه من مهر وشبكة وهدايا وما إلى ذلك ، وكثيرا ما يكلف الزوج كذلك من هذه الأعباء مالا طاقة له به .

وقيام الزوجة وأهلها بنفقات الجهاز والعرس هو أسلوب انتقل إلينا من الغربيين . فقد استقرت شرائعهم وتقاليدهم على إعفاء الرجل من هذه الأعباء وإلقائها جميعا على كاهل المرأة وأهلها على عكس ما استقرت عليه شريعة الإسلام .

ولا تحرم الشريعة الإسلامية أن تحتمل المرأة بكامل اختيارها وإرادتها أو يحتمل أهلها بكامل اختيارهم وإرادتهم نفقات الجهاز وحفلات العرس وتأثيث منزل الزوجية ، وإن لم يكن هذا هو الأسلوب الذى جرى عليه العمل فى العصور الإسلامية الأولى ، ولا تحرم الشريعة الإسلامية كذلك أن تجهز المرأة بفاخر الثياب والزينة ولا أن يزود منزلها بالثمين من الأثاث والمتاع . ولم تضع الشريعة الإسلامية حداً أعلى للمهر الذى يدفعه الزوج لزوجه ولا للهدايا التى يقدمها إليها بل تركت كل ذلك لما يتراضى عليه الطرفان وتطيب عنه نفس الزوج ويجرى به العرف .

ولكن الشريعة الإسلامية ومبادىء الاقتصاد تحرمان الإسراف والتبذير فى أى مظهر من مظاهر الحياة ، كما تحرمان أن تكلف النفوس فى أى شأن من الشئون أكثر مما تطيق ، وتحظران كل مسلك ينطوى على عسف أو حرج أو ضرر .

فالأوضاع التى يجرى عليها العمل فى بعض طبقاتنا المتوسطة فى شئون الجهاز والمهور والشبكة والهدايا يحرم الدين الإسلامى وتحرم قواعد الاقتصاد السليم جميع ما ينطوى منها على إسراف وتبذير أو على تكليف بما لا يطاق ، وهى فى معظم أحوالها تنطوى على هذه المساوىء جميعها أو بعضها . هذا إلى أن هذه الأوضاع قد تترتب عليها أضرار بليغة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية وهى من أهم الأسباب فى أزمة الزواج التى تعانيها الطبقة الوسطى فى بعض الشعوب العربيـــة ، لأن هذه الأزمة التى يتحدثون عنها لا توجد إلا فى هذه الطبقة وحدها نتيجة لهذه الأوضاع الفاسدة .

ولذلك ينبغى أن يتدخل المصلحون والمشرعون فى هذه الشئون ليرسوها على قواعد سليمة تتفق مع روح الاسلام وتحقق الصالح العام ، وتجانب مظاهر الترف والتبذير والتكليف بما لا يطاق .

وأما الطبقات المترفة الواسعة الثراء فتبالغ كل المبالغة فى شئون المهور والهدايا والجهاز وفى تقاليد الأرستقراطية الغربية فى طقوس الزواج وحفلاته ، ويساعدها ثراؤها على هذه المبالغة وهذه المحاكاة .

ومع ما يتضمنه مسلك هذه الطبقات فى هذا الصدد من سفه وانحراف فإن أعمالها هذه لا تنطوى على مشكلة ذات بال لأنها لا تمثل إلا أقلية ضئيلة فى مختلف الشعوب العربية ولأنها من جهة أخرى آخذة فى التقلص تحت تأثير ما أدخل على النظم الاقتصادية فى كثير من البلاد العربية من إصلاحات اشتراكية خطيرة كتحديد الملكيات العقارية وتقدير الضرائب التصاعدية فى التركات والدخل العام ... وهلم جرا .

٢ — وكما يختلف مسلك الطبقات فى الأمور الممهدة لتكوين الأسرة يختلف مسلكها كذلك فى الأمور المتعلقة بحياة الأسرة نفسها بعد تكوينها .

فى الطبقات الدنيا من الشعوب العربية — وهى تمثل كما قلنا نحو ثمانين فى المائة من مجموع السكان ويشتغل معظم أهلها بالزراعة — يقوم الزوج عادة بأشق الأعمال وأكثرها إنتاجا وهى أعمال الحقل فى الريف ، بينما تقوم المرأة بشئون التدبير المنزلى وإعداد الغذاء وصناعة الخبز فى مختلف أدوارها والإشراف على الأنعام وصناعة الألبان وتربية الطيور والدواجن وخزن الغلال والوقود وحفظ المأكولات ، وتساعد زوجها أحيانا فى الحقل نفسه بأداء بعض الأعمال التى لاتتطلب مجهودا كبيراً ، كما تقوم بعمليات الاستبدال والتجارة فتحمل إلى أهلها حاجتهم من غذاء وكساء أو تدخر بعض ثمنه للانتفاع به فى حاجيات الأسرة أو شراء أنعام أو عقار . هذا إلى ماتحتمله من أعباء الحضانة والتربية . تقوم المرأة الريفية بجميع هذه الأعمال مع احتفاظها بشخصيتها المدنية وبممتلكاتها الخاصة فى العقار والانعام والمنقول . وبهذه الأعمال تحقق المرأة الريفية لأسرتها منافع اقتصادية لاتقل كثيراً فى قيمتها عما يحققه الرجل وإن كانت أعمالها أخف فى جملتها من أعماله .

والشريعة الإسلامية ترحب بهذا التعاون الكريم الذى لا يكلف المرأة مالاطاقة لها به ولا يحملها أعمالا تتنافر مع طبيعتها وما خلقت له ، ولا يخرج بها عن نطاق الأسرة ، ولايزج بها فيما يؤدى إلى ضرر خلقى أو اجتماعى . والشريعة الإسلامية — وإن كانت لا توجب على المرأة شيئا من نفقات الأسرة — لاترى بأسا أن تتبرع المرأة لزوجها وأولادها وبيتها بثمرة جهودها أو بشىء من مالها . وفى هذا يقول الله تعالى : « فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا [1] » .

وأما الطبقات الوسطى فتنقسم فى هذا الصدد إلى طائفتين : إحداهما تقتصر فيها المرأة على شئون التدبير المنزلى ورعاية البيت وحضانة الأولاد وتربيتهم ، وهذه هى الطائفة السوية التى لاتزال تحتفظ بتقاليدنا السمحة القديمة ، والأخرى تزاول فيها المرأة فى خارج المنزل وظيفة من الوظائف الحكومية أو الحرة . وقد اتسع نطاق هذه الطائفة الأخيرة وزاد عدد أفرادها فى الوقت الحاضر فى بعض البلاد العربية ، وخاصة فى الإقليم المصرى ، وحرص كثير من الآباء على إعداد بناتهم لهذه الوظائف وآثر كثير من الشبان التزوج بهذا الصنف من الفتيات ليقتسمن معهم أعباء الحياة .

والشريعة الإسلامية لاتحرم على المرأة أن تزاول عملا خارج منزلها مادامت تؤديه فى وقار وحشمة وفى صورة بعيدة عن مظان الفتنة ومادام لايؤدى إلى ضرر خلقى أو اجتماعى ولا يعوقها عن أداء واجباتها نحو زوجها وأولادها وبيتها ولا يكلفها مالا طاقة لها به . ولا ترى الشريعة الإسلامية بأسا من أن يتعاون الزوجان فى نفقات الأسرة وإن كانت لا تكلف المرأة شيئا من هذه النفقات .

غير أنه يظهر أن ميادين الأعمال العامة لم تتسع بعد فى الشعوب العربية كما اتسعت فى غيرها من أمم الغرب إلى حد يحتاج إلى جهود المرأة ، بل إنها لم تستوعب بعد جميع جهود الرجال بدليل تفشى البطالة بين كثير من طبقات

---

(١) سورة النساء ، آية (٤)

المتعلمين وغيرهم . فليس ثمة إذن مقتضى اجتماعى أو اقتصادى جد لنزول المرأة العربية إلى ميادين الأعمال العامة .

ويظهر كذلك أن نزول المرأة إلى ميادين الكدح فى الحياة كثيراً ما ينطوى على أضرار بالغة من الناحيتين الخلقية والاجتماعية، وكثيراً ما يترتب عليه إرهاق المرأة وتكليفها أعمالا فوق ما تطيق أو كثيراً ما يؤدى إلى إهمالها لشئون أولادها وبيتها ، ولا يخفى ما يترتب على هذا الإهمال من اضطراب فى حياة الأسرة ، وتقويض لأهم مقوماتها ، ونقص فى تربية الأولاد وإضعاف لروح الترابط العائلى .

هذا إلى أن ما تجنيه المرأة الكادحة من كسب مادى من عملها فى خارج المنزل تخسر الأسرة مثله بل أكثر منه فى نفقات الخدم ودور الحضانة وفى علاج الأضرار التى تلحق بالمنزل وأهله من جراء إهمال المرأة لشئونه .

وفضلا عن هذا وذاك ، فإن شغل المرأة لوظيفة عامة ، وفى المرحلة التى نجتازها الآن فى طريق التطور الاقتصادى والإنتاج القومى يسد باب هذه الوظيفة وباب الرزق أمام رجل يعول عائلة بالفعل أو فى سبيله لأن يعول عائلة . على حين أنه يندر فى نظامنا العربى الإسلامى أن يقع على امرأة عبء الإنفاق على أسرة ، بل أنه ليندر فى هذا النظام أن يقع عليها عبء الإنفاق على نفسها .

ولذلك نوصى هنا بما أوصينا به فى شئون ما قبل الزواج من وجوب تدخل المصلحين والمشرعين فى هذا الموضوع ليرسوه على قواعد سليمة تتفق مع روح الإسلام وتحقيق الصالح العام ، وتراعى فيها تقاليدنا ومقومات عرفنا الخلقى ، ويقضى بها على مظاهر المحاكاة العمياء لأمم الغرب التى تختلف أوضاعها عن أوضاعنا اختلافا كبيراً .

وليس معنى هذا أننا ننصح بألا تزاول المرأة عملا ما من الأعمال العامة فى خارج منزلها ، بل إننا نرى أن ثمة طائفة من الأعمال العامة لا يجيدها غير النساء وينبغى أن تكون وقفا عليهن : كأعمال التمريض والتربية والتعليم فى دور الحضانة ورياض الأطفال والأقسام الأولى من المدارس الابتدائية وبعض أعمال الخدمة الاجتماعية ... وما إلى ذلك ، وإنه من الواجب أن تنفر من كل فرقة طائفة من الفتيات ليتفقهن فى هذه الأعمال ويتخصص فى هذه الشئون ، ولكن لا ينبغى أن يتسع نطاق هذه الطائفة فيزيد عما تحتاج إليه هذه الأعمال . وفى ميادين هذه الأعمال متسع كبير لاستيعاب فضل النشاط النسوى فى البلاد العربية كما أن فيها متسعا لمن تضطرهن ظروفهن الخاصة إلى الإنفاق على أنفسهن وأسراتهن أو مساعدة أزواجهن .

وأما الطبقات المترفة الواسعة الثراء فلا تكاد المرأة تقوم فيها بأى عمل جدى فى المنزل ولا فى خارجه ، وإنما تلقى فيها أعباء الحياة جميعا على الرجال والخدم والمربيات والتوابع والموظفين . وتشترك المرأة فى هذه الطبقات فى الغالب مع زوجها فى الإنفاق على البيت إن كان لها ثروة خاصة على النحو الذى تسير عليه الأرستوقراطية الأوروبية .

ولا تعنينا كثيراً شئون هذه الطبقة لضآلة عدد أفرادها من جهة ولأنها من جهة أخرى آخذة فى التقلص بل فى الانقراض كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

٣ — التفرقة بين الرجل والمرأة فى الميراث

جعل الإسلام نصيب الذكور فى الميراث أكبر من نصيب نظائرهم من الأناث فى معظم الأحوال[١] فللذكر مثل حظ الأنثيين فى الأولاد والأخوات . وللزوجة من زوجها المتوفى نصيب الزوج من تركة زوجته. ونصيب الأب من تركة ولده يزيد أحيانا على نصيب الأم ولا ينقص عنه فى أى حال .

وقد بنيت هذه التفرقة على أساس التفرقة بين أعباء الرجل الاقتصادية فى الحياة وأعباء المرأة ، فمسئولية الرجل فى الحياة من الناحية المادية أوسع كثيراً فى الأوضاع الاسلامية من مسئولية المرأة . فالرجل هو رب الأسرة ، وهو القوام عليها ، والمكلف بالإنفاق على جميع أفرادها بالفعل إن كان متزوجا أو سيصبح مكلفا بذلك بعد زواجه . وعلى الرجل وحده كذلك تجب نفقة الأقرباء . على حين أن المرأة لا يكلفها الإسلام حتى الإنفاق على نفسها كما سبق بيان ذلك . فكان من العدالة إذن أن يكون حظ الرجل من الميراث أكبر من حظ المرأة ، حتى يكون فى ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة التى وضعها الإسلام على كاهله وأعفى منها المرأة رحمة بها وحدبا عليها وضمانا لسعادة الأسرة . بل إن الإسلام قد بالغ فى رعاية المرأة إذ أعطاها نصف نصيب نظيرها من الرجال فى الميراث مع إعفائه لها من أعباء المعيشة وإلقائها جميعاً على كاهل الرجل .

ولحرص الإسلام على أن يحصل كل وارث ، ذكراً كان أم أنثى على حقه المقرر له بحسب قواعد الميراث ، حظر كل تصرف يؤدى إلى الإخلال بهذه القواعد . وفى هذا يقول الله تعالى بعد أن قرر أحكام الميراث : « تلك حدود الله : ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار وذلك هو الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين[٢] » .

ولكن على الرغم من ذلك كان كثير من الملاك فى بعض البلاد العربية يتحايلون للتخلص من هذه القواعد ومن الحيل التى كانوا يلجأون إليها نظام الوقف الأهلى ، فكانوا يحبسون غلة ملكهم كله أو بعضه على بعض أولادهم وأقربائهم بمقادير وشروط يعينونها وفق ما يشاءون وتشاؤه لهم أهواؤهم . وكانت البنات هن اللائى يذهبن فى الغالب ضحية تلك الحيل والأهواء . فكن يحرمن بذلك من نصيبهن فى التركة ، أو يحصلن على أقل مما كن يستحققنه ، أو يقيد تصرفهن فيما يؤول إليهن .

ومع أن بعض فقهاء المسلمين يجيز الوقف الأهلى فإن معظمهم يذهب إلى تحريمه ، لما ينطوى عليه من حبس للثروة عن التداول الطبيعى ، ومن إخلال بقواعد الميراث وإضرار ببعض الورثة . وقد اعتمد على هذه المذاهب القانون المصرى رقم ١٨٠ لسنة ١٩٥٢ إذ ألغى جميع أنواع الوقف الأهلى ، وحظر إجراءه ، وقرر أن كل وقف من هذا القبيل يعد باطلا فى المستقبل .

---

(١) نقول « فى معظم الاحوال » ، لانه توجد احوال يسوى فيها الاسلام بين نصيب الذكر والانثى فى الميراث ، كما فى حالة وجود أبوين مع ابن بنتين فصاعدا ، فان نصيب الام فى هذه الحالة يكون مساويا لنصيب الاب . فيأخذ كل منهما السدس . كما فى حالة وجود أخوة واخوات لام ، فانهم جميعا يستحقون ثلث التركة يقسم عليهم بالتساوى لا فرق بين ذكورهم واناثهم ، وهذا مالم يحجبهم حاجب من الميراث .

(٢) سورة النساء آيتى ١٣ ، ١٤

٤ — التفرقة بين الرجل والمرأة فى القوامة

أعطى الإسلام الرجل الحق فى القوامة على البيت. وبنى ذلك على سببين رئيسيين: أحدهما أن الرجل هو المكلف بالإنفاق على الأسرة ، ولا يستقيم مع العدالة فى شىء أن يكلف فرد بالإنفاق على هيئة ما بدون أن تكون له القوامة عليها والإشراف على شئونها ، وعلى هذا المبدأ قامت الديمقراطيات الحديثة وقامت الدساتير فى العصر الحاضر فأساس هذه الديمقراطيات وهذه الدساتير أنه لما كان المواطنون فى أمة ما هم الذين يدفعون الضرائب ويقومون بالإنفاق على مرافق الدولة ، فإنه من الواجب إذن أن يكون لهم الحق فى القوامة على أمورها ومراقبة جميع سلطاتها ووضع ما يصلح لها من تشريع ، ويلخص علماء القانون الدستورى هذا المبدأ فى العبارة التالية : «من ينفق يشرف» أو « من يدفع يراقب » Qui paye contrôle

والسبب الثانى الذى بنى عليه الإسلام قوامة الرجل على الأسرة أن المرأة مرهفة العاطفة قوية الانفعال ، وأن ناحية الوجدان لديها تسيطر سيطرة كبيرة على مختلف نواحى حياتها النفسية . وقد سوى الله المرأة على هذا الوضع ، ليكون لها من طبيعتها ما يتيح لها القيام بوظيفتها الأساسية وهى الأمومة والحضانة ، على خير وجه . فلا يخفى أن هذه الوظيفة تحتاج إلى عاطفة مرهفة ووجدان رقيق وحنان رحيم أكثر مما تحتاج إلى التفكير والإدراك والتأمل على حين أن الرجل لا يندفع فى الغالب مع عواطفه ووجداناته اندفاع المرأة ، بل تغلب عليه ناحية الإدراك والتفكير . وغنى عن البيان أن القوامة والرياسة تحتاجان إلى الإدراك والتفكير والتأمل أكثر مما تحتاجان إلى العاطفة والوجدان . فصفات القوامة والرياسة متوافرة إذن فى الرجل بطبعه أكثر من توافرها فى المرأة .

وإلى هذين السببين الرئيسيين يشير القرآن الكريم فى عبارة موجزة بليغة إذ يقول : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

هذا إلى أن الإسلام قد جعل قوامة الرجل فى الأسرة قوامة رحيمة قائمة على المودة والمحبة والإرشاد ، وقيدها بقيود كثيرة تحفظ للمرأة كرامتها وتصون حقوقها وتحقق مصلحتها على خير وجه . فهى رعاية ومحبة مخلصة ، وليست بسلطان مفروض ، وهى تدبير وإرشاد ، وليست بسيطرة ولا استبداد . وقد حرص الإسلام على أن يحد من نطاقها فى صورة تكفل مصلحة الأسرة ومصلحة المرأة نفسها . وراعى هذه القواعد فى جميع الأوضاع التى تجتازها المرأة فى حياتها .

فإذا كانت غير متزوجة كان مظهر القوامة محافظة ولى أمرها عليها وصيانتها وتزويدها بما تحتاج إليه من نفقة حتى لا تتبذل بعمل مهين أو تتردى فيما لا يليق بها ولا بأسرتها ويسىء إليها فى حاضرها ومستقبلها . فالقوامة هى قوامة وحفظ وصيانة ورعاية وحماية وإمداد بكل ما تحتاج إليه فى حياتها .

حتى إذا ماجاء دور زواجها وهى بالغة عاقل فإن لها أن تختار الزوج الذى تريد اختياراً حراً على أن يشترك معها وليها بالمشورة والرأى فيمن تختاره ، ولكن ليس له أن يجبرها على زوج معين . وإن اختار هو زوجاً لا يتم زواجها به إلا برضاها ، وحكمة هذا التشريع أن هذا الزواج ليس علاقة بين فردين فحسب ، بل هو كذلك علاقة بين

أسرتين . فإن لم يكن متكافئاً لحق عاره بأسرة الزوجة على الأخص . فأراد الإسلام أن يحافظ على حق الأولياء فى ألا تلحق المرأة بزواجها عاراً بهم ، فأشرك الأولياء معها فى اختيارها من غير إرهاق ولا استبداد بها . واحتاط للأمر فجعل للقاضى سلطان التدخل إن تجاوزوا حدودهم . بل لقد ذهب أبو حنيفة إلى أبعد من ذلك ، فقرر أن للمرأة أن تزوج نفسها متى شاءت بشرط ألا تتزوج إلا بكفء ، وليس لوليها الاعتراض إلا عند عدم الكفاءة . وعلى هذا المذهب تصير القوانين المصرية فى الوقت الحاضر . وسواء أذهبنا مذهب جمهور الفقهاء أم مذهب أبى حنيفة فإن قوامة الرجل التى قررها الإسلام على المرأة فى هذه المرحلة تتمثل فى رعاية حكيمة تتحقق بها مصلحة الأسرة ومصلحة المرأة نفسها .

وبتمام الزواج تنتقل القوامة على المرأة إلى زوجها . ولكن هذه القوامة لا تنتقص شيئاً من شخصية المرأة وأهليتها المدنية ، فالمرأة المسلمة — كما تقدم بيان ذلك — تظل بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها وبكامل حقوقها المدنية وبأهليتها فى تحمل الالتزامات وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء وهبة ووصية وما إلى ذلك ، ومحتفظة بحقها فى التملك تملكا مستقلا عن غيرها : وإنما تتمثل قوامة الرجل على زوجته فى الإسلام فى حقه فى تدبير سياسة البيت فى تعاون مع المرأة ، وفى أن تطيعه زوجته فى دائرة المعقول المعروف . وقد فرض الإسلام عليه فى مقابل ذلك عدة واجبات . فأوجب عليه الإنفاق على الأسرة وصيانة حقوق أفرادها ورعايتهم ، كما أوجب عليه العدالة ، والمعاملة بالحسنى ، والرفق فى علاج مشاكل الحياة الزوجية . وأخذ الأمر بيسر وهوادة ، وأن يقوم المعوج فى رفق ولين . ولذا كان النبى عليه السلام يعتبر خير الناس خيرهم لأهله . فيقول عليه السلام : « خيركم خيركم لأهله »

وقد لخص القرآن هذا النظام الحكيم فى عبارة موجزة بليغة إذ يقول : «ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة[1] » . فللمرأة من الحقوق فى نظر الإسلام مثل ما عليها من واجبات ، والرجل مثلها عليه من الواجبات بمقدار ماله من حقوق . وحتى الدرجة التى منحها الله له على المرأة وجعل له الرعاية على الأسرة بسببها ليست حقا خالصاً من الواجبات .

هذا ، وقد حافظ البيت العربى فى مختلف عصوره على المبادىء التى وضعها الإسلام لشئون القوامة ، وخاصة ما يتعلق منها بصيانة كرامة المرأة واحترام شخصيتها ورعاية حقوقها . بل لقد استحالت قوامة الرجل فى العصر الحاضر فى معظم البلاد العربية ، وفى مختلف الطبقات العليا والمتوسطة والدنيا ، إلى مجرد قوامة شرعية قانونية ، بينما تركزت فى يد المرأة من الناحية العملية معظم مظاهر السيطرة على البيت والإشراف على شئونه وشئون أفراده .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٢٨ .

العوامل المؤثرة فى تنشئة أفراد البيت العربى وفى شخصياتهم

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

(الجمهورية العربية المتحدة)

يتردد الإنسان طويلا أمام السؤال الأول الذى يتبادر الى ذهنه عندما يفكر فى العوامل المؤثرة فى تنشئة أفراد البيت العربى ، فهل هناك عوامل خاصة فى تنشئة أجيال الإنسانية فى شتى أصقاع الأرض أى أن الإنسان فى عمومه يتأثر بعوامل واحدة فى حقيقتها ؟

يقول مؤلف كتاب « أصول علم المجتمع الإنسانى » (تشابل وكوف) .

« إن الأسرة بمعناها المباشر أو الحيوى التى تتكون من والد ووالدة وأطفال هى أهم ما أقامه الإنسان من نظم وأوسعها انتشاراً فهى كائنة فى كل مجتمع إنسانى . بل إن وجودها لا يقتصر على جماعات الجنس البشرى وحده إذ هى قائمة كذلك بين القردة العليا ومادونها وبين الثدييات عامة والطيور . فتكوين الأسرة بوصفها جماعة تتعامل فيما بينها تعاملا مستمراً تحكمه العادة أمر تبعث عليه ظروف حتمية جوهرية تخضع لها الجماعات البشرية عامة » .

على أنه من الحق أن نقول أن العوامل الفعالة فى وجود الأسرة وفى مسالكها وإن كانت واحدة فى حقيقتها وجوهرها قد تختلف فى خصائصها العريضة من حيث كمها عن بعض المبادىء العامة التى تتصل بتعامل الناس فى جماعة ، فالمبدأ العام الأولى الذى تبنى عليه العلاقات البشرية هو أن العلاقة فى جماعة هى فى جوهرها نوع من التساند والاعتماد المتبادل . الإنسان منذ بدأ تطوره كان يعيش فى مجتمع يتساند أفراده ويعتمد بعضهم على بعض اعتماداً متبادلا وكانت الأسرة هى نواة المجتمع الإنسانى لدوافع طبيعية محتومة نذكر أهمها فيما يلى :

١ — إن الطبيعة جعلت الزواج سكناً ضرورياً للإنسان بصفة خاصة ، وهذه الضرورة الطبيعية تقتضى استمرار العلاقة الزوجية إذ لولاها لاختل توازن « السكن » عند الزوجين .

٢ — إن الطبيعة قضت بأن الطفل الإنسانى فى حاجة إلى رعاية مستمرة وتربية حتى يتاح له البقاء فى الحياة .

٣ — إن بقاء الحياة الإنسانية يتوقف على تشارك الأب والأم فى تدبير الحياة وفى رعاية ذريتهما وهما يقسمان الأعمال الضرورية لذلك فيما بينهما .

وعلاقة التساند والاعتماد المتبادل بين أفراد الجماعة — أو الأسرة — يقتضى أن يكون بينهم تعامل متصل له وظيفة حيوية وهى حفظ الحياة ، ولهذا كان التعامل المتصل بين أفراد الأسرة جانباً هاماً من كيانهم فإذا اختل أو

تغير مجراه لسبب من الأسباب بالنسبة لفرد من الأسرة استلزم تغييرات أخرى فى مجرى الأفراد الآخرين جميعا .

فالعلاقات بين أفراد الأسرة ومجراها وأسرار اختلالها هى العوامل الجوهرية فى مسالكهم، وهى لذلك جديرة بأن نعرج عليها قليلا ، والقانون الأساسى الذى يحكم هـــذه العلاقات هو « قانون حفظ التوازن عند الفرد »

فالفرد بوصفه كائنا حيا يتوقف فى سلامة حياته على وجود الانسجام بينه وبين ما يحيط به سواء كان ذلك المحيط طبيعيا أو إنسانيا . وهو دائم الاتصال بما يحيط به ودائم التأثر به ما دام حيا . وهو لا يملك أن يغير الطبيعة التى حوله ولا أن يغير الناس الذين يحيطون به فلا سبيل له إلى إحداث الانسجام مع ما يحيط به إلا بأن يحدث الملاءمة بينه وبين ذلك المحيط بنفسه وفى نفسه فإذا لم يستطع إحداث هذا الانسجام تعرض للاختلال فى حياته. وقد يكون ذلك مؤديا إلى ضياعها .

فمن ناحية الجسم قد وهب الله للحياة البشرية مقدرة على الملاءمة مع ما قد يحدث من التغير فى المحيط الطبيعى ومن أمثلة هذه القدرة ما يحدث فى الجسم من تغير فسيولوجى لمواجهة تغيرات الحرارة فى الجو بإفراز العرق لمواجهة اشتدادها وانقباض الدم فى الجلد لمواجهة انخفاضها ، فأعضاء الجسم كلها مستعدة فى كل وقت للمبادرة إلى إحداث التغير الملائم الذى يواجه التغيرات المعتادة فى الجو المحيط به . ويمكن إيراد أمثلة أخرى لا حصر لها للدلالة على ما للجسم الإنسانى من خصائص فى إحداث التغير المناسب لمواجهة ما يعترضه من المشكلات الطبيعية ، ولا حاجة بنا إلى الإطالة فى هذا السر الحيوى الذى له الفضل فى حفظ وبقاء الأحياء عامة والإنسان خاصة وحسبنا الإشارة إليه فيما نحن بصدده من الحديث .

وأما من ناحية المحيط البشرى فإن الفرد يكون على اتصال مستمر به ويكون دائم الانفعال بمؤثراته . وهذه المؤثرات تحدث فى الصغار استجابة أقوى مما تحدثه فى الكبار لقلة تحكم الأبناء فى استجابتهم لها، فما يزال الطفل يتأثر وينفعل بما يقع عليه من هذه المؤثرات وهو فى أثناء ذلك مستمر فى عملية الملاءمة بينه وبينها وتنشأ فيه من وراء هذا ما يمكن أن نسميه بالترويض الذى ينتهى آخر الأمر إلى إحداث حالة من التعادل بين حس الطفل وبين المؤثرات التى تقع عليه . وهذا التعادل هو الذى يجعله تدريجيا قادراً على امتلاك أزمة انفعالاته والتحكم فى اندفاعاتها وذلك بتعود التأثير والانفعال والوصول إلى التعادل .

فالطفل منذ ولادته يتعامل مع المحيط الإنسانى الذى هو فيه من أمه وأبيه وحدها أو فى وسط إخوته ثم يتعدى تعامله بعد ذلك إلى دوائر أوسع فأوسع من المحيط الاجتماعى الذى حوله ، ولو فرضنا أن الطفل يبقى فى عزلة تامة عن محيطه الإنسانى لبقيت اندفاعاته الممكنة خامدة ولا نعدمت فيه العملية الطبيعية التى تؤدى عادة إلى التلاؤم بينه وبين ذلك المحيط . بل لو أن طفلا صغيراً نشأ فى محيط غير إنسانى لتعامل معه تعاملا مختلفا عن انفعالاته بالمؤثرات الإنسانية ولأدى ذلك التعامل إلى أن يكون متلائما مع المحيط غير الإنسانى . وقد روى بعض الباحثين بعض أمثلة واقعية وجد فيها الطفل الإنسانى فى محيط حيوانى . فلما كبر كان قد تلاءم فى انفعالاته مع الحيوان الذى يعيش معه وبعد بعداً كبيراً عن التلاؤم مع الحياة الإنسانية عندما أعيد اليها .

على أن الطفل قد ينمو فى محيطه البشرى نمواً عادياً وتستمر عملية الملاءمة بينه وبين ذلك المحيط على توالى الأيام فيكون طفلا عادياً ثم صبياً عادياً ثم يافعا أو آناً عادياً مادامت المؤثرات الواقعة عليه سائرة سيرها الطبيعى المعتاد . والترويض الذى يحدث له فى أثناء هذا النمو هو الذى يحدد مسلكه بعد ذلك عندما يستقل عن أسرته ليبدأ بدوره فى تكوين أسرة جديدة . غير أنه قد يحدث أحيانا أن يتغير سير المؤثرات التى تقع عليه ممن حوله . أو أن يختفى أحدها من عالمه أو أن يستجد فيه مؤثر لم يسبق وجوده فيه . فهذا التغير يكون بمثابة اضطراب فى نظام انفعالاته المعتادة . ولا يقتصر هذا الاضطراب على علاقته بذلك المؤثر الجديد وحده بل تتغير كل انفعالاته الأخرى مع المؤثرات الأخرى . ويمكن أن نلجأ إلى الاستعانة بالتشبيهات — مع خطورة هذا الالتجاء — فنشبه الفرد بأداة معقدة ذات تروس كثيرة كل منها واصل بما يليه فى حركة منتظمة. فإذا اختل أحد تلك التروس كانت النتيجة اختلال فى حركة سائر التروس سواء المتصلة به مباشرة أو التى يكون اتصالها به غير مباشر .

وكلما كانت عملية التعامل والانفعال وما يحدث عنها من الترويض مستقرة عادية كانت الملاءمة بين الطفل وبين الوسط المحيط به متوازية مستقرة وأدى ذلك إلى انتظام انفعاله به . فإذا حدث تغير طارىء فى هذا التعامل وحدث الاضطراب الملازم له فى انفعال الطفل فإن استمرار العلاقة مع العامل الجديد تعيد إلى الطفل اتزانه بعد حين . أما إذا استمر التغير ولم يحدث بعده استقرار فى انفعال الطفل فإن ذلك يبدد سلامته النفسية لأنه يؤدى إلى استمرار انعدام التوازن بين الطفل ومحيطه . أو بقول آخر يؤدى إلى عدم تحكمه فى انفعالاته . وبهذه الطريقة ينشأ الطفل منفلتا فى الانفعال . ولا يتمكن من التدرج نحو امتلاك أزمة انفعالاته .

وليست تربية الطفل فى أسرته سوى سلسلة تدريبات متكررة يقوم بها الوالدان معه عمليا حتى يصلا به إلى تعود مايريد أن يعوداه . وليس من المهم أن يكون ذلك التدريب المتكرر مقصودا ، فإن الأبوين ينشئان طفلهما بالتعامل معه تعاملا عاديا غير متعمد وهو يتشرب مايعاملانه به عفواً بحكم تكرر المواقف المتشابهة وارتباط كل موقف منهما بانفعال واحد .

ومما يزيد من أثر الأبوين فى تنشئة طفلهما أنهما فى العادة يجعلان مواقفهما مع الطفل مصحوبة بما يثير الرضى والسرور إذا أرادا من طفلهما أن يفعل شيئا معينا مرغوبا فيه ومصحوبة بما يثير الألم إذا أراداه أنه يمتنع عن عمل معين غير مرغوب فيه . فالأم تناغى ولدها إذا أطعمته وتغنى له إذا أنامته وتضمه إلى صدرها إذا خطا أولى خطواته وقد تجزيه جزاء مرضيا إذا هو أحسن فى نظرها كما قد تجزيه جزاء مؤلما إذا هو أساء . ومصاحبتها الإحسان بالسرور والإساءة بالألم تزيد فى قوة ترويضه لأن تكراره العمل الحسن يكون مصحوبا بإحساس الرضى وتكراره العمل السيء يكون مصحوبا بإحساس الألم .

تشرب طريقة الحياة :

وعندما يولد الطفل يكون على فطرته عاجزا كل العجز فيما عدا ما أودع الله فيه من أسرار الحياة وما ورثه من الاستعدادات الأساسية ، وهو فوق عجزه جاهل لكل أمر من أمور الحياة طبعا . وكل مافيه من خصائص الجسم فى حالة إرهاصية مطلقة وانفعالات الطفل مطلقة من كل قيد كأنه متوحش ساذج . وتستمر عملية التلاؤم بينه وبين محيطه الإنسانى كلما مر على مدى غير قصير فيتلقى فى أثناء ذلك مايصل إليه من المؤثرات وينفعل بها حتى

يستقر انفعاله بكل مؤثر منها شيئا بعد شيء ، فهو يستقبل فى كيانه كل مايتلقاه من المحيط الإنسانى الذى حوله ولا سيما أبواه ثم أخوته إذا كان فى ظروف عادية . فأسرة الطفل هى التى تنقل إليه مالديها من ذخيرة مسالك الحياة المعروفة لديها أو بقول آخر هى التى تنقل إليه مسلكها فى الحياة ، فبقدر ما يكون مسلك الأسرة تكون نشأة طفلها وبقدر مايبلغ الطفل من الاستقرار فى الملاءمة بين انفعاله وأثر أسرته يكون انسجامه معها .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نوجه النظر إلى أن استقرار الطفل فى التعامل بينه وبين أسرته يقوم على اعتبارين هامين:

١ — وجود مؤثر فاعل وهو الذى يبادىء الطفل بالتعامل ويتلقى استجابته ، فالأم والأب والأخوة الكبار فى الأسرة عوامل مؤثرة أو مبادىء فاعلة تجاه الطفل وهو يستجيب إلى تأثيرهم بانفعاله المستمر له .

٢ — استمرار التعامل على وتيرة واحدة منظمة لمدة طويلة .

ولا يقتصر التعامل بين الطفل وأسرته على نقل مسالك الحياة اليومية إليه بل يسرى فى ثنايا ذلك التعامل جانب كبير مما نسميه الثقافة القومية . فهو يتذوق من أمه نغمات الأغانى ويتشرب منها ومن أبيه وأخوته أو والدته مقاييس الحسن والقبح والخير والشر ، وهو فى لعبه مع أخوته أو لداته يفطن إلى معانى الفكاهة ومقاييس العدالة والتعاون بغير أن تتحدد له أسماء تلك المقاييس أو المعانى ، غير أن الطفل عند تلقى مايتجه إليه من المؤثرات قد يتعرض إلى أنواع شتى من الاضطرابات التى تحول بينه وبين بلوغ التوازن والانسجام الطبيعى وتسبب فى نظامه النفسانى اضطرابا يؤدى إلى اختلال انفعالاته .

ولأهمية هذا الجانب من التعامل يحسن بنا أن نعرج إجمالا على الأسباب الجوهرية التى قد تحدث فى الطفل هذا الاختلال فى الانفعال .

فالطفل كما سبق القول يتلقى المؤثرات التى تتجه إليه ممن حوله (وهم أعضاء أسرته فى أول الأمر) ويصل بالتدريج إلى الحكم فى انفعالاته حتى أنه عندما يتعرض لموقف يستثير فيه انفعالا قويا كالغضب مثلا لايلبث بعد حين أن يعود إلى حياته العادية المتزنة .

غير أنه قد يحدث أن الظروف المحيطة بالطفل تتغير تغيراً حاسما شديداً كما يحدث عند فقد عضو من أعضاء الأسرة كالأب والأم أو أحد الأخوة . ففى هذه الحالة يختل توازن المؤثرات والاستجابات لكل عضو من الأعضاء الآخرين فى الأسرة ويكون من الضرورى لهم جميعا أن يسدوا الفراغ الذى خلا بفقد العضو العزيز عليهم الذى تعودوا تلقى المؤثرات منه والاستجابة إليها . فلا بد لكل منهم مثلا أن يزيد تعامله مع الآخرين الباقين معه بحيث يعوض نفسه عما فقده من التعامل .

فإذا لم يتوفر ذلك كان لابد له أن يستعيض عنه بتعامل جديد مع أفراد آخرين فى غير دائرة الأسرة .

وفى هذه الحالة لا بد أن يبدأ من جديد فى عملية التأثير والانفعال مع المؤثر الجديد حتى يتم التوازن والانسجام بينهما . ولكن قد يحدث أحيانا أنه لا يتيسر لهم جميعا أو لبعضهم أن يصل إلى تحقيق هذا التعويض فلا يتمكن من العودة إلى حالة الاستقرار والاتزان عن طريق العلاقات الجديدة ، فيلجأ إلى التعويض عن النقص الذى أصابه بطريق آخر — طريق صامت خفى يندفع إليه من غير وعى ولا اختيار — وهناك نوع آخر من التغير يحدث اختلالا

فى التوازن يماثل ماسبق وصفه وهو فقد المقدرة على الاستجابة للمؤثرات أو إضعافها على الأقل وذلك عندما يزيد شخص جديد على الأسرة ففى هذه الحالة يبدأ التعامل بين أفراد الأسرة على أساس هذه الزيادة ولا بد من محاولات متعددة فى التعامل بينهم على أساس جديد يخالف ما اعتادوه من قبل فى قليل أو كثير وما يزالون فى ذلك ينجحون أحيانا ويخفقون أحيانا حتى يصلوا آخر الأمر إلى حالة استقرار وتوازن جديدة . فإذا لم يستطيعوا بلوغ هذه الحالة حدثت نتائج هامة فى شخصيتهم جميعا أو فى شخصية بعضهم باللجوء إلى طريقة التعويض الخفى الصامت الذى سبقت الإشارة إليه . .

وحالات التغير الذى يؤدى إلى إخلال التوازن فى تعامل أفراد الأسرة تكون أشد وقعا وقد تستعصى على التعويض وعلى عـــودة التوازن من جديد فى حالة ما إذا كان التوازن السابق على التغير توازناً مستقرا ثابتا لمدة طويلة .

ففقد أحد أعضاء الأسرة فى مثل هذه الحالة يؤدى فى أكثر الأحيان إلى اختلال لايسهل التعويض عنه بطريقة سليمة وقلما يتهيأ لأفراد الأسرة أو لبعضهم على الأقل أن يستعيدوا حالة الاتزان السابقة .

وقد تؤدى مثل هذه الحالة بفرد أو أكثر من الأسرة إلى التعويض الخفى الصامت الذى يتمثل فيه مرض نفسانى .

ولنضرب مثلا لصبى يعيش مع أبيه وأمه وأخوة أكبر منه فى حالة اتزان مستقر ثابت وكان ذلك الصبى لسبب من الأسباب موضع رعاية من أمه أو أبيه كأن يكون ضعيف البنية أو ممتازاً بميزة معينة ، ولنفرض أن هذه الرعاية الخاصة قد أدت به إلى تقليل علاقاته خارج الأسرة فى حين أن أعضاء آخرين يوزعون علاقاتهم بين الأسرة وخارجها .

فلو فقد هذا الصبى أباه أو أمه كان من أصعب الأمور عليه أن يعوض عن التغير الذى يحسه لأنه لايسهل عليه زيادة علاقاته خارج الأسرة ولا بأفراد الأسرة الآخرين الذين يوزعون جانبا من علاقاتهم فى خارج الأسرة . وفى أغلب الحالات يقع مثل هذا المسكين ضحية للأمراض العصبية وما هذه الأمراض سوى المسارب الخفية الصامتة التى يندفع إليها برغمه كتعويض وبيل لما فقده .

العوامل المؤثرة فى تنشئة أفراد البيت العربى .

قلت فيما سبق أن الإنسان يتردد كثيرا إذا أراد أن يتحدث فى كلمة عامة عن البيت العربى وتنشئة أفراده لأن المؤثرات التى تحدث بين أفراد الأسرة عامة للإنسان فى كل بيئة ، فإذا أردنا أفراد بيئة خاصة بالبحث زادت الصعوبة التى تواجهنا لأن العوامل المؤثرة فى حياة الأسرة وتنشئة أفرادها تتأثر تأثرا عظيما بالبيئة الطبيعية وما ينشأ عنها من اختلاف فى أوضاع الأسرة كما تتأثر باختلاف الأنماط التى تتخذها الثقافة الواحدة فى الأوساط المختلفة .

ولهذا فإن الحديث فى مثل هذا الموضوع يقتضى حتما أن يقتصر فيه على الخطوط العامة التى تشترك فيها الأسر العربية برغم اختلاف الأوساط الطبيعية والأنماط الاجتماعية .

وإنه من الخير أن يكون البحث فى موضوع الأسرة العربية قائما على أبحاث مفصلة عن كيان الأسرة وخصائصها فى كل صقع من الأصقاع حتى يطمئن الباحث إلى استخلاص العناصر المشتركة بينها .

ومهما يكن الأمر فإنه من الممكن أن نستخلص مما سبقت الإشارة اليه فى المقدمات السابقة طائفة من الاعتبارات التى يمكن أن تحدد العوامل المؤثرة فى الأسرة العربية خاصة وهى التى تؤثر بطبيعة الحال فى تنشئة الأفراد الذين تتكون منهم كل الأسر .

وقد سبق أن تحدثنا عن أهم الأسباب التى حتمت نشأة الأسرة فى المجتمع الإنسانى وهى :

١ — العلاقة الجنسية وضرورة استمرارها بالنسبة للإنسان .

٢ — طول المدة اللازمة لتربية الطفل وترويضه لمواجهة الحياة .

٣ — ضرورة تقسيم العمل بين الأب والأم حتى يمكن حفظ كيان الذرية .

فوجود الأسرة قائم على وجود : ١ — أبوين ، ٢ — تقسيم العمل وتنظيم العلاقات بين أفراد الأسرة .

والأبوان العربيان هما اللذان يبادئان فى التعامل مع الأبناء والأبناء هم الذين يستجيبون لتأثير هذه المبادأة ، وقد توجد فى الأسرة الواحدة طبقتان من الذرية بعضهم أبناء الأبوين وبعضهم أبناء الأبناء وقد تزيد طبقات الذرية على اثنتين فى بعض الحالات .

ومن هنا تنشأ علاقات متعددة بين طبقات من الآباء والأبناء كما تتعدد العلاقات بين بعض الذرارى وبعض ومن ثم ينشأ نوع آخر من المبادأة من جانب الكبار إلى الصغار فى الذرية كما قد تنشأ مبادآت أخرى من جانب الرجال نحو النساء ، فالمبادأة أو بقول آخر الزعامة والقيادة تكون للآباء على الأبناء أولا ثم قد تكون لكبار الأبناء على إخوتهم أو الذكور من أعضاء الأسرة على الإناث .

وفى الحالات التى تزيد بها طبقات الذرية تتعقد علاقات التعامل بين أفرادها ويكثر عدد المبادئين فيها ، وفى هذه الحالات تقل المبادأة العليا من كبير الأسرة . وبمقدار قلتها يصبح رب الأسرة الكبير رمزا له كرامة خاصة وتتمثل فيه هيئة مثالية بعيدة عن مواقف التعامل اليومى . فبمقدار قلة المبادآت من جانب كبير الأسرة الواسعة تقل مسئوليته فى المبادأة وتزيد مكانته بين أفراد الأسرة ويكون مطالبا ببذل مجهود كبير فى المحافظة على هذه المكانة التى تقتضى صفات ممتازة فى الزعامة . ومما يؤدى إليه اتساع الأسرة العربية وقلة مبادآته لأفراد أسرته أو فتورها زيادة نفوذ كبار الأبناء على صغارهم وزيادة سيادة الذكور على الإناث . وقد تحدث فى بعض الأحوال أن تتسع دائرة الأسرة وتتكون من مجموعة أسرات تجمعها رابطة الأخوة مثلا وتكون الزعامة بين الآباء الأخوة لأكبرهم سنا إلا إذا كان غير أهل لهذه الزعامة فتنتقل الزعامة إلى أكبر الأخوة شخصية .

والأسرة المتوسعة على هذه الصورة تستلزم وجود نظام يحفظ عليها رابطتها ويكفل انسجام التعامل بين أفرادها وعند ذلك يكون التعامل بين أفراد الأسرة الكبيرة أو البيت الكبير ضخما إلى حد أنه يقلل من علاقاتهم خارج البيت ، ومن ذلك ينشأ فى أفراد البيت الواسع نوع من العصبية والانعزال .

والأسرة العربية لا تسير على نظام واحد ولا على تكوين واحد شأنها فى ذلك شأن الأسرة فى سائر أنحاء الأرض

فإن طبيعة البلاد العربية وإن كانت متشابهة بوجه عام فى أطراف العالم العربى تختلف فى تفاصيلها اختلافا ظاهرا فالطبيعة الأقطار المختلفة آثار تعمل على تنويع نظام الأسرة واتساعها بين قطر وآخر . بل إن نظام الأسرة من حيث تكوينها وعلاقات أفرادها يختلف فى القطر الواحد تبعا لعوامل شتى لاحاجة إلى تفصيل الحديث عنها هنا . .

غير أن الأسرة العربية وإن اختلف نظامها وتكوينها وعلاقات أفرادها تبعا لاختلاف المؤثرات المحلية فى مختلف الأقطار والأصقاع تشترك فى عناصر لها أعظم الأهمية فى نظام الأسرات وهى العناصر التى يمكن أن نجعلها تحت عنوان واحد وهو « العوامل الثقافية » المشتركة ، وسنعرض للبحث أهم العلاقات التى تربط بين أفراد الأسرة العربية وأثرها فى تنشئة أفرادها آخذين بعين الاعتبار ما قد يكون هناك من الظروف التى تدعو إلى المخالفة بين أنماط نظمها فى الأقطار والأصقاع المختلفة.

وأول هذه العلاقات وأهمها فى نظام الأسرة هو الزواج .

فالزواج هو حجر الأساس الأول فى بناء الأسرة، الأبوان هما اللذان يبادئان ذريتهما بالمؤثرات الأولى فى حياتهم وتتوالى هذه المبادأة حتى تنفصل الذرية عن الأسرة لإنشاء أسرات جديدة ، والأبوان هما اللذان يقسمان العمل بينهما لحفظ كيان الأسرة وعلى هذا يكون اختيار الزوجين أحدهما للآخر هو أول عنصر فعال فى حياتها . .

ويكون الاختيار فى الظاهر من حق الرجال فى المجتمع العربى عادة وذلك لأن الرجل هو الجانب المبادىء فى هذا المجتمع . ولكن الحقيقة تخالف هذا الظاهر فإن مبادأة الرجل فى أول تكوين الأسرة لاتتعدى كونه يتقدم للزواج من المرأة . فالرجل يخطب المرأة التى يريد أن يجعلها زوجته ويكون القبول من جانب المرأة إذا رضيت بأن يكون الرجل زوجها . فإذا كانت المبادأة من جانب الرجل فأن إتمام التعاقد إنما يكون باختيار المرأة . ومن هنا يمكن أن نقول أن حقيقة الاختيار فى يد المرأة لا الرجل . وقد جرت العادة فعلا أن يبدأ التعاقد على الزواج بأن يقول ولى أمر الزوجة أو وكيلها للزوج أو وكيله أنه يقبل تزويج المرأة للرجل .

وإذا كان الحديث الشريف يقول « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » ويقول « إياكم وخضراء الدمن » فذلك لأن الإسلام يعترف بأن الرجل هو الذى يملك المبادأة وليس معناه أن الرجل هو الذى يتمم تكوين الأسرة باختياره . والذى يقصده الحديث الشريف هو أن يوصى الرجل بتحرى الحكمة عندما يريد أن يتقدم إلى امرأة ليتخذها زوجة ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام يعرف الحقيقة الطبيعية الخالدة وهى أن المرأة هى التى سوف تختار زوجها وهى التى عليها عبء القبول آخر الأمر . وهذه الحقيقة تجعل مسئولية المرأة فى انعقاد الزواج مسئولية كبيرة . إذ لا بد أن يكون اختيارها موفقا إذا أريد أن يكون الزواج موفقا . والنساء يختلفن فى مقاييسهن للرجال فقد ترضى أمرأة بأن تتزوج من رجل لحسن هيئته الظاهرة ، وقد ترضى أخرى بالتزوج من رجل لعقله أو لمكانته فى قومه أو لحسن مسلكه فى الحياة أو لثروته . ويكون اختيار المرأة للزوج قائما على أساس صالح إذا كانت صالحة وكان وحى غريزتها موفقا إلى حسن الاختيار . ومما لا شك فيه أن اختيار المرأة يكون موفقا إذا كانت متصفة بالحكمة والتعقل عارفه بما هو جوهرى فى الحياة وما هو عرضى ، وإذا كانت متحكمة فى ميولها بحيث لا يؤثر فى حكمها تفضيل الأعراض من مال أو جاه على الجواهر من صفات الرجل الأصلية ، ومما يمكن أن نصل إليه من هذا أن المرأة ما دامت مسئولة مثل هذه المسئولية عن صلاح العلاقة الزوجية كان لابد لها أن تكون مثقفة ثقافة صحيحة وأن يكون الرأى الأخير

لها فيما يتصل باختيار زوجها . فتعليم المرأة وتقرير حقها فى حرية الاختيار عاملان أساسيان فى صـــلاح أساس الأسرة العربية .

وأهم ما يصل إلى تدعيم العلاقة بين الرجل والمرأة هو التوافق الذى قد يتخذ أحيانا مظهراً نسميه الحب . والحب الصحيح أشمل وأعمق من الحب الجسمانى الحيوانى وإن كانت الحياة الزوجية السعيدة تستلزم أيضاً التوافق فى العلاقة الجنسية ..

فالتوافق بين الزوجين أشمل من علاقة واحدة ، فهناك التوافق الذهنى والعاطفى والمزاجى ، وهناك التوافق فى أسلوب التفكير وأسلوب المعيشة ، وبالجملة ينبغى أن يكون التوافق بين الزوجين شاملا لشخصيتيهما جميعاً . .

ومن أجل هذا كان العرب قبل الإسلام وبعده يعتدون بما يطلقون عليه اسم التكافؤ وهو تماثل الزوجين فى مجموع شخصيتيهما ، فإن أثر البيئة والنشأة والوراثة تجعل لـكل من الرجل والمرأة طريقا فى الحياة تتميز بطابع خاص لـكل منهما . وكلما كان ذلك الطابع متشابهاً فيهما كانت دعامة الحياة بينهما أقوى . .

كان العرب ولا يزالون يؤثرون زواج أبناء العمومة ويلى ذلك إيثارهم لبنى الخؤوله وذلك لأن بيئة الشاب وابنة عمه أو عمته أو ابنة خاله أو خالته تتقارب فى المشارب والمستوى وطريقة الحياة والمثل العليا ، كما أنه من السهل على أبناء العمومة والخؤوله أن يعرف بعضهم بعضا معرفة تؤدى إلى حسن التقدير عند الاختيار ..

وقد أمر الحديث الشريف الزوج بأن يرى امرأته إذا أمكن ذلك فإن هذا أحرى بأن يؤدم بينه وبينها ، وهذه حكمة بالغة يمـكن أن تتخذ نبراسا للرجل والمرأة فى مدة الخطبة لأن المقصود بالرؤية ليس مجرد النظر إلى الخلقة والذات وإن كان هذا النظر ضروريا لاستلهام الغريزة من وراء النظرة .

فأكبر ما يقصد من هذه الرؤية هو الأستئناس بالحديث واللقاء للاستدلال منهما على توافق المزاجين ووجهتى النظر فى الحياة ، والمجتمع العربى يستنكر المبالغة فى اختلاط الزوجين قبل الزواج ويرى فى ذلك حماية للشاب والشابة من الإغراء المؤدى إلى الزلل . فإن العلاقة المنتظرة بين الزوجين أقدس من أن يعبث بمبادئها فى فترة الخطبة قبل إتمام التعاقد ..

والطرف الآخر المقابل لزواج بنى العمومة والخؤولة هو زواج الأجانب — أى الذين يكونون من قومية تختلف فى ثقافتها وأسلوب حياتها عن قومية الرجل أو المرأة — ولا عجب ألا يؤدم بين رجل وامرأته إذا كانت تخالفه فى مشربها الذى تشربت به منذ نشأتها ، وقد دلت التجربة على أنه قلما يحدث الصفاء فى علاقة زوج بزوجة تخالفه ويخالفها فى طريقة الحياة التى اعتادها كل منهما منذ طفولته فهو يأكل ويلبس ويتحدث ويفـكر بطريقة مازجت طبعه ولاءمت بيئته الطبيعية والاجتماعية منذ نشأته ، وهى تفعل كل ذلك بطريقة أخرى مازجت طبعها . فإذا كانت مثلا لا تستنكر الخمر وهو يستنكرها بطبعه ومألوفه وهى تحب الرقص وهو لم يتعوده ولم يألفه وهى تفـكر على نمط ومقياس يخالف نمط تفـكيره ومقياسه ، إذا كانت المرأة تخالف زوجها فى كل ذلك كان الأصل بينهما الخلاف لا الوفاق ... فإذا حدث وفاق كان ذلك بتنازل أحد الجانبين تدريجيا عن مألوفه ، وهذا لا يستمر مدة طويلة كما أنه تحتاج إلى مجهود شديد متصل ، وهما يتعرضان فى أثناء ذلك إلى كثير من عوامل الزعزعة والقلق حتى يصلا أخيراً

إلى التوازن فى العلاقة إذا قدر لهما ذلك . ونحن إذا رجعنا إلى المبادىء العامة التى سبق ذكرها تبينا أن كلا من الزوج والزوجة كان يستجيب قبل زواجه إلى مبادأة أبيه وأمه وأخوته كما كان يبادىء كل فرد فى أسرته بضروب من المؤثرات فى التعامل بينه وبينهم . فإذا ماتم بينهما الزواج نزع كل منهما من أسرته وفقدت كل من الأسرتين عضوها ، ولكن تنشأ بدلا من علاقتهما القديمة علاقات جديدة متعددة بين الأسرتين فيؤثر كل فرد منهما فى الآخرين تأثيرا مستمراً يؤدى إلى إحداث توازن جديد بينهم فى علاقات التعامل . وهذا التوازن ضرورى لكل من الأسرتين للتعويض عما فقده أفرادها عندما فارقهم العضو الذى أصبح مؤسسا لأسرة جديدة ، وكلما حدث هذا التوازن بسرعة كان ذلك أدعى إلى استقرار الحياة فى الأسرة الجديدة ، ومن الواضح أن اتصال أسرتى الزوجين لايتيسر إذا كانا من أسرتين مختلفتين فى القومية والمنبت ، فالزواج بالأجانب يحول دون الاستقرار الطبيعى للأسرتين ويجعل الزوجين فى عزلة .

فهذه العوامل كلها تعمل معا متساندة متشاركة متداخله فى تكوين الأسرة الجديدة ، وكلما أدت إلى التوافق والتوازن بين الزوجين الجديدين كانت علاقتهما أدوم وأصفى وأجدى وأن تؤدى إلى آثار طيبة فى تنشئة الذرية ، والاطمئنان فى الزواج بعد ابتداء تكوين الأسرة له شأن عظيم فى صفاتها . . وقد يبدو لأول وهلة أن رباط الزواج إذا كان لايقبل الانفصام قانونا يكون أدعى إلى الاطمئنان فى الحياة الزوجية ، ومن ثم يرى البعض أن إباحة الطلاق أو تعدد الزوجات وجعله فى يد الرجل إطلاقا يؤدى إلى زعزعة هذا الاطمئنان ، ولكن المحقق فى الأمر يتبين عكس ذلك .

فأما الطلاق فإنه بغير شك يفرق شمل الأسرة فهو هدم اجتماعى لايقصر ضرره على الأسرة ذاتها ، ولاينبغى أن تكون العلاقه الزوجية معرضة لأثر دفعات العاطفة الهوجاء من قبل الزوجين . ولكن لابد من توجيه سؤال فى هذه المناسبة « هل يفيد بقاء العلاقة الزوجية قانونا إذا كانت غير ممكنة فعلا ؟ » هناك عوامل كثيرة تجعل استمرار هذه العلاقة أسوأ أثراً من قطعها ، ففى بعض الأحوال يصبح الزواج أشبه شىء بوجود مادة فاسدة فى الجسم لايمكن مداواتها ويكون بقاؤها متصلا بالجسم داعيا إلى فساد الجسم كله . فانحراف أحد الزوجين عن صاحبه فى علاقاته الجنسية بعدم التوافق الجنسى الذى هو الرباط الأساسى للزوجين كما أن انعدام القدرة على النسل يضيع الحكمة من وجود الزوجية عند بعض الأفراد . وإذا كنا ننكر على الزوجين أن يعرضا العلاقة الزوجية للفساد من جراء دفعات العاطفة الهوجاء فإن دلالة الإحصاءات التى تبين سعة انتشار الطلاق وموجاته تدل دلالة قاطعة على أن الأعم الأغلب هو الميل إلى الإبقاء على الحياة الزوجية كاتجاه عام فى العالم العربى ، فالزواج بين العرب وإن لم يكن فى أكثر الأحوال قائما على الاختيار الحرين الزوجين أو بقول آخر أذا لم يكن قائما على العلاقة التى يسميها الناس عادة « الحب » فإنه يحدث بين الزوجين نوعاً عميقا من المودة والرحمة يكفل الاطمئنان التام فى حياتهما . وعندما ينجب الأبوان ذرية يزداد الرباط بين الزوجين إلى حد كبير فلا تنزعزع الحياة الزوجية بعد ذلك إلا فى حالات تكون فيها الدوافع شديدة خطيرة ، فإذا وجدت هذه الدوافع فإنه لابد للزوجين من السير فى أحد طريقين فإما الإبقاء على الزوجية قسراً بحكم القانون برغم وجود العوامل الخطيرة التى تقطعها فعلا ، وإما اللجوء إلى رخصة الطلاق وهو أشد الرخص كراهة عند المسلمين ، والذى يفحص حالات الأسر التى يضطر فيها الزوجان إلى إبقاء الرباط الزوجى برغم وجود العوامل الخطيرة التى أشرنا إليها ليستطيع أن يتبين ما لذلك من آثار سيئة على الحياة الأسرية من كل

وجوهها . فالعلاقة الحقيقية بين الزوجين تنقطع فعلا وإن لم تنقطع قانونا ويمتنع التعامل الطبيعى بينهما إلى حد أن الزوج لا يبادىء المرأة ولا الزوجة تبادىء زوجها بمؤثر من المؤثرات التى تستلزمها الحياة الزوجية . بل إن انقطاع العلاقة بينهما يكون منطويا على مشاعر الكراهية بدل المودة والحقد بدل الرحمة . فإذا كانت هناك ذرية لهما فإن هذه المشاعر تكون بمثابة مبادأة مدمرة من الأبوين للبنين لأن الأصل فى علاقة الأبوين بالبنين أن يكونا متعاونين فى رعايتهم وأن يكون التعامل بين كل من الأب والأم نحوهم متجها وجهة واحدة نحو تنشئتهم . وفساد العلاقة بين الأبوين يؤدى حتما إلى صراع عنيف يثور بين معاملاتهم ويستحيل معه الوصول إلى حالة الاتزان الطبيعى بين أفراد الأسرة الواحدة . ولا يتسع المجال لبيان ما يترتب على هذا الصراع من آثار سيئة فى أفراد الذرية فضلا عما يترتب عليه من الآثار السيئة فى حياة الزوجين نفسيهما ، وحسبنا أن نذكر ما يشكو منه الباحثون الاجتماعيون من وجود التشريع فى البلاد المسيحية والإبقاء على النظام الذى يسمونه الفصل الجسدى بين الزوجين ، فمجمل القول أن ذلك الصراع يؤدى إلى عواصف عاطفية شاملة للأسرة ينشأ عنها اختلال شديد فى توازن استجابة كل فرد منهم إلى مبدأة الآخرين وضياع الانسجام بينهم . وقد تنشأ عن ذلك فوضى نفسية فى أعماق الأبناء تؤدى أحيانا إلى الأمراض العصبية والنفسية فضلا عما تؤدى إليه من فقد السلام المادى فى الحياة الأسرية .

والطلاق إذا حدث بين الزوجين فإن الأطفال ينحازون عند ذلك إلى جانب أحد الوالدين وهو فى العاده جانب الأب وتفتر علاقتهم بالجانب الآخر إلى درجة أن يصير المؤثر الرئيسى فى المبادأة معهم هو جانب الأب عادة . وكثيراً ما تستقر الحالة بعد الزعزعة الأولى الحادثة من التغير ويلائم كل من الأب والأطفال بين نفسه وبين الحالة الجديدة فيعود الاتزان إليهم مرة أخرى ولا تترك الزعزعة فيهم إلا آثارا تشبه الندوب بعد التئام الجراح .

وإذا كانت هذه الآثار لا تخلو من ضرر فإنها على كل حال لا تبلغ فى الخطورة مبلغ الآثار التى تنجم من حالة الزعزعة المستمرة والفوضى النفسية التى تسود الأسرة لو بقيت العلاقة الزوجية قائمة قانونا برغم فسادها وتحويلها مثلا إلى كراهة وحقد مستمرين فى بيت واحد . ولو فرضنا أن الأب تزوج بامرأة أخرى بعد انفصال الأم فإن هناك احتمالا كبيرا أن يعود الاتزان بعد حين إلى علاقات الأسرة على أساس الإضافة الجديدة ، ويزيد ذلك الاحتمال كثيرا إذا حدث الانسجام والتوافق بين الرجل وأبنائه وزوجته الجديده نتيجة لشخصيتها الملائمة . فإذا كان الطلاق كريها فإنه خير من علاقة زوجية مسممة . وقد يثور نقاش طويل بين المذاهب فى إباحة الطلاق وجعله فى يد الزوج اطلاقا أو تقييده بقيود ، وليس هذا النقاش فى صميم مبدأ إباحة الطلاق بل فى تفاصيل ترمى إلى التحقق من جدية الدوافع التى تحمل عليه . وإن التأمل الصحيح فى شأن الطلاق يؤدى إلى نتيجة حتمية وهى أنه إذا كان مبنيا على أسباب حقيقية جوهرية يستحيل معها بقاء الرابطة الزوجية قائمة بالفعل فإنه يكون بمثابة ظرف قهرى يؤدى إلى انقطاع رباط الزوجية فيكون شأنه شأن موت أحد الوالدين وبقاء الأطفال مع الآخر ، فالفقد خسارة مؤلمة ولكنها محتومة ويكون الاحتمال الوحيد حيالها هو العمل على إعادة التوازن فى علاقات الأسرة على أساس جديد .

وأما الزواج المكرر بزوجة ثانية أو أكثر فإننا لو جردنا اعتبارنا من الأمور المعنوية لم نجد له أثرا سوى فتور يعترى العلاقه بين الزوج وزوجته القديمة أو زوجاته القدامى ، ومما لا شك فيه أن الزوج مهما بلغ ولاؤه لإحدى زوجاته المتعددات لا يكون مثل ولائه لزوجته لو كانت وحدها . .

ولكننا لو قصرنا نظرنا على ناحية تنشئة الأبناء كان من العدل أن نقول أن الموقف فى حالة تعدد الزوجات لا يتعدى أن يكون بمثابة وجود أسرات متعددة لها أب واحد . فكل أسرة تكون قائمة بذاتها لها أمها وأطفالها مع أب مشترك، ومن الممكن أن يستمر التعامل بين الجميع على أساس متوازن لا انحراف فيه سوى أثار ما قد يكون هناك من التنافس بين الأمهات أو بين أبناء العلاقات ، وقد تقل هذه الآثار فى بعض الحالات إلى حد يكاد يجعلها منعدمة . ولا حاجة بنا إلى الإطالة فى آثار هذه الظاهرة الزوجية على تنشئة أفراد الأسرة فإنا لا نعدها حالة مرضية .

الأسرة وذريتها :

إذا كانت الحياة فى نظرنا نعمة والآباء هم أصحاب الفضل فى إيصال ذريتهم إليها فإنه يكون عليهم أن يعملوا جهدهم فى أداء واجبهم تجاه هذه الذرية بأن يجعلوها تتمتع بنعمة الحياة ، وأما إذا كانت الحياة فى نظرنا شقاء وأن الآباء يرتكبون على أبنائهم جناية منذ يأتون بهم إليها فإنه يكون عليهم أن يعملوا جهدهم فى إعدادهم لمواجهة الحياة الشاقة ، فالآباء على كل حال مسئولون عن تنشئة ذريتهم وتعهدها حتى تستطيع أن تواجه ما تتطلبه الحياة منهم من قدرة على التمتع بها أو قوة على تحمل أعبائها .

والطفل عندما يولد يكون كما مر ذكره عاجزا كل العجز عن تدبير شىء لنفسه . ويكون جاهلا كل الجهل بما يحيط به وما ينتظره ، ويكون مطلقا فى دفعاته الشعورية وغير الشعورية كما ينبغى لكائن حيوانى فطرى . فتعهد هذا الطفل حتى يقوى ويقدر بعد العجز وحتى يعلم ما ينبغى له أن يعلمه بعد جهله التام وحتى يستطيع أن يضبط انفعالاته ويلائم بين ما يحيط بها — هذا كله واجب على الأبوين أن يقوما به تأدية لواجبهما فى الحياة أو بقول آخر سداداً لدينهما أمام الحياة . .

وتقسيم أعمال الحياة بين الأبوين يجعل لكل منهما ميدانا خاصا به فيما يتعلق بتدبير شئون الأسرة ، فالرجل يخرج إلى اصطياد رزقه بحسب ما يتهيأله فى حياته من وسائل اقتناص الرزق ، والمرأة تقيم فى بيتها لتهيمن على الخدمات الخاصة اللازمة لزوجها إذا عاد من عمله وتتعهد أولادها حتى يبلغوا مبلغ الكبار ويحين لهم أن ينفطموا عن تعهدها . .

ولكن الوالدين معا يكونان فى الأسرة كيانا مشتركا — فهما عند أطفالهما جانبان لكيان واحد — أو شخصان يكونان معا هيئة واحدة لكل منهما خصائصه ولكل منهما مبادآته لهم ، وهم ينتظرون من أبيهم معامله خاصة به يستجيبون لها كما ينتظرون من أمهم مبادآت أخرى خاصة بها ليستجيبوا لها ، وهم يلائمون بين أنفسهم وبين هذه المبادآت المزدوجة ويقيمون علاقاتهم معا بحيث تنسجم معها ولكنهم فى الوقت عينه يتجهون إلى والديهما معا منذ يبدآن فى التمييز .

ولا شك أن أول علاقة تنشأ للطفل تكون مع أمه ولذلك فإن للأم مكانة تستمر مميزة إلى جانب مكانتها الممتزجة بمكانة الأب ، فلو جاز لنا أن نلجأ إلى التشبيه قلنا لإن الأب والأم يكونان معا باقة واحدة ينظر إليها فى وقت واحد ككيان واحد . وإن كانت فيها وردة ظاهرة تقع العين عليها أول وهلة وآخر وهلة .

ولا شك فى أن لكل من الأبوين أثراً خاصا به فى تنشئة الأبناء ، فللأب فى البيت العربى جانب السيطرة والقانون والنظام وللأم جانب العطف والبر والرعاية . ولكن الأثر الأعظم فى تكوين شخصية الأبناء هو أثر الباقة الأبوية

مجتمعة . ذلك بأن معاملتهما لكل فرد من أفراد الأسرة هى التى تتكون منها حالة التوازن العام فى البيت ، فكل فرد فى الأسرة يتعود بعد حين أن ينتظر مبادأة معينة من أبيه ومن أمه كما تكون هناك أيضا مبادأة من كل ولد فى الأسرة نحو أخوته ونحو والديه، ولكل من هذه المبادآت استجابة تنشأ وتستقر بحكم التعود ويكون التوازن الناشىء من استمرار العلاقة بين الآباء والأبناء نتيجة لسلسلة من المبادآت والاستجابات يتكون منها النظام المستمر للأسرة كما مر ذكره فيما سبق من القول . وقد رأينا أن هذا النظام المستمر إذا استقر يكون أمراً ضروريا لاطمئنان كل فرد ، فإذا تغير أو اختل فى ناحية من نواحيه أو إذا نقص عنصر منه أو زاد عليه عنصر جديد حدث فيه اضطراب واختلال يستمر إلى أن يتمكن الأفراد جميعا من إعادة حالة التلاؤم تدريجيا على الوضع الجديد .

إذن فالمهم فى حياة الأسرة هو التعامل المنتظم بين الأبوين وبين الذرية بالإضافة إلى ما هناك من التعامل بين بعض الذرية وبعضها .

وأهمية هذا التعامل المنتظم ناشئة من أن الاستقرار هو العامل الأكبر فى سلامة نفسية الأبناء وانعدامه أو اختلاله هو السبب الأكبر فيما يعترى الذرية من اضطراب نفسانى .

فالطفل مثلا يستقر ويلائم بين نفسه وبين مبادأة أمه حين يتناول الطعام من يد أمه بصورة مستمرة فإن ذلك الاستمرار يروض نفسه على الأكل الذى يقدم له مصحوبا بمناغاة أمه وبسمتها .

فلو وجد هذا الطفل نفسه فجأة وقد تبدلت الحال فعرض عليه الأكل من شخص آخر فإنه ينقبض ويتمنع فى أول الأمر وقد يصيبه سوء الهضم من جراء ذلك حينا ولكنه مع توالى الأكلات من اليد الأخرى يبدأ فى الملاءمة بين نفسه وبين المبادأة الجديدة ويأخذ فى الاستقرار تدريجيا على الحالة الجديدة ، على أنه إذا كان يصحب هذا التحول حادث يثير مشاعر الطفل لإثارة شديدة زاد الموقف خطورة . فإذا وجد الطفل مثلا أن اليد الجديدة التى تطعمه تتغير باستمرار ويتكرر انقباضه واضطرابه من جراء ذلك ثم يحمل على الأكل بالإغراء والتوسل والمداعبة أو بإعطائه لعبة وحلوى فإنه لا يعود إلى حالة الاستقرار الأولى أبداً ويستقر على الأكل بالترغيب والمداعبة بغير أن يقبل بنفسه وشعوره عليه ومثل ذلك الطفل ينشأ طفلا مدللا هوائيا لا يشعر بجدية فى حياته .

ووجود الطفل بين والديه يقوم عادة على أساس المودة والرحمة التى بين الأبوين وارتباطهما معا به وارتباطه بالاستجابة إليهما معا — وهذه العلاقة هى السر الأول فى حياته ومعنى الحياة عنده أمه وأبوه هما العالم بالنسبة إليه فى أول أمره فانحراف الأب عن الانسجام مع الباقة الأبوية يجعل الطفل مرتبطا بأمه وحدها ويكون الأب عند ذلك بمثابة شخص ثالث يطرأ أحيانا على هذه العلاقة ، فالطفل لا يلائم فى هذه الحالة بين نفسه وبين أمه وحدها وكلما تدخل الأب فى هذا النظام المستمر يكون تدخله بمثابة خلل يعترى نظامه المستمر . ومواصلة هذا الخلل تبعث فى نفسية الطفل نوعا من القلق الذى يحول بينه وبين استجاباته للمبادآت المضطربة التى يتلقاها فينشأ قليل الضبط لانفعالاته مستمر القلق والتوجس . وكثيراً ما تؤدى مثل هذه الحالة إلى الانحراف المؤدى إلى الرغبة فى التسلل والتشرد . وفى الحالات التى يشتد فيها النفور بين الوالدين أو عندما يحدث بينهما طلاق ويضطر الوالد أن يعيش فى أسرة جديدة أو عندما ينفرط عقد الأسرة لسبب آخر نتيجة لانشغال الأبوين عنه وترك حياته مهملة ، بل

عندما تضطر الأحوال إلى نزع الولد من أسرته ليعيش فى وسط أسرة أخرى ، عند ذلك تزداد حالة القلق والتوجس زيادة خطيرة وتنفلت انفعالاته من كل زمام نتيجة لا نعدام عودتها إلى الاستقرار . وما حالات التشرد والاعتداء وجمود العاطفة وحالات الإجرام بين الأحداث سوى آثار حتمية تترتب على الزعزعة العنيفة التى تصيب الأطفال فى سن مبكرة وتسلبهم المقدرة على الاستقرار النفسى والاتزان فى انفعالاتهم .

وقد شهدت بعض البلاد مثل هذه الآثار عندما قامت الحرب الثـــانية ودعت الحال إلى نزع عدد كبير من الأطفال من أسرهم فى المدن الكبرى وضمهم إلى أسرات أخرى فى أماكن بعيدة عن أخطار الحرب . فهؤلاء الأطفال أوجدوا مشكلة كبرى لأنهم بعد أن نجوا من دمار الحرب لم يصيروا سوى مواطنين مدمرين نفسانيا .

أن المرأة الفقيرة التى تضم ابنها إلى صدرها وهى تطعمه أتفه الطعام وزوجها إلى جانبها فى الأسرة تستطيع أن تنشىء هؤلاء الأبناء على طعامها التافه خيراً مما تنشئه أسرة أجنبية أو مؤسسة خيرية تطعمه أحسن الطعام وترعاه أحسن الرعاية إذا كانت تسلبه أهم العوامل على ترويض العواطف واتزان الانفعالات وهو عامل المحبة الأبوية .

فسلامة نفسية الأبناء هى أنفس ما يهب الآباء لأبنائهم وهى تتوقف على سلامة العلاقة التى تنشأ بينهم وبين أبويهم معا كبافة واحدة . وهناك ناحية أخرى من تنشئة الذرية فى الأسرة لا تبلغ فى الخطورة مبلغ الناحية النفسية ولـكنها ذات أثر خطير فى الحياة المستقبلة للأبناء ويمـكن أن نطلق عليها ناحية التدريب .

فالتدريب هو الوسيلة التى يؤدى بها الوالدان واجبهما الحيوى نحو ذريتهما سواء فى ذلك الحيوان والإنسان . فإنا نرى الحيوانات على اختلافها ـــ مما يدب على الأرض أو يطير فى الجو ـــ تدرب صغارها على ما يؤهلها للقيام بالوظائف الضرورية لحياتها . فهى تعلم صغارها كيف تأكل وكيف تلتمس رزقها وكيف تحفظ حياتها فى النضال المستمر بين الأحياء وهذا هو كل ما لديها مما يمـكن أن نسميه ثقافة الحيوان فالحمامة تعلم فراخها الطيران والبطة تعلمهم السباحة والقطة تعلم صغارها كيف تصيد فريستها وهكذا . فإذا ما نشأ الصغار مارسوا ما تعلموه على أسلوب اللعب ، وما اللعب عند صغار الحيوان إلا أعادة للتدريب على الوظائف الحيوية التى تعلموها من أمهم . وفى كثير من الأحيان يتعاون الأب مع الأم فى ذلك التدريب كما يحدث فى القردة عندما يتعاون الأبوان على تدريب صغارهما تسلق الشجر وتجنب أخطاره . وذلك كله يسير سيراً تلقائيا عند الحيوان بحكم الغريزة الطبيعية . وليس الإنسان سوى صنف من الحيوانات ينبعث من تلقاء نفسه إلى تدريب صغاره ، ولا فرق بينه وبين سائر الحيوان إلا فى أن للإنسان ثقافة إنسانية أوسع وأعمق بمراحل طويلة من ثقافة الحيوان . وللأم النصيب الأول من ذلك التدريب ولـكن تعقد الحياة الإنسانية تلقى على الأب مسئولية ضخمة فيه إذ أن كثيرا مما ينبغى للطفل أن يتدرب عليه لا يكون إلا من حظ الأب وهو ما يتصل بمواجهة الحياة ، فللتدريب وظيفة أساسية عند الإنسان وهى نقل التراث الثقافى إلى الصغار حتى ينضموا إلى قومهم . .

ولـكى يتضح المقصود من نقل التراث الثقافى إلى الطفل يمكن أن نتأمل أفعالنا اليومية ونحاول أن نحلل كلا منها . فـكل فعل من أفعالنا يتكرر منا بغير أن نفكر فيه . لأننا قد تعودنا عليه منذ صغرنا ، فنحن لا نفـكر فى كل خطوة نخطوها ولا فى كل كلمة تصدر عنا ولا نفكر كيف نفعل إذا أردنا أن نأكل أو ننام أو نستقبل ضيفا أو نجيب على

سؤال ، بل نؤدى كل تلك عفواً كأننا نصدر فيه عن غريزة . وذلك لأننا منذ كنا أطفالا نتلقى أنواعا مستمرة من التدريب تنطوى على كل ما تعوده قومنا فى سيرهم وأكلهم وحديثهم وآداب سلوكهم . ونحن إذا رأينا أمراً فحكمنا بأنه أمر لائق مهذب أو حكمنا بأنه أمر غير لائق لا ينبغى لأحد أن يعمله ، كنا فى حكمنا صادرين عن مجموعة من الحدود والقوانين واللوائح غير مكتوبة تشبعنا بأحكامها . وآمنا بها وجعلناها مقاييس لكل مسالكنا . وما ذلك إلا لأننا قد تلقينا تلك الأحكام وحققنا التقدير على أساس التى تلك المقاييس منذ كنا صغاراً . ففى كل يوم بل فى كل ساعة ولحظة نتلقى ونحن صغار ما يصدر عن آبائنا من المبادأة تكون مصحوبة دائما بالأثر العظيم الذى للوالدين على أبنائهم . فنحن إذ نتلقاها تكون مصحوبة بما يشيع الأمن فينا مثل بسمة الأم ورضاها والدر الذى نشربه من ثديها فيكون ذلك عاملا على تعلقنا بها ، وإذا كانت المبادآت مصحوبه بما يهدد بانقطاع السرور أومشعراً بالألم كان ذلك عاملا على كراهيتها وإنكارنا لها . وقد تكون المبادآت مصحوبة بسلطان الأب وهيبته مرتبطة بعطفه والشعور بهيمنته فيكون ذلك عاملا على تقديرها وإكبارها ، ومما يزيد من أثر مبادأة الوالد أن الأطفال يشعرون بأنه مصدر القوة وجالب الخيرات .

والوالدان يصدران فى كل مايبادئان به أطفالهم من ذخيرة كاملة من المعارف التى ورثوها عن آبائهم وهى العادات والتقاليد والفنون والمبادىء الأخلاقية والفلسفة التى انحدرت إليهم من أقدم العصور عن طريق الآباء أبا عن جد . فهذه الذخيرة الكاملة هى الثقافة القومية التى تنطوى على طرق الحياة العادية وعلى كل المعنويات المتصلة بتنظيم الحياة الاجتماعية ، ولا شك أن الدين وأحكامه من أهم الأسس التى تقوم عليها هذه الثقافة القومية .

ولا يتم نقل هذه الثقافة إلى النشء إلا بعد مدة طويلة يقوم الوالدان فيها بالقدر الأساسى الأول فى أيام الطفولة ثم تشاركهما بعد ذلك مبادآت أخرى من الأهل والأصدقاء ثم من المعاهد التعليمية ثم من المجتمع الأوسع الأشمل . على أن أثر الأبوين لا ينتهى فى كل دور من أدوار الحياة إلى أن يوافى أجلهما لأن العلاقة بين الأبوين وذريتهما تبقى مستمرة حتى بعد انفطام الأولاد عنهما وتأسيسهم لأسرات جديدة .

ومن الحكم الموروثة عن هذا التدريب ما ينسب إلى سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه إذ قال للأب عن طفله « لاعبه سبعا وأدبه سبعا وصاحبه سبعا ثم اترك حبله على غاربه » غير أن ترك الحبل على الغارب لا يفيد انقطاع الصلة فإن الأبوين يكونان دائما أمام بصيرة الابن حتى بعد أن يفارقا الحياة .

وتأدية مثل هذه الوظيفة الخطيرة الحيوية تستدعى بالطبع أن يكون الأبوان أهلا لحمل أمانتها العظيمة . فلا الأبوان المعتوهان أهل لها ولا الأبوان الجاهلان ولا المنحرفان عن الانسجام بقادرين عليها . هذه وظيفة يؤديها الأبوان إذا كانا فى حالة طبيعية لزمانهما ، وأول شرط لها الانسجام الانفعالى فى التعامل وشرطها الثانى أن يكونا قادرين على حمل التراث الذى ينقلانه إلى ذريتهما . وهذا التراث هو شخصية القوم الذى ينتمى الأبوان وذريتهما إليهم ، وهو المميز للأمة فإذا انعدم كانت الأمة مهددة بفقد كيانها ، فالوالدان يقومان بوظيفة قومية خطيرة أو بقول آخر هما يقومان بوظيفة وطنية كبرى عندما يخلدان خصائص الثقافة القومية بنقلها إلى ذريتهما ، وقد كان يكفى فى الماضى أن ينقل الآباء إلى الأبناء ماعرفوه نقلا عن الأجيال السابقة ولكن الحياة فى أيامنا هذه تتعقد وتتطور وتتزايد سرعة تطورها زيادة عظيمة كلما مرت الأعوام . ففى سنوات عشر بعد انتهاء الحرب الأخيره زادت سرعة

التطور حتى لقد بلغ ما طرأ من التغير على العالم فى هذه المدة المحدودة مايعادل ماطرأ عليه من التغير فى قرون عدة .

لهذا كان لايكفى فى وقتنا الحاضر أن يكون الأبوان سليمى العقل وسليمى النقل . بل ينبغى أن يكونا مثقفين ثقافة تساير الزمن الذى يعيشان فيه . وأهمية هذا ترجع إلى أن مواجهة الحياة الحاضرة تحتاج إلى شى آخر فوق الأتمام بذخيرة الثقافة القومية ـ تحتاج إلى أن يكون هذا الأتمام مصحوبا بتفكير وتحليل يدركه الأبناء ويساق إليهم بحسب ماينا سب أسنانهم حتى يعرفوا كنه ذلك التراث وما فيه من حكمة وما وراءه من مغزى .

ثم على الآباء أن يلقنوا أبناءهم الطريقة العلمية فى تفكيرهم دائما حتى يستعدوا إذا كبروا لتلقى أسرار العلم وهم مستعدون لها . لهذا كان لابد للأبوين أن يكونا على ثقافة حديثة من مستوى مناسب وأن تكون الأم بصفة خاصة فى هذا المستوى .

فالأم الجاهلة القابعة فى بيتها والتى لا تسير إلا من وراء جدار كثيف لا تستطيع أن تعرف العالم الذى تعيش فيه ولا أن تعرف ما يجرى خارج أسوار نفسيتها المحدودة ـ هذه الأم لا تعرف الحياة الحاضرة ولا تعيش فى هذا الزمان ولا تعرف كيف تعد أبناءها له . وإذا كانت كذلك فأنها تكون كمية مهملة أو كمية ضارة فى تنشئة أبنائها مع أنها هى العنصر الأهم فى أداء ذلك الواجب الحيوى .

وقد خصصنا الأم بالذكر دون الأب لأن الرجل فى العادة يمارس من شئون الحياة فلا غنى له عنه فى التماس الرزق فهو يتعلم من الاتصال بالحياة أشياء كثيرة وأن لم يكن مثقفا فى معاهد التعليم . ثم أن صلة الأبناء أوثق بالأم منها بالأب ولهذا كانت الأم مدرسة لا بد من إعدادها لتكوين أمة طيبة الاعراف . .

غير أنه لا بد لنا من احتياط ضرورى وذلك أن أبناءنا خلقوا لزمان غير زماننا ومهما بالغنا فى تدريبهم والعناية بايصال الثقافة القومية إليهم فإنهم يتصلون بالمجتمع الأوسع الذى يتطور باستمرار .

ويكون تطرزه أوسع خطى من تطور الأفراد لاشتداد قوة العوامل المؤثرة فيه . ولهذا فلا بد لنا من أن نعتد بالظاهرة الطبيعية العامة وهى التى يمكن أن نسميها ظاهرة الخلاف بين الأجيال .

فالأبناء عندما يشبون يبدأون فى النظر لأنفسهم ويفسرون المظاهر التى يرونها تفسيرا يلائم عقولهم وللأبناء شخصية خاصة مهما بالغنا فى طبعهم بطابعنا فالوراثة والبيئة والأفكار التى ينقلونها من الناس وعوامل أخرى كثيرة تشترك فى جعلهم يرون الأمور بعين أخرى غير أعيننا . وهذا يلقى على الآباء مسئولية أخرى وهى أن يعملوا على تفهم وجهة نظر الأبناء وأن يتطوروا معهم إذا استطاعوا وأن يترفقوا فى التفاهم معهم حتى يحافظوا على وحدة الصف فى سير الأسرة . فاذا نحن ألزمنا الأبناء قسرا بأن يلتزموا خطانا نحن كانت النتيجة أن يتسرب سلوكهم فى الخفاء بعيدا عن المشاركة معنا . وقد تزيد الهوة اتساعا حتى ينقطع أثر مبادأتنا لهم . وفى ذلك مافيه من ضرر نفسانى ومعنوى للأبناء ومما يحس بالآباء أن يعرفوه أن للأبناء حقا فى الاستقلال لأن مصيرهم لامحالة إلى الاستقلال عنهم عاجلا أو آجلا .

والآباء المثقفون أقدر على الملاءمة بين استقلال أبنائهم وبين بقاء المعاملة معهم . وتدريب الأبناء على الاستقلال من أهم عناصر التدريب فكما أن الأم تفطم ولدها حتى يستطيع أن يأكل بنفسه لأن ذلك أمر ضرورى له كذلك

ينبغى للأبوين معا أن يعملا على فطم ولدهما تدريجيا من الاعتماد عليهما لأن ذلك أمر ضرورى أيضا . أول مراتب الاستقلال تكون باللعب مع بعدائهم . فاللعب فى حياة الإنسان ماله فى حياة الحيوان لأنه عامل تدريبى على حياتهم فى المستقبل . وليس أدعى للنجاح فى هذا التدريب الاستقلالى من إلقاء بعض الأعباء على الأبناء فى المسئولية العامة للأسرة حتى يشعر الابن بأن له شخصية يعتمد عليها وهو يستفيد بما يكتسبه من خبرة جديدة بممارسة الأعمال وتجربة الأمور .

ومما يلاحظ أنه عندما يكون أثر الأبوين أقوى والمعاملة المستمرة مقتصرة على مابين أفراد الأسرة الصغيرة تكون عزلة الأطفال من غيرهم شديدة ويكون استقرارهم قائما على هذه العزلة . ومثل هذه الحالة تؤدى إلى العجز أو الضعف عن مواجهة التغيرات فى الظروف .

ولهذه العزلة أثر آخر شديد لأن تروض الأبناء عليها يجعل من أصعب الأمور على الشخص أن يبتعد عن الأسرة إذا كبر واستقل . كما أنه يؤدى إلى زعزعة مزعجة فى حالة غياب عضو من الأسرة فلو بعد أحد أعضاء الأسرة فى هذه الحالة كانت النتيجة اختلالا شديداً فى نفسيات الباقين فيصعب إعادة الإطمئنان والاتزان إليهم .

ومما يلاحظ أن الأسرة المحدودة العدد التى قصرت تعاليمها على نفسها تكون أجمد فى علاقاتها من الاسر المتوسعة . فالأسرة المستقرة المحدودة تجعل أفرادها عازفين عن تغيير أسلوب حياتهم . وتقل فيهم رغبة التنقل ولا يميلون إلى الغربة أو الهجرة ولا يطمئنون فى حياتهم إذا بعدوا عمن اعتادوا التعامل معهم من أعضاء أسرتهم الاولى .

وللحياة الحاضرة مطالب تقتضى أحيانا الانفصال والانفراد والاستقلال فى مواجهة المواقف المختلفة ولهذا يكون من واجب الوالدين أن يعملوا على تنسيق معاملاتهم بحيث تتضمن الترويض على تغير الظروف . فالذين لايسمحون لابنائهم أن يشتركوا مع زملائهم فى الرحلات ولا أن يقوموا وحدهم بأعمال مستقلة والذين يجعلونهم دائما تحت المراقبة الدقيقة خوفا عليهم إنما يعملون على إضعاف شخصية أبنائهم الإستقلالية . وفى البيئات العربية عوامل كثيرة تعمل على تقوية روح الإستقلال ولا سيما فى الجهات التى تتسع فيها دائرة الأسرة وتقل فيها شدة التعامل بين عدد محدود من الأفراد كما هو الحال مثلا فى البلاد التى تسير على النظام القبلى حيث يشمل البيت الواحد عدداً من الأسرات الصغيرة .

وهناك عامل هام يحسن بنا ذكره فى هذه المناسبة وهو أن البيوت الكبيرة تكون مجموعات قائمة بذاتها وهذه الحقيقة تنطوى على آثار مختلفة بعضها حسن وبعضها سىء ويحسن أن نفطن إليها لتلافى ماقد يكون فيها من إضرار .

فالبيت الكبير له تقاليد خاصة وله مايشبه أن يكون قانونا سلوكيا خاصا . وأفراده يلتزمون حدود هذا القانون فى مسلكهم وكثيراً مايؤدى هذا إلى تميز فى المكارم والمروءات والشهامة وسمر المسلك .

غير أن البيت الكبير كذلك معرض لأن يتشرب أفراده نوعا من العصبية لأنفسهم فتصرف مميزاتهم السامية إلى المنافسات فيما بينهم وقد تؤدى هذه المنافسات إلى ضياع جهود المجتمع فى نشاط هدام لهم جميعا . ويلاحظ هذا كثيرا فى البيئات ذات النظام القبلى وقد ضاعت فى سبيل المنافسات التى ثارت بين البيوت فى العالم العربى مصالح

كبيرة وعلاج مثل هذا الحال يتوقف على الجهود التى توجه إلى الأسرة ذاتها . وهذا لايكون إلا من جانب هيئة أعلى وهى الدولة ، ومن ثم تظهر أهمية التربية القومية فى معاهد التعليم أو خارجها .

أهمية المثال :

ليست المبادأة مقتصرة على مايوجهه الأبوان من المؤثرات إلى أفراد أسرتهم ، كما أن المبادأة غير مقصورة على الآباء وحدهم فكل عضو فى الأسرة له مبادآت مؤثرة تختلف مقاديرها وقوتها باختلاف الظروف والبيئات . فهناك أحوال تكون فيها المبادأة أقوى من جانب الآباء وأحيانا تكون من جانب الذكور الكبار فى الأسرة كما أن الأخوة الكبار لهم مبادآت مع إخوتهم الصغار ولكل من هذه العوامل أثرها الكبير فى العلاقات التى تنشأ عن الأسرة ومايترتب عليها من النتائج فى سلوك الأفراد .

غير أن المبادآت قد تكون بمعاملات إيجابية وقد تكون بضرب المثال فى المسلك ، وكلما كان الشخص من أصحاب المبادآت الهامة كالآباء وكبار الرجال فى الأسرة كان المثال الذى يضربه بمسلكه أقوى وأعظم . فالأبناء يقلدون آباءهم وأمهاتهم وكبار أسرتهم فى كثير من الأمور سواء فى الحركات والعبارات أو فى أسلوب الحديث والتفكير .

وقد يحدث أحيانا أن يكون بمسلك الآباء أثر عكسى مضاد للتقليد ، فقد يكره الأبناء مسلكا معينا لآبائهم إذا وجدت عند الولد دوافع خاصة تجعله يكره ذلك المسلك . فإذا كان الأب سكيرا مثلا وكان سكره يحمله على سوء معاملة الأم والأبناء شب الأبناء على كراهة مسلك السكر . ولكن القاعدة العامة هى أن الأبناء يتشبهون أيضا بآبائهم وإخوانهم الكبار وقد يتشبهون أيضا بمن يعاملونهم من كبار أفراد البيت الكبير إذا كان يضم أعماما أو أخوالا . .

وهذا يلقى على الآباء خاصة والكبار عامة مسئولية كبرى فى مسلكهم إذا أرادوا أن يجنبوا أبناءهم مضرات المسالك المسفة .

وهنا أيضا تظهر أهمية مايكون عليه الأبوان من المستوى الثقافى والخلقى ولاسيما الأم فبمقدار مايكون مسلكهم من السمو يكون حظ الأبناء فى مستقبل حياتهم من الاستقامة والحكمة .

فتربية جنسى الأمة ضرورة يقتضيها الحرص على مستقبل الأجيال الناشئة من ناحية النفس والعقل والمسلك الاجتماعى ، وكل أمة لاتهتم إلا بتربية الرجال وحدهم تعرض مستقبلها للضعف بل للانحراف وتكون أشبه بمن يسير فى حياته على ساق واحدة .

ولا نستطيع أن نختم هذا الحديث بغير الإشارة إلى أهم أنواع الاختلال الذى يصيب الناشئة من جراء اختلال أحوال الأسرة .

(١) فمما ينشأ عن قلة الانسجام العاطفى بين الأبوين خاصة ما يرى الأبناء من عجز عن الاستجابة إلى المبادآت وينشأ عن ذلك الانطواء على النفس كما قد تنشأ عنه الأمراض العصبية .

(٢) ومما ينشأ عن ضعف الرابطة الزوجية أو انقطاعها بالفعل فقد الاتزان فى العلاقات بين أفراد الأسرة ، وقد ينشأ عن ذلك خلل نفسانى يؤدى فى كثير من الأحيان إلى انعدام ضبط الانفعالات واستحالة ملاءمة الفرد بين

نفسه وبين الوسط الذى يعيش فيه . وهذا مما يفسد الحياة الاجتماعية والتعاون بين أفراد المجتمع .

(٣) ومما ينشأ عن قلة الاستقرار فى نظام التعامل بين أفراد الأسرة ولا سيما بين الوالدين والأبناء انعدام الترويض النفسانى، وينشأ عن ذلك الميل إلى التشرد والإجرام من الأحداث والتحدى والخروج على المجتمع .

(٤) ومما ينشأ عن عجز الأبوين فى نقل التراث الثقافى للأبناء ضياع شخصيتهم وضياع شخصية الأمة فى مجموعها إذا كان العجز شاملا لمجموعة كبيرة من الأسرات فى المجتمع .

(٥) ومما ينشأ عن ضيق الأفق فى نقل هذا التراث جمود التفكير والعجز عن التطور .

(٦) ومما ينشأ عن انعزال الأسرة وشدة وطأة الوالدين فى مبادآتهم الخوف الشديد من التغير والانتقال وشدة الشعور بالألم عند فقد عضو من الأسرة . وهذا يعرض الأبناء لزعزعة شديدة إذا فقد الأب أو الأم وقد تؤدى هذه الزعزعة إلى الأمراض النفسية .

(٧) ومما ينشأ عن دوام الاستقرار فى عزلة عدم المقدرة على الاستقلال وضعف شخصية الأبناء وخوفهم من المغامرة .

(٨) ومما ينشأ عن اتساع البيت والتكوين القبلى اشتداد المنافسات والمنازعات وتعذر التعاون الاجتماعى .

(٩) على أنه مما ينشأ عن اتساع الأسرة وعلو مكانتها التمسك بالتقاليد الكريمة والمحافظة على مكانة الأسرة وهذا يؤدى إلى سمو المجتمع بطريق غير مباشر .

(١٠) ومما ينشأ عن ضعف روابط الأسرة شدة الميل إلى الشذوذ عن الجماعة وضعف الشعور بأهمية المثل الخلقية والاجتماعية .

الحياة الحديثة والأسرة

إن من أثر تعقد الحياة الجديدة وتطورها إلى النظام الصناعى إضعاف أهمية الأسرة إذ أنه يؤدى إلى افتراق أعضاء الأسرة واشتغال الأب والأم والأخوة بعيدا عن البيت فى أكثر الأوقات أو بصفة مستمرة .

وقد تنشأ عن ذلك بطبيعة الحال قلة التعامل بين أعضاء الأسرة فى البلاد الصناعية حتى تكاد تنعدم بينهم المبادآت والاستجابات التى تؤدى إلى التلاؤم والانسجام .

ويمكن أن نتساءل هنا هل تفكك الأسرة على هذا النحو يؤذن بتطور إنسانى جديد يمكن أن تستقر عليه الجماعة الإنسانية أم أن ذلك يؤدى إلى انحلال الروابط القديمة التى تعودها الإنسان إلى اليوم والتى نشأ عنها كل ماعرفته الإنسانية من الفضائل الشخصية والاجتماعية ؟ أفلا يؤدى هذا إلى اختلال واضطراب فى كل ماتقدمه الأسرة من مكارم الأخلاق ؟ ونسأل أيضاً وهل يمكن أن تحل الصلة الثانية عن طريق التربية العامة فى معاهد العلم محل الصلة التى كانت تقوم بين أفراد الأسرة وتؤدى وظيفتها فى إحداث الانسجام النفسانى والاجتماعى ؟

ثم نسأل سؤالا ثالثا وهو ماذا يكون مصير الأطفال الصغار لو كان أبواهم وإخوتهم الكبار يعملون خارج البيت جميعا ويوكلون أمرهم إلى دور الحضانة ومعاهد التعليم حيث لا تتوافر دوافع المحبة والعطف وغيرها من المبادآت التى تتجه من الكبار إلى الصغار ؟

بل ماذا يكون إذا وكل أمر الأطفال إلى الخدم أو إلى ماهو أسوأ من ذلك إن كانوا يتركون فوضى متعرضين لمبادآت فوضوية من مؤثرات أجنبية عن الأسرة ؟

أيكون مستقبل المجتمع العربى فى هذه الحالة هو المستقبل الذى ينشأ عن فقدان ما تحققه الأسرة من التوازن والاستقرار والترويض النفسانى والاجتماعى ؟ أيسير التطور نحو الصناعة بالمجتمع العربى إلى المصير الذى تفقد فيه المؤثرات القديمة بغير أن تحل محلها مؤثرات أخرى نعرف أثرها حق المعرفة ؟

إن المثال الذى يظهر أمامنا فى المجتمعات الغربية التى تطورت نحو الحياة المعقدة ونحو الصناعة يدلنا على مانحن مقبلون عليه إذا نحن سرنا نحو التعقيد الصناعى بغير أن نعد له عدته من الاحتياط .

ولذلك فإنه يجدر بنا أن نتأمل ونحلل وندرس ماحدث فى تلك المجتمعات الصناعية ونتعرف على ما اتخذته الأمم الصناعية من وسائل لمواجهة انحلال الروابط الأسرية عندها وهل نجحت تلك الوسائل أم لم تنجح حتى نكون على هدى فى حياتنا المستقبلة التى لابد لنا من مواجهتها .

العادات والتقاليد وأثرها فى البيت العربى

للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء)

(الجمهورية العربية المتحدة)

— ١ —

أحسبنى أكرر ما قد يقوله سواى من المشتركين فى هذا الموضوع إذا أنا أشرت إلى جلاله وخطره وقدرت أن عناية الإدارة الاجتماعية به منبثقة من شعورها الواعى بأهميـــة البيت فى الوطن العربى وإدراكها التام لمكانه فى حياتنا هذه المتشبثة بالوجود الكريم .

لكن احتمال التكرار مع مافيه من خشية الإملال لايحول بينى وبين وقفة عجلى أشـــير فيها إلى مايتصل بموضوعى الخاص من معنى « البيت » فى تراثنا اللغوى والروحى الذى تستمد منه التقاليد والعادات أهم مقوماتها وأقوى عناصرها .

عرفت لغتنا البيت فى قديمها مسكنا مبنيا أكبر من الخباء وأصلح للسكن والاستقرار ، ومن هذا الاستقرار الملحوظ فى البيت المبنى كنى العرب عن المرأة بالبيت فقالوا : بيت الرجل امرأته وبات الرجل إذا تزوج . كما لحظوا فى الليل معنى السكن فقالوا : بات الرجل إذا دخل فى الليل نام أو لم ينم . والمبيت الموضع الذى يبات فيه وبيت الأمر دبره بليل .

ثم تجاوزت العربية هذا المدلول القديم إلى معنى أرفع وأرحب حين أطلقت « البيت من بيوتات العرب على الذى يضم منها شرف القبيلة » ثم عممته فى معنى الشرف فقالت : بيت العرب شرفها وفلان بيت قومه أى شريفهم .

وهو معنى آثرت به العربية لفظ « البيت » دون « المنزل » الذى هو موضع النزول ومنه النزل الذى هو فى الأصل قرى الضيف هيئ له إذا نزل .

وقوى القرآن الكريم — كتاب العربية الأكبر ومعجزة الإسلام الخالدة — هذا المعنى السامى للبيت فخف به جلالا مابعده من جلال . فالبيت حين يطلق فى القرآن الكريم يكون علما على الكعبة المشرفة « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا — وليعبدوا رب هذا البيت »[1] ويجمع على بيوت علما على المساجد . « فى بيوت أذن الله أن ترفع »[2]

---

١ — من آية ١٢٥ سورة البقرة — وآية ٣ قريش وانظر معهما : البقرة ١٢٧ و ١٢٨ وآل عمران ٩٦ و٩٧ والانفال ٣٥ والحج ٢٦

٢ — من آية ٦١ سورة النور .

وإذا قيد « البيت » بالوصف أو الإضافة فى هذا المقام الأسنى قيد بالحرمة والعتاقة أو أضيف إلى ذات الجلالة « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » (١) « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » (٢) « وليطوفوا بالبيت العتيق » (٣) .

وكذلك اختص « أهل البيت » فى القرآن الكريم بآل ابراهيم (٤) وآل محمد (٥) عليهما الصلاة والسلام تشريفا لهم وتكريما . وكان دعاء « امرأة فرعون » التى ضربها الله مثلا للذين آمنوا (٦) — « رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة » .

وسميت سفينة نوح التى ركبها أيام الطوفان « بيتا » لأنها كانت ملاذ المؤمنين به وسكنهم « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا » (٧)

ولحظ معنى الحرمة فى استعمال القرآن للبيوت — دون المنازل — فى الدور الخاصة ذات الحرمة .

« يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم » (٨)

« يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » (٩)

« وقرن فى بيوتكن — واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » (١٠)

ومن هذا الفهم لحرمة البيت فى تراثنا اللغوى والروحى يستمد موضوعنا — كما قلت — أقوى مقوماته .

— ٢ —

وثمة وقفة أخرى يلزمنا بها منهج البحث وتلك هى أن نحدد مفهوم العادات والتقاليد كما عرفها أجدادنا العرب وكما نعرفهما نحن اليوم .

العادة فى اللغة من العود، وهو تجربة الأمر مرة بعد مرة حتى يؤلف أو تثنيته عوداً على بدء قال الشاعر :

بدأتم فأحسنتم فأثنيت جاهداً ... فإن عدتم أثنيت والعود أحمد

وتعود الشىء وعاده وعاوده واعتاده صار عادة له . كذلك استعاده ، قال الشاعر .

لم تزل تلك عادة الله عندى ... والفتى آلف لما يستعيد

تعود صالح الأخلاق إنى ... رأيت المرء يألف ما استعادا

---

١ من آية ١٢٥ البقرة وانظر معها ٢٦
٢ — ابراهيم ٣٧ المائدة ٣ و ٧٠
٣ — الحج ٢٩ ومعها الحج ٣٣
٤ — هود ٧٣
٥ — الاحزاب ٣٣
٦ — التحريم ١١
٧ — نوح ٢٨
٨ — الاحزاب ٥٣
٩ — النور ٢٧
١٠ — الاحزاب ٣٣ و ٣٤ والخطاب فيهما لنساء النبى .

ولا يحرج مفهومنا للعادة فى هذا العصر عن ذلك الاستعمال القديم . أما التقاليد فأصل القلد فى اللغة جمع الشىء إلى الشىء ومنه سمى المفتاح والخزانة مقلدا ومقلاداً والجمع مقاليد .

وأضيف إلى هذا المعنى ملحظ القوة فقيل . قلد الحبل فتله وسوار مقلود مفتول وكل قوة انطوت على قوة فهو قلد . والقلادة ماجعل فى العنق وقلائد الخيل كرامها إذ كان من عاداتهم أن يقلدوا كل سابق كريم، ومنه تقليد البدن بأن يجعل فى عنقها شعار يعلم به أنها هدى . ومقلدات الشعر البواقى على الدهر .

وأخذ التقليد فى الفقه معناه الاصطلاحى المعروف ثم استحدث الزمن من هذين الاستعمالين اللغوى والفقهى — معنى الأصالة والعراقة والإجماع فنحن نقول اليوم : التقاليد الجامعية والتقاليد القضائية والتقاليد البرلمانية ونقصد بها فى كل حالة مجموعة النظم الأصلية التى استقر عليها عرف كل هيئة منها أو جماعة مستمدة فى الغالب من تجارب أجيال متعاقبة ومضافا إليها مايستحدثه الجيل الخالف من نظام يراه جديراً بأن يصير تقليداً مقرراً وسنة متبعة .

والتقليد على ضوء هذا التتبع ، لا يطلق إلى على ماتعارفت عليه جماعة من سنن صالحة فى رأيها وتجاربها وهو فى هذا يختلف عن العادة التى تستعمل أكثر ماتستعمل فى النطاق الفردى لا الجماعى وتطلق على الصالح والفاسد سواء[1]

— ٣ —

وإذ تحدد مدلول البيت والعادات والتقاليد نمضى إلى صميم الموضوع باحثين عن أثر التقاليد والعادات فى البيت العربى فلا نرى أن نتناول هذا البحث تناولا خطابيا استهوائيا بل نؤثر أن نوفر له ماهو أهل له من حرمة بتناوله تناولا علميا يستند إلى مااطمأنت إليه الدراسة الحديثة من نظريات وآراء أثمرتها تجارب الباحثين من علماء النفس والتربية والاجتماع والأجناس والأخلاق .

والموضوع هكذا يرتبط ارتباطاً وثيقا بالكيان الاجتماعى الذى هو مشغلة قادة الفكر والإصلاح فى الأمم والشعوب كما يرتبط بالتربية الأخلاقية وبقضية التطور التى تواجه كل باحث فى سلطان التقاليد واحتكام العادة وقوة العرف .

ذلك لأن البيت هو الخلية الأولى فى كيان الجماعة أو هو الصورة المصغرة للمجتمع الكبير، وهذه مسألة تقررت وفرغ منها حتى لم تعد موضعا لجدل أو مماراة ، ولكننا — مع هذا — فى حاجة إلى أن نقرر حقيقة علمية وليست مجرد فكرة عامة تستمد قوتها فى الإقناع من الذيوع والانتشار فحسب إذ لا نكاد نعلم رأيا استقر عليه إجماع علماء التربية والأخلاق كإجماعهم على أن الأمة عائلة مكررة[2] وأنها هى الأساس الأول فى بناء الجماعة ، فالمرحلة الأولية

---

١ — كثيرا ما يختلط مفهوما العادات والتقاليد عند كثيرين . قال زكى مبارك فى « اللغة والدين والتقاليد ص ٧٠ » العادات كلمة قديمة كان يسميها ابن خلدون عوائد وهى اليوم تعرف باسم التقاليد . ثم استطرد يقول من غير جلاء للموقف — ويكاد العرف الحاضر يفرق بين اللفظين — فالعادات للافراد والتقاليد للجماعات .

١ — الأستاذ احمد لطفى السيد — الجريدة ١٢-١-١٩٠٩ و ٦-٤-١٩٠٩

لتربية الشعوب إنما تبدأ فى العائلة ، والعنصر الأول للحياة الأخلاقية إنما ينشأ فى البيت[١] .

والإنسان اجتماعى بطبعه . وهذه الاجتماعية تتجلى أول ماتتجلى فى البيت حيث يرتبط الفرد بأهله وإخوته ارتباطا وثيقا يهيئه للاندماج فى المجتمع الكبير واحتمال الالتزامات الناتجة عن كونه يحيا حياة فرد فى جماعة ويراض على تقبل « الواجب نظير الحق » وممارسة العطاء مقابلا للأخذ . ففى البيت — كما يقول دوركايم[٢] تتكون عادة الخروج عن نطاق الذات وتجاوز دائرة المصالح الفردية والمنفعة الشخصية إلى نطاق أرحب وأوسع ترتبط فيه فردية الفرد بقيود الجماعة ويمارس حريته محدودة بحريات الآخرين وتروض الأنانية بحيث تخضع لمقتضيات البذل والإيثار ويلقن أو يستشرف لما يسميه الأخلاقيون المثل الأعلى لخلقية الإنسان ذلك المثل الذى عرفوه بأنه « خليط فريد من الامتثال والعظمة ومن الخضوع والاستقلال » .

وباجتماعية الفرد وإنسانيته نرى الأسرة والوطن والإنسانية مراحل مرتبطة غير متباعدة ونفهم كيف أن رياضة الفرد فى البيت على عادة تجاوز ذاته هى فى واقع الأمر تحقيق لطبيعته الاجتماعية والإنسانية .

ومن هنا كانت عناية المربين لهذا المصنع الأول الذى يستقبل الطفل كمادة (خام) تتلقن وتتأثر وتتكيف بالظروف البيئية وتتقبل كل توجيه ، وهنا نذكر ماالحظه الباحثون من سلطان العادة على الطفل فهو لايكاد يتعود عادة حتى تتحكم فيه، ولايكاد يألف شيئاً حتى يتشبث به بكل عناد طفولته فهو (محافظ) على حد تعبير الأخلاقيين ومحافظته هذه تمتد إلى سواه حتى ليغضب ويثور كلما رأى فى عالمه الصغير خروجا على ماألف واعتاد . والثابت فى علم النفس أن «العادة طبيعة ثانية » وأن ليس هناك أشد عسراً من تعديل العواطف الاجتماعية . فالفرد وكذلك المجتمع يفكر بعاطفته أكثر مما يفكر بعقله وقل أن يجد المنطق سبيلا إلى تعديل عاطفة أو تغيير عادة، بل ليس يجدى اليقين بضرر العادة فى التخلص منها أو التحرر من جبروتها المسيطر[٣]

ومن هنا يبدو خطر البيت من حيث هو مصنع الشخصية ومنبت الجماعة .

— ٤ —

وحين ننظر فى البيت العربى بصفة خاصة نستطيع أن نميز عادات لنا تكاد تأخذ صفة العموم لذيوعها وانتشارها فى الكثرة الغالبة من بيوت هذا الوطن الكبير .

ففينا عادة حب المظاهر تكلفنا مانطيق ومالا نطيق وتصرفنا عن الاهتمام بالجوهر والصميم وتذيع فينا النفاق والرياء . ويكفى أن نشير إلى ماتتكلفه بيوتنا لإرضاء هذه العادة فى أفراحنا وفى مآتمنا وفى أثاثنا وملبسنا لنفهم كيف يتزود أحدنا من بيئته بزاد وافر من الاهتمام بالشكل والعناية بالمظهر وما يتبعهما من رياء وتكلف وادعاء ثم مايؤصلان فى شخصية الفرد من سطحية التفكير وارتجال الحكم ، ومن ثم ندرك مدى أثر هذه العادة التى تبدأ من البيت فى خلق المواطن العربى وفى شخصيته بوجه عام .

---

٢ — دوركايم — التربية الاخلاقية ص ١٨ من الترجمة العربية للدكتور السيد احمد بدوى
٣ — دوركايم — التربية الاخلاقية ص ٨٢
٤ — ليفى — بريل — الاخلاق وعلم العادات الاخلاقية — ص ٣٤٥ من الترجمة العربية .

وفينا كذلك عادة « المحاكاة » الطائشة الحمقاء تكاد تلغى شخصيتنا وتعطل إرادتنا وتعوق نهوضنا وهى عادة نتلقاها صغاراً من بيوتنا وتتحكم فينا كباراً، اشترى جارنا قطعة جديدة من الأثاث فنظل مؤرقين حتى نشترى مثلها ولو لم تكن بنا إليها حاجة بل ولو لم يكن لها فى بيتنا المتواضع مكان . وخاطت عديلتى ثوبا عند خياطة مشهورة غالية فلا يهنأ للأسرة كلها بال حتى أفعل مثلها . وسافرت أسرة من معارفنا إلى المصيف فلا كرامة لنا إذا لم نلحق بها . ونعجب بعد هذا إذا نشأت فينا كثرة من الأمعات المقلدين الذين لا يرجى فيهم للوطن خير زيهم مستعار وآراؤهم منقولة وآخرون ممسوخون مفتونون لا تكاد تراهم حتى تذكر قصة الغراب وريش الطاووس .

وفينا أيضا عادة التواكل والتماس الوسيلة للتخفف من العبء وإلقائه على سوانا . وقلما نخرج من بيوتنا إلى المجتمع دون أن نحمل فى شخصياتنا المعنوية وفى سلوكنا العام بذرة هذه العادة ، وقلما نسمع فى مجتمعنا الصغير مخطئا يعترف بخطئه قبل أن تسبق هذا الاعتراف محاولات شتى للفرار من المسئولية . وقل فينا من يظفر من البيت بفرصة تنمى استقلاله الذاتى عن طريق تدريبه على تحمل العبء والمسئولية بل نشب عيالا على ذوينا ثم على الحكومات من بعدهم ننوط بها كل أمورنا لو استطعنا ولا نتحرج من مطالبتها بالتدخل فى صميم أحوالنا الخاصة كأن تمنع تبرج نسائنا وتراقب سلوكنا وتقوم وصية علينا فلا نسرف فى المهور أو فى النفقات الخاصة وننسى ، كما يقول أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد « إن كل قانون يكسب الحكومة حقا أو رقابة يخسر الفرد فيه من حريته الشخصية واستقلاله بمقدار ما تأخذ هى »[1] .

وفينا كذلك عادة الخوض فى شئون الناس الخاصة والتسلى بالكشف عن أسرارهم والتلذذ بإبراز ما خفى من عيوبهم وتضخيم ما ظهر من أخطائهم . نتدرب على هذه العادة منذ الصغر فى بيوتنا ومجالسنا ويطبعنا عليها مجتمعنا فنخرج إلى الوطن الكبير بهذا الانحراف الذى يشغلنا عن خاص أمورنا ويلهينا عن عيوبنا بعيوب الناس ويهون علينا وطأة الشعور بأخطائنا لطول ما نستعرض من أخطاء الغير وننيم ضمائرنا بكثرة ما نلوك فى أعراض الجيران .

وفينا . . . . وفينا . . . . .

والبصر النافذ لا يخطىء أثر الغزو الفكرى والروحى للاستعمار فى ترسيخ هذه العادات التى نعترف بأن جذرتها الأولى قد وجدت فينا ، لكن الغزاة دأبوا على تغذيتها وإمدادها بأسباب النماء والتضخيم والانحراف بها عن وجهتها الصالحة التى يمكن أن تؤتى خيرا لو أحسن توجيهها : فنواة « حسب المظاهر » لا تعدو فى الأصل أن تكون رغبة فى التجمل والتستر ، وأساس التشبه والمحاكاة هو ما ركب فى طبيعتنا من التأثر بالأفضل واقتداء بالأقوى ، ونواة « التواكل » نشأت فى الأصل عن فطرتنا الخيرة المؤمنة بحكم كون هذا الشرق العربى مهد الرسالات السماوية ومهبط الأنبياء .

---

(١) ابن خلدون — المقدمة ١٤٧ ط التجارية
وانظر كذلك مقال « التقليد » للاستاذ الكبير أحمد لطفى السيد
الجريدة ٤-٣-١٩١٣ تأملات ٧٧

ونحن نعرف أن الاستعمار بدأ خطوته الأولى بدراسة نفسية الشعوب التى اختارها ليسيطر عليها وأن جيوش الاحتلال قد سبقها جنود متنكرون فى أزياء التجار والعلماء والمبشرين سبروا غورنا وفهموا أمزجتنا وعقليتنا تمهيدا للسطو علينا . وقد انتبهوا فيما انتبهوا إلى ما اعتدنا عليه من حب التجمل والتستر والتشبه بالأفضل ومحاكاة الأقوى والميل إلى التوكل والتسليم .

فعكفوا لا على تقوية هذه العادات فحسب ولكن على سلبها عنصر الخير والصلاحية كذلك والانحراف بها إلى حيث تصير مفسدة لمعنويتنا ومهدرة لشخصياتنا .

وسهل عليهم الأمر ما نعلم ويعلمون من سلطان العادة وقوة الألف إلى جانب براعتهم فى وسائل الغزو المعنوى وتفننهم فى أساليب الاستهواء .

— ٥ —

وبقدر ما رسخوا هذه العادات واشباهها فينا ، حاربوا تقاليدنا وحاولوا استئصالها فإذا أعياهم أمرها لم يعدموا وسيلة لمسخها وتشويهها .

وما ذاك إلا لأنهم أدركوا أن هذه التقاليد هى طابع أصالتنا وحلقة الاتصال بين حاضرنا وماضينا ودعامة عصبيتنا القومية التى لا مناص لنا من الاتكاء عليها إذا التمسنا إلى الحياة سبيلا .

وكانت هذه المحاربة لتقاليدنا أحدى ذرائع الاستعمار وحلقة من برنامج مرسوم لبترنا من أصولنا وحجبنا عن ماضينا وإلغاء مشخصاتنا المميزة التى يرتهن بها شعورنا بأن لنا وجودا خاصا .

واشتبه الأمر علينا فلم نفرق بين العادات والتقاليد بل كثيرا ما نطلق لفظ تقليد على كل عادة مرذولة[1] مع أن التقاليد فى الواقع لا تأخذ قوتها وسلطانها إلا بعد أن تعبر مراحل زمنية غير قصيرة تصهرها فيها تجارب أجيال منا لهم مثل طبيعتنا وقد نشأوا فى هذه البيئة المشتركة بكل خصائصها المميزة ومؤثراتها الإقليمية فضلا عما يربطنا بهم من أواصر لا تعرف الدنيا أقوى منها .

وإذا كان الزمن قد تغير بنا وترك فينا عصرنا آثارا لا عهد لآبائنا وأجدادنا بمثلها فالذى لا ريب فيه أن (العصرية) التى تنتظم طوائف من الناس فى قطاع زمنى واحد لا يمكن بحال ما أن توحد بين ذلك الخليط المتنافر بشتى أجناسه وعناصره ومختلف ألوانه وأشكاله ومتباينين ظروفه ومتغاير أقاليمه . فوحدة العصر مثلا لا يمكن أن تؤلف بين عربى وصهيونى ولا بين روسى وأمريكى ، بل هو كما قال شاعرنا القديم .

« أحارث » أنا لو تساط دماؤنا تزايلن حتى ما يمس دم دما

---

(١) الاستاذ أحمد لطفى السيد « تأملات فى الفلسفة والادب والسياسة والاجتماع » ٧٩

على حين لا يلغى اختلاف الأعصر ما بيننا وبين أجدادنا من سمات مشتركة وخصائص موروثة .

والتقاليد — فى اعتراف العلم — هى أقوى العوامل فى ثبات الشخصية الاجتماعية على توالى الأجيال وتتابع العصور . يحل جيل منا مكان جيل ويتغير اليوم عن الأمس ويظل هناك من وراء ذلك التغير شىء ثابت هو المجتمع بشعوره الخاص ومزاجه المشترك . شأنه فى هذا شأن الفرد تتجدد خلاياه باستمرار فى فترات قصيرة إلى أبعد حد ويظل محتفظا مع ذلك بالصفات الأساسية لشكله المادى وطباعه الأخلاقية [١] .

ومن هنا كان حرص الغزاة على محاربة تقاليدنا ومسخها حتى يبترونا من أصولنا ويمحوا شخصياتنا . عرفوا من تقاليدنا العربية كرم الضيافة فاستغلوا فينا هذا الكرم لاستباحة حمانا الأقدس وسلب خيرات أرضنا الطيبة .

وتعلموا أن العرب ورثوا عن الآباء والأجداد تقليدا أصيلا هو حماية الجار والمروءة والنجدة فحاولوا بوسائلهم الخبيثة أن يمزقوا وحدة الوطن العربى وأن يقيموا بين أقطاره الفواصل والحدود والسدود ليفصلوا بين الأخ وأخيه ويقطعوا ما بين الجار وجاره ومن ثم تتفرق كلمتنا وتنتشر قوانا وتذهب ريحنا بددا [٢] .

وعلموا من تاريخنا الطويل أن من تقاليدنا احترام السلف والمحافظة على ميراثه الروحى وبخاصة ما يتصل منه بالعقيدة فاستغلوا هذه المحافظة فى إضرام [٣] نار التفرقة الدينية بين أبناء القطر الواحد وإيقاد بغضاء التعصب المذهبى كما جمدوا (المحافظة) فى أغلال الرجعية المعوقة لكل نهضة وسخروا جنودها لشل الفكر ووأد الحرية وتعطيل الحياة .

وحين تنبهنا إلى مكيدتهم تحولت الحرب إلى ميدان آخر هو إيهامنا أن « التقاليد » هى التى تعوق تطورنا وتحول دون مسايرتنا للعصر الذى نعيش فيه وتمنع اندماجنا فى عالم اليوم .

وكان « البيت العربى » أهم ميادين هذه الحرب الخفية والمعلنة ، فالتقاليد — فى زعمهم — هى المسئولة عن انحطاط الأسرة واستعباد المرأة ووأدها معنويا واجتماعيا .

والتقاليد — فى قولهم — هى المسئولة عن عجز « البيت العربى » عن أن يكون منبتا طيبا لأفراد الجماعة وبيئة صالحة لتربية أصحاب الغد .

والتقاليد — فيما أرجفوا وأشاعوا — هى المسئولة عن العزلة المعنوية بين الزوج العربى وزوجته وبين الأب وبنيه والأم وبناتها .

ومقتضب القول فقد نادوا بمسئولية التقاليد عن تأخر المرأة والبيت وأنها المسئولة عن كل تأخر وجمود فى مجتمعنا العربى بحيث لا يمكن أى إصلاح إلا إذا قضينا عليها فى البيت أولا .

واستهوت الدعوة غير قليل من شبابنا المفتونين فعمد كثير منهم إلى استيراد زوجات أجنبيات أبتلى بهم هذا الشرق العربى وكن فيه أداة تمزق وانفصال ووسيلة غزو روحى عنيف انسلخ فيه الأبناء عن شرقيتهم وتنكروا لعروبتهم أو على الأقل تعرضوا لمحنة الحيرة والشك والتوزع بين شرق وغرب .

---

(١) اميل دوركايم « التربية الاخلاقية » ص ٦٥ من الترجمة العربية .
(٢) هذا العالم العربى — تأليف نبيه فارس ومحمد توفيق حسين ط دمشق ص ٨
(٣) المرجع نفسه — من ص ٤٧ — ص ٦١

واستهوت كذلك أكثر المتحررات من بنات هذا الجيل، خدعهن المضللون بزعم باطل هو أن تحرير المرأة بضاعة أجنبية حديثة وأن رقيها رهن بازدراء تقاليد قومها والتشبه بالنماذج الواردة إلينا من خليعات باريس وغانيات هوليوود[١] .

هنا نصل إلى نقطة هامة من البحث وهو موقف التقاليد من التطور ومدى مسئوليتها عن الجمود، فيلقانا المذهب القائل بأن التمسك بالتقاليد طفولة اجتماعية « وكلما كان المجتمع أقرب إلى بساطة البداوة تولت العادات والتقاليد ذات الطابع التلقائى مهمة تنظيمه وقوى نفوذها إلى حد لا يدع أى مجال للتفكير فيها تفكيرا عقليا أو لاختبارها من جديد » .[٢]

وهى نظرية تبدو مناقضة لأخرى تقرر أن التقاليد هى مناط ثبات الشخصية الاجتماعية وأن الثورة التجديدية على كل تقليد قديم تنتهى نهاية عقيمة لأن التطور الذى يلغى من شخصيات الأمة ولا يستبقى ما يكفل التميز بينها وبين سواها معناه القضاء عليها[٣] وإن تراثنا من التقاليد إنما هو[٤] حلقة اتصال بماضينا، ومن ثم فهو عنصر من مقومات حيويتنا وبقائنا .

والواقع أنه لا تناقض ولا اضطراب إذ يكفى أن نحرر مفهوم التقاليد مما خالطه من معانى الجمود وأن نفرق بين التقاليد والعادات لتستقيم الفكرة خالية من التناقض الناشىء عن الخلط بينهما فى عبارة «دور كايم» والتمسك بالعادات لا التقاليد هو مظهر الطفولة الاجتماعية أما المحافظة على التقاليد — بما هى تجارب أجيال وميراث آباء — فهى مظهر أصالة ومناط ثبات شخصيتنا المعنوية التى نتميز بها عن غير العرب من مواجهة التطور ومسايرة العصر .

والتطور محتوم ومقاومته سذاجة وكل جهد يبذل لمنعه عبث ضائع وإنما يجب أن نوجه كل الجهد لتوجيه تطورنا بحيث لا يقضى على أصالتنا ولا يمسخ شخصياتنا .

والقول بأن المحافظة على تقاليدنا قد تعنى الرجعة إلى الوراء خطأ أشاعه فينا الغزاة ، فالواقع أن الرجعة مستحيلة لأن الدنيا لا ترجع أبدا إلى خلف وعجلة الزمن لا يمكن أن تدور عكسيا من القرن العشرين وتكر راجعة إلى القرن التاسع عشر فالثامن عشر ، ورحم الله أبا العلاء — شاعر العربية الأكبر حين قال :

الذى مر على قرية يعجز أهل الأرض عن رده

---

(١) من أراد ان يقرأ تفصيل هذا الغزو واثره فى انحراف النهضة النسوية عندنا فليرجع الى محاضرتى عن المرأة العربية فى الموسم الثقافى للكويت عام ١٩٥٦ وكذلك البحث الخاص بالمرأة المسلمة — أمس واليوم فى كتاب « الاسلام — اليوم وغدا » ص ٦٦ دار الاحياء بالقاهرة .

(٢) اميل دوركايم « التربية الاخلاقية » ص ١٣١ من الترجمة العربية .

(٣) المرجع نفسه وانظر معه « تأملات فى الفلسفة والادب والسياسة والاجتماع » للاستاذ الكبير احمد لطفى السيد ص ٧٥ ط المعارف

(٤) ليفى بريل « الاخلاق وعلم العادات الاخلاقية» ص ٣٣ من الترجمة العربية .

فلنحرص ماشئنا على تقاليدنا ونحن فى مأمن من هذه الرجعة المزعومة ولنرقب البيت العربى إذ يتعرض لهزة تطورية عنيفة أثر الانقلاب الحديث فى الوضع الاجتماعى والاقتصادى للمرأة ولتدفق التيارات والمذاهب الحديثة عن طريق البر والبحر والهواء دون أن تصدها حواجز أو تستوقفها حدود .

ولامفر لنا من التسليم بغلبة هذا التطور والخضوع له كيما نركز الجهد فى توجيهه لخير البيت العربى والوطن العربى كله . فتحرر المرأة من أغلال الجهل والنبذ دون أن يختلط تحررها بالتحلل من تقاليدنا الكريمة التى تحرص على عزة الأنوثة وتصونها وإبائها ، وتستجيب للتطور على أنه وعى للوجود وإدراك للذات واتصال بالحياة وليس زيا خليعا مستعارا أو انسلاخا من شرقيتها أو خروجا على تقاليد قومها وانحرافا عن ميراثها الفطرى الأصيل ، وتنجو من الوأد الاجتماعى والمعنوى وتظفر بكل حقوقها الإنسانية دون أن تمسخ فطرتها فتغدو لاشرقية ولا غربية لامن النساء ولا من الرجال . وتسترد شخصيتها المهدرة دون أن تفقد إيمانها بأن البيت أعز مكان للأنثى وأن الأمومة أمجد عمل لهـا .

(٧)

وانتهى من هذا البحث بتوصية واحدة هى تركيز الجهد لإصلاح المجتمع العربى بإصلاح البيت عن طريق إعداد الأم المستنيرة الواعية القادرة على أن تحقق إنسانيتها ووجودها فى « البيت العربى » الذى يصنع أبناء الغد المؤمنين بوطنهم المعتزين بعروبتهم المحتفظين بتقاليدهم الأصيلة المميزة .

وإذا كان لى أن أشير إلى وسائل هذا الإعداد فأهم ما اقترحه هنا هو :

١ — وضع حد للزواج من الأجنبيات اللواتى يرزأ الوطن العربى منهن بأبناء مرهقين بعقدة الشعور بالنقص ومحنة العزلة والانفصال عن الجماعة وشقوة الانسلاخ من القومية العربية وازدراء تقاليدها .

٢ — فرض رقابة رشيدة يقظة حازمة على البضاعة الفكرية المستوردة بشتى وسائلها كالأفلام والكتب وسائر المطبوعات لمحاربة الغزو الروحى والفكرى الذى يعزلنا عن أصولنا ويمسخ تقاليدنا ويغرى أبناءنا بالتنكر لشرقيتهم ويوهمهم أنها سر تخلفنا ومظهر تأخرنا وانحطاطنا .

٣ — تطهير مكتبة المدرسة والبيت من آثار عصور الاحتلال التى حجبت عنا أمجاد ماضينا الذى تدين له الإنسانية بتراثها الروحى والحضارى والتى ألقت على تقاليدنا — ظلما — تبعة التدمير المعنوى الذى أصابنا به المستعمرون وصنائعهم وأذنابهم من الرجعيين والمرتزقين .

٤ — تآزر الأقطار العربية على تصحيح فهم بنات العرب لمعنى الحرية عن طريق تزويد مكتبات المدارس والبيوت بكتب جديدة ترد عناصر تحرير المرأة العربية إلى أصولها الشرقية والإسلامية العريقة وتنفى ماشابها من شوائب دخيلة عليها مفسدة لحيويتها ، وتوزع هذه الكتب على أوسع نطاق بحيث تفرض على كل مدارس البنات التى تعد أمهات الغد وصانعات المستقبل .

العامل الديموجرافى البيت العربى

للدكتور حنا رزق

(الجمهورية العربية المتحدة)

البيت العربى هو نواة المجتمع العربى والوحدة التى يتألف منها ، لذلك تنعكس صفات البيت وتقاليده وقيمه الاجتماعية على المجتمع وتؤثر فى كيانه واتجاهاته وتجعل منه مجتمعا متماسكا متقدما ، أو تحيله مجتمعا جامدا متخلفا . ويؤثر المجتمع بدوره فى البيت ، فإن نظام البيت ووظائفه الأساسية وأسلوب العلاقات التى تحدد الحقوق والواجبات بين أفراده ، ومستوى معيشته ، فى أى مرحلة من مراحل تطوره ، إنما تستمد من نوع بناء المجتمع وموارده الطبيعية ، والنظم الاقتصادية السائدة به واتجاهاته الاجتماعية ومثله العليا فى تلك المرحلة .

فالبيت والمجتمع نظامان اجتماعيان متفاعلان يؤثر كل منهما فى الآخر ، وكل تغير أو تطور فى أحدهما لابلبث أن ينعكس على الآخر .

يبدو هذا التفاعل بين البيت والمجتمع جليا عند البحث فى الشئون الاقتصادية أو المستويات الثقافية والفنية ، أو الأوضاع الاجتماعية ، أو القيم الخلقية ، وهو أشد وضوحا وأقوى أثرا فى الاتجاهات الديموجرافية .

والمقصود بالاتجاهات الديموجرافية ، التغيرات التى تحدث فى النمو العددى للسكان ، والبناء السكانى (نسب فئات العمر) وتحركات السكان الداخلية أو الدولية ، وتوزيعهم فى مختلف البيئات ، وشكل ذلك التوزيع ودرجة الكثافة التى تنشأ عنه ، ومعدل طول العمر ، وهى كلها ظاهرات متشابكة ، ويؤدى كل تغير فى الواحدة منها إلى تغير فى الظاهرات الأخرى ، ثم تنعكس هذه التغيرات على المجتمع والبيت فتؤثر فى ظروف الحياة الأساسية فيهما ، وتتغير الأوضاع المألوفة وتنشأ مواقف جديدة تستدعى مواجهتها حرصا على مصلحة المجتمع ورفاهية البيت .

وقد كان أثر العامل الديموجرافى فى حياة الدول والشعوب مجهولا فى كثير منها حتى نصف القرن الأخير ، وحتى الدول التى سبقت غيرها فى تقدير أهميته كانت إلى عهد قريب تخطىء تقدير عواقبه ، غير أن استفحال درجة التطور الديموجرافى فى الوقت الحاضر واضطراد زيادة سرعته فى كل عام على نحو لم يعهده العالم من قبل فى أى مرحلة من مراحل تاريخه ، قد حفز رجال الحكم والاقتصاد والاجتماع فى كل أمة ناهضة إلى الاهتمام بدراسة التغيرات الديموجرافية وتقدير أثرها فى الإنتاج والاستهلاك والقوى العاملة وبرامج التعليم والتأمين الاجتماعى ، وأصبحت دراسة التغيرات الديموجرافية ركنا أساسيا من أركان التخطيط ومشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وأدركت الدول التى تعمل على تحقيق حياة إنسانية كريمة لشعوبها ، أن مستوى المعيشة يتوقف على أربعة عوامل ، هى ، أولا الموارد

الطبيعية من مساحة الأراضى القابلة للزراعة ونوع تربتها ، وكمية مياه الرى بها ، والمعادن المدفونة فى باطن الأرض ومدى وفرتها ، والموقع الجغرافى ومدى ملاءمته للتجارة الدولية ، وثانيا وسائل استغلال هذه الموارد وهى تتدرج من وسائل بدائية بطيئة الإنتاج إلى أدوات آلية فنية شديدة التعقيد ولكنها وفيرة الإنتاج . وثالثا نوع التنظيم الاجتماعى ويتضمن مدى تنظيم الإنتاج والتوزيع والاستهلاك ، وتقسيم العمل وتدريب العمال وكفايتهم ، وتنظيم العلاقة بين العمال وأصحاب العمل ، وغير ذلك من النظم التى تؤثر فى الإنتاج والاستهلاك. ورابعا العامل الديموجرافى وهو لا يقل أهمية عن العوامل الثلاثة الأخرى فى التأثير على رفع مستوى المعيشة أو خفضها فإن قلة الأيدى العاملة أو كثرتها عن الحاجة إليها ، ومتوسط نصيب الفرد فى المجتمع من الإنتاج ونسبة المنتجين إلى المستهلكين ، ونوع الاستهلاك ومقداره تتوقف إلى حد ما على عدد السكان وتوزيعهم وأعمارهم ، ونسبة الذكور إلى الإناث والتغير فى هذه الحقائق الديموجرافية .

وحيث أن الاهتمام بالعامل الديموجرافى فى المجتمع العربى يرجع إلى سنوات قليلة فى بعضها وهو يكاد لا يوجد فى البعض الآخر لأسباب كثيرة ، نذكر منها انعدام البيانات الدقيقة التى يستعان بها فى قياس الاتجاهات الديموجرافية وتعذر الحصول على البيانات المطلوبة قبل محو الأمية أو خفض نسبتها ، ولعدم إعداد جهاز إحصائى فنى للإشراف على جمع البيانات الأساسية بطرق تتناسب مع إمكانيات السكان وإدراكهم ، ثم ابتداع الطرق العلمية التى تيسر تحليل هذه البيانات للوصول إلى نتائج يعتمد عليها رغم نقص بعض البيانات لتعذر الحصول عليها . . . فإن هذا البحث لن يزيد عن محاوله متواضعة لتوضيح عام للاتجاهات الديموجرافية ولبيان أثرها فى المجتمع ثم فى البيت العربى ، مستعينا فى ذلك ببعض الأرقام التى تبين هذه الاتجاهات وتشير إلى بعض نتائجها المحتملة وسيتناول الجوانب التالية ، الاتجاهات الديموجرافية وأسبابها ، والاتجاهات الديموجرافية فى المجتمع العربى ، أثر الاتجاهات الديموجرافية على البيت العربى ، واختلاف أثر الاتجاهات الديموجرافية فى المجتمعات باختلاف ظروفها ، المشكلات التى يجب التغلب عليها قبل تحقيق توازن ديموجرافى اقتصادى .

الاتجاهات الديموجرافية وعواملها :

إذا دققنا النظر فى طبيعة التغيرات السكانية من حيث النمو العددى ونسبته ، وتوزيع السكان ، ونسبة كل فئة من فئات العمر إلى مجموع السكان ، وما يترتب على هذه التغيرات من مشكلات اقتصادية واجتماعية. سواء أكان ذلك فى شعوب تختلف فى درجة حضارتها وتتفاوت فى مستوى معيشتها ونوع ثقافتها ، أم فى الشعب الواحد حين ينتقل من مرحلة إلى أخرى من مراحل مدنيته ، فإننا نشهد ثلاثة أنواع عامة من الاتجاهات الديموجرافية ، تنفرد كل منها بخصائص معينة تكاد تشترك فيها كل الشعوب التى يبدو فيها نفس الاتجاه الديموجرافى ، أو التى تمر فى ذات المرحلة السكانية ، وسنطلق عليها فى هذا البحث « أنماطا ديموجرافية » وهى النمط الديموجرافى البدائى ، النمط الديموجرافى الانتقالى ، النمط الديموجرافى الاستقرارى . وتختلف هذه الأنماط بسبب اختلاف نسب المواليد والوفيات فى كل منها .

١ — النمط الديموجرافى البدائى : تتميز هذه المرحلة السكانية بارتفاع فى نسبة المواليد فتتراوح بين ٤٠ ، ٥٠ فى

الألف وبارتفاع فى نسبة وفياتها فتتراوح بين ٣٠ ، ٣٥ فى الألف وبتعرض السكان لأوبئة ومجاعات دورية ترتفع نسبة الوفيات العامة إلى نسب خيالية فى سنوات حدوثها ، وتبلغ نسب الوفيات أشدها بين الأطفال الرضع فقد تصل إلى ٤٠٠ فى الألف ، ويكون نمو السكان فى هذه المرحلة متوسطاً فى بعض السنوات رغم ارتفاع نسب الوفيات وما ذلك إلا لارتفاع نسبة المواليد عنها ، غير أن الأوبئة والمجاعات أو الحروب تقضى على عدد كبير من السكان وتلغى أثر الزيادات التى تجمعت فى السنوات العادية ، وعليه نجد أن عدد السكان فى كل عشر سنوات يزيد زيادة ضئيلة أو لا يزيد على الإطلاق ، وقد يتناقص العدد إذا تقاربت فترات الأوبئة والمجاعات .

وقد مر كل شعب من شعوب العالم فى هذه المرحلة التى سادت العالم قبل العصور الوسطى ولم تتغير فى أى جزء فيه حتى القرن السادس عشر ، وكان من أثرها أن سكان العالم وقد قدر عددهم بنحو ٣٥٠ مليون فى العام الميلادى الأول لم يزيدوا عن ٤٧٠ مليون فى منتصف القرن السابع عشر أى أن متوسط الزيادة كان ٧ مليون فى كل مائة عام .

وتوجد هذه المرحلة السكانية اليوم فى بعض جهات أواسط أفريقيا ؛ وبعض جزر المحيط الهادى وبعض مناطق آسيا ، وهى الجهات التى تشبه فى تدهورها الصحى وتأخرها الاقتصادى ، وفساد النظام فيها الظروف السائدة فى كثير من دول العالم حتى نهاية القرن السابع عشر .

٢ — النمط الديموجرافى الانتقالى : تلى هذه المرحلة السكانية المرحلة البدائية وتتميز بنمو سريع مضطرد الزيادة فى السكان يرجع سببه إلى انخفاض ملحوظ متصل فى نسب الوفيات مع بقاء نسب المواليد على أقصى ارتفاع لها أو مع انخفاض ضئيل فيها . فيتسع التفاوت بين المواليد والوفيات ويضطرد نمو السكان بزيادة سريعة تفوق فى كل عام العام السابق له ، وتكاد تنعدم الأوبئة والمجاعات ، فتصل الزيادة إلى أقصاها ، إذ تبلغ نسبة المواليد فى هذه المرحلة نحو ٣٥ — ٤٥ فى الألف ، وتبلغ نسب الوفيات نحو ١٥ — ٢٥ فى الألف وقد تصل إلى ١٥ فى الألف فتبلغ الزيادة الطبيعية فى العام الواحد نحو ٢٠ — ٣٠ فى الألف من السكان .

تبدأ المرحلة الانتقالية للسكان عند شعوب المرحلة البدائية حين تقبل هذه الشعوب على تغيير الأوضاع الأساسية فيها ، فيستقر نظام الحكم بعد اضطرابه ويستتب الأمن بعد الفوضى ، وتفرض وسائل الأمان الاقتصادى وتراعى أبسط القواعد الصحية ، ويأخذ المجتمع فى نشر قسط من التعليم ولو كان ضئيلا ، عندئذ يشهد المجتمع أن نسبة الوفيات تستجيب فى سرعة كبيرة لهذا التغير فتأخذ فى الهبوط ويستمر هبوطها كلما اتسعت دائرة الإصلاح فى المجتمع ، وتقل الأوبئة أو تنعدم ، ويقضى على المجاعات . غير أن نسب المواليد لا تتأثر بهذه التغيرات فتبقى على ارتفاعها وقد ترتفع قليلا بسبب تغير فى البناء السكانى يزيد من نسبة المنجبات (الإناث اللواتى فى سن الحمل) لمجموع الإناث ، فيتسع الفرق بين نسبتى المواليد والوفيات وترتفع تبعا لذلك نسبة الزيادة الطبيعية للسكان فيضطرد نمو السكان بنسب متزايدة فى كل عام .

وقد مرت أوربا فى هذه المرحلة السكانية من القرن السابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، ومرت اليابان فيه فى النصف الأول من القرن العشرين ، وتمر اليوم فيه أكثر دول آسيا — إذا استثنينا اليابان — وبعض دول شرق أوروبا ودول الشرق الأدنى وأمريكا الجنوبية .

٣ — النمط الديموجرافى الاستقرارى : وهو النمط الأخير من الأنماط الديموجرافية ويعرف بنمو بطىء فى السكان يكاد يصل إلى استقرار وقد يؤدى إلى نقص قليل فى عدد السكان ، وتأتى هذه المرحلة بعد المرحلة الانتقالية للسكان إذا اضطردت وسائل الإصلاح فى شتى شئون المجتمع واستمر مستوى المعيشة فى ارتفاع رغم النمو السكانى السريع فى المرحلة الانتقالية وذلك لفترة لاتقل عن نصف قرن، فإن نسبة المواليد تتجه إلى الهبوط ولاتلبث أن تزيد نسبة هبوطها عن نسبة هبوط الوفيات وقد تكون الوفيات وقد وصلت إلى أدنى حدلها (٧ — ١٠) فى الألف فلاتهبط دونه وبذلك يضيق الفرق بالتدريج بين المواليد والوفيات وتقل تبعا لذلك نسبة الزيادة الطبيعية وتأخذ فى الانخفاض حتى تكاد نسبتا المواليد والوفيات يتلاقيان عند مستوى الحد الأدنى لكل منهما وعندئذ لايزيد السكان ولايقلون إلا بقدر ضئيل فتتحقق المرحلة الاستقرارية وتعرف بمرحلة النضوج السكانى .

وتتميز هذه المرحلة بطول متوسط العمر إذ يبلغ ٧٠ سنة أو أكثر وبارتفاع مستوى المعيشة وبارتفاع نسبة الشيوخ وانخفاض نسبة الأطفال إلى مجموع السكان .

ويوجد هذا النمط السكانى فى الوقت الحاضر فى دول شمال أوربا وغربها وبعض دول وسط أوربا ثم اليابان وأميركا الشمالية ونيوزيلنده .

ويلاحظ أن هذه الأنماط الثلاثة تدل على اتجاهات سكانية عامة، وقد يتباين النمط الواحد فى تفاصيله ويتفاوت فى مداه من مجتمع إلى آخر ، كذلك يختلف أثر كل منها فى المجتمع الذى يسيطر عليه حسب موارد المجتمع الطبيعية ومدى استغلالها ومقدار كثافة السكان عند بداية المرحلة ، ونسبة زيادة الإنتاج إلى زيادة السكان . ولايتسع المجال هنا لتحليل أثر كل نمط ديموجرافى على حده ولكننا سنتناول النمط الديموجرافى السائد فى البلاد العربية بتحليل أسبابه وعواقبه .

الاتجاهات الديموجرافية فى المجتمع العربى :

تشترك الدول العربية منذ عدة قرون فى عوامل أساسية كثيرة فى مقدمتها الدين واللغة والثقافة وما يرتبط بها من قيم وعادات وتقاليد ، وقد شهدت هذه المنطقة فى نصف القرن الأخير تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية متشابهة تمخضت عنها فى السنوات الأخيرة أهداف موحدة واتجاهات مشتركة، ومن أهم هذه الأهداف التحرر من بقايا الاستعمار البغيض فى شتى صورة وتحقيق الأمان الاجتماعى لأبناء الشعب جميعا واتخاذ الوسائل العملية لرفع مستوى المعيشة بين الطبقات الكادحة، وتوفير فرص العمل والإنتاج لجميع القادرين على العمل، والاعتراف بحق الفرد فى فى حياة إنسانية كريمة .

كان لهذ التشابه فى ظروف الحياة الأساسية فى الدول العربية أثره فى الاتجاه السكانى وجعل المنطقة كلها نمطا ديموجرافيا واحداً يتشابه فى خصائصه ومميزاته وإن اختلف فى مداه لاختلاف فى درجة التطور والتغير .

دخلت بعض مناطق المجتمع العربى فى بداية المرحلة الديموجرافية الانتقالية منذ نصف قرن وقد تبعتها غيرها بعدفترات قصيرة، وتعتبر المنطقة كلها داخلة فى هذه المرحلة من ربع قرن . وتتميزهذه المرحلة بنمو سريع فى السكان لاتساع الثغرة بين نسب مواليدها ونسب وفياتها،وليس مايدل على تغير هذا الاتجاه فىأى جهة من جهاته فى الوقت الحاضر أو المستقبل القريب، ويلاحظ أن الثغرة تزداد اتساعا فى الجهات الأكثر تقدما .

والثغرة الديموجرافية تنشأ فى الشعوب الآخذه بأسباب الحضارة فإن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى تتطلبها برامج زيادة الإنتاج ورفع مستوى المعيشة تحدث أثرا مباشرا فى نسب الوفيات فتأخذ فى الهبوط على حين أنها لاتؤثر فى الخصوبة — فى هذه المرحلة على الأقل — فتبقى على ارتفاعها ويزداد الفرق بين العاملين ويزداد النمو السكانى تبعا لذلك. وسنورد هنا اتجاهات الوفيات ثم الخصوبة ونشير إلى أسبابها .

الوفيات : مازالت نسب الوفيات مرتفعة فى الدول العربية إذا قورنت بغيرها من الدول التى سبقتنا فى التنمية الاقتصادية والعناية بالشئون الصحية ، ومع ذلك فإن اتجاه الوفيات يدل على أن هذه المنطقة لم تعد مرتعا للأوبئة والأمراض المعدية ، فقل التذبذب فى الخط البيانى للوفيات منذ نصف قرن ثم أخذ فى الهبوط المضطرد بعد الحرب العالمية الثانية،وقد بلغ انخفاض الوفيات فى بعض الدول فى السنوات العشر الأخيرة نحو ١١ فى الألف فهبطت من ٢٧ فى الألف إلى ١٦ فى الألف ، ويعتبر هذا الهبوط رقما قياسيا لم تحققه دولة من دول أوربا فى فترة مماثلة عند مرورها فى المرحلة الانتقالية ، ويرجع انخفاض الوفيات بهذه السرعة المنقطعة النظير إلى التغيرات التى سادت المجتمع العربى فى الفترة الحديثة من تاريخه ولا سيما فى السنوات الأخيرة نذكر منها :

١ — الأخذ بنظام الحجر الصحى والدقة فى تنفيذ الإجراءات الخاصة به لمنع تسرب الأمراض الوبائية .

٢ — تعميم نظام تطعيم الأطفال دوريا لوقايتهم من الجدرى وتوسيع دائرة أولئك الذين يشملهم أخذ الحقن الواقية من الأمراض المعدية مثل الدفتريا والسل ... الخ .

٣ - تعميم مكاتب الصحة والمجموعات الصحية وقد بلغ عددها فى (إقليم مصر) ٥١٠ فى عام ١٩٥٦ ويرجع إليها الفضل فى إحكام الرقابة الصحية فى البيئات الريفية .

٤ — إنشاء مراكز رعاية الطفل والأم للعناية بالأمهات أثناء الحمل والوضع ورعاية الأطفال .

٥ — إنشاء شبكة من المراكز الاجتماعية والوحدات المجمعة فى الريف ويبلغ عددها فى (إقليم مصر) ٢٥٠ مركزا ووحدة ويكاد يمتد نشاطها الصحى والاقتصادى إلى جميع القرى والعزب .

٦ — التوسع فى إنشاء المستشفيات الحكومية وتيسير العلاج من غير مقابل .

٧ — زيادة عدد الأطباء والعمل على توزيعهم فى أنحاء البلاد لتنفيذ برنامج الطب الوقائى والعلاجى،وقد تضاعف عددهم فى العشرين سنة الأخيرة ، وبلغ عدد الأطباء منذ عامين ٧٠٦١ طبيبا فى (مصر) ، ٧٨٠ فى العراق ، ١٠٤٩ فى لبنان ، ١٨٤ فى الأردن ، ١٠٣ فى السودان ويزداد هذا العدد فى كل عام .

٨ — التوسع فى مشروعات الصحة القروية وتوصيل مياه الشرب النقية إلى كثير من القرى التى ظلت مئات السنين محرومة منه .

٩ — الإفادة من التقدم العلمى الحديث فى فنى الطب الوقائى والعلاجى والاستعانة بالأمصال والمركبات الطبية التى قضت على بعض الأمراض المستفحلة .

١٠ — انتشار التعليم على نطاق واسع وجعله إلزاميا فى بعض الدول العربيـــة عاون على إيجاد الوعى الصحى بين الجماهير .

١١ — زيادة نسبة السكان المقيمين فى المدن بسبب مشروعات التنمية الاقتصادية وإنشاء صناعات مختلفة و إمكانيات المدن فى التنظيم الصحى والرعاية الصحية .

١٢ — إنشاء طرق منوعة تصل الريف بالمدن تيسر للريف الإفادة من الوسائل الصحية والطبية .

أخذت الدول العربية بهذه الوسائل ، كل منها على قدر استطاعتها ، وحسب ظروفها وكل منها لاتدخر وسعا فى التوسع فيما بدأته، وكان من أثر هذا التطور أن قلت الأوبئة أو انعدمت، وهبطت الأمراض المعدية وانخفضت نسبة الوفيات ، وهى آخذة فى الانخفاض بسرعة كبيرة، ويلاحظ أن أكبر نسبة لهبوط الوفيات كانت بين فئة سن المنتجين فبلغ الانخفاض فى بعض الدول ٤٠ — ٥٠ فى المائة فى مدة العشرين سنة الأخيرة ، وكان هبوط الوفيات بين الأطفال ١٠ ٪ فقط ، وعليه فإن مجال الهبوط بين هذه الفئة مازال متسعا .

الخصوبة (المواليد) :

وتتميز المرحلة السكانية الانتقالية التى يمر فيها المجتمع العربى بانخفاض فى وفيات السكان للأسباب التى ذكرناها وبارتفاع فى المواليد . فإن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى تغير ظروف الحياة ومستوى المعيشة فى هذه المرحلة تؤثر فى الوفيات وتخفضها ولـكنها لاتؤثر فى المواليد، وذلك لأن الوفيات لاتتوقف على تغيير فى رغبة الإنسان فى الحياة فهو يريد أن يؤجل الوفاة إلى أطول عمر ممـكن وهو لايتردد فى أن يستفيد من الظروف التى تحقق هذه الرغبة إذا تيسرت له ، فالمشكلة هنا هى توفير أسباب الحياة الصحية ومنع انتشار الأمراض المعدية والوبائية وإتاحة مستوى مناسب للمعيشة ، وهى حين تتحقق تخفض الوفيات من أول وهلة . أما نسبة المواليد فتتوقف على اتجاه اجتماعى ترتبط به تقاليد وقيم وعادات اجتماعية ونزعات دينية ظلت تتفاعل سنوات طويلة فتمخضت عنها رغبة معينة فى الإنجاب المتوالى ولا تتغير هذه الرغبة إلا بعد تحقيق تغيرات اجتماعية شاملة وتطورات أساسية فى ظروف الحياة ويقتضى حدوث هذه التغيرات أجيالا طوالا .

وحين يمر المجتمع فى المرحلة السكانية البدائية حيث ترتفع الوفيات، يصبح الإنجاب المتوالى ضرورة للبقاء واتصال الحياة ، فالأسرة التى تنجب ثمانية أطفال أو عشرة لايعيش منهم حتى سن الشباب سوى طفلين أو ثلاثة، وحين يتعرض

المجتمع لمرض وبائى تنقرض بيوت بأكملها ، لهذه الظروف أنزل المجتمع الإنجاب منزلة خاصة واقترنت به قيم الزواج وتقاليده وعاداته ، وارتبطت قيمة الأم وكرامتها بعدد الأطفال الذين تنجبهم ، وحبذت الثقافة العامة الأسرة الكبيرة الحجم واستعان المجتمع بالتعاليم الدينية فى تحبيذ الزواج المبكر والإنجاب المتوالى فتدعمت الرغبة فى الإنجاب المستمر حتى تفوقت أهميتها على كل ما سواها من شئون الزواج .

فلا عجب بعد هذا ان نرى نسب المواليد فى السكان تظل على ارتفاعها حين تتغير الظروف الصحية والاجتماعية وتنخفض الوفيات، لأن الرغبة فى الإنجاب الكثير وقد تغلغلت إلى أعماق النفس الإنسانية فى المرحلة البدائية لاتتزعزع بل تقاوم كل انحراف عن غايتها فترات طويلة وقد تربو هذه الفترات على عدة أجيال إلى أن تفرض ظروف الحياة الجديدة أعباء ثقيلة، وتتزعزع بعض التقاليد والعادات الجامدة ، ويشمل التغير الاجتماعى القيم القديمة، وينتشر التعليم بين الذكور والإناث ، وعندئذ تضعف الرغبة فى الإنجاب الكثير أمام الرغبة فى الإنجاب المنظم صيانة لصحة الأم وحرصها على إتاحة فرص التعليم والتربية الشاملة وتوفير الصحة لعدد محدود من الأطفال حسب الإمكانيات الاقتصادية للأسرة .

لم تصل الأغلبية فى المجتمع العربى إلى نهاية النمط الانتقالى بل نجد بعضها فى أول هذه المرحلة وبعضها الآخر فى وسطها .

ويجمل بنا أن نشير إلى بعض الأرقام التى أمكن الحصول عليها لنتبين اتجاهات الخصوبة (نسب المواليد إلى السكان) فى (الإقليم المصرى) كنموذج لهذا الاتجاه فى المجتمع العربى.

تتوقف نسب المواليد فى أى مجتمع على (١) نسبة الإناث اللواتى فى سن الحمل إلى مجموع الإناث (٢) نسبة المتزوجات من هذه الفئة (٣) متوسط السن عند الزواج (٤) وحجم الأسرة أو عدد الأطفال الذين تنجبهم الأسرة فى مرحلة التوالد .

١ — عند الكلام على الوفيات ، أشرنا إلى أن انخفاض الوفيات لم يضطرد فى جميع فئات العمر بنسبة واحدة وأن أكبر نسبة للهبوط كان فى سن المنتجين للرجال والمنجبات للإناث ، وعليه قد تغير شكل البناء السكانى بزيادة نسبة هاتين الفئتين لمجموع السكان، ونجد فى (مصر) أن نسبة المنجبات ١٥ — ٤٩ إلى مجموع الإناث قد أصبحت ٥٠ ٪ وهى نسبة كبيرة إذا قورنت بغيرها من الدول التى فى المرحلتين الأخريين (البدائية والاستقرارية) ومن طبيعة هذا التوزيع بين فئات العمر المختلفة أن تزيد النسبة العامة للمواليد حتى إذا لم يتغير متوسط عدد الأطفال فى الأسرة الواحدة.

٢ — إن اشتغال المرأة فى الأعمال العامة فى بعض الدول الأجنبية واستقلالها اقتصاديا لا يجعل الزواج ضرورة ملحة كما هو الحال فى الدول التى تعتمد فيها المرأة على زواجها فى سد حاجات المعيشة ، وحيث أن المرأة فى المجتمع العربى لا تشتغل بالأعمال العامة — ما عدا عددا محدودا منهن يعمل فى ميادين خاصة كالتمريض والتدريس

فى مدارس الفتيات — فإن الزواج هدف أساسى لكل فتاة ، وكلما تحقق هذا الهدف مبكراً اطمأنت الأسرة ، لهذا نجد نسبة الزواج تكاد تبلغ أقصاها ولاسيما فى فئة السن الأكثر خصوبة وهى (٢٥ — ٣٤) وتبلغ نسبة المتزوجات فى هذه الفئة نحو ٨٨ ٪ من مجموعهن ، ولا يدل ذلك على أن ١٢ ٪ من هذه الفئة لا يتزوجن فإن مجال الزواج أمامهن يظل مفتوحا ولا سيما للواتى فى أول سن هذه الفئة ، وتعد هذه النسبة مرتفعة جدا .

٣ — من العادات المألوفة فى المجتمع العربى الزواج المبكر ولا سيما للإناث ، وقد شرعت بعض الدول حداً أدنى للزواج صيانة لصحة الزوجة وأطفالها ووقاية لها من الأخطار التى تتعرض لها إذا تزوجت قبل اكتمال نموها ، وفى الإقليم المصرى نجد أن الحد الأدنى لزواج الإناث السادسة عشر وللذكور الثامنة عشر . ويلاحظ أن توزيع المتزوجات فى عام ١٩٥٠ على فئات العمر يدل على أن ٤٢,٥ ٪ منهن متزوجات فى سن أقل من ٢٠ سنة وأن ٢٨ ٪ منهن كن فى فئة السن (٢٠ — ٢٤) فإذا كانت هذه النسبة نموذجا لما يحدث كل عام دل على أن ٧٠ ٪ من المتزوجات يستطعن الحمل والوضع لمدة تتراوح بين ٢٥ — ٣٥ عاما وهى فترة طويلة تسمح بإنجاب عدد كبير من الأطفال .

٤ — من أهم العوامل التى ترفع نسبة المواليد أو تخفضها فى شعب من الشعوب هو الرغبة العامة فى عدد الأطفال ، وعما إذا كان العدد المنشود محدوداً منظما أو مطلقا تحدده الطبيعة ، وقد أجرت الدول التى تعنى بالاتجاهات الديموجرافية بحوثا ميدانية للتعرف على هذه الرغبة عند مختلف المستويات الاقتصادية والثقافية وعند أصحاب المهن والحرف المختلفة وبين أصحاب المذاهب والأديان المتباينة ، وذلك لان مستقبل النمو السكانى تحدده هذه الرغبات . ولم تجر فى العالم العربى دراسة للاتجاهات نحو الخصوبة على نطاق واسع يمكن الاستدلال منها على حقيقة رغبات الأسر فى هـــذا الشأن وذلك لدقة البيانات المطلوبة وخوفا من إساءة فهم المقصود منها ولعدم نضوج الوعى السكانى بعد .

وقد قامت اللجنة الأهلية لمسائل السكان التابعة للمجلس الدائم للخدمات العامة فى (مصر) بدراسة تجريبية أجرتها على نطاق ضيق للتعرف على اتجاهات الخصوبة فى بعض البيئات ، ويمكننا أن نستنتج بعض الحقائق من هذه الدراسات ومن التعداد الأخير الذى أجرته (مصر) فى عام ١٩٤٧ .

ابتدع الديموجرافيون والإحصائيون مقاييس منوعة لقياس درجة الخصبة عند السكان ولا يمكن الاستفادة من هذه المقاييس إلا بعد الحصول على بيانات دقيقة تشمل السن عند الزواج وعند وضع كل طفل ، وعدد الأحياء منهم فى كل فئة من فئات العمر ، وحيث أن هذه البيانات غير ميسورة فى الوقت الحاضر فسنحاول استنتاج الخصوبة من معرفة عدد الأطفال الذين أنجبتهم الزوجات عند بلوغهن نهاية مرحلة الإنجاب ، وقد جعلنا نهاية هذه المرحلة فى سن الأربعين ، وقارنا خصوبة المتزوجات فى إقليم مصر كله بخصوبة المتزوجات بمدينة القاهرة لنرى إذا كانت حياة المدينة تؤثر فى الخصوبة كما حدث فى البلاد الأجنبية .

عدد النساء المتزوجات فى إقليم مصر وفى القاهرة اللاتى لاتقل أعمارهن عن ٤٠ سنة وجملة عدد أولادهن فى مدة زواجهن

جملة عدد الأولاد	عدد الزوجات فى اقليم مصر (٤٠) فأكثر موزعات حسب عدد اطفالهن	النسبة المئوية لكل فئة لمجموع الزوجات	عدد الزوجات فى محافظة القاهرة (٤٠ فأكثر) موزعات حسب عدد اطفالهن	النسبة المؤية لكل فئة لمجموع الزوجات
لا اولاد	٧٠٩٩٩	٦٫٨٦ ٪	٩٠٣٤	١٠٫٠٢
ولد واحد	٤٩٣٢١	٤٫٧٧ ٪	٥٣٧٦	٥٫٩٦
ولدان	٦٦٨٩٥	٦٫٤٧ ٪	٦٣٠٥	٦٫٩٩
ثلاثة أولاد	٨٣٧٨٠	٨٫١ ٪	٦٩٦٥	٧٫٧٣
أربعة أولاد	١٠٤٢٧٧	١٠٫٠٨ ٪	٧٧٩٩	٨٫٦٥
خمسة أولاد	١٢٥٤٣٤	١٢٫١٣ ٪	٨٦٦٨	٩٫٦٢
ستة أولاد	١٢٤٩٤٧	١٢٫٠٨ ٪	٨٦٦٦	٩٫٦٢
سبعة أولاد	١١٢٣٧٤	١٠٫٨٧ ٪	٨٤٨٦	٩٫٤١
ثمانية أولاد	١٠٣٧٨٨	١٠٫٠٣ ٪	٨٠٩٦	٨٫٩٨
تسعة أولاد	٦٦٣٩٩	٦٫٠٣ ٪	٦٤٢٥	٧٫١٣
عشرة أولاد فأكثر	١٢٥٧٨١	١٢٫١٦ ٪	١٤٣١٧	١٥٫٨٨
	١٠٣٢٩٩٥		٩٠١٣٧	

يبين هـذا الجدول أن نسبة اللواتى لا ينجبن أطفالا من المتزوجات إما بسبب عقم أو للرغبة فى عدم الحمل وهى نسبة ضئيلة تبلغ فى الإقليم كله أقل من ٧٪ أما نسبة المنتجات لطفل واحد وطفلين معاً فتبلغ نحو ١١٪ وتتدرج النسبة المئوية فى الزيادة تدريجياً مع زيادة عدد الأطفال ، ويلاحظ أن عدد المنجبات لسبعة أطفال أو أكثر ٤٠٪ من مجموع الزوجات وهى نسبة كبيرة جداً وأن نسبة المنجبات لعشرة أطفال وأكثر وهى ١٢٫١٦ ٪ .

وإذا قارنا الخصوبة العامة للمتزوجات فى الإقليم كله ممن لا تقل أعمارهن عن ٤٠ سنة بخصوبة المتزوجات فى محافظة القاهرة من نفس السن وجدنا أن نسبة اللواتى لاينجبن أطفالا من المتزوجات تزيد فى القاهرة ، ومع ذلك فإن نسبة المنجبات لعشرة أطفال أو أكثر تزيد أيضاً فى القاهرة عنها فى مصر كلها بأكثر من ٣٪ وقد يرجع هذا الاختلاف إلى تباين فى المستويات الثقافية والاقتصادية فى المدينة أكثر منه فى الريف .

ويستنتج من الجدول أن النسبة العامة فى الخصوبة لا تقل فى المدينة عنها فى الريف وأنها مرتفعة إلى الحد الأقصى إذ بلغ المتوسط الإجمالى للمواليد فى عام ١٩٥٢ نحو ٤٥ فى الألف وهى نسبة لا تقل عن أى دولة أخرى فى العالم .

الزيادة الطبيعية : تنشأ الزيادة الطبيعية فى السكان من الفرق بين نسبة المواليد ونسبة الوفيات ، وكلما اتسع الفرق بين النسبتين زادت نسبة الزيادة الطبيعية ، وقد رأينا أن نسبة الوفيات أخذت فى الهبوط التدريجى البطىء منذ عدة سنوات وفى الهبوط السريع منذ عام ١٩٤٦ وأن نسبة المواليد ظلت على ارتفاعها ومالت إلى الزيادة فى المدة

الأخيرة بسبب تغير «البناء السكانى» وعليه أخذت الزيادة الطبيعية تتدرج فى الارتفاع منذ عشر سنوات كما يتضح من الجدولى الآتى :

نسب المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية لكل ١٠٠٠ من السكان فى فترات متساوية

السنة	نسبة المواليد فى الألف من السكان	نسبة الوفيات فى الألف من السكان	نسبة الزيادة الطبيعية فى الألف من السكان
١٩١٧	٤٠ر١	٢٩ر٤	١٠ر٧
١٩٢٠	٤٢ر٢	٢٨ر٠	١٤ر٢
١٩٢٣	٤٣ر١	٢٥ر٨	١٧ر٣
١٩٢٦	٤٤ر٢	٢٦ر٧	١٧ر٥
١٩٢٩	٤٤ر٢	٢١ر٦	١٢ر٩
١٩٦١	٤٤ر٥	٢٦ر٦	١٧ر٩
١٩٣٤	٤٢ر٢	٢٧ر٨	١٤ر٤
١٩٣٧	٤٣ر٤	٢٧ر١	١٦ر٣
١٩٤٠	٤١ر٣	٢٦ر٣	١٥ر٠
١٩٤٣	٣٨ر٧	٢٧ر٧	١١ر٠
١٩٤٦	٤١ر٢	٢٥ر٠	١٦ر٢
١٩٤٩	٤١ر٨	٢٠ر٦	٢١ر٢
١٩٥٢	٤٥ر١	١٧ر٧	٢٧ر٤

الثغرة الديموجرافية : تتميز المرحلة الديموجرافية الانتقالية بتفاوت كبير بين الوفيات والمواليد ويعرف هـذا التفاوت بالثغرة الديموجرافية ، فإذا تطورت ظروف المجتمع على نحو يزيد من الإنتاج زيادة تيسر له مواجهة الزيادات الإضافية فى السكان والتدرج فى رفع مستوى المعيشة فى نفس الوقت واستمر هذا الاتجاه مدة لا تقل عن نصف قرن بدأت الخصوبة فى الانخفاض وقلت الثغرة الديموجرافية إلى أن تقترب من قفلها ، وبذلك تنتهى المرحلة الانتقالية بسلام ، وإذا لم تقفل على هـذا النحو يخشى أن ينخفض مستوى المعيشة ويهبط متوسط الدخل فترتفع مرة أخرى الوفيات وبذلك تقفل الثغرة الديموجرافية بسبب ارتفاع الوفيات كما تنبأ لها مالتوس .

العامل الديموجرافى والبيت العربى :

من أهم مميزات المجتمع العربى فى الوقت الحاضر تغلغل ثورتين شاملتين فى جميع أنحائه ، ثورة على الأوضاع البالية التى قيدت شعوبه قرونا طويلة وعلى قيود الجهل والتواكل والفساد التى أورثته الفقر ، فما كادت تنكسر هذه القيود حتى انطلقت مشروعات التنمية الاقتصادية فى جميع موارده ، وسرت نزعة الإصلاح فى شتى نظمه

الاجتماعية، وجعلت هدفه الأول رفع مستوى المعيشة، واقترنت بهذه الثورة ثورة أخرى تجاوبت معها وتسير اليوم إلى جانبها وهى الثورة الديموجرافية . والثورتان دائما متلازمتان متسابقتان وإذا سبقت الأولى الثانية وتفوقت الزيادة فى الإنتاج على كل نمو فى السكان سعد المجتمع واستكملت الثورة الاصلاحية دورتها ، إنما إذا طغت الثورة الديموجرافية على التنمية الاقتصادية استفحل الخطر وتعقدت المشاكل الاقتصادية والاجتماعية،وهذا هو السبب فيما نشهده اليوم من اهتمام كل العالم بالاتجاهات السكانية بها ووضع سياسات لها تتناسب مع ظروفها .

ويختلف أثر التسابق بين الثورتين من مجتمع إلى آخر حسب الموارد الطبيعية وطرق استغلالها والكثافة السكانية عند بداية الثورة الديموجرافية وعامل السرعة فى كل من الظاهرتين ، وعليه لا ينتظر أن يكون أثر الاتجاهات الديموجرافية واحدا فى منطقة من مناطق المجتمع العربى فدرجة كثافة السكان ونوع الموارد الطبيعية وإمكانيات التنمية الاقتصادية ، ليست متماثلة فى كل مكان فيه ، ومع ذلك فهناك احتمالات عامة للثورة الديموجرافية إذا لم توجه ينعكس أثرها أول ما ينعكس على الأسرة إذ هى مورد النمو السكانى ، وإذا تحدثنا عن درجة الخصوبة أومستوى المعيشة أو الرفاهية الاجتماعية أو الفقر والحرمان أو الرغبة فى إنجاب محدود أو غير محدود فإننا نتحدث عن ظاهرات الأسرة أو البيت .

وأثر العامل الديموجرافى أو التغيرات السكانية الحديثة فى البيت العربى أثناء المرحلة السكانية الانتقالية أثر واضح فى عدد أفراد الأسرة ونسب فئات السن ومتوسط طول العمر والتوزيع السكانى ، وهذه بدورها تؤثر فى مستوى المعيشة وبرامج التنمية الاقتصادية والمشاكل الصحية والاجتماعية فى الريف والمدن .

١ — زيادة حجم الأسرة : كانت الأسرة تفقد نحو نصف عدد أبنائها قبل بلوغهم سن الخامسة فكان عدد الأطفال لا يتجاوز ٤ أو ٥ حتى سن الشباب إذا كان عدد المولودين فى الأسرة ٩ أو ١٠ ، وتدل بيانات «دراسة الخصوبة» التى جمعت من ثلاث قرى فى الوجهين القبلى والبحرى أن متوسط حالات الحمل حتى سن الأربعين للزوجة هو ٩ ومتوسط الأحياء عند جمع البيانات كان ٤ أفراد للأسرة . أما مواليد السنوات الأخيرة فلا يتوفى منهم (حتى سن الخامسة) أكثر من ٢٠ ٪ أو ٣٠ ٪ حتى سن الإنتاج .

٢ — ويترتب على زيادة حجم الأسرة زيادة فى نفقات الحاجات الأساسية للمعيشة ، فإذا لم يرتفع الدخل نسبيا هبط مستوى المعيشة حتى سن إنتاج الأبناء ، ومع تنفيذ قانون التعليم الإلزامى لن تفيد الأسر اقتصاديا من أبنائها قبل سن الثانية عشرة .

٣ — تحتاج تربية الأبناء والعناية بهم إلى مجهود جبار من الأم ولا سيما فى الطبقات التى تقوم فيها الأم بكل الحاجات الأساسية للأسرة ، فإذا زاد العدد لقلة الوفيات قل نصيب الزوج من عناية زوجته كما يقل نصيب كل طفل من عناية أمه وانهارت صحتها فى سن مبكرة .

٤ — فى البيئات الريفية إذا لم تتسع المساحة القابلة للزراعة بنسبة زيادة السكان فيزداد ضغط الأيدى العاملة وينتشر التعطل الجزئى أو الكلى وينعكس هذا التعطل على حياة البيت .

٥ — طول متوسط العمر : كانت الأمراض الوبائية والأمراض المتوطنة لا تفسح المجال للحياة بعد سن الخمسين فكان يصل إليها عدد قليل من الناس، أما بعد انعدام هذه الأمراض وتيسير العلاج بالمجان فقد قلت أسباب الوفيات وارتفعت نسبة الأحياء فى فئات العمر التى تزيد على الخمسين ، وحيث أن ضآلة الدخل للأكثرية الساحقة لا تيسر ادخار مال ينفق منه عند العجز عن العمل فقد نشأت مشكلة العناية بالمسنين ، وأصبحت عبئا ثقيلا على البيت العربى .

٦ — تتكلف الأسرة نفقات طائلة بالنسبة لميزانيتها عند إعداد فتياتها للزواج ، ولا شك أن العبء ثقيل عند إعداد إبنة أو إبنتين ، فإذا بقيت هذه التقاليد على ما كانت عليه استحال تحمل نفقات ثلاث أو أربع فتيات فى المتوسط وظل البيت مكبلا بقيود الدين .

٧ — الهجرة إلى المدن ـ حين يضيق مجال العمل فى الريف بسبب تكاثر السكان على المورد الطبيعى — وهو فى الغالب زراعة الأرض — يهرع السكان إلى المدن بحثا وراء عمل يقوم بأودهم ، وقد شوهدت فى السنوات الأخيرة تيارات متلاحقة من المهاجرين تتجه من الريف إلى المدن كان من أثرها أن زاد عدد سكان القاهرة بين تعدادى ١٩٣٧ ، ١٩٤٧ نحو ٦٠٪ ومدينة الجيزة ٧٥٪ ومحافظة السويس ١١٥ ٪ فإذا فرضنا أن الزيادة الطبيعية فى هذه المدن كان ٢٠٪ فإن فرق الزيادة يرجع إلى الهجرة، وللهجرة المتلاحقة غير المنظمة مساوىء تنعكس على كل من المجتمع المهاجر منه والمهاجر إليه وتؤثر فى كيان الأسرة وأحوال معيشتها .

٨ — الهجرة لا تحدث فى جميع فئات العمر على السواء ، وإنما تتركز فى الغالب فى فئة الشباب من الذكور لذلك يختل التوازن فى البيئة المهاجر منها بين الذكور والإناث فيها ، وكذلك بين المنتجين والمعتمدين ونرى تغيرا فى كيان البيت إذ تقل فيه نسبة الشباب إلى الشيوخ والأطفال ، وتقل نسبة الذكور إلى الأناث ولهذا التوزيع أثر فى دخل الأثرة والعلاقات الاجتماعية .

٩ — أما البيئة المهاجر إليها فتواجه مشكلات ضغط السكان على العمل والمساكن والمواصلات والمرافق العامة، وتعانى الأسرة من هذا الضغط مشاكل كثيرة ولا سيما فى أحيائها الفقيرة وهى التى يقصد إليها المهاجرون ، ففى مدينة القاهرة بلغت كثافة السكان فى الكيلو متر المربع الواحد ٤٨ ألف نسمة فى السيدة زينب و٥٩ ألف نسمة فى الموسكى و١١١ ألف نسمة فى باب الشعرية ، وليس من العسير أن نتصور أثر هذه التخمة السكانية فى مشكلات التعطل والانحراف والتشرد ، وعجز المستشفيات والمدارس ووسائل المواصلات عن القيام بوظائفها لمواجهة حاجات السكان إليها .

١٠ — وللانتقال من الريف إلى المدينة فى مثل هذه الظروف خطر على البيت العربى حين ينتقل دفعة واحدة من بيئته الساذجة وما فيها من تقاليد وقيم اجتماعية كانت تنظم حياته إلى بيئة أخرى معقدة فى علاقاتها ولا يرى فيها

القيم التى درج عليها فيتنازعه اتجاهان من اتجاهات الحياة وتضفى عليه ظروف البيئة الجديدة قيما جديدة قد تتعارض مع القيم القديمة ، وقد يؤدى هذا الصراع إلى الانحلال .

وحيث أن تيارات الهجرة إلى مدن الدول العربية لا تنقطع فى مرحلة التنمية الاقتصادية ، ومن المتوقع أن تزيد نسبة سكان المدن عما هى عليه اليوم ، فلا شك أن أثر هذا التطور على البيت العربى سوف يؤثر فى المجتمع العربى كله .

المرحلة الديموجرافية الانتقالية فى القرن الماضى :

تعرضت أوربا إلى المرحلة الديموجرافية الانتقالية فى القرن الماضى فما سكانها فى هذه الفترة إلى خمسة أضعاف ما كانت عليه فى أوائلها ، غير أن الثغرة الديموجرافية أخذت تضيق فى أواخر القرن بسبب هبوط نسبة المواليد واضطرد ذلك الهبوط حتى استقر الوضع الديموجرافى على الحد الأدنى لكل الوفيات والمواليد وتطور النمط الانتقالى إلى النمط الاستقرارى .

وقد يخطر بالبال أن هذا التطور طبيعى ، وأن ما حدث فى أوربا سيحدث فى أى مجتمع آخر ، لذلك يجمل بنا أن نلقى نظرة سريعة إلى ظروف أوربا فى القرن التاسع عشر وأثرها فى التطور الديموجرافى .

اقترنت المرحلة الديموجرافية الانتقالية فى أوربا بتوسع تجارى وصناعى لم يعرف مثله فى تاريخ العالم من قبل ، فقد فتحت قارتان أبوابهما على مصاريعها للتجارة مغ أوربا فتدفقت الحاصلات الغذائية والمواد الخام من الأمريكتين إلى الجانب الآخر من المحيط الأطلسى ، وانهالت المصنوعات الأوربية على الأمريكتين واستوعبت القارتان الجديدتان كل ما أمكن لأوربا تصديره من صناعاتها ومنتجاتها ولم تستطع أوربا إشباع حاجات الأسواق الأمريكية . وقد عاون على المقدرة الاستهلاكية دخول أمريكا فى ذلك الوقت فى مرحلة التنمية الاقتصادية على أوسع نطاق . لذلك استطاعت أوربا بفضل الظروف التى يسرت لها التوسع العظيم فى صناعاتها فتح أبواب العمل للزيادات السكانية المتدفقة أثناء ثورتها الديموجرافية ، مع رفع مضطرد لمستوى معيشة سكانها ، لمدة قرن كامل مالت فى نهايته الخصوبة إلى الانخفاض للتغير الاجتماعى والتطور الاقتصادى الذى ساد أوربا طول هذه الفترة .

كذلك يلاحظ أن هبوط الوفيات فى أوربا كان يتدرج ببطء ، فقد كان الوصول إلى الكشوف العلمية والفنية يستغرق زمنا طويلا ثم تتناولها يد التحسين فتستغرق زمنا آخر حتى تصل إلى درجة الإفادة الفعالة منها ، وعليه كان الهبوط فى الوفيات يسير تدريجيا مع التقدم العلمى والكشوف الطبية والصحية وكان التحسن فيه يستغرق فترات طويلة ، ولم تكن الزيادة فى السكان جارفة ، فلم تتخم المصانع بأكثر مما تستطيع استيعابه .

ولم تكن أوربا حتى أوائل القرن العشرين تعرف المركبات الطبية الحديثة التى قضت على أسباب بعض الأمراض ويسرت علاج بعضها الآخر .

يختلف الموقف اليوم عما كان عليه فى القرن التاسع عشر ، فالأسواق العالمية لم تعد مفتوحة على مصاريعها للتبادل التجارى والصناعى ، ومشكلات النقد تقيد جهود الدول فى مشروعاتها للتنمية الاقتصادية ، ويختلف أيضا الموقف

الصحى فإن أى مجتمع يستطيع اليوم أن يفيد مما وصل إليه الطب الحديث وفنون الصحة العامة للقضاء على كثير من أسباب المرض . وعليه فإن هبوط الوفيات أصبح أمرا هيناً يمكن تحقيقه فى وقت قصير ومن غير نفقات طائلة .

لهذه الأسباب يواجه المجتمع العربى المرحلة الديموجرافية الانتقالية فى ظروف تختلف عن ظروف القرن التاسع عشر ، وتقتضى منه مضاعفة الاهتمام بالثغرة الديموجرافية .

التوازن الديموجرافى الاقتصادى فى المجتمع العربى :

نشطت دول المجتمع العربى عقب الحرب العالمية الأخيرة فى تنمية اقتصادياتها وبذلت جهودا كبيرة لحماية صناعاتها وشجعت التوسع فيها ، وضاعفت من عنايتها بمشروعات الرى والصرف ووسائل زيادة الإنتاج الزراعى ، وكان لهذا النشاط أثره فى زيادة الدخل القومى لكل منها ، وفى مواجهة بعض المشروعات المتواضعة للإصلاح الاجتماعى . وقد كان النجاح المحدود فى المشروعات الاقتصادية وبرامج الاصلاح الاجتماعى ، عاملا قويا فى حفز شعوب هذه المنطقة على تكسير القيود التى تعوق التقدم السريع الشامل ، فكانت الحركات الشعبية المتدفقة ، التى استهدفت التحرر السياسى والاقتصادى والاجتماعى معاً لإدراكها أن التقدم فى ناحية منها دون الأخرى يؤدى إلى اختلال التوازن فى المجتمع ويورثه الضعف والانحلال ، فكان قانون الاصلاح الزراعى ، وكانت المشروعات الصناعية والتخطيطية الضخمة ، واقترنت بها برامج شاملة للاصلاح الاجتماعى والرعاية الصحية والتعليمية .

تهدف هذه الجهود الجبارة إلى زيادة الإنتاج لرفع مستوى المعيشة لأبناء الشعب فى الريف والمدن معا . وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه المشروعات إلى تحسن ظاهر فى حياة الأفراد ، وقد بدأ هذا التحسن فى عدة نواح ولا سيما فى الناحية الصحية ، فانخفضت نسبة الوفيات بمقدار الثلث فى مدة وجيزة وارتفعت قليلا نسبة المواليد فارتفع عدد الاضافة السنوية للسكان فى السنوات العشر الأخيرة فى مصر من ١٢٧ر١٩٧ فى عام ١٩٤٣ إلى ٨١٠ر٥٨٨ فى عام ١٩٥٢ ، ومن المنتظر أن يزداد هذا العدد إلى مليون نسمة فى العام قبل نهاية السنوات العشر القادمة .

وإزاء هذا التسابق السريع بين التنمية الاقتصادية للموارد الطبيعية والزيادة الجارفة للموارد الإنسانية لا بد أن نتساءل عن مدى احتمال رفع مستوى المعيشة .

ليس من السهل الاجابة عن هذا السؤال إجابة واقعية توضح موقف المجتمع العربى لاختلاف الموارد الطبيعية وإمكانيات استغلالها وكثافة السكان فى مختلف البيئات ، وعليه ينبغى أن تدرس النواحى التالية من البيئة قبل الإجابة عن السؤال المشار إليه .

الإنتاج الزراعى — هل للبيئة أراض أخرى يمكن إصلاحها وزراعتها وما مساحتها ؟ ما نسبة الزيادة السنوية فى الإنتاج الزراعى ؟ هل يمكن عمليا للسكان الهجرة إلى بيئة أخرى قليلة الكثافة ، وما مدى احتمال هذه الهجرة وما تكاليفها ؟ وهل هناك مشروعات للرى يمكن تنفيذها والإفادة منها ؟ ما حاجة البيئة إلى طرق المواصلات

وما قيمة نفقاتها ، ومتى يمكن تنفيذ بعضها ؟ إلى أى حـــد يمكن نشر وسائل الزراعة الحديثة بالوسائل السمعية والبصرية ؟

الإنتاج الصناعى : ما هى الموارد الطبيعية فى البيئة التى يمكن الإفادة منها فى مشروع التنمية الصناعية ؟ وما هى المشاكل التى تنشأ عن نقص بعض الموارد اللازمة للصناعة ، ما هى الأموال اللازمة لتنمية الصناعة بالسرعة المنشودة كيف يمكن الحصول على هذه الأموال ؟ إلى أى حد يكفى الادخار المحلى لمواجهة حاجات الصناعة ؟ ما هى موارد البيئة من الإداريين المدربين والصناع المهرة ؟ كيف يمكن التغلب على النقص من هؤلاء وهؤلاء ؟ ما هى الآلات الأساسية التى لا تنتجها فى المستقبل القريب ولـكن لا غنى عنها للصناعة ؟ كيف يمكن الحصول عليها ؟ ما هى الاتجاهات الاجتماعية التى تحول دون سرعة الزيادة فى الإنتاج الصناعى ؟ كيف يمكن تشجيع الاتجاهات الاجتماعية التى تفيد منها التنمية الصناعية ؟

بعد جمع هذه البيانات يمكن تحديد الزيادة السنوية فى الإنتاج الزراعى والصناعى لمدة السنوات العشر أو العشرين القادمة ، فإذا وجدنا أن التقدير الواقعى بعد التدبر فى حاجات الزراعة والصناعة يزيد الإنتاج سنويا بمعدل ٢ ٪ فى الزراعة ، ٥ر٢ ٪ فى الصناعة مثلا حاولنا تقدير الزيادة فى السكان على أساس أن التنمية الزراعية والصناعية سوف تنقص الوفيات ، ثم نوازن بين تطور الإنتاج وتطور الإنجاب لنحدد احتمال مستوى المعيشة .

إذا دلت هذه البحوث على أن الإنتاج متفوق بنسبة زيادته على السكان فإن مستوى المعيشة سوف يرتفع تدريجيا أما إذا ثبت العكس فإن الأمر يقتضى التدبر فى إمكان خفض الخصوبة أو تنظيمها ، وذلك بعد دراسة الاتجاهات الاجتماعية للأسرة والتقاليد والقيم والنزعات الروحية التى تتعارض مع تنظيم التوالد ، والظروف الاجتماعية التى تجعل الإنجاب المتوالى أملا تنشده الأم للمحافظة على مكانتها فى الأسرة ويرجوه الوالد اعتزازا بعصبيته ، ثم دراسة الوسائل العملية الميسورة التى تقبل عليها الأم إذا استدعت ظروفها الصحية أو ظروف الأسرة الاقتصادية أو مصلحة الأطفال أنفسهم تأجيل الإنجاب أو تنظيم فتراته .

دراسة هذه الاتجاهات لا يقل أهمية عن الدراسة التقديرية لتطور الإنتاج الزراعى والصناعى ، فإن مستوى المعيشة فى البيت العربى يحدده التفاعل بين التنمية الاقتصادية والنمو السكانى ، وقصر الاهتمام على جانب منها دون الآخر يعوق التقدم المنشود وقد يؤدى إلى عكس الأغراض التى يحاول المجتمع العربى تحقيقها وهى التى تتمثل فى البيت الذى تسوده الصحة والتعاون وينعم بحاجات الحياة الأساسية .

دور المرأة فى المجتمع العربى الحديث

وأثره فى البيت العربى بالكويت

للسيدة سميحة عاصم

(الكويت)

قبل أن نتكلم عن دور المرأة فى الوقت الحاضر نرى أن نذكر لمحة موجزة عن مركز المرأة فى مختلف العصور ، ونوجز ذلك فيما يلى :

كانت الزوجة العربية فى عصر ما قبل الإسلام من الزوج بحيث لا يملك أمر مادته ولا كيانه إلا بهـا ، فهى تعلم من من أمر الحياة ما يعلم ، وتحسن من الكلام ما يحسن ، وتجيد من الرأى وتصريف الأمر ما يجيد ولذا كان لها نصيب من العزة وشرف النفس ونفاذ الرأى وسمو العاطفة . وكان الرأى السائد حينذاك هو أن المرأة إذا استشعرت المهانة من ذويها هانت عليها نفسها وكانت فعلا متمتعة بحريتها إلى حد كبير، وكان للنساء مجالس يجتمعن فيها يتبادلن الحديث ويتجاذبن أطراف الكلام ، ولا أدل على سمو مركز المرأة فى ذلك الوقت البعيد من أنها وصلت إلى مرتبة الحكم ، وخير مثال على ذلك « بلقيس » ملكة اليمن ، و « الزباء » ملكة تدمر ، وكانت المرأة حينذاك سافرة تعاون الرجل ، والحياة بينهما مشاركة .

وجاء الإسلام فرفع من شأن المرأة أكثر من ذى قبل وشرع لها ولم يعترض على ما أخذته على نفسها فى الشئون العامة وبخاصة فى الناحيتين الاجتماعية والسياسية وساوى بين الرجل والمرأة فى الواجبات والتكاليف وأوجب العلم على كل مسلم ومسلمة وأوجب أيضا على أمهات المؤمنين تلاوة القرآن وتعلم العلم ، وكان من نتيجة ذلك أن اشتهر بعض النساء وضربن بسهم وافر فى العلوم والمعرفة وقتذاك ، نذكر منهن عائشة أم المؤمنين التى اشتهرت بأكثر ما اشتهر به الرجال فى الرواية والفقه ، وفاطمة الزهراء والخنساء وزبيدة زوج هارون الرشيد ، ومما لا شك فيه أن المرأة العربية فى صدر الإسلام والعصر العباسى الأول فاقت المرأة الغربية التى لم يكن لها حق التملك عن أى طريق ولم يكن لها ميراث أصلا ، كما لم يكن لها حظ كبير من التعليم والتهذيب ، والعرب هم الذين أثروا فى المجتمع الأوربى فنقل فرسان أوربا — فى عصر النهضة — عن العرب مبدأ احترام المرأة مهما كانت منزلتها الاجتماعية وصاروا يعاملونها معاملة لطيفة دمثة .

غير أنه منذ مطلع القرن السادس عشر ضعف المجتمع العربى وضاع استقلاله وخضع زهاء أربعة قرون متوالية للحكم العثمانى فساده جمود وجهل وركود اجتماعى واقتصادى ، فساءت حال المرأة ولم تستطع أن تقوم بدورها خير قيام من حيث رعاية بيتها وتربية أولادها والنهوض بالأسرة ، وساد نظام الحريم وظلت المرأة مقيدة ببيتها

لا تبرحه ، وإلى جانب هذا المظهر قام نظام الجوارى وضرب الحجاب نطاقا قويا على حياة المرأة وخيم الجهل عليها فهوت قيمتها الاجتماعية إلى الحضيض ، وكان ضعف المرأة دون شك أكبر عامل من عوامل ضعف المجتمع . وهنا يجب أن نقرر أن الحجاب أمر لا يقره الشرع ولم يرد نص صريح يثبت شرعيته ، وقد أجمع أكثر الأئمة على أن وجه المرأة ليس بعورة فيجوز لها إبداؤه وإبداء زينته اعتمادا منهم على تفسير قوله تعالى « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » كما أن المرأة تصلى مكشوفة الوجه واليدين دون أن يكون فى ذلك عورة .

وفى أوائل القرن الحاضر ظهرت فئة من المصلحين والمصلحات تنادى بإصلاح حال المرأة فى مصر خاصة والبلاد العربية عامة ، ومن أشهر هؤلاء المصلحين قاسم أمين « محرر المرأة » ونتيجة لهذه المحاولات تحسن مركز المرأة فى الدول العربية بعض الشىء ، وبدأت المرأة تتصل اتصالا وثيقا بالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة . وازدهر مستقبل المرأة بوجه عام وتحققت فكرة الديمقراطية بين كثير من المجتمعات والمساواة بين معظم الطبقات وحطمت المرأة كثيرا من العقبات فنالت كثيرا من الحقوق ولا زالت تطالب بالمزيد .

دور المرأة فى المجتمع الحاضر

١ — لا ينكر أحد أن للمرأة وظيفة هامة وأثراً خطيراً فى حياة الشعوب والأفراد ولعل أهم دور تلعبه المرأة هو تكوين الأسرة ، فالمرأة المثقفة إذا أحسنت واجبها فى هذه الناحية فإنها ولا شك تستطيع أن تساهم أكبر مساهمة فى تكوين جيل ناهض وتنشئته نشأة طيبة صالحة وإعداده إعدادا قويا سليما .

٢ — والمرأة تستطيع أن تتحمل المسئولية كاملة فى إدارة شئون البيت العربى وما يتبعه من التزامات فهى التى تضع ميزانية البيت بقدر من التدبير وحسن التصرف ، وتستطيع أن تجعل من بيتها ركنا هادئا وعشا جميلا محبوبا لزوجها وهى التى تربى أولادها جسما وعقلا وأدبا ونفسا ، وهى فى ذلك كله تتخذ أنجع الوسائل للنهوض بالعرب جميعا، فالبيت السعيد الصالح هو الخلية السعيدة فى كيان المجتمع السليم .

٣ — ولا تستطيع المرأة أن تؤدى رسالتها الطبيعية إلا إذا كانت تؤمن بأن البيت هو المقر الطبيعى لها وأنها لا يمكن أن تؤدى رسالتها على الوجه الأكمل إلا إذا استقرت ، فان ما يستلزمه البيت من تبعات هو أهم واجباتها وليس هناك ما يمنع المرأة المثقفة من أن تملأ فراغها بتذوق الأدب أو الفن أو الاهتمام بالإصلاح الاجتماعى والخلقى لأن المجال فيه متسع .

٤ — والمرأة العربية تقوم بدور إيجابى فى العمل على تحسين حال مجتمعا أخلاقيا واجتماعيا وتطهيره من الفوضى التى حدثت نتيجة الاندفاع الذى لازم حركة تطور المرأة وتحررها فى بعض البلاد العربية وإن كان هذا أمراً طبيعياً إذ هو سنة التغيير والتطور ، ومما يدعو إلى التفاؤل أن الهيئات النسائية فى البلاد العربية هيئات مخلصة لا ترمى إلى الدعاية والظهور بل تعمل فى صالح المجتمع ، والمرأة فى سبيل ذلك قامت وتقوم بأعمال عظيمة من أعمال الخير ،

ولا ينكر أحد أهمية دور المرأة وما يمكن أن تحققه فى ترقية المجتمع ، وقد حققت المرأة الكثير فى النواحى الاجتماعية والخيرية ، فهى تساهم فى العمل بالمدارس والمستشفيات والملاجىء ، وتقوم بتبصير بنات جنسها وتنويرهن ورفع مستواهن الصحى والثقافى والاجتماعى .

٥ — والمرأة العربية الآن تتمشى مع الرجل ـ إلى حد كبير ـ فى النهضة الحديثة فتراها فى الجمهورية العربية المتحدة والعراق ولبنان والأردن والكويت والبحرين والمغرب العربى قد خلعت نير الجهل عنها وأقبلت على العلم حيث غصت المدارس بالفتيات ومنهن من تخرجن فى الجامعات وتخصصن فى الطب والفلسفة والاجتماع والتربية إلى غير ذلك من الفروع الأخرى ، وأصبحت المرأة فى بعض هذه الأقطار تعيش وتعمل وتفكر وتبحث مثل المرأة الغربية . وظهر عدد كبير من النساء اشتهرن فى الوقت الحاضر فى شتى الميادين العلمية والأدبية فى كثير من البلاد العربية .

٦ — وفى أيامنا هذه اقتحمت المرأة العربية المتعلمة مختلف ميادين العمل بنجاح ، فما هو أثر العمل فى حياتها كزوجة ، وأم ، وربة بيت ؟ لعل أهم الحوافز التى دفعت المرأة العربية إلى النزول إلى ميادين العمل هو انتشار التعليم ومطالب التطور الاقتصادى فى حياتنا ومجتمعنا الحاضر فالتعليم يفتح الذهن ويجلو الشخصية ويبعث فى النفس إمكانيات جديدة للنشاط المثمر ، ومطالب التطور الاقتصادى تقتضى أن تنتفع بعلمها ، فقد اقتحمت ميادين العمل فى الوظائف الحكومية والمهن الحرة وأعمال الشركات والمؤسسات ، ولم تلبث أن أحرزت تقدما ونجاحا فى هذه الميادين بفضل ما تمتاز به من تركيز وصبر ودقة .

٧ — وإذا كان اشتغال المرأة العربية قد أضاف طاقة جديدة من النشاط المثمر فى حياتنا ومجتمعنا فإنه قد أوجد حالة جديدة فى بيوت الزوجية ، فقد كان العهد بالزوجة أن تعيش حياتها قعيدة البيت لا هم لها إلا العناية بمطالب الزوج ورعاية الأولاد ، أما الآن فإن اشتغال الزوجات قد أوجد بعض المشكلات أو المتاعب التى يضيق بها البعض ويشتكى منها ، ولذا وجب على المجتمعات والحكومات أن تقدم للسيدات العاملات العون فى كل خطوة من حياتهن حيث أنهن أصبحن ذوات أفق واسع كما أنهن العاملات فعلا على سعادة الشعوب العربية بما يحقق لها من أهداف كريمة ، وعلى كل سيدة أن توفق بين واجباتها كربة بيت وبين ما يفرضه عليها عملها من تبعات على أن يكون لبيتها دائما المقام الأول إذا لم تستطع التوفيق بين عملها فى البيت وفى خارجه .

٨ — والمرأة ـ بلا ريب ـ تلعب دوراً خطيراً فى الناحية الوطنية فما لا شك فيه أن المرأة العربية المثقفة تعلم أن لها وطنا عربيا واسعا عبثت به عوادى الزمان عدة قرون فمنعت بقاءه حراً مستقلا وسلبته سيادته القومية التى استردها اليوم فى أكثر أجزائه وسيستردها فى باقى الأجزاء فى أقرب وقت ، وما من حركة قومية إلا وكانت المرأة من ورائها تكافح وتجاهد وتدفع الشباب إلى الذود عن حياض الوطن ، تشهد بذلك الثورات الوطنية الكبرى فى أنحاء الوطن العربى كله من أقصاه إلى أقصاه فى مصر وسوريا والعراق وفلسطين والجزائر .

٩ — والكويت اليوم — بما تهيأ لها من إمكانيات اقتصادية كبيرة — مقبلة على تطور اجتماعى وتطور فكرى سيؤديان إن عاجلا أو آجلا إلى تبدل فى طراز حياتها الحاضرة وإلى تغير فى نظرة أهلها إلى الحياة والعالم ، والمرأة الكويتية تمر الآن فى دور انتقال من القديم إلى الحديث ، والمجتمع الكويتى — وهو مجتمع عربى أصيل — يعرف للمرأة كرامتها وحريتها ويدرك ما لها من أثر خطير فى البيت والمجتمع ، وفى الزمن الماضى كانت المرأة الكويتية كأختها فى كل البلاد العربية محرومة من التعليم إلا عدداً قليلا لا يؤبه به ، ولكن النهضة الحديثة شملت الجنسين معا فهناك مدارس الروضات تستقبل البنين والبنات جنبا إلى جنب وهم فى سن الرابعة وهناك المدارس الابتدائية للبنات فى المدينة وفى كل قرية ، والمدرسة الثانوية للبنات ومعها مدرسة المعلمات ، كما أن هناك بعض فصول خاصة لمن تريد أن تثقف نفسها ممن قد تخطين السن التى تصلح للتعليم المدرسى ، وفيما يلى إحصاء يبين البنات والبنين فى التعليم لسنة ١٩٥٨ :

مراحل الدراسة	العدد	النسبه المئوية للبنين والبنات
رياض الأطفال بنون	٩٣٧	٥٥ ٪
بنات	٧٧٤	٤٥ ٪
المجموع	١٧١١	١٠٠ ٪
المرحلة الابتدائية بنون	١١٦٣٦	٥٩ ٪
بنات	٨١٧٥	٤١ ٪
المجموع	١٩٨١١	١٠٠ ٪
المرحلة المتوسطة بنون	٣٤٧٦	٧٠ ٪
بنات	١٤٩٤	٣٠ ٪
المجموع	٤٩٧٠	١٠٠ ٪
المرحلة الثانوية بنون	٨٥٥	٨٠ ٪
بنات	١٦٥	٢٠ ٪
المجموع	١٠٢٠	١٠٠ ٪

ومع هذه النهضة التعليمية الشاملة فإن المرأة الكويتية لا زالت محافظة إلى حد كبير محجبة لا تغادر منزلها إلا لضرورة ماسة مع استثناء بعض شخصيات قليلة أخذت فى التجديد والتطور ولكن مع مراعاة التقاليد والتمسك بتعاليم الدين، وأخذ البعض منهن يشارك فى الحقل الاجتماعى العام وبدا لهن بعض النشاط ، وهناك مدرسات وباحثات اجتماعيات وبعض الفتيات يكتبن فى الصحف المحلية .

والخلاصة أن الفتاة الكويتية الآن قد بدأت تخطو نحو التطور فى اتزان وتعقل وبالتدريج ، وعلينا أن نحسن توجيه تطورها هذا حتى تتخذ من ماضيها وتقاليدها ما هو صالح وتنميه وتبنى عليه ، وتأخذ من عالمها الحاضر

ما يساعدها على النهوض والرقى ، ولا شك أن التربية والتعليم من خير الوسائل التى تكسب الفتاة المعايير الفكرية والخلقية التى تساعدها على حسن التخير لكل صالح من القديم والحديث ، لذلك لن يمضى وقت طويل حتى نرى الأغلبية الساحقة من الفتيات الكويتيات وقد أصبحت كل منهن الفتاة المثقفة الواعية القادرة على حل مشكلاتها الشخصية بنفسها ، عندئذ سنرى المجتمع من تلقاء نفسه يسمح لها بكل حقوقها وحرياتها الأساسية فى إطار تقاليده الأصيلة ، وليس من شك بأن الإجماع منعقد بيننا الآن على أن الحجاب معرقل لتقدم الكويت ومعوق لنهضتها ، وقد كان الجهل يعتقد أن الحجاب من مقتضيات الدين والدين براء من ذلك ـ كما سبق أن أسلفنا .

وجملة القول أن التعليم ـ وقد قطعت فيه الفتاة الكويتية شوطا مناسبا ـ سيجعل منها امرأة قادرة على تنظيم بيتها وميزانيتها وتربية أولادها ، كما أنه يكون دعامة من دعائم الوفاق بينها وبين زوجها ، فالرجل المتعلم لا يمكن أن يشعر بسعادة صحيحة إلا مع امرأة يرتفع مستوى ثقافتها إلى مستوى قريب من مستواه .

وفى النهاية إن نهضة المرأة فى الكويت ليست حديثا معادا بل هى حقيقة واقعة لا ينكر فضلها وينبغى أن تذكر مآثرها ، وإن حياتنا الاجتماعية التى خلت إلى حد بعيد من الدجل والخرافات مصدرها أن مستوى المرأة الفكرى فى الكويت بدأ يرتفع ، وسيأتى اليوم القريب الذى ترى فيه المرأة الكويتية وقد أخذت إنسانيتها تتغلغل فى المؤسسات العامة لرعاية الأطفال والمرضى أو العجزة مما سيكون له أثر عميق فى رفع مستوى المجتمع الكويتى وتغييره من حسن إلى أحسن .

المرأة فى الكويت

للسيدة لميس الطحاوى

لا تزال المرأة فى الكويت تعيش معيشة بدائية تتفق وعادات البلد وتقاليدها المحافظة ، إلا أنه يلاحظ أن تحرر المرأة الكويتية قد بدأ فى السنوات الأخيرة تدريجيا . غير أنه لا يزال فى أول السلم ولم يصل تحررها إلى مثل ما وصلت إليه المرأة فى بعض الدول العربية الأخرى مثل الجمهورية العربية المتحدة ولبنان .

خصائص المرأة الكويتية :

تمتاز المرأة الكويتية عن كثير من أخواتها فى الأقطار العربية الأخرى بقسط كبير من الشجاعة وعدم التهيب ، كما تمتاز بالصراحة والتحكم فى العواطف ، والصبر على تحمل المشاق والآلام . وهى تصغى إلى العقل أكثر مما تصغى إلى العاطفة . والمرأة الكويتية معروفة بحسن قوامها وجمال عينيها وشعرها واستطالة وجهها .

والفروق الاجتماعية معدومة بين الكويتيات ولكنهن يذهبن فى ذلك إلى أبعد الحدود ، حتى أن الفراشات يخاطبن الموظفات بأسمائهن — وكذلك الخدم — المجردة من أى لقب ويشربن معهن الشاى . كما أن فى الكويتيات كثيرا من الصراحة ولا يعرفن المجاملة .

ومن مظاهر إصغاء المرأة فى الكويت إلى العقل أكثر مما تصغى إلى العاطفة عدم الاتصال بموتاها بالخروج إلى القرافة أو التجمع فى أيام الخميس والأربعين وفى المواسم والأعياد . كما أن من عادة المرأة الكويتية عدم الغلو فى عاطفتها سواء فى السرور أو الحزن حتى ليعجب الانسان من ضبط عواطفهن .

وحنان المرأة فى الكويت هو حنان أحرى به أن يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق فتنشأ الفتاة نشأة جد ووقار . وعند المرأة الكويتية عادة من العادات المعروفة عن المرأة السودانية ألا وهى تقديم العطور لضيوفها كالقهوة والشاى تماما . ولا تتفاءل المرأة الكويتية من لون معين كما أنها لا تتشاءم من حيث حبها أو بغضها ومن حيث استعمالها فى المناسبات وفى المواقف الرسمية . وتعتقد المرأة الكويتية فى الحسد بالعين فتقول لك أن ابنها مات محسودا ، أصابته عين . كما تعتقد المرأة الكويتية كما هو معروف عن المرأة المصرية الريفية بوجه خاص ، فى الأوهام والخرافات .

المرأة الكويتية والبيت :

بيت المرأة الكويتية له نظام خاص يلائم المعيشة الاجتماعية فى الكويت ويلائم الجو الحار فيها ، فهو عادة منزل

فسيح لا يتعدى الدور الواحد به فناء واسع فى الوسط لأن البيت لا يسكنه إلا أسرة واحدة قد يكون منها الابن وزوجته والبنت وزوجها ، والبيت هو أعز شىء يقضون فيه كل أوقاتهم .

وللبيت باب يفتح إلى الداخل ولأنه كبير يعمل فى وسطه باب صغير للدخول والخروج العاديين ولا يفتح الباب الكبير إلا عند الضرورة ، ووجهة المنزل عليها شبابيك صغيرة سكبت فيها قضب حديدية ، وهذه القضب متشابكة ضيقة المنافذ لا تمنع الضوء والهواء من الدخول . وفى داخل البيت فناء كبير يمد البيت بالضوء والهواء وحوله غرف ومن ضمنها ديوانان لاستقبال ضيوف الزوج .

وقد دخل على البيوت الكويتية تطور كبير فى الأيام الأخيرة تقليدا للأوربيين وأصبحت الفيلات الآن تضارع فيلات القاهرة ومؤثثة بأفخر الأثاث الأوربى ومنهم من يستورده من ألمانيا أو من إيطاليا .

والمرأة الكويتية تعامل الخدم معاملة حسنة فهى تعتبرهم كأفراد البيت حتى لتنادى الخادمة صاحبة البيت باسمها دون أى تكليف ولكنهم مخلصون . وكل عائلة كويتية تملك عددا من الخدم والعبيد ، فالخدم يملأون البيت الكويتى من رجال ونساء حتى ليفوق عددهم عدد أهل البيت فى بعض الأحيان ، فقد قالت لى إحداهن أن لديهم من الخدم تسعة وأفراد البيت سبعة . وقبل إلغاء الرق كانت البيوت مملوءة بالجوارى السود ، وتمتاز نساؤهن بالسمرة وخفة الدم ، وقد امتازت الجارية بالخدمة فى البيوت وعرفت بإخلاصها وأمانتها ونظافتها . وهى تختلط بالعائلة كأنها إحدى أفرادها ، وللآن يوجد باقى نسلهن فى كثير من البيوت الكويتية .

أما الأسرة الكويتية فتسمى العائلة وهى وحدة اجتماعية واقتصادية ودينية . وكانت كل مجموعة من الأسر تضمها سكة (حارة) ومجموع السكك تضمها مدينة الكويت . ونظام الأسرة الكويتية كنظام الأسرة المصرية الريفية تماما . فالأسرة الكويتية تضم الرجل الكبير والزوجة والأبناء والبنات وتضم أيضا الأقارب كالابن وزوجته وولده والأخت المطلقة والحماة إلى غير ذلك . وقد يضم البيت زوجتين (ضرتين) وبالرغم من كبر الأسرة الكويتية فلا تكثر فيها المشاحنات والخصومات . وذلك لأنهم جميعا أقارب فنجد الأم إبنة عم الأب والضرتين بنات خالة أو بنات عم وهكذا ...

والأسرة الكويتية محكومة بالسلطة الأبوية فكل السلطة فى يد الأب والأولاد يحترمونه . فلا يصح أن يدخنوا أمامه ولا أن يتكلموا بصوت يعلو على صوته ولا يصح أن يتزوجوا إلا برضاه ، والأم لا يصح أن تخرج إلا بإذنه وبيده ميزانية البيت .

والأسرة الكويتية وحدة اقتصادية لأن كل سكة سوقها قريب منها تشترى منها ضرورياتها . وهى وحدة دينية لأن الأولاد يتعلمون فيها الشعائر الدينية والمسجد قريب من الحارة .

والأسرة الكويتية كثيرة العطف على أفرادها ، ومن مظاهر ذلك الاتصال والاعتزاز بالأقارب حتى الأبعدين .

ومن العادة الطبيعية أن يربى الطفل أول أمره أمه ، ووالداه يفرحان ويعتنيان به ، وتربية الأم الكويتية لأبنائها ليست مبنية على أساس التربية العلمية وإنما هى تربى طفلها حيثما اتفق ، وحينما يذهب الطفل إلى المدرسة يقل عبئه وتحمل المدرسة أكثر هذا العبء . ولا تحتفل المرأة الكويتية بسبوع طفلها ولا بعيد ميلاده كما هو شائع بين المصريات .

المرأة والثقافة :

وكان العلم فى الكويت مهملا (وفى ذلك يقول « الاستاذ عبد العزيز الرشيد مؤلف كتاب الكويت » كانت الكويت غارقة فى بحر الجمود ، ومنظمة فى حمأة التأخر ولا أثر للحركة العلمية والفكرية فيها وقد ظلت الكويت هكذا وأهلها يتخبطون بجهلهم الدامس) .

ولما بدأت النهضة العلمية فى الكويت كانت مقصورة على الأولاد لأن الرجل حظر على المرأة الدرس والتعليم وإذا شذ أحدهم وسمح بتعليم ابنته قراءة القرآن فما كان ليطيق أن تتعرف على الكتابة . وقد وجدت بين ٢١٨ امرأة :

عدد		
٥	تقرأ وتكتب	أى بنسبة ٢ر٢٪ من المجموع الكلى
٤٠	تقرأ القرآن فقط	أى بنسبة ٣ر١٨٪ « «
١٨٣	أمية	أى بنسبة ٧ر٨٣٪ « «

ومن ذلك تتبين أن اللائى يجمعن بين القراءة والكتابة فيهن النادر القليل جداً ، وذلك لأن الرجل يعتقد بأن العلم للمرأة مضر ولو كان مقصوراً على الكتابة والقراءة . وبهذا قيد الرجل الكويتى المرأة وحط من ثقافتها ، فهو ينظر إليها على أنها كائن ضعيف يجب تقييد حريتها دفعاً للفساد ، ولذلك يقتصر عمل المرأة الكويتية على شئون المنزل تحت وصاية الرجل . وينظر الرجل الكويتى إلى المرأة الناجحة على أنها رجل .

وهكذا فالرجل الكويتى وحده له الحق فى أن يأمر ويعلن إرادته ، ولا يعترف بالمرأة ، فالمرأة الكويتية ليس لرأيها وزن ولا لشخصها نصيب من عدالة وما عليها إلا أن تكون ولودا ، وعليها الطاعة العمياء لزوجها أو لأبيها أو لأخيها ، دون قيد أو شرط ، ويقتصر البعض منهم فى تعليم إبنته على القراءة ، أو القراءة والكتابة كما ذكرت ثم تنصرف البنت جملة واحدة إلى مساعدة والدتها فى البيت لتستعد لبيتها المقبل .

غير أن نظرة الرجل للمرأة قد بدأت تتحسن تحسنا شديدا فى زمن تتطور فيه الأفكار العامة ذلك التطور الذى بدأ نوره يسطع من الآن . فقد بدىء فى الترخيص للفتاة بالدراسة فى الجامعات الكبرى خارج الكويت .

وسيساعد ارتقاء الرجل السريع على النهوض بالمرأة الكويتية وقد أخذت أوهامه العتيقة ومخاوفه من جهة تعليمها فى التلاشى تدريجيا وصارت دائرة المعارف الكويتية تبذل عنايتها لنشر العلم بين الجنسين وعقيت عناية

خاصة بإنشاء مدارس البنات الابتدائية وأخذت تتوسع فيها لخلق جيل مثقف من الأمهات . ثم لم تأت سنة ١٩٥٨ حتى عمت هذه المدارس كل القرى فضلا عن المدينة، وخاصة وأن هذه الأيام صارت ملائمة لتعليم الفتاة مساعدة على انتشار العلم ومنحت الفتاة من الحقوق ما كان ممنوعا عنها وسأشير إلى هذه الحقوق وأبين كيف تدرجت الفتاة فى الحصول عليها :

ففى سنة ١٩٣٧ م سمح للفتاة أن تتعلم وفتحت لها مدرسة ابتدائية .

وفى سنة ١٩٥٣ م توسعت حقوقها من حيث التعليم وأنشئت لها دار معلمات .

وفى نفس السنة قبلت فى وظيفة التعليم فى المدارس الوسطى .

وفى سنة ١٩٥٦م رخص لها بالدخول فى الجامعة ، وفى أواخر نفس السنة أيضا سمح لها بشغل بعض الوظائف الحكومية .

ومن هذا نرى كيف أن المرأة التى كانت تعيش حتى عام ١٩٣٧ تحت رعاية الرجل صارت سنة ١٩٥٦ فى عداد طلبة الجامعات الكبرى وأصبح الناس ينظرون إلى كسب الفتاة نظرة شرف وتقدير ، وتهافت الفتيات الآن على العمل . وقد بلغ عدد المشتغلات من الكويتيات حتى الآن ٥٠ منهن ٣٠ مدرسة ، ٤ منهن فى مدارس رياض الأطفال ، و ٢٥ منهن فى المدارس الابتدائية ووكيلة مدرسة وسطى .

كما بلغ عدد التلميذات لعام ٥٨/٥٧ (٨٤٤٤) مقابل (١٤٥٦٢) تلميذا . بنسبة ٦ر٧٧٪ لمجموع التلاميذ الكلى فيهن ٧٧٤ طفلة فى رياض الأطفال المختلط .

ونسبة البنات إلى البنين كنسبة ٤٥٪ إلى ٥٥٪ .

وتلميذات المدارس الابتدائية ٦٤٣٥ تلميذة .

وتلميذات المدارس المتوسطة ١٠٩٧ تلميذة . وهن ٩٣٨ فى المدينة ، ١٥٩ فى القرى .

أما طالبات المدرسة الثانوية فبلغن ٩٥ طالبة .

وطالبات دار المعلمات ١٥ طالبة

وكان تزايد عدد الطالبات منذ عام ١٩٣٧ الى ١٩٥٨ هكذا :

١٩٣٨/١٩٣٧	كان عدد الطالبات	١٤٠	طالبة
١٩٣٩/١٩٣٨	» » »	٣٠٠	»
١٩٤٠/١٩٣٩	» » »	٣٣٠	»

١٩٤٠/١٩٤١	كان عدد الطالبات		٤٠٠ طالبة
١٩٤١/١٩٤٢	« « «		٤٦٠ «
١٩٤٢/١٩٤٣	« « «		٥٢٠ «
١٩٤٣/١٩٤٤	« « «		٥٩٠ «
١٩٤٤/١٩٤٥	« « «		٦٧٠ «
١٩٤٥/١٩٤٦	« « «		٨٢٠ «
١٩٤٦/١٩٤٧	« « «		٩٣٥ «
١٩٤٧/١٩٤٨	« « «		٩٨٥ «
١٩٤٨/١٩٤٩	« « «		١٢١٥ «
١٩٤٩/١٩٥٠	« « «		١٣٣٤ «
١٩٥٠/١٩٥١	« « «		١٧٧٢ «
١٩٥١/١٩٥٢	« « «		٢٤٤٧ « (فتحت أول مدرسة ثانوية)
١٩٥٢/١٩٥٣	« « «		٣٥٥٠ «
١٩٥٣/١٩٥٤	« « «		٤١٨٢ « (فتحت المدرسة المهنية)
١٩٥٤/١٩٥٥	« « «		٥٢٠٠ « فتحت مدرستان مختلطتان
١٩٥٥/١٩٥٦	« « «		٦٧٧٦ «
١٩٥٦/١٩٥٧	« « «		٦٩١٧ «
١٩٥٧/١٩٥٨	« « «		٨٤٤٤ « وصلت المدارس المختلطة ٦

المرأة فى أوقات فراغها :

فى عرف المجتمع الكويتى لايسمح للمرأة بالذهاب إلى السينما إلا فى يوم مخصص للنساء وهو يوم واحد فى الأسبوع وهى فى ذلك كالمرأة الليبية تماما والتى لا يسمح لها بالذهاب إلى السينما إلا فى اليوم المخصص لها ، ومما هو جدير بالذكر أن المرأة فى الكويت تمر بمرحلة تطور هى نفس مرحلة التطور التى تجتازها المرأة فى ليبيا .

والقادرات منهن عندهن آلة عرض فى البيت وتؤجر لها أفلام سينمائية أسبوعيا ، وإذا أقيمت حفلة مسرحية خصص يوم للنساء . وبهذه المناسبة مما يجدر ذكره أن المرأة لا يسمح بظهورها على المسرح وإذا اضطر المخرج لتمثيل دور امرأة اختار شابا ليقوم بدورها .

واعتادت المرأة الكويتية أن تخرج يوم عطلة أولادها فى رحلة إلى البر ويسمونها « كشته » كما تخرج فى الربيع فى رحلة طويلة قد تستغرق ١٥ يوما أو ما يزيد على ذلك . وفيما عدا ذلك فالمرأة لا تترك بيتها إلا فى النادر فى زيارات للنساء الأقارب وللسوق .

ومنذ سنتين فقط كانت لا تشاهد امرأة تقف لدى دكان فى السوق لتشترى حاجياتها ، فعملية الشراء كانت دائما تتم بواسطة الخدم . أما فى هذه الأيام فالنساء وبخاصة الصغيرات منهن يقمن بزيارة المحلات الجديدة فى السوق كما تذهبن إلى الترزى لحياكة الملابس .

ومع وفرة السيارات هذه الأيام فى الكويت نجد كثيرا من العائلات الموسرة التى يمكنها وضع سيارة تحت أمر نسائها لا تفعل ذلك وبذا يصبح من العسير عليهن ترك المنزل ليطفن بالسيارة يتمتعن بمناظر المدينة والقرى .

كما أنه فى هذه الأيام أيضا نجد بعض الرجال ذوى الأفكار التقدمية أصبحوا يأخذون زوجاتهم لقضاء الصيف فى الخارج وغالبا فى لبنان ، وعند ما تسافر المرأة الكويتية خارج حدود وطنها تخلع الحجاب .

والأوضاع الاجتماعية على العموم لم تتأثر بالتطورات الجديدة نتيجة التعليم ، والمرأة الكويتية قانعة بحياتها هذه التى تعودت عليها على عكس ما نتخيل من أنها حياة ثقيلة تمر معظمها فى حدود أربع جدران ، فالمرأة الكويتية لا تقاسى من آلام الوحدة أبدا لأن العائلة كبيرة وهى محاطة بأطفال من أعمار متعددة ليسوا أطفالها فحسب ولكن أطفالها وأطفال ابنتها المتزوجة التى تعيش معها فى البيت وأطفال الخدم وهكذا . . وهكذا تقضى المرأة الكويتية أوقات فراغها . وتستولى على الدهشة عند ما أقارن بين المرأة المحجبة فى قطر عربى محدود الإمكانيات مثل المملكة الليبية المتحدة وبين المرأة الكويتية التى تتمتع ببسطة من الرزق وحظ عظيم من النشاط والطموح ، والمرأة الليبية رغم الضنك الشديد ورغم التزمت الذى عرف عن الليبيين ، فإنها اليوم قد أنشأت الجمعيات المختلفة لممارسة شتى ألوان النشاط الإنسانى .

الزواج والطلاق :

يتم زواج المرأة فى الكويت بالاتفاق بين الأهل ولا يصح فى عرف الكويتيين أن يرى الزوج زوجته قبل زواجها ولكنهم يرسلون أمهاتهم وأخواتهم لرؤيتها . وتتزوج الكويتية فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشر وبعضهن يتزوجن فى سن التاسعة ولكن هذه الحالات قليلة الحدوث الآن ، أما بالنسبة للزوج فيتزوج عادة فيما بين الرابعة عشر والثامنة عشر .

والزوجة من العائلة فهى إما أن تكون إبنة خاله أو إبنة عمه وهى غالبا ما تكون ذلك . ويتم الزواج فى الكويت دون احتفال كبير . ويتم زواج المرأة فى الكويت بالاتفاق بين الآباء والأمهات دون علم الفتاة ، فوالدها يزوجها من الرجل الذى يختاره دون أخذ رأيها ، وإذا ما انتهى الطرفان إلى الاتفاق يدفع والد العريس المهر الذى يتراوح بين ٢٠٠ — ٢٠٠٠ روبية ، ولا يوجد فى الكويت نظام مؤخر الصداق .

والظاهرة الجديرة بالتسجيل أن الحماة الكويتية لا تشتهر بعدائها لزوجة ابنها ، كما أنه بعد الزواج لا تتحول السلطة الأبوية إلى سلطة الزوج ، بل يظل هو يخضع لأبيه ، وتظل هى تخضع لسلطة أبيها لدرجه أن الزوج والزوجة لا يملكان الإبقاء على حياتهما الزوجية فالأمر بيد الوالدين . وكثير من حالات الطلاق لا ترجع إلى خلاف بين الزوجين وإنما ترجع إلى خلاف بين الزوجة ووالدها أو الزوج ووالده .

ومن المألوف أن تتزوج المرأة ثلاث أو أربع مرات وقد تنجب فى كل مرة بنت أو ولد أو أكثر ويطلقها زوجها وتتزوج بآخر وهكذا ، ولا تقل قيمة المرأة بطلاقها .

ومن المألوف أيضا أن يتزوج الرجل فى الكويت فى سن الستين أو السبعين زوجة شابة وكثيرا ما يكون ذلك سببا فى الطلاق . ويتزوج الرجل الكويتى بأكثر من واحدة ومن النادر جدا أن نجد رجلا متزوجا بواحدة فقط، وكثيرا بل غالبا ما يجمع بينهن فى بيت واحد دون أن يحدث أى معاكسات أو مضايقات ودون أن يوجد أى نزاع بينهن وذلك لأنهن من عائلة واحدة وأقارب فقد تكون الزوجة وضرتها بنات خالة أو بنات عم .

ولا يفرق الزواج بين زوجة وزوجة أخرى ولكن الجميع سواء ، كما أنه لا يفرق بين أولادهن . ولهذا السبب فالأولاد لا يتعادون . وهكذا يسود بيت الزوجية فى الكويت الهدوء على الرغم من وجود هذا النظام ، ومن تحاول منهن أن تعكر صفو هذا الهدوء فمصيرها الطلاق فهى تطلق بسبب كلمة نابية أو لاختلاف على أمر حقير الشأن ضئيل القيمة ، وزوجها يتزوج عليها لأتفه الأمور وأقلها جدارة بالاعتبار ولا لسبب إلا لكون الثانية قد أعجبته وقد يطلقها ليتزوج من أختها .

أما إذا بحثنا عن أسباب الطلاق الحقيقية فى الكويت نجد أن التقاليد المتبعة فى الزواج لها يد كبرى فى ذلك ، فالأب والأم يزوجان ابنهما أو بنتهما فى الصغر فإذا كبرا لم يوافق الزوج على هذا الزواج فيؤدى ذلك إلى الطلاق . ومن أسباب الطلاق أيضا شيوع الثقافة وافتصارها على الرجال دون النساء وتفضيلهم المثقفات من الأجنبيات وخاصة بعد أن تدفقت الثروة على الكويت وما تبع ذلك من زيادة دخل الفرد وزيادة أسفاره ، فيجد هناك من النساء المثقفات الأكثر دراية بالشئون الزوجية وبشئون الحياة عامة فيتزوج بها ويكون مصير زوجته الطلاق أو الهجران لا محالة .

ومن زيارتى لكثير من البيوتات الكويتية وجدت كثيرا من السيدات المطلقات أو المهجورات والأغلبية الساحقة منهن لها أولاد ، وقد وجدت فى ٥٠ أسرة منها عشرون امرأة طلقت فيما بين مرة وثلاث مرات وتزوجت ثانية برجل كويتى إذ لا يجوز لها أن تتزوج بغير الكويتى ، أما بالنسبة للرجل فمباح له الزواج بغير الكويتية ، ١٤ امرأة مطلقة ولم تتزوج أى بنسبة ٢٦ر٧٪ ، ولا يمكننا بالطبع تعميم هذه النسبة ولكنها فقط على سبيل المثال .

بعض العادات والتقاليد :

ولا تنتشر عادة الشحاذة بين نساء الكويت فلا تجد شحاذة فى الطرقات العامة أو أخرى تجىء لتطرق الباب وذلك يرجع إلى أن ظاهرة التكافل الاجتماعى موجودة بشكل واضح فى المجتمع الكويتى .

ومن العادات المستحسنة أيضا عند نساء الكويت أننا لا نجد عندهن عادة التقبيل لبعضهن البعض عند المقابلة ومن الغريب أنها لا توجد بين النساء ولكن توجد بين الرجال .

ومن العادات المستحسنة أيضا عند المرأة الكويتية أنها لا تعرف ختان الأنثى فقد جرت العادة فى الكويت أن تجرى عملية الختان للأطفال الذكور دون الإناث ، وهى تعتبر من العادات غير الحسنة لأن الدراسات الاجتماعية

والنفسية أجمعت على أن لعملية الختان عند البنات أضراراً مؤكدة كثيرة . فالمرأة الكويتية لا تعرف عادة الختان ولا توليها أى اهتمام كما فى البلاد العربية الأخرى وعلى رأسها الإقليم المصرى .

ولا تعرف المرأة الكويتية الصياح واللطم والعويل والولولة بل تكتفى عند موت زوجها بقضاء أيام العدة وهى ثلاثة أشهر وعشرة أيام تقضيها المرأة الكويتية فى حجرتها وتعتزل العالم الخارجى ولا تغادرها طوال هذه المدة ، وفيها تلبس ثوب العدة وهو ثوب أخضر غامق أو أسود . وتزهد الدنيا وتقضى هذه الأيام بين الصلاة وبين النساء اللائى يجئن لتعزيتها ولا تقدم لهؤلاء النسوة قهوة أو أى شىء كما أن غداء البيت وعشاءه على الجيران ، وبعد انتهاء أيام العدة تخرج المرأة ولا تحاول تذكر الميت بعد ذلك كما تفعل المرأة المصرية مثلا بأن يقام له «أربعين» و«سنوية» أو زيارة الميت فى القبور وما إلى ذلك ، وتعتبر هذه العادة من العادات المستحسنة عند المرأة الكويتية .

المرأة البدوية :

تعيش المرأة البدوية فى الكويت وتسكن خيمة من شعر الماعز أوالجمال تصنعها المرأة على منسج من صنع يديها من « جريد النخل » وأحيانا تكون الخيمة من الجلد أو من الورق المقوى . وأرض الخيمة مفروشة عادة ببساط ملون وأول شىء يلفت نظر داخل الخيمة « الدوه » وهى عبارة عن عقد لعمل الشاى والقهوة وللتدفئة أيضا وعلى الدوة نجد قورى شاى وصينية عليها دله للقهوة « وسحارة للشاى » وهى صندوق من الخشب لحفظ الشاى وأدواته من « استكانات » أكواب إلى غير ذلك .

وكل امرأة نجد عندها طاحونة « شلب » و « منجب » للعجين والأكل فيه ، ومنخاز لطحن الشعير « والقاوه » لعمل الخبز عليها و « منعوبة » لصب الماء و « محقان » لصب اللبن و « بستول » لحفظ المسلى و « واسقه » وهى القربة .

لباس البدوية :

وتلبس البدوية ثوب « مفحح » من الأطلس الأسود وبه تخطيط من الألوان الأحمر والرمادى والأصفر ويبدأ التخطيط من تحت الأكمام — وتلف حول خصرها « وزار » وهو عبارة عن منديل من القماش القطنى الملون باللون الأحمر ومخطط بالأبيض والأسود ، وتلبس مع هذا سروالا طويلا أحمر أو أخضر أو أزرق اللون . رجلاه محلاة بالقصب وقد تلبس « دراعه » فى البيت وهى ثوب واسع مطرز من على الأكمام والصدر وهو من ثلاثة ألوان زاهية هى الأحمر والأخضر والأزرق . وتضع على رأسها شالا من الكشمير من صنع يدها ومزركشا وتلبس فى الخروج « مزوية » أى عباءة مصنوعة من صوف الماعز والجمال وتغطى وجهها ببرقع من القماش الأسود السميك وبه فتحتان أمام العينين . وتتزين المرأة البدوية بوضع الكحل فى عينيها التى تمتاز بالجمال كما تلبس حجول من الفضة .

وتعمل البدوية لابنها سريراً من الجريد ووجوه أطفالها لا تغسل بالماء عدة أيام .

ولهن فضائل من بساطة عيش إلى شجاعة وهن يتأثرن بالعواطف أكثر من تأثرهن بالعقل ويعشقن الحرية والاستقلال ولا يخضعن لنظام ، وكثيرات منهن يتزوجهن أغنياء المدينة لجمالهن وخاصة جمال العيون ، ووجه المرأة البدوية ورأسها أقرب إلى الاستطالة منها إلى الاستدارة ، وهى نحيفة الجسم لكثرة الحركة ونوع الأكل الذى يتألف عادة من الأرز و «الثريد» واللحم والحليب والتمر المقلى والقهوة ، والوجبة الرئيسية عندها تكون فى المساء .

والبدو يقصرون زواجهم على أنفسهم ولا تتزوج المرأة البدوية من غريب إلا نادراً ، كما أن زواج المرأة البدوية فى الكويت قائم على الحب والنادر من الزيجات التى غالبا ما تفشل هى التى لا تقوم على الحب على عكس المرأة فى المدينة .

والمرأة فى البادية أحسن حالا منها فى المدن فهى تقوم بأعمال لتشارك زوجها فى الحياة ولذلك يتفاهم الزوجان فى معظم شئونهما وقل أن يكون ذلك فى المدينة فالزوجة خادمة نظيفة والزوج فى وظيفته أو قراءاته أو حساباته المالية منعزلا عن زوجته لا يستطيع إشراكها معه ، كما أنه منعزل عن أولاده ، وذلك فيما عدا القليل النادر .

ونهضه المرأة الكويتية وتقدمها ليس مقصورا على تقدمها العلمى بل إن الأجهزة الحكومية جميعها تساعد وتعمل على تحضر المرأة الكويتية وتمدينها .

فمجهود دائرة الصحة لا تقل عن مجهود دائرة المعارف ، فالمرأة كانت قبل ذلك تتردد على « البصير » الدجال والآن أصبح هناك مستشفيات حديثة وأطباء وعلاج علمى وأدوية مركبة تركيباً علميا ، كل هذا يشعر المرأة بكرامتها كإنسان .

ولا شىء يؤثر على عقل الإنسان ويؤخره سوى الصور القبيحة المتخلفة وكلما كانت صور الحياة منظمة راقية كلما ساعد ذلك على تنظيم المرأة ورفع مستواها .

وأختتم بحثى مستفسرة لماذا تنال العناية كل شىء فى الكويت حتى الشوارع والبيوت وكل المؤسسات فكل هذا قد تغير وأصبح جديدا . . . إلا المرأة فى الكويت فإنها تعيش فى ظلام الماضى السحيق اللهم إلا القليلات .

اللجنة الثانية
الخدمات الخاصة بالبيت العربي

١ — تنظيم الأسرة وأهميته فى رفاهية البيت العربى	الدكتور محمد عوض محمد	ج . ع . م
٢ — مؤسسات التوجيه الأسرى للمعاونة فى حل مشاكل البيت	للأستاذ مصطفى المسلمانى	»
٣ — رعاية الأمهات العاملات والمشتغلات	للأساتذة عبد المغنى سعيد، أحمد إسماعيل، سعد النشار	ج . ع . م
٤ — دور الحضانة	للسيدة عنايات الحكيم	»
٥ — نظام الأسر البديلة وأهميته فى رعاية الطفولة	للأستاذ سليمان مرزوق	»
٦ — الخدمة الاجتماعية المدرسية	» أحمد كمال أحمد	»
٧ — وسائل التثقيف الصحى	للدكتور فتحى سليمان عبد الحافظ	هيئة الصحة العالمية
٨ — مراكز رعاية الأمومة والطفولة	دكتور محمد كمال عبد الرازق ودكتورة نفيسه حسين	ج . ع . م
٩ — الصحة الصناعية ودورها فى رعاية العاملين	دكتور محمد عبد اللطيف	»
١٠ — الصحة المدرسية وأثرها فى البيت العربى	دكتورة وصفية حسين كامل	»
١١ — التغذية وأهمية تنظيمها فى رفع المستوى الصحى للأسرة	للدكتور على حسن	»
١٢ — نظم الرعاية الطبية للبيت العربى	» عبد الوهاب البرلسى	خبير الجامعة العربية
١٣ — الصحة النفسية والعقلية وأثرها فى كيان البيت	» عبد العزيز القوصى	ج . ع . م
١٤ — الخدمة الاجتماعية الطبية والنفسية وأهميتها للبيت	» مصطفى زيور	»
١٥ — إقتصاديات البيت العربى	» أحمد دويدار	»
١٦ — الصناعات المنزلية وأثرها الاقتصادى والاجتماعى فى البيت	» شكرى المراغى	»
١٧ — التعاون والوظائف الاقتصادية اللازمة للبيت العربى	للأستاذ أمين يونس الحسبانى	الأردن
١٨ — التعاون والوظائف الاقتصادية اللازمة للبيت العربى	» أحمد زكى الأمام	ج . ع . م
١٩ - تنظيم أوقات الفراغ فى البيت العربى	» توفيق حسن وصفى	الجامعة العربية
٢٠ — النشاط الترويحى داخل البيت	» محمد على حافظ	خبير الجامعة العربية
٢١ — النشاط الترويحى فى المجتمع	» ج . ب . كرمز	ج . ع . م
٢٢ — التثقيف الروحى وأثره على البيت الليبى	» الشيخ عبد السلام خليل	ليبيا
٢٣ — وظيفة المدرسة فى خدمة البيت العربى	» محمد حسين المخزنجى	ج . ع . م
٢٤ — البيت العربى فى تجربة مركز التنظيم والتدريب بقليوب	الأساتذة جمال خشبة، سليم الكفراوى، دكتور فخرى أسعد	ج . ع . م

تنظيم الأسرة وأهميته فى رفاهية البيت العربى

للدكتور محمد عوض محمد

(الجمهورية العربية المتحدة)

حينما يكون بناء الأسرة قويا متينا فى مجتمع ما ، امتاز هذا المجتمع بالاستقرار والثبات . فإذا عصفت بالقطر عواصف سياسية أو ثورات اجتماعية أو اضطرابات من أى نوع ، خرج المجتمع من المحنة سليما متماسكا ، لم تزعزعه الأحداث ، ولم تنل منه الخطوب . وإذا أصابت بعض نواحيه ببعض الضرر، فإن جوهره يظل سليما سريع الإفاقة من النكبات . وكثيرا ما يضرب الكتاب الاجتماعيون المثل لهذا بالأسرة الصينية التى تعد من أقوى الأسر بنيانا فى نظامها ومتانة الأواصر التى تربط بين أفرادها ، وبفضل هذا التماسك استطاع المجتمع الصينى أن يجتاز أزمات عديدة شديدة فى تاريخه الطويل .

والأسرة التى نعرض لها هنا ، هى الأسرة بالمعنى المحدود : أى الزوج والزوجة (أو الزوجات) والولد (الأبناء والبنات) فحسبنا أن نبحث ونحن ندرس تنظيم الأسرة ، عن أسباب القوة والتماسك التى تسود — أو ينبغى أن تسود — كل أسرة بهذا التحديد . . ومع ذلك فإن الأسرة بهذا المعنى المحدود إذا عاشت فى نظام يسوده التماسك والاستقرار ، فإن تماسكها هذا يستتبع حتما أن تكون الأسرة بالمعنى الأكبر (الذى يشمل الجد والجدة وزوجات الأبناء وأزواج البنات والأحفاد) هى أيضاً شديدة التماسك قوية الأواصر ، لأن الأسرة الصغيرة بمثابة الخلية ، وجسم المجتمع يتألف من تلاحم تلك الخلايا .

فكيان المجتمع كله — والحال هذه — مرتبط ارتباطا وثيقا بكيان الأسرة ، التى ربما لم يزد عددها على بضعة أفراد ، مع أن المجتمع قد يتجاوز عدد أفراده الملايين . فسعادة هؤلاء الملايين ومقدرتهم على التقدم والرقى ، يتوقف إلى درجة بعيدة على نظام الأسرة الذى ينظم مجتمعهم.

لهذا لم يكن بدعا أن يكون من أهم ما عنى به الرسل والأنبياء والمصلحون فى جميع العصور ، وضع نظام للأسرة ، يرون أنه أساس لنظام المجتمع كله . وأحاطوا هذا النظام بما يضمن له البقاء والدوام . وليست العناية بهذا الأمر شيئا مقصورا على المجتمعات المتقدمة ، التى أوتيت حظاً كبيرا من التقدم الاقتصادى والثقافى ، بل نرى مثل هذه العناية فى المجتمعات البدائية ولدى الشعوب التى تعيش على « الفطرة » ، فإن كل مجتمع وإن مارس حياة

مادية فى غاية البساطة ، وكان حظه من متع الحياة ومن المأكل والمشرب والمسكن ، حظا قليلا ساذجا ، وكان أفراده جميعا أميين لايعرفون الكتابة ، له مع ذلك سنن وأوضاع دقيقة تنظم حياة الأسرة وتبعات كل فرد منها ، وقد اهتدى إلى تلك السنن بالتجربة على مدى القرون ، وبإرشاد قادته وحكمائه ، الذين لايكاد يخلو منهم مجتمع حتى ليوشك أن يكون تنظيم الأسرة أمراً يساق إليه الناس بالغريزة المغروسة فى أنفسهم ، إذا أعوزهم إرشاد الأنبياء والحكماء والمصلحين .

فإن من الأمور التى يفرضها الطبع والغريزة ، أن يكون للأسرة البشرية نظام مقرر . والراجح عند علماء الاجتماع اليوم أن هذه الحالة متأصلة فى الإنسان منذ درج على سطح الأرض . وأنه لاصحة لما ذهب إليه بعضهم فيما مضى من أنه كان هنالك فى الزمن القديم ، عصر تسوده الفوضى لم تستقر فيه أوضاع تساعد على تكوين الأسرة وتنظيم شئونها . ومهما يكن من أمر فما بنا حاجة لأن نرجع إلى ماض بعيد مجهول لا يكاد علمنا به أن يعدو مرتبة الحدس والتخمين . وحسبنا أن ننظر إلى المجتمعات البشرية التى تعيش فى زماننا هذا ، سواء كان عيشها بدائيا أو ضربت فى الحضارة بسهم ، فإننا سنجد فيها جميعا — وبغير استثناء — نظما مقررة للأسرة ، توضح ما لكل فرد من الحقوق وما عليه من الواجبات .

ولما لتنظيم الأسرة من عظيم الخطر ، عنيت الديانات بتقرير السنن والأوضاع التى تنظم كيانها ، وتساعد على حفظها وتماسكها ، فإن المصلحين كانوا دائما مدركين أن نظام الأسرة أهم عنصر فى بقاء النوع البشرى كله . فإن الصغار فى النوع البشرى ، هم الذين سيتكون منهم الجيل التالى . ومعلوم أن صغار الإنسان هى أضعف وأكثر عجزا من أى كائن من الكائنات ، وتظل فى حالة العجز والافتقار إلى الرعاية والعناية زمنا أطول بكثير من صغار أى كائن آخر . والأم نفسها تكون بعد الولادة فى حالة من الضعف ، بحيث تحتاج إلى فترة من الزمن لاسترداد قوتها ، حتى تنهض بأعباء الأمومة والزوجية . ففى هذه الفترة ، وهى فترة خطيرة فى بقاء النوع البشرى . تزداد الحاجة إلى رعاية الأب وإلى جهوده فى توفير أسباب الراحة للأم والعناية بالطفل .

وهكذا نرى أن طبيعة الحياة تفرض على الأسرة أن ترتبط بأقوى الروابط وأمتنها ، وأن يكون التعاطف والتراحم بينها كأشد ما يكون قوة ومتانة . وإلا تعذر أو استحال التكاثر الذى يضمن بقاء النوع . لهذا لم يكن بمستغرب أن نرى المذاهب الدينية فى جميع أرجاء العالم تصر على أن تحيط بناء الأسرة بضروب من الضمانات ، وتجعل من هذه الضمانات ركنا من أخطر أركان الدين ، وقد تختلف المذاهب فيما تفرضه من وسائل لصيانة الأسرة من كل عبث ، فيذهب بعضها إلى انتهاج منهج شديد صارم ، وبعضها يسلك بين هذا وذاك سبيلا وسطا ، ولكنها كلها جديرة بالاحترام والتقدير لأنها تنبعث عن قصد حميد ، وهو حماية بنيان الأسرة من التصدع ، ومما يجره ذلك من وبال على المجتمع وتحطيم للقيم الروحية التى يرتكز عليها .

وسواء أكانت السنن والأوضاع التى تفرضها الشرائع سهلة هينة أو شديدة صارمة ، فإنها على كل حال

تستند إلى قوى طبيعية تعاونها وتشد أزرها. إذ لاشك أن أقوى عامل فى تماسك الأسرة هو ذلك الحب المتين الذى يربط بين قلب الزوج والزوجة، وبينهما وبين أطفالهما، ويشيع فى الأسرة كلها جواً من التعاطف والتراحم: « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا، لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة. » (سورة الروم ٢١).

فهذه المودة والرحمة هما العماد الطبيعى لبنيان الأسرة، وما سنت السنن والشرائع إلا لحماية هذا البنيان الطبيعى وشد أزره والذود عنه، وذلك لأن بناء الأسرة قد يتعرض لضروب من الفساد، كما يتعرض الجسم لضروب من الأمراض. وقد شاءت العناية أن ينتاب الإنسان المرض أحيانا فيكافحه ويغالبه حتى يتغلب عليه فيزداد إدراك الناس لأهمية الصحة، وأهمية المحافظة عليها. كذلك يتعرض كيان الأسرة لضروب من العلل، وسواء أكان ذلك مبعثه جشع فى طبع الزوج أو نشوز فى خلق الزوجة، أو غير ذلك من الأسباب. فكان لابد من أن تسن السنن لتعالج هذه النزعات، وتصلح ما يتعرض له بنيان الأسرة من الفساد. وكما أن العناية بصحة الفرد تتناول نوعين من الإجراءات: أولها إجراءات الوقاية ومنع التعرض للعلل، ثم إجراءات العلاج للتخلص من المرض، كذلك سنت الشرائع سننا، بعضها من نوع الوقاية والآخر من نوع العلاج. ومن أهم وسائل الوقاية تثقيف الناس وإرشادهم إلى ما للرابطة الزوجية من القداسة. وما لكل من الزوجين من حقوق وما عليهما من تبعات. وأن للمباشرة الزوجية معنى أسمى وأنبل من مجرد العلاقة الجنسية. وأن ليس فى العالم سعادة كالتى يحسها الفرد قرير العين بزوجه وولده: « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » (سورة الفرقان ٧٤).

فمثل هذا الأدب السامى الكريم هو الذى يعلو بالنفوس ويهيئها لتلك الحياة السعيدة فى كنف أسرة يسودها الإخلاص والوفاء والتقوى.

ولم يكن بد من أن تعنى الشرائع أيضاً بأمر العلاج، وأن تقرر ما ينبغى اتخاذه من إجراء إذا تعرضت الأسرة لعامل من عوامل التفكك أو التصدع. والوسائل التى تفرضها الشرائع ترمى كلها إلى المحافظة على كيان الأسرة، وإلى الإصلاح بين الزوجين واستبقاء الرابطة المقدسة التى لابد منها — لا لسعادة الفرد فحسب — بل لحياة المجتمع نفسه. إذ من الخطأ الشديد أن يتوهم أحد أن العلاقة الزوجية مسألة شخصية بحتة، إن مثل هذا الوهم إذا انتشر فى مجتمع لم يلبث أن ينتابه الفساد والدمار.

ولابد لنا ونحن ندرس شئون الأسرة من وجهة النظر العربية، وما لها من صلة برفاهية البيت العربى، أن نعالج بعض النواحى الهامة لهذا الموضوع، التى كانت وما زالت موضع حديث وأخذ ورد بين المشتغلين بالشئون الاجتماعية فى الوطن العربى. ومن أهم تلك النواحى مسألة تعدد الزوجات ومسألة الطلاق، ومسألة تنظيم النسل. إن هذه الأمور الثلاثة لها علاقة وثيقة برفاهية البيت العربى. وسنخصها بالذكر فى الفصول التالية، وإن كانت هنالك أمور أخرى أقل منها خطرا ولا يتسع المقام لذكرها.

تعدد الزوجات :

أكثر الكتاب من الكلام فى هذا الموضوع ، وإن يكن قد أوشك اليوم أن يكون «غير ذى موضوع » ودار الجدل حول ما جاء فى القرآن الكريم ، وهل يفيد الإباحة إطلاقاً ، أم فى حدود وقيود أشارت إليها الآية الثالثة من سورة النساء : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعدلوا . . . »

وبعد ذلك فى مكان آخر من نفس السورة آية أخرى :

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

وليست بنا حاجة لأن ننقل هنا ما جاء فى كلام المفسرين والشراح ، وما دار من الجدل بين المتكلمين فى هذا الصدد . فإن من المسلم به أن السلف قد فهموا من هذه الآيات أنها تبيح للرجل أن يتزوج أربعاً من النساء إذا شاء وقد كان الأمر فى الجاهلية لا يقف عند حد . ولا شك أن أسلافنا كثيرا ما انتفعوا بتلك الإباحة المحدودة . واتخذ كثير منهم أربعا من الزوجات . وأسرف بعضهم فى عملية استبدال زوج بزوج على مدى العمر ، ملتزما ألا يزيد العدد على أربع ، فى أى وقت من الأوقات .

وكان منهم بلا شك الميسور الحال الذى يقتنى منزلا لكل زوجة ، ولكن هذا هو النادر ، وأكثرهم لا يرى حرجا فى الجمع بين الزوجات الأربع فى دار واحدة . ومن الجائز أن نسمع أو نقرأ عن زوجات كان يسود الوفاق بينهن ولا يجدن غضاضة فى أن يشتركن جميعا فى حب رجل واحد ويتقاسمنه وده بالعدل والقسطاس . ولكن لعل هذا أيضا هو النادر وأن الأرجح أن تسود بين الضرائر الحسد والبغضاء ، والكيد بعضهن لبعض ، وقد سمعنا أحد الشعراء يهدد زوجته بأنه سيقتنى زوجة جديدة نكاية فيها ، فيقول :

دمشق خذيها واعلمى أن ليلة تمر بعودى نعشها ، ليلة القدر[1]
شربت دما إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

ومن المسلم به أن التنافس والتحاسد بين الضرائر ، وميل الزوج إلى إحداهن ، وإيثاره أبناءها بالخيرات والهبات ، بل وبالإمارة والمناصب ، كل هذا كان له أثره فى النكبات التى حلت بالمسلمين فى مختلف العصور ومختلف الأطوار .

---

* قيل لهذا الرجل أن فى دمشق حمى تصيب النساء ، فحمل زوجته اليها . والظاهر أنها لم تتأثر كثيرا بهذه الحمى . ولذلك أراد أن يروعها بضرة امعانا فى التنكيل بها .

غير أن الموضوع كما ذكرنا من قبل يوشك أن يصبح اليوم أمرا غير ذى موضوع ، ومع التسليم بأن تعدد الزوجات لا يزال موجودا فى الأقطار العربية ، وإن كان فى بعضها أكثر منه فى البعض ، فإنه على كل حال ظاهرة اجتماعية مشرفة على الزوال . وقد أخذت فى التناقص المضطرد السريع منذ زمن غير قليل . والتعداد الرسمى لكثير من البلاد العربية يثبت أن عدد الذين يقتنون أكثر من زوجة واحدة ، أصبح عدداً تافها بالنسبة لمن التزموا الزواج بواحدة — وسواء أكان هذا التطور نتيجة لأسباب اقتصادية أو لتقدم المرأة وحسن إدراكها للأمور ، أو بتأثير اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب أو لغير ذلك من الأسباب . فإن هذا التطور حقيقة لا مراء فيها . وهو جدير أن يجعلنا نتساءل عما إذا كان هناك ضرورة لتشريع خاص ، فيه حظر للزواج من غير واحدة ، ما دام الزمن قد تولى علاج هذه الحال . ومع أن دولة عربية — وهى تونس — قد أصدرت تشريعا بحظر الزواج بأكثر من واحدة ، فإن الجمهورية التونسية كانت بسبيل إصدار تشريع جديد للأحوال الشخصية كلها ، فلم يكن بد أن يتضمن مثل هذا التشريع الشامل نصا يحظر الزواج بغير امرأة واحدة . أما إصدار تشريع خاص بهذا الموضوع وحده فإنه إصلاح يجىء فى المرتبة الثانية أو الثالثة . فإن ظاهرة التعدد لم تعد بالأمر الخطير فى البيئة العربية .

ويجوز للمرء فوق ذلك أن يتساءل أليست هنالك ظروف وأحوال تجعل البناء بزوجة ثانية أمرا فيه علاج لحالة خاصة كأن تكون الزوجة الأولى مريضة مرضا عصبيا يقضى بعزلها عن الناس ، أو عاجزة عن الحركة ، فإن قيل أن فى وسع الزوج أن يطلقها ، فبئس ما جزاها عن وفائها القديم وخدمتها السابقة .

لعل الأوفق فى مسألة الحظر والإباحة للزواج من امرأة ثانية ، أن يتم هذا الأمر على يد القاضى ، حتى يحكم بما فيه صالح الأسرة ورفاهيتها ، وحتى يكبح جماح كل مزواج شرير . فإذا كان هناك التجاء إلى التشريع ، فليكن هذا فى الوقت الحاضر مقصورا على إباحة الزواج الثانى على يد القاضى .

ولا عبرة بما يقال من أن فى هذا الإجراء تشهيرا بامرأة بريئة ، لم تجن ذنبا سوى أنها فريسة لمرض عضال أو نحو ذلك من الأمور التى جعلتها عاجزة عن النهوض بأعباء الزوجية . وهذا القول — على ما يبدو فيه من وجاهة — اعتراض سطحى ، ولا معول عليه . لأن المرأة فى مثل هذه الحال يكون أمرها معروفا للناس ، وليس فى إفشاء أمرها للقاضى تشهير بها ، بل ضمان لحفظ حقوقها وتوفير ما تحتاجه من عناية ورعاية .(١)

---

(١) ربما كان من المفيد ايراد الارقام الآتية للاقليم المصرى ، نقلا عن الاحصاء السنوى للجيب سنة ١٩٥٦ (الاحصاء خاص بالمسلمين) .

عدد الزوجات	سنة ١٩٤٧		سنة ١٩٣٧		سنة ١٩٢٧	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
واحدة	٣ر٢٠٩ر٤٠٥	٩٦ر٤	٢ر٧٣٣ر٣٠٢	٩٦ر٩	٢ر٤٢٠ر٦٣٢	٩٠ر٢
اثنتان	١١١ر٧٤٦	٣ر٤	٩١ر٧١٢	٢ر٩	١١٤ر٢٤٧	٤ر٥
ثلاث	٦ر٥٧٣	٢ر٠	٥ر١٦٩	٠ر٢	٧ر٣١٨	٠ر٣
اربع	٨٨٨	٠ر٠	٥٢٠	٠ر٠	٨٩١	٠ر٠

الطلاق :

يرى الكثير من الكتاب والراغبون فى الإصلاح أن الطلاق هو أكبر عامل على هدم الأسرة وتمزيق كيانها . وأن الشقاء الذى ينجم عنه لا يتناول الزوجين بل يتجاوزهما إلى الأبناء والبنات وإلى المجتمع نفسه . . . ولذلك يروى عن النبى عليه الصلاة والسلام « إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

والإسلام — بخلاف ما يتوهمه الناس — لا يجعل الطلاق سهلا ميسورا يقدم عليه الأزواج فى نزق وطيش لغير سبب وجيه . ولكن المجتمع الإسلامى فى كثير من البلاد العربية تعود ممارسة الطلاق فى شىء من العبث وعدم الاكتراث للشرع . . . ومن أمثلة العبث والاستهتار ، أن اتخذ الناس من الطلاق يمينا يقسمون بها فى أمور لا صلة لها بالزوجة ولا بشئون البيت والحياة المنزلية . بل فى أى أمر من أمور الدنيا ، حتى ليقال على سبيل الفكاهة أن ثلاثة رجال اجتمعوا يتقارضون الشعر فاختاروا لهم قافية صعبة وأنشد أولهم بيتا يقول :

فلنا لذيذ العيش فى ضغثانا

وقال الثانى بيتا لا يقل عن هذا سخفا .

أما الثالث فلم يجد لديه من القول إلا أن ينشد :

وأم عمرو طالق ثلاثا

ثم انطلق إلى داره فطلق زوجته . . وقد تكون هذه القصة لمجرد الفكاهة ولكنها بلا شك تحكى لنا حقيقة شهدناها جميعاً ، وهى هذا الإفراط فى القسم بالطلاق وتعليق القسم على أمر لا يمت إلى الزوجة أو للحياة الزوجية بصلة . والإسلام برىء من هذا كله أشد البراءة ، فالقرآن الكريم يوصى الرجال — وهم القوامون على النساء — بأن يعالجوا أمرهم بالحكمة والحزم .

«واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا» (النساء ٣٣) .

فمن واجب الرجل أن يلجأ أولا إلى الموعظة الحسنة ، فإن لم ينجح لجأ إلى عقاب مخفف ولا يلجأ إلى الضرب إلا إذا أعيته الحيل . .

ويشير القرآن صراحة إلى أن الوفاق بين الزوجين أمر يهم المجتمع الإسلامى كله ، وعلى المسلمين أن يحرصوا جهد طاقتهم ، حتى لا يستفحل الشقاق بين الزوجين .

« وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، أن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » . (النساء ٣٥) .

قال القرطبى فى تفسيره أن المخاطب فى قوله : « وإن خفتم » الحكام والأمراء : أى أن أولى الأمر فى المجتمع العربى يجب أن يبادروا بعلاج كل شقاق يظهر بين الزوجين ، وأن يعملوا جهد طاقتهم على إصلاح ذات البين ، والتوفيق بين الزوجين ، ومع التسليم بأن البت فى الأمر فى النهاية موكول إلى الرجل ، ومن حقه وحده ، فإن أصر على الطلاق فان إصراره نافذ بلا شك . غير أن هذه الآية تشير صراحة إلى أن هذا الإجراء الخطير لا بد أن تسبقه محاولات للإصلاح ، وأن أولى الأمر من واجبهم أن تتم هذه المحاولات .

كل هذا يشير صراحة إلى أن تعاليم الإسلام تحتم الحرص على كيان الأسرة وتحول جهد الطاقة دون تعرضها للتفكك والانهيار . ولهذا رأى بعض المسلمين أن من الإصلاح العاجل الذى لا بد منه ـ بعد كل ما حدث من العبث البعيد عن الدين — أن يتم الطلاق على يد القاضى . ويكون القاضى فى هذه الحالة هو الذى تتمثل فيه طبقة الحكام والأمراء ، الذين قال القرطبى أنهم هم المخاطبون فى قوله « وإن خفتم » فتتم إجراءات التحكيم ومحاولات الإصلاح ، التى نصت عليها الآية ، بإرشاد القاضى وتوجيهه ، فإذا أصر الزوج بعد ذلك على الطلاق كان له ما أراد ، ولا يملك القاضى الحق فى أن يثنيه عن عزمه . وفى حفظ حق الزوج على هذه الصورة ضمان بأنه يستطيع أن يحتفظ بما قد يتأذى من إفشائه من أمر ، وفى وسع الحكمين أن يمارسا عملهما فى سرية تامة ، فلا يكون هناك مجال لإفشاء سر لا ينبغى إفشاؤه ، وهو الاعتراض الأكبر الذى قال به المعترضون على الاحتكام للقاضى .

لقد نادى كثير من المصلحين بضرورة سن تشريع فى كل بلد إسلامى يحرم الطلاق إلا على يد القاضى ، حتى يتأكد أن كل الإجراءات التى أوصى بها الدين قد روعيت ، وأن الزوج لم يندفع فى الطلاق اندفاعا بتأثير انفعال وقتى سرعان ما يزول ، فيندم ولات ساعة مندم . ويحق للمرء أن يتساءل ماذا يكون الأثر إذا اضطر الرجل لأن يلجأ إلى بعض الإجراءات الرسمية لكى يعرض أمر الطلاق على القاضى ويحدد موعداً للجلسة. إن من الجائز أن هذا الإجراء قد يدعو إلى تهدئة الاضطراب النفسى وتلطيف حدة الأمر الذى دعاه إلى الالتجاء إلى الإجراء العنيف. فالأرجح أن كثيرا من طلبات الطلاق سوف « تسحب » لأن الأعصاب قد هدأت وثاب الرشد إلى النفوس .

ومما يؤسف له أن بعض الفقهاء اعترضوا على الالتجاء إلى القاضى فى أمر الطلاق ، بدعوى أن حق الزوج حق مطلق . فكان اعتراضهم هذا معطلا لسن مثل ذلك التشريع فى أكثر البلاد العربية . ورأى بعضهم أن إساءة استعمال الزوج لحقه فى الطلاق ، يكون جزاؤها فى يد المحاكم المدنية لا الشرعية . وهذا الرأى لم يؤخذ به أيضا .

وهنالك قطر عربى واحد ـ وهو الجمهورية التونسية ـ قد أقدم على سن قانون للأحوال الشخصية ، يتضمن إصلاحات بعيدة المدى ، كان لها دوى كبير فى العالم العربى . ولا نعدو الحقيقة إذا قررنا أن هذه الخطوة الإصلاحية

التونسية كان لها وقع حسن عند كثير من أبناء العالم العربى ، خصوصا أنها تمت بموافقـــة العلماء ورجال الدين ، وقد بدأ تطبيق ذلك القانون من أول يوم من يناير سنة ١٩٥٧ .

والمادة الثامنة عشر من هذا القانون تقول : إن تعدد الزوجات ممنوع ، ويعاقب من يتزوج بغير واحدة بالحبس عاما وبغرامة قدرها ٢٤٠٫٠٠٠ من الفرنكات أو بإحدى هاتين العقوبتين.

والمادة الثلاثون وما بعدها تنص على أن الطلاق لا يجرى إلا بين يدى القاضى ، ولكل من الزوجين أن يرفع طلبا بالطلاق . ولابد من رفع هذا الطلب إلى القاضى ، حتى ولو اتفق الزوجان على الطلاق سلفا . وعلى القاضى ألا يصدر حكما بالطلاق إلا بعد أن يستنفد جميع الإجراءات اللازمة لتنظيم الأمور المالية كالنفقة ومؤخر الصداق ورعاية الأطفال وتربيتهم .

بهـــذا القانون ، فتحت الجمهورية التونسية ـ فى أمر الطلاق ـ بابا عظيما لإصلاح شئون الأسرة والرجوع بها إلى الأصول الدينية السليمة ، بعد ما تعرضت له من العبث أجيالا طويلة . أما فى مسألة الاقتصار على زوجة واحدة فقد سبق لنـــا أن أبدينا وجهة نظرنا فيه .

إن الطلاق يقلب الصلات بين الرجال والنساء رأسا على عقب ، وبدلا من أن يكون بينهم « مودة ورحمة » تحل بينهم العداوة والبغضاء ، ويكيد كل من الفريقين للآخر أشد الكيد وتأخذ المرأة فى تعذيب مطلقها بمختلف الأساليب ، فلا بد له أن ينفق عليها حتى توفى عدتها ، وكذلك لا بد له أن يدفع نفقة متصلة لتربية الصغار وتنشئتهم وكثيرا ما تستمر هذه النفقة حتى بعد أن يكبر الأطفال ويتجاوزوا التاسعة من العمر ، إذا استطاعت الأم ـ وكثيرا ما تستطيع ـ أن تثبت أن مطلقها شرير فاسد لا يصلح لأن يعيش الأطفال فى كنفه ، ومن أيسر الأمور أن يؤتى بشهود يشهدون بصحة هذا الزعم . وفى وسط هذا النزاع المتجدد ، الذى لا يكاد يخبو حتى يشتعل ويضطرم ، وتضيع مصلحة الطفل ، وكثيرا ما تهمل تربيته وتعليمه لانشغال الأبوين بالمنازعات والمكائد . وهيهات أن يقال لهؤلاء الآباء والأمهات أن من حق كل طفل أن ينمو فى كنف أمه وأبيه ، وأنهما لو سلكا شرعة الإنصـاف ، لكان لهما من هذه الذرارى قرة عين ، ومبعث سعادة لا تعادلها سعادة .

ومن الخطأ أن يقال أن الطلاق مسألة شخصية لا تعنى أحدا غير الزوج ، إن مستقبل الأمة كلها مرتبط أشد الارتباط بتماسك الأسرة وبمتانة بنيانها . لذلك وجب على كل دولة عربية أن تجعل فى مقدمة ما تنشده من الإصلاح أن تعالج هذه المشكلة التى تهدد كيان المجتمع . وإما أن تعالجها بالصورة التى اتبعت فى جمهورية تونس ، أو على أى نحو آخر يشبه ما اتبع هناك .

ولنختم كلامنا على الطلاق بإشارة تبعث على القليل من الاطمئنان ، وهى أن الحالة العـــامة فيما يتعلق بكثرة الطلاق فى المجتمع العربى أخذت فى التحسن منذ زمن غير قليل . ومع أن اعتمادنا هنا هو على أرقام مستقاة من

الإحصاء الخاص بالأقليم المصرى عام ١٩٥٤ ، فإنه يدل فى الأرجح على الاتجاه السائد فى جميع أنحاء الوطن العربى . فمن الواضح لمن يطالع أرقام الإحصاء أن نسبة الطلاق فى تناقص مضطرد، فبعد أن كان العدد فى عام ١٩٤٤ يبلغ ٨٤٫٦٤٥ فإنه قد نقص فى عام ١٩٥٤ إلى ٥٩٫٥٨٠ ، هذا بالرغم من زيادة السكان ، وكذلك نقص الزواج فى تلك المدة . وبعض هذا النقص بل أكثره قد يرجع إلى نقص الطلاق ، لأن من استبقى زوجة ولم يلجأ إلى الطلاق ، ليست به حاجة إلى الزواج من جديد .

ولكن هذه الحالة لا ينبغى أن ترضينا ، وما ينبغى لنا أن نقنع بها ، بل يجب أن نسعى إلى ما هو أحسن ، وننشد هدفا أوفى إلى الكمال . فلا يزال عدد حوادث الطلاق كبيرا ، ويوشك أن يكون ثلث عدد عقود الزواج فى كل عام ، أى أن كل ثلاث زيجات يقابلها حادث طلاق ، وسيظل ربع المجتمع منكوبا بهذه الكوارث حتى تبذل الجهود الصادقة للنزول بحوادث الطلاق إلى أقل نسبة ممكنة .

تنظيم النسل :

لننتقل الآن إلى النظر فى أمر الأسرة من حيث عددها ، فان بداية الأسرة تتألف من المرء وزوجه ، أى من شخصين اثنين ، ولكن هذين الاثنين قادران إذا توافرت لهما الصحة والظروف المواتية أن يتزايد عددهما تزايداً مضطردا، بحيث لا تمضى عشر سنوات حتى تبلغ الأسرة عشرة أفراد . والمرأة التى تتزوج قبيل العشرين تظل قادرة على الإنجاب إلى ما بعد الأربعين ، إذا توافرت لها الصحة والقوة وليس بمستغرب عندئذ أن تنمو الأسرة إلى ما يقرب من العشرين إذا ترك الحبل على الغارب ، ولم تدرك الوفاة بعض أفرادها . ونظرا لأن مكافحة الأمراض والأوبئة بالوسائل العلمية الحديثة من أهم ما عنيت به الدولة فى كل قطر ، جاز لنا أن نتوقع أن ترك الحبل على الغارب خليق أن يجعلنا نصادف أسرا كبيرة العدد ، وهى إن لم تبلغ العشرين عادة فإنها لن تبعد كثيرا من هذا الرقم .

هذه الأسرة ذات العدد الكبير نصادفها عادة بين الطبقات الفقيرة ، أى ذات الدخل المحدود لأن الرعاية الطبية تقدمها الدولة لجميع الطبقات ويستفيد منها الجميع . ولذلك تنمو الأسر المحدودة الدخل نموا سريعا . غير أن الدولة وإن قدمت الرعاية الطبية من غير أجر أو لقاء أجر زهيد جدا فانها لا تقدم - وهيهات لها أن تقدم - الرعاية المالية والاقتصادية ، التى تساعد على تنشئة الأطفال وتغذيتهم وتربيتهم . ولهذا نرى أن هذه الأسر الكبيرة العدد تعيش فى ضنك مضطرد ، مسكنها ضئيل قليل النظافة ، وطعامها قلما يزيد على ما يمسك الرمق .

وإذا تساءلنا لماذا لا تعطى الدولة المال لرعاياها على قدر ما لهم من الأطفال، كان الرد على ذلك أن موارد الدولة ليس فيها ما يكفى ، وأنه ليس من العدل أن يؤجر امرؤ إلا بمقدار ما يعمل .

ومع ذلك فإن هناك دولة مثل فرنسا - ولعلها الوحيدة فى العالم التى أقدمت على هذه التجربة - عز على قادتها أن يظل السكان فيها لا يكادون يتجاوزون الأربعين مليونا ، وأمام العالم حروب ومنازعات، تقدم فيها الضحايا البشرية

بالملايين . فرأت من واجبها أن تشجع التناسل ، فوضعت نظاما يقضى باعانة كل أسرة تنجب ثلاثة أطفال فأكثر إلى ستة ، إعانة شهرية تقرب من العشرة جنيهات عن كل طفل ، أما بعد الطفل السادس فلا تمنح إعانة أخرى . فاستجاب الشعب الفرنسى — الشديد الولع بالدراهم ، إلى هذا النظام وبادر كل زوجين بانجاب ستة أطفال فى أسرع وقت ممكن . وبعد ذلك يمتنعان امتناعا تاما عن إنتاج الذرية الصالحة أو غير الصالحة . والذى يزور فرنسا اليوم لن يجد عناء فى التعرف على هذه الحقيقة . فان المساكن الفرنسية الصغيرة ، المؤلفة من أربع غرف ، والتى أراد منشئوها فى الأجيال السالفة أن تكون صالحة للأسرة الفرنسية ، على النظام القديم ، المؤلفة من زوجين وولدين ، قد أصبحت مكتظة تضيق بمن فيها . وقد أمكن لفرنسا أن تنفذ هذا النظام بزيادة الضرائب ، وبالمعونات الضخمة تأتيها من أمريكا وألمانيا لتقويم ماليتها ولترقية اقتصادها . وللدولة مصانع للسيارات تنتج المئات بل الآلاف من السيارات الصغيرة التى تناسب تلك الأسر المعانة . وقد أقبلت تلك الأسر على مشترى سيارات الدولة فكأن الدولة تأخذ باليسار ما أعطته باليمين ، وفوق ذلك لاشك أن الإعانات التى تسلمتها فرنسا وهى تقدر بآلاف الملايين من الدولارات ، ساعدتها كثيرا على تحسين اقتصادها وزيادة مواردها .

ومع ذلك فإن هذه الإعانات الاجتماعية السخية بالإضافة إلى البرنامج العسكرى والاستعمارى : قد أرهقت مالية الدولة ، وهى فى عهد برلمانها السابق ، فى حالة عجز عن فرض ضرائب جديدة ، لأن الشعب الفرنسى يسره أن يأخذ من الدولة ولا يسره أبدا أن يعطيها شيئا . وها نحن أولاء اليوم نسمع عن الحكام الجدد يعلنون عزمهم على تخفيض الإعانات .

ومما يسترعى الانتباه بوجه خاص فى هذا المشروع الفرنسى مسألة تحديد عدد الأطفال بحيث لا تمنح الإعانة إلا لستة أطفال فقط مهما كان العدد الذى أنجبته الزوجة . كما يسترعى الانتباه أيضاً أن استجابة الشعب الفرنسى لهذا الأمر كانت محدودة أيضاً بهذا العدد . فقلما تجد فى فرنسا من يتساهل ويأت بأطفال أكثر من الستة المذكورة — اللهم إلا أن يتمخض الحمل السادس عن توأمين ، وهذا بالطبع أمر نادر .

وهنا يعرض لنا سؤالان :

أولهما — لماذا قرر المشرع الفرنسى قصر الإعانة على ستة . إننا نفهم أن من يرزق طفلين اثنين لا يمنح إعانة ، لأن الغرض هو الإكثار من النسل ، ولكن لماذا تحديد العدد ما دامت الزيادة أمرا مرغوبا فيه ؟ ربما كان الرد على السؤال من شقين : الأول — أن موارد الدولة قد لا تتسع لكل هذا السخاء . وإلا اضطرت لتخفيض الإعانة على كل طفل ، فلا يكون هنالك الترغيب الكافى الذى يغرى الآباء والأمهات بتشجيع هذا المشروع . كذلك قدر أولو الأمر أن الإفراط فى زيادة النسل سيؤدى إلى مشروعات سكنية ضخمة ، لابد أن تتم بسرعة وكذلك منشئات تعليمية وتربوية وصحية ونحو ذلك مما لا يقع تحت حصر . ولا يريد أولو الأمر أن يفلت الزمام من يدهم . إنهم يريدون زيادة الأطفال طبقا لخطة مرسومة موضوعة ، فالمشروع عبارة عن تطبيق لفكرة « التخطيط » (Planning) على إنجاب الذرية الصالحة ، وربما كان أولو الأمر ينظرون أيضاً إلى الموضوع من ناحية أن الإفراط

فى التناسل سيؤدى إلى اعتلال فى صحة الأم ،وفقد الهناءة المنزلية ، وقلة العناية بالأطفال . فكان لابد لهم أن يرسموا خطة وسطا بين الإفراط والتفريط ، فهداهم بحثهم إلى أن ستة أطفال هى الوسط المحمود بين طرفين مذمومين .

أما السؤال الثانى ، فهو : كيف أمكن للشعب الفرنسى أن يستجيب للمشروع بهذه الدقة ؟ فيسير الزوجان فى الإنجاب على خطة لا تكاد تتغير ، وتؤدى دائما إلى الغرض ؟ فلا يكاد شهر العسل أن ينقضى حتى تظهر بشائر الطفل الأول ، ولا يكاد هذا الطفل الأول أن يقطع بضعة أشهر من عمره المديد إن شاء الله حتى تظهر بشائر الطفل الثانى ، إن الطفلين الأولين لايكافأ عليهما الوالدان ولا تمنح عنهما إعانة ، حتى يجىء الثالث . ولذلك لابد من بذل الهمة حتى تنتهى هذه المرحلة فى أسرع وقت ممكن . ولا يلبث فى العام الرابع للزواج إن يجىء الثالث ، فتمنح الإعانة عن الأطفال الثلاثة ، ويزداد الدخل مرة واحدة بنحو الثلاثين جنيها شهريا ، ويبادر الأب فيشترى السيارة بالتقسيط،وبذلك أصبحت فرنسا من أكثر بلاد العالم فى عدد السيارات . بعد ذلك يجىء الطفل الرابع ثم الخامس والسادس فى شىء من التريث أحيانا،وبنفس السرعة أحيانا ؛ فكيف أمكن للشعب الفرنسى أن يستجيب للمشروع كله بمثل هذه الدقة ؟

والرد على السؤال يوشك أن يكون من البديهيات،وهو أن الشعب الفرنسى يمارس « تنظيم الأسرة » وقد تعود على هذا التنظيم منذ زمن غير قريب . . وكانت العادة فيما مضى أن يتجه التنظيم إلى الاكتفاء بطفلين اثنين ، وذلك لرغبة الزوجين فى استبقاء جمال المرأة ، وتوفير المال اللازم للتربية والتعليم ، وللمحافظة على ثروة الأسرة ، حتى لاتضيع بالتقسيم بين عدد كبير من البنين والبنات . أما الآن فقد تبدلت الحال ، هناك عناية بصحة الحامل والأم أكثر مما كان معروفا من قبل ، وهناك مورد عظيم من المال يسيل له اللعاب الفرنسى ، فلا بأس إذن من الزيادة ، بالمقدار الذى يتمشى مع الإعانة، والخطة واحدة فى كلا الحالين ، وهى إخضاع النسل إلى مقتضيات الحالة الاجتماعية أو بعبارة أخرى إخضاعه لإرادة الوالدين .

هذا الإجراء هو الذى يطلق عليه أحيانا اسم ضبط الولادة (Birth Control) أو تنظيم العائلة (Family Planning) وقد مارس الفرنسيون ذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر قبل أن توجد تلك المصطلحات. كما عرفه ومارسه الغرب منذ زمان بعيد ، غير أن السبب الذى يرد إليه نجاح المشروع الفرنسى هو أن فرنسا مفتقرة إلى المزيد من السكان ، ومواردها الاقتصادية الضخمة فى حاجة إلى المزيد من الأيدى العاملة.وكانت فرنسا إلى وقت قريب هى البلد الأوربى الوحيد الذى يهاجر إليه العمال ، إما بصفة دائمة ، أو فى مواسم خاصة كل عام . فيهاجر إليها البلجيكون فى الإقليم الشمالى للعمل فى المناجم والمصانع ، وكثير منهم يعود آخر النهار إلى وطنه فى بلجيكا . ويهاجر إليها الإيطاليون وعلى الأخص فى الإقليم الجنوبى الشرقى ، وفى مدينة ليون ، بل وصل زحفهم إلى باريس أيضا . كما يهاجر الإسبان فى الجنوب الغربى فى موسم الزراعة للمساعدة فى الأعمال الزراعية .

ففرنسا إذن فى حاجة حقيقية إلى المزيد من الأيدى العاملة ، ويحق لها أن تبذل الجهد والمال حتى تتوافر لها

تلك الأيدى من أبنائها . وهى مع ذلك تسير فى تشجيع الزيادة فى السكان طبقا لخطة موضوعة مرسومة ، وتلتزم ، فرنسا مبدأ التخطيط فى عدد الأطفال ،لأن هذا المبدأ أصبح شيئا مقررا فى جميع البلاد المتمدنة .

فسياسة ترك الحبل على الغارب لم يعد يقول بها أحد ، لأنها تؤدى حتما — حتى فى البلاد ذات الموارد العظيمة — إلى التدهور فى صحة الأم ، وإلى الجهد والمشقة فى حياة الأسرة ، والهبوط بمستواها عن المستوى البشرى المقبول فى تلك البلاد ، وقد التزم المشرع الفرنسى المبدأ المقرر لدى المصلحين الاجتماعيين منذ زمن طويل ، وهو أنه مهما كانت زيادة السكان أمرا مرغوبا فيه ، فان هذه الزيادة يجب أن تكون باعتدال . وقد أخذت جميع الدول فى أوربا وأمريكا بمبدأ تنظيم النسل ، كما أخذت حديثا الهند والصين واليابان — كوصيلة للترفيه عن الأسرة — وتمكن جميع أفرادها من التمتع بنعم التغذية والمسكن والتعليم والعناية الصحية .

ويتم تنظيم الأسرة بتنظيم الولادة بحيث تجىء على فترات طويلة ، تستريح فى أثنائها الأم وتسترد ما فقدته من قوة وصحة . فإذا رأى الزوجان أن مواردهما لم تعد تتسع للمزيد من الأطفال امتنعا عن إنجاب النسل ، واتبعا فى ذلك الوسائل الطبية السليمة حتى لا يعترض عليها من الوجهة العلمية أو الدينية[1].

الناحية الدينية لتنظيم الأسرة :

ونظراً لأن رجال الدين فى بعض جهات أوربا وأمريكا قد اعترضوا أول الأمر على تنظيم النسل ، ولقى المصلحون فى انجلتره وأمريكا بعض العنت والمشقة فى نهاية القرن الماضى وأول القرن الحالى ، فيجدر بنا أن نشير إلى موقف الإسلام من هذا الموضوع ، بحسب ما صادفنا من آراء العلماء على اختلافهم .

كنت ألقى دروسا فى مسائل السكان على طلاب التجارة العليا فى عام ١٩٣٥ وأشرت إلى مايبدو من قلة نمو السكان فى معظم جهات أوربا واستراليا وأمريكا وغيرها ، وأن ذلك يرجع إلى سياسة تنظيم النسل المتبعة بتوسع فى تلك الجهات ، ثم أشرت إلى موقف رجال الدين بين الحظر والإباحة . وإلى أن بعض أولى الرأى فى (الأقليم المصرى) يرون أنه قد آن الأوان لأن ينهج هذا المنهج .

وبعد أيام قلائل جاءنى أحد طلابى وناولنى فتوى صريحة فى هذا الأمر بخط المغفور له الشيخ حسن البنا .. (فى ٢٤ رمضان ١٣٥٢) وهذا نصها :

---

(١) لاحاجة بنا لان نشرح تلك الوسائل . تراجع خطبة الدكتور نجيب محفوظ فى الموسم الثقافى (١٩٥٥/٥٤) — وزارة الشئون الاجتماعية . كذلك كتاب (منع الحمل) للدكتور محمد فتحى — مكتبة النهضة —

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

« حكم إيقاف الحمل »

الأصل فى الدين الحث على الزواج والتناسل ، لأن فى ذلك تقوية الأمة وكثرة النوع وبقاءه ، والأدلة على ذلك كثيرة لا حاجة إلى ذكرها ، وحسبنا منها قول النبى صلى الله عليه وسلم تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة . وقوله سوداء ولود خير من حسناء عقيم .

فإذا طرأ من الأسباب القوية ما يدعو إلى تقليل الحمل أو إيقافه فترة من الفترات كضعف الزوجة أو تقارب مسافة الحمل بما لا يترك فرصة للرضاع أو مشغولية الوالد عن واجب التربية أو نحو ذلك ، جاز أن تتعاطى المرأة ما يؤدى إلى هذا الإيقاف .

والدليل عليه ما ورد من جواز « العزل » وهو النزع قبل الإنزال رغبة فى عدم الحمل . عن جابر رضى الله عنه قال كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) والقرآن ينزل لو كان شىء ينهى عنه لنهانا عنه القرآن — رواه البخارى ومسلم .

وعن جابر أيضا فى رواية لمسلم « فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا عنه » ويستحب أن يستأذن الرجل زوجته الحرة فى العزل وأن تكون راضية عن تعاطى هذا الدواء فى الإيقاف لا مكرهة عليه لأن الأمر شركة بينهما وكما روى عن عمر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها ـ رواه الإمام أحمد وابن ماجة ، وفى ذلك ما فيه من تقدير للمرأة ومراعاة للشركة التى بين الزوجين فى شئون الزوجية .

والقول بجواز العزل هو رأى على كرم الله وجهه وسعد بن أبى وقاص وأبى أيوب الأنصارى وزيد بن ثابت وجابر وابن عباس والحسن بن على وخباب بن الأرث وسعيد بن المسيب وعطاء والنخعى ومالك والشافعى وبه أفتى الأمير الصنعانى فى كتابه سبل السلام وقاس عليه تعاطى الأدوية لإيقاف الحمل وإسقاط الجنين قبل أن يتخلق أما إذا تخلق فهو جريمة محرمة .

هذا وتجب الدقة فى مراعاة هذا الإيقاف من أجل صحة المرأة ومصلحة الأمة وتوفر الأسباب الداعية إليها وقوتها ، فان القاعدة الأصلية فى الدين الإكثار من النسل وتفويض الأمر إليه تبارك وتعالى والله أعلم .

وقد علمت بعد ذلك أن هذه الفتوى لم تكتب إلا بعد جلسة عامرة حضرها كثير من العلماء بأصول الدين والسنة .

ولما اطلع بعض إخوانى على هذه الفتوى، طلبوا منى أن أسعى فى استصدار فتوى من فضيلة مفتى الديار المصرية فى ذلك الوقت ، وهو المغفور له الأستاذ الفاضل العالم الشيخ عبد المجيد سليم .

فوجهت إلى فضيلته السؤال الآتى .

ما قول فضيلتكم فيما يأتى :

رجل متزوج رزق بولد واحد ، ويخشى أن هو رزق أولادا كثيرين أن يقع فى حرج من عدم قدرة على تربية الأولاد والعناية بهم ، أو أن تسوء صحته بضعف أعصابه من تحمل واجباتهم ومتاعبهم ، أو أن تسوء صحة زوجه لكثرة ما تحمل وتضع دون أن يمضى بين الحمل والحمل فترة تستريح فيها وتسترد قوتها .

فهل له — أو لزوجته — أن يتخذ بعض الوسائل التى يشير بها الأطباء ليتجنب كثرة النسل ، بحيث تطول الفترة بين الحمل والحمل ، فتستريح الأم ولا يرهق الوالد ؟

فأجاب فضيلته :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده :

اطلعنا على هذا السؤال ، ونفيد بأن الذى يؤخذ من نصوص فقهاء الحنفية أنه يجوز أن تتخذ بعض الوسائل لمنع الحمل على الوجه المبين فى السؤال ، كإنزال الماء خارج محل المرأة ، أو وضع المرأة شيئا يسد فم رحمها لمنع وصول ماء الرجل إليه . وأصل المذهب أنه لا يجوز للرجل أن ينزل خارج الفرج إلا بإذن زوجته كما لا يجوز للمرأة أن تسد فم رحمها إلا بإذن الزوج . ولكن المتأخرين أجازوا للرجل أن ينزل خارج محل المرأة بدون إذنها إن خاف من الولد السوء لفساد الزمان ، قال صاحب الفتح « فليعتبر مثله من الأعذار مسقطا لإذنها » انتهى والظاهر من عبارة « فليعتبر مثله من الأعذار مسقطا لإذنها » إن مثل خوف السوء من الولد لفساد الزمان ما كان مثل ذلك من الأعذار ، كأن يكون الرجل فى سفر بعيد ويخاف على الولد . وقياسا على ذلك ما قالوه ، قال بعض المتأخرين أنه يجوز للمرأة أن تسد فم رحمها بدون إذن الزوج إذا كان لها عذر فى ذلك . وجملة القول فى هذا أنه يجوز لكل من الزوجين برضا الآخر أن يتخذ من الوسائل ما يمنع وصول الماء إلى الرحم منعا للتولد . ويجوز على رأى متأخرى فقهاء الحنفية لكل من الزوجين أن يتخذ من الوسائل ما يمنع وصول الماء إلى الرحم بدون رضا الآخر إذا كان له عذر من الأعذار التى قدمناها أو مثلها . . .

وبما ذكر علم الجواب عن السؤال حيث كان الحال كما ذكر به . هذا ما ظهر لنا والله سبحانه وتعالى أعلم .

رأى الغزالى :

وقد عالج كثير من الفقهاء المسلمين هذا الموضوع ، ولا يتسع المقام لسرد الكثير من آرائهم ، وحسبنا هنا أن نشير إلى رأى الإمام الغزالى حجة الإسلام والعلامة الضليع ، كما ورد فى الجزء الثانى من كتابه إحياء علوم الدين قال مشيرا إلى آداب معاشرة المرء لزوجته : « فاذا عزل فقد اختلف العلماء فى إباحته وكراهته على أربع

مذاهب ، فمن مبيح مطلقا لكل حال ، ومن محرم بكل حال . ومن قائل يحل برضاها ولا يحل دون رضاها ، وكأن هذا القائل يحرم الإيذاء دون العزل ، ومن قائل يباح فى المملوكة دون الحرة . والصحيح عندنا أن ذلك مباح » .

وأشار الغزالى إلى قول ابن عباس أن العزل هو الوزر الأصغر ، فقال إن هذا قياس ضعيف ، ولذلك أنكره عليه على رضى الله عنه لما سمعه وقال : لا تكون موءودة إلا بعد سبع أى بعد سبعة أطوار ، وتلا الأطوار الواردة فى الخلقة ، وهى قوله تعالى : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . . إلى قوله ثم أنشأناه خلقا آخر ، أى نفخنا فيه الروح .

ثم أشار إلى الزعم بأن العزل وإن لم يكن مكروها لذاته ، قد يكره لأجل النية الباعثة عليه فقال : النيات الباعثة على العزل خمس . .

١ — الأولى — فى السرارى وهو حفظ الملك عن الهلاك باستحقاق العتاق ، وقصد استبقاء الملك بترك الإعتاق ودفع أسبابه ليس منهيا عنه .

٢ — الثانية — استبقاء جمال المرأة وسمنها لدوام التمتع ، واستبقاء حياتها خوفا من خطر الطلق . وهذا أيضا ليس منهيا عنه .

٣ — الثالثة — الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد ، والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب ودخول مداخل السوء . وهذا أيضا غير منهى عنه ، فإن قلة الحرج تعين على الدين . نعم الكمال والفضل فى التوكل والثقة بضمان الله حيث قال وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها . ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الأفضل ، ولكن النظر إلى العواقب ، وحفظ المال وادخاره مع كونه مناقضا للتوكل ، لا نقول أنه منهى عنه .

٤ — الرابعة — الخوف من الأولاد الإناث ، لما يعتقد فى تزويجهن من المعسرة ، فهذه نية فاسدة .

٥ — الخامسة — أن تمتنع المرأة لتعززها ومبالغتها فى النظافة والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع وكان ذلك عادة نساء الخوارج . . . فهذه بدعة تخالف السنة فهى نية فاسدة .

والذى يعنينا فى بحثنا هذا هو الأمر الثانى والثالث . لأنهما أهم ما يدعو الرجل والمرأة إلى الاقتصاد فى النسل ومن أعجب ما فى هذا الفصل إشارة الغزالى إلى الإقلال من النسل كوسيلة للمحافظة على جمال المرأة . فإن هذا أدنى إلى تفكير رجل من علماء الاجتماع ، الحريصين على استبقاء أسباب الحب والمودة بين المرء وزوجه .

هذه خلاصة رأى بعض فقهاء المسلمين النابهين ، فى الموضوع الخطير . ونظراً لأن العبرة فى هذه الآراء الفقهية بالاجتهاد ، فإن من السهل على أى إنسان أن يعبر عن رأى يخالف ما رآه الغزالى أو عبد المجيد سليم أو حسن البنا أو غيرهم من الفطاحل الأعلام حتى ولو لم يكن ذلك الإنسان من العلماء أو النابهين ، لذلك لم يكن باعثا على الدهشة

أن دار بعض الجدل حول هـــذا الموضوع فى الصحف المصرية سواء فى عام ١٩٣٧ على أثر صدور فتوى الشيخ عبد المجيد سليم ، أو فى السنوات الأخيرة حين أصبح موضوع تنظيم الأسرة أو تحديد النسل من الموضوعات التى خاضت فيها مئات الأقلام .

ومع ذلك فإن هذا الجدل كانت له فائدة لأنه أظهر بعض نواح فى هذا الموضوع لم تكن واضحة كل الوضوح ، فإن للموضوع جانبين يجب أن نتبين كلا منهما على حدة ، حتى ولو كنا من القائلين بأن بينهما ارتباطا شديدا .

فإن مسألة اتخاذ وسائل لمنع الحمل أو لتنظيمه على فترات تطول أو تقصر ، مسألة تناولها الكتاب والعلماء من ناحيتين :

الأولى هى الناحية الفردية — أو إن شئت سميتها الزوجية ، التى تتصل مباشرة بحالة الزوجين ونظام معيشتيهما ، ورغبتهما التى تنبعث من حالتهما الخاصة ، هذا رجل يهمه أن تحتفظ زوجه بجمالها ورونقها وصحتها ، وذاك رجل رزق عددا من الأطفال ويرى أن هذا أقصى ما يستطيع أن يعول ويربى . وآخر يرى أن الطلق مجهد أو خطر قد يودى بصحة زوجه بل بحياتها ، ويكتفى بما رزقه الله من ذرية قد لا تزيد على طفل أو طفلين .

هذه الناحية الشخصية الصرفة الخاصة بالرجل وزوجه وظروفهما ، هى فى نظر بعض العلماء التى عناها الغزالى ، والتى أفتى فيها العلماء والفقهاء بالإباحة . فكل مسألة تعالج بحسب الاعتبارات التى تغلب عليها . وللزوجين أن يتصرفا فيها بما فيه مصلحتهما ومصلحة الأسرة التى يريدان بناءها . وهذا الأمر فى نظرها لا غبار عليه .

إن علماء الطب مجمعون على أن عملية الولادة مرهقة للأم غاية الإرهاق ، وهى أشد إرهاقا لبعض النساء منها للبعض الآخر ، ولكنها مرهقة على كل حال . ولا بد للأم أن تستريح بين الولادتين فترة من الزمن ، تطول أو تقصر حسب حالتها الصحية والجسدية ، ولا بد للزوج أن يراعى ذلك ، ناهيك بما فيه من إفساح المجال لتغذية الطفل والعناية به عامين أو ثلاثة دون أن يزاحمه فى عناية أمه طفل آخر . والزوج الذى بينه وبين زوجه مودة ورحمة لا بد له أن يضطلع بنصيبه فى هذه الخطه التى تحفظ لزوجه صحتها وجمالها وتساعد فى تربية الأطفال وتنشئتهم . وفى القرآن الكريم ما يفيد إيثار مصلحة الأم والأب بحيث لا ينالهما الضرر من أجل الأطفال : « لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » (سورة البقرة ٣٢) .

هذه هى الناحية الخاصة للموضوع ، التى يقر الجميع أو الكثرة العظمى من المفكرين ، بوجاهتها . وهى على كل حال تفيد أن مسألة الولادة وتنظيمها أمر يجب أن يعرفه الزوجان وأن يرسما على أساسه لحياتهما الخطة التى تتفق مع حالتهما الخاصة .

أما الناحية الثانية التى تعرضت لنقد بعض فقهائنا ، فهى الناحية العامة ، التى لا تنبعث من حالة الفرد الخاصة ، بل يراد بها النظر إلى عدد السكان فى بلد من البلاد أو قطر من الأقطار ، حيث يقال إن القطر بات مكتظا بالسكان

وإن عددهم زاد عما تتسع له موارد القطر ، وانحط مستوى معيشتهم إلى درجة الكفاف ، وإن تزايد السكان من الكثرة فى القطر حتى لا تستطيع الدولة أن تجد المال لتعليم أبنائها ، لأن البلد الذى ينمو بمقدار نصف مليون أو ثلاثة أرباع المليون فى كل عام لا يمكن لأية حكومة محدودة الموارد أن تجارى بخدماتها هذا النمو السريع فيظل الجهل والفقر والمرض وما يتبعها من الإجرام والتشرد والبؤس مخيما على الأمة ، واضعا من قدرها بين الأمم ، ملزما لها أن تظل عاجزة عن النهوض ، ولعجزها هذا استطاع من هو أقل منها عددا أن يفوز وأن ينتصر ، وأن تظل عاجزة متأخرة .

فإذا قام بعض المصلحين مناديا بأن البلاد لا ينقذها إلا الاعتدال فى نمو السكان فيها بحيث يكون أقل درجة مما هو اليوم ، وأنه لا بد لتحقيق ذلك من تنظيم النسل أو تحديد النسل ، حتى يكون نمو السكان متمشيا مع نمو الموارد، لقى هذا النداء اعتراضات من بعض الفقهاء وبعض الكتاب ، فيقول الأولون أن هذا يخالف ما جاء فى الحديث الشريف « تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » مع أن البعض يرى أن التفسير الصحيح لهذا الحديث هو أنه يشير إلى التناسل باعتدال ، إذ لا يتصور عاقل أنه عليه السلام يباهى بأمة غارقة فى الجهل والفقر والمرض ، بل بأمة تمتاز بالعلم والصحة والقوة .

على كل حال إن هذه الناحية العامة التى ينظر فيها إلى القطر كله وإلى مشكلة ازدحام السكان فيه ، هى التى لقيت اعتراضا من بعض المتزمتين من الفقهاء والكتاب . وبعض هؤلاء يرى معالجة مشكلة ازدياد السكان بالهجرة والتصنيع ، وليس فى هذا الاقتراح شىء جديد وقد بحث ودرس . وتبين منه أن سكان بلد كمصر مكتظ بأكثر مما يتسع له موارده من السكان ، ومع ذلك يفضل سكانه الفقر على المهاجرة . ومن المعروف المشاهد أن المصرى بطبعه شديد الزهد فى الهجرة حتى فى الانتقال من محافظة إلى محافظة أخرى ، اللهم إلا أن يكون الانتقال إلى العواصم التى لها جاذبية خاصة ، وفوق ذلك فليس هنالك أقطار ترحب بهذه المئات بل الآلاف المؤلفة ، الذين يزداد بهم عدد السكان كل عام، سواء أكانت تلك الأقطار شقيقة أو غير شقيقة .

أما التصنيع فقد درس هذا الموضوع أستاذ علامة فى مجلس الخدمات ، وقرر بما لا يدع مجالا للشك أن أقصى ما يمكن أن يعمله التصنيع هو إنشاء المعامل والصناعات كل عام فى الأعوام العشرة المقبلة بدرجة تستوعب ٥٠٫٠٠٠ من الأيدى العاملة فى كل عام ، مع أن زيادة السكان فى كل عام تبلغ الآن ٦٥٠٫٠٠٠ وهى آخذة فى الزيادة عاما بعد عام .

وقد أدركت حكومة الثورة أن هناك مشكلة للسكان ، وأن تحديد النمو أمر لا مفر منه ، ولكن من الجائز أنها أمام إرجاف المرجفين ، رأت أن تسير فى الأمر بتؤدة ، فاكتفت بإنشاء وحدات قلائل لمساعدة الأمهات فى برنامج ضيق المدى محدود الأثر .

وبعد فإن موضوع اليوم هو تنظيم الأسرة وأهميته فى رفاهية البيت العربى ، فهو أدنى إلى الناحية الخاصة التى

أشرنا إليها ، والتى ليس عليها اعتراض خطير من ناحية رجال الدين ، وهى تهم البيت العربى فى كل قطر — سواء أكان ذلك فى بلد كمصر الشديدة الازدحام بالسكان ، أو فى بلد كالعراق لا يزال يتسع لأضعاف ما به من السكان — فمسألة رفاهية الأسرة واحدة فى جميع الأقطار العربية ، ولا بد لتلك الرفاهية أن تلجأ الأسرة إلى تنظيم الولادة ، بوصفها جزءا لا يتجزأ من الرعاية الصحية والاجتماعية .

وعلى وزارات الصحة والشئون الاجتماعية فى كل قطر أن تولى هذا الأمر جل اهتمامها ، وأن تجعل من مراكز رعاية الطفل فيها دورا لإرشاد الأمهات . مع تنظيم حلقات لإرشاد الآباء أيضا . ولكى تؤدى مراكز رعاية الطفل وظيفتها على الوجه الأكمل لا بد أن يستخدم فيها أطبـاء ومدرسات ومولدات ممن درسوا مسائل تنظيم الولادة دراسة علمية عملية ، واطلعوا على أحدث المعلومات فى هذا الموضوع

أما إنشاء مستوصفات للاستشارات الخاصة بمسائل التناسل وتنظيمه ، فإنها لازمة لبلد مكتظ كالإقليم المصرى ، ولا بد أن تتولى إدارة هذه المستوصفات طبيبات ، اكتسبت كل منهن تدريباً خاصاً فى هذا الغرض . أما البلاد القليلة الازدحام ، فيكفيها أن تتولى هذا الأمر مراكز رعاية الأطفال .

مؤسسات التوجيه الأسرى

كوسيلة للمعاونة من حل مشاكل البيت العربى

للأستاذ مصطفى السلمانى
(الجمهورية العربية المتحدة)

للبيت العربى تقاليده وأوضاعه التى تميزه عن غيره من البلاد الغربية، والعلاقات والروابط التى تقوم بين أفراده تكاد تختلف فى كثير عن تلك العلاقات التى تقوم بين أفراد البيت الغربى . فالروابط القوية والعلاقات المتينة التى تربط بين أفراد البيت العربى أصبحت من الميزات التى يتميز بها ، ويتمنى الكثير من علماء الاجتماع فى الغرب أن لو تمتع البيت الغربى بما نتمتع به فى بلادنا من هذه الروابط القوية ، فهى صمام الأمن ومحور الضمان والطمأنينة لكل عضو فى بيته ، تحميه من غدر الزمان وتقوى ساعده فى كفاح الحياة نحو المجد والسعادة وتعينه على تحمل أعبائها وتساعده على حمل شدائدها .

والروابط التى تقوم فى البيت العربى أنواع مختلفة وعديدة وهى فى ذلك تكاد تختلف عن مثيلاتها فى البيت الغربى . فهناك الرابطة التى تقوم بين الزوج وزوجته والروابط التى تقوم بين كل من الزوجين وكليهما مع أولادهما وأيضا توجد الروابط التى تربط بين هؤلاء جميعا وغيرهم من أفراد البيت من الجدود وأبناء العمومة وغيرهم حيث تمتد علاقات البيت العربى إلى حدود بعيدة يعتبر فيها الجميع وحدة متعاونة متضامنة متماسكة يمثلها أكبرهم سنا ويدين له الجميع بالاحترام والطاعة ، ولو كانوا فى غير حاجة مادية له فإنهم قد يكونون فى حاجة روحية لرضاه ورعايته .

على أننا فى هذا المقام لن نعالج إلا العلاقات التى تقوم بين الزوجين أو كليهما أو كلا منهما مع أولادهما فى شكل مباشر ولا نتعرض للعلاقات الأخرى إلا إذا مست واتصلت بطريق مباشر أو غير مباشر هذه العلاقات التى تعنينا ، وعند ما يكون لها تأثيرها فيما يبديه كل من الزوجين من سلوك واتجاهات فى علاقاتهما الزوجية والأسرية.

والعلاقة التى تقوم بين الزوجين أساسها الزواج الذى يتم بينهما ، والزواج كما هو معلوم هو النظام الذى ترتضيه جميع الأديان سبيلا مشروعا لقيام الأسرة، والعلاقات الزوجية هى النواة التى تبنى حولها وفى كنفها صلات أخرى من نسب وبنوة ، وهى فى مجموعها تعتبر كيان البيت أو العائلة .

والزواج عبارة عن اتحاد أو اندماج شخصين، رجل وامرأة ، لكل منهما صفاته المميزة الفردية ، وهى على هذا الوصف تعنى أن لكل من الرجل والمرأة ما يتميز به عن الآخر . بحكم أن كلا منهما قد نشأ مستقلا عن الآخر فى بيئته أو متأثرا بظروف وبعوامل تختلف عن تلك التى تأثر بها الطرف الآخر . فأصبح لكل منهما شخصية تميزه وأصبح لكل منهما نمط فى الحياة قد يختلف عن غيره . والاختلاف بين الناس أمر طبيعى يجب أن يتقبله الناس

جميعا، وهو بين الأزواج أوجب ما يكون قبولا فيما بينهم، فالعلاقات الزوجية لا تسير سليمة إلا على أساس من التوفيق والانسجام فيما بين الأزواج .

وهناك ما يدفع الناس للزواج، ولتكوين البيت ، والعوامل التى تكون هذا الدافع ثلاثة هى :

(١) الرغبة فى إيجاد شريك يمكن أن يسكن إليه ويطمئن ، على أساس من التعاون والمحبة والتراحم بين الزوجين .

(٢) الرغبة فى إشباع جنسى مشروع يرضى به الدين ويقره المجتمع .

(٣) العمل على حفظ النوع البشرى بالتوالد الذى تؤدى إليه العلاقة الجنسية بين الزوجين .

وقد يكون من العسير أن نغلب عاملا على آخر من هذه العوامل لتبيان أهميته فى قيام الحياة الزوجية أو قوته فى كيان البيت الذى هو عش الزوجية ، ولكن يجب أن يوضع فى الاعتبار أنه لابد من تحقيق النجاح فى العلاقات الزوجية من توافر أمرين جوهريين :

(ا) أن يكون هناك فهم واضح للحقائق المادية التى يتضمنها الاتحاد والاندماج بين الرجل والمرأة اللذين يجمع الزواج بينهما .

(ب) أن يكون للنواحى المعنوية نظرة ثابتة عميقة لكل من يريد أن يكون زوجا صالحا أو زوجة صالحة .

ونجد نتيجة لذلك أن الحياة الزوجية لكى تسير سيرا سهلا هادئا يجب أن تقوم بين الزوجين علاقة رفيعة روحية وذهنية كى تصل بالزوجين نحو السعادة وتبعدهما عن مناحى المتاعب والمصاعب، وأن يختار كلاهما القيم الروحية التى يؤمن بها لأنها ستكون عماد هذه العلاقة بينهما . على أنه يشترط أن يقوم تكيف جسمى أساسه الإشباع الجسمى بجانب نواحى مادية أخرى وخصوصا فى بدء الحياة الزوجية عندما لايكون قد نما بين الزوجين هدف قوى مشترك بعد . على أنه يمكن أن يقال بصفة عامة أن الزواج فن يقوم على أساس انسجام وتوافق جسمى وعقلى وروحى .

وظيفة الأسرة والدور الذى يقوم به كل عضو لنجاحها :

للأسرة وظيفة دقيقة وعليها تلقى مسئوليات ضخمة ، وتتطور هذه المسئوليات بتطور الحضارة والمدنية التى تعيش فى كنفها . وتواجه الأسرة مسئولية ضخمة فى تنشئة أفرادها وتكوين شخصياتهم فى محيط من الأمن العاطفى وفى هدى من حدبها عليهم وتوجيههم . وتنال عمليه تربية الأطفال وتنشئتهم اهتماما خاصا لدى

الأب والأم ليكون الطفل فى مستقبله فردا اجتماعيا مثقفا واعيا ليصبح عضوا نافعا فى مجتمعه .

هذا ويمر الزواج فى فترات نموه ونضوجه على مراحل تطور ثلاث :

(١) مرحلة الشباب ، وهى التى تبدأ ببدء الحياة الزوجية .

(٢) مرحلة متوسطة ، وذلك عندما تبدأ الأسرة فى تحمل عبء تربية الأولاد وتنشئتهم

(٣) مرحلة أخيرة ، وذلك عندما يكبر الزوجان ويكبر أولادهما ويتجهان للتقاعد .

والزوجان فى هذه المراحل يقومان بمجهود كبير يبدأ أولا فى سبيل إيجاد التكيف فيما بينهما كى يتوافق كل منهما مع الآخر ، ويتأتى ذلك على أساس تفاعل شخصيتهما تفاعلا إيجابيا فى سبيل توافقهما وتحقيق الحياة فيما بينهما ، فيتقبل كل منهما الآخر بما فيه من اختلاف عما هو فيه وعما كان يتوقعه ، على أساس من طبيعة الاختلاف بين الناس ، ويقتضى هذا التفاعل مواجهة القوى والضغوط المختلفة التى تعترض حياة الزوجين ومقاومتها وهى ضغوط قد تؤدى إلى بعض الآلام وتصاحب التطور الذى تمر به الأسرة فى تزايد مسئولياتها السريع وتحتاج كلها إلى مقدرة على تحملها وخبرة لتقدير ما يتوقع من مسئوليات جديدة وفهم للطريق التى يسيران فيها ، بل عندما تنتقل الأسرة من مرحلة إلى مرحلة فى إنجاب أطفال وتنشئتهم يجب أن يكون معلوما أن ذلك يلقى مسئوليات ضخمة على الوالدين كى يساهم الأطفال بأدوار فعالة مجدية فى هذه الحياة الأسرية عندما يكبرون ويصبحون قادرين على أداء الأدوار المتوقعة منهم .

ويعتبر الزواج ناجحا عندما يقوم كل عضو فى الأسرة — بالغا أو طفلا ذكرا أو أنثى — بوظيفته ويجد من الأمان والقبول والفرص ما يساعده على تحقيق دوره كعضو فى تلك الأسرة ويتقدم بنصيبه على أساس من الكمال والصلاحية . وينتقل من دور لدور حسب ما تلزمه واجباته فيه بنجاح ويشترك الجميع فيما يحقق النجاح المنشود . والأسرة الناجحة اليوم هى مجموعة من أفراد قادرين على التجديد واكتشاف سبل الأداء واكتمال مسئولياتهم المتزايدة .

وبذلك يمكن أن يلخص تعريف الأسرة الناجحة فيما يلى :

(١) هى التى تشجع وتعاون أفرادها لتحقيق مسئولياتهم الفردية المتطورة .

(٢) ثم يصبح أفرادها قادرين على تحمل المسئوليات المشتركة فى تطور الأسرة وفى كل مرحلة من مراحل نموها بقدر نصيب يتناسب مع قدرة كل منهم .

والسعادة والرفاهية التى يمكن أن تسود الحياة الزوجية ، وحكمة كل من الزوجين ستحدد جميعها إلى حد كبير

مقدار المساهمة التى يمكن أن يساهم بها أولادها فى بناء المجتمع وقوته ونهضته بدلا من أن يكونوا معاول هدم بسبب ما قد كان يحيط بهم من شقاء عائلى ومرض نفسى أو بدنى .

المشاكل الزوجية والعوامل المسببة لها :

لا تسير الحياة الزوجية دائما وفق مايتمنى الزوجان، وقد لاتتوفر السعادة الزوجية التى تعتبر أساسا لأداء الأسرة لوظائفها وأدوارها المتوقعة ، وقد لا تصل الحياة الزوجية إلى النجاح الذى ينشده كل عضو من أعضاء الأسرة . فقد تثور المنازعات بين الزوجين أو بين أفراد الأسرة الواحدة وتحتدم حدة هذه المنازعات بحيث تؤدى إلى تعقيد مهمتها فى أداء وظيفتها وتحقيق رسالتها ، أو تنتهى إلى انهيارها وتعطيل وظيفتها . ويرجع ذلك كله إلى عوامل مختلفة تؤدى إلى تلك النتائج ،وقد تكون داخلية فى نطاق علاقات أفراد الأسرة نفسها. ويقدر العلماء الاجتماعيون والأطباء النفسانيون أثر العوامل الخارجية والضغوط المتنافرة والتغيرات الاجتماعية السريعة التطور والعوامل الاقتصادية والنفسية التى تحيط بالحياة الزوجية والمطالب التى يجب أن تتوافر لها حتى تمكنها من القيام بمسئولياتها وتحمل الأعباء الملقاة على عاتقها .

والمشاكل الزوجية،ولو أنها فردية ولكل حالة عواملها الخاصة، إلا أن هناك عوامل ذات صفة عامة أو مشتركة ولها صفة مستقرة فى كثير من الحالات . والوقوف عليها يساعد فى فهم ما يحيط بحالات كثيرة وما يتوقع فى هذه الحالات من نتائج وآثار لهذه المنازعات الزوجية . ولقد دلت البحوث والدراسات التى أجريت فى مجتمعات مختلفة على أن التطورات الحديثة والتغيرات الاقتصادية الجارية لها تأثيرها على حياة الأسرة ، كما أن التطور فى العلوم الحديثة من طب نفسى وعلوم اجتماعية أخرى قد ساعد على اكتشاف مؤثرات أخرى على تلك الحياة، كما أنه كان للمدنية السائدة واختراع الآلات الحديثة تأثير فى تغير كثير من الأوضاع الأسرية .

وإذا كان من الممكن محاولة تجميع العوامل المؤثرة فى حياة الأسرة والمسببة لقلقها واضطرابها تحت أبواب محددة تجمع تحتها فروع مختلفة فإننا نرصدها فيما يلى :

(١) عوامل اقتصادية : ويدخل فيها نقص موارد الأسرة أو عدم القدرة على الوفاء بمطالبها .

(٢) عوامل اجتماعية : ويدخل فى ذلك تأثير المجتمع الذى تعيش فيه الأسرة ومدى قدرتها على أداء وظيفتها وتوفير المسكن الصالح وتأثير تدخل الغير فى علاقات الأسرة وغير ذلك . . . . .

(٣) عوامل نفسية وعاطفية : ويدخل فيها مدى التفاعل الذى يجرى فى العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة ومدى الاندماج والانسجام الروحى والعاطفى بين الزوجين وبينهما وأولادها .

(٤) عوامل جسمية وصحية : ويدخل فيها مدى قدرة الزوجين وأفراد الأسرة من النواحى الصحية والجسمية لتحمل مسئوليات الحياة الزوجية وتأثير المرض وغير ذلك .

على أنه لا يمكن القول بأن هذه العوامل قاطعة محددة منفصلة أو مستقلة عن بعضها ، فكل الأمور تتداخل فيما بينها بحيث يصعب أحيانا تحديد عامل أو أكثر كسبب لمشكلة أسرية تقوم فى حياة أسرة وتهدد بتقويضها ، وليست الظاهرة التى تؤثر على المشاكل الزوجيـــة هى حقيقة المشاكل نفسها دائماً فلكل مشكلة عوامل وأسباب . وقد تـكون الأسباب عرضية وظاهرية ويكون العامل الحقيق خفياً ويحتاج إلى تعمق ودراسة للوصول إليه .

وقبل أن نعرض لسبل علاج المشاكل الزوجية والمعاونة فى حلها ، نود أن نشير إلى أن هناك ظروفا عامة تحيط بالمجتمع بأسره ويكون لها تأثير كبير فى تطور دور الأسرة بل ودور كل عضو من أعضائها ، ويكون لهذا التغير تأثير فى حياة الأسرة والعلاقات التى تقوم بين أفرادها . فظروف الحرب مثلا والرواج النسبى فى الميدان الاقتصادى وما يعقب ذلك من ميل إلى الهبوط فى حالة الانتعاش يكون لكل ذلك تأثير فى العلاقات الزوجية . فمصر مثلا لم ترتفع فيها نسبة الطلاق كما ارتفعت فى سنة ١٩٤٤ نتيجة لظروف الحرب العالمية الثانية التى أصاب مصر منها الكثير فقد بلغت نسبة الطلاق فى تلك السنة ٣١،٢ ٪ بالنسبة لحالات الزواج التى انعقدت فى نفس السنة وهذه النسبة تتراوح فى السنوات التالية بين ٢٦ ٪ — ٢٩ ٪ . ويرجع ذلك إلى اضطراب القيم التى تسود الناس واندفاع البعض إلى ما تأتى به ظروف الحرب من مغريات . والتوسع فى التعليم وارتفاع الوعى لنشره وازدياد نسبة التعليم للمرأة واندماجها فى العمل مما يؤثر كثيراً فى الدور الذى تقوم به المرأة بالنسبة للمنزل وفى نشاطها بالنسبة للمجتمع ، كما أنه فى حالة عدم الرضا والقلق الذى بدأ يصيب بعض الناس نتيجة لما استحدث فى سبيل الحياة الحديثة وضغط الظروف الاقتصادية وازدياد الحاجات الاجتماعية والشعور بازدياد الحاجة للترفيه ومتع الحياة كان لكل ذلك أثره الكبير فى الحياة الأسرية . ولا شك أن المشاعر التى تخلقها هذه الأمور فى الروابط الأسرية سيكون لها تأثير منعكس على الأولاد فى الأسرة وسيكون لها تأثيرها فى حياتهم وشخصياتهم ، وهم بهذا الوضع سيصبحون هم الرجال والنساء الذين ستتكون منهم الأسر مستقبلا فيعملون لها وهم متشبعون بما ينقلونه من جوانب هذا السلوك فى أسرهم التى عاشوا فى كنفها . وهذه المؤثرات وما يحيط بها من تطور فى القيم وفى المثـــل العليا ، والأسس التى تقوم عليها علاقات الناس فى المجتمع يكون لها تأثيرها الضامن للروابط الأسرية وفى قدرة الناس على التكيف مع هذه الأوضاع كلها وقد تجعلها غير متعادلة ولا متساوية فيحدث النفور والاضطراب فيما بينهم .

هل يمكن أن يتعدل سلوك الانسان ويتغير ؟

إذا ما وصلنا للنتيجة سالفة الذكر ووجدنا أن العوامل الخارجية أو العلاقات الأسرية قد تؤثر فى سلوك الأبناء وهم الذين سيحملون عبء تكوين الأسر فتنتقل العدوى من جيل لآخر فهل من سبيل للعلاج وتغيير السلوك لجعله قابلا للتكيف والتوافق والانسجام لتتحقق من وراء ذلك علاقات أسرية سليمة . ؟

لقد ثبت من الدراسات التى أجريت عن التطور فى حياة الإنسان أن السلوك الإنسانى يمكن أن يتغير ويتعدل عن طريق العلاقات الإنسانية ، وأن المؤسسات الاجتماعية المختلفة ومنها الأسرة قابلة أيضا لهذا التغيير والتعديل تبعاً لما فيها من مرونة . وأن هناك من النواحى الإيجابية فى كل إنسان ما يساعد الناس فى حياتهم الأسرية على التعايش متماسكين بالروابط القوية فيما بينهم والتى تقوم على أساس من الإقرار بالفروق بين الناس والتسامح والتعاطف المتبادل بينهم . وهذه كلها ينادى بها وتنتشر الدعوة لها ويتشبع الكثيرون بها فتغير فى حياة الناس وفى علاقاتهم مع بعضهم .

ولقد كان لتطور علوم النفس والصحة العقلية وما كشف من تأثير النواحى النفسية والعاطفية بصفة مباشرة على حياة الفرد منذ طفولته ونشأته ، ومن تأثير البيئة على الفرد ، بل وأكثر من ذلك تأثير الأسرة التى ينشأ فيها الإنسان منذ ولادته — كل ذلك يجعل الاهتمام يوجه إلى النواحى العاطفية والذهنية والعلاقات الاجتماعية التى تحيط بالفرد مع غيره . وتأثير هذه العلاقات فى تكوينه وسلوكه بين أفراد أسرته بصفة خاصة وبصفة أخص فى سنواته الأولى بعد ولادته ، كما جعل هناك تركيزاً أكبر على شخصية الفرد وسلوكه ودراستها عندما يهدف لخدمته وقد أصبح هناك تحول فى ميدان الخدمة الاجتماعية — فى خدمة الفرد — من تأثير العوامل البيئية على الفرد ، إلى الاهتمام بالنواحى العاطفية والذهنية له، ولو أنهما يرتبطان ارتباطا وثيقاً وليس من اليسير الفصل بينهما ، وليس من المناسب أن نتجه إلى أى جانب قصى منهما .

ولقد كان لفضل العلوم الحديثة ومنها علم النفس الديناميكى ، فى إبراز أهمية الوصول إلى دخيلة النفس والمشاعر التى يشعر بها الإنسان حول حياته وخبراته والتجارب التى مر بها ، ولا يكتفى بمجرد جمع معلومات عن سلوكه الاجتماعى بل لابد من الوقوف على تفسير لسلوك الإنسان ، فما المواقف والأحداث التى تمر به أو يمر عليها ؟ وهو ما يوجه الاهتمام للحصول عليه من الفرد نفسه على أسس فنية سليمة فى مقابلات مباشرة بين صاحب المشكلة ومن يلجأ إليه لمعاونته عليها . وإن مشاعر الإنسان نحو ما يحيط به تبين بوضوح الدوافع التى تدفعه لسلوك معين فيفيد ذلك إلى حد كبير فى مواجهة الموقف الذى يضيق به صاحبه ويساعد ذلك على تشخيص مشكلته ورسم خطة العلاج التى تناسب الحاله لإزالة أسباب الضيق والضجر بمعاونته على تقبل الموقف والارتياح له والاندماج فيه أو معاونته كى يعمل على تغيير يساعد فى تحسين حاله .

على أنه يجب أن يكون واضحاً أن الغرض من مثل هذا النوع من الخدمات هو استغلال قوى الفرد وإمكانياته فى تحسين أحواله بنفسه ، ويقتضى الأمر العمل على حل العقد والصعوبات الشخصية ، وقد لا يحتاج الأمر فى أحوال كثيرة لتقديم معونة مالية ، وإذا قدمت مثل هذه المساعدة لصاحب المشكلة فيجب أن يكون أساسها أن تكون وسيلة لا غاية فى ذاتها ، وسيلة تعاون بها الحالة فى التنفيذ المطلوب .

أمثلة من حالات واقعية :

شاب يعمل موظفا فى عمل حكومى وترأسه موظفة تفوقه فى درجة التعليم ، وبالتبعية تعلوه فى الكادر الوظيفى وتتقارب معه فى سنه بل تزيد عليه قليلا . كانت لهذا الموظف ظروف عائلية قاسية ، فقد كان ابنا لزوجة جديدة لوالده ولكنها توفيت وهو صغير ، فكفلته زوجة أبيه التى كان متزوجا بها من قبل ، وقد كان وضع هذا الشاب وهو صغير بالنسبة لهذه الظروف الأسرية غريباً لأنه ابن زوجة جديدة لم تستمر فى حياتها ، فأخذ الابن يحس ممن آلمها الزواج عليها أنه لا يحصل على رعايتها بجانب إخوته لأبيه وهم أولادها ، وكان وضعه هذا يؤلمه ويثير شكواه أمام من ترأسه فى عمله فتهون عليه الحياة وتشد من أزره لكى يكافح ويجد . ويعمل المرءوس بنصيحة رئيسته ويجد ويحصل على مؤهل علمى يحسن مركزه ويرفع من درجته الوظيفية ، ويرى فى نفسه الكفاءة حينئذ كى يتقدم منها للزواج فهى لم تكن متزوجة . فتصدم بهذا الطلب لأنها ما كانت تفكر يوما من الأيام أن تتزوجه رغم تقارب السن ، ودون أن يكون ذلك بسبب مركزها الرئاسى بالنسبة لها ، وهو يلح فى الرجاء بقبوله زوجا لها . وتقبل هذه الموظفة الزواج تحت إلحاح الرجاء منه وضغط أفراد أسرتها ، وتصبح هى فى حيرة من أمرها ، فهى لم تكن تحس نحوه بأى شعور أو ميل ولو افتراضى لكى يصبح يوما زوجا لها ، وما كانت تتوقع هذا اليوم بالذات الذى تصبح فيه زوجة له وهو يشعر بالسعادة الكاملة فى أنه قد أصبح زوجا لها ، فتعرض أمرها وتستشير فنيين فى هذه الأمور فيشار عليها بضرورة التحول وتغيير نظرتها إليه من مرؤوس سابق له مشاكل اجتماعية كانت تعاونه على حلها إلى أن تراه كفؤاً للزواج منها ، فعلا نجحت فى هذا إلى حد كبير وبدأت تشعر بالسعادة نحو مشروعها الذى كانت أقدمت عليه وقبلته مكرهة بأن أصبحت تشعر بالراحة الكاملة نحوه .

حالة أخرى — رواها أستاذ فى علم النفس لقصة واقعية وقد نشرها فى إحدى الصحف الأسبوعية (حواء فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٧) وهى قصة تلميذة له عرفت بميزات عالية فى الذكاء والجمال والخلق الرفيع ، وقد تزوجت محامياً شابا لامعاً يعرفه الأستاذ ويعرف أمه وقد تكشف للأستاذ سبب فشل هذا الزواج وذكر ما يلى :

كانت هذه الأم قد لاقت فى ماضيها البعيد ما زعزع ثقتها بنفسها وملأ قلبها بالخوف والقلق فنشأت محبة للتملك ودفعها هذا إلى التعلق بابنها ، فعلق الطفل بأمه ، فكانت تسبغ عليه كثيراً من العطف وتبدى له كثيرا من اللهفة وكانت تفعل هذا مدفوعة إلى رغبتها فى تأمين نفسها ، وهى لا تشعر أنها بعملها هذا إنما تعرقل نمو ابنها وتعطل تطوره وتحكم عليه بأن يظل طفلا مدى الحياة ، ولهذا فشلت هذه الأم فى دورها كحماة ودفعت ابنها إلى الفشل فى دوره كزوج وتم الانفصال بالطلاق . وقد كانت الأم تضع الحواجز بين ابنها والنساء ، وكانت تكد ذهنها لتغرس فى نفس الابن أن كل شقاء فى هذه الحياة سببه المرأة .. وأن الخيانة طبع أصيل فى النساء ، ولما حان الوقت لأن يتزوج الابن وأدركت أنه لا مفر من ذلك سلمت بما لا بد منه ، وأخذت تساعد الابن فى البحث . . . وهى فى الواقع ترمى إلى اختيار الزوجة الملائمة لها لا للابن . . . كانت تبحث عن الزوجة التى تستطيع أن تخضعها لسيطرتها وأن تبسط عليها نفوذها وسلطانها ليشمل هذا النفوذ الابن وزوجته معا . ويذكر الأستاذ أن مثل هذه

الأم لا تعلن صراحة معارضتها الابن فى رغبته عندما يريد الزواج ، وقد تنجح فى كبت مشاعر القلق ، وقد نراها متزنة هادئة واسعة الصدر متسامحة مرحبة بالحياة الجديدة التى يرغب ابنها فى دخولها معربة عن حق الأبناء فى أن يختاروا زوجاتهم ، ولكنها فى أعماق نفسها ترتعد خوفا وألما لذلك المصير المحتوم وبودها لو أخرته إذا عجزت عن منعه ، ولهذا تلجأ آخر الأمر إلى سلاسل حريرية ناعمة تقيد بها الابن . وقد لا تفعل ذلك عن قصد ولكنها تورطه بإغراقه بعطفها ليغرق فى الخضوع لها فيمتلىء شعوراً بالحاجة إلى مشورتها وينتهى الأمر بالصراع بين الأم والابن والزوجة ... وقد انتهى إلى المصير الذى أشير إليه وقد عزاه الأستاذ إلى القلق ودعا إلى ضرورة توفير الخدمة النفسية التى تعين الزوجين فيما يواجهانه من مشاكل فى حياتهما الزوجية .

فى الحالة الأولى نرى أنه قد قدمت للزوجة مشورة ودية تعاونها على أساس فنى فيما يحيط بها من قلق إزاء زواجها ممن كانت ترأسه وتعطف عليه وتعاونه وتشد أزره فى مشكلته فاستطاعت أن تغير من مشاعرها نحوه وأن تقبله كزوج لها تسعد به ، وفى الحالة الثانية نجد أن الزوجين لم يجدا من يعاونهما على مواجهة مشكلتهما وعلاجها على أساس من فهم الزوجة لحالة زوجها وعلاقته بأمه مما كان يدعوها للتقارب معها حتى لا يزداد قلقها بعلاقة الزوجة بابنها . وأن يجرى فطام الابن من أمه بأن يفهم أن هناك صلة جديدة قد خلقت بزواجه من زوجته وضرورة قيام علاقة جديدة تنشأ بالزواج وأن يعمل مع الأم على أساس فهم الوضع الجديد إذ يجب أن تتقبله دون قلق أو اضطراب وذلك كله بأسلوب فنى على ما سيجرى شرحه فيما بعد .

طرق الخدمة الفنية للمشاكل الأسرية :

إن الطريق البدائى لعلاج المشاكل هو التفكير الشخصى ثم الالتجاء للأقارب والأصدقاء . وإذا كانت المشكلة تعلو وتفوق قدرة هؤلاء على حلها فلا بد من الاتجاه إلى جهات فنية تقوم بهذا العلاج لأن الأصدقاء والأقارب قد لا يستطيعون المعاونة فى مثل هذه المشاكل وبخاصة عند ما يكونون متأثرين بعواطفهم فيما يصيب صاحب المشكلة .

والخدمة التى يقدمها إخصائى فنى ليست هى تحمل أعباء صاحب المشكلة نيابة عنه وإنما تقضى معاونته فى فهم كيف يتحمل عبء نفسه وكيف يواجه مشكلته ، وهذه تقتضى تحويلا فى شخصيته لتحقيق هذا الهدف ليصبح قادرا على هذا العمل . وعند ما يفهم إنسان مشكلته ويعلم كيف يواجه الناس مشاكلهم على أساس سليم أو كيف ينجح الإخصائى مع آخرين فى حالات مماثلة ، فإن ذلك يكون ذا فائدة كبرى لدى صاحب المشكلة لأنه سيثير حماسه ويزيد من اهتمامه فى الوصول إلى علاج فيقوى على الاتجاه لما يوجه إليه ، وهذا كله لا ينبنى إلا على علاقة مهنية سليمة بين الإخصائى ومن يخدمه لتحقيق المعاونة فى التغيير المطلوب ليكون ملائما فعالا ، على أنه يجب أن يكون واضحاً أن صاحب المشكلة هو صاحب الشأن فيها وهو الذى يتخـــذ القرار الذى يراه مناسباً له ، وليس على الإخصائى الذى يخدمه إلا أن ييسر له الطريق ويبصره ، ويخطو معه خطوة خطوة حتى يحقق المعاونة المطلوبة معتمدا على ما يتمتع به صاحب المشكلة من قوى إيجابية تفيده ، مع الإحاطة بما لا يفيده من قوى سلبية قد تعطل تحركه .

المؤسسات الاجتماعية للتوجيه الأسرى :

وهذه الخدمة الفنية التى سبق بيانها أصبحت تتوافر كخدمات تقدمها مكاتب أو عيادات أو أى اسم آخر للتوجيه الأسرى ، وقد تنشأ هذه المؤسسات على مستوى حكومى أو أهلى ، وكثيراً ما تكون هذه المؤسسات أهلية تنشئها الهيئات الاجتماعية الأهلية التى تهتم بالمشاكل الأسرية والزوجية ، وتقوم هذه المؤسسات بوحى من تقدير المجتمع ممثلا فى أفراده وهيئاته لمشاكله وما تقتضيه من ضرورة معاونة أصحاب هذه المشاكل فى مواجهتها ، والخدمات التى تتوفر فى هذه المؤسسات لخدمة أصحاب المشاكل ، يجب أن تكون عديدة مختلفة كى تتناسب مع حاجات الناس الذين يستفيدون منها .

ولا بد أن يعمل متخصصون فى هذه المؤسسات وأن يمثل هؤلاء الفنيون النواحى المختلفة التى تتصل بمشاكل الأسرة والحياة الزوجية فيكون منهم إخصائيون فى علم النفس والاجتماع والطب والطب النفسى ، ويقوم بعمل مباشرة الحالات وجمع البيانات ورصد التاريخ الاجتماعى لأصحاب الشأن إخصائيون فى الخدمة الاجتماعية ، كما لا ننسى فى هذا الصدد أهمية النواحى القانونية فى المشاكل الأسرية فتنظم المؤسسة هذا النوع من الخدمات المكملة للمسائل الاجتماعية والنفسية . هذا ويعمل هؤلاء جميعاً فى هذه المؤسسات كفريق واحد يتعاون فى دراسة المشكلة كما تعرض بياناتها وملابساتها ثم يجرى تشخيص المشكلة وترسم خطة علاج لمواجهتها . وقد تكون الخدمات المطلوبة متوفرة فى المؤسسة الواحدة فتقدم للعميل أو أن يكون من اللازم الحصول عليها أو جزء منها من مؤسسات وجهات أخرى فتحول إليها .

الجهود الفنية فى هذه المؤسسات .

يجرى العمل فى هذه المؤسسات على أساس الاتصال الشخصى من العميل بها ، وذلك فى فترات متفاوتة لتحقيق التوجيه والخدمة الفردية . وتوجه الجهود فى مثل هذه المؤسسات على أساس المحافظة على كيان الأسرة والسير بالحياة الأسرية مترابطة متعاونة وأن يخدم جميع الذين يتصلون بالمشكلة كل لا يتجزأ .

ويتم العمل الفنى فى هذه المؤسسات على أن يقوم الإخصائى الاجتماعى بعملية المقابلة بقواعدها وأساليبها مع استخدام قواعد خدمة الفرد فى الاستماع واستعراض المشكلة من العميل الذى سيقوم برضاه بعرض مشكلته ، وإعطائه فرصة لكى يفضى بما عنده ويعبر عما يجيش بصدره وما يدور فى نفسه من مشاعر ، مع توجيه أسئلة من وقت إلى آخر لتبين العوامل المختلفة التى سببت وجود المشكلة أو تفاقمها ، والرجوع بالشخص إلى تاريخه الاجتماعى الذى قد تتبين فى ثناياه الصلات المختلفة بين ماضيه وحاضره .

والعمل فى الاستشارات الزوجية هو محاولة إيجاد تكيف كل من الزوجين بالنسبة لحياته الزوجية حسب

ظروف المجتمع الذى يعيش فيه وتقاليده. وهذا يقتضى بأن يهيأ لمن يعمل فى ميدانه آفاق يخدم فى محيطها ليس فقط للوقوف على مشاكل الناس واحتياجاتهم بل أيضا ربط هذه المشاكل والاحتياجات بالضغوط المختلفة للحياة وما تقتضيه من مطالب شاملة. ومن المعلوم أن الناس يجب أن يعيشوا سوياً فى وئام وتفاهم ولكن هذا يقتضى قدرة واستعداداً لتحقيقه تطبيقاً لما تهدف إليه الأفكار الحديثة للصحة العقلية .

وهنا نود أن نشير إلى الفارق بين مشاكل الأسرة بصفة عامة والمشاكل الزوجية بصفة خاصة وهى التى تتعلق بمدى التكيف والتوافق فى الحياة الزوجية وما يشعر به الزوجان من سعادة فى ارتباطهما معاً . وقد تكون سعادتهما وتوفيقهما مما يساعدهما على تحمل صعوبات الحياة التى تصادفهما وبخاصة فى مشاكل الأطفال مثلا وفهم دور كل من الزوجين ونصيبه فى خلق المشكلة التى تحيط بهما ، ومدى التفاقم والتعقيد الذى تتطور إليه المشكلة ثم العمل على تخليص كل منهما مما يتغلغل فيه من عواطف ومشاعر سلبية وهموم تسيطر عليه نتيجة لما يحيط به .

السبيل للخدمة :

قد يتساءل البعض عن طريق الخدمة ما دام القصد من هذه المؤسسات هو معاونة الشخص كى يخدم نفسه بنفسه فى المشكلة التى تحيط به فما هو الدور الذى تقوم به لتحقيق هذا الهدف ؟ وللإجابة على هذا التساؤل نعود إلى ما سبق ذكره من وجود فنيين فى مختلف الفنون التى تتصل بسلوك الإنسان والأحوال الاجتماعية التى تحيط به . وإلى أن الإخصائى الاجتماعى بما يحققه من صلات مهنية مع عميله فإن العلاج يجرى على أساس :

١ — إعادة ثقة العميل بنفسه .

٢ — تقوية شخصيته ومساندته إزاء المشكلة .

٣ — تقديم المقترحات المناسبة لحل المشكلة .

٤ — توضيح ما يخفى من الأمور التى تحيط بالمشكلة .

٥ — تفسير السلوك والتصرفات والمشاعر والاتجاهات التى تدور إزاء هذه المشكلة .

وقد تفيد مناقشة حياة الفرد عن طفولته ومتاعبه الجنسية فى فترة المراهقة والعمل على إعادة فهم السلوك الجنسى للكبار وبصفة خاصة إزاء النساء إذ قد يحقق ذلك نضوجا كاملا للرجل الذى يشكو من مثل هذه المشاكل فى حياته الزوجية ويخفف كثيرا من المتاعب .

وقد نجد فى كثير من الحالات أن عدم التوافق الزوجى قد جاء نتيجة أضطراب عميق فى شخصية أى من الزوجين أو كليهما .. وقد يكون من المناسب فى مثل هذه الحالة أن يتولى الأمر طبيب نفسى . وخدمة المؤسسة تفيد إعطاء صورة عن التفاعل الشخصى والتفاعل العائلى الذى يجرى بين أفراد الأسرة جميعا ، وفى بيان عوامل الاضطراب وتحديد الخطة العلاجية المناسبة . غير أن هناك مشاكل عديدة أخرى تغرق وظيفة الزواج بسبب البرود الجنسى أو العنة أو الميل الجنسى لنفس النوع .. ومشاكل أخرى تتصل بعدم القدرة على القطام من سلطة الوالدين والادمان على الخمور والمخدرات والعقم والمشاكل الصحية وغير ذلك ما يفيد عرضه على هذه المؤسسات وتلقى خدماتها إزاءها . وليس بضرورى الاختصار فى الاستشارة على المشاكل التى تطرأ حال قيام الحياة الزوجية فعلا بل يمكن أن تعاون أصحاب الشأن حتى قبل قيام هذه الحياة عندما يبدأ نوع من الارتباط فيها بين راغبى الزواج إذا أحس كلاهما أو أيهما بنوع من المشاكل التى تحتاج لاستشارة قبل الإقدام على الزواج والدخول فى الحياة الزوجية .

هذا وجدير بالذكر أن مؤسسات التوجيه الأسرى لاتقتصر على هذه الخدمات فى المشاكل النفسية والعاطفية بل تمتد إلى كثير من الخدمات الأخرى كما سبق القول ، فقد تكون الخدمات الأساسية من مساعدات مالية واقتصادية خير ما يقدم فى معاونة الأسرة إزاء مشاكلها ، وقد يتأتى ذلك بتشغيل رب الأسرة العاطل تفاديا لما ينجم عن تعطله من مشاكل أسرية وذلك بتوجيه مشاكل أطفال الأسرة إلى العياد المختصة بمشاكل الطفولة وقد تعاون الأسرة كثيرا فى حل مشكلة لا تستطيع لها فهما ولاتقدر عواقبها تقديرا كاملا .

كما أنه ليس من اللازم أن تعطى الاستشارات الأسرية والزوجية فى المؤسسات الخاصة بالتوجيه الأسرى، بل يمكن أن تتم هذه الاستشارات فى عيادات توجيه الأطفال وفى مراكز تنظيم الأسرة وذلك عندما ترتبط مشاكل الأطفال أو إنجابهم أو الحرمان منهم بمشاكل أسرية تقوم بين الزوجين . وغير ذلك من المؤسسات الاجتماعية التى يكون من المفيد أن تربط بين خدماتها والتوجيه الأسرى .

قواعد أساسية يجب أن تسير عليها هذه المؤسسات :

إن الخدمات التى تقدمها مؤسسات التوجيه الأسرى جليلة ومفيدة ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن العميل يتقدم لهذه المؤسسات طالبا عونها وهو يشعر بغضاضة ومرارة حيث يعرض مشكلته الخاصة على غيره ممن لا تقوم معه صلة من القرابة أو الصداقة تسمح له بحرية الأخذ والعطاء بصددها . وقد وضعت الدكتورة إميلى مان فى كتابها عن الاستشارات الزوجية ، عددا من المقترحات والتوصيات توصى بها للعمل فى هذا الميدان :

١ — لابد من احترام شخصية كل من الرجل والمرأة اللذين ينشدان العون من متاعبهما ، وأن يحافظ على الثقة التى يودعها كل منهما فيمن يعرض عليه مشكلته .

٢ — فترة ساعة هى مدة متوسطة تكفى لعرض المشكلة حيث أن طول المدة قد يؤدى لنتائج ضارة بالعميل وتجعله يزداد ألما من مشكلته . على أنه يمكن أن تطول المدة وتزداد المرات إذا لزم الأمر .

٣ — يجب ألا تسفه أفكار العميل أو مشاعره أو سلوكه لمجرد أن ذلك يختلف مع ما يراه الإخصائى الذى يستشار ، ويمكن أن ينبه الفرد لوضعه الخاطىء بطريقة مهذبة لينة موجهة .

٤ — يراعى عدم الإثقال على العميل بطلب إعادة عرض مشكلته . ويمكن أن يطلب منه أن يفصح عن شعوره للمشكلة وشعور شريكه بالنسبة لها . وعن نشأة شريكه وعن علاقته بوالديه وبحميه وأخوة زوجه وعلاقتهم بالمشكلة وشعوره بالنسبة للأولاد وعلاقته بعمله ورأيه فى اختلاف وجهات النظر ومايراه من حلول ومقترحات لحل المشكلة .

٥ - يترك العميل ليسترسل ولا يسأل إلا إذا توقف عن الكلام أو بدأ يعيد ما يقوله .

ويجب أن يكون الإخصائى بشوشا صافيا راغبا فى العون مشجعا بإمكان مساعدته فى مشكلته، وأن يشير إلى أنه يمكن معاونته كما عوون كثيرون من قبله فيعطى له ذلك أملا ويبعد عنه القلق والاضطراب .

٦ — لا يخشى التوقف فقد يستعيد الإنسان ذاكرته ويتذكر ما ينساه .

٧ — لايقدم النصح فى موقف من المواقف ولا يقدر الإخصائى أنه إذا وقف موقف العميل فقد يتصرف بكذا . .بل ويجب أن يصدر العميل قراره بنفسه ويوحى منه وبشعوره وباتجاهه هو .

٨ — إذا كانت هناك معلومات أساسية يراد تلقينها للعميل فيمكن أن يحال إلى كتاب أو كتيب أو نشرة تتضمن المعلومات المراد إعطاؤها فى الموضوع ليقرأها بنفسه كما يمكن توجيهه لأكثر من مصدر حتى لايتأثر من كاتب واحد لايتفق فى عرض مشكلته مع ما يرد فى الكتاب ، وحتى يعطى الأمل فى أنه من الممكن أن تختلف وجهات النظر فى مشكلة واحدة .

٩ — المشاكل القانونية لابد من إحالتها لقانونى .

١٠ — المشاكل الطبية لابد من إحالتها لطبيب أو مستشفى .

١١ — يجب ألا يغيب عن الذهن أن صاحب المشكلة هو الذى يجب أن يعمل والاستشارة ما هى إلا اختبار للإنسان نفسه وإمكان التعبير بأفكاره وإظهار مشاعره وسلوكه بما يواجه الموقف الذى يحيط به .

على أن الإخصائى ثقة بنفسه وقدرة على فهم مايحيط بشخصه . ويتحرر صاحب المشكلة من القيود التى تسيطر عليه فيقوى على مواجهة الحال وهذا كله سيفيده بلاشك فى علاج الموقف والمشكلة التى تضايقه .

١٢ — إذا كانت المشكلة خطيرة ومعقدة وتداخلت فى أشخاص وعوامل عديدة بحيث قد تؤدى إلى أخطار عدة إذا لم تعالج على أساس سليم فلا بد أن تحال على طبيب نفسى أو يستشار خبير آخر فى الميدان له خبرة واسعة وذلك بموافقة العميل .

١٣ — إذا لم يستطع علاج الحالة على أساس سليم وإذا لم يمكن إحالتها على من هو أكثر خبرة فلا أقل من الاستماع إليه دون أن يتصرف الإخصائى تصرفا يضر بالحالة فلا جدل ولا لوم ولا توجيه بتصرف معين .

ويجب ألا تنكر الأخطار التى تنجم إذا قام بمباشرة الاستشارات الزوجية غير فنيين أو من لا تتوافر فيهم خبرة كافية . ويجب أن يجرى هذا العمل تحت إشراف دقيق من مشرفين ذوى خبرة طويلة فى الميدان . كما أنه لابد من توافر المؤهلات التالية ، فيمن يعمل فى هذا الميدان :

١ — صفات شخصية فى الإخصائى تقوم على التكامل والنضوج والصلاحية الشخصية .

٢ — صفات علمية وتقتضى الإعداد المهنى المناسب فى النواحى العلمية مع الاستمرار فى التزود بالمعرفة وزيادة الخبرة أثناء العمل .

رسوم الخدمة :

لقد صاحب هذا النوع من الخدمة ما صاحب الكثير من الخدمات الاجتماعية المختلفة من تطور فى ناحية ضرورة تحصيل رسوم مقابل الانتفاع . والقصد من تحديد الرسوم لهذا النوع من النشاط هو النهوض بمستوى الخدمة من جهة وإشعار العميل أنه يحصل على هذه الخدمة الحيوية مقابل ما يدفعه من مال كرسم للحصول عليها فيكون هذا مما يدفع العميل للشعور بجدوى هذه الخدمة ونفعها دون شعور بمذلة للحصول على خدمة دون مقابل .

وتحدد المؤسسة نظاما — كحد أعلى وحد أدنى — لقيمة الرسم ويقدر المطلوب من العميل تبعا لحالته الاجتماعية والمالية مما يظهره بحث الإخصائى عند الاستقبال لأول مرة . ويقدر الرسم غالبا تبعا لكل مقابلة تجرى .

هل هناك ما يمنع تقبل هذه الخدمة فى مجتمعنا العربى ؟

لقد سبقت الإشارة إلى أن الطريق البدائى لعلاج المشاكل هو التفكير الشخصى ثم الالتجاء للأقارب والأصدقاء وهو ما يجرى فى مجتمعنا العربى ونتقبله دون غضاضة عندما يكون هناك حاجز لعرض المشكلة على قريب أو صديق ولكن ماذا نفعل عندما تعلو المشكلة وتفوق قدرة هؤلاء على حلها . إن الالتجاء إلى فنى وإلى مؤسسة اجتماعية للتوجيه الأسرى سيفيد بلا شك فى تقصى المشكلة الدقيقة العميقة التى تحتاج إلى فهم ودراية فنية عالية شأن ذلك

الصناعية الحديثة ، حتى لقد وجدت بعض الدول العربية نفسها مضطرة إلى التدخل لحمايتها وتنظيم ظروف العمل لها عن طريق التشريع .

فليس ثمة إذن ، فى نظر هؤلاء الباحثين ، مشكلة فى هذا الضرب من الاختلاط ، لأن الزمن قد قال فيه كلمته وفصل فى موضوعه تطور الحياة والظروف الاقتصادية وأصبحت المرأة الموظفة والعاملة التى تخالط زملاءها الموظفين والعاملين جزءا من كيان المجتمع ونظامه .

وهكذا يكتفى هؤلاء الباحثون بتقرير ما هو كائن ، ولا يرون فيما هو كائن بهذا الصدد مشكلة اجتماعية تستحق البحث والمناقشة . لأن الزمن قد فرغ من حل هذه المشكلة ، وقال فيها كلمته ، وفصل فى موضوعها وأصبح اشتراك المرأة فى الوظائف العامة وميادين الأعمال ، وأصبح الاختلاط الذى يؤدى إليه هذا الاشتراك ، وأصبح كل ذلك أمراً واقعا وصورة مألوفة .

ولو كان الزمن هو الذى يقول كلمته فى الأمور فتخرس أمامه الألسنة لما كان للاصلاح الاجتماعى عمل ولا مجال ولو سرنا على مبدأ « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » لأصبحت بحوث علم الاجتماع وما يتفرع عنها مضيعة للوقت ، ولأصبح كل جهد يبذل لتصحيح الأوضاع القائمة عملا فاقد القيمة عديم الجدوى !

والحقيقة أن مهمتنا لا يصح أن تقف عند تقرير ما هو كائن ، بل يجب أن تتجاوز ذلك للبحث فيما ينبغى أن يكون ، وأن الزمن إذا كان قد قال كلمته فى أمر ما ، فان للعلم كذلك أن يقول كلمته فيه : وقد تكون كلمة العلم هى العليا وكلمة الزمن هى السفلى .

هذا ، ولا يستبين ما ينبغى أن يكون بهذا الصدد ، ولا تستبين كلمة العلم فيه إلا من ثنايا الإجابة على ثلاثة أسئلة :

وأول هذه الأسئلة هو : هل هناك مقتضى اجتماعى ، واقتصادى لنزول المرأة العربية إلى ميادين الكدح فى الحياة ولما يصاحب ذلك من اختلاط ؟ وهل اتسعت ميادين الأعمال العامة وميادين الإنتاج فى البلاد العربية لدرجة يحتاج فيها إلى جهود المرأة بجانب جهود الرجل ؟

والذى يظهر لنا أن ميادين الأعمال العامة وميادين الإنتاج لم تتسع بعد فى البلاد العربية كما اتسعت فى بعض أمم الغرب ، إلى حد يحتاج إلى جهود المرأة بل يظهر أنها لم تستوعب بعد جميع جهود الرجال ، كما سنتكلم على ذلك بتفصيل فى الفصل الثانى من هذا البحث .

والسؤال الثانى هو : من الممكن أن نغض النظر عن عدم وجود مقتضى اقتصادى جدى إذا ثبت أن عمل المرأة المعربية فى هذه الميادين لا يترتب عليه ضرر ما ، فهل ثمة ضرر يلحق البيت العربى والمجتمع العربى أو يلحق المرأة العربية نفسها من جراء نزولها إلى هذه الميادين ومن جراء الاختلاط الذى يصاحب ذلك ؟

والذى يظهر أن هذه الأمور كثيراً ما تنطوى على أضرار بليغة من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، وكثيراً

مايترتب عليها إرهاق المرأة وتكليفها من الأعمال فوق ماتطيق ، وكثيرا ما تؤدى إلى إهمالها لشئون زوجها وأولادها وبيتها ، ولا يخفى مايترتب على هذا الإهمال من اضطراب فى حياة الأسرة وتقويض لأهم مقوماتها ، ونقص فى تربية الأولاد وإضعاف لروح الترابط العائلى .

والسؤال الثالث هو : هل اشتغال النساء بالأعمال العامة يقتضى حتما اختلاطهن بالرجال فى نطاق واسع مع ماقد يؤدى إليه هذا الاختلاط من أضرار تلحق المرأة نفسها وتلحق الأسرة والمجتمع ؟ وأليس من الممكن أن نفسح للمرأة ميادين العمل مع اتقاء هذا الاختلاط واتقاء شروره فنخفف بذلك الأضرار الناجمة عن نزول المرأة إلى هذه الميادين ؟

والذى يظهر لنا أنه من الممكن أن تزاول النساء أعمالهن فى الوظائف العامة والمصانع مع إتقان هذا الاختلاط المعيب وخاصة إذا لاحظنا أن الأعمال التى تقوم بها الفتيات والنساء فى المصانع تختلف فى الغالب عن الأعمال التى يقوم بها الرجال ، وأنه من الميسور إذن فصلهن فى أقسام خاصة ، وأن وظائف التدريس فى مدارس البنات وما إليها من الوظائف التى تقوم بها عادة معظم النساء الموظفات لا تقتضى حتما اختلاطهن بالرجال فى نطاق واسع وأنه من الميسور بل من الواجب ، فى هذه الوظائف وغيرها تدبير الوسائل لوقايتهن ووقاية المجتمع من الاختلاط الواسع وما ينجم عنه من شرور .

* * *

الفصل الثانى

المساواة بين الجنسين

١ — وجوه المساواة بين الرجل والمرأة :

سوى الإسلام بين الرجل والمرأة أمام القانون وفى جميع الحقوق المدنية سواء فى ذلك المرأة المتزوجة وغير المتزوجة . فالزواج فى الإسلام يختلف عن الزواج فى معظم أمم الغرب المسيحى فى المرأة أنه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية ولا أهليتها فى التعاقد ولا حقها فى التملك . بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها ، وبكامل حقوقها المدنية ، وبأهليتها فى تحمل الالتزامات وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية وما إلى ذلك ، ومحتفظة بحقها فى التملك تملكا مستقلا عن غيرها . فللمرأة المتزوجة فى الإسلام شخصيتها المدنية الكاملة وثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية زوجها وثروته . ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئا من مالها قل ذلك الشىء أو كثر إلا أن يكون ذلك عن طيب خاطر منها ، ولا يحل له أن يتصرف فى شىء من أموالها إلا إذا أذنت له بذلك أو وكلته فى إجراء عقد بالنيابة عنها . وفى هذه الحالة يجوز أن تلغى وكالته وتوكل غيره إذا شاءت .

وهذه المنزلة من المساواة لم يصل إلى مثلها بعد أحدث القوانين فى أرقى الأمم الديمقراطية الحديثة . فحالة المرأة فى فرنسا مثلا كانت إلى عهد قريب ، بل لا تزال إلى الوقت الحاضر أشبه شىء بحالة الرق المدنى . فقد نزع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية ، كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين إذ تقرر « أن المرأة المتزوجة ، حتى ولو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز أن

الشاق من جهة أخرى، وأصبح العمال أقرب ما يكونون ملاحظين للآلات يؤدون أعمالا متكررة محدودة ، الأمر الذى أفسح إمكانيات تشغيل النساء ، ثم جاءت بعض الظروف والعوامل المساعدة التى أدت إلى زيادة نسبة هذا التشغيل، ويمكن تلخيص هذه العوامل فيما يلى :

١ — قيام الحروب العالمية واتساع نطاقها وشمولها لعدد كبير من البلاد مما دعا إلى استيعاب جزء كبير من القوى العاملة فى التجنيد فاضطرت الدول المحاربة إلى الاعتماد على النساء فى الجبهة الداخلية فازدادت نسبة المشتغلات منهن زيادة جسيمة . وقد دلت التجربة بعد الحرب العالمية الأولى على أنه لم يكن من المستطاع العودة إلى الظروف الطبيعية وتخلفت نسبة من العاملات عن العودة إلى بيوتهن واستمررن فى العمل .

٢ — ظهور نظريات ووسائل التخطيط أو الاقتصاد الموجه وما يتضمنه من تنظيم استخدام القوى العاملة بحيث يؤدى هذا التنظيم إلى الاستخدام الأمثل للموارد البشرية . وهذا الاستخدام الأمثل لا يتحقق إلا باستخدام الجنسين معا . أى أن الانتفاع بعمل المرأة أصبح ضرورة اقتصادية فى عصر الاقتصاد الموجه .

٣ — التطور الديمقراطى وما أدى إليه من حصول المرأة على حقوقها السياسية ونزوعها إلى تحقيق نوع من الاستقلال عن طريق الاستقلال الاقتصادى ومساهمتها فى دخل الأسرة .

٤ — ارتفاع مستوى الحياة ونفقة المعيشة وحاجة الأسرة إلى دخل إضافى نظرا لعدم كفاية دخل الرجل أو فى حالة كفاية الدخل تتطلع الأسرة إلى مستوى أعلى للمعيشة .

التوزيع العمرى للنساء العاملات وأثره فى رعايتهن :

هذه العوامل التى ساعدت على زيادة نسبة النساء العاملات واضطراد هذه النسبة فى التزايد، لها أثرها ولاشك فى أعمار النساء العاملات . ولهذا نجد النسبة الغالبة من العاملات أقل من سن الزواج ، أى تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشر والعشرين . ثم نرى نسبة العاملات فى السن الأوسط تهبط هبوطا واضحا لأن المسئوليات العائلية ووجوب التفرغ لتربية الأولاد تجعل من العسير الجمع بينها وبين العمل خارج البيت . ومتى كبر الأولاد وخفت المسؤليات العائلية عن المرأة المتزوجة والمنقطعة عن العمل ، بدأت تفكر فى العودة إليه ، ولكنها تجد فى سبيل ذلك الكثير من المشقه ، نظرا لفتور الرغبة فى استخدام النساء المتقدمات فى السن .

وعلى ضوء هذا التحليل يمكننا تقسيم رعاية الأمهات العاملات إلى ميادين رئيسية ثلاثة وهى :

أولا : حماية العاملات بصفة عامة سواء فى ذلك المتزوجات منهن أم غير المتزوجات ، الأمهات أم غير الأمهات وذلك بضمان ظروف العمل الملائمة وتقديم الرعاية الاجتماعية المناسبة .

ثانيا : تيسير اشتغال الأمهات العاملات بعض الوقت بدلا من اشتغالهن كل الوقت وذلك لكى يتاح لهن الوقت الكافى للنهوض بمسئولياتهن العائلية .

ثالثا : تيسير استخدام النساء المتقدمات فى السن وضمان فرص العمل لهن .

أولا - حماية العاملات:

كان ميدان حماية المرأة العاملة من أسبق الميادين التى طرقها المشرع أول تدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية لحماية العمال . وقد بدأت هذه الحماية بالعاملات والأحداث ثم بعمال الصناعات الخطرة باعتبارهذه الفئات هى الأولى بالرعاية ونلمس هذه الظاهرة بوضوح فى تطور تشريع العمل فى(مصر)حيث صدر القانون رقم ٨٠ لسنه ١٩٣٣ الخاص بتشغيل النساء فى طليعة القوانين العمالية التى صدرت تباعا .

وتستهدف قوانين العمل المنظمة لتشغيل النساء والكفيلة بحمايتهن أهدافاً أو مبادىء عامة لا يخلو منها تشريع قومى للعمل كما أكدتها اتفاقيات العمل الدولية الخاصة بحمايه المرأة العامـــلة ، وهذه المبادىء أو الأهداف هى :

١ — تحريم العمل الليلى للنساء وذلك حماية لصحتهن ووقاية لهن من عوامل التدهور الخلقى وحرصا على إتاحة الفرصة لهن للنهوض بمسئولياتهن العائلية والسهر على راحة الأولاد والحيلولة دون تفكك روابط الأسرة . وقد كفلت هذا المبدأ الاتفاقية الدولية رقم ٣ التى أقرها مؤتمر العمل الدولى فى دورته الأولى عام ١٩١٩ وكذا الاتفاقيه الدولية رقم ٨٩ لسنة ١٩٤٨ المعدلة لها . وقد صدقت الجمهورية العربية المتحدة على الاتفاقيه الأخيرة .

٢ — تحريم تشغيل النساء تحت الأرض،والمقصود بذلك تحريم تشغيلهن فى المناجم وفى حفر الأنفاق لما يتضمنه هذا العمل المرهق من أخطار ومشاق لا يحتملها البنيان الطبيعى للمرأة . وقد كفلت هذا المبدأ اتفاقية العمل الدولية رقم ٤٥ التى أقرها مؤتمر العمل الدولى فى دورته التاسعة عشر عام ١٩٣٥ .

٣ — حماية الأمومة بتوفير الراحة الضرورية للمرأة العاملة أثناء الحمل وقبل الوضع وبعده ، وهذ ما كفلته الاتفاقية رقم ٣ لسنة ١٩١٩ والاتفاقية المعدلة لها وهى الاتفاقية رقم ١٠٣ لسنه ١٩٥٢ الخاصة بحماية الأمومة . وهى تعطى للأم العاملة الحق فى أجازة مدتها ستة أسابيع قبل الوضع وستة أسابيع بعد الوضع . كما رتبت حقوقا مالية للمرأة العاملة فى حالة الوضع كأحقيتها فى الحصول على إعانة مالية من موارد الدولة ، أو عن طريق أى نظام آخر من نظم التأمين الاجتماعى .

٤ — المساواة فى الأجر بين العاملات والعمال وهو مبدأ مقرر من مبادىء المساواة فى المعاملة بصرف النظر

عن فروق النوع أو الجنس الخ . . . الذى قرره الإعلان الدولى لحقوق الإنسان كما أكدته أحكام الاتفاقية رقم ١٠٠ لسنة ١٩٥١ الخاصة بالمساواة فى الأجر بين العمال والعاملات .

وبتتبع مدى توافر هذه المبادىء فى تشريعات العمل فى الدول العربية نجد أنها محققة إلى حد كبير فى هذه التشريعات ، فالقانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٣ الخاص بتشغيل النساء فى الصناعة والتجارة بمصر ، ينص على تحريم العمل الليلى ومنع تشغيل النساء فى بعض الصناعات الخطرة بما فيها صناعة المناجم والعمل تحت الأرض بصفة عامة كما تضمن بعض المزايا الخاصة بالوضع والولادة ، إلا أن هذه المزايا أقل من المستوى الذى كفلته الاتفاقيات الدولية ، فضلا عن أنها ليست بأجر كامل كما تقضى هذه الاتفاقيات ، وقد حدد هذا القانون أيضاً ساعات العمل اليومى بتسع ساعات . وبالرجوع إلى قوانين العمل المماثلة فى الدول العربية نجد أنها لم تنص على تحديد ساعات عمل للنساء ولأنه لايجوز كمبدأ عام التفرقة فى المعاملة بين المرأة والرجل فى ظروف العمل ، ولكن غياب تشريع يحدد ساعات العمل فى مصر وقت أصدار قانون تشغيل النساء سنة ١٩٣٣ هو الذى حدا بالمشرع إلى وضع مثل هذا النص حماية للعاملات من ساعات العمل المرهقة .

المرأة فى الشرق العربى :

منذ القدم كان كل مهمة المرأة فى شرقنا العربى هو القيام بواجباتها المنزلية ورعاية أطفالها ، على أن هذه المرأة العربية كان لها دور آخر فى نواحى العمل الخارجى وخاصة فى الحياة الريفية إذ كان على المرأة أن تعاون أهلها فى بعض المهن مثل الرعى والبيع كل هذا فى صورة بدائية غير منظمة بقانون أو نظام على النحو المعروف اليوم . وظلت الحال كذلك إلى بداية هذا القرن ، وهنا حدثت التطورات الاقتصادية والاجتماعية ثم كان وقوع الحربين العالميتين مما أنتج الأثر القوى الفعال فى تغيير مفاهيم الحياة وتغيرت النظرة الاجتماعية إلى المرأة ووجه نظرها إلى قيمتها كنصف الأمة وإمكان استخدام جميع القوى العاملة فى زيادة الإنتاج الفردى والجماعى .

ولذلك بدأت المرأة العربية تشق طريقها تدريجيا إلى مختلف الوظائف والأعمال وتحتل مكانها بجانب الرجل فقاسمته الكثير من الأعمال وانفردت هى بالبعض الآخر .

النساء فى الزراعة :

لاشك فى أن الريف العربى فى مسيس الحاجة إلى خدمات المرأة الريفية ، فلن يتأتى أى إصلاح كامل أو وضع برنامج شامل لعلاج أمراض الحياة الريفية مالم تستطع المرأة القيام برسالتها وتأديتها واجباتها .

فالعنصر النسائى إذن لايمكن إهمال شأنه لتنفيذ أى برنامج من برامج الإنتاج القومى والإنعاش الاجتماعى فى الريف ، فالمرأة فى الريف لاتعمل فقط فى منزلها لرعاية زوجها وأطفالها ، بل هى تشارك الرجل فى جميع أعمال الحقل ، بل إنها

تزاول أيضا بعض الأعمال المرهقة مثل الحفر والنقل والبناء ، كما تمارس التجارة . فالمرأة الريفية أسبق من أختها الحضرية إلى ولوج ميادين الأعمال الخارجية ، فرأيناها مثلا أعلى فى التضحية بوقتها وراحتها للتعاون مع زوجها وأهلها ، والنساء فى الريف يقمن بشتى الأعمال كجنى القطن وقطف الثمار وجمع الحبوب وتنقية الزرع من الحشائش والاشتراك فى إدارة آلات السقى وغيرها .

النساء فى ميدان الخدمة المنزلية :

يعمل فى هذا الميدان أكبر عدد من الأمهات وتشترك الأم أو تقوم فى الريف بالأعمال المتصلة بشئون الزراعة فى المنزل كما يشمل خدمة المنازل فى الريف والمدن ويؤخذ من إحصاء ١٩٤٥ أن نسبة من يقمن بأعمال الخدمة المنزلية سواء فى المدن أو الريف ٤ر٨٣٪ (فى مصر)

أعمال متنوعة :

وهى تشمل تربية الطيور والنحل ودودة القز وصيد الأسماك والأصداف وبعض الحرف التى تشترك فيها الإناث بعدد ضئيل وتبلغ نسبة المشتغلات بـ ٥ر١٪

التجارة :

وعمل المرأة فيها يشمل ناحيتين : التجارة الشخصية والعمل فى المؤسسات التجارية ، وقد ازداد نشاط المرأة فى هذا الميدان وخاصة بعد الاتجاه فى كثير من المؤسسات التجارية الكبرى إلى تفضيل الإناث بعدما أثبتت التجارب حسن استعداد المرأة ونجاحها فى هذا العمل الذى يتجاوب مع ميولها الطبيعية ونسبة العاملات فى هذا الميدان ٩ر٪

الخدمات الاجتماعية والوظائف الحكومية والأهلية :

تشترك المرأة فى بعض الدول العربية فى جميع هذه الأعمال ماعدا الوظائف المحرومة منها بحكم القانون كالقضاء والنيابة والمناصب الدينية، واشتراكها فى الأعمال الفنية والخيرية دليل حى على ما أصابته المرأة العربية من تطور سريع فى النواحى العلمية والثقافية والاجتماعية. وتبلغ نسبة المشتغلات بهذه النواحى ٤٪ فى الإقليم المصرى .

المرأة البدوية :

إن التكوين الاجتماعى عند البدو يتناهى فى البساطة ويتشابه البدو أينما كانوا فى العادات والأخلاق والأزياء

ويعيشون على الفطرة . والنساء فى البادية أكثر عددا من الرجال ، ويرجع ذلك إلى كثرة وفيات الرجال فى الحروب والغزوات .

والبدوية تقوم بأكثر الأعمال والأشغال الشاقة ، فبينما ترى الرجل طول النهار وبعض الليل تحت خيمته يشرب القهوة ويقص الأحاديث عن شجاعته وأعماله ترى الأم البدوية وبناتها يشتغلن أشغالا شاقة كثيرة .

والنساء فى البادية بوجه عام لايعتنين بأنفسهن كثيرا حتى أن المرأة الحامل لاتتخذ من الأسباب الصحية الواقية شيئا ، بل لقد يجىء الأم البدويه المخاض أثناء العمل فتضع وليدها بدون مساعدة وليس هناك من يعينها بشىء فتقوم بعملية الولادة البدائيه فتقطع الحبل السرى بحجر وتربطه بخرقه بالية وتلف وليدها بخرقة مملحه أو مرشوشة بالرمل وتحمل الأم وليدها على ظهرها وتستأنف سيرها وكأن لم يحدث شىء . وقد اقترح بعض الأطباء بعض النقاط الرئيسية الضرورية للعناية بالأم البدوية وطفلها والتى من شأنها أن تقلل عدد الوفيات المسببة عن الأخطار التى تتعرض لها الأم ، ويمكن أن نسرد هذه النقاط التى ذكرها بعض أعلام الطب العربى الحديث :

أولا — الفحص الطبى لكل حامل والانتباه بصورة خاصه إلى الأمراض الصدرية كالتدرن الرئوى وإلى أمراض القلب والأمراض الزهرية ، فإذا ثبت وجود بعض هذه الأمراض وجب الإسراع فى معالجتها . وإذا تبين أن الحمل خطر على صحه الأم وجب القيام بعملية إجهاض صناعى ، أما فى الحالات التى يتبين فيها أن الأم مصابة بأحد الأمراض التناسلية فيجب على الطبيب أو الدوائر الصحية الإصرار بشدة على وجوب معالجة الأم ومعالجة زوجها وأفراد عائلتها إذا اقتضى الأمر ذلك ، وإذا ظهر أن الحامل فى حاجة إلى راحة أو نزهة فإن على دوائر الصحة أن تقوم مجانا بتهيئة المحلات لهذا الغرض وخاصة فى الحالات التى لايتيسر فيها للحامل تسديد النفقات اللازمة .

ثانيا — الفحص الطبى لكل حامل ثلاث مرات على الأقل أثناء مدة الحمل والانتباه إلى وضع الجنين وتغذية الأم .

ثالثا — تدريب عدد واف من القابلات القانونيات والمرشدات على إجراء الولادة الطبيعية النظيفة .

رابعا — إعداد مستشفيات ثابتة ومتنقلة لكل حالات الولادة غير الطبيعية حرصا على حياة الأم الجنين .

خامسا — تعليم الأمهات بالمحاضرات وإرشادهن بواسطة القابلات والمرشدات إلى الأخذ بالوسائل الصحية الحديثة وطرح العادات القديمة التى أصبح باستطاعتنا الاستغناء عنها والإصرار على وجوب الرضاعة الوالدية الكاملة لمدة معينة تمتد من ستة أشهر إلى تسعة أشهر بحيث لاتزيد عن سنة كاملة ولاتنقص عن ستة أشهر ، فكما أن الرضاعة القصيرة الأمد أو عدمها قد تؤذى صحة الطفل وتكثر من وفياته كذلك لاتكفى الرضاعة الوالدية

الطويلة لتغذية الطفل بعد السنة الأولى من العمر وقد تضر صحة الأم ، وعلى الأمهات أن يعلمن أن الفطام يجب أن يكون تدريجيا وأن يبدأ فى الفصول الباردة من السنة لا فى الصيف كما جرت العادة فى بلادنا .

النساء فى الصناعة :

لنزول النساء فى ميدان الصناعة أسباب معروفة لعل أهم سبب منها هو قلة الأيدى العاملة من الرجال فاضطرت الصناعة الحديثة إلى الاستعانة بالنساء للنزول إلى سوق العمل نظرا إلى الحروب الطاحنة فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، تلك الحروب التى أودت بحياة الملايين من الرجال .

وقد نشطت حركة اشتغال النساء فى الصناعة والتجارة معا أشد ما نشطت عقب الحرب العالمية الثانية بحيث يمكن القول أنه فى بعض البلدان الأوروبية زادت نسبة المشتغلات من النساء عن ٤٠٪ وربما زادت عن ذلك فى التجارة .

وقد أدى نزول المرأة إلى سوق العمل على هذا النطاق الواسع إلى أن يطالبن بالتسوية فى الأجر فى العمل الواحد وقد انتهت هذه المطالبة إلى إقرار الاتفاقية الدولية رقم ١٠٠ التى تنص على المساواة بين العامل والعاملة فى الأجر الواحد فى العمل الواحد .

على أن المبادىء التى وردت فى الاتفاقية رقم ١٠٣ قد تضمنت مبادىء إنسانية تستلزمها طبيعة المرأة وواجب حماية الأمومة وتتلخص فيما يلى :

١ — تحريم العمل الليلى على النساء وإن كان قد ترك لكل دولة تحديد معنى بداية الليل و نهايته وذلك وفقا لظروف هذه الدولة من ناحية الظواهر الجوية والأوضاع الجغرافية .

٢ — حرمت هذه الاتفاقية تشغيل النساء فى المناجم أو تحت سطح الأرض مهما كان نوع العمل .

٣ — استلهمت الاتفاقية المبدأ الثالث من اعتبار إنسانى هو حماية الأمومة وذلك سواء من ناحية التجارة والصناعة والزراعة فتقرر « حق العاملة فى الانقطاع مدة ١٢ أسبوعا قبل الوضع وبعده » .

كانت (مصر) أسبق الدول فى سن التشريعات لرعاية النساء العاملات وذلك حين أصدرت فى ١٠ يوليه ١٩٣٣ القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٣ بوضع نظام لتشغيل النساء فى الصناعة والتجارة .

أوضح هذا القانون الأحكام الخاصة بنظام تشغيل النساء فى الصناعة والتجارة ومن بين هذه الأحكام :

١ — لايجوز تشغيل النساء مدة تزيد على ٩ ساعات فى اليوم لاتدخل فيها الفترات المخصصة للراحة والتى يجب ألا تقل فى مجموعها عن ساعة .

٢ — يجب تحديد فترات الراحة بحيث لا يشتغل النساء أكثر من خمس ساعات متوالية .

٣ — لا يجوز تشغيل النساء أثناء الليل إلا فى بعض حالات مستثناة كالفنادق والمطاعم وما أشبه ذلك فى الصناعات الموسمية القابلة للتلف .

٤ — يقصد بكلمة الليل مدة إحدى عشرة ساعة متوالية تدخل فيها الفترة مابين التاسعة مساء والخامسة صباحا .

٥ — يجب إعطاء كل عاملة راحة أسبوعية لا تقل مدتها عن ٢٤ ساعه متوالية .

٦ — لا يجوز استخدام النساء فى الأعمال الخطرة أو الضارة بالصحة كالعمل تحت سطح الأرض وفى الأفران المعدة لصهر المعادن والمفرقعات واللحام إلى غير ذلك من الأنواع الواردة بالقانون .

٧ — لا يجوز تشغيل النساء فى حمل أثقال أو جرها أو دفعها .

٨ — للمرأة الحامل إذا شاءت أن تنقطع عن العمل قبل الوضع بشهادة طبية مبينا فيها التاريخ الذى يرجح حصول الوضع فيه ولا يجوز تشغيل النساء فى خلال الخمسة عشر يوما التالية للوضع وفضلا عن ذلك فللنساء الحق فى إطالة مدة إنقطاعهن عن العمل لمدة ١٥ يوما .

فيما يختص بعقد العمل الفردى :

أجاز قانون عقد العمل الفردى للعاملة بمناسبة زواجها المطالبة بالمكافأة المستحقة لها إذا تركت العمل خلال سنة من تاريخ عقد الزواج .

هذا مع العلم أن جميع الامتيازات الأخرى التى نصت عليها القوانين العمالية سواء من حيث الأجازات أو الرعاية الطبية أو التعويض عن إصابات العمل أو أمراض المهنة ، يتمتع بها العمال من الجنسين .

ملاحظاتنا بشأن القانون ٨٠ لسنة ١٩٢٣ الخاص بتشغيل النساء فى الصناعة والتجارة :

تميل غالبية الدول إلى رعاية العمال ذكوراً وإناثا سواء المشتغلين منهم فى الصناعة أو التجارة وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة من بلد لآخر تبعا لما يكون قد أصاب هذا البلد أو ذاك من تطور اجتماعى واقتصادى وصناعى ، وبالتالى فى العلاقات التى تنشأ بين أرباب الأعمال وعمالهم مما يستدعى تدخل المشرع من حين لآخر لاستكمال نقص موجود أو لمنح حقوق جديدة للعمال يستدعيه هذا التطور والتقدم .

وليس الأمر مقصوراً فى حدود كل دولة على حدة بل تعداها إلى النطاق الدولى فتسعى الدول فيما بينها إلى تعزيز نفس الحقوق والمزايا لعمالها بما تعقده من اتفاقيات دولية عن طريق مؤتمرات العمل الدولية تلزم أفرادها الموقعين عليها بالتزام نصوصها .

وبجانب التشريعات العامة الموضوعة لكافة العمال أهتم المشرع فى جميع الدول بوضع تشريعات خاصة بالنساء العاملات عموما كما نجد نفس الاتجاه فى مؤتمرات العمل الدولية .

وهناك معاهدات واتفاقيات متعددة فى هذا الخصوص كالأتفاقية رقم ١٠٠ فى ٢٩ يونية سنة ١٩٥١ الخاصة بالأجر المتكافىء وذلك لضمان تطبيق مبدأ الأجر المتساوى للعمل الواحد لكافة العمال من رجال ونساء . وكذلك الاتفاقية رقم ٨٩ الخاصة بالعمل الليلى للنساء والمعدلة فى سنة ١٩٤٨ لبعض أحكام المعاهدة رقم ٤١ لسنة ١٩٣٤ .

ونظراً للتطور الذى أصابته الجمهورية العربية المتحدة سواء فى مجال الصناعة أو التجارة ورغم حداثة عهدها بالتشريعات العمالية إلا أنها آخذة بمسايرة هذا التطور بسن التشريعات التى من شأنها إعطاء مزايا للعمال ومنحهم حقوقا جديدة .

وقد أجازت الاتفاقية تشغيل النساء ليلا فى حالتى القوة القاهرة ، وعرفت القوة القاهرة بأنها حالات توقف لأسباب لم يكن من الممكن توقع حدوثها وليست مما يتكرر حدوثه .

ونص القانون الحالى فى مادته الثانية عشرة على أن للحامل إذا شاءت أن تنقطع عن العمل قبل الوضع بشهر بالشروط التى أوردها وهى أن تقدم شهادة طبية مبينا فيها التاريخ الذى يرجح حصول الوضع فيه .

ويلاحظ على هذا النص أن القانون قد ترك للحامل الاختيار فى الانقطاع عن العمل قبل الوضع بشهر وهذا يدل على أن هذه الفترة تكون بدون أجر .

كما نص القانون فى مادته الثالثة عشر أنه لايجوز تشغيل النساء فى خلال الخمسة عشر يوما التالية للوضع وفضلا عن ذلك فللمرأة الحق فى إطالة مدة انقطاعها عن العمل لمدة ١٥ يوما أخرى .

وللمرأة الحق فى نصف أجرها عن الخمسة عشر يوما التالية للوضع .

وبمقارنة هذين النصين بنصوص الاتفاقية الدولية رقم ١٠٣ لسنة ١٩١٩ الخاصة بحماية الأمومة ، نجد أنه بموجب هذه الاتفاقية صار من حق الأم العاملة أن تتمتع بأجازة قدرها ستة أسابيع قبل الولادة كما تتمتع بستة أسابيع أخرى أجازة إجبارية تلى الوضع .

ورتبت حقوقا مالية للعاملة فى حالة الوضع كأحقيتها فى الحصول على إعانة مالية من موارد الدولة أو عن طريق أى نظام آخر من نظم التأمين الاجتماعى .

وقد أخذت دول كثيرة بتطبيق نصوص الاتفاقية كما ذهب البعض الآخر بإعطاء الأم العاملة الحق فى الحصول على مدة أطول كما أنشأت كثير من الدول نظام التأمين الاجتماعى الإجبارى الذى بموجبه تحصل العاملة على مساعدة

مالية أثناء انقطاعها عن العمل بسبب الوضع وتتراوح قيمة هذه المساعدة فى البلاد المختلفة من ٥٠ إلى ١٠٠ ٪ من قيمة الأجر اليومى للعاملة .

وقد أعد مكتب العمل الدولى مشروع اتفاقية جديدة لحماية الأمومة فى سنة ١٩٥٢ لتحل محل الاتفاقية القديمة تعطى امتيازات جديدة للعاملات كالتوصية بإطالة مدة الأجازة المخصصة إلى ١٤ أسبوعا على الأقل .

وتنص المادة ١٥ المذكورة من القانون على أنه للاستفادة من احكام الفقرة الثانية من المادتين ١٣ ، ١٤ يجب أن تكون المرأة قد أتمت وقت انقطاعها عن العمل سبعة أشهر فى خدمة المحل ذاته .

ولا يوجد بالمذكرة التفسيرية ما يفسر الحكمة التى توخاها المشرع فى تحديد المدة التى يجب أن تكون قد أتمتها فى خدمة المحل بسبعة أشهر .

ويحسن رفع هذا التحديد باستبعاد هذه المدة مادامت العاملة قد أتمت فترة التمرين ولو كانت هذه الفترة محددة بمدة أقل مما هو منصوص عليها بالمادة ١٥ من القانون (السبعة شهور)

ملاحظات :

يمكن إضافة نصوص جديدة للقانون مستلهمين فكرة حماية الأمومة كأن ينص على :

١ — تحريم اشتغال العاملة الحامل ليلا .

٢ — تحريم اشتغال العاملة الحامل ساعات إضافية .

٣ — تحريم اشتغال العاملة الحامل فى جر الأثقال .

٤ — تغيير عمل العاملة الحامل إلى عمل يتطلب مجهوداً أقل إذا اقتضى الأمر ذلك .

وبهذا نكون قد توصلنا إلى سد الثغرات الموجودة ببعض النصوص القائمة أو بإضافة بعض فقرات جديدة تحقق بعض مطالب عادلة للمرأة المشتغلة فى الصناعة أو التجارة مما يتمشى مع الاتجاهات الحديثة للمشرع والاتفاقيات والمعاهدات الدولية .

التشغيل الليلى للنساء :

ثبت من التحقيقات الرسمية التى أجريت فى كثير من الدول الصناعية الكبرى فى نهاية القرن التاسع عشر أن العمل الليلى أضر بصحة النساء إذ تعود المرأة فتضطر إلى الاستمرار فى العمل قياما بواجباتها المنزلية بما ينقص من ساعات نومها ويزيدها إرهاقا ، وقد تبين أن إرهاق النساء فى العمل الليلى كان ذا تأثير ضار فى صحة الجيل الناشىء .

هذا فضلا عن أن فى الاعتياد على قضاء الليل خارج البيت من الأضرار الاجتماعية العظيمة الخطر .

ونحن ننظر إلى أمر تشغيل النساء ليلا نظرة قلقة مشوبة بالخوف حيث أن فى غياب المرأة عن بيتها ليلا مايتنافى مع تقاليدنا العربية التى ما أن استمسكنا بها لكان فى ذلك الخير كله .

لذلك يلزم أن تكون تشريعاتنا متلائمة تماما مع بيئاتنا وتقاليدنا وأخلاقنا والعرف السائد ، والخروج عن ذلك فيه انهيار للأسرة التى هى الخلية الأساسية للمجتمع .

ولانساير الرأى القائل بأنه يمكن العناية بالأطفال عن طريق إيوائهم فى المؤسسات والملاجىء إذ أن تعاليم الإسلام والبحوث العلمية تؤكد أن أحسن بيئة لتنشئة الطفل هى الأسرة لأنها نقطة الارتكاز فى تكوين أمة ناهضة يشعر كل فرد فيها بمسئولياته وواجباته .

ونحن شعوب عربية لنا تقاليدنا ولنا عاداتنا ويجب علينا أن نحافظ عليها حفظا على كياننا الاجتماعى ، كما يجب ألا نغفل حقيقة دور المرأة المزدوج فى البيت وخارجه فلا نرهقها فى العمل الخارجى بالدأب على السهر ليلا حتى نضمن مساهمتها فى رعاية بيتها الذى يضم أسرتها التى هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع الذى نعيش فيه .

على ضوء ماتقدم كان الدستور المصرى (١٦ يناير ١٩٥٦) قد ذكر هذا المبدأ الإنسانى الكريم فى مادته التاسعة عشر .

« تيسر الدولة للمرأة التوفيق بين عملها فى المجتمع وواجباتها فى الأسرة »

وهكذا سما المشرع بمبدأ حماية الأمومة إلى مرتبة النصر الدستورى

وهو فى هذا متمش كل التمشى مع المادة الخامسة « الأسرة أساس المجتمع قوامها الدين والأخلاق والوطنية » .

راحة الولادة وحماية الأمومة :

يشير القانون الحالى لتشغيل النساء بأنه يجب على رب العمل منح العاملة إجازة اختيارية إذا شاءت ومقدارها شهر قبل الوضع بشرط أن تقدم شهادة طبية مبينا فيها التاريخ المحتمل لهذا الوضع . وسكت القانون الحالى أيضاً عن الأجر خلال هذه المدة ولذلك فيكفى تطبيق القواعد العامة .

غير أننا نقترح — عملا بمبدأ حماية الأمومة — منع تشغيل المرأة الحامل خلال الخمسة عشر يوما السابقة للوضع وإلا فيعاقب رب العمل كما تعاقب المرأة ذاتها لأن المقصود ليس حماية المرأة الحامل فى حد ذاتها وإنما المقصود من تقرير ذلك المبدأ الإنسانى حماية الأمومة أى حماية المجتمع والمحافظة على سلامة الجيل الجديد حتى لا يخلق النسل ضاويا ، إذ أن القواعد الصحية توجب راحة المرأة الحامل فى الأسابيع القليلة السابقة للوضع لأن العمل خلال هذه المدة غير ملائم لا لحياة الجنين وقد اكتمل نموه ، ولا لصحة المرأة نفسها وقد يؤدى إلى إجهاضها ووفاتها .

كما نقترح أن تكون هذه الإجازة إجبارية على أن تكون — مراعاة لظروفنا الاقتصادية — بنصف أجر ولا نرى مسايرة النظام المعمول به فى إنجلترا الذى يقضى بإجازة إجبارية قبل الوضع لمدة ٦ أسابيع بأجر كامل ، وإن كان فى هذا النظام من الحماية والرعاية ما تحسد عليه الأم الإنجليزية إلا أن هذا النظام لو أريد تطبيقه هنا فسيكون غير ملائم للمؤسسات الصناعية والتجارية وأصحاب المهن الحرة إذ قد يرون فيه إرهاقا لهم ولذلك فإنهم قد يتهربون من تشغيل المرأة المتزوجة بصفة خاصة حتى لا يتحملوا التزامات هذا المشروع .

وأما النظام المعمول به فى العراق فهو يقضى بمنح المرأة إجازة إختيارية إذا شاءت مقدارها أسبوعين قبل الوضع بأجر كامل . على أنه يؤخذ على هذا النظام أمران :

١ — أننا لا نريد أن يكون الأمر موضع اختيار متروك للمرأة الحامل رعاية منا لذلك المبدأ الذى أشرنا إليه وهو مبدأ حماية الأمومة ، إذ قد يلوح لهارب العمل بوسيلة أو بأخرى ليحملها على أن تتنازل عن هذا الحق وقد يكون فى ذلك ضرر بليغ عليها وعلى المجتمع بالتبعية .

٢ — لا نريد إرهاق أرباب العمل بأن يكون الأجر كاملا على سبيل الإلزام خشية أن يتهربوا من توظيف المرأة المتزوجة كما سبق أن قلنا .

لذلك نرى أن منح المرأة الحامل إجازة إجبارية بنصف أجر أقرب إلى العدالة وهذا لا يمنع أن يوجد لدى المؤسسات الصناعية والتجارية أنظمة أكثر رعاية للمرأة وتكون واجبة الاتباع .

ويشير القانون الحالى للنساء إلى منع تشغيل الأم الوالدة خلال الخمسة عشر يوما وإلا فيعاقب رب العمل وتكون هذة الإجازة إجبارية بنصف أجر ، وذلك إذا أتمت المرأة وقت انقطاعها عن العمل سبعة شهور متوالية فى خدمة المحل نفسه وذلك بدون التفات إلى طريقة حساب الأجر باليوم أو الشهر ، وأما اذا كانت العاملة حديثة فقد سكت القانون عن أجرها ، ولذلك تطبق القواعد العامة أى لا أجر بدون شرط ، كما أن القانون قضى أن للوالدة الحق فى امتداد الإجازة الإجبارية الى ١٥ يوم (م ١٣) دون حاجة الى شهادة طبية لأن المقصود منها مجرد الراحة والوقاية .

غير أنه من المسلم به أن القواعد الطبية والصحية تقضى بوجوب راحة المرأة فى الأسابيع اللاحقة للوضع لمدة ستة أسابيع لأن العمل خلال هذه المدة غير ملائم لصحتها وقد يؤدى إلى أضرار صحية لها خطورتها على الأم ولا يهم رضاء الأم أو قدرتها على العمل لأن المقصود هو احتياط صحى ضد المضاعفات .

ومن الثابت طبيا أيضاً أنه بعد الوضع مباشرة يدوم الحيض على الوالدة لمدة ١٥ يوما تقريبا فضلا عن أن دوراتها الدموية لا تعود إلى نظامها الطبيعى إلا بعد فترة لاتقل عادة عن ستة أسابيع كما أنه يلزمها فترة مناسبة بعد الوضع لكى تعود صحتها وقوتها المعنوية إلى طبيعتها .

ولا يخفى أن المرأة العربية عموما لا تميل فى الغالب الأعم الى ممارسة الرياضة الأمر الذى قد يصيب عضلاتها بالارتخاء فضلا عن ضعفها العام بسبب سوء التغذية فى بعض الأحيان ، ولذلك فإنه يلزمها فترة للاستجمام لا تقل عن ستة أسابيع لا ترهق نفسها خلالها حرصا على حماية الأمومة . هذا ويحسن مباشرة الأم لطفلها الرضيع على الأقل لمدة ستة أسابيع حتى لا يتعرض لارتباكات فى الأمعاء والتهابات رئوية ، على أنه لا خوف على الرضيع إن عهد به إلى ممرضة بالبيت مثلا بعد هذه المدة وهذا أمر غير متيسر نظرا لما يتكلفه ذلك من أعباء مالية تعجز عن تحملها معظم النساء العاملات . .

ولا يخفى أن أمر إجازة الوالدة قبل وبعد الوضع كان موضع دراسة وعناية هيئة العمل الدولية فأصدرت الاتفاقية رقم ٣ وتقضى بتحريم تشغيل النساء فى الصناعة والتجارة خلال الستة أسابيع السابقة على الولادة والستة أسابيع التالية لها مع إعطائهن تعويضا مناسبا أثناء هذه الفترة .

فصل العاملة :

يقرر القانون الحالى عدم جواز فصل العاملة بسبب الإجازات القانونية للولادة وإلا فيعاقب رب العمل ، فضلا عن التعويض للفصل التعسفى ، وتشمل هذه الإجازات القانونية فى مجموعها ثلاثة شهور ولا يفيد منها إلا المرأة التى تكون قد أتمت وقت انقطاعها عن العمل سبعة شهور متوالية فى خدمة المحل ذاته ويكون المرض ثابتا بشهادة طبية أنه نتيجه الحمل أو الوضع .

على أنه من اللازم عدم فصل المرأة بسبب إجازتى الولادة الإجبارية ، كما لا يجوز فصلها أيضاً بسبب المرض إذا كان متعلقا بالولادة حتى إذا انقطعت تسعين يوما متصلة أو ١٢١ يوما غير متصله لمن عينت بالمياومة ومن فى حكمها حسب الأحوال فى خلال سنة واحدة (م ٤٥ من قانون عقد العمل) .

ولاننا نرى مراعاة للمبادىء الطبية على النص صراحة على التسوية بين حالتى الإجهاض والولادة لأن متاعب الإجهاض لا تقل خطرا على المرأة من الولادة بل تزيد عنها فى معظم الأحيان وقد يؤدى إلى وفاتها ، فلزم أن يكون الحكم واحدا بالنسبة لهما ، كما أننا نرى التسوية بين الإجهاض القهرى بسبب حادث أو مرض والإجهاض الاختيارى الذى تعاقب عليه المرأة لأن الراحة ضرورية طبيا فى الحالتين وخوفا من المضاعفات القاتلة .

ما هى الآثار التى تنتج عن نزول المرأة إلى ميدان العمل :

أصبح اشتغال المرأة فى شرقنا العربى حقيقة مسلم بها وسوف تضخم هذه الحقيقة فى الأجيال القادمة لدرجة أنه قد يخشى أن تزاحم النساء الرجال فى أعمال كثيرة ، وولوج ميادين لم تتطرق إليها المرأة من قبل . فلقد ناضل الرجال فى البلاد الأسبق إلى الأخذ بسبيل الصناعة المتقدمة لإبقاء زوجاتهم فى المنازل لينصرفن إلى الشئون المنزلية وتربية

الأطفال وتنشئتهم وكان يصعب على العامل أن يرى زوجته وهى تنهض مثله مبكراً وتذهب إلى عملها كما يذهب هو إلى عمله . وشجع أصحاب الأعمال اشتغال النساء فى المصانع من جانبهم لا لأنهم تحرروا فى الفكر ولكن الحرص على الحصول على اليد العاملة الرخيصة هو الذى شجع هؤلاء على تشجيع المرأة على الخروج من المنزل والتوجه إلى المصنع .

لقد أصبح إذن اشتغال المرأة نتيجة حتمية للثورة الصناعية التى حدثت فى أعقاب القرن الثامن عشر وما ترتب عليها من انقلاب جميع ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى جميع أنحاء العالم .

وإذا أردنا أن نستعرض نتائج اشتغال المرأة فيمكن أن نلخصها فيما يلى :

١ — فمن ناحية الإنتاج القومى لا شك أن نزول المرأة إلى سوق العمل يضاعف من الإنتاج العام ويزيد من القوى العاملة ، والدول المتقدمة الصناعية هى التى تستغل طاقة كل فرد ذكراً كان أو أنثى . ولا يخفى أن هناك من الأعمال أيضا مالا يصلح له إلا المرأة .

٢ — يعتبر العمل طريقاً شريفاً للكسب وصون الحياة وحفظا للبقاء ، فعدم وجود مورد كاف للمعيشة للكثير من النساء مثل الأم المطلقة أو المرأة الأرمل أو الفتاة الفقيرة سبب قوى لاشتغال المرأة وبهذا يأمن المجتمع الكثير من الانحراف والشرور التى تنجم عن التبطل .

٣ — من ناحية الحياة المنزلية وتنشئة الأطفال تنشئة صالحة فإن المرأة مثل أى كائن حى له جهد محدود وطاقة لا تتعداها ، فالجمع بين وظيفة ربة المنزل ومسئوليتها عن رعيها ووظيفتها فى عملها بالخارج عمل شاق وجهد ينوء بحمله مخلوق ضعيف مثل المرأة .

لذلك نرى الأسرة تتأثر بخروج الأم إلى عملها — ولو أن فى ذلك من المزايا الاقتصادية وتقديم العون المالى إليها — تتأثر من النواحى التربوية والروحية والصحية والاجتماعية . فما نسمعه عن انحراف الأطفال وتشردهم وماقد يصابون به من آفات وعاهات وضعف العلائق الأسرية بين الأم وأطفالها كما أن تخلخل الروابط العاطفية المتبادلة بين أفراد الأسرة الواحدة قد يؤدى إلى اضطراب الأسرة فانهيارها .

وقد تنبهت الكثير من الدول الأكثر أخذا بسبيل عمل المرأة إلى الكثير من المضار وإن كانت نظرتهم إلى ذلك مادية بحتة إذ أنهم يرون أن عمل المرأة فيه تكليف للدولة من النفقات فوق ما تطيقه ميزانيتها وذلك نتيجة ما تؤديه من الخدمات مثل إنشاء دور الحضانة للأطفال ورعايتهم إلى غير ذلك من تكاليف حماية الأمومة والطفولة والوسائل المختلفة لسد النقص فى الحياة المنزلية والناتج عن تفرغ الأم لعملها الخارجى .

فإذا نظرنا إلى تلك النتائج فهل نستطيع أن نوفق بين واجب الأم فى منزلها وعملها فى الخارج بحيث لاتفقد الأم

طابع الأمومة ، وفى الوقت عينه تحافظ على مورد عيشها الذى يساعد على تنمية دخل الأسرة ويعينها على أداء واجبها فى الحياة وعلى توفير الحياة الراضية للأبناء الذين هم عدة المستقبل وذخر الوطن وذخيرته ؟

لا شك أن هذا التوفيق ليس من الأمور المستحيلة إذا راعينا غريزة الأمومة المتأصلة فى نفس المرأة العربية .

لم تغب هذه الحقيقة عن واضعى (الدستور المصرى) الذى نص فى مادته التاسعة عشر على أن تيسر الدولة للمرأة التوفيق بين عملها فى المجتمع وواجباتها فى الأسرة ، فإذا ألقينا مرة أخرى النظر على المادة التى تليها فى هذا الدستور والتى تنص على أن تحمى الدولة النشء من الاستغلال وتقيه الإهمال الأدبى والجسمانى لوجدنا أن هناك كثيراً من الوسائل التى نستطيع أن نوفق بها بين نزول المرأة إلى سوق العمل والمحافظة على الأسرة أساس المجتمع وقوامها الدين والأخلاق والوطنية .

١ — ففى الزراعة مثلا حيث تعمل المرأة الريفية بجانب الرجل فى الحقل نستطيع بتوفير الآلات الحديثة فى الزراعة أن نوفر الريفية لأعمالها المنزلية أو على أقل تقدير نرفع عن كاهلها مشقة العمل المرهق الذى تؤديه فى الحقل وتجد متسعاً من الوقت لشئون أطفالها وزوجها .

٢ — وضع برنامج لتنسيق الأعمال بحيث نخصص من الأعمال ما يتفق مع طبيعة المرأة والرجل ومعظم عمل كل منهما فيما يلائمه وما لا يصلح بغيره ، هذا إذا راعينا أن شرقنا لا يشكو من قلة الرجال كما كانت أوربا تشكو من قلتهم نتيجة للحروب الطاحنة التى أفنت الملايين من الرجال الأمر الذى أدى إلى نزول المرأة هناك إلى ميدان العمل على هذا النحو الواسع .

٣ — تقديم المساعدة للمرأة ذات الأطفال على القيام بشئون رعايتهم

دور الحضانة :

ثبت من استقراء علم النفس المعاصر بأن أى إجراء لعزل طفل يقل عمره عن خمس سنوات عن أمه فترة ولو قصيرة أمر يتنافى مع الوسائل التربوية الحديثة كما أن فى ذلك تأثيراً سيئاً على نمو الطفل النفسانى وتكوينه الاجتماعى كما يسبب ذلك خمولا للذهن وتحطيما لطابع الحنو وما يؤدى ذلك إلى انحراف النشء .

كل هذا دفع المصلحين فى المجتمعات الغربية الصناعية إلى البحث عن وجود علاقة قوية عاطفية بين الطفل وبين من تظهر كأم ، لما فى ذلك من محافظة على صحة الطفل العقلية وإشعار له بالطمأنينة .

وعندما شبت الحرب العالمية الأخيرة لم تمس الحاجة فى أوربا إلى دفع ربات البيوت للاشتغال بسلطان التشريع ولكن كان من المسلم به ضرورة الاستفادة بعمل أكبر عدد من النساء إبتغاء حفز المجهود الحربى ومن ثم كان من الواجب اتخاذ الخطوات الضرورية لتطمين الأمهات اللائى ينزلن إلى سوق العمل على أطفالهن الصغار اللاتى سيتركنهم خلفهن وإشعارهن بأن هؤلاء الأطفال ستتولاهم بالرعاية أيد رحيمة .

من أجل هذا عمدت فروع وزارتى التعليم والصحة فى انجلترا والموكول ليها العناية بأطفال المدارس والأطفال دون الخامسة من أعمارهم فى دور الحضانة إلى تجنيد خدمات الهيئات المحلية المختصة التى كانت تضطلع بالفعل بمثل هذا العمل على نطاق محدود .

وقد اقتضت ظروف الحرب والحاجة إلى ترغيب الأمهات للعمل فى المصانع بتخفيض سن الالتحاق بمدارس الحضانة من ثلاث سنوات إلى سنتين ولمقابلة الزيادة فى عدد الأطفال بهذه المدارس ، رؤى تكملة الموارد التى كانت قائمة لدور الحضانة باستكمال بعض الإعدادات والترتيبات بالمدارس الإلزامية لتمكينها من العناية بالأطفال دون الخامسة .

أما بعد الحرب فقد تحول الاهتمام من جديد إلى العناية بتعليم الأطفال بعد أن تضاءل الحافز على حضانتهم ومن ثم صار إغلاق عدد كبير من دور الحضانة بحيث نقص عددها سنة ١٩٤٩ إلى ٨٥٥ دار تتولى رعاية ٤٢٫٤٦٠ طفل من بينهم ١٦١٦٤ دون السنتين من العمر .

وقد كان من المستغرب أن يذكر أنه رغم اتساع مشروع الحضانة هذا طول مدة الحرب كما قلنا فلم يكن هناك اتفاق بين البحاث على مدى أهمية هذه الدور وفائدتها سواء من حيث مدى الرعاية التى تقدمها للأطفال أو من حيث مدى مساهمتها فى التغلب على النقص فى الأيدى العاملة .

أما من الناحية الطبية والنفسانية فهناك خلاف كبير على الخطر الذى يستهدف له الأطفال بسبب العدوى عن طريقها إذ يذكر البعض على سبيل المثال أن احتمال الاصابة بالحصبة بين أطفال دور الحضانة يبلغ ستة أضعاف احتمال إصابتهم بهذا المرض لوظلوا فى مساكنهم ، كما أن هناك شكا فيما يختص بالأطفال الكبار نوعا أى الأطفال دون السنتين من العمر ، فلا خلاف بتاتا فى أن مساوىء الحياة فى دور الحضانة للأطفال دون السنتين أكبر بكثير من فوائدها إذ أن احتمال العدوى بين الأطفال دون السنتين أكبر بكثير منها بين من يفوقونهم فى السن كما أن روح الجماعة وهى من أهم مزايا الاختلاط لا يمكن تحقيقها بالمعنى الصحيح بين الأطفال .

من أجل هذا أشار أحد الأطباء البحاثة إلى أن الحرمان الذى يسببه انفصال الطفل الصغير عن أمه له أثر شديد الخطورة على حياته وحالته النفسية يفوق أية ميزة أخرى قد يجنيها الطفل عن غير هذا الطريق .

لذلك قرر وزيرا المعارف والصحة فى انجلترا سنة ١٩٤٥ أنهما مقتنعان بوجهة نظر الجهات الطبية وغيرها أنه فى صالح نمو الطفل وتوفر صحته كما أنه فى صالح الأم أيضا ولذلك فإنهما يريان أن المكان المناسب للطفل دون السنتين هو بقاؤه فى كنف أمه .

لذلك اتجه الرأى إلى أنه فى ظروف السلم يجب تثبيط عزم الأمهات ذوات الأطفال دون السنتين عن الخروج إلى سوق العمل . مع إعداد مدارس الحضانة المستوفية الشرائط الضرورية لاستقبال الأطفال الذين تكون أمهاتهم

مضطرات إلى العمل لظروف فردية أو الذين تكون مساكنهم فى حد ذاتها غير مستكملة للشرائط الصحية أو الذين تكون أمهاتهم غير قادرات ـ لأسباب وجيهة على العناية الكاملة بهم .

على أنه قد تبين للمسئولين فى انجلترا ـ مع ملاحظة اختلاف الظروف بين الشرق العربى من حيث أننا نشكو من البطالة وازدياد الفائض فى الأيدى العاملة الرخيصة — تبين لهم هناك أن الصالح العام يقتضى تضافر جهود جميع السكان ، ومعنى ذلك خروج حتى الأمهات ذوات الأطفال الصغار إلى سوق العمل ابتغاء التغلب على النقص فى الأيدى العاملة والعون على مضاعفة الصادرات لتخفيف حدة الأزمة الاقتصادية والمالية التى تجتازها البلاد .

وما دامت الحاجة ماسة إلى عمل الأمهات بالمصانع فقدرؤى بذل غاية الجهد للتوصل إلى أفضل الطرق والأساليب العملية التى ترتفع بدور الحضانة إلى أرفع مستوى سواء من حيث رعايتها للأطفال أو من حيث إعدادها لتكون بمثابة مدارس لتدريب وتخريج الحاضنات المتخصصات، ويحسن أن نسترعى الأنظار هنا إلى أن هذه المقاييس الحديثة لرعاية الأطفال والعناية بصحتهم وراحتهم تستلزم كثرة النفقات كما تستوجب كثرة عدد المشرفات على دور الحضانة وبالتالى قلة عدد النساء اللائى يمكن تحريرهم من قيود الأمومة للعمل لحفز مجهودات الإنتاج أو مجهودات الحرب .

إذن فما هى الوسائل التى نستطيع بها أن نجعل دور الحضانة تلعب دورا مجديا وذلك عندما يكون الانفصال عن الأم ضروريا أو بعبارة أدق بعدما أصبح اشتغال الأم فى بعض الأحيان ضرورة اقتصادية؟ يشير علماء التربية باتباع الوسائل الآتية :

١ — يجب لضمان ذلك أن تنظم دور الحضانة على نحو عاطفى بحيث توجد علاقات شخصية قوية دائمة بين كل طفل وإحدى الحاضنات اللواتى يشغلن مكان الأم ومضمون ذلك أن يكون لكل مربية مع كل أربعة أو خمسة أطفال صلة دائمة وعلاقتهم بها كعلاقة أم بأطفالها .

٢ — إيجاد ضروب من الرعاية الودية أثناء مداعبة وحمل الأطفال مع توفير فرص كاملة للهو واللعب المناسب لأعمار الأطفال .

٣ — ضمان اتصالات دائمة بين الأمهات والأطفال .

إن تنظيم دور الحضانة على هذه الأسس التربوية هو أفضل ما لدينا من وسائل للتغلب على مشكلة فصل الأم العاملة عن وليدها .

خاتمة

الأم أصل الخليقة ومبدؤها ، وسبب البشرية ومنشؤها ، وهل هناك معنى أعمق من ذلك الذى جرى على لسان شاعر الأرز :

يا أم أنت أنشأت كونا لم يكن لو أن آدم فى الجنان عصاك

ففى هذه القصة الإنسانية الخالدة كل معانى الحياة وأسرارها إذا أن مجرى الكون كان سيتغير ووجه الأرض كان سيتبدل غير الأرض لو عصى أبو الإنسان أم الإنسان . . وأى تبديل وأى تغيير ولكنها رحمة الله تداركت الكون فقد أراد أن يجعل له فى الأرض خليفة حتى ولو كان من ملائكته فقد قالوا له أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون .

أينكر ناكر بعد هذا فضل الأم على الخليقة والأرض وعمرانها والشمس والقمر والنجوم ودورانها وضيائها وسحرها كل هذا لم نكن لنفتح عيوننا على نوره لولاك يا أم ؟

الأمومة فى الدين :

هتف المسيح عيسى بن مريم فى المهد ذلك الهتاف السماوى . . . . . « وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا » .

أى رابطة أشرف وأعظم من هذه الرابطة التى تجمع الأم بوليدها منذ أن خلق الله الإنسان حتى تبلغ مداها على الأرض ؟

هى أعظم الروابط وألصقها بوجود الإنسان من حيث هو إنسان . . إنها رابطة نبتت مع الإنسانية فى صورتها الأولى . . صورة حواء وابنها الأول ومضت الإنسانية فى ركبها الهادر حتى عصر النبوءات فظهرت هذه الرابطة أوضح وأنبل ماتكون حينما نفخ الله فى البتول مريم فولدت عيسى عليه السلام بعد أن هتف من المهد الهتاف السابق الخالد .

ثم انبثق الوحى من قلب الجزيرة العربية وجاء الاسلام على يد معلم الإنسانية وهاديها محمد صلوات الله عليه فرفع قدر الأمومة الى أعلى مقام ، أنه جعل الجنة تحت أقدام الأمهات . .

لقد جاء رجل إلى الرسول صلى عليه وسلم فقال : « يارسول الله .. من أحق الناس بحسن صحابتى » قال : « أمك » قال : « ثم من ؟ » قال « أمك » قال « ثم من ؟ » قال « أمك » قال « ثم من » قال « أبوك » .

وهتف الوحى مرة أخرى « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير »

هذه الأم التى حملت ابنها فى بطنها وهى تزداد كل يوم ضعفا على ضعف وزيادة على ذلك الضعف الذى تقاسيه فى حال الحمل التعب الذى تقاسيه مدة تربيته وإرضاعه بعد وضعه وهى عامان وهى مدة ليست بالقليلة فيجب عليه —

كإنسان ـ أن يشكر الأم ويقدم لها أعظم الخدمات وأكبر المبرات جزاء ما تكبدته معه فيها من المتاعب والمشقات ولذا يقول جل شأنه أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير .

ما أعظم هذه العناية من الله جل شأنه بالوالدين حيث قرن شكرهما بشكره . . إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين .

فهذه الأم هى المستودع والمستقر الخالد لكل المثل الإنسانية الكريمة والمشاعر الفاضلة والتقدم البشرى . . .

هذه هى نبذة عن « الأمومة » فى حد ذاتها .. الأمومة منشئة الكون وسببه

هذه هى الأم التى غذت الأبناء برضاعها وألهمتهم قدس هواها .

هذه هى الأم التى سهرت عند سرير من أنشأتهم وتحملت راضية مرضية العناء والآلام حتى ربتهم .

هذه هى الأم ودورها الخالد منذ الأزل حتى الأبد .

فإذا نزلت إلى ميدان العمل لتشارك الأب جهاده وكفاحه فقد تضاعف فضلها واستحقت كل تقدير وكل إكبار وإعزاز .

دور الحضـــانة

للسيدة عنايات الحكيم

(الجمهورية العربية المتحدة)

يمر الإنسان فى مراحل نمو متعاقبة لكل مرحلة مميزاتها وخصائصها وسماتها . والإنسان الطبيعى إذا لم تصادفه ظروف غير طبيعية ينتقل من مرحلة إلى مرحلة فى اضطراد مستمر متفاعلا مع البيئة التى يعيش فيها بما يكفل لهذا النمو الاستقرار والتطور .

أما إذا صادفت الإنسان فى هذه المراحل ظروف غير طبيعية أو طارئة غير مواتية تهدد كيانه أو تعوق نموه فإنه يصبح ضحية لهذه الظروف أو الطوارىء إذا لم يعمل المجتمع على انتشاله منها أو تهيئة أسباب الوقاية منها . . أو التكيف لهـا ومقابلتها .

أما تلك المراحل فهى :

١ — مرحلة الحمل — وفيها يكون جنينا مصيره مرتبط بمصير أمه . . وحالتها الصحية والنفسية والعصبية بل وظروفها المادية والاجتماعية إذ تلك بدورها تؤثر على مزاجها وصحتها . ومن ثم على الجنين وعلى تكوينه وحتى على استعداداته الفطرية بعد الميلاد ، وعلى ميلاده من حيث سهولته أو صعوبته . . الخ .

بل إنه قبل هذه الفترة — أى قبل مرحلة الحمل — يؤثر اختيار الزوج لزوجته والزوجة لزوجها على مصيره مستقبلا . فهو إما أن يكون جنينا لزوجين سليمين من سلالة أصيلة خالية من الأمراض والعلل العصبية أو النفسية ومن بيئة نقية متجانسة تكفل له النمو السليم فى المستقبل وتكوين الشخصية الطيبة وإما على العكس من ذلك .

وأول إحسانى إليـــكم تخيرى لما جـــدة الأعراق باد عفافها

٢ — أما المرحلة الثانية — فهى السنة الأولى بعد الميلاد وهذه أخطر سنه من سنى الطفل فى حياته إذ لها ما بعدها وهى تتمة لتكوينه الأساسى فى بطن أمه . وفى هذه السنة يكون غضا ضعيفا لاحول له ولا قوة لم يدخل جسمه ميكروبا يكسبه مناعة . ولذلك فهو يكون عرضة لأن يودى أى ميكروب أو أى قذارة بحياته . . ولذلك فقد جعل الله له لبن أمه غذاء طبيعيا بعيدا عن التلوث . . وافيا مقويا لا يعلوه غذاء إذا كان لبنا طبيعيا لأم طبيعية وهو يكسب الطفل مناعة ، وبه جميع المواد التى يحتاج إليها نموه . ولذلك فإن الأطباء إذا حدث للطفل أى توعك يمنعون

عنه جميع الأغذية إلا ثدى الأم لخاصيته العجيبة من تنوع يناسب حاجة الطفل — ففى الأشهر الأولى من الرضاعة يكون خفيفا مناسبا لسن الطفل ثم تأخذه الدسامة والتطور بما يناسب حاجة الرضيع كما أنه ينزل فى الثلاثة أيام الأولى أشبه بالماء ويقال له « لبن المسمار » الشىء الذى يغسل معدة الطفل ويناسبه فى حداثة ميلاده .. كالينسون تقريبا وما يشبهه .

وفى هذه السنة الأولى تتكون هيئة الطفل وكيانه مما جعل الاهتمام بها أهم ما يكون .. فهى تقرر حالته .. حياته أم مماته .. تكوينه السليم أو تكوينه المضمحل العليل حتى رأسه فأنه من المحتمل أن تقفل غضاريفها قبل الميعاد الذى تكتمل فيه قواه الذهنية .. إذا لم يعتن بإعطائه قسطا وافرا من الاهتمام أو أهمل صحيا أو انتابه إسهال أزمن فسبب له الهزال ... الخ .

من هنا نتبين أهمية نوع الحضانة للطفل فى هذه السنة التى يحتاج فيها كلية إلى أمه ليس معنويا فقط وإنما ماديا — ويقال أن الحبل السرى أو مايشبهه — يكون موجودا بصفة معنوية بينهما فإن إحساسات الأم باحتياجات مولودها تكون صادقة حتى ولو كانت بعيدة عنه وكذلك فإن تدهور صحتها تؤثر فيه تأثيراً مباشرا .. وكذلك لإحساساتها من ألم أو حزن أو فرح وانشراح ليس فقط عن طريق اللبن .. ولكن أيضاً عن طريق الجهاز العصبى والجو المحيط بالأم .

ومن هنا يقال دائما لقد أرضعته أمه خيرا أم شرا .

تأتى بعد ذلك المرحلة من سنة إلى ثلاث سنوات وهى سنوات الحضانة الأولى التى يتعلم فيها الطفل المشى والكلام والأكل بمفرده . ويستقبل فيها أول الانطباعات عن الحياة ويكون أول العادات المتعلقة بحياته اليومية . ويشرب أول الطباع من بيئته . كما أنها تتمة لتكوينه من أسنان وصحة عامة وفيها يمكن علاج بعض الاتجاهات التى تكون حدثت لظروف خاصة بالحمل أو الوضع أو الحياة وأحداثها . وتكون عضلاته لم تثبت بعد ثبوتا نهائيا وإنما هى فى سبيلها إلى الثبوت على حال معين — كالعضلات التى يمكن نتيجة لضعفها أن يصاب بفتاق أو التقلصات التى يمكن أن يصاب بها نتيجة لضعفها أو تقلصها كالحول مثلا فى العين والعضلات المتحكمة فى التبول — وكل هذه الأشياء تدلنا على قيمة الحضانة الحكيمة خصوصا بواسطة الأم أو من يمكن أن يقوم محلها عاطفيا بالنسبة للطفل . إن الطفل فى هذه المرحلة محتاج إلى من يفهمه ويفهم احتياجاته ويكيف نفسه له بدلا من أن يكيفه لنفسه .

ثم تأتى بعد ذلك المرحلة من ثلاث سنوات إلى ٥ أو ٦ وفيها يكون الطفل قد تمكن من التحكم فى عضلاته ومن التعبير الصحيح عن نفسه واستعمال أطرافه كلها وابتدأ يدرس الحياة حوله من زاويته الخاصة شاعرا بشخصيته معتزا بها .

وتلك هى المرحلة التى وإن كان محتاجا لأمه أساسيا فيها إلا أنه يمكن أن يعاونها فى حضانته غيرها ، فإن

الفطام الروحى يبدأ من هذه السن التى يمكن كذلك أن تعد لما بعدها ... سن المدرسة وبدء التعلم والتربية مع أقرانه وقريناته .

ونحن إذ نذكر هذه المراحل أنما قصدنا إلى تبين خصائصها والتدرج من هذا إلى ما يجب أن تكون عليه حضانة الطفل فى هذا الضوء من الفهم .

والواقع ، وكما تبين مما سبق ، أن حضانة الطفل الطبيعية إنما هى لأمه وبيئته المنزلية التى ولد فيها وتغذى منها وشرب من سماتها — فهى التى يمكن أن تمده بالدفء العاطفى الذى يحتاجه والفهم الصحيح لاحتياجاته المادية والنفسية — إذا كانت هذه البيئة وهذه الأم على السلامة بما يكفل للطفل ذلك — وحتى فى هذه الحالة فإن هناك من الظروف ما يضطر المجتمع إلى توفير نوع من الرعاية لأسباب مختلفة . وأحيانا تتخذ هذه الرعاية شكل حضانة لرعاية الطفل إما لعدم وجود أمه بجانبه كل الوقت أو جزءا منه — إذ تضطرها ظروف الحياة أو ظروف صحية أو اجتماعية إلى عدم الوجود بجانبه أو لأسباب نفسية وظروف إجتماعية وحيدا دون زميل مثلا .

وقد كان البيت العربى فى الماضى ليس بيتا بسيطا لا يسكنه إلا الأب والأخوات ، وإنما كان مركبا كبيرا تسكنه عائلة متشعبة فيها الخال والعم والجد والجدة والأقارب . الذين كان يمرح بينهم الأطفال غير معتمدين فى تربيتهم فقط على أسرتهم المحدودة وإنما كانت البيوت إذ ذاك تسد حاجة الطفل والأم إذا ما احتاج الأمر ، فهناك دائما من يمكن أن تكل إليهم رعايته لفترة من الزمان إذا ما استدعى الأم خطب أو موت أو ظرف صحى أو حاجة من حاجيات الحياة على تنوعها وهى تكون إذ تكفله لإحدى الأقارب مطمئنة عليه قريرة النفس لأن من توكله إليه يحبه حبا لا يقل عنها بحال — كما أن وجود الأطفال الكثيرين فى البيت كان بيئة طبيعية يمكن أن تكفل له نمو الشخصية والتعبير عن النفس وعدم الملل .

أما فى حياتنا الحديثة ، حتى وإن كانت الأم منقطعة لتربية طفلها ، فإنه أحيانا يشعر بالسأم والملل والاحتياج الى الانطلاق أو الجماعة المماثلة فى السن من الأطفال ، وإلى الحدائق بسبب السكن المكتظ وغير المناسب فى المدن والمدن الصناعية التى لا يحسب فيها حساب الطفل من توفير الحدائق القريبة أو لبعد هذه الحدائق فلا يتسع وقت الأم ولا نشاطها لارتيادها دائما مع طفلها خصوصا إذا كان الأمر يحتاج إلى مواصلات . وفى هذه الحالة تكون الحضانة لبعض الوقت ترفيها عن الطفل والأم .

فتقديم المجتمع لهذا النوع من الحضانة فيه تسهيل لمهمة الأم والترفيه عن الطفل .. حتى فى حالة وجود الأم بجانبه ترعى مصالحه .. كما لا يخفى أن هناك ظروفاً إما مؤقتة أو مستمرة بالنسبة للأم والأسرة تضطر المجتمع إلى تقديم هذا النوع من الرعاية الاجتماعية .. منها الظروف الشاملة والتى تعم بيئة بأسرها أو فئة بأسرها ومنها

ظروف خاصة فردية . ومنها ما يحتاج وجود الطفل فترة من اليوم ومنها ما يحتاج وجوده فى اليوم كله ومنها ما يحتاج بقاءه فى كنفها بصفة مستديمة حتى يشتد ويكبر .

وفيما يلى سنحاول شرح هذه الظروف ونوع الحضانة تبعا لذلك ثم نتدرج الى الظروف المؤقتة والفردية ونوع الحضانة المناسبة .

من هذه الظروف الشاملة نزول الأم الى ميدان العمل بعد الثورة الصناعية وما تبعتها من ظروف اقتصادية مرت بها الأسرة وما تزال تمر فيها . . . واحتياج الأسرة الى دخل مكمل تكتسبه الأم من العمل طول الوقت أو بعضه فى المصنع أو للوظيفة التى تهيئها لها مواهبها وثقافتها . . ولقد رأينا ما انتاب أوربا والدول التى حدثت فيها الثورة الصناعية من محن وخطوب وانخفاض فى مستوى المعيشة العائلية تبعا للتطور الصناعى وما ترتب عليه من تطور اقتصادى وازدياد فى نفقة الحياة وتراكم لأعبائها على كاهل الزوج والحاجة الى تفرق الأسرة الكبيرة كل فى ناحيته مستقلا عن الآخر .

ونحن الآن نشهد فجر التصنيع فى الدول العربية والأجدر بنا ألا نقف مكتوفى الأيدى نتفرج وتدهمنا الحوادث وإنما يجب أن نتجنب ما تعرض له غيرنا فى تجربته المشابهة ونعد العدة قبل أن تدهمنا الحياة بمفاجآتها . فنحن نعيش فى عصر ديناميكى (حركى) يبنى التخطيط فيه على أساس من التطور الحركى وترسم الخطط لسنين مقبلة فى ضوء تصور ما سوف تكون عليه الحال من تعداد للسكان وامتداد للعمران وتقدم فى الميادين المختلفة وفى ضوء احتياجات هذا التقدم للخدمات الاجتماعية والرعاية الواجبة .

ومن أهم الاحتياجات التى سوف يصادفها المجتمع والأسرة نزول المرأة إلى ميدان العمل بصفه عامة شاملة فى عصر التصنيع المقبل . . واحتياجات الأمومة والطفولة وتيسير الحياة العائلية لها بجانب العمل والمساهمة فى صرح وبناء المجتمع الجديد .

هذا التطور لا بد منه وهو حادث لا محالة وعلينا نحن أن نعد العدة .. علينا أن نرعى الجيل الجديد ونجنبه النتائج المترتبة على نزول الأم الى ميدان العمل — علينا أن نرسم الخطط المناسبة .

ومن أهم ضروريات هذه الرعاية دور الحضانة لهذه الفئة التى سوف لا تكون قليلة من النساء العرب .

وهذا النوع عادة يكون من نوع الحضانة الذى يظل فيه الأطفال طول اليوم أو نصفه حسب نوع عمل الأم .

ولكى نرسم خطة مناسبة لإنشاء هذا النوع من الحضانات يجب أن نعمل إحصائية واقعية دورية لعدد العاملات والموظفات الآن ، ونقدر احتياجاتهن من عدد دور الحضانة تبعاً لذلك كما نعمل حساب نسبة الزيادة العددية عاما

بعد عام وما يجب أن يحدث فيها من تطور فى فترة الخمس سنوات المقبلة حتى نواجه الزيادة فى عدد العاملات بزيادة فى عدد دور الحضانة وسعتها ونوعها من حيث التكيف لنوع الحياة الصناعية المتطورة واحتياجاتها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية .

وفيما عدا ذلك فهناك أنواع الحضانه التى تسد حاجة فئة أو حاجات فردية خاصة طارئة ، ومن النوع الذى يسد حاجة فئة معينة دور الحضانة التى تنشئها جالية من الجاليات الأجنبية مثلا أو اليونسكو .

ومنها ما فرضته الحاجة الاجتماعية كالحضانة الخاصة بالأطفال اللقطاء أو الأطفال الذين فقدوا أحد الأبوين أو كليهما . وهذا النوع من دور الحضانة غالبا ما يكون مكان إقامة مستمرة ..

وهناك أنواع أخرى تكون ملحقة بأندية السيدات غرضها إشراك الطفل فى الحياة الجماعية للأطفال الآخرين تعويضا عن كبر حجم الأسرة فى الماضى وتجنبا لما يمكن ان ينتابه من سقم لصغر حجم الأسرة الحالى .

وهناك أنواع من الحضانة تسد حاجات مؤقتة للأم مثل دور الحضانة الملحقة بدور الملاهى أو المحال التجارية أو محطات الانتظار فى السكك الحديدية ، يمكن أن يبقى فيها الطفل فترة ساعات عارضة حتى تقضى الأم حاجياتها وتجنبا له من إجهاد الزحام والانتظار الممل ، وإعطاء الأم الفرصة فى مزاولة نوع من النشاط الضرورى وتحريرا لها من عبودية المولود إذا ما احتاجت لقضاء حاجة ملحة أو تقديم مساهمة فى النشاط الإنسانى فترة من الوقت .

ويمكن تقسيم الحضانة من حيث النوع إلى مايلى :

١ — حضانة لأولاد العاملات .

٢ — حضانة لأولاد الموظفات من فئة معينة كالمدرسات أو الطبيبات . .ألخ .

٣ — حضانة لليتامى أو اللقطاء أو من ليس له عائل .

ومن حيث فترة الإقامة إلى :

١ — حضانة طول اليوم .

٢ — حضانة نصف اليوم .

٣ — حضانة لبضع ساعات معينة طارئة فى اليوم

٤ — حضانة للإقامة طول الوقت .

ومن حيث السن إلى : —

١ — حضانة للأطفال منذ الولادة، وهذه الحالة عادة نادرة وخاصة بالطوارىء الاجتماعية أو الصحية أو الاقتصادية وعادة ما تكون طول الوقت .

٢ — حضانة من سن سنة إلى ٣ سنوات، وهذه عادة تكون أيضا للطوارىء الاجتماعية أكثر منها للحياة العادية وتفرضها ضرورة اقتصادية أو صحية — ويمكن أن تكون إقامة مستمرة أو طول اليوم أو نصفه حسب الحاجة والظروف .

٣ — حضانة من سن ٣ إلى ٥ أو ست سنوات وهى الإعداد للمدارس وغالبا ما تكون طول اليوم أو نصفه وهى خدمة لأولاد العاملات أو الموظفات، ولعل هذا النوع هو الذى نحتاج اليه بصفة عامة الآن . ويجب البدء به فورا بنسبة الاحتياج إليه ثم تأخذ فى التزايد فى المستقبل .

ولعل هذا يكون أفضل من ترك الطفل مع الدادات الجاهلات أو عند الجيران .

أما من حيث الإشراف والإنشاء فيمكن أن نقسم الحضانة إلى : —

١ — حضانة تنشئها الدولة وتديرها وتنفق عليها .

٢ — حضانة تنشئها وتديرها هيئات نصف حكومية تعان من الدولة وللدولة نصف الإشراف وكثير من التوجيه وهذه لا تختلف كثيرا عن سابقتها الا إنها تخضع أكثر للمقتدرين .

٣ — حضانة خاصة ينشئها ويديرها الأفراد أو بعض الجهات الخاصة وهذه عادة ما تكون تجارية أكثر منها للنفع العام .

٤ — حضانة تنشها هيئات شعبية (فى هيئة تعاون) لتحقيق نفع مشترك وتلك هى دور الحضانة التعاونية وهى الدور الذى يكون فيه المكسب الفردى غاية ما يكون من الضآلة ولكن النفع أكثر ما يكون إلى التحقيق حيث أن الزيادة فى الدخل تصرف لتحسين المنشأة ولا يستفيد من هذه الزيادة إلا الأشخاص المساهمين حسب قانون التعاون .

وهذا هو النوع (الذى أحبذه وأوصى به) ونزمع أن نبدأ فعلا بإنشائه كأمهات . عندما يتم تحقيق فكرة الاتحاد الذى نحن بصدد تكوينه للأمم العربية .

وهناك نوع من الحضانة لم نذكره وهو الحضانة التجريبية وهو بمثابة بوتقة الاختبار الذى يمكن أن تجرب فيه الأفكار والنظريات والطرق التربوية على نطاق ضيق حتى إذا ماثبتت صلاحيتها عممت على نطاق أوسع ، ونحن فى مسيس الحاجة إلى هذا النوع فى بلادنا العربية لما يحققه من نفع أكيد واقتصاد فى الجهد والتكاليف وتجنبا

لعدم الاستقرار والتخبط فى الطرق على نطاق واسع ، وهو يحتاج إلى الإعداد والبحث عن المؤهلات والمؤهلين للتربية وإلى رصيد من المال يكفل إنجاح المشروع .

ومن هذا النوع نذكر تجربة السويد على سبيل المثال وهى علاج لسن المراهقة بتغليب عاطفة الأمومة فى الفتيات على ما عداها من عواطف خطيرة فى هذا السن وتنميتها فيهن بتدريبهن على العناية بالأطفال الصغار وفى هذه السن تكون الصلة بين الفتيات والأطفال صلة طبيعية وثيقة .

وإلحاق الحضانة بالمدرسة الثانوية للبنات أو ما يماثلها على أنها حقل تجربة يمكن أن تنجح تحت الإشراف الفنى الحكيم فى أنسب سن لهذا التدريب .

وفيما يلى كذلك نذكر تجربة أخرى وهى تجربة مس ليليان فى أسيوط للقطاء — وفيها تعتمد على الأم فى تربية طفلها ولذلك فقد جمعت الحضانة الأطفال وأمهاتهم بجانب أمهم الكبيرة مس ليليان — وهى تعتمد على طبيعة البيئات لعناية الأم الأصلية بوليدها وإنما فى ظروف مواتية وتحت إشراف وتوجيه رشيد .

وكذلك هناك أنواع أخرى من الحضانات التى رأيتها فى سويسرا ويوغوسلافيا ـ والتى سمعت عنها فى روسيا ـ وكلها تجارب وأنواع فنية تتبع نظرية أو أخرى من نظريات التربية وتشترك فى الأساس وهى المحافظة على سلامة الطفل جسمانيا ونفسانيا واجتماعيا على يد إخصائيات وإخصائيين تأهلوا لهذه المهنة وشغفوا بها. وأهم مايقدمونه إلى الطفل هو الحنان الطبيعى الذى لا يعوضه إلا الأم ولكنه حنان مقترن بالحزم والنظام لصالح الطفل وليس لصالح المشرف على تربيته .

كما أن الفهم الصحيح لاحتياجاته دون إشعاره بالغربة أو الوحشة هو العنصر الثانى الذى أسست عليه هذه الدور .

ومن رأيى فإن الحضانة — لما قدمت من أسباب صحية ونفسية — يجب ألا تبدأ إلا بعد انتهاء سن الرضاعة — أما ما قبل ذلك فالأجدر به الأم . . ولقد تنبهت الدول إلى ذلك فنصت فى اتفاقية دولية على السماح للأمهات العاملات بفترات راحة للرضاعة — وهذا طبعا لا يتأتى إلا إذا كان بجانب المصنع أو محل العمل حضانة خاصة أو كان البيت يقرب للمصنع أو مكان العمل .

وابتعاد الأطفال عن أمهاتهم وذويهم فترة طويلة يمكن أن تنشأ عنه أضرار عاطفية ومشاكل نفسية وصحية ، ذلك أن الطفل يجب أن يجد له مرجعا واحدا يكون متصلا به نفسيا يفهمه ويسد حاجاته العاطفية فى هذه السن كالأم أو من يحل محلها .

وأذكر مثلا من تجربتى الشخصية :

سهير — وقد أتت إلى مدرستى الخاصة فى السنتين ونصف — من حضانة ممتنى بها من جميع الوجوه إلا أن

العناية العاطفية والصلة بين الدادة أو المربية كانت صلة واقعية عامة موزعة على جماعة وليست عناية خاصة لكل طفل كأنهم تماما فى مصنع أطفال . . يلبسون ويأكلون وينامون بطريقة آلية تتغير عليهم الأيدى وتتنوع الوجوه حسب الورديات وتوزيع العمل إداريا — وليس هناك وجه واحد يرونه بصفة مستديمة ويرجعون إليه إذا ما احتاجوا إليه ويقوم محل الأم فى إعطاء العناية الشخصية لكل فرد .

وكانت النتيجة أن جاءت إلى سهير هذه فى حالة من القلق والخوف والانكماش والانطواء والهزال تبعا لذلك تدعو للشفقة ، وانتهى بها الأمر أن صارت طفلة طبيعية من أظرف وألطف أطفال الحضانة لا تخشى شيئا ولا تخاف من أحد — وقد تركتها فى الحضانة حرة ترتاد أى مكان تحب وتمكث مع أى شخص تأنس إليه وكانت تحب دائما أن تأتى إلى وتجلس على مكتبى وتركتها تفعل ذلك واحتضنتها كأمها تماما . حتى أتى يوم لاحظت ارتفاعا فى حرارتها فتركت مكتبى ومكثت بجانبها فى مكان العزل حتى حضرت أمها وحلت محلى فى العناية بها فى مرضها ، ومما أدهش أمها أن أترك المكتب من أجل أصغر طفلة فى المدرسة ولكنى فضلت أن يقوم غيرى بالأعمال الأدارية العادية حتى لا أخطىء فى حق الطفلة خطأ يمكن أن يردها إلى حالتها القديمة من قلق وكان ردى على أمها القصة المعروفة . . . وهى أن سألت إحدى الأمهات أى أطفالها تحب فكان جوابها « الصغير حتى يكبر والبعيد حتى يحضر والمريض حتى يشفى » .

وهذا مايجب أن تكون عليه صفات المشرف على هذه الدور . . يجب أن يعلم أنه الأم بل الأم الروحية والفعلية للأطفال جميعا وإنما ليس بصفة جماعية وإنما كل فى حد ذاته أولادها جميعا ويجب أن تنقل إليهم الاستقرار النفسى الذى كاد أن يفقده أطفال هذا العصر الآلى والحياة المركبة حتى مع أمهاتهم وذويهم لكثرة انشغالهم وتعدد أعبائهم الحيوية والمعيشية والإنسانية .

والمشرفة على مثل هذه الدور يجب أن تتنبه إلى ذلك وتعيه وتعوض الأطفال هذا النقص ، بل إن هناك مهمة أكبر من ذلك وهى علاج ما قد يكون قد انتابهم من أمراض أو عقد نفسية أو مشاكل عاطفية يكونون قد تعرضوا لها لظروف حياتهم بسبب المدنية الحديثة وما جرته على الأسرة من مشاكل لايخلو منها إلا النادر القليل من البيوت ، ولا أكون مغالية إن قلت غير المتمدينة أو غير المثقفة أو غير المسئولة فى أكثر الأحيان .

وعند الإنشاء يمكن أن نلخص احتياجات وحدة للحضانة فيما يلى . —

١ — إشراف صحى ونفسى

٢ — إشراف اجتماعى

٣ — إشراف تربوى

ويمكن أن يحدد متوسط العدد للأطفال ب ٢٠ ، أى أن كل عشرين طفل يحتاجون إلى ممرضة وإخصائية

اجتماعية ومربية ، ثم إلى مساعدات فى الخدمة والعناية . . والأهم من ذلك احتياج الوحدة إلى شخصية تقوم محل الأم الروحية تنقطع لهم ويرجع إليها الأطفال بصفة أساسية . ويعتبر الكل مساعدات لها . أما من جهة المكان فوجود حديقة مشمسة يحسن أن تكون من النوع المزروع بالجازون أو النخيل وحجرة يفضل أن تكون مصنوعة من الزجاج فى أغلب جدرانها تدخلها الشمس والهواء . ويحسن أن تكون خالية من الدرجات والسلالم . . وأن تكون قريبة من مرافق المياه كما يحسن أن تكون الأدوات التى فى متناول الطفل بسيطة سهلة التنظيف ولكل طفل أدواته الخاصة .

واللعب يحسن أن تنوع وتخرج للأطفال كأنها جديدة حتى لا يملون منها ، وأن نرضى جميع احتياجاتهم التربوية النفسية فى تنوعها ، وتخصص لها ميزانية خاصة للتجديد والتنويع والتعويض فهذا معمل الطفل النفسانى لا يجوز التقتير فى الصرف عليها والإهمال فى طريقة اختيار مفرداتها .

وهناك طريقة للعلاج النفسى يقال عنها طريقة العلاج باللعب تعالج بها هذه المشكلات التى ذكرناها بواسطة إخصائيات فى العلاج النفسى . فتهشيم الطفل مثلا لإحدى العرائس أحيانا ما يكون تعبيرا عن شعور الكراهية لأحد أفراد أسرته بسبب معين وهو بإخراجه هذه الطاقة فى العروسة يتخلص من بعض المشاعر غير المرغوب فيها ويفهم نفسه وتكون أقدر على مطابقتها للواقع ، وليس معنى هذا أن نترك الأطفال يتعودون على التخريب وعدم النظام وعدم الاعتناء بمقتنياتهم وإنما هى حالات خاصة يكتشفها المربى المؤهل لذلك فيعالجها عندما يحتاج الأمر للعلاج .

وقد أردت فقط أن أبين ما لأهمية هذه الفترة وخطورتها فى نمو الأطفال واحتياجاتها إلى التأهيل والتخصص وصرف الجهد الكبير ، لأن السائد أن الكثيرين حتى من المثقفين ينظر إليها بعين البساطة والإهمال وعدم الاكتراث ويظنون خطأ أنها تحتاج فقط إلى دادة لتنظيف الطفل وحمايته من الأخطار الجسيمة التى ربما يتعرض لها فى غياب أمه دون الأخطار النفسية الجسيمة التى يتعرض لها لو أننا تركناه فى بيئة غير صالحة، حتى أن بعض الوزارات التربوية تترك تربية النشء فى المراحل الابتدائية لمن اتقنوا فقط القراءة والكتابة لأقل درجات التعليم ظناً منهم أن المسألة مسألة تدريس لأوليات القراءة والكتابة وليست تربية خلقية واجتماعية وإنشاء جيل من القادة المفكرين وإنشاء أسر من المواطنين السعداء ومساعدة لهم على التعبير عن أنفسهم تعبيراً صادقاً وفهمها فهماً صحيحاً . وتلك لعمرى مهمة أصعب بكثير من مهمة أستاذ الجامعة ولا أقول مدرس ثانوى لأنه يصادف مثل هذه المشكلات دائما بين المراهقين، وإنما مدرس الجامعة يجب ألا يذهب إليه الشباب فجأة وكأنه لم يمر فى مراحل التربية السالفة من ابتدائى وثانوى ولم يوجه التوجيه الكافى الذى يجعله يعتمد على نفسه ويشعر بشخصيته فى الجامعة، ولا يحتاج لمربى وإنما إلى علماء يتزود من علمهم ويسترشد بتجاربهم . وهكذا يجب أن يكون فهمنا الصحيح لمراحل التربية .. وأولها بل وأهمها الخمس سنوات الأولى من حياة الطفل فى حضانته . خصوصاً إذا احتاج الأمر إلى ابتعاده عن أمه أو ذويه . فإن العبء يصبح أمانة عظيمة فى عنق المسئولين عنه . وأنه ليس عبء أطفال وإنما هى أمانة أجيال .

وقد صدق المثل القائل : « إن الأم التى تهز المهد بيمينها تحرك العالم بيسارها » وأقول إما إلى حرب ضروس وتدمير شامل وإما إلى بناء ورخاء . ذلك إن وجهنا الأم وتعهدناها بالرعاية . ولكنى أذهب أبعد من ذلك (فأقول ليست الأم هى وحدها التى تربى الطفل إنما هو الجو الذى نحدثه) البيئة التى يعيش فيها سواء كانت بيئة الأم والأب والأولاد فى الأسرة أو الجو الذى يسود الحضانة فى المؤسسة التى تربى فيها الأطفال .

ألا فلنولى هذه المرحلة العناية اللائقة بها إذا كنا نريد لمستقبل بلادنا العربية خيراً وإذا كنا نريد للإنسانية سلاماً وطمأنينة وجيلا ينعم بهذا السلام وهذه الطمأنينة .

نظام الأسر البديلة وأهميته فى رعاية الطفولة

للأستاذ

سليمان محمود مرزوق

(الجمهورية العربية المتحدة)

مقدمة :

لقد نالت رعاية الأطفال اهتماما كبيرا فى كل الدول منذ عهد بعيد ويرجع ذلك إلى دوافع مختلفة سواء كانت دوافع إنسانية أو دينية أو اجتماعية ، فليس من العسير إثارة العطف والشفقة فى أشد الناس قسوة وأكثرهم أنانية إذا كان الباعث على ذلك إيواء طفل محروم أو رعاية طفل بائس، كما أن جميع الأديان تنص على رعاية اليتيم والمسكين. ونظراً لأن الأطفال لا يستطيعون بحكم ضعفهم وقلة حيلتهم تغيير الظروف التى يوجدون فيها فإن على المجتمع أن يقوم بحمايتهم ويتولى أمر رعايتهم .

لذا نجد فى صفحات التاريخ الكثير من مظاهر الاهتمام بأمر الأطفال العالة واليتامى والمشردين ، وقد زاد هذا الاهتمام فى القرن الحالى وخاصة بعد أن كشف لنا علم النفس عن أهمية أدوار الطفولة الأولى فى تكوين شخصية الفرد وفى تكوين أنماط سلوكه . ولا شك أن الاهتمام برعاية الأطفال يمكن اعتباره إجراء وقائيا إزاء ما قد يحدث لو أهمل شأنهم من انحرافهم أو إجرامهم أو عدم تكيفهم فى حياتهم الخاصة أو عدم تكيفهم مع المجتمع .

والأسرة هى البيئة الأولى التى تتلقى الطفل ولا توجد وسيلة يمكن أن تحل محل الأسرة الطبيعية المكتملة التكوين ولا يوجد ما يعوض شعور الطفل فى أسرته بأنه محبوب ومرغوب فيه لذاته . ففيها يتهيأ للطفل الشعور بالأمن والطمأنينة ومنها يحصل على حاجته من الحب والعطف . وفيها ينمو ويتعلم ويكتسب الكثير من الخبرات والقيم الروحية والاجتماعية ، هذا إذا توافرت فى الأسرة الأسباب التى تمكنها من القيام بهذه الوظائف، ولكن كثيراً ما ينتاب الأسرة ظروف تجعلها غير مستكملة لمقوماتها لغياب أحد الوالدين بسبب الوفاة أو الطلاق أو الانفصال أو المرض الطويل أو لانعدام المثل العليا فيها أو لقلة مواردها أو لأية أسباب أخرى تجعلها عاجزة عن رعايتها لأطفالها. وأول ما يجب اتخاذه هو محاولة جعل الأسرة قادرة على تأدية وظيفتها الطبيعية وإزالة العقبات التى تواجهها . أما إذا كان علاج الأوضاع فيها غير ممكن عند ذلك يصبح من الضرورى تدبير وسائل أخرى تقوم مقامها يمكن أن توفر للطفل رعاية أقرب ما تكون إلى الرعاية الأسرية والحياة العائلية .

معنى الرعاية البديلة :

يطلق لفظ الرعاية البديلة على كل الوسائل التى تستخدم لرعاية الأطفال وتربيتهم بعيداً عن أسرهم الطبيعية سواء تم هذا عن طريق قيام الوالدين أو من له حق الولاية على الطفل بأية ترتيبات خاصة مع أسرة أخرى لرعايته أو مع إحدى الهيئات الاجتماعية لإيداعه فى أسرة بديلة أو فى مؤسسة .

ولقد كانت الرعاية البديلة فى المؤسسات أول أنواع الرعاية للأطفال الذين لسبب أو آخر لا يمكن رعايتهم فى أسرهم الطبيعية، وكانت هذه الرعاية ولا تزال قاصرة على الأطفال المهملين والعالة الذين يعجز والداهم عن توفير حياة عائلية لهم أو يعجزون عن الإنفاق عليهم أو الذين يثبت عليهم إهمالهم لأطفالهم أو استغلالهم بحيث يصبح إبعاد الطفل عنهما أمراً لا مفر منه . وكان هذا الاتجاه يقوم على اعتبار أن مثل هؤلاء الآباء غير أهل للقيام بمسئولياتهم وأن عليهم أن يتنازلوا عن حقهم فى الولاية على أطفالهم حتى يمكن تدبير أمر رعايتهم عن طريق إحدى الهيئات الاجتماعية . وقد نالت الرعاية فى المؤسسات اهتمام الكثير من أهل الخير والمهتمين برعاية الأطفال فأنشأوا الكثير منها وأوقفوا لها الكثير من أموالهم حتى يضمنوا لها الاستمرار فى تأدية خدماتها بعد وفاتهم ، واستحوذت هذه الوسيلة على تفكير معظم الناس على اعتبار أنها الوسيلة الوحيدة لرعاية الأطفال الذين حرموا من الرعاية فى أسرة طبيعية.

وبالرغم من حاجة الأطفال وخاصة صغار السن منهم إلى الرعاية الأسرية فقد ظلت هذه الوسيلة هى السائدة ردحا طويلا من الزمن . وفى منتصف القرن الماضى بدأ كثير من المصلحين الاجتماعيين يوجهون الكثير من النقد لهذه الوسيلة نظراً لما كان يلقاه الأطفال من الإهمال فى هذه الرعاية الجماعية ومن سوء معاملة القائمين بالعمل فيها وعدم فهمهم لواجباتهم فضلا عن ازدحامها بعدد كبير من الأطفال لدرجة لا يمكن معها توفير الرعاية اللازمة لهم ، وقد ساعد على ذلك ما نادى به علماء النفس من أهمية الأسرة فى تنشئة الطفل وتربيته مما أدى إلى المناداة بعدم صلاحية المؤسسات كوسيلة لرعاية الأطفال نظراً لأنها بيئة صناعية تبعده عن الحياة الطبيعية وتجعل تكيفه مع المجتمع بعد خروجه منها صعبا . وبالرغم مما وجه إلى المؤسسات من نقد فإن مؤسسيها ظلوا متمسكين بها وكل ما أمكن إدخاله عليها من تعديلات كان فى حدود ضيقة كتقسيم الأطفال إلى مجموعات صغيرة أو « أسرات » وإسناد الإشراف عليهم إلى مشرفات أطلق عليهن « أمهات » . كما أن بعض هذه المؤسسات التى أنشئت حديثاً بنيت على نظام البيوت الصغيرة وخصص كل واحد منها لمجموعة صغيرة من الأطفال بدلا من إقامة بناء واحد ضخم يضم الجميع . كما اتجه بعضها إلى توفير الوسائل المختلفة لتقوية صلة الأطفال بالبيئة الخارجية كإلحاقهم بالمدارس أو المصانع الموجودة فى البيئة بدلا من إنشاء مدارس أو ورش صناعية داخلها ، كل ذلك لجعل الرعاية فى المؤسسات أقرب ما يمكن إلى الرعاية الأسرية . إلا أن هذه التعديلات لم تمنع معارضيها من تأكيد عدم صلاحيتها وفشلها فى تحقيق أهدافها . وظهرت نتيجة لذلك اتجاهات جديدة ترمى إلى تدبير وسائل أخرى لرعاية الأطفال . وذلك بمنح أسرة الطفل مساعدات مالية أو معاشات إذا كان الدافع على إيداع الطفل بالمؤسسة هو الفقر تطبيقا لمبدأ عدم حرمان

الطفل من أسرته الطبيعية بسبب الفقر وحده أو لأى أسباب أخرى يمكن علاجها . أما إذا كانت أسرته غير صالحة لرعايته فيودع فى أسرة بديلة حتى يمكن تعويض الطفل بعض ما حرم منه بسبب انتزاعه من أسرته الطبيعية . وقد ظلت هذ الاتجاهات الجديدة تلقى تأييداً كبيراً فترة من الزمن . ولكن بازدياد المعرفة بحاجات الأطفال فى الأعمار المختلفة وبزيادة خبرة المشتغلين برعاية الطفولة اتضح أن لكل من الرعاية فى المؤسسات والرعاية البديلة مزايا لها قيمتها وأن كلا منهما تصلح لطائفة من الأطفال وأن كلا منهما ضرورية فى المجتمع وتكمل الأخرى .

أنواع الرعاية فى الأسر البديلة :

بظهور هذا الاتجاه الجديد وجدت أنواع مختلفة من الرعاية فى الأسر البديلة أولها كان يتضمن إيداع الطفل فى أسرة تقبل رعايته بدون مقابل وفى نظير ذلك يصبح للأسرة المسئولية الكاملة على الطفل، ولكن هذا النوع أصبح محدود الفائدة فى الوقت الحاضر نظراً لأن الهيئات الاجتماعية كانت تحس بأن هذه الأسرة متفضلة عليها بتقديم هذه الخدمة وإزاء ذلك لم يكن من السهل على مندوبى هذه الهيئات مطالبة هذه الأسر بتنفيذ أى توجيهات يرونها فى صالح الطفل وكان عليهم دائما أن يحمدوا لهذه الأسر خدماتها .

والنوع الثانى كان يتضمن تكفل الأسرة برعاية الطفل نظير مايكلف به من أعمال يؤديها للأسرة كالخدمة المنزلية أو العمل فى الحقل إذا كانت الأسرة فى بيئة ريفية . وهذا النوع لا يصلح إلا للأطفال كبار السن .

والنوع الثالث هو كالنوع السابق إلا أن الطفل المودع ينال أجراً على عمله علاوة على إقامته فى الأسرة .

والنوع الرابع يتضمن إيداع الطفل فى أسرة بدون مقابل بفكرة إمكان تبنيه إذا تبين أن هذه الأسرة تصلح لهذا الطفل .

أما النوع الخامس وهو الأكثر شيوعاً الآن لما ثبت من فائدته فهو يتضمن حصول الأسرة البديلة على أجر نظير رعايتها للطفل ، وهذا النوع من البيوت البديلة يناسب معظم الأطفال الذين هم فى حاجة إلى هذه الرعاية .

الحالات التى يفضل فيها استخدام الرعاية فى الأسر البديلة :

نحن نعلم أن بعض علاقات الأبناء بوالديهم لا يمكن أن تتكيف فى جو الأسرة الطبيعية كما أن بعضها لا يمكن أن تتكيف لأى نوع من أنواع الرعاية البديلة ، كما أننا نعلم أن الرعاية البديلة لا تصلح لكل طفل، ومن جهة أخرى فإننا لا يمكننا أن نؤمن إيماناً مطلقاً فى إبقاء الطفل بأسرته مهما كانت الظروف ، لذلك فإن اختيار الوسيلة المناسبة لرعاية الطفل يتوقف على دراسة تامة وإدراك جيد لحاجات الطفل، وبصفة عامة فإن الرعاية فى الأسر البديلة تكون أفضل عندما يكون الطفل فى حاجة إلى رعاية لمدة طويلة نوعاً ، ويمكن تحديد الحالات التى تصلح لهذه الرعاية فيما يلى :

أولا : هناك شبه إجماع على أن الطفل الصغير السن فى حاجة إلى الحب والعطف والشعور بالانتماء ولا يتحقق

ذلك إلا إذا ارتبط بشخص واحد وهو أمر لا يمكن أن يتحقق إذا أودع الطفل فى مؤسسة ، فالطفل فى الأسرة البديلة يعيش فى منزل عادى كمنزله الأصلى به والدان وعدد محدود من الأطفال وتستطيع الأم البديلة أن تمد الطفل بالرعاية وتخصه بالانتباه الذى تصبو إليه نفسه بالرغم من أنها ليست أمه الحقيقية ، إلا أنه لا يوجد اتفاق عام لتحديد السن الذى دونه يعتبر الطفل صغيراً ، فبعض الناس يعتبره الطفل الذى يقل عمره عن ثلاث أو أربع سنوات ويعتبره البعض الآخر الطفل الذى يقل سنه عن ست سنوات وفريق ثالث يعتبره الطفل الذى يقل عن سبع أو ثمانى سنوات وفريق رابع يعتبره الطفل الذى يقل سنه عن اثنتى عشرة سنة ، ولكن الرأى السائد هو أن حياة المؤسسة كثيرة التعقيد بالنسبة للطفل الذى يقل عمره عن ست سنوات إذ أنها تقوم على الرعاية الجمعية فى جميع نواحى الحياة فيها ، وبصفة عامة فإن الحياة الأسرية فى الأسر البديلة تصلح لجميع الأطفال الذين يستطيعون تكوين علاقات أسرية جديدة لذا فهى أفضل للأطفال الذين تقل أعمارهم عن ست سنوات وضرورية للأطفال الرضع .

ثانياً : الأطفال الذين انحرفوا فى سلوكهم انحرافاً يسيراً بسبب ما يعانونه من ظروف أسرية مضطربة ولذلك حرموا من الشعور بالأمن إذ أن هؤلاء الأطفال يكونون فى أشد الحاجة إلى الحياة العائلية الطبيعية تعيد إليهم ثقتهم فى أنفسهم والإحساس بالأمن الذاتى ، ومن الواجب العناية باختيار الأسر التى تستطيع أن تتقبل سلوك هؤلاء الأطفال وتتصف بالصبر نظراً لأن تكيف الطفل وتغير سلوكه يكون بطيئا .

ثالثاً : الأطفال المصابون بضعف عقلى باستثناء الدرجات المنحطة منهم . فالطفل الضعيف العقل كغيره من الأطفال فى حاجة إلى الحياة الأسرية والروابط العائلية الوثيقة ، ونظراً لما يعانيه مثل هذا الطفل من نبذ أسرته ونبذ المجتمع له فإنه فى حاجة إلى أسرة تظهر تقبلها له واهتمامها به ويستلزم ذلك إدراك الأسرة لقدرات الطفل ومعاونتها معاونة مستمرة لتشجيعها والوقوف إلى جانبها .

أما بالنسبة للظروف الاجتماعية للطفل فإن الرعاية فى الأسر البديلة تصلح فى حالة مرض الأم مرضاً طويلا مع عدم وجود إمكانيات أخرى فى الأسرة أو فى حالة وفاة الوالدين أو عدم صلاحيتهما لرعاية الطفل بسبب الضعف العقلى أو الإدمان أو عدم نضجهما بدرجة تحول دون تهيئة الجو المناسب لإشعار الطفل بالأمن والطمأنينة .

هذا ومن مزايا الرعاية فى الأسر البديلة إمكان الجمع بين الإخوة فى مكان واحد مع اختلافهم فى الجنس وتباين أعمارهم وهو أمر لا يمكن أن يتحقق بطريقة أخرى .

فالمؤسسات تختص بأحد الجنسين فقط ولا يقبل بها الطفل الصغير السن .

ومن جهة أخرى فإن بعض الحالات يفضل عدم رعايتها فى أسرة بديلة ، ومن بين هذه الحالات :

١ — الأطفال الذين تربطهم بأسرهم روابط قوية لدرجة تحول دون تكوين علاقات إيجابية مع والدين بديلين فمثل هؤلاء الأطفال تصلح لهم الرعاية فى المؤسسات لبعد جوها عن العلاقات الشخصية .

٢ — الأطفال الذين يعانون من مشاكل سلوكية معقدة ويصعب على الأسرة البديلة فهمها وتقبلها .

٣ — الأطفال المراهقون الذين ينزعون إلى التخلص من سيطرة الأسرة عليهم ويجدون حياة الأسرة البديلة مقيدة لهم .

٤ — الأطفال الذين فى حاجة إلى رعاية خلال فترة النقاهة إذا كانت تقيدهم حياة الجماعة بوجودهم مع أطفال يماثلونهم . ولمثل هؤلاء الأطفال يجب أن تتضمن الرعاية فى المؤسسة مزايا الرعاية الجمعية والفردية .

٥ — الأطفال الذين يشعر والداهم بغيرة شديدة من الأسرة البديلة لاحتمال نجاحها فيما فشلا فيه ويرون فى المؤسسة المكان المناسب لاعتقادهما بأن تغيير البيئة هو العامل الأساسى لحل مشاكل الطفل .

٦ — الأطفال ذوو العاهات الجسمية والعقلية الجسيمة لصعوبة وجود أسرة بديلة تقبل أو تستطيع رعايتهم .

٧ — الأطفال الذين انحرفوا فى سلوكهم إنحرافا شديدا بحيث أصبحوا خطرا على أنفسهم وعلى المجتمع .

هذا ومن الأمور الهامة أن يعرف الإخصائى الاجتماعى الظروف التى يحسن فيها إرجاء إيداع الطفل فالأم التى تصر على إيداع طفلها فى أقرب وقت ممكن هى الأم التى ستعمل على إحباط أى نوع من الرعاية للطفل لأنها بسبب عدم وثوقها فى رغبتها فإنها تخشى أن تغير رأيها إذا تركت لها فرصة للتفكير .

اختيار الأسر البديلة :

من أهم أهداف الرعاية فى الأسر البديلة هو إيداع الطفل فى أسرة تتيح له فرصة للحياة السعيدة ولن يتحقق ذلك إلا إذا أولينا اختيار هذه الأسر عناية كبيرة ويتضمن ذلك أولا الحصول على هذه الأسر بجعلها تتقدم بطلباتها ثم ترتيبها فى قوائم ثم تقويمها ثم اختيار الصالح منها . وهذه مهمة ليست سهلة وتتضمن مسئولية كبيرة إذ عليها يتوقف نجاح رعاية الطفل . فهى تتضمن استخدام طرق خدمة الفرد الفنية ولا يمكن إسنادها إلا لإخصائيين اجتماعيين مدربين تدريبا جيدا . فعملية إيداع الأطفال تختلف عن نواحى خدمة الفرد الأخرى فى أن المسئولية الكبرى تقع على عاتق الإخصائى الاجتماعى فإذا لم يمكن إيجاد البيوت الصالحة وبالتالى اختيار الطفل الذى يناسب الأسرة فإنه لا يمكن تحقيق الغاية من الرعاية البديلة .

وقد مرت هذه العملية بأدوار مختلفة . فقد كان اختيار الأسر البديلة فى أول الأمر على أساس النواحى الأخلاقية فيها . وكان عمل الإخصائى الاجتماعى مقصورا على وصف الأسرة بأنها أسرة طيبة أو سيئة وأن يقيس مقدار ما تتمتع به الأسرة من سمعة طيبة أو سمعة سيئة . وكان الإخصائى الاجتماعى يهبط على الأسرة ويفاجئها فى منزلها ليكشف عن

أدلة تبين عدم تمسكها بالأخلاق الفاضلة أو عدم العناية بترتيب مسكنها أو نظافته . فإذا اتضح له من هذه الأدلة السطحية اهتمام الأسرة بالنظافة والتمسك بالأخلاق فإن هذا يعتبر دليلا على صلاحية الأسرة للرعاية البديلة ، وهذا الاتجاه فى التفكير كان يقوم على أساس أن الأطفال يمكن إنقاذهم بإيجاد بيئة نظيفة تسودها الأخلاق الكريمة، وكانت الأسرة البديلة التى تتوافر فيها هذ الشروط تعتبر فرصة فريدة للطفل الفقير وأن ماعلى الطفل إلا أن يتخلى عن عاداته السيئة ويقتبس قواعد جديدة من السلوك تضعها له الأسرة الجديدة وإن فشل الطفل فى التكيف لما تطلبه الأسرة لا يرجع ذلك إلى عيوب فيها وإنما يرجع إلى عوامل أخرى فى الطفل نفسه .

ثم تطورت عملية تدبير الأسر البديلة وزود الإخصائيون الاجتماعيون بأنموذج لما يجب أن تشتمل عليه دراستهم لهذه الأسر ، إلا أن هذه الطريقة لم تحقق الغرض المنشود لجمود النقاط التى تضمنها هذا النموذج ولم تؤد هذه الطريقة إلا لإعطاء صورة جامدة لنواحى سطحية ، وفضلا عن ذلك فإنها كانت كستار يحتجب الإخصائى الاجتماعى خلفه إذا ساوره الشك فى نجاحه فى فهم العوامل المختلفة فى الأسرة .

ومنذ أن احتلت النواحى النفسية مكانها فى عملية خدمة الفرد تطورت عملية اختيار الأسر البديلة كثيرا نظرا لتقدير أهمية العوامل النفسية فى الأسرة، فأصبح من واجب الإخصائى الاجتماعى دراسة الأسرة لمعرفة البواعث التى دفعت الأسرة للتقدم بطلبها ومعنى هذا الطلب بالنسبة لها وليزداد بصيرة بالعلاقات الأسرية ، وبذلك أصبح تقرير صلاحية الأسرة لا يقوم على قياس طيبتها أو عدم طيبتها ولكنه يقوم على أساس إدراك الدوافع لسلوك معين وتأثير ذلك على الطفل ، وبمعنى آخر أصبحت عملية تدبير الأسر البديلة جزءا حيويا من خدمة الفرد وأصبحت الناحية الهامة فى برامج الرعاية فى الأسر البديلة .

ومع أن العوامل المادية فى الأسرة البديلة لم تعد لها الأهمية السابقة إلا أن هذا ليس معناه إهمالها إهمالا تاما ، فالطفل له حاجات مادية يجب أن يحصل عليها ومن الواجب أن تبين دراسة الأسر عما إذا كان يتوفر فيها الحد الأدنى لسد هذه الحاجات ، إذ أن النواحى المادية لها أهمية فى الناحية النفسيه للطفل ويمكن أن تكون ذات أثر إنشائى أو سلبى فى العوامل النفسية السائدة فى الأسرة . ومن بين العوامل المادية الهامة : —

أولا — ضرورة وجود والدين فى الأسرة البديلة فكل منهما له دور فى نمو الطفل العاطفى وفى تكوين شخصيته والطفل الذى ينشأ فى أسرة ينقصها الأب يحرم من وجود من يحتذبه ويقلده ويتخذه مثلا أعلى ، ولا يجد من يساعده على التحكم فى نزعاته العدوانية ، كما أن البنت فى حاجة إلى العلاقة الأبوية واكتساب الخبرة عن طريق التعرف على وجهة نظر فى أمور الحياة تخالف وجهة نظر الأم .

ثانيا — اعتبار سن الوالدين البديلين تبعا لحاجات الطفل ولا توجد قاعدة عامة يمكن اتباعها فى جميع الحالات ولكن بصفة عامة يحسن أن يكون الوالدان فى مرحلة متوسطة من العمر حتى يكونا قد تكيفا لحياتهما الزوجية

وفى الوقت نفسه يكون لديهما من النشاط والقوة مايسمح لهما بمسايرة نشاط الطفل وبذل الجهد فى توفير ما يحتاج إليه من رعاية، أما إذا كانا كبيرين فى السن فقد دلت التجارب على أنهما كثيرا مايسرفان فى تدليل الطفل علاوة على أنه يسهل إثارة انفعالاتهما كما أنهما يتعذر عليهما تكوين علاقات شخصية مرضية مع الطفل ، ولكن هذا لا يمنع من أن بعض الأطفال قد تكون حاجتهم إلى جد أو جدة أكثر من حاجتهم إلى الوالدين ولذلك يجب عند تقرير عامل السن بالنسبة للوالدين البديلين مراعاة حالة الطفل نفسه وظروفه الخاصة .

ثالثا — نظرا لأن الأسرة هى المصدر الأول للتعليم الدينى للطفل وبث القيم الروحية فيه فمن الواجب أن تكون الأسرة من نفس ديانة ومذهب الطفل وأن يكون الوالدان البديلان قد حصلا على مستوى معقول من التعليم تؤهلهما لتربيه الأطفال وتحمل مسئوليتهم .

رابعا — صلاحية مسكن الأسرة من الناحية الصحية واتساعه بحيث يتوفر للطفل مكانا خاصا فيه لنومه ولعبه ونشاطه ، فالطفل فى حاجه إلى إشعاره بمكانه فى الأسرة واحترام شئونه الخاصة .

خامسا — كفاية دخل الأسرة لسد حاجاته إذ أن قلة الدخل يجعل جو الأسرة معرضا للتوتر مما يحول دون إشعار الطفل بالأمن والاستقرار، ويحسن أن يكون مستوى الأسرة الاقتصادى مماثلا لمستوى الأسرة الطبيعية. فإيداع طفل فقير فى بيئة غنية سوف يخلق الكثير من المشاكل والعكس صحيح، ولو أنه يحسن فى بعض الحالات وضع الطفل فى بيئه تفوق مستوى أسرته نسبيا رغبة فى رفع مستواه الاقتصادى وزيادة طمأنينته التى قد يكون فى حاجة إليها .

سادسا — أن تكون إقامة الأسرة البديلة فى بيئة مماثلة لبيئة الطفل فلاينقل طفل حضرى إلى بيئة ريفية أو العكس وأن يتوفر فى البيئة المدارس المناسبة لسن الطفل واستعداده العقلى .

هذا ويجب ألا يبعد مستوى الأسرة فى النواحى المختلفة كثيرا عن المستوى المطلوب للطفل، فرعاية الطفل مهما طالت هى رعاية مؤقتة إلى أن يمكن تهيئة ظروف أسرته الطبيعية لعودته إليها ، لذا يجب أن تكون حياة الطفل فى الأسرة البديلة جزءا مكملا لحياته المستقبلة .

دور الإخصائى الاجتماعى فى اختيار الأسر البديلة :

يتركز دور الإخصائى الاجتماعى فى تقويم الأسرة البديلة لمعرفة مدى صلاحيتها لهذه الرعاية . وأول ما يهتم به هو تقويم الدوافع التى تدفع الأسرة للتقدم لرعاية طفل . وبعض هذه الدوافع شعورى وبعضها لاشعورى . فقد تتقدم الأسرة بقصد المنفعة المادية على اعتبار أن ما ستناله من أجر نظير رعايتها للطفل سيزيد من دخلها أو بقصد إشباع رغبات ذاتية معقدة ، ووظيفة الإخصائى الاجتماعى هى فهم هذه الدوافع وتقرير ما إذا كان من بينها دوافع عصابية

تحول دون تحقيق حاجات الطفل ، أى أن وظيفته البت فيما إذا كان من الممكن التوفيق بين حاجات الأسرة وحاجات نوع من الأطفال ، وبذلك يمكن استخدام الأسرة لرعاية طفل يناسبها ، ويلى ذلك فى الأهمية دراسة العلاقات الأسرية بين أفرادها ، وطبيعى أن على الإخصائى الاجتماعى أن يدرك أنه من العسير أن نجد أسرة تخلو من المشاكل أو الأخطاء ، وبصفة عامة فإن الأسرة التى وجد أفرادها وسائل طبيعية لإشباع حاجاتها وخاصة فى الناحية العاطفية ووسائل طبيعية لتحقيق أهدافها يمكن اعتبارها أسرة صالحة للرعاية البديلة . ومن الواجب ألا يكون إيداع طفل فى أسرة كوسيلة لتحقيق مأرب فى نفس أحد الوالدين كأن يكون وسيلة لحسم خلافات زوجية أو لإثارة روح المنافسة بينه وبين طفل مدلل للأسرة أو لإطفاء لهفة أحد الوالدين بسبب طفل فقدته الأسرة حديثا أو لمحاولة إثبات نجاح أحد الوالدين فى تربية الأطفال بعد فشله فى تربية أحد أبنائه أو لشعور أحد الوالدين بالوحدة وحاجته إلى رفيق يؤنس وحدته ، إذ أن ذلك يؤدى إلى الإضرار بالطفل المودع الذى سيكون كأداة فى نسيج العلاقات السائدة فى الأسرة وليس جزءا منها . وكما سبق القول فإنه لا تخلو أسرة من وجود نواح سلبية فيها ، والمهم هو أن نحس بهذه النواحى ونفهمها جيدا فإذا لم تكن خطيرة جدا ففى الإمكان علاجها والتغلب عليها بإيداع طفل يناسبها ، وعلى ذلك فإن مهمة الإخصائى الاجتماعى هى البت فيما إذا كانت الأسرة تستطيع أن تمنح الطفل الحب والعطف وأن تشعره بالأمن والاستقرار بطريقة تتصف بالمرونة والاعتدال . ويجب أن نشير هنا إلى أن المنفعة المادية التى تنشدها بعض الأسر من وراء رعاية الأطفال لا تمنع من صلاحيتها لهذه الرعاية إذا توفرت فيها مقومات الأسرة الصالحة من النواحى الأخرى وأن يكون دخل الأسرة كافيا لأفرادها نظرا لأن أجور الرعاية البديلة تكاد تسد حاجات الطفل المودع . كما أن حدوث طلاق أو انفصال بين الوالدين البديلين فى بدء حياتهما الزوجية لا يحول دون إمكان صلاحيتها إذا تبين أن العلاقات الأسرية بينهما الآن قوية وأن كلا منهما قد تكيف للآخر .

كيفية الحصول على الأسر البديلة :

من أهم واجبات الهيئات المشتغلة برعاية الطفولة وكذا اتحادات هذه الهيئات توجيه الرأى العام بالوسائل المختلفة إلى حاجات الأطفال ومشاكلهم وإثارة اهتمامهم للتقدم للإسهام فى رعايتهم . وقد أثبتت التجارب أن الالتجاء إلى الصحافة للنشر عن طلب أسر بديلة يؤدى إلى تقدم عدد كبير منها ولكن نسبة الأسر الصالحة منها ضئيلة جدا ولا يتناسب مع ما يضيع من وقت وجهد فى دراستها لاستبعاد غير الصالح منها ، ويرجع ذلك إلى أن الإعلان بالجرائد يصعب معه شرح ما تتطلبه الهيئة من شروط . واستبعاد الأسر غير الصالحة ليس بالأمر اليسير . فهذه الأسر لا تقبل قرار الهيئة بسهولة إذ أن هذا يمس احترامها لنفسها وتود أن تعرف أسباب رفضها فى الوقت الذى لا زالت الهيئة تبحث عن غيرها ، فإذا لم يؤخذ الأمر بحكمة وعناية فقد يؤدى سخط هذه الأسر إلى الإضرار بسمعة الهيئة .

ومن أفضل الوسائل التى يمكن اتباعها الاتصال الشخصى بأعضاء الهيئات المختلفة كالهيئات النسائية والنقابات

عن طريق التحدث إليهم عن بعض حالات الأطفال المحتاجين لهذه الرعاية ومسئولية كل من أسرة الطفل والأسرة البديلة والهيئة التى تقوم بإيداع الطفل فى هذه الأسرة .

ومن الوسائل المجدية أيضا الاستعانة بالأسر البديلة التى تتعامل معها الهيئة فى الحصول على أسر أخرى جديدة . فهذه الأسر إذا كانت راضية عن علاقتها بالهيئة الاجتماعية المشرفة على إيداع الأطفال فإنها تستطيع أن تثير الرغبة فى أسر أخرى تماثلها . كما يمكن الاستعانة بالإذاعة فى هذا السبيل ، ولا شك أن حصول الهيئات على حاجتها من هذه الأسر يحتاج إلى جهود مستمرة وخبرة تامة فى عملية تنظيم المجتمع ووسائل الدعاية التى تصل إلى أفراد الجمهور ، ويجب أن يتضمن ذلك تقديرا لهذا النوع من الرعاية واحتراما تاما للمساهمين فيها .

أجور الرعاية فى الأسر البديلة :

من الأسس الهامة التى نالت تأييدا كبيرا فى نظام الرعاية فى الأسر البديلة ضرورة حصول الأسر على تكاليف هذه الرعاية وأن تكون هذه التكاليف مجزية حتى يمكن مطالبة الأسر والتعاون معها فى تهيئة الجو المناسب لسد حاجات الطفل ، وحتى تشعر الأسرة بمسئولية الهيئة الاجتماعية فى هذه الرعاية ، ومن جهة أخرى فإن هذه الأسر تقوم بخدمة تسد نقصا كبيرا فى حياة بعض الأطفال ، وتؤدى خدمة جليلة فى المجتمع ، ومن الواجب أن تمنح أجرا مقابل هذه الخدمة . كما أن كفاية أجور هذه الرعاية تشعر هذه الأسر بعظم مسئوليتها وتجعلها تفخر بأدائها .

ويجب أن نعلم أن من الأهمية بمكان أن تشترك أسرة الطفل الطبيعية فى تكاليف هذه الرعاية تبعا لقدرتها المالية ، ولا يخفى أثر ذلك فى إشعارها بمسئوليتها نحوه وفى التخفيف من شعورها بالإثم إزاء فشلها فى رعايته ، كما أن إحساس الطفل بأن والديه يسهمان قدر طاقتهما فى نفقات رعايته فيه تقوية لعلاقته بهما وتأكيد لحبهما له وعدم تخليهما عنه .

ولتحديد تكاليف هذه الرعاية يجب أن تقوم الهيئات المسؤولة بإجراء بحث لتقدير نفقات الرعاية من جميع النواحى بالنسبة للأعمار المختلفة بحيث تشمل ثمن الغذاء والملبس والتعليم والنفقات الخاصة على أن تقدر المصاريف غير العادية فى كل حالة على حدة تبعا لحاجات كل طفل .

تسجيل الأسر البديلة :

من الواجب فى استخدام نظام الرعاية فى الأسر البديلة أن تقوم الهيئة الحكومية المختصة بتسجيل الأسر التى تستخدم لهذه الرعاية أسوة بتسجيل الهيئات التى تشرف على عملية الإيداع ، وأن تقوم بوضع المستويات التى يجب مراعاتها والإشراف على تنفيذ هذه المستويات ، ويمكن للهيئة المختصة تفويض هيئات الإيداع المعتمدة سلطة بحث

طلبات الأسر البديلة وتزكية تسجيل الصالح منها . هذا ويراعى دائما أن يكون التسجيل لمدة سنة مع الاحتفاظ بحق إلغائه قبل نهاية العام إذا حدث ما يستدعى ذلك .

المسئولية المشتركة :

تقوم الرعاية فى الأسرة البديلة على أساس المسئولية المشتركة بين أسرة الطفل و الهيئة المشرفة على الإيداع والأسرة البديلة ومعرفة كل منها واجبه فى هذه الرعاية .

فأسرة الطفل لا تزال صاحبة الحق الشرعى فى الولاية على الطفل ومن حقها أن تشترك فى هذه العملية حتى تحس بمسئوليتها نحوه، كما أن تقبلها للأسرة البديلة ومساعدة الطفل خلال زيارتها له على تقبل هذا الوضع من العوامل الأساسية لنجاح هذه الرعاية، وكثيرا مايفشل إيداع الطفل فى أسرة بديلة بسبب منافسة أسرته لها فى الاستئثار بحبه . كما أنه فى بعض الأحيان لاتظهر أسرة الطفل اهتماما به بمجرد انتقاله إلى الأسرة البديلة فتنقطع عن زيارته وتتخلى عن التزاماتها نحوه مما يسبب للطفل قلقا شديدا يظهر أثره فى أنواع مختلفة من السلوك ويجعل مهمة الأسرة البديلة والهيئة المشرفة صعبة .

أما دور الأسرة البديلة فضلا عن إدراكها لحاجات الطفل المادية والنفسية ومحاولة سدها وتقديرها للأسباب التى دعت إلى حاجته لهذه الرعاية فإن عليها أن تتعاون مع الهيئة المشرفة على تنفيذ مافيه صالح الطفل وذلك بقبولها اتصال الهيئة بها من وقت لآخر للوقوف على مدى تكيفه فيها ومساعدتها فى فهم مشاكله وإبلاغ الهيئة عن كل مايحدث فى ظروفها من تغير وكذا كل مايطرأ من ظروف غير عادية بالنسبة للطفل، كما فى حالة مرضه أو إصابته فى حادث، وأن تدرك أن المسئولية الأولى فى رعاية الطفل تقع على عاتق الهيئة المشرفة على الإيداع وأن مشاكل الطفل لاتعنى وجود عيب فيها . كما يجب على الأسرة البديلة التعاون فى تيسير اتصال الطفل بأسرته الطبيعية وعدم الحط من شأنها أو توجيه نقد لما قد يصدر منها .

أما مسئولية الهيئة المشرفة على الإيداع فقد تضمن البحث الكثير من جوانب هذه المسئولية وتتلخص فى دراسة حالة الطفل دراسة تامة من جميع النواحى بما فى ذلك حالته الصحية وقدراته العقلية وحالته العاطفية وخبراته السابقة وميوله وعاداته وعلاقاته بوالديه وأفراد أسرته وذلك لمعرفة نوع الرعاية التى تلزمه ، ثم إعداد الطفل لعملية الإيداع والإشراف عليه وتتبع حالته خلال فترة إقامته بالأسرة البديلة مع مداومة الاتصال بأسرته الطبيعية وتقديم ما يحتاج إليه من خدمات لامكان عودة الطفل إليها مستقبلا .

وفى ختام هذا البحث يجدر أن أذكر أن نظام الأسر البديلة قد نفذ فى الإقليم المصرى منذ وقت قصير ولكن بصورة تختلف كثيرا عما سبق شرحه، فوزارة الصحة تودع الأطفال غير الشرعيين والضالين مع مرضعات يتولين إرضاع

الطفل والعناية به فى سن الإرضاع نظير مبلغ شهرى (حوالى جنيهين) ويشترط بالنسبة لهؤلاء المرضعات بعض الاشتراطات الصحية، أما من ناحية الظروف الاجتماعية والنواحى النفسية فإنها لاتنال الاهتمام الواجب . كما تقوم الوزارة بإيداع الأطفال بعد سن الإرضاع حتى سن السادسة أو السابعة لدى أسر لتربيتهم نظير أجر شهرى (ثلاثة جنيهات) وليست هناك اشتراطات اجتماعية محددة لاختيار هذه الأسر على أساسها . أما بعد هذه السن فيلحق الطفل بإحدى المؤسسات، وقد يحدث أن يظل الطفل فى الأسرة حتى سن متأخرة لعدم إمكان إلحاقه بإحدى المؤسسات. كما تتبع طريقة أخرى لرعاية بعض الأطفال وذلك بإيداعهم فى أسر ترغب فى كفالتهم ويطلق عليها « نظام الكفالة » ولا تتقاضى الأسرة أجرا نظير هذه الرعاية .

كما أن إحدى الهيئات الاجتماعية الكبرى (مبرة الإسكندرية لرعاية الأطفال) قامت بتنفيذ نظام الرعاية فى الأسرة البديلة منذ عام ١٩٤٤ بالنسبة للأطفال الذين يحرمون من وجودهم فى أسرهم الطبيعية لأسباب مختلفة ولكن كان مما يعيب الأسر التى تختارها هذه الهيئة أن معظمها ممن فقدت عائلها وبذلك فإن هذه الأسر ينقصها أحد المقومات الأساسية فى تكوين الأسرة البديلة الصالحة .

وقد فكرت وزارة الشئون الاجتماعية والعمل فى القيام بتجربة لرعاية الأطفال فى أسر بديلة على أن تنال هذه الأسر (إذا شاءت) أجرا مقابل تكاليف رعاية الطفل، ورغبة فى سير التجربة على أسس اجتماعية سليمة لاتعوقها القيود الحكومية فقد تعاونت الوزارة مع الاتحاد العام لرعاية الأحداث فى إجراء هذه التجربة وتشرف على العملية لجنة تمثل فيها وزارتا الشئون الاجتماعية والعمل والصحة مع الاتحاد وقد وضعت اللجنة الشروط التى يجرى بمقتضاها اختيار الأسر فى ضوء النتائج التى يظهرها البحث الاجتماعى . وقد أعلن الاتحاد عن هذا المشروع واستجابت كثير من الأسر وبلغ مجموع الطلبات التى تقدمت ١١٠٦ طلبا[1] وقد أجرى البحث على ٥٠٠ أسرة منها لاختيار ٥٠ أسرة لإيداع بعض الأطفال فيها وهى تجربة نرجو أن تنال حظا كبيرا من النجاح حتى تضيف دليلا عمليا جديدا على أهمية الرعاية الأسرية لبعض الأطفال الذين تحول الظروف القاسية دون رعايتهم فى أسرهم الطبيعية .

---

(١) مجلة المجتمع العربى . مارس ١٩٥٧ الاسر البديلة ص ٣٣

الخدمة الاجتماعية المدرسية وأثرها فى البيت العربى

للأستاذ

أحمد كمال أحمد

الجمهورية العربية المتحدة

الخدمة الاجتماعية والمدرسة :

الخدمة الاجتماعية اتجاه حديث فى النظم التربوية فى الجمهورية ترجع إلى سنوات قليلة ماضية ، وتمتاز بأنها نظام مقبول يتفق مع احتياجاتنا ويصلح للتطبيق فى مدارسنا بل ويتلاءم مع الظروف القومية التى يمر بها المجتمع العربى فى عهده الحديث .

ومن الأسباب القوية التى أكدت صلاحية هذا النظام فى البيئة العربية أن المدرسة هى همزة الوصل بين الأسرة والمجتمع، ولابد من بذل الجهود للنهوض بالمدرسة العربية الحديثة فى جميع النواحى لبناء وطن قوى موفور الكرامة تظل جميع أبنائه العدالة والمساواة والحرية والأمل ، ولهذا كان لابد من تحويل التعليم أو (التلقين) فى المدارس إلى تربية يوجه فيها النشء توجيها سليما يسمح لهم بأشباع احتياجاتهم الثقافية والصحية والنفسية والاجتماعية والروحية ، ومن هنا كان لا بد أيضا أن تستبدل وزارة المعارف اسمها إلى وزارة التربية والتعليم، واللاحظ فى هذه التسمية أن الوزارة قدمت التربية على التعليم وعملت منذ قيام الثورة المجيدة والوحدة المباركة على حصر مثالب النظم التعليمية السائدة فعملت جاهدة خلال السنوات الماضية على إصلاحها وملافاة عيوبها . وهكذا أخرجت إلى حيز التنفيذ الفعلى عدة مشروعات نافعة رفعت من شأن المدارس ومن مستوى العاملين فيها ، لتشيد المدرسة العربية القويمة التى تبنى مجد الوطن .

أثر الأسرة فى الفرد :

ولا يكفى أن تنهض المدرسة بتبعاتها ويترك المجتمع دون خدمات تربوية مناسبه، ذلك لأن المتفق عليه أن المدرسة مع أنها التربة الصالحة التى يمكن أن تنمو وتزهر فيها بذور المستقبل إلا أن هناك تربه أصلية سبقتها بذرت فيها تلك البذور . فالأسرة هى الحقل الأول الذى يبدأ فيها الفرد منا حياته ويمضى فيها أوقاته خلال أطواره المختلفة لاسيما تلك الأوقات التى يكون فيها سهل التأثر قابلا للتشكل والتحرر ، لهذا كان لا بد أن تنال الأسرة ما تستحقه من الاهتمام الكافى والرعاية الواجبة والتوجيه السليم إذا أردنا مخلصين لنظمنا التربويه نجاحا ولأبنائنا تقويما وتقدما وسعادة .

إن الأسرة فى الواقع قوة عظيمة لم تفقد أهميتها بتقدم الحضارة والمدنية وانتشار المذاهب الاقتصادية والسياسية لأنها دائما الخلية الاجتماعية الطبيعية فى جسم الأمم، وهى المعمل الذى يولد فيه الفرد، والوطن الأول الذى يشرف على تربيته قبل أن تمتد إليه عوامل أخرى خارجـــة عن دائرتها كالمدرسة والمؤسسات والمؤثرات الأخرى الموجودة فى المجتمع .

ولقد أثبتت التجارب التى أجريت لإبعاد الأطفال عن الأسرة الطبيعية والإشراف عليهم بواسطة مرضعات وحاضنات ومدبرات على فشل هذه التجارب فى إخراج مواطنين صالحين بعد أن ثبت أنهن جميعا لا يستطعن إمداد الطفل باحتياجاته الأساسية من غذاء ومأوى وحب ورعاية وتوجيه وتـكوين للعادات الاجتماعية والمثل الخلقية ورعاية للصحة الجسمية والنفسية والاجتماعية .

وإن انحراف الأحداث وإجرام الـكبار والشقاء والآلام الذى يرزح تحت عبئها الـكثير من أفراد الأسرة الإنسانية ثبت أن النسبة الـكبرى فى هذا كله ترجع إلى انحلال فى حياة أسرهم أو حرمان من العلاقات الأسرية السليمة فى طفولتهم، كما ثبت أيضا أن الطفل لا يحتاج فى أسرته إلى العناية الآلية بصحة جسمه فقط ولـكنه فى أشد الحاجة إلى حرارة العطف وصدق الحب من الأم والأب وباقى أفراد الأسرة، ومما لا شك فيه أن لا سبيل إلى تـكامل الشخصية بدون حياة سعيدة فى الأسرة، تلك الحياة التى يسودها الحب والتعاطف والتعاون والعلاقات الإنسانية التى تؤثر فى الفرد وتجعل منه إنسانا يشعر بالآخرين ويقدر فيهم أخوتهم وإنسانيتهم .

والأسرة تحمل إلينا قبل المدرسة العادات والتقاليد، وتضع بذور المثل العليا وما تراه ضروريا لتقبلنا فى المجتمع كمواطنين وافدين جدد . فهى المـكان الأول أو المدرسة الأولى التى تقوم بمهمة التربية، فتخطط لنا أنماط سلوكنا وتحدد أساليب حياتنا وترسم مقومات نجاحنا . تقوم بكل هذه الجهود غير ناظرة من ورائها إلى أجر ولا تتوقع عنها جزاء أو شكرا أو مثوبة ، ومن أجل هذا كله رأى المسئولون عن تربية الأجيال القادمة أن يبدأوا العناية بتـكوين المواطن الصالح فى الأسرة، وأن تتأكد الدولة من أن كيان الأسرة سليم من النواحى المادية والخلقية والوجدانية وأن تستمر الرابطة وثيقة بين الأسرة وجميع المؤسسات التى ينمو فيها الطفل وذلك لتتضافر كل الجهود على تقويمه ولنضمن لرسالتنا التحقق على وجه سليم .

تهتم المدرسة الحديثة إذن بتوثيق صلتها بأسر تلاميذها بعد أن وضح لها الدور الهام الذى تلعبه الأسرة فى حياة أفراد المجتمع وأثره فى تقدم ونمو التلاميذ خلال حياتهم المدرسية، لهذا وضعت من البرامج والمشروعات ما يحقق هذه الأهداف. وكانت الخدمة الاجتماعية المدرسية أحد هذه المشروعات الهامة التى أدخلت فى المدرسة الحديثة .

انبثاق مهنة جديدة :

والخدمة الاجتماعية المدرسية فرع من فروع مهنة الخدمة الاجتماعية التى أصبح لها إطار خاص من المعلومات

وأسلوب واضح من المهارات وعدد كاف من المؤسسات فى جميع أنحاء العالم تقدم فيها خدماتها الفنية لمقابلة احتياجات الأفراد فى بيئاتهم الاجتماعية ، كما تعمل على إزالة الصعوبات والعوائق التى تمنعهم من الحصول على أقصى ما تسمح به قدراتهم .

ولقد اتضح لمهنة الخدمة الاجتماعية أن —

١ — لكل فرد منا حاجات ومطالب تختلف فى الدرجة والقوة من فرد إلى آخر .

٢ — هذه الاحتياجات إذا لم تجد لها متنفسا بالإشباع اللازم لوجود أى عائق فإنها تصبح مشاكل تقف فى سبيل التكيف الاجتماعى الصحيح ،

٣ — هذه الصعوبات والعوائق التى تحول دون الإشباع أو التى تؤدى إلى مشاكل هى مجال مهنة الخدمة الاجتماعية الحديثة ،

٤ — القائمين على الخدمة الاجتماعية محتاجون إلى مهارات خاصة ومعلومات كافية وتدريب تطبيقى وهذا يستوجب إيجاد طائفة متخصصة فى هذا اللون من العمل تسعى دواما لرفع مستوى الخدمات التى تقدم عن طريقهم وتحقق المواءمة والتكيف الاجتماعى المنشود .

٥ — هذه المهنة قامت لمعاونة الإنسان على هذا التكيف الاجتماعى وعلى الحصول على علاقات مرضية ومستوى من الحياة يتناسب مع قدراته ورغباته ويتمشى مع الصالح العام للمجتمع .

ويتضح للباحث فى هذا الموضوع أن الخدمة الاجتماعية كانت ولازالت تؤدى بأشكال مختلفة وأنها لم تكن وليدة عبقرية الإنسان كالمخترعات الحديثة بل أن بعضها قد نبع نتيجة لحاجات الأفراد الضرورية ولهذا نرى لها جذورا قديمة ، فالإنسان خلال تطورات حياته المختلفة لم يكن وحيدا يعيش بمعزل عن غيره بل كان مندمجا فى مجتمعات مختلفة وأنه كان دائما فى حاجة إلى عون يصل إليه من غيره ، ومهما كان مركزه ومهما كانت قدراته فهو محتاج إلى أصدقاء وإلى من يعد له غذاءه ويعالج أمراضه ، ومن هنا بدأت المنافع والخدمات تتبادل والمبادىء الاجتماعية التى تدعو إلى التكافل الاجتماعى تظهر وتنتشر . والذى يعنينا الآن هو رعاية القادر للعاجز والغنى للفقير والمتعلم للجاهل .

ومهنة الخدمة الاجتماعية تساعد على قيام مبدأ التكافل الاجتماعى وتساهم فى تنظيمه على أسس علمية فى المجتمعات المتطورة المعقدة ، حيث تختلف فيها أساليب الحياة ومثلها عما كانت عليه فى المجتمعات السابقة ، وبصفة عامة يمكن القول بأن مطالبنا واحتياجاتنا فى المجتمع الحالى قد تعمقت فلم تعد محدودة مبسطة ، فنحن فى ملبسنا مثلا لا نقتصر على استخدام الملابس التى تحمينا من الحر والبرد فقط بل أصبحنا نرتدى من الملابس التى بلغت من التعقيد مبلغا كبيرا فى ألوانها وتنوعها ، كذلك نحن نعيش فى تنافس مادى خطير فى وقت قلت فيه الفرص فى ميادين الاقتصاد والسياسة والعمل والعلم وهذا التنافس الخطير المعقد كثيرا ما يؤدى إلى أضرار ومتاعب

تسلمنا بدورها إلى توتر واضطرابات نفسية وانحرافات خلقية وعلاقات غير مرضية .

كل هذا دعا إلى أن تنهض مهنة الخدمة الاجتماعية كعلم وفن لها مكانتها بين المهن الحديثة كالطب والهندسة والتربية والاجتماع والعلاج النفسى وكان لابد أن يتفرغ لدراستها والتخصص فيها أفراد فى معاهد خاصة تعدهم لتأديه رسالتهم فى الميادين الاجتماعية المختلفة .

وتعد مهنة الخدمة الاجتماعية الحديثة تأكيدا للدعوة الإنسانية الخالدة التى وردت فى الأديان المختلفة ورددتها المبادىء والنظم الاجتماعية الحديثة والتى تدعو الإنسان إلى معاونة أخيه الإنسان إذا احتاج إلى معونة أو توجيه ، وقد نجحت المهنة حديثا فى توضيح وسائلها وطرقها وتفسير مناهجها وتحديد ميادينها، وأطلقت على من تقوم على خدمته « العميل » تكريما له واحتراما لآدميته وإبعاداً لما كان يطلق عليه سابقا من صفات الشذوذ والفقر والاحتياج والانحراف والإجرام ، كما أطلقت على المشكلة أو الموقف الذى تعاون العميل فيه « حالة » لتنال من الاهتمام والدراسة والمعاونة ماهى جديرة به .

ويتوقف نجاح هذه الحالات بصفة عامة على ثلاثة عوامل رئيسية هى :

ا — طبيعة العميل ومدى قدراته واستعداداته وخبراته .

ب — الإمكانيات والموارد الموجودة فى البيئة التى يعيش فيها .

ج — مهارة المتخصص الاجتماعى الذى يتناول الحالة وعمق فنه الذى يظهر فى قدرته على تكوين علاقات مهنية سليمة يسودها الثقة والعطف والسرية مع العملاء .

ولقد تطورت مهنة الخدمة الاجتماعية فلم تعد قاصرة على الصدقات والبر والإحسان والمعونات التى تقدم للمحتاجين والفقراء بل بدأت تركز اهتمامها على قدرة العميل وخبراته واستعداداته والعوامل البيئية والاجتماعية والاقتصاديه التى تؤثر فى الحالات ، وهكذا أصبحت البحوث الفردية الاجتماعية تؤدى لتحقيق هذه الأغراض بدلا من التجسس على العملاء والتهافت لمعرفة أسرارهم للوصول إلى معلومات تثبت أحقيتهم فى صرف المعونات المالية التى تقدموا للحصول عليها .

ومن التطورات الحديثة أن المهنة أخذت تعامل عملاءها معاملة مهنية وتترك لهم دائما حق تقرير مصيرهم مع تهيئتهم لتقبل وضعهم مهما كان شاذا وخطيرا من وجهة نظر المجتمع وتقاليده ، ومن هنا دخلت فى مرحلة هامة من تاريخها وأصبحت مسئولة عن تعهد النمو الاجتماعى بالنسبة للأفراد والجماعات والمجتمعات وبدأت تنظم طرقا ووسائلها فى خدمة الإنسانية كلها، وتخصص روادها فى ميادين خدمة الإنسان كعضو فى جماعة ، وتنسيق وتنظيم

الموارد والخدمات الموجودة فى المجتمعات لسد أوجه احتياجاتها الاجتماعية المختلفة وإدخال برامج جديدة والاهتمام بالخدمات المختلفة ورفع مستواها والمطالبة بإصـــدار تشريعات عامة وتعضيد الحركات الاجتماعية التى تحقق الرخاء العام .

المدرسة والخدمة الاجتماعية :

والخدمة الاجتماعية المدرسية كفرع مستقل من فروع مهنة الخدمة الاجتماعية الحديثة توجه اهتمامها الأول وخدماتها للطالب سواء كفرد له وحدته واستقلاله وكيانه وظروفه الخاصة أو كعضو عامل فى الجماعات المدرسية المختلفة وذلك فى حدود المبادىء العامة للمهنة وتعاليمها المحددة وأسسها المتفق عليها ووسائلها الثلاث وهى :

فن خدمة الفرد — فن خدمة الجماعة — فن تنظيم وتنسيق المجتمع .

والخدمة الاجتماعية يتوقف نجاحها بالنسبة للطلبة على عوامل تؤثر فى مستوى ونتائج هذه الخدمات، فهناك التلميذ نفسه ومدى استعداداته وقدراته وميوله وخبراته المختلفة ، وتوجد المدرسة بمدرسيها وإمكانيتها ومناهجها وظروفها ، وأولياء أمور التلاميذ وأسرهم وبيئتهم ، كل هذه العوامل لهـا أثرها الواضح فى تحديد نوع ومستوى الخدمات، ولذلك توجه الخدمة الاجتماعية المدرسية عنايتها إلى جميع هذه العوامل التى لاشك لها أثر فعال على تقدم التلاميذ ونموهم وتحديد نوع الخدمات التى تقدم إليهم .

العوامل التى تنطوى عليها هذه الحركة :

كان من نتائج تطور نظرة الشعوب نحو التربية والتعليم وظهور المبادىء الحديثة التى تنادى بحق كل مواطن فى أن يتعلم وأن تهيأ له جميع الإمكانيات والخدمات التى تكفل نشر العدالة الاجتماعية ومبدأ تكافؤ الفرص أن انتشرت المعاهد والمدارس وفتحت أبوابها لجميع الطبقات فتحملت الدولة نفقات التعليم فى بعض المراحل التعليمية بل وأصبح مجانا وإلزاميا فيها ، وهكذا أدخلت المدارس لأول مرة طبقات جديدة متباينة سواءمن ناحية المستوى الاقتصادى والاجتماعى أو من نواحى الاستعدادات والقدرات الخاصة،وهكذا اكتظت المدارس بهم وتضاعف عبء المدرس فكلف بالإشراف على عدد كبير من التلاميذ المتفاوتين فى المستويات، كل هذه اضطرت المسئولين عن التربية والتعليم إلى التفكير فى إيجاد فنيين آخرين يعملون بجانب المدرسين لمواجهة الموقف الجديد .

من هذا يتبين أن حركة الخدمة الاجتماعية المدرسية تتأثر فى بادىء أمرها بأغراض اجتماعية وإنسانية ، وكانت تهدف إلى تكامل ميدانين هامين هما ميدان التربية وميدان الرعاية الاجتماعية وقد ساعد على ازدهار هذه الحركة اضطراد التقدم فى العلوم الاجتماعية وخاصة فى طرق الوقاية والعلاج من السلوك المنحرف للشباب .

ولعل فى ظهور فلسفات جديدة فى طرق التربيةوالتعليم أثراً كبيراً فى ضرورة استمرار هذه الخدمات بالمدارس

فالتربية تنمى شخصية التلميذ، وتنظيم انفعالاته تكسبه الخبرات التى تفيده فى حياته المستقبلة، وقد فشلت معظم المدارس فى تحقيق هذه الأهداف كاملة بسبب نظرية الثواب والعقاب التى دعا إليها وقادها العالم التربوى دكتور أدوارد ثورندايك والتى يمكن تلخيصها فى الخطوات الآتية : —

١ — يقوم المدرس بإثارة اهتمام التلاميذ نحو المادة التى يدرسها .

٢ — يستجيب التلاميذ لهذه الإثارة .

٣ — يطبق المدرس عملية الثواب أو العقاب على من يستحق من التلاميذ . وتتم عملية التعليم نتيجة لذلك .

وهذه النظرية تقوم على أسس قريبة الشبه إلى حد بعيد بالحياة الآلية المادية ولا تصلح للتطبيق فى المدارس لعدم تكاملها ولاعتمادها الكبير على القدرات العقلية والاستعدادات المختلفة المتأثرة بالوراثة مع إهمالها الاتجاهات السلوكية والعاطفية والخبرات المكتسبة من الحياة والتى لا يمكن إنكارها .

ولقد تنبه جون ديوى إلى الأثر الكبير للتفاعل الاجتماعى فى نمو التلاميذ وتقدمهم فلاحظ أن اشتراك التلاميذ معا تحت إرشاد مدرسيهم يكون له أثر أبعد من تأثير المدرس بمفرده على تلاميذه ولهذا دعا أنصار هذه النظرية إلى ضرورة إيجاد حياة اجتماعية واسعة للتلاميذ فى المدارس سواء داخل الفصول أو خارجها .

وعلى هذا عرف ديوى التربية بأنها عملية اجتماعية يؤكد فيها أثر المدرس عن طريق تفاعل العلاقات بين التلاميذ تحت إشرافه .

والواقع أن ثورندايك فى نظريته يؤكد أن التربية عملية تخص الفرد وميوله واستعداداته فقط وأن العلاقات بين المدرس والتلاميذ علاقات محددة المعالم .

وقد ترتب على هذه النظرية أن اقتصرت أغلب معاهد وكليات التربية فى العالم على الاهتمام بعلم النفس اهتماما كبيرا بينما أهملت العلوم الاجتماعية الأخرى .

أما ديوى فى نظريته فيؤيد ضرورة الاهتمام الكامل بالعلاقات الاجتماعية فى عمليات التربية .

وظهر مذهب وسط يميل إلى عدم التقليل من أهمية النظريتين لأن كلا منها تكمل الأخرى فأخذت الكثير من المدارس الحديثة بتطبيق نظرية ثورندايك داخل الفصول والنظرية الاجتماعية فى النشاط المدرسى خارج الفصول .

ولكن التقدم العلمى فى علم النفس التحليلى أدى أخيرا إلى تعضيد النظرية الاجتماعية بعد أن ثبت أن الكثير من السلوك الإنسانى يرجع إلى أسباب لاشعورية، وهذا أدى إلى التقليل من أهمية نظرية ثورندايك التى تعتمد

على الشعور فى جميع عملياتها التربوية، بينما قوت من أهمية النظرية الاجتماعية التى تعتمد على خبرات وظروف كثيرة.

موقف المهنة من نظريتى التربية :

والخدمة الاجتماعية المدرسية متفقة مع الرأى الوسط وتدعو إلى تحقيق المواءمة بين احتياجات التلاميذ التى أصبحت تشمل الشعور واللاشعور سواء داخل الفصول أو خارجها ، وتنادى بأن تزال الحواجز الموجودة بينهما ليكمل أحدهما الآخر، وأن تعدل المناهج والخطط والأساليب بما يسمح بتحقيق هذه الدعوة، وأن يتحول الاهتمام التقليدى فى المدارس بالسلوك الظاهر للتلاميذ إلى الاهتمام الكامل بالسلوك الظاهر منه والباطن للمشكلات غير الظاهرة وهى مشكلات مؤجلة قد لاتظهر فى فترة الدراسة وقد تحدث منها مضايقات للمسؤولين ، ولكنها مع ذلك قد تنذر بخطر كبير للمجتمع إذا لم تعالج فى مبدئها ، فالثابت أن التلميذ المنطوى على نفسه الزاهد فى الاختلاط بغيره أشد خطورة على المجتمع من التلميذ الثائر المشاكس .

وواضح أن قيام المتخصص الاجتماعى بخدمة التلاميذ فى ميدانه بالمدارس لايعنى مطلقا إعفاء المدرس من الإسهام فى هذه الأعمال فى حدود طاقته ووقته وخبراته ، إذ أن المدرس بحكم اتصاله المستمر بالتلاميذ يمكنه دون غيره أن يعاونهم على النمو والتقدم واكتساب الخبرات النافعة ويمكنه أن يتعرف على التلاميذ المحتاجين إلى رعاية خاصة وأن يساهم فى الخدمات اللازمة لهم وأن يعاون فى تتبع حالاتهم .

المهام التى يقوم بها المتخصص الاجتماعى المدرسى :

لما كانت حياة التلاميذ تشمل جميع خبراته فى المنزل والمدرسة والمجتمع، لذلك كان من الواجب أن تكون للمتخصص الاجتماعى قدرة خاصة واستعداد كاف على التعامل والاتصال بالمنزل والمدرسة والمجتمع على السواء .

ويمكن أن تحدد المهام التى تناط به فى حدود إطار الأهداف العامة للتربية، وذلك فى الخطوات التالية —

أولا — تنظيم الحياة الاجتماعية بالمدارس لتصبح محببة للطلبة صالحة لنمو قدراتهم العقلية والوجدانية والجسمية ولتكون عاملا على تحقيق التعاون التام بين هيئة التدريس والطلاب ودعم الجماعات المدرسية وتوجيه الطلاب للاندماج فى النشاط المناسب ومساعدتهم على مباشرة الحياة الديمقراطية والتفاعل الاجتماعى السليم وتكوين روح الولاء للجماعة والمجتمع بما يتفق مع الأهداف القومية .

ثانيا — معاونة الطلاب على حل مشكلاتهم المختلفة ومحاولة المواءمة بين التلاميذ ومدرسته وبيئته وتبصيره بموقفه بعد دراسة حالته، وتشجيع المدرسين على اكتشاف التلاميذ ذوى المشكلات والعمل على حلها حتى لاتعترض التلاميذ خلال حياتهم المدرسية صعاب تحول دون إفادتهم إفادة كاملة من الخبرات المدرسية .

ثالثا — العمل على توطيد العلاقات بين المدارس والبيئة والمؤسسات الموجودة بالمجتمع لتحقيق أكبر نفع ممكن للطلاب، وتشجيع الخطوات التى تتبع لتوثيق الصلة بين المدرسة وأولياء التلاميذ ودعوتهم للمدارس فى مناسبات وجعل المدارس مراكز للإشعاع العلمى والأدبى والترويحى والرياضى والثقافى للبيئة فى رحلات ومعسكرات ومؤتمرات، وتأدية خدمات مناسبة لها وتبادل خبرات نافعة للتلاميذ .

مكتب الخدمة الاجتماعية المدرسية :

هناك نوعان من المتخصصين الاجتماعيين أحدهما يوجد داخل المدرسة ضمن هيأتها ليتيسر له خدمة مباشرة وتتاح له أيضاً فرص أخرى حيث يقف على المشكلات منذ بدايتها وليتمكن من خدمة الطلاب فى الجماعات المدرسية، أما المتخصص الاجتماعى الآخر فيوجد فى وحدات مستقلة خارج مبنى المدرسة ، ليتمكن من خدمة الطلاب خدمة فردية ويقوم هذا المتخصص بزيارة دورية لأكثر من مدرسة واحدة ويعقد اجتماعات فى المدرسة مع المسئولين لمناقشة الصعوبات التى تعترضهم ولمقابلة التلاميذ ذوى الصعوبات الخاصة، كما يمكن دعوته للمدرسة زيادة عن الزيارات الدورية إذا حدث ما يستدعى هذه الزيارة وبذلك يتيسر له العمل فى جو ملائم لخدمة الفرد اجتماعيا .

وقد استقر الرأى بوزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة على الأخذ بمبدأ الفكرتين والانتفاع بالخدمة الاجتماعية المدرسية داخل المدرسة بوجود بعض المتخصصين الاجتماعيين بها وخارج المدرسة بإنشاء أربع مكاتب للخدمة الاجتماعية المدرسية بالإقليم الجنوبى، فى القاهرة الشمالية والجنوبية والجيزة والإسكندرية وقد بدأت هذه المكاتب نشاطها فى فبراير ١٩٥٤ فى القاهرة ونوفمبر ١٩٥٥ فى الإسكندرية ، وتهدف هذه المكاتب إلى :

أولا — مساعدة التلميذ على حل مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية والمدرسية والنفسية بمعاونته على تفهمها وتعرف أسبابها ودوافعها والعمل على تكيفه مع الجو المدرسى والبيئة التى يعيش فيها وتهيئة المدرسة والأسرة لتقبله ومساعدته .

ثانيا — التعاون مع المؤسسات الاجتماعية والعيادات النفسية حكومية وأهلية فى الحالات التى تحتاج إلى رعايتها.

ثالثا — القيام بأبحاث تصلح أساسا لفروض محتملة للتعرف على أسباب بعض مشكلات طلاب المدارس وتقديم اقتراحات تساعد على علاج مسببات هذه المشكلات العامة .

رابعا — إثارة الوعى وتنبيه الرأى العام للمزيد من العناية بمشكلات الشباب وتنظيم اجتماعات وندوات توجيهية للآباء والمعلمين لتبصيرهم بدورهم وواجباتهم نحو هذه المشكلات.

خامسا — المطالبة بتقديم خدمات جديدة غير متوفرة فى المجتمع لخدمة الطلاب والقيام بتجارب فى هذا الميدان تمهيدا لتعميمها كالمعسكرات الحديثة وفصول المذاكرة والرحلات الموجهة .

ويخدم كل مكتب مالا يقل عن ٤٠ مدرسة مابين ثانوية وإعدادية وفنية وابتدائية تضم أكثر من ٧٠,٠٠٠ تلميذا وتلميذة ويعمل فى كل مكتب ٤ إخصائيين اجتماعيين ، ٣ إخصائيات اجتماعيات روعى فى اختيارهم الامتياز فى ميدان خدمة الفرد ، وبجانب هؤلاء يقوم بالعمل فى كل مكتب إخصائى نفسى وطبيب نفسى منتدبان بعض الوقت للمعاونة كل فى ميدانه .

ومن الإحصائيات التى أمكن الحصول عليها من مكتب الإسكندرية عن نشاطه فى العام الدراسى ١٩٥٧/٥٦ تبين أن ١٠ ٪ من الحالات تحتاج الى رعاية العيادات الطبية النفسية .

أما من ناحية أنواع المشكلات فقد وجد أن المشكلات المدرسية (التأخر فى التحصيل الدراسى) بلغت ٢١ ٪ من جملة الحالات التى قام بخدماتها وأن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية بلغت ٤٢ ٪ والحالات الصحية لم تتجاوز ٨ ٪ .

أما الحالات النفسية فقد بلغت ٣٩ ٪ منها ١٠ ٪ تحتاج إلى خدمة متخصصة فى العيادات النفسية كما سبقت الإشارة .

ولا يعنى ذلك التقسيم أن كل مشكلة مستقلة عن الأخرى إذ أنه فى الواقع وجد أن العوامل متداخلة وأن التقسيم قد تم حسب الأغراض الغالبة على الحالة فقط .

وبلغت نسبة حالات الطالبات ٢٩ ٪ بينما وصلت حالات الطلبة فى المدارس الابتدائية ٢٤ ٪ أما الإعدادية والثانوية فلم تتجاوز ٢٠ ٪ لكل منهما ، ومن ناحية الأعمار نجد أن أكبر نسبة كانت للطلبة والطالبات الذين تبلغ أعمارهم من سن ١٦ — ٢٠ حيث بلغت ٤٠ ٪ من الحالات .

وأما من سن ٦ — ١٢ فكانت ٢٥ ٪ ومن سن ١٢ — ١٦ فوصلت ٢٠ ٪ ولم تتجاوز نسبة الحالات التى لم تجد تجاوبا كافيا مع أسرة الطلاب ٨ ٪ حيث وقفت صعوبات مادية دون تحقيق هذه الخدمات ، والواقع أنه بدون التعاون والتجاوب بين الأسرة والمكتب يصعب جدا الاستمرار فى خدمة التلميذ العميل .

خاتمـــة :

إن البيت العربى أو الأسرة العربية لازالت تحتفظ بالكثير من مزاياها التى توارثتها عن الأجداد وأنها لم تفقد بعد الترابط والتآزر والعلاقات الأسرية المتينة بين أفرادها وأن الموقف يستدعى بذل الجهود لاستمرار الأسرة العربية قوية متينة تحقق أغراضها ويعم خيرها جميع أبنائها .

إن المدارس أداة أوجدتها المجتمعات الحديثة لتكون القنطره بين المجتمعات والأسرة يمر عليها أطفالنا من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الإنتاج .

لذلك ينبغى أن تكون مدارسنا فى المجتمع العربى مشبعة بروح المجتمع متمشية مع أهدافنا القومية وآمالنا التى نسعى لتحقيقها .

من هذا العرض السريع للخدمة الاجتماعية المدرسية يتضح أنها حلقة مباركة من حلقات تطور خدمات ضرورية لنظام التربية والتعليم فى جميع أنحاء العالم العربى الذى كان دائما شديد التأثر بالظروف الاجتماعية التى تسود المجتمع فى كل ما مر به من العهود .

وإذا كانت المجتمعات العربية الحديثة قد صح عزمها على تحقيق الدعوة الخالدة التى تنادى بتحقيق القومية العربية وبناء وطن عربى تشيع فيه روح الأخوة الصادقة والمحبة العميقة والمساواة التامة والرخاء العام فإن هذه الدعوة ينبغى أن تشمل فيما تشمل مرفق التربية والتعليم الذى يعد من أهم مقومات الشعوب وأبعدها أثراً فى خلق المواطنين الصالحين

والخدمة الاجتماعية فى المدارس العربية تعمل على تحقيق هذه الأهداف وخاصة بعد أن أصبح لها أساس فلسفى واضح واتجاهات محددة وبرامج مطبقة ووظائف تحقق مجالات للحياة الديمقراطية السعيدة للفرد والأسرة والمجتمع فى حدود الأهداف القومية العربية .

« وسائل التثقيف الصحى فى البيت العربى »

للدكتور

فتحى سليمان عبد الحافظ

(الهيئة الصحية العالمية)

مقدمة :

يتحتم علينا عند دراسة الوسائل المتبعة أو التى يمكن تطبيقها لنشر التثقيف الصحى فى محيط البيت العربى أن نضع نصب أعيننا أن التثقيف الصحى ليس غاية فى ذاته بل هو وسيلة لا غنى عنها لنجاح أى برنامج صحى لأى مجتمع . وتزداد أهمية التثقيف الصحى كلما نقصت الموارد المادية لتنفيذ البرامج الصحية أو لإيصال الخدمات الطبية لجميع أفراد المجتمع كما هو الحال فى غالبية البلدان العربية . فالتثقيف الصحى هو الوسيلة الفعالة لضمان التعاون الوثيق بين الأهلين والمشتغلين بالشئون الطبية والصحية مما يوفر كثيرا من الجهد والمال لدى تنفيذ البرامج .

العوامل التى تؤثر فى وسائل التثقيف الصحى :

ليس من الحكمة فى شىء أن توضع قواعد ثابتة لتطبيق التثقيف الصحى على نمط واحد فى كل المجتمعات ، وكل ما يجدر عمله فى هذا الصدد هو أن توضع أسس وخطوط عريضة لوسائل التثقيف الصحى يمكن تحديدها لتناسب المجتمع الذى تطبق فيه . فالغرض من التثقيف الصحى هو إشعار جميع أفراد المجتمع بأهمية تعاونهم وتساندهم مع المشتغلين بالصحة العامة لتحسين حالتهم الصحية كل لا يجزء فى حدود إمكانياتهم الاقتصادية وبما يتمشى مع حالتهم الاجتماعية . ومن أجل الوصول إلى هذا الغرض يتحتم الاهتمام بالعوامل الآتية :

١ — وضع المشاكل الصحية التى تواجه المجتمع موضع الدراسة ، ويجب أن يكون لرأى الأهلين اعتبار خاص فى ترتيب تلك المشاكل وفق أهميتها .

٢ — عوامل البيئة والمناخ وطبيعة المكان ووسائل المواصلات التى تربط المجتمع بغيره من المجتمعات .

٣ — العوامل الاقتصادية وخاصة دخل المجتمع ومدى اشتراك الهيئات الحكومية وغير الحكومية فى تنفيذ البرامج الخاصة بهذه المجموعة من الناس .

٤ — المستوى التعليمى والثقافى والتربوى للمجتمع .

٥ — المستوى الاجتماعى ووسائل كسب العيش ونظم التغذية فى المجتمع .

٦ — العادات والمعتقدات الموروثة ومدى تقبل الأهلين لما قد يؤثر فى أو يتعارض مع هذه المعتقدات، ويدخل فى هذا المضمار المعتقدات الدينية ومدى تفهم الأهلين لها .

٧ — نوع المشتغلين بالشئون الصحية ومؤهلاتهم وخبراتهم وطريقة تدريبهم واختيارهم . ولهذه العوامل أثر كبير فى تفهم رجال الصحة لظروف البيئة التى يعملون فيها، ومن ثم يحدث التقارب بين وجهة نظرهم ووجهة نظر أفراد المجتمع وتتأكد أواصر التعاون الوثيق بينهم . وإذا ما نظرنا نظرة فاحصة إلى حالة البيت العربى ، فى مختلف أرجاء العالم العربى تبين لنا أهمية دراسة جميع العوامل السالف ذكرها دراسة دقيقة قبل تطبيق أى من وسائل التثقيف الصحى المختلفة، فنظم وأحوال البيت تختلف اختلافا بينا لا من قطر إلى قطر فحسب ولكن من إقليم فى نفس القطر إلى آخر ، وحتى من منطقة فى نفس الإقليم لأخرى .

المشتغلون بالتثقيف الصحى :

لا تسمح ظروف البلدان العربية بتطبيق نظام تخصيص مثقفين صحيين للاضطلاع بهذه المهمة بمفردها، كما أن محاولة تطبيق هذا النظام لا تعود بالفائدة المرجوة، فلا بد أن يعتبر التثقيف الصحى جزءا لا يتجزأ من جميع البرامج التى تستهدف رفع المستوى الاجتماعى والاقتصادى والصحى بوجه عام . وعلى ذلك يتحتم أن يدرب جميع المشتغلين فى تلك الميادين العامة على الوسائل الأساسية للتثقيف الصحى . وأن يحدد عدد الاخصائيين فى هذا المقام بقدر الحاجة إليهم فى الإشراف العام وفى توجيه السياسة العامة للدولة فى تطبيق وسائل التثقيف الصحى فى مختلف أرجاء البلاد .

١ — المشتغلون بالطب والصحة العامة بما فى ذلك الأطباء ومساعدوهم والممرضات والقابلات .

٢ — المشتغلون بالخدمات الاجتماعية .

٣ — المثقفون الصحيون بمختلف مستوياتهم .

٤ — رجال التعليم .

٥ — المشتغلون بالتربية الأساسية وشئون النهوض بالمجتمع .

٦ — رجال الدين .

٧ — المشتغلون بالخدمات الاقتصادية .

ويجب أن يختار هؤلاء ممن تتقارب عاداتهم ومعتقداتهم الاجتماعية والدينية وعادات ومعتقدات المجتمع الذى سيقدمون له تلك الخدمات . وكلما أمكن تدريب أفراد من المجتمع نفسه كلما كان ذلك أجدى وأنفع .

الوسائل العلمية للتثقيف الصحى :

١ — تيسير العلاج الطبى :

قد يبدو وضع هذه الوسيلة فى رأس القائمة مستغربا إلا أنه فى كثير من مناطق البلاد العربية ـ حيث ينخفض مستوى الخدمات الطبية إنخفاضا كبيرا — يكون تيسير سبل العلاج الطبى للأمراض الشائعة فى المنطقة أنجح طريقة لتثقيف الأهالى صحيا ولتعريفهم بالمبادىء « الصحية » . وأذكر على سبيل المثال ما قامت به حكومة السودان عندما نفذت مشروع علاج الأمراض التناسلية فى قبيلة المرلى بمديرية أعالى النيل، فقد كان من أثر حملة علاج تلك الأمراض بالبنسلين والنتائج الطبية التى لمسها أهالى المنطقة أن بدأ الناس هناك يهتمون بالمسائل الصحية أكثر من ذى قبل ويثقون بالمشتغلين بالخدمات الطبية ويطالبون بالمزيد من تلك الخدمات .

وهذا الارتفاع فى الوعى الصحى هو أول مراحل التثقيف الصحى . ولكى تؤتى هذه الطريقة ثمارها يجب أن يقترن تقديم العلاج بحسن معاملة المرضى . والعمل على تقريب الشقة بين عقلية المريض وعقلية من يقومون بعلاجه . وحيث أن العادات والتقاليد فى كثير من البلدان العربية لا تسمح بالاتصال المباشر بين المشتغلين بالصحة العامة والبيت العربى . فلابد أن ينتهز رجال الصحة العامة فرصة ما يقدمونه من خدمات سواء كان ذلك فى عيادة خارجية . أو فى مستشفى داخلى أو عن طريق الوحدات المتنقلة ليوجهوا النصح للمرضى فيما يختص بصحتهم الشخصية . وكيفية حماية أهليهم من الإصابة بالأمراض المعدية وطريقة تجنب مضاعفات المرض وبذلك يقوم المرضى أنفسهم بمهمة التثقيف الصحى فى بيوتهم .

٢ — الأحاديث الصحية :

نظرا لارتفاع نسبة الأميين فى البلدان العربية تسبق الكلمة المسموعة فى الأهمية الكلمة المكتوبة كوسيلة من وسائل نشر التثقيف الصحى فى البيت العربى، ويجب أن يكون الحديث الصحى من السهولة بحيث يمكن للمرضى استيعابه دون كثير عناء . وأنسب الأوقات لتقديم الأحاديث الصحية هو عندما يتجمع المرضى فى مكان واحد انتظارا لفحص أو علاج . وقد نجحت هذه الطريقة فى عيادات رعاية الأم والطفل حيث تكون الأمهات على استعداد تام للاستماع لأية نصيحة تساعدهن على تربية أولادهن والمحافظة على صحتهم ، وكذلك يمكن اتباع نفس الأسلوب فى العيادات الأخرى بمختلف أنواعها .

٣ — الزيارات المنزلية :

ثبت أن تطبيق نظام الزائرات الصحيات يؤتى بنتائج طيبة فى إيصال الثقافة الصحية إلى البيت العربى حيث تتمكن الزائرة الصحية من دراسة حالة البيت وإمكانيات أهله وعاداتهم وتقاليدهم فتأتى نصائحها متفقة مع الواقع وممكنة التطبيق .

٤ — المعارض الصحية :

تؤدى المعارض والمتاحف الصحية خدمات جليلة فى ميدان التثقيف الصحى ، إذ أنها تيسر السبيل للناس لمعرفة كثير من المبادىء الصحية دون مشقة أوعناء، ويجب أن تشمل هذه المعارض نماذج وصورا مبسطة يتعرف عنها أفراد الشعب أعراض وظواهر الأمراض المنتشرة فى الإقليم الذى يعيشون فيه وكيفية الوقاية منها بطريقة سهلة دون ماحاجة إلى قراءة شروح مطولة، حيث أن المقصود أصلا بهذه المعارض هم أفراد الشعب العاميين والذين لم يصل مستوى تعليمهم إلى مايمكنهم من الإفادة من النشرات والكتيبات الصحية .

٥ — النشرات والكتيبات والمطبوعات الصحية :

تقوم هذه الوسيلة بدور كبير فى نشر الثقافة الصحية بين أفراد الشعب المتعلمين وبين أهليهم وخاصة إذا ماوزعت فى الأماكن والأوقات المناسبة على رواد العيادات والمستشفيات وعلى طلبة المدارس، ويجب أن يكون أسلوبها سهل الفهم لايحوى كثيرا من المصطلحات العلمية المعقدة .

٦ — الصحافة :

وتلعب الصحافة الآن دورا حيويا فى نشر الثقافة الصحية فى المدن العربية وخاصة فيما يتعلق بالمسائل التى تهم الرأى العام والتى ترتبط بحياة الناس الاجتماعية، وتحتاج هذه الوسيلة إلى عناية كبيرة فى اختيار أسلوبها ووضعه فى قالب لايساء فهم المقصود به ولا يدعو إلى بلبلة الأفكار أو انتشار الذعر . وخاصة إذا ماتعلق الأمر بمرض وبائى أو ماشاكل ذلك .

٧ — الإذاعة :

تزداد أهمية الإذاعة فى حياة البيت العربى يوما بعد يوم — لافيما يخص الناحية السياسية فحسب — بل فيما يتعلق بالتقدم الاقتصادى والاجتماعى والصحى كذلك، وتزداد أهمية هذه الوسيلة فى نشر الثقافة الصحية فى البلاد التى تزداد فيها نسبة الأميين وهى وسيلة تحظى من الكثيرين بالاهتمام بها لغرض أو لآخر .

فإذا ما استمع الناس إلى نصيحة صحية فى قالب مستساغ تركت فى نفوسهم أثرا مستمرا قد لاتتركه قراءة مقالة فى صحيفة أو الاستماع إلى محاضرة من إخصائى . وأنجع طريقة هى العمل على أن تكون الأحاديث الصحية قصيرة ومختصرة وأن يراعى فيها أن تشتمل على مايهم ويرضى مختلف طوائف المستمعين بقدر الإمكان مثل الاستعانة بالموسيقى التصويرية والتمثيل والحوار وما أشبه .

٨ — الصحة المدرسية :

الطالب فى مدرسته أنسب أداة لنشر التثقيف الصحى فهو يستمع إلى النصائح الصحية التى تلقى عليه كمادة

جذابة بالمقارنة بمواد التعليم الأخرى . وخاصة إذا ما أعطى دورا عمليا يشترك به فى البرامج الصحية فى المدرسة مثل الاشتراك فى جمعية خاصة أو القيام بدور فى إحدى التمثيليات الصحية ، أو فى معاونة الممرضة أو الطبيب فى عملهما وتنتقل هذه المعلومات التى يحصل عليها الطالب من المدرسة إلى محيط البيت فى يسر وسهولة ويستمع أهل الطالب إليه فى اهتمام . ولهذا يجب أن تكون النصائح الصحية التى تلقن لطلبة المدارس سهلة وفى متناول يد البيت الذى يعيش فيه الطالب ومتمشية مع إمكانيات البيئة واحتياجاتها .

٩ — النصائح الدينية :

نظراً للثقة الكبيرة التى يتمتع بها رجال الدين فى البلدان العربية وخاصة فى الأوساط الريفية وبين العمال ، تزداد أهمية الاستعانة برجال الدين فى نشر الثقافة الصحية فى البيت العربى ويلعب رجال الدين دورا كبيرا فى إفهام الناس العلاقة بين الدين والصحة وفى تصحيح الكثير فى المعتقدات الخاطئة الثابتة فى أذهانهم .

١٠ — السينما :

يعتبر الفيلم من الوسائل القوية فى نشر الثقافة الصحية إذ أنه يجمع بين الوسيلة البصرية والوسيلة السمعية كلتيهما فى وقت واحد . ويجتذب إليه الناس باختلاف مستوياتهم وطوائفهم ، ويمكن بالرسوم المتحركة المصحوبة بشرح مبسط أن نقرب إلى أذهان الناس كثيرا من الأمور المتعلقة بصحتهم العامة مما يتعذر شرحه بإحدى الوسائل الأخرى . وأذكر على سبيل المثال شرح الميكروبات الدقيقة وطريقة نشرها للمرض . وقد نجحت هذه الطريقة فى شرح انتشار مرض السل وطرق الوقاية منه بطريقة يسهل فهمها والإفادة منها .

وتنقسم أفلام التثقيف الصحى إلى نوعين :

(ا) القصة المرحة التى تشرح المعلومات الصحية فى قالب فكاهى مرح ويقبل عليه الأطفال وأمهاتهم وطبقة الأميين .

(ب) القصة العلمية التى تحتوى المعلومات الصحية فى قالب علمى مبسط ويستعمل هذا النوع فى تثقيف طلبة المدارس . ويجب ألا ننسى أن هذه الوسيلة رغم فائدتها باهظة التكاليف .

١١ — الصحة المهنية :

كلما ازداد تصنيع البلاد العربية كلما ازدادت أهمية الصحة المهنية للصناع وذويهم . وتقديم الخدمات الطبية للعمال فى المصنع وسيلة فعالة لنشر التثقيف الصحى لا بين العمال فحسب ولكن بين أهليهم وأهل المحيط الذى يعيشون

فيه . وزيارة واحدة لأحد المصانع التى تقدم الخدمات الطبية على مستوى علمى حديث تؤكد للزائر فعالية هذا النوع فى رفع المستوى الاجتماعى والصحى لجميع أهالى المنطقة المقام فيها هذا المصنع .

الخلاصـــة :

التثقيف الصحى جزء لايتجزأ من برامج رفع المستوى الصحى والاقتصادى والاجتماعى لأية مجموعة من الناس ويجب أن يرسم برنامجه على أسس وقواعد سهلة التنفيذ تتمشى مع طبيعة البيئة وعادات الناس ومعتقداتهم وأن يشترك فيه كل من يهمه إصلاح المجتمع ، كما يجب أن يسهم فيه كل فرد من أفراد هذا المجتمع فتكون الثقة متبادلة بين الجميع ويصبح البرنامج المنشود أقل تكاليفا وأجدى فائدة .

رعاية الأمومة والطفولة فى البيت العربى

للدكتور محمد كمال عبد الرازق و الدكتورة نفيسة حسين عيسى

(الجمهورية العربية المتحدة)

---

١ — رعاية الأمومة والطفولة أساس المحافظة على كيان الأسرة :

إن أهم أغراض رعاية الأمومة والطفولة هى مكافحة كثرة الوفيات بين الأمهات والرضع والأطفال والهبوط بهذه النسبة إلى أقل مستوى ممكن والعناية بالحامل والأم والطفل قبل وأثناء وبعد الوضع والإقلال ما أمكن من مضاعفات الحمل وأخطار الولادة والقضاء على حمى النفاس وتجنيب الأم وطفلها شر الأمراض الوراثية والوبائية والنزلات الصدرية والمعوية ومكافحة الرمد والكساح والتحصين ضد الجدرى والدفتريا والسعال الديكى والسل . .الخ وتزويد الأم بالإرشادات الصحية الخاصة بالحمل والاستعداد للوضع وأصح الطرق لتغذية طفلها وتربيته وتنشئته على أفضل الطرق الصحية .

٢ — تثقيف الأم تثقيفا عاما وصحيا

١ — يجب أن يحوى طعام الحامل العناصر الأساسية اللازمة للجسم وأن تأكل منها الكمية الكافية والمناسبة وليكن غذاؤها بسيطا جيد الطهى سهل الهضم ، وأهم الأغذية اللازمة هى الخضروات والفواكه الطازجة المحتوية على الفيتامينات وكذلك المواد الزلالية وهى موجودة فى اللحوم والبيض والجبن والبقول . والمواد الدهنية من زبد ولبن وزيت وخلافه . والمواد النشوية كالأرز والخبز والحلوى . كما يلاحظ عدم احتواء الطعام على المواد الحريفة كالبهارات والشطة فإنها تهيج المعدة والأمعاء .

٢ — يجب على الحامل أن تعرض نفسها لأشعة الشمس والهواء الطلق يوميا وأن تمارس الرياضة الخفيفة .

٣ — يجب التغلب على الإمساك إتقاءا لحدوث الامتصاص العفن من الأمعاء وذلك بتعاطى الملينات الطبيعية البسيطة مثل سائل البرافين من وقت لآخر — كما يجب الامتناع بتاتا عن تعاطى المسهلات القوية خوفا من حدوث الإجهاض .

٤ — يجب شرب مقادير كافية من الماء للمساعدة على الإفراز .

٥ — يجب الابتعاد عن لبس المشدات أو الأحزمة الضيقة والأحذية ذات الكعوب المرتفعة ، ولتكن ملابس الحامل دائما مريحة وفضفاضة حتى لا تمنع حركات الجنين أو تعوق الدورة الدموية .

٦ — يجب غسل الأعضاء التناسلية الظاهرة بالماء الدافىء صباحا ومساء .

٧ — يحسن الإقلال من الاتصال الجنسى مدة الحمل والابتعاد بتاتا عنه فى الأشهر الأولى من الحمل إذا كانت الحامل متعودة الإجهاض وكذا فى الأيام الأخيرة من الشهر الأخير .

٨ — يلزم فحص بول الحامل مرة كل أسبوعين ابتداء من الشهر السادس .

٩ — يجب العناية بحلمة الثدى بغسلها بماء الكولونيا أو الكحول النقى صباحا ومساء لتقوية الجلد لتحمل الرضاعة وغسلها يوميا بالماء الدافىء والصابون .

١٠ — يجب على الحامل أن تتجنب الاضطرابات العضلية أو القلق النفسانى وأن لا تستسلم للحزن والكدر وأن تبعد الخوف والأوهام من مخيلتها وتحرص على الهدوء والمرح الدائم .

١١ — يجب على الحامل أن تأخذ قسطا وافرا من الراحة والاستجمام وأن تنام ثمانى ساعات يوميا وأن تتجنب شرب المنبهات كالشاى والقهوة وكذا المشروبات الروحية .

١٢ — يجب على الحامل أن تعنى بسلامة أسنانها ونظافتها بغسلها بالفرشاة والمعجون بعد كل طعام واستشارة طبيبها لدى ملاحظة أى تلف بها .

٣ — رعاية الأم أثناء الحمل :

الحمل هو الوظيفة الطبيعية لكل أنثى خصتها به الطبيعة وخلقت فيها ما يساعدها على أداء هذه العملية، وليس فى الحمل ما يدعو إلى الشعور بالخوف كما أنه ليس فى عملية الوضع خطر طالما عرفت الحامل ما يجب عليها نحو نفسها ونحو الجنين فى فترات الحمل والوضع والنفاس .

العناية بالحامل :

العناية بالحامل من الأمور الهامة للمحافظة على صحتها وصحة الجنين والغرض منها :

١ — أكتشاف وعلاج أى حالة غير طبيعية أثناء الحمل سواء كانت تتعلق بصحتها العمومية أو أى مرض قد يؤثر عليها أثناء الولادة .

٢ — منع ظهور أى أعراض مرضية قد يكون لها أثر على الحامل أو الجنين أو قد تسبب عسرا أثناء الولادة .

٣ — علاج الأمراض الوراثية التى قد تنقل إلى الجنين إذا لم تعالج الأم أثناء الحمل، وعلى الحامل أن تعهد بنفسها لطبيبها الخاص أو أحد مراكز رعاية الطفل أثناء الحمل والوضع من وقت شعورها بالحمل، وعليها أن تكرر الزيارة مرة كل أربعة أسابيع حتى الشهر الثامن ثم مرة كل أسبوعين إذا اقتضى الأمر ذلك حتى نهاية الحمل .

الفحص الطبى:

تفحص الحامل فحصا دقيقا فى أول زيارة لمعرفة سلامة القلب والصدر وحالتها الصحية العامة ثم يفحص الدم والبول ويقاس ضغط الدم وتفحص بطن الحامل لمعرفة حجم الرحم ومناسبته لتاريخ الحمل ويقاس الحوض فى البكريات .

وفى الزيارة الأولى يوجه المولد إلى الحامل أسئلة خاصة وتدون الإجابات فى تذكرة المشاهدة ، علما بأن تلك المعلومات فى غاية الأهمية ويلزم كتابتها كاملة ومضبوطة ويذكر فيها الاسم والعنوان والسن ومدة الزواج وعدد مراته وعدد الأولاد وعدد مرات الإجهاض والمواليد والأموات وتاريخ أول يوم لآخر حيض وصحة الحامل عموما وعما إذا كان بجسمها تشوهات .

ومن الأمور الهامة أيضا تعرف المولد على شخصية الحامل وتعرف الحامل على شخصية المولد إذ أن هذا يدخل الاطمئنان والثقة على نفس الحامل كما يساعد المولد على القيام بعملية التوليد، وقد لوحظ أن بعض الحوامل يستولى عليهن الخوف من الولادة وبخاصة البكريات منهن وهذا يؤثر كثيرا على شدة انقباضات الرحم الذى يترتب عليها تقدم الولادة وعلى ذلك فمن المهم إزالة القلق أثناء الحمل وإحلال الثقة والطمأنينة محلها .

اختبارات الدم:

١ — هذه الاختبارات هامة ويلزم عدم إهمالها وهى تقدير نسبة الهيموجلوبين وعدد كرات الدم الحمراء لاكتشاف الأنيميا إذ أن بعض الحوامل يصبن بأنيميا بسيطة تكون فيها نسبة الهيموجلوبين أقل من ٨٠٪ وهذه يسهل علاجها بإعطاء أقراص الحديد .

٢ — اختبار واسرمان لكل الحوامل وبهذا الاختبار يمكن اكتشاف المصابات منهن بالزهرى وعلاجهن علاجا كافيا يضمن لهن ولادة طفل سليم .

٣ — اختبار عامل ريسس والنتيجة إما ايجابية أو سلبية، والحوامل السلبيات لاختبار ريسس قد يضعن أطفالا مصابين باليرقان وفقد الدم وتنتهى غالبا بوفاة الطفل . والطفل الأول وأحيانا الثانى قد يولدون أصحاء ولكن الأطفال الذين يولدون بعد ذلك يكونون معرضين للإصابة . وبذلك يجب أن تعرض الحوامل السلبيات على الطبيب .

قياس ضغط الدم :

وهذا من الأمور الهامة خصوصا فى المدة الأخيرة من الحمل وارتفاع ضغط الدم من أول العلامات التى تنذر بحدوث التسمم الحملى .

العناية بالأسنان :

يجدر بالحامل أن تعنى عناية دقيقة بنظافة أسنانها بالفرشاة والمعجون مرتين يوميا على الأقل عند استيقاظها فى الصباح وقبل نومها فى المساء والأفضل تكرار هذه العملية بعد نهاية كل طعام . كما يجب عليها استشارة طبيب أسنانها بمجرد ملاحظة أى أعراض غير طبيعية بأسنانها أو اللثة نظرا لنقص كمية الكلسيوم فى فترة الحمل لاحتياج الجنين لها فى نمو عظامه .

العناية بالثدى والحلمات :

تلزم العناية بالثدى لتهيئته للرضاعة ، ويبدأ من الشهر السادس من الحمل فإذا كانت الحلمة منبسطة وجب جذبها بين الإبهام والسبابة لعدة دقائق يوميا أما إذا كانت غائرة فلا يؤثر فيها العلاج بالشد وينبغى غسل الثدى بالماء الدافىء والصابون يوميا لإزالة أى قشور صغيرة تتكون على الفتحات .

وقد دلت التجارب على أن الحالات التى استعمل فيها غسل الثدى بالماء والصابون فقط كانت نسبة تشققات الحلمة أو ظهور خراجات الثدى فيها فى الأسابيع الأولى للرضاعة أقل من الحالات التى استعملت فيها العقاقير مثل اللانولين أو الكحول أو التدليك .

وإذا شعرت الحامل بثقل الثدى وبخاصة فى أواخر الحمل فيمكن استعمال حمالات لرفعها إلى أعلا دون أن تكون ضيقة فتعوق الدورة الدموية أو تكون ضاغطة فتؤثر على بروز الحلمة .

تحليل البول :

يلاحظ فى البول كمياته وكثافته النوعية ثم يفحص السكر والزلال، وظهور الزلال فى البول من علامات التسمم الحملى ويجب علاجها فور ملاحظتها .

الغذاء :

العناية بغذاء الحامل من الأمور الهامة لما له من علاقة مباشرة بصحة الأم وأثر بليغ فى نمو الجنين وينبغى أن يكون

الغذاء كاملا حاويا لجميع العناصر اللازمة للجسم بسيط الطهى وأن يؤخذ فى وجبات منظمة وألا تزيد كميته عما كانت تتناوله قبل الحمل ، ويلاحظ أن يكون البروتين الموجود به من أصل حيوانى أو نباتى ، وعلى هذا فالبيض واللبن واللحم من المواد المهمة فى غذاء الحامل لاحتوائه على البروتين الحيوانى كما يجب أن يحتوى الغذاء على أملاح الكلسيوم والفسفور والحديد لأهميتها لنمو الجنين ، فعلى الحامل أن تتعاطى اللبن والخضروات والفواكه الطازجة وفيتامين « د » المحضر كما هو فى زيت السمك مثلا لما له من أهمية فى انتفاع الجسم بأملاح الكلسيوم والفسفور وترسيبها فى عظام الطفل النامية .

ملابس الحامل :

يتوقف نوع وكمية ملابس الحامل على الطقس ولكن القاعدة هى :

١ — يلزم أن تكون كافية بحيث تقيها من البرد .

٢ — أن تكون فضفاضة وتسمح للأطراف بالحركة بسهولة وكذلك التنفس .

٣ — أن لا تضغط على البطن أو الثديين .

٤ — إذا كان من الضرورى ارتداء الأحزمة (الكورسيه) فيلزم أن لا تضغط على البطن أو الصدر وتكون وظيفتها سند البطن فقط وأن تكون مصنوعة من القماش اللين وتصل إلى الفخذ .

ولا تستعمل روافع الثدى الضاغطة حيث أنها تفرط الحلمة وتعيق الدورة الدموية ، وعلى العموم تكون ملابس الحامل معلقة من الأكتاف وليس بها ما يضغط على الجسم .

ولا تلبس حمالات الجوارب المصنوعة من اللاستيك بل يستعمل بدلا منها علاقات وذلك لأنها تعوق الدورة الدموية وتساعد على ظهور الدوالى بالساقين.

ويجب أن تصنع الأحذية من جلد ويكون لها كعب منخفض ونعل سميك حتى تكون مريحة فى المشى .

الرياضة :

الرياضة المنظمة فى الهواء الطلق ضرورية للحوامل إذ أنها تساعد على النوم والهضم وتحفظ العضلات فى حالة صحية وتضفى على الحامل حالة نفسية هادئة .

ومن الطبيعى أن معظم الحوامل يقمن ببعض الحركة أثناء قيامهن بالأعمال المنزلية ولكن هذا النوع من الحركة كثيرا ما تشعر بعده الحامل بتعب جسمانى ، وليس هو المقصود من الرياضة اللازمة للحامل ، إذ يجب عليها أن تقضى

ساعة أو ساعتين يوميا فى الهواء الطلق ، ويجب فتح نوافذ غرفة نومها أثناء النوم ويجب عليها ألا تمارس الرياضة العنيفة كلعب التنس وركوب الخيل والسباحة خصوصا أثناء الستة أشهر الأخيرة من الحمل ، وبوجه عام يجب تنظيم مقدار الرياضة لكل حامل بحيث تناسب حالتها الجسمانية ولا تسبب تعبا لها ، ولا مانع من أن تمارس الأعمال المنزلية غير المجهدة لها . والحوامل العاملات بالمصانع عليهن ترك العمل قبل الوضع بستة أسابيع على الأقل ليحصلن على فترة كافية من الراحة ووقت مناسب للرياضة الخارجية .

العوامل النفسية :

للحمل أثر ظاهر على الجهاز العصبى والحالة النفسية للحامل ، فكثيرا ما تصبح الحامل سريعة التأثر وقد تعتريها فترات من الانقباض النفسى لأسباب تافهة ويرجح أن يكون الدافع لذلك هو القلق والخوف من الولادة .

ومن مظاهر التغير فى الجهاز العصبى القىء الصباحى وزيادة سيل اللعاب والوحم وهواشتهاء الحامل لبعض أنواع الطعام . كذا رفض بعض أنواع الروائح أو الألوان وهذا كله نتيجة لاضطراب الجهاز العصبى . وهذه التغييرات تكون واضحة فى النصف الأول من الحمل وخصوصا فى عصبيات المزاج . ويمكن التغلب عليها ببعض قوة الإرادة من الحامل كما يلزم على المتصلين بها تهيئة جو ودى لها حتى يدخلوا على نفسها قدر عظيم من السرور والهدوء والابتهاج وأن يبعدوا عن مخيلتها كل ما يثير القلق والانفعالات النفسية لما لذلك من أثر عظيم على سير الحمل بل وانقباضات الرحم أثناء الوضع .

وتلافيا لمضاعفات الحمل الطارئة سنلخص فيما يلى الأعراض الهامة التى يجب عرض الحامل على الطبيب فور حدوثها لسرعة معالجتها قبل استفحالها :

١ — النزيف مهما كانت درجته لأنه قد يبدأ قليلا ثم يتحول فجأة إلى نزيف غزير .

٢ — القىء المستمر المستعصى لأنه قد يكون الأنذار الأول لتسمم حملى شديد .

٣ — الإمساك المزمن لأنه يسبب تراكم سموم الأغذية فى الدورة الدموية .

٤ — الصداع المستمر لأنه أول علامة مرضية تلفت النظر للبحث عن أسبابها وهى غالبا أول إنذار للضغط الدموى المرتفع .

٥ — اضطراب النظر لأنه من علامات التسمم الحملى الهامة .

٦ — تورم الثديين أو الساقين أو الجفون لأنه من أعراض الالتهابات الكلوية .

٧ — حدوث الآلام الشديدة فى البطن لأنها قد تكون منذرة بنزيف رحمى داخلى .

٨ — قلة إفراز البول لأنها أولى علامات تأثير الكلى من سموم الحمل .

٩ — الأرق المستمر لأنه دليل على تأثر الجهاز العصبى .

١٠ — توقف حركة الجنين بعد ابتدائها إذ يحتمل أن يكون ذلك إنذارا بوفاة الجنين .

٤ — رعاية الطفل :

يكون الطفل من ساعة ولادته موضع الرعاية مبتدئا بغسل عينيه بالماء وتقطير نترات الفضة ١ ٪ عقب الولادة مباشرة لوقايته من الأرماد الصديدية التى هى من أكبر العوامل لفقد البصر ، وغسل جسمه بالماء الساخن والصابون وبدرة البوريك والتلك ووضع غيار معقم على السرة بعد غسلها بالكحول ، على أن لا يكون الرباط ضاغطا ، وعلى أن تكون ملابسه ملائمة للفصل وواسعة لا تعوق حركته .

والطفل السليم سمين لا يتقيأ يزن ٧ أرطال (٣,٥ كيلو) يزيد بعدها بقدر ٧ أوقيات (٢٠٠ جم) كل أسبوع إذا كانت الرضاعة من الثدى ، وهذه الزيادة غير مضمونة إذا كان الغذاء صناعيا ، ولذا نوجه النظر للأمهات إلى أن امتناعهن عن رضاعة أطفالهن من الثدى خوفا من فقد رشاقتهن أمر له خطورته ، أما الرشاقة فلكى تحصل عليها الأم يجب أن تراعى إرشاداتنا الصحية من حيث تدليك الثدى كما بينا ، ومزاولة الرياضة .

والطفل المولود يزاول الرضاعة مباشرة ويتغوط مرة أو اثنتين برازا أصفر رخوا ولا يكون أخضر مطلقا إلا إذا أصيب بما يسبب ذلك ، والبراز الأخضر يجب أن يكون موضع رعاية الأم لطفلها بعرضه على الطبيب فورا ، وخير علاج إذا لم يتغوط الطفل بعد الوضع باثنتى عشرة ساعة هو وضع عامود زجاجى أملس كالترمومتر مثلا مدهونا بالزيت فى المستقيم لتنبيهه ، فتجد أن طفلها يتبرز بحال خروج العامود الزجاجى ، وإلا فعليها عرض الطفل على الطبيب خوفا من أن يكون هناك إنسداد أو ضيق بفتحة المستقيم .

وعلى الأم تشجيع الطفل على الصراخ إذا لم يقم بنفسه بتأدية ذلك مباشرة لأن الصراخ بعد الوضع هو خير الوسائل لملء الرئتين حيث أن هذا العضو لا يمارس وظيفته إلا بعد الولادة مباشرة .

نوم الطفل :

يحسن أن ينام الطفل فى فراش خاص به يرفع منه فى أوقات الرضاعة فقط أو عند تغيير ملابسه أو عند التبرز ، مع وقايته من سقوط الذباب والناموس وذلك بوضعه داخل ناموسية أو تغطية وجهه بقطعة من القماش حفظا له من إصابة عينيه أو إقلاق راحته .

حمام الطفل :

أحسن أوقات الاستحمام هو ما كان بين الساعة العاشرة والثانية عشرة صباحا وقبل الرضاعة لا بعدها ، وعلى أن يكون الحمام دافئا لا تزيد درجة حرارته عن حرارة الجسم الطبيعية .

أوقات الرضاعة :

الطفل الوليد يوضع على الثدى بعد ٦ ساعات من ولادته . والرضاعة فى اليوم الأول يجب أن تكون كل ٦ ساعات وكل أربع ساعات فى اليومين الثانى والثالث ، وبعد ذلك كل ثلاث ساعات يوميا مع مراعاة الرضاعة بدقة وتعويده عليها فى أوقات منتظمة . وهناك رأى يحبذ الرضاعة كل أربعة ساعات حتى الفطام .

هذا الترتيب الذى قدمناه هو ما يهم الطفل فى الثلاثة أيام الأولى التى هى أهم أيام حياته ، فإذا ما اتبع بنى عليه الأساس للصحة الجيدة .

الرضاعة الطبيعية :

الغذاء الطبيعى للطفل هو لبن الأم وهو يناسب هضم الطفل ويسد حاجاته ، لذلك يجب على الأم أن ترضعه بنفسها من يوم ولادته وأن تستمر على ذلك قدرطاقتها كما جاء فى القرآن الكريم : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » كما جاء أيضا : « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » ، وبطرح تسعة أشهر الحمل يبقى ٢١ شهراً للرضاعة ، إنما يجب أن يكون مفهوما أن استمرار الرضاعة لا تمنع مطلقا من إضافة الأغذية الخارجية المكملة للبن الأم عقب الشهر السادس .

مواعيد الرضاعة :

يجب على الأم أن تتبع نظاما دقيقا فى الرضاعة . ففى اليوم الأول يرضع الطفل كل ست ساعات، وفى اليوم الثانى والثالث كل ٤ ساعات ثم تجعل الرضاعة كل ٣ ساعات أو كل ٤ ساعات على النظام الأحدث ابتداء من اليوم الرابع . ولا تعطى بين الرضعات سوى سوائل دافئة مثل الينسون والكراوية أو الماء القراح وتعطى بالملعقة وإذا بكى الطفل ولم يوجد سبب لبكائه .

ولا يجوز فى الأيام الأولى استعمال الثدى الزجاجى الصناعى لأن ذلك يدعو الطفل إلى تفضيله على ثدى أمه .

نظام الرضاعة :

عدد الرضعات ٦ رضعات فى الأربع والعشرين ساعة أى رضعة كل ثلاث ساعات أو خمسة على نظام الأربع

ساعات ، فمثلا تبدأ الرضاعة فى الساعة ٦ ، ٩ ، ١٢ صباحا ثم ٣ ، ٦ ، ٩ مساء والمواعيد من ابتداء الرضعة لابتداء الرضعة التالية وليس من نهايتها ، ويجوز التساهل فى ميعاد الرضعة الأولى حسب استيقاظ الطفل من نومه ولكن الرضعة الثانية وما بعدها يجب أن تكون فى مواعيد ثابتة . ويستحسن أن لا يرضع الطفل بين آخر وجبة الساعة التاسعة مساء وأول وجبة الساعة السادسة صباحا وذلك ليستريح جهازه الهضمى وتستريح الوالدة ويسترد الثدى نشاطه ، ويكفى أن يعطى أثناء الليل ماء دافئا محلى بقليل من السكر .

مدة الرضاعة :

يجب أن لا يظل الطفل على الثدى مدة أطول من ثلث ساعة وأحيانا تقوم عقبات ومتاعب أثناء الرضاعة كعدم كفاية اللبن أو ضعف الطفل وعدم قدرته على الرضاعة جيدا . أو تنشأ موانع تقتضى منع رضاعة الطفل من أمه كلية أو مؤقتا مثل إصابتها ببعض الأمراض كالسل والحميات ، أو إذا كانت صحتها ضعيفة ، فيكون عندئذ خير غذاء هو لبن المرضع التى يجب أن تستوفى شروطا خاصة من جهة السن والصحة وكمية لبنها وأن تكون على علم بنظافة الطفل والعناية به . وإذا تعذر الحصول على المرضعة يلجأ بعد استشارة طبيب إخصائى والتأكد من عدم كفاية لبن الأم إلى الطرق الصناعية لرضاعة الطفل وليكن معلوما أن بكاء الطفل ليس دليلا على عدم كفاية الغذاء فقد تكون هناك أسباب أخرى لذلك .

الرضاعة الصناعية :

١ — لبن الحيوان — يجب أن يغلى اللبن ويخفف قبل إعطائه للطفل ، وأن تكون كمية اللبن مناسبة لعمره وأن يعنى بنظافة الزجاجة والحلمة المستعملة للرضاعة وتعقيمها بالغليان فى كل مرة .

٢ — اللبن المجفف ويؤخذ منه الكميات المطلوبة وتذاب فى الماء السابق غليه ويكون التخفيف طبقا للتعليمات المكتوبة على كل علبة .

التغذية المختلطة والتكميلية :

وهى إعطاء الطفل تغذية مزدوجة نصفها طبيعى والنصف الآخر صناعى أى ثلاث رضعات من لبن الأم وثلاث رضعات من لبن الحيوان ، أو إعطاء لبن الأم ثم تكميله بلبن حليب أو صناعى ، وهذه الطريقة إذا لم يكن لبنها كافيا لحاجات الطفل وبأمر من الطبيب .

الفطام :

يبتدىء فطام الطفل من الشهر السادس بإعطائه مواد غذائية إضافية موجودة فى النشويات والخضروات والفاكهة . ويبدأ الفطام تدريجيا بحيث يتم فى ٤ — ٦ شهور ، فتسقط الأم أول الأمر رضعة ثدى وتستبدلها بأكلة

خارجية مثل شوربة الخضروات أو المهلبية وهكذا حتى يتم عند نهاية الشهر العاشر . على أن يلاحظ عدم بدئه فى أشهر الصيف الحـارة حيث تـكثر النزلات المعوية التى تستوجب الاستمرار فى الرضاعة الطبيعية لوقاية الطفل من خطرهذه النزلات .

وفى العام الثانى تضاف اللحوم ، ويجب أن يحتوى الغذاء على كمية كافية من المواد الزلالية والدهنية والنشويات والفيتامينات والمعادن .

الطفل المولود ضعيفا :

يعتبر كل طفل يزن أقل من ٥ أرطال أو ٢ر٥ كيلو عند ولادته مولودا ضعيفا ومثله يحتاج لعناية الطبيب . ولذلك يجب المحافظة على حرارة جسمه والاعتناء بغذائه ، لأن قوة الرضاعة فى هؤلاء الأطفال ضعيفة ، ولا يصلح لتغذيتهم سوى لبن الأم إن لم يكن من الثدى مباشرة فبالملعقة أو القطارة . ويرضع هؤلاء الأطفال كل ساعتين أو أقل لأن معدتهم لاتسع كميات كبيرة من اللبن ، كما يجب أن تتخذ الاحتياطات اللازمة لعدم تعرض مثل هذا الطفل للعدوى ، لأن قوة مقاومة الأمراض فى الطفل المولود ضعيفا تـكاد تـكون معدومة ويمكن إعطاؤه رضعة أو أكثر أثناء الليل فى مثل هذه الحالات .

نمو الطفل :

لـكى تدرك الأم إذا كان طفلهـا ينمو من الوجهة الجسمانية والعقلية نموا سليما صحيحا ، يجب أن تعلم ما يأتى :

العام الأول :

الشهر الأول — يزن الطفل عند الولادة ثلاثة كيلو جرامات أو سبعة أرطال ويبلغ طوله ٥٠ سم ويزيد بعد ذلك ١٥٠ — ٢٥٠ جرام فى الأسبوع إلى نهاية الشهر السادس .

الشهر الثانى — يبلغ وزنه حوالى ٤ كيلو جرامات ويبدأ بالابتسام .

الشهر الثالث — يبلغ وزنه حوالى ٥ كيلو جرامات ويبلغ طوله ٦٠ سم .

الشهر الرابع — يبلغ وزنه حوالى ٦ كيلو جرامات ويمكنه أن يبـكى وأن يضحك وأن يلتفت إلى مصدر الصوت .

الشهر الخامس — ويبلغ وزنه حوالى ٦ كيلو جرامات ونصف ، وبذلك يبلغ وزنه ضعف ما كان عند الولادة .

الشهر السادس — ويبلغ وزنه حوالى ٧ كيلوجرامات وطوله ٦٥ سم وابتداء من هذا الشهر إلى نهاية العام لايزيد الطفل أكثر من ٧٠ ـ ١٢٠ جرام فى الأسبوع ـ ويستطيع الطفل فى هذا الشهر الجلوس غير مسنود ويبدأ القاطعان الأوسطان الأسفلان فى الظهور ، ويمكن إعطاؤه غذاءا إضافيا عدا اللبن مثل المهلبية وشوربة الخضروات .

الشهر السابع — يزن الطفل نحو ٧ر٥ كيلوجرامات ويبدأ بالزحف على يديه ورجليه ويبدأ فى محاولة الكلام فيقول « ماما .. بابا . » .

الشهر الثامن — يبلغ الوزن ٨ كيلو جرام ، ويبدأ القاطعان الأوسطان العلويان فى الظهور .

الشهر التاسع — يبلغ الوزن ٨ كيلو جرام وربع ويبلغ طوله نحو ٧٠ سم ويستطيع الوقوف مستندا إلى كرسى .

الشهر العاشر — يبلغ الوزن ٨ر٥ كيلو جرام ويتم ظهور القواطع الأربعة العليا ، وهنا يتحتم إعطاؤه شوربة الخضروات والمهلبية بدلا من ٣ رضعات .

الشهر الحادى عشر : يبلغ الوزن ٨ كيلو وثلاثة أرباع وقد يمشى بضع خطوات إذا أمسكنا بيده .

الشهر الثانى عشر : يبلغ الوزن ٩ كيلو ، أى ثلاثة أمثال وزنه عند الولادة وطوله ٧٥ سم ، ويتم ظهور القواطع الأربعة السفلى ، وبذلك يكون للطفل عند نهاية العام الأول ثمانى أسنان : أربعة فى الفك الأعلى ، ومثلها فى الفك الأسفل ، ويستطيع معظم الأطفال البدء بالمشى بضع خطوات بدون مساعدة ، ويتم الفطام فى نهاية العام الأول إذا كان الطفل صحيحا والجو غير حار .

العام الثانى :

فى بداية هذا العام تظهر الضروس الأمامية الأربعة ، وفى منتصفه تظهر الأنياب الأربعة ، وعند نهايته يتم ظهور الضروس الأربعة الخلفية ، وبذلك يتم بروز أسنان الطفل العشرين ، وهى تسمى الأسنان اللبنية أو المؤقتة . ويمشى الطفل بسهولة عند بداية هذا العام ، وإذا تأخر حتى منتصف هذا العام دل ذلك على وجود حالة مرضية كالكساح مثلا ، ويغلق يافوخ الطفل أيضا فى منتصف هذا العام ، فإن لم يتم دل ذلك على وجود مرض الكساح .

العام الثالث :

يعرف الطفل أسماء كثير من الأشياء ويحب التقليد ، فعلى الوالدين الحذر فى القول والفعل أمامه ، وهو يكون ذا حركة دائمة ، لا يعرف الهدوء ، فإن كان هادئا فذلك غير طبيعى فيه ، ولا يمكن أن يكون صحيحا سليما .

العام الرابع :

يزداد عنده حب الاستطلاع فيسرع بكسر اللعب بمجرد تناولها ليعرف سر حركتها .

العام الخامس إلى السابع :

وهو السن الذى يدخل فيها الطفل مدارس رياض الأطفال حيث يتعلم الطفل النظام فى حياته .

نظافة الطفل :

يجب على الأم الاعتناء بنظافة طفلها فعلى هذا يتوقف الكثير من سلامته وسلامة بنيته .

نظافة الجسم :

يجب أن يستحم الطفل يوميا ، وأحسن وقت لذلك هو قبل التغذية لا بعدها مباشرة ، والميعاد المناسب عند الساعة العاشرة صباحا أو قبل النوم مساء وبعد تجفيفه جيدا ترش عليه بودرة التلك ، كما يجب العناية بنظافة الأسنان والأنف والأذن ، وغسل وجه الطفل كل صباح ومساء بالماء والصابون ، كما يجب العناية بنظافة الشعر ووقايته من القمل والصئبان .

رياضة الطفل :

يجب إخراجه يوميا للنزهة فى الهواء الطلق والشمس للانتفاع بأشعتها فوق البنفسجية الواقية من الكساح وأنسب وقت لذلك هو الصباح المبكر صيفا والظهر شتاء .

تربية الطفل :

يجب على الأم أن تعنى عناية فائقة بتربية طفلها تربية قويمة منذ نعومته وأن تجيبه بكل حلم على كل أسئلته، وألا تعمد إلى تخويفه مطلقا حتى لاتربى فيه رذيلة الجبن والخوف، وأن تلقنه منذ طفولته المبادىء القومية والمثل العليا .

٥ — مراكز رعاية الطفل ودورها فى منع أمراض الطفولة :

أنشىء قسم رعاية الأمومة والطفولة بالإقليم المصرى من الجمهورية العربية المتحدة فى مستهل عام ١٩٢٧ ،

ومن أهم أغراضه مكافحة كثرة الوفيات بين الرضع والأطفال والهبوط بهذه النسبة إلى أقل مستوى ممكن ، والعناية بالأم وطفلها أثناء الحمل والولادة وما بعدها ، والإقلال ما أمكن من أخطار الحمل والوضع ومضاعفات الولادة والقضاء على حمى النفاس وتجنيب الأم وطفلها شر الأمراض الوراثية والنزلات الصدرية ، ومكافحة الرمد والكساح والتحصين ضد الجدرى والدفتريا والسعال الديكى والسل . وإرشاد الأم إرشادا صحيا وتفهيمها أفضل الطرق الصحية وأنجحها وطرق الرضاعة الصحية والتغذية السليمة لتتمكن من تربية طفلها تربية صحية .

ونظام العمل بمراكز رعاية الأمومة والطفولة هو أن تحضر الحامل للمركز حينما تشعر بالحمل فتقوم المولدة بتدوين بعض المعلومات عنها كالاسم والعنوان وصناعة الزوج وعدد الأولاد وعدد المولود منهم أموات وعدد الإجهاضات وهكذا ، ثم تحول لطبيب المركز فيقوم بفحصها طبيا فحصا شاملا فيفحص القلب والصدر والحوض وباقى أعضاء الجسم ثم يختبر الدم ويحلل البول للسكر والزلال ويدون ضغط الدم ثم تقوم المولدة بإلقاء محاضرة على الحوامل لتبصيرهن بما يجب عليهن من العناية بأنفسهن أثناء الحمل وما يجب عليهن عمله أثناء الولادة والنفاس ، كذا تعليمهن الطريقة المثلى لتغذية أطفالهن ورعايتهم رعاية صحيحة خلال الفترة الأولى وبعد الوضع ثم فى السنوات الخمس بعد ذلك . ثم يصرف الدواء المناسب للحوامل المريضات أو الأغذية والفيتامينات للضعيفات منهن .

وتستمر الحامل فى التردد على المركز أسبوعيا حتى نهاية الحمل وإذا ما شعرت بالوضع ترسل فى استدعاء المولدة من المركز التى تكون دائما على استعداد تام لتلبية الطلب فى أسرع وقت ممكن ، ثم تقوم بفحص الوالدة وتوليدها على أحدث الطرق ثم توالى زيارتها يوميا طيلة العشرة أيام الأولى من النفاس أى بعد الوضع ، وتقوم خلال الزيارات بعمل كل ما يلزم للأم والطفل من الناحية الصحية اللازمة فى تلك الفترة .

وقد نجحت هذه الوحدات فى أداء رسالتها منذ نشأتها وهى تزيد قليلا عن ربع قرن ، ومما يدل على ذلك ازدياد تقدير الأهالى لأعمال هذه الوحدات وإدراكهم لمزاياها .

كما أنه قد نقصت نسبة الوفيات بين الأمهات بسبب الولادة وبين الأطفال فى السنة الأولى من حياتهم مما أدى إلى انخفاض نسبة وفيات الأطفال عامة ، وقد انخفضت نسبة وفيات الأطفال فى السنة الأولى من حياتهم فى مراكز رعاية الطفل حتى وصلت ٥٠ فى الألف ، كما تبذل جهود لوقاية الطفل من الأمراض الوراثية وخاصة الزهرى والعمل على تحسين النسل وتقويته بالعناية بصحة الحامل قبل الوضع وتحصينها ضد الدرن والعناية الخاصة بصحة الأم عند الوضع لوقايتها من مضاعفات النفاس التى تؤثر على الطفل ، وتشجيع الأم على القيام بوظيفة الأمومة خير قيام ، والعناية الخاصة بتعليم الأمهات كيفية العناية بالطفل على أحدث الطرق الصحية وتزويدهن بالمعلومات اللازمة أثناء الحمل والرضاعة ، ومراقبة الأطفال مراقبة فعالة فى سنى حياتهم الأولى بالمراكز والمنازل ، ومساعدة الأمهات الفقيرات بتقديم المساعدة اللازمة من الأقمشة والأغذية والصابون وخلافه .

ونظرا لما ظهر من أن إنشاء مراكز رعاية الأمومة والطفولة ساعدت على تخفيض نسبة وفيات الرضع انخفاضا ملموسا وسلامة صحة الأم أثناء الحمل والرضاعة فقد اهتمت وزارة الصحة بهذه المراكز وتعمل جاهدة على الإكثار من وحداتها فى ربوع البلاد كما قام المجلس الدائم للخدمات العامة بإنشاء الوحدات المجمعة وبها مراكز رعاية الأمومة والطفولة للعناية بالأمهات والأطفال بالريف .

٦ — رعاية الطفل غير الشرعى :

تعنى الدولة برعاية الأطفال غير الشرعيين (اللقطاء) بمجرد العثور عليهم عناية فائقة من الوجهتين الصحية والاجتماعية ، وقد خصصت وزارة الصحة ملجأ خاصا لرعايتهم بالقاهرة يتبع قسم رعاية الأمومة والطفولة ويختص برعاية هؤلاء الأطفال الذين يعثر عليهم فى الإقليم كما يقوم مستشفى الأطفال بالمنيرة التابع لمستشفيات جامعة القاهرة برعاية الأطفال اللقطاء الذين يعثر عليهم بمدينة الإسكندرية . ويسرى العمل فى الجميع على وتيرة واحدة . ويتلخص فى إعطاء الطفل إلى مرضع لمدة سنة ونصف مقابل أجر قدره ثمانية قروش يوميا وبعد ذلك تتسلمه مربية بأجر قدره ١٠ قروش يوميا لغاية السادسة من عمره ثم يرحل إلى ماجأ الإقليم الذى أرسله فى بادىء الأمر ليتولى تنشئته وتعليمه إحدى الصناعات ، وفى جميع هذه المراحل يكون الطفل تحت الإشراف الطبى والاجتماعى الدقيق من الجهة التابع لها .

٧ — دور الحضانة والكفالة — أغراضها ونظمها :

تعنى دور الحضانة بأطفال الأمهات العاملات الذين تتراوح أعمارهم بين السنة الاولى والثانية كما تعنى دور الكفالة بالأطفال البالغ عمرهم ثلاث سنوات إلى خمس سنوات ، وتهدف هذه الدور إلى رعاية هؤلاء الأطفال صحيا واجتماعيا طول اليوم من الصباح المبكر عندما تحضرهم أمهاتهم قبل ذهابهن إلى أعمالهن حتى المساء عندما يعدن لاستلامهن وذلك حتى لا يكونوا عائقا فى سبيل حصول أمهاتهم على عملهن ومصدر رزقهن وكيلا يتركوا بدون رعاية كافية أو تركهم معرضين لأخطار الطريق أو المساوىء الخلقية ، وتقوم هذه الدور بتقديم وجبات غذائية كاملة لهؤلاء الأطفال وعمل الحمامات اليومية لهم وتعليمهم الدراسات المناسبة لأعمارهم وتنشئتهم على حب النظام والطاعه والأخلاق الحميدة .

٨ — التثقيف الصحى والزيارات الصحية :

إن محو الأمية هى من أهم الأهداف التى تساعد على تتبع التطورات العلمية والاجتماعية والصحية الحديثة ولذلك يجب العمل بكل الطرق على تحقيق هذه الرسالة بأسهل الوسائل المختلفة ، أما التعليم الصحى فيقوم على نشر التعاليم الصحية بين الأفراد وإيقاظ الوعى نحو المشكلات الخاصة بالجماعة ، ولا يمكن النهوض بالمستوى الصحى بين

الأفراد بحيث يؤدى إلى تقديرهم لمعنى الصحة إلا إذا عرفوا الطرق التى تؤدى إلى إكتسابها من جهة وإلى الاحتفاظ بها من جهة أخرى .

أما تفهم أفراد الجماعة لمشكلاتهم وإثارة اهتمامهم إلى خطورتها وتنوير أذهانهم إلى سبل حلها أو درء خطرها فلا نزاع أنه متوقف على مبلغ ثقافتهم الصحية وعلى مقدار ما استوعبوه من المعلومات الصحية .

فالتعليم والتثقيف هو الخطوة الأولى للإصلاح وتليها الرغبة فى هذا الإصلاح ، أى أن التعليم والتثقيف من العوامل الهامة فى إثارة اهتمام الأهالى وإيقاظ وعيهم للدرجة التى تجعلهم يشعرون بأنهم حقيقة فى حاجة إلى الإصلاح .

فإثارة الاهتمام وإيقاظ الوعى إذن يأتيان دائما فى أعقاب نشر التعاليم الصحية أو على الأقل أنهما مرتبطان أشد الارتباط ، والمشكلات الصحية لأية جماعة لا يمكن أن تمر فى طريق الحل مالم يتعاون أفراد هذه الجماعة تعاونا تاما وكاملا .

والنهوض الصحى بأى مجتمع لابد له من مرحلتين متداخلتين : الأولى هى تفهم أفراد هذا المجتمع ما يجب أن يكونوا عليه صحيا وما يتعرضون له إن بقوا على حالتهم . ويجب أن يتم هذا التعليم والإرشاد بطريقة يقتنعون بها بأن حالتهم تحتاج إلى إصلاح . ومتى بذرنا هذا الاقتناع فى نفوسهم نكون قد وصلنا إلى بدء المرحلة الثانية وهى إيقاظ وعيهم وإثارة اهتمامهم فلا يلبثوا أن يتساءلوا عن كيفية الوصول إلى ما ينبغى أن يكونوا عليه ، ثم يبدأون فى تغيير حالهم والسعى وراء حياة صحية منتجة .

يتضح مما سبق أن التعليم الصحى هو أداة ووسيلة لتحسين الصحة ، وهو للفرد وسيلة لمعيشة أفضل وينطوى على جميع التجارب التى لها تأثير كبير على العادات والمعرفة التى تؤهله لمعيشة منتجة وحياة أفضل .

والهدف الرئيسى لمجهودات التعليم الصحى هو رفع المستوى الصحى بصفة عامة . ويقع عبء هذا التعليم على عاتق كثير من الأفراد والهيئات وخاصة الآباء والأمهات والمدرسين والمشتغلين فى الميادين الصحية والاجتماعية . والأم هى المدرسة الأولى لتعليم الأبناء التعليم الصحى فإذا ما أرشدت الأم ووجهت توجيها صحيحا نحو الثقافة الصحية أفادت نفسها وأبناءها ومنزلها وأنتجت للوطن جيلا قويا سليم البنية صالحا مفيدا لوطنه وأسرته .

٩ — تنظيم النسل :

لما كان الهدف الأول لتنظيم الأسرة هو العمل على إيجاد أسرة سعيدة مستقرة الأوضاع مطمئنة الجانب سليمة الصحة ، ولما كان المجلس الدائم للخدمات العامة « اللجنة الأهلية لمسائل السكان » من أهم أغراضها تحقيق هذا الهدف القومى الجليل فقد سارت قدما فى دراسة جميع المشاكل السكانية للإقليم المصرى وافتتحت ١٢ وحدة

لتنظيم الأسرة ، وقد روعى فى توزيعها أن تشمل المناطق الحضرية والصناعية والريفية لإمكان خدمة البيئات المختلفة . وقد تم توزيعها على الوجه الآتى :

١ — وحدة ملحقة بجمعية رعاية الأمهات والأطفال	القاهرة
٢ — وحدة ملحقة بالجمعية النسائية لتحسين الصحة	«
٣ — وحدة ملحقة بجماعة السيدات المسلمات	«
٤ — وحدة ملحقة بمستشفى جمعية المبرة	«

وأربعة وحدات بالاسكندرية مقرها كالآتى :

٥ — وحدة ملحقة بمستوصف مينا البصل (المواساة)	الاسكندرية
٦ — وحدة ملحقة بالجمعية النسائية لتحسين الصحة	«
٧ — وحدة ملحقة بمستشفى جمعية المبرة	«
٨ — وحدة ملحقة بمستشفى البلدية للولادة	«

وأربعة وحدات بالأقاليم مقرها كالآتى :

٩ — وحدة ملحقة بمستشفى جمعية المبرة	طنطا
١٠ — وحدة ملحقة بمستوصف جمعية المبرة	أسيوط
١١ — وحدة ملحقة بمستشفى جمعية المبرة	المحلة الكبرى
١٢ — وحدة ملحقة بمستشفى جمعية المبرة	كفر الدوار

وتهدف هذه الوحدات إلى تنظيم الأسرة فتبدأ بعلاج العقم لكى تسعد الزوجين بثمرة زواجهما وتجنبهما ما قد يترتب من آثار اجتماعية نتيجة لعدم الإنجاب — كما تقوم هذه الوحدات بإرشاد الراغبات فى تنظيم الحمل إلى الوسائل الطبية السليمة حتى لا تأتى الأطفال بطريق الصدفة والمفاجأة ، بل يجيئون اختياراً بطريق التنظيم والرغبة فيجدون مكانهم فى المنزل فى انتظارهم . غذاؤهم وكساؤهم وميزانيتهم مدخرة لهم كما يجدون أمهاتهم فى صحة وقوة قادرات على إرضاعهم وتربيتهم فيشبون من أول يوم فى صحة وعزة وكرامة ، كما يصبحون فى مستقبلهم شباب الأمة الأصحاء وجنود الوطن الأقوياء .

هذا هو الهدف الأساسى من تنظيم الأسرة ، فمن كان قادراً على تربية ثلاثة أطفال مثلا فلا يجب أن يثقل على نفسه بطفل رابع أو خامس غير مرغوب فيه ولا مكان له .

وعلى مثل هذه الأم أن تركز حياتها لإسعاد الثلاثة بدلا من أن تأتى بهذا الرابع أو الخامس فتشقى الجميع لعدم قدرتها على تقديم ما يكفيهم من غذاء وكساء وصحة وثقافة فتتركهم ضحية للجوع والعرى والمرض والجهل والبؤس والانهيار الخلقى فيصبحون عالة على أنفسهم وعلى أسرتهم وبل على المجتمع بأكمله .

كما أن هناك كثيرا من الأمهات عندما يثقل عليهن عبء أطفالهن الكثيرين يلجأن إلى إجهاض أنفسهن للتخلص من الجنين الجديد ، وهذا الأجهاض ضار بالصحة كما تحرمه الشرائع والقوانين .

كما أن الحمل السريع المتكرر ينتج جيلا هزيلا ضعيفا بعكس الحمل المتباعد الفترات فإنه يعطى الأم الفرصة لا ستعاضة ما فقدته من حملها السابق والقدرة على تكوين جنين قوى يولد سليما ويعيش سليما . فتساهم بذلك فى بناء صرح الوطن الشامخ بتقديم جيل قوى متماسك يستند إليه وينهض به ، إذ ليست العبرة بالعدد بل بالنوع الصالح المفيد .

كما تقوم وحدات تنظيم الأسرة بتقديم النصح والإرشاد إلى وسائل منع الحمل فى الحالات المرضية التى قد يهدد فيها الحمل حياة الزوجة حتى تشفى تماما من مرضها ثم تعاود الحمل بأمان .

وبذلك يمكن تلخيص أهداف وحدات تنظيم الأسرة فى الأوجه الثلاث الآتية :

أولا : علاج العقم بأحدث الوسائل العلمية .

ثانيا : تنظيم النسل بحيث لا تقل الفترة بين حمل وآخر عن سنتين حتى تستجم الأم وتسترد ما فقدته من صحتها أثناء الحمل والوضع والنفاس والرضاعة قبل أن تسمح لنفسها بحمل جديد . ويلاحظ أن الوحدات المذكورة لا تقدم خدماتها فى مثل هذه الحالة إلا لمن أنجبت ثلاثة أولاد أو أكثر . أما فيما يختص بتقرير عدد الأطفال فتترك أمره للزوجين فلكل أسرة دخلها وظروفها الخاصة ، وهما دون غيرهما أولى وأحق بتقدير العدد المناسب للأسرة .

ثالثا : تشجيع من تسمح ظروفهن الصحية والمادية على استئناف الحمل بمجرد انقضاء فترة النقاهة اللازمة وقدرها عامان وإقناعهن بخطأهن فى تأخير ذلك فى حق أنفسهن وحق وطنهن الذى يتطلب منهن مواطنين صالحين .

وهكذا يتضح أن وحدات تنظيم الأسرة سوف لا تعمل بأى حال على منع الحمل أو تحديد النسل إطلاقا بل بالعكس ستشجعه وتؤمنه وتنظمه بما يكفل سعادة الأسرة وهنائها .

شروط قبول الحالات لتنظيم الأسرة :

١ — تقبل الحالات التى لديها ثلاثة أبناء أو أكثر .

٢ — تقبل الأمهات المريضات بمرض مزمن أو مستعص يخشى على صحة الأم منه إذا حملت (السل ، القلب ، السكر) .

٣ - يمكن قبول الأمهات فى حالات عسر الولادة المتكررة .

٤ - التسمم الحملى المتكرر .

٥ - تقبل الحالات بأمراض وراثية مثل الزهرى أو الأمراض العقلية .

٦ - تقبل حالات الأمهات ذوات الأطفال الضعاف أو المرضى بأمراض مستعصية حتى يتم شفاؤهن .

وفى جميع الحالات المتقدمة يجب موافقة الزوج إما بحضوره شخصيا أو بإرسال إقرار كتابى بموافقته مع زوجته .

كما تقوم وحدات تنظيم الأسرة ببحث الحالات الاجتماعية لتقديم المساعدات اللازمة لهن عن طريق مكاتب الخدمة الإجتماعية أو معونة الشتاء كما تقوم بتحويل بعض الحالات إلى هيئات البر والخدمة العامة لجمعية تحسين الصحة وخلافها .

ومما تقوم به الإخصائيات الاجتماعيات فى هذه الوحدات تتبع الحالات التى ترددت عليها لمعرفة نتائج العلاج فى كل منها فى حالتى العقم وتنظيم النسل وتقديم تقرير شامل عنها . ويراعى دائما السرية التامة فى جميع إجراءات هذه الوحدات .

وتقتصر الوسائل المستعملة فى هذه الوحدات على أحدث الطرق العلمية المعتمدة من الاتحاد الدولى لتنظيم الأسرة والتى ثبت عدم إحداثها أى ضرر للأمهات .

منع الأمراض الوراثية وعلاجها :

تقوم مراكز رعاية الأمومة والطفولة بأخذ عينات دم من جميع الحوامل لفحصها للتأكد من خلوهن من الأمراض الوراثية (الزهرى) ومن يتضح أصابتها تعالج وتؤخذ عينات أخرى بعد شهر من انتهاء الدورة العلاجية فإذا اتضح سلبيتها تبقى تحت الملاحظة باقى مدة الحمل أما إذا بقيت النتيجة إيجابية فتعاد الدورات العلاجية حتى تتحول النتيجة إلى السلبية مرتين متتاليتين .

١٠ - واجب الدولة ودور المؤسسات الأهليه فى رعاية الطفولة :

لما كانت الأمهات والأطفال يكونون نصف عدد السكان تقريبا ، ولما كان أطفال اليوم هم رجال الغد ، فقد قامت الدولة بدورها فى العناية بهؤلاء المواطنين تقديرا لأهميتهم وحفظا لسلامتهم وكيانهم بإنشاء مراكز رعاية الأمومة والطفولة التى تقوم بالدور الأول فى منع أمراض الطفولة والهبوط بالتالى بنسبة الوفيات فى الرضع والأطفال إلى أقل مستوى ممكن .

كما تقوم بعض المؤسسات الأهلية بدورها فى رعاية الطفولة مثل الجمعية المصرية لرعاية الأطفال وجمعية رعاية

الأمهات والأطفال وجمعية طفل المعادى وجمعية أولادى وجمعية تحسين الصحة وجمعية المبرة وجمعية التحرير والاتحاد النسائى والمرأة الجديدة وغيرها .

١١ — إعداد المشتغلين فى الميدان :

يتكون فريق المشتغلين فى ميدان رعاية الأمومة والطفولة من الأطباء أو الطبيبات والمولدات ومساعدات المولدات والزائرات الصحيات والممرضات والإخصائيات الاجتماعيات . ويقوم بتخريج هؤلاء جميعا وتدريبهم المعاهد التعليمية الخاصة بكل فئة منهن والتابعة لوزارة التربية والتعليم ، وقبل تسلمهن مهام أعمالهن يقضين فترة التمرين بمراكز رعاية الأمومة والطفولة التابعة لوزارة الصحة لإعدادهن للعمل فى هذا الميدان .

الصحة الصناعية

ودورها فى رعاية العاملين فى البيت العربى

للدكتور محمد عبد اللطيف

(الجمهورية العربية المتحدة)

مقدمة تاريخية :

لقد كان تأثير الصناعة على الصحة موضع اهتمام القدماء منذ أقدم العصور التاريخية ، فلقد وجد بين آثار المصريين القدماء ما يدل على اهتمامهم بهذه الناحية من نواحى النشاط الاجتماعى وفيه من دقة الوصف وبلاغة التعبير ما يمكن أن ينطبق على واقع الحال فى هذه الأيام . ومن تلك الآثار ما سجله المصريون القدماء على ورق البردى وفيه يقول الكاتب المصرى القديم :

«إننى لم أر حدادا يعمل سفيرا ولا سباكا أوفد فى بعثة ولكننى رأيتهما أمام النار تشوى أجسادهما كما رأيت البناء فى عمله معرضا لكل خطر وعرضة لكل جو . كما أن النساج فى بيته أسوأ حالا — وقد انحنى أمام نوله — من زوجته التى تنكب على عمل البيت . »

ومن هنا نرى أن اهتمام الناس بتأثير الصناعة على صحتهم ليس وليد اليوم ولا نتيجة للتطورات الحديثة ومدنية القرن العشرين وإنما سجلته مدنية الفراعنة منذ عهد قدماء المصريين أى منذ ثلاثين قرنا .

وفى عهد الحضارة اليونانية سجل الفيلسوف الأفريقى أرسطو مشاهدات ثابتة عن صحة العدائين كما سجل بلاتو مشاهداته عن بعض الإصابات التى يصاب بها بعض العمال الفنيين ، كما أشار بلاينى إلى الأخطار التى تترتب على تداول الكبريت والزنك كما أشار إلى أهمية استعمال الأقنعة الواقية والحواجز الشفافة المصنوعة من مثانة الحيوان ليتقى العمال بواسطتها التأثيرات الضارة لهذه المواد . وفى القرن الرابع قبل الميلاد كان أبقراط — وهو أبو الطب — أول من تعرف على آثار التسمم بالرصاص وأول من اكتشف العلاقة بين الرصاص وبين المغص الذى يصيب عمال مناجم الرصاص ، وقد تبعه جالسن فى القرن الثانى قبل الميلاد ووصف فى دقة التأثيرات المرضية للتسمم بالرصاص وقد أضاف نيكندر إلى تلك المعلومات فى القرن الثانى بعد الميلاد ارتباط الرصاص بأمراض أخرى كشحوب اللون (أنيميا) وآلام المعدة والإمساك وهى أعراض شاهدها بين المرضى من العمال المشتغلين بالرصاص .

أما فى العصر الرومانى فقد أشار كاوتاس إلى التهاب الصدرية والبصاق الدموى والفتق الذى يصاب به العداؤن كما أشار جوفان إلى الدوالى الواردية التى تصيب سيقان المشتغلين وقوفا لمدد طويلة . أما هيروديت فكان أول من أشار بضرورة تقديم الغذاء الكافى للعمال ، كما كان روتارى (٦٤٣ قبل الميلاد) أول من أشار إلى ضرورة تعويض عمال البناء والصيانة عن إصابتهم الناتجة عن حوادث العمل .

وتتوالى المشاهدات التى سجلها العلماء والأطباء فى العصور الوسطى ومنها مايتعلق بتأثير الغازات السامة ومنها مايتعلق بوسائل الوقاية ، كما كان للتسمم بالزئبق والرصاص وأول أكسيد الكربون وأبخرة حامض النتريك نصيب كبير مما سجله علماء العصور الوسطى .

وأما فى العصر الحديث فكان الرائد طبيبا سويسريا يدعى باراسلسوس إذ وضع كتابه عن (أمراض المعادن) وكان أول مؤلف شامل فى هذا الشأن ظهر فى القرن السادس عشر ، أما أهم ما كتب فى العصر الحديث فهو كتاب الطب الصناعى الذى وضعه الطبيب الإيطالى برناردينور أمازينى الذى يعتبر أبو الطب الصناعى فى العصر الحديث وتبادلت كل من ايطاليا وانجلترا وألمانيا وفرنسا وأمريكا عصا القيادة فى ذلك الميدان حتى أصبح التسابق بينها طابع القرن العشرين .

وقد بدأ اهتمام الدول العربية بالصحة الصناعية فى القرن العشرين وعلى وجه التحديد بعد الربع الأول منه وذلك نتيجة للتطور الصناعى الذى جاء فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ثم ازداد هذا الاهتمام بعد الحرب العالمية الثانية نظرا لتقدم التصنيع فى البلاد العربية واكتشاف موارد جديدة للثروة غير زراعية وتزايد عدد المشتغلين بالصناعة وتقدم الوعى العمالى والتطورات الحديثة فى التشريعات العمالية والاجتماعية والصحية .

أهميه الصحة الصناعية :

الصحة الصناعية فرع من فروع الصحة العامة والصحة العامة دراسة صحة المجتمع من مختلف نواحيه وقطاعاته وهى تشمل فروعا كثيرة منها ما يتصل بالمجتمع ككل ومنها مايتصل بقطاعات خاصة فى ذلك المجتمع كالصحة البلدية فى المدن والصحة ، القروية أو الريفية فى الريف والصحة المدرسية والصحة العسكرية والصحة البحرية والصحة الجوية والصحة الصناعية وتعالج كل منها قطاعات من السكان فى المدارس والجيش والبحرية والطيران والصناعة . وتقدر أهمية كل فرع من فروع الصحة العامة على أسس أهمها نسبة عدد السكان فى كل من القطاعات المذكورة وكذا معدل التطور والتقدم والزيادة فى كل من تلك القطاعات كما تتأثر أهمية كل فرع منها بمدى تأثير البيئة التى يعمل أو يعيش فيها سكان كل قطاع .

فإذا علمنا أن قطاع الصناعة يستوعب نسبة معينة من السكان يزداد عددهم فى كل عام بحسب ماتصيبه الصناعة من تقدم ورواج ، وتتنوع بيئة العمل الذى يزاوله هؤلاء العمال بتنوع أساليب الصناعة وخاماتها ومنتجاتها الأساسية والجانبية ، وإذا علمنا كذلك أن جو الصناعة من أشد الأجواء خطورة على صحة المشتغلين فيها ، أدركنا من ذلك أهمية

الصحة الصناعية وما تستلزمه من رعاية المسئولين واهتمامهم حتى يمكن التغلب على عوامل الخطر والضرر فى الصناعة وتجنيب المشتغلين بها آثار تلك الأخطار أو الأضرار .

بين العامل والعمل

لاشك أن صحة العامل تتأثر بنوع العمل الذى يزاوله ، كما أن لذلك العمل مستلزمات يجب أن تتوافر فى العامل نفسه حتى يمكنه القيام بأعباء العمل على خير وجه وأن الطريقة المثلى فى بلوغ أقصى حد من الكفاية الإنتاجية إنما تنحصر فى تحقيق الملاءمة بين العامل والعمل ، ولتحقيق ذلك يجب أن يراعى مايأتى :

أولا — فيما يتعلق بالعمل :

١ — ما يتطلبه العمل من مجهود جسمانى .

٢ — « « « « عقلى .

٣ — « « « دقة أو مهارة مهنية .

٤ — ساعات العمل ومواعيده ومستوى الأجور وغيرذلك من شروط العمل .

٥ — بيئة العمل أو ظروف العمل . من حيث مدى التعريض لعوامل الخطر أو الضرر أثناء العمل .

ثانيا — فيما يتعلق بالعامل :

١ — الكفاية البدنية للعامل .

٢ — الكفاية العقلية للعامل .

٣ — درجة الكفاءة المهنية للعامل .

٤ — التوازن النفسى للعامل من حيث احتمال العامل لبيئة العمل والعمال .

٥ — الوعى الصحى من حيث إدراك العامل للخطورة أو الضرر الذى يتضمنه عمله .

وهناك طرق عديدة ليس هنا مجال وصفها أو حصرها تهدف إلى تقويم العمل وتحليله وتقويم العامل وإمكانياته ، كما تهدف إلى تحقيق الوضع الصحيح للعامل فى العمل الذى يناسبه وهى مهمة شاقة يهتم بها رجال التجارة والصناعة كما يجب أن يهتم بها ولاة الأمور وقد قال الله تعالى (لايكلف الله نفسا إلا وسعها) لعلنا أن نمتثل لذلك التوجيه فلا نكلف العامل مالا يطيق عن طريق وضعه الخاطىء فى عمل لايتناسب وما وسعته نفسه وما وهبه الله من

سلامة فى البدن أو رجاحة فى العقل أو اتزان فى النفس أو احتمال لـكاره تفرضها عليه ظروف ذلك العمل .

تأثير البيئة الصناعية فى العامل

تتأثر صحة العامل فى البيئة الصناعية بعوامل عديدة نلخصها فيما يأتى :

أولا — مؤثرات طبيعية وأهمها :—

١ — الضغط الجوى غير العادى — ويتعرض عمال المناجم العميقة وصيادو البحار للعمل تحت ضغط جوى مرتفع كما يتعرض عمال الجبال والطيران للعمل تحت ضغط جوى منخفض .

٢ — درجة الحرارة — تؤثر حرارة الأفران والعمليات الصناعية على صحة العامل فقد يتصبب منها عرقا ويبلغ الجهد منه حدا يعجزه عن الاستمرار فى العمل أوقد يصيبه منه صدمة حرارية تفقده الوعى والحركة بل وقد يدفع حياته ثمنا لها ، كما أن انتقالا مفاجئا قد يترتب عليه إصابته بالنزلات التنفسية التى قد تلزمه الفراش أياما وقد تؤثر على صحته أسوأ الأثر .

أما العاملون فى جو بارد كعمال الثلج ومخازن التبريد وغيرهم فيتعرضون لأمراض تنشأ من اضطرابات فى الدورة الدموية فى أطرافهم مما يجعلها شاحبة أو فى زرقة الموت وبرودته .

٣ — درجة الرطوبة قد تتطلب الصناعة توافر جو على درجة عالية من الرطوبة كصناعة النسيج مثلا ، كما تكون الرطوبة فى بعض الصناعات نتيجة لها لا ضرورة من مستلزماتها كما هو الحال فى صناعات الصباغة والدباغة وغيرهما من كثرة ما يسيل فيها أو يستعمل من ماء أو بخار أو سوائل . والتعرض للرطوبة يؤثر على المفاصل وعلى الصدر فيورث الأمراض الروماتزمية والصدرية .

٤ — مستوى الإضاءة — من أهم شرائط جو العمل السليم أن تتوافر فيه الإضاءة الكافية فيها بحيث يرى العامل نتيجة عمله كما يمكنه أن يتقى الخطر عليه من الآلات الصناعية وأدواتها ، والعمل فى إضاءة غير كافية يضعف البصر كما يورث الملل والضيق والصداع فضلا عما فيه من تعريض العامل للاصطدام والاصابة بأدوات العمل أو آلاته ، والمصنع المظلم يقبض النفس ولا يشجع على احتمال العمل وخاصة فى الصناعات الدقيقة التى تتطلب دقة فى الإبصار ودقة فى الحركة أو التى تتطلب مقارنة الألوان ، وتختلف شدة الإضاءة التى تتطلبها كل صناعة بحسب ما تتطلبه الصناعة من دقة فى النظر .

٥ — الإشعاع — من الصناعات ما يعرض العامل لآثار الإشعاع وليس المقصود بالإشعاع هنا الإشعاع الذرى

فحسب وإنما هناك إشعاعات أخرى معروفة من قديم وهى الإشعاعات الحمراء والبنفسجية والأشعة المجهولة (س١) . أما الأشعة الحمراء أو بتعبير أدق دون الحمراء فتصدر عن المعادن المنصهرة والمحمية فى صناعات السباكة والحدادة والتعدين واللحام وغيرها وهى تحدث تلفا بعدسة العين على مر الأيام كما تصيب العين بالالتهابات الحادة وقد تخطف البصر أثناء الإصابة بها، وأما الأشعة البنفسجية أو فوق البنفسجية بتعبير أدق فتصدر عن الشمس والعمل فى وهجها وخاصة على شواطىء البحار حيث لا يحجبها غبار يحول دون وصولها إلى جسم العامل الذى يتأثر بتلك الأشعة فيهيج ويحمر ويلفظ قشرته ثم ما يلبث أن يأخذ لونه فى الاحمرار وهى ظاهرة يلحظها المصطافون على شاطىء البحار وأما الأشعة المجهولة (×) فيتعرض لها الأطباء ومساعدوهم ممن يشتغلون بأعمال الفحص والعلاج بتلك الأشعة ويتأثر بها الجلد والدم ، فأما الجلد فيتغير لونه ويميل إلى السمرة أو قد يلتهب ويصيبه السرطان وأما الدم فيتأثر نتيجة لتأثر نخاع العظام بتلك الأشعة مما يفقده القدرة على تجديد الدم بانتظام وينتج عن ذلك أمراض الدم المعروفة كالأنيميا واللوكسيا كما تؤثر تلك الأشعة على قوة الإخصاب فى الذكر والأنثى على السواء .

وأما الإشعاع الذرى وهو آخر ما استحدث من أنواع الإشعاع فى الصناعة فلم يصل بعد إلى جو الصناعة فى البلاد العربية، إلا أن تقدم الصناعة فيها سوف يصل دون شك إلى مرحلة احتمال تعرض العمال لتلك الإشعاعات التى يختلف تأثيرها عن تأثير الأشعة المجهولة (×) إلا من حيث شدتها ، فالإشعاع الذرى أشد أثرا من الإشعاعات المجهولة بآلاف المرات والإصابة بها كثيرا ما تكون قاضية . ذلك فضلا عما تحدثه تلك الإشعاعات من تشوهات خلقية وتلف لأعضاء الجسم ، الأمر الذى يجعلنا نفكر ألف مرة ومرة فى كفاية طرق الوقاية منها قبل أن ندخلها أو نستحدثها فى أساليب الصناعة وذلك فى المختبرات العلمية حيث تدرس تلك الوسائل الوقائية وتبسط إلى الحد الذى يجعلها فى متناول وفى إدراك المشتغلين بالصناعة .

ثانيا — مؤثرات كيماوية :

ويقصد بالمؤثرات الكيماوية ما يشوب جو العمل من مواد كيماوية تتسرب إليه أو رذاذ بخار أو دخان . هذه المواد إما أن تصل إلى جو العمل على هيئة غاز أو رذاذ أو بخار أو دخان وفى هذه الحالة يكون وصول تلك المواد الكيماوية إلى جسم العامل عن طريق الجهاز التنفسى حيث يستنشقها العامل فتصل رئتيه ثم يمتصها الدم وتسرى معه فى جميع أجزاء جسمه .

وقد تكون تلك المؤثرات الكيماوية غير عالقة بجو العمل وإنما يتداولها العامل أو يستعملها فتتلوث بها يداه وقد تؤثر على جلده أو لا تؤثر، كما يجوز أن يمتصها الجسم عن طريق الجلد فتصل إلى المخ. وثمت طريقا آخر تسلكه تلك المواد الكيماوية وهو الجهاز الهضمى ويكون ذلك عن طريق تلوث الأطعمة بما يعلق فى يدى العامل من مواد الصناعة السامة فيبتلعها مع الغذاء ويمتصها الدم من المعدة أو الأمعاء وتسبح فيه إلى جميع أجزاء الجسم . وكائنها

الطريقة التى تصل بها المؤثرات الكيماوية إلى الدم فإنها تؤثر فى صحة العامل بحسب طبيعتها وتأثيرها السام أو الضار . وفيما يلى نورد أهم تلك المؤثرات الكيماوية وموجزا عن تأثيرها على صحة العامل المعرض لها :

١ — المواد العضوية ، وهذه المواد نوعان النوع الأول يكون تأثيره عادة قاصرا على أمراض الحساسية وأهم تلك المواد فى الصناعة غبار القطن وهو يؤدى إلى النزلات الشعبية والربو والسعال المزمن كما يؤدى فى النهاية إلى اتساع الحويصلات الهوائية فى الرئة وإضعاف قدرتها على تنقية الدم يورث هبوط القلب والوفاة نتيجة عدم الكفاية القلبية والتنفسية .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير إلى الفكرة التى تتجه إلى وصم صناعات القطن وخاصة صناعة النسيج لأنها تسبب الإصابة بالسل ، والواقع أن صناعات القطن بريئة من تلك الوصمة ، فالقطن شىء وجرثومة السل شىء آخر ولا يأتى السل إلا من الإصابة بجرثومته والقطن لا يحتوى عليها ، ولكن ذلك الخطأ الشائع إنما أتى فى نظرنا نتيجة لعوامل أهمها ما يأتى :

(ا) أن عمال النسيج هم الغالبية بين عمال الصناعة عموما .

(ب) أن غبار القطن يسبب السعال والنزلات الشعبية مما يتيح الفرصة لأكبر عدد من جراثيم السل أن تتطاير فتنتشر فى جو العمل وتعرض الآخرين للعدوى .

(ج) أن أماكن العمل فى صناعات القطن تغص بالكثير من العمال ، وفى وجود مصاب واحد ما يهيىء الفرصة لكثرة انتشار العدوى بينهم .

مما يتقدم نرى أن الأصل فى انتشار السل بين عمال النسيج هو وجود مصابين به بينهم وتوافر الفرص للعدوى وأن أهمية انتشار السل بين عمال النسيج راجع للأهمية العددية لهؤلاء العمال بين مجموع عمال الصناعة .

وأما عن المواد العضوية الأخرى فأهمها غبار التبغ فى صناعة السجاير وغبار الدقيق والمطاحن ولا يعد وتأثير المواد العضوية على العمال كما أسلفنا أمراض الحساسية كالتهاب الجلد والعيون المزمنة ومنها الأجزيمة والتهاب الجفون والربو والتهاب المفاصل والأرتكاريا وغيرها .

وهناك مجموعة أخرى من المواد العضوية أكثر خطورة فى تأثيرها على الجلد بصفة خاصة وهى مجموعة مواد الزفت والقار والأسفلت ومتخلفات التقطير الاتلافى للفحم والخشب والبترول ، وهذه المواد تسبب التهابات جلدية مزمنة قد تتورم أوراما حميدة أو خبيثة (سرطان) ويتعرض لهذه المواد المشتغلون فى عمليات وصناعات البترول وتقطير الفحم ورصف الطرق وبناء السفن ومد التوصيلات الكهربائية والبرقية تحت الأرض وكذا عمال الهندسة المدنية .

وأما النوع الثانى من هذه المواد فيكون تأثيره ساما وتختلف أعراض التسمم باختلاف طبيعة المواد وأهم المواد

المعروفة من هذا النوع فى الصناعة البنزين ومشتقاته ومركباته العضوية العطرية والليفية وأكثرها يؤثر على الجهاز العصبى وينتج عنها الشلل أو فقد الحس .

٢ — المواد غير العضوية، وأهم تلك المواد فى الصناعة الرصاص والزرنيخ والزئبق وأنتيمون الفسفور والكبريت والكروم وأملاحها ومركباتها — وتؤثر كل من هذه المواد تأثيرا ساما على الجسم وتختلف طبيعة التسمم وصورته المرضية باختلاف نوع المادة المسببة لذلك التسمم .

ثالثا — المؤثرات الحيوية :

ويقصد بالمؤثرات الحيوية ما يعلق بجو العمل من جراثيم إما أن تتواجد فى خامات الصناعة أو فى الجو المحيط بها ، فأما ما يوجد فى خامات الصناعة فهو جرثومة الجمرة الخبيثة وجرثومة السقاوة وكلاهما يوجد فى جلد أو جسم الحيوان المصاب بهما ويتعرض لها الجزارون وعمال المدابغ وعمال صناعة الصوف والفرش والأطباء البيطريون ومساعدوهم ، وأما ما يوجد فى جو العمل فمنه الالتهاب الصفراوى النزفى وجرثومة التيتانوس .

أهداف الصحة الصناعية :

تهدف الصحة الصناعية إلى العمل على رفع الكفاية الإنتاجية عن طريق تحسين المستوى الصحى للعمال وذلك بالطرق الآتية :

١ — تحسين المستوى الصحى لجو العمل وذلك بإزالة ما يعلق به من مؤثرات ووضع الوسائل الكفيلة بالوقاية من تلك العوامل.

٢ — رفع المستوى الصحى للعمال وذلك بتوفير الخدمات الصحية والرعاية الطبية لهم والقضاء على أية علة يصابون بها عن طريق علاجهم والتبكير بذلك العلاج لمحاربة الداء قبل أن يستفحل ويستعصى .

٣ — تأهيل من يصيبه عجز من عمال الصناعة نتيجة لمرض أو إصابة وتدريبه على عمل يناسب ما تبقى لديه من قدرات جسمانية .

وهكذا نرى أن برامج الصحة الصناعية تقوم على أسس ثلاثة وهى الوقاية والعلاج والتأهيل :

الأسس التشريعية للصحة الصناعية :

تنهض برامج الصحة الصناعية على أساس ما يوليها التشريع العمالى والاجتماعى من أهمية ، وهى تزدهر بحسب ما

نصيبه تلك التشريعات من تقدم . وهناك أنواع ثلاثة للتشريعات التى تتصل بالصحة الصناعية ونوردها فيما يلى بحسب ترتيب ظهورها فى مجالات التشريع فى الدول المختلفة .

١ — قانون المصنع وهو نوع من التشريع ينظم الشروط الصحية والوسائل التى تضمن السلامة والأمن للمشتغلين فى تلك المصانع ، وأهم مايرد فى تلك التشريعات مما يتعلق بالصحة الصناعية الأحكام الخاصة بالمبانى والاضاءة والتهوية وتوافر المرافق الصحية والمياه الصالحة للشرب وكذا توافر معدات ووسائل الوقاية من إصابات العمل وأخطاره وغير ذلك من الأحكام التى تنظم ساعات العمل واستخدام النساء والأحداث فى الصناعة، وهذا النوع من التشريع يكون فى العادة أسبق التشريعات المتعلقة بالصحة الصناعية .

٢ — قوانين التعويض، وهذه القوانين تنظم حق العامل فى الحصول على التعويض عن إصابته بحادث عمل أو مرض مهنة، وكثيرا ما تهتم هذه القوانين بالوقاية من إصابات العمل وأمراض المهنة كما تهتم بعلاج المصابين طبيا . ويكون العلاج والتعويض فى تلك القوانين من المسئولية الأساسية على صاحب العمل ويكون لذلك مضطرا للعناية بمسائل الوقاية حتى يخفف من مسئولياته عن علاج العمال وتعويضهم عن العجز المتخلف لديهم نتيجة لإصابتهم .

٣ — قوانين التأمين الاجتماعى، وتعالج تلك القوانين مشكلة تأمين الدخل للعمال الذين يقعون فريسة للطوارىء المختلفة كالمرض والعجز وإصابات العمل وغيرها وذلك عن طريق التأمين ضد هذه الطوارىء .

وتكون هذه التشريعات فى العادة هى آخر مراحل التطور فى التشريعات الصحية العمالية .

خدمات الصحة العامة :

يستلزم تحقيق برامج وأهداف الصحة الصناعية قيام أنواع مختلفة من الخدمات وتنظيمها، وسنورد فيما يلى بيان تلك الخدمات المختلفة ودورها فى الرعاية الصحية لعمال الصناعة .

١ — خدمات الإسعاف الأولى، وتهدف إلى توفير أدوات الإسعاف الأولى والقائمين بها فى المصانع وكذا تقديمها فى الحال لكل مصاب ولو لم تمنعه إصابته عن مباشرة عمله .

٢ — عيادة المصنع، وهذه يقوم بالعمل فيها أطباء وممرضات أو ممرضون مؤهلون وتهدف تلك العيادة إلى علاج العمال مما يصيبهم من حالات مرضية أو انحرافات صحية فى مهدها، وإن فى وجود العيادة والطبيب بالمصنع لما يسهل الأمر على العمال ويجعل الطب فى متناولهم القريب ويوفر لهم العلاج فى بداية المرض قبل استفحاله، وذلك من شأنه تيسير التغلب على المرض، فيكفى العامل سقما ويكفى صاحب العمل تغيبا عن الإنتاج .

ومن أهم وظائف عيادة المصنع الفحص للمستجدين فى العمل وتقدير مدى لياقتهم الصحية للأعمال التى يتقدمون

إليها وكذا الفحص الطبى الدورى لمعرفة مدى تأثير الصناعة والعمل على صحة العمال واكتشاف الحالات المرضية العامة والأمراض المهنية والعمل على علاجها قبل أن يستشكل أمرها ،

٣ — الخدمات الترفيهية ، ويقصد بها الخدمات غير الصحية الوقائية وغير الطبية العلاجية مما له تأثيره على الصحة بطريق مباشر أو غير مباشر من هذه الخدمات ، ونخص بالذكر :

(ا) التغذية : تعمد بعض المصانع إلى تقديم وجبة غذائية لعمالها تتوافر فيها جميع العناصر الغذائية كما يعمد البعض إلى الاكتفاء بإقامة مقاصف للوجبات الجافة أو مجرد إعداد مكان لتناول الطعام .

(ب) الإسكان : تعمد بعض المؤسسات الصناعية الكبرى وكذا المؤسسات التى تقع فى جهات بعيدة عن العمران إلى توفير المساكن لعمالها وتتفاوت تلك المساكن من حيث صلاحيتهما بتفاوت إدراك تلك المؤسسات لأهمية السكن الصحى للعمال كما تختلف باختلاف الإمكانيات المالية لتلك المؤسسات .

(ج) وسائل تنظيم أوقات الفراغ : ويقصد بتلك الوسائل النوادى والملاعب الرياضية ونشاط الكشف والجوالة وإقامة المكتبات العمالية وتنظيم المحاضرات وبرامج التثقيف العمالى والتدريب الثقافى وغير ذلك .

آثار الصحة الصناعية فى العامل :

لا شك أن ما توفره التشريعات العمالية وما تحققه خدمات الصحة الصناعية له أكبر الأثر فى رعاية صحة العامل وإحاطته بكل عوامل الأمان ، وأن برامج الصحة الصناعية لو أحسن تنفيذها ما تركت مجالا أو منفذا يصل منه إلى النيل من صحة العامل ولأصبح العمال طبقة تمتاز بسلامة الجسم وموفور الصحة ، وأن المشاهد أن العامل الصناعى يمتاز بالكفاءة الجسمانية والقوة البدنية على غيره من المواطنين وأن الرعاية الصحية لهذا العامل مهما كلفت فهى ضرورة تقتضيها الظروف الاجتماعية كما تقتضيها الكفاية الإنتاجية ، فالعامل المصاب أو العاجز أو المريض يصبح عبئا ثقيلا على أهله وعلى المجتمع كما يعرض أسرته للتشرد والجريمة ، ولهذا نرى أن الصحة الصناعية من أهم الدعائم التى يقوم عليها البيت العربى وأن فى إهمال خدمات الصحة الصناعية لما يفكك أو يضعف أواصر الترابط بين المرء وزوجه وبينه وبين أولاده .

وثمة أثر آخر من آثار الصحة الصناعية نلمسه فى البيت العربى وهو مايتصف به بيت العامل من نظافة فى المظهر وبساطة فى الأثاث ويرجع ذلك إلى ما تعلمه العامل من أساليب الصناعة من القصد فى الأدوات وحسن الترتيب والنظافة .

ومن آثار الصحة الصناعية فى رعاية العامل ما يقتبسه من الأساليب الصحية فى معالجة الطوارىء والإصابات الخفيفة مما يطبقه فى بيته ، فكثيرا ما نجد العامل يحتفظ فى منزله بشىء من الأدوية والمطهرات لتلك الطوارىء .

الصحة الصناعية ورعاية المرأة :

تولى التشريعات العمالية المرأة فى جميع بلادالعالم قدراً من الاهتمام يتفاوت بحسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية لكل دولة ، وأهم مظاهر الاهتمام بصحةالمرأة فى التشريعات العمالية نوردها فيما يلى :

١ — تحريم تشغيل النساء فى المناجم وفى بعض الأعمال الخطرة والضارة بالصحة .
٢ — تحريم تشغيل النساء ليلا — إلا فى أحوال خاصة يحددها التشريع .
٣ — منح النساء إجازات بأجر كامل أو جزئى أو بغير أجر — لمناسبة الولادة .
٤ — منح النساء المرضعات فترة من الراحة لإرضاع الأولاد .
٥ — تحديد ساعات العمل وفترات الراحة بالنسبة للنساء .

تلك هى أهم مظاهر الرعاية التى تكفلها التشريعات العمالية وبرامج الصحة الصناعية للمرأة وكلها تهدف إلى حماية المرأة صحيا واجتماعيا كما تهدف إلىرعاية الأمومة والطفولة ، وفى ذلك ما يثبت أركانالبيت والمجتمع وما يساعد على نهوض المرأة — وهى نصف المجتمع — بنصيبها فى التقدم والتطور الاقتصادى والاجتماعى .

الصحة الصناعية ورعاية الأحداث :

كان الأحداث فى الصناعة من أسبق المشاكل التى استرعت أنظار ولاة الأمور فى الدول الصناعية المختلفة وقد كانت تشريعات الأحداث فى الصناعة من أول التشريعات العمالية ظهورا ، ذلك أن الطفل — فى أول عهود التصنيع — وهو غض يكون فى العادة فريسة الأضرار الصناعية وأخطارها وأن وقوع الأطفال ضحايا فى الصناعة لما يدعو ولاة الأمور إلى التفكير فى وقايتهم من تلك المخاطر وذلك بتشريع ينظم الشروط والأوضاعالتى نستخدم بها صغار السن فى الصناعة .

وأهم أحكام تلك التشريعات يتلخص شأنها فيما يلى :

١ — تحديد الحد الأدنى لسن الحدث الذى يستخدم فى الصناعة عموما .
٢ — تحديد الحد الأدنى لسن الحدث الذى يستخدم فى بعض الصناعات الخطرة أو المضرة بالصحة .
٣ — تحديد ساعات العمل بالنسبة للأحداث وتنظيم فترات الراحة لهم .
٤ — تحديد الأوزان والأثقال التى يجوز حملها أوجرها إو دفعها للأحداث .
٥ — تعليق استخدام الحدث فى الصناعة على شرط توافر لياقته الصحية .
٦ — الفحص الطبى الدورى للأحداث فى الصناعة .
٧ — منح الأحداث إجازات أطول من إجازات البالغين .

وبذلك وغيره من الوسائل التى يمكن توفيرها للرعاية الصحية للأحداث يصبح التحاقهم بالصناعة محوطا بكل وسائل الأمان وحتى لايذهب الكثير منهم ضحايا على عتبة الصناعة .

الصحة الصناعية بين الحاضر والمستقبل:

لاشك أن برامج الصحة الصناعية قد عملت على رفع المستوى الصحى للمشتغلين بالصناعة إلى حد كبير ، ولكن هناك أوجه نقص فى تلك البرامج تختلف خطورتها باختلاف الدول وما أصابته من تقدم صناعى أو تشريعى عمالى أو اجتماعى .

وأن آخر المطاف فى برنامج الصحة الصناعية هو تأمين العامل على دخله ضد المخاطر الصناعية بل وطوارىء الزمان، ففى ذلك التأمين تمكينا للأسس التى يقوم عليها البيت العربى ، فكل بيت يحوى أسرة يعولها عائل يعمل فى سبيل الحصول على دخل ليقيم أود أسرته فإن هو مات أو عجز وأصبح عاطلا عن الكسب انهارت دعائم البيت وتفككت الأسرة وشردت ، أما تأمينها ضد تلك المخاطر فمن شأنه :

١ — توفير العلاج الطبى عند المرض أو الإصابة .

٢ — توفير خدمات التأهيل الطبى والمهنى لمن لديهم عجز مستديم .

٣ — ضمان دخل معقول يتناسب مع الالتزامات العائلية للعامل فى حالتى المرض والعجز — وفى حالة العجز تضمن له ولأسرته الرعاية الطبية .

بهذا يمكن أن نقول أن برامج الصحة العمالية إذا ماتوجتها تشريعات التأمين الاجتماعى فإنها تنهض بكل ما ينتظر منها تحقيقه من أهداف إذ توفر ضمانا من المرض وأمانا من الفقر وتكفى الفرد عائلة العجز والعوز وتكفى المجتمع عائلة التشرد والجريمة .

أثر الصحة المدرسية فى البيت العربى

للدكتورة وصفية حسين كامل

(ج.ع.م)

كانت الصحة المدرسية فى الدول العربية إلى عهد قريب ضيقة النطاق ، فلم يكن يذهب للمدارس إلا طبقة خاصة من الشعب يمكننا اعتبارها إلى حد ما مهتمة بأمر صحتها . ولكن بعد أن صار التعليم الابتدائى إجباريا فى غالبية هذه الدول فقد تحتم على الدول التى عممته أن تقوم بعناية خاصة لهذه الفئة المهمة من الشعب ، وأصبح لديها الفرصة للنهوض الصحى بها ، إذ صار لزاما على كل فرد رجلا كان أو امرأة أن يمر تحت أعينها فى بضعة سنوات من حياته يمكن اعتبارها من أهم إن لم تكن أهم مرحلة لنموه جسمانيا وعقليا ولتوجيهه التوجيه السليم حتى يصبح عمودا هاما فى أساس بناء الدولة . وعلى الأمة العربية ألا تترك هذه الفرصة للإفلات إذ فى حسن توجيه التلاميذ ورعايتهم تتمكن من التأثير على كل بيت ، إذ لا يخلو بيت من التلاميذ .

ولقد قدرت نسبة التلاميذ فى السن المدرسى بعشرة فى المائة على الأقل من مجموع عدد السكان وهذه نسبة كبيرة يمكن استغلالها كنواة لإصلاح الجيل الحالى وهو المكون للجيل القادم والمربى للجيل الذى يليه . والصحة المدرسية تقوم بقسط وافر فى خدمة هذه المجموعة وتوجيهها إلى الطريق الصحيح .

ولما كان معنى الصحة حالة التمتع بكامل العافية البدنية والعقلية والاجتماعية وليست مجرد البرء من المرض أو العاهة ، فقد اهتمت الإدارات الصحية المدرسية فى الدول العربية بالعناية بالتلميذ من الناحية الاجتماعية بالإضافة إلى نشاطها الصحى ، فأصبحت المدرسة غير قاصرة على تثقيف التلاميذ صحيا بل شملت ذويهم وجميع أفراد المجتمع فأولياء الأمور يسعدهم أن يتصل بهم ناظر المدرسة وكذلك المدرسون والطبيب والزائرة الصحية ليتداولوا معا فيما يهم أولادهم ، وتقوم المدرسة باستغلال هذه الصلة وهذا الإقبال من الأهالى فى نشر الثقافة الصحية ومعرفة نواحى النقص فى بيئتهم الصحية والاجتماعية والعمل على إصلاحها — كما ترشدهم إلى الهيئات الصحية والاجتماعية الموجودة فى بيئتهم والتى يمكن الاستفادة منها . ولمعرفة مدى أثر الصحة المدرسية فى البيت العربى وجب علينا الرجوع إلى أنواع الخدمات التى تقوم بها الصحة المدرسية التى تتلخص فى :

١ — الناحية الوقائية .

٢ — الناحية العلاجية .

٣ — التربية الصحية .

٤ — العناية بالشواذ وذوى العاهات .

وفيما يلى سنتكلم عن كل نشاط وما له من تأثير فى البيت العربى .

فى الناحية الوقائية — التى تشمل البيئة المدرسية - فالمبانى المدرسية ومراعاة استيفائها من الناحية الصحية بما فى ذلك من دورات المياه والملاعب والأثاث المدرسى والنظافة كل ذلك يساعد التلميذ على فهم وتقدير الحياة الصحية التى يجب عليه اتباعها . ولاشك فى أن التلميذ إذا انغرست فيه هذه المبادىء الصحية التى يجب عليه اتباعها سيجتهد أن يستمر على ما طبع عليه بالمدرسة من سلوك صحى . وهذا سيؤثر فى عائلته وينير لها الطريق بعض الشىء - فإذا كانت العائلة متمسكة بتقاليدها حيث يخضع الصغار خضوعا تاما لكبير العائلة فلا ينتظر منه أثر يذكر ، ولكننا سنلاحظ ذلك عندما يصبح هذا الصغير مستقلا نوعا ما فإنه يحاول تكوين بيت أكثر تهيئة من الناحية الصحية ، وينتظر أن يكون الجيل الثالث أحسن من سابقيه . فإنا لاننتظر أن يتغير ما فى هذا البيت العربى من تقاليد قديمة وعادات خاصة بين سنة وأخرى ، بل يجب أن يتم هذا التغير تدريجيا ولا بد أن ننتظر أجيالا متعاقبة لنصل إلى ما نرغب .

نذكر بعد ذلك شيئا عن باقى أوجه النشاط الوقائى - فالملاحظة الصحية اليومية للتلاميذ وعزل المرضى منهم بأمراض معدية وملاحظة الغياب وأسبابه والتطعيم وملاحظة اليوم المدرسى وصحة الموظفين بالمدرسة - كل هذا يساعد فى تلقين التلاميذ عمليا وسائل الرعاية الصحية ويساعد العائلة على تفهم الكثير من الناحية الصحية لأبنائهم وعما يجب العناية به وملاحظته فى أولادهم مما يزيد وعيهم الصحى .

ولا يقل عن ذلك فى الأهمية ما للكشف الشامل الذى يوقع على المستجدين بحضور أهلهم من أثر وتوجيه وعناية صحية لهم جميعا .

الناحية العلاجية — لقد لوحظ أن معظم الأمراض المتوطنة فى الدول العربية وكثيرا من الأمراض المعدية وأمراض سوء التغذية تصيب الإنسان فى طفولته فإحصاءات الأمراض التى تكتشف فى التلاميذ المستجدين بالمدارس تنطق بذلك ، أضف إلى ذلك ما يكتشف من عاهات . والعلاج فى هذا الدور منتج ومفيد خصوصا إذا صحب هذا العلاج الإرشاد الصحى لمعرفة أسباب هذه الأمراض وطرق اتقائها ، أما إذا أهمل التلميذ إلى أن يصير يافعا فإن ذلك يؤدى فى كثير من الأحيان إلى مضاعفات يصعب ويتعذر علاجها . ولاشك أن الدول التى تسهل على تلاميذها العلاج وتوفر لهم سبله ستنتج جيلا صحيا سليما يستطيع بناء بيت سليم ويؤسس وطنا صالحا - ولا يفوتنا ما لأثر هذا العلاج فى أولياء الأمور من حيث درايتهم بالناحية الصحية فإن ذهاب الأب أو الأم مع التلميذ للعلاج فرصة يمكن انتهازها لتفهم كثير من المعلومات التى توصلهما إلى التربية الصحية الصحيحة .

إن الجهل الصحى هو السبب الأصلى فى كثير من المشاكل الصحية التى تحاول الحكومات علاجها وهو سبب تلكؤ ظهور نتائج العلاج ، لذلك وجب إدخال التعليم الصحى بالمدارس جنبا إلى جنب مع التعليم العام . فالمدرسة هى أكثر

ملاءمة له، وقد حرصت الإدارات الصحية على إشراك الأهالى فى الثقافة الصحية مع أولادهم فى المدارس حتى يسيروا فى ركاب واحد فيشدون أزر بعضهم بعضا ولا يحدث تضارب بين الجيلين فيفسد على المدرسة ما بنته .

وأخيرا وليس آخرا نذكر من أعمال الصحة المدرسية العناية بذوى العاهات كالعميان وضعاف الأبصار والصم والبكم وذوى عيوب النطق وناقصى الذكاء ومن أصيبوا بأمراض عضوية تركت أثرا بأجسامهم وكذلك الحالات النفسية ، فالعناية بهذه الفئة من التلاميذ وتوجيههم التوجية المهنى الصحيح كل حسب مواهبه يرفع عبئا ثقيلا عن كاهل الأسرة التى قد يدفعها الجهل إلى توجيهه توجيها خاطئا فيصبح عالة على الأسرة وبالتالى عالة على المجتمع . أما إذا اعتنى به أصبح معتمدا على نفسه ووفرنا عليه مركب النقص الذى ربما تسبب لدفعه إلى الضرر ، ووفرنا على عائلته ضيقها به .

ويساعد فى رفع المستوى الصحى للعائلة ما تقوم به المشرفات والزائرات الصحيات بالمدارس من التوجيه الصحى لأولياء الأمور سواء بدعوتهم للمدرسة لأسباب خاصة بأبنائهم أو بدعوة عامة كمجالس الآباء والمدرسين ، كذلك زيارتهم لمنازل التلاميذ المحتاجين للرعاية والإرشاد كحالات الدرن والجرب المتكرر وغيرها .

هذه هى بعض أوجه النشاط للصحة المدرسية نحو التلاميذ وعائلاتهم ولابد أنها مثمرة، ولو أننا لا يمكننا تقدير أثرها نظرا لأنه لم يحصل تقويم لحالة البيت العربى الصحية قبل قيام الصحة المدرسية بالنشاط المذكور وبعده . ولما للناحيتين العلمية والاقتصادية من آثار قد تحجب الأثر الصحى من الظهور على حقيقة قدره، فإنى على يقين من أن الصحة المدرسية سيكون لها اليد العليا فى رفع المستوى الصحى فى البيت العربى ولو أنه سيسير سيرا بطيئا يحتاج لصبر ومثابرة حتى يتقارب تعليم الجيلين المدرسى والمنزلى .

ولكى تصل الصحة المدرسية إلى الأهداف المرجوة منها فى البيت العربى كاملة يجب علينا أن نهيىء القائمين بالعمل بها تهيئة أكثر ملاءمة للآراء الحديثة فى التربية ، فالأطباء والزائرات والمشرفات الصحيات يجب إعدادهم بأن يعطى لهم تدريب قبل وأثناء العمل فى التعليم وطرق الخدمة الاجتماعية وعلم النفس فضلا عن دراستهم الأصلية . أما المدرسون فيجب أن تزداد دراستهم الصحية وتكون عملية إلى حد كبير ، كما يراعى فى تكوين المدرس أن ينظر إلى التلميذ نظرة شاملة صحية ونفسية واجتماعية .

كما يلزم أن يشمل التثقيف الصحى أولياء أمور التلاميذ مع أولادهم زيادة على برنامج التثقيف الصحى العام الذى يجب أن يتمشى مع التثقيف الصحى المدرسى ، ويجب أن تستمر المدرسة مركز إشعاع لجميع سكان الحى بدعوتهم المستمرة إلى اجتماعات وندوات ومناقشات صحية وغيرها لتوسيع مداركهم وأفقهم حتى يساعدوا ويشجعوا أولادهم فى الارتفاع بالمستوى الصحى بالمنزل . وأضيف إلى ذلك تشجيع مجالس الآباء والمدرسين وإدخال الطبيب معهم كلما أمكن أو المشرفة الصحية بالمدرسة لدراسة المشاكل الصحية للمنطقة عامة والتلاميذ خاصة وإيجاد الحلول لها بتضافر نشاط المدرسة والأهالى ومعونة الهيئات الأخرى فى الحالات المحتاجة إلى المعونة الفنية أو

المالية ، ولا شك فى أن زيادة الزيارات التى تقوم بها الزائرات الصحيات بالمدارس لمنازل التلاميذ لعامل قوى فى المساعدة على بث الدعوة الصحية والنهوض بمستوى المعيشة المنزلى وبذلك نعمل على تهيئة جيل ناشىء سليم صحيح.

ولا يفوتنا أن نوجه النظر إلى زيادة العناية بالشواذ إذ أن المدارس المخصصة لتعليم هؤلاء التلاميذ قليلة العدد ويجب زيادتها بما يلائم الموجود من كل عاهة جثمانية ، كما يجب تدريب المدرسين اللازمين تدريبا مناسبا . أما المتأخرون دراسيا وضعاف العقول فيلزم تعليمهم فى فصول خاصة أو مدارس خاصة حتى لا يكونوا عبئا على مدرسيهم وزملائهم ويراعى فى دراستهم توجيههم حسب ميولهم ، كما يجب ألا ننسى كذلك ضرورة الإكثار من العيادات النفسية .

ونظرا لما يرجى من أثر بالغ للصحة المدرسية فى رفع المستوى الصحى للبيت العربى فإنى أرجو أن تليها الأم العربية من الرعاية والعناية ما يتمشى مع النهضة التعليمية والصحية .

التغذية وأهمية تنظيمها فى رفع المستوى الصحى للبيت العربى

للدكتور على حسن

(الجمهورية العربية المتحدة)

علاقة التغذية بالصحة العامة :

التغذية من أهم الدعائم التى ترتكز عليها الصحة العامة إن لم تكن أهمها جميعها ، ولم تتضح هذه العلاقة ولم نؤمن بها إلا من عهد قريب . والآن نعرف أن صحة الإنسان لا تستقيم وحيويته لا تتم إذا ساء غذاؤه لأن الغذاء الصالح يقدم للآكل عناصر معينة يوميا فإذا حرم من بعضها وطال الحرمان ظهرت عليه أعراض مرضية مميزة تزول إذا أعيدت إلى الغذاء العناصر الناقصة .

وفى المنطقة كثير من الأمراض الغذائية منها فقر الدم والكساح والبلاجرا وبعض أمراض العيون ومنها العشا وأمراض أخرى أقل انتشارا ، إلا أن سوء التغذية ونقصها لا يصل عند كثير من الناس إلى درجة إحداث أمراض مرئية يسهل تمييزها ، وفى هذه الحالات يشكو المصاب الضعف والخمول ويهبط إنتاجه وإذا كان طفلا أبطأ نموه وضعف جسمه وقل فهمه .

مدى انتشار الأمراض الغذائية :

ليس هناك إلى الآن تقديرات موثوق بها عن مدى انتشار الأمراض الغذائية فى المنطقة، ولكنها بلا شك كثيرة والدليل على ذلك ما يقوله بعض الأطباء من أن الكساح يصيب من ٢٠ إلى ٤٠ ٪ من الأطفال وأن إصابات البلاجرا قد تصل إلى ١٠ ٪ أو أكثر فى بعض المناطق . وإنا إذا سلمنا بأن وفيات الأطفال دون الخامسة دليل على سوء التغذية يصبح الأمر خطيرا، ذلك لأن وفيات هذه الفئة تصل الآن إلى حوالى ١٠٠ فى الألف وهذا يكاد يكون أعلا رقم فى العالم .

أسباب انتشار الأمراض الغذائية :

هناك أسباب كثيرة لانتشار الأمراض الغذائية ولكن الذى يهمنا منها هنا هما الفقر والجهل . ولكن مهما تعددت أخطاء الجهل فنصيبه فى انتشار سوء التغذية محدود فى الواقع . والفقر بلا جدال هو المسئول الأول . وأما

مايقال عن أن قلة الأطعمة فى المناطق التى لاتنتج منها الكفاية مسئولة عن انتشار الأمراض الغذائية فيها قد يكون له نصيب من الصحة ، ولكن لا يجب أن ننسى أن المال إذا وجد يسر استيراد أطعمة تسد العجز ، فبريطانيا مثلا لا تنتج من الأطعمة إلا أقل من نصف ما تستهلك ومع ذلك فمستوى التغذية بها يكاد يكون نموذجيا ، والسر فى ذلك أن لديها من المال ما يسمح باستيراد الأطعمة التى تنقصها . وللأهالى هناك القدرة على شراء ما يحتاجونه منها أما هنا فقدرتنا على سد العجز عن طريق الاستيراد محدودة ذلك لأننا لازلنا فقراء وإن استوردنا فالحبوب والزيوت لها النصيب الأكبر ، وفوق ذلك فإن مستوى المعيشة منخفض لدرجة تترك عددا كبيرا من السكان عاجزا عن شراء غذاء كاف بصفة دائمة .

الإنتاج الغذائى :

لا نخطىء إذا قلنا إن الإنتاج الغذائى فى أغلب بلاد المنطقة بدائى إلى درجة كبيرة ولم نتبع فى شأنه النظم الحديثة بعد ، والقائم منه لايوجد بشكل يساعد على حل مشاكل التغذية الحالية ، وهذا راجع إلى نقص الوعى الغذائى الصحيح من جهة وإلى الفقر وعدم وجود سياسة إنتاجية شاملة من جهة أخرى ، وأنه لهذه الأسباب نجد أن أغذية نسبة كبيرة منا من النوع الذى تكثر فيه الحبوب وتكاد تنعدم فيه الألبان وغيرها من الأطعمة الحيوانية وهذا النوع من الأغذية كثيرا ما يعجز عن تزويد الإنسان بجميع احتياجاته الغذائية وخاصة إذا لم يحسن الآكل اختيار الأصناف . وحسن الاختيار يحتاج إلى تثقيف أو تعويد ، ولكن ليس هذا كل ما فى الأمر فهناك عوامل كثيرة غير ما ذكرت ساعدت على خلق هذا الوضع وهى عوامل زراعية واقتصادية ثابتة الأثر لا محل لمناقشتها الآن ولكن لا بد من تقديرها عند ما نشرع فى وضع البرامج الضرورية لرفع مستوى التغذية .

الأطعمة النباتية :

لا أقصد بالكلام عن الأطعمة النباتية أن أثير جدلا حول قيمتها الغذائية وصلاحيتها وحدها لتموين الآكل بكل العناصر المطلوبة ولكن رغم اعتقادى بأنها صالحة فعلا فإنى لا أنصح بالاقتصار عليها فى أغذيتنا وأحبذ إشراك كميات قليلة من الأطعمة الحيوانية معها وأفضل اللبن الكامل أو المنزوع القشدة أو البيض ثم اللحوم والأسماك .

أما الغرض من ذكر هذا فراجع إلى أن ضيق الرقعة الزراعية وكثرة عدد السكان لا يسمح بتخصيص مساحات كبيرة منها لتربية الحيوان وسيبقى الإنتاج الحيوانى محدودا بما تستطيع المزرعة تقديمه من فضلات أو ما تسمح به من محاصيل فرعية . وبما أن حاجتنا إلى الطاقة فى ازدياد مستمر وبما أن البلاد لا تزال محدودة الدخل فلن يكون هناك مفر الآن من استمرار الحصول على الطاقة من المحاصيل السعرية كالحبوب بكافة أنواعها والبطاطس والبطاطا والسكر والزيوت النباتية واعتقادى أن هذه الأطعمة تصلح — بعد بعض إضافات تشمل قليلا من الأطعمة الحيوانية — لأن تكون غذاءا كافيا لاحتياجات الجسم .

الأطعمة الحيوانية :

ولزيادة الإيضاح أقول بأن الأطعمة الحيوانية مرغوب فيها لثلاثة أسباب رئيسية : أولا لأنها تزيد فى استمتاع الآكل بغذائه وثانيا لأنها غنية بالبروتينات الكاملة وثالثا لأنها غنية بالكالسيوم . أما عن البروتينات فأننى لم أجد بلادا تستغل مجموعة من البقول غنية بالبروتين ومتعددة الأصناف كالمجموعة التى يستغلها إقليم مصر . وبالإضافة إلى البقول المعروفة يأكل المصريون السمسم والسودانى واللب بأنواعه والترمس والحلبه والجلبان والجشر نجيج . وبروتينات هذه الأطعمة مضافة إلى بروتينات الخبز تزود الإنسان بكل الأحماض الأمينية الموجودة فى البروتينات الحيوانية أما الكالسيوم فاللبن بلاجدال أغنى الأطعمه بهذا العنصر ولكن الإحصاءات التى تحت يدنا تقول أن مانستهلكه منه قليل إذا قورن بما يستهلكه الفرد فى بعض البلاد الأخرى . ولهذا السبب يخشى البعض من أن كمية الكالسيوم التى تصل إلى الفرد فى الإقليم المصرى قليلة والكالسيوم عنصر غذائى هام . ولكن لا يجب أن ننسى أن بلاد المنطقة تنتج أصنافا كثيرة من الخضروات الورقيه وهى فى متناول يد الجمهور الذى يقبل على أكلها طازجة ومطهوة طول السنة بعكس الحال فى أوربا وأمريكا ، وهذه الخضروات غنية بالكالسيوم وهى إن لم تغن آكلها عن كالسيوم اللبن فإنها بلا شك ستقلل من اعتماده على اللبن كمورد للكالسيوم . من هذا نرى أن أطعمتنا تسمح لنا بالتحرر من قيود النسب التى وضعها علماء الغرب للأطعمه الحيوانية فى الغذاء وتسمح لنا إذا طاب منا اقتراح غذاء لفئه ما ألا نقلد العوائد الغذائية الأجنبية الكثيرة التكلفة بل نسترشد بما اعتدناه نحن من أنظمة غذائية ثبتت صلاحيتها وهى فوق ذلك لاتكلفنا كثيرا ومن هذه الأنظمة مالا يحتم أكل اللحوم يوميا .

الاحتياجات الغذائية :

لا يد لمن يريد رفع مستوى التغذية فى مكان ما من معرفة احتياجات الأفراد الغذائية فى أطوار حياتهم المختلفة ولكن المهتمين بأمور التغذية لم يتفقوا إلى الآن على مقاديرها لكل عنصر غذائى معروف ، والخلاف فى بعض الأحوال كبير ، مثال ذلك أن المدرسة الإنجليزية ترى أن ثلاثين ملليجرام فيتامين ج كافية للرجل البالغ فى اليوم بينما المدرسة الأمريكية تنصح بتناول ٧٥ ملليجرام والفرق كبير كما نرى .

على أن هذه التقديرات تفرق بين حدين للاحتياجات اليومية فهناك حد أدنى وحد أمثل والفرق بين الحدين كبير ، والمقصود بالحد الأدنى هو أقل كمية من العنصر الغذائى تكفى لحماية الآكل من الإصابة بالأعراض المرضية الدالة على نقص هذا العنصر بالذات ، أما الحد الأمثل فيقصد به الكمية التى يظن بأنها تغطى وزيادة ما يحتاجه الجسم للاستمتاع بحالة تغذية مثالية أى بصحة موفورة ونشاط جم . مثال ذلك أن الحد الأدنى لاحتياجات البالغ البروتينية هو ٢٠ جم فقط ولكن المدرسة الأمريكية تنصح بأن يكون الحد المثالى ٧٠ جم بروتين يوميا لرجل بالغ وزنه ٧٠ كجم أى أن نسبة الأمان هناك تصل إلى ٢٥٠ ٪ .

إن انجلترا وأمريكا بلاد غنية تستطيع تنفيذ هذه التوصيات العالية ، أما نحن فلا ، لأننا فقراء ولا يحسن بنا أن نرهق ماليتنا كأفراد أو مالية الدولة المحدودة بالتمسك بالحد المثالى فى كل حالة .

ووجود حد أدنى وحد مثالى يسمح بأن تكون برامجنا لتحسين حالة التغذية على درجات تتمشى مع إمكانياتنا على ألا يهبط ما نقترحه بخصوص الأغذية عن الحد الأدنى، ولكن لابد من مراعاة الظروف المتصلة بكل فئة من فئات الأمة ، فقد تحتم هذه الظروف السخاء وخصوصا فى حالة الفئات الحساسة وهم الأطفال فى طور النمو والحوامل والمرضعات .

رفع مستوى التغذية :

لتحسين التغذية فى بلد ما يجب تيسير حصول الفرد على غذاء كاف وإزالة الأسباب التى قد تحول بينه وبين الاستفادة الكاملة من هذا الغذاء، ذلك أن فى كثير من بلاد المنطقة أمراضا تصيب الجهاز الهضمى فتعطل عمليات هضم الأطعمة وامتصاصها، ومكافحة هذه الأمراض من اختصاص رجال الصحة . أما تيسير حصول الفرد على غذاء كامل فهدف ليس من السهل تحقيقه فى يوم وليلة لاتصاله باقتصاديات البلاد وبسياستها الزراعية وبحالة المواصلات وبمسائل كثيرة أخرى، وهو لذلك من الأهداف البعيدة التى لا يمكن الوصول إليها دفعة واحدة ولكن على مراحل يحددها برنامج مدروس يرسمه أناس ذوو خبرة . ولكن للتغذية مشاكل عاجلة لا تنتظر ، كوقوع أمراض غذائية تتطلب العلاج أو حماية فئات حساسة كالأطفال والحوامل والمراضع وتلاميذ المدارس وهؤلاء جميعا فى حاجة إلى وقاية أو إسعاف لأن احتياجاتهم بطبيعتها لا تؤجل.

من هذا نرى وجوب وضع سياستين ، سياسة بعيدة المدى وسياسة عاجلة وفى الحالتين يحتاج الأمر أولا إلى دراسة الحالة عموما لمعرفة الثروة الغذائية وكل ما يتعلق بها من مشاكل وإمكانيات ثم تحليل الأطعمة المستهلكة محليا لمعرفة خواصها الغذائية ثم مستوى الاستهلاك الغذائى وطبيعته والعوائد الغذائية السائدة وتقدير حالة التغذية لتحديد الأمراض الغذائية الموجودة وتحديد العوامل المسببة لها ومدى انتشارها . كل هذه البيانات ضرورية لوضع سياسة غذائية عامة وبرامج لتنفيذ هذه السياسة . وفيما يلى اقتراحات تساعد على تحقيق هذه الأغراض مصحوبة بتوصيات لمناقشتها .

اقتراحات لرفع مستوى التغذية

إن الحكومات الراغبة فى رفع المستوى الصحى عن طريق تحسين التغذية يجب أن تستعين بخبراء التغذية فى المسائل التموينية الخاصة بالأطعمة، وأن تستعين بهم وبغيرهم من الخبراء فى الميادين المتصلة بإنتاج وتوزيع وتسويق المواد الغذائية وإرشاد الجمهور إلى العوائد الغذائية المفضلة . ومما لا شك فيه أن الاستعانة بالخبراء ضمان مؤكد

لعدم اتخاذ خطط إصلاحية معقدة مسرفة وفيه توجيه مستمر للعمليات كلها نحو الهدف الأصلى من تحسين التغذية ألا وهو رفع مستوى الجمهور الصحى .

وبما أن كثيرا من المصالح الحكومية تشمل اختصاصاتها مواضيع متصلة بتغذية الجمهور ، فإن الجمع بين رؤساء هذه المصالح وبين الخبراء المشار إليهم يساعد كثيرا على توحيـــد الجهود وبلوغ الغاية فى أقرب وقت وبطريقة مرضية .

وعلية فإنى أقترح على الحلقة بأن توصى :

(١) بأنه قبل اتخاذ قرارات لها مساس بتغذية الجماهير يجب أن تستنير الحكومات بآراء خبراء التغذية والاقتصاد والتعليم وسواهم فى وضع برنامج غذائى موحد .

(٢) بأن الهدف النهائى لبعض البلاد يجب أن يتجه نحو إقامة هيئة مسئولة عن تنفيذ الخطط التى توضع بقصد توفير الأطعمة ورفع مستوى التغذية والتى يحتاج تنفيذها إلى سلطة حكومية .

تعميم برامج التغذية لتشمل جميع المناطق :

توجد بالبلاد العربية مناطق معزولة عزلا تاما كالواحات وشواطىء البحار والمناطق الريفية البعيدة عن المدن ولا تخلو هذه الأماكن من حالات سوء التغذية وحرمان خطيرة ، فيجب أن ينال فقراء هذه الأماكن العناية التى يلقاها سكان المدن .

وعليه فإنى أقترح الآتى :

(١) بألا تقتصر برامج التحسين على منطقة دون أخرى بل يجب أن تشمل جميع المناطق وأن تركز العناية أولا بمن هم أسوأ حالا من الوجهة الغذائية .

(٢) بأن توجه عناية خاصة لتلقين مبادىء التغذية للموظفين الذين يتصلون بفقراء الريف كالمدرسين وموظفى الصحة والممرضات وإخصائيى الزراعة .

(٣) بأن تتولى الحكومات تقديم المساعدات المختلفة مثل البذور والمبيدات الحشرية والأسمدة والآلات الزراعية لسكان الريف لكى ينتجوا ما يكفيهم من أطعمة .

التغذية المدرسية :

لا جدال فى أن التغذية المدرسية تعود على الأطفال بفائدة كبرى وعلى الخصوص إذا عززت الوجبات التى تقدم

للطفل فى مدرسته بمالا يأكله هو فى بيته . ولكن يجب أن يكون معروفا أن هذه العملية فى حاجة لبرنامج مدروس بعناية وإلى تنظيم وإلى وعى وأمانة، وأن تنفيذها على نطاق واسع قد لا يتيسر لبعض البلاد المحدودة الدخل، ذلك أن تجهيز الوجبة الغذائية وتوزيعها على عدد كبير من التلاميذ فى بلاد مختلفة من أدق الأمور ، فهو يحتاج لتنظيم وخبرة وأجهزة وإن لم تتوافر هذه الأمور فشل المشروع . كما أن العملية يجب أن توضع تحت رقابة صحية دقيقة لكيلا تنتشر الأمراض بين التلاميذ عن طريق الأطعمة الملوثة أو بواسطة العمال المصابين بأمراض معدية .

وعليه فإنى أقترح :

(١) بأن تعمل الحكومات — كل فى حدود إمكانياتها — على تغذية أطفال المدرسة بالطرق العلمية الصحيحة وأن يشمل البرنامج كل المدارس وخصوصا الموجود منها فى المناطق الفقيرة والمعزولة .

(٢) أن تراعى عند وضع برامج التغذية المدرسية الحالة الاقتصادية والعوائد الغذائية المحلية ، وأن تختار الأطعمة المحلية الرخيصة والمفيدة غذائيا وأن يراعى فى اختيارها صلاحيتها لتعزيز أغذية الأطفال بمنازلهم وتكميل نقصها .

(٣) بأن يستعان بهذه العملية فى تعليم التلاميذ أصول التغذية وأن تستغل فى إنشاء دراسات نظرية وعملية للأطفال وذويهم إن أمكن على أن يكون هدفها بيان طريقة إنتاج الأطعمة التى تصلح مع غيرها لتأليف غذاء كاف ، وإن وجود حديقة ملحقة بالمدرسة يساعد على تنفيذ هذا الاقتراح .

(٤) بأن تتولى عملية التغذية المدرسية هيئة واحدة مختصة على أن تستعين فى أداء مهمتها بخبراء التغذية على الدوام .

(٥) بأن يوكل إلى الهيئات المعنية برعاية الطفل أمر العناية بتغذية من فى هذه السن من الأطفال الذين لا تتيح لهم ظروفهم دخول المدارس والاستفادة من التغذية المدرسية .

تغذية الحوامل والمرضعات :

ثبت أن الغذاء يتحكم فى صحة الحامل والمرضع وطفلها وأن مدة إدرار اللبن تهبط إلى شهرين أو ثلاثة إذا ساءت تغذية المرضع — كما أن الاعتماد كلية على لبن الأم لمدة طويلة ليس فيه مصلحة للرضيع إلا إذا عزز اللبن بأطعمة خارجية صالحة ، وذلك لأن إفراز اللبن يهبط تدريجيا بعد مدة معينة بينما حاجة الرضيع للغذاء فى زيادة مستمرة ، وأن انتشار الفقر فى هذه المنطقة يؤكد وجود عدد كبير من الحوامل والمرضعات لا يحصلن على غذاء كاف ولابد من العمل على علاج هذه الحال السيئة .

وعليه فإنى أقترح :

(١) العناية بالحوامل والمرضعات وذلك بإرشادهن أولا إلى السلوك الصحى الصحيح وثانيا بتعزيز أغذية غير القادرات منهن .

(٢) أن يراعى فى تعزيز أغذيتهن اختيار الأطعمة التى تصلح الأخطاء الغذائية الموجودة بها أصلا .

(٣) فحص الحوامل والمرضعات بين آن وآخر كوسيلة لتنفيذ التوصيات السابقة بطريقة مرضية .

تغذية الرضع وصغار الأطفال :

إن أحسن غذاء للطفل هو لبن أمه إلا أن بعض الأمهات لايحصلن على غذاء كاف وفى هذه الحالات تتدهور صحة الأطفال وتزداد نسبة الوفيات بينهم ، ويمكن تعزيز لبن الأم بلبن بقرى أو جاموسى أو بأى لبن آخر تثبت صلاحيته . وبما أن اللبن من أحسن الأطعمة للأطفال فمن المرغوب فيه كثيرا استمرار إعطاء هذه الألبان للطفل بعد الفطام ، وإذ لم يوجد اللبن الطازج يعطى الطفل ألباناً محفوظة عند المقدرة .

أما البلاد التى لا يتيسر فيها وجود الألبان فيحسن تجربة عمل غذاء للأطفال مكون من الحبوب والبقول والفواكه المحلية مع التسليم بأن مثل هذا الغذاء لا يعادل اللبن ، إلا أن شيئا من هذا القبيل لابد من عمله لأن تغذية الطفل فى هذه السن لا تلقى عناية خاصة فى البيت العربى . وقد درجت الأمهات على إعطائه نفس الأطعمة التى يأكلها البالغون ، وفى هذا ضرر كبير وإلى هذه العادة الخاطئة ترجع النسبة العالية فى وفيات الأطفال .

ولا بد هنا من ذكر العادة المتبعة فى بلاد الشرق عموما إلا وهى إرضاع الطفل لمدة سنتين وهذا لا يتفق مع النظم الحديثة بالبلاد الأجنبية . ولكن لا يجب أن ننظر إلى هذه العادة كنظام واجب الاتباع وخصوصا إذا استطعنا إعطاء الرضيع لبنا آخر ، أما إذا تعذر ذلك فإن فى استمرار الرضاعة لمدة سنتين فائدة للطفل ولا يمكن إنكارها .

وعليه فإنى أقترح :

١ — فى البلاد التى لا تنتج كمية كافية من اللبن يجب العمل على إنتاج تركيب غذائى مكون من أطعمة محلية وتجربته ثم الاستعانة به فى تعزيز أطعمة الأطفال ، وإلى أن تنجح التجربة على الحكومات أن توفر للفئات الفقيرة اللبن الجاف المنزوع القشدة كمورد رخيص للبروتينات الحيوانية بوصفه أصلح معزز للأغذية الناقصة .

٢ — أن تعمل حكومات البلاد التى يتوفر فيها اللبن على أن يصل اللبن الكامل إلى أكبر عدد من الأمهات والأطفال وهذه طريقة مضمونة لإنقاص نسبة الوفيات بينهم .

تغذية العمال :

العناية بأمر البالغين فى البيت العربى لا يجب أن تهمل والعناية بالعمال منهم ضرورية سواء أكانوا يعملون فى الصناعة أو الزراعة. ويجب ضمان حصولهم على غذاء يتناسب مع المجهود الجسمانى الذى يبذلونه لأداء أعمالهم، ويمكن تحقيق ذلك عن طريق المطاعم التى تيسر للعامل الحصول على وجبات ذات قيمة غذائية عالية، وقد قامت بعض بلاد المنطقة بإقامة مثل هذه المطاعم ليستفيد منها العمال .

وعليه فإنى أقترح :

١ — أن تهيىء الحكومات لعمالها فرصة الحصول على وجبات مغذية بأسعار رخيصة وأن تشجع الجهات الصناعية الخاصة على اتباع نفس الخطة .

٢ — اشتراط إقامة مطاعم بالمصانع إذا لزم الأمر من مراعاة التمسك بتنفيذ التشريعات القائمة التى لها صلة بالوجبات العمالية .

٣ — وضع هذه المشروعات تحت رقابة خبراء فى التغذية أو معاهد التغذية نفسها إن وجدت .

٤ — أن يراعى فى هذه المطاعم أن تكون فى المصنع ذاته أو قريبة منه وأن يكون جوها سارا وأن تكون الوجبات وسيلة لتعويد العامل أتباع العوائد الغذائية الصحية وتعليمه أصول التغذية بالوسائل العادية .

٥ — أن تعطى عناية خاصة لعمال الزراعة لشدة حاجتهم إلى مثل هذه الوجبات المعززة لأغذيتهم العادية .

٦ — أن تراعى الحالة الاقتصادية المحلية فى اختيار الوجبات وأن يستفاد بالأطعمة المحلية الرخيصة المغذية .

الاستهلاك الغذائى :

لا يمكن رسم برنامج غذائى موثوق به إلا إذا حددنا الاستهلاك الغذائى للفئات المختلفة وللمناطق المختلفة على مدى الفصول مع دراسة العوائد الغذائية فى الوقت نفسه . ولذا يجب أن يشمل هذا البحث كميات وأنواع الأطعمة المأكولة وطريقة تجهيزها للأكل، ولتنفيذه يحتاج الأمر إلى باحثين ذوى خبرة رجالا ونساء . ولإمكان مقارنة نتائج هذه البحوث بمثيلاتها فى البلاد الأخرى يجب اتباع طرق موحدة لتنفيذ البحث وهذا ميسور إذا استعنا بالهيئات الفنية العالمية عند اللزوم .

وعليه فإنى أوصى :

١ — بأن تعمل الحكومات على تدريب فنيين يقومون بحصر الاستهلاك الغذائى وأن ترصد فى ميزانيتها وظائف

لهم والمال اللازم للصرف على العملية ، وفى حالة تعذر التدريب محليا ترسل بعثات إلى الخارج لدراسة طرق حصر الاستهلاك الغذائى ، مع العلم بأن الهيئات العلمية المهتمة بأمور التغذية لا تسهل فقط تدريب المبعوثين بل وتعطيهم منحا مالية وتعاونهم فى الحصول على المساعدات الفنية .

٢ — أن تلاحظ الحكومات عند اختيارها لطريقة حصر الاستهلاك الغذائى أن تكون أسس الطرق المختارة مشابهة لمثيلاتها فى الخارج لكى تتيسر المقارنة وتبادل الرأى وتستطيع الحكومات الاستعانة بهيئة الأغذية والزراعة لتنظيم العملية لأن خبرتها فى هذا الميدان واسعة ولديها الإمكانيات الكافية .

تقدير حالة التغذية :

يقصد بحالة التغذية هنا حالة الفرد الصحية والتكوينية من حيث علاقتها بتغذيته وتقدير حالة التغذية ليس سهلا إذ لا يوجد إجماع على ما لبعض العلامات والأعراض المرضية من قيمة فى هذا التقدير ، وذلك أن حالة التغذية لاثبات لها وأن تقديرها لا يتم إلا بالمقارنة وفى ضوء المشاهدات والأعراض بعد جمعها وتحديد دلالاتها ، وعليه فإنه من الأهمية بمكان مراعاة الدقة فى تسجيل نتائج الفحوص الطبية العذائية وتعزيزها بصور فوتوغرافية . وأنه لكى تسهل مقارنة النتائج بين بلد وآخر يجب ملاحظة الحصول على بعض معلومات أساسية خلال البحث وقيدها بوضوح مع مراعاة أن يكون البحث شاملا ومفصلا ومعززا بالتحليلات المعملية وبالصور الفوتوغرافية والسينية .

وعليه فإنى أوصى :

١ — بأن تحدد تقارير الفحص الطبى نسبة حدوث الأعراض التى سيستند إليها فى الحكم وأن تسجل النتائج جميعا سواء أكانت سلبية أو إيجابية .

٢ — بأن تحدد التقارير بدقة معانى الإصطلاحات الواردة بها وأن تذكر بها أيضا المراجع التى نقلت عنها المعايير والاصطلاحات التى استعين بها فى الفحص .

٣ — بأن يشمل الفحص الصحى جداول تبين الأطوال والأوزان والمظهر العام والقامة والشعر والعينين والفم والشفتين والأسنان وكذا الجلد ثم تضخم الغدة الدرقية إن وجد كما أنه يستحسن فى بعض المناطق فحص الكبد والطحال وتسجيل عدد المصابين ببعض الأمراض المنتشرة محليا .

الدراسات المعملية المتصلة بتقدير حالة التغذية :

لكى يكون تقديرنا لحالة التغذية موثوقا به يجب أن يستند إلى دراسات معملية تزيد أو تقل تبعا لطبيعة

الفحص ومداه وللأجهزة ولعدد المساعدين وكفاءتهم ومن ، الواجب لفت النظر إلى أن نتائج بعض التحليلات المعملية إما مشكوك فى فائدتها أو أن فائدتها قليلة لدرجة لا تبرر التوصية باستعمالها فى تقدير حالة التغذية .

لذا أوصى :

١ — بأن تقدر المادة الملونة للدم (الهيموجلوبين) بالجرامات فى كل مائة سنتيمتر مكعب فى كل دراسة لحالة التغذية .

٢ — بأن يشمل الفحص استعمال الهيماتوكريت وعدد كرات الدم الحمراء وفحص البراز والبول لأجل الطفيليات وكذا عمل أشعة للصدر .

تحليل الأطعمة :

إن تحليل الأطعمة التى تستهلك محليا ضرورى لوضع برنامج غذائى كامل وهذا إذا تم يزودنا بالمعلومات الضرورية للبحوث المحلية، ولدوام فائدته يجب أن يذكر اسم الطعام العلمى والبيئة والظروف التى أنتجته وصفاته أيضا وصفات العينة التى أخذت للتحليل وطريقة أخذها ثم بيان نسبة ما يؤكل من الطعام إلى « العادم » أى إلى الجزء الذى لا يؤكل .

وعليه فإنى أقترح :

١ — أن تشمل نتائج تحليل الأطعمة بيانات كاملة عن العينات التى حللت .

٢ — أنه فى اختيار أطعمة للتحليل تعطى الأولوية للأطعمة الهامة أو التى يجوز أن تصبح هامة فى المستقبل القريب .

٣ — أنه من الواجب دراسة القيمة الغذائية للأطعمة كما تؤكل ولهذه الدراسة نصيب كبير فى البرامج التحليلة .

٤ — أن تعين القيمة الحيوية لمجموعات البروتينات التى يكثر أكلها محليا وذلك من حيث كفايتها لاحتياجات الإنسان .

التغذية وبرامج الصحة العامة :

يجب أن تكون برامج التغذية فى كل بلد جزءا لا ينفصل عن أى برنامج صحى شامل .

لذا فإنى أقترح أن توصى الحلقة :

١ — بأن تضاف إلى مسئوليات رجال الصحة العامة الأعمال التى ستذكر فيما بعد والتى لها صلة بموضوع التغذية على أن يكونوا عند القيام بها دائمى الاتصال بالهيئات المختصة فى شئون التغذية وأن يتعاونوا معها :

(ا) تقديم البيانات الفنية عن كل علاقة بتغذية الإنسان وتشجيع التطور العملى فى هذا الميدان :

(ب) تقديم النصح للحكومات ومصالحها بخصوص إنتاج وتوزيع الأطعمة الخاصة بالاستهلاك الآدمى .

(د) أن تكون التغذية جزءا من التثقيف الصحى للجمهور كله .

٢ — لكى يستطيع رجال الصحة القيام بالبحوث المذكورة أدناه والتى تلزم لتنفيذ البرامج المشار إليها سابقا يجب تزويدهم بالوسائل اللازمة لذلك إلا إذا استطاعوا تكليف هيئات أو معاهد أخرى القيام بها :

(ا) تحليل الأطعمة المحلية وعمل جداول تشمل هذه التحليلات :

(ب) تقدير الاستهلاك الغذائى ودراسة العوائد الغذائية للفئات المكونة للسكان .

(ج) دراسة المشاكل الغذائية المستعجلة التى لها مساس بالصحة العامة .

٣ — بأن يكون رجال الصحة العامة مسئولين عن توجيه المعاهد المختصة إلى نقط البحث الغذائى البعيدة المدى والتى لها صلة بالصحة العامة :

تعليم الجمهور أصول التغذية :

تثقيف الشعب وتعليمه أصول التغذية أمر ضرورى للنهوض به وهناك طرق كثيرة للقيام بهذا العمل تتناسب مع احتياجات الفئات المختلفة التى يتألف منها الجمهور .

لذا فإنى أقترح :

١ — أنه فى الحملات الثقافية يجب العناية بتثقيف الأطفال وعلى الخصوص تلاميذ المدارس فهؤلاء يجب أن يعتادوا طرق التغذية الصحيحة :

٢ — أن يكون شكل الحملات الثقافية ونظامها مناسبا لحالة واستعداد الفئات المراد تثقيفها من حيث المنطقة وعدد المتعلمين :

٣ — إقامة « نوادى » للأطفال والبالغين وهذا يساعد كثيرا على نشر الثقافة الغذائية ، على أن يتولى شئونها

أشخاص لهم دراية بمسائل التغذية، ويجب أن يكون من أغراض هذه النوادى تشجيع الأعضاء على إنتاج أطعمة مغذية محليا وتربية الحيونات المنزلية وزراعة الخضروات والفاكهة .

تدريب الإخصائيين فى التغذية :

إن التخصص فى التغذية يجب أن يشجع وخصوصا بين المشتغلين بالطب إذ أن هؤلاء هم المسئولون عن صحة الجمهور وسلامته ويمكن تدريب من يريد التخصص منهم فى المعاهد المختصة فى أى بلد من بلاد المنطقة أو فى خارجها وإن هيئة الأغذية والزراعة تقدم مساعدات قيمة لتحقيق هذا الغرض ويمكن الاتصال بها .

وأقترح :

١ — أن تنشأ كراسى أستاذية للتغذية والمواضيع المتصلة بها فى كليات الطب ومعاهد الصحة العامة ، وأن تشجع بحوث التغذية وأن تشمل رسائل الطلبة مواضيع متصلة بالتغذية .

٢ — أن يكون تدريب الإخصائيين فى التغذية مؤهلا لهم للاشتراك فى البرامج العملية التى يقصد بها تحسين تغذية الأسر .

معاهد التغذية :

تنفيذ هذه البرامج والمقترحات التى تشمل البحوث والتدريب والتثقيف أى جميع المناشط اللازمة للنهوض بمستوى التغذية يستدعى إيجاد هيئة فنية وتعدادات اسد خاصة فى كل دولة .

وعليه فإنى أقترح أن توصى الحلقة :

١ — أن الدول التى ليس بها معاهد للتغذية تباشر البحوث العلمية والتعليم، يجب أن تنشىء معهدا تلحقه بإحدى الهيئات التى تمارس البحوث والتعليم العالى .

٢ — أن تنشىء الدول مكاتب تتولى تثقيف الشعب وتنظم عمليات التغذية بالمدارس وسواها تحت إرشاد معهد التغذية .

نظم الرعاية الطبية للأسرة

للدكتور عبد الوهاب البرلسى

(الجمهورية العربية المتحدة)

النظم المختلفة للرعاية الطبية

التأميم — النظم التعاونية الاختيارية — التأمين الصحى الإجبارى :

لم يعد الإنسان فى عصرنا هذا قادرا على الانفراد بشئونه يرعاها دون مشاركة أفراد المجتمع الذى يعيش فيه ، فالارتباط بين الأفراد فى المجتمع الحديث أصبح من القوة والأهمية بحيث لا تعود العزلة بالضرر على الفرد فحسب بل وتؤثر فى رفاهية المجتمع وتقدمه . . . فالمجتمع يتألف من مجموعة من الأسر ، والأسرة من مجموعة أفراد تربطهم علاقات عاطفية قوية ، ومصالح أكيدة مشتركة ، فالأسرة إذن هى وحدة المجتمع ومجموعة الأسر تربطها حاجتها إلى التعاون مع بعضها للرقى والنهوض بالمجتمع الذى تعيش فيه . وكلما قويت الروابط بين الأفراد وبين الأسرات فى المجتمع وتعاونوا فيما بينهم فى كافة شئونهم كلما نهض المجتمع وارتقى . . ولكل فرد فى المجتمع واجبات يساهم بها فى النهوض به وله بالتالى حقوق ، على المجتمع أن يعطيها له كاملة ليطمئن على نفسه وعلى عيشه وعلى مستقبله فى المجتمع الذى يعيش فيه والذى يتطلب منه القيام بواجبه كاملا غير منقوص .

ومن حقوق الفرد على المجتمع أن يوفر له أولى مقومات الحياة وهى الصحة ، وذلك بإيجاد بيئة صحية يعيش فيها ، وتوفير وسائل الرعاية الطبية كلما احتاج إليها ، وضمان معاشه هو ومن يعول إذا عجز مؤقتا أو نهائيا عن كسب قوته . . لم يكن هذا الحق معترفا به للفرد فى كثير من الدول إلى عهد قريب . . وكان على الفرد أن يوفر لنفسه — بموارده الخاصة — وحسب قدرته المادية والثقافية ما يحتاج من رعاية طبية له ولمن يعول . . وكان الفرد فى كثير من الأحيان يعجز عن الاحتفاظ بالصحة الكاملة — وهى كما ذكرنا — أولى مقومات الحياة . . وكان يطالب برغم ذلك بالقيام بواجبه نحو نفسه ونحو أسرته ونحو الوطن .

كان هذا سائدا فى المجتمعات القديمة ، أما فى العصر الحديث فقد اعترف المجتمع بأهمية الفرد فى بنائه وأهمية الاحتفاظ له بصحته وعافيته ليقوم بواجبه كاملا فى بناء المجتمع ، وأصبح ضمان صحة الفرد وتوفير الرعاية الطبية له من الحقوق الأساسية التى تضمنها المجتمعات الحديثة لأفرادها . . وأصبح وجه الخلاف بين هذه المجتمعات هو نوع النظام الذى يحقق توفير الخدمات الطبية فى المجتمع والارتفاع بالمستوى الصحى فيه ، إذ أن هذه النظم مرتبطة ارتباطا

وثيقا بالنظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى الدولة نفسها ، فمن الدول ما تتكفل بتوفير جميع الخدمات الطبية التى يحتاجها الأفراد فتخرج الخدمة الطبية من نطاق السلع التى تقدمها المهنة الطبية ويشتريها الأفراد إذا احتاجوا إليها وكانوا قادرين على مواجهة تكاليفها ، وما هذا النظام إلا « تأميم للخدمات الطبية » كما تؤمم الدولة الصناعات الأساسية والحيوية للبلاد . . ويتطلب نظام التأميم أن تقوم الدولة بتوفير العدد الكافى من الأطباء والحكيمات ومساعديهم وتحسن توزيعهم على مراكز الخدمة الطبية وتوفير العدد الكافى من هذه المراكز وتجهيزها بما يلزمها من معدات الفحص والعلاج، ثم يوزع الأفراد على هذه المراكز بحيث يعرف كل منهم إلى أين يلجأ عند احتياجه للخدمة الطبية . . وعلى المركز الطبى أن يرعاه إلى أن يعود إلى حالته الصحية الأولى . . وإلى جانب ذلك توفر الدولة من وسائل الرعاية الاجتماعية ما يجعل الفرد آمنا على رزقه ورزق عياله طيلة تغيبه عن العمل وبذلك لا تضيف إلى أعبائه الجسمية آلاما نفسية وأعباء اقتصادية نتيجة عجزه عن العمل . . كل ذلك يتطلب نفقات تدبرها الدولة بوسائل عدة ليس هنا مجال لتفصيلها . . فنظام التأميم إذن يقوم على عدم الربط بين قدرة الفرد الاقتصادية وبين حصوله على خدمة طبية هو فى حاجة إليها وكذا ألا يكون المرض أو العجز الناشىء عنه سببا فى عسر اقتصادى يصيب الفرد ومن يعول .

والتأميم فى الطب كالتأميم فى الصناعة أخذت به الدول ذات النظام الاشتراكى إذ أنه — كما ذكرنا — يحقق الفلسفة الاشتراكية المطلقة فى ميدان الرعاية الطبية والصحية . ولو أنه مما يؤخذ على نظام التأميم فى الطب أنه ربما اختلف عن السلع الأخرى التى تباع وتشترى . . فهناك العلاقة الإنسانية بين المريض والطبيب وهناك أيضا حب الفرد لحرية اختياره لطبيب معين يرتاح إليه ويفضى إليه بآلامه ويعهد إليه بذات نفسه وبأفراد أسرته يرعاهم فى حضوره وفى غيابه وغير هذه وتلك من عوامل . . ولكن هل يبرر كل ذلك التغاضى عن حقيقة هامة وهى عجز الغالبية العظمى من الأفراد فى مجتمعنا العربى عن الحصول على الخدمة الطبية — فى أبسط صورها — عند حاجتهم إليها ؟

وقد لجأت بعض المجتمعات الأخرى ، التى لم تطبق مثل هذه النظم الاشتراكية المطلقة ، إلى تأمين صحة الفرد وتوفير ما يحتاج إليه من الخدمات الطبية بتشجيع ومساعدة قيام نظم تعاونية لتوفير هذه الخدمات . . غير أن هذه النظم تركت لرغبة الأفراد إن شاؤوا أقاموها . ويلزم لإنشاء هذه النظم التعاونية أن يجتمع الأفراد فى هيئة نقابة أو جمعية تعاونية ليسهل جمع المال اللازم لتمويل هذه الخدمات . وواجب الحكومة فى هذا المجال هو التشجيع وتسهيل إنشاء هذه الجمعيات التعاونية وبذل العون المالى والأدبى لها . فنجاح هذا النظام إذن مرهون برغبة الأفراد أنفسهم ونمو الوعى الصحى والتعاونى بينهم وكذا بقدرة الحكومات على المساهمة فى تمويل هذه المشروعات ومساعدتها . .

ولذلك كثيرا ما تكون الخدمة الطبية فى ظل هذه النظم التعاونية الاختيارية خدمة ناقصة لا تفى بالغرض ولا تحقق الهدف الأسمى الواجب التحقيق . . وهو توافر الخدمة الطبية بكافة أنواعها عند حاجة الفرد إليها وذلك

لأن التمويل التعاونى يقصر فى كثير من الأحيان عن سد نفقات الخدمة الطبية بأكملها مما قد يضطر القائمين على هذا النظام إلى فرض رسوم إضافية على بعض الخدمات ، وهذه الرسوم ربما كانت عبئا على أفراد المجتمع ذوى الدخل المحدود مما يجعل حصولهم على هذه الخدمات متعذرا . . وثمة عيب آخر ينتقص من قيمة النظم التعاونية الاختيارية إلا وهو قصور الوعى الصحى عند فئة كبيرة من أفراد المجتمع ، وربما كان ذلك سببا فى عدم إقبالهم على الاشتراك فى هذه النظم رغم قدرتهم المادية على ذلك .

ولمثل هذه المجتمعات التى يقل فيها الوعى الصحى والتى لا يحسن الاعتماد على الوعى الذاتى للأفراد ليقبلوا على النظم التعاونية لرعايتهم وجد نظام التأمين الصحى الإجبارى ، وهو نظام وسط بين التأميم وبين النظم التعاونية الاختيارية إذ أن توفير الرعاية الصحية والطبية يكون مكفولا بالقانون أما تمويله فلا يقع كله على كاهل الدولة كما هو الحال فى التأميم بل يشترك فيه الفرد وصاحب العمل والهيئات الأخرى المعنية وربما عاونته الحكومة ببعض المال أو المنشآت علاوة على مساعدتها الأدبية وتشجيعها لهذا النظام .

ويمكن لنظام التأمين الإجبارى أن يكون خطوة سابقة للتأميم أو تجربة من الأفضل أن تسبق تطبيق نظام التأميم الكامل للخدمة الطبية . . فالإعداد للتأمين الإجبارى وتوفير الخدمات الطبية فى ظله شبيهة إلى حد كبير بنظام التأميم ولكنه يقصر عن تقديم هذه الخدمات لكل فرد فى الدولة بل يتحتم أن يكون المنتفعون بنظام التأمين تجمعهم هيئة أو نقابة أو عمل مشترك حتى يسهل جمع ما يسهمون به لتمويل المشروع وحتى تساهم الهيئة التى يتبعها هؤلاء الأفراد فى هذا التمويل .

نظم الرعايه الطبية التى تلائم المجتمع العربى والأسرة العربية :

أشرنا فى مقدمة هذا البحث إلى نظام التأميم حيث تتكفل الدولة بالرعاية الطبية لكافة الأفراد تقدمها لهم عند حاجتهم إليها دون أن يرتبط ذلك بالمستوى الاقتصادى أو الثقافى لهؤلاء الأفراد ، وقارنا هذا النظام بالنظم التعاونية الاختيارية التى تعتمد على الوعى الصحى لأفراد المجتمع مع قدرة مالية محدودة ، ونظم التأمين الإجبارية التى ترعاها الدولة ولكن يحد من تعميمها على نطاق واسع قدرة الأفراد العادية وارتباطهم بمنظمات معينة يسهل معها توفير هذه الخدمات ، وآن لنا أن نتساءل أى من هذه النظم يلائم مجتمعنا العربى بتكوينه الخاص ومميزاته التى تختلف عنها فى البلاد الأخرى التى أخذت بهذا النظام أو ذاك ؟ . . وفى البلاد العربية نفسها تختلف البيئة ونظام المجتمع فى بلد عنه فى بلد آخر ، بل وتوجد مجتمعات مختلفة التكوين فى البلد العربى الواحد . ففى الجمهورية العربية المتحدة مثلا تختلف مقومات المجتمع فى الريف عنه فى المدن وفى بلاد عربية أخرى يؤلف البدو جزءا هاماً من جسم الأمة العربية ، وللبدو عاداتهم وتقاليدهم التى ربما فرضت على المصلح الاجتماعى نظاما بعينه للخدمة الطبية ولا يصلح لغيره من المجتمعات .

وإذا أخذنا المجتمعات العربية المختلفة فى الوقت الحاضر ، نجد أنه من العسير علينا ، تنفيذ النظام التعاونى

فى العلاج فى مجتمع الريف بينما تطبيق هذا النظام متيسر فى مجتمع المدينة ، وذلك للاختلاف فى المستوى الثقافى والاقتصادى فى الحالين مما يسهل معه جمع الناس واشتراكهم تعاونيا لتحقيق الهدف فى الحالة الثانية بينما يصعب ذلك فى الريف حيث يقل الدخل وتقل الثقافة العامة ودرجة الوعى الصحى. ويصعب تبعا لذلك فرض النظم التى تحتاج إلى تنظيم دقيق وتعاون وثيق بين أفراد المجتمع وبينهم وبين القائمين على تنظيم هذه الخدمات .

وربما كان أصلح النظم للتطبيق فى الريف العربى ، وفيما يشبهه من مجتمعات عربية أخرى ، هو نظام التأميم حيث تتكفل الدولة بتقديم كافة الخدمات الصحية والطبية للأفراد عند حاجتهم إليها . . وقد فطنت حكومة الإقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة إلى هذه الصورة فرسمت سياستها الصحية فى الريف مبنية على أساس إنشاء وحدات توزع على الريف المصرى كله . . وتقدم كل وحدة الخدمة الطبية لمجموعة متقاربة من القرى يتراوح سكانها بين ١٠٫٠٠٠ و ١٥٫٠٠٠ نسمة . وإذا كان هذا النظام الذى بدأ تطبيقه منذ أعوام قليلة لم يبلغ الكمال بعد — بل لعله لازال فى طور التجربة — إلا أنه يبشر بنجاح كبير عند إتمام إنشاء الوحدات اللازمة للريف المصرى كله ، وعند إتمام إعدادها وتزويدها بالأطباء والفنيين، وإعداد هؤلاء جميعا إعدادا ملائما لخدمة الريف . . وهذه النقطة الأخيرة من الأهمية بمكان فإن تطبيق هذا النظام فى الريف المصرى على نطاق واسع معناه الانتقال من النظام الفردى فى الخدمة الطبية حيث يقدم الطبيب خدماته لمن يدفع الثمن من بين المحتاجين لهذه الخدمات ، والثمن فى هذه الحال خاضع لقوانين العرض والطلب ، . إلى نظام التأميم . . والنظامان على طرفى نقيض ففى الوحدة المجمعة — وهذا هو اسم الوحدة سالفة الذكر — يقوم الطبيب بعمله نظير أجر تدفعه الدولة وليس له أن يرفض علاج أى فرد يلجأ إلى الوحدة — وليس على الفرد حرج من الالتجاء إليها فهو لن يساوم على الأجر الذى يدفعه نظير ما يقدم إليه من خدمات .

وربما كان هذا النظام صالحا للتطبيق فى المدن أيضاً ، ولكنه ، كما سبق أن ذكرنا ، يحتاج إلى الكثير من المال والوقت والجهد . لذلك فإنه ربما كان من الأفضل تشجيع النظم التعاونية بين المجموعات المتجانسة من الأفراد فى المدن. وقد بدأت هذه النظم تنتشر فعلا فى الإقليم المصرى بين أوساط العمال والموظفين وتشجعها الدولة وتعمل على تنميتها ونشرها وذلك بسن القوانين التى تنص على وجوب الرعاية الطبية للعمال وإنشاء المستشفيات ومنحها للهيئات القائمة على هذه الرعاية وتدعيم صناديق تمويلها ومنحها القروض والهبات لتستطيع تنفيذ برامج الرعاية كاملة . . والدولة بذلك تحقق الكثير من الرعاية الطبية لهؤلاء الأفراد وفى نفس الوقت ترفع الكثير من الأعباء المالية عن كاهلها .

كذلك الحال فى البلاد العربية الأخرى ، فالمجتمعات إما عمالية وما يشابهها ، فيمكن تشجيع النظم التعاونية فيها ، وإما ريفية تشبه الريف المصرى إلى حد بعيد وربما نجح فيها نظام شبيه بنظام الوحدات المجمعة . . إلا أن هناك نوعا ثالثا من المجتمعات يحتاج إلى دراسة خاصة وهو مجتمع البدو الرحل . . فإنه من العسير قيام نظام للتأمين الصحى فى هذه المجتمعات، وليس من السهل إنشاء وحدات ثابتة على غرار الوحدة المجمعة ، وربما كان توفير

وسائل الرعاية الطبية فى وحدات متنقلة أجدى نفعا فى هذه المجتمعات طالما هى على حالها من الحل والترحال وقلة الثقافة وضعف الوعى الصحى .

رأينا إذن أن النظام الاجتماعى السائد فى المجتمعات العربية وكذلك المستويات الاقتصادية والثقافية ، كل ذلك يؤثر فى نظام الخدمة الطبية فى هذه المجتمعات . . على أن الهدف لا يجب أن يتغير مهما اختلفت هذه العوامل بل على الدولة أن تضع برامج الإصلاح لتلائم هذه العوامل كلها بشرط أن تحقق فلسفة الرعاية الصحية، وهى خلق مجتمع صحيح سليم خال من الأوبئة والأمراض ، تتوفر فيه الرعاية الطبية لأفراد المجتمع بحيث يكون شرط حصولهم عليها هو حاجتهم إليها بصرف النظر عن قدرتهم المالية أو مستواهم الثقافى .

التخطيط للرعاية الطبية :

لاخلاف إذن على المبادىء ، ولنبحث الآن فى وسائل التنفيذ وطرق تحقيق فلسفة الرعاية الصحية . وأول مانود الإشارة إليه فى هذا الصدد هو تجنب الارتجال ومعالجة المشاكل الصحية كلما عرضت لنا إحداها . . بل يجب على الدولة الواعية أن تبدأ بتحديد أهداف الرعاية الصحية والطبية للأسرة ثم ترسم السياسة التى تكفل الوصول إلى هذه الأهداف . . وإذا كانت الموارد البشرية والمادية لا تسمح بتنفيذ هذه السياسة دفعة واحدة — وهو كذلك فى معظم البلاد العربية — فواجب الدولة رسم برنامج محدد ينفذ على عدد من السنين ، وليكن خمس أو عشر — بحيث يكفل فى كل مرحلة تنفيذ جزء معين من البرنامج المرسوم وبحيث تتقيد به الهيئات التنفيذية المسئولة عن الخدمات الطبية والصحية . . ففى ظل هذا التخطيط السليم نسلم من أخطاء الارتجال ولا يتعدد نوع معين من الخدمات فى منطقة ما وتنقص أو تنعدم فى منطقة أخرى ربما كانت أحوج من الأولى لهذه الخدمات . . .

ويجب أن يكون البرنامج المرسوم مبنيا على دراسة عملية لما هو كائن فعلا فى المجتمع وبحث ما يجب أن تكون عليه الخدمة الطبية والصحية وما يتطلبه هذا المستوى من إعداد، ثم وضع البرنامج لسد هذه الثغرة بين ما هو قائم فعلا وبين المستوى المنشود وتقسيم مواد هذا البرنامج على دفعات كما ذكرنا آنفا .

ويشمل التخطيط فى الرعاية الطبية والصحية للأسر دراسة المسائل الآتية :

١ — مقومات الرعاية الطبية فى القطاع الشعبى .
٢ — المحافظة على الكيان الصحى للأسرة .
٣ — إعداد الجهاز الفنى للعمل فى ميدان الرعاية الطبية .
٤ — تخير المنشئات اللازمة للخدمات الطبية .
٥ — تخير الأدوية اللازمة للرعاية الطبية .
٦ — دراسة مشاكل البيئة ورسم سياسة لحلها .

١ — مقومات الرعاية الطبية فى القطاع الشعبى :

يجب أن تبدأ برامج التخطيط بتوفير مقومات النظام المقترح للمجتمع فى القطاع الشعبى ، فإذا رأت الهيئة القائمة على التخطيط بعد الدراسة أن النظام الذى يلائم الظروف الاجتماعية لمجتمع بعينه هو نظام التأمين الإجبارى مثلا ، يجب العمل على تعميم نظام النقابات وماشا كلها من تكتلات شعبية بحيث تضم كل مجموعة من الأفراد هيئة تقوم على تنفيذ وتنسيق نظم الخدمة الطبية المقترح .

ويجب أن تشمل برامج التخطيط أيضاً نشر الوعى الصحى بين الأفراد وذلك بوضع برامج للتثقيف الصحى لتنشئة جيل يتفهم معنى الصحة ويسعى إليها ويحافظ عليها ويقدر قيمة المجهودات الموجهة التى تبذلها هيئة التخطيط للارتفاع بالمستوى الصحى لأفراد المجتمع . . وقيمة نشر الوعى الصحى بين الأفراد لا تحتاج إلى كثرة إيضاح إذ لا تكفى الخطط ووضع البرامج لعلاج المشكلات الصحية ، بل يجب أن يصاحب ذلك شعور الأفراد أنفسهم بمشاكلهم الصحية وتوفر الرغبة لديهم بل وتحمسهم لحل تلك المشكلات . . . ومن هنا تتشعب مهمة لجنة التخطيط فهى حتما ستتعرض لدراسة العوامل المؤثرة فى مستوى الوعى الصحى لدى الأفراد وستجد أن هذه العوامل متعددة الجوانب ، فمنها ما هو اقتصادى ومنها ما هو اجتماعى أو ثقافى . . وعليها أن تأخذ هذا كله فى الحسبان عند وضع البرامج لنشر الوعى الصحى كوسيلة لإعداد الفرد للإفادة من نظم الرعاية الطبية التى توضع لخدمته .

٢ — المحافظة على الكيان الصحى للأسرة :

لاشك أن كيان الأسرة — وهى الوحدة الأساسية فى تكوين المجتمع — يؤثر تأثيرا مباشرا فى كيانه ، وبذلك تكون المحافظة على الكيان الصحى للأسرة ، برعاية أفرادها أطفالا وكهولا ، يجب أن يكون ضمن الأهداف الأساسية التى تعمل هيئة التخطيط على بلوغها ، وتشمل برامج المحافظة على الكيان الصحى للأسرة العناصر التالية :

(ا) منع الأمراض المتوارثة التى تصيب النسل فى مراحل نموه المختلفة ، وهذا وحده ضمان لتنشئة جيل سليم . وتبدأ العناية بهذه الناحية الصحية قبل الزواج بفحص الراغبين فيه والتأكد من خلوهم من هذه الأمراض . وربما كان من الأصلح جعل هذه الرعاية واجبة بحكم القانون طالما كان الوعى الصحى للأفراد قاصرا عن إدراك قيمتها وأهميتها ، أما فى المجتمعات التى بلغت مستوى رفيعا من الثقافة والوعى الصحى فتجدر الإشارة إلى خطر هذه الأمراض والدعوة إلى الفحص الشامل قبل الزواج .

ولا نقصد بالأمراض المتوارثة الأمراض التناسلية فحسب ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، إنما تشمل أيضاً الأمراض العقلية التى ربما كان توارثها أخطر وأبعد أثرا من الأمراض التناسلية . وهناك مجموعة أخرى تلعب الوراثة فيها دورا كبيرا ويضيق المجال عن ذكرها ، ومن المستحسن نصح الشباب قبل الزواج وشرح عواقب زواجهم على هذه

الصورة ، ولا شك أن مثل هـذا الإرشاد يؤدى إلى نقص فى حدوث هذه الأمراض والارتفاع بالمستوى الصحى لأفراد المجتمع .

(ب) رعاية الأمومة والطفولة — وتشمل برامج هذه الرعاية العناية بالأم صحيا ونفسيا خلال فترة الحمل وإعداد ظروف صحية لولادتها ورعايتها فى فترة الرضاعة . . وإذا كانت الأم عاملة فعلى الدولة توفير الراحة النفسية لهـا بجانب الرعاية الصحية بمنحها إجازة كافية بمرتب قبل عودتها إلى عملها ثم برعاية رضيعها فى مؤسسات خاصة . . ورعاية الطفولة هدفها تنشئة جيل سليم والحد من أمراض الطفولة والهبوط بنسبة الوفيات بين الأطفال ، التى هى وحدها مقياس للتقدم فى ميدان الرعاية الصحية فى مجتمع من المجتمعات . ونكتفى بهذا القدر من الإشارة إلى أهمية رعاية الأمومة والطفولة إذ أن ذلك سيكون موضوع بحث مستقل فى الحلقة .

(ج) تنظيم الأسرة — ونقصد بهذا التنظيم إرشاد الوالدين إلى تنظيم إنتاجهم من حيث العدد ومن حيث تتابع إنجاب الأولاد ، فقد أثبت الباحثون أن نسبة الوفيات بين الرضع والأطفال تتناسب تناسبا طرديا مع عدد الأطفال فى الأسرة وسرعة إنجابهم ، علاوة على المستوى الاقتصادى للأسرة والمستوى الثقافى للوالدين ، فتزداد وفيات الأطفال وخاصة إذا تسلسلوا الواحد تلو الآخر كل عام . . ولا شك أن هذه العوامل وحدها تؤيد مجهودات الداعين إلى تنظيم الأسرة . . ولا يهدف هؤلاء المصلحون — كما قد يتبادر إلى الذهن — إلى تحديد النسل فى حد ذاته — ولـكن إلى تنظيمه بحيث لا يولد الأطفال تباعا بشكل يصعب معه على الأم العناية بهم ورعايتهم كما ينبغى علاوة على إرهاقها جسميا وإرهاق عائل الأسرة ماديا . . والمعارضة التى تقوم فى وجه مشروعات تنظيم الأسرة تقوم دائما باسم الدين ، وتحريم التدخل فى شئون النسل بالتنظيم أو التحديد . . أما المصلحون ، وقد لمسوا أضرار الإكثار من النسل وتتابعه بسرعة فائقة وخاصة بين الطبقات غير القادرة ماديا على توفير وسائل الرعاية لأطفالها ، لا يعتقد هؤلاء المصلحون أن الدين يحرم إعطاء الأم فرصة للراحة من الحمل المتواصل ، ولم يقولوا بإباحة الإجهاض وقتل الجنين بل تعتمد برامجهم على تثقيف الوالدين وإرشادهم إلى الطرق السهلة البسيطة التى تؤدى إلى التحكم — لدرجة كبيرة — فى موعد الحمل وإنجاب الأطفال . . ولن أتعرض فى هذا البحث للدوافع الاقتصادية والاجتماعية التى تؤيد الداعين إلى تنظيم النسل ولـكنى أكتفى بما أشرت إليه من تأثير النسل المباح على الصحة العامة للأم والطفل على حد سواء .

وثمة سبب آخر يحتج به المعترضون على تنظيم النسل ألا وهو أن الطبقات التى يكثر نسلها ذات ثقافة محدودة فى العادة ، وذلك يحول بينهم وبين الاستجابة للإرشاد فى هذا السبيل ، إلا أن هذا الاعتراض نفسه — وهو كثرة النسل فى هذه الطبقة من المجتمع — هو من الدوافع التى تحمس المصلحين لمضاعفة الجهد بالتثقيف والإرشاد ، وعلى النقيض مما يظن المعترضون فإن كل من عمل مرشدا فى هذا الميدان تبين إقبال الأم على مراكز تنظيم النسل تفاديا لما تعانيه من عنت وإرهاق وعسر اقتصادى نتيجة للنسل المتتابع مع فقرهن وعجزهن عن بذل الحد الأدنى من الرعاية لأولادهن العديدين .

(د) التثقيف الصحى : ولا شك أن برامج الإصلاح الصحى تكون أيسر نجاحا وأكبر نفعاً فى مجتمع يرتفع الوعى الصحى بين أفراده ، فيقدرون ما يبذل لهم من نصح ويتقبلون ما يعطى لهم من إرشاد . . لذلك فإن التثقيف الصحى لأفراد المجتمع أحد العوامل الرئيسية التى يعتمد عليها الإصلاح الصحى فيه ، وقصور الوعى الصحى كثيرا ما يكون جزءا من النقص الملحوظ فى المستوى الثقافى العام لأفراد المجتمع ، لذلك كان نشر التعليم ويتبعه نشر الثقافة الصحية جزءا من برنامج الإصلاح الذى يوضع لرفع المستوى الصحى العام . . وربما كانت استجابة الأفراد للتثقيف الصحى أكثر منها للتعليم العام إذ أن شئون الصحة تمس الفرد فى شخصه وفى حياته اليومية .

وتشمل برامج التثقيف الصحى لأفراد المجتمع تنوير الأذهان فيما يتعلق بالنظافة الشخصية وأهميتها ، ورب الأسرة مثال يحتذى به باقى أفرادها فى هذا المجال ، وتشمل هذه البرامج أيضا توجيه الأفراد إلى الاهتمام بنظافة مسكنهم مهما كان بسيطا وإيضاح فائدة الشمس والهواء المجدد ، إذا ما تخلل غرف المنزل ، فى منع الأمراض التى تنتشر مع الازدحام وسوء التهوية .

ولا شك أنه بارتفاع الوعى الصحى لأفراد الأسرة جميعا تقل الإصابة بالأمراض الوبائية والأمراض المعدية التى تنقلها الحشرات التى لا تتوالد إلا فى بيئة غير صحية وبين أفراد يهملون شئونهم الصحية وخاصة النظافة العامة والنظافة الشخصية .

ومع ارتفاع الوعى الصحى أيضا يقبل الآباء على تحصين أبنائهم ضد الأمراض دون الحاجة إلى إجبارهم على ذلك بحكم القانون كما يحدث فعلا فى بعض المجتمعات الحديثة التى ارتفع فيها الوعى الصحى بينما يهمل الآباء فى المجتمعات التى يقل فيها الوعى الصحى ، بل ويتفننون فى التهرب من تحصين أبنائهم ضد هذه الأمراض رغم ما فى ذلك من ضرر محقق ورغم ما يفرضه القانون من عقوبات .

ووسائل التثقيف الصحى وطرقه كثيرة ومتعددة ولا يتسع المجال إلى تفصيلها فى هذا البحث ، إنما أردت الإشارة هنا إلى أهمية التثقيف الصحى فى المحافظة على الكيان الصحى للأسرة .

٣ — دراسة مشاكل البيئة ورسم سياسة لحلها :

لا تقوم الرعاية الصحية فى المجتمع على أساس بناء المنشئات وإعداد الإخصائيين وتوفير الأدوية فحسب ولكنه ربما كان الأهم من هذا كله العناية بمنع حدوث المرض نفسه أى بالوقاية التى هى دائما خير من العلاج . . وتعتمد برامج الوقاية من الأمراض بطبيعة الحال على المشاكل الصحية التى توجد فى مجتمع بعينه . . ووضع هذه البرامج تسبقه دراسة علمية وعملية لمشاكل البيئة وبحث أسبابها . وغنى عن البيان أن هذه المشاكل تميز كل نوع من المجتمعات فى كل قطر عربى ومعالجتها تعتمد على الدراسة المحلية . . وهنا المجال الواسع للتعاون الجدى بين الدول العربية فى الدراسة والبحث ثم فى تنفيذ برامج الإصلاح بل والاستعانة بالوكالات العالمية المتخصصة وخاصة

هيئة الصحة العالمية التى ينص دستورها على دراسة هذه المشاكل ومساعدة الهيئات المحلية على حلها بل والمساهمة الفعالة — فنيا وماليا — فى هذا السبيل .

ويجب أن تكون هذه الحلول خاضعة لسياسة طويلة المدى ، فالعوامل التى تسبب المشاكل الصحية عديدة منها وجود أوبئة متوطنة فى بعض المجتمعات ، تساعد على استمرارها الظروف والأجواء ، وكذلك المستوى الثقافى لأفراد المجتمع ودرجة استجابتهم للتوجيه والإرشاد ومدى قدرتهم على وقاية أنفسهم من هذه الأمراض .

وهناك أمثلة عديدة على تعاون البلاد العربية وهيئة الصحة العالمية على دراسة المشاكل الصحية فى بعض المجتمعات العربية والعمل على تطهير هذه المجتمعات من أوبئة متوطنة أو وافدة أو أمراض معدية مزمنة . ومن هذه الأمثلة إنشاء مركز التدريب للقضاء على مرض الزهرى .. فقد قام هذا المركز فى الإقليم المصرى بجهد مشكور فى بحث أسباب انتشار هذا المرض وفحص المرضى وعلاجهم وإرشادهم إلى طرق الوقاية منه ، وقام أيضا بتدريب عدد من الفنيين من البلاد العربية ليعملوا فيما بعد فى نفس الميدان وفى ميادين صحية وقائية مشابهة .

ومن هذه المجهودات أيضاً إنشاء مراكز التدريب الفنى لإعداد أفراد مدربين ليستطيعوا بعد عودتهم إلى بيئتهم الأصلية ، اتباع نفس الأساليب العلمية فى البحث والتقصى ، بغية القضاء على ما يصيب مواطنيهم من أمراض تؤثر فى مستواهم الصحى وبالتالى فى قدرتهم على الإنتاج .

ولا يسمح المجال هنا بتفصيل عناصر البحث فى المشاكل الصحية فى البيئة ، إذ أن هذا عمل متخصص يخرج عن نطاق بحثنا الحالى ولكن لا بأس من الإشارة إلى هذه العناصر باختصار :

فمكافحة المشاكل الصحية فى البيئة هدفها حماية السكان كمجموعة من التعرض للأمراض المعدية والأوبئة وذلك بتطعيم الأفراد للوقايه منها وعزل المصابين بها ثم تحسين صحة البيئة بإعادة تخطيط المدن وتعميم المجارى وتوفير مياه الشرب النقية ، وبعض هذه المسائل يحتاج إلى عناية خاصة فى مجتمعات بعينها إذ أن بعض المجتمعات العربية تفتقر إلى الإصلاحات الصحية الأساسية ، فالقرية العربية يجب أن تشمل برامج تحسين البيئة فيها أصلا المساكن وتعميم مراحيض صحية بسيطة وإنشاء الحمامات والمغاسل وإنشاء مستودعات خاصة لحفظ السماد بل وإعادة تخطيط القرية وتنظيم شوارعها وتعبيدها والاهتمام بردم البرك والمستنقعات للقضاء على الحشرات التى تتوالد فيها .

٤ — إعداد الجهاز الفنى للعمل فى ميدان الرعاية الطبية :

ربما كان إعداد الهيئات الفنية ، من حيث العدد اللازم للقيام بالخدمات الطبية المختلفة ومن حيث نوع الإعداد الذى يؤهل هؤلاء الفنيين للقيام بتلك الخدمات ، ربما كان ذلك من أهم الصعاب التى تواجه القائمين على نظام الخدمة الطبية .. وخاصة ، كما ذكرنا ، ونحن فى فترة انتقال بين النظام الفردى فى الخدمة الطبية حيث تعود الأطباء الحرية التامة فى مزاولة مهنتهم وفى علاجهم لمرضاهم ، وبين النظام الموجه الذى يلقى على الطبيب واجبات معينة

ربما لا يعود عليه من أدائها فوائد مادية مماثلة لما كان يحصل عليه تنظيم هذه الخدمات .. من ذلك يتضح أن الدولة فى وضعها الاشتراكى الجديد محتاجة إلى نوع معين من الفنيين — أطباء وحكيمات وغيرهم — يتقبل هذا التطور عن طيب خاطر بل ويساهم مساهمة فعالة بإخلاص فى تنفيذ برامج الرعاية الطبية فى الدولة . . وليس ذلك كله سهلا ولكنه ربما كان ميسورا إذا اهتمت هيئة التخطيط بإعداد هذه الفئات منذ التحاقهم بمعاهد الدراسة وتعديل برامج التعليم والتوجيه المهنى بحيث تؤثر فى الشباب وتزرع فى نفوسهم روح الخدمة العامة والتعاون وتبعد عنهم الأنانية والأثرة ، هذا من حيث النوع . أما العدد فمرهون بما يلزم لإدارة المنشآت الصحية والطبية المختلفة التى ترسم لها سياسة تكون بدورها متمشية مع احتياجات البلاد ومع توفير العدد الكافى من الإخصائيين المؤهلين والمدربين للقيام بهذه الخدمات . .

إذن فالهيئة المسئولة عن وضع تخطيط للرعاية الصحية مسئولة أيضاً عن رسم إعداد الأطباء ومساعديهم . . ورسم سياسة إعداد الأطباء تشمل اختيار العناصر الصالحة لهذه المهنة وتحديد عدد الشبان الواجب توجيهه لدراسة الطب وما يتبع ذلك من إعداد وسائل تعليمهم وتدريبهم بطريقة فعالة تعدهم لهـذا الغرض إذ لا يجب أن يترك كل ذلك دون رسم وتخطيط .

أما عن الهيئات الفنية الأخرى كالحكيمات والممرضات والزائرات الصحيات فربما كان من الأصلح اختيارهن من بين أفراد المجتمع نفسه وإعداد المعاهد لتدريبهن فى نفس البيئة ، فإن ذلك يؤدى إلى استجابة باقى أفراد هذا المجتمع لإرشادهن وسيؤدى هذا إلى زيادة اهتمامهن بعملهن بل وفخرهن إذ يقمن بخدمة مواطنيهم وبالمساهمة الفعالة للنهوض بالمستوى الصحى فى البيئة التى يعشن فيها .

ولا ننسى فى إعداد كل هذه الفئات — من أطباء ومساعديهم — النواحى الخلقية والاجتماعية فى الإعداد — إذ أن هؤلاء جميعا — بحكم عملهم الطبى والصحى — تربطهم بمواطنيهم علاقات إنسانية ربما كانت مختلفة عن علاقة غيرهم من أرباب المهن الأخرى بأفراد المجتمع . . والاهتمام بهذه النواحى يشمل حسن اختيار الأفراد لهذه المهن ثم الاهتمام ببرامج تدريبهم وحسن توجيههم فى صبر وأناة حتى يخرج إلينا أفراد مثاليون يتعاونون فى خدمة مجتمعهم ويتعاونون فى أداء واجبهم وبالتالى يعملون على إنجاح برامج التخطيط المرسومة .

٥ — توفير المنشئات اللازمة للخدمات الطبية :

واجب هيئة التخطيط فى هذا المجال هو تحديد المنشئات اللازمة لتنفيذ برامج الرعاية الصحية من حيث عدد هذه المنشئات وأنواعها وكذا توزيعها فى أنحاء القطر حسب حاجة كل منطقة ثم تحديد مدة معقولة لتوفير هـذه المنشئات ، ويعتمد هذا التحديد على الموارد المالية ويسير جنبا إلى جنب مع برامج إعداد الفنيين اللازمين لتشغيلها ويراعى أيضا أن تعطى الأولوية فى الإنشاء والتوزيع للمناطق الأكثر حاجة إلى هذه المنشئات .

ويسبق هذا التحديد بطبيعة الحال، دراسة المنشئات الموجودة حاليا ومدى كفايتها لتقديم الخدمات فى بيئة بعينها ، حتى يمكن استكمال النقص والبدء بإنشاء ما يلزم منها فى المناطق التى تفتقر إلى هذه المنشئات .

وتحديد نوع المنشئات الصحية اللازمة لمجتمع معين يختلف من قطر إلى قطر ، فهناك المنشئات العامة التى تلزم لجميع أشكال المجتمعات وهى المستشفيات بأنواعها ومراكز رعاية الطفولة والأمومة ، وهناك من المنشئات ما يوضع خصيصاً ليلائم بيئة بعينها، ولا أجد مثالا فى هذا المجال أنسب من الوحدات المجمعة التى رسمت خصيصا لتلائم الريف المصرى . . ومشروع الوحدة المجمعة ليس مشروعا صحيا فحسب بل هو يمثل انقلابا هاما فى نظام الرعاية الشاملة لأفراد المجتمع .. الرعاية الاجتماعية والتعليمية والصحية .

وإذا درسنا التخطيط الذى وضع لهذا المشروع من حيث أهداف الوحدات المجمعة وتوزيعها على الريف المصرى ومراحل إنشائها ، وتنظيم الخدمات فيها ، ثم — وهذا هو الواجب الأهم وربما كان الأسبق — إعداد القائمين على الخدمة بها، لوجدنا أنه عند إتمام برنامج إنشاء هذه الوحدات وإدارتها طبقا لما وضع لها من سياسة تكون الحكومة قد قامت بواجبها نحو الرعاية الصحية والاجتماعية لأفراد المجتمع الريفى ، وهم الغالبية العظمى من المواطنين ، وذلك لأن المبادىء التى قام عليها مشروع الوحدات المجمعة وربط الخدمة الصحية بغيرها من نواحى الخدمة العامة اللازمة للريف المصرى وتوزيع الوحدات بحيث تخدم كل وحدة منها مجموعة متقاربة من القرى ومراعاة البساطة وقلة التكاليف فى بناء الوحدة ، كل ذلك يهيىء لهذا المشروع عوامل النجاح التى كانت تنقص ما سبقه من مشروعات الإصلاح فى الريف المصرى .

٦ — توفير الأدوية اللازمة للخدمات الطبية :

وهذه ناحية أخرى يجب أن يتناولها التخطيط الصحى للدولة . . فتوفير الدواء ركن هام من أركان الرعاية الصحية، ولا يكفى أن يكون الدواء متوافراً فى الأسواق ولكن الواجب أن يكون فى متناول الفرد العادى من حيث اعتدال سعره وخاصة إذا لم يؤخذ بنظام التأميم حيث تتكفل الدولة بثمن الدواء . . والمشكلة الدوائية تظهر بوضوح فى البلاد العربية لعدم وجود صناعة دوائية تكفى هذه المنطقة بحيث يمكنها الاعتماد على نفسها إلى حد معقول، ولا ينتظر أن تصل إلى مرحلة الاكتفاء الذاتى فى الدواء فى وقت قريب، ولكن ذلك لا يمنع أن تبدأ البلاد العربية فى الاهتمام بمشكلة الدواء حتى لا تتعرض هذه البلاد لمجاعة دوائية كلما تراءى للبلاد المنتجة حبس الدواء عن العرب كوسيلة من وسائل الضغط الاقتصادى ، وخاصة وأن هناك أنواعاً من الأدوية أصبحت أساسية فى العلاج الطبى ويجب توافرها باستمرار لضمان رعاية طبية وصحية ناجحة . . وليست مشكلة الدواء من المشاكل التى يمكن الإلمام بكل عناصرها ودراسة وسائل التغلب عليها فى بحثنا الحالى ولكن الغرض من إثارة هذه المشكلة إبراز أهميتها وتأثيرها على مستوى الخدمة الطبية نفسها وضرورة أخذها فى الاعتبار عند بحث التخطيط

الصحى للدولة . . فربما تراءى لهيئة التخطيط أن من المستطاع البدء فورا فى إنتاج بعض الأدوية الأساسية محليا لضمان استمرار التصنيع وغير هذه وتلك من خطط مما لا يتسع المجال هنا لتفصيله .

الأجهزة الحكومية والهيئات الأهلية :

أخيرا ، من الذى يقوم بتنفيذ هذه البرامج ؟ لقد قامت الدولة بالتخطيط . . قامت أولا بتحديد الأهداف ، ثم بالدراسة العلمية والواقعية . . ورسمت برامج الإصلاح والإنشاء ، وحددت الوقت اللازم لإتمام هذا كله ثم عهدت بالتنفيذ إلى الجهات والاجهزة المختصة . . إلا أن الجهد والكفاءة اللازمين لتنفيذ مثل هذه البرامج أشق وأكبر مما بذل فى تخطيطها ودقة التنفيذ تعتمد عليها النتيجة النهائية لبرامج التخطيط ، ويجب إذن أن تكون الأجهزة المسئولة عن التنفيذ على درجة كبيرة من الكفاءة . وربما كان من الأصلح أن تقوم هيئة التخطيط باختيار هذه الأجهزة ، إذ أن هذه الهيئة أقدر على تحديد الصفات والكفاءات التى تطمئن إليها فى تنفيذ برامجها . وهنا تبرز نقطة هامة : هل تكون هذه الأجهزة كلها حكومية ؟ أم يكون بعضها حكوميا وبعضها أهليا ؟ . . ولعل هذا الاختيار يعتمد أولا على النظام الاجتماعى فى الدولة . ويمكن القول أنه فى البلاد العربية على العموم — ومثلها فى ذلك البلاد الأخرى التى تمر بمرحلة تطور اجتماعى يبرز بجهود الجماعات التى تشارك الحكومة فى القيام بالخدمات العامة — إذ يشعر أفرادها أن الحكومة لا تستطيع وحدها أن تقدم كل ما يحتاجه أفراد المجتمع من خدمات صحية واجتماعية نظرا لكثرتها وأهميتها جميعا . . فألفوا الجماعات ، كل جماعة تقوم فى منطقة يشعر أفرادها بحاجتها إلى نوع معين من الخدمات وتنتشر هذه الهيئات ، المعروفة بالهيئات الأهلية فى المجتمعات التى لم تحظ بقسط وافر من الرعاية الاجتماعية أو الصحية بسبب أو لآخر ، ثم يقل نشاط هذه الجماعات تدريجيا كلما تنبهت الدولة لواجبها فى هذه الميادين ، وعنيت بحقوق الأفراد فى الحصول على هذه الخدمات وأخذت على عاتقها توفيرها لهم .

والسؤال الآن : هل يثمر التعاون بين الحكومات وبين الهيئات الأهلية فى هذه المرحلة من مراحل التطور أم أنه من الأفضل قيام الحكومات بهذه المهام مستعينة بكل الكفاءات ؟ والإجابة على هذا السؤال ليست من السهولة بمكان . وربما كان الاهتمام برعاية الهيئات الأهلية الجادة فى عملها وتدعيمها وحماية جهودها وتشجيعها وضمان تمويلها ، يساعدها على المساهمة الفعالة فى الرعاية الاجتماعية لأفراد المجتمع ويكون مجهودا مكملا لعمل الأجهزة الحكومية . . . ويعود هذا التعاون المثمر بين الأجهزة الحكومية والهيئات الأهلية بالخير على المجتمع كله .

الصحة النفسية

وأثرها فى البيت العربى

للدكتور عبد العزيز القوصى

(الجمهورية العربية المتحدة)

قال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » والسكينة هى الطمأنينة . والطمأنينة هى هدف الأهداف فى حياة الجماعة والأفراد على اختلاف أعمارهم وعقولهم وألوانهم وأجناسهم وتشكيلاتهم .

ويؤكد علم النفس الحديث أن تحقيق حاجة النفس إلى الأمن والطمأنينة هو الركن الأول لتحقيق اتزان النفس وصحتها وسعادتها ورضائها عمن حولها ورضاء من حولها عنها وقد جاء هذا المعنى غاية فى الدقة فى قوله تعالى : « يا أيها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

ويؤكد علم النفس الحديث كذلك أن هناك ميادين أربعة يلزم أن تتحقق فى كل منها طمأنينة الفرد حتى تستمتع النفس بأمنها كاملا .

وأول هذه الميادين حياة الفرد مع نفسه .

وثانيها حياته مع أسرته .

وثالثها حياته فى عمله .

ورابعها حياته فى المجتمع .

وقد ثبت فى الدراسات فوق ما تقدم أن ما يمر على المرء فى حياته مع أسرته عند ميلاده ونشأته ، يحدد إلى مدى بعيد ألوان حياته بعد ذلك مع عمله ، ومع نفسه ، ومع المجتمع ، بل أنها تحدد حياته مع أسرته التى يكونها عند اكتمال نضجه .

فالأسرة التى تستمتع بمقومات الصحة النفسية ينشأ فيها أفراد أصحاء يكونون بعد ذلك مجتمعات سليمة وأسراً سليمة فكأن سر السعادة وسر ازدهار الأفراد والمجتمعات هو الأمن فى الأسرة ، ولعل هذا هو ما يفهم مما قاله رسول الله من « أن الجنة تحت أقدام الأمهات » .

وليس هذا عجيبا فقد درس علماء الأنثروبولوجيا تطور التنظيمات الاجتماعية ومؤسساتها ونظمها وقوانينها . فوجدوا أنها كلها قد نبعت من الأسرة ، فقد كانت الأسرة فى وقت من الأوقات لها شمولها : إذ كانت تقوم بكل الوظائف التى يقوم بها المجتمع فى الوقت الحاضر خارج الأسرة ، فقد نبعت من خلالها مفاهيم الدين ومعابده ، والتعليم ومدارسه ، واللعب وساحاته ، والسياسة وأساليبها ، والاقتصاد ووسائله ، والمعاملات وقوانينها ، والحكم وما يقتضيه من موازين العدل ، وغير ذلك مما تطور الأسرة وتطور المجتمع فأصبح له كيانه الاجتماعى القائم بذاته

فكأن كيان المجتمع من كيان الأسرة ولهذا كان لصحة الأسرة وتماسكها ومتانة كيانها أهمية كبرى فى صحة المجتمع وسلامة أركانه .

ونعلم جميعا أن الأسرات يختلف بعضها عن بعض اختلافات واسعة النطاق ، فهناك أسرة تتكون من زوج وزوجة وأم للزوجة أو أم للزوج وليس لهما أولاد . وهناك زوجان لهما أولادهما وقد يعيش معهم الجد أو الجدة أو أحد الأقارب . وهناك تشكيلات أسرية لاحصر لها :

زوج وزوجته — وأولاد ذكور وأناث

زوج مرهق وزوجة مدللة — ولا أولاد

زوج عاطل وزوجة عاملة — وأولاد كثيرون

وزوج مسن وزوجة شابة — وولد واحد

أب وامرأة أب — وأولاد بغير أم

رجل له أولاد كبار من زوجة سابقة وصغار من زوجة صغيرة حديثة العهد بالبيت

زوجة وأولادها الكبار من زوج آخر غير الزوج الحالى الذى لم تنجب منه

رجل عربى وزوجة أجنبية وأولاد ذكور وإناث أو من النوعين

زوج فقير صغير السن وزوجة غنية كبيرة السن

زوج صغير وزوجة صغيرة وزوجة أخرى مسنة غنية للمعاونة المادية

ويمكننا إذا أخذنا فى الاعتبار أن هناك أجدادا وجدات ، وأعماما وعمات ، وأخوالا وخالات ، وأبناء وبنات ، وأمهات وآباء ، وغير ذلك ، أن نرسم من تشكيلات الأسرة ما لا حصر له من الصور .

ويمكننا أن نقول أن كل أسرة فريدة فى صورتها فكما أنه لا يوجد فرد يشبه فردا آخر بحال من الأحوال فإنه لا توجد أسرة تشبه الأخرى تمام الشبه من جميع الوجوه .

وبالإضافة إلى ما تقدم يوجد جانب آخر غير جانب التشكيلات الهندسية العددية التى أشرنا إليها ، فهناك فى كل أسرة قوة موجهة أو مركز للثقل ونجد فى بعض الأسر أن مراكز التوجيه موزعة على جميع الأجزاء ففى بعض الأسر نجد السيطرة والتحكم للأب وفى بعضها الآخر نجد السيطرة للأم وأحيانا نجد المتحكم فى الأسرة

هو الجد أو الجدة . ويتحكم فى توجيه حياة الأسرة كلها أحيانا طفل مريض ، أو بنت مدللة ، أو أطفال الأسرة أجمعين ، أو أحفادها . . إلى غير ذلك .

كذلك نجد أن البيت به إلى جانب ما بيناه من تشكيلات وما ذكرناه من مراكز للقوة أن هناك علاقات بين الأفراد . هذه العلاقات تشبه ما نعرفه فى علوم الكهرباء المغناطيسية بخطوط القوى .

فهناك الأسر المفككة وهناك الأسر المترابطة . وللتفكك درجاته وللترابط درجاته ، كما أن للتفكك مدته ، فهناك تفكك عرضى ، وتفكك دائم ، وتفكك دورى ، وهكذا من الصور التى توضح الوصف الديناميكى لجو البيت ، والتى يلزم دراستها ودراسة عواملها لفهم تماسك الأسرة إن كان حقيقيا أو مقنعا ضعيفا أو قويا .

وهناك فوق ما تقدم كله لون عام وألوان خاصة فى الأسرة ، فهناك أسرة يسودها الصخب وأسرة يسودها الهدوء وأسرة يسودها العطف وأسرة يسودها شىء من الفوضى وأخرى يسودها التنظيم والنظام . وأسرة يسيطر عليها التقنين والتدقيق والتزمت .

وقد نجد أمثال هذه الألوان ينتشر بصورة غير متجانسة فى الأركان المختلفة للأسرة ولهذا نجد تشكيلة الأسرة نفسها تنقسم بدورها فى الغالب إلى تشكيلات أصغر .

ومع ما قدمناه من عرض عن تشكيلات الأسرة من الوجهة الهندسية والعددية ، وما أوضحناه عنها من وجود مراكز للقوة ومواطن للضعف ، وما أبناه من وجود علاقات تختلف شدة ووهنا ، وما أبرزناه من ألوان مختلفة متجانسة أو غير متجانسة ، أبين أمرا خامسا على جانب من الأهمية . وهو أن هذه التشكيلات بمراكزها ، وما بين أجزائها من علاقات ، وما يسودها من ألوان ، لا تكون ثابتة ، فهى تتغير من وقت إلى آخر تغيرات سريعة أحيانا بطيئة فى أحيان أخرى . وهذه التغيرات تتناول كل ما تقدم من تشكيلات ومراكز وخطوط وقوى وألوان .

فنعلم أن الأسرة قد تبدأ بزوج وزوجة وأحد الوالدين أو كلاهما للزوجة أو الزوج أو كليهما وغير ذلك . ثم يولد أناس ويموت أناس وتتغير حال الأسرة الاقتصادية وكل هذه التغيرات يسبقها أو يصحبها أو يتلوها تغيرات فى العلاقات والمراكز والألوان التى أشرنا إليها . ومن المظاهر المعروفة مثلا أن الاستعداد للتكيف والتوافق يكون قليلا فى السنوات الأولى كبيرا فى السنوات التالية . ونجد لهذا أن أشد الخلافات وأعنفها فى جو الأسرة يكون عادة فى السنوات الأولى لتكوين الأسرة . .

ولهذا كان أغلب حالات الطلاق مركزا فى مطالع الحياة الزوجية .

والأمر السادس الذى لاشك فيه هو أن كل ما أوضحناه من تشكيلات هندسية وعددية ، ومن وجود مراكز

للقوة والضعف ، ومن ألوان وظلال فى علاقات الأسرة وأجوائها يتأثر إلى حد بعيد جدا بما تعرض له كل من الزوجين أثناء طفولة كل منهما فى نطاق أسرته .

فلنأخذ الآن الحياة الزوجية عند أول تكوينها حيث نجد أن هناك شابة وشابا ولكل منهما عاداته وميوله وعواطفه وتشكلاته ومواضع الإيمان والثقة عنده وحسناته وسيئاته وعقده النفسية ومستويات تفكيره فى مختلف الميادين . هذه النتائج يرجع بعضها إلى عوامل وراثية ، وبعضها إلى عوامل بيئية ، والمرجع الأول للجميع كامن كما قلنا فى الجو الذى ينشأ فيه الفرد داخل الأسرة . ويلاحظ أن العوامل التى تؤثر فى أحد الفردين تختلف فى عددها وتشكيلاتها واختلاف قوتها عند الفرد الآخر . لهذا كان من الضرورى أن يختلف الزوج عن الزوجة فى شخصية كل منهما بدرجات متفاوتة . ويلاحظ أننا نأتى بالزوجين على ما بينهما من خلاف فى التكوين ونضطرهما للبقاء أحدهما مع الآخر فى أدق المواقف وأكبرها عمقا وأكثرها شمولا .

هذه الصفات التى يتصف بها كل منهما قد تجعل أحدهما ميالا إلى النظام والآخر ميالا إلى الفوضى ، وقد يكون أحدهما ميالا للنظام فى موقف دون الموقف الآخر ، مما يجعل أحد الفردين يتأثر فى سير حياته بصفات الشخص الآخر ، فإذا كانت الزوجة ميالة إلى النظام فى تناول الطعام مثلا والزوج ميالا إلى شىء من عدم النظام ، وكان من الضرورى أن يتناول كلاهما طعامه مع الآخر حدث شىء من عدم الرضى من جانب أحد الشخصين بما يفرضه الشخص الآخر عليه ، فميل الزوجة إلى النظام قد يشعر به الزوج على أنه تقييد للحرية مما يجعله يضيق بما تفرضه عليه زوجته من نظام . كذلك ميل الزوج إلى الفوضى قد يحرم الزوجة من فرض سلطانها على زوجها عن طريق التدقيق والتنظيم والتقنين .

وهذا الذى نقوله عن النظام والفوضى نقوله عن التبذير والاقتصاد ونقوله عن الميل للعزلة والميل للاجتماع ونقوله عن حب فعل الخير والتضحية وعن الصدوف عنهما . وينطبق كذلك على ميل أحدهما لحب القراءة وصدوف الآخر عنها أو ميل أحدهما لحب النزهة وعزوف الآخر عنها . ولا تخرج هذه عن كونها أمثلة لصفات تكون أحيانا عامة وأحيانا تختص بموقف معين ، فنجد الزوجة أحيانا تميل للتبذير بينما الزوج يميل للاقتصاد ، مما ينشأ عنه بعض الخلافات التى يبرر كل منهما موقفه منها . فالزوج قد يبرر موقفه بأنه الحرص وبعد النظر ، والزوجة قد تبرر موقفها بأنها مقتضيات الحد الأدنى للحياة المعقولة ، ومن الجائز أن تكون الزوجة مسرفة فيما يختص بملابسها ، مقترة فيما يختص بما يصرف على البيت . والزوج قد يكون مقترا فيما يصرف على البيت ، مسرفا فيما يصرف على ملذاته الخاصة . ويوجد من تشكيلات السلوك ومن ألوان الصفات ما لا يسهل حصره مما يقتضى من كل الزوجين أن يكيف نفسه للآخر حتى تسير الحياة الزوجية فى الطريق الذى يضمن لها أداء رسالتها .

ونحن نطلب من شخصين يحملان مجموعتين مختلفتين من الصفات الثقافية والعاطفية وصفات الميول والاتجاهات

الشديدة الرسوخ فى النفس أن يتم بينهما التوافق والتفاهم والانسجام فى تشكيلات المواقف المختلفة داخل البيت وخارجه . وتشكيلات المواقف داخل البيت منها تناول الطعام والمطالعة والاستماع للراديو وتربية الأطفال والمحادثة والمناقشة وتبادل العواطف وتبادل الخدمات وغير ذلك . هذه العلاقات لا مفر من أغلبها فى الحياة الزوجية وبعضها لا مفر منه على الإطلاق . وما دام الأمر كذلك فلا بد من التكيف فى خلالها . وهنا قد يحدث الصراع على أشده داخل الشخص فى مجال الأسرة . من هذا مثلا أن شخصا يميل إلى أن يكون موضع الإعجاب، ذلك لأنه نشأ فى أسرة كان هو فيها موضع الإعجاب لأنه كان الوحيد أو الأكبر أو الأصغر أو الأجمل شكلا أو الأذكى عقلا . أما فى مواقف الأسرة التى كونها بنفسه فربما كان عليه أن يتنحى عن هذا المركز لشخص آخر . فى هذه الحالة هو يريد أن يكون موضع الإعجاب ، ويعجز عجزا تاما عن تحقيق ذلك فى موقف كان يمكنه فيه أن يكون سيدا عليه . فيقع مع نفسه فى صراع ، ويضيق بنفسه ، ويضيق بالمواقف التى تؤدى به إلى ذلك . ويشتد الضيق أحيانا ويخف فى أحيان أخرى مما يكون له ألوان من النتائج والآثار .

معنى هذا كله أن الشخص ينشأ فى أسرته ويكتسب صفات قوية راسخة تتحكم فيه عند ممارسته حياته الزوجية عند ما يكبر .

ومن أمثلة ذلك الفتاة التى تنشأ فى بيت كان أبوها فيه موضع النقد والسخرية والاتهام من زوجته سواء أكان هذا مبنيا على أسباب حقيقية أو تصويرية . فتنشأ الفتاة عادة مشبعة بكراهية الوالد ، ولو أنها فى الغالب كراهية لا شعورية مكبوتة بما تقتضيه التقاليد من ضرورة احترام الوالد وتقديسه . معنى ذلك أن الفتاة تنشأ على احترام والدها ، لأن المجتمع يطلب إليها ذلك . فالمجتمع لا يحترم من لا يحترم والده . وهى فوق ذلك تنشأ كارهة لوالدها ، لسوء معاملته لأمها ولأهل البيت . ليس معنى هذا أن سوء المعاملة حقيقى ، ولكن الجو قد يكون هو الذى يشعر بأن هناك سوء معاملة . تنمو الفتاة محبة لوالدها فى الظاهر كارهة له فى الباطن ثم تتزوج . وقد ترى فى زوجها صورة تشبه صورة والدها، وقد تعامله (رغم إرادتها) معاملة تنتقم فيها من شخصه لوالدتها فتعيش حياتها الزوجية مدفوعة بعوامل خارجة عن إرادتها لتعذيب زوجها . وقد تعذبه بالنقد أو الإهمال أو الإسراف فى صرف النقود أو سوء المعاملة أو جفاف العاطفة أو غير ذلك . يتبين من هذا كيف أن الشخص يتأثر بعوامل أسرته التى تنشأ فيها بصورة تؤثر إلى حد بعيد فى الأسرة التى يكونها . وقد تتسامى الزوجة المشار إليها فى سلوكها إلى الحد الذى يجعلها مناصرة للمرأة أو زعيمة للحركة النسائية مدافعة عن حقوقها متذمرة مما يتمتع به الرجل من امتيازات حقيقية كانت أو تخيلية . وهذا يصور بعض الأثر للحياة الأسرية الأولى .

نجد أحيانا ولدا وحيدا ، أو نجد الولد الأكبر ، ونجد أن الأم وقد اتصفت لأمر ما بتعطش انفعالى ، فوجدت فى ابنها مرسى لانفعالاتها ، فتغدق عليه منها الشىء الكثير ، وتشتق من هذا الإغداق لذة شخصية كبرى . ينشأ الولد ضحية لهذا الإغداق الانفعالى ، وتجد الأم نفسها غير قادرة على أن تفطم نفسها من الاعتماد عليه فى إشباع

انفعالاتها ، ويسير الولد فى حياته ، فيبعد نفسه إما كارها فى قرارة نفسه لعلاقته بأمه ، أو محبا لأمه لدرجة لا يسهل عليه معها تخليص نفسه من هذا الحب . هذه الكراهية أو تلك المحبة تؤثر فى حياته مع زوجته إذا تزوج وقلنا (إذا تزوج) لأنه يحتمل أن ينصرف كلية عن الزواج ، كراهية فيه أوخوفا منه ، أو لعدم قدرته على التعلق بامرأة أخرى غير والدته . وذلك دون أن يتمكن من أن يفصح لنفسه عن كل هذا . أما إذا تزوج ، فيجوز أن يطلب من زوجته أن تعمل كيت وكيت كما كانت تعمل أمه أو يذكر أنه كان يتمنى لو أن زوجته كانت تشبه فى خلقها وخلقتها صورة أمه أو أخته . . . وهكذا مما تضيق به الزوجة فى الغالب ، ومما يكون عادة سببا فى انهيار كثير من البيوت الناشئة . ويحدث أن يبلغ به تدليله لنفسه أن يشتاق ليجعل من زوجته أما له ، ويضيق بذريته ، فلا يريد أن يستمتع بحب زوجته أو عطفها أحد أبنائه ، فنجده لا يريد أن ينجب أولادا ، وإن أنجبهم فقد يكون كثير النقد لهم ، شديد القسوة عليهم ، متمنيا فى أعمق أعماقه النفسية لو زالوا من الطريق حتى يخلو له الجـــو .

هذه بعض التشكيلات التى يرجع رسمها فى الغالب إلى تشكيلات أخرى كانت موجودة فى حياة الزوج أو الزوجة عند طفولتهما .

وهذا الذى قلناه عن الأنانية والتدليل والاتكال وكراهية الطرف الآخر أو محبته ينطبق على أغلب الجوانب الهامة وينطبق كذلك على ما يسمونه الجاذبية الجنسية .

لهذا كله كان من الضرورى قبل الإقدام على الحياة الزوجية أن يقوم كل من الطرفين بدراسة الشخص الآخر دراسة دقيقة . فمن الخير إذا اختار الزوج زوجته أو الزوجة زوجها أن يتأكد الفرد قدر الإمكان من خلو الطرف الآخر من الصفات الوراثية الضعيفة ، فإذا كان فى الأسرة حالات من ضعف العقل ، أو شيوع الاضطراب العصبى أو احتمال وجود الأمراض الوراثية والولادية ، فإنه من المستحسن عدم الإقدام على الزواج فى هذه الحالات حتى لا يتعرض الفرد لإنتاج ذرية يحتمل فيها وجود بعض هذه الصفات التى تصبح فى الغالب عبئا ثقيلا على حياة الأسرة . وبذلك يجنى على نفسه ، وعلى زوجته ، وعلى أولاده ، وقد يجنى على المجتمع كله . وكثيرا ما رأينا أسرا أصاب أفرادها المرض البدنى أو المرض النفسى أو كلاهما وتعرضت للانهيار التام بسبب وجـــود طفل يتصف بضعف فى البنية أو ضعف فى العقل نتيجة لعوامل وراثية أو ولادية .

ويجب التأكد كذلك من أن الشخص يتصف بصفات خلقية وبدنية مقبولة لدى الشخص الآخر ولدى المجتمع . نعلم أنه من الصعب التأكد من كل هذا خصوصا وأن مراحل الاختيار والمراحل الأولى للاختيار بالذات وفجر الحياة الزوجية ، كل هذه يشوبها عادة كثير من التمويه مما يجعل الصفات الحقيقية غير واضحة ، على أن الصفات الهامة تكون أوضح ما يمكن فى مواقف لا توجد إلا فى الحياة الزوجية نفسها بل ولا توجد فى الحياة الزوجية إلا فى أدق مواقفها .

ولذلك كان من الواجب أن يتعمق الشخص فى دراسته لشريك حياته لا كشخص له مجموعة من الصفات الطيبة فحسب ، ولكن كشخص نشأ فى أسرة لها الصفات التى تضمن الصحة العقلية والاتزان لمن ينشأون فيها . وقد سألنى أحد الناس مرة عما يجب أن يتوافر فى شريكته فى الحياة من صفات قبل أن يفكر جديا فى الإقدام على الاختيار فقلت له إن ذكاءها وذكاء أقربائها ، وتعلمها وتعلم أقربائها ، واتزانها واتزان أقربائها ، وحسن خلقها وحسن خلق أقربائها ، شروط أساسية . ولكن من أهم الشروط أن تكون الفتاة قد نشأت فى بيت تقدم فيه الأم حقوق زوجها وأولادها على حقوقها ، ويقدم فيه الأب حقوق زوجته وحقوق أولاده على حقوقه . قلت له إذا أمكنك التأكد من هذا ووجدت أن الأسرة لها تماسكها ووحدتها وطمأنينة الأفراد فيها مع وجود الصفات الظاهرة الأخرى من ذكاء وتعلم وصحة وجمال وخلق فلا يجوز التردد فى الاختيار .

نلاحظ أن الحياة فى البلاد العربية بنوع خاص قد لا تسمح كثيراً بدراسة جدية عميقة من كل فرد للفرد الذى يريد الزواج منه . فالأسرة العربية تميل إلى التستر ، وتميل إلى تغطية عيوبها ، وتخشى التعرض للقيل والقال ، فتبالغ فى الظهور بمظهر غير المظهر الحقيق ، مما يجعل الصور مموهة ومما يرهق الناس ليظهروا على غير حقيقتهم . لهذا يتجه بعض الناس إلى الزواج من أقربائهم حتى لا يتعرضوا لنتائج الخداع والتمويه أو يلجأون إلى طريقة الخاطبات والوساطات مما يعطى أفكارا تختلف عن الحقيقة اختلافا كبيراً إذ يقبلون أو يرفضون عن طريق مجرد التصور بالاستماع عن الشخص .

هذه كلها تخلق مقاومة فى سبيل الإقدام على الحياة الزوجية ، وتحدث فى الحياة الزوجية — إذا تمت — أسبابا للتصدع أو الانهيار ، ونجد بسببها تدخل الآباء فى حياة الأبناء ، فالأب يريد أن يزوج ابنه لابنة عمه مبرراً مسلكه باحترام التقاليد الأسرية ، أو المحافظة على اسمها ، أو الاشتراك فى ثروة أو عقار ، ويصل الإصرار أحياناً إلى إتمام عقود الزواج ، وإلى وقوع مشاكل إما إنها تستمر مع استمرار الحياة الأسرية ، أو تؤدى إلى انهيار وتفكك وطلاق .

فالإقدام على الحياة الزوجية يحتاج إلى أمور أولها التلقائية الشخصية أى أن الشخص يكون مقبلا على الشخص الآخر من تلقاء نفسه دون دفع أو إرغام . والفرق بين الزواج المبنى على حرية الاختيار والزواج المبنى على الإرغام أقل ما فيه أن الزوج الذى اختار بحريته يمكنه أن يروض نفسه على تحمل نتيجة تصرفه ، أما الآخر فإنه يميل إلى أن يلقى التبعة على غيره . ولهذا نجد استعداد الزوجين الأولين للتكيف أحدهما للآخر وللتعاون فى حل المشكلات أكبر بكثير من استعداد الزوجين الذين أرغما على الزواج ، ولنفس السبب نجد أن الزواج الإرغامى ينتابه التصدع فى العادة وإذا لم يصبه التصدع فى الظاهر فإنه يكون هناك تصدع خفى ملتئم السطح . وفى القليل النادر نجد زواجا سعيداً بكل معنى الكلمة سواء فى ظاهره أم فى باطنه ، لهذا وجب الإقلال من تدخل الكبار فى زواج الصغار إلا من قبيل إبداء الرأى والإسهام فى عقد موازنات مع ترك القرار النهائى لصاحب الشأن نفسه ، فى قيام صاحب الشأن بتقرير مصير

نفسه ضمان لحسن التكيف فى الحياة الزوجية وبعض الضمان لتدعيم كيانها، وهذا الذى أقرره ليس بالأمر السهل فى نطاق المجتمع العربى، ذلك لأن من تقاليد المجتمع احترام الصغير للكبير. وقد وصل احترام الصغير للكبير إلى درجة جعلته يكاد يكون أمراً مطلقا فتحول إلى ما يشبه وجوب الطاعة العمياء . ونحن نطلب إلى أولى الأمر أن يفكروا مليا فى هذا، فالطاعة العمياء تخلق مجتمعا من العبيد الضعفاء ،ولكن يجب أن يكون فى سلطان الكبير على الصغير سلطان الرعاية والحماية من احتمال الانهيار فى المستقبل فإذا كان فى فرض رأى الكبير على الصغير من احتمال سوء النتائج ما لا يبرره فيجب إثارة الوعى ضد إطلاقه على علاته .

والذى يقلل من سلطان الكبير على الصغير فى المجتمع العربى أن يكون قائما على التنور وعلى حماية النشء وحماية الأسرة فى الوقت الحاضر وفى المستقبل البعيد . أما الإرغام على احترام الرأى لمجرد أنه رأى صادر عن شخص كبير السن فى الأسرة فهذا أمر يحتاج إلى علاج .

هذا كله عما يسبق بدء الحياة الزوجية أما ما يصح أن ينهى الحياة الزوجية من احتمال الطلاق ومن سهولة إجرائه فإن له نتائج واضحة على الحالة العقلية فى الأسرة، فالتقاليد الإسلامية تفوق كل تقاليد العالم فى كون الزوج عليه أن يعاشر زوجته بالمعروف أو يتركها بالمعروف . وسهولة الطلاق معناها أن الإبقاء على الحياة الزوجية أمر تلقائى ، وليس أمر تفرضه القوانين فرضاً إرغامياً، ففرق بين اثنين يعيشان أحدهما مع الآخر لأنهما يؤيدان ذلك ، وبين اثنين يعيشان أحدهما مع الآخر لأنهما بدءا هذه الحياة ثم وجدا ألا مفر لهما منها بعد ذلك .

وهناك شعور عن بعض السيدات فى المجتمع العربى بأن النظم لا تحفظ للأسرة كيانها وأنها ظالمة للمرأة قاسية على الأولاد ذلك أن الرجل عنده من الحقوق ما يستطيع به هدم الأسرة وإذلال المرأة . لهذا يقوم النساء فى مناسبات عدة بحملة ضد الرجال بسبب اتجاه العصمة وتعدد الزوجات وحدود النفقة وبيت الطاعة وما إلى ذلك . يقوم النساء بالتحدث بعضهن إلى البعض الآخر ويقمن كذلك بالتحدث مع أولادهن وعندهن فى كل ذلك شعور بعدم الاستقرار وشعور بظلم الرجال وإحساس بالاضطهاد . من شأن هذه الاتجاهات أن تعبىء شعور المرأة ضد الرجل وشعور الأبناء ضد الآباء ومن شأنها أيضاً أن تجعل الفتاة مقبلة على الحياة الزوجية فى كثير من الوجل والخوف .

يحتج بعض الناس بأن ما يوجد فى المجتمع العربى خير مما يوجد فى المجتمعات الأخرى مما يصعب معه الانفصال فيتحول الأمر إلى علاقات غير مشروعة ولكن الأمر فى كلا الحالين قد يضر بالأسرة ضررا بليغا، فعلى المجتمع العربى فى نطاق الشريعة الإسلامية وفى نطاق حماية الأسرة أن يضع قوانينه لحماية الأسرة وتدعيمها وتأمين وحدتها وكيانها وتأمين حاجاتها فى حالة وفاة العائل أو عجزه . وفى الشريعة السمحاء كل ما يسمح بذلك وكل ما يبدد القلق إذا نحن فهمناها على وجهها الصحيح .

فالقاعدة الأولى من قواعد الصحة النفسية مما يضمن تماسك الأسرة وقوة كيانها الطمأنينة عند بدئها والطمأنينة على مستقبلها ومستقبل أفرادها .

ولا ينتهى الأمر عند هذا، فالأطفال فى الأسرة يلعبون دورا كبيراً من اتزانها وتماسك إيجابيتها وسعادتها . لاحظنا أن الحياة الزوجية كانت فى بعض الحالات مهددة بالانهيار ثم أنجب الزوجان طفلا فلعب الطفل دوراً كبيراً فى إعادة الاتزان لحياة الأسرة . ذلك لأن هدفا مشتركا يدعو إلى التعاون والتضحية ويودى بعوامل الأنانية فرض نفسه على جو الأسرة . وأحياناً يكون المولود سببا فى زيادة سوء العلاقات فى جو الأسرة إذ أنه ينظر إليه بطريقة صريحة أو ضمنية على أنه عائق فى سبيل الطلاق والتحرر فلولا وجود مسئولية مشتركة لتم التحرر وهذا الاتجاه قد يخلق صراعات نفسية فى داخل الأفراد وصراعات فى العلاقات لا حدود لها ، وتظهر أحيانا ألوان من القسوة على الأولاد وتبرر القسوة إذ ذاك بأنها إنما تقتضيها أصول التربية السليمة . وفى هذه الحالات يغلب أن تكون القسوة على الابن الأول ونجدها تنحسر عن الأبناء الأصغر منه . ولا نقصد أن نبين كل تشكيلات علاقات الآباء والأبناء . ولكن منها استعمال أحد الوالدين لأحد الأبناء أو كليهما فى التجسس أو التآمر على الآخر . ومنها الإمعان فى إظهار أخطاء الأبناء ونسبتها للولد الآخر، فعند ظهور عيوب فى سلوك الولد قد تنسبها الأم إلى صفات فى الأب أو أقرباء الأب وإذا ظهرت محاسن فإنها تنسبها لنفسها أو لأسرتها ، وعلى العموم نجد أن الابن أو البنت فى العلاقات الأسرية قد تكون عائقا من التحرر وقد تكون منافساً لأحد الطرفين فى علاقته بالآخر وقد يكون وسيلة لإشباع عاطفة متعطشة .

وفى الظروف الطيبة يكون هدفا لرعاية مشتركة أو وسيلة لإعادة الاتزان .

على أن ما يتبع فى تربية الأطفال ومعاملتهم من أسلوب يجب أن يصبح متعة عقلية وروحية ، فتربية الطفل يجب أن تكون موضع سرور لا موضع ألم ومصدر سرور لا مصدر ألم وموضع اتفاق لا موضع اختلاف ومصدر اتفاق لا مصدر خلاف وشقاق . وليس هذا مجال التفصيل فى أساليب التربية النابعة عن الوضع الصحيح والمؤدية إليه ولكن يحدث فى كثير من الأحيان أن نجد أن نية الأب طيبة فهو يريد أن يتبع الأساليب السليمة ولكن لا يعرفها وإن عرفها بصورة نظرية فإنه لم يمارسها ولم يتعودها وقد يجد عائقا فى ممارستها لأن تكوينه فى طفولته يجذبه فى اتجاهات معاكسة . كثيراً ما نجد الوالد يريد ولكنه لايقدر ويعزم ولكنه لا يعرف ويشعر ولكنه لا يدرك ويحس ولكنه لا يفهم . والسر فى ذلك أن تربية الأطفال لكى تكون موضع السعادة ومصدرها تتطلب النية الطيبة والمعرفة الصحيحة وامتلاك الوسائل والمهارات والمقدرات وشيوع الإيمان فى النفس .

كل هذا يقتضينا أن من أقوى دواعى الصحة النفسية فى حياة الأسر هو إعداد الآباء للأبوة وهذا الإعداد يبدأ فى طفولة الأب ، فالبنوة الطيبة تؤدى إلى أبوة طيبة فعلينا إذن أن نذكر ونحن ننشىء أبناءنا أنهم سيكونون فى المستقبل آباء يتصفون بالاتزان والطمأنينة العاطفية وبروح الحرية والإيجابية والشعور بالمسئولية والرغبة فى

التضحية مع الثقة بالنفس والاعتزاز بالذات. ويتطلب الإعداد للأبوة التبصير بمعنى الأبوة وواجباتها ومتعها ويتطلب كذلك دراسة المرء نفسه حتى يتخلص من آثار ما قد يكون هناك من رواسب الطفولة . وبإضافة إلى التبصير فلا بد من تكوين العادات والمهارات والقدرات وشيوع الإيمان. ولسنا بمعرض التحدث بالتفصيل لبيان أساليب تحقيق هذه النواحى ولكن نقر أن الإعداد للأبوة يبدأ من أول الحياة ويسير حتى يكبر الأولاد ويظل متجددا متكيفا متطورا .

وإذا كان الإعداد للأبوة أمرا ضروريا فالإعداد للحياة الزوجية أمر على جانب كبير جدا من الأهمية ، والحياة الزوجية نفسها ليست أمرا ثابتا وإنما هى تتطور فى مفهومها من فجر الحياة الزوجية حتى مغربها ، بل إنها تختلف فى كل ذلك فى البيئات الحضرية والصناعية عنها فى البيئات الريفية وتختلف كذلك فى البيئات البدائية عنها فى البيئات الحديثة، وتختلف مع امتزاج الحضارات حضارات الشرق وحضارة الغرب وما إلى ذلك . وفى كل هذا تحدث ألوان من التوفيق أحيانا وألوان من الصراع فى أحيان أخرى .

ويمكننا أن نجمل فنقول إن مفهوم الحياة الزوجية البدائية هو الاستجابة لنداء الطبيعة فى إنجاب الأطفال والإشباع العاطفى والجنسى ، ويقتضى التطور أن يصبح الأمر شركة أعمق وأشمل فيحتوى الطمأنينة الاقتصادية وتأمين مستقبل الزوجين ومستقبل الذرية . وبتطور الحياة والخروج من فجر الحياة الزوجية سواء أكان هذا فى صورها التاريخية أم الفردية نجد أن نشاط الزوجين يتسع فتقل حدة العلاقات الثنائية ويصبح الأولاد من جانب آخر أوساطا لتوسيع جوانب النشاط .

معنى هذا أن مفهوم الحياة الزوجية لابد أن يكون مفهوما ناميا متطورا ولا بد أن يدرب عليه الناشئون لحياة زوجية متطورة ، وإلا فقدت اتزانها إذا لم تساير التطور المحيط بها . وقد عرضت لنا مئات المشكلات فى الأسر لأن الأولاد يريدون أن يحيوا فى نطاق القرن العشرين وأما الوالدان فيريدان لهما الحياة فى نطاق القرن الثامن عشر، ومشكلات أخرى سببها ضيق نظرة أحد الزوجين لفكرة الحياة الزوجية واتساع نظرة الآخر لها . ومشكلات من نوع ثالث أن الوالد يريد أن يمرح مع أولاده والوالدة تتهم هذا بأنه إهدار للوقار، وغير ذلك مما لا حصر له من تشكيلات .

فالذى نريد أن ندعو إليه هو إعداد للحياة الزوجية يبدأ بالتنشئة الأولى ويسير حتى آخر الحياة فهو إعداد متجدد وتعلم مستمر وتكيف متطور متغير .

وليس من اليسير أن نفصل جميع قواعد الصحة النفسية للأسرة فى هذا المقام ولكن يجوز أن نقرر بعض الاتجاهات الأساسية ومن أولها أن كلا من الزوجين يجب أن يرعى دوافع الآخر ويعمل قدر جهده على إشباعها بدلا من الوقوف فى سبيلها أو العمل على إشباع دوافعه دون مراعاة لدوافع الآخر . بعبارة أخرى

ندعو فى جميع المواقف إلى أن يقدم الفرد حقوق الطرف الآخر وحاجاته على حقوقه وحاجاته ، كذلك ندعو إلى أن يقوم كل بإعطاء الآخر نصيبه فى الحرية دون تدخل جائر من جانبه، وأن يقف كل من الآخر موقف مراعاة وعطف وتقدير وتبادل للخدمات والمعونات ، ولعل ركن الأركان فى الصحة النفسية للأسرة هو إشاعة الطمأنينة بكل جوانبها : الطمأنينة العاطفية والعقلية والاقتصادية قبل البـــدء فى الحياة الزوجية وفى كل مراحلها بعد الدخول فيها .

ويمكننا على ذلك أن ننبه الشباب قبل البدء فى الحياة الزوجية بأن من تزوج بالمال ساء به المآل ، ومن تزوج بغير من يريد وضع حياته الزوجية فى مهب الريح، وأن المرء لا يجوز أن يتزوج بقلبه فقط وإنما الحكمة تقتضيه أن يستشير قلبه وعقله معا . ونوصى الشباب كذلك إذا كان ذكى العقل أن يتزوج بامرأة ذكية العقل وأما إذا كان غبيا فليفعل ما يشاء . كذلك إذا كان طيب الخلق فليتزوج بامرأة طيبة الخلق وأما إذا كان غير ذلك فله أن يفعل ما يبدو له .

ونوصى أثناء الحياة الزوجية أن يحاول كل شخص أن يفهم وجهة نظر الآخر . وأن يقدر موقفه ويعلل سلوكه ويتحمل أخطاءه ويبرز محاسنه ويستجيب لنداءاته ونوصى كذلك أن يحل الزوجان منازعاتهما بعضها مع بعض بعيدا عن الأطفال وألا يشركا معهما ثالثا قدر الإمكان وألا ينتقد أحدهما الآخر أمام الغير . وننبه بأنه إذا نشب خلاف بين الزوج وزوجته أو بين الأخ وأخته أو الابن وأبيه فليس من السهل تحديد مصدر الخطأ ولذلك كان فى التساهل والتغاضى فى جو من العطف والرعاية خير ما يحل المشكلات وعلى الجميع أن يذكروا أن الانتقام أيسر من التغاضى ومن الخير ألا يختار من الأمور أيسرها ، وعلى المرء أن يفضل لنفسه ضبط النفس على الانطلاق فى الغضب فالأول من خصائص النضج والثانى من خصائص الطفولة . وأن يدرب نفسه على التريث وعدم الثورة وحسن الاستماع وإعطاء فرصة التفسير والتوضيح للطرف الآخر . وإذا اختلف الزوج مع زوجته فيحسن به ألا يطوى الليلة على خلاف .

ونوصى كذلك بألا ينظر فرد فى الأسرة إلى فرد آخر مهما كانت سنه أو كان جنسه نظرة السيد للعبد أو نظرة الصائد للصيد وإنما ينظر إليه نظرة الشريك للشريك والند للند أحدهما يكمل الآخر ويقدره ويحبه ، روحا وعاطفة وعقلا ، فإذا قام كل من الزوجين بخدمة الآخر سعدت بهما الحياة الزوجية ، وإذا عاون الزوج زوجته فى بعض عمل الأسرة فعليه ألا يبالغ فى ذلك فالمبالغة فى التدخل قد تجرح كبرياء الزوجة . ويمكن للوالد كذلك أن يضحك مع ابنه لا عليه وأن يلعب مع ابنه ولا يلعب به وأن ينجزه كل ما يعد وإلا وجب عليه أن يتريث قبل أن ينطق بما يريد أن يعد .

ونوصى كذلك بما أوصى به على بن أبى طالب بألا نقسر أولادنا على آدابنا فقد خلقوا لزمان غير زماننا .

ونوصى بأن يشيع فى جو الأسرة أسلوب الصداقة والصراحة فشيوع الأسرار فى جو الأسرة يكون من عوامل التصدع ، ويلاحظ أن الصراحة والخوف لا يجتمعان وأن الطمأنينة والصراحة صنوان .

وننبه فوق ما تقدم إلى أن الزوجة التى تنصرف عن زوجها إلى أولادها أفضل من التى تنصرف عن أولادها إلى زوجها ولكن أفضل من هذه وتلك من اعتبرت زوجها أكبر أولادها وأفضل الأزواج كذلك من اعتبر زوجته كبرى بناته .

وعلينا أن نذكر أن الزوجين إذا شعر كل منهما باعتماد الآخر عليه سعدت بهما الحياة الزوجية وإذا شعر كل منهما باستغناء الآخر عنه شقيت بهما الحياة الزوجية . وأن نذكر أن الاعتماد الروحى يسبق فى مرتبته الاعتماد المادى وأن تبادل الخدمات وتبادل الإشعار بالعرفان بالجميل من أهم دعامات الحياة الزوجية .

ولا يجوز للزوجين أن يأخذ كل منهما حقائق الحياة الزوجية على أنها قضايا مسلم بصحتها، فالزوجة تحتاج إلى إثبات عملى من زوجها بأنه يحبها والزوج كذلك يحتاج من آن لآخر إلى إثبات عملى من زوجته بالحب ولا محل للدهشة فى ذلك . والذى ينطبق فى هذا على الزوج وزوجته ينطبق على الوالدين وأبنائهما وعلى الأبناء وآبائهم أيضاً . وعلينا أن نذكر أن الحق الزوجى أو الأبوى أو البنوى أمر يشبه الكائن الحى يحتاج إلى رعاية وتغذية وتعهد حتى ينمو ويترعرع وبغير التغذية يضعف ويمرض أو يموت .

ونوصى آخر الأمر بأن يقوم بين الزوجين وبين الوالدين وأبنائهما جو له دستور ثابت وأركان هذا الدستور الثابت هى العطف المتبادل بين الجميع فى غير ضعف والحزم القائم فى المعاملة فى غير عنف وأن يكون هناك تقدير متبادل واحترام متبادل وحرية متبادلة فى غير فوضى وأن يكون هناك تعاون وتكافل وعدل فى توزيع الجوانب المادية والروحية على السواء .

بهذا ينشأ فرد متكامل فى أسرة متكاملة لتكوين مجتمع متكامل .

وللمجتمع العربى من خصائصه وتقاليده الروحية والدينية ما يضمن له تنشئة أسرة كاملة الكيان متكاملة الأركان تسعى به إلى النهوض والتكامل .

الخدمة الطبية النفسية وأهميتها للبيت العربى

للدكتور مصطفى زيور

(الجمهورية العربية المتحدة)

لا بد لنا أن نناقش فى مستهل هذا التقرير أهمية الخدمة الطبية النفسية للبيت العربى ، ذلك بأن الخدمة الطبية النفسية تقابلها خدمات طبية عامة ثم خدمات اقتصادية وخدمات تعليمية تربوية تستهدف القضاء على العلل الاجتماعية الكبرى، الفقر والجهل والمرض (الجسمى) . وما من شك أن الخدمات التى تقدم للبيت العربى بوصفه نواة المجتمع العربى ينبغى أن تتناسق فيما بينها فتأخذ كل منها مكانها الصحيح بالقياس إلى سائر الخدمات فى إطار الإمكانيات الراهنة ، وبعبارة أخرى ينبغى أن نعرف مدى أهمية الخدمة الطبية النفسية بالقياس إلى غيرها من الخدمات حتى لا نصدر فيما نوليها من العناية عن الإسراف أو التقتير ، وهذا هو المبدأ الذى اعتنقته (مصر) عندما أنشأت مجلس الخدمات .

وأبدأ فأقول أن الخدمة الطبية النفسية لا شك تعتبر ترفا إذا قدمت على غيرها من الخدمات التى تبذل للبيت العربى الريفى مثلا ، أو إذا وضعت فى نفس المستوى مع الخدمات الأخرى . وهذه حقيقة لا يختلف عليها اثنان ، غير أن ما يغيب على الأذهان أحيانا هو أن الخدمة الطبية النفسية تصبح خليقة بعناية لا تقل عما يبذل للخدمات الأخرى ، وقد تفوقها فى بعض الأحيان ، حالما تشرع الخدمات الاقتصادية والثقافية والطبية العامة فى أن تؤدى ثمارها ، وهذه حقيقة من الحقائق التى كشف عنها البحث فى الطب النفسى خلال السنوات العشرين الأخيرة وأضحت من المسلمات التى أسفر عنها التعاون العلمى بين فنون البحث الأنتروبولوجى وفنون الطب النفسى .

فقد تبين من البحوث التى أجريت على المجتمعات البدائية أثناء تحولها إلى مجتمعات متحضرة عندما غزتها الأوضاع الحضارية الغربية ، أو عندما قدمت لها الخدمات الثقافية والطبية والاقتصادية ذات الطابع الغربى — تبين أن عددا كبيراً من أفراد هذه المجتمعات خسروا فى ناحية بمقدار ما كسبوا فى نواح أخرى ، وخسروا فى كفة الصحة النفسية بمقدار ما كسبوا فى كفة الثقافة والرخاء والشفاء من الأمراض الجرثومية ، ولا محل للظن بأن ما خسروه يرجع إلى طبيعة الأوضاع الغربية لأن مادخل عليهم منها لا يعدو أن يكون الأصول الثقافية المبنية على مبادىء العلوم ثم أساليب الوقاية والعلاج المبنية على مبادىء الطب الحديث وكذلك وسائل الانتاج الزراعى الحديث والتنظيم الاقتصادى والاجتماعى السليم .

ولا بد من ذكر بعض نتائج هذه البحوث والتعليق عليها نظرا لأهميتها بالنسبة لموضوع هذا التقرير وما تلقيه عليه من أضواء ، فقد تبين من بحث أجراه « كاروثرز » على ثلاث مجموعات من الإفريقيين فى كينيا ، وكانت المجموعة الأولى مكونة من أفراد يعيشون فى عزلة بعيدين عن المناطق المتحضرة ، والمجموعة الثانية مكونة من أفراد يتصلون اتصالا طفيفا بالمناطق المتحضرة مع احتفاظهم بذاتيتهم الحضارية ، والمجموعة الثالثة مكونة من أفراد استبدلوا بأوضاعهم الحضارية أو ضاعا غربية ، فكانت نسبة الإصابة بالأمراض العقلية فى هذه المجموعات الثلاث على التوالى ٣ر٢ و ٥ر٢ و ٣ر١٣ فى كل ١٠٠ر٠٠٠ شخص ، كما أسفرت دراسة « توت » لسكان ساحل الذهب عن نتائج مشابهة ، وتلتقى هذه النتائج بما وصل إليه كل من « هالويل » و « بارنو » و « جيلين » وغيرهم فى دراساتهم على بعض قبائل الهنود الحمر ، وقد تبين من الدراسة المقارنة لبعض القرى فى أواسط الهند أن سكان القرى التى ظلت على أوضاعها الحضارية القديمة لا يصابون بالأمراض النفسية الجسمية (ضغط الدم قرحة المعدة . . الخ) على حين أن هذه الأمراض تتفشى لدى سكان القرى الذين أخذوا بأسباب الحضارة الحديثة ، وقد نشر المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل مقالا منذ نحو ثلاثين سنة ذكر فيه أن ارتفاع ضغط الدم الجوهرى من الأمراض النادرة فى الطبقة العاملة من الشعب المصرى ، على حين أن هذا المرض لم يعد من الأمراض النادرة الآن ، وقد ألح البروفسور الدكتور كراوس — خبير الصحة النفسية للهيئة الصحية العالمية — على الصلة بين انتشار الاضطرابات النفسية والأخذ بأساليب التقدم الحضارى ، وذلك فى تقريره الذى قدمه للمسئولين فى (مصر) بعد دراسة مستفيضة للحالة الصحية النفسية فيها (١٩٥١) ونبه خاصة إلى خطورة إدخال الأساليب الصحية والثقافية فى البيئات الريفية دون تقديم الخدمات المناسبة لتوفير أسباب الصحة النفسية .

وجدير بالذكر أن ما يصدق على المجتمعات المتأخرة حضاريا يصدق أيضاً على المجتمعات المتحضرة عندما تخضع « لتغير اجتماعى » سريع وخاصة تحت تأثير التصنيع وما يصاحبه من تعديل فى القيم والمعايير والأوضاع التى تنظم علاقة الأفراد بعضهم ببعض ، فقد دلت دراسة نسبة انتشار الجريمة فى المدن الأمريكية التى بدأت فى الأخذ بأساليب التصنيع أن هذه النسبة تصل إلى ٢٥ر١ فى كل ١٠٠ر٠٠٠ نسمة على حين أنها لا تزيد عن ٧ر٦ فى كل ١٠٠ر٠٠٠ نسمة فى البيئات الريفية . وما يجرى على الجريمة يجرى على الانتحار والطلاق والأمراض النفسية .

ويظهر أثر التغير الاجتماعى وما ينجم عنه من صراع بين الولاء للقيم والمعايير القديمة والولاء للقيم والمعايير الحديثة — يظهر بوضوح فى جيل الأبناء المولودين فى أمريكا لأبوين حديثى الهجرة . فقد دل البحث على أن هذا الجيل يساهم فى جناح الأحداث بأكثر من نسبته إلى مجموع السكان ، ويدل البحث على أن ذلك يرجع إلى أن جيل الأبناء كانوا موزعين بين الولاء للقيم والمعايير التى تلقوها عن آبائهم وبين الولاء للقيم والمعايير الأمريكية .

ونجد اختلافا فى نسبة انتشار الأمراض النفسية بين الطبقات الاجتماعية فى مجتمع بعينه فقد دل البحث على

أن الطبقة الوسطى هى أكثر الطبقات تعرضا للأمراض النفسية وخاصة النفسية الجسمية . والسبب فى ذلك أن هذه الطبقة هى أكثر الطبقات تعرضا لآثار التغير الاجتماعى السريع ، ويلاحظ على أفراد هذه الطبقة أنهم يتصفون بالمغالاة فى مستوى الطموح وهى ظاهرة تخفى وراءها درجة عالية من التوتر النفسى .

ليس من شك إذن أن كل تغير اجتماعى سريع تنجم عنه قلقلة فى القيم والمعايير ، وهذا يسفر عن درجة عالية من التوتر النفسى والصراع يفضيان إلى انتشار المرض النفسى والعقلى أو اضطرابات السلوك .

وإذا شئنا أن نصيغ هذه المسألة بحيث نفسرها من وجهة نظر علم النفس الاجتماعى البائولوجى ، يمكننا أن نقول ، أن كل تنظيم حضارى يشمل ناحيتين : الناحية الأولى مجموعة من القيم والمعايير تحدد ما ينبغى للمرء ومالا ينبغى له من شأنها إثارة درجة من الخوف كافية لتنظيم سلوك الأفراد وتنقية علاقاتهم بعضهم ببعض على النحو الذى يلائم أهداف مجتمع بعينه ، والناحية الثانية مجموعة من الأساليب الحضارية يسنها المجتمع ويشجع على الأخذ بها كوسيلة لضبط الخوف والتوتر الناشئين من اعتناق مجموعة المعايير الأولى ، بحيث يظل الخوف محصورا فى نطاق نفعه الاجتماعى دون أن يتعرض لآثاره المرضية . ونلاحظ أن أساليب ضبط التوتر وتصريفه تكون ناجعة وتقوم بوظيفتها خير قيام فى المجتمعات التى استقرت على أوضاع حضارية اعتنقتها منذ زمن بعيد ، مثل البيئات الريفية فى الإقليم المصرى والمجتمعات المتأخرة حضاريا ، أما المجتمعات التى يجرى عليها التغير الحضارى السريع فإننا نلاحظ أن أساليب ضبط التوتر تفقد قدرتها العلاجية بأسرع مما تفقد المعايير قدرتها على إثارة الخوف ، بحيث يتراكم التوتر عندما تصبح أساليب تصريفه بالية .

ولعل هذا التباين فى فقدان التوازن بين مثيرات الخوف الحضارية وأساليب تصريفه وضبطه يرجع إلى أن الأولى تغرس المعايير التى تستند إليها أثناء الطفولة على أيدى آباء ينتمون إلى جيل كاد يصبح فى حكم الملغى بالقياس إلى التغير الاجتماعى السريع ، على حين أن أساليب ضبط التوتر الملائمة لتلك المعايير يكون قد عفى عليها الزمان عند بلوغ الإنسان سن النضج مع احتفاظه بالمعايير التى اعتنقها منذ الطفولة .

وفضلا عن ذلك فان التطبع الاجتماعى الذى يجريه الآباء على الأبناء يستهدف عادة خلق « المواطن الصالح » لأوضاع اجتماعية بعينها ، هى تلك الأوضاع التى عاشها الآباء فيصدرون عنها فى عملية تطبيع أولادهم . فإذا كان التغير الاجتماعى سريعا تصبح قوالب التطبع متخلفة عن الأوضاع الحضارية الجديدة فيواجه الإنسان عند بلوغه سن الرشد ظروفا اجتماعية لم يعد لها وأوضح مثال على ذلك ما نراه لدى شباب هذا الجيل — فى بعض البلاد العربية — من قلق شديد نجم بعضه عن عدم كفاية الأساليب التى نشأوا عليها لمواجهة مقتضيات التغير الاجتماعى ، فقد نشأ معظم شباب هذا الجيل فى بيوت شرقية محافظة للأب فيها سلطان مطلق ، وتشجع فيها نماذج الطاعة والاعتماد فى نظام طبقى بحيث يفرض على الولد احترامه لأخيه الأكبر فضلا عن أبيه . وقد كان

هذا النمط نافعا منذ نحو ربع قرن لخلق المواطن الصالح فى مجتمع إقطاعى يمنح الفرد معاشا فى وظيفة حكومية أو فى تشجيعه على أن يخلف أباه فى مهنته ، وذلك فى مقابل انقياده واحترامه الكامل لسلم الطبقات . أما الآن وقد انهار النظام الإقطاعى حتى قبل انهياره الرسمى بفضل ما دخل من نظم حضارية جديدة فقد أصبح التطبيع المشار إليه غير ذى موضوع حيث يواجه الشباب فى أيامنا هذه بضرورة المبادأة والاستقلال بنفسه ومعاملة المرأة على قدم المساواة وغير ذلك من الصفات التى لا قبل له بها وهكذا رأينا شباب هذا الجيل يلتقى بالخوف بحرية لم يعد لها .

وبالإضافة إلى ذلك فإن شعور المرء بوحدة ذاته واستقرارها واستمرارها فى اللحظات الزمنية المتعاقبة هو الأساس الذى لا يكون بغيره كيان متزن ، ويستند هذا الشعور أول ما يستند على انسجام المعايير التى اعتنقها الإنسان وإتلاف الأساليب التى يصطنعها فى كل متكامل . وهذا يقتضى بالضرورة أن تكون القيم التى نشأ عليها متناغمة لا صراع بينها وأن تكون وسائله فى السير على منوالها معتمدة لا جدال عليها ، فإذا كان التغير الاجتماعى سريعاً بحيث يصطدم جيل الآباء بأوضاع حضارية لم يشبوا عليها ويضطرون أن يعيشوها دون أن يؤمنوا بها ، فإن جيل الأبناء يقع فى حيرة أول مظاهرها افتقارهم إلى شعور مكين بوحدة الذات ، وزيادة على هذه القيم المزعزعة فإن جيل الأبناء أثناء التغير الاجتماعى السريع وما يصحبه من انتشار التعليم فى جميع الطبقات — سيصطدم لا محالة بقيم مخالفة لقيم الآباء تأتيه عن طريق مصادر السلطة فى المدرسة أعنى النظار والمدرسين الذين تختلف طبقتهم أو بيئتهم الاجتماعية عن طبقة التلاميذ أو بيئتهم . كما ستأتيه عن طريق بعض أترابه فى المدرسة . وكذلك يحدث هذا الاصطدام بين القيم عند الانتقال من البيئة الريفية إلى بيئة المدينة أو عند التطور نحو التصنيع . فإذا التفتنا إلى أن الأمة العربية بصدد تطور نحو وحدة منشودة ستلتقى فيها تيارات من القيم يعوزها الاتساق على الرغم من وحدة اللغة وغيرها من المقومات الحضارية ، وذلك لصدور هذه القيم عن مستويات حضارية مختلفة ، لوضحت لنا خطورة مشكلة التغير الاجتماعى الذى نواجهه وما ينبغى من اهتمام بها والتخطيط لملاقاة آثارها السيئة على الصحة النفسية .

* * *

بوسعنا الآن — فى ضوء مناقشتنا السابقة — أن نرسم الخطط اللازمة لتوجيه الخدمة الطبية النفسية الوجهة الملائمة لإرساء البيت العربى على أساس سليم من الصحة النفسية . ومن الجلى أن هذه الخدمة تستهدف العلاج من ناحية أخرى . فأما الخدمة العلاجية فإنها تصطدم — قبل اصطدامها بعقبة الإمكانيات المالية — بعقبة كبرى ، أعنى عقبة الافتقار إلى الإخصائيين فى الطب النفسى . فقد أنشأت كلية الطب بجامعة القاهرة منذ سنة ١٩٤١ دبلوم التخصص فى الطب النفسى والعصبى ولم يسفر ذلك إلا عن إعداد نفر قليل من الأطباء النفسيين لا يفى بنصف الحاجة إلى هذا الضرب من التخصص . وقد ناقش البروفسور كراوس هذه المسألة فى تقريره المشار إليه آنفاً مناقشة مستفيضة ونبه إلى خطورتها ، وكان من رأيه أن بعض أسباب امتناع الأطباء عن التخصص فى هذا الفرع هو قلة

المرتبات التى تمنحها لهم الدولة فى مقابل عملهم المرهق وما يتضمنه ذلك من إغفال لقيمة هذا النوع من الدراسة ، كما ناقش مستوى الدراسة فى هذا الدبلوم فأشار إلى أن المواد النفسية التى تلقن لطلاب هذا الدبلوم لا تزيد عما يلقن لطلاب درجة الطب العام فى الجامعات الأوربية والأمريكية أى الدراسة السابقة على التخصص .

هذا وقد أنشأت كلية الطب بجامعة عين شمس دبلوماً مشابهاً يقبل عليه كل عام طالبان أو ثلاثة إذا أضيفوا إلى طلاب دبلوم جامعة القاهرة يكون المجموع فى كل عام من المتخرجين عدداً لا يزيد على أصابع اليد الواحدة ، وهذه الحال تكاد تكون عامة . ولست أعرف فى الشرق العربى جامعة أخرى تعد الطلاب لهذا التخصص وفى اعتقادى أن امتناع الطلاب عن التخصص فى الطب النفسى يرجع إلى سبب آخر لمسته أثناء التدريس ومناقشة الطلاب فى الفروع الأخرى . ذلك أن الطالب الذى يتخرج فى كلية الطب يميل عادة — إذا أراد أن يتخصص — إلى الاتجاه نحو فرع من الفروع التى سبق له أن درسها وعرف قيمتها الطبية . ولما كانت الدراسة النفسية مادة موجودة فى برامج كليات الطب منذ نحو خمس عشرة سنة دون أن تدرس فلا عجب ألا يلتفت إليها الطبيب إذا أراد التخصص ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن عدد الأطباء النفسيين مهما زاد لا يمكن أن يفى بحاجات العلاج فضلا عن الوقاية نظراً لأن جمهور الناس لا يستشيرون الإخصائى إلا فى الحالات الخطيرة ويتجهون فيما عداها إلى الطبيب العام — لا تضح لنا ضرورة تزويد البرامج المعطلة ، وخاصة إذا تذكرنا أن أهم ناحية فى دعم أسباب الصحة النفسية هو تبصير الناس بقيمتها من حيث أنها شرط بغيره يبوء كل إنتاج بالفشل ، وأن هذا الاستبصار — يتلقاه الناس أول ما يتلقوه من أطبائهم .

وما دمنا بصدد الإعداد الدراسى للإخصائيين ومن يقع على عاتقهم رعاية الصحة النفسية ، فلابد من الإشارة إلى أن هذه المهمة تحتاج إلى عدد كاف من الإخصائيين فى علم النفس الأكلينيكى ، وهم عادة سيكولوجيون غير أطباء يقومون بإجراء الاختبارات النفسية والبحوث المختلفة التى يحتاج إليها الطبيب النفسى ولا يستطيع إجراءها بنفسه لما تقتضيه من تخصص عميق ، فضلا عن أن إعداد الإخصائيين فى علم النفس الأكلينيكى يؤهلهم للقيام بالبحوث العلمية التى تكشف عن طبيعة التغيرات الاجتماعية والمشاكل الحضارية القائمة فعلا فى بيئة بعينها ، بحيث تقوم الخدمة الطبية النفسية على أساس من الاستبصار بالأصول النوعية الحقيقية للاضطرابات . وقد أنشأ قسم الأمراض النفسية بجامعة عين شمس دبلوم الدراسات العليا فى الخدمة النفسية لإعداد هذا النوع من الإخصائيين . ولكنه لا يزال فى بدايته ويحتاج إلى التدعيم بالأجهزة اللازمة وفى أعضاء هيئة التدريس به ونفقات البحوث التى يقوم بها الأساتذة والطلاب .

ويمكننا أن نرسم خطة الخدمة الطبية النفسية من الناحية العلاجية على النحو الذى اقترحته مصلحة الصحة العقلية بوزارة الصحة التنفيذ بالإقليم المصرى وتتخلص فيما يأتى :

أولا : ينبغى إنشاء عيادة خارجية للطب النفسى فى كل المستشفيات العامة على غرار عيادتى مستشفى بولاق ومستشفى المنيرة بالقاهرة ، على أن يجرى العمل بها كل يوم ، لا يومان فقط فى الأسبوع كما هو الحال الآن فى هاتين

العيادتين حتى تتاح للطبيب فرصة القيام بالعلاج النفسى إلى جانب العلاج العضوى الذى يقتصر عليه حالياً . كما ينبغى أن يؤازر الطبيب النفسى إخصائى فى علم النفس الإكلينيكى وإخصائية فى الخدمة الاجتماعية .

ثانياً : ينبغى إفراد بعض الأسرة فى المستشفيات العامة الكبرى للحالات الطبية النفسية التى لا تحتاج إلى الحجز بالمستشفيات العقلية ولا تقبل عادة بين حالات الطب العام ويضيرها البقاء فى المنزل كما يضير المحيطين بها .

ثالثاً : ينبغى تدبير العناية بالمرضى الذين أبلوا وخرجوا من المستشفيات العقلية وعادوا إلى منازلهم وتتبعهم بواسطة الإخصائيين حتى يمكن ملافاة النكسات وتبصير المحيطين بهم بما ينبغى فى معاملتهم درءاً لما قد ينجم من الاختلاط بهم من آثار سيئة على الأطفال .

رابعاً : تتجه الجهود فى البلاد الغربية إلى ما يطلقون عليه « مستشفيات النهار » و « الساحات الصحية النفسية » ليغشاها المرضى الذين لا يحتاج الأمر معهم إلى الحجز وهم الذين سبق أن حجزوا بها وظلوا بعد خروجهم على قدر من الاضطراب يحتاج إلى عناية وألوان من العلاج لا تتوفر فى « جناح الطب النفسى » من المستشفيات العامة مثل العلاج بالعمل والسيكودراما والعلاج النفسى الجمعى وما إليها . وما من شك أن ما يبذل لهؤلاء المرضى إنما هو وقاية فى الوقت نفسه لمن يحيطون بهم وخاصة الأطفال .

خامساً : العيادات النفسية المدرسية وعيادات توجيه الطفولة :

وهذه فى اعتقادى تمثل أهم ناحية من نواحى الخدمة الطبية النفسية للبيت العربى فإليها يقصد الآباء للاستشارة فى شأن ما حل بأولادهم من الاضطراب النفسى ، وإليها يرسل التلاميذ المرضى أو المشكلون يبعث بهم نظار مدارسهم . ولا يوجد فى الإقليم الجنوبى الآن إلا عيادة واحدة من هذا النوع ولا يوجد بها إلا إخصائى واحد ، ومفروض أنها تخدم آلاف التلاميذ وهو نقص خطير ينبغى التنبيه إليه ، كما سبق أن فعل البروفسور كراوس فى تقريره الآنف الذكر . فينبغى وجود عيادة من هذا النوع فى كل منطقة تعليمية يشرف عليها أخصائى فى الطب النفسى للأطفال والمراهقين يعاونه أخصائى فى علم النفس الإكلينيكى وإخصائية فى الخدمة الاجتماعية .

أما الخدمة الطبية النفسية من الناحية الوقائية ، فيمكن تلخيصها فيما يأتى :

لما كانت سنوات الطفولة هى الفترة الحاسمة فى تشكيل شخصية الإنسان وتوفير أسباب الصحة أو المرض فى سن الرشد فينبغى أن ينصب جل اهتمامنا على هذه الفترة ، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل ، المرحلة الأولى هى مرحلة سن الرضاعة ، والمرحلة الثانية هى مرحلة الحضانة وتمتد إلى بدء التعليم المدرسى ، والمرحلة الثالثة هى مرحلة الدراسة الابتدائية .

أما مرحلة سن الرضاعة : فهى أخطر المراحل جميعاً . فإليها تمتد جذور الأمراض العقلية المستفحلة والدعامة التى ترتكز عليها الصحة النفسية فى هذه المرحلة هى إغداق الحب والرعاية من الأم على رضيعها وإشباع حاجاته أولا بأول . ولحسن الطالع فإن هذه الصفات موفورة بالطبيعة لدى الأمهات العربيات ، ففى المجتمع الكويتى مثلا

قلما نلتقى بظاهرة مص الأصابع لدى الأطفال وهى إحدى مظاهر النقص أو التهاون فى إشباع حاجات الطفل العاطفية الغذائية (رسالة الماجستير للسيد عادل مهران — المجتمع الكويتى — دراسة نفسية اجتماعية) .

والملاحظة الأولى بصدد هذه المرحلة أن الأمهات العربيات المثقفات ينبغى لهن أن يتخذن الأمهات من الطبقة الشعبية نموذجاً يحتذى فى إغداق الحب وتوفير الرضاعة فى جو من الرفق والحنان كلما شاء الرضيع ذلك لا كلما شاءت الساعة . وبعبارة أخرى ينبغى لهن أن يستمعن إلى صوت غريزتهن لا إلى صوت الطب المنقوص الذى يغفل الناحية النفسية إغفالا خطيراً كما يغفل الفروق الفردية بين الأطفال من حيث كمية الغذاء وتوقيت عملية الهضم . حقاً إن بعض الأمهات غير المثقفات يخطئن إذ يستخدمن الرضاعة وسيلة لإسكات الطفل الممغوص ولكن الطبيب الذى تنقصه الثقافة النفسية يخطىء إذ يعتقد أن علاج المغص لا يخرج عن الدواء أو الحمية ، ذلك أن المغص (وما إليه) يثير حالة من القلق النفسى لدى الرضيع لا علاج لها إلا فى حضن حنون . وحضن الأم العربية التى لم يفسدها الطب المنقوص من أكثر الأحضان حناناً .

والملاحظة الثانية بصدد هذه المرحلة أن بعض الأمهات العربيات من الطبقات العاملة تضطرهن ظروف الحياة إلى أن يتركن أطفالهن ليعملن مرضعات أو عاملات فى بعض المؤسسات ، فإذا حدث هذا الانفصال بين الأم وطفلها فى الفترة بين الشهر الرابع والثانى عشر من عمر الطفل فإن لذلك أخطر النتائج على مستقبل حياته ، نتيجة للاضطراب النفسى لدى الرضيع ، وينبغى منح كل معونة إلى الأمهات حتى لا يتركن أطفالهن فى هذه الفترة .

ويضيق المقام عن مناقشة جميع مشاكل سن الرضاعة وهى كثيرة ويدلنا البحث على أن معظمها ينشأ من اضطراب الصحة النفسية لدى الأم ، ولما كانت مشاكل هذه الفترة تعتبر من أخطر مشاكل الصحة النفسية فإنى أتقدم باقتراح أعتبره أهم ما يمكننى اقتراحه فى هذا التقرير .

فقد عنى كثير من الدول العربية بتوفير أسباب الصحة العامة لمرحلة الطفولة الأولى فأنشئت مراكز رعاية الأمومة والطفولة ، غير أن هذه المراكز تحصر جهودها فى العناية بالصحة الجسمية لذلك لا نجد بين القائمين على العمل بها غير أطباء ممن تنقصهم الثقافة النفسية ثم الحكيمات والمولدات والممرضات ، والواجب أن يعين فى كل من هذه المراكز طبيب نفسى ، كما ينبغى إدخال المواد النفسية وخاصة سيكولوجية الطفولة الباكرة واضطرابها فى برامج إعداد الحكيمات والممرضات والزائرات الصحيات .

وقد شاهدت بعض الحكيمات يحدثن الأمهات فى أصول الصحة العامة أثناء انتظارهن فى حجرات الانتظار فما أيسر أن يضفن إلى ذلك حديثاً فى أصول الصحة النفسية وأن تصبح هذه الأحاديث قاعدة بحيث تبصر الأمهات بأهميتها ، كما ينبغى أن تناقش الحكيمات كل أم تعرض مشكلة خاصة ، ويحولن إلى الطبيب النفسى الحالات التى تقتضى خبرة تفوق خبرتهن ، وتنبغى الإشارة إلى أن التثقيف النفسى الذى يجب إدخاله فى برامج إعداد الحكيمات والممرضات لا بد أن يقوم على أساس من الفهم الصحيح والدراسة الكافية المستنيرة بحاجات البيئة وطبيعة الأوضاع

الحضارية ، وألا يكتفى ببعض القشور المنقولة عن كتب أجنبية دون تمييز لاختلاف القيم والمعايير والأهداف الحضارية كما يحدث أحياناً فى بعض مدارس الخدمة الاجتماعية، فقد رأيت بعض خريجى هذه المدارس يثيرون القلق والشعور بالذنب لدى الأمهات بإلحاحهن على مسائل لا تنطبق إلا على بعض الأمهات الغربيات .

أما عن المرحلتين التاليتين فإنهما تتميزان ببدء تدخل شخصية الأب فى جو الطفل النفسى بالإضافة إلى تدخل شخصية الأم . وهنا نلتقى بمشكلة إرساء قواعد الشعور بوحدة الذات ورسم سماتها على أساس من نقص معايير الأبوين عامة ومعايير الأب من نفس الجنس خاصة وما يثيره كل ذلك من مشاكل تتعلق بالتغيير التى ناقشناها فى مستهل هذا التقرير . ويتلخص ما أقترحه بصدد هاتين المرحلتين فى أمرين :

الأمر الأول — أنه يجب أن نفطن إلى أن كل رعاية نفسية تزجى للبيت العربى ولا نستوحيها إلا مما جاء عنها فى الكتب الأجنبية يكون ضررها أكثر من نفعها، ونظراً لاختلاف الظروف البيئية والأوضاع الحضارية التى قد تختلف من قطاع لآخر فى الشعوب العربية، فينبغى من أجل ذلك أن نحفز الهمم إلى إجراء البحوث الأنثروبولوجية والطبية النفسية يقوم بها إخصائيون من الفرعين يتآزرون فى الكشف عن التغيرات الاجتماعية فى مختلف الأقطار العربية وما لهذه التغيرات من آثار فى تطوير القيم والمعايير، كما يتآزرون فى التعرف على الأهداف التلقائية التى تتجه إليها وثبات الأمة العربية بحيث نكون على بصيرة بالدوافع العميقة النوعية عندما نرسم خطة الرعاية النفسية .

الأمر الثانى — هو أنه يجب أن ننبه الأذهان إلى أن فترة الدراسة برياض الأطفال (أو بيوت الحضانة أو المدارس الأولية) ثم المدارس الابتدائية خليقة بالاهتمام من الناحية النفسية بما لا يقل عن الاهتمام بها فى المدارس الثانوية ، بل قد ينبغى أن يكون الاهتمام أشد وأكثر .

وقد اهتمت وزارة التربية بالمدارس الثانوية من الناحية النفسية اهتماماً مشكوراً فعينت بها أخصائيين فى الخدمة الاجتماعية على حين أن المدارس والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة الابتدائية لا يوجد بها إلا زائرات صحيات لا يصل مستوى الثقافة النفسية لديهن إلى القدر الذى يصلح به عملهن . وفوق كل ذلك ينبغى إنشاء وحدة نفسية فى كل منطقة تعليمية تضم أخصائيين نفسيين يقودون ندوات من الآباء والمدرسين والأطفال تناقش فيها أصول الصحة النفسية ويتبادل أثناءها الآباء والمدرسون الرأى فى أمر الأطفال ويستوضحون أهداف المعايير والقيم الاجتماعية ، ثم تحول المشاكل التى تفوق خبرة القائمين على هذه الندوات إلى مراكز توجيه الطفولة والعيادات النفسية المدرسية .

وخلاصة القول أنه ينبغى أن نفطن إلى أن الأمة العربية فى سبيل تطور اجتماعى سريع وأن كل رعاية نفسية للبيت العربى ينبغى أن تسترشد بنتائج بحوث عميقة لهذا التطور حتى يمكن أن تكون خطة هذه الرعاية سليمة ، كما ينبغى تزويد الطبيب بقدر صالح من الثقافة النفسية لأن ثقافة الجمهور الصحية تستمد أول ما تستمد من الطبيب وأنه ينبغى التنبيه إلى تزويد مراكز رعاية الطفولة والأمومة بأطباء نفسيين وتزويد المدارس الأولية والابتدائية بأخصائيين نفسيين يوجهون الآباء والأطفال الوجهة النفسية السليمة .

إقتصاديات البيت العربي

للدكتور أحمد دويدار

(الجمهورية العربية المتحدة)

مقدمة :

إن كلمة اقتصاد (Economic) مشتقة من كلمة يونانية قديمة معناها تدبير شئون البيت ، ويشمل هذا التدبير العناية بالحصول على دخل ثم تنظيم إنفاق هذا الدخل . وفى بحثنا عن اقتصاديات البيت العربى سوف لا نخرج كثيراً عن هذا المعنى القديم للكلمة ، إذ سوف نركز اهتمامنا على دخل أفراد البيت العربى سواء كان مصدر هذا الدخل العمل أم ملكية رأس المال . ثم تنظيم إنفاق هذا الدخل على أساس وضع ميزانية للبيت العربى يراعى فيها تحقيق أكبر إشباع بأقل التكاليف الممكنة . إذ على حجم الدخل وحسن التصرف فيه ، يتوقف مستوى معيشة أفراد البيت العربى . فغالباً ما تنشأ المشاكل الاجتماعية الخطيرة من نقص الدخل نقصاً يعجز عن القيام بمطالب الحياة الضرورية أو سوء التصرف فى هذا الدخل حتى ولو كان يفى بهذه الحاجات فيما لو استخدم بحكمة واتزان .

ولما كان الدخل القومى ما هو إلا مجموع دخول الأفراد ، فإنه يتعين علينا أن نلقى ضوءاً على الدخل القومى فى البلاد العربية سواء من ناحية حجمه أو عدالة توزيعه أو وسائل زيادته عن طريق التنمية الاقتصادية بوجه عام والتصنيع بوجه خاص .

إن الهدف الرئيسى من أية سياسه اقتصادية هو رفع مستوى معيشة المواطنين . ويعنى مستوى المعيشة شيئاً أكثر من ضروريات الحياة والرفاهية المادية — إذ يعنى أيضاً بعض العوامل الأدبية والمعنوية كالثقافة والتعليم . . . ويرتفع مستوى معيشة شخص معين عندما يصبح قادراً على إشباع حاجة لم يكن فى مقدوره إشباعها من قبل . وقد تكون هذه الحاجة غذاء جيداً أو ملابس حريرية أو ممارسة للألعاب الرياضية أو مشاهدة للروايات المسرحية أو زيارة للآثار إلى . . . إلخ .

* * *

إن أول مشكلة نواجهها فى البلاد العربية هى كيف نزيد الثروة المادية لنقضى على الفقر . إن العالم الآن لا ينتج من الثروة المادية ما يكفى لإشباع الحاجات الضرورية الأساسية التى يحتاجها الأفراد . فدولة غنية نسبياً كانجلترا لا تستطيع أن تنتج ما يكفى حاجات سائر سكانها ولو اشتغل كل قادر على العمل فى أعمال منتجة . إن إعطاء كل

رجل وامرأة وطفل فى انجلترا — من السلع والخدمات ما قيمته عشرة جنيهات أسبوعياً ، وهذا لا يعتبر ترفاً ، ويتطلب زيادة الإنتاج إلى ثلاثة أمثال ما هو عليه الآن . إن الناس لا يموتون جوعاً فى انجلترا ولكن يعانى عدد كبير من السكان من سوء التغذية . وتقدر هذه النسبة فى الوقت الحاضر بحوالى ٢٥ ٪ من عدد السكان أما فى الإقليم المصرى وسائر الدول العربية ، وإن لم تتوافر لدينا الإحصائيات التى يمكن الاعتماد عليها فإن هذه النسبة لا بد وأن تكون أكثر ارتفاعاً .

والسواد الأعظم من سكان الدول العربية يكونون الطبقة دون المتوسطة ، وينفقون جل دخلهم فى شراء المواد الغذائية ودفع إيجارات المساكن ، أما الفائض القليل المتبقى فينفقونه فى شراء المنتجات الصناعية التى أهمها الملابس . وفى إحصائيات قامت بها وزارة الشئون الاجتماعية فى الإقليم المصرى عام ١٩٥٠ لعينة تقدر بحوالى ١٠ ٪ من عمال الصناعة ، تبين أن هؤلاء العمال ينفقون ٧٥ ٪ من أجورهم على شراء المواد الغذائية كما تبين أن غذاءهم لا يشتمل على اللحوم والبيض واللبن .

وقد قام المستر كولن كلارك K. Klark بعمل مقارنة بين الدول المتقدمة والدول التى لا تزال فى مستهل تقدمها الاقتصادى يتبين منها أن الدول الغنية تنفق ٢٠ ٪ من دخلها القومى فى شراء منتجات الصناعة سواء المنتجة محلياً أو المستوردة ، (يستبعد من هذه النسبة مصاريف التوزيع) بينما تنفق الدول الفقيرة من ٥ ٪ إلى ١٠ ٪ من دخلها القومى فى شراء منتجات الصناعة سواء كانت منتجة محلياً أم مستوردة .

إن غالبية سكان الدول العربية يشتغلون بالزراعة لإنتاج ما يكاد يكفى سد حاجتهم إلى المواد الغذائية . وكلما زادت المقدرة على إنتاج المواد الغذائية قلت نسبة عدد السكان المشتغلين بإنتاجها . وفى الواقع نجد أن أسهل الطرق لقياس إنتاجية أى بلد هو معرفة نسبة عدد السكان الذين تحتاجهم الزراعة لإنتاج المواد الغذائية الضرورية لهذا البلد إلى مجموع السكان الكلى . وتتراوح هذه النسبة فى أغنى الدول كالمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأميركية بين ١٢ ٪ ، ١٥ ٪ على حين أنها ترتفع فى الدول العربية إلى ما يزيد عن ٦٠ ٪ ، مع ملاحظة أن مستوى التغذية فى البلاد التى تستخدم ٦٠ ٪ ، من سكانها لإنتاج المواد الغذائية يقل بمقدار النصف عن ذلك المستوى الذى تكفله الدول المتقدمة والأكثر كفاية باستخدام ١٢ ٪ فقط من سكانها .

وقد زادت إنتاجية كل فرد يشتغل بالزراعة فى المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة أو اليابان بمعدل ٢ ٪ أو أكثر سنوياً على مر الأجيال ، ويعزى ذلك إما لتطبيق العلم على الزراعة وانتقاء البذور واتباع الدورة الزراعية واستخدام المخصبات ومكافحة الآفات أو بسبب استخدام الآلات . أما فى الدول العربية ولو أن المزارعين قد استخدموا غالبية هذه الأساليب فإنهم يحصلون على زيادة فى الدخل لا نتيجة لزيادة كمية المحصولات بوجه عام بل نتيجة للتحول من زراعة المحصولات التى تكفى حاجة السكان من المواد الغذائية إلى زراعة المحصولات التى يمكن تصديرها إلى الأسواق الخارجية . وقد تحول الاقليم المصرى فى فترة عشرين عاماً منذ سنه ١٩٣٩ إلى ١٩٥٩

من دولة مصدرة للحبوب إلى دولة مستوردة للحبوب . ويمثل القمح الآن أهم عنصر فى واردات (مصر) وأهم عنصر فى الجانب المدين من ميزان المدفوعات . وليست هذه الظاهرة قاصرة على الاقليم المصرى إذ تمر الدول النامية والمزدحمة بالسكان بنفس التجربة . فقد تحولت من دول مصدرة للمواد الغذائية إلى دول مستوردة لهذه المواد . وكانت النتيجة إنعكاسا ملحوظاً فى حركة الحبوب المارة بقناة السويس بعد الحرب العالمية الثانية . فبينما كان الاتجاه فيما مضى هو من الشرق إلى الغرب فقد أصبح الآن من الغرب إلى الدول المصدرة للحبوب سابقاً .

وأهم ظاهرة فى هذا التغير هو واقع الحال من أن الدول المصدرة الرئيسية للحبوب هى الدول الصناعية المتقدمة فى شمال أمريكا . وأن فائض المواد الغذائية الذى تجمع أو تراكم لدى هذه الدول قد منح بعضه دون مقابل إلى الدول التى فى حاجة ماسة إليها . ولا تألو البلاد التى تعانى نقص الحبوب جهداً لزيادة الإنتاج المحلى بتحسين وسائل الزراعة ، ومع ذلك فإن استعادة مستويات استهلاك ما قبل الحرب ، على انخفاضها، أصبحت من الغايات التى تستهدف خطط التنمية تحقيقها فى المستقبل . غير أنه إذا كان تحسين الوسائل الفنية لا يكاد يكفى لوقف تدهور مستوى المعيشة لدى جمهرة السكان ، فإنه لا يكفى بأية حال من الأحوال لرفع هذا المستوى . أما الحل الصحيح فينحصر فى زيادة الرقعة التى يزرعها الفرد .

ومهما يكن الأمر فلا مناص من ضرورة العمل السريع لزيادة الإنتاج بكافة الوسائل الممكنة ، وهذا هو السبب الذى من أجله يلح رجال الاقتصاد فى إعطاء الأولوية للزراعة فى كل تخطيط اقتصادى .

إن الحالة فى سائر الدول العربية لم تصل إلى درجة التضور جوعاً ، ولكن نسبة كبيرة من السكان يعانون من نقص التغذية سواء من ناحيه الكم أو النوع، ولم تبلغ الحالة إلى درجه العرى ولكن الكثيرين يلبسون أسمالا بالية . ولا يفترش الكثير الأرض ويلتحفون السماء ولكن يوجد عدد كبير يسكن حجرات لا تتوافر فيها الشروط الصحية .

ويمكن تحقيق زيادة الإنتاج لتخفيف حدة الفقر أو القضاء عليه ورفع مستوى معيشة المواطنين العرب وذلك :

أولا : بزيادة الكفاية الانتاجية للفرد — عن طريق زيادة متوسط مهارة اليد العاملة بالتدريب المهنى والتعليم العام والتحسين فى وسائل الإنتاج وزيادة المعدات الرأسمالية التى تعاون العمل على الإنتاج . وتحقيق حالة التوظف الكامل التى أصبحت من أهم الشعارات الأساسية فى الوقت الحاضر .

ثانياً : زيادة موارد الثروة وذلك بزيادة المساحة المزروعة وتصنيع البلاد وما يتصل بذلك من استثمار رؤوس الأموال الوطنية والأجنبية .

ويعبر عن هذين الهدفين بعبارة واحدة وهى « التنميه الاقتصادية » .

التنمية الاقتصادية فى الدول العربية (١)

أخذت غالبية الدول العربية فى الاندفاع نحو التخطيط الاقتصادى وهى ظاهرة جديدة فى تاريخ هذه الدول بعد الحرب العالمية الثانية . وإنه اتجاه عام نحو التنمية الاقتصادية فى الدول العربية من أجل رفع مستوى معيشة الجماهير وقيام الحكومات بخطط عامة وفرضها لهذه الخطط بواسطة نظام من الاشراف والتدخل حتى تضمن قيام هذه التنمية واستمرارها .

ويقوم التخطيط الاقتصادى فى هذه الدول فى مجتمع تضطلع فيه الحكومات فى الحياة الاقتصادية بدور رئيسى ويؤدى فيه القطاع الاقتصادى الخاص دوراً كبير الأهميه أى يكون الاقتصاد القومى موزعاً بين الحرية والتخطيط .

وليس الطريق سهلا ولا ميسوراً أمام هذه الدول للقيام بالتنمية الاقتصادية إذ تنشأ عدة مشا كل وعقبات عندما تحاول هذه الدول الانتقال من حالة التوازن الرا كد الذى ران عليها لعدة قرون إلى حالة التوازن (الديناميكى) عند مستوى أعلى للدخل القومى . كما أنه توجد عوامل أخرى من شأنها أن تعيق أو تبطىء من التنمية الاقتصادية . ومما يزيد الأمور تعقيداً أن هذه الدول قد استيقظت فى عصر ترغب فيه حكومة كل دولة أن تمتطى صهوة حصانين فى وقت واحد ، حصان المساواة الاقتصادية وحصان التنمية الاقتصادية ، ولما كان هذان الحصانان يسيران فى اتجاه واحد فلا بد من التخلى عن أحدهما ولو لبعض الوقت .

والذى يهمنا فى التنمية الناتج لاعدالة التوزيع . فقد يزيد الناتج بالنسبة لكل فرد ومع ذلك يصبح الشعب أكثر فقرا إما لزيادة معدل الادخار أو هبوط معدل الاستهلاك أو لأن الحكومة تستخدم الزيادة فى أغراضها الخاصة . وينبغى أن نفرق بين زيادة الناتج الكلى (الناتج القومى أو الدخل القومى) وزيادة الناتج بالنسبة لكل فرد من السكان ، إذ قد يزيد الناتج الكلى من السلع والخدمات بمعدل يقل عن معدل زيادة عدد السكان . وأخيرا يهمنا الناتج بالنسبة لكل ساعة من ساعات العمل إذ يختلف الناتج تبعا لطول أو قصر ساعات العمل كما يختلف هذا الناتج أيضاً تبعا لحجم الجزء الموظف من السكان .

وتتوقف التنمية الاقتصادية على عدة عوامل :

١ — الموارد الطبيعية وهذا لا يحتاج إلى بيان إذ أن قلة الموارد الطبيعية تحد دون شك من التنمية الاقتصادية.

٢ — رغبة الشعب فى بذل الجهود التى تؤدى إلى التوفير ، وذلك إما بتخفيض نفقات الإنتاج أو زيادة إنتاجية العمل أو الموارد الأخرى . وإذا أحجم الشعب عن بذله لهذه الجهود فمعنى ذلك أن أفراد هذا المجتمع ليس لديهم رغبة فى التوفير أو لأن العادات والمؤسسات لا تشجع على ذلك .

---

(١) يقصد بالتنمية الاقتصادية زيادة الناتج بالنسبة لكل فرد من السكان .

٣ — زيادة المعرفة وتطبيقها على الإنتاج ، فقد أدى التجمع السريع المعرفة وتطبيقها على الإنتاج إلى نمو الإنتاج فى العصر الحديث بدرجة لم يسبق لها مثيل .

٤ — زيادة رأس المال أو موارد الإنتاج الأخرى بالنسبة لكل فرد من السكان . وبالرغم من تشابك العوامل التى تؤدى إلى زيادة التنمية الاقتصادية فقد جرت العادة على إبراز أحدها بوصفه أكثرها أهمية .

وقد اختلف رجال الاقتصاد فى الشروط التى ينبغى توافرها للتنمية الاقتصادية ، فقد كان من رأى آدم سمث وصف طويل من رجال الاقتصاد من أنصار مذهب الحرية الاقتصادية أن كل ما تتطلبه التنمية الاقتصادية هو المؤسسات الصالحة. فإذا ما وجدت هذه المؤسسات فلسنا فى حاجة إلى الاهتمام ببذل الجهود للتوفير أو لتجميع المعرفة أو رأس المال ، فكلها انعكاسات بشرية غريزية لا يحجمها المؤسسات غير الصالحة . أما بالنسبة للتمس فقد كانت أعظم عقبة فى نظره فى طريق التنمية الاقتصادية فى الدول المتخلفة هى نقص الطلب ، بمعنى أن أفراد المجتمعات فى هذه الدول يفضلون الفراغ على زيادة الدخل .

يضاف إلى ذلك أن الدول العربية تخضع دائما للتقلبات فى التجارة العالمية دون أن يكون لها عليها أية سيطرة فإن كل ما تستطيع هذه الدول عمله فى هذا المجال هو التخفيف من حدة آثار هذه التقلبات على اقتصادها الداخلى وذلك بمنع الأسعار الداخلية من التقلب بنفس الدرجة التى تتقلب بها الأسعار فى التجارة الخارجية والسبيل إلى تحقيق ذلك هو تكين احتياطات من العملات الأجنبية أثناء فترة الرواج للانفاق منها فى وقت الكساد .

وهناك مدرسة أخرى ترى أن عنق الزجاجة فى التنمية الاقتصادية فى الدول العربيه هى نقص المهارة الفنية . وكان برنامج الرئيس ترومان لمساعدة الدول المتخلفة قائما على أساس أن كل ما تحتاجة هذه الدول بصفة رئيسية هو المعرفة الفنية . هذا على حين أن مدرسة أخرى ترى أن رأس المال هو عنق الزجاجة وتزعم أنه إذا ما توافر رأس المال فلا تلبث أن تتوافر المهارة الفنية أما بالنسبه للمؤسسات فإما أن تعدل نفسها بحيث تتلاءم مع التنمية الاقتصادية أو تكتسح ، وتؤكد مدرسة ثالثة أهمية الموارد الطبيعية وتزعم أن كل دولة تحصل على رأس المال والمؤسسات والمهارات الفنية التى تتناسب مع مواردها الطبيعية .

وقد تكون الدول العربية متأخرة فى التيكنولوجية إذا ما قورنت بالدول المتقدمة الأخرى أو فى قلة مواردها الرأسمالية بالنسبة لكل فرد إذا ما قورنت بدول غرب أوربا أو الولايات المتحدة ، أو أن مؤسساتها غير ملائمة للاستثمار ، أو أن لديها الموارد الطبيعية ولكنها لم تستغل بعد ، وأن نصيب الفرد من الناتج القومى أو الدخل القومى منخفض إذا ما قورن بدخل الفرد فى الدول المتقدمة . أو أن القطاع الزراعى يغلب على القطاع الصناعى مما يؤدى إلى انحطاط الدخل الفردى . وقد تكون الدولة أكثر تخلفاً فى أحد المعانى السابقة وأقل تخلفاً فى الأخرى ولكن بوجه عام تجد علاقة وثيقة بينها جميعاً .

(ا) مشاكل التنمية الاقتصادية :

١ — مشكلة التمويل والندرة النسبية لرأس المال .

إن البطالة المقنعة أو المستترة ظاهرة واضحة فى جميع الدول العربية والسبب فى ذلك هو زيادة القطاع الزراعى على القطاع الصناعى ووجود عمال زراعيين يزيدون عن حاجة الأرض ولا يجدون استخداماً فى ميادين أخرى نظراً لقلة الموارد . والعلاج هو تكوين رأس المال الذى يخلق الموارد الجديدة أو يجعل الموارد القائمة أكثر استخداماً بحيث تكفل هذه الموارد التوظف الكامل للسكان ومن ثم تقترن مشكلة التوظف بجميع مشاكل التنمية الاقتصادية. وقد يساعد خلق الائتمان على التنمية الاقتصادية. ولكن إذا لم يحسن استخدامه فغالباً ما يؤدى إلى مساوىء التضخم. وقد تتدخل الحكومة لرفع معدل التنمية الاقتصادية بإكراه الشعب على الادخار ولكن هذا المعدل يتوقف إلى حد كبير على النسبة بين الأرباح والدخل القومى فيقل الادخار عندما تقل الأرباح ويزيد حجم الادخار باتساع القطاع الرأسمالى وزيادة الأرباح .

ولما كان مستوى الدخل القومى فى الدول العربية منخفضاً ويقل معدل الاتجاه نحو المساواة فى الأرباح ، فإن زيادة معدل الادخار لا يتم إلا عن طريق فرض ضرائب تثقل كاهل التجار وأصحاب الأعمال والملاك الزراعيين أو عن طريق التضخم . والمشكلة التى تواجه حكومة الهند الآن هى هل من الميسور إجبار الشعب على أن يزيد من مدخراته بمقدار الضعف دون أن يؤدى ذلك إلى التذمر ؟

إن الدول العربية أكثر حاجة إلى الادخار من الدول المتقدمة ولكنها أقل منها مقدرة على ذلك نظراً لانخفاض مستوى دخلها القومى ، ولكن ليس معنى ذلك أن الدول المتخلفة لا تستطيع أن تزيد من معدل تكوين رأس المال ، ومن الأمثلة على ذلك روسيا واليابان. وقد قام التضخم والضريبة العالية (الادخار الإجبارى) بدور هام فى التنمية الاقتصادية فى هاتين الدولتين . ويذكرنا الادخار الإجبارى فى روسيا بما كان يفرضه الحكام الأتوقراطيون فى العصور القديمة على شعوبهم من آلام مبرحة وجوع وحرمان وموت . إن أهرامات مصر وهياكل بابل وبعلبك وسور الصين العظيم إنما تمثل كلها مدخرات إجبارية ، وقد زاد الإنتاج فى روسيا منذ سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٩ بمعدل ٣ ٪ سنوياً كما كان يزيد فى اليابان بنفس المعدل ابتداء من سنة ١٨٧٠ على حين لم يكن يزيد الإنتاج فى الولايات المتحدة بأكثر من ٢ ٪ سنوياً (ويجب أن نفرق بين زيادة الإنتاج وزيادة الاستهلاك فلم يزد مقدار ما يستهلكه الروسى فى سنة ١٩٣٩ عما كان يستهلكه فى سنة ١٩٢٩ وذلك لاستخدام الموارد فى الصناعات الرأسمالية والأغراض الحربية) .

وقد ركزت روسيا اهتمامها فى التصنيع وأهملت الزراعة إلى حد ما ، فقد وصل حجم إنتاجها من الصناعات الكبيرة فى سنة ١٩٣٩ إلى ثلاثة أمثال ما كان عليه فى سنة ١٩٢٩ على حين لم يزد المحصول الزراعى إلا بنسبة صغيرة . وقد أدى اختلال التوازن بين الصناعة والزراعة إلى حدوث تضخم مروع بلغ ٧٠٠ ٪ فى الفترة السابقة

الذكر . وهناك من يعزو النجاح الاقتصادى فى روسيا إلى التخطيط الاقتصادى المركزى وحده ولكن الحقيقة هى أن هذا النجاح يعزى أيضاً إلى المستوى العالى لتكوين رأس المال الذى استطاعت روسيا تحقيقه .

ومما يؤيد هذا الرأى أن اليابان زاد إنتاجها بنفس المعدل الذى زاد به الإنتاج الروسى دون تخطيط مركزى .

وقد امتازت اليابان بأن اهتمامها بالزراعة لم يكن أقل من اهتمامها بالصناعة ولكن لم ينجها ذلك من فترة الثلاثين عاماً السابقة على قيام الحرب العالمية الأولى .

ويتبين لنا من ذلك أن زيادة معدل تكوين رأس المال للتنمية الاقتصادية لا يمكن تحقيقه دون تضخم . إن تكوين رأس المال بنسبة ١٠ ٪ من الدخل القومى يمكن تحقيقه عن طريق الادخار الاختيارى والضرائب أما إذا ارتفعت هذه النسبة إلى ١٥ أو ٢٠ ٪ فلابد من الالتجاء إلى التضخم. ويسهل تكوين رأس المال إذا كان الشعب يشارك الحكومة فى ضرورة تحقيق أهداف التنمية الاقتصادية لأنه ييسر عمليـــة الادخار الاختيارى .

وتستطيع الدول الكبيرة ذات الموارد الواسعة والأجواء المختلفة كروسيا أو الولايات المتحدة والصين أن تستعيض بمنتجاتها الوطنية أثناء عملية التنمية الاقتصادية عن الواردات الأجنبية، أو بمعنى آخر يمكن أن يزيد دخلها القومى دون أن يؤدى ذلك إلى زيادة مقابلة فى السلع المستوردة، أما الدول الصغيرة ذات الموارد المحدودة فعادة ما تؤدى كل زيادة فى الدخل القومى إلى زيادة مقابلة فى استيراد منتجات الصناعة والمواد الخام من الخارج. وإذا كان السكان يزيدون بسرعة تفوق الطاقة الإنتاجية فإن الأمر يتطلب استيراد كميات إضافية من المواد الغذائية ، ومن ثم ففى أى برنامج للتنمية الاقتصادية فى الدول المتخلفة الصغيرة ينبغى منح الأولوية للتوسع فى إنتاج السلع التى يمكن تصديرها ومحاولة غزو أسواق خارجية جديدة .

ومما يزيد الموقف تعقيداً سهولة حصول هذه الدول على قروض أجنبية تخفف من الحاجة بصفة مؤقتة إلى زيادة الصادرات، ولكن عندما يحل موعد الوفاء بأقساط الديون وفوائدها فلا بد من زيادة الصادرات على الواردات . وأكثر ما تكون هذه المشكلة صعوبة فى حالتين، الأولى عندما تكون المواد الغذائية الجزء الأكبر من الصادرات، فإذا كان معدل زيادة السكان يربو على معدل زيادة الإنتاج فيضطر المستهلكون الوطنيون إلى أكل المواد الغذائية التى كانوا يصدرونها كما حدث فى الأرجنتين، والثانية عندما تكون الدولة مزدحمة بالسكان ، وقد بدأت فى عملية التصنيع وتسعى جاهدة لغزو أسواق خارجية جديدة تصرف فيها منتجات صناعتها التى تلقى منافسة شديدة من منتجات الدول التى سبقتها فى ميدان التصنيع ، ولكن ينبغى ألا يحول ذلك دون محاولة هذه الدولة اختيار السلع التى يمكن تصديرها والأسواق التى تصرف فيها .

وما العجز فى رصيد الدولة المتخلفة من العملات الأجنبية إلا انعكاس الفشل فى المحافظة على توازن صحيح بين الصناعات التحويلية والزراعية . إن كل زيادة ينتجها كل من القطاعين يؤدى إلى زيادة طلب كل قطاع على منتجات القطاع الآخر . وأى عجز فى أحد القطاعين يلقى عبئه على ميزان المدفوعات .

إن النمو السريع فى الصناعة يتطلب النمو السريع فى الزراعة إذ سوف يحتاج عمال الصناعة إلى مزيد من المواد الغذائية ، كما أن التوسع فى الزراعة يتطلب توسعاً فى الصناعة حتى تستطيع الأيدى العاملة الإضافية فى الصناعة من استيعاب منتجات الزراعة .

ولا يعنى التوازن فى النمو بين الزراعة والصناعة النمو المتساوى إذ تتوقف معدلات النمو فى الزراعه والصناعة على مقدار الطلب، على منتجات كل من القطاعين .

وعلى الدول المتخلفة التى تعانى من فائض الأيدى العاملة غير الماهرة أن تمتنع عن استخدام الآلات فى الزراعة إذ يعتبر استخدام الآلات فى هذه الحالة ضياعاً من وجهة النظر الاجتماعية ، إذ تستطيع الأيدى العاملة أن تؤدى نفس العمل الذى تؤديه الآلات وبنفس الكفاية . إن استخدام الآلات فى الزراعة يكون مربحاً لكبار أصحاب الأراضى الزراعية ولكنه غير مربح بالنسبة للمجتمع، إن أكثر ما يكون رأس المال إنتاجاً عندما يستوعب الأيدى العاملة العاطلة ، كما يكون منتجاً أيضاً عندما يمكن امتصاص الكمية الإضافية المنتجه دون أى تخفيض فى حجم التوظف .

ولكن ماذا يحدث لو أن رأس المال المستخدم يزيد من الناتج القومى ولكنه يقلل من حجم التوظف؟ إن المعول عليه من الناحيه الاقتصادية هو ما يحدث للناتج القومى الكلى لا ما يحدث للتوظف .

ولكن من الناحية السياسية يتعذر إحلال رأس المال مكان العمل إذا نشأ عن ذلك بطالة على نطاق واسع .

إن الندرة النسبية لرأس المال تؤثر على كل من اختيار المشروعات وكذلك على الوسائل التى تستخدم فى التنفيذ، فالقاعدة الاقتصادية العامة هى استثمار رؤوس الأموال فى مشروعات تكون فيها الانتاجية الحدية لرأس المال أعلى ما يمكن ، ولكن هناك مشروعات حكومية وبصفة خاصة مشروعات المنافع العامة لا ينظر إلى عائدها عند القيام بها بل إلى الخدمات التى تؤديها للمجتمع . ومن الأمثلة على ذلك تعبيد الطرق وتحسين وسائل الموصلات وإنشاء محطات توليد الكهرباء ومحطات المياه . . . الخ . هذا مع ملاحظة أن مشروعات المنافع العامة تساعد على زيادة إنتاج صناعات أخرى .

وقد جرت الدول النامية على أن ترسم خططاً وتضع مشروعات تعلم مقدماً إن تنفيذها يفوق طاقتها المالية والفنية . ولذلك نقدم النصح إلى هذه الدول بأنها إذا أرادت الاعتماد على نفسها دون حاجة إلى قروض أو معونة أجنبية وما قد يقترن بها من نفوذ سياسى للدولة المقرضة أن تقصر برامج تنميتها على ما تستطيع القيام به فى حدود طاقتها المالية ، أما الخبرة الفنية والإدارة فأمرها هين ، فليس التوسع فى الصناعة من الناحية الفنية والإدارة بأشق من التوسع فى الجيش . ومن ثم ينبغى ألا يحول نقص المهارة الفنية والإدارة عن السير قدماً فى برامج التنمية الاقتصادية وبصفة خاصة التصنيع وذلك باستقدام الخبراء الفنيين والإداريين من الخارج أو تدريبهم فى الداخل .

المشاكل الاجتماعية والسياسية :

١ — تحدث التنمية الاقتصادية تغييرات واسعة المدى وعميقة الأثر فى العلاقات الاجتماعية وخاصة إذا جاءت هذه التنمية بعد ثورة عنيفة . فالثورة الاجتماعية تهديد دائم للعلاقات والروابط القائمة ، إذ يمر المجتمع بفترة من التجربة والاختبار تطرح فيها القيم الأخلاقية القديمة قبل أن تثبت دعائم القيم الجديدة أو تختلط القيم الجديدة بالقديمة دون تماسك، إن آلام الانتقال التى تقترن بالتنمية الاقتصادية السريعة إنما تكمن فى تحويل المجتمع عن طريق معين فى الحياة إلى طريق آخر ، ولا يمكن تجنب هذه الآلام إلا إذا أمكن تجنب التغيير نفسه ولكن هيهات . فالتغيير ميل كامن فى طبيعة الإنسان ومن ثم فإنه ضياع للوقت أن نفكر فى وقف التغيير الاجتماعى ، فجميع المؤسسات القائمة لا بد لها وأن تزول فى يوم ما . إننا لا نستطيع أن نمنع التغيير وكل ما نستطيعه هو أن نبطىء من خطاه أو نسرع منها ولكن الإبطاء ليس عمليا فالتنمية الاقتصادية قائمة فى كل مكان حتى فى التبت .

وهناك عاملان رئيسيان يحتمان على الدول النامية الإسراع بخطى التنمية الاقتصادية ، أولهما أن الآمال التى عقدتها هذه الدول على التنمية الاقتصادية قد جاوزت مقدرتها على الإنتاج ، وثانيهما أن معدلات الوفيات أسرع فى هبوطها من معدلات المواليد . فقد رسخ فى أذهان غالبية شعوب هذه الدول أن الفقر لا مبرر له وأنه يمكن القضاء عليه بمجرد الثورة على ملاك الأراضى الزراعية أو أصحاب الأعمال أو رجال الدين أو الزعماء السياسيين ، إن الفجوة بين الآمال والإنتاج فى اتساع مستمر، وهنا يكمن خطر بالغ ، فخيبة الأمل التى قد تصاب بها هذه الشعوب قد تتمخض عن أى شىء ، ويخشى الكثيرون أن تكون الشيوعية هى النتيجه وإن لم يعد لهذه الكلمة معنى محدود ، كما يخشى فريق آخر من انتشار الفاشية ، ويرى فريق ثالث احتمال انتقال سلطة الحكم إلى المتعصبين من رجال الدين .

إن الإسراع فى التنمية الاقتصادية أمر تحتمه الظروف ، فالذين يعتقدون أنه من الخطأ الإسراع بخطى التنمية الاقتصادية بسبب آثارها السيئة على العلاقات الاجتماعية ومبادىء الأخلاق غالباً ما يغفلون أن النتائج التى تترتب على خيبة الأمل قد تكون أشد خطراً وأبعد أثراً .

ويلاحظ أن قيام حكم دكتاتورى ليس ضرورة تقتضيها التنمية الاقتصادية فقد أظهر زعماء كل من بورما وساحل الذهب وهما دولتان ديمقراطيتان متخلفتان إرادة وشجاعة يسرت لهم مع استنادهم إلى تأييد شعبى توفير الموارد الضرورية لهذه التنمية .

(ب) العوامل التى تعرقل التنمية الاقتصادية :

١ — قد تعرقل حكومات الدول العربية التنمية الاقتصادية بوضع العقبات فى وجه نشاط الأجانب أو فى طريق المبادلات الخارجية ، إن التوسع فى التجارة الخارجية عادة ما يكون نقطة البداية فى الزيادة من معدل التنمية

الاقتصادية . يضاف إلى ذلك أن الأجانب يصطحبون معهم مهارات جديدة وأذواق جديدة ورؤوس أموال . وقد يقترن استثمار رؤوس الأموال بالاستغلال أو النفوذ السياسى ولكن ليس معنى ذلك إغلاق الباب فى وجه الأجانب .

٢ — وقد تؤخر الحكومات التنمية الاقتصادية بتقصيرها فى الإنفاق على الخدمات العامة إذ تتطلب التنمية الاقتصادية تعبيد الطرق وإنشاء محطات توليد الكهرباء والاهتمام بالتعليم والصحة العامة . ولكن هذا النقص لا يعتبر خطيراً إذا كانت الفرص متاحة أمام المنظمين الفرديين لتوفير هذه الخدمات .

٣ — قد تعرقل الحكومات التنمية الاقتصادية بالتبذير فى استخدام موارد الدولة . فتسرف فى إنشاء المرافق العامة والمبانى الضخمة والقاعات الفخمة، ولو أن هذه الأعمال تسهم بطريق غير مباشر فى زيادة الإنتاج فإن بعض وجوه النشاط قد يكون أكثر إنتاجاً من غيرها . إن إسراف الحكومة فى الإنفاق على القطاع العام يعنى أنها تستخدم موارد كثيرة كان يمكن استخدامها فى القطاع الخاص بطريقة أكثر إنتاجية، وقد يمكن الدفاع عن هذا اللون من التبذير فى الدول التى يوجد بها فائض من الأيدى العاملة بفرض أنها إذا لم تستخدم فى هذه الأغراض فستظل عاطلة وفى هذه الحالة تعتبر تكلفة استخدام الأيدى العاملة العاطلة شيئاً نسبياً إذا لم يقترن بها استخدام الموارد النادرة الأخرى كالمواد الخام والعدد والآلات، ولكن هذا الشرط يندر أن يتحقق .

٤ — لم تتخلص الحكومات المتخلفة بعد من الفساد والرشوة فلا يزال بعض الموظفين والسياسيين يرون أن من حقهم تكوين ثروات عن طريق الرشوة والمحسوبية .

٥ — إن لارتفاع معدلات الضرائب آثاراً سيئة جداً على الدوافع .

٦ — ضعف الجهاز الإحصائى فى هذه الدول — ويعزى الفشل الجزئى لمشروع الخمس سنوات الأول بالصين الشعبية إلى اعتماد لجان التخطيط على إحصائيات بعيدة عن الدقة .

ميزانية البيت العربى

لم يعد الإنسان كما كان من قبل ينتج سلعاً ليستهلكها بنفسه بل ليستبدلها بغيرها هو فى حاجة إليها . وقد أصبحت النقود هى الأداة الرئيسية لهذا التبادل . ومن ثم فقد أخذ اعتمادنا على النقود يزداد بصفة مستمرة . وعلى الإنسان لكى يصبح مستهلكا حكيما كفأ أن يتعلم كيف يستطيع تنظيم دخله على الوجه الأكمل . وهذا يتوقف إلى حد كبير على كيفية تخطيط الفرد لميزانيته . ويكره كثير من الناس فكرة الميزانية بحجة أنهم لا يرغبون فى أن يتبعوا أنفسهم بالأرقام أو أن مجرد وضع ميزانية يستل البهجة من الحياة .

إن الميزانية ليست أكثر من خطة . والنظرية التى ثبتت صحتها مراراً هى أنه إذا استخدمنا عقولنا أو فكرنا ملياً قبل أن نقدم على الانفاق فإننا نحصل على قدر من الإشباع يفوق ذلك القدر الذى نحصل عليه لو لم نفكر .

وتشمل الميزانية عنصرين أساسيين :

١ — تقدير الدخل .

٢ — خطة لاستخدام هذا الدخل .

تقـــدير الدخل :

الدخل إما أن يكون مكتسباً ومصدره العمل أو غير مكتسب ومصدره ملكية رأس المال، ومن ثم نجد أن مصادر الدخل للبيت العربى أو دخل أفراد البيت العربى — على أساس أن كل بيت عربى يكون أسرة وأن الأسرة هى وحدة اقتصادية — هى :

(ا) دخل العمل وهى الأجور أو المرتبات والمكافئات أو الأتعاب .

(ب) دخل المشروعات التجارية والصناعية والزراعية .

(حـ) المعاشات .

(ء) المنح المختلفة .

(هـ) التأمين .

(و) التعويضات المختلفة .

(ز) ألوان مختلفة من الكسب حسب مقتضيات الظروف .

(ح) مساعدات من الأقارب والأصدقاء سواء كانت عينية أو نقدية.

(ط) ماتغله سندات الحرب أو المدخرات الأخرى .

ويلاحظ عند حساب الأجر أن ندخل فى الحساب مقدار الأجر الذى لا يمكن التصرف فيه أى نخصم من الأجر أقساط التأمين الاجتماعى والتأمين العام واشتراكات النقابة والضرائب .

وإذا كان بعض الأطفال فى الأسرة من العاملين الذين يحصلون على أجر فقد يكون من الضرورى أن نخصص قدرا أكبر من النفقات للتعليم والترفيه، وينشأ عن تقلبات الدخل نتيجة للعمل غير المنتظم أو الموسمى مشاكل خاصة بتخطيط الميزانية، ويمكن حل هذه المشكلة بإيجاد متوسط الدخل.

وإذا كانت الزوجة من العاملات فإن أجرها يضاف إلى الدخل الكلى للأسرة ولكن قد يؤدى ذلك إلى زيادة نفقات المعيشة للأسرة بدرجة ملحوظة .

وقبل أن ننظر فى أبواب الميزانية للبيت العربى يحسن بنا أن نشير إلى بعض النقط ذات الأهمية الخاصة .

إننا لانستطيع أن نصمم ميزانية طيبة بمجرد استعراض سجلات دقيقة لوجوه إنفاقنا السابقة ثم ننسج على نفس المنوال فى المستقبل . إن كل ما تستطيع تجربتنا السابقة أن تدلنا عليه هو مقدار ما نتوقع إنفاقه على ضروريات الحياة من مأكل وملبس ومسكن .

إن الميزانية هى وسيلة لمساعدتنا على أن نحصل على أكبر قدر من الإشباع بواسطة مواردنا المحدودة التى لا تكفى لإشباع جميع حاجاتنا ورغباتنا . إن الميزانية تساعدنا على أن ننفق دخلنا على جميع السلع والخدمات التى نستهلكها بحيث تتعادل المنافع الحدية لجميع هذه السلع والخدمات، أى بحيث نضع كل قرش فى موضعه ولا نسرف فى الإنفاق على الغذاء على حساب الملبس أو المسكن ولا نسرف فى الإنفاق على المسكن على حساب الغذاء أو الملبس وهكذا . إن كل فرد له سلم تفضيل خاص إذ يرتب حاجاته تبعا لدرجة إلحاحها بالنسبة له ثم يخصص المبالغ التى ينفقها على كل من هذه الحاجات تبعا لدرجة أهميتها، وفيما يلى أهم أبواب الميزانية :

١ — الغذاء .

٢ — الملبس واللوازم الشخصية .

٣ — المسكن .

٤ — لوازم المنزل .

٥ — العلاج والأدوية .

٦ — الترفيه .

٧ — التعليم والمواصلات .

٨ — النثريات .

الغذاء :

إن الغذاء المناسب من حيث النوع والكمية أمر ضرورى لنمو الأطفال نموا سليما ولحماية الصحة فى جميع الأعمار . وإن أنواع الغذاء المطلوبة تكاد تكون واحدة بالنسبة للجميع ولكنها تختلف من حيث المقادير باختلاف السن والجنس والظروف الطبيعية المحيطة بهم .

فمن حيث النوع يجب أن يشتمل الغذاء على ما يأتى : البروتينات والكاربوهيدرات والدهنيات والفيتامينات والأملاح المعدنية والماء .

والتقدم الحديث فى علم التغذية جعل فى الإمكان تقدير ما يحتاجه كل فرد من المواد الغذائية نوعا وكما بدرجة معقولة من الدقة .

ويمكن استخدام هذه الاحتياجات لتقدير ما ينبغى أن ينفق على شراء المواد الغذائية كحدأدنى، كما تساعد الحكومات التى تدفع إعانات لتخفيض أسعار المواد الغذائية على تقدير مبلغ هذه الإعانات ، فمثلا تدفع الحكومة البريطانية من الميزانية العامة حوالى ٤٠٠ مليون جنيه كل عام إعانات تخفيض أسعار المواد الغذائية وذلك لتضمن لأفراد الشعب حدا أدنى من التغذية، ولم تستخدم الجمهورية العربية المتحدة نظام إعانات المواد الغذائية إلا فى حالة الخبز فقط . ولم تنجح الدول العربية ولا بقية دول العالم نجاحا كاملا فى تحديد الأسعار ومراقبتها بغية توفير السلع الضرورية للطبقات الفقيرة بأسعار تتناسب مع دخلها كوسيلة من وسائل تيسير سبل العيش على الطبقات الفقيرة ذات الدخل المحدود . فقد تبين من التجربة أنه يتعذر تنفيذ نظام التسعير الجبرى دون أن يؤدى ذلك إلى خلق السوق السوداء . وكلما زاد عدد السلع المسعرة زادت الصعوبة وزاد احتمال الانهيار والفشل .

إن أضعف نقطة فى سياسة الحكومات فيما يتعلق بالتسعير الجبرى هو استنفاد جهودها فى محاولة ضمان توزيع عادل للسلع الضرورية التى نقص المعروض من كمياتها فى السوق وارتفعت أسعارها تبعا لذلك . وقد فاتها أن الأهم هو بذل الجهود واتخاذ الخطوات اللازمة لزيادة الكميات المعروضة بشتى الوسائل الممكنة . وكمبدأ عام ينبغى ألا تلجأ الحكومة إلى سلاح التسعير الجبرى إلا عند الضرورة القصوى وفى أضيق الحدود الممكنة على أنه إجراء مؤقت يجب التخلص منه بأسرع ما يمكن .

إن الحكومة التى تستخدم سلاح التسعير الجبرى ثم لا تصل إلى نصر حاسم فى معركة ارتفاع الأسعار واختفاء السلع تشيع الفوضى والارتباك فى جهازها الاقتصادى .

ويعتبر البروتين أحد المواد الرئيسية لبناء وتموين خلايا الجسم ويأتى نصف مقدار البروتين الذى يحتاجه الإنسان يوميا من المصادر الحيوانية كالجبن واللبن والبيض واللحم والسمك وتأتى البقية من الخبز والحبوب والخضروات وقد لاحظ البعض أن العامل الغربى أكثر نشاطا من العامل الشرقى لأن الأول يعتمد فى غذائه على جزء كبير من البروتينات على حين أن الثانى يعتمد فى غذائه على جزء كبير من النشويات .

٢ — الملبس :

إن الغرض من الملابس هو الوقاية من المؤثرات الجوية شتاء وصيفا . فيشترط أن تكون ملابس الشتاء بحيث توفر حرارة الجسم وتصونها ، وأن تكون ملابس الصيف بحيث تكفل للجسم الانتعاش والتخلص من حرارة الجو الخانقة ، وأن تكون من الوفرة بحيث توفر للشخص النظافة والتخلص من مضايقات العرق .

وقد لاحظ الأستاذ آرثر لويس أن الدول التى فى مستهل نموها الاقتصادى لا ينفق سكانها أكثر من ٥٪

من دخلهم القومى على الملابس على حين يجب أن تبلغ هذه النسبة من ١٠٪ إلى ١٥٪ من الدخل القومى . ويعتبر توفير الملابس بالنسبة للأسر المحدودة الدخل فى البلاد العربية من المشاكل الصعبة لأن أسعار الملابس مرتفعة نسبيا فى هذه البلاد . فالرسوم الجمركية على الملابس المستوردة تكاد تكون مانعة فى إقليم مصر . . ورغم زيادة الكمية المنتجة من الأقمشة فى هذا الإقليم فإن أسعارها تعد مرتفعة بنسبة تتراوح بين ٨٠٪ و ١٠٠٪ عن الأقمشة المماثلة التى يمكن استيرادها من الخارج . ولذلك ينبغى العمل على رفع الكفاية الإنتاجية للعامل المصرى حتى يمكن تخفيض تكاليف الإنتاج وتيسير الحصول على الملابس لأفراد الأسر ذات الدخل المحدود . إن مصانع الغزل والنسج فى الإقليم لا تزال تعيش فى ظل حماية جمركية فرضت منذ ثلاثين عاما وكان المفروض أنها حماية مؤقتة حتى تستطيع الصناعة الوليدة أن تقف على قدميها . لقد مر على هذه الصناعة الآن أكثر من ثلاثين عاما ولما تزل فى طور الطفولة من ناحية الحماية الجمركية وإن كان تقدمها من الناحية الفنية قد قطع أشواطا بعيدة .

وتزيد مشكلة توفير الملابس الضرورية تعقيدا كلما زاد عدد الأطفال فى الأسرة. ويمكن التغلب على الصعوبات التى تعترض الأسرة حين شراء الكسوة أو على الأقل التقليل من حدتها، وذلك بإقتطاع جزء شهرى من الأجر أو المرتب لغرض الكسوة، واستعمال الطرق الاقتصادية فى تقدير أنواع الملابس المطلوبة وانتهاز فرص « الأوكازيونات » وحملات التخفيض والتصفية وشراء بعض الأشياء فى نهاية الفصول واختيار الملابس التى تعمر طويلا، مع ملاحظة أن هذه كلها وسائل ثانوية تأتى فى الأهمية بعد محاولة تخفيض أسعار الملابس التى تنتجها المصانع العربية تخفيضا ملموسا عن طريق زيادة الكفاية الإنتاجية والتلويح بتخفيض الرسوم الجمركية على السلع المستوردة وبحث المصانع على زيادة كفايتها الإنتاجية .

٣ — المسكن :

يلاحظ بوجه عام أن مساكن الغالبية العظمى من سكان الدول العربية لا تتوافر فيها الشروط الصحية ، فهى ليست من الاتساع بحيث تكفى لإيواء الأسرة براحة ودون ضيق . وليس ارتفاع السقف معقولا بحيث تسهل التهوية ، كما أنه ليس فى الجدران من النوافذ ما يسهل هذه العملية .

وهذا ما ينطبق على بيوت الفلاحين فى الريف المصرى بوجه خاص . ومن المفروض أن تعيش كل أسرة فى مسكن ريفى على الأقل باحتياجاتها من الصحة والأمان والنفع ويتفق بقدر الإمكان مع مستوى المعيشة الذى تعود عليه أفراد هذه الأسرة . ومن أهم العوامل التى تؤثر على اختيار المسكن عدد أفراد الأسرة من ذكور وإناث وترتيبات النوم وبعض الاعتبارات الخاصة كأن يكون أحد أفراد الأسرة مريضا بالقلب . وينبغى أن يكون عدد الحجرات كاف بحيث ينفرد الأم والأب بحجرة وكل من البنات والصبيان بحجرة خاصة على الأقل . على أن يكون البيت مزودا بالكهرباء للإنارة بدلا من البترول وليس هذ أملا بعيد التحقيق . فإن العلم الحديث جعل ما كان يعتبر بعيد المنال قريب المنال .

وينبغى أن يلاحظ فى المسكن القائم بالمدينـــة أن يكون بعيدا عن التلال التى تتراكم فيها القاذورات والميكروبات وأن يكون بعيدا عن المصانع التى يتصاعد منها الدخان والأتربة وأن يكون بعيدا مدن من الموتى وقريبا من المواصلات .

ومن مزايا المسكن الصحى أن ساكنه يتمتع بصحة جيدة تمكنه من تأدية واجباته بهمة ونشاط ، كما يقل احتمال تعرضه للأمراض ، ومن ثم يوفر ما كان ينفقه على العلاج فيما لو وقع فريسة للمرض .

وعند تقدير إيجار المسكن يجب أن ندخل فى الاعتبار عدد الحجرات المظلمة التى تحتاج إلى إنارة أو تدفئة ، فإن إيجار مثل هذه المساكن يعتبر مرتفعا ولو كان يبدو أنه منخفضا . وعندما تملك الأسرة بيتا خاصا يجب أن أن تدخل فى الاعتبار نفقات الصيانة والتجديد والتأمين والضرائب . إن هذه النفقات يجب خصمها من الدخل الكلى للأسرة .

ويرتبط الأثاث بالمسكن، إذ يجب أن يكون الأثاث كافيا أى يفى بحاجات أفراد الأسرة اليومية من نوم وأكل ونظافة وراحة واجتماع .

والبيت الذى يكفل سهولة الحياة اليومية يتمتع ساكنه بنوع من الأمان والاستقرار كما يمنع الصراع الخلقى الذى يتسبب عن الضيق أو قلة محتويات المسكن ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك اشتراك عدد كبير من الأطفال فى مخدع واحد ومشاركتهم فى غطاء واحد يسمح بتجاذب هذا الغطاء . ولسنا فى حاجة إلى الإفاضة فى الأضرار الخلقية التى تنشأ عن هذه المشاركة وخاصة إذا كان الأطفال من الجنسين .

كما يلاحظ أن البيت ينبغى أن يكون مستكملا من ناحية معدات الأكل وأدوات المطبخ وجميعها غير متوفرة بدرجة كبيرة فى غالبية البيوت الريفية . وينبغى ألا تحول قلة الدخل عن تزيين البيت ، والمقصود بالزينة فى هذا المقام هو مراعاة النسب والألوان والأحجام والتناسق فيما نختاره لبيوتنا من أدوات وتحف بسيطة لا تكلف كثيرا . فالبيت الجذاب يدعو ساكنيه إلى قضاء وقت الفراغ داخله سواء بمفردهم أو بصحبة الأصدقاء .

وقد تبين من الاحصاءات التى قامت بها جمعية الأبحاث الإحصائية بجامعة القاهرة (كلية التجارة) عن ميزانية الأسرة المصرية بالقاهرة عام ١٩٥٠ ، أن الأسرة المصرية تستدين فى المتوسط وفى جميع الأحياء بغير استثناء مبلغا يقل قليلا عن جنيه ونصف وهذا يوضح سوء الحال التى تعيش فيها الأسر المتوسطة الحال فما بالنا بالفقيرة ؟ وأن نسبة العجز فى الميزانية للبيت المصرى إلى الدخل يبلغت حينذاك نحو ٦٪ وهى نسبة مرتفعة .

إن العلاج الرئيسى فى نظرنا هو زيادة الإنتاج بقصد زيادة الدخل القومى ثم توزيع هذا الدخل على جميع المواطنين بما يكفل العدالة .

وفيما يلى أهم الملاحظات على زيادة الإنتاج :

١ — إن مضاعفة الإنتاج أو زيادته لا تتيسر بين عشية وضحاها . فجميع طرق الإصلاح التى تهدف إلى زيادة الانتاج تستغرق وقتاً طويلا ، كما أن هناك أعمالا لا يمكن أن يزيد الفرد من إنتاجه فيها . فليس من السهل مثلا مضاعفة المقالات التى يكتبها الصحفى فى اليوم أو عدد الأميال التى يقطعها سائق السيارة فى اليوم أو عدد التذاكر التى يقطعها « الكمسارى » . . . الخ .

٢ — يزيد إنتاج العامل حين تزيد مجهوداته فيه أو يطيل من ساعات عمله ، إما رغبة فى الحصول على أجر إضافى أو رهبة من سيف البطالة المعلق فوق رأسه . ولكن ليس من الديمقراطية أن يستهلك الانسان نفسه فى العمل لكى يرفع مستوى معيشته أو يجبر على ذلك . فالديمقراطية الحقة أن يترك للعامل فى ظل العمالة الكاملة حرية الاشتغال ساعات إضافية أو التمتع بساعات فراغه .

٣ — ينبغى أن يفكر الانسان فى نفسه كمستهلك قبل أن يفكر فيها كمنتج إذ ماجدوى ارتفاع الأجور النقدية إذا اشترى بها كميات أقل من السلع والخدمات — إن جنة المنتجين هى جحيم المستهلكين — ولذلك يتعرض الجمهور لأخطار شديدة عندما يحكمه جماعة من المنتجين .

٤ — يؤدى اشتداد المنافسة بين المنتجين إلى زيادة الكمية المنتجة وإلى انخفاض الأسعار فلماذا لا تقيد المنافسة الحرة إلى عرشها إذا كانت تؤدى هاتين الخدمتين الجليلتين وهما زيادة الانتاج وانخفاض الأسعار ؟ ولكن يكاد يكون ذلك مستحيلا الآن .

٥ — من الصناعات ما يصلح للتأميم ومنها ما يحسن أن يترك للمشروع الفردى . فالمرافق العامة والصناعات الرئيسية والصناعات التى تعتمد إلى حد كبير على الإعانات الحكومية كشركات الطرق مثلا ينبغى أن يؤمم على أساس إنشاء أكثر من مؤسسة واحدة أو هيئة واحدة لكى تقوم حالة التنافس . وتتوقف مكافآت المديرين فى هذه المؤسسات المتنافسة على زيادة الانتاج وليس على زيادة الأرباح . أما المشروعات التى تتطلب المخاطرة والخيال الخصب فينبغى أن تترك للأفراد .

٦ — لا نكاد نجد شركة لم تعنها الحكومة أو تساعدها فى وقت ما . فالمشروع الفردى كما قال روزفلت أمانة عامة . وفشل المشروع ضياع للجهود والأموال ، فينبغى على الحكومة أن تتدخل إلى حدما وفى حدود ضيقة جداً للتأكد من أمانة القائمين عليه

الصناعات المنزلية وأثرها الاقتصادى والاجتماعى

فى البيت العربى

للدكتور شكرى المراغى

(الجمهورية العربية المتحدة)

المجتمعات العربية ومدى استعدادها لبرامج الإنعاش :

إن المجتمعات العربية مجتمعات زراعية وهى بطبيعة الحال أقل تقدماً من حيث الإنعاش الاجتماعى ، وبالرغم من أن هذه المجتمعات تتشابه من حيث الوضع الاقتصادى نسبيا إلا أنها تختلف اختلافاً كبيراً فى مميزاتها من حيث تمسكها بالتقاليد وحرصها على التراث القديم .

وليس من شك أنها كمجتمعات زراعية أو يغلب عليها الوضع الزراعى يكاد ينطبق عليها الوصف « المجتمعات الانطوائية » فهى أكثر التفافاً حول ذاتها من المجتمعات التى لعبت الصناعة دوراً فى تطورها . ويعتبر البيت العربى نقطة الارتكاز لكل إصلاح منشود أو تقدم مرغوب فيه ، بوصفه النواة للمجتمع العربى .

وترجع أسباب تمسك هذه المجتمعات بالتقاليد والحرص على التراث القديم إلى انعزالها إما لقلة المواصلات أو لبعد شقة المسافات، وهذه العزلة من شأنها تقوية الروابط المحلية وتغلبة الشك بكل غريب مما يتطلب ، عند الرغبة فى التعامل أو اتخاذ وسائل إصلاح لهذه المجتمعات فى أى عمل من أعمال الإنعاش ، أن يكون الاتصال بطريقة غير مباشرة مع الأفراد وألا يتورط المصلح فى تنفيذ مشروع لا يسبقه اقتناع البيئة به وتأييدها له .

ويعتبر « البيت » جزء من الأجزاء الثلاثة التى يقوم عليها النشاط الاقتصادى فى المجتمع الريفى الذى يمثل ثلاثة أرباع المجتمعات العربية لأن (العائلة ـ والمزرعة ـ والبيت) مشروع واحد متكامل تقوم العائلة فيه بالعمل ، وهو المصنع الصغير لممارسة الحرف اليدوية .

وفى ضوء هذه الحقائق تظل المشكلة الكبرى ، وهى إيجاد الوسائل العملية التى تنبثق منها المساعدة الذاتية وتنطلق الإمكانيات فى بيئات هذه المجتمعات التى تعنى كثيراً بمعرفة نوع المعونة التى ستقدم لها من الخارج ، ومدى حسن النية فى الاعتقاد بأنها معونة مقصود بها تحسين أحوال البيئة نفسها ، ومن ثم كانت إشاعة «الفهم» ضرورة أوليه لتذوق وتقبل مثل هذه الإعانة الوافدة على البيئة من الخارج وحتى لا يتسرب الشك والريبة فى مقدميها .

البيت العربى كنواة للمؤسسة الاجتماعية :

« والبيت العربى » هو مجتمع صغير . وهو النواة للمؤسسة الاجتماعية (القرية ـ أو المدينة العربية) وكلا الاثنين جزء متمم للحياة المدنية العربية فى شتى نواحيها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، فهو يتأثر إلى حد كبير بالعلاقات القائمة بين العوامل الاقتصادية والاجتماعية لأنها علاقات وثيقة الصلة والمستوى الفكرى عند أفراد البيت العربى . وقد ترجع أسباب انخفاضه إلى انخفاض مستوى المعيشة بجانب الجهل المتفشى فى المجتمع . ذلك لأن ضآلة الدخل يصحبها فى الغالب انعدام الاستقرار بالنسبة للأفراد الذين يعيشون فى قلق نتيجة للضيق الاقتصادى الذى يذهب بطمأنينتهم .

ومن ثم نرى أن تحسين الأحوال الاجتماعية فى هذا البيت يتوقف على توفير عدة عوامل لها أهميتها الكبرى فى تحقيق التقدم للأسرة ، وهى عوامل مباشرة وغير مباشرة ولكنها جميعها متشابكة ومتصلة من حيث أنها وسائل لتحقيق الغاية .

العوامل الواجب توافرها لتحسين الحالة الاجتماعية :

قد تكون هذه العوامل كثيرة ومتعددة ، إنما نعتقد أن فى مقدمتها لربط الوسائل ببعضها ما نجمله فى الآتى :

١ — توزيع الثروة المتوافرة من « المعرفة » التى تتناول المجتمعات العالية بصفة عامة . والتى تشيع فى المجتمعات العربية بصفة خاصة بحيث تنقل إلى المجتمعات التى لم تستكمل مقومات النهوض ألوان المعرفة ووسائل الفهم لتستطيع شق طريقها صوب الرقى والتحضر .

٢ — محاولة تنمية دخل الأسرة فى البيت العربى عن طريق إيجاد مورد إضافى يساهم فى إيجاد الإنعاش لهذه الأسرة .

٣ — الاهتمام بالاستفادة من الموارد البشرية للبيت العربى قدر المستطاع والعمل على تحويل هذه الطاقات إلى عمل ، ومن ثم إلى إنتاج ، فإلى دخل .

٤ — النفاذ بالموارد الفنية من التدريب والتوجيه والأجهزة والأدوات إلى البيت العربى بحيث يمكن استخدام هذ الطاقة الإنسانية غير المستغلة فى عمل مثمر يعود على الأسرة العربية بالنفع .

٥ — إشاعة وعى « الفهم والثقة » بالاتجاهات العصرية حتى يتحرر البيت العربى من بعض التقاليد التى تحول دون الانتفاع بالجهود الفردية أو الجماعية للأسرة العربية فى مشروعات إنتاجية منزلية تزيد فى دخل الأسرة .

٦ — العمل على تثبيت الإدراك لدى الأسرة العربية لكى تؤمن بأن فى الإمكان تحويل « أوقات الفراغ » إلى قيم مادية تسهم فى اقتصاديات البيت العربى .

٧ — تنمية روح « الصداقة والتعاون » — عن طريق استخدام الوسائل السمعية والبصرية — ما بين الأدوات والأجهزة التى يمكن أن تؤدى إلى ثمار إيجابية منعكسة فى « إنتاج » له قيم اقتصادية وبالتالى نتائج إنعاش حتمية .

٨ - عدم إغفال مستويات الاستعدادات والمهارات الفنية الموجودة بل السائدة فى البيت العربى، بحيث يراعى فى وضع البرامج التى تحقق هذه الأهداف تناسقها مع هـــذه المستويات فلا تكون أعلى من منسوب هذه الاستعدادات والمهارات وكل اختلاف قد يتسبب عنه عدم الوصول للغاية المنشودة .

٩ — تطبيق نظم « الاختيار » الحديثة على الإخصائيين الذين يناط بهم أمور التوجيه لتنفيذ البرامج لدى الأسر فى البيت العربى بحيث يجمعوا بين المهارة الفنية والقيادة (الريادة) الاجتماعية ليكون الاتصال بالأسرة أساسه الثقة ، وثماره وليدة التعاون المتبادل .

١٠ — اعتبار «الصناعة المنزلية» إحدى الوسائل العملية التى بمقتضاها تنشط الأسرة العربية للعمل ولاستغلال وقت الفراغ لإنتاج سلع منوعة ومناسبة للاستهلاك يترتب على تسويقها زيادة فى دخل الأسرة العربية .

الصناعات المنزلية كوسيلة إنعاش :

إن الأرقام والإحصائيات التى تحتويها تقارير الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ومنظمة الأغذية والزراعة التابعة لهيئة الأمم المتحدة تشير وتدلل على أن ما يقرب من ٧٠ مليونا من سكان العالم العربى (شمال أفريقيا ولبنان والعراق والسعودية واليمن والأردن) يعيشون فى الغالب على الموارد الزراعية مما جعل مستوى الدخل فيها منخفضا بخلاف ما هو ملحوظ من ارتفاع الدخل فى البلدان المتقدمة صناعيا .

وانخفاض الدخل من شأنه انخفاض مستوى المعيشة وانخفاض المستوى الغذائى وانخفاض الإنتاج وعدم التمشى مع تطورات العصر من حيث الاتجاه صوب التعليم للتغلب على الأمية الفاشية فى هذه المجتمعات لعدم القدرة المالية مما يعرقل سير نهضات التعمير التى تقوم فى البلدان العربية فى الوقت الحاضر أو على الأقل يبطىء من زحفها وقطف ثمارها .

فالسياسات التى تهدف إلى تنمية وسائل الدخل فى البلدان العربية سياسات تتجمع فى خطة واحدة مشتركة نظرا للتشابه الكبير بين هذه المجتمعات من حيث أنها زراعية ومزدحمـــة بالسكان بمقادير متفاوته تزيد على طاقة أراضيها الزراعية .

وتعتبر «الصناعات المنزلية» والصناعات الريفية بوجه عام من الوسائل العملية لتنمية الدخل للأسرة العربية فى الحضر والريف ، ويكفى أن يكون هدفها الأول استخدام الطاقات البشرية والاستفادة منها بدلا من تعطلها .

«والصناعات المنزلية» صناعات حرفية وصغيرة قد يزاولها أحد أفراد الأسرة كحرفة يتفرغ لها للكسب، أو تمارسها الأسرة مجتمعة متعاونة بقصد استغلال « أوقات الفراغ أو الهواية » . وبالرغم من الغايات التى من أجلها تمارس فى شتى صورها فهى تدر دخولا متفاوته للأسرة وهذه الدخول تتكيف ونوع الصناعة ومستوى الإنتاج منها .

ولقد ثبت أن هذه الصناعات بوضعها المنزلى وبطابعها اليدوى صناعات تتميز بالدقة أحيانا لأنها إنتاج يدوى لازمته الأناة وكان إنتاجها متحررا من اتجاهات التوسع أو الوفرة ، فهو إنتاج صغير وعلى ثلته له خصائصه الفنية من حيث الجودة والمتانة والإبداع الزخرفى ، فهو إنتاج له ذوقه الخاص سواء كان إنتاجا ريفيا أم حضريا ، وهذا الذوق يطبعه بطابع مميز لا يخضعه لمنافسة إنتاج الآلة فى كثير من الأحايين .

نشأة الصناعات المنزلية :

والدعوة « للتصنيع المنزلى » يجب ألا يغفل معها تاريخ قيام الصناعات بصفة عامة لأنها أول ما بدأت كانت حرفا تزاول فى المنازل سواء فى الريف أم الحضر ، ثم تدرجت فخرجت إلى الورش والحوانيت . وتطورت فغدت مصانع ذوات أحجام صغيرة أو كبيرة . وهذا التدرج وذلك التطور يقتضينا ونحن نبحث أثر هذا النوع من التصنيع على كيان البيت العربى أن نتعرف الدوافع لقيام الصناعة والعوامل الاقتصادية والاجتماعية التى أثرت على هذه الصناعات لنتبين مدى القابلية لتعميمها والاستعداد للتجديد فيها وإمكانيات ضمانات البقاء عليها .

وأول ما نعرف أن قيام الصناعة كان لغرض الاكتفاء الذاتى لسكان القرية المنعزلة ثم لاستجابة طلبات القرى المجاورة، فهى صناعات استمدت مقومات الاتجاه إليها من الحاجة الملحة لها . وكان لها طابعها الذى يوائم ذوق البيئة ، ويلائم القدرة الشرائية لها مع الاحتفاظ بمبدأ تصنيع الخامات المتوافرة فى القرية .

هذا من ناحية الدوافع التى ساعدت على قيامها ، أما من ناحية العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى أثرت فيها فإنه من غير ما شك عندما تقاربت الشقة وانتشرت شبكات المواصلات وغمرت الأسواق بالمنتجات الأجنبية كان ولابد من أن ينال هذه الصناعات نصيب من التطور قد يكون فى صورة الإقبال على مزاولة الصناعة من غير ما حرج بعد أن كانت قاصرة على جماعة من الصناع المهرة الذين يتوارثون الحرف ويدربون عليها أبناءهم . ثم كانت الرغبة فى مواجهة التزامات البيت العربى فاجتذبت بعض الصناعات النساء والفتيات وتدخلت الحضارة فى الأدوات والتركيبات فظفر بعضها بتحسينات زاد معها الإنتاج وارتفع مستواه ، وكان الهدف تنمية الدخل الذى تحصل عليه الأسرة لما له من الأثر المباشر فى حياتها وكيانها ، وبقى الكثير من هذه الصناعات محتفظا بطابعه الفنى أو الزخرفى أو الشعبى ، وفى كثير من الأحوال كان الإنتاج الشعبى مطبوعا بطابع يدل على مناطق الإنتاج ، كما كان الإنتاج الفنى أو الزخرفى أداة تعبير عن حقب تاريخية، وكانت هذه الصناعات المنزلية والصغيرة كما تستخدم الأدوات تستخدم كذلك قوى الإبداع والابتكار الكامنة فى الشعوب العربية .

ولا يمكن «للصناعات المنزلية» ، وهى كما أسلفنا جزء من النشاط الاقتصادى للبيت العربى، أن تفصل عن الكيان الاقتصادى العام للمجتمع الذى تعمم فيه . ومدى انتشارها وثيق الصلة بالأوضاع والنظم القائمة بالشرق العربى ، خصوصا وأن هذه النظم تراث الماضى فى أدواره المتعاقبة ، بالإضافة إلى أن الأمة العربية بالذات فى كثير من النواحى تعيش فى ماضيها بقدر ما تعيش فى حاضرها أو فى مستقبلها بحكم أن نظمها أصيلة وغير مستعارة ، فمن دون شك أنها تتدخل كعامل له أهمية فى برامج « التوسع والانكماش » لهذه الصناعات .

والصناعات المنزلية صناعات ذات طابع ريفى إن كانت فى المنزل القروى وذات طابع فنى إن كانت فى الحضر لأن الصناعات فى الريف تعتمد على خامات القرية فهى صناعات لمماسلة بنوع الخامة وبحاجة القرية إليها ، وفى غالب الأحيان تكون صناعات ذات مستويات معينة وقد ينقصها التجهيز النهائى ويعوزها الصقل والذوق ، وفى الغالب يكون مستهلكها رجل الريف فى بيته أو فى حقله ، وبعضها تكون سوقه الحضر ، فى حين أن الصناعات المنزلية فى الحضر تعتمد على خامات ريفية ، وفى الغالب تكون صناعات تكميلية أى أن تكون الخامات نصف مشغولة فمثلا صناعة النسيج تعتمد على خيوط الغزل التى سبق إعدادها فى المصانع وصناعة زخرفة الخزف والفخار عملية تكميلية لمنتجات صنعت فى مصنع آخر وقد تكون القرية إحدى مصادره . والصناعات الجلدية الصغيرة تعتمد على جلود مدبوغة فى المدابغ ، والأقمشة تعتمد على أقمشة ومنسوجات تم تجهيزها فى المصنع ، فهى تكاد تكون صناعة تكميلية لمراحل صناعية سابقة ويكون فى الغالب الجانب الصناعى المنزلى جزئيا يتلاءم والمنزل ويتعادل مع مران واستعداد السكان .

ويمكن تقسيم الصناعات المنزلية التى ينطبق عليها هذا الوصف بالذات إلى الآتى :

١ — حرف يدوية ريفية وخاماتها قروية وهى صناعات أصلية أو صناعات مؤقتة فى مواسم البطالة وأوقات الفراغ وهى ذات طابع شعبى .

٢ — حرف يدوية مكانها المنزل فى الحضر وهى صناعات تجمع ما بين أغراض الكسب واستغلال أوقات الفراغ أو الهواية . وهى ذات طابع فنى .

وهذه الصناعات تستخدم الطاقات البشرية من :

١ ـ الرجال والبالغين والأطفال .

٢ ـ النساء والفتيات .

أما أدوات هذه الصناعات فهى أدوات وأجهزة بسيطة . وفى الجملة فإن هذه الصناعات تتميز بالآتى :

١ ـ أنها لاتحتاج لرءوس أموال كبيرة ، بل إن رءوس الأموال التى تحتاج إليها فى مستوى الأسرة .

٢ ـ أن المنزل يصلح لأن يكون لها بمثابة المصنع .

٣ ـ أنها تعتمد على جهود الأسرة أو فريق منها .

٤ ـ أنها تساهم فى سد حاجة الاستهلاك المنزلى .

٥ ـ أن أرباحها مجزية لأن مواردها إضافية من جهة ولأنها تستنفد وقت الفراغ بالإضافة إلى أنها تشبع رغبة وتحقق هواية .

على أننا لو حللنا هذه « الصناعات المنزلية » تحليلا فنيا فى ضوء تنوع إنتاجها ومستويات هذا الإنتاج والذوق الفنى الذى يطبع به لأمكننا تقسيمها إلى الآتى :

١ ـ صناعات أصيلة نشأت واحتفظت بطابعها الفنى والزخرفى الذى يعكس تراث أزمنة غابرة ويمكن نعتها بالصناعات الفنية .

٢ ـ صناعات أصلية تجردت من الطابع الفنى والزخرفى لأن إنتاجها استهلاكى بحت ونوعه ملائم للبيئة المنتجة له ولما حواليها من بيئات مجاورة .

٣ ـ صناعات وافدة أو دخيلة روعيت فيها التقاليد لحاجة الاستهلاك من جهة ولتحل محل سلع مستوردة مرتفعة الثمن من جهة أخرى .

٤ ـ صناعات تمثل جزء من مراحل صناعية ، وفى الغالب تقوم هذه الصناعات فى المناطق الصناعية حيث تحتاج بعضها إلى تجهيزات لمراحل صناعية أولية أو نهائية .

وإذا تركنا الجانب الاقتصادى أو بمعنى أدق النصيب المادى الذى تساهم به دخول هذه الصناعات فى إنعاش الأسرة ، فإننا يجب ألا نغفل أن الصناعات المنزلية وهى الصناعات التى لا تحتاج لرأس مال كبير ولا يعجز من يزاولها عن توفيره ، بالإضافة إلى أن التدريب عليها سهل ، وهى صناعات بابها مفتوح يستقبل كل راغب عمل من أفراد الأسرة ، فضلا عن إتاحتها الفرص للأخذ بالاتجاهات العصرية الراقية من حيث الاستفادة من جهود النساء المعطلة ، ومجرد شعور المرأة بالمساهمة فى اقتصاديات البيت العربى سيكسبها شخصية جديدة ويشعرها بأنها ذات مسئولية مما يمكنها من أن تكون أداة محافظة على كيان البيت .

ومما يعين على الأخذ بهذا الاتجاه أن « التصنيع المنزلى » لا يتعارض مع تقاليد الأسرة العربية التى ألفت مزاولة هذه الصناعات الصغيرة فى مخيمات العرب الرحل كما ألفته منازل الحضر من زمن بعيد .

وتوفير هذا العامل الموروث من شأنه التغلب على الشكوك التى قد تساور الأسرة عند المحاولة فى دعوتها للأخذ بأساليب الصناعة المنزلية ، كما يساعد على تطبيق السياسة التى بمقتضاها تنفذ برامج هذا النوع من التصنيع سواء ما يتصل منها بوسائل التدريب أو أسس الإنتاج أو طرق التسويق ، مما يكفل معه تحقيق رسالة هذه الصناعات من حيث المساهمة فى إيجاد الرفاهية الاجتماعية للأسرة العربية .

السياسة العملية للصناعات المنزلية :

ولقد أثبتت التجارب أن الإنتاج المنفرد مآله الفشل أو فى هو القليل إنتاج طريقه مليئة بالأشواك والصعوبات لأن قوام صلاحية هذا الإنتاج تتوقف على الآتى :

١ — المهارة الفنية .

٢ — حسن اختيار الأدوات والأجهزة التى يزيد معها الإنتاج مع الجودة .

٣ — نوع الصناعة التى يحتاج لها السوق المحلى أو الخارجى .

٤ — نوع الصناعة التى يجزى العمل فى ممارستها وتتوافر خاماتها .

٥ — نوع الصناعة التى يمكن أن تستخدم فيها جهود الأسرة مجتمعة أو متعاونة .

٦ — نوع الصناعة التى تتفق والميول والاستعدادات .

٧ — نوع الصناعة التى لا ينافس إنتاجها الآلة .

٨ — نوع الصناعة التى يكون التدريب عليها سهلا .

وفى ضوء ما تقدم تبرز أهمية الحاجة إلى « التدريب » وإلى توفير الخامات « والأدوات والأجهزة » وإلى « تسويق المنتجات » .

التدريب :

فنشر الصناعات المنزلية مهما كان نوع إنتاجها مرهون أمر نجاحه بمدى كفاية المشتغلين بها ومهارتهم الفنية ويعتبر التوجيه الفنى من مستلزمات السياسة للتصنيع المنزلى .

أما الوسائل إليه فمتوقفة على الأوضاع الجغرافية للبيئة ، فقد تكون المنازل أو المخيمات متباعدة وغير مركزة كما هو الحال فى قرى الريف وفى مخيمات الأعراب أو فى المدن الجبلية بالدول العربية وفى هذه الحالة فإنشاء « مركز للتدريب الصناعى » فى وسط هذه المجموعات قد يكون من الوسائل العملية الناجحة . ولقد أخذت بهذا النظام

بعض الولايات بأمريكا ، فولاية « كنتاكى » تعمر جبالها بهذه المراكز التى يفد إليها الراغبون فى التدريب والاشتغال بها فى آن واحد وتعتبر « مراكز إنتاج » علاوة على التدريب .

وجزيرة « بورتوريكا » قد أخذت بهذا النظام أيضا فى المناطق الجبلية ومناطق التعمير ، أما فى المدن التى يتركز فيها البناء فقد أخذ التصنيع المنزلى فيها طابع التخصص فاعتمد على الإخصائيين والموجهين فى المنازل وأذكر أن بإحدى مدن هذه الجزيرة أكثر من عشرة آلاف امرأة يزاولن صناعة المناديل اليدوية إذ ترد إلى العملاء بهذه المدينة من أمريكا الأقمشة وتتولى النساء العمليات الصناعية الآتية :

القص - حياكة الأطراف - تطريز الحروف ثم الغسل والكى ، وتموّن هذه المدينة بالناتج أكبر المؤسسات الخاصة بالبيع فى نيويورك وشيكاغو وسان فرنسسكو .

كما أن مدينة أخرى بالجزيرة نفسها قد تخصص الأهلون بها فى صناعة السجاد المطرز بواسطة إبرة ذات خطافين . وترد إليها الخامات من أمريكا عن طريق وكالات العملاء الذين يوزعونها على المنازل ثم يتولون جمعها وإعادتها مصنوعة لتفرش بالفنادق المنتشرة بولايات أمريكا .

أما التصنيع المنزلى فى بعض المدن الصغيرة أو المنازل المنتشرة على جانبى الطرق الجبلية فيعتمد فى الغالب على « الجمعيات التعاونية » التى تمد المشتغلين بهذه الصناعات بحاجاتهم من خامات وهى التى تجمع منهم المنتجات لتتصرف فيها بالجملة بمعرفتها ، وهو نظام ناجح ثبتت صلاحيته لتمكين الأفراد والجماعات من مواصلة العمل والإنتاج .

والمستعمرات الهندية ببعض الولايات الأمريكيه مثل : - آريزونا - ومكسيك الجديدة - وجزر فرجن (بالبحر الكاريبى) اعتمد التصنيع المنزلى فيها على التدريب الوراثى ويكاد يكون الإنتاج شبه عائلى ، وبالرغم من أنه إنتاج منوع إلا أنه وراثى ، فالعائلات الهندية تشتغل بالصياغه فى المعادن ويتوارث أبناؤها هذه الصناعة ، وكذلك الذين يشتغلون بصناعة الأكلة وغيرها . وفى جزر فرجن (سانت توماس وسانت كروس) حيث يغمرها هنود أصليون وأجانب وافدون مستوطنون ، فإن الصناعات المنزلية وراثية لكل من الجماعتين ، والصناعات التى يزاولها الهنود الأصليون غير التى يمارسها الأجانب المستوطنون ، وكل جماعة برعت فيما تنتج ولا توجد منافسة لاختلاف نوع الإنتاج ، وإنما جمعهم لواء موحد هو « التعاون » الذى يسر لهم الحصول على الخامات وتصريف المنتجات فى معارض دائمة .

ونظام مراكز التدريب معمول به فى الهند ويعتبر جزء من سياسة الصناعات القروية بها . والجهود مبذولة فى الهند لرفع مستوى الإنتاج عن طريق رفع مستوى الأدوات والأجهزة .

الخامات والأدوات والأجهزة :

الأدوات والأجهزة هى الوسيلة لتحويل الخامات إلى منتجات يتوقف على نوعها كميات الإنتاج ومدى جودته

وإتقانه . لأن القوى البشرية ما هى إلا أداة استخدام لهذه الأدوات والأجهزة ، وبقدر حداثتها بقدر زيادة إنتاجها وقدرتها على إخراج إنتاج له صفات الجودة والذوق المقرونين بالتجهيز النهائى الكامل اللازم لاستكمال المراحل الصناعية المختلفة .

والخامات المتوافرة قد تصلح لإنتاج سلعة معينة ألفها الصناع وتذوقها السوق المحلى ، ولكن قد تكشف البحوث العلمية والتجارب العملية عن إمكانية استخدامها فى مدى أوسع ، فإذا بها تصلح لإنتاج سلعة راقية وبالاشتراك مع جزء من خامة أخرى قد تصلح لإنتاج سلعة أرقى تكون الحاجة إليها أدعى والسوق إليها أحوج ، وبدلا من أن يكون تصريفها قاصرا على السوق المحلى يتجاوزه إلى السوق الخارجى .

وهذا يدعو لأن تشتمل السياسة التصنيعية على إنشاء محطات تجارب لإجراء البحوث على مختلف الخامات المتوافرة فى البلدان العربية ومعرفة مدى الإمكانيات المختلفه للاستفادة منها صناعيا بحيث يكون تحويلها إلى منتجات مربحا من الناحية الاقتصادية . وأن تقرن هذه البحوث الخاصة بالخامات ببحوث مماثلة على الأدوات الموجودة حاليا للتحرر من بدائيتها أولا ، ولتماشى الأجهزة المستحدثة تطورات الانتفاع من الكفاية الإنتاجية والخامات التى استكملت « محطات التجارب » بحوثها فى أوسع مدى وعلى أسس اقتصادية سليمة ثانيا .

وبهذا تسير الخامة بجانب الجهاز من حيث الرقى الصناعى جنبا إلى جنب ، لأن تأخر أحدهما عن الآخر ضار بالإنتاج من حيث مستواه وكمياته .

التسويق :

« والتسويق » المرحلة النهائية للسياسة التصنيعية المقترحة وعليه يتوقف نجاح أو فشل برامج التصنيع المنزلى فبوار المنتجات وعدم تصريفها مهما كانت قيمة جودتها ومستوى نوعها ، معناه توقف المشتغل بالصناعة عن متابعة الانتاج . وبالتالى الحرمان من المورد الاضافى الذى روعى فيه أنه دخل يسهم فى إنعاش الأسرة .

وأهمية « التسويق » لا تقل عن أهمية « الصناعة » نفسها إن لم تك تعادلها ، ومن ثم كان لزاما عند وضع السياسة التصنيعية المنزلية أن يكون للتسويق أولويته ، فهو الذى يقرر سلامة الناحية الاقتصادية للصناعة والمصير الذى ينتظرها فى المستقبل . « فالتسويق » يعتبر بمثابة « البوصلة » التى توجه بمقتضاها برامج التصنيع بصفة عامة ، وبرامج التصنيع المنزلى جزء منها .

على أن « الصناعات المنزلية » على صغر أحجام المنازل التى تمارس فيها إلا أن لها من القيم الفنية التى تجعل أسواقها غير قاصرة على السوق المحلى بل قد تتجاوزه إلى الأسواق الخارجية خاصة ما كان منها شعبيا وفنيا يعكس أو يصور تقاليد وعادات أو يعبر بزخارفه عن حقب من التاريخ الغابر .

وحسبنا أن بعض بلدان الدول العربية قد اتجه تصنيعها اليدوى المستمدمن تقاليدها وعاداتها إلى الانفراد ببعض صناعات معينة لها صفاتها ولها مميزاتها التى لا تجاريها فيها دولة عربية أخرى ، واحتفظت كل منها بنوع الإنتاج الذى حمل اسمها وأضحى اسما تجاريا فى الأسواق . ومضت السنون وتطورت الصناعة وبقى الناتج يؤكد ثبات هذه المنتجات لتقلبات السوق . ولا بد أن الإنتاج الفنى المصحوب بالجودة إنتاج قادر على الصمود لكل منافسة وهى تجربة صالحة لأن تكون قاعدة يعمل بها فى الصناعات المنزلية .

ونسوق على سبيل المثال لا الحصر بعض منتجات الصناعات المنزلية التى انتشرت بحواضر وقرى البلدان العربية وكلها تعتبر منتجات ذات قيمة ولها خاصيتها ومميزاتها منها :

١ — منتجات خان الخليلى (أقمشة حريرية — منتجات مزركشة أدوات نحاسية — صياغة فضية — نجارة زخرفية بالحفر والأصداف — مصنوعات جلدية وغيرها) . الأقليم المصرى

٢ — السلال . وصناعات القش (ببلاد النوبة) . »

٣ — القصابة (قماش مزركش حريرى) . تونس

٤ — منتجات موسلين (الموصل) — دامسكو (دمشق) — شراشف ومناشف سوريا

٥ — الأقمشة الملونة المزخرفة (المجدل) . فلسطين وغزة

٦ — الشيلان والأكلة العربية . الصحراء الغربية

وغير هذه الأمثلة الكثير ، ففى كل بلد عربى إنتاج معين انبثقت فكرته من وحى حاجة البيئة ونبعت تصميماته وزخارفه من تقاليد المجتمع وعاداته الموروثة .

الصناعات المنزلية التى يرجى نجاحها :

(ا) صناعات النسيج بأنواعه للمنتجات الصغيرة (فوط . بشاكير . مفارش . مناشف . كوفيات . شيلان سيدات . طواقى مختلفة لأغطية الرأس) .

(ب) التطريز بمختلف أنواعه وطباعة الأقمشة بالألوان .

(حـ) الملابس الجاهزة للسيدات وبخاصة ملابس الأطفال (التى تستخدم الفضلات) ولعب الأطفال من الأقمشة .

(د) الصناعات الجلدية (الحافظات — أدوات المكاتب — الأحزمة — حقائب السيدات — براويز الصور — أغلفة الكتب — علب الحلوى وغيرها) .

(هـ) الصناعات الخشبية (أدوات المكاتب — لعب الأطفال — منتجات الحفر والتطعيم بالأصداف) .

(و) الصناعات الخزفية وتقتصر الصناعة فيها على الجانب الزخرفى .

(ز) أشغال التريكو والإبرة .

(ح) العطور والروائح .

(ط) السجاد والأكلمة .

(ى) صناعات القش ومشتقاته .

(ك) الصناعات البيئية الاستهلاكية .

كيف نبقى على هذه الصناعات بعد تعميمها ؟

إن التطور الصناعى والتطور الاجتماعى سيعملان ولا شك على تقلص هذه الصناعات وسيبقى منها الهوايات. والصناعات التى تنتج سلعالازمة لزوما حتميا للبيئة ، فأعراب الصحراء الغربية بمصر وليبيا لا يستغنون عن الشيلان والأحزمة والأكلمة لأن طبيعة العيش تحتم عليهم اقتناء هذه المنتجات . ونساء تونس لايستغنين عن « القصابة » كجزء من جهاز العروس وغيرها .

والتقدم الصناعى سوف يغرق الأسواق بمنتجات قد تكون أقل جودة ولكنها براقة جذابة لأن الآلة الحديثة أوجدت انقلابا من حيث الكمية والنوع .

كما أن التطور الاجتماعى من شأنه إشاعة الرقى على أسس من نشر التعليم واستثمار الموارد الزراعية والمعدنية فى نطاق أكبر مما يصحبه استخدام طاقات الجماعات المتعلقه ببرامج الإصلاح والتعمير ، فتنكمش البطالة ويصبح العمل فى الصناعات المنزلية يكفى الدخل دون سواه .

ولكن بالرغم من هذه التنبؤات ، وإلى أن يأخذ التطور سبيله التدريجى ، فإن الحرص على بقاء هذه الصناعات المنزلية كوسيلة للإنعاش يقتضى أن تساهم الدول فى تدعيم سياسة تنميتها بنشرها وتعميمها وكذلك حمايتها بمضاعفة رعايتها والعناية بالقائمين بها . وفيما يلى بعض التوصيات التى نضعها تحت نظر الدولة الراغبة فى إدخال برامج التصنيع المنزلى لتطبق منها مايتلاءم والصناعات الموجودة بها .

١ ـ نشر التدريب سواء بالمراكز الصناعية أو بتوجيه من المشرفين الفنيين والإخصائيين الصناعيين بالمنازل .

٢ ـ إيجاد « محطات تجارب صناعية » لاختيار الخامات وتعرف مدى استخدامها والاستفادة منها ولاستبدال الأدوات البدائية بأدوات وأجهزة حديثة .

٣ ـ استخدام « التعاون » كلما تهيأت فرص التجمعات ليلعب دوره فى التمويل «والتسويق » .

٤ ـ إنشاء بيوت فى العواصم والأمكنة التى يرتادها السياح لتكون بمثابة معارض دائمة لعكس النشاط الصناعى فى المنزل وتصريف منتجاته فى الوقت نفسه .

٥ ـ الاستفادة من إقامة المعارض لخلق روح المنافسة والمباراة بين المشتغلين والمشتغلات بهذه الصناعات للارتفاع بمستوى الإنتاج واستكمال رقيه .

٦ ـ استغلال المواسم والموالد والأعياد (وهى كثيرة بالبلدان العربية) فى العرض والتصريف لهذه المنتجات خصوصا وأن الكثير منها مستمد من التقاليد الموروثة وملائم لهذه المواسم والأعياد .

٧ ـ العمل على إيجاد نظام من شأنه إمداد الأسر بالمواد الخام وجميع المنتجات (الموحدة المواصفات لسهولة التصريف) بجهاز منظم ليحصل المشتغلون على أجورهم وأرباحهم دون إبطاء ليتذوقوا حلاوة الكسب العاجل الذى يلتقى وسيكولوجية ممارسى هذه الحرف .

٨ ـ متابعة النشاط الصناعى المنزلى لتعرف المشكلات والعمل على تذليلها أولا بأول قبل إزمانها حتى لا يتسرب اليأس للمشتغلين بها فتنتقل عدوى اليأس إلى دائرة أوسع خصوصا وأنها صناعات لشغل أوقات الفراغ ولتنمية الموارد المنزلية ، ومن السهل العدول عنها بوصفها صناعات غير أساسية .

٩ ـ إستخدام القدرات الفنية الموجودة فى الدول العربية لإعداد التصميمات والرسوم التى تمثل التقاليد والعادات وتوزيعها بالمجان لتكون طابع الإنتاج الصناعى المنزلى .

١٠ ـ منح مكافآت تشجيعية للنابهات والنابهين الذين يثبتون مهارة وتكشف الصناعة عن نبوغ عندهم ليكونوا رواداً ومرشدين فنيين يستفاد بهم « كخمائر صناعية » لهذه الصناعات .

خاتمة

ولئن أمكن — بواسطة تطبيق هذه السياسة أو بتطبيقها معدلة حسب كل دولة وظروفها — الزحف بهذه الصناعات أو ببعضها بحيث تنتشر فى المنازل وتقف على قدميها من غير ما تعثر ، فما لاشك فيه سيكون لها نصيبها الملحوظ فى تنمية دخول الأسرة وبالتالى فى خلق إنعاش فى البيت العربى سيترتب عليه إزالة كل أو بعض عوامل الضيق والقلق اللذين يخيمان على الأسرة كنتيجة لقلة الدخل ، وسيجعل البيت العربى مستقراً إلى حد ما لأن العامل الاقتصادى كثيراً ما كان السبب فى هدم كيان البيت ، بجانب أن خلق الشخصية لأفراد الأسرة لممارسة هذه الصناعات من شأنه تمكين الأسرة من مواجهة ظروف القلق والضيق بثبات، فضلا عن إيجاد حلول لها لأن «العمل» أيا كان نوعه سبيل لفتح الآفاق الجديدة والآمال الواسعة .

التعاون ووظائفه الاقتصادية للبيت العربي

للأستاذ أمين يونس الحسيني

(المملكة الأردنية الهاشمية)

تمهيد :

إن البيت جزء لا يتجزأ من النظام الاجتماعي ، ويتضمن أكثر من مجموعة من العلاقات العرضية الموجودة في مجتمعنا العربي، كما وأنه يؤلف نظاما من العلاقات الخاصة به ، تلك العلاقات التي ينقلها جيل إلى جيل وتقرر السلوك العام للبيت في مجتمعنا مع تباين أفراده . وهكذا فإن البيت هو وحدة اجتماعية ، تشابه غيرها من الوحدات الاجتماعية الأخرى ، بيد أنها تتميز بخصائص تجعلها فريدة في بابها .

والبيت هو الوحدة الأساسية للمجتمع . فكل منا عضو في بيت واحد ، ومعظمنا أعضاء في بيتين ، فالبيت الذي ولدنا فيه يعني بنا عادة في طفولتنا حينما نكون لا حول لنا ولا قوة ، كما يعنى بتغذيتنا وتعليمنا في حداثتنا ، ويزيد في تثقيفنا حينما نكون في دور المراهقة ، وأخيرا يخرجنا إلى العالم رجالا ونساء ناضجين ، أما البيت الذي نكونه بالزواج فيؤمن لنا إطارا اجتماعيا حيث ننجب الأولاد ونربيهم ، ويزودنا برفقة وحنان ، وبأمن عاطفي ، ويجعلنا نشعر بأننا ننتمي إلى فئة يتجلى فيها العطف والمحبة في هذا العالم .

مميزات البيت العامة

إن البيت لهو شكل فريد من العلاقات الإنسانية ، ويعطيه شكله هذا أهمية خاصة به . وتتلخص خصائص البيت العامة التي تميزه عن غيره من الروابط الإنسانية الأخرى فيما يلي :

١ — الشمول : إن البيت موجود بشكل من الأشكال في كافة المجتمعات ، كما أنه موجود بشكل بدائي بين الحيوانات .

٢ — الأسس العاطفية : يقوم البيت على البواعث العضوية والعاطفية المتأصلة في طبيعتنا ، تؤازرها بواعث عاطفية ثانوية .

٣ — الأولوية : إن للبيت المقام الأول بالنسبة للوقت في التأثير على الفرد ، ولذلك فإنه يكيف سلوكه وهو أكثر ما يكون مرونة .

٤ — الحجم : إن البيت لهو أصغر وحدة بالنسبة لكافة الوحدات الاجتماعية الأخرى ، لا سيما في مجتمعنا الحاضر ، ولذلك فإنه مبني على علاقات الحنو والعطف الوطيدة .

٥ — الوضع المركزى : يؤلف البيت النواة المركزيه لجميع الوحدات التى يتألف منها المجتمع .

٦ — المسئولية : يفرض البيت على أعضائه أضخم المسئوليات المستمرة ، سواء أكان ذلك على الرجل الذين يعملون خارجه سعيا وراء الرزق أم النساء اللواتى يعملن داخله بصورة متواصلة .

٧ — الرقابة الاجتماعية : يخضع البيت لأشد الرقابات الاجتماعية صلابة من الناحيتين الرسمية بواسطة التشريع ، وغير الرسمية بواسطة العرف والعادة .

مقومات البيت العربى فى الأردن :

تختلف مقومات البيت الأردنى اختلافا بينا فى المجتمعات القبلية البدوية ، والمجتمعات الريفية ، والمجتمعات الحضرية ، وعلى الرغم من أن البادية والقرية والمدينة تمثل فيها مراحل مختلفة من الاجتماع البشرى ، فهى ليست منفصلة انفصالا تاما بل يتشابك بعضها ببعض ، بخطوط هامة شاملة تربطها جميعا برباط وثيق يؤلف بينها كاللغة والدين والتاريخ وبعض بقايا التقاليد والعادات والأعراف الاجتماعية ، ومن العسير الفصل بين هذه الأنواع من المجتمعات باللجوء إلى بعض المقاييس المادية والمعنوية لأنها متداخلة ومتشابكة ، فقد تكون القرية مؤلفة من حمولة واحدة أو اتحاد لحمايل متعددة تجمع بين الرعى والزراعة ، ثم أن المدينة كانت فى البدء قرية تحولت إلى مدينة نتيجة لازدياد كثافة السكان والتخصص فى تقسيم العمل .

وإذا نظرنا إلى سكان الأردن من حيث تجمعاتهم فى القرى والمدن المختلفة نجد أن هناك حوالى ٦٩٥,٠٠٠ نسمة يسكنون فى ١٦ مدينة أو بلدة يزيد عدد السكان فى كل منها على ثلاثة آلاف ، كما نجد أن هناك حوالى ٦٣٤,٠٠٠ نسمة يسكنون فى ٨٧١ قرية يقل عدد السكان فى كل منها عن ثلاثة آلاف .

ومن هذا يتضح أنه فى حين أن حوالى ٥٢ ٪ من مجموع السكان يقطنون ٦ ٪ من مجموع المدن والقرى فى الأردن ، هناك ٤٨ ٪ من مجموع السكان يقطنون فى ٩٤ ٪ من مجموع هذه المدن والقرى .

كما نجد أن من مجموع المدن والقرى والبالغ عددها ٩٣٢ ، هناك ٦٥٥ قرية (أو ما يزيد على ٧٠ ٪ من مجموع المدن والقرى) لا يزيد مجموع السكان فى كل منها على ١,٠٠٠ نسمة ، ويبدو جليا أن هذه الحقائق ذات أهمية بالغة حين التفكير فى رسم خطط لرعاية المجتمعات الأردنية المحلية والنهوض بها ، وإننى أرى أن تكون الجمعيات التعاونية المتعددة الأغراض فى القرى نقطة الانطلاق نحو النهوض بالريف فى مختلف ميادين النهوض به من اقتصادية واجتماعية وثقافية وترويحية .

ويبلغ عدد البدو زهاء ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، نصفهم من البدو الرحل ، والنصف الآخر نصف رحل . ويتجمع

البدو فى قبائل قليل منها عدده كبير ، ويمتلكون ثروات كبيرة من الأراضى الزراعية وأراضى المراعى وموارد المياه والآلات الميكانيكية والخيل والجمال والأغنام والعقارات فى بعض المدن ، أما البقية الباقية من البدو فتتجمع فى قبائل متوسطة أو صغيرة من حيث العدد والقوة والمادة ، كما أن هناك أيضاً بعض البدو الرحل الذين لا ينتمون إلى القبائل السابقة الذكر .

ويبلغ عدد سكان الريف الأردنى حوالى ٦٠٠ر٠٠٠ نسمة يقطنون قرى الضفتين الشرقية والغربية . وهناك بعض الفروق بين الريفيين فى القرى الشرقية والقرى الغربية ، ويرجع منشأ هذه الفروق إلى أصل السكان وطبيعة البيئة .

فالريفيون فى الضفة الشرقية يتميزون بانحدارهم من أصل بدوى ، وتغلب على مجتمعاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ونمط حياتهم الصبغة البدوية . وينتمى سكان القرية فى الضفة الشرقية فى الغالب إما إلى قبيلة معينة بصفة مباشرة ، أو يدينون بالولاء لقبيلة معينة . ويغلب على تخطيط القرى القديمة فى الضفة الشرقية صفة القرى الدفاعية ، فقد بنيت بطريقة كانت تؤمن سكانها عادية القبائل البدوية المغيرة فى الأيام الماضية . أما القرى الجديدة فى هذه الضفة فليس لها شكل محدود من ناحية التخطيط ، وكثير منها عبارة عن مجموعة مبعثرة من المساكن المبنية من اللبن أو الحجارة أو الخيام ، كما أن هناك بعض القرى الصغيرة (الخرب) يقطنها السكان فى موسم الأمطار للرعى والزراعة ويبرحونها إلى مناطق أخرى فى الصيف .

أما قرى الضفة الغربية فتغلب عليها فى تخطيطها صفة الاستقرار الذى هو مميز المجتمعات القروية فى هذه الضفة فالقرية — عادة — لها مركز وسط ، قد يكون مسجداً أو كنيسة أو مدرسة . والمساكن مبنية من الحجارة حوله ، ويغلب على هذه القرى طابع الاستقرار ، ويتميزون أكثر من سكان قرى الضفة الشرقية بالخصائص المميزة للمجتمعات الريفية .

وقد أحدث تقسيم فلسطين مشكلة لبعض القرى الأمامية على خطوط الهدنة ، فكثيراً ما عزلت قرى عن أراضيها وموارد مياهها وبات سكان هذه القرى بلا مورد للعمل أو الرزق ، فما بالك بأمعاء خواء ، وأجساد يكاد لا يسترها كساء ، ولا تلتحف إلا السماء وترى فى الثرى خير وطاء ؟ ومتى طويت الأمعاء استشرى الداء وعز الدواء .

ويبلغ سكان الحضر ٧٠٠,٠٠٠ نسمة تقريباً ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء السكان ليسوا جميعا حضرا ، نظرا لانحدار عدد غير قليل منهم من أصل بدوى ، تتمثل فيهم كثير من الخصائص والمميزات العربية البدوية الأصيلة ، هذا بالإضافة إلى الخصائص والمميزات الحضرية .

والمراكز الحضرية فى الأردن ، شأنها شأن سائر المراكز الحضرية فى المجتمعات الأخرى ، فالعاصمة (عمان)

مقر الحكومة ، والمدن الأخرى كالقدس ونابلس ورام الله وطولكرم وجنين وبيت لحم والخليل وإربد وعجلون وجرش والسلط والزرقاء والمفرق ، تمثل مراكز الحضارة ومقار المدارس والمستشفيات والأسواق ، ووسائل الترفيه ، ومن هذه المراكز تنبعث إشعاعات — وخاصة من عمان والقدس ونابلس — لها أكبر الأثر فى إحداث التغيير الفكرى والاجتماعى فى البلاد .

كما تختلف البيئة والمجتمعات فى الضفة الشرقية عنها فى الضفة الغربية ، فإن الزراعة وطرقها وأساليبها ، وهى عماد رئيسى فى كيان الأردن الاقتصادى ، تتأثر إلى حد كبير بكميات الأمطار وجودة التربة. وتبلغ مساحة الأراضى الزراعية فى الأردن زهاء ٨,٥٠٠ كيلو متر مربع من مجموع مساحة البلاد البالغة ٩١,٠٠٠ كيلو متر مربع .

وكما تختلف أنواع الزراعة طبقا لجودة التربة وكميات الأمطار تختلف كذلك أساليب الزراعة من منطقة إلى أخرى تبعا لاختلاف أنواع الزراعة ، إلا أنه يمكن القول بأن الأساليب التى تستخدم فى الأعمال الزراعية تفتقر إلى التجديد، واستخدام الحديث الذى دلت التجارب والعلوم على فائدته الإنتاجية والاقتصادية . وهناك ظاهرة عامة بين الزراع فى الأردن وهى افتقار السواد الأعظم منهم — وخاصة الزراع المتوسطين والصغار — إلى رأس المال الكافى لاستثماره اقتصاديا فى الزراعة ، كما ينطوى تسويق الحاصلات الزراعية على مشكلة خطيرة للمزارع المتوسطة والصغيرة ، الأمر الذى لا يترك للمزارعين إلا ربحا قليلا لا يتعادل مع ما يبذلون من جهود وأموال .

هذا وإن تأسيس الجمعيات التعاونية ليعتبر من أهم التطورات الحديثة فى الأردن نحو حل إنشائى لمشكلة القروض التى تواجهها المجتمعات فى الريف ، وتعتبر بعثة البنك الدولى للإنشاء والتعمير التى زارت الأردن فى أواخر آذار سنه ١٩٥٨ أنه ليس ثمة معالجة الإقراض الزراعى أفضل ولا أهم من الجمعيات التعاونية الزراعية .

والملكية الزراعية وحيازة الأراضى ونظم الايجارات الزراعية شأنها فى أغلب الدول العربية الأخرى ، فهناك الأراضى الميرى والأراضى الملك والأراضى الموقوفة والأراضى المشاع والأراضى الموات . ويغلب على نظام الملكية الزراعية كثرة الملكيات الصغيرة إذ تبلغ نسبة الملكيات الزراعية التى تقل قيمة كل منها على ١٠٠ دينار ٨٢٪ من مجموع الملكيات فى الأردن .

ونظراً لقلة الأراضى الزراعية الحالية من جهة وازدياد الطلب على شرائها من جهة أخرى نجد أن أثمان الأراضى الزراعية فى الأردن مرتفعة نسبيا وآخذة فى الارتفاع، يساعد على ذلك عدم رغبة المزارع المالك فى بيع أرضه وقلة مشروعات التوسع الزراعى وبطء مشروعات التنمية الاقتصادية فى مجالات الصناعة والتجارة .

خصائص البيت العربى فى البادية والريف والحضر

يتميز البيت العربى فى البادية بالعصبية والزواج المبكر ، ويكبر حجم العائلة ، وبسيطرة الشيوخ واحترامهم

وبعدم استعمال وسائل ضبط الحمل . والقبيلة فى الباديه هى أساس التنظيم الاجتماعى . فضمن إطار القبيلة يحصل كل فرد على أنماط سلوكه ويتعلم خصائصه الإنسانية ، ولهذا يغار كل بدوى على شرف قبيلته وسمعتها ، ويكون مستعداً للتضحيه من أجلها ، كما يحترم العمر ويعتبره شيئاً مقدساً .

وتعتبر القبيلة امتداداً لعائلة كبيرة حيث ينتسب الجميع إلى جد أعلى واحد. يولد الفرد ويعيش ويموت فى قبيلته فهى التى تنظم زواجه ، وترعى أطفاله ، وتحمى ملكيته ، وتلبى حاجاته الاقتصاديه ورغباته العاطفيه ، وللأب سيطرة تامة على جميع أفراد بيته، وهو الذى يدير أمره ويحسم النزاعات التى قد تنجم بين أفراده . والقبيلة متضامنة ومتكافلة إذ يعتبر الجرم الذى يرتكبه أحد أفرادها بمثابه جرم ارتكبته القبيلة .

كما يمثل البيت العربى فى الريف مرحلة التطور والتقدم الاجتماعى حيث يبرز عامل الاستقرار ، فتتوثق الصلة بين السكان والمكان ويصبح للأرض مقام مرموق وتنشأ علاقات جديدة وصلات وطيدة بين سكان القريه . وهنا ظهرت بوادر العمل الجماعى المشترك ونبتت جذور التعاون .

وينطبق على البيت الريفى ما ينطبق على سكان البادية من حيث العصبيه والزواج المبكر وسيطرة شيوخ الحمائل.. الخ . غير أن المرأة تزداد أهميتها ، إذ تصبح عضواً عاملا فعالا فى مشاركة الرجل أعماله ، ومشاطرته واجباته الزراعية .

أما البيت العربى فى المدينة فيمثل المرحلة الأخيرة من التطور الاجتماعى، حيث يواجه أزمة لحمتها البلبلة وسداها النزاع ، إذ هناك تطاحن فى القيم والتقاليد والأعراف والعادات بين القديم والحديث ، بين الشرق والغرب . إذن فلا غرابة إذا رأينا البيت أجنبياً من حيث استعمال الاختراعات والاستنباطات الحديثة ، إلا أنه لا يزال متأثرا بالقيم والتقاليد القديمة ، ذلك أن النزاع الذى يواجه البيت العربى هو نزاع فى القيم ، بين القيم الجديدة وبين القيم القديمة، غير أنه ينبغى على رجال علم الاجتماع أن يعيروا البيئة والظروف والمجتمع اهتمامهم الجدى، ويأخذوا من هذه القيم ما يوافق البيئة والظروف وطبائع المجتمع ، وإلا أصيب البيت العربى بكارثة تعود به القهقرى سنين عديدة، وتؤخر تقدمه جيلا أو أكثر حتى يتم الاستقرار . ويجدر ألا ينسوا مثلنا الروحية العليا وقيمنا الأخلاقية المثلى ، التى قامت عليها حضارتنا بسرعة لا نظير لها فى التاريخ قديمة وحديثة .

ميزانية البيت العربى

تشتمل مقومات البيت الاقتصادية على الإيرادات والنفقات ، فدخل البيت يقاس بمبلغ المال الذى يرد إليه ، وغالبا ما يأتى الدخل عن طريق فرد أو أكثر من أفراد البيت ، وقد يأتى فى الغالب من رب العائلة ويستعمل هذا الدخل لتلبية حاجات البيت الضرورية. فإذا بقى ثمة وفر بعد تلبية تلك الحاجات الضرورية، يمكن استعمال ذلك الوفر لتلبية رغبات أفراد البيت الخاصة .

ويتألف الدخل النقدى من الأجور أو الرواتب التى تدفع إما مياومة أو مشاهرة أو سنوية ، أو من إيراد الثروة المتجمعة ، أو العقارات : مثال ذلك أرباح الأعمال التجارية والفوائد على الودائع فى المصارف أو الجمعيات التعاونية أو من فوائد الأسهم الحكومية أو الأهلية ، أو من بدلات إيجارات العقارات أو من الإرث . ولما كانت مصادر الدخل هذه لا تعتمد على مكاسب الأفراد الشخصية، فإنها تكون ضمانة المستقبل أو تستثمر فى الشئون التجارية.

إن ماهية العمل الذى يؤديه رب البيت ، ومبلغ المال الذى يجنيه يقرر ، لدرجة قصوى ، نمط حياة العائلة ، ذلك أن عمله قد يقرر مسكن البيت ، والوقت الذى ينهض فيه أفراده صباحاً ، ونوع فطورهم ، وألبستهم . أما مبلغ المال الذى يجنيه فيقرر عدد أفراد العائلة الذين يترتب عليهم العمل بأجر ، وعدد السنين التى يتسنى للأطفال الدوام خلالها فى المدرسة ، والمحلة التى يقطنون فيها ، ونوع الدار التى يسكنونها ، وبدل الإيجار الذى يمكنهم دفعه ، وما إذا كان بإمكانهم امتلاك دارهم ، أو عقارات أخرى .

هذا وأن الدخل الحقيقى للبيت لا يمكن أن يقاس بالمال وحده ، بل يعتمد على المكان الذى يقطنه أهل البيت ، ففى البلدان الصغيرة حيث يكون بدل الإيجار ونفقات المعيشة أقل ، نرى أن راتبا أو أجراً سنوياً يبلغ خمسماية دينار، يمكن أن يلبى احتياجات البيت الأردنى أكثر من راتب قدره ألف ومائتا دينار سنويا فى عاصمه المملكة .

وقد يكون الدخل الذى يكفى أحد البيوت كفاية ملائمة ، لا يكفى بيتاً آخر . كما وأن البيت القليل عدده تكون حاجاته أقل من البيت الكبير . وتقل تكاليف المعيشة فى بعض الأحياء عن الأحياء الأخرى . وربة البيت المدبرة المقتصدة تستطيع أن تكيف اقتصادياتها ضمن نطاق إيرادها أكثر من غيرها من ربات البيوت . وقد جاء فى المثل العامى (الرجل جنى والمرأة بنا) . وقد يكون أفراد أحد البيوت أصحاء البنية أقوياء وأعضاء بيت ثان مرضى ضعفاء .

وهنالك فروق كبيرة فى مقدار الدخل ، فمن الناحية السفلى من الدخل نجد بعض البيوت يعوزها أود العيش ، كما يعوزها الغذاء والكساء، ومن الناحية العليا من الدخل نجد بيوتاً غير قليلة دخلها كثير على مقدرتها فى الإنفاق بحكمة وتبصرة . وتوجد بيوت من هذا القبيل وإن قل عددها تستثمر قسما كبيراً من دخلها فى المشاريع التعليمية والخيرية، وهكذا يستفيد منها عدد كبير من المواطنين. غير أن قسما كبيراً من سكان المملكة الأردنية كما هو موضح أدناه يقع ضمن الناحية السفلى من سلم الدخل .

فلقد أجرى إحصاء فى الأردن عام ١٩٥٧ يتعلق بتكاليف الخدمات والسلع التى يبتاعها موظفو الحكومة خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من سنة ١٩٥٦ ، فتبين من ذلك الإحصاء أن نسبة ما يصرف على المواد الغذائية من مجموع الدخل البالغ معدله ٢٥ ديناراً شهريا يساوى ٥٠ ٪ من مجموع المصروف، ومعدل الإيجار الشهرى يساوى ٢٢ ٪ من ذلك المجموع .

هذا مع العلم بأن معدل الغرف التى يقطنها الموظف يساوى أقل من غرفتين ونصف ، ومعدل ما يعيله الموظف

من أفراد يبلغ زهاء ستة ملايين . ومعدل عدد الطلاب لكل موظف يبلغ ثلاثة ونسبة عدد مستعملى الكهرباء تساوى ٧٢ ٪ ، ونسبة مالكى أجهزة الراديو منهم يساوى ٧٦ ٪ .

ولحسن الحظ فإن لدينا أود العيش الضرورى ، وقدرتنا على التمتع بمباهج الحياة لن تقتصر على مقدار دخل الفرد ، بل يمكن تنميتها بالتعليم والتثقيف ، ذلك أن هنالك أشياء أخرى غير الدخل لها المقام الأول ، ولا سيما حسن إدارة ربة البيت، إذ تستطيع بمهارتها فى تنظيم أعمالها ومقدرتها الحكيمة فى شراء حاجات البيت وغيرها ، أن تساهم مساهمة فعالة فى تخفيف نفقات البيت ، لأن المقدرة فى كيفية إنفاق المال تساوى فى الأهمية القدرة على كسبه . وربة البيت التى تنفق المال هى التى تقرر نوع البيئة التى تعيش فيها أسرتها ، ذلك أن بإمكانها بواسطة اختيارها الحاجات لبيتها أن تجعل منه بيتا تشع فيه البهجة والغبطة ، فباختيارها أنواع الأطعمة لأعضاء أسرتها ، إما أن تجلب إليهم الصحة الجيدة ، أو السيئة . وفى الواقع يتوقف على مقدرة ربة البيت فى الاختيار والتخطيط المنزلى تقرير رفاهة أعضاء البيت فى الحاضر والمستقبل .

كما يتوقف ذلك أيضاً على الخدمات التى يؤديها أعضاء البيت ، فعندما تقوم بعمل من الأعمال إما لنفسك أو لأفراد عائلتك، يمكن أن تستعمل الوفر الذى نتج عن هذه الأعمال لأغراض أخرى تزيد فى رفاهية البيت ، وهذه الخدمات التى لا تكلف أية نفقات والتى يساهم فيها جميع أفراد البيت تزيد فى دخله .

كما وأن الثروة الاجتماعية والنفقات العامة تساهم مساهمة فعالة فى دخل البيت ، لمدى أنها تقرر المكان الذى يختار للسكن ، فمثلا على ذلك الطريق العمومية والأبنية الحكومية والحدائق والملاعب العامة والمراكز الصحية والمدارس ودور الكتب العامة وما إلى ذلك .

هذا وإن كفاية الدخل بالنسبة لبيت من البيوت يعتمد على عدد أعضاء البيت ، والجوار الذى يعيشون فيه ، ومستوى المعيشة ، ومقدرة أعضاء البيت على العمل ، ورغبتهم فى العمل متعاونين .

وهكذا عندما نستعرض دخل البيت ، يجب ألا يغرب عن أذهاننا أن هذا الدخل هو أكثر من كونه دخلا مالياً ، غير أنه يجب أن نتأكد من أن جميع مصادر الدخل هذه لا تنطبق على جميع البيوت ، بيد أن وضع كثير من البيوت من الناحية المالية هو أفضل مما يبينه دخلها المالى ، فهو أفضل إلى المدى الذى يتعاون فيه جميع أعضاء البيت معاً على تأمين تلبية حاجاتهم مجموعة .

فإذا تعاون أفراد البيت البالغون معاونة أكيدة فى المساهمة بدخل البيت ، بعملهم وبمعرفة الطريقة التى تنفق الأموال فيها والعناية بمقتضيات العائلة ومقتنيات الفرد الشخصية ، فإذا ما تعاون الجميع على هذا الأساس ، يكون دخل البيت أعلى كثيراً من الدخل المتأتى من خارجه .

أثر التعاون

ويجدر بنا أن نبحث الآن فى أثر التعاون فى رفع المستوى الاقتصادى للبيت العربى، بما فى ذلك الدخل المتأتى من العمل، ونمط الحياة والتضامن الاجتماعى .

١ — الدخل الحقيقى للبيت العربى الناجم عن العمل .

لا حاجة بنا إلى القول بما للتعاون من أثر كبير فى زيادة دخل البيت، بالنسبة للعمال المستقلين أو أشباه المستقلين الذين يعملون فى الزراعة والأعمال اليدوية ومصائد الأسماك ، ذلك أن التعاون يقوم بدور هام فعال فى زيادة الإنتاج، وتحسين نوع المنتوجات، وتصنيفها، وتوضيبها، والحصول على أسعار ثابتة رابحة .

أما الجمعيات التعاونية فى حقلى الاستهلاك والإنتاج الصناعى، فإن أهميتها لا تقتصر على تقليل تكاليف التوزيع لمنفعة أعضائها فقط، بل تتعدى هذه الحدود بوصفها مشاريع تخدم المجتمع . فتكون وسيلة للسلطات الحكومية تمكنها من تقرير الأسعار والأرباح بصورة معقولة، كما أن هذه الجمعيات عندما تكون وطيدة الأركان تعمل على تنظيم أسعار السلع والبضائع .

فاشتراك البيت العربى سواء أكان فى الأرياف أم فى المدن ، فى جمعية استهلاكية يخفف من نفقاته، حيث أن تاجر القطاعى أو المفرق، ما هو إلا وسيط بين تاجر الجملة والمستهلك ، إذ يستثمر أمواله فى متجره، ويشترى كميات من البضائع يخزنها فى شكل ومكان ملائمين للمستهلك ، ومن حقه أن يحصل على كسب معقول مقابل رأس ماله ونفقات تشغيل محله، والجهود التى يبذلها لإنجاحه، غير أننا فى واقع الأمر نجد تاجر المفرق يتقاضى أسعاراً باهظة وأرباحاً عالية ، وربما لجأ إلى تطفيف الميزان أو غش السلع، والطريقة المثلى لتخليص ربات البيوت من استغلال هؤلاء البائعين، هى الانتساب إلى جمعيات المستهلكين للأطعمة والحاجات البيتية التى تهدف إلى المساعدة الذاتية الجماعية، وتلبية حاجات الأعضاء تلبية ملائمة، فى حين أنها تعيد الأرباح، التى لولاها لآلت إلى الأعضاء كعوائد تقسمها بينهم بالنسبة لمشترياتهم منها . أضف إلى ذلك أن جمعيات الاستهلاك ما هى إلا ميزان لتخفيض أسعار الحاجات، لأن وجودها وبيعها السلع بأسعار معقولة للأعضاء يرغم التجار على تخفيف أرباحهم .

ونرى فى جميع نواحى التجارة فى الأردن تقريباً سيادة رؤوس الأموال الخاصة حقيقة واقعة . وهذا الكيان التجارى، من حيث المبدأ ، يجعل الأسعار ضمن الحد المعقول من جراء المنافسة الطبيعية الحرة . ولكننا نلاحظ أن التاجر الأردنى فى كثير من الحالات ذو مركز احتكارى متين . وغالباً ما يتعدى الحدود، ويغالى فى زيادة الفرق بين صافى سعر البيع وتكاليف السلع أو البضائع، أما ما يتعلق بالفواكه والخضار والأثمار فقد يبلغ الفرق فيها مائة فى المائة، فقد كانت مثلا فى ٢٦ آب (أغسطس) سنة ١٩٥٦ ، الأسعار التى حصل عليها المزارعون والأسعار التى دفعها المستهلكون فى أسواق عمان كما يلى :

سوق عمان	الأسعار بالفلسات للرطل (٣ كيلو غرام)		الفرق بالأسعار
٢٦ / ٨ / ١٩٥٦	للمنتج	للمستهلك	الفرق
البندورة (الطماطم)	٤٥	٩٠	٤٥ ١٠٠ ٪
البطيخ	٥٠	٧٠	٢ ٤٠ ٪
العنب	٤٠	٨٠	٤٠ ١٠٠ ٪

يبين هذا الجدول أن الأسعار التى تدفع للمنتج تشمل نفقات النقل إلى عمان وجميع رسوم التسويق . ويتبع هذا أن الأسعار التى تدفع للمنتج بمراكز الإنتاج هى أقل بكثير مما تباع فى السوق ، وبذلك يصبح (المارجن) أعلى كثيرا مما تقدم .

وإذا أجرينا مقارنة بين (المارجن) فى أسعار الفواكه والخضار فى الأردن مع مارجن الأسعار فى الأقطار الأخرى، يتضح لنا أن المارجن فى الأردن عال جداً ، وليس لهذا الفرق فى السعر ما يبرره من الناحية الاقتصادية ، فنرى مثلا فى سويسرا وهولنده أن مارجن الفواكه والخضار يتراوح ما بين ثلاثين وأربعين فى المائة ، وهذا المارجن معقول كما أنه ثابت .

هذا وإن إنشاء جمعيات الاستهلاك فى الأردن يخفض المارجن تخفيضاً كبيراً .

كما أن اشتراك رب البيت فى الريف العربى فى جمعية لتسويق المحاصيل الزراعية ، سيزيد فى دخله ويخفف من نفقاته ويكون سببا فى رفع مستوى معيشته ، فغالبا ما يكون المزارعون غير منظمين ، وهم فى أشد الحاجة إلى المال فيبيعون محصولهم فى موسم الحصاد غير مصنف للتجار الذين يأتون من أقرب مدينة ، وفى معظم الأحيان يخرج المزارع بصفقة المغبون . وعلاج ذلك يكون بإنشاء جمعية للتسويق الزراعى تتألف من المزارعين الذين يجمعون محاصيلهم ويصنفونها ، وعندما تجتمع لديهم كمية كبيرة من السلع المصنفة يصبح فى مقدورهم أن يعقدوا صفقات أفضل مع تاجر متجول أو تاجر كبير فى إحدى المدن ، وعندما يسلم المزارع محصوله إلى جمعيته يفقد المحصول صفته الفردية ويتسلم العضو إيصالا بالكمية والصنف ، وتعقد الجمعية قرضا بضمان المحصول المخزون ، وتدفع بعض الثمن مقدما إلى الأعضاء بحيث لا يتجاوز نسبة مئوية محدودة من السعر النهائى لا السعر الفعلى للمحصول . وعندما يباع المحصول يوزع الفائض على الأعضاء ، كل بنسبة الكمية التى وردها والصنف الذى صنف به محصوله . ومن المعروف أن المزارع العادى يبيع كميات قليلة من المحاصيل ، ولذلك ليس بإمكانه أن يحصل على الأسعار ذاتها التى يتمكن من الحصول عليها المالك الكبير أو التاجر الذى يبيع كميات كبيرة من السلعة ذاتها . وفى هذه الحالة فإن الدور الذى تقوم به جمعية التسويق الزراعى التعاونية هو جمع كميات المحاصيل القليلة بعضها إلى بعض لبيعها بالجملة ، وتقديم التسهيلات

المحسنة لتصنيف هذه الحاصلات الزراعية وعرضها فى الأسواق عرضا مشوقا ، وبذلك تحصل على أسعار عالية لا يستطيع المزارع الصغير الحصول عليها ، كما أنها تجد سوقا رائجة لمحصولاتها بعد ماتشتهر بالأمانة والاستقامة وعدم الغش .

٢ — نمط الحياة :

لما كانت الجمعيات التعاونية روابط من الأفراد ، فهى فى الحقيقة عبارة عن روابط من البيوت وأن المشاريع التى تؤديها هذه الجمعيات تمتد إلى البيت أو تتم أعماله أو تحل محله .

وقد بين لنا تاريخ تطور الحركة التعاونية أن الجمعيات تنظم أعمال البيت ونشاطه مع مرور الزمن بحيث تشمل أكبر قسط من تلك الأعمال .

وبهذه الطريقة تؤثر الجمعيات التعاونية تأثيراً كبيراً فى بعض العوامل التى تكون نمط حياة المجتمعات ذات الدخل الضئيل ، وذلك بتحسين المسكن ، والتغذية ، وتنظيم أوقات الفراغ والنشاط الثقافى والترويحى ، وحفظ صحة أفراد البيت .

إن المساهمة التى تقدمها جمعيات الإسكان التعاونية للبيت ذات أهمية بالغة فى الحد من وطأة بدلات الإيجارات التى تبلغ فى الأردن مثلا بين موظفى الحكومة كما أسلفنا ٢٢٪ من مجموع المصروفات . وبذلك فإن بدلات إيجارات المساكن تستنفد نسبة عاليـــة من رواتب وأجور الطبقة المتوسطة ذات الدخل المحدود .

هذا وإن ضائقة المساكن فى الأردن هى إحدى الأسباب التى أدت إلى ارتفاع نفقات المعيشة ، وقد أثرت تأثيراً شديداً فى أوضاع الطبقة المتوسطة للمستخدمين الذين يعتمدون اعتمادا كليا فى معيشتهم على رواتب وأجور ثابتة ، وهم عنصر هام ، وعامل فعال فى اقتصاديات البلاد ، ولذلك يقتضى أن تبذل الجهود للتفريج من ضائقة السكن عنهم وتخفيف عبئها عن كاهلهم ، أما ما يتعلق بموظفى الحكومة ومستخدميها فإن غلاء أجور المنازل قد قادهم إلى الاستدانة وهؤلاء المستخدمون ذوو الرواتب الثابتة يستطيعون أن يوفروا مبلغا من المال ، وبإمكانهم أن يديروا بجدارة وكفاءة جمعيات الإسكان التعاونية بحيث تصبح نواة لمجتمع نموذجى فاضل ، غير أن الحصول على قروض طويلة الأجل بفائدة معقولة ، صعب عسير المنال ، ذلك أنه لا يستحصل على القروض القصيرة الأجل إلا بفوائد عالية ، ولهذا كان من السهل علينا أن نعرف السبب فى صعوبة الحصول على القروض الطويلة الأجل بفائدة معقولة . وتجاه هذا الوضع تقدمت الحكومة مؤخراً للمساهمة بتمويل جمعيتين تعاونيتين للإسكان إحداهما فى عمان والثانية فى القدس وقد بلغت مساهمة الحكومة فى هذين المشروعين ثمانين ألف دينار .

وسيخصص فى القريب العاجل مبلغ نصف مليون دينار لهذه الغاية ، وبذلك تستطيع الطبقة المتوسطة أن تحصل على مساكن صحية تحتوى على جميع متطلبات البيت الأردنى وذلك بدفع ما لا يتجاوز ١٥ فى المائة من

مجموع الدخل الشهرى لرب البيت ، بحيث يصبح المسكن ملكا له بعد أن يسدد جميع الأقساط خلال مدة لاتتعدى خمسة عشر عاما .

هذا وإن جمعيات الاستهلاك التعاونية قد دخلت حقل صنع الأثاث بحيث أصبحت لا تقلل من التكاليف فحسب ، بل إنها تصنع الأثاث الجميل المتين الذى يجلب الراحة والمتعة للبيت . كما وأن جمعيات الكهرباء الريفية ، لاتقدم النور والطاقة الكهربائية للمستهلكين فقط بل إنها تحول الريف وتحسنه ، أما التليفونات التعاونية فإنها تزيل انعزال البيوت فى الريف عن بعضها وعن المدن .

إن الجمعيات التعاونية بالإضافة إلى إصدار مختلف المجلات والنشرات للمطالعة ، فإنها تقوم بتنظيم المحاضرات ، وعرض الأفلام السينمائية ، وتنظيم الحفلات المسائية ، وإنشاء المطاعم وقاعات الاجتماعات والترويح ، كما تعنى أيضا بتعليم أعضائها لتحسين تدريبهم على أعمالهم المهنية .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى الخدمات الصحية التى تقدمها جمعيات الصيدلة التعاونية وجمعيات العيادات الطبية للأعضاء .

أما مايتعلق بالتغذية ، فإن هذه المشكلة ليست مشكلة الإخصائيين وحدهم ، بل هى أيضا مشكلة الإنتاج والأسعار وتحسين أصناف السلع ومراقبتها والتعليم ، وهكذا نرى أنها فى الغالب مشكلة جمعيات الإنتاج الزراعية ، والاستهلاكية ، فجمعيات الإنتاج الزراعية تضطلع بمهمة إنتاج السلع الزراعية وتسويقها ، عن طريق زيادة الإنتاج بزيادة رقعة الأراضى المزروعة والبذور المحسنة والرى والتسميد ، والعلاجات وتحسين الأحوال الفنيه الخ ، أما الجمعيات الاستهلاكيه فواجبها أن تقوم بتوزيع السلع الغذائية الرئيسية وذلك بتقليل تكاليف الإنتاج والتوزيع

٣ — الضمان الاجتماعى :

وهناك عامل هام آخر فى رفع مستوى معيشة البيت العربى ألا وهو إزالة أو تخفيف وطأة المخاطر التى تواجه أرباب البيوت ذوى الدخل المحدود .

ففقد أدوات الإنتاج أو غيرها من المقتنيات الشخصية من جراء السرقة أو الحريق أو غيرها من المرض والحوادث ، والبطالة ، والعجز المؤقت أو الدائم ، ووفاة العميل أو وقوعه تحت وطأة الدين ، فجميع هذه العوامل التى تلقى على كاهل رب البيت ذى الدخل المحدود عبئا ثقيلا ، تقلب موازنته رأسا على عقب لمدة طويلة ، وفى بعض الحالات لايمكن رتق فتقها قط .

ونظام المساعدة الاجتماعية والتأمين اللذان يكونان معا الضمان الاجتماعى وضعا لمجابهة هذه المخاطر .

أما من الناحية التاريخية فإن المؤسسات التى تعنى بالضمان الاجتماعى القائمة على المساعدة المتبادلة الإجبارية قد نجحت وتطورت عن المساعدة المتبادلة التلقائية بين الجيران والزملاء لحماية الفرد من مخاطر الحياة ، ذلك أن الضمان الاجتماعى ما هو إلا عبارة عن تنظيم لهذه الجهود التلقائية وتعميمها ، ولكنه لا يمكن أن يضع حداً لها كما أنه لا يستطيع إزالة أسبابها .

ومؤسسات المساعدة المتبادلة التلقائية ، لا تزال تقوم بدور هام نافع فى مجتمعنا العربى . فبادئ ذى بدء ، نرى أنها تنطوى على أعمال مبعثها الوعى المستنير ، والتآزر المقصود ، ويفضلها بعض الأشخاص لقيمها التعليمية ، وقد تكون خير المؤسسات الملائمة ، وثانيها أنها تحل محل نظام الضمان الاجتماعى الإجبارى ، كما أنها فى بعض الأحيان تمهد السبيل لإنشاء مثل هذه النظم حينما لا تكون قائمة أو تملأ الفراغ .

إن للجمعيات التعاونية لمقاماً هاماً بين مؤسسات التأمين التلقائية المذكورة ، وتأخذ هذه الجمعيات شكل الجمعيات المحلية أو المركزية ، فى تقديم الخدمات الاجتماعية ، فبعض جمعيات الاستهلاك التعاونية تخصص أموالا احتياطية ، إما عن طريق اقتطاع نسبة معينة من الفائض التجارى أو عن طريق مساهمة الأعضاء مساهمة اختيارية ، وإما بواسطة الجمع بين هاتين الطريقتين معاً .

وتستعمل هذه الأموال لتوزيعها على الأعضاء إما نقداً أو عيناً فى حالة البطالة أو المرض أو الحوادث كما تعطى منحاً خاصة منها حين الزواج أو الولادة إلى آخر ما هنالك .

أما جمعيات التأمين التعاونية المحضة ، فإنها تحمى أعضاءها فى كل من المدن والأرياف من عدد من المخاطر ، أهمها التأمين على الحياة ، والحوادث ، والحريق . أما فى الريف فإن هذه الجمعيات تؤمن على نفوق المواشى وغير ذلك من مخاطر الطبيعة كالبرد والصقيع .

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن نشير هنا إلى أن الدين هو أحد المخاطر الذى له مكانة بين خطط الضمان الاجتماعى ، وهو أحد العوامل التى تصيب رب البيت ذا الدخل المحدود بكارثة ينوء بها ظهره .

لم نعر الكثير من الاهتمام للبيع نقداً فى جمعيات الاستهلاك التعاونى ، فلقد ثبت بعد القيام بتحريات واستقصاءات عديدة أن رب البيت أصبح مقيداً فى التصرف فى دخله كما أن حريته وكرامته قد أصبحتا على شفا جرف هاو من جراء الشراء بالدين ، غير أن جمعيات الاستهلاك التعاونية ، باتخاذها إجراءات معاكسه لهذه العادة قد أدت مأثرة عظيمة تتعلق بتحرير عضو الجمعية فى الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، كما قامت أيضاً بمأثرة أخرى حينما علمت أعضاءها أهمية التوفير ونظمته لهم بشتى الطرق . وكانت نتيجة ذلك أن حل التوفير محل الاستدانة وتحرر الأعضاء من الديون والفوائد الباهظة .

ومهما يكن من أمر فإن الوفورات فى جمعيات الاستهلاك لا تفى بجميع متطلبات البيوت ذات الدخل القليل .

فقد تحتاج إلى القروض لشراء الأثاث أو حيازة آلة خياطة أو ثلاجة أو ما شابه ذلك ، وللتخلص من المرابى أدت الحاجة إلى تأسيس جمعيات التسليف والتوفير التعاونية فى المدن . وتشبه هذه الجمعيات فى مميزاتها وخصائصها ومقوماتها جمعيات التسليف والتوفيرالريفية ، فمساهمة البيت العربى فى ادخار مايفيض عن احتياجاته فى جمعية تعاونية للتسليف والتوفير لما يزيد فى دخل البيت عن طريق الفوائد التى تدفع للمبالغ المودعة لأجل ، من ناحية ، ولاستعمال تلك الوفورات حين الطوارىء من ناحية أخرى .

فلو فرضنا أن رب البيت موظف أو عامل فى مشغل أو معمل فإنه يستطيع أن يزيد فى دخل بيته بانتسابه إلى جمعية تسليف وتوفير تعاونية ، إذ يتعهد بأن يدفع من راتبه أو أجره مبلغا معينا يلتزم بدفعه مختارا حينما يقبض راتبه أو أجره ، وقد يضطر ذلك الموظف أو العامل إلى أن يدفع فى آن واحد إيجار البيت الذى يسكنه ، ونفقات أولاده المدرسية وما أكثرها ، وما أشد وقعها على جيبه فى بداية كل عام مدرسى ، إنه مضطر إلى دفع إيجار بيته ، وإلا فالتخلية هى أول ما يتذرع به المؤجر ، كما أنه مرغم على تلبية مطالب المدرسة . وإلا فالرفت مصير أولاده ، فمن أين يأتى بهذه النفقات التى يعجز راتبه الشهرى عنها ، وينوء بحملها ظهر الموظف أو العامل ذى الدخل المحدود ؟ وفى هذه الحالة يجد نفسه مجبرا على اللجوء إلى الاقتراض ، وعادة يقترض بشروط مجحفة إذ تربو فائدة القرض على ستين فى المائة ، لأن الضمان الوحيد الذى يستطيع تقديمه إلى المقرض هو راتبه أو أجره، ولكنه معرض فى كل حين للعرض أو الفصل أو النقل ، ولذلك فإن فى إقراضه خطرا ، وعليه أن يعوض ذلك بقبوله دفع فائدة عالية على القرض الذى يحصل عليه ، فمثل هذا الموظف أو العامل يستفيد من انتسابه إلى جمعية تسليف وتوفير تعاونية حيث يستطيع الحصول على قرض بفائدة بسيطة وبضمانة الوفر الذى يتعهد بدفعه إلى الجمعية حينما يقبض راتبه أوأجره .

فلو كان مدبرا أو منظما لشئونه الاقتصادية لاستطاع أن يدخر ادخارا تطوعيا ، فيوفر فى جمعيته مبلغا من المال ، حتى إذا ما فتحت المدارس أبوابها أو حان موعد دفع إيجار منزله أو نزلت به إحدى الطوارىء غير المتوقعة ، كان لديه رصيد يستعين به على قضاء حاجته ، أضف إلى ذلك أن الجمعية إذا وجدت أنه عضو تعاونى حقيق ، وأنه دائب على التوفير المنتظم بإخلاص ، أقرضته مبلغا من المال يفى بالتزاماته بفائدة بسيطة قد يبلغ حدها الأقصى ثمانية فى المائة ، وتقسط له الدين بأقساط شهرية بمبلغ يتلاءم ومقدرته على الدفع .

أما فى الريف العربى فإننا نرى كثيرا من أرباب البيوت يوفرون من أجورهم الأسبوعية أو الشهرية بعض المال ولكنهم لا يجدون محلا أمينا يضعون فيه وفوراتهم ، وأن مغريات الحياة تجعل الواحد منهم ينفق فى يوم واحد ما ادخره فى عدة أسابيع ، بل بضعة أشهر ، ولكنه لو وضع أمواله التى يستطيع أن يوفرها فى جمعية تعاونية للتسليف فى قريته لأمن على نقوده وكانت بعيدة عن متناول يده ولا يستطيع أن يصل إليها فى كل حين ، وهى محفوظة له باسمه فى المصرف الذى تتعامل معه الجمعية ، وهكذا نرى أن الأموال التى يدخرها أهل الريف حسب طرقهم البدائية هى عرضه للتلف أو السرقة ، وندر أن تجد فى القرية مكانا أمينا حصينا تودع فيه النقود ، أذن فليس آمن عاقبة ولا أسلم مغبة من إيداعها لدى الجمعية التعاونية التى تعطى الشخص المودع ، بالإضافة إلى ضمانة أمواله وحفظها فى

حصن حريز ، فائدة على أمواله التى يودعها لديها لأجل معين ، فهو يستفيد من الفائدة التى يحصل عليها ، كما تستفيد الجمعية من استثمار الأموال المودعة لديها .

كما نجد أرباب البيوت غارقين فى حمأة الديون ، ويعزى ذلك إلى عدة أسباب، منها أن المزارع لم يتعود الادخار مطلقا ، وأنه لا يتوفر لديه مكان أمين لحفظ ودائعه ، وإلى عجزه عن إعداد ميزانيته على أسس سليمة ، وبذلك لا يميز بين القروض المنتجة والقروض غير المنتجة ، أو بين القروض الطويلة الأجل والقروض القصيرة الأمد ، ذلك بالإضافة إلى افتقاره إلى مصدر ملائم للإقراض .

إن مدى انتشار الدين بين المزارعين فى مناطق الريف يختلف اختلافا كبيرا ، وندر ما يقدر مدى الدين حق قدره فى المناطق الريفية أو تظهر أهميته على حقيقتها وغالبا ما تقلل إلى أدنى حد .

ويرجع السبب فى ذلك ، فى غالب الأحيان إلى الجهل ، وعندما تجرى التحريات والاستقصاءات تكشف عادة عن أحوال لم تكن واضحة من قبل ، فقبل إجراء الاستفسار قد يكون الناس يعرفون بأن المزارعين مدينون ، وأنهم بحكم مهنتهم لابد وأن يكونوا مدينين خلال بعض الأوقات فى العام ، ولكن حمل الدين الثقيل الذى يرزحون تحته وتأثيره الشديد فى حياتهم اليومية لم يقدر حق قدره ، والأحوال المؤدية للدين عديدة ومتنوعة ، فهناك دوما وقت ضيق فى الزراعة ، فقد تكون ممتلكات المزارع غير اقتصادية فى الغالب ، والالتزامات الاجتماعية مرهقة ، فمهر العروس وولائم العرس وإقامة المآتم . . . كلها التزامات يجب أن تلبى . والطبيعة ليست دوما بارة بالمزارع ، ولا فطعان مواشية ، كما وأن زوجه وأولاده لا يكونون دوما بصحة جيدة ، كما أنه هو نفسه قد يدخل فى مقاضاة .

وقد بذلت محاولات عديدة لتنظيم أعمال المرابين بسن التشاريع ولكن جميع التشاريع التى سنت والتى تهدف إلى تنظيم أعمال المرابين لم يكن لها الأثر الفعال ، ذلك أنه ما دام هناك مقترض راغب فى الاقتراض ومقرض يرغب فى الإقراض فلن يكون للتشريع أثره التام الناجع .

وفى بعض الأقطار العربية نجد أن رهن الأراضى الزراعية وبيعها يحظره القانون على المزارعين، ولكن التشاريع المقيدة للمرابين قد تأتى بالنتائج السيئة ذاتها ؛ فى حين أن من الواجب حقا مكافحة الربا مكافحة تامة فى جميع جهاته إلا أنه يجب العناية التامة بإيجاد مصادر بديلة تحل محل المرابين ويستغنى بها عنهم .

وإن أفضل نوع من أنواع هذه المؤسسات ولاشك هو جمعيات التسليف والتوفير التعاونية، ذلك أن هذه الجمعيات قد نجحت نجاحا باهرا فى معظم الأقطار الراقية منها والناشئة تحت رعاية الحكومة وإرشادها ، وأنشأت كيانا للاكتفاء الذاتى .

إن الإقراض عبارة عن سيف ذى حدين، فهو أداة مفيدة إذا استعملت فى المكان الصحيح وإلى المدى الصحيح وفى الطريق الصحيح . غير أنه سرعان ما يصبح خطرا إذا استعمله شخص لا يحسن استعماله . ولقد قارن مرة مستر

ساريدج التعاونى الإنكليزى المعروف استعمال القرض باستعمال مياه الرى فى الزراعة : فإن كمية قليلة جدا من المياه قد تعيق نمو الزروعات ، بينما كمية كبيرة جدا منها قد تتلفها بسهولة . وأود أن أضيف إلى هذه المقارنة التى أجراها المستر ساريدج بين الماء والقروض ، بأن الماء بحدذاته لا يمكن أن ينتج غلة ، وهو فقط عبارة عن عامل من عوامل كثيرة يؤدى استعمالها إلى إنتاج شتى الحاصلات ، وهكذا يصبح القرض مفيدا ونافعا إذا أعطى بالقدر الكافى واستعمل فى المكان المناسب وفى الوقت المناسب .

الخلاصـــة

ومجمل القول ، يجب أن يكون التعاون شاملا شمولا كليا ، شاملا بالنسبة لأهدافه ، شاملا بالنسبة لأعضائه . ويعنى ذلك فيما يتعلق بالأهداف ، أن هدف التعاون يجب أن يكون حياة فضلى ، وهل ثمة عبارة أشمل من عبارة حياة فضلى .

أما بالنسبة للأعضاء فيجب أن يكون التعاون شاملا شمولا كليا ، حيث تمثل الجمعية التعاونية الحياة المشتركة باشتمالها على المجتمع بأسرة ، وإن إدخال العنصر النسائى فى التعاون ، لهو من الأمور البديهية ، حيث أن الزوجة هى ربة البيت وهى مسئولة عنه .

كما يجب ألا تقتصر العضوية على الراشدين وحدهم ، بل يجب أن يسمح للأطفال بالانتساب إلى الجمعيات ، وهنا يجىء دور المدرسة التى تقدم للطلاب التعليم الأساسى الضرورى الذى لا غنى عنه للتعاونى لأن الجمعيات التعاونية لا تعتبر وسيلة من وسائل النهوض بمستوى الحياة ، بل هى أداة تربوية من الطراز الأول ، ومؤسسة حية تشع أنوارها على المجتمع بأسره .

ولقد أوضحت لنا المعلومات والحقائق فكرة واضحة عن ماهية التعاون وأثره فى رفع مستوى البيت العربى . ويستفيد البيت فى المجتمع العربى من اشتراكه فى الجمعيات التعاونية من عدة نواح : أولا ، تخفيض أسعار الحاجات المنزلية ، ثانيا زيادة دخل المنتج . ثالثا : الإدارة الديمقراطية فى العمل التعاونى ، رابعاً : التثقيف والتعليم فى المساعدة الذاتية والعمل الجماعى ضمن إطار المجتمع ، وهذه الفوائد كلها يستطيع البيت العربى فى حضره وريفه أن يجنى ثمارها يانعة .

هذا وإن الجمعيات التعاونية ، بالإضافة إلى تزويد البيت العربى بطريق جديدة فى توزيع الحاجات . والدخل ، وكوسيلة حديثة للإقراض ، فهى تزوده أيضاً بالمعلومات الفنية وتنظمه تنظيما دقيقا فى العمل والإنتاج والتوازن وتضع له أسس الديمقراطية الحقة فى الحقلين الاجتماعى والاقتصادى .

التعاون والوظائف الاقتصادية للبيت العربى

للأستاذ أحمد زكى الإمام

(الجمهورية العربية المتحدة)

أولا : الاحتياجات الاقتصادية للبيت العربى :

الاحتياجات الاقتصادية لأى بيت هى مقومات حياة هذا البيت من منزل للإيواء معتدل التكاليف والأجر ومن غذاء كاف متوفر على مدار السنة ، ومن الملابس الصحية التى تناسب العمل وتحقق المظهر النظيف الطيب فى المجتمع ، ومن الأمتعة والموجودات التى يعتمد عليها البيت فى التكسب أو فى حفظ القدرات على العمل حسب نوع هذا البيت من الوجهة المهنية . كما تتضمن هذه المقومات مجموعة المدخرات الصغيرة التى يكونها كاسبو الرزق فى البيت من أفراده . وكذلك الرجوع إلى هذه المدخرات عند عدم توازن الدخل أو انقطاعه كله أو بعضه بسبب البطالة أو الشيخوخة أو المرض أو حدوث ظروف غير مرتقبة تستدعى المال الحاضر العاجل للإنفاق عليها ومواجهة تكاليفها . ومن أمثلة هذه الظروف . المعالجة ، والسفر ، وزواج الأولاد ، وحلول مواسم ذات طبيعة خاصة من حيث أعباء الصرف مثل دخول المدارس .

فالاحتياجات الاقتصادية لأى بيت إذن هى ميزانية مالية مطلوبة لمقابلة أوجه الصرف الضرورية على أبواب بعينها لا يمكن للبيت أن يستغنى عنها . فإذا اختلفت الاحتياجات من بيت إلى آخر بحسب مركز الأسرة المهنى وبحسب عدد أفرادها ونوعهم وأعمارهم ، فإن هذا لا يغير من طبيعة الاحتياجات التى هى أساساً إنسانياً ذات صلة باللوازم الضرورية للمعيشة قبل أن تكون كمالية متعلقة بالدخل الذى يحصل عليه عائل الأسرة . وعلى هذا الأساس فإن الاحتياجات الاقتصادية للعائلة بمعنى آخر هى مجموعة السلع والخدمات التى تشترى بالمال الذى يكسبه رب العائلة أو من يعيشون معه ممن يكسبون أى دخل . وهى فى ذات الوقت إلى جانب السلع والخدمات مجموعة الوظائف التى تؤدى للعائلة من مصدر خارجى عنها فى حالة قصور الموارد المنظمة عن تلبيتها أو فى حالة انقطاع هذه الموارد ، بحيث إذا لم تهيأ هذه الوظائف ، وإذا لم تؤد للعائلة اضطرب حالها ونقصت لديها عوامل الاستقرار والطمأنينة والرخاء ، ونظرت إلى حاضرها بتبرم وإلى مستقبلها نظرة الشك والقلق ، ومن هنا نقرر أن الاحتياجات الاقتصادية لا تنفصل عن الاحتياجات الاجتماعية فكلاهما يوجد فى حالة تلازم جنبا إلى جنب . كما أنهما يؤثران فى بعضهما البعض ويتفاعلان معاً ويقوم عليهما مجتمع سليم فى الوحدات الأسرية البيتية مستقر موفور الموارد .

وعند الكلام عن البيت العربى وتحديد احتياجاته الاقتصادية ، فإننا لا نخرجه من حيث الشكل عن الإطار

العام لبيت ذى مستلزمات ومقومات وموارد وميزانية للصرف على السلع والخدمات المطلوبة، ولا نخرجه عن الإطار العام أيضاً فيما يختص بوجوب تحقيق الخدمات والوظائف الضرورية من المصادر الخارجية فى المجتمع أو من الدولة مباشرة متى كان هذا البيت غير قادر على أن يوازن بالموارد العادية المصروفات الضرورية العادية لمقابلة الظروف المفاجئة غير المرتقبة التى أشرنا إليها .

غير أنه عند استعراض الاحتياجات الاقتصادية للبيت العربى ، لا بد لنا أن نقرر وأن نتفق منذ البداية على أن البيت العربى لا يتمتع بمستوى معقول من الدخول . إلى جانب أنه ، فى غالبية دولنا العربية، وحدة فى مجتمع يعتمد على الزراعة أو على قليل من العمل الصناعى الريفى البدائى أو على الأجور الثابتة فى دوائر العمل التجارى أو الصناعى والمالى ، أو على أعمال مهنية فى الريف والحضر . أما عن الزراعة وما تحققه من دخل من الأراضى الزراعية ومن المحصولات الحقلية لهذه الأراضى ومن البساتين ومن الثروة الحيوانية ، فإننا نعلم أن السواد الأعظم لزارعى الأراضى أى السواد الأعظم للمجتمع الريفى يعتمد على أعمال موسمية ، ومن هنا ساد هذا المجتمع نوع خطير من البطالة المقنعة إلى جانب أن الطرق البدائية فى الإنتاج المزرعى لا تزيد دخل أى فرد، بل والملكية الزراعيه نفسها تعرضت للتفتت الشديد بحيث أصبحت مصادر الثروة الزراعية نفسها لاتفى باحتياجات الأسرة . وما دام الدخل قليلا فى الزراعة وما دامت الأجور منخفضة فى مجالات العمل الأخرى فى الصناعة والتجارة، وما دامت الدخول غير موزعة توزيعاً عادلا بين السكان ، فإنه من المقرر أن يكون قوام البيت العربى فى الواقع ميزانية صغيرة لاتفى بحاجيات هذا البيت من غذاء وملبس ومأوى ومعالجة وترويح وتأمين وادخار لليوم العصيب .

ولا ضير علينا ونحن نفحص احتياجات البيت العربى ونخطط للارتفاع بمستوى الحياة فيه ، ونرسم البرامج المحددة لتنفيذ هذه الخطط ، لا ضير علينا أن نقرر بأن البيت العربى فى حاجة شديدة إلى مقومات البيت اقتصاديا بوجه عام وإنه لكى نوجد حياة سعيدة لا بد لنا أن نعالج المشكلات الاقتصادية من أساسها ، فنضمن لكل مواطن عربى مورداً منظما وأجراً كافيا ودخلا منظما من عمله ، كما نضمن فى ذات الوقت لكل مواطن عربى مورداً من الدولة فى حالات العوز ونقص الدخل نقصاً يضع ميزانية الأسرة فى حرج وفى خطر يؤثر على نوع ومقدار ما تأكل وما تستهلك من بضائع وخدمات .

وإذا كان البيت العربى من وجهة النظر الاجتماعية قد قام على خلال معينة من التراحم والترابط ، وعلى خلق معلوم من رعاية ذوى القربى ، فإنه من الواجب عند تحديد احتياجات البيت العربى ، وعند إشباع هذه الرغبات حفظا على كيان كل أسرة ، أن تستغل هذه المشاعر المتأصلة فى قلوبنا وفى تراثنا فنعتمد عليها ونقرر أنها فى ذاتها رصيد فى تخفيف حدة الاضطرابات المالية فى الأسرة العربية. فالفرد فى الأسرة واحد منها فى بلادنا ويتعين عليه أن يبقى هكذا ، بل ويتعين علينا أن نبقيه هكذا لنضمن عدم تفكك الأسرة فى البيت العربى. لأننا نعتمد على الزمالة وروح العمل المشترك فى أعمالنا الزراعية وفى مصنع القرية ، وفى المحل التجارى وفى عرض البحر فى مهنة صيد

الأسماك . وما زالت لدينا أسرات ، تعيش إلى مدة طويلة يعول فيها رب الأسرة زوجة وأولاد والتابعين لها من خدم ومن أقارب وغيرهم بحكم علاقات المصاهرة أو العصبيات أو الروابط الأخرى . ويعتمد فى هذه الزمالة وروح العمل المشترك وتقدير علاقات القربى وتقديسها ، واحترام الأخوة وأبناء العمومة وأبناء الموطن الواحد بالبلاد أو بالعمل ، يعتمد على واحدة من هذه أو كلها فى أن ينال الإنسان فى الدنيا عملا أو مالا أو معونة أو تلبى احتياجاته عند الاحتياج .

وفى محيط البيت العربى نظم وتقاليد ما زالت مرعية ومتبعة يعتمد عليها فى تلبية احتياجات الأسرة . فرب العمل الفرد ما زال يرعى عماله وذلك فى الدائرة الزراعية، وفى الصناعة وفى التجارة سواء بسواء، ورب العائلة مسؤول عن عدد من ذوى قرباه دون التزام مكتوب .

ولقد تطورت النظرة الحكومية إلى البيت العربى من الوجهة الاقتصادية فأصبحت الحكومات تعنى بمشكلات الفقر وزيادة النسل وقلة الدخول وتفاوت فئات هذه الدخول بين السكان . كما أصبحت تعنى بمشروعات التوسع الأفقى والرأسى فى الصناعة ، وتحولت الجهود الإنتاجية فى كثير من البلاد العربية صوب التحرر وتحقيق أكبر قدر من التيسير على المواطنين فى أن يعملوا فى ميدان الإنتاج والتجارة والاستثمار بعد إذ كانت هذه جميعها وقفا على نشاط الأجانب واستغلالهم لها واستئثارهم بخيراتها ، وبالإضافة إلى هذا فإن الحكومات فى البلاد العربية قد قررت للأسرة المحتاجة حقوقا منظمة دورية أو متقطعة فى الضمان الاجتماعى والتأمينات والمعونة . وجدير بالذكر أيضاً أن الشرق العربى يشهد نهضة مباركة فى التنظيمات الاجتماعية التى تعنى هى الأخرى بتجميع الموارد والقيام بوظائف نقدية تعين البيت المحتاج من أن يحصل على المقومات الضرورية للحياة ، بل ولقد تقدمت جهود الدولة والهيئات معاً فى تحقيق رعاية أبوية على المجتمعات الصغيرة بوجه خاص فى مجال الزراعة وفى الصناعة . وأولت طبقات الشعب فى القطاع الساحلى النائى وفى القطـــاع الصحراوى عناية خاصة تعين على أن يعمل كل فرد ليومه ولغده ، كما تعين على تكملة موارد أية ميزانية لا تقوى على مقابله ضرورات الحياة . وهى مشروعات وإن تكن فى البداية إلا أنها طلائع للمحافظة على البيت من العوز والحاجة والإملاق .

وما دام الشرق العربى يتطلع إلى حياة أفضل بعد اليقظه الأخيرة وبعد معارك التحرر فى أرجاء هذا العالم العريق ، فإنه مما لا شك فيه أنه لا بد وأن تستوعب نظم الرعاية بالبيت العربى من الوجهه الاقتصادية كافة الجهود الحكومية والأهلية ، الجماعية والفردية جنبا إلى جنب .

ثانيا : الوظائف الاقتصادية الأسرية على أساس تعاونى :

والتعاون يلعب دوراً هاما فى تحقيق الوظائف الاقتصاديه للأسرة ، أيه أسرة . .

فالتعاون يدعو إلى العمل ويوفر مجال توظيف الجهود والأموال والمهارات بحيث يتحقق والمجتمع وللفرد

مورد منظم من العمل . وهو يحافظ على مصادر الإنتاج من أن تتبدد ، فيعنى بزيادة جوهر الأرض المنزرعة ويوفر خامات الزراعة ويخضع الأعمال فيها جميعاً للأساليب الحديثة وطبقاً للمخترعات المستكملة ، كما يعنى برفع كفاية المصنع الصغير بأن يزوده بالعدد والآلات الصغيرة وبخامات الصناعة ويبسط على الإنتاج الصغير نوعاً من الحماية والوقاية محليا ويفتح أمامه الأسواق . والتعاون أضمن النظم لاحترام حقوق العمال فى أن يحصلوا لدى التعاون وخارجه على أحسن الأجور وعلى حصة من فائض العمل التجارى عندما يساهم العمال فى جمعياتهم التعاونية ، وعلى نصيب من فائض العمل الزراعى عندما يكون عمال الزراعة معاً وعمال الصناعة معا المشروع الاشتراكى الجماعى فى الإنتاج .

ويحقق التعاون للإنسان قدراً كبيراً من الطمأنينة فى حياة جماعية تؤدى فيها الأعمال الاقتصادية الإنتاجية بالجهود المشتركة على نحو ما شرحناه . وهو فى ذات الوقت يحفظ الدخول من أن تبدد فى السوق بشراء السلع غير الضرورية أو المغشوشة أو فى أداء أسعار عالية للسلع القليلة والتى يختزنها التجار ويعرضونها قليلا قليلا لتصيد الدخول . والتعاون أيضاً يحفظ هذه الدخول من أن تدفع ثمناً غالياً فى إيجار السكن وفى الحصول على الدواء وتكاليف المعالجة وفى شراء حاجيات الملبس ولوازم المطابخ وأدوات المدرسة ، وفى نظير الحصول على الخدمات التأمينية وفى الاستمتاع بالخدمات الترويحية التى يعز على أصحاب الدخول الصغيرة أن يبلغوها بأجورهم القليلة وبمواردهم الأخرى الصغيرة والمحدودة .

وإذا كانت احتياجات الأسرة على هذه الصورة من مأكل وملبس ومأوى وخدمات وتأمين ووظائف فى الترويح على وجه أخص . وإذ كانت احتياجاتها الاقتصادية إلى جانب ذلك أن تكون قادرة ، بالدخول العادية أن تقابل التكاليف العادية ، وأن تبقى فائضاً مدخراً للمستقبل عند انقطاع الموارد أو عند حدوث النوازل والمفاجآت كما ذكرنا ، إذا كان ذلك كذلك ، فإن التعاون يلعب دوراً هاماً فى الكيان الاقتصادى للأسرة لأنه يكون أجهزة تنشر تقديم هذه الخدمات أولا ، وبأحسن الأسعار ثانياً . كما أنه يقدمها غير مغشوشة ، ويراعى فى تقديمها عوامل اجتماعية منها محاربة الاستدانة والتعامل فيما يعود على المستهلك بالفائدة الصحية والاجتماعية بأكبر النفع . وإلى جانب ذلك فإن التعاون له صفة الشمول فى أداء هذه الخدمات لأنه يتناول فى نشاطه كل احتياجات الأسرة على الإطلاق . كما أنه يوجد العمل للمتعاونين ويرقى بأسلوبهم فى أدائه ويخفض من تكاليف الإنتاج ويوجد سوقا للتصريف ، أى أنه يزيد الدخل القومى والدخل الفردى للإنسان ليحصل من وراء ذلك على إيراد نقدى كاف يشترى به هذه السلع والعروض والخدمات .

وبتطبيق ذلك على البيت العربى ، أقول أنه فى مقدور النظام التعاونى أن يعالج المشكلات الأساسية فى المجتمع على النحو الآتى من وجهة النظر التعاونية :

ففى مجال الإنتاج يتعين أن تعنى الحكومات والهيئات بالاعتماد على التعاون فى تقديم ما يحتاجه الزراع من تقاوى حسنة ومخصبات ومن عدد وآلات صغيرة لتحقيق إنتاج أوفر .

كما يتعين تبصير الزراع بالطرق العملية فى امتلاك الثروة الحيوانية وفى زيادة الدخول عن طريق الصناعات الريفية وعن طريق تصريف المحصولات تعاونياً . كما يجدر بالمسؤولين الحكوميين والشعبيين أن يقيموا المشروعات الكبرى التى تزيد دخول السواد الأعظم من الشعب وذلك على أساس تعاونى . ومن أمثلة ذلك تجميد الكميات المفتتة ، واستصلاح الأراضى وتقسيمها وتوزيعها على صغار الحائزين ، هذا فى القطاع الزراعى . وفى القطاع الصناعى يتعين بالمثل تكوين الرأى العام الحرفى ليأخذ بالجهود التعاونية فى شراء الخامات وفى استخدام العدد والآلات ، وفى أن يزيد من الإنتاج .

وفى مجال الاستهلاك يتعين العمل على انتشار التنظيم التعاونى بحيث تحارب الدولة والمستهلكون الانتهازيين الذين يلعبون بقوت الشعب ويقدمون السلع الرديئة والمغشوشة ويختزنون البضائع ويغالون فى أسعار العقارات المبنية ويحولون الطب من خدمة إلى سلعة ويقدمون الخدمات الترويحية والثقافية بأغلى الأسعار .

وفى مقدور التنظيم التعاونى القوى أن ينتج لسواد الشعب أرخص السلع الغذائيه الرئيسية وأجودها من حيث قيمتها الصحية، وأن ينتج أيضاً كافة احتياجات الأسرة من أذرة وأرز وعدس وصابون وزيوت ولحوم وأسماك وطيور وخضر بمجهود مشترك مع الحكومه وتحت رقابة فعالة منها لصالح المواطنين ، وفى مقدور التعاون أن يجمع بين جهود المستهلكين وجهود الجمعيات الحرفية فى إنتاج الملابس والأحذية وقطع الأثاث وأدوات المطبخ بالتكاليف المعقولة .

والتعاون وحده أكبر قوة تستطيع أن تمارس الأعمال الطبية بأقل نفقة ويمارس فى ذات الوقت الأعمال التأمينية بأنواعها على شبكة متسعة فى أى بلد عربى .

بل ومن طبيعة التعاون أنه إذا استقر فى كل بلد عربى واتبعت تدريجياً وسائله فى كل دولة عربية ، فإنه سينشأ بين هذه البلاد عن طريق التعاون ، لا عن طريق أى تنظيم اقتصادى آخر عداه، نوع من المجهود الاقتصادى التوسيعى الذى يضمن للمستهلكين وللمنتجين فى كل بلد طرائق جديدة فى الإنتاج وسوقاً متسعة فى التصريف وسياسة جديدة فى أن يحصل المستهلك على خبرات هذه البلاد بالسعر المناسب دون مغالاة ودون إجحاف بالمنتجين .

وإلى جانب مجالات التعاون فى الزراعة وفى الاستهلاك وفى الخدمة ، فإن لهذا التعاون قدرات على أن يتناول مصالح الأسر التى أخنى عليها الدهر، وذلك عن طريق السلف المتوسطة أو الطويلة كما يعيد هذه الأسر إلى دائرة العمل المثمر من جديد . وفى مقدور التعاون أن يرعى مصالح المتعطلين بإيجاد العمل لهم داخل الحركة أو بإنشاء جمعيات الهجرة واستصلاح الأراضى أو إدارة مصنع مشترك جديد لهم . كما يرعى مصالح غير القادرين على العمل فيسهم فى تأهيلهم ، بل أن هناك تنظيمات تعاونية لجرحى الحروب والعميان .

وخلاصة القول أنه يمكن عن طريق التعاون أن نزيد دخول الأسرة العربية وأن نحافظ على هذه الدخول عند

الصرف وأن نوجد آفاقا لاستثمار هذه الدخول يحقق النفع للمدخر والخير العام للمدخر ، وذلك بالطرق الآتية :

١ — إيجاد وسيلة العمل المنظمة فى الزراعة وتوفير حاجيات الإنتاج الحقلى والحيوانى وتمليك رب الأسرة الزراعى أدوات العمل ومصدر الثروة فى الريف مع زيادة الدخل المزرعى والعناية بالقضاء على البطالة المقنعة عن طريق التصنيع والارتفاع بشأن رب الأسرة من عمل التراحيل .

٢ — توفير سبل العمل الشريف المتسع لطبقة الصناع بتوفير خامات وإمكانيات العمل .

٣ — المحافظة على دخل الموظفين والعمال ومحدودى الدخل ، وذلك برفع القيمة الإسمية للدخل ، وتمكين كل فرد من الحصول على لوازم الغذاء والكساء والمأوى والخدمات بأسعار معقولة .

٤ — العناية بالمرأة العاملة بإيجاد عمل منزلى حرفى يناسبها ، وإقراضها المال وتصريف منتجاتها .

٥ — تمليك الفرد ثروة جديدة فى الجمعية التعاونية نفسها وأسهم المشروعات الوطنية التى تمكنه الجمعية من شرائها أو تمتلكها هى على وجه المشاركة نيابة عن أعضائها ، كما تملك الجمعية أعضاءها حصة فى منزل أو منزل كامل بالدفع المقسط .

٦ — تملك الجمعية كل فرد من أعضائها ما هو أغلى ثمناً من هذه الماديات السابقة ، ألا وهو عنصر الاطمئنان فى المجتمع والعمل بروح الجماعة ضمن عائلة متعاونة تقدر ظروف كل عضو فيها ، وتحقق له أكبر قدر من الاستمتاع بطيبات الحياة .

إن الحياة المادية الاقتصادية التى تحتاج إليها الأسرة العربية تتحقق بالتعاون وبوسائله وبجمعياته وبأمواله ، ولكن هذا يتم أيضاً مقترناً بعلاقات الترابط فى المجتمع التعاونى ، الأمر الذى يجعل من التعاون نظاماً ننشده فى بيتنا العربى ونؤمن به مستقبلنا ، وبأنه يخلص المجتمع من شرور الفردية والاستغلالية ومن التفكك ومن التسابق وراء المزيد من الربح على حساب المجتمع ، وبالتالى يؤمن كل أسرة على مجهودها اليومى وعلى ما تملكه من موجودات ، ويؤمنها على غدها كذلك .

إن الجمعية التعاونية فى مجتمعها الصغير جزء لا يتجزأ من حركة كبيرة قوية فى الوطن ، وهى بمجموع أموالها ومواردها تعمل للحماية والرفاهية ، حماية الدخول بزيادتها وتوجيه أوجه الصرف فى مجالات مفيدة ، كما أن هذه الحركة تحقق للمجتمع الذى تعمل فيه مزايا مادية من مجموع أرباحها السنوية عن طريق تخصيص نسبة من هذه الأرباح أو الفوائض السنوية لإقامة المشروعات التى تعود على البيت فى منطقة عمل الجمعية بالخير . ومن هذه المشروعات ماهو صحى أو خيرى وقد يكون مصنعاً يستوعب اليد العاطلة عن العمل .

وإذا سلمنا بأن الحركة التعاونية عالمية ذات مبادىء ، وأنه عن طريق التعاون يسير العالم قدما نحو إنكار المشكلات وتخطيها وتذليل الفوارق والعقبات والمشاحنات الدولية ، وأن التعاون ينشد السلام ولا يعترف بالحواجز ويندد بالحروب ويطالب باستخدام الطاقة الذرية للإنتاج ، إذا عرفنا ذلك جيداً فإننا ندرك أهمية التعاون ماديا للبيت العربى، كذلك فهو يعلى كلمة التضامن ، ويؤمن الاقتصاد العربى ضد الاقتصاد الغاشم ويحفظ أعز ما فى البلاد العربية من قوى بشرية لتنصرف نحو العمل والجد والإنتاج .

ثالثا — الأجهزة اللازمة لتنفيذ هذه الوظائف :

تتولى الجمعية التعاونية أداء وظيفة أو أكثر من الوظائف السابقة التى يحتاج إليها البيت فى مقوماته المنزلية والسكنية والتمويلية والاجتماعية المختلفة . وتسمى كل جمعية بالاسم الذى يدل على أهم أعمالها ويجمعها فى مجال الأعمال الغذائية والكسائية والمنزلية والسكنية والطبية والاجتماعية اسم واحد وهو تعاون المستهلكين . أما الجمعيات التى تنشأ لتزيد الدخل عن طريق أعمال الإنتاج والاستثمار فتقع تحت اسم واحد هو تعاون المنتجين ، وكلا النوعين — جمعيات المنتجين وجمعيات المستهلكين — يلزمان للبيت العربى ويتصلان اتصالا مباشراً بعناصر الدخل والإيرادات فيه ، كما يؤثران فى ميزانية الإنفاق لديه كذلك ، تلك الميزانية التى يعنينا أن نحافظ عليها وأن نعلم الفرد طريق الصواب فى معالجتها وأن نقيم من الأعمال ما يرفع القيمة الشرائية لكل قرش فى هذه الميزانية ، ومن أجل هذا سيكون التعاون الاستهلاكى أهم ما نتناوله من أنواع التعاون عند الكلام عن الأجهزة التنفيذية اللازمة للوظائف الاقتصادية للبيت العربى .

وجدير بالذكر هنا أن الجمعيات التعاونية مؤسسات اختيارية وأنه لكى يمكن الأخذ بها لابد من إرشاد وتوجيه وبخاصة فى مجتمعنا العربى . ونسجل هنا أيضاً أنه بتعاون الأفراد يستطيع البيت العربى أن يحصل عن طريق التعاون على أكبر قدر من التمتع بطيبات الحياة ماثلة فى القيم الغذائية الكافية من المأكولات والكساء الواقى وفى المسكن الصحى وفى أسباب المعالجة . . والجمعية التعاونية تنهض بذلك فعلا بأموالها وبشخصياتها كما أنها تكون وسيلة لأداء هذه الخدمات نائبة عن الحكومة التى كثيراً ما ترصد من أموالها الاعتمادات التى توفر بها السلع وتقيم من اعتماداتها الكبرى مشروعات الإسكان الرخيص التكاليف وتخصص من ميزانيتها أموال المعونة للمحتاجين فتوزع هذه الأموال عليهم نقداً أو عينا أو خدمات جارية مستمرة أو متقطعة ، وتحرص الحكومات على أن تؤدى الخدمات من هذا النوع عن طريق التعاون . وهنا نتكلم عن دور الجمعيات التعاونية كواسطة فى توزيع خدمات الحكومة والبلديات إلى جانب الدور الهام الذى تؤديه الجمعيات التعاونية للمنتجين وجمعيات المستهلكين ، ونورد فيما يلى أهم أنواع هذه الجمعيات مبتدئين بالجمعيات الإنتاجية الطابع والغرض .

(١) الجمعيات التعاونية للتوريد ، وهى جمعيات تعنى بخامات الأعمال الزراعية وتقوم على فكرة توفير أحسن الأصناف لهذه الخامات وبأقل الأسعار ، وتعين على العمل المزرعى الكفء ليرتفع الإنتاج ويزداد الدخل . وهى

جمعيات تلزم للبيت العربى لأن رب هذا البيت فى القطاع الزراعى غالبا ما يكون من طبقة صغار المستأجرين أو من عمال الزراعة . فإذا تيسرت له إمكانيات العمل من توريدات الإنتاج فإنه بوصفه مستأجراً أو مستغلا لمساحات صغيرة يحصل على دخل أكبر ، ويدخل فى عداد جمعيات التوريد الجمعيات التى تملك الفرد الواحد أو مجموعة الأفراد عدداً من الماشية أو مجموعة من آلات توفر الوقت وتحفظ القوى البشرية وتغل بالتبعية دخلا أكبر .

٢ — الجمعيات التعاونية للتسليف الإنتاجى ، وهى جمعيات تمكن صاحب العمل وعائل الأسرة من الحصول على المال اللازم للإنتاج ، وهى جمعيات تحمى رب البيت رجلا كان أو امرأة من استغلال المرابين .

ومن مزايا هذه الجمعيات أنها توفر المال على مدار السنة وأنها تتبع فى أعمالها سياسة الإرشاد والتوجيه ليتمكن المزارع من استعمال القروض فى مكانها وفى الأعمال التى خصصت لها . كما أنها تعلم الفلاح أن يحسب للقرض حسابه فيحرص على تشغيله بدقة ويسدده فى مواعيد استحقاقه فلا تضطرب ميزانية الأسرة . وعلاوة على ذلك فإن جمعيات التسليف الإنتاجى تدبر المال للمشروعات التى هى فوق مستوى ومقدور الزراع كأفراد غير متعاونين . وهذه المشروعات تتصل بالدخل مباشرة فى حاضره ومستقبله مثل الأعمال الجماعية فى استصلاح الأراضى وهجرة الفلاحين إليها وإقامة الصوامع فى دائرتها .

٣ — الجمعيات التعاونية للخدمات الإنتاجية ، ونذكر منها على وجه أخص جمعيات التأمينات على موجودات الحقل والمنزل والمجتمع القروى عموما . وهى جمعيات تستمد قيمتها من دورها الفعال فى المحافظة على هذه الموجودات من ماشية وآلات ومنازل وحبوب من الحريق والهلاك والنفوق والزوال والتلف على الترتيب . وتستمد قيمتها كذلك من دورها الإيجابى فى تعويض الضرر وإعادة المركز المالى للفرد على ما كان عليه أو ما يقرب منه فترد لصاحب الماشية مالا جديداً لشراء ماشية ولصاحب الزرع الذى يهلك مالا ليعيش وينتج . وتخضع هذه الإجراءات جميعاً لشروط وعقود لا داعى لتفصيلها هنا .

٤ — الجمعيات النسوية للتصنيع والإنتاج المنزلى ، وجدير بالذكر فى مجال استعراض أنواع الجمعيات أن نشير إلى جمعيات تناسب طباعنا وعاداتنا فى الاعتماد على مهارات المرأة وقدرتها فى الأعمال المنزلية التى يمكن أن تدر ربحا على البيت العربى فيزداد بها دخل الأسرة ، هذه الجمعيات التعاونية للصناعات المنزلية التى تكون المرأة طرفا وعضوا فيها أو تكون قوامها بحيث تمتنع فيها العضوية لغير المرأة .

وهى جمعيات توفر خامات العمل بالأجل فتمد كل بيت بالخيوط الحريرية أو بالمنسوجات أو بالدواجن مثلا . ثم تباشر عمليات الإنتاج والتنمية الاقتصادية هذه بتقديم السلف إلى ربة الدار . ثم تعالج تصريف المنتجات قروية أو حضرية بإقامة المعارض وبإيجاد السوق التى تباع فيها السلع للأفراد وللهيئات بأحسن الأسعار . وبهذا نضمن للمرأة عملا كريماً متواصلا يعتمد فى أدائه على ما عرفت به من صبر ومثابرة ، مع أداء هذا العمل فى دارها دون أن تتعرض

فى إنتاجها لمزاحمة العمل فى المصانع ودون أن يتأثر بذلك بيتها الذى يعتمد عليها وعلى وجودها ورعايتها أغلب اليوم أو جزءاً كبيراً منه .

٥ — الجمعيات التعاونية والادخار ، ومن الأهداف التى تقوم عليها هذه الجمعيات التعاونية حماية الاقتصاديات للأسرة والادخار، وهى عملية تؤديها جمعية تعاونية تختص بالتوفير المنظم الدورى أو تؤديها أية جمعية تعاونية أخرى فتضيفه إلى أغراضها العادية .

وعمليات الادخار أو التوفير فى مجموعها من العمليات التى تعنى بها كل جمعية تعاونية أيا كان نوعها . لكن أعمال الادخار التى يحتاجها رب الأسرة تتطلب جمعية تعاونية مالية تختص بأعمال جمع المال فى شكل اشتراكات دورية شهرية أو نصف شهرية أو أسبوعية تتخذ شكل الادخار الإجبارى فى أغلب الأحايين ، خصوصا إذا تكونت جمعية الادخار فى دائرة عمل وظيفى أو فى ديوان حكومى أو فى محل تجارى لتخدم أعضاءها من موظفى هذه الدوائر بأن تكون لهم مالا مدخرا يرجعون إليه عند الشدة أو يستردونه على وجه أخص عند بلوغ السن القانونية للمعاش فلا تتصدع ميزانية الأسرة وتفتقر إلى المال الضرورى للحياة .

ومن أعمال جمعيات الادخار هذه أنها تستخدم المدخرات فى تقديم ما يحتاجه الأعضاء فيها من سلف طارئة ولذا فهى تسمى من أجل هذا الغرض الجمعيات التعاونية للتوفير والتسليف ، ومن أعمالها الممتازة أن تقرض المال لأعضائها لشراء موجودات وممتلكات منقولة، فهى تشتريها لهم وتقسط ثمنها. وبذلك تحمى أعضاءها من المرابين وتخفف الفوائد التى يدفعونها عند شرائهم أسهم التركات مقسطة . ومن أمثلة هذا النشاط حصول الجمعية على الأسهم والسندات فى المشروعات الوطنية وتمليكها، فهى تنشىء ثروة لكل عضو بسهولة وتسهم فى قيام المشروعات الوطنية المفيدة للمجتمع التى تستوعب الأيدى العاملة وتوجد مجالا للارتزاق .

وهذه الجمعيات بطبيعتها يسيرة التكوين وقد ألفت العائلات فى معظم البلاد العربية الأخذ بها بعيدة عن نظام التعاون وهى ما تسمى باسم « الجمعية » وتنشأ بحكم الجوار وفى منطقة سكنية محددة، والغرض منها الاقتراض من مال الجماعة وتسديد السلف على دفعات بعد آجال قصيرة مداها ستة شهور أو سنة .

فلو أمكن تنظيم هذه الجهود ووجهت للتعاون كان فى ذلك ضمان لعدم العبث بالأموال وطريق مأمون لجمع المدخرات وحسن توظيفها فلا تقف عند حد التسليف وحده .

ولما كان البيت العربى فى حاجة إلى نشر مبادىء التوفير وإقناع كل فرد لاسيما أرباب الأسرات الكبيرة العدد بأن يعيش فى حدود ميزانية مرسومة مفهومة ، وجب نشر هذه الجمعيات بين طائفة الموظفين والعمال على وجه أخص ، ولا يحتاج الأمر فى نشر هذه الجمعيات والدعوة لها إلى مجهود كبير مادامت النفوس مهيأة لها . وطريق

انتشار هذه الجمعيات على الوجه الأغلب الجمعيات النسوية والنقابات العمالية والنوادى وروابط الموظفين .

٦ — الجمعيات التعاونية للطب العلاجى والوقائى ، ومن الأنواع التعاونية الأصلية للجمعيات أن يتجمع المستهلكون من أرباب العائلات ويشكلون فيما بينهم جمعيات تعاونية للطب .

والغرض من جمعيات الطب أولا الوقاية إلى أن تتطور أعمال الجمعية فتتناول الطب العلاجى بكامله ، فأما جمعيات الطب الوقائى فهى أحدث أنواع التعاون فى إنشائه وفى إداراته وفى رسالته ، فالجمعيات الطبية التعاونية تقيم بين المواطنين على أساس منطقة عمل متسعة فى مدينة أو فى قرية أو فى حى بعينه محدود المعالم جغرافيا . وإذا كانت الجمعية للطب الوقائى عنيت بإذاعة رسالات فى تبصير المواطنين بأنواع الأطعمة المفيدة والملابس النافعة . ومن جمعيات الطب الوقائى أعداد هائلة تقوم بدفع غوائل المرض فتنشر الأمصال المطلوبة وتردم البرك وتصل مناطق عملها بالإضاءة الكافية والمياه النقية وتوزع على أعضائها إرشادات الوزارات والدوائر الصحية الحكومية وتبصر ربة الدار بالقيم الغذائية للحوم والأسماك والطيور والخضروات والفاكهة وتنشىء على الشواطىء مراكز الترويح والاصطياف وتقيم فى المناطق الجافة وفى الجبال دور الناقهين أو المرضى والعجزة والمسنين وتوزع اللبن على الأطفال والعمال فى دور الصناعة .

وتقوم الجمعيات التعاونية للطب العلاجى بامتلاك وإدارة مستشفيات كاملة تحول فيها الطب إلى خدمة لا إلى سلعة تباع للجمهور . وتؤدى فى هذه المستشفيات كافة نواحى الرعاية العلاجية وتجرى فيها العمليات الجراحية والتحاليل .

ولا شك أن أعمال الطب التعاونى جانب اجتماعى للتعاون لكنه لا ينفصل عن الجانب الاقتصادى للتعاون ذلك أنه يتصل بأرزاق العائلة متى مرض عائلها . ومن أجل ذلك فإن جمعيات التعاون للمعالجة كثيراً ما تصرف للمرضى دفعات نقدية فى شكل سلف أو إعانات لما يفقدونه أثناء مرضهم من موارد الكسب . وعلاوة على ذلك فإن جمعيات المعالجة تتصل بالمشروعات الاقتصادية التأمينية الحكومية والأهلية للعمال والموظفين .

٧ — الجمعيات التعاونية للتأمين على الحياة ، وهذه الجمعيات من أنواع الجمعيات الاستهلاكية وترد فى معرض الكلام عن الوظائف الاجتماعية ، لكن التأمين فى حد ذاته قد أصبح عملية مالية جديرة بالنظر فى معرض الكلام عن دراسة مشكلات الأسرة على وجه العموم .

والبيت العربى فى حاجة قصوى إلى عوامل التأمين على موارده الحالية والمستقبلة ، والجمعيات التعاونية للتأمين تمكن كل رب أسرة من أن يحمل بوليصة للتأمين على حياته لصالح أولاده من بعده ، أو على حياة الأطفال لصالح والدهم أو لصالحهم هم متى بلغوا سنا معينا .

والبيت العربى قد يأنف من التأمين ولا يفهم لغته بل قد يتشاءم منه ، ونحن غالباً قدريون لا نحب أن نؤمن

المستقبل ، فى حين أن التأمين أمر واجب . ومتى انتشر الوعى التأمينى فإنه قد لا يكون الأخذ به يسيراً نظراً لأن شركات رأس المال فى التأمين لا تبعث على الثقة وتتقاضى معدلات عالية فى رسومها وأعمالها ترهق المستهلكين ، ومن أجل ذلك فإن الجمعيات التعاونية للتأمين تيسر العمل لصغار المدخرين والمؤمنين وتقنع الأفراد بالتأمين بأنواعه وعلى الأخص التأمين على الحياة .

وقد استطاعت الجمعيات التعاونية أن تضيف التأمين إلى أغراضها . فالجمعية الزراعية تؤمن على حياة أعضائها . والجمعية الصناعية والمنزلية كذلك ، كما استطاعت الجمعيات التعاونية أن تختص بأعمال التأمين ، كما نفذت نوعا طريفا من التأمين الجماعى لصالح الأعضاء كمجموع لدى الشركات الكبرى للتأمين الموثوق فى أعمالها أو لدى الجمعية المركزية والعامة للتأمين على الحياة .

وإذا كان التأمين على الحياة أمراً ضروريا لرب الأسرة فى البيت العربى ، فإنه كذلك مما لاشك فيه يتبع العقلية التأمينية التعاونية على الحياة حرص كل عائل لكل أسرة على أن يباشر التأمين على موجوداته من ملكية عقارية وأمتعة .

٨ — الجمعيات التعاونية المنزلية : وهذا نوع آخر من الجمعيات التعاونية الحيوية والضرورية للمستهلكين وتباشر هذه الجمعيات عمليات شراء البضائع الغذائية والملابس وحاجيات المطبخ والمنزل وتبيعها لأعضائها بالسعر المعقول . وتهدف الجمعية أول ماتهدف إلى إيجاد المتجر التعاونى الذى يوزع السلع غير المغشوشة على الأعضاء وبالسعر الذى لا يرهق الميزانية .

ولكن هذا الهدف القريب يتطور ويحقق للمستهلكين سيطرة كاملة على السوق تدريجياً بأن تملك الجمعية فروع العمل والتوزيع لكافة السلع على الإطلاق . ثم تتعامل فى إنتاج هذه السلع لصالح المستهلكين .

ومن مزايا الجمعية المنزلية للبيت العربى أنها تعنى بتقديم البضائع العملية للمرأة سيدة الدار ، وللمرأة العاملة كما تنشىء لها فروع توزيع السلع التى تتناسب مع طبيعة عملها ، ومن أمثلة ذلك المطاعم ، ومحال تفصيل الملابس وتصليحها ، والفصول الخاصة للأطفال لتحمل عن مثل هذه المرأة المجاهدة أعباء الرعايه التعليمية ، ودور الحضانة التى ترعى الصغار .

وللجمعيات التعاونية المنزلية أكبر الأثر على البيت العربى الزراعى لأن الأسرة الريفية تحصل على احتياجاتها من تاجر القرية الذى يسرف فى البيع بالأجل ويحصل ديونه من ناتج الأرض الزراعية فيربك الفلاح ويربطه طوال حياته به مما يقعد العائلة القروية عن مواجهة مطالب الحياة، وللجمعيات نفسها أثر كبير على الأسرة الصناعية العربية بالمثل ، فالعامل الذى يعيش على أجره وينفقه فى كانتين المصنع أو لدى بدال الحى لا يستطيع أن يكون مدخراً يرجع إليه عند الحاجة، ولكن الجمعية التعاونية كيان واقعى اقتصادى يحمى هذا العامل من تاجر التجزئة ويعود العامل أن يشترى حاجاته نقداً ويمكنه من أن يعيش متوافراً لإنتاجه .

٩ — الجمعيات التعاونية لبناء المساكن للتمليك والتأجير : وإذا كانت اقتصاديات البيت العربى تتأثر إلى حد كبير بما ينفقه رب الأسرة على السلع الغذائية فإن أجر السكنى بدوره عبء ثقيل، يضاف إلى ذلك أن سوء السكن يؤثر بدورة على مجهود كل فرد فى الأسرة فى عمله إلى جانب ما تتأثر به طباعهم وسلوكهم ونظرتهم إلى الحياة .

والجمعيات التعاونية لبناء المساكن طراز فريد من التعاون . وهى تقوم على شراء الأراضى وتقسيمها وإنشاء المساكن عليها فى قلب المدن أو فى الضواحى وتمليك كل فرد عليها مسكنا حسب قدراته أو بناء مجمعات سكنية للتأجير بالأجر الحقيقى للتكاليف والإدارة .

والمجتمع التعاونى للإسكان مجتمع يحقق أهدافا اجتماعية وأخرى اقتصادية على جانب من الخطورة ، فمن حيث الأثر الاقتصادى الذى تحققه جمعيات السكنى ، فإنها أولا فى حالة التمليك تعتبر ادخاراً لرب الأسرة ومتاعا يورثه لأولاده من بعده ، كما أن إقامة الأسرة وعائلها فى منزل مملوك يخفف من القيمة الإيجارية الباهظة التى يتقاضاها الملاك . وعلاوة على ذلك فإنه فى المجتمع التعاونى لخدمة السكان فى قلب المدينة وفى الضواحى تنشىء الجمعيات إلى جانب وظائفها فى البناء والسكن فروعا عديدة فى توريد السلع الغذائية والوقود بل وتخفف نفقات المواصلات من المنزل إلى العمل وإلى المدارس وإلى مرافق المدينة . وفى حالة الجمعيات التعاونية للتأجير تقوم هذه الجمعيات بشراء الأرض وإقامة المساكن عليها وتؤجرها . وفى هذه المساكن يتمتع العضو بحرية المستأجر فيخرج أو يقيم ، وبحقوق المالك فلا يكلفه أحد بأن يرتحل . وله فى الحالين عدد من الأسهم وفائدة استثمار السهم وحقوق التمتع بمرافق الجمعية ، إلى جانب الإيجار الرخيص فى حالة جمعيات التأجير والقسط الزهيد لمن يدفع أقساطا على آجال طويلة لمدة ١٥ عاما يصبح بعدها مالكا للمنزل أو للشقة أو لطابق فى عمارة .

ولا شك أنه قد آن الأوان للبيت العربى أن يستقر وأن ينتفع بالنظام التعاونى فى تعمير الأراضى الخالية وفى السكنى على أساس جديد جماعى صحى .

ومن الموضوعات التى تستوجب الذكر هنا عن مسألة جمعيات التعاون السكنى ، لا ننسى أنها تعتبر سوقا للعمل يشجع صناعة البناء وذلك فى حالة ما إذا انتظم عمال صناعة العمارة وأدواتها فى جمعية إنتاجية للبناء ، وهذه يعقبها أنواع من جمعيات التأثيث وجمعيات الخدمات التى تزود المنازل بحاجياتها الداخلية على أحدث طراز .

وإذا كانت الحكومات العربية قد أخذت حاليا بمبدأ إلزام أرباب الأعمال من الشركات المساهمة بالعناية بسكنى العمال ، وإذا كانت هذه الحكومات بدورها قد استصدرت التشريعات لإنشاء المساكن الشعبية والرخيصة التكاليف حماية للمواطنين وخفضا لنفقات المعيشة ورعاية لرب الأسرة فى العائلات ذات العدد ، فإنه يتعين العلم بأن هذه الجهود كلها لا تغنى عن التعاون ، لأن التعاون يجمع المدخرات ويوجه الأموال الزائدة فى الحركة التعاونية نفسها وفى الهيئات والجماعات وفى صناديق التوفير إلى مجال الإسكان . وعلاوة على ذلك فإن جهود التعاون لا تقف عند الإسكان كما هو الحادث فى المشروعات السكنية للمصانع أو للحكومة وإنما يتعدى التعاون فى البناء كل هذا لأنه يغير الإنسان

بحسب تغير وسائل حياته ويحقق له مزيدا من الرفاهية. كما أنه يمكن الطبقات الأكثر احتياجا من أن تحصل على المساكن بالأولوية ويضمن للمواطن فى جمعيته أن يدير شئونها وأن يحدد أسعار الإقامة فيها وأثمان خدماتها .

إن مشروعات الإسكان فى السوق عامة تخضع للعرض والطلب وتتأثر بتكاليف البناء وتحكمها سياسات فى التعمير وفى التمويل وفى التشريع تفوق مقدرة المستهلكين . أما مشروعات التعاون فإنها إن خضعت للعوامل العامة الموجهة لذلك والمتفاعلة معها فإنه فى مقدور الجمعيات أن تخفف من غلوائها وأن تحد منها . وإذا تعددت الجمعيات وكثرت ولقيت انتشارا فإنها تكون اتحادا عاما يرعى مصالحها وبمعنى آخر تنشىء قوة جديدة للدفاع عن المستأجرين وصغار الملاك ضد تحكم الإقطاعيين فى البناء .

رابعا : أنواع الرعاية والمعونات المطلوبة لأجهزة التعاون فى مجال الأسرة :

ومما سبق ذكره يتضح أن نظام التعاون يتناول مقومات الحياة فى الأسرة وأنه متى اتبع ونفذ على أصوله وأساليبه الصحيحة يفيد منه البيت العربى فائدة كبرى فى زيادة الدخول وفى موازنة ميزانية الأسرة وفى حماية فئات هذه الدخول وفى تحقيق أنواع من الخدمات المادية والاجتماعية لولا التعاون ما تمكنت الأسر الزراعية والعمالية وطبقات محدودى الدخول من الحصول عليها فى هذه الدنيا المتزاحمة على إنتاج أكبر قسط من السلع الكمالية التى تفوق مقدور المستهلكين والتى تنشأ بسبب إغراق الأسواق بها بطالة ومشكلات اجتماعية وسياسية محلية وعبر الحدود .

والتعاون ليس تنظيما شاقا ، إنه تنفيذ لحاجات الأفراد فى أن يحموا أنفسهم من شرور النظام الرأسمالى وهو فى ذات الوقت تطبيق عملى فى بيئتنا العربية لما فطرنا عليه من حب التجمع والعمل معاً . وهو إلى جانب هذا وذاك سبيلنا إلى اقتصاد جديد يستطيع به المنتج أن يزيد فى إنتاجه والمستهلك أن يسيطر على السلع وأسعارها . . بل وهو فى النهاية طريق إلى اقتصاد محلى ودولى يمكن فى خلاله أن تنتج السلع لسوق معلومة اكتفائية .

وإذا نظرنا إلى طبيعة الأراضى فى بلادنا وفى الدول الشقيقة غيرها ، وإذا نظرنا أيضاً إلى أهمية تبادل العمال والخبرات على أساس التعاون وحده بين هذه البلاد ، لوجدنا أن النظام التعاونى يحقق للأسرة العربية عملا منتظما رتيبا ودخلا مستمرا وخيرات فى مجتمع عربى على أساس من الاكتفاء الذاتى .

وإذا كان التعاون بهذه الصورة وعلى هذا النمط فلماذا لا يشق طريقه سريعا فى بلادنا ويفيد الأسرة والمجتمع ؟ إن الأمر لا يعدو أن يكون انصرافا عنه لعدم فهم أسراره والإلمام بمبادئه . لقد دخل التعاون الجمهورية العربية المتحدة والسودان ولبنان والعراق والأردن وهو فى طريقه إلى ليبيا حيث سيستقر إلى جانب التعاون فى المغرب وتونس والجزائر ، لكن هذا التعاون كان صوريا بفعل المستعمرين وتدخلهم لأنهم كانوا يعلمون أثره وخطره على المتضامنين وعلى إيجاد شعوب مترابطة .

ووسيلتنا إذن لكى يفيد البيت العربى من التعاون أن نحرر التعاون وأن نبصر الناس به وأن ننشر أساليبه وأنواع جمعياته وتكوينها وتمويلها وإدارتها والتعاون معها .

إن الرعاية التى يتطلبها برنامج تعاونى لمصلحة البيت العربى ترتكز أول ما ترتكز على جهود الحكومة وجهاد الفئات الأهلية والعمالية والنسوية ، وأخيرا على رغبات البلاد العربية فى أن تجمع تعاونها الاقتصادى فى إطار واحد وعلى نهج جديد عربى .

أما الحكومة فيتعين عليها فى كل دولة أن تنفذ وظائفها التقليدية التعاونية الخاصة بالدعوة وإصدار تشريعات التعاون السليمة وبالتعليم التعاونى العام للمواطنين وبتقرير امتيازات تشجع على الأخذ به ، كما يقع على الحكومة فى السنوات الأولى للتعاون أن ترتكز على أنواع الجمعيات المتصلة بالطبقات الأكثر احتياجاً ، وأن تقدر الجمعيات التعاونية المنزلية والسكنية والعلاجية والتأمينية حق قدرها .

أما الهيئات فلها جميعها برامجها . ولها مواردها .. ولا أحسب أن للنقابة ولا للتجمعات والمنظمات والتشكيلات الوظيفية والنسوية رسالة أسمى من التعاون ولا أجهزة ترعى المجتمع عن طريقها أبلغ وأدق من التعاون . ولذلك يتعين التوصية على جميع هذه الهيئات بأن تنفذ برامجها فى خدمة المجتمع بنشر التعاون ومعاونة جمعياته والمبادرة إلى حملة واسعة النطاق بشأنه ليتمكن كل فرد من أن يكون عضوا فى جمعيته متعاملا معها مستفيدا بخدماتها .

تنظيم أوقات الفراغ للأسرة

للأستاذ توفيق حسن وصفى

(جامعة الدول العربية)

---

١ — وظيفة الأسرة فى المجتمع

الأسرة هى منشأ المجتمع وأساسه ، وما المجتمع إلا مجموعة من الأسر... تكون كل أسرة خلية ، والأسرة تؤدى للمجتمع خدمات عظيمة الأثر جليلة الشأن ، وإن كانت هذه الخدمات قد تطورت فى العصر الحديث عنها فى العصور السالفة .

فالأسرة قديما كانت تقوم بوظائف مختلفة ومهام متعددة زراعية وصناعية ودينية وسياسية وحربية وتربوية وروحية وصحية وترفيهية . . . ثم تطورت هذه الوظائف وتغيرت تلك المهام وانتقلت هذه الأعباء أو معظمها — فى المجتمع الحديث — إلى الدولة وإلى مؤسسات وهيئات تحملت العبء الأكبر من هذه الوظائف ، ولكن بقيت للأسرة وظيفتان أساسيتان :

١ — وظيفة بيولوجية وتتلخص فى إنجاب النسل واستمرار الجنس البشرى .

٢ — وظيفة تربوية ، وهى التعهد بتربية النشء خصوصا فى المرحلة الأولى من حياتهم . فالبيت هو المدرسة الأولى للطفل ، وهذه المرحلة تعد من أهم مراحل التربية وأبعدها أثراً فى حياة الفرد ومستقبله .

فالأسرة إذن — هذه المؤسسة الصغيرة — كبيرة الأهمية فى حياة المجتمع وتكوينه . . بل فى حياة الأمة ومستقبلها . وقد ذكر بيرجس ولوك فى كتابهما « العائلة » Burgess and Locke (The Family) ما يلى :

« لقد نالت البشرية حضارتها بفضل الأسرة ، وإن مستقبل البشرية يتوقف بصورة مباشرة على هذه المؤسسة أكثر من أية مؤسسة أخرى ».

ولكى تؤدى الأسرة وظائفها على خير وجه وأتمه فلابد من أن يكون كل من الزوج والزوجة على حظ وافر من التربية الأسرية ونالا من معرفة واجبات الزوجية والوالدية القدر المناسب .

وقد ذكر سبنسر Spencer أن الغرض من التربية هو إعداد الفرد للحياة الصالحة الكاملة فى مختلف نواحيها المهنية والأسرية والوطنية والثقافية والصحية والاجتماعية ، ونظرا لأن العلاقات الأسرية فى تطور سريع مستمر تبعا لتطور المدنية كانت الحاجة ماسة إلى هذه التربية الأسرية التى أشرت إليها .

فالأسرة الحديثة تتجه نحـــو حياة ديمقراطية ، الرأى فيها شورى بين زوجين متكافئين ، ويشترك فى تحمل مسئولياتها الأبناء متى كبروا ، كما أن أمر زواج الأبناء أصبح فى الكثير من الحالات ليس من شأن الوالدين بل هو من أخص شئون الأبناء ، كما أصبح مقياس التكافؤ بين الزوجين هو الانسجام الفكرى والتقارب الروحى والتجاذب المزاجى بعد أن كان مقياسه الوضع الطبقى والمستوى الاقتصادى بين أسرتيهما .

والأسرة الحديثة كذلك يقوم بناؤها وتكوينها وتماسكها على روابط الحب والود والتفاهم المشترك بعد أن كان يقوم على عوامل خارجية يحكمها ويوجهها ـــ خطأ كان ذلك أم صواباً ـــ العرف والعادات والتقاليد والرأى العام .

وقد تحررت الأسرة الحديثة من بعض وظائفها التقليدية التاريخية ، فأفسح هذا التحرر لهـا مجال القيام بمهمتها التربوية الخطيرة . ويمكننا تصور ذلك بوضوح إذا قارنا بين موقف الأسرة قديما حين كان كل هم أفرادها جميعا موجها إلى الاهتمام بأمورهم المعيشية والدفاعية . . وموقف الأسرة حديثا حينما أصبح أفرادها قادرين على الاهتمام بتنمية شخصياتهم ومواهبهم بما يعود عليهم بالخير وعلى المجتمع بالنفع ، وحين توفرت المؤسسات التى تقوم بالإنتاج الصناعى على نطاق واسع .. ودور العلاج ودور العلم والأندية وغيرها ، تخففت عن كاهل الأسرة الكثير من الأعباء التى كانت تزاولها من قبل .

٢ — الحاجة إلى الترويح

ليست الحياة كلها متاعا ولهوا وابتساما . . . وليست الحياة فى كليتها تعبا ونصبا ودموعا وليست الحياة جميعها تمضى كفاحا سعيا وراء العيش : فليست هى كما ادعى أبو العلاء المعرى :

تعب كلها الحياة فمـــا أعجب إلا من راغب فى ازدياد

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد

ولكن فى حياة كل فرد أوقاتا للعمل والسعى وراء الرزق ، كما أن فيها أوقاتا يجنح خلالها للراحة والاستجمام والترفيه وإلا أضحت مملة ثقيلة قاسية . فالترفيه والترويح والاستجمام ضرورة من ضروريات الحياة .

وقد يمكننا أن نقسم الأربع والعشرين ساعة التى تكون يوما فى حياة فرد عادى إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى :

٨ ساعات للنوم ٨ ساعات للعمل ٨ ساعات للاستجمام والترويح والراحة .

ومن ناحية ساعات النوم فالفرد فى حاجة لأن ينام هذه الساعات ، إذ أن النوم عملية فسيولوجية مهمتها استرجاع نشاط الجسم ، فنحن نعمل ونجهد قوانا العضلية والعصبية والذهنية فى ساعات العمل ولا بد لنا من راحة لنستعيد

فيها قوتنا ونجدد خلالها نشاطنا ولاغنى عنها لأى إنسان ، وفى هذا ذكر الله فى كتابه العزيز (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) ، وقال أبوعثمان عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ (إن النوم أحد أقوات الإنسان) كما قال شكسبير (إن النوم أعظم غذاء فى مائدة الحياة) .

أما ساعات العمل — مهما تنوع واختلف — فبديهى أن كل فرد عليه أن يؤدى عملا يأتى له بدخل ينفق منه على حاجاته وحاجات من يعول .. وهو مضطر لأن يقوم بأداء هذا العمل سواء رضى عن عمله كل الرضا أم سخط كل السخط أم كان بين هذا وذاك ، وقد يكون العمل فى حد ذاته ليس مريحا ولا يتفق مع طبيعة جسمه وملكاته . . لكنه على أى حال يجب أن يؤديه ليحصل على دخل يسد به حاجاته وحاجات أسرته .

والنوم والعمل كلاهما ضرورة ولا يمكن لفرد أن يستغنى عن أحدهما ، يبقى بعد هذا وذاك ساعات ثمان : منها حوالى ثلاث ساعات ضرورية يصرفها المرء فى إشباع حاجاته الشخصية من مأكل وملبس ونظافة وغير ذلك ويبقى له بعد كل هذا خمس ساعات أخرى هى التى يجب أن تخصص للراحة والترويح والترفيه .

وهذه الساعات الأخيرة ليست بالشىء التافه خصوصا إذا أضيفت إليها فترات الراحة الأسبوعية والسنوية والموسمية ، فنجد أن الوقت الذى يملكه الفرد ويكون مطلق التصرف فيه شىء يستحق الاعتبار .
ولقد وضع ماردن فى كتابه (كيف تكون نفسك) قائمة لتقسيم حياة إنسان عادى خلال ستين عاما — لم يدخل فيها أعوام الطفولة الأولى — خرج فيها بالنتيجة التالية :

شهر	سنة	نواحى النشاط
٦	١٧	عمل
—	٢٠	نوم
٩	—	انتظار المائدة
—	٣	تناول الطعام
٦	٢	نظافة شخصية
٦	٧	لهو ومسرات وترويح
٣	٦	سير ورياضة وقراءة
٦	٢	لاشىء

ومن هذا الجدول نستطيع أن ندرك تماما بأن الإنسان العادى الذى متوسط عمره ستون عاما لابد أن يقضى منها عشرين عاما فى فراشه ومثلها فى عمله ويتبقى له حوالى ثلث عمره للترويح .. وهو ولاشك فى حاجة إليه .

والإنسان حين يروح عن نفسه فهو يؤدى عملية متممة لعمله ونومه ، وفى هذا يقول الإمام على بن أبى طالب « روحوا عن نفوسكم فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد » . ويقول الرسول الكريم صلوات الله عليه: «أغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل مرضك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك » . فجعل الاهتمام بوقت الفراغ والترويح عن النفس خلالها بما أحل الله من تسلية بريئة يجب أن يسبق الاهتمام بالشغل.. لأن فى ذلك ما يجعل المرء يقبل على عمله وينتج .

والإنسان حين يتجه فى وقت فراغه إلى الترويح عن نفسه فهو إنما (يلعب) واللعب ميل فطرى عام ، وهو ضرورى للحياة ضرورة العمل لها . . . ولاشك فى أن اهتمام الإنسان قد زاد فى العصر الحديث زيادة واضحة بالاستجمام والترويح وذلك لأن نوع العمل الذى يقوم به والظروف التى تحيط به أدعى إلى الإجهاد منها فى العصور السابقة . إذ أن المدنية كلما ارتقت ازدادت مشاكله تعقدا وزاد جهده فى سبيل حلها ، كما أن ساعات العمل فى هذا العصر أقل منها فى العصور السالفة ، فبينما كان العامل يشتغل طول يومه نراه الآن وقد حددت فى اتفاقيات العمل الدولية له ثمانى ساعات يوميا مع يوم راحة فى الأسبوع ، وبينما كانت ربة المنزل تقضى النهار كله فى تأدية واجباتها المنزلية إذا بها اليوم تؤدى تلك الأعمال فى وقت قصير وبجهد قليل بفضل التقدم العلمى الآلى الحديث ، ويمكن على هذا أن يقال « كلما ارتقى الإنسان فى سلم الحضارة إزداد وقت فراغه » .

والتشريعات والاختراعات الحديثة إذ تتعاون وتعمل على تخفيض أوقات العمل تعمل فى الوقت نفسه على زيادة أوقات الفراغ . . وهذا الفراغ يجب أن يملأ ، وليست هناك صورة توضح لنا صفات المرء وأخلاقه أكثر من طريقته فى تمضية أوقات فراغه ، ومن هنا قيل « أن شخصية المرء وأخلاقه تتكونان فى أوقات فراغه لا فى ساعات عمله » .

وأوقات الفراغ — عند النظرة الأولى — نجد أنها جعلت بطبعها لرياضة النفس ، والناس يختلفون فى أذواقهم وميولهم واتجاهاتهم نحو هذه الرياضة ، وهذا الاختلاف قد يرجع حينا إلى طبيعة ما يزاولونه من عمل ، أو هو قد يعود إلى اختلاف فى أمزجتهم حينا آخر . . ونحن نجد فيما يحيط بنا من أفراد أن من يزاول منهم عملا ذهنيا يميل لأن يروح عن نفسه فى أوقات فراغه بنوع أو آخر من رياضة البدن ، وهذا لا يمنع من أن يكون فى نفس هذه الفئة من يفضل أن يتسلى ويروح عن نفسه برسم لوحة أو قراءة كتاب ، كما نجد أيضاً أن من يعملون فى أعمال يغلب عليها الجهد الجسمانى يتجهون فى أوقات فراغهم إلى نشاط ذهنى من ثقافة أو تسلية هادئة ، وقد يؤثر فريق منهم أن يتصل بالحياة فى هذا الوقت بأساليب أخرى للترويح . ووقت الفراغ هو الفرصة التى يرجع فيها كل فرد إلى نفسه ليحس إحساساً عميقا بما فى الحياة من متاع ونعمة وترويح برىء — إن أراد لنفسه السمو والرفعة — أو قد يكون هذا الفراغ سبيلا للشر والفساد إن اتبع هواه وكان أمره فرطا .

والحاجة إلى الترويح — فى وقت الفراغ — حقيقة لا يمكن إنكارها . . ولا يمكن الإقلال من أهميتها ،

فالنوم . . والعمل . . والترويح على درجة واحدة من الأهمية فى حياة كل فرد . . وما الأسرة إلا مجموعة أفراد إذا صلح الفرد واستقام صلحت الأسرة واستقامت وبالتالى صلح المجتمع وتقدم .

٣ — أهمية تنظيم أوقات الفراغ للفرد والأسرة

لعل أهم ما يوجه النظر إلى الاهتمام بتنظيم أوقات الفراغ ، أن المدنية الحديثة تعمل على أن تمد للناس فيها وتفسح أمامهم المجال للتمتع بها ، فالاختراعات المتوالية والآلات الحديثة تعمل على تخفيف وطأة الجهد عن الإنسان ، والتشريعات والاتفاقيات الدولية تقف إلى جانب تحديد ساعات العمل ووجوب تحديد فترات الراحة ، فتزداد أوقات الفراغ اتساعاً مما ينتج عنه ما يستوجب البحث فى وسائل تنظيم استثمارها وشغلها بحيث تصبح أداة للتكمل الإنسانى وتغدو عاملا هاما فى تكوين المواطن الصالح والأسرة الصالحة ويكون استثمارها على وجه منظم صحيح لصالح المجتمع كله .

فإذا استطعنا أن نهيىء الأسباب التى يمكن معها استثمار وقت الفراغ استثمارا طيبا لكان فى ذلك حل لمشكلة (وقت الفراغ) التى تعانى منها الأسر الشىء الكثير ولا ستطعنا أن نجنى من وراء ذلك ثمرتين :

(الأولى) أن يظفر كل فرد بما يخفف به عن نفسه وطأة الضيق والقلق حين يعتريه الملل بعد انقضاء فترة العمل فيحصل على ما ينشده من راحة وطمأنينة نفسية .

(الثانية) تحويل أوقات الفراغ إلى فرص يمكن استغلالها لرفع الفرد إلى مستوى أرقى مما هو عليه ، وذلك بتعزيز العواطف السامية وتقوية الفضائل فى نفسه وتوجيهه إلى مثل عليا تنشدها الإنسانية بمعناها الواسع . وبذلك يمكننا أن نضعف عوامل الخصومة بين الأفراد ويقوى بينهم التعاون والود سواء بين أفراد الأسرة الواحدة أم بينهم وبين غيرهم من أفراد المجتمع .

وتمضية وقت الفراغ فيما يفيد وينفع فن يكتسب بالتدريب والممارسة والمران والتوجيه ، وفن استثمار أوقات الفراغ يجب أن يربى فى المرء منذ الصغر فى المنزل وفى المدرسة وفى المجتمع . . وواجب البيت فى هذا الشأن فى المحل الأول ، فالبيت هو المدرسة الأولى ، وليس ما قد نراه حولنا من جهل بعض الناس بتنظيم أوقات فراغهم إلا نتيجة منطقية لما كان من إهمال لشأن أهمية هذه الناحية من نواحى التربية الحقة فى منازلنا وفى مدارسنا وفى مجتمعاتنا . . وعلى البيت العبء الأكبر . ولعل أهم ما يجب أن يوضع فى الاعتبار حين نعمل على تنظيم أوقات الفراغ هو تعديل الغرائز كيلا تتخذ — على الرغم منا — طريقا ومخرجا للتنفيس غير المشروع قد لا تقره تقاليد الأسرة أو لا تتفق ونظرة المجتمع .

وتعديل الغرائز المقصود به توجيهها إلى وجهة نافعة تتفق مع مصلحة الفرد وصالح الأسرة وتقدم الجماعة ، وهذا التعديل على نوعين :

(الأول) الإبدال Substitution ويرمى إلى تعديل العمل الغريزى دون أن يحدث أى تعديل فى مرمى الغريزة — مثل إبدال غريزة المقاتلة فى المباريات الرياضية بما تحويه من أشكال الكفاح والمنافسة الشريفة .

(الثانى) الإعلاء Sublimation وفيه نعمل على تغيير مرمى الغريزة بتوجيه الإنسان إلى أهداف سامية من الناحية الخلقية والروحية والعقلية ، فغريزة المقاتلة نستطيع أن نوجهها إلى محاربة الآفات الاجتماعية .

ويقال تبعا لهذا أن الوقت الذى يميل الفرد فيه إلى إشباع غريزته الجنسية مثلا ، هو نفس الوقت المناسب لتحويل تلك الرغبة إلى عمل لوحة فنية ، فكما أن هذه الغريزة تثير فى نفس الشباب العواطف والميول والرغبات كذلك الفنون الجميلة لها ارتباط تام بعالم الوجدان ، فهى والحالة هذه قريبة منها ويستطيع الشاب أن ينصرف إليها إرضاء لغريزته القوية دون أن يعد خارجا على النظم والتقاليد الاجتماعية ، ولن يصل الشباب إلى هذا إلا إذا أفاد من وقت فراغه واتجه بميوله إلى ناحية من نواحى النشاط يستثمر فيها هذا الوقت فينقذ نفسه من السوء والفساد الذى قال عنهما الشاعر العباسى اسماعيل بن القاسم الملقب بأبى العتاهية :

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسده

وفى هذا نهوض بالأسرة . . والمجتمع كله .

ولقد أضحى من البديهيات التى لا يمكن أن تنكر أن لكل فرد الحق فى أن يكون له وقت فراغ . . وفى أن تتاح له السبل للاستمتاع به .

ووقت الفراغ يتيح للإنسان مالا يهيئه له وقت العمل من حرية تامة يستمتع بها دون قيد ولها أهميتها العظمى من الجانب الفردى ومن الجانب الجمعى ، ولكن تلك الحرية التى تهيئها له أوقات فراغه قد تصبح خطرا على صاحبها إذا أساء استعمالها ، ولذا كانت طريقة الإنسان فى تمضية وقت فراغه من الأهمية بمكان له ولأفراد أسرته وللمجتمع الذى يعيش فيه ، فالصالح الفردى والصالح الأسرى والصالح الاجتماعى العام فى صورتها السليمة المتناسقة المتكاملة متداخلة ولا يمكن فصل واحد منها عن الآخر .

ومن المتفق عليه بصفة عامة أن وقت الفراغ إنما هو طاقة بشرية معرضة لأن تضيع أو تستخدم بطريقة هدامة إن لم تستثمر فى مسالك منتجة للفرد وللأسرة وللمجتمع ، ومن واجب الأسرة أن تحقق الفرص لكل فرد فيها كى يجد فى وقت فراغه الذى يقضيه فى الراحة أو الترويح تنفيسا عن كيانه ومزيداً من المشاركة فى الحياة الأسرية والاجتماعية فى أحسن صورها .

ويقول مكدوجل : « إن نزعة الإنسان إلى الاجتماع بغيره هى الأساس الذى تقوم عليه الجماعة البشرية فى جدها ولهوها فى عملها وفراغها وسائر نواحى إنتاجها ونشاطها » .

وعلى هذا الأساس فالأسرة — وهى أساس الجماعة البشرية — هى المكان الأول لتحقيق هذه النزعة . . خصوصا فى تنظيم أوقات الفراغ .

ويقول أفلاطون « على أى أساس ينبغى أن يقـوم تهذيب النشء ؟ ربما يشق علينا أن نجد تهذيبا أفضل من ذلك التهذيب المؤلف من الرياضة البدنية للجسم والموسيقى للعقل . . . وكلاهما لابد أن يبدأ منذ نعومة الأظفار ويستمر مدى الحياة » .

والبيت هو مجال هذا التهذيب . والأسرة هى ميدان تحقيقه .

ويجب أن تـكون الأسرة هى الأساس الأول فى تنظيم استثمار أوقات فراغ أفرادها بما يعود على كل منهم بالنفع . فهذا الوقت لو ترك للأفراد يمضونه بلا توجيه أو إرشاد ربما اتجهوا فى قضائه إلى نواحى لا يقرها الخلق السليم ولا يستسيغها المجتمع .

ويمكن ذكر الصور الأربع التالية لقضاء وقت الفراغ :

(ا) ضياع الوقت أو قتل الوقت Waste Time ، وهو أن يمضى المرء وقت فراغه دون أن يؤدى أى نوع من أنواع النشاط المثمر ، مثل مجرد التسكع بلا هدف أو الجلوس فى مقهى . . . وقد تؤدى هذه الصورة إلى الانحراف .

(ب) مجرد قضاء الوقت Pastime وفيه يقوم الإنسان من بنوع النشاط السلبى الذى لا فائدة منه ، بل قد يحوى بعض الضرر ، كتمضية الوقت فى لعب الورق أو ضياعه فى قراءة قصة تافهة .

(حـ) الهوايات Hobbies والقصد منها إشباع رغبة شخصية لدى المرء كرسم لوحة أو العزف على آلة موسيقية ، وهى وسيلة ممتعة لتمضية وقت الفراغ كما أنها تشبع ولاشك رغبة شخصية لدى الفرد لا يشبعها العمل الذى يمارسه فى حياته ، وبهذا تـكون أوقات الفراغ أداة طيبة لا كتمال الشخصية وللإنتاج ولمرور الوقت بلا سأم أو ملل ، وقد يتقن الفرد هواية ما إلى درجة تجعله يغير عمله الأصلى بحيث تصبح هذه الهواية عملا أساسيا له يعيش منه ويرتزق .

(د) القيام بنشاط منظم Avocation وذلك لتحقيق هدف فيه ترفيه أو رياضة أو فائدة صحية كالتمرينات الرياضية المنتظمة أو التدريب على إتقان فن التمثيل أو مزاولة لعبة كالبنج بنج مثلا .

وتنظيم أوقات الفراغ يقتضى الاهتمام بالنوعين الأخيرين ، وعلى الوالدين داخل الأسرة إرشاد أبنائهما وتوجيههما

للاستفادة من أوقات فراغهم فى هواية أو رياضة منتظمة ، وحبذا لو اشترك أفراد الأسرة جميعا فى بعض الأوقات فى لعبة واحدة أو فى رحلة مشتركة فتزداد بينهم الرابطة والألفة والود .

٤ — الخدمات الترفيهية للأسرة فى أوقات الفراغ

لم يعد هناك أى شك فى أن هذا النوع من الخدمات ضرورة من ألزم ضرورات الحياة للأسرة ، فهى ليست مجرد خدمات تكميلية يمكن الاستغناء عنها ، وهى ليست خدمات (ارستقراطية) يمكن أن تكون مقصورة على المترفين وذوى اليسار ، بل هى خدمات يجب أن تتوفر لكل الأسر من كافة الطبقات شأنها شأن التعليم والعلاج وغيرها والنشاط الترفيهى يجب أن يزاوله كل فرد فلا غنى لإنسان عنه كما لا غنى له عن الطعام والشراب .

ويمكننا أن نقسم دورة حياة الإنسان إلى ست مراحل .. لكل مرحلة منها حاجات ترويحية خاصة يمكن إجمالها فيما يلى :

١ — الأطفال دون سن الدراسة من ٢ — ٥ سنوات Preschool children وهم فى جميع الطبقات يقضون معظم الوقت فى المنزل بصحبة والديهم أو أقاربهم أو مربياتهم فيما عدا بعض زيارات للحدائق العامة مع الكبار ، وفى بعض العائلات المقتدرة ماليا تهتم بالأطفال مربية كثيرا ما تصحبهم إلى طلق الهواء فى الحدائق والمتنزهات ، وفى العائلات المتوسطة كما فى الأسر الميسرة يخصص للأطفال بعض اللعب وأدوات التسلية وقد يفرد لهم مكان خاص فى البيت . . ولكن الأغلبية العظمى من الأسر غير المقتدرة لا يمكنها أن تقدم لأطفالها — إلا فى النادر — مثل هذه الوسائل .

وفى هذه المرحلة يكون الطفل مشغولا باكتساب المعارف الأولية كما أنه يبدأ فى التنسيق بين ملكاته المختلفة وقد يكون من الصعب تحديد نوع النشاط الترويحى لهذه المرحلة . . لكن الذى لا يمكن إنكاره أن الأسرة هى هى البيئة الطبيعية للنشاط الترفيهى واللعب للطفل فى هذه الفترة .

٢ — أطفال سن الدراسة (من ٦ - ١٣ سنة) — أطفال المدارس فى هذه المرحلة يمكن تقسيمهم إلى فئتين :

(ا) أطفال الطبقة غير الميسرة . . ويدرسون غالبا فى مدارس المرحلة الأولى ولا يتمتع الطفل إلا بالقليل من النشاط غير المدرسى ، وهم يقضون ساعات فراغهم فى اللعب فى الشارع . ويرغم بعض الآباء أولادهم على مساعدتهم

فى العمل إذا كانوا يشتغلون بالتجارة البسيطة أو الصناعة ، ويفعل البنات مثل مايقوم به الأولاد أحياناً كما يساعدن أمهاتهن فى أعمال المنزل .

(ب) أطفال الطبقتين المتوسطة والميسرة وهم يتمتعون بقسط أوفر من النشاط الترويحى خارج المدرسة وداخلها ، ويظهر ذووهم بعض الاهتمام — فى الغالب — بنشاطهم فى أوقات الفراغ فيشجعونهم على الالتحاق بالأندية المدرسية ، وقد يحرص بعض الآباء على إبقاء أبنائهم فى المنزل خوفا عليهم من أخطار الطريق والصحبة الفاسدة . . ولكن هذه المجموعة تكون معرضة للضيق نتيجة لحرمانها من النشاط والمرح ، أما الميل الفطرى إلى اللعب عندهم فيعبر عن نفسه — نتيجة لهذا الكبت — بطرق ضارة هادمة مما قد يقلق الأسرة والجيران .

أما الأطفال المشتغلون فجميعهم ينتمون إلى أسر غير ميسرة وآباؤهم عادة عمال أومشتغلون ببعض الحرف أوالمهن البسيطة ، ويشتغل هؤلاء الأطفال فى الورش والمحلات الصغيرة أو فى خدمة بعض البيوت من الصباح إلى المساء وهم يحصلون على أجور ضئيلة ويعاملون معاملة سيئة ولذلك لا يلتفتون إلى عملهم فيتكرر غيابهم وهروبهم وتشردهم أو قد يتنقلون من عمل إلى عمل دون استقرار فلا يتقنون عملا معينا .

وإن حرمانهم التام من اللعب والنشاط الترويحى يجعلهم قلقين مشاكسين ، كما أن اختلاطهم بالكبار أثناء العمل يجعلهم يتعودون بعض العادات السيئة مثل التدخين واستعمال الألفاظ البذيئة ، وفى الصناعات التى يدفع فيها الأجر بقدر ما يؤدى عن العمل يرهق الأطفال أنفسهم بالعمل طمعاً فى أجر زائد ، وهم عادة يعطون هذا الأجر لوالديهم ولا يتمتعون بأوقات فراغهم لأنهم لايحصلون على مصروف كاف . . فيقضون هذه الأوقات فى قضاء حاجات الأسرة أو فى التسكع فى الطرقات واللعب غير المنظم ويكونون فى كل ذلك عرضة لأحداث الطريق وأخطار قرناء السوء ، وما أكثر ما يسىء الوالدان معاملتهم ويطردونهم من المنزل أو يتهمونهم بارتكاب جريمة للتخلص منهم بإدخالهم إلى دور رعاية الشباب (الإصلاحيات) . وأحيانا يهجر الأطفال المنازل من تلقاء أنفسهم ويتشردون فى الطرقات وقد يندفعون فى طريق الإجرام ، وما ذلك إلا لأن الأسرة لم تهيىء لهم منافذ مناسبة يصرفون فيها طاقاتهم ونشاطهم فيتجهون نحو التخريب والانحراف لأنهم لا يعرفون خيرا مما تعلموا كما أنهم لا يجدون القدوة الحسنة .

. . وفى هذه السن التى نحن بصدد الحديث عنها يبدأ الطفل لأول مرة فى الاندماج مع زملائه والاتصال بهم والتحرر من سلطه البيت . . وبعد التاسعة تتسع دائرة صداقته بالناس كما يميل إلى الاندماج فى الجماعات — أيا كانت — والاشتراك فى نشاطها .

وهذه المرحلة تعد نقطة تحول هامة فى حياة الفرد وفيها يمكن تدريبه على الاهتمام بأنواع النشاط الداخلى كالقراءة والحرف اليدوية البسيطة كالنجارة البسيطة وكذا الموسيقى وأنواع النشاط الخارجى كالمباريات الرياضية وحركة الكشف والمرشدات .

ومن كل طبقات الأطفال التي ذكرناها تتمتع أقلية فقط بميزة المنازل المناسبة والتى تنال عناية ورقابة كافيتين ، أما الأغلبية فتعيش فى الأحياء المزدحمة بالمدن أو فى القرى حيث الطرقات والأزقة الضيقة وحيث لا تتوفر الشروط الصحية . . وهؤلاء الأطفال المحرومون من كل التسهيلات اللازمة للترويح المنظم وتحت قيادة صالحة يبتدعون لأنفسهم أنواعاً من النشاط الهادم لهم وللأسرة وللمجتمع ، فهم يتركون للمصادفات والأقدار دون خطة يمليها التفكير السليم كما أنهم ضحايا لعوامل وظروف ليسوا مسئولين عنها ، فإذا وجدوهم بعد ذلك فاشلين فى الاضطلاع بالحياة الاجتماعية السليمة فى شبابهم وحين يكبرون فالسبب فى ذلك أن المسئولين عن تربيتهم داخل الأسرة وخارجها قد أهملوهم .

ولاشك فى أنه لا فائدة من تجاهل الحقيقة الواقعة ، وهى أن شرور المجتمع التى تهدد الشباب الآن تمتد جذورها إلى الأجيال الماضية ، وأن نوع الحياة فى أسرنا العربية وفى مجتمعاتنا العربية فى الأجيال القادمة أنما يتقرر بما يحدث فى حياة أطفالنا اليوم ، وعلى هذا فأى جهد يبذل لرفاهية الأطفال الآن لا تنتج عنه نتائج مباشرة تظهر فى تحسن حياتهم فحسب ولكن يتوقع له نتائج بعيدة المدى تمتد إلى المستقبل وتتسع دائرتها من الأسرة إلى أن تشمل المجتمع العربى كله . لذلك يجب أن ترسم خطة واضحة ومحدودة لتنظيم نشاط أوقات الفراغ للأطفال داخل الأسرة وخارجها مهما كلف ذلك من جهد ووقت ومال .

٣ — مرحلة البلوغ Adolescence (من حوالى ١٤ — ١٨ سنة) وفى هذه المرحلة تحدث تغييرات فيزيقية هامة ، ويحاول الفرد التخلص من رقابة البيت كلية وتوجيه نفسه بنفسه ، وقد ذكر لندبرج Lundberge فى بحث قام به أن ٥ ٪ من الأولاد و ١٧ ٪ من البنات فقط فى هذه المرحلة يرون أن أسعد مكان يقضون فيه وقتهم هو المنزل . .

وفى هذا الدور يميل البالغ إلى الاختلاط بالآخرين مما يجعل رسم البرامج الترفيهية للبالغين على درجة كبيرة من الأهمية بحيث يجد البالغ متنفسا للاضطراب الذى يحس به ، كما يجد فيها إجابات لما يدور فى نفسه من تساؤل حول تحديد علاقته بالأسرة وتحرره منها ، وكذا اختيار المهنة التى سيعمل فيها وعلاقته بالجنس الآخر ومعتقداته الدينية .

وفى هذا الدور يتجه البالغون فى أوقات فراغهم إلى التردد على دور السينما حيث تعرض الروايات غير الصالحة فى كثير من الحالات ، كما يقبلون على قراءة الكتب والمجلات التى تعرض للمسائل الجنسية ومن الخير فى هذه المرحلة أن يشترك اليافع فى ناد من الأندية الاجتماعية ويمارس نوعا من الرياضة على أن يجد من والديه وأسرته التشجيع الكافى والقدوة الطيبة ، كما يجب أن يشترك مع أفراد أسرته فى رحلات خلوية بين الحين والآخر .

٤ — مرحلة الشبان الصغار Young Adults (من ١٩ — ٢٤ سنة) وفى هذه المرحلة نجد أن الفرد قد

وصل إلى أقصى قوته ، وبعض أفراد هذه الفئة يكونون فى مرحلتهم الدراسية الجامعية وبعضهم الآخر يعمل . ويرتزق وفريق آخر يبحث عن عمل . . والإناث فريق منهن قد أصبحن زوجات بل أمهات .

والأفراد فى هذه المرحلة يريدون تكوين معارف على أساس ثابت وهم فى دور تحديد مهمتهم فى الأسرة وفى المجتمع الذى يعيشون فيه ، ولا بد من أن يكون فى النشاط الترفيهى لهم فرصة تسمح بتكوين القيم الاجتماعية وتنمية الشخصية ، فالرحلات الخلوية والمسكرات والسياحة وزيارة الأماكن الجديدة بالنسبة لهم فى صحبة طيبة وتحت قيادة حكيمة ، والألعاب الجمعية والهوايات المختلفة والمكتبات والأندية من أحسن الوسائل لهذا النشاط الترويحى ، والأسرة ولاشك عليها العبء الأكبر فى هذا التوجيه .

٥ — مرحلة الشباب اليافع Adulthood (من ٢٥ سنة) وفى هذه المرحلة يكون الفرد مشغولا بأسرته من ناحية وعمله من ناحية أخرى ، وأوقات فراغ هذه المرحلة عادة محدودة . ولا ننكر أن الأعباء التى يتحملونها فى الأسرة وفى العمل تحتاج إلى نشاط ترويحى يخرج بهم عن رتابة العمل وماقد ينتابهم من ملل أو ضيق .

ومع وجوب اهتمام هذه الفئة باستثمار أوقات فراغها استثمارا صالحا يقع عادة عليها عبء الإشراف والتوجيه بالنسبة للأطفال والأبناء والصغار من أفراد الأسرة .

٦ — مرحلة الشيوخ (من الستين) . . . وتكون الأعباء الأسرية فى هذه المرحلة أقل من سابقتها أو قد تكون منتهية تماما ، ومن ثم كان تنظيم أوقات الفراغ للشيوخ غاية فى الأهمية . . فالحياة أمامهم تبدو مملة ثقيلة ولا بد من تنظيم برامج ترويحية صالحة لهم فى المنزل وفى خارجه . . وما أسعد الشيوخ حين يتمتعون بين الحين والآخر بصحبة أفراد الأسرة فى رحلة خلوية أو سمر عائلى أو تسلية بريئة .

ويمكننا إيجاز ما يلزم من نواحى النشاط الترفيهى بالنسبة لمراحل الحياة فى الجدول التالى :

مرحلة السن	التنظيم	الإمكانيات والتسهيلات
٢ — ٥	ألعاب تحت المراقبة	حجرات لعب وملاعب خاصة ومتنزهات
٦ — ٩	ألعاب جمعية تحت المراقبة	» » » »
١٠ — ١٢	رياضة ولعب منظم — فنون وأشغال — تكوين جماعات	حجرات لعب وأحواض سباحة وحجرات للأشغال وملاعب وأندية .
١٤ — ١٨	فرص اجتماعية — رياضة منظمة وألعاب جمعية — فنون وأشغال — تعليم مسائى خاص	» » » »
١٩ — ٢٤	فرص اجتماعية — رياضة وألعاب — فنون — تعليم خاص .	» » » »

مرحلة السن	التنظيم	الإمكانيات والتسهيلات
٢٥ — ٥٩	فرص اجتماعية — رياضة وألعاب — فنون —	حجرات للألعاب الداخلية والمطالعة . ملاعب . أندية
٦٠ — ...	فرص اجتماعية — رياضة وألعاب هادئة — فنون .	حجرات ومتنزهات .

٥ — أنواع النشاط الترويحى للفرد والأسرة

هذا النشاط الترويحى أو الترفيهى الصالح يتخذ أشكالا تختلف باختلاف الفرد والبيئة المنزلية التى يعيش فيها والبيئة الخارجية التى يتصل بها ، ومن هذه الأشكال ما هو رياضى كالتجديف والسباحة وركوب الدراجات والاشتراك فى الألعاب الرياضية ككرة القدم والسلة أو كالتمرينات الرياضية . ومن هذه الأشكال ماهو مطبوع بطابع الفن الجميل كالموسيقى والرسم والنحت والتصوير والموسيقى ، ومن هذه الأشكال أيضا ما يتجه إلى الطابع العلمى أو الأدبى كزيارة المتاحف والمعارض أو تعلم هندسة الطيران واللاسلكى وكذا كتابة القصص والمقالات . كما أن من هذه الأشكال مايتخذ طابع الهوايات كهواية جمع طوابع البريد أو العناية بالحدائق والأشغال اليدوية بمختلف صورها وأنواعها ، وكذلك ما يتخذ الطابع الاجتماعى كالحفلات والزيارات المنزلية والرحلات المشتركة والمخيمات والسهرات العائلية .

.. وكل هذه الأشكال والصور تتجه بالفرد والأسرة وبالجماعة اتجاها مفيداً يجنب الإنسان الزلل وتجعله يستثمر وقت فراغه استثمارا طيبا بدلا من أن يمضيه فى شكل آخر لاجدوى منه ولا فائدة فيه ، بل قد ينتج عنه ضرر وجنوح وانحراف . ومهما يكون نوع النشاط الذى يقوم به المرء فى وقت فراغه وحده أو مشتركا مع أفراد أسرته أو مجموعة من أصدقائه ، ومهما كانت الصورة التى يختارها لنفسه ليستثمر هذا الوقت ، فلا بد أن يتميز ويختلف عن طبيعة العمل ولا بد من أن يتخلله شىء من روح المرح وفكرة الترويح والتسلية .

ولا شك فى أن اللعب — وهو أحد الميول الفطرية العامة التى يشترك فيها كل كائن حى — هو أهم ما يجب أن نملأ به ساعات الفراغ ، ويجب ألا نأخذ كلمة (اللعب) بمعناها العامى الشائع — أى اللهو — إذ اللعب بالمعنى المقصود هنا هو أحد أنواع النشاط التى يمارسها الإنسان فى وقت فراغه .

واللعب والعمل نوعان من النشاط يقوم بهما الإنسان .. ورب نشاط قد يمكن أن نعده لعبا وهو فى حقيقته عمل ، فالاهتمام بالحديقة وتنسيقها قد يكون لدى فرد ما ترويحا ولعبا فى أوقات فراغه ويكون هذا العمل نفسه عملا يتكسب منه البستانى ويتعيش عليه ، كذلك لعبة « التنس » بالنسبة لأحد الأفراد تكون رياضة ولعبا وتسلية و فى حين

لكنها بالنسبة للمدرب المحترف تعد عملا يقوم به سعيا وراء العيش ، كذلك العزف على آلة موسيقية قد يكون لدى فرد لعبا وترفيها وتسلية يقوم بها فى وقت فراغه ويكون لدى فرد آخر عملا يكسب بواسطته رزقه ورزق من يعول.

وهذا التنوع فى النظرة إلى اللعب والعمل يجب أن يراعى عند بحث تنظيم أوقات الفراغ للأسرة، إذ المعروف أن كل إنسان يميل فى وقت فراغه إلى القيام بنوع من النشاط يكمل ما يشعر به من نقص أثناء عمله ، ومن هنا قيل بأن من الصعب أن يتصادق موظفان أحدهما يعمل طول يومه على مكتبه والآخر يعمل موزعا للبريد يطوف نهاره على قدميه . . فكل منهما يحتاج فى وقت فراغه إلى نوع من النشاط لا يلائم الآخر . . فالذى يعمل فى عمل كتابى يفضل غالبا فى وقت فراغه نوعا من الرياضة فيه حركة وفيه نشاط . . أما موزع البريد فيريد فى وقت فراغه أن يشارك زميلا له فى لعبة الشطرنج مثلا وهما جالسان .

. . ويسوقنا الحديث عن اللعب إلى أن نذكر شيئا موجزا عن نظريات اللعب ، فعلماء الاجتماع والمشتغلون بشئون التربية يعللون ميل الإنسان للعب إلى عدة نظريات أهمها ثلاث يمكن إيجازها فيما يلى :

١ — نظرية الطاقة الزائدة . . وفى مقدمة من يقول بها سبنسر Spencer وشلر Schiller وخلاصة هذه النظرية أن الفرد يلعب لأنه يمتلك طاقة زائدة من النشاط يريد أن يستغلها . . ولما كانت هذه الطاقة — أو الحيوية — أكثر وضوحا عند الأطفال فإنهم يبدون أشد حرصا على اللعب من البالغين وأكثر ولعا من الكبار وقد يتساوى بعض صغار الحيوان مع الأطفال فى هذا الميل .

ولهذه النظرية جانب من الحقيقة لا يمكن تجاهله خصوصا عندما نراقب الأطفال وهم يلعبون، والوالدان العاقلان لا بد وأن يفسحا لأطفالهما مجال اللعب والحركة ولا يضيقان عليهم فى ذلك لئلا تتجه هذه الطاقة الزائدة إلى نوع من النشاط غير المرغوب فيه ، ويبدو هذا واضحا فى البيوت التى لا يخصص فيها للأطفال مكان لحركتهم ولا تتوفر لهم فيه أدوات لعبهم فما أكثر ما يسببون من ضيق لوالديهم وللجيران .

وفى نفس الوقت فإن هذه النظرية قد لا توضح حقيقة اللعب توضيحا تاما فكثيرا ما يشاهد الأطفال — وكذا الكبار — يميلون إلى اللعب دون أن تكون لديهم طاقة زائدة ، فالطفل قد يكون على وشك أن ينام وهو متعب بعد جهد وحركة طول اليوم . . لكنه أمام إغراء اللعب مع أصدقاء أو زملاء له يواصل اللعب والحركة رغم تعبه ، وكذا الشاب الذى ينتهى من دراسته ويكون متعبا متوتر الأعصاب نراه يسرع حيث يشترك فى مباراة فى كرة السلة أو ليسبح أو يزاول بعض الرياضة العنيفة دون أن تكون لديه طاقة زائدة .

٢ — نظرية الإعداد لحياة المستقبل . ونادى بها كارول جروس Gross وبلدوين Baldwin وهى تقول بأن اللعب فى حد ذاته وسيلة لإعداد الأطفال لحياة المستقبل ، فهم يزاولون فى طفولتهم ألعابا تمدهم لمجابهة مصاعب الحياة عندما يكبرون وللاستعداد لخوض معاركها عندما يبلغون أشدهم ويتحملون المسئولية . فالطفلة التى ترعى دميتها وتلعب معها وتمنى بها إنما تستعد بهذا العمل للقيام لدور الأم فى مستقبل حياتها ، والطفل الذى يجعل من

نفسه وهو يلعب آمرا ناهيا ولو على الكراسى والأدوات مقلدا والده أو معلمه إنما يعد نفسه لدوره فى حين يكبر .

وهذه النظرية لا يمكن أن تضع تعليلا كافيا كاملا لمختلف أنواع اللعب ، فالكثير من الألعاب النظامية والجماعية لا تنطبق على هذه النظرية — كما أن الكبار يلعبون ويزاولون فى أوقات فراغهم ألوانا من النشاط لا يمكن أن يقال عنها أنها تعدهم لمستقبل حياتهم .

٣ — نظرية الاستجمام أو الترويح ، ويعتبر لازاروس Lazarus من أبرز المنادين بها ، وتتلخص فى أن اللعب إنما هو السبيل إلى تجديد القوى التى أنهكها العمل واسترخاء الأعضاء والاستجمام والراحة من عناء العمل .

ومما لا شك فيه أن اللعب بأنواعه لا يمكن أن تقتصر فى تعليله على نظرية واحدة بل يختلف التعليل باختلاف حالة الفرد وظروفه ، فقد يلعب لتصريف شىء من طاقته الزائدة وقد يلعب ليساعده لعبه على إعداده للسير بنجاح فى معترك حياته حين يكبر ، وقد يلعب كذلك ليجدد نشاطه ويروح عن نفسه ويستجم ، وقد تشترك نظرية أو أكثر فى أنواع اللعب بالنسبة لفرد واحد .

غير أن ما يهمنا فى هذا البحث أن للعب فوائد تربوية جليلة الشأن فى حياة الفرد وفى محيط الأسرة ، فمن الناحية الجسمية لا يمكن أن ننكر أن اللعب ذو فائدة فى تقوية الجسم وتنمية العضلات وتنسيق عمل الأجهزة . ومن الناحية النفسية والعقلية يعمل اللعب على اكتشاف مواهب الفرد وتوجيهها أو يعمل على وقايته من الانحراف والشذوذ والتفكير الهدام أو علاجه منها ومن الناحية الخلقية والاجتماعية يساعد اللعب — خصوصا الجمعى المنظم — على تكوين العادات الطيبة وتنمية الروح الرياضية وتقوية التعاون بين الجماعة . وهذه الاتجاهات — ولا شك — هى أهم ما يجب أن نهتم به فهى من مقومات الأسرة الصالحة ومن مقومات المجتمع الصالح وقبل هذا وذاك من مقومات الفرد الصالح .

ولا جدال فى أن نوع النشاط الذى يزاوله الفرد فى وقت فراغه هو الذى يحدد ويرسم شخصيته ، فإذا أحسن اختياره كان من أهم العوامل فى تهذيب خلقه وبناء كيانه ، ودور الأسرة فى كل هذا فى المركز الأول .

ويقول سبنسر « إن اللعب من مستلزمات الحياة وهو خير مرشد للمعلم والمربى لتعرف غرائز الطفل وميوله » .

كما يقول فروبل « إن الطفل الذى يلعب طبقا لأصول التربية إنما يعمل لمستقبل رجولته وتقدمه ورقيه » .

فاللعب بمعناه الذى وضحناه هنا — وهو لازم لكل فرد لزوم العمل والنوم — يجب أن يكون مطابقا لأصول التربية . . . ولعب الأطفال — بالذات — طبقا لهذه الأصول يهيىء لنا مواطنا صالحا فى مستقبل حياته . . . ونزعة الإنسان إلى الاجتماع بغيره يجب أن نستغلها فى اجتماعه أولا — وقبل أى شىء آخر — بأفراد أسرته . . يلعبون معا . . ويشتركون فى الترويح عن أنفسهم معا فيزدادون ألفة ويحس الطفل بالولاء لهذه الجماعة الصغيرة (الأسرة) .

وكما تهتم الأسرة باقتصادياتها . . وبتعليم أبنائها . . . وتوفير معاشها . . واختيار مسكنها وتضع كل ذلك فى الأهمية الأولى دائما . . فلابد من أن تهتم — بنفس النسبة — بأوقات فراغ أفرادها ، فالترويح و (اللعب) فى وقت الفراغ لا يقل أهمية عن تعليم الصغار وتثقيف الكبار . . ولا يقل أهمية عن توفير الغذاء والكساء ، ولا يمكن بأى حال أن نقلل من قيمة الساعات التى يمتلكها كل فرد من أفراد الأسرة من وقت الفراغ .

وأوقات الفراغ هذه حق لكل إنسان ، وان كان التاريخ يحدثنا عن عصور مرت على بعض أبناء البشرية وهم يرسفون فى أغلال الرق وقيود العبودية كي ينعم آخرون بالعيش أحرارا يستمتعون بأوقات فراغهم فيلعبون ويمرحون ، أما اليوم فإن وقت الفراغ أصبح حقا مقررا للجميع بلا استثناء كما أصبح من حق كل فرد أن تتاح له السبل للاستمتاع الصحيح به ، وقد نصت المادة الرابعة والعشرين من وثيقة إعلان حقوق الإنسان التى أقرتها الجمعية العمومية للأمم المتحدة فى العاشر من ديسمبر عام ١٩٤٨ على أن (لكل إنسان الحق فى الراحة وفى أن يكون له وقت فراغ بما فى ذلك من تحديد سليم لساعات العمل ومن عطلات منتظمة يصرف عنها مرتب) .

وعلى هذا أصبح وقت الفراغ حقا لكل فرد وبهذا تم إقرار ذلك فى وثيقة دولية . فزادت أعباء الأسرة . . وزادت أعباء المجتمع . . وزادت أعباء الدولة .

والأسرة يجب أن تعمل على تنظيم أوقات فراغ أعضائها وتوجيههم الوجهة الصالحة فى ذلك وتشجيعهم على أن يسلكوا سلوكا طيبا فى استثمار هذه الأوقات . وهى يجب أن تعمل على استغلال هذا الوقت لتقوية الروابط الأسرية وتنمية الشعور بالولاء للأسرة فى نفوس أبنائها وتوفير الوقت والجو المناسبين للترويح والترفيه . والمجتمع عليه أن يوفر المؤسسات الاجتماعية الصالحة لاستثمار أوقات فراغ أفراده متعاونا فى ذلك مع الأسرة ، والمجتمع عليه أن يقاوم كل ما من شأنه أن يهدم حياة الأسرة ويكون سبيلا لقتل أوقات الفراغ بأسلوب هدام .

والدولة عليها أن تضع التشريعات اللازمة وتقدم المعونة المالية للمؤسسات التى تعمل لخدمة أفراد الأسرة الواحدة بوقت فراغ مشترك حتى يمكنهم أن يستثمروه فى زيادة الرابطة وتنمية الشعور بالصداقة داخل الأسرة وبالزمالة والارتباط .

ويمكننا أن نختار من أنواع النشاط الترويحى الصالح للأسرة العربية ما يلى :

١ — الرحـــلات :

لا شك فى أن الرحلات لا تصلح ألا إذا كانت فى (مجموعة) ومما لا اختلاف فيه أن من أهم ما يرمى إليه تنظيم أوقات الفراغ هو تربية روح الجماعة ، والأسرة فى اشتراكها فى الرحلات تزيد فى ترابط أفرادها ووحدتهم . وتزول الكلفة وتقوى روح الجماعة بينهم . كما أن هذه الرحلات فرصة لتجديد قوى الأفراد الجسمية والروحية . . على أن أهم ما للرحلات الخلوية من قيمة هى انتقال الأسرة بجميع أفرادها من (جو) البيت ونظامه . . إلى الخلاء حيث طلق الهواء والحرية فى اللهو البرىء والمرح الذى أساسه الفضيلة والانسجام والتوافق وازدياد المحبة .

والأسرة — مهما كانت ظروف أفرادها — لا بد وأن تضع فى برنامجها الترويحى القيام برحلة جماعية لجميع أفرادها أو بالاشتراك مع بعض الأسر الصديقة مرة كل شهر على الأقل إن لم يكن مرة كل أسبوع .

٢ — الرياضة البدنية :

ليس من يجهل ما للرياضة البدنية من قيمة فى تربية الجسم وتقوية الخلق وتنمية الشعور بالمسئولية وسرعة الخاطر والسيطرة على النفس . . كل ذلك إلى جانب تدعيم الروح الجماعية وتلاشى الإنانية الفردية خصوصا فى المباريات الرياضية التى يلعب فيها الفرد ضمن فريق .

٣ — الموسيقى :

من أهم ما يجب الاهتمام به فى الناحية الترويحية للأسرة أن تبث فى أفرادها حب الموسيقى . . . سماعا وعزفا . . فكم يكون جميلا حين يشترك بعض أفراد الأسرة فى سهرات عائلية يعزفون فيها بعض القطع الموسيقية ، كما أن تعويد الأبناء على الاهتمام بالإنصات إلى ما يذاع من الموسيقى العربية والعالمية فيه غذاء لنفوسهم وترقيق لمشاعرهم وتعويدهم على تذوق الفن الجميل والإنصات إلى النغم الحلو .

٤ — المكتبة :

إختيار الكتب والمجلات التى يقرأها أفراد الأسرة مهمة على جانب كبير من الخطورة ، فلا بد والحالة هذه من تكوين مكتبة فى كل أسرة — بقدر الإمكان — تحوى الكتب المناسبة والمجلات الملائمة على أن يداوم الوالدان على إرشاد أبنائهم وتوجيههم التوجيه الطيب فيما يقرأون فى أوقات فراغهم .

٥ — الهوايات :

من أهم ما يمكن أن تستثمر فيه أوقات الفراغ الهوايات ومنها جمع طوابع البريد ، وأعمال النجارة البسيطة وأعمال الكهرباء وأشغال الإبرة والرسم والتصوير والنحت ، ويجب أن يشجع الآباء أبناءهم على إشباع ميلهم لإحدى هذه الهوايات ولا يقفوا فى سبيل ذلك ظنا منهم أنها مضيعة للوقت والمال .

٦ — الأندية :

لعل (النادى) هو المؤسسة الاجتماعية الأكثر صلاحية لكى تستثمر فيها الأسرة وقت فراغها . . . فللنادى رسالته فى تنظيم أوقات الفراغ بما يهيئه لأعضائه من نواحى نشاط ثقافية واجتماعية ورياضية وترويحية تحت قيادة سليمة ، وهناك أندية تسمح باشتراك جميع أفراد الأسرة فى نواحى نشاطها . . وهذا النوع من الأندية هو أنسب مكان لتوفير الجو الملائم للأسر التى لا تهيىء لها ظروفها من حيث المسكن والإمكانيات المادية بأن تجد ما تحتاجه

من برامج وأدوات لاستثمار أوقات فراغها ، علاوة على ما تقوم به من مهمة الترابط والتعارف والتآلف بين جميع الأعضاء وأسرهم .

وتوجد أنواع أخرى كثيرة للاستثمار النافع المجدى لأوقات الفراغ كالسباحة والتجديف وركوب الدراجات والألعاب الداخلية وحفلات السمر ، كما يمكن اعتبار السينما والمسرح من الوسائل المثمرة للترويح على أن تختار القصص والروايات الهادفة ذات الموضوع والتى لا تميل إلى الإسفاف . وشواطىء البحر والحقول والحدائق العامة جهات يجب أن تؤمها الأسرة بكامل أفرادها بين الحين والحين لأنها من الوسائل الفعالة الأثر الكبيرة القيمة فى تنظيم أوقات الفراغ للأسرة .

أما مواطن الترويح التجارية . . التى ما وجدت إلا لكى يتكسب منها أناس بدون النظر إلى أية فائدة روحية أو جسمية أو خلقية تعود على المنتفعين كالمقاهى والبارات ودور اللهو الرخيص ، فيجب على الأسرة أن تتجنبها وتعمل على أن يتجنبها كل فرد من أفرادها . . إذ أن هذه المواطن غير صالحة لاستثمار أوقات الفراغ ولا يمكن أن تعد فى عداد المؤسسات الاجتماعية الملائمة لتنظيم أوقات الفراغ بالنسبة للأسرة فى مجموعها أو بالنسبة لكل فرد فيها .

٦ — توصيات واقتراحات

أولا — بالنسبة للأسرة :

١ — يجب أن يكون الاهتمام بتنظيم أوقات فراغ أفراد الأسرة — وخصوصا الأطفال — فى نفس الدرجة التى تعطى للاهتمام بأمر تعليمهم وتغذيتهم وكسائهم .

٢ — تعاون الأسرة مع المدرسة والنادى والرواد لرعاية وإرشاد وتوجيه الأطفال وتنظيم أوقات فراغهم .

٣ — الاهتمام بتوفير التسهيلات اللازمة لكى ينتفع أفراد الأسرة انتفاعا سليما بأوقات فراغهم (من النواحى المالية والمادية والذهنية) .

٤ — أن يكون فى تنظيم أوقات فراغ الأسرة فرصة للاجتماع بين جميع أفرادها .

٥ — مساعدة الأبناء على تعود الاستثمار الصحيح لأوقات فراغهم وتشجيعهم على الالتحاق بالأندية الاجتماعية وفرق الكشافة والمرشدات وكذا جماعات النشاط المدرسى ، وتشجيع أصحاب المواهب الفنية منهم .

٦ — العمل على إيجاد تكافؤ الفرص لجميع أفراد الأسرة ليستمتعوا بوقت فراغهم .

ثانيا — بالنسبة للدولة :

١ — القيام بدراسات ثم وضع الخطط اللازمة للتنظيم السليم لأوقات الفراغ بالنسبة للفرد وبالنسبة للأسرة .

٢ — تشجيع إنشاء مؤسسات تعمل فى ميدان استثمار أوقات الفراغ ومساعدة وإرشاد ماهو موجود منها وإعانتها ماليا .

٣ — إعداد وتدريب القادة للانتفاع بخبراتهم فى مؤسسات أوقات الفراغ .

٤ — تنظيم لجان مشتركة (أهلية وحكومية) لكل حى فى مدينة أو لكل قرية لشئون النشاط الترويحى للأسرة فى أوقات الفراغ .

٥ — تخصيص مساحات مناسبة ـ خصوصا فى الأحياء المزدحمة ـ لاستعمالها ملاعب وساحات ومراكز ترويح وحدائق تتوافر فيها أماكن خاصة بالأطفال .

٦ — تخصيص جزء من الضرائب لنواحى نشاط أوقات الفراغ ومؤسساته .

٧ — تحديد عدد المقاهى وحانات اللهو والبارات وغيرها من الأماكن الاستغلالية التى لم تنشأ إلا لمجرد الكسب المادى لأصحابها والتسلية السلبية لمن يترددون عليها ، مع زيادة الرقابة عليها فيما تقدمه من برامج .

٨ — إصدار التشريعات اللازمة لحماية الأسرة وحماية الأطفال من أى استغلال يسىء إلى الخلق أو النظام العام فى أوقات الفراغ .

٩ — عمل تسهيلات مالية ومادية لأفراد الأسرة عند اشتراكها فى نشاط ترويحى فى وقت الفراغ كتوفير سبل المواصلات إلى الحدائق أو عمل رحلات للأسر باشتراك بسيط .

١٠ — إنشاء مكتبات عامة فى كل حى بالمدن وفى القرى كذلك والاهتمام بإنشاء المكتبات المتنقلة ، وإنشاء قسم خاص بالأطفال فى كل منها .

١١ — تنظيم دعاية دائمة مستمرة للمتاحف والآثار والأماكن الخلوية وإعداد مطبوعات ونشرات لذلك مع تنظيم زيارات للأسر لهذه الأماكن بين الحين والآخر .

ثالثا — بالنسبة للمؤسسات الاجتماعية لأوقات الفراغ :

١ — أن تعمل هذه المؤسسات على التعاون المشترك بين بعضها البعض بتنظيم حلقات بحث ومؤتمرات ومباريات مشتركة .

٢ — الاهتمام بالنشاط الترويحى المشترك الذى يلائم الأسرة ، مع تخصيص برامج مناسبة خاصة لكل فئة (الأطفال — الشبان — السيدات)

٣ — الاهتمام بالدعاية مع تحسين برامج هذه المؤسسات وتخصيص قادة فى ميادين نشاطها وتوفير المعدات والأدوات اللازمة .

٤ — عمل امتيازات خاصة للأسرة التى تشترك فيها .

رابعاً — بالنسبة للإذاعة والتليفزيون والصحافة ووسائل الإعلام الأخرى :

١ — إثارة الوعى والعمل على خلق رأى عام يهتم بتنظيم أوقات الفراغ ويؤمن بأهميـــة هذا التنظيم بالنسبة للفرد والأسرة .

٢ — تأييد المشروعات ونواحى النشاط الخاصة بأوقات الفراغ وتنظيمه .

٣ — تخصيص جانب فى كل منها لبحث (مشكلة) أوقات الفراغ ووجوب تنظيمها ووضع الخطة لاستثمار هذه الأوقات استثمارا سليما .

ولا شك ونحن قد أدركنا ما لأوقات الفراغ من أهمية فى حياة الفرد وفى حياة الأسرة وفى حياة المجتمع لا بد لنـا من أن نوالى إبراز ما لهذه الأوقات من أهمية ونزيد من اهتمامنا بدراسة سبل تنظيم أوقات الفراغ .

لذا فإن هذا الموضوع . . وهو (تنظيم أوقات الفراغ) لابد وأن يلقى العناية اللازمة التى تجعل منه موضوعا خاصا لمؤتمر عام أو حلقة دراسية تتولى تنظيمها إدارة الشئون الاجتماعية والصحية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية

(مجال الترويح داخل البيت العربى)

للأستاذ محمد على حافظ

(الجمهورية العربية المتحدة)

حظى موضوع الترويح باهتمام المفكرين فى أوائل القرن العشرين ، حينما اتجهت مناهج البحث نحو أوجه النشاط الإنسانى ، وبدأت علوم النفس والتربية والاجتماع تحتل مكانها بين العلوم القائمة على أساس من الملاحظة والتجريب والتقويم الكمى والكيفى ، بعد أن كانت معتبرة من فروع الفلسفة القائمة على التفكير البحت والاستنتاج المجرد ، وما لبثت تلك العلوم تنمو وتزدهر حتى دانت لها النهضة الاجتماعية الحديثة إلى حد كبير .

ولما كانت الفنون العملية هى المجال الطبيعى لتطبيق ما يتمخض عنه العلم من أسس ونظريات وحقائق ، فى سبيل خدمة الإنسان ورفاهيته ، فقد أصبح من المحتم أن تتطور تلك الفنون تبعاً لتطور العلم وتقدمه ، وأن تتكتل عوامل ذلك التطور حتى تستطيع تعديل طابع الحياة على وجه الأرض إلى شكل لم تعهده البشرية من قبل . أما فى محيط العلاقات الإنسانية فقد تغيرت نظرة الإنسان نحو نفسه ونحو غيره من الناس ، وتغير موقفه إزاء نفسه وإزاء الجماعة التى يعيش بينها ، وتغير تبعاً لذلك كل الدور الذى يلعبه على مسرح الحياة ، ولم يعد هناك بدمن قيام فن جديد يختص بإيجاد التوافق والانسجام بين مختلف القوى والانجات فى الطاقة البشرية ويعمل على تحقيق التكامل والنمو فى كل من شخصية الفرد وشخصية المجتمع حتى ينعم الناس بحياتهم ويهنأوا بعيشهم .

وفن الترويح هو وليد ذلك التطور فى فلسفة الحياة ، ونتاج الأسلوب الذى يعيش عليه المجتمع ، وهو موضوع من الموضوعات الهامة التى يهتم بها المشتغلون بالإصلاح الاجتماعى وخاصة فى السنوات الأخيرة التى طفرت فيها المدنية طفرة جريئة وزادت فيها حدة التسابق بين المجتمعات البشرية نحو الوصول إلى أرقى المستويات المادية والاجتماعية .

حقاً لقد تميز هذا العصر بتطور سريع فى الجوانب المادية من حياة الإنسان دون أن يصاحب ذلك تطور مماثل فى الجوانب النفسية والاجتماعية ، وكان ذلك سببا فيما نراه من عدم استقرار وقلق نفسى ، وفى ظهور كثير من المشاكل والعقد التى لم تكن فى الحسبان ، وبخاصة مشاكل سوء التكيف بين الفرد والبيئة سواء أكان ذلك فى محيط الأسرة أم فى محيط المدرسة أو فى المجتمع بأسره .

المجتمع العربى :

ومما لا شك فيه أن مجتمعاتنا العربية مرت بها ظروف عاقت سيرها حينا من الدهر فى ركب النهضة والتطور ، ذلك الركب الذى ما يزال يتقدم فى سيره بخطى سريعة نحو حياة أفضل وعيش أهنأ ، مع أن هذه المجتمعات أصل

فى تقدم البشرية جميعها والمنبع الفياض الذى أخذت عنه كل الحضارات . حتى أتى هذا العصر بخيره وجلبته وانتفضت مجتمعاتنا من رقادها ، وصحت من غفوتها ، وسعت حثيثا للتغلب على تلك الظروف التى أحاطت بها ، وبدأ العملاق العربى يحاول أن يتخذ لنفسه مكانا ظاهرا تحت الشمس ، ويسعى ليحتل موضعا مرموقا فى المجتمع الدولى ، وتزايدت محاولاته وتضاعفت جهوده كى يلحق بالركب حتى أصاب بسعيه نجاحا فى الميادين السياسية والاقتصادية ولكنه لايزال يتخلف فى الميادين التربوية والاجتماعية ، تلك الميادين التى تمس صميم الحياة وتؤثر فى مجريات الأمور وتحدد معايير العيش وتقرر مصير الإنسان فى شتى مظاهر حياته . وتبدأ تلك الميادين بالبيت والأسرة ، فالبيت هو البيئة التربوية الأولى ، والأسرة هى الجماعة الصغيرة التى يبنى على أسسها حياة المجتمع .

البيت أساس الإصلاح الاجتماعى :

حقا إن أى إصلاح اجتماعى لابد وأن يبدأ بالبيت ، وأى تطور فى أساليب التربية لا بد وأن يبدأ فى الأسرة ، لأن الإصلاح والتربية عمليتان متكاملتان تبدآن بالكشف عن ميول النشء ونزعاته ، والوقوف على رغباته واستعداداته فى بيئته الأولى وهى البيت ، وتشكل فى الاسرة التى يعيش بين أحضانها ، ثم تتطور بالنسبة للبيئة التى ينشأ فيها على اعتبار أنه سيتأثر بما حوله من سلوك وتصرفات ، وسيستخدم مايحيط به من تقاليد وعادات ، ويعتنق ما يسود الأسرة والمدرسة والمجتمع من مبادىء ونظم ، ولذلك وجب أن تتعاون تلك القوى فى إعداده إعدادا شاملا لكل مظاهر حياته حتى يستطيع أن يقوم بواجباته كعضو عامل نافع فى المجتمع — فالبيت يهيىء الفرص للكشف عن دخائله والمدرسة تنمى قدراته والمجتمع يكسبه صبغة جتماعية .

والتراث الاجتماعى سواء أكان فى الأسرة أم كان فى البيئة هو جماع التقاليد والعادات والنظم التى تسير عليها الجماعة داخل البيت وخارج نطاقه ، وهو حزمة الخبرات والمهارات التى تحدد سلوك الأفراد والجماعات. ويشمل هذا التراث الحياة فى جميع مظاهرها جدها ولهوها ، عملها ولعبها ، شغلها وترويحها . ومن ثم تحتم تنظيم البيت ، ورعاية الأسرة ، والعناية بالبيئة ، حتى يصبح هذا التراث أسلوبا قويا من أساليب التربية الصحيحة وطريقا قويما فى الإصلاح الاجتماعى .

ومن طبع الإنسان أن يتلقى ويتقبل مبادئه من المجتمع الذى يعيش فيه بطريق لاشعورى ، وأن يتصرف وينشط ويسلك وفقا للمتبع فى مجتمعه حتى لا يكون خارجا عن تقاليده أو شاذا عن المألوف فيه . وربما يرجع السبب فى سهولة تأثر الإنسان بالمجتمع إلى ميله للتقليد والمشاركة الوجدانية ، أو لأنه مجبول بطبعه أن يساير الناس فى مبادئهم ونظمهم وعاداتهم ومعاييرهم . ولذلك نادى المصلحون بضرورة تقويم حياة المجتمع تقويما جديا يبدأ بالأسرة ، وأن توضع للحياة أهداف واضحة ، وأن ترسم لها خطط شاملة ، وأن تهيأ الفرص للنشء كى يشب فى جو مدرسى معروف سواء أكان ذلك بين الأهل والأخوة أو مع الجيرة والعشيرة ، وسواء أكان ذلك بغرض الإعداد لكسب العيش أو بغرض الحياة بمعناها الشامل الواسع .

والحياة فن متسع الأرجاء ، بل وحدة كاملة غير مجزأة ، فلا هى مركبة من جسم وعقل ، أو من شغل وفراغ ، أو عمل وترويح ، وهى إذا قسمت إلى هذا وذاك بعدت عن كونها فنا من الفنون . من تلك الحقيقة يستمد الترويح أهميته ، ويسبب الضرورة الملحة لهذا التكامل يلعب الترويح دوره فى حياة الأسرة والمجتمع .

أثر الترويح فى حياة الأسرة :

والأسرة هى الوحدة الاجتماعية التى يقوم عليها صرح البنيان الاجتماعى العام فى أى مجتمع ولذلك كانت وظيفتها أخطر الوظائف الاجتماعية طرا ، ومسئوليتها فى توفير الطمأنينة والأمن لأعضائها جد عظيمة، بل هى المحور الذى تدور حوله عمليات التربية والإصلاح كلها ، كما يعتبر الأسلوب الذى تنهجه فى تنظيم الحياة المنزلية معيارا حقيقيا لمستواها الاجتماعى والثقافى والاقتصادى . وأسلوب الحياة المنظمة ، الذى يسم البيت بسمة اجتماعية ناجحة ، هو ذلك الذى يقوم على إدراك للأهداف التى تحقق للأسرة وأفرادها تماسكا وترابطا فى جو من الهناءة والسعادة والرضا وهو الذى لا يفرق بين نفاسة الزمن الذى تقضيه الأسرة فى الكسب والتحصيل وأهمية الزمن الذى تصرفه فى الترويح على اعتبار أن الحياة وحدة متكاملة .

وعلى ذلك يعتبر النشاط الترويحى من الأسس الهامة فى تدعيم الأسرة وقيامها بالتزاماتها قبل أفرادها والمجتمع الذى تعيش فيه، ذلك لأن الأسرة جماعة ، وكل جماعة منظمة ، تحتاج إلى برامج ترويحية تدعم علاقات أفرادها بعضهم بالبعض الآخر ، وتوثق علاقاتها بالبيئة والمجتمع الذى تعيش فيه . وهذه العلاقات الإنسانية التى تتم بين أفراد الأسرة الواحدة ، وبين الأسرة كوحدة وغيرها من الأسر الكائنة فى المجتمع والهيئات والمؤسسات الأخرى الموجودة فيه تعتبر ضرورة لكل مجتمع تقوم حياته على أساس من التعاون الناجح والتضامن المثمر .

ولذلك أصبح على الأسرة العربية أن تعنى بفن الترويح كعامل فى تدعيمها ، وأن تضع مختلف البرامج الترويحية كى تواجه بها احتياجات أفرادها حسب خصائص نموهم وأن تنظم أوقات فراغ أعضائها بغرض تكامل عقدهم فى كنفها ، وأن تركز جل جهودها فى هذا الميدان لأنه فرصتها فى حل كل المشاكل المتعلقة بكيانها كجماعة وفى تدعيم أواصر حياتها كمجتمع صغير . والبيت العربى رغم التطور الاجتماعى فى ميادين الحياة المختلفة لا يزال مفتقرا إلى بعض مظاهر البهجة والمرح ، وإلى ضروب من التسلية وأنواع من النشاط ينبغى أن يحرص أرباب الأسر على تعريف أبنائهم بها وتوجيههم إليها ، ولا يزال محتاجا إلى تهيئته للسمر الممتع الذى يجتذب أفراد الأسرة لقاء سهراتهم فيه ، ولا يزال تنقصه ألوان من الهوايات التى تشغل أبناءه والتى تخلق شخصية للأسرة تشع منها الحيـــاة المحببة إلى نفوسهم ، ولا يزال البيت يلتمس أيدى أبنائه لصرف بعض أوقات فراغهم فى إصلاحه وتنسيقه وتنظيمه بما يطبعه بطابع مميز بهيج من نتاجهم الشخصى .

وتضم معظم البيوت العربية بعض الأفراد ممن لديهم أوقات فراغ طويلة وخاصة السيدات والفتيات ، ورغم هذا الفراغ الطويل فهم يعتمدون فى شتى مظاهر حياتهم على الخدمات التى يقدمها الغير، كخدمات المؤسسات التجارية مثل محلات التطريز وأشغال الإبرة أو محلات الاحتياجات اللازمة لحفلات الشاى وأعياد الميلاد ، بل إن الزينات التى تقام فى مثل هذه المناسبات تشترى من محلات متخصصة فى ذلك .

فكأن البيت يعتمد حتى فى المناسبات الاجتماعية الهامة التى تمر به على خدمات مختلفة تأتيه من غير أفراده، فى حين أنها كلها خدمات تدخل فى صميم نشاط الأسرة ، على اعتبار أنه نوع من التسلية أو أنه نشاط يغاير المألوف فى حياة المنزل .

وليس هذا الأمر بمستغرب فى حياتنا الاجتماعية أو بعيد الحدوث ، فطالما اشتركت الأسرة فى إعداد كعك العيد أو ملابسه أو الفطائر الموسمية ، وكانت الأسرة العربية القديمة تعد العدة لذلك وترتب له فى وقت مبكر وتنتظر حلول موعده بفارغ الصبر حتى تقدم بفخار وزهو ما صنعته أيديها .

وكان يوم الخميس من كل أسبوع اجتماع رجال الأسرة فى « المندرة » لسماع آيات الذكر الحكيم أو للتحدث فى موضوعات الساعة ، وكانت تلك الندوات أساس فى الترابط الاجتماعى أو للسمر المصحوب بالموسيقى والغناء ، وكان للسيدات يوم المقابلة تجتمع فيه سيدات الأسرة وصديقاتهن .

والنشاط الترويحى الصحيح الذى يزاوله الأفراد فى فراغهم يجب أن يكون نتاجا لكفايات منوعة تخدم البيت فى جميع الظروف وخاصة فى مناسباته الاجتماعية الهامة . فيعرف بعض افراد الأسرة الموسيقى والغناء ، ويتناول البعض الرسم والتصوير والتطريز ، ويعمل فريق فى الإصلاحات المنزلية البسيطة، ويتخصص فريق آخر فى إعداد المآدب والحفلات ، وهكذا تصبح الأسرة إيجابية النشاط تعتمد على نفسها وتكتفى بجهود أبنائها فى ضروب حياتها ، ولا تقف موقفا سلبياً فى توفير حاجياتها تعتمد على خدمات تجارية يقوم بها آخرون من غير أبنائها .

وأوقات الفراغ ثروة حقيقيـــة للأسرة العربية تستطيع استثمارها اقتصادياً لأن البيت لايستطيع أداء رسالته كمؤسسة اقتصادية تربوية إذا لم توجه جهود أبنائه نحو استثمار فراغهم استثمارا إيجابيا منتجا بجانب إعدادهم للكسب والحياة .

والوقت الضائع فى المنزل يولد الشر، ويستنبت السوء ، ويسبب الكثير من المشكلات العائلية ، كمسائل تشرد الأحداث والطلاق وانخفاض المستوى الاقتصادى والجرائم الخلقية . هذه المشكلات الاجتماعية الخطيرة وغيرها قد ترجع دون شك إلى انعدام الوعى لدى الأسرة فى استخدام أوقات الفراغ استخداما منتجا من شأنه أن يربط أفراد الأسرة فى محيط البيت وخارجه .

كذلك يرجع هبوط المعايير الخلقية فى كثير من البيوت الى استغلال سيء لوقت الفراغ كقضاء أوقات الفراغ فى نزعات عرضية منحرفة . فتناول الخمر أو تعاطى المخدرات أو لعب الورق لا يعتبر نوعا من الهروب من متاعب الحياة ، أو نوعا من التخلص من الكآبة والملل ، ولكنه فى الحقيقة هروب من مشكلة أوقات الفراغ نفسها .

ومن الواضح أن الهروب من المشكلة لايساعد على حلها بل يزيد فى تعقيدها ويعمق قرارها . والسعادة الحقيقية لا تأتى عن طريق تخيلات الخمر وأحلام المخدر ، وإنما تأتى عن طريق مواجهة الفرد لمشكلاته ، ومعالجتها بنشاط حقيق عملى يحس فيه بكيانه ، ويشعر فيه بقوة شخصيته ، يدخل عليـــه السرور خلال يقظته ، ويمده بنفع معنوى أو مادى .

الوظيفة الترويحية للأسرة العربية :

وتتحدد الوظيفة الترويحية للأسرة العربية فى الناحيتين التاليتين :

١ — مسئولياتها كوحدة اجتماعية تتطلب منها خدمة أفرادها وتدعيم روابط وحدتها بنشاط داخل نطاقها ويكون هذا فى ميدان الترويح على شكل هوايات فنية واجتماعية أو حفلات أو اجتماعات .

٢ — مكانها فى النشاط الترويحى العام فى البيئة حيث ترتبط الأسرة الواحدة مع غيرها من الأسر فى نشاط ترويحى مشترك خارج نطاقهـــا حين تنتقل الأسرة إلى الملاعب والأندية الرياضيـــة وتشترك فى رحلات أو معسكرات عامة .

ولـكى يتحقق ذلك تضع الأسرة لنفسها نمطا من النشاط تعمل على تنفيذه فيتعاون أفرادها جميعا فى وضع البرامج ويشتركون بشكل إيجابى فى إخراجها حتى يصبح للأب دوره وللأم دورها ولـكل من الأبناء نصيبه فيها . ويحسن أن تعد الأسرة مقدما برنامجا زمنيا لنشاطها حتى يكون لـكل موسم من مواسم السنة ما يناسبه من برامج وحتى يتطلع كل فرد إلى القيام بدوره على خير وجه .

كذلك تستطيع الأسرة أن تأخذ دورا إيجابيا فى النشاط الترويحى العام بالبيئة بإسهام كل عضو فيها فى مسئوليات إعداد البرامج الترويحية العامة وتنظيمها عن طريق الاشتراك فى اللجان والمجالس المنوط بها هذه المسئوليات ، وبشرط أن تعنى كل هيئة ترويحية من جانبها باشتراك الأسر فى لجانها ومجالسها وتنظيماتها . وبذلك تتـكون علاقات بين المؤسسات الترويحية والأسر فى البيئة المحلية مما يؤدى إلى ترابط البيئة وتعاونها وازدياد نشاطها .

ذلك كله إلى جانب ترابط الأسرة من وقت لآخر فى نشاط ترويحى خارجى يزاوله أعضاؤها معا فى عطلاتهم المختلفة بالقيام بالرحلات والزيارات والنزهة وارتياد الأندية ومراكز الخدمة العامة وغيرها من المؤسسات التى تستقبل الأسرة وتعد لها من الإمكانيات ما يهيىء للمشتركين فيها وقتا ممتعا .

ومما لا شك فيه أن وسائل الترويح الخارجى قد تـكون أكثر يسرا للأسرة العربية من وسائل الترويح الداخلى بسبب تزايد عدد أفراد العائلة وما يترتب عليه من السكنى فى منازل تضيق بمن فيها وتعوقهم عن الاستمتاع بنشاط إجماعى . إلا أن الأسرة تستطيع أن توفر فى حدود إمكانياتها وظروف سكنها ما يناسبها من أدوات للتسلية مثل الدومنيو والشطرنج واللودو واللعب الصينية والتواهة والسهم والنشان والحاكى والراديو والتليفزيون وغير ذلك من نواحى التسلية والنشاط التى لا تستلزم استعدادات خاصة .

أما إذا سمحت ظروف السكن بألعاب أكثر نشاطا مثل تنس الطـــاولة والبلياردو وغيرها كان ذلك أفضل وأجدى .

ولا بد للأسرة من أن تأخذ فى اعتبارها الإفادة من إمكانيات البيئة بما فيها من قادة ووسائل للترويح، لأن تعرف الأسرة على احتياجاتها فى ميدان النشاط الترويحى يستلزم اتصالها بالعاملين فى المؤسسات الترويحية البيئية وبالمتخصصين فى شئون الترويح العاملين فى الأندية ومراكز الخدمة العامة والمعسكرات والهيئات الاجتماعية والرياضية فى الريف والحضر ، كما أنها تستطيع أن تستفيد بالإمكانيات المادية الموجودة فى هذه المؤسسات التى أسلفنا ذكرها بما تشمله من وسائل مناسبة للترويح .

وأنواع النشاط الترويحى الداخلى للأسرة كثيرة متعددة، فمنها ما له طابع رياضى بما يزاوله أفرادها من ألعاب ومباريات منزلية وخارجية ، ومنها ما له طابع اجتماعى كالحفلات المنزلية والاجتماعية الدورية ، ومنها ما يرتبط بما للأفراد من هوايات فنية كالموسيقى والغناء والتصوير والتمثيل والتطريز وغيرها من وسائل الترويح التى تشترك فيها الأسرة بكامل هيئتها أو ببعض أفرادها كوحدة .

وتجتذب الفنون العملية أفراد الأسرة صغارهم وكبارهم ، فهناك مثلا أشغال الإبرة والنقش على النحاس والجلد والحفر فى الخشب وعمل الأوانى الفخارية وصناعة التحف من العاج أو السن أو الزجاج وما إلى ذلك من الفنون العملية . ويمكن أن يكون لإنتاج هذه الفنون فائدة اقتصادية كأن تقوم الأسرة بتصميم بطاقات التهنئة للمناسبات الخاصة والعامة والأعياد ، أو تصوير ألوان نشاط الأسرة أو رسم لوحات فنية تمثل الطبيعة وجمالها — ومن اليسير أن تستفيد الأسرة بمهارات أعضائها فى إصلاحات منزلية كطلاء الحـــوائط وأعمال الإضاءة والزينة وغيرها مما يحتاجه المنزل .

والأسرة الموفقة تستطيع أن تهيىء لأعضائها ضروبا منوعة من النشاط الترويحى الداخلى كالهوايات بشتى ألوانها والسمر الليلى والاجتماعات العائلية والحفلات التى تقيمها لمناسبات أعياد الميلاد لأبنائها أو تكريما لهم إذا أحرزوا نصرا فى حياتهم أو للتهنئة فى مناسبات الخطبة والزواج أو فى الأعياد الدينية والموسمية والقومية العامة . وتستطيع الأسرة أن تخلق آلاف المناسبات المماثلة وأن تستغلها وتستثمرها وتبتكر لها صنوفا عدة من نشاط ترويحى يربط بين أفراد الأسرة بعضهم بالبعض الآخر برباط قوى متين أساسه المشاركة الوجدانية والولاء والإخلاص والعمل لإسعاد الأسرة كلها . هذا بطبيعة الحال إلى جانب ما يمكن أن تنظمه الأسرة من سهرات موسيقية داخل المنزل معتمدة على أجهزة الإذاعة والأشرطة المسجلة والاسطوانات .

اللعب والترويح :

نعرف أن الطفل يولد مزودا بعدة غرائز وميول فطرية تدفعه لأن يسلك سلوكا معينا ليحقق أغراضا خاصة فى

نفسه . والحقيقة أن الأطفال يشتركون جميعا فى ذلك دون تباين محسوس بينهم وإن كانت لكل مرحلة من مراحل نموهم ميول وغرائز خاصة بهم .

وواجب الوالدين والأسرة والمدرسة التعرف على تلك الميول والكشف عنها فى وقت مبكر بغرض تهذيبها وتعديلها وإعلائها بحسب قيمتها للطفل والمجتمع . ذلك لأن الطفل إذا أشبع ميله ونفذت رغباته بشكل من الأشكال، شعر بسعادة وارتياح ، أما إذا كبتت ميوله واعترض على جميع رغباته ونزعاته أعتراه قلق نفسى واضطراب وجدانى يجعله عصبى المزاج ثائرا أنانيا منافقاً ملتويا ضعيف الشخصية والكيان .

والميل للحركة واللعب أشد الميول الفطرية ظهورا ، وأبقاها أثرا فى النفس . فالحركة هى التى تدفعه إلى اكتشاف البيئة التى يعيش فيها ، وتقليد ما فيها من إنسان وحيوان وغيره ، واستطلاع ما حوله بالنظر والسمع واللمس والذوق والحل والتركيب ، فهى أهم عناصر نشاطه وأهم أساليب تربيته وتدريبه .

ويطلق اللعب عادة على كل أعمال الطفل لأنه لا يتقيد فيه بمسئولية ، كما يطلق الترويح على كل عمل يقوم به الفرد بحريته ومن تلقاء نفسه ويجد فى متابعته لذة وسرورا .

واللعب والترويح صنوان ضروريان للحياة ويكملان مظاهرها ومقوماتها . فالصغير يحتاج للفرصة التى يكون فيها فارسا أو جنديا أو طبيبا ، والصغيرة تسعى لأن تكون معلمة أو ممرضة أو طاهية — والصبى والفتاة يحتاجان لجماعة من الأفراد تشاركهما اللعب والنشاط ، والبالغ فى حاجة للوقت الذى يروح فيه عن عقله وجسمه من كد الحياة ومطالبها . وفى كل تلك الميادين على اختلاف مستوياتها وأهدافها مجال لتربية النفس بالنفس وتكوين الشخصية ، وفرصة للتنفيس عن الطاقة الزائدة أو تجديد للطاقـــة ، ومتسع للتغيير من أسلوب قضاء الوقت ، وللتخفيف من عبء المسئولية .

من أجل ذلك ينبغى أن يترك للطفل حرية اللعب ، وأن يشجع على الحركة والابتكار ، وأن تعطى له الفرصة للتجربة واكتساب الخبرة . كما ينبغى أن ينتهز البالغ الفرصة ليستجم ، ويريح باله وبدنه ، ويزيل عن نفسه السأم والملل ، ويتخلص من نتائج الكد والإرهاق ، فينشط فى مجالات تشوبها الحرية وتوجهها الرغبة التلقائية ، حتى يسعد ويهنأ ويشعر بالطمأنينة . ووظيفة البيت والمدرسة والنادى فى ذلك تنحصر فى تهيئة البيئة وتجهيزها بالأدوات المناسبة كى يصبح اللعب والترويح عمليتين تربويتين ، يدفعان لكل الصفات الاجتماعية الحميدة ، ويؤديان إلى استثمار الوقت لصالح الفرد والأسرة والجماعة .

ولكى تؤدى الأسرة العربية واجبها إزاء تربية أطفالها ونحو رعاية أعضائها عن طريق اللعب والترويح ينبغى أن تفهم العوامل الثلاثة الآتية :

١ — طريقة الريادة فى اللعب والترويح .

٢ — إعداد البيئـــة لهما .

٣ — اختيار الأدوات المناسبة لهما .

الريادة فى اللعب والترويح :

يجب أن يدرك المسئولون عن الطفل خصائص الطفولة ومطالبها حتى تقوم معاملتهم له على وعى سليم لطبائعه وإدراك صحيح للحقائق المتعلقة بنموه ، حتى يصبح اللعب والترويح محققين لأهداف تربوية مقصودة .

فالأسرة العربية يجب أن توفر لأبنائها جواً مشبعا بالعطف والحرية ، وأن تتيح لهم فرص اللعب داخل البيت وخارجه ، بشرط أن تنظم هذه الفرص وتهيىء لها الوسائل التربوية الصحيحة حتى لاتكون سبيلا للعبث أوأسلوبا فى الإفساد أو طريقا فى قتل الوقت .

ورعاية الكبار للأبناء خلال اللعب أو اشتراكهم فيه شرط واجب لنجاح الفكرة من الترويح ، ولا يقصد بذلك بالطبع التدخل فى نوع اللعبة التى يختارها الأطفال أو الأداة التى يستخدمونها أو التشكيلات التى يرتضونها ، كما لا يقصد بذلك الحد من نشاطهم الطبيعى ، وإنما الغرض من الرعاية توجيه الطفل نحو سلوك أفضل ، وتعديل ميوله ونزعاته بما يتلاءم والصفات التى يرتضيها المجتمع ، وإكسابه مهارات وخبرات دون قتل عامل الحرية فى لعبه ، ومعاونته إذا كان فى حاجة للعون ، وتجنيبه ماقد يتعرض له من خطر أو إصابة . فوظيفة الكبار تنحصر فى عطفهم على الأطفال دون تدليل ، وتشجيع نزعاتهم الطيبة دون سيطرة ، ومشاركتهم فى مـــرحهم مشاركة وجدانية تلقائية حقة .

ومن واجبات الأسرة العربية أيضاً أن تشرك الصغار فى ألعاب جماعية مناسبة تتيح لهم اكتساب خبرات اجتماعية جمة ، وتدريبهم على أساليب السلوك الحميد ، والتصرف فى المواقف ، والتعامل مع الغير . وهى تسعى من وراء ذلك كله إلى تعريف الطفل منذ نعومة أظفاره بالحياة الواقعية وتدريبه على طرق القيادة والتبعية ، وإيقافه على أساليب تنظيم أوقاته واستثمارها لمنفعته وصالح الجماعة .

ومن ثم كان اللعب للطفل والترويح للبالغ أسلوبين فى التربية الاجتماعية التى تساعد على الكشف عن طبيعة الناس مجردة عن التكلف ، وتظهر ميولهم بشكل طبيعى ، فيمكن حينئذ تقويم نواحى الضعف فيها وتشجيع الصالح منها ، ولأن فيها مجالا واسعا للتنافس البرىء والتعاون والولاء وبث الطاعة فى التبعية والحزم فى القيادة . فاللعب الجماعى والترويح الجماعى يتيحان للجماعة فرصا متعددة يقف كل فرد منها مواقف متباينة ويتدرب خلالها على سرعة التفكير والتصرف ، وتتولد لديه أنواع متعددة من الانفعالات ، وهو فى كل مرة يظهر مواهبه العقلية وصفاته الخلقية

ويعد العدة للتغلب على مايظهر أمامه من صعاب أو يعترض طريقه من مشاكل . وبهذا تتحقق فكرة تكوين شخصيته . . . أما عمل الفرد لصالح الجماعة وتفانيه من أجلها فأمر واضح حين يشعر أنه عضو هام من أعضاء جماعة إنتاجها يتوقف على ما يبذله كل فرد من جهد ، وانتصارها ينسب إليه وإلى غيره من الأعضاء . وفى هذا الولاء كسب معنوى هو نمو روح الجماعة التى هى أساس التعاون فى الحياة والأصل فى بناء صرح أى مجتمع .

تلك هى أهم الآثار التى يرجع الفضل فى تكوينها للعب المنظم والترويح المقنن ، والتى من أجلها تعنى التربية الحديثة بأصولها ونظمها وأساليبها ، وتنادى بضرورة إيقاف الأسرة والمدرسة على أهدافهما وأساليبهما . وأهمية اللعب والترويح ترجع فى الواقع إلى عاملى الحرية والسرور المنبثقان عنهما ، وإلى نتيجتهما فى تنمية القوى الكامنة وتكوين الشخصية بطريق شيق محبب للنفس ، لأنهما يهدفان فى النهاية إلى تنظيم مستقبل الفرد والمجتمع .

مكان اللعب والترويح :

سواء أكان مكان اللعب الذى تختاره الأسرة للأطفال داخل البيت أو خارجه فإنه يجب أن تتوافر فيه النظافة أولا وأن يكون خالياً مما يعوق الحركة وأن ينسق ويجمل حتى يوحى بالتربية الجمالية والذوق السليم .

فإذا كان اللعب داخل البيت وجب على الأسرة أن تختار غرفة خاصة بالطفل يخصص جزء منها لنومه والجزء الآخر للعبه ، فإذا لم يكن هذا ميسرا بسبب ضيق مساحة البيت فينبغى أن يفصل جزء من غرفة بحاجز خشبى على شكل مربع أو مستطيل — يمكن تحريكه ونقله — يسمح للطفل بنقل لعبه هنا وهناك كما يسمح له بالخروج والدخول .

ويجب على الأم أن تخرج بطفلها كل يوم للحدائق حيث الشمس والهواء والطلاقة وحيث يستطيع الجرى والوثب والتعلق والشد والدفع ، وحيث يجد حفر الرمل وبرك الماء والأشجار لأنها كلها مشهيات للعبه ، مشبعات لنزعاته وفوق ذلك لا يتسبب له منها أى ضرر ولا يخشى عليها من التلف .

وتزود الملاعب فى الحدائق عادة بالزلاقات والأراجيح والتواهات . ويشترط فيها كلها أن تخلو من النتوء والبروز والقطوع والكسور ، وأن تكون سهلة الحركة لا تحتاج من الطفل لجهد شديد ، وأن تكون بارتفاع مناسب لا يخشى على الطفل منها .

فإذا ما وصل الفتى أو الفتاة سن التاسعة بحثا عن أقران من سنهما وجنسهما ، وعلى الأبوين إذ ذاك معاونتهما فى اختيار الصحبة الصالحة ، كما أن عليهما أن يسمحا لكل منهما بقضاء بعض الوقت مع رفاقه للترويح أو المباراة أو للخروج لنزهات ورحلات وجولات تتفاوت فى بعدها عن المنزل وفى تكاليفها ومسئولياتها كلما تقدمت بالأبناء السن . ويشترط فى هذا النشاط الترويحى أن يتابعه الوالدان بكل حزم ، ويقفان على آثاره بطريق غير مباشر حتى

تظهر رقابتهما فى ثوب قشيب من العطف وحتى تكون غيرتهما على مستقبل الأبناء بقصد توفير السعادة لهم والشوق إلى متعتهم .

وتوجد للكبار غرفة خاصة بهم أيضا تجتمع فيها الأسرة عادة، فهى منتدى الجماعة ومكان لقياها . ولذا يجب أن يشعر فيها كل واحد بالراحة ، إذ تتوافر فيها السعة وحسن الموقع واعتدال المناخ وصلاحية الإضاءة وأن ينسق فيها الأثاث بحيث لايزيد عن حاجتها ولاينقص ، وأن تكون مقاعدهـــا من النوع البسيط المريح ، وأن تجمل وتزين بشكل يدعو أفراد الأسرة إلى الارتياح إليها فى كل شىء . وتزود هذه الغرفة بالمناضد الصغيرة واللعب التى تناسب الكبار كما يوضع فيها الحاكى والراديو والبيانو . ونظرا لأهمية هذه الغرفة فإنه يجب ألا يدخلها الأطفال إلا بإذن ، وإلا يجلسوا فيها إلا فى مناسبات معينة ، حتى يتمتع الكبار بحريتهم فى الكلام والتعبير والسمر .

أدوات اللعب والترويح :

يتوقف اختيار الأدوات والأجهزة واللعب على عوامل عدة نذكر أهمها فيما يلى :

١ — مناسبتها للجنس فهناك لعب يمكن أن يستخدمها الذكور والإناث ولعب يختص بها الذكور دون الإناث والعكس .

٢ — مناسبتها للنمو العقلى والبدنى فلكل فترة من فترات النمو لعب تتفق وقدرات الفرد .

٣ — توافقها فى اللون والشكل والمتانة والثقل والحجم للاعب لأن رغبة الفرد فى اقتناء لعبة يتوقف على مدى جاذبيتها له أو مدى قدرته على التحكم فيها عند استخدامها .

وينبغى أن تختار اللعب للصغار من النوع الذى يسهل فكه وتركيبه ، والتى تجنبهم التعرض للأخطار نتيجة استعمالها . ومن المفروض أن اللعب الصالحة هى الخالية من المواد المعدنية الحادة الأطراف أو المصنوعة من الزجاج الرقيق أو المدهونة بألوان من مواد سامة أو ضارة . . . . إلخ .

ويجدر بالأبوين إشراك الطفل فى اختيار لعبه حتى تتفق وذوقه ، وتتناسب ورغبته ، وتتلاءم وكفايته ، وبذلك يفيد منها ويشعر بكيانه وذاتيته .

وينقل الطفل من اللعب الثابتة التى يتناولها بيديه وينقلها من مكان لآخر إلى اللعب التى يحركها أو يدفعها للحركة ثم إلى اللعب التى يتحرك خلفها أو يتابعها أو تدعوه إلى أعمال الفكر ، وذلك وفقا لتطوره فى النمو الجسمانى والعقلى والوجدانى ، وهو بواسطة تلك اللعب وعن طريق تنظيم ألعابه يكتسب مهارات وخبرات تفيده فى حياته العملية سواء فى وقت الجد أو فى وقت اللعب .

ويمكن تقسيم اللعب أيضا إلى أربعة أنواع رئيسية بحسب الاتجاهات التى ترمى إليها :

١ — لعب وأدوات تحقق الاتجاه التجريبى فتمكن الطفل مثلا من التعرف على ما يحيط به من أشياء وأحياء فهى تمثل مكونات الحياة حوله إذا تناولها بيديه وتأملها ببصره دربت حواسه وأكسبته خبرات ومعارف ومثلها المكعبات وصناديق الرمل والميكانو ولعب الحل والتركيب والبناء ونماذج الحيوانات والطيور ولعب وضع أشياء فى مواضع معينة بحسب شكلها أو حجمها .

٢ — لعب وأدوات تحقق الميل إلى التقليد وبخاصة فى المراحل الأولى للطفولة حين يستطيع الطفل تقليد كل ماياه أو يسمعه ويلذ له الانتباه والسكون فترة أو فترات كى يكون تقليده أقرب للحقيقة وأدعى للضحك والإعجاب ومن اللعب فى هذا الميدان النماذج المتحركة للإنسان أو الحيوان أو الطير ، والأشياء التى يستخدمها المجتمع فى شتى مظاهر الحياة كاللعب التى تدار بالزمبرك مثل السيارة والترام وغيرها .

٣ — أدوات ولعب تحقق الاتجاه التصورى، فخيال الطفل خصيب وقدرته على التخيل لاحد لها فهو يسمع القصة ويتابعها بشغف زائد لأن خياله يساعده على ذلك ، وهو يستطيع أن يتخيل نفسه متقمصا شخصية من الشخصيات التى يقرأ عنها أو يسمع بها — ومن أمثلة ذلك لعبة الأفلام السينمائية والفانوس السحرى ولعب تركيب الصور من قطوع وأدوات الرسم والتصوير والتطريز .

٤ — أدوات ولعب تكسب مهارات حركية أوتستنفد الطاقة البدنية كالكرات والحبال والعصى والمضارب ، ويهمنا فى هذا المجال أن نلفت النظر إلى تفضيل اللعب التى تحقق اشتراك الفرد بشكل إيجابى تظهر فيه جهوده وتستخدم فيه حواسه وقدراته فى حدود مناسبة حتى لا يكون موقفه منها سلبيا أو موقف المتفرج أو المستهلك .

والحقيقة أن الطفل يفرح أحيانا بأشياء قد تبدو تافهة ولكنها تكون فى نظره ذات قيمة ، فهو يجمع الزجاجات الفارغة أو قطع القماش الملون أو لفافات من الخيط ذات ألوان زاهية ، أو يجمع صناديق من الخشب أو علبا من الصفيح وغير ذلك من مهملات البيت ، يجمعها ويستخدمها لأنها تشبع رغبة فى نفسه وتعينه فى التجريب وتشعره أنها ملك له . والواجب أن يدرب الطفل على جميع الأشياء وأن يوجه إلى اقتناء الأشياء النافعة منها ، ويعود ترتيبها وتنسيقها والعناية بها . وفى الوقت نفسه ينبغى أن نعينه على أن تكون مقتنياته نظيفة وخالية مما يؤذيه وأن تقدر عمله وإنتاجه كلما نجح فى الإفادة من الخامات التى تقع تحت يديه .

كذلك يمكن تقسيم اللعب إلى قسمين آخرين :

١ — لعب وأدوات وأجهزة ينفرد بتناولها شخص بمفرده ويحس بلذة من اللعب أو العمل بها . فالصغير الذى يشترى النماذج الصغيرة للسيارات أو الطائرات أو أنواع الجنود أو الحيوانات ، والطفل الذى يشترى المكعبات ليجعل منها مبانى ومنشآت ، أو يشترى (ميكانو) ليركب منه طائرة أو قطارا ، أو يشترى قطعا مستوية من

البلاستيك لينشىء منها بيوتا وقصورا ، إنما يلعب ألعابا انفرادية تنمى فيه القدرة على الإنشاء والابتكار كما تدربه على البناء والتركيب والتنسيق. والواجب أن يعنى الوالدان بشراء مجموعات من اللعب التربوية هذه كالمكعبات والأشكال الهندسية والصور المتقطعة لأنها تدفع الطفل إلى التفكير ، وتجعله يميز الألوان والأحجام والأشكال ، وتدربه على الدقة والحكم الصحيح .

وقد يكون ترويح الكبار مشابها لذلك فيقتنى الأب مجموعة من أدوات هواية يحبها كالنجارة أو الحدادة أو السباكة ، أو تحتفظ الأم بمجموعة من أدوات التطريز أو أدوات الرسم والتصوير تستخدمها فى وقت فراغها . فتصبح هذه أو تلك كاللعبة بالنسبة للصغير .

وواجب الأسرة إلا تقلل من أهمية أدوات الهواية أيا كان شأنها لأنها سبيل هام شيق فى استثمار الوقت ، وطريقة فى بث الطمأنينة والاستقرار ، وعامل فى جلب السعادة بل هى دعامة فى ربط الأسرة بالبيت .

٢ — لعب وأدوات وأجهزة تصلح أن تستخدمها جماعة فى لعبها أو عملها ، فالطفل قد يقتنى كرة قدم أو مضربا للتنس أو مائدة لكرة النضد يلعب بها أو عليها مع زميل أو عدة زملاء ، وقد يقتنى الفرد جهازا لصنع السجاد يجلس للعمل عليه هو وغيره من أعضاء الأسرة ، وقد يشترك الجميع فى رسم صورة كبيرة ، أو قد يشتركون جميعا فى تكوين فرقة موسيقية منها العازف على الكمان واللاعب على البيان وغيرهما .

والفرد منا مهما بلغ به العمر فى حاجة إلى اللعب وإلى الترويح مع أقران من سنه ، يتعلم منهم ويتعلمون منه ، يعمل معهم ويعملون معه ، ويسمر ويسعد ويمرح ويتنشط فى جو من الألفة والوئام فتكون الجماعة صورة لمجتمع صغير فيه تعاون وتفاعل وتجاوب .

وقد يقسم اللعب أو الترويح إلى القسمين الرئيسين الآتيين بحسب الأماكن التى يحدث بها :

١ — لعب أو ترويح داخلى :

كاللعب بالدمى المصنوعة من المطاط أو القطن وغيرها ، أو صنع نماذج لحيوانات من القماش أو الصوف أو الزجاج أو الجلد ، أو صنع الأثاث والأدوات المنزلية وإصلاحها ، أو صنع أدوات الزينة أو إطارات الصور أو أغطية الإضاءة ، وغير ذلك من اللعب أو الهوايات التى تمارس فى المنزل .

ويمكن أن يدخل ضمنها إقامة الحفلات وتنظيم الندوات واجتماعات السمر التى تلقى فيها الأغانى والأناشيد والملح ، وتختار لها الأسرة أنواعا عامة من الموسيقى بالحاكى أو بالعزف ، أو تنتقى لها ألوانا خاصة من الموسيقى الكلاسيكية أو الموسيقى التصويرية وغيرها ، أو تنتقى موسيقاراً معينا تستمع إلى ألحانه فى سهرة من السهرات . والترويح على هذه الصورة فن رفيع يحتاج إلى مران ويتطلب أن يختص بعض أفراد الأسرة بقيادة الجماعة فى سمرها واختيار برنامج يشمل الألعاب الداخلية التى يلعبها الناس وهم جلوس ، ويشمل الأناشيد التى يشترك فيها الجميع ، كما يشمل الأحاجى والألغاز ونواحى النشاط التى تدخل السرور على الغريب والقريب والضيف والمضيف .

وقد تستمتع الأسرة بالقراءة والاطلاع فتسعى جاهدة فى إنشاء مكتبة للبيت تضم أنواعا مختلفة من الكتب والمجلات ، حديثها وقديمها ، وتعود أبناءها منذ الصغر القراءة كفن من الفنون يتطلب أن يدرب عليه الناشىء منذ نعومة ظفره . وقد يكون من بين أفراد الأسرة من يحب الكتابة فيشغل وقته بالتحرير فى موضوعات عامة أو خاصة ، وهذه الأخرى تحتاج إلى مران فى سن مبكرة . والقراءة والكتابة من أوسع مجالات الترويح وأنفع ألوان الهواية ، وهما بحر زاخر بالعلم والمعرفة ، بل هما وقاية من البطالة وغذاء للنفوس .

٢ — لعب أو ترويح خارجى :

وذلك حين يخرج الطفل إلى فناء منزله أو حديقة بيته أو يخرج هو والأسرة للمتنزهات والملاعب والأندية . وقد يحتاج فيها إلى لعب خاصة كدراجة أو دلو أو رشاشة أو جاروف أو كرة ، أو يستخدم ما فيها من أراجيح ودرج وحلق ، أو ينعم ببركتها وحفر الرمل التى بها ، أو يسعد بخضرتها وأشجارها وأغصانها وأزهارها .

وقد بلغت العناية بالترويح الخارجى للأطفال فى الأمم الناهضة مبلغاً كبيراً من القدر والأهمية فخصت مشروعاتها بقسط كبير من ميزانيتها ، كما تعنى المجتمع بها ماديا وأدبيا . ومن أمثلة ذلك دور الحضانة التى تضم الأطفال الذين لا يلقون القدر الكافى من الرعاية بسبب ظروف اجتماعية معينة كاشتغال الأم أو مرضها أو عجزها ، ومنها ملاهى الأطفال والحدائق المزودة بالأدوات والأجهزة المختلفة التى لا تتوافر عادة فى البيوت ، ومنها دور السينما التى تعرض أشرطة سينمائية خاصة بالأطفال ومنها مسارح العرائس ، وغير ذلك من دور اللهو التربوى المفيد .

كذلك تعنى الإذاعة من جانبها بأحاديث الأطفال وكذلك التليفزيون كما تهتم الصحافة بإصدار مجلات مصورة تضم القصص والألغاز كما تشمل توجيهات فى الهواية وفى الرحلات .

وخطت شعوب خطوات تقدمية أخرى فى هذا السبيل فأنشأت للأطفال والشباب معسكرات وبيوت ومصايف خاصة تديرها المؤسسات الاجتماعية للترفيه والتربية . ولا تقتصر فائدة هذه المنشآت والمؤسسات على الصغار بل ينتفع بها المجتمع بأسره شبابه وشيوخه ، نساؤه ورجاله ، وفيها تجتمع الأسرة فى عطلاتها للاستجمام والترويح فى جو حبيب إلى النفس قريب إلى العقل والقلب . وتعد الأسرة لهذا الحدث عدته كل عام فى موعد مبكر فتقتصد من دخلها ، وتشترى الملابس الخاصة ، وأدوات اللعب المناسبة ، وتضع البرامج حتى إذا حان الوقت كان الكل على أهبة الاستعداد بشوق زائد ولهفة صارخة .

الترويح بين البيت والمدرسة :

يمتد أثر البيت فى تربية الطفل من مولده حتى نضوجه ، إلا أن وظيفة البيت فى الواقع تتركز فى الطفولة المبكرة حتى سن السادسة حين يلتحق الطفل بالمدرسة . فهذه الفترة بالذات لها خطورتها وأهميتها من حيث أنها تضع

دعائم نمو الطفل فى جميع مظاهر حياته . ثم تقوم المدرسة بدور لا يقل أهمية عن سابقه فى إعداده إعدادا كاملا للحياة لأنها تكمل رسالة البيت من جهة وتعده لحياة الواقع والمستقبل من جهة أخرى .

فالمدرسة وهى البيئة التربوية الثانية ينتقل الطفل إليها برأس مال هو غرائزه واستعداداته الطبيعية وما اكتسبه فى أسرته من عادات وتقاليد . ونظرا لطول الفترة التى يقضيها الطفل فى دور العلم ، وتعدد مراحل النمو التى يقطعها فى رحابها ، وخطورة بعض تلك المراحل من حيث تكوينه وتربيته ، كل ذلك جعل المدرسة أهم البيئات وأخطرها فى ميادين التربية والتعليم ، والتى عليها مسئوليات جسام فى إعداد النشء ، وفرض عليها عدة التزامات تضمن بها تفاعل أبنائها فى المجتمع الخارجى تفاعلا حسنا مثمرا .

وأول واجبات المدرسة أن تكون صورة مصغرة مهذبة للمجتمع ، تهيىء نفسها للكشف عن مواهب الفرد واستعداداته لتنمية قدراته وإمكانياته ، وتقوم بتوجيه شخصيته نحو مثل عليا ارتضاها المجتمع ، وتمكنه من العمل والنشاط والإنتاج ، وتوفر له أسباب السعادة حتى يصبح عضوا عاملا يخدم نفسه والجماعة التى يعيش معها بنفس راضية طموحة .

وما دام الواجب يقتضى أن تقوم المدرسة بكل تلك الأعباء فى سبيل التربية القومية الصحيحة إذن ينبغى أن تجعل المدرسة حياتها قريبة الشبه بحياة المجتمع فى جده ولعبه ، وأن تهيىء الفرص لأبنائها ليمارسوا حياة اجتماعية واقعية ، وأن يكون المجتمع المدرسى داخلها وثيق الصلة بالمجتمع خارج نطاقها وأن يتدرب فيها الناشىء على طرق التعامل حتى يستطيع أن يكتشف مقومات الحياة وقيمتها بنفسه ، ويدرك حقوقه وواجباته نحو نفسه ونحو الناس .

ومن أجل تحقيق هذه الأهداف الاجتماعية سعت المدرسة العربية إلى تغيير مناهجها حتى تصبح مرتبطة بالبيئة وإمكانياتها ، وإلى جعل أساليبها مرنة تسمح بالتجربة ومحاولة الصواب والخطأ ، وعملت على تعديل خططها حتى تشمل رعاية الشباب خلال ساعات التحصيل وفى أوقات الراحة ، أثناء أيام الدراسة وخلال العطلات ، وأدخلت التربية الرياضية والتربية الاجتماعية كناحيتين هامتين فى التربية تكملان رسالة المدرسة ، وشجعت إنشاء الجمعيات المدرسية والنشاط المدرسى تدعيما للتربية الاستقلالية والحكم الذاتى . وذلك كله حتى يكون اتجاه المدرسة اجتماعيا وحتى تكون الخدمة التربوية محققة لأهداف الدولة والمجتمع .

وهكذا تصبح المدرسة العربية مصدر إشعاع للبيئة ، تلقى أضواءها على القديم والحاضر والمستقبل ، وتتناول جميع مظاهر الحياة فى البيئة حتى ينتفع بها ويستفاد من جهودها ، وحتى تعد أبناءها داخل جدرانها فى شتى نواحى نشاطهم لتؤهلهم للعيش فى البيئة خارج نطاقها ، كما أنها تدعو المجتمع الخارجى للمشاركة فى نشاطها الداخلى حتى تصبح

بحق شركة يعم نفعها وخيرها ، وتصبح التربية الاجتماعية جزءا هاما فى برامجها ، ويصبح تدريب النشء على استثمار وقت الفراغ وأساليب الترويح من أولى مهامها .

وعلى هذا الأساس أيضا تصبح اتجاهاتنا التربوية العامة فى شغل أوقات الفراغ عملية موحدة مستمرة تبدأ فى البيت من المرحلة الأولى للطفولة حتى أن الطفل عندما يلتحق بالمدرسة نجد منه استعدادا للتعاون معها فى هذا السبيل . والأمر لا يحتاج بعد ذلك إلى أكثر من تنسيق الجهود بحيث يشترك البيت والمدرسة فى عملية تربوية موحدة الخطة والاتجاهات . ذلك لأن وجود الطفل فترة فى بيته وفترة أخرى فى مدرسته لا يعنى أن هناك طفلين يعيشان فى جهتين متنافرتين يلقى كل منهما فى كل جهة معاملة معينة وتوجيها خاصا ، بل أن هناك طفلا واحدا من حقه أن يجد معاملة موحدة ، وأن يعامل بأسلوب واحد فى بيته وفى مدرسته حتى يمكن أن يصل فى يسر إلى الغاية التى يصبو إليها .

وتيسيرا لمهمة البيت كى يحقق هذا الهدف تعنى المدرسة الحديثة بتخفيف العبء عنه تخفيفا مقبولا ولكنها لا تستطيع أن تتحمل العبء كله على أكتافها ، وفى ميدان الترويح تأخذ المدرسة فى اعتبارها مسئولية تيسير الوسائل التى تتيح الفرص الكافية لأبنائها من الأطفال والشباب فى تنظيم أوقات فراغهم فى أيام دراستهم وخلال عطلاتهم . وهى تقرب الشقة بينها وبين البيت وتعمل على أن تكون شركة بين الآباء فأنشأت مجلس الآباء والمعلمين لتنسيق الجهود والخدمات التربوية الموجهة للأطفال فى المدرسة والبيت ، وحددت رسالتها كمركز إشعاع للبيئة وأهلها فهى تفتح أبوابها فى أوقات الدراسة وغيرها حتى تتيح للأهالى التعرف على وسائلها فى تنشئة أبنائهم وتشركهم فيما يقوم به المعلمون وتلاميذهم من وسائل للنشاط الترويحى بمختلف ألوانه .

وبهذا الاتجاه الجديد صارت المدرسة أيضا مركزا ترويحيا للأسرة تنتفع به فى تنظيم فراغ أفرادها وتوفير نواحى النشاط المناسب لمن لا تمكنهم الظروف من الترويح فى مجال البيت أو البيئة التى يعيشون فيها . وأصبح من الممكن أن ينتقل البيت بكامل هيأته إلى المدرسة وأن يستثمر أهل البيت أوقات فراغهم فى نشاط قليل التكاليف كبير النفع .

ولا يمكننا فى هذه الناحية أن نغفل أن التلميذ وسيلة صالحة لنقل أساليب المدرسة إلى البيت إذا أحسن البيت استقبالها وكان عاملا مساعدا ومنشطا لتشجيع الطفل على ممارسة ألوان من نشاطه وهواياته فى بيته .

فالهواية التى يحبها الطفل والتى عملت المدرسة على اكتشاف قدراته فيها وميوله نحوها وساعدته على ممارستها ينبغى ألا تقتصر على المدرسة بل يجب أن تمتد إلى البيت ، وأن يمكن من ممارستها فى نزهته ورحلته ومخيمه وأينما حل أو ارتحل — كما ينبغى أن يستقبل البيت هواية الطفل استقبالا مشجعا ، وأن يعينه بمختلف الوسائل لتنشيط قدراته واستثمارها ، وأن يساعده على الإفادة من خبراته ومهاراته التى اكتسبها فى مدرسته ، وأن يتابع نشاطه هذا باهتمام زائد ، ويشعره بأن هوايته لها أثرها وانعكاسها على حياة الأسرة .

والطفل الذى يمارس هوايته فى بيته ومدرسته طفل لا يخدم نفسه فقط وإنما يخدم أسرته فى اتجاهات شتى ،

والطفل الذى يفخر بهوايته يعتز بنفسه وبيته . وهو من ناحية ثانية يضع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ما تعلمه من هواية ونشاط تحت تصرف الآخرين من أعضاء أسرته ، وقد يكون سببا فى نشر هوايته بين غيره من صغار الأسرة وكبارها ، بل قد يكون عاملا من عوامل إفادة أهله بوسيلة من وسائل الارتزاق ورفع المستوى الاقتصادى . والأمثلة على ذلك كثيرة ، فالأندية الريفية التى بدأت تنتشر فى العالم العربى ستكون أهم وسائل رفع المستوى الاقتصادى للأسرة التى تهتم بالصناعات الزراعية وتربية الدواجن والماشية وغيرها ، وأصبح التلميذ عنصرا فعالا فى هذه الخدمات الاقتصادية يدرب عليها فى صغره ، وينشأ على العناية بها ، وينقل ماتعلمه فى المدرسة من فنون وعلوم فى هذا الميدان إلى أبويه فى ساعات الفراغ حين تتفتح النفس للطريف ويتقبل العقـــل الجديد ، وحين تصفو العلاقة بين عميد الأسرة وأعضائها .

وهكذا نجد أن للترويح أبوابا متعددة يدخل منها إلى البيت والأسرة والمجتمع ، وأن له شأنه فى تربية النشء وفى حياة الجماعة ، وأن له دوره عند تقويم الحياة الاجتماعية ومعرفة مقوماتها .

فالأسرة العربية بإيمانها بفلسفة الترويح وأهميته ، وعنايتها بأساليبه وشتى ضروبه ، وعملها على تهذيبه وتدعيمه ، إنما تبنى به صرحا فى الرفاهية ، وترسى به دعائم الاستقرار ، وتشع بواسطته السعادة والرضا ، وتخلق به أمة عربية جديرة بأن تتبوأ مركزها فى المجتمع الحديث .

« البيت العربى والنشاط الترويحى فى المجتمع »

للدكتور ج . ب . كرمز

(الجمهورية العربية المتحدة)

---

١ — الوضع العربى

يقدر الناطقون باللغة العربية فى العالم بحوالى ثمانين مليونا من البشر وتسكن الأغلبية العظمى منهم قربا من الشواطىء الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، أى المساحات الساحلية فى شمال إفريقيا والمنطقة المتاخمة لشبه الجزيرة العربية التى تمتد الى البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج العربى .

ويمتد هذا الإقليم الذى يكون العالم العربى بعرض ٣٥٠٠ ميل أى مساحة حوالى أربعة ملايين ميلا مربعا ، والعامل الطبيعى المميز لهذه المناطق هو أنها تقع فى أكبر منطقة صحراوية فى العالم . وبالمقارنة نجد أن معظم المساحة صحراوية عدا نسبة ضئيلة جدا تزرع بواسطة السكان المتزايدة كثافتهم باستمرار . وبجانب العامل الجغرافى الموحد يوجد عامل آخر موحد هو الشعور بالقومية العربية التى تستند إلى اللغة والثقافة العربية .

وهناك دافعان قويان رئيسيان بين العرب اليوم هما التطلع إلى الاستقلال ويعبر عنه بالقومية العربية والتطلع إلى تقرير المصير ويعبر عنه بالوعى العربى .

وهاتان الحركتان القويتان وضعتا حداً للسيطرة السياسية والاستغلال الاقتصادى الأجنبى مدعما بوطنية غيورة وتعاون حقيق بين المسلمين والمسيحيين . وقد عقدت الدول العربية العزم على إثبات كيانها وإيجاد الوضع الدولى لها بين الأمم .

المجتمع العربى :

وتعيش المجتمعات العربية على اختلاف أحجامها فى مناطق ثلاث :

١ — المناطق الصحراوية ٢ — المناطق الريفية

٣ — المناطق الحضرية .

المجتمعات الصحراوية:

وأغلبها من البدو وأشباه البدو . ويقدر عددهم بحوالى ١٥ ٪ من مجموع السكان العرب وتختلف هذه النسبة باختلاف الدول .

بعض خواص البدو :

١ - الهجرة الصيفية والشتوية مع قطعاتهم من الجمال والأغنام والماعز .

٢ — النظام القبلى بزعامة الشيخ ومجلس شيوخ القبيلة .

٣ — إستعمال الخيام المأوى .

٤ - العادات والتقاليد القبلية المنظمة لعلاقاتهم .

٥ — الاقتصاد الذاتى القائم على بيع المنتجات والحيوانات الفائضة عن الحاجة.

٦ — التجانس والعزلة والاعتماد على النفس .

٧ — ثقافة العشيرة نفسها . . . الخ .

أما المجتمع شبه البدوى فهو أكثر استقرارا وإن كان يحتفظ بالتقاليد والنظم الاجتماعية القبلية . ويشتغل أفراده فى الزراعة واستخدام الأرض بتوسع الاحتياجات العائلية . وتتجه مجتمعاتهم نحو الاستقرار التدريجى لأنهم يرتبطون بزيادة وسائل النقل وطرق المعيشة الحديثة .

وهناك اتجاهان مميزان للبدوى هما :

أولا ـ الاندفاع إلى المدن للحصول على عمل يستقل به .

ثانيا ـ الاتجاه إلى الاستقرار الدائم والاندماج فى المجتمعات المستقرة .

وعلى العموم فإن المجتمعات البدوية وشبه البدوية تحتاج إلى مدارس وخدمات طبية ومنظمات اجتماعية ووسائل حديثة للنقل والمواصلات وتشريعات موحدة وكل معونة تستطيع الدولة أن تقدمها لرفع مستوى معيشتهم .

وإن حياة البدو تمتاز بالشعر الفنى والأدب والثقافة العامة كما أن بعض عاداتهم واحتفلاتهم ومهرجاناتهم ذات طابع وخيال خاص . ولم يعرف ولم يكتب سوى القليل عن رقصهم وأغانيهم وألعابهم ووسائل تسليتهم ونشاطهم

الترويحى . وعلى أى حال فإن المجتمعات الصحراوية لها حضارة خاصة ويعتبر نشاطهم الترويحى التقليدى جزءا منها . وكل هذه المعلومات الأساسية المشوقة تحتاج إلى تسجيل وجمع ودراسة .

المجتمعات الريفية :

تقدر نسبة سكان الريف العربى بحوالى ٦٥٪ من السكان . وقد تزيد هذه النسبة فى بعض البلدان ، والعمل الرئيسى لهم هو الزراعة وهم بمثابة العمود الفقرى للاقتصاد الزراعى فى البلدان العربية .

ويعيش هؤلاء الفلاحون على نتاج الأرض فى القرى كبيرة كانت أو صغيرة ويكونون شبكة واسعة للمجتمعات الزراعية وتتكون بعض القرى الصغيرة من عائلات مختلفة قد يرجع نسبها إلى أصل واحد . وتسكن عائلتان أو أكثر عادة فى القرى الكبيرة ويعين عميد إحدى هذه العائلات رئيسا للقرية ينظر فى شئونها بمعاونة كبار السن فيها ويساعد فى تطبيق القوانين والتعليمات التى تقررها الدولة .

ومن الملحوظ أن من التقاليد المرعية فى المجتمعات الريفية أن يعيش الرؤساء الذكور وسلالاتهم وأطفالهم ونساؤهم سويا كوحدة . ونتيجة لذلك ينشأ الشبان تحت سيطرة عائلية قوية ويتبعون نفس تقاليد العائلة . إن الظروف الاجتماعية والاقتصادية فى معظم المجتمعات الريفية غير ملائمة تماما ، فانتشر الفقر والمرض والجهل ولم تتوافر الإمكانيات السكنية والصحية ولا موارد المياه الصالحة بسبب قلة العناية الصحية والخدمات الاجتماعية وعدم تنسيق الخدمات اللازمة . وقد ارتبطت كل هذه الحالات بمستوى معيشة منخفض بوجه عام .

وقد قامت الحكومات العربية وجامعة الدول العربية بمجهودات جديرة بالذكر لعلاج هذه العلل الاجتماعية ، منها أن الحكومة فى الجمهورية العربية المتحدة قد بدأت بإقامة المراكز الاجتماعية الريفية والوحدات المجمعة والمنظمات التعاونية لإيجاد الانتعاش الاقتصادى والاجتماعى . كما تكفلت بعض الحكومات العربية ببعض الخطط الإصلاحية وبذلك تكونت البداية المشجعة لعلاج وتجنب العلل الاجتماعية فى الحياة الريفية .

ويوجد فى القرى الكبيرة مسجد وكنيسة (إذا توفر بها المسيحيون) والإمام الدينى للمسجد هو المشرف على مكتب تحفيظ القرآن . ومع التوسع فى التعليم نجد فى القرى الآن المدارس العادية .

وتستخدم مضيفة القرية لاستضافة الزوار ولعقد الاجتماعات ، ويعتبر المقهى بالقرية مكان التسلية التقليدى للرجال الذين يقضون أوقاتهم بها حتى ساعات متأخرة من الليل فى المسامرة والتدخين وشرب الشاى إلخ .

أما النساء فتجدن الفرص فى المقابلة حول موارد المياه ، ويستعمل الجرن مكانا للاجتماعات وتقام فيه الحفلات فى المناسبات الخاصة .

والمحترفون الذين يقومون بتسلية الريفيين هم القصاصون والمغنون والعازفون على الآلات الموسيقية المصنوعة محليا والمشعوذون وحواة الثعابين والقرادون والراقصون واللاعبون بالتحطيب ومرقصو الخيل . إلخ

والحياة الريفية مليئة بالقصص والفكاهة والأغانى والنشاط الترويحى بشتى الألوان التى يجب أن تدرس وتشجع وهذه التقاليد المحلية تبدو مصاحبة للاحتفالات الدينية والأعياد الموسمية ، ونتيجة للتوسع فى التعليم يجب أن يحصل الصبيان والبنات والنساء فى المناطق الريفية على قسطهم اليومى من النشاط الترويحى . وفيما يلى بعض الاتجاهات الهامة فى المجتمعات الريفية التى يجب أن توضع محل الاعتبار :

١ ـ الهجرة إلى المدن وخاصة من الشباب .

٢ ـ النهضة التعليمية .

٣ ـ إدخال وسائل النقل والمواصلات الحديثة .

٤ ـ نمو الصناعة فى المدن المجاورة وتشغيل الفلاحين عمالا فيها .

٥ ـ زيادة المساعدات الحكومية والرقابة .

٦ ـ إزدياد الرغبة فى التغيير والتجديد . . . إلخ

وتحتاج إعادة بناء وإنعاش الريف إلى تعاون وثيق بين الفلاحين والسلطات الحكومية ، إذ أنه من الضرورى تنظيم كل المجهودات التى تخطط للنهوض بالتعليم والصحة العامة والإسكان والإنتاج الزراعى والاقتصاد والترويح .

المجتمعات الحضرية :

يعيش أكثر من ٢٠ ٪ من السكان العرب فى المدن . وقد تصل نسبتهم فى بعض الدول إلى ٣٠ ٪ وعلى سبيل المثال كان عدد سكان الحضر فى مصر سنة ١٩٤٧ ٣٠٪ وأخذت هذه النسبة تزداد على مر الأيام .

وقد تعرضت المدن العربية ذات المجد التاريخى والثقافى القديم إلى ضغط المدنية الحديثة وأحداثها السياسية أكثر من غيرها . وعلى ذلك فإن مزايا وعيوب هذه المدنية موجودة بدرجات متفاوتة فى المجتمعات العربية الحضرية كما يوجد القديم والحديث متجاورين ، وإن كان الحديث قد بدأ يطغى على القديم ويحل محله .

والتحضير آخذ فى الازدياد بدرجة كبيرة ، ولا يرجع ذلك إلى تركيز التجارة والحرف والصناعة فى المدن فحسب ، ولكن لوجود المنشآت الإدارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضا بها ، كما تتوافر فرص التقدم الفنى

والتخصيص إذ تعتبر المدينة مركزا ثقافيا وتعليميا يمكن فيها للمواهب الأدبية والفنية أن تجد المجال أمامها لكى تدرب وتنمو .

وتعتبر الحياة الترفيهية عاملا رئيسيا من عوامل الإغراء فى المدينة ، ومن هذه الوجهة فإن المدن العربية ليست متخلفة بل يأخذ الترفيه التجارى على الخصوص فى النمو بدرجة سريعة جدا فالملاهى كثيرة العدد ودور السينما والبارات والكباريهات وصالات الرقص توجد فى المدن الكبيرة .

ومن ناحية أخرى نجد أن إمكانيات وبرامج الترويح الاجتماعى والحكومى والأهلى تتقدم ببطء شديد مما يجعل الفرق بين هذا النوع من الترويح وبين الترفيه التجارى آخذاً فى الاتساع . وعلى ذلك فإن إحدى مشكلات المدن الهامة هى كيف تحول رغبة الناس الطبيعية للنشاط الترويحى البرىء فى اتجاه إنشائى بدلا من الترفية الاستغلالى . وزيادة على ذلك فإن الأغلبية تنتمى إلى الطبقة المحدودة الدخل ، لذا فإنه ليس فى مقدورهم أن يصرفوا أموالا على الترفيه وكل ما يحتاجونه هو الترويح الذى يقدم لهم بلا مقابل .

وبجانب الترويح التجارى قد انتشرت إمكانيات وبرامج الترويح الاجتماعى فى المراكز الحضرية الكبيرة التى تعتمد على الدولة والهيئات الأهلية التى تهدف إلى خدمة الاحتياجات الترويحية للناس بالمجان أو بتكاليف قليلة جدا .

ولسوء الحظ فإن عملية المسح للترويح للمجتمعات فى البلاد العربية غير موجودة ، وأول مسح عمل فى هذا الميدان كان بمناسبة عقد مؤتمر رعاية الطفولة فى الأسكندرية سنة ١٩٤٤ وكان موضوعه «دراسة احتياجات أوقات الفراغ للنشء فى الإسكندرية » . ثم بمناسبة مؤتمر المشاكل الاجتماعية للإسكندرية الذى عقد فى سنة ١٩٥١ وتمت الدراسة فى لجنة « دارسة شغل أوقات الفراغ لسكان الإسكندرية » وقد نشر مع أبحاث المؤتمر . وكلاهاتين الدراستين قد كشفت بعض الحالات والميول الخاصة فى الترويح الجماعى الذى قد يطبق على المجتمعات الحضرية فى البلاد العربية . وعلى ذلك فإنه من المستحسن لكى نحصل على فكرة عامة للموقف أن نلخص نتائج الأبحاث التى أجريت على مدينة الاسكندرية .

مدينة الإسكندرية :

١ — السكان — كان معدل الزيادة السنوية لسكان الإسكندرية ٣,٥ ٪ بين سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٤٧ وزادت كثافة السكان خلال هذه المدة من ٩,٤٠٧ إلى ١٢,٩٨٠ نسمة فى الكيلومتر المربع . واليوم قد وصل عدد السكان ١,٢٥٠,٠٠٠ منهم ٦٤ ٪ أى ٨٠٠,٠٠٠ من الشباب تحت سن الثلاثين . وأكثر كثافة فى السكان مركز فى الطرف الجنوبى الغربى من المدينة . ولذلك فإن عدد سكان المدينة يزداد بسرعة وثلثاه من الشباب .

٢ — إحتياجات أوقات الفراغ — لقد وجد أن لكل فرد مابين ٣٠ر٤٠ ساعة فى المتوسط من أوقات الفراغ فى الأسبوع . وللشباب أوقات أكثر من الكبار وبخاصة فى الصيف وكثير منهم لا يعمل فى الإنتاج ولا يستغل أوقات الفراغ فى الإنشاء ويضيع طاقته فى الأعمال غير النافعة . ويكتسبون بسرعة عادة الجلوس على المقاهى والذهاب إلى السينما والكسل والتلكؤ والبحث عن السرور الماجن .

وإن أهم ما ينقص المدينة هو تنظيم حياة الجماعة لكل جنس على حدة أو لهما معاً . وإن طاقات الشباب الغزيرة تحتاج إلى توجيه لنواحى الإنشاء كما تحتاج المدينة بسرعة إلى قادة من الشباب الذين ينظمون أوقات الفراغ للنشء ويعطونهم خبرات فى المسئولية عن الحياة الجماعية والوطنية الصادقة .

٣ — الترويح فى المجتمع (بدون غرض تجارى) :

(ا) المنازل — إن أغلبية مساكن منخفضى الدخل تقع فى المناطق المزدحمة بالسكان فى المدينة وهم الذين يحصلون على ضروريات الحياة بصعوبة وغير قادرين على تيسير الاحتياجات الترفيهية الكافية للنشء .

(ب) المدارس — والمدارس مزدحمة بالتلاميذ إذ يوجد ٤٠٠ر٠٠٠ ولد وبنت من سن ٥ إلى سن ١٩ فى المدينة منهم ٥٠ ٪ أى حوالى ٢٠٠ر٠٠٠ طفل يتعلمون فى ٥٠٠ مدرسة بقليل منها إمكانيات كافية للنشاط الإضافى . ونسبة قليلة جدا من هؤلاء الأطفال يحصلون على جزء من النشاط الترويحى المدرسى . وتعمل وزارة التربية والتعليم مجهودات كبيرة لتحسين هذا الوضع .

(ج) الترويح العام — تبلغ مساحة الحدائق العامة والأماكن الفضاء الصالحة للترفيه ٤ر١ ٪ فقط من مساحة المدينة وتقع حول الجزء الشرقى من المدينة القديمة وهى صعبة المواصلات بالنسبة للأحياء المزدحمة التى فى الطرف الجنوبى الغربى . وعلاوة على ذلك فإن سبل الانتقال قليلة ومرتفعة الأجر . كما أن المال المخصص للترفيه العام والإمكانيات والبرامج عبارة عن نسبة ضئيلة جدا من مجموع الضرائب المجموعة من الأهالى وغير كافية لمواجهة حاجة الناس الترفيهية .

(د) المنظمات الاجتماعية — يشترك حوالى ١ ٪ من سكان الإسكندرية فى نشاط حوالى ١٥٠ ناديا ومركزا ترويحيا ، ونصيب النشء الذين يكونون ثلثى العدد من هذا الواحد فى المائة ضئيل للغاية .

٤ — الترويح التجارى :

إن حوالى ١٥٠٠ قهوة ، ١٥٠ حانة (بار) ، ٤٠ دار للسينما ، ١٠ صالات للموسيقى والمسرح توفر الترويح التجارى اليومى . ودافع الربح هو الذى يوجه نشاط كل هذه المنشآت التى تعتمد على مصروف النشء بوجه خاص إذ ليس عندهم مانع من أن يحرموا أنفسهم من الضروريات الأولية للحياة لقاء إرضاء رغباتهم فى الترفيه الذى يكلفهم المال .

وهناك عدد قليل يتجه إلى مزاولة الرياضة فى المدينة ، لذلك فإن عادات الجلوس على المقاهى والذهاب إلى السينما

والترفيه السلبى قد انتشرت بسرعة بين جميع الطبقات كما انتشر لعب الورق فى المنازل بكثرة بحيث لا يستطيع أحد معرفة مدى انتشار القمار الذى يجرى فى الخفاء .

والحقائق التالية تمثل النقط الهامة للدراسة الواسعة التى أجريت على شغل أوقات الفراغ فى الإسكندرية لإعداد المؤتمرين السابق ذكرهما اللذين إن دلا على شىء فإنما يدلان على ما تكون عليه الحال فى المنازل الحضرية الأخرى فى البلاد العربية .

وإنه لمن الضرورى الإشارة إلى التقدم السريع الذى حدث فى الإسكندرية وفى القاهرة منذ عقد هذين المؤتمرين والأخذ بالتوصيات التى أقرها هذان المؤتمران .

وقد اتخذ قرار بشأن حقوق الأطفال فى مؤتمر رعاية الطفولة الذى عقد سنة ١٩٤٤ ينص على أن :

١ — لكل طفل الحق فى اللعب .

٢ — لكل طفل الحق فى وقت فراغ مناسب وتسهيلات ترويحية كافية .

٣ — لكل طفل الحق فى طعام مناسب وملابس ومأوى وهواء طلق وأشعة الشمس اللازمة لنموه الطبيعى وتقدمه .

٤ — لكل طفل الحق فى توجيه طاقته بحرية فى أوجه النشاط التى تقتضيها ميوله وتخدم احتياجاته .

٥ — لكل طفل الحق فى تنمية قوته وإمكانياته .

٦ — لكل طفل الحق فى الاشتراك مع الأطفال فى سنه من الجنسين فى مزاولة النشاط الملائم لنموهم .

٧ — لكل طفل الحق فى الإفادة من تجارب العالم المحيط به والمشاركة فى منظمات الطفولة فى مجتمعه .

٨ — لكل طفل — وهو فى دور التكوين ليكون يافعاً — الحق فى التمتع بحرية الفكر والكلام والعمل .

٩ — لكل طفل حق الحصول على التوجيه السليم من قادة أكفاء ذوى خبرة .

١٠ — لكل طفل الحق فى الحصول على الرعاية الكاملة والحماية فى المجتمع والتمتع بمباهج الحياة المادية والثقافية التى تتوارثها الأجيال .

وإن من واجب الوالدين والمسئولين فى الدولة وفى المحيط الأهلى حماية هذه الحقوق والعمل على تمكين الأطفال من ممارستها بصرف النظر عن اللون والجنس والدين والطبقة التى ينتمى الأطفال إليها .

ونستخلص من تقرير مؤتمر المشاكل الاجتماعية الذى عقد فى سنة ١٩٥١ الميثاق الآتى :
نؤمن أن :

١ — لكل شخص الحق فى وقت فراغ مناسب بصرف النظر عن الجنس والسن والطبقة والدين .

٢ — لكل إنسان أن يزاول عمله خلال ساعات محددة ، كما أن له الحق فى أن يتمتع براحة ورياضة كافيتين ويمنح عطلات دورية يأخذ عنها أجرا .

٣ — لكل إنسان الحق فى تمضية وقت فراغه حسبما يراه ملائما له ولكنه ملزم بأن يستخدمه فى نشاط فردى أو جماعى سليم .

٤ — الوالدان والبالغون ملزمون أدبيا بحماية حقوق الأطفال فى اللعب وفى تنمية مداركهم وقواهم ، وأن يحصلوا على توجيه سليم من قادة أكفاء .

٥ — على الجهات الحكومية مسئولية أدبية بتوفير الإمكانيات ومنح التسهيلات اللازمة للعب والثقافة والرياضة فى أوقات الفراغ ومنع كل ما يؤدى إلى الإساءة للناس فى أوقات الفراغ .

٦ ـ الحكومة والأهالى ملزمون أدبيا بالتعاون لحماية وممارسة هذه الحقوق عن طريق سن التشريعات والقوانين وبواسطة كافة الوسائل السليمة الممكنة .

النهضة الحديثة :

إن تطور عقلية الشباب والإيمان بالعدالة الاجتماعية هما فى الحقيقة العاملان البارزان فى تطور النهضة العربية . وإن المواد ١٨ ، ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٣ من دستور الجمهورية المصرية قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة تؤكد حقوق الشباب وتنادى بالرعاية الاجتماعية . وإن إنشاء المجلس الأعلى والمجالس الإقليمية لرعاية الشباب فى الجمهورية . وما لها من سلطة لتنسيق خدمات الوزارات للشباب وتهيئة مشروعات جديدة لهى خطوة هامة فى سبيل النهوض الاجتماعى .

الاتجاهات :

وإنهاء لهذه المقدمة بالنسبة للعرب نقول بحق أنه تحت تأثير العلوم الحديثة والفنون وتأثير القوى التى تشكل الأحداث العالمية أخذت الدول العربية — وهى قديمة تاريخيا ولكنها حديثة العهد بالسياسة — تتجه بسرعة إلى تغيير اجتماعى وأخذت نهضتها تزداد فى كل اتجاه ، وحدثت تطورات ملحوظة فى النواحى الاقتصادية والثقافية والاجتماعية بنجاح . ومن المهم لدراسة النشاط الترويحى فى المجتمع أن نلاحظ الاتجاهات التى تؤثر على حياة المجتمع فى الدول العربية ، فنجد منها :

١ — تطور طرق المعيشة وظروفها .

٢ — التصنيع واستعمال الآلات .

٣ — تقدم وسائل النقل والمواصلات الحديثة .

٤ — الهجرة إلى المدن .

٥ — التخطيط القومى والتشريعات الاجتماعية .

٦ — إصلاح الريف .

٧ — حركة الإصلاح الاجتماعى والرعاية الاجتماعية .

٨ — زيادة الاهتمام برعاية الشباب .

٩ — التوسع فى التعليم ونشر الثقافة .

١٠ — تقدم وسائل الرعاية الصحية .

١١ — استثمار الموارد الطبيعية .

١٢ — التقدم الاقتصادى والعمل على رفع مستوى المعيشة .

١٣ — السرعة فى زيادة عدد السكان بارتفاع نسبة المواليد وانخفاض نسبة الوفيات .

١٤ — تحرير المرأة ومطالبتها بحقوقها السياسية والمساواة الاجتماعية .

١٥ — سرعة انتشار النشاط الترويحى التجارى والسلبى .

١٦ — زيادة الوعى القومى والتعاون العالمى والحياد والتعايش السلمى .

وتوجد كل هذه المقومات بدرجات متفاوتة فى مختلف الدول العربية . ولكن المهم الذى يجب علينا أن نذكره هو أنها وإن كانت تبدو حاليا ضعيفة فى بعض نواحيها فإنها ستكون قوية فى المستقبل القريب لأن الدول العربية سائرة بخطى سريعة فى ركب التقدم . ولكى تصل إلى ماتصبو إليه فإنها فى حاجة إلى عون فنى . إن الأحداث تسير طبيعيا نحو الاتجاهات الآتية :

(ا) إدخال التحسينات التى تتفق مع المصالح والثقافة الوطنية .

(ب) استثمار الموارد الطبيعية بأية مساعدة يمكن الحصول عليها من الخارج .

(ج) رفع مستوى المعيشة بشتى الوسائل الممكنة .

ومن بين المشكلات التى تسترعى أنظار قادة العرب مشكلتان ، هما تحسين الحياة المنزلية وتنظيم المجتمع ، ولذلك فإن البيت العربى والنشاط الترويحى موضوع حيوى هام .

٢ — التخطيط للنشاط الترويحى فى المجتمع

تعريف :

الترويح هو الاشتراك الاختيارى فى نشاط أوقات الفراغ الذى يعطى البهجة والانتعاش ويبنى قوات الإنسان لذلك فهو ضرورة جسمانية كالأكل والعمل والراحة والنوم ، إذ أن جسم الإنسان يحتاج إلى تجديد النشاط .

والعمل والترويح يكمل كل منهما الآخر، فالعمـــل بدون ترويح يؤدى إلى الإجهاد والترويح بدون عمل يفقد معناه .

واللعب هو الظاهرة الغريزية لإبراز الشخصية . فالحيوانات تلعب كما يلعب الآدميون ، وحتى البدائيون لهم أغانيهم ورقصاتهم . لذلك فكل إنسان يحتاج إلى الترويح ، فسكان البادية وسكان الريف وسكان المدينة كلهم يحتاجون لهذا النوع من النشاط الترويحى .

المدنية الحديثة :

إن العلوم الحديثة والفنون قد غيرت البيئة التى يعيش فيها الإنسان . فإدخال الآلات فى وسائل الحياة يسير جنبا إلى جنب مع التطور الذى يحدث فيما تعوده الإنسان . والذى كانت تنتجه الأيدى ببطء فى القرون السالفة تقوم به الآلات بسرعة ووفرة وإتقان .

وزيادة على ذلك فإن عوامل الحياة الطبيعية عند الرحل تميل بهم إلى سكنى الريف ، كما أن سكان الريف ينزحون إلى المدن . وبتعبير آخر فإن كثيراً من الناس يميلون إلى حياة مستقرة هادئة . ونمو الصناعات وتركيز جماعات كبيرة فى الأنحاء المزدحمة من المدن اضطر ملايين من البشر للمعيشة فى ظروف غير ملائمة بعيدا عن البيئة الطبيعية ، وقد أصبح العمل مملا وغير مشوق للعدد المتزايد من الناس . كما أن السرعة المرهقة للأعصاب والضوضاء المثيرة فى حياة الحضر قد سببت توترا فى حساسية الإنسان . ومن ناحية أخرى فإن ساعات فراغ الرجل قد تزايدت وهذا معناه أنه قد أصبح لديه حرية أكبر لاستثمار طاقاته الزائدة حسبما يراه مناسبا .

ورقيق القرون الماضية قد استعيض عنهم بالآلات الآن ، وبذلك تيسر لجمهرة الناس التمتع بوقت فراغ أطول عما كان من قبل . إذن فليس من الغريب أن يكون أحد مظاهر المدنية الحديثة التقدم السريع للترويح التجارى ، فالسينما والراديو والتلفزيون والمسارح وصالات الرقص والنوادى الليلية واحتراف بعض الألعاب وكثير من وسائل التسلية التجارية تمنح ترفيها لملايين البشر وتستنفد أموالا طائلة وأوقاتا طويلة لقاء الترويح التجارى فى كل مكان .

لذلك تتهافت الكتل البشرية باستمرار للحصول على المتعة السلبية ، على أن الترويح التجارى الذى لا يخضع للإشراف

والرقابة قد يضر بالصحة والأخلاق ، بينما الإشراف التام والرقابة على البرامج التى تؤدى إلى أحوال ملائمة قد تجعل من هذا النوع من الترويح أداة ذات أثر فعال فى مقابلة حاجات الناس .

الأهداف :

إن المادة ٢٤ من ميثاق حقوق الإنسان الذى نادت به الأمم المتحدة ينص على أن (لكل إنسان الحق فى الراحة والفراغ وفى تحديد سليم لساعات عمله وفى التمتع بعطلات دورية يأخذ عنها أجراً) .

وكذلك المادة ٢٧ من هذا الميثاق تنص على أن (لكل إنسان الحق فى الاشتراك فى الحياة الثقافية للمجتمع ومزاولة الفنون والمساهمة فى التقدم العلمى والإفادة منه) وهذا يدل على أن الضمير العالمى قد تنبه إلى مزايا الترويح ، والتشريع الاجتماعى وتنظيم أوقات العمل وشروطه يتقدمان بسرعة فى كل دولة ، فالفراغ والترويح حق من حقوق الإنسان ، ولذا فممارسته لهذا الحق تخضع للقيود والمسئوليات الشخصية والاجتماعية .

من حق كل مواطن أن يتمتع بالفراغ والترويح ولكنه مسئول أن يفعل ذلك بطريقة فردية واجتماعية بناءة . وعلى المجتمع أن ينظم وقت الفراغ للترويح ولكن عليه أيضا مسئولية تهيئة الفرص للناس جميعا للتمتع بفوائد هذا الترويح . وخدمة الفرد وخدمة المجتمع متضامنتان ويكمل بعضهما بعضا . ولكن الحرية إذا فقدت الشعور بالمسئولية تؤدى إلى الفوضى .

وربما لا يوجد متسع أكثر حرية من وقت الفراغ لذا فإن اليقظة والشعور بالمسئولية فى هذا الميدان من أهم مايعنى به الفرد والمجتمع . وإن من الظاهر بصفة عامة أن الرياضة إذا نظمت جيدا فإنها تساعد على تربية مواطنين صالحين متمتعين بصحة البدن والعقل وقوة الأخلاق ويمتازون بالنفع والإنتاج . ويمكنها أن تساعد على منع وعلاج الجريمة والعجز والمرض وسوء الخلق والكسل والرذيلة والحوادث وغير ذلك .

ومن الناحية الأخرى فإن الترويح الذى يوكل للصدفة قد يأتى بأضرار للفرد والمجتمع فيجر عليهم نتائج عكسية . وفى النهاية فإن حاجة الناس المتزايدة للترويح تنادى بضرورة استعمال الحكمة فى وضعه وتنظيمه . ووقت فراغ الشخص حيوى لشئونه كوقت عمله تماما . وأن مصادر القوة الإنسانية هى أثمن قوة للدولة . وكل قوى الجماعة والدولة يجب تعبئتها لتمكن المواطنين من الانتفاع بوقت فراغهم عن طريق اشتراكهم فى النشاط المسلى لهم والمثقف للجماعة وبذلك يكون دور الشباب هنا حيويا .

وإن أهم الاعتبارات السابقة يجب أن تفسر بحسب التقاليد القائمة والثقافة والحياة الاجتماعية فى كل بلد عربى والمشروعات الحكيمة تحتاج إلى تحديد وإيضاح للأهداف والغرض هو وضع مشروع لأهداف لها قيمتها .

المساحة الاجتماعية :

ولكى تخطط البرامج الترويحية فى أى جماعة يجب أن تعرف ما يهمها وما هى فى حاجة إليه ثم يوضع مشروع للمستقبل . على أنه من الضرورى أن يوضع برنامج ترويحى معقول لكل فئة .

ومن الموضوعات الهامة التى تحتاج إلى الفحص .

١ ـ دراسة طبوغرافية البيئة التى تعيش فيها الجماعة .

٢ ـ طبيعة السكان وتوزيعهم وتقاليدهم وقيمهم الخلقية .

٣ ـ الأحوال الاقتصادية والاجتماعية .

٤ ـ المناطق التى تزداد فيها نسبة التشرد وتكثر فيها الحوادث .

٥ ـ نشاط أوقات الفراغ للجماعات المختلفة بحسب السن والجنس والمهنة والثقافة، وعاداتهم الشائعة وأنماطهم الثقافية والترويحية .

٦ ـ الساحات الترويحية القائمة والإمكانيات والبرامج والميزانية والقيادة والهيئات الاجتماعية الحكومية والأهلية ومواطن الترويح التجارية .

٧ ـ تقويم حاجة الناس الترويحية والإمكانيات والبرامج والميزانية والقيادة والمنظمات اللازمة لسد هذه الحاجة .

٨ ـ المساهمة المادية والمعنوية لتنظيم وسائل الترويح غير الملائمة والتجارية والمنحرفة .

٩ ـ مقارنة بين مستويات المجتمعات الأخرى .

١٠ ـ هيئات وبرامج تخطيطية للمدينة كالإسكان ووسائل النقل والهيئات الاجتماعية والنهضة الصناعية إلخ .

١١ ـ التعاون بين المؤسسات الاجتماعية وتنسيق الجهود الحكومية والأهلية فى هذا السبيل .

١٢ ـ الرأى العام ومدى استجابته .

غير أن إجراء المساحة الاجتماعية غير كاف لاكتشاف حقيقة الموقف بل من الضرورى أن تبلور هذه الحقائق وتصاغ التوصيات لبرامج قصيرة المدى وأخرى طويلة الأجل للتقدم الاجتماعى . ونشر وتعميم هذه الحقائق فى الصحافة والإذاعة واتخاذ الإجراءات الكفيلة لإبلاغها للمؤسسات المعنية، وكذلك العمل على أن يسهم الأهالى والحكومة فى تحقيق وتنفيذ هذه التوصيات خطوات أساسية للمتابعة اللازمة لتحقيق ما أسفرت عنه المساحة التى تتجلى أهميتها وقيمتها على تنفيذ التوصيات التى تم إعدادها .

المقومات

إن مقومات النشاط الترويحى فى المجتمع هى :ـ

١ ـ الإمكانيات ٢ ـ البرامج ٣ ـ القيادة ٤ ـ الهيئات التى تقوم بإدارتها وتنفيذها .

ولذلك يجب معرفة أن المنظمات الناهضة تحتوى على هذه المقومات :

ا — الإمكانيات :

يوجد تنوع كبير فى الأجهزة اللازمة لتقديم الخدمات الترويحية الملائمة للمجتمع . وتختلف مقدرة ودرجات هذه الأجهزة بتطور البلدان المختلفة . لكنها على العموم لها مقومات وعناصر خاصة . وقد سجل (جورج د . بتلر) فى كتابة « الساحات الترويحية تصميمها وأجهزتها » نتيجة لدراسة كاملة قام بها على عدة أنواع من النشاط الترويحى تقوم به المجالس البلدية والنسب المختلفة للأماكن الفضاء والمبانى . وتعتبر هذه الدراسة مرشدا طيبا لهؤلاء الذين تقع عليهم مسئولية النشاط الترويحى للمجتمع . وفى كل مجتمع يلزم — حسب أصول تخطيط المدن الحديثة — فدان من المتنزهات العامة والساحات الترويحية لكل مائة من السكان . أما المدن التى يقل عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة فإنه يلزم أكثر من فدان لكل مائة فرد لإيجاد إمكانيات ترويحية كافية . وكقاعدة عامة يجب ألا تبعد الملاعب أو الساحات أكثر من نصف ميل عن محل إقامة من يستعملونها .

إن نظم الترويح فى المجتمعات الحديثة تستلزم أن توفر البلديات هذه الإمكانيات :

١ — مسطحات اللعب :

وتختلف مساحاتها من ١٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ قدم مربع على أن تكون سهلة المنال للأسر التى تسكن قريبا منها بالمدينة وأن تحتوى على أجهزة بسيطة وأماكن للجرى والألعاب ومظلات ومقاعد للأمهات . . . الخ .

٢ — الملاعب الخاصة بالمناطق :

وتستخدم مركزا للعب أهالى المنطقة، وهى تخدم الأطفال قبل السن المدرسى كما تخدم الشباب والكبار . وتخدم على الأخص الأطفال من سن ٦ إلى ١٤ سنة وتحتوى مبانيها على : صالة اجتماعات — صالة ألعاب — صالة ترويح — مكتبة — حجرات للنادى — حجرات للصناعات اليدوية — حجرات للألعاب الداخلية — حوض سباحة — صالة جلوس — وتسليات أخرى .

والقاعدة العامة لإيجاد المساحة اللازمة لهذه الألعاب هى إعداد فدان لكل ٨٠٠ نسمة، والأساس الذى يمكن اقتراحه لمساحة هذه الملاعب هو :

عدد الأشخاص	المساحة
٢٠٠٠ نسمة	٣ر٢٥ فدان
٣٠٠٠ »	٤ »
٤٠٠٠ »	٥ »
٥٠٠٠ »	٦ »

وبالرجوع إلى « بتلر » نجد أن الأقسام المنفصلة للملاعب الخاصة بالمناطق تشمل :

القسم	المساحة بالقدم المربع
المساحة الخاصة بالأطفال قبل سن المدارس	٥٠٠٠
مساحة الأجهزة	٤٠٠٠
« حوض السباحة	٥٠٠٠
مساحة الملاعب المفتوحة	١٠٠٠٠
مساحة ممهدة لأغراض متعددة	٢٠٠٠٠
« الملاعب	١٢٠٠٠٠
« الصناعات اليدوية والنشاط الهادىء	٦٠٠٠
« لكبار السن	٣٠٠٠
« مظللة	٤٠٠٠
« خلوية	١٠٠٠٠
المجموع	١٨٧٠٠٠

أما أقل مستوى للأجهزة اللازمة التى تنصح بها الجمعية الأهلية للترويح بالولايات المتحدة فهى :

(ا) للأطفال قبل سن المدارس (تحت ٦ سنوات) :

عدد		عدد	
٦	أراجيح	١	حوض رمل
١	زلاقة صغيرة	١	جهاز تسلق منخفض بسيط

(ب) الأولاد فى سن المدارس الأبتدائية (من سن ٦ إلى ١٢ سنة) :

عدد		عدد	
٦	أراجيح أرتفاع ١٢ قدما	٦	زلاقات أرتفاع ٨ أقدام وطول ١٦ قدما
١	سلم متوازى	١	القفز الطويل
١	زانة للتوازن	١	متوازيان

واختيارى . . — أطواق للجرى ٣ — ٤ أراجيح

١ جهاز تسلق منخفض

وتوجد أجهزة أخرى فى الملاعب الكبرى وهى :

١ العقلة ١ أرجوحة دائرية الخ . . .

٣ — الملاعب الكبيرة :

وهى أكبر من الملاعب العادية . وتعطى إمكانيات ترويحية أكبر للشباب واليافعين . وتحتوى على قسم يستخدم ملعبا للأطفال . وتخدم عادة منطقة تحتوى أربعة ملاعب عادية . وتختلف مساحتها بين ١٢ ، ٢٠ فدانا . والمساحة التى ينصح بها هى فدان واحد لكل ٨٠٠ نسمة . ويستحسن أن يشتمل الملعب الكبير على الأقسام التالية :

القسم	المساحة بالفدان	القسم	المساحة بالفدان
ملاعب الأطفال	٢	ساحات اللعب	١
ملاعب الرجال	٥	ملاعب السيدات والآنسات	٣
ملاعب مزروعة نجيلا	١	حمام سباحة	½
المبانى	½	أماكن خاصة لأغراض أخرى	١
مساحة خلوية	١	ما قبله	٩½
المجموع	٩½		١٥

٤ — الحدائق العامة :

لكى تكون الحديقة العامة متنزها ملائما يجب ألا تقل مساحتها عن مائة فدان . وكل قسم من الأقسام الرئيسية فى المدينة يجب أن يحتوى على متنزه لكل ٥٠ ألف نسمة . وكقاعدة عامة فإنه فى كل مجتمع يجب أن يوجد متنزه عام مساحته فدان واحد لكل ألف شخص .

٥ — الساحات الخارجية عن المدينة :

يختار خارج المدينة أرض تطل على مناظر طبيعية مساحتها حوالى ألف فدان أو أكثر وتخصص للنشاط الترويحى مثل المخيمات الليلية والرحلات القصيرة والدراسات على الطبيعة والمعسكرات وأنواع الرياضة . . . الخ . وتجهز بمظلات ومراكز خدمة ووسائل أخرى لكى تفى بالغرض .

٦ — الإمكانيات الرياضية الخاصة :

وبعض هذه الامكانيات الخاصة هى :

(ا) إعداد شواطىء البحيرات والأنهار والبحر لكى تكون صالحة لراغبى الاستحمام .

(ب) حمامات سباحة بنسبة واحد لكل ٥٠ ألف من السكان .

(ج) ملاعب — استادات — وتشمل عادة حلبات للجرى وملعب لكرة القدم وساحات لألعاب أخرى ومدرجات لجلوس النظارة وحجرات . . . . الخ ، ويلزم من ١٠ إلى ١٢ فدانا للاستاد (الملعب الكبير أو العام) .

(د) ملاعب الجولف ومكانها عادة خارج المدينة وتحتاج لمساحة ٥٠ فدانا فأكثر .

(هـ) أماكن للمعسكرات الدائمة وتحتاج لمساحة ٢٠ فدانا فأكثر . وتجهز بجميع الإمكانيات الضرورية ومكان المعسكر هام جدا . وإن مظاهر الطبيعة من شمس وهواء وبحر ورمال وسماء يجب أن تتوافر فى هذا المكان مع توافر عامل الأمن والطمأنينه .

(و) توفير سبل النزهات البحرية والتجديف وصيد السمك وصيد الطيور .

(ز) حديقه الحيوان وحدائق الزينة والتشجير .

(ح) مسارح خلوية .

(ط) استرادات للموسيقى .

(ى) مركز اجتماعى يشمل — صالة ألعاب لكل ٢٥ ألف ، صالة اجتماعات لكل ١٠ آلاف ، حجرات (واحدة لكل ٥ آلاف) .

(ك) متاحف — معارض للفن — مكتبات .

(ل) منشآت أخرى .

وإنه لمن الضرورى جدا أن نلاحظ أهمية قواعد التصميم المعمارى والهندسى فى الساحات الرياضية ومنشآتها وصيانتها . ووضع الفكرة الصائبة يجب أن يشمل الترتيب والصرف والتسوية والتسوير والإنارة والتجميل ومورد المياه وإعداد المدخل المناسب والمخارج والممرات .

وزيادة على ذلك فإن الغرض الأساسى من وسائل الترويح هو مقدار فائدتها . والقاعدة هو وجوب الحصول على أكبر الفوائد بأقل التكاليف . والتخطيط السليم يضع فى الاعتبار المشاكل التى قد تنشأ فى الإعداد والإشراف والأمن وتنظيم الخدمات بحيث تقابل كافة احتياجات الناس .

(ب) النشاط والبرامج :

إن حاجات الإنسان وميوله واسعه المدى لذا يجب أن تضاعف طرق إشباع هذه الميول والرغبات حيث نجد أن النشاط الترويحى لشغل أوقات الفراغ ينمو ويزداد على مر الزمن ويكون فى وقتنا الحاضر جزءا حيويا فى حياة المجتمعات الحديثة . ويمكن تقسيم أوجه النشاط هذه إلى ما يأتى :

١ ـ نشاط رياضى : ألعاب فردية ـ ألعاب جماعية ـ ألعاب مائية ـ الرياضية البدنية ـ حركات بهلوانية ـ ألعاب صعبة ـ ألعاب توقيعية ... إلخ

٢ ـ نشاط تمثيلى : مهرجانات ـ تمثيليات مضحكة ـ حفلات التنكر ـ سينما ـ تمثيل دراما و كوميدى ـ قصص ... إلخ

٣ ـ نشاط موسيقى : موسيقى بالفم ـ موسيقى آلية ـ فرق غناء ـ فرق أوبريت ـ جوقات موسيقى ـ فرق باليه رقص شعبى ـ رقص اجتماعى ... الخ

٤ ـ نشاط اجتماعى : الحفلات ـ اجتماعيات ـ احتفالات الأعياد ـ ألعاب اجتماعية ـ ألعاب المائدة ... إلخ

٥ ـ نشاط خارجى : الرحلات ـ السير على الأقدام ـ النزهات ـ المعسكرات ـ صيد الأسماك ـ صيد الطيور ـ فلاحة البساتين ـ دراسة الطبيعة ـ السفر ... إلخ

٦ ـ نشاط ثقافى : محاضرات ـ مناظرات ـ مناقشات ـ إجتماعيات ـ حلقات ـ دراسات جماعية ـ القراءة ـ الكتابة ـ الإلقاء ـ البحث ... إلخ

٧ ـ الجمع : للكتب ـ للوحات ـ للطوابع ـ للعملات ـ للفخار ـ للعاديات ... إلخ .

٨ ـ الحرف والفنون : الرسم ـ الرسم بالألوان ـ النحت ـ الحفر ـ الميكانيكا ـ صناعة المعادن ـ صناعة الورق صناعة الجلود ـ النجارة ـ التطريز ـ أشغال كهربائية ... إلخ

٩ ـ نشاط دينى : الاحتفالات الدينية ـ التأمل ـ الطقوس الدينية ... إلخ .

١٠ ـ نشاط للخدمة العامة : الخدمات الاجتماعية ـ عمل اللجان ـ قيادة الجماعات ـ التنقيف ـ التعليم ـ التدريب ـ التطوع لمختلف الخدمات ... إلخ .

ويمكن أن يتضمن أى برنامج ترفيهى أحد أوجه النشاط السابق ذكرها وحده أو مضافا إلى ثان أو أكثر . كما يمكن مضاعفتها بأوجه نشاط أخرى لم ترد . ويمكن حصر هذه البرامج إجمالا فى أربعة أنواع هى:

١ ـ برامج منظمة لاتهدف إلى الربح تنفذها هيئات حكومية أو هيئات اجتماعية أهلية .

٢ ـ برامج خاصة لاتهدف إلى الربح تنفذ فى المنازل وفى أماكن اجتماعات خاصة بواسطة أفراد أو جماعات .

٣ ـ برامج منظمة تهدف إلى الربح تنفذها مؤسسات تجارية .

٤ ـ برامج خاصة تهدف إلى الربح تنفذها جماعات متنقلة محترفة .

وتعتبر هذه البرامج الأربعة ضرورية لحياة أى مجتمع وتحتاج للدراسة والتقويم المستمرين . لأن الذى يحدد مدى الخدمات التى تقدمها البرامج لخدمة الفرد أو الجماعة هى درجة اشتراك الفرد أو الجماعة فيها ومدى ما يلحقهم منها من فائدة أو ضرر . وبالتجارب الطويلة وتطور الزمن أمكن تحديد هذه المبادىء الهامة التى يجب أن تراعى عند تخطيط البرنامج :

١ ـ وضع البرامج الملائمة لجميع الأعمار والطبقات .

٢ ـ تنظيم البرامج على مدار السنة مع التغيير الموسمى المناسب

٣ ـ توافق النشاط مع السن والجنس والميول والكفايات والمواهب والمقدرة والثقافة والمهنة والحالة الاقتصادية والحالة الشخصية والاجتماعية .

٤ ـ توازن البرامج بالنسبة إلى :

ا) النوع ب) داخلية وخارجية ج) للجنس الواحد أو للجنسين د) فردية وجماعية هـ) الإيجابية والسلبية و) تعاونية وتنافسية ز) رسمية وغير رسمية ح) عامة وذات عرض محدد ط) متجاوبة مع القيم الشخصية والاجتماعية .. إلخ .

٥ ـ برامج مشتركة تعاونية بين الجماعة والمؤسسة والمجتمع .

٦ ـ تنفيذ البرامج فى جو اجتماعى سليم وظروف صحية مأمونة.

٧ ـ تنسيق البرامج فى المجتمع وتجنب تعارضها .

٨ ـ تشجيع مساهمة وتعاون العائلات والمدارس والمنظمات الاجتماعية والمؤسسات الدينية والبيوتات التجارية والصناعية والهيئات الحكومية . . . الخ .

٩ ـ تقويم البرامج ووسائلها تقويما دوريا .

١٠ ـ توفير الإشراف السليم والقيادة الحكيمة .

١١ ـ القيادة المدربة .

١٢ ـ الاحتفاظ بسجلات صحيحة واستخدامها .

والقائد الناجح هو الذى يستطيع أن يضع برامج ناجحة ، والاستفادة الواعية بالإمكانيات الموجودة تتوقف إلى حد كبير على القيادة .

جـ ـ القيادة والهيئات :

القيادة ـ يتوقف نوع الترويح الجماعى فى المجتمع إلى حد كبير على القيادة . فإذا أعددنا القادة الصالحين المؤمنين برسالتهم القادرين على الابتكار أصبح النجاح مؤكدا، وإلا فإن البرامج والإمكانيات لاتكون ذات أثر مهما كانت ممتازة . وإن مهندسى الترويح الجماعى محترفين كانوا أوهواة هم قادته الذين يتوقف نجاحهم أكثر ما يتوقف على ما نالوه من تدريب .

ولسوء الحظ إن المشكلة التى تواجه الكثيرين هى أن الشائع بين الناس هو أن المبانى هى التى توحى بالبرامج وأن البرامج تخلق آليا . ونتيجة لذلك نجد أنه بينما يبذل جهد كبير للحصول على أجهزة وأدوات ذات مظهر جذاب تجد أن أهم الأشياء مهملة كالقيادة والميزانيات الكافية . وإن مأساة عدم الانتفاع بالمتنزهات والملاعب والأندية معروفة جيدا للجميع .

وقد يوجد المال اللازم للمنشآت ويهمل الغرض الأساسى الذى أنشئت من أجله الأمكنة، وقد يضحى بفوائد لايمكن تقديرها على مذبح بعض المظاهر الرمزية . ويقابل هذا بطبيعة الحال الاتجاه الخطأ الذى يقلل من تقدير حاجة القادة الممتازين إلى إمكانيات حديثة يعملون بها ، لذلك فإن كلا الاتجاهين خطأ .

وهناك اتجاه آخر خطأ وشائع هو أن الترويح فى المجتمع من عمل المتطوعين ، ولهذا كثيرا مانجد بعض أندية الدرجة الأولى ينقصها قادة محترفون للاشراف عليها كما نجد استادا رياضيا ممتازا بدون موظفين مؤهلين وبدون ميزانية كافية لتنظيم البرامج .

ولهذا نجد أن مشكلة الترويح فى المجتمع ليست عدم كفاية الموارد والإمكانيات والبرامج فقط بل هى أيضا عدم إمكان الاستفادة التامة من المبالغ المخصصة للحصول على نتيجة لها أثرها مهما قلت الأجهزة ، ومازالت فكرة الحاجة إلى وجود موظف خاص طول الوقت كقائد للأعمال الترويحية لكل ٨٠٠٠ فرد لاتقابل بالترحيب الكافى ومن هذا يتضح ضرورة تدريب مستويين من القادة :

(ا) أفراد ذوو مؤهلات ومحترفون لمختلف المستويات التى تحتاج لوظائف قادة للترويح مثل المشرفين والمديرين والمدربين وقادة الألعاب والمنظمين والمتخصصين . . الخ

(ب) متطوعون ذوو خبرة وتدريب كافيين للعمل فى اللجان ومراكز القيادة كقادة الجماعات والمستشارين والموجهين والتدريب على أعمال القيادة عملية تربوية مستمرة وجميع طرق التدريب فى الخدمة وخارجها يجب أن يستفاد منها .

الهيئات ـ تتركز أعمال الترويح فى المجتمع فى هيئات الترويح حكومية أو أهلية متطوعة . ولما كان تأثير الهيئة يتوقف على عملية التنظيم الإدارى لها فإن أهم أعمال هذا النوع من التنظيم هى :

(أ) تبيان الأهداف والوسائل بوضوح تام .

(ب) إيجاد الخدمات ذات الأثر الفعال .

(ج) تخطيط وتنفيذ وتقويم المشروعات .

(د) رسم السياسات وإيجاد المتسويات .

(هـ) توفير وتدريب القيادة القديرة .

(و) تنظيم وتنشيط موارد الهيئة من خامات وأفكار صالحة .

(ز) تنمية روح الجماعة وتقوية العلاقات العامة .

(ح) تنظيم الجهود وتنسيقها .

(ط) التعاون مع الهيئات الأخرى .

(ى) الاحتفاظ بسجلات دقيقة والاستفادة منها .. ألخ

ولايمكن لأية هيئة أن تتجاهل ما يجب عليها من أعمال تنظيمية . وتوجد أنواع أربعة من الهيئات التى تعمل فى هذا الميدان وهى :

١ ـ هيئات حكومية ـ كالإدارات المختلفة بالبلديات والوزارات التى توجه وتدير مختلف مجالس الإدارة وأعمال المنظمات الاجتماعية والخدمات العامة . وتمول كل هذه الهيئات عن طريق الضرائب . وتنادى أحدث النظريات بأن الخدمات الترويحية التى تعتمد على التمويل من الضرائب يجب أن يقدر لها جنيه مصرى واحد لكل فرد فى السنة . وإذا لم يتيسر إيجاد المال للصرف على الترويح للمجتمع فإنه يجب على الهيئات اتخاذ اللازم لعمل اكتتابات لزيادة الدخل وفرض ضرائب إضافية عند الضرورة لإمكان تزويد الهيئة بالإمكانيات والبرامج والقيادة .

والسؤال الآن هو هل الهيئات تعمل ذلك ؟ ومالم يكن هناك هيئة عامة للترويح فى المجتمع ومالم تكن الخدمات الترويحية من أهم عناصر تخطيط المدن وخدماتها وتحسين مشروعاتها فلن يتحسن الموقف . وإنه ليوجد الكثير من الاحتياجات الواجب عملها فى البلاد العربية تجاه هذه الناحية .

٢ ـ هيئات اجتماعية أهلية : كأندية الصبيان ـ الكشافة للفتيان والمرشدات للفتيات ـ الأندية الخاصة ـ الأندية الاجتماعية والرياضية ـ مراكز رعاية الشباب ـ جمعيات الفنون ـ وغيرها من المنظمات .

والمجهودات الفردية ومشاركة الأهالى فى تحمل مسئولية الترويح فى المجتمع هامة جدا فى تنميته . وإن عقلية الجمهور المستنيرة ورغبته فى تحمل المسئولية تمكن هذه المنظمات من القيام بمساهمة فعالة فى رفاهية المجتمع وكذلك التعاون والصداقة بين الهيئات العامة والخاصة لازمة كى يكون للخدمات أثرها الفعال .

كما أن هيئات المتطوعين يمكنها أن تقوم بدور كبير فى تعاون البيوت والمدارس والمؤسسات الدينية والاقتصادية وكذلك الجرائد والإذاعة لاستثارة الرأى العام والمجتمع لمعرفة حاجته للناحية الترويحية بتنظيم جهود جميع هذه الهيئات وحتى يمكن للهيئات الخاصة أن تحسن خدماتها للمجتمع يجب أن تتبع الأساليب الحديثة وترتفع ببرامجها وقياداتها وإدارتها .

كما أنه مما يحتاج إلى أن نذكره هو أن للمدارس دور كبير فى غرس بذور الترويح فى المجتمع . وما لم تتحسن البرامج الترويحية بالمدارس فإن غالبية الشباب سيشبون مفتقرين إلى الروح الرياضية وعادات الترويح السليم والمهارات . ومهما فعلت الهيئات الأهلية والعامة فى هذا السبيل فإنها تعتمد على حد كبير على ما تقدمه المدارس من برامج الترويح والنشاط المدرسى .

ومن الحقائق المؤسفة فى بعض البلاد العربية أنه بينما ٥٠ ٪ من شباب الحضر يذهبون للمدارس فإن نسبة ضئيلة منهم هى التى تستفيد مما تقدم مؤسسات الترويح عندما يتركون مدارسهم . وعند حالة الشباب خارج المدارس أسوأ . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن العدد من الطلبة والطالبات الذى يمكنه الاشتراك فى برامج المدرسة الترويحية ونشاطها قليل جدا لأن المدارس مزدحمة وإمكانياتها ضئيلة . وهناك عامل آخر يرجع إليه افتقار الدول العربية إلى النواحى الترويحية وهو انخفاض مستوى المعيشة مما يجعل الغالبية العظمى من السكان لاتستطيع أن تهيىء لأطفالها الترويح اللازم الذى يجب أن يتمتعوا به منذ صغرهم . وبذلك يكون علاج هذه المشكلة هو رفع الحالة الاجتماعية والاقتصادية للأسر المنخفضة الدخل وتقديم وسائل الترويح الكافية للمنازل والمدارس التى بغيرها ستظل الهيئات الخاصة والجمهور لمدة طويلة لاينعم فيها بالترويح سوى فئة قليلة من المحظوظين الذين يشتركون فى برامج الترويح بمحض اختيارهم حيث لا يوجد إجبار لأحد على الإقبال على هذا النوع من النشاط . وما لم يتعود المواطنون من صغرهم على تقدير قيمة الترويح فإنه لا يوجد ما يبشر بتغيير عاداتهم على مر السنين .

٣ — مؤسسات الترويح التجارية :

إن ازدهار أماكن الترويح التجارية واستغلالها يعتبر مشكلة محيرة جدا فى الواقع ويظهر أن الترويح الإيجابى لا يقاوم بين جماهير الشعب حتى أن ذوى الدخل المنخفض وبخاصة الشباب يصرفون أموالهم بسرعة للتسلية فى دور السينما والكباريهات والنوادى الليلية والمقاهى والبارات والمسارح . وإن اشتياقهم لهذا الترويح تشبعه المؤسسات التجارية أكثر من الهيئات الاجتماعية . ومن الصعب تقدير مدى تقدم الترويح التجارى وزيادة على ذلك فإن كثيرا منها يصادف الاحتياجات الحقيقية ، ولكن الذى يجب عمله هو الإشراف عليه ورقابته حتى لا يكون مهدرا للقيم الأخلاقية . والخطوة الطبيعية هى أن نقدم للجمهور ترفيها مسليا ومفيدا قليل الكلفة مما يبنى لهم صحتهم وسعادتهم وأخلاقهم . وحل مشكلة الترويح التجارى هو إعداد برامج ترويحية جيدة قليلة التكلفة .

٤ — الترويح الحر :

للناس طرقهم الطبيعية للترويح عن أنفسهم . وفى كل مجتمع نجد كثيرا من النواحى الترويحية الخاصة تقام

فى المنازل والأماكن المفتوحة وفى نواصى الشوارع والأماكن العامة والحدائق والخلاء . ومعظم هذا الترويح مفيد فى بعض الأحيان إلا أن جزءا كبيرا منه قد يكون ضارا . ولبعض هذا الترويح الحر طبيعته التى تهدف إلى الربح وبعضه يسير لخدمة الغرض المهيأ له كما أن بعضه جماعى وبعضه فردى وإنما المهم على أى حال هو أن نميز وجود مختلف أنواع الترويح ونشجع النواحى الحسنة ونتجنب الضار منها .

وطريقة واحدة لتقوية الترويح الجماعى وهى توصيل خدماته ونشاط الصالح منه للمنازل والمدارس والتجارة والصناعة وأينما توجد تجمعات الناس للحصول على التسلية واللهو البرىء . وهذه الطريقة تفيد بالأخص فى البلاد العربية حيث الناس اجتماعيون بفطرتهم . والميل للتسلية الخاصة وكرم الضيافة قوى فيهم . وتعتبر هذه إحدى الطرق للتغلب على حب التحيز ضد المنشآت العامة والأندية . وإن توصيل الترويح إليهم بدلا من ذهابهم إليه قد يكون أول خطوة لخدمة رغباتهم .

(د) السلطة المشرفة على الترويح :

إن لمؤسسات الترويح القائمة فرصا محددة لتحسين خدماتها إذا لم تكن خطط الترفيه ومشروعاتها منظمة جيدا على المستويات المحلية والإقليمية العامة . لذا من الضرورى أن تنشأ سلطة عليا للترويح وبتعاونها مع مجالس الإدارات الإقليمية والمحلية للترويح يمكنها مسح ووضع الخطة وإدارة وتنفيذ الخدمات الترويحية لجميع المجتمعات .

ولكى نعمل على إيجاد الترويح الملائم فى البيت العربى يجب أن يعمل بحث عن نواحى الترويح وعاداته وحاجات المجتمعات العربية صحراوية وريفية وحضرية إلى مختلف أنواع الترويح ومستوياته .

خاتمة :

إن تطلع الشعب العربى إلى حريته فى تقرير مصيره والنهضة الاجتماعية له، لها جذورها العميقة فى الثقافة الفنية التى اكتسبها من ماضيه . والمدنية العربية نضجت فى نفس المناطق التى يقطنونها اليوم . ونفس المناطق كانت أيضا عهد المدنيات الإنسانية القديمة، ولذلك فالنهوض بالموارد المادية والروحية فى المجتمعات العربية تعتبر كسبا للبشرية كلها . وميدان الترفيه جزء هام من هذه النهضة العربية .

فالنهضة العربية تستطيع أن تستلهم الوحى والقوة من النشاط الترويحى ، والأمة العربية والمجتمعات العربية عليها أن تنظم هذا النوع من النشاط .

الوصايا العشر للترويح

١ — كل إنسان محتاج للترويح .
٢ — لكل إنسان الحق فى الترويح .

٣ — الاشتراك الفعلى فى النشاط الترويحى أفضل من مجرد المشاهدة .

٤ — العادات الطيبة فى الترويح تنشأ من الصغر وتنمو مع تقدم العمر .

٥ — العمل والترويح يكمل بعضهما بعضا .

٦ — مصالح الفرد والصالح العام هما ثمرة النشاط الترويحى المنظم فى المجتمع .

٧ — الواجب الاجتماعى للمواطن هو أن يشترك فى نشاط الترويح البناء .

٨ — واجب المجتمع أن يهيىء للجميع على السواء إمكانيات وبرامج كافية للترويح السليم .

٩ — واجب البيت والمدرسة والمجتمع والدولة أن تتعاون فى سد احتياجات المواطنين للترويح .

١٠ — النشاط الترويحى فى المجتمع جزء هام من تنظيم هذا المجتمع .

التثقيف الروحى وأثره فى البيت العربى بليبيا

للأستاذ الشيخ عبد السلام محمد خليل

(المملكة الليبية المتحدة)

تمهيد :

بدأ العرب منذ فجر الإسلام الأول يتدفقون على هذا الوطن مهاجرين أو فاتحين ، فى موجات كبيرة متعاقبة ، وعلى فترات زمنية مختلفة ، واستوطنت قبائل عربية كثيرة نازحة من مختلف أنحاء الجزيرة الأقسام الوسطى والشمالية من ليبيا ، حيث كانت تتوافر أسباب العيش ، وعوامل الاستقرار ، واستتبع ذلك أن جلا معظم السكان الأصليين من البربر إلى بلاد المغرب ، فامتهدوا جهات متفرقة ، واعتصم بعض منهم بالمناطق الجبلية والصحراوية بليبيا ، حفاظا على الكيان الذاتى لشخصيتهم ، والمقومات الأساسية لحياتهم من التلاشى فى غمار الفاتحين ، بينما آثر البعض الآخر أن يندمجوا فى العنصر الفاتح ، يأخذون منه كل شىء ، ولم يلبث هؤلاء أن انصهروا فى بوتقة الأغلبية الساحقة من العرب ، وذابوا فى محيطها الكبير كما تذوب الفقاقيع التى تطفو على سطح الماء .

ومن هذه السطور القليلة يبدو جليا أن الشعب الليبى شعب عربى أصيل ، نسله العرب الفاتحون وإخوانهم الذين وفدوا فى أعقاب الفتوح مهاجرين ، واتخذوا هذه الديار مستقرا ومقاما ، وهكذا ورث الليبيون عن آبائهم الدم العربى النبيل ، كما ورثوا الدين الإسلامى الحنيف نورا فى قلوبهم ، ودستورا يستهدون به فى حياتهم .

ونجتزىء فى التدليل على عروبة ليبيا ، فضلا عن الشواهد التاريخية المتضافرة ، بهذا الطابع العام الذى يميز شخصيتها ، من ملامح ظاهرية وخصائص ومقومات جوهرية وتقاليد نبيلة وأخلاق عربية أصيلة ، وكلها تنطق بأن هذا الشعب غصن عريق من دوحة العروبة الباسقة ، ومع أن أغلب سكان الوطن الليبى ، منذ الفتح حتى الآن يعتبرون مسلمين بالفطرة لأنهم رضعوا الدين من صدور أمهاتهم المسلمات ، واستوحوا مبادئه المقدسة من آبائهم أو مرشديهم بالتعليم والتوجيه والتقليد والاحتذاء ، إلا أن الإسلام لم يستأثر بالتربية الخلقية والتثقيف الروحى فى ليبيا ، ولم يكن مستقلا فى توجيه البيت العربى الليبى الوجهة الدينية الصحيحة كما يجب أن يكون ، لأن ما تزخر به البيئة الليبية من رواسب الخرافات والاعتقادات البالية المتبقية من آثار العصور البدائية ، وما خلفته العهود الاستعمارية المظلمة من تركات الجهالة والرجعية ، وعوامل التأخر والارتكاس والجمود ، وألوان الشقاء الاجتماعى ومما حمله الغزاة إلى ليبيا فى مختلف العصور من مفاسد شعوبهم وأمراضها المتأصلة وعاداتها المستهجنة ومظاهر تخلفها وانحطاطها كل ذلك كان له أبعد الأثر فى انحراف سير التثقيف الروحى عن المنهاج السوى ، ومجافاته روح التعاليم الإسلامية

الحقة والتطور الفكرى والحضارى ولا سيما فى البوادى والأرياف التى لم تتح لسكانها فرص التعليم الصحيح على نطاق واسع كما هو الشأن بالنسبة لسكان المدن الرئيسية .

وهكذا اتخذ هذا النوع من التربية الروحية أشكالا وصورا كثيرة متنوعة منها الحسن المقبول ومنها ما عكس ظلالا من الرجعية والشلل العقلى على طريقة تفكير الأفراد غير المثقفين وحقيقة نظرتهم إلى الحياة وعلاجهم لمشاكلهم المختلفة وصبغ بعض النواحى من سلوكهم بصبغة بدائية جامدة يمجها منطق الحياة ولا توائم طبيعة العصر .

عوامل التثقيف الروحى وأثره فى البيت العربى الليبى

وسأحاول فى هذا البحث استعراض العوامل التى يتأثر بها التثقيف الروحى ، ومدى انعكاساتها على البيت فى ليبيا ملما بجوانبها المشرقة والمظلمة ، ومما تحدثه من أثر فى الجانب النفسى والخلقى من حياة الأفراد ، وتوجيه سلوكهم نحو الخير أو الشر ، والتقدمية أو الرجعية ، ومن أبرز هذه العوامل الكتاتيب القرآنية . والمعاهد الدينية . والطرق والزوايا والأولياء والصالحون ، والمشعوذون والعرافون ؛ والاعتقادات والعادات الموروثة .

الكتاتيب القرآنية :

يوجد بليبيا نحو ثمانمائة كتاب أهلى لتعليم القرآن الكريم متفرقة فى جميع أنحاء المملكة طبقا للإحصائيات المستفادة من المراقبة العامة للمدارس القرآنية بولاية طرابلس الغرب ، والإقبال على هذه الكتاتيب كبير إلى حد يثير الدهشة ويبعث على السرور ، فقد يبلغ عدد الطلاب المنتسبين إلى هذه الكتاتيب عشرين ألفا فى بعض الأحيان غير أن هذا العدد بين مد وجزر دائما ، فهو يتضاءل ويتقلص إلى حد كبير خلال الموسم الدراسى ويعود إلى الصعود والارتفاع والتضخم أثناء العطلة الصيفية ، ولكن التعليم فى هذه الكتاتيب يسير على طريقة عتيقة وخالية من عنصر التهذيب والتوجيه الصالح والتربية الإسلامية الفاضلة مما يجعلها بطيئة النتائج بعيدة الثمرات ، إذ أن الطالب يلتحق بالكتاب فى سن الطفولة ، ويبرحه شابا مكتمل الرجولة ، وهو زمن طويل جدا يتراوح فى الغالب بين عشرة وخمسة عشر عاما ، فى حين أنه من الميسور ضغط هذه المدة الطويلة فى سنوات قليلة قد لا تتجاوز العامين أو الثلاثة على أكبر تقدير ، يلم التلميذ فى غضونها بحفظ القرآن الكريم ، وفهم مجمل معانيه السامية ، ولا يستدعى تحقيق هذا النجاح الباهر إلا رسم مناهج عصرية جديدة للكتاتيب القرآنية تتوخى أحدث الأساليب التربوية ، وبناط التعليم فيها بمدرسين ممتازين أعدوا خصيصا لهذا الغرض النبيل ، ولا يوجد من المدارس القرآنية التى تشرف عليها إدارات التعليم الرسمية الإثمانية فقط ، وحتى هـــذا العدد القليل يعوزه المدرسون الأكفاء ، وكثير من عناصر التنسيق والنظام ، ولا تمتاز هذه المدارس عن الكتاتيب الأهلية إلا بأقسامها الداخلية التى تضمن لطلابها القليلين الغذاء والكساء والمأوى ، مما جعلها غير قادرة على النهوض برسالتها المقدسة كما ينبغى أن تكون ، والليبيون جميعا ، سواء أكانوا من سكان المدينة أو القرية أو البادية ، ينظرون إلى القرآن الكريم نظرة إكبار وتعظيم ، ويتجلى ذلك واضحا فى مبادرتهم بإرسال أبنائهم منذ الطفولة الباكرة إلى الكتاتيب ليستظهروا القرآن بالحفظ ،

أو يلموا بجزء كبير منه، وهم يؤمنون إيمانا عميقا بأن تعليم أولادهم كتاب الله أمر يبارك أعمالهم وآجالهم ، وينمى أرزاقهم، ويعينهم على مجابهة تكاليف الحياة وتفادى ويلاتها، كما يعمدون إلى اقتناء المصاحف فى بيوتهم أوخيامهم، معتقدين أن ذلك يجلب الخير واليمن ، ويدفع الشر والبلاء ويمنع دخول الشياطين ، وكثير من الليبيين يزينون جدران منازلهم بإطارات أنيقة تحوى آيات شريفة مكتوبة بخط عربى جميل ، ويرقون بالآيات القرآنية المصدوع والملسوع والمصروع ، وغيرهم من المصابين ، مؤمنين بأن ذلك يشفى سقم المريض أو يخفف آلامه ، وهو لون من الطب السائد فى البلاد الليبية وخاصة فى الأوساط النسائية وبين العامة من الناس ، وما إلى هذا كله من مظاهر التيمن والتقديس ، التى لا تعدو فى رأيى أن تكون تقليدا موروثا وعادة متبعة ، لأنها أمور شكلية ظاهرية فقط لاتقترن فى أغلب البيوت الليبية بالاستجابة العميقة الصادقة لمدلولات تلك المصاحف المباركة ومضمون هذه الآيات الكريمة التى تزدان بها الجدران ، فتصرفات القوم ، ومعظم نواحى سلوكهم لا تنسجم مع روح القرآن ، ومنهج القرآن ، والنور الذى يشع من آيات القرآن ليهدى البشر سواء السبيل ، ويبصرهم بمراشدهم وأهدافهم فى ليل الحياة البهيم . إن القرآن فى حقيقة جوهره ثورة سماوية مقدسة على الشر والفساد ، والإثم والرذيلة ، ونبع إلهى فياض يستقى منه رضاب السعادة الحقة ورحيق الخير كله .

ومن مظاهر تقدير الليبيين للقرآن الكريم وحملته أنهم يمنحون الشيخ المقرىء (الفقيه) على حد تعبيرهم — هبة مالية سخية ، ويبالغون فى إكرامه حين (يختم) أولادهم سورة البقرة لأول مرة ، أما اليوم الذى يكمل فيه الطالب حفظ القرآن فإن أهله يعتبرونه يوم عيد ، يقيمون فيه الاحتفالات ، ويؤدبون المآدب ، ويتقبلون التهانى والتبريكات، وتسود بيوت الأقارب كلهم المباهج والمسرات وغالبا ما تكون هذه المظاهر فى القرى والأرياف خاصة، وأحيانا فى المدن أيضا .

ولعل من أهم ما يسترعى انتباه الدارس لهذا الموضوع فى ليبيا أن أولئك الذين يقتصرون فى تعليمهم على حفظ القرآن الكريم عن ظهر غيب ، ثم يضطرون إلى خوض معترك الحياة أئمة فى المساجد ، أو مرشدين أو مقرئين أو عاملين فى أى ميدان ، هؤلاء يسيئون إلى الدين والأخلاق أفظع الإساءات من حيث يشعرون أولا يشعرون ، إذ أنهم يعكسون فى نظر العامة من سكان البادية والريف بوجه خاص المفاهيم الصحيحة لتعاليم الكتاب والسنة، لأنهم يستفتون فى أى موضوع فيفتون ، ويسألون عن كل شىء فيجيبون ، كما لو كانوا علماء عارفين متبحرين ، إنهم يتعمدون هذا اللون من الدجل والتضليل وتحريف الكلم عن مواضعها ، لتسموا أقدارهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه وينظر إليهم الناس بعين التجلة والإكبار ويغدقون عليهم العطاء بغير حساب ، وهل يصح أن ينسبوا الجهل إلى أنفسهم وقد سلخوا من أعمارهم نصف جيل فى تعليم القرآن الكريم ؟ ولو أنهم فعلوا ذلك ، وظهروا على حقيقتهم فى وضح النهار، لتضاءلت قيمتهم وصغر شأنهم فى نظر العامة ، وفقدوا بالتالى مورد أرزاقهم، وليت الأمر يقف عند هذا الحد من السوء والبشاعة ، بل إن السذج من الناس يقلدون هؤلاء الجهلة المتعالين فى أعمالهم الشائنة ، مبررين هذا السلوك بالقول المأثور (من قلد عالما ، لقى الله سالما) وربما أحلوا بذلك حراما ، أو حرموا حلالا ، إنهم يتخبطون فى

الظلام بين متاهات صحراء رهيبة موحشة، والنور الهادى فى قلوبهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يقتبسوا منه ولو شعاعا ضئيلا ، لأنهم يجهلون سر المفتاح ، مفتاح هذا النور الذى استحال نارا تحرقهم ، لا ضياء يهديهم سواء السبيل ، وذلك المفتاح الذى استغلق عليهم سره هو العلم الصحيح ، والمعرفة الحقة . وهكذا يشكل حفظة القرآن غير المتعلمين طبقة من الجهال المتعصبين ، يضلون ويفسدون ، ويطمسون معالم القيم النبيلة السامية التى تزخر بها آيات القرآن المجيد، وكما يخطىء هؤلاء فهم الأحكام الدينية فيوحون بها إلى الناس بتراء مشوهة، ويؤدونها مختلقة باطلة، يشكلون خطرا على الكثير من المسائل المتصلة بالحياة ، فيبدون فيها آراءا سقيمة فاسدة ، فهم ينشرون مثلا بين عامة الناس دعاية مسمومة ضد المدارس التعليمية الحديثة ، لأنها تهتم بعلوم الشياطين وتهمل علوم الدين ، والعامة مرتع خصيب لأساليب التضليل وبث الأراجيف والأباطيل .

ومما يناقض سماحة القرآن ، ويحد من آفاقه الرحيبة التى تتسع للبشرية كلها أن الشيخ (الفقيه) عندما يسرح التلاميذ صباح الخميس مبكرين خلافا للمعتاد يحتشدون أمام الكتاب ليرددوا فى صوت واحد أنشودة شعبية تشتمل على المقطع التالى ، وكلام غيره كثير مشابه (اليهود فى سفود . . والنصارى فى سنارة ، والمسلمين تحت عروق الياسمين والسفود قطعة اللحم توضع داخل الفرن الملتهب ـ والسنارة فى الشص الذى يصاد به السمك . . فهذا المقطع يشف عن صدور تغلى بالحقد وتضطرم بالكراهية والبغضاء لجميع اليهود والنصارى ، لا لشىء إلا لأنهم غير مسلمين ، بينما ينبع من أعماق الكتاب المجيد الذى يرتل أولئك التلاميذ آياته الباهرة فى غير وعى ، هذا الفيض الإنسانى الطافح بالود والمحبة لسائر البشر (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وهكذا يلقن الأطفال فى الكتاتيب روح التعصب الذى يبرأ منه القرآن الكريم ويحاربه الإسلام الحنيف .

ومن الأفكار الغريبة التى يجدر التنويه بها فى هذا البحث هى أن الأم تتعمد إرسال ابنها إلى الكتاب صباحا دون أن يتناول فطوره معللة إياه بأنه يجب أن يفطر أولا على آيات القرآن حتى يفتح الله عليه ، ويعينه على الحفظ السريع ، أما إذا أفطر قبل رواحه إلى الكتاب فسينتج عن ذلك حتما عدم توفيقه فى ذلك اليوم وتأخر عن زملائه فى استظهار الآيات الملزم حفظها يومياً . ومسألة أخرى أشد استهجانا وغرابة وهى أنهم يتسابقون فى شرب الماء المتقاطر من غسل الألواح ، وهو مزيج من الطين الناعم الذى يدلك به اللوح والحبر المصنوع من صوف الغنم المختلط بالفضلات ، مضافا إلى ذلك ما تراكم فى الحوض من قاذورات ، وسيترتب عن هذا بطبيعة الحال نتائج صحية وخيمة العاقبة ، ومن الطبيعى أن يحدث كل هذا أثراً مباشراً فى التثقيف الروحى ، ويشكله بألوان خاصة ، القليل منها ملائم وسائر مع الحياة ، وما عداه بعيد عن روح العصر ، وعقبة فى طريق التقدم والانطلاق إلى الأمام .

المعاهد الدينية:

إن فى ليبيا طائفة من المعاهد الدينية تربو عن العشرة ، يلتحق بها حفاظ القرآن الكريم ، أو الملمون بجزء منه قليل أو كثير ، لينالوا حظاً من علوم الدين واللغة العربية ، وكثير من هؤلاء يشدون الرحال إلى الأزهر الشريف، وبعض منهم يولون وجوههم شطر المغرب لينتظموا فى الجامعة الزيتونية بالجمهورية التونسية ، ومن أكبر المعاهد الدينية الليبية معهد السيد محمد على السنوسى فى البيضاء بولاية برقة، ثم معهد أحمد باشا القره مانلى فى مدينة طرابلس، والمعهد الأسمرى فى بلدة زليطن وكلاهما بولاية طرابلس الغرب ، وقد أصبحا فرعين تابعين لمعهد البيضاء سالف الذكر منذ أوائل سنة ١٩٥٧ . ومنهج المرحلتين الابتدائية والثانوية فى هذه المعاهد يكاد يكون صورة طبق الأصل من منهج الأزهر الشريف ، فهو يتضمن تدريس علوم الدين واللسان كمواد رئيسية ، ثم علم التاريخ والجغرافيا ومبادىء الرياضة والطبيعة والكيمياء ، أما مراحل التعليم العالى فلم يتم تأسيسها حتى الآن ، وإن كانت موجودة من الناحية الاعتبارية ، لأن القانون الأساسى الذى سنته المحكمة الاتحادية العليا لمعهد محمد على السنوسى وفروعه يقضى بوجوب اشتمالها على جميع مراحل التعليم إذا تكاملت الشروط الضرورية لذلك ، ومن أهمها توفر عدد معقول من الطلاب ، ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا بكل أسف ومرارة أنه كان منتظراً من الذين درسوا فى المعاهد الدينية وغيرها أمداً طويلا ، أو تخرجوا منها حاملين شهادات عالية ، أن ينهضوا برسالة التثقيف الروحى المصفى من الشوائب ، ويقوموا بواجب التربية الخلقية الإسلامية على أفضل وجه ، ويحدثوا ثورة إصلاحية شاملة على الأوضاع الاجتماعية الفاسدة ، ويلقوا أضواء باهرة على الجانب المادى من الحياة لينكشف أثره العميق الفعال فى بعث الشعوب من سباتها ، وإبداع حضارات الأمم فى كل ميدان ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث على الإطلاق، فقد ظل إخواننا هؤلاء متقاعدين جامدين لا يحركون ساكناً ، ولا يصنعون أى شىء ذا بال ، إنهم جاثمون مكانهم لا يريمون كالتماثيل الخرساء ، بينما قافلة الحياة مندفعة فى سرعة جنونية وانطلاق أبدى نحو قمة الكمال اللانهائى ، ولهم كل العذر فى ذلك لأنهم لم يستشفوا ما يكمن فى طبيعة هذا الدين من مرونة تجعله يتفاعل مع كل تطور ويكون طليعة كل زحف مقدس ، ويتجاوب مع كل وثبة علمية أو فكرية تستهدف الخلق والبناء والإبداع وكل انتفاضة تحررية هائلة ترمى إلى تحطيم أغلال العبودية ، ودفع قافلة الإنسانية الصاعدة فى طريق المجد والسعادة والخير وحيث لم يستطيعوا استلهام التعاليم الإسلامية الخالدة ، هذه المعانى الكبيرة التى تلائم المفاهيم الجديدة للحياة الإنسانية فى عصر الذرة والتلفزيون والأقمار الصناعية والصواريخ الموجهة عابرة القارات، قصروا جهودهم على دروس الوعظ والإرشاد التقليدية يلقونها فى المساجد ، والخطب الجمعية يؤدونها فوق المنابر ترهيبا وترغيبا وتحذيراً وتبشيرا وأدعية وابتهالات وما إليها من أسلحة الضعفاء العاجزين ، وقد يحدث كل هذا فى بعض النفوس ظلالا هزيلة باهتة ولكنها لا تلبث أن تتلاشى إذا زايل أصحابها أمكنتهم من صفوف الصلاة أو تخطوا أعتاب المساجد منغمرين فى تيار الحياة لأن هذا الوعظ المجرد شىء عادى مكرر ألفتة أسماعهم وارتاضت عليه قلوبهم فلم يعد يحدث فيها الأثر

المطلوب لأنه لا يحمل فى جوهره العنصر التوجيهى الإيجابى الذى يتخطى المظاهر والقشور إلى الأصول والجذور وينفذ إلى أغوار المجتمع يشخص الداء ويصف الدواء فى صور إنسانية منبثقة من صميم واقع الحياة حتى يكون التعبير أصدق والتأثير أعمق والجهد المبذول محقق النتائج مضمون الثمرات ، أما هذا الأسلوب المتبع فى الإرشاد الدينى فليس يحقق إلا كسبا ضئيلا عديم الجدوى ، فهذه دروس الوعظ وأحاديث التهذيب مستمرة بلا انقطاع ، والخطب الجمعية متجددة بطابعها المعروف وأسلوبها المألوف تهول عقاب الآثمين وتشيد بثواب المتقين ، ومع ذلك فما زالت الخطايا تقترف والجرائم ترتكب والأخلاق تسوء وتتدهور، فالحانات تعج بالسكارى ودور البغاء تزدحم بطلاب الشهوة وبيوت الله تكاد تكون مقفرة من المصلين والمجتمع كله مسرح لألوان الفساد من كل نوع دون أن يظهر أثر لوعظ الواعظين وإرشاد المرشدين . فلماذا لم تغير من سلوك الناس وتصلح من شأنهم رهبة العقاب ورغبة الثواب ؟ لماذا تضيع جهود الوعاظ هباء كأنما يزرعون فى الصخور ، ما سر هذا الإخفاق المتواصل الذى منى به رجال الدين فى ليبيا ؟ لعل السر أنهم هم أنفسهم لا يتجاوبون مع ما يقولون ولا يؤمنون بجدوى ما يلوكون من عبارات التهويل والتفخيم وبشائر السعادة والنعيم ، أو لأن وعظهم ينصب كله على شئون الغيب والمحجبات من أمور الموت والآخرة والجنة والنار ، وكل هذه حقائق لا ريب فيها ، ولكن كيف يرجى أن يعمل على تفادى عذاب النار وأهوالها فى الآخرة من دنياه نار تلظى يتعذب فيها، ويحترق ويئن ويتألم ؟ وكيف يرجى أن يسعى إلى الفوز بنعيم الجنات فى عالم الأبدية من يهد المرض كيانه ويمزق الجوع أحشاءه ويشمل الجهل جهاز عقله وتفكيره أو يخنق الاستعمار حريته ويهدر كرامته وإنسانيته؟ أن هؤلاء المعذبين مشغولون بالمحن والآلام التى تضعف بهم فى دنياهم عن التفكير فى الحياة الأخرى التى تبدأ أول مراحلها بالموت، فواقعهم الكريه المر يحول دون تطلعهم إلى مباهجها ولذاتها وإشفاقهم من عذابها وويلاتها إذ أن صلاح الآخرة مرهون بصلاح الدنيا. ومن أجل هذا أصبح لزاما أن تستهدف رسالة التثقيف الروحى بناء مجتمع حر مثقف سليم فى كيانه الصحى والعقلى يتمتع أفراده بوفرة الغذاء والكساء ونعمة السلام والطمأنينة والعدالة الاجتماعية الشاملة ، ومن المحتم أن مجتمعا من هذا القبيل أسرع إلى التأثر بتوجيه المرشدين والاستجابة لدعوات المصلحين فى إخلاص وإيمان وإذعان من مجتمع فقير جاهل مريض غارق فى خضم من المشاكل والآلام ، وقد نادى المصلح الأكبر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا المجتمع الإسلامى المثالى الذى يجمع فى حياته بين السعادة والمادية الروحية قبل ألف وأربعمائة عام حين قال (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) فى هذا القول الكريم الموجز تخطيط بديع رائع لبناء حياة إنسانية وسط بين الأغراض فى التكالب المادى المجنون وإطلاق عنان الشهوات الجسدية بلا حسيب ولا رقيب ، وبين الانصهار فى بوتقة الروحانية القاسية المحرومة المعذبة المتحررة من سلطان الغرائز المركبة فى طبع الإنسان وهذا عمر بن الخطاب يصرح فى جموع الناس المحتشدين فى المسجد انقطاعا للعبادة أن يتفرقوا فى مناكب الأرض التماسا للرزق وكفاحا فى سبيل العيش لأن السماء لن تمطرهم ذهبا ولا فضة فنواميس الكون التى رسمها الله منذ الأزل تقضى بأن تكون الغايات والمسببات مرهونة بالوسائل والأسباب قال لهم ذلك فى حزم وثورة حتى لا يتوا كلوا ويستنيموا إلى الراحة والتبطل ويستمرئوا حياة التزهد والرهبانية

التى يأباها الإسلام لأنها إيثار للجانب الروحى من الحيـــاة وعزوف عن المباهج والطيبات التى أباحها الله لعباده المؤمنين ، والإسلام دين قوامه المـادة والروح ، المادة بكل ما فيها من قوة وعلم وثراء ومتع حلال ، والروح بكل ماترمز إليه من سكينة ورحمة ومحبة وطهر وصفاء وسلام ونور ، وتقديس للمعبود الحق . . . والنبى عليه السلام يقول مصدقا لهذا الـكلام (لارهبانية فى الإسلام) ويقول أيضا (المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف) لأنه أنفع للبلاد والعباد .

وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان قد أبعد من المدينة أباذر الغفارى ، وهو أول اشتراكى ثائر فى الإسلام لتزهيده الناس فى الدنيا وترغيبهم من متاعها الزائل وترهيبهم من أهوال المعاد وعقاب جهنم مما أثر فيهم تأثيرا عميقا ، فاعتكف كثير منهم فى المسجد يتعبدون وأهملوا بيوتهم ونساءهم ، وهجروا حقولهم وسائر أعمالهم زهدا فى الدنيا واحتقارا لحطامها الذى لا يدوم ، ولـكن عثمان ناشد هؤلاء المتزهدين أن يرجعوا إلى حياتهم العادية وينتجوا ويكسبوا ، وينعموا بخيرات الدنيا مع قيامهم بواجبات الدين وتعاليمه المقدسة على خير وجه عملا بقول النبى الـكريم (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا من ترك الآخرة للدنيا ، وإنما خيركم من أخذ من هذه وهذه) . . . تلك هى التربية الإسلامية الحقة التى كان خلفاء الرسول وكبار المصلحين من المسلمين ينشرون مبادئها بين البشر لأنها تحقق لأبناء الإنسانية ما ينشدونه من سعادة مادية وروحية . غير أن علماءنا من خريجى المعاهد الدينية الليبية وغيرها لم يتخذوا هذه التربية الفاضلة مصدرا يستقون منه مواعظهم وتوجيهاتهم ويسيرون على ضوئها فى القيام برسالة التثقيف الروحى الصحيح إما قصورا أو تقصيرا ، فظل — مع الأسف الشديد — خاضعا للوهم والخرافة والدجل متأثرا بتقاليد بالية شوهاء من مخلفات عصور وأجيال كثيرة ضاربة فى القدم ، ومما يزيد الطين بله أن البعض من رجال الدين فى بلادنا غير مؤمنين بالعلم وقدرته على صنع المعجزات فما زالوا يعتقدون أن التلفون وجهاز الراديو رجس من عمل الشيطان وضرب من الاستدراج والسحر الحرام ، وإذا علمت أن هؤلاء الجامدين من خيرة المرشدين فى نظر العامة يتمتعون بثقتهم ، ويؤمنون فى إذعان على جميع أقوالهم وإن خالفت منطق الحياة وناموس التطور ، أدركت فى أى طريق تسير قافلة التوجيه الدينى والتثقيف الروحى فى ليبيا . وإن من الحقائق الواضحة أن المعاهد الدينية تعتبر أغزر ينبوع للثقافات الإسلامية على اختلاف أفانينها وموضوعاتها ، والمسؤولة الأولى عن تربية المجتمع روحيا وخلقيا ، غير أنها فى وضعها القائم ونظامها الحالى لا تقوى على النهوض بأعباء هذه المسئولية الـكبيرة الضخمة ، وستظل كذلك ضعيفة عاجزة ، إلا إذا أصلحت مناهجها العتيقة الجامدة فطهرت من الحشويات وأفرغت فى قالب عصرى حديث مزود بعناصر تقدمية جديدة موحية ملهمة تشع منها أضواء الدين ساطعة باهرة ، وأضواء الدنيا قوية غامرة وتعبق بأريج الخير المزدوج والسعادة المزدوجة التى هى قبلة آمال المسلمين المتطلعين إلى نعم الجنتين ، الجنة العاجلة المنشودة والجنة الآجلة الموعودة .

الطرق والزوايا :

من عوامل التثقيف الروحى فى ليبيا أيضاً الطرق والزوايا ، ومن أشهرها وأوسعها انتشارا الطريقة العيساوية

نسبة للشيخ الصالح سيدى محمد بن عيسى دفين مكناس بالمغرب الأقصى ، والطريقة العروسية نسبة للشيخ الولى سيدى عبد السلام الأسمر دفين بلدة زليطن فى ولاية طرابلس الغرب بليبيا ، والطريقة القادرية نسبة للشيخ الولى سيدى عبد القادر الجيلانى دفين بغداد بالعراق ، والطريقة السنوسية نسبة للشيخ الإمام السيد محمد على السنوسى ، دفين واحة الجغبوب فى الجنوب الشرقى من ولاية برقة بليبيا . وهذه الطرق أو الزوايا عبارة عن مجموعة أوراد وتسابيح وطقوس ومظاهر خاصة تنسب لبعض كبار المشايخ من أهل العلم والصلاح والتقوى كالسالف ذكرهم ، وهى مذاهب روحية منبثقة من هذا الجانب من الدين الإسلامى مع شىء من المغالاة والبدع غير المستحبة التى يقال أن مشايخ الطرق الأصليين برآء منها وإنما استحدثها أتباعهم فيما بعد بحجة أنها تدفع السأم والفتور عن المريدين ، وتزودهم بطاقات متجددة من النشاط والحيوية والاستعداد لمواصلة ذكر الله وتمجيده والصبر على التفانى فى تقديسه وعبادته كما يزعمون . ومن هذه البدع التى يعتنقها أتباع الطريقة العيساوية خاصة :

أولا : استعمال (البنادير) الدفوف المزينة بألوان مختلفة زاهية ، والتى تتخلل إطاراتها قطع نحاسية صغيرة مستديرة تتصل كل اثنتين منها بسلك رقيق ، وحين يدقون الدفوف بأصابعهم يمتزج دويها القوى برنين هذه القطعة النحاسية فيتألف من ذلك نغم موسيقى مجلجل .

ثانيا : (النوبة) وهى طبل كبير ذو وجهين ومستطيل قليلا ، يضربها التابع المختص بعصوين من الجانبين فينبعث منها دوى هائل كهزيم الرعد .

ثالثاً : (النقارى) وهى صورة مصغرة للطبول ذات الوجه الواحد ، ويتولى شخص واحد النقر على كل اثنتين منها بعصوين مكورتى الرأس ، ويشبه صوتها ألحان البيانو المتقطعة وهى توضع على يمين صاحب النوبة ويساره .

رابعاً : يأتى بعد هذا مزمار يشبه الكمان يسمونه (الغيطة) وتندمج كل هذه الآلات فى إيقاع واحد منتظم متسق النغم مصحوبا بالمدائح والأناشيد التى يتغنى بها شيخ الزاوية أونائبه ، ويرددها الجميع بتلحينها الخاص المنسجم مع أصوات الآلات مما يطرب نفوسهم ، ويثير حماستهم ، وتسرى عدوى ذلك إلى جموع المتفرجين المحيطين بهم فينتشون ويزدهون ، ويكاد هذا اللون من الفن يقتصر على كبار السن من الشيوخ والكهول . أما القسم الثانى من الزاوية أو (الحضرة) فيسمونه فرقة (الباز) وغالبا ما يكون أفرادها من شباب المريدين . . والباز عبارة عن صينيات صغيرة الحجم ، عميقة بعض الشىء ومثقوبة من أسفلها ، تغلف بقطع من جلود الأبل أو البقر ويضع المريدون بازاتهم فى أيديهم اليسرى بينما يمسكون بأيديهم اليمنى قضبانا من الجلد السميك متحلقين فى دائرة كبيرة واسعة وأن كانوا مستقرين ، أو منتظمين فى صف طويل ثلاثى أو رباعى أو خماسى ، أو .. أو ... أن كانوا سائرين ، ويظل مؤخرة الصف علم كبير من الحرير الرفيع مطرز بنقوش فضية رائعة وتتدلى من كل جوانبه دوائب من الفضة الثمينة فى شكل مثلثات أومربعات مرقشة بكتابات ذات حروف لامعة تتضمن بعض أسماء الله أوالأولياء بينما تتقدم الموكب أعلام كثيرة صغيرة ذات ألوان بديعة مختلفة ويضرب الجميع (الباز) فى لحظة واحدة ، وبصورة متقطعة نسبيا مع اهتزاز الأقسام العليا من أجسامهم ، وترديد جمل قصيرة من الكلام المسجوع توائم حركة الاهتزاز

وإيقاع الباز المختلط برنين الكيسان القوى المتصل ، ومضمون تلك الجمل المسجوعة التى ينشدونها باستمرار إما ذكر الله أو صلاة على النبى أو تمجيد للشيخ الولى صاحب الطريقة ، أو التماس لنجدته عند الملمات . . . . أما الكيسان فهى أطباق من النحاس الجيد مستديرة مجوفة الوسط ، يستعمل كل زوج منها أحد المشرفين المعروفين (بالشواش) وهى تنطبق وتفترق بأيديهم فى سرعة خاطفة مضفية على دوى البازجوا موسيقيا جميلا عذب الإيقاع ، مما يضاعف نشاط الأتباع ويبعث بين جوانحهم روح الاندماج فى غمرة الفن . . . والحق أن فن الباز لا يقل روعة وتأثيرا فى نفوس المريدين عن فن (البنادير والنوبة والنقارى والمزمار مجتمعة) الذى أسلفنا الحديث عنه بإيجاز . . ويستبد الهيام بالقوم ، وتستغرقهم شطحة غريبة حين يبلغ ضجيج الفن المزدوج أقصاه من القوة والاسراع والاندفاع ، فيقذف الكثير بأنفسهم فى حالة لا شعورية ، ويندفعون متواثبين نحو فرقة (الزمزامة) فيرقصون على أصوات الآلات المزمجرة بكل أجسامهم رقصات سريعة غير منتظمة يسمونها (الجدب) بينما أخذ هذا يعوى كالقط ، وراح ثان يزأر كالأسد الغاضب ، ومضى ثالث يتواثب كالنمر فى هياج عنيف وتحد مخيف ، حتى إذا ماشبعوا رقصا وجدبا ، وبحت أصواتهم من العوى والصياح ، وتراكمت فقاقيع الزبد على أفواههم قاموا بأعمال محيرة مدهشة ، فبعضهم يصعد نخلة سامقة فى لمحة البرق فينقلب على أشواكها الطويلة الخطرة بلا حذر ولا رهبة ولا مبالاة بذلك الارتفاع السحيق ، وبعضهم يقتلع ما يقارب حمل بعير من أعراف التين الشوكى ويمضى بها محمولة على ظهره المجرد من الثياب فيلقيها بمكان فسيح حيث يبدأ المريدون يرتمون عليها قفزا الواحد بعد الآخر حتى يسحقوا بأجسامهم العارية ما يكسوها من شوك غزير ، وآخرون يقتحمون النار المشتعلة غير هيابين ويتمرغون على جحيمها المستعمر حتى يستحيل رمادا تذروه الرياح وغيرهم يطعنون رءوسهم أو بطنهم أو عيونهم أو أجسام الآخرين فى أى موضع كان بنصل الخناجر أو يزدردون المسامير أو كرات صغيرة من الحديد . . والأعجب من هذا أنهم لا يتألمون ولا يظهر أى أثر لذلك كله فى أجسامهم حين يثوبون إلى رشدهم وتزايلهم تلك الغيبوبة العقلية التى يستسلمون إليها حين تعشاهم نفحة من أسرار الشيخ الذى يتبعونه كما يتخيلون . . ويعتقد عامة الناس جميعا أن اقتحام النار والتمرغ على الشوك وطعن الأجسام بالمدى وابتلاع قطع الحديد وما إليها من الخوارق التى ليس فى طوق الإنسان العادى أن يقدم على شىء منها إنما هى كرامات باهرة للشيخ الولى صاحب الطريقة فهو الذى يحول دون سقوط مريديه من جذوع النخيل الشاهقة العلو وهو الذى يدفع عنهم وخز الشوك فلا يؤذيهم ولا يؤثر فيهم وهو الذى يسلب النار طبيعة الاحراق فلا تلهب أجسامهم وهو الذى يبارك بأسراره الألهية المدى والخناجر فتغوص فى الأجسام الآدمية ولكنها لا تشق لحما ولا تكسر عظما ولا تسيل دما ، بل إنهم يؤمنون أعمق الإيمان بأن الشيخ صاحب الطريقة قادر على صنع ما هو أخطر من ذلك كإحياء الموتى وشفاء المجذومين ، وإعادة النور إلى المكفوفين ، ولا يلبث هذا الاعتقاد أن يغزو البيوت ليجد السبيل إلى عقول النساء ممهدا مفتوحا فيتغلغل فى أعماقهم باعتباره تثقيفا روحيا مصدره السماء . ثم يغرسنه فى نفوس أبنائهن منذ الطفولة الباكرة ليغدو بمرور السنين عقيدة راسخة الجذور يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلا بعد جيل كمبدأ مقدس من مبادىء الدين ، وماهى فى الواقع إلا طفيليات داخلية

مقحمة فى جوهره الصفى ابتدعتها خيالات الإنسان لتكون وسائل طرب ولهو وتسلية واستمتاع ، وليست من مفاهيم الدين فى شىء ولا تمت إلى تعاليمه بأى سبب ، بل هى تجن عليه وإساءة كبرى إليه ، وطمس للكثير من معالم الحقائق الساطعة التى تشع عن أضواء شمسه الباهرة ... والأحرى بأمثال هذه المظاهر والطقوس أن تجرد من هذه الصبغة الدينية المفتعلة لتكون فنا خالصا من الفنون الشعبية الجميلة التى لا تخلو منها أية أمة فى العالم لأنها تترجم عن عواطفها وانفعالاتها وتعبر عن خصائص بيئتها ومميزتها وتصور ملامح شخصيتها ومقوماتها ومدى إحساس أفرادها بسحر الطبيعة وجمال الحياة .

والثانية هى الطريقة العروسية ، ويقتصر فنها على المزمار والدفوف ذات الأوتار الخالية من مظاهر الزينة والأطباق النحاسية المجوفة التى تشبه الأجراس فيما تحدثه من رنين ، وأتباع هذه الطريقة كزملائهم أتباع الطريقة العيساوية فى صنع الأعاجيب الخارقة التى لا يعرف لها حتى الآن أى تفسير علمى معقول أو تعليل منطق مقبول ، فليست ناشئة عن تعويد طويل للجسم ورياضته على احتمال ألوان الأذى والتعذيب حتى يألف الألم ويفقد الإحساس به مع الزمن لأنه يكتسب مناعة ضد تأثيره لا تترك له أى مفعول كما هو الشأن بالنسبة للمتزهدين من فقراء الهنود ، ليس الأمر كذلك لأن أغلب أتباع هذه الطرق أميون جهلة لا يدركون هذه الفلسفة ولأن الرياضة الطويلة المستمرة منعدمة بالنسبة إليهم ، إذا أنهم يمارسون هذه الأعمال القاسية مرات معدودة كل عام لا تعدو أيام الأعياد ، لا فرق فى ذلك بين المريدين القدماء والمستجدين الذين لم يسبق لهم أى تعود أو ترويض .. وهكذا بقيت هذه الظاهرة لغزا معقدا يتطلب الحل الصحيح الذى لا يزال سرا يكمن فى عقول العلماء المختصين .

ولكل طريقة من هذه الطرق دستور أساسى يعتبر ملاك أمرها وتستوحيه مبادئها فى التربية الروحية والأخلاق . فدستور الطريقة السنوسية منهج إصلاحى شامل يتناول شئون الدنيا والآخرة ويهدف إلى تحقيق السلام والخير والسعادة المزدوجة للشعوب الإسلامية كلها .. وهذا المنهج نابع من صميم تعاليم القرآن الكريم وهدى محمد صلى الله عليه وسلم رائد الإنسانية الأول ... ودستور الطريقة القادرية حزب يسمى عقيدة الأكابر ، وهذه الطريقة روحانية محضة لا يمارس أتباعها أى لون من ألوان الفنون ذات المظهر الخارجى ومثلها فى ذلك الطريقة السنوسية سالفة الذكر ، فى حين يتألف دستور الطريقة العيساوية من الحزب الكبير والحزب الصغير ، ودستور الطريقة العروسية قوامه الوظيفة الأسمرية الكبرى .

وكل هذه الأحزاب أو الوظائف كما يسمونها مجموعة أذكار وصلوات وأدعية وابتهالات وعقائد توحيدية وإكبار وتقديس للذات العلية ... بيد أن عقيدة الأكابر شعار الطريقة القادرية يغلب عليها الطابع الصوفى وروح التفانى فى حضرة المعبود ، وحين يقارب المريدون الانتهاء من هذه الأحزاب كلها فى ليالى الاثنين والجمعة يطفئون الأنوار وتتملكهم حالة جذب عارمة فينغمرون فى تيار الذكر بأصوات مبحوحة متهدجة غير واضحة النبرات أشبه بالحمحمة ويظلون كذلك حتى ينالهم إجهاد شديد تشبها بالشيخ صاحب الطريقة الذى تعتريه مثل هذه الحالة الربانية فى كثير من الأحايين .

وأغلب هذه الطرق لا تقبل أن ينتسب إليها أى مريد جديد إلا بعد أن تأخذ عليه عهوداً وثيقة ويبدى استعداده للوفاء بها جميعاً فى صدق وإخلاص ، ودون إهمال أو تقصير ، إن عليه أن يتوب إلى الله توبة نصوحة ، فيحافظ على أداء الصلوات الخمس فى أوقاتها الاختيارية كأنه لم يكن مخاطبا بها من قبل بصفته مسلما ، وإنما فرضت عليه الآن بمقتضى تشريع جديد ، وهكذا بالنسبة لبقية الفروض والواجبات الدينية التى يتحتم القيام بها على كل مسلم ، وأن عليه كذلك أن يغض من بصره فلا ينظر إلى النساء الأجنبيات متعمداً فى اشتهاء ، وأن يمنع جميع أهله من المشاركة فى الصراخ على الموتى وسائر منكرات المآتم ولا يسمح لزوجته بالخروج من دارها ولو إلى أقرب مكان إلا بإذن سابق منه . . وتعتقد النساء أن امرأة المريد إذا صرخت على الميت أو بارحت منزلها بغير إذن من زوجها فإنها تصبح محرمة عليه ولا تزورها الملائكة أربعين يوما ، وتكون طوال هذه المدة مهبطا للعنة السماء وعرضة لزيارة الشياطين، وأن على المريد المستجد فوق هذا كله أن يتلقى عن شيخ الزاوية ورد الطريقة الذى يتضمن سوراً من القرآن وأحاديث الرسول وبعض التسابيح والأذكار ، وصيغاً خاصة للصلاة والسلام على النبى ، ويتعهد بتلاوة هذا (الورد) فى مواعيده المرسومة دون تسويف أو إرجاء ، كما يجب أن يحضر باستمرار القراءة الجماعية للعقيدة أو الحزب أو الوظيفة مرة أو مرتين كل أسبوع تبعا لنظام الطريقة التى ينتسب إليها ، ولا يجوز تخلفه إلا بعذر شرعى كالمرض أو التمريض . . فإذا أخل أى مريد بمبدأ من مبادىء الطريقة ولم يف بجميع التزاماته وتعهداته على أكمل وجه أيقن الجميع بأنه سيكون عرضة لسهام الشيخ الولى مؤسس الطريقة ، وهدفا لغضبه ونقمته إن عاجلا أو آجلا ، وإذا شاءت المصادفة أن ينال المريد الخاطىء أى مكروه فى نفسه وماله وعرضه ، أو يصاب بسوء أى شخص عزيز عليه ، فمعنى ذلك أن الشيخ قد أنفذ فيه وعيده الرهيب ، وأنزل به عقابه المحتوم جزاء وفاقا لتنكبه منهاج الطريقة التى تعهد مختاراً أن يسلكه مستقيما طاهراً غير مبال بالصعوبات والأشواك والعراقيل . . وقد ولدت هذه الخشية فى نفوس المريدين ، ومن يدور فى فلكهم من الأفربين وجهلة الناس أجمعين شعوراً عميقاً بأن الشيخ الكبير صاحب الطريقة أشبه بإله صغير على كل شىء قدير يعلم ما تخفى الصدور وما ظهر وما بطن من الأمور ، وإن كل ما يصيبه من خير أو شر إنما هو ناشىء عن سخطه ورضاه كأنما الله جل شأنه قد فوض إليه التحكم فى هذا الفريق من عباده يثيب من يشاء ويعاقب من يشاء ، غير أن هذا الشعور بالرهبة من مخالفة مبادىء الطريقة قد بدأ يتضاءل بين أتباع الزاوية العيساوية وخاصة فى العاصمة طرابلس ، فهم يقبلون مخمورين على مواكب الذكر والفن التى تجوب شوارع المدينة أيام الأعياد غالباً ، وتجتاحهم موجات من الحماس حين يسمعون الزغاريد تتعالى من النوافذ والشرفات وفوق السطوح ، أو يلمحون العيون الجميلة تلحظهم بإعجاب من وراء الملاءات البيضاء . . وفى هذا الحنين الظامىء إلى النساء أثناء الذكر مع تلوث الروح بالخمر هدم لكيان الطريقة وتمرد على المواثيق والعهود التى التزمها المريد حين انتسابه إليها . . وهكذا نجد هؤلاء الأتباع متناقضين فى سلوكهم الدينى والخلقى ، فهم بين مفرط فى التقديس والتألية ومفرط فى التهتك والتبذل والاستهتار ، أما روح الاعتدال فلم تعرف سبيلها إلى نفوس الغالبية العظمى من المريدين . . . ونحن لا ننكر سمو المبادىء الأصلية والأهداف الرئيسية لهذه الطرق من حيث

أنها حرب على الرذيلة والفساد والشر ، وتهذيب للنفوس وإصلاح للأخلاق ، وترويض للأفراد على حب الفضيلة والتقوى وأعمال البر والخير ، فهى بهذا الاعتبار نصير قوى للتعاليم الدينية الصحيحة ، وعنصر إغراء بانتهاج طرائقها المثلى الموصلة إلى الحياة الفاضلة فى عالم الخالدين ، كما أنها فى الوقت نفسه منبع غزير للثقافة الإسلامية فى ليبيا . . ولكننا نأخذ على هذه الطرق إغراقها فى الاهتمام بالروحانيات وإهمالها الجانب المادى من الحياة إهمالا كليا رغم أنها لا تعارض صراحة مبدأ الكسب الشريف والسعى من أجل الرزق الحلال ، إلا أنها لا تزود أتباعها بأى توجيه علمى أو اقتصادى لتفتح فى وجوههم بذلك الطريق إلى بلوغ الهدفين الكبيرين اللذين ينشدهما الدين الإسلامى الحنيف وهما إسعاد البشر فى الحياتين . وقد فات القوامين على هذا الطريق أن سر هيبة الإسلام وعظمته يكمن فى قوته . . وقوته لا تبنى بغير العلم والمال والتعاون الصادق الوثيق بين أبنائه فى كل ميدان بالإضافة إلى التربية الخلقية الكاملة ، والغريب أن أكثر هذه الطرق لا تعنى بتلقين مريديها حتى مبادىء العلوم الدينية الضرورية لكل فرد مسلم ، فأغلبهم يجهلونها جهلا مطبقا نظريا وعمليا ، ومع ذلك يطمعون فى تبوء مراتب القرب والتجلى كما يقولون ومما يؤخذ على هذه الطرق أيضا ما يسيطر على أتباعها الجهلة من روح التعصب الأعمى والادعاء الكاذب والزهو البليد الأحمق والاعتماد المطلق على المخلوق فى جلب الخير ودفع الشر مما يعنى اتخاذ شركاء لله فى الأرض بدلا من الاتجاه إليه وحده فى حالة الرخاء والشدة والتماس العون منه تبارك اسمه على تحقيق الأمانى ، وتفريج الكربات بعد بذل المستطاع من الجهود والممكن من الأسباب . . زد على ذلك طابع الغلو والإسراف الذى تصطبغ به غالبية الطرق كإلزام الناس مالا يلزم من الطقوس الواغلة على الدين وهو منها براء ، ثم مظاهر التطبيل والتزمير والرقص والشطح والصراخ الذى تزرى بالانسان المتمدن ، ولا يهضمها العقل الواعى البصير ، ومن المحتم أن يكون لأمثال هذه الصور القاتمة خطر رهيب مزدوج لأنها تسىء إلى البيئة المحلية الخاصة والكيان الاسلامى بوجه عام ، كما تجعل البيت العربى الليبى يخطىء فهم القيم الروحية والمعانى الحقيقية للحياة ويتبع أساليب عقيمة معوجة فى التربية والتهذيب يصح اعتبارها فى الوقت ذاته دليلا على انحطاط تفكير المسلمين جميعا ومن أسباب ضعفهم وتأخرهم وتخبط الكثير من شعوبهم وسط الظلام الكثيف بينما تغمر الدنيا كلها أضواء العلم والمدنية مما يبرر المزاعم والأراجيف التى ينتحلها بعض الناقمين على الاسلام لغمزه والنيل منه واتهامه بعدم الصلاحية للبقاء والعجز عن مسايرة ركب الحياة فى اندفاعه الأبدى نحو الكمال اللانهائى ، متجاهلين ما يومض به جوهره المقدس من عناصر الخلود ومعانى القوة والسمو ومناهج الاصلاح والخلق والبناء وروح التطور والانطلاق .

الأولياء والصالحون :

بعد الحديث فى موضوع الطرق والزوايا يجمل بحث قضية الأولياء والصالحين لما بينهما من صلة مباشرة وارتباط وثيق ، إذ أن الطرق والزوايا تنسب إلى نفر من هؤلاء الأولياء والصالحين الذين سنتعرض لهم بوجه عام فى هذا البحث المقتضب الوجيز محاولين التعرف عن مدى تأثيرهم فى الجانب الروحى من حياة الليبيين بصورة جماعية شاملة

ومبلغ نصيب البيت العربى الليبى من هذا التأثير خاصة. . . أن الأولياء أحياء وأمواتا يمثلون دورا خطيرا من رواية الحياة الدينية فى ليبيا ولا سيما فى أوساط المجتمع النسائى وغير المثقفين من الرجال، إذ أن هؤلاء وأولئك يؤمنون بأن لأولياء الله سلطانا على حياة الناس يسيرونها ويتحكمون فيها وينفعون ويضرون ، فالنساء وكثير من الرجال يزورون أضرحة الصالحين ليطفوا البخور ويندروا الندور ويتبركوا بسفّ تراب الضريح أو تمزيق قطعة من أعلامه الملونة لتكون تعويذة للطفل من الشياطين وتميمة تقيه البلاء وطوارق الحدثان ، فهذه تستنجد بسيدى فلان أو سيدى علان عند توقع أمر مكروه أو استبطاء أمر محبوب ، وأخرى تندر أن تذبح للولى شاة أو تأتى له بطعام أو تهبه مبلغا من المال إذا عاد أبنها أو زوجها أو أخوها سالما من سفره أو شفى من مرضه ، تماماً كما يفعل الوثنيون حينما يقدمون القرابين للآلهه راجين أو مشفقين . . والعجيب أنك حين تقسم لبعضهم بالله العلى القدير على نفى أى شىء ، أو إثباته يهز رأسه علامة عدم التصديق ، حتى إذا أقسمت له بهذا أو ذاك من الأولياء أسرع إلى تصديقك فى ارتياح ، وحين يتنازع اثنان من القرويين أو الريفيين على أمرما ، أحدهما يتهم والآخر ينكر ، ويتعذر الإصلاح بينهما ، لا يقنع المدعى أن يقسم المتهم بالله ليبرىء ساحته ، لأن الله حليم يمهل الظالمين ولا يعجل عقاب المجرمين ، وهو يريد قصاصا عاجلا يشفى غليل صدره ، ولا يطمئن قلبه حتى يقود خصمه إلى ضريح الولى المشهور عندهم بسرعة البطش والانتقام ، فيركع بجوار تابوته الأخضر فى إجلال وخشوع ويضربه بكلتا يديه مكررا صيغة اليمين المتواضع عليها بينهم ثلاث مرات ، فإن كتب عليه الموت بعد ذلك بأيام أو أسابيع أو حتى شهور ، أو فجعه المنون فى ابنه أو شقيقه ، أو أصيب بمحنة فى نفسه أو شرفه أو ماله قالوا — فى ثمانة — إن الولى أطلق عليه مدفعه فلقى جزاء كذبه وخيانته واستهانته بأولياء الله الصالحين ، وكثيرا ما تصنع الأقدار مصادفات من هذا القبيل ، الأمر الذى يجعل القوم يتوقعون أن تنفذ سهام القضاء حتما فى الظالم من الطرفين ، واستحال ذلك بحكم التجارب إيمانا عميقا راسخا فى القلوب . . وهم يعتقدون أن لجميع الأولياء مدافع يسددون قذائفها إلى الذين يحلفون بهم كاذبين ، أو ينتهكون حماهم بمقارنة الاثم وإتيان المنكرات . ذلك هو شأنهم مع الصالحين الأموات يعظمونهم ويقدسونهم ويؤمنون بقدرتهم على التصرف والتأثير فى حياة الناس . . أما الأحياء من الأولياء فلا يقلون عن أسلافهم تأثيرا فى عقول النساء والدهماء ، ومعظم هؤلاء من الدجالين المحترفين الذين يجوبون المدن والقرى والأرياف لابسين العمائم الخضراء والثياب الملونة الفضفاضة ، وفى أيديهم المسابح الطويلة ، ومنهم من يحمل الدفوف الكبيرة ذات الأوتار . يفعلون كل ذلك ليتظاهروا بالورع والتقوى ، ويتكلفوا المهابة والوقار خداعا للسذج من عباد الله الطيبين ، ولا يفتأون يروون الحكايات والقصص المثيرة عن سير كبار الصالحين وما كانوا يصنعونه من الخوارق والأعاجيب كإخماد حريق وانتشال غريق واستنقاذ أسير من بلاد الروم وشفاء مريض من داء خطير ودفع شر مستطير عن مظلوم مستجير ، وما إلى هذا كله من الكرامات التى يظهرها الله على أيديهم لما لهم من دالة عليه وقبول لديه حتى إذا ما أحس هؤلاء بانجذاب النفوس إليهم وإقبال الناس عليهم فى إيمان وثقة وإذعان راحوا يتنبأون بالمجهول مؤكدين صدق ما يزعمون ويمثلون فنونا من الدجل حذقوها وارتاضوا عليها فتسحر عقول الناس ويعدونها كرامات باهرة تستوجب أن يحيطوهم بهالة من الأكبار والتقديس ويغمروهم بالهبات والعطايا فى إغداق وسخاء ، وإن الإنسان

ليعجب كثيرا حين يرى الأكف الناعمة المخضوبة تنبسط إليهم فى ضراعة ورجاء للتيمن بأسرارهم الربانية فيرشونها بلعابهم القذر الغنى بالجراثيم مشفوعا بتمتمات مبهمة ودعوات ملحونة فيستقبلن ذلك باسمات متفائلات ، كما ينفثون هذا اللعاب المسموم فى أفواه الأطفال الرضع مباركين معوذين ويبلغ من اطمئنان الناس إليهم وثقتهم العمياء بهم أنهم يروحون إلى أعمالهم ويدعون ولى الله فى بيوتهم مع زوجاتهم وبناتهم لإيمانهم بأن هذا الولى المزعوم ملاك أرض معصوم لا يقترف الحرام ولا يرتكب الأجرام .. ولكن كثيرا ما يضبط أولئك الأولياء متلبسين بسرقات مالية أو جرائم خلقية مخزية ، ومن الظواهر الغريبة الحرية بالتسجيل هنا أن هذا الولى أوذاك حين يدعى لإقامة (الحضرة) أى الفن بالدف والمزمار لمريض مصروع أو غير مصروع ليطرد العفريت المتلبس به أو يصبغ عليه ثوب الشفاء بسره وبركته ، ينهضه من فراشه مرغما لاحول له ولاقوة ويمكسه بساعديه القويين ويهزه إلى اليمين والشمال والخلف والأمام فى عملية جذب عنيفة قاسية وسط سحب كثيفة من البخور . وربما كان المسكين إذ ذاك فى حالة إعياء شديد فيصاب نتيجة لذلك الإجهاد المرهق بمضاعفات جديدة قد تودى بحياته . . وقد حدث مرة أن كان (المرابط) الولى يهز سيده بساعديه القويين صارخا مستنجدا بمشائخه وأسياده ، والبخور يعيق والدفوف تدوى فتهاوت الضحية من بين يديه جثة هامدة لاحراك فيها إذ يبدو أنها كانت حينئذ فى النزع الأخير ، غير أن هذه المسألة وأمثالها من الفضائح والمنكرات التى تصدر عن « المرابطية » الأولياء لم يظهر لها كبير أثر فى دفع الناس إلى الاحجام عن تعظيمهم وتكريمهم والإيناس إليهم وشعورهم بمفصوح كذبهم وبهتانهم وخزعبلاتهم الشيطانية المخجلة ، فما يزال الكثيرون عليهم مقبلين وبهم واثقين ولرذائلهم الخلقية ناسين أو متناسين .. ومن الواضح أن الطبقة غير المتعلمة من الجنسين والتى تشكل أغلب سكان البلاد هى المرعى الخصيب لهؤلاء الدجالين الذين عز عليهم العيش بكد اليمين وعرق الجبين فراحوا يلتمسونه بالنصب والاحتيال والخداع والتمويه واتخاذ الصلاح الكاذب مطية لأطماعهم السافلة مما أحدث المزيد من الخلط والتشويه فى القيم الدينية الصحيحة ، وقلب الكثير من المفاهيم الحقيقية للثقافة الروحية فى البيت العربى بليبيا .

المشعوذون والعرافون :

يموج القطر الليبى بعدد كبير من المشعوذين والعرافين مابين مقيمين ومتجولين ، وهؤلاء أيضا لا ينفكون يعبثون بعقول العامة من الناس ، ويوهمونهم بأن كل ما يقولون وما يفعلون إنما هو من هدى القرآن وتعاليم الدين فكان هذا الإفك المبين انحرافاً آخر فى اتجاه التثقيف الروحى وسببا مباشرا فى التباس الحقائق الدينية بأوهام الشعوذة وإيحاءاتها المضللة ، وهذه الشعوذة تتخذ أشكالا كثيرة وتتبع أساليب متنوعة ، فمن أبطالها من يكتبون آيات أو سورا من القرآن بحروف متقطعة غير مفهومة على أوراق ضيقة مستطيلة حتى ليبلغ بعضها بضعة أمتار يلفونها بشكل معين مرسوم عليه خاتم سليمان أحيانا ، ولا يجشمون أنفسهم مؤونة كتابتها إلا إذا أبدى العميل أو الزبون استعداده سلفا لدفع أجر كبير ، وبعد تغليفها بالقماش الجيد الرفيع أو الجلد الناعم المصبوغ تعلق فى أعناق الأطفال الصغار غالبا والكبار أحيانا ، متدلية على صدورهم ، وتسمى هذه التمائم بالحصون والحجابات لأنها تحصن حامليها من الأمراض وسطو العفاريت وتحجب عنهم غوائل الدهر وآفات الزمان ! ! . .

ومن بين المشعوذين مع يضع أمامه على الأرض أو فى منديل قدرا من التراب ويرسم عليه بعض الخطوط والأشكال الدائرية المختلفة ليستشف عن طريقها أسرار المستقبل ويزيح النقاب عن محجبات الغيب أو يكشف للراغب فى (ضرب الفال) عن طالعه النحس أو حظه السعيد بقراءة برجه الخاص الذى يحدده ناتج عملية حسابية معينة تشتمل على جمع وطرح وتقسيم يجريها العراف قبل فتح الكتاب، وهى عبارة عن مجموعة أرقام ترمز إليها الحروف التى يتألف منها اسم الشخص المجرد واسم أمه كذلك وفى هذا البرج الذى قد يتكرر فى اليوم الواحد عشرات المرات ولأشخاص عديدين تحذير وتبشير وتنبؤ بما ينتظر الإنسان فى غده من مسرات وأشجان . . ومن أجل هذا يصادف كتاب أبى معشر الفلكى وقرعة الطيور وقرعة الأنبياء وتاج الملوك وشمس المعارف الكبرى والشيخ الديربى وكتاب الرحمة فى الطب والحكمة وأمثالها من سرعة الرواج وسعة الانتشار مالا يحظى بمثله أى كتاب آخر مهما كانت قيمته العلمية والأدبية، وهناك آخرون يزعمون أنهم يقرأون خطوط الكف ويفكون رموزه الغامضة المبهمة كشفا للمستور من أمور الحياة المستقبلة ، وغالباً ما تكون هذه النبوءات مغلفة بأوراق الورد ومبطنة بالحرير ضمانا للثواب العاجل الموفور، وغير أولئك العرافين والمشعوذين من الرجال لا يخلو أى مكان من قارئة غيب (شباحة) أو أكثر تزدحم على بابها النساء من مختلف الطبقات والمستويات ما بين عذارى يتعجلن اليوم السعيد وأرامل متعطشات إلى الزواج من جديد وأخريات برمات بسلوك أزواجهن أو مشفقات من زواجهم بغيرهن، أو متلهفات على أوبة غائب عزيز أو اجتذاب قلب حبيب وسوى هؤلاء جميعاً من الراغبات فى استطلاع أسرار الغد المجهول لحاجة فى صدورهن وبعد أن تقرأ (الشباحة) زبورها وتطلق بخورها مهمهمة مدمدمة وتفرغ من جميع طقوسها تحيط زائراتها خبرا بما يختبىء لهن فى ضمير الغيب من أحداث ومفاجآت فتعود أكثرهن من عندها سعيدات محبورات ، وقليل منهن محزونات متوجسات . والوسط النسائى خاصة عميق الإيمان بالمشعوذين والعرافين وما يتشدقون به من ترهات مكرورة وأراجيف رتيبة متشابهة لا سيما وأن الظروف والصدف والاتفاقات وحدها قد تصدق أحيانا بعض ما يزعمون، وبهذه العقلية المكبلة بأغلال الجهل والبدائية والرجعية ، يربى الطفل المسكين ، وبهذا الأسلوب السقيم المعوج يثقف ، وفى هذا المحيط المؤمن بالدجل والشعوذة والخرافة يشب ويترعرع . . فماذا ينتظر أن يكون فى مستقبل حياته إذا ترك على حاله الذى أوضحناه محروما من الإصلاح والتقويم والتوجيه الروحى السليم ؟

العادات والاعتقادات الموروثة:

والعادات والاعتقادات الموروثة هى آخر عوامل التثقيف الروحى التى أجملنا الحديث عنها فى هذا البحث وتأثيرها فى الجانب الدينى والخلقى من حياة المجتمع الليبى إلى حد كبير ، وليس فى مقدورنا أن نأتى بتحليل واف دقيق مفصل لجميع العادات والمعتقدات المتصلة بالحياة الروحية فى ليبيا أو حتى مجرد استعراضها بصورة عامة ، لأن ذلك يصلح أن يكون موضوعا لكتاب مستقل من الحجم الكبير ولكننا نجتزىء هنا بإيراد نموذج منها على سبيل المثال مع شىء من الدراسة والتعليق كشعاع أخير من أضواء بحثنا الوجيز فى هذا الموضوع الخطير .

إن من بين المعتقدات الراسخة فى المجتمع الريفى الليبى شعور الفرد بنوع من التقديس لبعض الأجناس من الطيور مدفوعا إلى هـــذا الشعور أو الاعتقاد الموروث بسبب غامض مجهول لا يعلم مصدره على سبيل التحديد ولايستطيع تفسيره بشكل واضح مفهوم ، فالكل يتفادون أى تعرض لتلك الفصيلة من الطيور بأى سوء ويحرصون على تركها تعيش فى سلام آمنة مطمئنة ، وإن عششت داخل سقف البيوت التى يسكنونها دون أن يفكر أحد فى الإقدام على اصطيادها واتخاذها طعاماً يلتهمه كما يفعل بسواها من الطيور الأخرى ، بل إن الكبار إذا شاهدوا طفلا صغيرا يمسك بعض هذه الطيور صرخوا فيه منكرين منتهرين (حرام عليك . . مسكينة . . أطلق سراحها . . أنها مرابطة . . وإذا لم تدعها وشأنها فلا تأمن مايصيبك من شر وبلاء) . . وكلمة (مرابط) تعنى فى عرف اللسان الدارج — الولى الصالح رب البركات وصانع الكرامات ، ولست أدرى — ولاأحد يدرى — لماذا يشعرون بوجوب احترام ذلك الصنف من الطيور ويتحاشون أن يرهبوها أو يؤذوها جهد المستطاع ، ولعل سر هذا العطف الشبيه بالتقديس هى أنها طيور وديعة تكاد تألف الإنسان وليس فيها ما يغرى بصيدها لأنها جد هزيلة وضئيلة بالإضافة إلى حجمها الصغير . . ومنها ما يسمونه (الخطيفة — وأم بسيس — وبوخضير) وغير هذه كثير . ويعتبر القرويون الثعابين ذات اللون الأخضر (مرابطة) هى الأخرى ويهرفون بأن من يجرؤ على قتلها لا يأمن مغبة هذا الصنيع لأنهم يتوهمون أن ما يعترض سبيلهم منها ، وما يظهر بجوار بيوتهم ليس هو ثعبانا فى حقيقة الأمر بل ملاكا أو عفريتا من الجن أو أحد الصالحين تشكل فى صورة ثعبان ، وكذلك الطائر الأخضر الذى يظهر فى المساجد والأضرحة أو محافل الذكر أو بين المقابر فهو لا محالة ولى صالح ، وإذا تراءى لبعضهم فى أحلامه إنسان يرتدى ثيابا خضراء فهو أيضاً ولى صالح .. والهياكل الخشبية الكبيرة التى تنصب فوق أجداث الأولياء تصبغ بالطلاء الأخضر كل ذلك لا يدع مجالا للشك فى وجود أصل لهذه العقيدة الخرافية الموروثة وهى أن اللون الأخضر شعار الصالحين ورمز اليمن والبركة والتفاؤل والاستبشار من قديم الزمان . . وفى النصف الأخير من رمضان يحمل الناس جفان الطعام إلى المساجد عقب صلاة المغرب تصدقا على موتاهم الذين يبسطون أيديهم التماسا للصدقات فى هذا الموسم من كل عام ، لأنها تستحيل نورا يضىء قبورهم ، فإن ضن أقاربهم بإخراجها فى الموسم المذكور ظلت أيديهم كذلك مبسوطة لا يقبضونها حتى يهل رمضان من جديد . وتعتقد النساء عامة وكثير من الرجال أن زيارة المقابر فى يوم عاشوراء من الفروض التى يجب أداؤها حتما لأن الموتى يبعثون من مرقدهم فى ذلك اليوم المقدس وتقتعد أرواحهم سطح القبور انتظارا لزيارة الأهل والأقربين فى تطلع وشوق ولهفة ونفاذ صبر ، فإذا انقضى يوم عاشوراء المبارك دون أن تبل غلتها تلك الزيارة المرتقبة عادت إلى مضاجعها الأبدية الموحشة حزينة مغتمة يعذبها قنوط أليم . وحين يشترى بعض الناس فرسا أو يبنى دارا جديدة فإن عليه أن يذبح شاة أو أكثر فى أول ليلة يسكن فيها الدار أو تبيتها الفرس عنده تيمنا وتبريكا ، كما يلقى فى النار بقطعة من الشحم ليشم رائحة القتر من يوجد فى المكان من الملائكة والصالحين وعفاريت الجان ، فإن لم يفعل وناله بعد ذلك مكروه كان نتيجة متوقعة من قبل الجميع لإخلاله بواجب حتمى تواضع عليه الناس جيلا بعد جيل .

وليس هذا إلا شىء قليل من العادات والمعتقدات المتأصلة الجذور فى أعماق المجتمع الليبى والتى تلعب دورا

كبيراً فى حياة معظم أفراده الدينية والخلقية . وتشكل بعض الجوانب من سلوكهم الاجتماعى بألوان تبدو غريبة قاتمة مجافية لروح التطور غير مستجيبة لهاتف العصر الذى لا يفتأ يصرخ بقوة وحرارة مهيبا بالقاعدين والمتخلفين .

وبعد ، فذلك مزيج من العرض والبحث والدراسة لأهم عوامل التثقيف الروحى وما ينبثق من ظلال وانعكاسات كان لها تأثير سيء خطير فى محيط البيت العربى الليبى المحافظ الذى لا يزال رغم ذلك يمتاز بكثير من التقاليد الإسلامية النبيلة والأخلاق العربية الأصيلة . ومتى علمنا أن المدارس القرآنية والمعاهد الدينية لم تنهض بواجبها المقدس فى ميدان التثقيف والتهذيب والإصلاح الدينى والخلقى والاجتماعى لعقم مناهجها وإقفارها من عناصر التوجيه الروحى الصحيح والتربية العصرية الخلاقة المبدعة ، وقصورها عن تفهم روح الإسلام القويه الوثابة المتطورة ، وعلمنا كذلك ما شحنت به البيئة الليبية من الأوهام والخرافات والعادات السمجة البالية وأساليب الدجل والتضليل ، أدركنا فى جلاء تام لماذا تنكبت رسالة التثقيف الروحى سواء السبيل ، وسارت فى هذا الطريق المعوج الذى لا ينتهى إلى الأهداف الكبيرة المنشودة والنتائج الباهرة المرجوة ، وتبينا فى وضوح أيضاً الأسباب الحقيقية التى جعلت البيت العربى ليبيا كان أو غير ليبى يكاد يكون محروما من الثقافة الروحية الايجابية المهذبة ، إذ لا تشرق جوانبه بنورها البهيج ولا ينتهل روضه المجدب من نبعها المصفى إلا بقدر ضئيل ، والكفاح الجماعى الدائب المنظم فى سبيل نشر الوعى العصرى الملهم والمعرفة الحقة على نطاق واسع بين جميع طبقات الشعب من الجنسين هو الطاقة الجبارة الهائلة التى ينصهر بحرارتها الملتهبة الدافقة كل هذا الجليد المتراكم من رواسب التقاليد العتيقة المستهجنة والاعتقادات البدائية الفاسدة والأفكار الانهزامية الجامدة ، وكل مايرهق كاهل المجتمع من مخلفات عهود الظلام والرجعية والارتكاس التى ظلت تجثم على صدره ، وتخنق أنفاسه مئات السنين . ويومئذ يتضح لمجتمعنا العربى عامة والليبى خاصة المعنى السامى الكبير والمفهوم الحقيقى الضخم لرسالة التثقيف الروحى والخلقى ، ويدرك البيت العربى الليبى وغير الليبى أن الثقافة المثالية الحقة هى الايمان بالحياة الصاعدة المنطلقة ، والاستجابة الواعية الملبية لكل تطور هادف بناء ، مع الاهتداء بأضواء الأمجاد والمقدسات الخالدة التى تشع من آفاق ماضينا العظيم .

وظيفة المدرسة فى خدمة البيت العربى

للأستاذ محمد حسين المخزنجى

(الجمهورية العربية المتحدة)

إن الزمن الذى كان الناس فيه يفتحون المدارس وينشئونها لكى تعلم أولادهم وتزودهم بألوان مختلفة من العلوم والثقافات لا لشىء إلا لمجرد العلم والوصول بما يحصلون عليه من شهادات وأجازات إلى الوظائف الحكومية المختلفة — أقول إن هذا الوقت قد انتهى وقد تطور الزمن وتطورت معه وظيفة المدرسة ، كيف لا وهى وليدة المجتمع كما أنها ضرورة شعر الناس بالحاجة إليها وزادت هذه الحاجة بمرور الزمن وتعددت وظائفها وتنوعت أهدافها ، فالمدرسة جزء لا يتجزأ من المجتمع فعليها إذا أن تستمد نظامها ومادتها وأسلوبها من البيئة والمجتمع الذى هى فيه — ومن دراسة المدرسة لهذه البيئة التى هى جزء منها ، ومن دراستها للطبيعة البشرية أى طبيعة المتعلمين الذين ينضمون إليها وينتظمون فيها تستطيع المدرسة أن تنجح فى مهمتها . ولكى تؤدى المدرسة وظيفتها كما يجب أن تؤدى ولكى تخدم البيت والأسرة التى هى جزء من المجتمع وجزء هام جدا يجب عليها — أى المدرسة — أن تتعرف على هذا البيت وعلى ظروفه وكذا على الأطفال الذين يحيون فيها وكيف كانوا يربون وينشأون مدة ست سنوات قبل التحاقهم بها . ذلك لأن الطفل يذهب إلى المدرسة لأول مرة عندما تدرك سن التعليم وهى السادسة فيرسله أهله جريا وراء العرف أو تنفيذا لسن الالزام وفى حالات كثيرة سواء أكان فى القطاع الريفى أو القطاع المدنى تحتاج الأسرة إلى جهد الابن أو البنت مهما كان هذا الجهد قليلا محدودا ، تحتاج إليه فى الحقل حينا وفى المتجر حينا آخر وتحتاج الأم إلى ابنتها فى المنزل أحيانا كثيرة ، وهناك عدد من الآباء يفضل أن يلحق ابنه بعمل بسيط يدر عليه الربح البسيط ولكنه مع ذلك مضمون .

فمن الخير أن تدرس المدرسة هذه الظروف وتتعرف عليها وتحس مشكلات الأسرة والبيت وهى لا تستطيع أن تتجاهل هذا كله أو بعضه ، بل يجب أن تحطم الحواجز المقامة بينها وبين الأسرة وتواجه مشكلاتها وتتعاون مع الأهالى على حلها ، كتشجيع تلاميذها على مساعدة أهليهم فى مواسم الزراعة ومشاركتهم فى أعمالها بعض الوقت ، ففى هذا تدريب لهم وربط لحياة التلاميذ من صغرهم بالأرض وتقوية لعواطفهم نحوها ، وهو من ناحية أخرى يحقق بعض رغبات الأهالى فلا يمنعون أبناءهم من المدرسة — وهنا تؤدى المدرسة خدمة كبيرة للأهالى بأن تبصرهم بأهمية التعليم والتربية فى المدرسة ومعاونتهم على حل مشكلاتهم الخاصة وتحقيق رغبتهم فى الاستفادة من أبنائهم وبناتهم ، ولن يكون هذا مجديا إلا بالتعاون الكامل بينها وبين الأسرة والتعرف على ظروفها ومشكلاتها .

ونحن لانريد أن يشعر الطفل أو تشعر الأسرة بأن المدرسة قد أخذت ولدها منها ، ولانريد أن يشعر الطفل بأن المدرسة قد أخذته من والديه ، فالمدرسة مؤسسة اجتماعية وهي ليست سجنا وإنما هي أقرب شيء إلى المستشفى أو المركز الاجتماعي في القرية ، وهذه المؤسسات الاجتماعية تسمح للوالدين بالوجود بعض الوقت بجانب المريض ، وعلى المدرسة أن تبصر الوالدين بمهمتها وأن تسمح لهم بالوجود بعض الوقت بالمدرسة مع أولادهم وبخاصة عند بدء التحاقهم بها . وبذلك توجد في الأطفال روح الطمأنينة ولا يشعرون بأنهم قد انفصلوا عن ذويهم فترة من الزمن ، فتنمو عاطفتهم نحو المدرسة بالتدريج .

ومن الآباء من يشعر أولاده بأن المدرسة شر لابد منه لجهلهم وحرمانهم من نعمة المدرسة في صغرهم ، والمدرسة هنا مسئولة عن تبصير هؤلاء بالخدمة التي يمكن أن تؤديها لأولاده ولأسرته جميعا وبأنها خير ، بل ميزة لا يحصل عليها كل إنسان وأنها طريقة للنمو وأن كل مايتمتع به الناس في منازلهم وما يسعدون به من خير مرجعه إلى المدرسة وإلى التربية والتعليم ، وأن حالتهم المنزلية كانت تكون أحسن وأسعد كثيرا لو أنهم ذهبوا إلى المدرسة واستمر تعليمهم مدة أطول ، فالسماح لأمثال هؤلاء الوالدين بزيارة المدرسة من حين لآخر والتحدث إليهم يخدمهم خدمة جليلة فيشعرون بأن المدرسة نعمة يجب ألا تفوت أبناءهم . . .

وتستطيع المدرسة أن تخدم البيت العربي إذا هي تعرفت على ظروف هذا البيت وأحوال أطفاله الذين هم تلاميذها حتى تستطيع أن تربيهم وأن توجههم التوجيه الصحيح .

فالتلميذ الذي يكره والده في المنزل بسبب قسوته عليه في المعاملة قد يجد في المدرسة معنفسا لا يجده في البيت فتنتقل كراهيته للوالد إلى كراهيته لمعلمه في المدرسة . . وكراهية الوالد قد يكون سببها عدم شعور الطفل بالأمن أو عدم الاستقرار أو الشجار أو النزاع الذي يراه دائما بين أمه وأبيـــه أو قد يكون بسبب انفصال الوالدين أو غير ذلك . . .

والأطفال يكتمون الكثير من الضغائن ويحبسون الكثير من المشاعر العدوانية الكامنة ، وكل شخص يمثل السلطة سواء أكان أبا أم أما أم أخا أم زوجا أم مدرسا يهدد سلامتهم . والمدرس الناجح هو الذي لا يقابل سلوك التلميذ بالمثل وإنما يقابله بالصبر ويواجه مشكلات تلاميذه ويتبينها ويتقصى دوافعها وأسبابها ويتفهم ظروفهم المنزلية التي دفعتهم إليها . وهنا يتقدم لخدمة البيت فيحاول المساهمة في حل مشكلاتهم فيوقف الوالدين على تأثير ماهم فيه من نزاع وخصام على تربية أولادهم وتكوين شخصياتهم .

فتعرف المدرسة على مافي البيت من مؤثرات وما يسوده من صلات وعلاقات وما فيه من عوامل وظروف وإمكانيات ، كل هذا يساعد على تعاون المدرسة مع البيت ومشاركتها له في تربية الطفل ونموه نموا متزنا متكاملا ، ذلك لأن هذه المؤثرات وهذه الظروف وهذه الإمكانيات وهذه العلاقات إما أن تساعد النمو وإما أن تكون عائقة له . . .

فالطفل يتأثر بكل ما يحيط به وبكل من يتصل بهم ، وهو طوال السنوات الست التي يقضيها في المنزل متأثر بهذه الأشياء جميعا ، فإذا أرادت المدرسة أن تؤدي رسالتها كما يجب أن تؤدى فلابد من أن تتصل بالأسرة كما قدمت وتتفهم

الطفل وظروفه المعيشية منذ ولادته . والاتصال بالبيت ليس من المسائل السهلة الهينة خصوصا فى بلادنا العربية ، ولكن عندما يثق الوالدان بالمدرسة ويتأكدان من رسالتها ومن ضرورة تعاونهما معها يفسحان لها المجال لتؤدى لهما الخدمات والمساعدات التى تحتمها عليها رسالتها الاجتماعية .

والطفل فى السنوات الأولى من حياته يعتمد على والديه اعتمادا كبيرا لإشباع حاجاته والمحافظة على نفسه والاطمئنان إلى الراحة والدفء والطعام . فيحيا الطفل فى هذه السنوات الأولى إذا حياة يمكن أن نقول أنها سعيدة مادام قد توافر فيها الأمن وكانت كلها اطمئنانا — هذا الشعور بالأمن وهذا الاطمئنان هما أساس الثقة بالنفس، وهذه الثقة تساعد الأطفال على أن يتصلوا بغير أمهم من أفراد الأسرة التى يعيشون بينها وتعينهم أيضا على الاتصال بالأصحاب والرفاق ، وعملية استقلال الطفل عن أمه هى التى تخلق منه عضوا فى المجتمع الصغير وهو مجتمع الأسرة أولا . ثم أن انسجامه فى الحياة فى هذا المجتمع الصغير يجعله قادرا على أن يصبح عضوا فى مجتمع كبير يضم الرفاق والأصحاب فى المبنى المجمع أو الشارع ثم يصبح عضوا فى مجتمع أكبر وهو مجتمع المدرسة .

هذا التدرج وهذا التوسع فى دائرة التجارب وهذا الانتقال من مجتمع الأسرة إلى المجتمع المدرسى يجب أن يكون تدريجيا وأن يتم بشكل خاص وبحيث يعد الطفل إعداداً كاملا للانتقال من مجتمع إلى آخر ومن مرحلة إلى أخرى على ألا تكون خطوات هذا الانتقال كما قدمت فجائية لأنها مراحل متداخلة فلا يمكننا بحال من الأحوال أن نقرر أن هذه تبدأ من هنا وهذه تنتهى هنا ..

وللطفل حاجات أساسية ، على الآباء أن يساعدوا على إشباعها دون إسراف أو مبالغة فى هذه المساعدة ذلك لأن الإسراف فى مساعدة الطفل تخلق منه فرداً متكلا قليل الاعتماد على نفسه ، ولو علمت الأمهات أن مجرد معاونة الطفل وتعويده الاتكال عليهن أو على الخدم فى لبسه وخلعه وفى أكله وفى أداء ما تكلفه المدرسة من واجبات يؤثر فى الطفل تأثيرا سيئا ، لامتنعن عن ذلك ، لذلك كانت وظيفة المدرسة أن تبصر الأمهات بأسلوب معاملة الأطفال وطريقة تعويدهم الاعتماد على النفس وعدم الاعتماد على أحد فى القيام بمثل هذه الأعمال، وإنا لنرى فى بعض البيوت والأسر كثيرا من الآباء والأمهات يعملون عن عمد منهم على إضعاف كل ميل عند الأولاد نحو الاعتماد على النفس ، بل ومنهم من يمنعهم من الاتصال بالغير وهذا أيضاً يضر بهم ، ذلك لأن عدم الاتصال بالغير اتصالا منتجاً مفيداً وجعل حياة الوليد مقتصرة على والديه يترتب عليه أن ينشأ الطفل غير مهيأ للتعامل مع الناس بعيدا كل البعد عن سياسة الأخذ والعطاء . واختلاط الأطفال بمن هم فى سنهم من أخوة وزملاء يعلمهم أسلوبا هاما من أساليب الحياة الاجتماعية وهو أسلوب الأخذ والعطاء ويعودهم توقع الهزيمة والقصر ومواجهة الألم والسرور، ويزودهم بكثير من الخبرات والتجارب التى تخلق منهم أفرادا على شىء من الصبر والمتانة والقدرة على الاحتمال وغير ذلك من الصفات التى تتكون منها الشخصية الجديدة التى تعرف الحقوق والواجبات معا ، وبذلك تكون قد أعدت الإعداد الصحيح الضرورى للحياة الديموقراطية الصحيحة فى المجتمع الديموقراطى الكبير .

ووظيفة المدرسة هنا فى توجيه المنزل أنها تعد لتلاميذها جواً ديموقراطيا يتمتع فيه أفرادها بحقوقهم ويؤدون واجباتهم ويمارسون مختلف ألوان النشاط حيث ينتصرون أحياناً ويهزمون أحيانا أخرى ، وهكذا يدربون على

الحياة الصحيحة وعلى الأخذ والعطاء ويعودون عليها فيطبقونها فى حياتهم المنزلية ، بل قد يكونون عاملا قويا فى توجيه باقى أفراد الأسرة الذين لم ينعموا بنعمة المدرسة ولم يكن لهم حظ من التعليم .

وفى أغلب الأسر نجد أن الوالد كثيرا ما يتدخل تدخلا كبيرا فى حياة أولاده ، فهو الذى يرتب لهم أوقاتهم وينظم لهم طريقة صرف نقودهم وادخارها ، وهو الذى يختار لهم ملابسهم وينتقى لهم الأصحاب الذين يلعبون معهم ويزاملونهم وغير ذلك من التدخل الذى يؤثر فى الأطفال تأثيرا سيئا ، فهؤلاء وأمثالهم يتصفون بالتردد وضعف الشخصية ولا يمكنهم أن يصمموا على أمر من الأمور لأنهم لم يدربوا على العمل المستقل ولم يجدوا الفرصة للتفكير والتصميم إذ كان هناك من يؤدى لهم هذا كله . وأحيانا يكون هذا التدخل من جانب الوالدين أو أحدهما بطريقة لاشعورية خارجة عن إرادتهم ، وهؤلاء وأمثالهم يعملون هذا لكى يحققوا لأولادهم ما لم يتحقق لهم هم ، كأن يدفع أحدهم ابنه أو ابنته للتعليم دفعا وقد يكون غير قادر على نفقات الملبس والكتب وغيرها إلا أنه يفعل ذلك لأنه لم تتح له فرصة التعليم من قبل . . ومنهم من يمنح ابنه حرية كاملة كان هو محروما منها فى حياته لأنه عومل فى صغره معاملة سيئة قاسية . . ومنهم من يقسو على الأولاد فى المعاملة ويشتد عليهم ويضيق عليهم حريتهم لأنه عومل وهو صغير نفس المعاملة ولذلك فهو يرى أن هذا هو خير أسلوب للتهذيب . ومن الآباء من يظهر خوفا وقلقا شديدا على صحة أبنائه فهو يشرف على طعامهم وشرابهم ويعطيهم المقويات والفيتامينات ولا يسمح لهم باللعب إلا بقدر محدود خوفا على صحتهم أن يصيبها الإرهاق والتعب ، والآباء أنواع عديدون من حيث تأديبهم لأولادهم ، فمنهم من يعتمد على الضرب المؤلم ومنهم من يعتمد على العقوبات النفسية ومنهم من يلجأ إلى التهديد والوعيد الوهمى وكثير منهم من لا يتبع سياسة ثابتة فى تربية أولادهم ، فحينا تراهم يوافقون على سلوك معين وحينا آخر يعاقبون الطفل عليه ، وهذا التذبذب أو التردد يخلق فى الطفل القلق والاضطراب والضعف .

ومما يؤثر فى تربية الأطفال فى البيئة المنزلية العلاقة بين الوالدين ، فهذه العلاقة مهمة جدا . ففى تعاون الوالدين وفى اتفاقهما حفظ لكيان الأسرة لأنه يجعل الطفل سعيدا لأنه ينشأ فى جو هادىء مطمئن فتكون نشأته كاملة متزنة متكاملة ، وهذا الجو يخلق منه شخصا يمكن الاعتماد عليه لأنه يثق فى نفسه ويحسن معاملة الناس والتعامل والتعايش معهم ، وقد ثبت من الإحصاءات أن حوالى ٧٥ ٪ تقريبا من حالات التشرد والإجرام من أولاد وبنات نشأوا فى أسر مفككة سواء أكان هذا التفكك بسبب الوفاة أو بسبب النزاع بين الأبوين أم بانفصال أحدهما عن الآخر أو غير ذلك . . كل هذا يجعل جو المنزل خانقاً منغصا للطفل لا يجد فيه أمنا ولا اطمئنانا ولا سعادة ولا توجيها فالكل عنه لاهون فلا يجد سوى الهرب من هذا الجو البغيض إلى الشارع وإلى رفاق السوء . وهناك ناحية أخرى فى البيئة المنزلية لها أثر كبير فى تربية الطفل وتنشئته ، هذه هى مركز الطفل فى الأسرة هل هو الأول أو الثانى أو الأخير ؟ هل هو الذكر الوحيد الذى ولد بعد عدة بنات ، هل هو وحيد والديه ؟ هل هو الذى بقى لهم بعد وفاة آخرين ؟ فمركز الطفل فى الأسرة يؤثر تأثيرا كبيرا جدا فى سلوكه وفى تربيته فهو الذى يجعله مدللا مقربا عن أخوته وهو الذى يثير الغيرة فى الباقين . وإذا كان الطفل هو الأول فى الأسرة فإن الغيرة تنشأ فى نفسه إذا جاءه أخ أو أخت تجذب انتباه الوالدين وتأخذ جزءاً من حبهما الذى اختص به وحده من قبل ، ونحن نعرف أن الطفل الثانى فى الأسرة أصلب

عوداً وأقوى بأسا من الأول، والطفل الأخير يشعر بشيء من الضعف وعدم القدرة على النمو ويتميز بعدم الثقة وينظر إليه دائما على أنه طفل، ولذلك ينشأ وينمو ويكبر مدللا شاعرا بنقصه وضعفه، ويترتب على ذلك أن الطفل يقوم بعملية تعويض وهذا التعويض أحياناً يكون ناجحاً وأحيانا يكون فاشلا . أما طفل الأسرة الوحيد فينشأ غالباً غير قادر على التعامل الناجح ولا يشعر كثيراً بالمسئولية والواجب ولكنه يطالب بحقوقه التى لا يؤمن إلا بها .

قدمت أن المدرسة بيئة أوجدها التطور الاجتماعى لتؤدى رسالتها نحو المجتمع الذى هى جزء منه تتجاوب معه وتعمل على ترقيته وعلى رفع مستواه . والمنزل ناحية من نواحى هذا المجتمع ولذلك كان من أهم وظائف المدرسة التعاون مع البيت والعمل على رقيه وسد النقص فيه . وكانت المدرسة من قبل تعيش عيشة انفصالية عن المجتمع ولا صلة بينها وبين البيت أو غيره من نواحى المجتمع ، أما الآن فقد أصبحت رسالة المدرسة أن تكون مصدر إشعاع ورائد إصلاح وأصبحت بحكم وجودها مسئولة عن البيت وعن خدمته وتوجيهه بما لها من الإمكانيات وما توافر فيها من ذوى المؤهلات والخبرات من المدرسين والنظار الذين أصبحت مسئوليتهم وواجبهم أمام الله والوطن الرقى بأفراد المجتمع وبذل كل ما يملكون من جهد لرفع مستوى تلاميذهم والبيوت التى نشأوا فيها ، ذلك لأن المعلمين هم أعلم الناس وأكثرهم خبرة بالتلاميذ وهم خير من يؤدى الرسالة ويعالج مشكلات البيت ويتعاون مع أهله على ما فيه خيرهم وخير أبنائهم ، فالمدرسة تتلقى الطفل بعد سنوات ست يقضيها فى المنزل وهى تستمر مؤثرة فيه وتكونه تكوينا خاصا إلى أن يخرج إلى الحياة ويضطلع بمسئولياته فى المجتمع ، لهذا كان من الواجب أن يتصل المنزل بالمدرسة وأن تتصل المدرسة بالمنزل ويتعاونا وأن تؤدى المدرسة واجبها نحو البيت من توجيه وإرشاد، وأول ما يجب على المدرسة معرفته كما قدمت الظروف المنزلية التى تحيط بالطفل وهى الظروف المختلفة التى ذكرتها ، خاصة بعد أن عرفنا مدى تأثيرها فى تربية الأطفال وفى شخصياتهم ، فتستطيع أن ترشد الوالدين إلى مايعود على أولادهم من ضرر إذا هم أسرفوا فى تدليلهم حتى لا يروا فارقا كبيرا فى المعاملة بين المنزل حيث التدليل والمدرسة حيث المسئولية والواجب والحساب على الأخطاء وحيث الأخذ والعطاء والهزيمة والنصر . . والمدرسة من جانبها تؤدى واجبها نحو تقوية المسئولية الاجتماعية فى التلاميذ وتقوية روح الولاء . فوظيفة المدرسة لكى تخدم البيت والأسرة أن تحقق للطفل فى جوها كثيرا مما يتحقق له فى جو المنزل من الاطمئنان والعطف والحب ، كما يجب أن تشبع المدرسة فى تلاميذها الرغبة فى العمل وحب الاستطلاع والبحث ومتابعة ذلك فى المنزل إذا كانت ظروف الأسرة تسمح بذلك وإلا عاونتها المدرسة من جانبها ووفرت لها ما تريد . والمدرسة بحكم مركزها الاجتماعى يجب أن ترفع من مستوى الأسرة وتسهم فى إزالة الأمية الثقافية وبذلك تربى الوالدين وتعلمهم وتبصرهم وتجعلهم على اتصال دائم وثيق بالحوادث الجارية فى بلدهم وفى العالم المتصل به وتعرفهم حقوقهم وواجباتهم، وتمحو أميتهم الصحية عن طريق الندوات والنشرات الصحية والأفلام والصور التى تبين لهم ما يجب عليهم أن يتبعوه ليقوا أنفسهم وأبناءهم شر الأمراض المختلفة المتفشية بينهم والتى يساعد الجهل على تفشيها .

فتستطيع المدرسة أن تفتح أبوابها لأهل القرية أو الحى ويقوم المدرسون بواجبهم نحو الأهالى وأولياء أمور

تلاميذهم فى هذه النواحى جميعا ، وتستطيع المدرسة أن تنظم لهم أحاديث مبسطة فى الإرشاد الزراعى والصحى والدينى فى المناسبات المختلفة وهذا هو واجبها وهذه هى وظيفتها الاجتماعية فى هذا العصر الحديث . .

وتعليم الآباء والأمهات عن طريق المدرسة والمدرسين من الوظائف الهامة للمدرسة ومن الخدمات الرئيسية التى يجب أن تقدمها ، فإنه بسبب جهل الكثيرين من الآباء والأمهات وبسبب عجزهم عن فهم ما يجب عليهم معرفته عن أساليب تربية الأطفال ومعاملتهم بسبب ذلك نجد انحرافاً وخطأ كبيراً فى هذه التربية ويترتب عليه ما ذكرناه ويسبب تكوين عادات سيئة قد تعجز المدرسة عن تقويمها فيما بعد . فواجب المدرسة إذا أن تعالج أمية الوالدين الثقافية وتقدم لهم فى اجتماعات تعقدها لهم من الإرشاد ما يوجههم إلى أمثل الطرق فى تربية الأطفال وتأديبهم ، كما أن فى وسع المدرسة أن تعد ندوات منظمة يجتمع فيها الآباء والأمهات لحل مشكلات أطفالهم ويستفيدون منها أكبر فائدة .

ومن الوظائف الرئيسية أيضا لخدمة البيت الإسهام فى رفع مستوى المعيشة فى الأسرة بأن تعد الأبناء والبنات وتنشئهم تنشئة عملية استقلالية حتى إذا أتموا الدراسة يمكنهم أن يعتمدوا على أنفسهم ويكسبوا قوتهم ويشقوا طريقهم فى الحياة . كما يمكنها أيضا أن تنشر الوعى التعاونى فى المدرسة بتشجيع الجماعات التعاونية بين التلاميذ وإنشاء هذه الجماعات فى القرية أو الحى وبذلك يستفيد الأهالى ويتوافر لديهم بعض المال ويسهمون جميعا فى إرساء قواعد المجتمع التعاونى الصحيح .

وتستطيع المدرسة أن تخدم البيت أيضا إذا هى ساهمت فى تعليم الأمهات والآباء بعض الأعمال والحرف النسوية كالخياطة والنسيج والاقتصاد المنزلى وعمل السلال والمنتجات الزراعية وغيرها . وهى بتوجيههم إلى هذ المسائل تزيد من دخل الأسرة وترفع مستواها الاقتصادى والثقافى وخصوصا إذا أضافت إلى ذلك تعريف أولياء الأمور والأهالى بالمشروعات الإنتاجية والاقتصادية والصناعية الجديدة التى تزمع البلاد القيام بها . . وبذلك ينتشر الوعى الصحيح بين أفراد المجتمع وتساهم المدرسة مساهمة فعلية فى إذكائه ، وهذا من صميم وظيفتها لخدمة البيت والمجتمع . .

وتلاميذ المدرسة الذين هم أبناء البيوت المختلفة والذين ينتمون إلى عدد كبير من الأسر يمكنهم بإرشاد ومعاونة مدرسيهم أن يكونوا عوامل إصلاح ورقى فيعملون جميعا على رفع مستوى الأسر الصحى عن طريق التوجيه والنصح والأفلام الصحية والإعلانات والصور التى توزع عليهم ويقوم بعملها مدرسو المدرسة أو قسم الإرشاد الصحى فتوضح لهم الوقاية من الأمراض التى تفتك بهم وتبين لهم الغذاء الصحى وأضرار المكيفات والمياه الملوثة وضرورة المحافظة على النظافة فى المأكل والملبس والمسكن ، وبذلك تنشر المدرسة الوعى الصحى بين أولياء أمور تلاميذها وتوفر للبلاد قوى عاملة هى فى حاجة إليها .

والمدرسة إذا فتحت أبوابها للأهالى وأولياء الأمور ونظمت لهم ألوانا مختلفة من النشاط الترويحى والألعاب الشعبية السلية والحفلات التمثيلية والسينمائية التى تعمل على التوجيه والإرشاد فى النواحى المختلفة تسهم مساهمة فعالة

فى خدمة البيت والمجتمع وتكون بذلك قد أدت وظيفتها كما يجب أن تؤدى، والأهالى فى الريف أكثر ما يكونون حاجة إلى من يبصرهم بأمور دينهم ومن يوقفهم على مضار الخرافات المنتشرة بينهم، وليس هناك خير من المدرسة لتقوم بإرشاد أولياء الأمور وأهالى القرية إلى ضرورة العناية بالنواحى الصحية، وعلى المدرسين أن يساعدوهم مساعدة فعلية مستعينين بكبار التلاميذ على رفع المستوى الصحى ومراعاة النظافة ونقل الأسمدة بعيداً عن المنازل ورشها بالمطهرات وتحصينهم ضد الأمراض والعناية بعيون الأطفال فى المدرسة وفى القرية وما إلى ذلك من الخدمات التى تقدمها المدرسة إلى القرية، وبذلك يشعر الجميع بأهمية المدرسة ويؤمنون برسالتها ويضعون ثقتهم فى ناظرها ومدرسيها . . .

وتستطيع المدرسة أن تخدم البيت عن طريق ما تغرسه فى نفوس تلاميذها من الروح القويمة والإيمان بالوطن فى كل درس وفى كل مناسبة وبذلك ينشأ أفراد الأسرة وكلهم إيمان بالوطن وكلهم ولاء وحب له . .

وليس أجدر بتوجيه البيت العربى وجعله مثلا عاليا ونموذجا حيا ساميا ومجالا هادئا وادعا من المدرسة بتعهدها الطفل منذ نعومة أظفاره بما اشتملت عليه مناهجها من مواد وموضوعات لغوية وعلمية وفنية واجتماعية واقتصادية وإنتاجية وترويحية وروحية . .

فالمدرسة توفر لأبناء الأمة العربية جميعا ما يحتاجون إليه من الأساسيات والمهارات والاتجاهات القومية العربية الخالصة العالية، فتخلق الفتاة والفتى الجديرين بالحياة الكريمة التى تسمو بالأسرة وتنهض بالبيئة فيرقى المجتمع العربى وبرقية تنهض دوله وتتوثق أواصر المحبة والصداقة بينها، فيحس كل واحد من المجتمع الكريم بأحاسيس أخيه فيسعد بسعادته ويشقى لشقائه .

فالمدرسة هى التى تلقن الطفل مقومات القومية العربية وتدعو إلى التمسك بها والكفاح فى سبيلها لينجح العرب فى كفاحهم ضد الطامعين والمستعمرين الذين بدأ ظلهم يتقلص وجبروتهم يضمحل وأخذوا ينكمشون ويقبعون فى ديارهم فلا صولة ولا سلطان ولا دولة كبرى ولا استبداد ولا استغلال . وإن انتشار المدارس فى البلاد العربية وتعميمها وتوحيد خططها ومناهجها حتى يقضى على الأمية الدينية والعقلية واللغوية والقومية والصحية فيه سمو للبيت العربى سموا يرفعه إلى مصاف البيوت الراقية وأن يكون البيت العربى مثلا أعلى للبيئة الصالحة للإنتاج والإثمار والتربية الصادقة فى مرماها وأهدافها . بالتعاون مع المدرسة والإخلاص والتعاضد والتساند مع القائمين بأمر هذا الوطن العربى والأقطار العربية المتعددة فى أسمائها المتحدة فى أهدافها وأغراضها ومبادئها .

هذه المدارس برهان حق على نهوض هذه البلاد العربية وانتفاضة سباقة إلى المجد، لا ركود بعدها، ودعوة كريمة صادقة إلى تحقيق القومية العربية ورفع لوائها حتى تقف سدا منيعا ضد قوى الاستعمار والرجعية والاستبداد والتسلط على البلاد العربية والتغلغل فيها حتى تصير شيعا وأحزابا فتضيع قوتها هباء ويذهب ريحها ذهابا . .

فالمدرسة هى التى تجعل أبناءنا عربا بألسنتهم وعقولهم وقلوبهم وفكرهم ووجدانهم وعواطفهم ودينهم وخلقهم وبذلك يعتزون بهذه العروبة الخالدة على مر السنين وكر الدهور، فيعيدون لها جدتها ووحدتها، وينهضون ببنائها راسخا شامخا . . .

هؤلاء الأبناء هم الذين سيحملون بعدنا مسئولية النهوض ببلادنا العربية والسعى فى طريق التحرر الكامل والعز الشامل . وهيهات بعد هذه الانتفاضة العربية المجيدة أن تخضع بلادنا بعد الآن لمستعمر أو دخيل . . .

البيت العربى فى تجربة مركز التنظيم والتدريب بقليوب

الأساتذة

جمال شتيه سليم الكفراوى

دكتور فخرى أسعد

(الجمهورية العربية المتحدة)

أولا : تطور الخدمات العامة فى البيئة الريفية :

يبلغ عدد القرى فى الإقليم المصرى ٤٠٠٠ قرية وتعداد سكانها ١٥ مليونا يعيش فالبيتهم العظمى على الزراعة بينما تبلغ مساحة الأراضى المنزرعة ٥,٥ مليون فدان أى أن متوسط مايخص الأسرة المكونة من خمسة أفراد حوالى فدانين وهذه مساحة ضئيلة وقد كان سكان الريف يعتمدون كلية على الزراعة لعدم انتشار الصناعة التى بدأ اتجاه إليها منذ ربع قرن ، وظلت الثروة المعدنية مدفونة فى باطن الأرض دون استغلال ، واقتصر التعليم على طبقة الأغنياء وفئة قليلة من متوسطى الحال . وكانت ميزانية الدولة محـــدودة والقرية المصرية بعيدة كل البعد عن المدنية والحضارة والعمران لاتربطها شبكة مواصلات .

كل هذه العوامل أحاطت بحياة الفلاح المصرى حقبة طويلة من الزمن يعانى خلالها الفقر والجهل والمرض .

وفى خلال عام ١٩٢٧ بدأ التفـكير فى رفع المستوى الصحى بالقرية حيث صدرت بعض القوانين الخاصة بردم البرك والمستنقعات وتزويد القرى بالمياه الصالحة للشرب وقد تم إنشاء بعض المستشفيات المركزية والقروية لعلاج المواطنين ، كما اهتمت الدولة بعلاج الأمراض المتوطنة والأرماد ورعاية الطفولة والأمومة .

ومنذ ذلك التاريخ أخذت العناية بالريف تتزايد كما هو مبين فيما يلى :

١ — مجالس المديريات .

صدر قانون بإنشائها سنة ١٩٣٤ لتنفيذ مشروعات الإصلاح بكل مديرية . وكانت هذه أول محاولة فى (مصر) لتطبيق نظام اللامركزية .

٢ — وفى سنة ١٩٣٦ أنشئت وكالة للمرافق العامة بوزارة الصحة وكان أهم أهدافها :

ا — تعميم مياه الشرب النقية .

ب — ردم البرك والمستنقعات .

٣ — وفى خلال عام ١٩٣٩ أنشئت وزارة للشئون الاجتماعية لرفع المستوى الاجتماعى للمواطنين وكان من أهم أعمالها إنشاء مراكز اجتماعية لكل مجموعة من القرى تعدادها ١٠,٠٠٠ نسمة من السكان أختيروا من بين القرى المحرومة من الخدمات الاجتماعية أو الصحية على أن يساهم الأهالى فى إنشاء وإدارة هذه المراكز الاجتماعية .

٤ — وفى خلال عام ١٩٤٢ صدر القانون رقم ٤٧ يهدف إلى رفع المستوى الصحى فى القرية وبموجبه أنشئت إدارات صحية وهندسية بمجالس المديريات تتولى شئون الإصلاح القروى بالمديرية تحت إشراف وتوجيه مصلحتى الشئون القروية . ولكنه مع الأسف عدل هذا القانون عام ١٩٤٧ بالقانون رقم ٦٢ الذى بمقتضاه سلخت الإدارات الصحية والهندسية من مجالس المديريات وألحقت بوزارتى الصحة والشئون القروية وبذلك عاد بنا هذا القانون مرة أخرى إلى نظام المركزية المطلق وحرم الأقاليم من حق لها كان الأفضل أن تظل تمارسه .

٥ — وفى ٦ ديسمبر سنة ١٩٤٢ أصدر مجلس الوزراء قراراً بتأليف لجنة تنسيق الخدمات العامة التى تقوم بها وزارات الصحة والشئون الاجتماعية والمعارف والزراعة والشئون البلدية والقروية وذلك بتنسيق المنشآت والمؤسسات طبقا لاحتياجات البيئة الريفية حتى تستكمل القرى جميع المرافق العامة التى تحتاج إليها وتسير مشروعات الإصلاح جميعها فى وقت واحد جنبا إلى جنب .

٦ — وفى سنة ١٩٤٣ صدر قانون بإنشاء وحدات زراعية بالمراكز لرفع المستوى الاقتصادى من طريق تنمية الثروة الزراعية والعناية بالثروة الحيوانية .

٧ — وفى سنة ١٩٤٥ أنشأ مجلس الوزراء المجلس الأعلى للفلاحين والعمال وكان من أهدافه إنشاء مجموعة صحية لكل ٣٠٠٠٠ من السكان ومركز اجتماعى لكل ١٠٠٠٠ ووحدة زراعية بيطرية لكل ٥٠٠٠٠ ومدرسة ريفية بكل قرية ونفذ هذا المشروع فى مركز منوف كتجربة .

٨ — وفى نهاية عام ١٩٤٧ أجريت فى خمس قرى بمركز قليوب تجربة لتحسين الحالة الصحية بها بمعرفة الحكومة المصرية ومؤسسة روكفلر واستمرت هذه التجربة مدة خمس سنوات ، وجاء بتقريرها أنه لا يمكن رفع المستوى الصحى فى جهة ما إذا لم توجه الجهود فى نفس الوقت نحو رفع المستوى الثقافى والاقتصادى والاجتماعى .

٩ — وفى سنة ١٩٥١ أقترحت الهيئة الصحية العالمية على الحكومة المصرية إنشاء مركز لإجراء تجربة لرفع المستوى الصحى ولكن حكومة الثورة على ضوء ما تبين لها من التجارب والخبرات السابقة استصدرت قانونا

يكفل إدماج الخدمات العامة مع الخـــدمات الصحية على أسس لا مركزية فأنشىء هذا المركز فى أبريل سنة ١٩٥٣ بقليوب .

ثانياً : السياسة التخطيطية للخدمات بمركز التنظيم :

ويهدف المركز إلى تنظيم وتنسيق الخدمات على المستوى المحلى توطئة لإدماجها فى البيئة وهو إعداد الأهالى للحكم المحلى وذلك بتنسيق الخدمات الحكومية مع الخدمات الأهلية وإشراك الأهالى فيها إشراكا عمليا .

وقد روعى فى تنظيم وتنسيق الخدمات بمنطقة المركز أن تكون على قدر من المرونة بحيث تلائم طبيعة البيئة زمانا ومكانا وتصبح متفقة مع التطور التدريجى الذى تتمخض عنه هذه الخدمات مما يكفل تمشى الخدمات مع الإمكانيات الاجتماعية والاقتصاديةوالصحية ، ومن هنا بدأ المركز فى تخطيط الخدمات العامةعلى أساس علمى متخذا الخطوات الآتية :

١ — الفترة التحضيرية :

(ا) إجراء بحوث لمعرفة احتياجات ومشاكل البيئة والمجتمع .

(ب) إجراء البحوث عن المنظمات الاجتماعية وما تقوم من خدمات فعلية .

(ج) إجراء البحوث عن الموارد الطبيعية والإقتصادية والثقافية والانسانية فى المنطقة .

(د) دراسه التقاليد والعادات ومدى إدراك المجتمع والتماسك العائلى بين الأسر .

٢ — الفترة التنفيذية :

(ا) تخطيط البرامج وطرق تنفيذها وتتبعها .

(ب) تدريب العاملين بالحقل من مختلف الطوائف على العمل فى الميدان كفريق .

(ج) تدعيم المؤسسات الأهلية حتى تأخذ دورا فعليا فى النهوض بالمجتمع .

وقد بدأ المركز فى تخطيط برامج الأسرة الوحدة العاملة فى المجتمع للأسباب الآتية :

١ — التمشى مع روح الإسلام وتعاليمه .

٢ — التمشى مع نص الدستور بأن الأسرة هى أساس المجتمع وقوامها الدين والأخلاق والوطنية .

٣ — ما اتضح من أن جميع المؤسسات المنشأة بالمنطقة والتى تخدم القرية فى النواحى الصحية والزراعية والاجتماعية تقدم خدماتها للأفراد وليست للأسرة وتجاهلت بذلك كثيرا من العوامل المسببة لتلك المشاكل كالمسكن والبيئة المحيطة والعوامل الخارجية الأخرى المؤثرة فى المجتمع .

٤ — انهيار خدمات كثير من المؤسسات التى تقوم بتأدية خدماتها على مستوى الفرد لعدم تنظيم خدماتها على أساس سليم .

٥ — ظهور قيم جديدة بالمجتمع نتيجة للتقدم والحضارة .

٦ — زيادة عدد السكان بالنسبة للرقعة الزراعية مما أدى إلى تفتت الملكية .

٧ — تطور الحالة الاقتصادية وتعدد نواحى الدخل والمنصرف مما أدى إلى استقلال الأسرة اقتصاديا وبذلك أصبحت الأسرة هى الوحدة الإنفاقية التى يعيش فيها الفرد .

لذلك نظر المركز إلى إعطاء الأسرة الشخصية المعنوية وتقوية الروابط بين الأسر وتوجيههم إلى حل مشاكلهم بأنفسهم بما يعود عليهم بالنفع وعلى المجتمع بالخير .

ولما كانت الأسس التى تقوم عليها الخدمة فى الريف هى :

١ ـ التعرف على الحالة الراهنة وما تشتمل عليها من مشاكل وحاجيات ، ولما كانت الطرق الإحصائية السليمة هى الوسيلة الوحيدة لمعرفة المشاكل المادية التى تقبل التحليل الإحصائى العددى فقد لزم التوصل للأسرة أى الوحدة الأساسية للتعرف على هذه المشاكل والحاجيات .

على أن هناك عوامل أخرى فى البيئة لا يمكن تحليلها تحليلا عدديا وهذه العوامل نفسية ناتجة عن تعرض الريف للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية على مدى الأحقاب .

٢ ـ تحديد العلاقة بين العوامل المادية المحددة التى تؤثر على المجتمع تأثيراً مباشرا هى :

(ا) الانتاج والدخل ، وهى تمثل العوامل الاقتصادية وإمكانيات توجيه الزائد من الدخل نحو زيادة الإنتاج ورفع المستوى المعيشى .

(ب) الحالة الصحية ، وتمثل إمكانيات الفرد السليم فى خدمة مجتمعه أى إمكانيات تحرره من العوامل المرضية .

(جـ) البيئة الصحية ـ إمكانيات العوامل البيئة من حيث توافر المسكن الصحى والقرية الصحية والحقل التى تحدد علاقة الأسرة بالسكن والمجتمع القروى والحقل .

(د) البيئة الاجتماعية ، لتحديد تكوين الأسرة والعائلة ، وتحديد تطور الحالة الاجتماعية من حيث تكوين وحدات اجتماعية منظمة (الجمعيات التعاونية) ومدى اشتراك الأهالى فى هذه الجماعات ومدى الخدمات التى تؤديها هذه المنظمات للمجتمع .

(هـ) التعليم ـ مدى إمكانيات المؤسسات التعليمية فى استيعاب أطفال القرية وتحديد نسب ومستويات التعليم وإمكانيات النهوض بالمستوى العلمى فى القرية .

٣ ـ تحديد المشاكل والحاجيات وتقويمها من حيث أهميتها للمجتمع .

٤ ـ حصر الإمكانيات على المستويات المختلفة لمعرفة إمكان وضع برامج الخدمات على نظام من الأولوية يسمح بمواجهة الحاجيات والمشاكل فى النطاق الآتى :

(ا) حد أدنى للخدمات يقوم على إمكان التوصيل إليه فى أقصر الأوقات .

(ب) برامج طويلة الأمد لرفع المستوى الاجتماعى والاقتصادى والثقافى .

* ـ تقويم البرامج من حيث :

(ا) مدى إشتراك الأهالى فيها .

(ب) مدى استيعاب الأهالى لها .

٣ ـ إمكانيات الاهالى فى قيامهم بتنظيم مجتمعهم وخدمته بأنفسهم ، أى إمكانيات اعتماد المجتمع على نفسه فى تأدية الخدمات.

على ضوء ماسبق ذكره وجد المركز نفسه أمام مشكلتين :

١ ـ تحديد البيانات الإحصائية الأساسية للعوامل المحددة التى يجب توافرها لمعرفة مدى تأثيرها على المجتمع .

٢ ـ تحديد إمكانيات الانتفاع بهذه البيانات فى الخدمات المباشرة .

٣ ـ التعرف على العوامل غير المحدودة .

وقد واجه المركز المشكلة الأولى عن طريق القيام بتعداد شامل لمنطقة المركز متخذا الأسرة الوحدة الأساسية حتى يتمكن من حصر العوامل السكنية والاقتصادية والبيئة الصحية المؤثرة على الأسرة والمتأثرة بها .

وقد حدد مجال البيانات الإحصائية الأساسية للعوامل الآتية :

١ ـ موازنة أهمية البيانات مع إمكانيات الانتفاع بها فى وضع برامج الخدمات .

٢ ـ إمكانيات جامعى البيانات .

٣ ـ إمكانيات الأسرة فى إعطاء البيانات .

٤ ـ الإمكانيات المالية والعامل الزمنى لجمع البيانات .

كما واجه المركز العامل الثانى «تحديد إمكانيات الانتفاع بالبيانات الإحصائية فى الخدمات المباشرة» بأن جعل البطاقة الاحصائية العائلية سجلا إحصائيا دائما يحتفظ به على المستوى المحلى ويصوب باستمرار بمعرفة العاملين بالحقل حتى يكون مطابقا للواقع فى كل زمان .

أما عن المشكلة الثالثة وهى « التعرف على العوامل غير المحددة » فقد وجد المركز لزاما عليه أن يعمل على إدماج العـــاملين بالخدمات فى المجتمع الذين يعمـــلون به بحيث يكونون جزءا لا يتجزأ من المجتمع يحسون بإحساساته ويتأثرون بمؤثراته .

ولامكان العمل فى حدود إمكانيات المركز لمجابهة هذه المشاكل الثلاث كان لزاما على المركز أن يصل للقرية ليستخلص منها البيانات المحددة وغير المحددة ، إلا أن القرية إلى حين إنشاء المركز كانت تؤخذ على أنها الوحدة الأساسية فى الريف دون محاولة التعرف على الوحدات المكونة لها وهى ـ الأسرة ـ فلم يكن للأسرة الكيان الأساسى فى المجتمع، فالقرية غير مخططة والأسرة بدون عنوان ولا يمكن لأى فرد غريب عن البيئة التعرف على الأسرة إلا عن طريق الهيئه الإدارية بالقرية ـ العمد أو المشايخ أو الخفراء ـ ولما كانت الخرط الموجودة وقتئذ هى خرط مساحية تحدد الرقعة الزراعية فى زمام القرية لذا كان على المركز أن يبدأ بالخطوة الأساسية الأولى لأى عمل إنشائى وهو رصد تحديد معالم القرية المصرية ـ أى تقسيم القرية وترقيم مساكنها .

وقد جابهت المركز صعوبة ترقيم المنازل على الطبيعة وذلك لعدم وجود أى نظام تخطيطى للقرية فالمنازل مكدسة لعدم توافر الرقعة المساحية السكنية وتفتت البيوتات الكبيرة إلى منازل صغيرة على مستوى أسرى .

لذلك كان على المركز أن يضع نظاما موحداً لترقيم المنازل يعتمد على مربعات المساكن دون التقيد بالشوارع

والأزقة (التى لا تحمل أى اسم مميز فى أغلب الأحيان) وقد قام المركز بتقسيم القرية إلى مناطق تتميز بعوامل بيئية يمكن التعرف عليها كوجود مدرسة أو ضريح أو جامع أو كنيسة وذلك تمشيا مع سياسة خلق وحدات متحركة فى المجتمع الواحد .

وبذلك أصبح للأسرة كيان معروف مستقر وعنوان ثابت فى وحدة مميزة فى مجتمع محلى ، وكان هذا هو العامل الأول فى إعطاء الأسرة الشخصية المعنوية كما أمكن بذلك الوصول للأسرة مباشرة لإيجاد علاقة ورابطة قوية بين القائمين بالخدمات والأسرة .

وعلى هذا الأساس قام المركز بعمل التعداد الشامل للمنطقة بطريقة إحصائية سليمة تمكنه من تحديد المشاكل البارزة الأساسية على مستوى القرية .

إلا أن هذا التعداد لم يشمل دراسة العوامل الراسبة فى النفس من تراكم العقائد والعادات وعوامل البيئة والمجتمع وقد اعتمد المركز فى التعرف على هذه العوامل على دراسات خاصة للأسرة عن طريق الاتصال المباشر الدائم بها وكان ذلك جزءا من برامج إيصال الخدمات مباشرة للأهالى .

وتمشيا مع الأسس السليمة فى وضع برامج الخدمات فى حدود إمكانيات العاملين بالخدمات والإمكانيات المالية فقد لزم على المركز أن يحدد الأفراد الذين يكونون مسئولين عن الاتصال المباشر الدائم بالأسرة .

وقد قام المركز باستعراض العاملين بالريف على المستويات المختلفة وتحديد إمكانياتهم وقد وجد المركز فئتين على المستوى المحلى يمكن استغلالهما وهما:

مساعدة المولدة :

وهذه الفئة من العاملات بالحقل وكما يدل الاسم تختص بأعمال رعاية الأمومة والطفولة على مستوى مهنى متوسط . وهى حاصلة على شهادة التعليم الابتدائى أو مايعادله وشهادة فى الولادة ، وللحصول على الأخيرة تقوم المساعدة بدراسة علمية بمستشفيات الحكومة المعنية وتدريب مهنى لمدة ستة أشهر بالمستشفيات .

وقد روعى فى اختيار مساعدة المولدة العوامل الآتية :

١ ـ تواجد العدد الكافى من المدارس الخاصة بإخراج هذه الفئة .

٢ ـ إمكان إعداد العدد الكافى من نفس البيئة إذ أن مؤهلات الالتحاق بالمدارس يتوفر بتحصيلها على المستوى المحلى .

٣ ـ طبيعة عملها تستلزم تعرفها بالأسرة

إلا أن المركز واجه العيوب الآتية :

١ ـ عدم الكفاية الثقافية

٢ ـ عدم التخصص المهنى

وقد أمكن للمركز التغلب على هذا النقص بإعداد برامج للتدريب الثقافى والتدريب بالحقل ، وقد اعتبر المركز « مساعدة المولدة » الحد الأدنى لمستوى العاملين بالخدمات فى الحقل ولتحديد إمكانيات « المساعدة » فى ربط الأسرة ببرامج الخدمات قام المركز بتجربه تخصيص مساعدة واحدة لكل (٣٠٠) أسرة ، وقد أمكن للمساعدة فى حدود هذا العدد زيارة الأسرة بمعدل مرة كل ثلاثه أشهر علاوة على زيارات التتبع لحل المشكلات والحاجيات التى تنشأ فى هذه الزيارات الدورية .

وقد تم هذا التخصص عن طريق تقسيم مجموع منازل القريه إلى مجموعات كل مجموعة تحوى ٢٣٠ - ٢٥٠ منزل تقريبا .

الملاحظ الصحى :

وهذه الفئة من العاملين بالبيئة يتوفر العدد اللازم منهم بوزارة الصحة كملاحظين للبلهارسيا والملاريا ، وإن كان عملهم بالوزارة يقتصر على بعض النواحى المحدودة من أعمال تحسين البيئة ، ولما كان عملهم لا يشغل وقتهم طوال السنة ولما كان قيامهم بالعمل على مستوى مركزى محض فقد رأى المركز الانتفاع بهم على المستوى المحلى .

وقد واجه المركز فى استخدام هذه الفئة المشاكل الآتية :

١ ـ تمرينهم المحدود فى مجال ضيق ـ بلهارسيا أو ملاريا

٢ ـ تفاوت مؤهلاتهم العلمية .

وقد تغلب المركز على هذه العقبات بتدبير مايأتى :

١ ـ نظام دقيق للاختيار .

٢ ـ تدريب علمى ومهنى بالحقل .

وبذلك أمكن استغلال هذه الفئة فى الاتصال المباشر بالأسرة للتعرف على مشاكل المسكن الصحية ورفعها لإخصائى تحسين البيئة والاشتراك فى إيجاد الحلول بل والاشتراك الفعلى فى حل المشاكل على مستوى الأسرة والجماعة فى حدود القرية .

كما أوكل إليه العمل بالبيئة بالقرية وفى حدود « ٥٠٠ » متر خارجها لمكافحة البلهارسيا والملاريا.

الحافظة العائلية

ولما كانت الأسرة هى الوحدة الأساسية فقد أوجد المركز نظام المحافظة العائلية وذلك من واقع بطاقات التعداد العائلية على أن تكون السجل الدائم للأسرة تصوب حسب تغيير تكوين العائلة أو تنقلها .

والبيانات المميزة للحافظة هى ـ رقم المنزل واسم رب الأسرة وأسماء أفرادها وتواريخ ميلادهم .

وقد روعى فى تصميم الحافظة أن تستوعب البطاقات الفردية والعائلية والسكنية حتى تكون مرجعا لكل عامل بالقرية .

وحدات الخدمات العامة:

ولوضع هذا النظام فى حيز التنفيذ على المستوى المحلى عمل المركز على إيجاد تنظيم لإدماج الخدمات على المستويات المختلفة وذلك فى نطاق الوحدة العامة للخدمات .

وقد روعى فى تغطية سكان المنطقة بالوحدات العامة للخدمات :

١ ـ الرقعة الجغرافية

٢ ـ المواصلات

٣ ـ الخدمات الموجودة فعلا

٤ ـ الإمكانيات المادية والفردية المحلية

٥ ـ حجم القريه وبعد القرى بعضها عن بعض أى كثافة السكان بالنسبة للرقعة الجغرافية.

وقد توصل المركز إلى أن « ٤٠٠٠٠ أو ٥٠٠٠٠ » من السكان هو العدد المناسب لتغطية الخدمات .

وتتمثل فى الوحدة العامة للخدمات أوجه الخدمات الآتية :

١ ـ الخدمات الطبية والصحية العامة ٢ ـ تحسين البيئة الصحية ٣ ـ الخدمات الاجتماعية

٤ ـ الخدمات التعليمية ٥ ـ الخدمات الاقتصادية من زراعة وتصنيع ريفى وطب بيطرى

وتعمل الوحدة فى النطاق التنظيمى الآتى :

وحدة رئيسية تجمع رؤساء الأقسام سالفة الذكر وممثلى القرى التى تخدمها فى مجلس إدارة واحد .

وإن كان رأى الأهالى مازال استشاريا إلا أن مدى نجاح هذا المشروع سيقوم تبعا لإمكان الأهالى تحمل مسئولية الاشتراك الفعلى فى وضع السياسة العامة لبرامج الخدمات وتتبع تنفيذها بالقرية ، وهذا كله توطئة لتطبيق نظام الحكم المحلى .

والخدمات الأساسية المعمول بها فى جميع قرى الوحدة تتمثل فى :

١ — الاتصال المباشر بالأسرة :

١ — لتتبع الحاجيات والمشاكل ـ ولما كانت الخدمات الطبية هى التى تجتذب كل فرد تقريباً فى المجتمع فقد استغلت فى التعرف على الأسرة وحاجياتها ومشاكلها المختلفة .

٢ — زيارات دورية — للتعرف على الأسرة وتثقيف أفرادها ثقافة اجتماعية أهم أركانها :

(ا) مدى إمكان وحدة الخدمات العامة فى تلبية الحاجيات .

(ب) حثهم على التعرف على مشاكلهم والإفصاح عنها .

وهذا الاتصال المباشر بالأسرة يسمح للوحدة التعرف على النواحى المختلفة من اتجاهات الأهالى وتعرفهم نحو حاجياتهم ومشاكلهم ، ولما كانت مساعدة المولدة هى حلقة الاتصال بين الأسرة والنواحى المختلفة للخدمات ، ولما كانت تعمل على مستوى عام دون تخصص إلا فيما يتعلق برعاية الطفولة والأمومة ، لذا انحصر دورها فى :

١ — التعرف على العوامل النفسية والاتجاهات للأهالى .

٢ — التعرف على حاجيات الأسرة .

٣ — توصيل رغبات الأهالى إلى المختصين على المستويات المختلفة .

٤ — الاشتراك مع الإخصائيين فى دراسة الحاجيات والمشاكل وتقديم الإخصائى للأسر وتتبع ما قد يضعه الإخصائى من برامج للأسرة .

٥ — إيصال البيانات التى يرغب الإخصائيين فى نشرها للأسرة وعلى الأخص فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى والتعاونى ، كما أن الاتصال المباشر بالأسرة قد يستغل فى حث الأهالى على الاشتراك الفعلى فى تكوين جماعات تعاونية منظمة .

٢ — الاتصال غير المباشر بالأسرة :

ويكون الاتصال غير المباشر عن طريق أحد الأفراد العاملين بالأسرة والمشتركين فى جماعات منظمة أو هيئات كأرباب الأسر فى الجمعيات التعاونية والأمهات فى رعاية الطفولة والأمومة والشباب فى النوادى الريفية وبنات القرية فى نشاط الاقتصاد المنزلى .

٣ — الاتصال المزدوج (المباشر وغير المباشر) :

كالاتصال بالأسرة عن طريق الأطفال فى المدارس ، فالتربية فى المدرسة تتجه نحو إعداد المواطن الصالح فى نطاق أسرته الريفية ليكون قادراً على النهوض بنفسه وبيئته .

ولكن هذا لا يتسنى إلا إذا اشترك الآباء والأمهات فى تفهم النواحى المعيشية المختلفة وذلك عن طريق مجلس الآباء والأمهات ، فمثلا لا داعى لنشر الثقافة الصحية بين الطلبة إذا كان الطفل لن يجد بين أفراد أسرته رغبة فى تغيير بعض العادات أو طرق المعيشة .

٤ ـ الخدمة على المستوى الجماعى :

ولو أن الاتصال الأساسى هو عن الأسرة إلا أن هذا الاتصال قد يظهر من المشكلات ما يحتاج لحل جماعى

وليس فرديا . ويلاحظ مما سبق أن العامل بالبيئة يخدم على مستويين ، مستوى الأسرة ومستوى الجماعة ، ويظهر ذلك بوضوح فى عدة خدمات ، فمن أمثلة خدمة الأسرة وخدمه الجماعة :

(ا) تحسين البيئة :

خصص المركز لكل قرية مساعداً صحياً يعمل مع الأسرة على تحسين البيئة الصحية للمسكن كوحدة وكذلك يعمل مع الجماعة على تحسين البيئة عامة مثل التخلص من الفضلات وأكوام السباخ ونظافة "[illegible]" .

كما يعمل عن طريق الجماعات المنظمة على رفع المستوى الصحى للقرية ومكافحة الأمراض المتوطنة كالبلهارسيا مثلا .

(ب) الثروة الزراعيه والحيوانية .

وفى حـــدود الإمكانيات خصص المركز مساعد مهندس زراعى لكل وحدتين فرعيتين يعمل على مستوى الأسرة فى حصر حيازتها ، وملكيتها الزراعية ، وحصر الثروة الحيوانيه وتقديم المعونة الفنيه لكل أسرة طبقاً لاحتياجاتها لزيادة الإنتاج ورفع دخلها .

كما يقوم بتأديه خدمات عن طريق الجماعة فى مكافحة الآفات الزراعية وتوفير البذور النقيه والأسمدة . . . الخ وذلك عن طريق الجمعيات التعاونية والجماعات المنظمة الأخرى .

تنظيم وتحسين الخدمات :

لما كانت للأسرة حاجيات متعددة لا يمكن مواجهة كل واحدة منها على حدة أو إشباع البعض دون الآخر ، بل وجب أن توضع فى إطار موحد يتكيف بالعوامل المؤثرة فى إمكانيات إشباع الحاجيات المختلفة وعلى مدى تمثيل حاجيات الأسرة لمطالب المجتمع .

وتمشياً مع سياسه المركز فى تقديم جميع الخدمات العامه فى برنامج زمنى موحد لتيسير مشروعات الإصلاح الصحى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى جنباً إلى جنب حتى تأتى بالغرض المقصود منها وضغط تكاليف إنشاء منشآت الخدمات العامه بالاقتصار على الضرورى منها حسب حالة كل منطقة واحتياجات سكانها وإشراك الأهالى فى مشروعات الإصلاح وحثهم على المساهمة فى النفقات . فقد رئى أن تقوم تجربه وحدة الخدمات العامه على أساس أن تخدم « ٤٥٠٠٠ » نسمه

وبعد تطبيق هذا النظام لمدة عامين ثبت من تقديمه أنه أدى إلى النتائج الآتيه :

١ — تركيز إدارة الخدمات العامه فى نفس المنطقه .

٢ — تدريب الأهالى على حل مشاكلهم بأنفسهم .

٣ — الاقتصـــاد فى تكاليف الإنشاء والخدمات .

٤ — تعميم الوحدات الفرعيه بالقرى عن طريق الجمعيات الأهليه المنتشرة بها .

٥ — تبسيط الإجراءات وتركيزها فى المنطقه دون الرجوع للإدارة المركزيه .

٦ — مساهمه الأهالى فى تكاليف الإدارة والإنشاء .

٧ — الانتفاع المباشر للأهالى بالخدمات .

ولا شك أن هـذا النظام لو عمم على نطاق واسع سيكون له أثره الفعال فى النهوض بالأسرة التى هى الوحدة الأساسيه للمجتمع .

309.56
J32hA

309.56:J32hA:v.6:pt.1:c.1
جامعة الدول العربية. الامانة العامة
حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العرب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01014311

AUB Libraries